الإنسيكلوبيديا العلوية

محمد سعيد الطريحي

الجزء التاسع

أكاديمية الكوفة
هولندا

الانسكلوبيديا العلوية

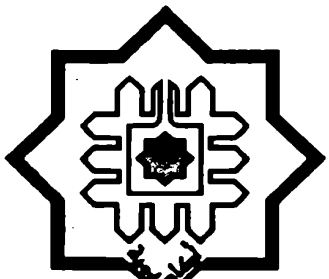
موسوعة علمية فكرية أدبية

حول سيرة ومسيرة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

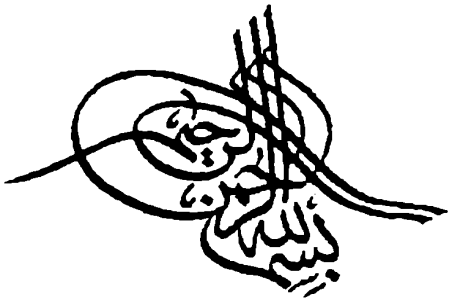
صدرت بمناسبة ذكرى مرور أربعة عشر قرناً على اتخاذ الإمام مدينة الكوفة
عاصمة للعالم الإسلامي
٣٦ - ١٤٣٦هـ - ٦٥٦ - ٢٠١٥م

تأليف
نخبة من العلماء والمفكرين والكتاب والأدباء

رئيس التحرير
محمد سعيد الطريحي



أكاديمية الكوفة
هولندا (سنة ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م)



اللهم يسر وتمم

وصل على نبي خير الأمم

وعلى وصيه الحيدر الكرار

فتى نهج البلاغة وذي الفقار

وعلى آله الميامين

وأوليائهم المصابرين

الموسم

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

الكوفة
Kufa Academiy

أكاديمية الكوفة

هولندا

المراسلات

KUFAACADEMY P.O.Box: 1113

3260 AC Oud-beijerland - The Netherlands

e-mail: saltouraihi@yahoo.com

www.almawsem.org

قال سيد البلغاء وإمام الأتقياء علي بن أبي طالب (ع)



المكتبة الملكية ـ لاهاي ISSN 13842772

يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعامات ورقية أو عبر الحاسبات
لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء منها، بغير إذن كتابي مسبق من الناشر

المونيتور

لصاحبها محمد سعيد الطريحي

حدها

سعد هدب الحهنس

فهرس

❖ القيم الأخلاقيّة في تراث الإمام عليّ وأهل البيت (عليهم السّلام)

..... الشيخ يوسف محمد عمرو ١١

❖ أفكار وصفات وسمات الإمام علي عليه السلام

..... أ. نور عماد حسن الموسوي

..... أ. م. صباح كامل عرموط ٢١

المبحث الأول: الإمام علي حياته وآثاره ٢١

المبحث الثاني: أفكاره وعلومه ٣١

❖ بطولة علي بن أبي طالب.... د. زكي المحاسني ٤٤

❖ الإمامة وحقوق الأقليات الدينية: الإمام علي (عليه السلام) أنموذجاً ..... م. د. خولة مهدي شاكر الجراح ٤٧

المبحث الأول: المفهوم اللغوي والاصطلاحي لمفردات العنوان: (الإمامة، الحق، الأقليات)..... ٤٩

المبحث الثاني: المنظور الإسلامي للأقليات الدينية - الإمام علي (عليه السلام) أنموذجاً ٥٢

❖ الإحالات السياقية والمناظرات الفكرية في تفسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)..... أ. م. د. نضال حنش شبار حبيب الساعدي ...٦٥

المبحث الأول: أثر السياق في الإحالات القرآنية والنصوص العلوية ٦٨

المبحث الثاني: التشابه السياقي ٧٠

المبحث الثالث: دلالة الدعاء بالإحالة القرآنية ٧٢

المبحث الرابع: الإحالات السياقية في احتجاجات ومناظرات أمير المؤمنين (ع) ٧٥

المبحث الخامس: السياق التكاملي في إحالات أمير المؤمنين (ع) التفسيرية ٧٧

❖ التفكير الإبداعي في قضاء الإمام علي (ع)

..... د. سيف طارق حسين العيساوي ٨٢

❖ التنشئة الأسرية في فكر الإمام علي (ع): (رؤية معاصرة)

..... م. م. عقيل رشيد عبد الشهيد الأسدي

..... م. م. رشا حسين عبد الكاظم الركابي ٩٧

❖ النَّصْبُ والنَّواصب عند علماء العامة

..... السيد محمود المُقدّس الغُريفي ١١٥

❖ فضل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)

من أمالي الشيخ الإمام العالم الحافظ تقي الدين أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بنِ عبد الله الشافعي المعروف بابن عَسَاكر

..... عُني بنشرِها محمد سعيد الطريحي ١٦٩

❖ الغدير: نهاية وبداية .... د. رزاق عبد الأمير مهدي الطيَّار ١٧٧

المبحث الأول: الإعداد الإلهي للخليفة ١٨٠

المبحث الثاني: التتويج الإلهي للخليفة ١٨٦

المبحث الثالث: مسؤولية الأمة ١٩٢

❖ الإمام علي ذلك المسلم الكوني

..... د. بيان عبيد العريض ١٩٧

المبحث الأول: خصائص الإمام علي (ع) الخاصة ١٩٧

المبحث الثاني: خصائص الإمام علي (ع) العامة ٢٠١

❖ الإمام علي في تفسير الألوسي

..... نجم عبد الرضا الدراجي ٢٠٦

❖ الخطاب الاجتماعي في نهج البلاغة

..... د. خالد حوير الشمس ٢٤١

❖ تأملات قانونية في رسالة القضاء للإمام علي (ع)

..... أ. د. عباس زبون العبودي ٢٥٦

المبحث الأول: صفات وشروط اختيار القاضي في رسالة الإمام علي (ع) ٢٥٧

المبحث الثاني: ضمانات التقاضي عند الإمام علي (ع) ٢٦٤

❖ أساليب الخطاب عند أمير المؤمنين (ع) في الرد على خصومه

..... د. عقيل جاسم دهش ٢٧٥

❖ الإمام علي (عليه السلام) القدوة الصالحة

..... م. د. زهراء رؤوف جواد الموسوي

..... أ. عرفة عباس ٢٩٤

❖ الولاية التكوينية عند الإمام علي بن أبي طالب (ع): دراسة تحليلية في النصوص القرآنية والأحاديث. د. صادق فوزي العبادي ٣١٣

❖ المقولات الديموغرافية والاقتصادية في منهج الإمام علي (ع)

..... د. ياسين الخليفة ٣٢٨

❖ نهج البلاغة في مرآة القرآن . أ. د. عمر موسى باشا ٣٤٢

❖ علي والعدالة الإنسانية..... م. م. خليل إبراهيم الشوكي ٣٥٧

❖ حول أصالة نهج البلاغة ..... إياد الحسيني ٣٨١

❖ تضمين الآيات القرآنية النازلة في الإمام علي (ع) في خطبة الغدير لرسول الله (ص)..... م. م أحمد جاسم ثاني الركابي ٣٨٧

❖ صور إحياء البيعة الغديرية وأبعادها الزمنية والاحتفالية
..... د. حميد سراج جابر ٣٩٧
❖ صيانة الحريات في حكومة الإمام علي (عليه السلام)
..... نبيل محسن ٤٠٨
❖ نظرية السجن الإصلاحي في فكر الإمام علي بن أبي طالب (ع)
..... علي سعد عمران ٤١٩
❖ العدالة سمة السياسة المالية العامة عند أمير المؤمنين الإمام علي بن
أبي طالب (ع) ..... د. عفيف الصندوق ٤٢٣
❖ الروايات الشامية لوقعة صفين: قيمتها التاريخية وموقف
المؤرخين منها ..... أ. د عمار عبودي نصار ٤٢٧
❖ السّياسة العَلَويَّة السّلْمِيّة (دِرَاسَةٌ تَحْلِيْلِيَّةٌ)
..... د. الشيخ عَبّاس كَاشِف الغِطَاء ٤٤٨
❖ العلوم ودلالاتها عند الإمام علي (ع): (المغيبات أنموذجاً)
..... الشيخ طه العبيدي ٤٦٤
❖ بَيعَة الغَدير في شِعرِ جَبل عَامل: (الشاعرُ إبراهيم بن يَحيى العاملي
اخْتِياراً) ..... د. حسين لفته حافظ
..... د. عواد كاظم ٤٨٣
❖ عدالة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) من خلال عهده لمالك
الأشتر (رض) ..... د. كفاية طارش العلي ٤٩٧
❖ تلازم المنطق والجمال في خطبة الجهاد للإمام علي (ع):
قراءة معاصرة ..... أ. د. حامد ناصر الظالمي ٥١٨

❖ التوجيهات التربوية من بيان حقوق الرعية في حكومة الإمام علي (عليه السلام) ..... أ. م. د. أحمد علي صكر

..... د. ضرار خليل حسن ٥٢٨

❖ كيف أصبح ابن أبي طالب علياً وسراً إلهياً؟

..... د. عبد علي سفيح ٥٤٥

❖ أدوار تنصيب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) الخلافة

..... أ. د. علي صالح رسن المحمداوي ٥٥١

❖ الإمام علي (ع) واختياره للكوفة كمركز لخلافته

..... د. إيمان سالم الخفاجي ٥٦٦

❖ رأي حول نهج البلاغة..... أ. د. لورة فيتشيا فالييري..... ٥٩٠

علي بن أبي طالب في العلم والأسطورة والتعاليم

..... وضعه محمد سعيد الطريحي ٥٩٩

❖ الملاحم العلوية في أدب الألخميادو: الإمام علي في السِيَر الشعبية الموريسكية..... د. صلاح فضل ٦١٦

❖ مكانة الإمام علي (عليه السلام) وبطولته في عيون العلماء وقلوب أهل العامة في الأندلس..... أ. د. محمد بشير حسن راضي العامري ٦٣٣

❖ من الملاحم العلوية الأسطورية عند الموريسكيين:

(١) قصة علي والصبايا الأربعين ٦٥٢

(٢) حديث قصر الذهب وقصة الثعبان مع علي بن أبي طالب (ع) ٦٥٩

(٣) معركة الأشيب بن حنقر ٦٦٩

(٤) معركة الملك المهلهل بن الفياض ٦٧٦

❖ من أقاصيص الميثولوجيا العلوية:

(١) غزوة مدينة تكريت ٦٩٨

(٢) ملحمة خاورنامه الأسطورية في بطولة الإمام علي (ع) لابن حسام خوسفي المتوفى سنة (٨٧٥هـ-١٤٧٠م)

..... د. أمين عبد المجيد بدوي ٧١١

(٣) قصة رهبان النصارى مع الإمام علي (عليه السلام) ٧٢٦

(٤) حلال المشاكل أو قصة عبد الله الحطاب ٧٣٤

(٥) غزوة الإمام علي (ع) لبلاد الهضام ابن الجحاف وقطعه الحصون السبعة..... أبي الحسن أحمد بن

عبدالله بن محمد البكري ٧٤٢

❖ من سرايا الإمام برواية الواقدي:

محمد بن عمر بن واقد المتوفى سنة ٢٠٧هـ ٧٧٦

سريّة عليّ بن أبي طالب (ع) إلى بني سعد، بفَدَك في شعبان سنة ست ٧٧٩

سريّة عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى الفلُس في ربيع الآخر سنة تسع ٧٨٠

سريّة عَلي بن أَبي طالب (ع) إِلى اليمن ٧٨٣

❖ الخرافات والأساطير في عاشوراء... السيد جعفر مرتضى العاملي ٧٨٦

❖ الإمام علي (ع) يدعو الجن إلى الإسلام بأمر الرسول (ص)

..... الحافظ أبي القاسم

.....علي بن الحسن الشافعي ٧٩٦

❖ الخيرُ العميم ..... حبيب عبد الحميد الهلالي ٧٩٨

❖ باب الله ..... د. مجيد عبدالحميد ناجي ٧٩٩

القيم الأخلاقيّة في تراث الإمام عليّ وأهل البيت (عليهم السّلام)

الشيخ يوسف محمد عمرو (جبيل – لبنان)

أ ـ الصدق هو المفتاح:

الحديث عن القيم الأخلاقيّة من خلال التراث الفكريّ والعمليّ للإمام عليّ بن أبي طالب وأهل البيت (عليهم السّلام)، مفتاح معرفته الصدق والموضوعيّة عند الباحث، أو الأديب أو المحقق. والصدق هو الميزان والمقياس الصحيح عندهم في معرفة الله تعالى، والعمل بطاعته، بل في استنباط أحكامه عزَّ وجل ومعرفتها وتطبيقها ودعوة النّاس إليها بالحكمة والموعظة الحسنة.

والصدق في سيرة حياتهم وتأديبهم لتلامذتهم وشيعتهم من خلال أعمالهم قبل أقوالهم. ومن خلال دفعهم للإساءة إليهم بالعفو والإحسان. تقرباً إلى الله تعالى. وهذا ما لاحظه توماس بين في حياة عظماء التاريخ حيث قال:" عندما يكون الإنسان مُلتزماً بشكل قوي بالاعتقاد بالله فإن حياته الأخلاقيّة تكون مُنّظمة بقوة على أساس هذا الاعتقاد"[١].

ويؤكد ما قاله توماس بين ما جاء في تفسير قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (التوبة: ١٩). أنّها نزلت في حقِّ النبيّ وعليٍّ والأئمة من أهل البيت (عليهم أفضل الصلاة والسّلام).

فعن كتاب "ينابيع المودة" للقندوزيّ الحنفيّ قال: "أخرج موفق بن أحمد الخوارزمي عن أبي صالح عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما)، قال: الصادقون في هذه الآية مُحمّد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأهل بيته.

أيضاً أبو نعيم الحافظ والحمويني أخرجاه عن ابن عبّاس بلفظه. أيضاً أبو نعيم وصاحب المناقب أخرجا عن الباقر والرضا (رضي الله عنهما) قالا: "الصادقون هم الأئمة من أهل البيت"[٢].

كما أخرج الموفق بن أحمد بن محمد المكيّ الخوارزميّ في المناقب بإسناده عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ **قال: هو عليّ بن أبي طالب (عليه السّلام)**[٣].

كما أخرج أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٢٣). قيل نزل قوله تعالى:

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ في حمزة وأصحابه، كانوا عاهدوا الله لا يولون الأدبار، فجاهدوا مُقبلين حتى قُتلوا، و ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ عليّ بن أبي طالب (عليه السّلام)، مضى على الجهاد ولم يبدل ولم يُغيّر[٤].

كما أخرج القندوزيّ الحنفيّ في الفصل الثاني عشر من كتابه "ينابيع المودّة" أحاديث كثيرة عن أصحاب الصحاح وغيرهم من الكتب المعتبرة تحت عنوان: "سبق إسلام عليّ كرّم الله وجهه" منها: "عن ابن المغازليّ والحمويني أخرجا بسنديهما عن أبي أيوب الأنصاري، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) **صلّت الملائكة عليّ وعلى عليٍّ سَبع سنين لأنّه لم يكن من الرجال غيره**".

وعن ابن ماجة القزوينيّ وأحمد في مُسنده وأبو نعيم الحافظ والثعلبيّ والحمويني أخرجوا جميعاً بإسنادهم عن عبّاد بن عبد الله قال: قال عليٌّ: "**أنا عبد الله وأخو رسول الله وأنا الصدّيق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كذّاب. ولقد صلّيت قبل النّاس سبع سنين**"[٥].

ومعرفة هذا المفتاح هو الباب لمعرفة القيم الأخلاقيّة في تراث الإمام عليّ وأهل البيت (عليهم السّلام)، وهذا ما يعرفه كل مُسلم عاقلٍ صادقٍ غير متأثرٍ بالعصبيّة والحزبيّة وسيرة الآباء والأجداد، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الزمر: ٣٢ ـ ٣٣).

وقد جاء في تفسير شُبّر ما خلاصته: "أنّ الصدق هو القرآن الكريم والذي جاء به هو مُحمّد (صلى الله عليه وآله وسلم)، والذي صدّق به هو وأتباعه لقوله تعالى:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[٦]".

والصدق عند محمد وآل محمد يعرفه الأحرار من رجالات الإنسانيّة والأدب والعلم. فهذا الأديب اللبنانيّ الكبير ميخائيل نعيمة يقول في تقديمه لموسوعة الأستاذ جورج جرداق والتي تحمل عنوان "الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانيّة": "لنا في حياة العظماء مُعينٌ لا ينضب من الخبرة والعبرة والإيمان والأمل. فهم القممُ التي نتطلّع بشوق إليها ولهفة، والمنارات التي تكسّح الدياجير من أمام أرجلنا وأبصارنا. وهم الّذين يجدّدون ثقتنا بأنفسنا وبالحياة وأهدافها البعيدة السعيدة. ولولاهم لتولاّنا القنوط في كفاحنا مع المجهول. ولرفعنا الأعلام البيض من زمان وقلنا للموت: نحن أسراك وعبيدك يا موت. فافعل بنا ما تشاء.

إلاّ أننا ما استسلمنا يوماً للقنوط، ولن نستسلم. فالنصر لنا بشهادة الّذين انتصروا منّا. وابن أبي طالب منهم. وهم معنا في كل حين، وإن قامت بيننا وبينهم وهدات سحيقة من

الزمان والمكان. فلا الزمان بقادر أن يخنق أصواتهم في آذاننا، ولا المكان بماحٍ صورهم من أذهاننا.

وهذا الكتاب الذي بين يديك خير شاهد على ما أقول. فهو مكرّس لحياة عظيم من عظماء البشريّة، أنبتته أرض عربيّة ولكنها ما استأثرت به. وفجرت ينابيع مواهبه الإسلام، ولكنه ما كان للإسلام وحده. وإلاّ فكيف لحياته الفذّة أن تُلهب روحَ كاتبٍ مسيحيّ في لبنان، وفي العام ١٩٥٦، فيتصدّى لها بالدرس والتمحيص والتحليل، ويتغنّى تغني الشاعر المتيّم بمفاتنها ومآثرها وبطولاتها؟[٧]".

ويقول الشاعر اللبناني الكبير بولس سلامة في ملحمته عيد الغدير:

" يـا أمـيرَ الإسـلام حسبي فَخـراً أنـني مِنـكَ مالـيَ أصغريَّـا
جلجـلَ الحـقُّ فـي المسيحي حتـى عُـدَ مـن فـرطِ حُبِّـهِ علويّـا
أنـا مـن يَعـشقُ البطولَـة والألـ ـهـامَ والعـدلَ والخـلاق الرضـيّ
فـإذا لـم يكـن عليٌّ نبيّـاً فلقـد كـان خُلقُـهُ نبويـا..[٨]"

فصدقية تراث القيم الأخلاقيّة عند الإمام عليٍّ بن أبي طالب (عليه السّلام)، وسيرته العظيمة وهداه الكريم، هي أقوى من الموت بل هي أجمل ما في الحياة. بل هي التي تُحببُّ لنا الحياة وتجعلنا نعشقها ما دام رائدنا في هذه الحياة هو الإمام عليٍّ بن أبي طالب صوت الصدق والحقّ والعدالة الإنسانيّة في تاريخ وحاضر البشريّة. حيث يأخذ بيد عاشقيه ومحبيه نحو العزّة والكرامة في الدنيا والآخرة. **وقد قال حفيده الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليهما السّلام)، عندما سأله رجل أن يعلمه ما ينال به خير الدنيا والآخرة ولا يطوّل عليه!. قال (عليه السّلام): "لا تكذب"**[٩]. تحف العقول... ص٢٦٢.

فالصدق عند عليٍّ وأهل البيت (عليهم السّلام)، هو الصراط المستقيم للحياة الفاضلة في الدُنيا والآخرة. والكذب هو الباطل والضلال في الدُنيا والآخرة.

ب - الصدق والعدل هما الصراط المستقيم:

لو راجعنا سيرة الإمام عليّ بن أبي طالب وأهل البيت (عليهم السّلام)، وهديهم وتعاليمهم وأقوالهم لوجدناهم الصراط المستقيم للمسلمين. وأمان الله تعالى والعدالة والخير والسلام للإنسانيّة. وسوف نستشهد على ذلك بحديثين لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، أخرجهما مُحبُّ الدين الطبريّ في ذخائره عن عُمر بن الخطاب **"أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، قال: في كل خلوف من أُمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدّين تحريف المغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، ألا وإنّ أئمتكم وفدكم إلى الله عزّ وجل فانظروا بمن توفدون"**. أخرجه الملا[١٠].

وأخرج أيضاً في ذخائره عن زيد بن أرقم قال: "**قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض.** أخرجه أحمد في المناقب"[١١].

ويقول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السّلام)، في الجزء الرابع من نهج البلاغة في الكلمة رقم: ٤٥٢: "**الإيمَانُ أَنْ تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ عَلَى الْكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ وَأَلاَ يَكُونَ فِي حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عَمَلِكَ وَأَنْ تَتَّقِيَ اللَّهَ فِي حَدِيثِ غَيْرِكَ**"[١٢]، أي أنّه يجب على المؤمن أن يكون الصدق شعاره وهدفه ونهجه في الحياة من خلال أعماله وأقواله وشهادته على الغير وروايته عنهم. وأن لا يقول أزيد ممّا يفعل، وأن لا تكون مجالسه للغيبة والنميمة وفضول الكلام. وأن يؤثر الصدق على الكذب حتى لو أضرّه ذلك لأنّ الحق أحقٌّ بالإتباع...

وجاء في الكلمة رقم: ١١١ قوله (عليه السّلام): "**لا يقيم أمر اللهِ سبحانه إلاّ من لا يُصانع ولا يُضارع، ولا يتّبع المطامع**"[١٣].

وتأكيداً على العدل في المجتمعات الإسلاميّة والإنسانيّة يجب أن يتصف أي إنسان يتصدى للمسؤوليّة أن لا يصانع: أي لا يداري أحداً في تطبيق الحق ويتقيه. ولا يُضارع: أي لا يقتدي بعمله بأهل الباطل الّذين اتخذوا من مراكز عملهم مصدراً للاستعلاء على النّاس وأخذ الرشوة والفساد والإفساد في الأرض.

ولا يتبع المطامع أي لا يكون هدفه من تحمله للمسؤولية الميل مع عصبيته وقومه وهواه الحزبي، لأنَّ في هذا ضياعاً لحقوق النّاس في هذه الحياة.

وجاء في الكلمة رقم: ٨١ قوله (عليه السّلام): "**قيمة كُل امرئٍ ما يحسنه**" وقال الشريف الرَّضي مُعقباً على هذه الكلمة:" وهذه الكلمة التي لا تُصابُ لها قيمة، ولا توزَنُ لها حكمة، ولا تقرنُ إليها كلمة[١٤].

ومعنى هذا أن يُحترم كل إنسان في هذه الحياة على مقدار معرفته وعلمه وصدقه في تعامله مع النّاس وعطائه وخدماته للنّاس. ولا يكون الاحترام والتقدير من خلال انتمائه القبلي أو القومي أو الطائفي أو الحزبي أو السياسي أو لثروته وماله أو لدرجة وظيفته. ومعنى هذا أنَّ يضع المجتمعُ الصالحُ الرجلَ المناسب في المكان المناسب ولا يعيرُ للأمور الأخرى أدنى اهتمام.

وجاء في الكلمة رقم: ٧٣ قوله (عليه السّلام): "**مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَلْيَبْدَأْ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالإِجْلاَلِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ**"[١٥].

لأنّ النّاس ينظرون إلى سيرة الإمام قبل أقواله. والإمام الذي تتناقض أقواله مع أعماله يكون مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ٤٤).

ج - الصدق هو ميزان العدالة!

وجاء في وصيّة الإمام عليّ لولده الحسن (عليهما السّلام): "**يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الأَلْبَابِ، فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ، وَلاَ تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ**"[١٦].

وهذه الكلمات مصداقاً لقول الله تعالى في سورة الرحمن:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾ (آية: ٧ - ٨ - ٩).

حيث نرى عدالة الله تعالى موجودة ومبثوثة في جميع ما خلق ونظّم عزّ وجل بداية من الذرة وانتهاءً بالمجموعات الشمسيّة. ولا نجد الظلم إلاّ في سيرة الإنسان نحو أخيه الإنسان. ولا نستطيع القضاء على هذه الظاهرة الخطيرة إلاّ بالتربيّة الصادقة الصحيحة على العدالة. حيث توجه أمير المؤمنين (عليه السّلام) في هذه الوصيّة لولده الحسن (عليه السّلام)، والمقصود بهذه الوصيّة الأُمّة الإسلاميّة وهي أن يجعل الإنسان نفسه ميزاناً بينه وبين غيره فيحب لغيره ما يُحبُّ لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، ولا تَظلم كما لا تحب أن تُظلم. وأن يستقبح من نفسه ما يستقبح من غيره وأن يرضى من النّاس ما يرضاه لغيره ولا تقل ما لا تحبّ أن يقال لك.

ويقول ابن مسكويه في كتابه: "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" شارحاً الفضائل التي تنطوي تحت العدالة وهي: "الصداقة، الألفة، المكافأة، حسن الشركة، حُسن القضاء، التودد، العبادة، ترك الحقد، مكافأة الشر بالخير، استعمال اللطف، ركوب المروءة في جميع الأحوال، ترك المعاداة، ترك الحكاية عمن ليس بعدل مرضي، البحث عن سيرة من يحكي عنه العدل.

ترك لفظة واحدة لا خير فيها لمُسلم فضلاً عن حكاية توجب حداً أو قذفاً أو قتلاً أو قطعاً، ترك السكون إلى سفلة النّاس وسقطهم"[١٧].

ثم شرح كلامه بالتفصيل وكأنّه بذلك يشرح الكلمات الآنفة الذكر التي جاءت في وصيّة أمير المؤمنين لولده الحسن (عليهما السّلام).

ويؤكد ما تقدم حفيده الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليهما السّلام)، في بعض كلماته بقوله: "**من أنصف النّاس من نفسه رُضي بهِ حكماً لغيره**"[١٨].

أي أن الإنسان الذي جعل من نفسه ميزاناً ما بينه وبين سواه وطبّق وصيّة أمير المؤمنين لولده الحسن(عليهما السّلام)، الآنفة الذكر أصبح بذلك مؤهلاً لثقة النّاس في الرئاسة ولتحمل المسؤوليّة في القضاء والحكم والحكومة بين النّاس.

ثُمّ اختصر الإمام جعفر بن مُحمّد الصادق (عليهما السّلام)، ما تقدَّم حول التراث الفكري والعملي للقيم الأخلاقيّة عند أهل البيت (عليهم السّلام)، بهذه الوصيّة الصغيرة للمفضّل بن عُمر الجعفي حيث قال له: "**أوصيك بست خصال تبلّغهن شيعتي. قلت: وما هن يا سيدي؟**".

قال (عليه السّلام): "**أَداءُ الأمانةِ إلَى من ائتَمَنَكَ، وَأن تَرضى لأَخيكَ مَا تَرضَى لِنَفسِكَ، واعلَم أنَّ للأُمُور أَوَاخِر، فَاحذَرِ العَواقِبَ، وأنَّ للأُمُور بَغتَاتٍ، فَكُن عَلَى حَذَرٍ، وَإيَّاكَ وَمُرتَقَى جَبَلٍ سَهلٍ إذا كَانَ المُنحَدَرُ وَعراً، وَلا تَعِدنَّ أخَاكَ وَعداً لَيس في يَدِك وَفَاؤُهُ**"[١٩].

وكان أمير المؤمنين (عليه السّلام)، أيام حكومته يطوف في أسواق الكوفة سوقاً سوقاً ويعظ التجار بقوله: "**يا معشر التجار قدّموا الاستخارة وتبرّكوا بالسهولة واقتربوا من المبتاعين، وتزينوا بالحلم وتناهوا عن اليمين وجانبوا الكذب وتجافوا عن الظلم، وأنصفوا المظلومين ولا تقربوا الربا** ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (هود: ٨٥)"[٢٠].

لذلك نرى أن الكثير من التجار المسلمين من أبناء الكوفة والعراق من شيعة عليٍّ (عليه السّلام)، ومحبيه من أهل التصوف قد تأدبوا بتلك الآداب والأخلاق وساروا عليها. واعتبروها ميثاقاً وشعاراً لهم في الحياة. حيث قاموا بعدها بالدعوة إلى الإسلام في شبه الجزيرة الهنديّة وفي الإمبراطوريّة الصينيّة وفي جزر الأرخبيل الأندونيسي وفي شرق أفريقيا وغيرها من أمصار أيام الأمويين والعباسيين من خلال آدابهم وأخلاقهم وتعاملهم مع تلك الشعوب بالعدل والرحمة والإحسان وتركهم للكذب والغش والخداع وأكلهم للسحت.

وأمّا الحديث عن مواعظه وكتبه ووصاياه (عليه السلام)، لقادة جيوشه ولولاته في الأمصار وأمره لهم بالصدق والعدل والرحمة فحديث طويل يحتاج إلى تصنيف كتاب خاص بذلك.

د - الوفاء بالعهد:

الوفاء بالعهد والميثاق هو سُنّة نبيّنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وسُنّة آل محمد (عليهم أفضل الصلاة والسّلام)، قال الله تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النحل: ٩١).

كما أنّ من أعظم صفات نبيّنا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، الصدق والأمانة وَحُسن الخلق والرحمة والإحسان والعفو عن النّاس وقد ورد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم)، أحاديث كثيرة في ذلك منها: "**يُطبع المؤمن على كل خصلة ولا يُطبع على الكذب ولا على الخيانة**"[٢١].

ومما جاء في وصيته (صلى الله عليه وآله وسلم)، لمُعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن: "**وأوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة، ولين الكلام وبذل السلام، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، وحسن العمل، وقصر الأمل، وحبّ الآخرة والجزع من الحساب، ولزوم الإيمان والفقه في القرآن، وكظم الغيظ وخفض الجناح**"[٢٢].

كما جاء عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليهما السّلام)، أنّه قال: "**المنافق إذ حدَّث عن الله ورسوله كذب، وإذا وعد الله ورسوله أخلف وإذا ملك خان الله ورسوله في ماله**"، وذلك قول الله عزّ وجل: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (التوبة: ٧٧). وقوله تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٧٢)"[٢٣].

فالوفاء بالعهد والالتزام به وحفظ الأمانة وعدم التفريط بها والصدق والعدالة مع النّاس ليست مجرد شعارات يراد بها إضلال النّاس وكسب ودهم وتصفيقهم بل هي ميثاق الحياة الفاضلة في الأرض وعنوان صحيفة المؤمن يوم القيامة وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة منها:

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليهما السّلام): "**ثلاث لم يجعل الله لأحد من النّاس فيهن رخصة: برّ الوالدين برين كانا أو فاجرين. ووفاء بالعهد للبرّ والفاجر. وأداء الأمانة إلى البرّ والفاجر**"[٢٤].

ومن كلام للإمام عليّ (عليه السّلام)، حول الفرائض جمع فيه مكارم الأخلاق التي يحصل عليها المؤمن من خلال تأديته لهذه الفرائض العظيمة التي يحتاجها النّاس. وانعكاس ذلك على المجتمع في الجزء الرابع من نهج البلاغة الكلمة رقم: ٢٥٤: "**حيث قال (عليه السّلام): فَرَضَ اللَّهُ الإيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ الشِّرْكِ والصّلاةَ تَنْزِيهاً عَنِ الْكِبْرِ والزَّكَاةَ تَسْبِيباً لِلرِّزْقِ والصِّيَامَ ابْتِلاءً لإِخْلاصِ الْخَلْقِ والْحَجَّ تَقْرِبَةً لِلدِّينِ[٢٥] والْجِهَادَ عِزّاً لِلإِسْلامِ والأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوَامِّ والنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ رَدْعاً لِلسُّفَهَاءِ وصِلَةَ الرَّحِمِ مَنْمَاةً لِلْعَدَدِ[٢٦] والْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ وإِقَامَةَ الْحُدُودِ إِعْظَاماً لِلْمَحَارِمِ وتَرْكَ شُرْبِ الْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ ومُجَانَبَةَ السَّرِقَةِ إِيجَاباً لِلْعِفَّةِ وتَرْكَ الزِّنَى تَحْصِيناً لِلنَّسَبِ وتَرْكَ اللِّوَاطِ تَكْثِيراً لِلنَّسْلِ والشَّهَادَاتِ اسْتِظْهَاراً عَلَى الْمُجَاحَدَاتِ[٢٧] وتَرْكَ الْكَذِبِ تَشْرِيفاً لِلصِّدْقِ والسَّلامَ أَمَاناً مِنَ الْمَخَاوِفِ والأَمَانَةَ نِظَاماً لِلأُمَّةِ[٢٨] والطَّاعَةَ تَعْظِيماً لِلإِمَامَةِ**".

ومن خلال ما تقدم يبيّن لنا الإمام عليّ (عليه السّلام)، حاجة النّاس إلى هذه الفرائض وإقامتها وضرورة الانتهاء عن المحرّمات والموبقات التي من خلالها يعيش النّاس السعادة في الدّنيا قبل الآخرة. وتكون جواز عبورهم إلى رحمة الله ورضوانه.

ويقول الإمام جعفر بن مُحمّد الصادق (عليهما السّلام): **"بِرّوا آباءَكم يبرُّكم أبناؤكم. وعفّوا عن نساء النّاس تعفُّ نساؤكم.**

وقال (عليه السّلام): **من ائتمن خائناً على أمانة لم يكن له على الله ضمان"**[٢٩].

فالإنسان الذي يكون باراً بحقّ والديه ويترك التحرش الجنسي والزنا بأعراض النّاس يكون مثلاً أعلى لأبنائه في البرّ والإحسان. ولنسائه في الحياء والعفة.. كذلك ينبغي للمؤمن أن لا ينخدع بالمظاهر ويتخذ من الخونة أعواناً ومساعدين له.

هـ - بعض صفات رجال الدولة العادلة:

وخاتمة هذا البحث سوف نتكلم باختصار شديد، حول بعض صفات رجال الدولة العادلة كما وردت في كتاب "تُحَفُ العقول" عن الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليهما السّلام)، والتي يُحافظ بها على حقوق الإنسان في الحياة الكريمة وعلى الأمن والخير والمصلحة العامّة. حيث قال (عليه السّلام): من كلام طويل في صفات الملوك والرعيّة:

"أفضل الملوك من أُعطي ثلاث خصال: الرأفة والجود والعدل.

وليس يجب للملوك أن يفرطوا في ثلاث: في حفظ الثغور، وتفقد المظالم، واختيار الصالحين لأعمالهم.

ثلاث خلالٍ تجب للملوك على أصحابهم ورعيتهم: الطاعة لهم. والنصيحة لهم في المغيب والمشهد. والدعاء بالنصر والصلاح.

ثلاث تجب على السلطان للخاصة والعامة: مكافأة المحسن بالإحسان ليزداد رغبة فيه. وتغمّد ذنوب المسيء ليتوب ويرجع عن غيه. وتألفهم جميعاً بالإحسان والإنصاف. إلى أن يقول (عليه السّلام): ثلاثة أشياء يحتاج النّاس طرّاً إليها: الأمن والعدل والخصب"[٣٠].

وفي هذه الكلمات القصار جمع الإمام الصادق (عليه السّلام)، المزايا والخصال الحميدة التي يجب أن **تتصف بها الحكومة المدنية ومليكها الصالح وهي:**

١ - الرأفة والرحمة بالنّاس.

٢ - العدل في الأحكام ومحاربة الفساد من رشوة ومحاباة ونحو ذلك من أسباب الفساد ونشر الأمن في البلاد.

٣ - الكرم والجود في دفع حقوق الأيتام والفقراء وتشجيع طلبة العلوم والحثّ على الإبداع والفنون في ذلك.

كما يجب أن لا يفرّط الملك الصالح:

١ - بحفظ الثغور والحدود مع الأعداء وتجهيز وتعبئة الجيوش والسهر على ذلك.

٢ - وأن يستمع لصوت المظلومين والمستضعفين والتحقيق في ذلك وأن يكون العدل هو الرائد والغاية في هذا.

٣ - وأن يختار الملك الصالح أهل الصلاح والعدالة كمستشارين وموظفين وعمال في مملكته من أهل السابقة في النزاهة والعفة، أو أن يختار النّاس لهم من يمثلهم ممن يتمتع بالنزاهة والشرف في الحكومة.

كما يجب على النّاس أن يقابلوا مليكهم الصالح وحكومته الصالحة بما يلي:

١ - المحافظة على النظام العام والطاعة.

٢ - النصيحة له في السرِّ والعلن من خلال الشورى أو نحو ذلك كديوان المظالم وغيره.

٣ - الدعاء للملك الصالح ولحكومته بالنصر والتوفيق.

كما يجب على الملك الصالح وحكومته الصالحة تجاه رعاياهم:

١ - مكافأة المحسن على إحسانه ليزداد رغبة في ذلك.

٢ - أن يعتبر المسيء من رعيته للنظام موضع اهتمام الملك وعنايته في هدايته إلى النظام العام عسى الله تعالى أن يهديه إلى التي هي أحسن دون سفك للدماء.

٣ - أن يكون دور الملك الصالح دور الأب نحو أولاده في إصلاح ذات البين وجمع الشمل والإحسان إليهم جميعاً.

وتوجيهات الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليهما السّلام)، الآنفة الذكر أراد من خلالها (عليه السّلام)، تعاون المسلمين مع حكوماتهم الصالحة على إقامة الأمن والعدل في الأرض من خلال المحافظة على حقوق الإنسان وحقوقه. إذ من خلال هذا التعاون يكون الخصب والرزق الحلال ويحافظ بها على كرامة النّاس. مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠).

الهوامش:

(١) حسن خليفة، فريال، العقل المقدس عند توماس بين، مكتبة مدبولي. القاهرة، ط.١، ١٩٩٤م، ص١١٥.

(٢) ينابيع المودة، للحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزيّ الحنفيّ، منشورات دار الكتب العراقيّة. الكاظميّة. بغداد. ومكتبة المحمدي. قم المُقدسة، منشورات بصيرتي، الطبعة الثامنة، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٦م. ص ١١٩.

(٣) فضائل أمير المؤمنين الإمام عليّ بن أبي طالب (عليه السّلام)، (المناقب) للموفق بن أحمد بن محمد المكيّ الخوارزميّ. مراجعة وتحقيق: علي إبراهيم حرب، نوبليس. بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م. ج٣، ص٣٢٤.

(٤) نفس المصدر، ص ٣٢٢.

(٥) ينابيع المودة، الطبعة الثامنة الآنفة الذكر، ص ٦٠.

(٦) تفسير شبّر للقرآن الكريم للعلاّمة السيّد عبد الله شبّر ـ منشورات الفجر ـ بيروت. الغبيري، ط. الأولى، عام ٢٠١١م. ص ٤٦٢.

(٧) الإمام عليّ صوت العدالة الإنسانيّة، جورج جرداق، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٠م. ج١، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٨) مآثر عليّ والحسين، بولس سلامة، تحقيق ولده الأستاذ رشاد سلامة، منشورات دار الحمراء ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، ٢٠٠٤، ص ٣٣٠.

(٩) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، لمُحبّ الدين الطبريّ، دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٤م. ص ١٧.

(١٠) نفس المصدر.

(١١) نهج البلاغة، شرح الإمام محمد عبده. دار القارئ ـ بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ٥٩٤.

(١٢) نفس المصدر، ص ٥٩١.

(١٣) نفس المصدر، ص ٥٣٦.

(١٤) نفس المصدر، ص٥٢٠.

(١٥) نفس المصدر، ص ٥١٨.

(١٦) نفس المصدر، ص ٤٢٩.

(١٧) نفس المصدر، ص ٤٢٩.

(١٨) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف لإبن مسكويه، تحقيق: عماد الهلالي. منشورات طليعة النور، قم ـ إيران ١٤٢٦هـ. ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(١٩) تحف العقول عن آل الرسول(ص)، لإبن شعبة الحرّاني. ط. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، ط. ٦، عام ١٩٩٦، ص ٢٦٠.

(٢٠) نفس المصدر، ص ١٥٢.

(٢١) نفس المصدر، ص ٤٥.

(٢٢) نفس المصدر، ص ٢٦.

(٢٣) نفس المصدر، ص٢٦٩.

(٢٤) تحف العقول، ص ٢٦٢.

(٢٥) أي سبباً لتقرب أهل الدين بعضهم من بعض، إذ يجتمعون من جميع الأقطار، في مقام واحد، لغرض واحد. وفي نسخة تقوية فإنّ تجديد الألفة بين المسلمين، في كل عام، بالاجتماع، والتعارف، ممّا يقوّي الإسلام.

(٢٦) فإنّه إذا تواصل الأقرباء على كثرتهم كثر بهم عدد الأنصار.

(٢٧) إنّما فرضت الشهادة، وهي الموت في نصر الحق، ليستعان بذلك على قهر الجاحدين له، فيبطل جحوده.

(٢٨) لأنّه إذا روعيت الأمانة في الأعمال، أدّى كل عامل ما يجب عليه، فتنتظم شؤون الأمّة، أمّا لو كثرت الخيانات، فقد فسدت الأعمال، وكثر الإهمال واختل النظام.

(٢٩) تحف العقول، ص ٢٦٢.

(٣٠) نفس المصدر، ص ٢٣٣. ◆

أفكار وصفات وسمات الإمام علي عليه السلام

أ. نور عماد حسن الموسوي
أ. م. صباح كامل عرموط

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده محمد الكتاب، ولم يجعل له عوجاً، قيّماً، لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، ولا يميل به عن الجادة الباطل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤١ - ٤٢).

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا. محمد، المؤيد بالقرآن معجزة عظمى، وآية باقية على وجه الدهر، ووكل إليه بينه وتفسيره فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤)، وعلى آله وأصحابه، والمهتدين بهديه.

فقد رغبت أن أشارك باليسير عن كل ما يتعلق ذكره بالإمام علي عليه السلام، لأننا ننتقي من مدرسة كبيرة لعلوم شتى، وقد صادف هذا البحث المفيد هوىً في نفسي: وأعلم شدة حاجة المسلمين إلى مثل هذا البحث الذي يتحدث عن رجل حوى موسوعة علمية لكتاب الله تعالى وما علق بتفسيره ويخفى عن الكثير من أصحابه فهو يعلم، جماله، وهدايته وأسراره قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ (النساء: ١٧٤ - ١٧٥)، ويعلم عقائده التي هي أسمى العقائد وأحقها بالقبول، وأليقها بالفطر البشرية، وأقربها إلى العقول، إن التعريف بهذا العلم وبيان نشأته وأفكاره وصفاته لا يستوعبه مثل هذا البحث ولكن شرفاً وفوزاً لنا أن نكتب عن الإمام علي (عليه السلام) فاقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى مبحثين بينا في المبحث الأول حياته وآثاره من سمات وصفات وخلصنا في المبحث الثاني لبيان أفكاره وعلومه واتبعنا البحث بخاتمة لأهم النتائج والله ولي التوفيق.

المبحث الأول
الإمام علي حياته وآثاره

لسنا هنا بصدد الكتابة عن تفصيلات الحياة الخاصة بالخليفة علي بن أبى طالب (ع)، فهو أمر لا تستوعبه مؤلفات عديدة، وإنما ما يهمنا هنا هو إظهار أسس نشأته وأطوارها لأن شخص الخليفة علي (ع) غني عن التعريف، غير أن ذلك لا يمنع من الإشارة إلى شخصيته وسيرته ولو باليسير منها.

أولاً ـ اسمهُ وكنيته:

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مره بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة القرشي الهاشمي[١] أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف[٢] وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً، أسلمت بمكة وهاجرت إلى المدينة المنورة وتوفيت بها[٣] وذكر ابن أعثم الكوفي[٤] (أنه قد ولد وأبوه غائب فسمته أمه حيدره ولما عاد أبو طالب سماه علياً)، ومن هنا يسمى الإمام علي حيدر، وحيدر من أسماء الأسد وقد أكد الإمام علي بن أبى طالب (ع) هذا الاسم أثناء لقائه بطل المشركين عمرو بن عبد ود العامري في معركة الخندق عام ٥ هـ/٦٢٦ م، بقوله:

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره

أكيلكم بالسيف كيل السندرة*[٥]

مما يشير إلى صحة التسمية.

---

(١) ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع (ت٢٣٠ هـ/٨٤٥ م)، الطبقات الكبرى، (دار صادر/بيروت ـ ١٩٨٥)، ج٣، ص٩١: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠ هـ/٩٢٣ م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: إبراهيم أبو الفضل، ط ٤، مطبعة دار المعارف، (القاهرة ١٤٠٠هـ/١٩٦٢م)، ج٧، ص١٥٢؛ ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت٣٤٩ هـ/٩٣٩ م)، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين، (القاهرة، ١٩٦٧م)، ج٥، ص٥٧ ـ ٥٨؛ ابن الأثير، علي بن أبي مكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢ م)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: محمد بن إبراهيم البنا وآخرون، ط٢، دار الشعب، (لا. م ـ لا. ت)، ج٤، ص٩١.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص١٩: الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط١، مطبعة السعادة، (لا. م، ١٩٣٥م)، ج٣، ص١٢١: ابن الأثير، أسد الغابة، ج٤، ص٩١٧: ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م)، تاريخ ابن الوردي، ط٢، (النجف ـ ١٩٦٩م)، ج١، ص١٥٥: الهيثمي، علي بن أبي بكر (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤ م)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي، (القاهرة/بيروت ـ ١٤٠٧هـ)، ج٩، ص١٠٠: العاملي، السيد محسن عبد الكريم (ت ١٣٧٢هـ/١٩٤٣ م)، أعيان الشيعة، دار التعارف للمطبوعات، (بيروت ـ ١٤٠٧هـ)، ج١، ص٣٢٥.

(٣) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧ م)، التنبيه والأشراف، تحقيق، يوسف أسعد مظفر، دار الأندلس للطباعة والنشر، (بيروت ـ ١٩٨٤م)، ص٢٩٥: ابن الأثير، أسد الغابة، ج٤، ص٩١٧.

(٤) ابن أعثم، أبو محمد أحمد بن أعثم (ت٣١٤هـ/٩٢٦ م) الفتوح، ط١، تحقيق: محمد عبد المنعم، مطبعة دار المعارف العثمانية، (الهند ـ١٩٧٥م)، ج٢، ص١٦: العاملي، أعيان الشيعة، ج١، ص٣٢٤.

(٥) السندرة: مكيال كبير، ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ/١٣١١ م)، لسان العرب، ط١، تحقيق، صلاح المنجد، دار صادر، (بيروت ـ لا.ت)، ج٤، ص١٧٤.

(٦) ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص١١٢: الطبري، تاريخ، ط١، طبعة دار الكتب العلمية، (بيروت ١٤٠٧هـ)، ج٣، ص١٣.

أما كنيته فقد كناه رسول الله (ص)، بأبي تراب[١] أما سبب تكنيته بأبي تراب فقد روي أنه غاضب فاطمة بنت رسول الله (ص): يوماً، فخرج واضطجع في المسجد، فقال النبي (ص) لفاطمة (عليها السلام): أين ابن عمك؟ فقالت: في المسجد. فخرج إليه ووجده في المسجد، مستلقياً وقد امتلئ ظهره، تراباً فجعل (ص) يمسح التراب عن ظهره وهو يقول: قم يا أبا تراب. وقد كنى هو نفسه بـ (أبي الحسن وأبي الحسين)[٢]، وكذلك يكنى بـ (أبا الريحانتين)، فيروى أن رسول الله (ص) قال لعلي: سلام عليك أبا الريحانتين أوصيك بريحانتي فعن قليل يذهب ركناك والله خليفتي عليك فلما قبض النبي (ص) قال علي: هذا أحد الركنين، فلما ماتت فاطمة قال هذا الركن الآخر[٣].

ثانياً ـ مولده:

ولد الإمام علي بن أبى طالب (ع) بمكة في يوم الجمعة الثالث عشر من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل، وكان مولده في بيت الله الحرام وفي جوف الكعبة ولم يولد قبله مولود في بيت الله الحرام سواه، إكراماً وتعظيما من الله تعالى له[٤].

ثالثاً ـ نشأته وإسلامه:

مما لا يخفى أن الرسول (ص) قد نشأ وتربى في رعاية عمه أبي طالب بعد وفاة والده عبد الله بن عبد المطلب. وكان من نعمة الله على علي بن أبي طالب وما صنع الله له وأراد به من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة قحط شديدة قبل الإسلام، وكان أبو طالب كثير الأولاد فاقترح الرسول (ص) على عمه العباس بن عبد المطلب وكان أيسر بني هاشم فقال له: أن

---

(١) ابن هشام، محمد بن عبد الملك (ت٢١٨ هـ/٨٣٣ م)، السيرة النبوية، ط٢، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، (لا.م ـ ١٩٥٥م)، ج٢، ص٢٥٠: ابن عنبة، عمدة الطالب، ص٥٩: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١ هـ/١٥٠٥ م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، (القاهرة ـ لا.ت)، ص١٦٢: العاملي، أعيان الشيعة، ج١، ص ٣٢٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٢، ص٢٥٠: ابن عنبه، عمدة الطالب، ص ٥٩: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٦٢: العاملي، أعيان الشيعة، ج١، ص ٣٢٥.

(٣) ابن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني (ت٢٤١هـ/٨٥٥ م)، فضائل الصحابة، ط١، تحقيق: وصي الله محمود عباس، مؤسسة الرسالة، (بيروت – ١٩٨٣)، ج٢، ص٦٢٣.

(٤) الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٤٠٩: القرشي، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد القرشي، كفاية الطالب في مناقب علي ابن أبي طالب، مخطوط محفوظ في دار المخطوطات العراقية تحت الرقم (٣٨، ١١)، ورقة ٢٨: ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢ م)، البداية والنهاية، ط٢، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مطبعة دار المعارف، (بيروت –١٩٧١م)، ج٥، ص ٧: ابن عنبة، جمال الدين بن علي بن الحسين (ت ٨٢٨ هـ/١٤٢٤ م)، عمده الطالب في انساب أبى طالب، ط٢، (النجف ـ ١٩٨٨م)، ص٥٨ ـ ٥٩: العاملي، أعيان الشيعة، ج١، ص٣٢٣.

أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا لنخفف عنه من عياله، أخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً، فنكفلهما عنه، قال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه. فقال لهما: لا عليكما إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما فأخذ العباس جعفراً وأخذ الرسول (ص) علياً فضمه إليه فلم يزل معه حتى بعث رسول الله (ص) فآمن به[١] وهكذا فقد منّ الله على علي ابن أبي طالب أن ينشأ في كنف رسول الله (ص) منذ نعومة أظفاره، وأن يتربى ويترعرع في بيت الإسلام وبين أحضان الرسول (ص) فأحسن تربيته وعلمه فأحسن تعليمه، ولما نزل الوحي وبعث رسول الله بشيراً ونذيراً للعالمين أخذ علي الإسلام على فطرته، فلم يحصل له تحول من الشرك إلى الإسلام، بل كان إسلامه على الفطرة.

فهو أول من أسلم بعد خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)[٢] أخفى إسلامه بادئ الأمر خوفاً من أبيه أبي طالب ولأن الرسول (ص) طلب منه كتمان الأمر[٣] وهو أول من صلى مع رسول الله (ص)[٤] أما عن عمره حين أسلم فقد اختلف المؤرخون في ذلك، فابن الجوزي[٥] يذكر (أنه أسلم وهو ابن سبع سنين) في حين ذكر البخاري[٦] أنه أسلم وهو ابن ثمان، وقيل خمسة عشر سنة[٧]. وروي أن علياً بن أبي طالب (ع) قال: (أنا أول من صلى مع النبي (ص))[٨]،

---

(١) الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٥٣٨؛ ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن حمد بن الحسين (ت٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م) شرح نهج البلاغة، مراجعه وتصحيح لجنه أحياء الذخائر، منشورات مكتبه الحياة، (بيروت -لا. ت)، ج ٤، ص٢٠٦؛ شلبي، أحمد. تاريخ الحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة (لا. م - ١٩٧٠)، ص٢٨٨.

(٢) الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٣١٢؛ ابن الكازروني، الشيخ ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى دولة بني العباس، حققه وعلق عليه: مصطفى جواد، وضع فهارسه وأشرف على طبعه: سالم الالوسي، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، مطبعة الحكومة، (بغداد - ١٩٧٠م)، ص٣٨؛ ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي، (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨ م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، (بيروت لا. ت)، ج ١، ص٥٠.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٦٢.

(٤) الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص ٣١٠.

(٥) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧ هـ/١٢٠٠ م)، صفوة الصفوة، ط١، حيدر اباد الدكن، (الهند -١٩٣٦م)، ج١، ص١١٨.

(٦) البخاري، أبو عبد الله إسماعيل بن إبراهيم (ت ٢٥٦ هـ/٨٦٩ م)، التاريخ الكبير، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، (لا. م - ١٩٤٠م)، ج٣، ص٢٦٠.

(٧) ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨ م)، تهذيب التهذيب، ط١، مطبعة حيدر أباد الدكن، (الهند - لا.ت)، ج ٧، ص٣٣٦.

(٨) ابن حنبل، فضائل الصحابة، ج٢، ص٦٠٩. الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٣١٠؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ج٤، ص٩٣؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص٣٣٤.

وذكر أن أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن الغلمان علي بن أبى طالب ومن النساء خديجة ومن الموالي زيد بن حارثه[١]. ولم يسجد لصنم قط لذا قيل كرم الله وجهة.

ويقول الطبري وابن حجر العسقلاني في هذا الأمر (إن إسماعيل بن أياس بن عفيف روى عن جده عفيف قال كنت آمراً تاجراً. فقدمت أيام الحج، وكان العباس بن عبد المطلب آمراً تاجراً فأتيت العباس قال: فبينما نحن عنده إذ خرج رجل من خباء يصلي فقام تجاه الكعبة. ثم خرجت امرأة فقامت تصلي معه وخرج غلام فقام يصلي معه. فقلت يا عباس: ما هذا الدين؟! إن هذا الدين لا ندري ما هو؟! فقال العباس: هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله. وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه وهذه امرأته خديجة بنت خويلد أمنت به وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب أمن به. فقال عفيف فليتني أمنت يومئذ وكنت أكون ثانياً)[٢] وهذا دليل آخر على صحة سبق إسلامه منذ بدء نزول الوحي على الرسول (ص).

رابعاً - فضائله:

لقد قدر لعلي بن أبي طالب (ع) أن يتربى في بيت النبوة وبين أحضان الرسول (ص) فتحلى بالخلق الكريم والصفات الحسنة التي ميزته عن باقي رجال عصره، فكيف لا يتميز وهو من تربى على يدي رسول الله (ص) منذ صغره إلى أن أصبح شاباً، يستطيع الاعتماد على نفسه، فقد كان له في مصاحبة رسول الله (ص) ومخالطته ما لم يكن لأحد غيره من العرب المسلمين.

فكان رفيق الدرب والعمر والجهاد بكل ما في الدرب من صعوبات ومخاطر وبكل ما في الجهاد من إثقال[٣] وكان له من الفضائل مما لا يسعنا إلا ذكر بعضها. فهو من السابقين إلى الإسلام، وهو أول من صلى مع النبي (ص)[٤]. ولما هاجر الرسول (ص) إلى المدينة نام في فراش الرسول (ص)[٥]، وهو بذلك يعد أول فدائي في الإسلام ضحى بروحه من أجل سلامة الرسول (ص) وعزة الإسلام، كما أن الرسول أخلفهُ بمكانه ليؤدي الأمانات والودائع

---

(١) الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي (ت٢٧٩هـ/٨٩٢ م)، سنن الترمذي تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - لا. ت)، ، ج٥ ص٦٤٢: ابن الأثير، أسد الغابة، ج٤، ص٩٣: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص٤٣٢.

(٢) تاريخ، طبعة القاهرة، ج١، ص٥٢٨: ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الجيل، (بيروت - ١٩٩٢ م)، ج ٣، ص٢٦.

(٣) كتاني، سليمان، الأمام علي نبراس ومتراس، مطبعة النجف، (النجف - ١٩٦٧م)، ص٩١.

(٤) الترمذي، سنن الترمذي، ج٥، ص٣٠٦: الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٣١٠ وص٣١٧.

(٥) الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٣٧٣.

التي كانت عند الرسول (ص) إلى أهلها[١]. كما أنه شهد المشاهد والغزوات كلها مع رسول الله (ص) إلا غزوة تبوك فقد استخلفهُ (ص) على المدينة، ففضب علي ورفض ذلك، فقال: يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني إنك استثقلتني وتخففت مني. فقال الرسول(ص): كذبوا ولكني إنما خلفتك لما ورائي فارجع وأخلفني في أهلي وأهلك ثم قال الرسول (ص): (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي)[٢].

وحينما آخى الرسول (ص) بين المهاجرين والأنصار آخى (ص) بينه وبين الإمام علي فقال: (أنت أخي في الدنيا والآخرة)[٣]. وهو بذلك يعد المهاجر الوحيد الذي آخى الرسول (ص).

وفي يوم خيبر سنة ٧ هـ/٦٢٨ م قال الرسول (ص) كلمته المدوية التي تشير إلى منزلة الإمام العظيمة عند الله سبحانه وتعالى: (لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار ليس بفرار، يفتح الله على يديه)[٤] فأعطاها لعلي بن أبي طالب. ومن أحاديث الرسول (ص) بحق علي قوله: (أنا مدينة العلم وعليٌ بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب)[٥] وفي حادثة الكساء[٦] جمع النبي (ص) في بيت أم سلمة فاطمة وعلياً والحسن والحسينَ (عليهم السلام) وألقى عليهم كساءَه وضمهم إليه ثم تلا الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[٧].

وقد دعا النبي (ص) أن يدور الحق مع علي، فقد روي عن علي حديث الرسول (ص) عن أصحابه، أنه قال (ص): (رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة واعتق

---

(١) ابن سعد. الطبقات، ج٣، ص٢٢: الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٣٨٢: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٦٦: حسن. إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط ٧، مكتبة النهضة المصرية. (لام - ١٩٦٤ م)، ج١، ص٢٧٢.

(٢) ابن سعد. الطبقات، ج٣، ص٢٤: مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري أبو الحسين (ت٢٦١ هـ/٨٧٤ م)، صحيح مسلم، ط٢، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت _لا ت)، ج ٤، ص ١٨٧٠: الترمذي، سنن الترمذي، ج٥، ص ٦٤١: المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط١، تحقيق: مفيد محمد قميحه، (بيروت - ١٤٠٧ هـ/١٩٨٦م)، ج٢، ص١٣٠: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص٥٨: الهيثمي. مجمع الزوائد، ج٩، ص١١٠.

(٣) الترمذي. سنن الترمذي، ج٥، ص٦٣٦.

(٤) مسلم. صحيح مسلم. ج٧. ص١٢٠: الترمذي. سنن الترمذي، ج٥. ص ٦٣٨.

(٥) الحاكم النيسابوري. محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم (ت٤٠٥هـ/١٣٣٢ م)، المستدرك على الصحيحين. ط١. تحقيق: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، (بيروت - ١٩٩٠م)، ج٣، ص١٣٨. الهيثمي. مجمع الزوائد، ج٩، ص ١١٤. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج١، ص٥٠.

(٦) مسلم. صحيح مسلم، ج٥، ص٣٦٠: الترمذي، سنن الترمذي، ج٥، ص٦٩٩: النويري، نهاية الأرب، ج٢٠، ص٥٠: ابن عبد ربه. العقد الفريد، ج٥، ص٥٩.

(٧) سورة الأحزاب. آية ٣٣.

بلالاً من ماله. رحم الله عمراً يقول الحق وإن كان مراً، ما ترك له الحق من صديق، رحم الله عثمان تستحيه الملائكة، رحم الله علياً اللهم أدر الحق معه حيث دار)[١].

وقد أمر رسول الله بموالاته ونصرته فقال في يوم الغدير: (من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه)[٢]. وبهذا الحديث الشريف سمت الشيعة الأمامية الإمام علياً بن أبي طالب (ع) الوصي وقد سبق الإشارة إلى حديث الرسول (ص) بأن الإمام بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعده وهارون خليفة موسى على قومه إذا غاب[٣]. وعن ابن بريدة عن أبيه، قال (كان أحب النساء إلى رسول الله (ص) فاطمة ومن الرجال علي)[٤].

وعن البراء عن عازب* قال: (بعث النبي (ص) جيشين وأمر على أحدهما علي بن أبي طالب وعلى الآخر خالد بن الوليد، فلما كان القتال اقتحم علي حصنا فأصاب جارية، فأنكروا عليه فتغير لون وجهه، وتعاقد أربعة من أصحاب الرسول (ص) فقالوا وإذا لقينا رسول الله بما صنع علي وكان المسلمون إذا رجعوا بدأوا برسول الله (ص) فسلموا عليه ثم انطلقوا إلى رحالهم، فلما أقدمت السرية سلموا على النبي (ص) فقام أحد الأربعة فقال يا رسول الله ألم تر إلى علي ابن أبي طالب صنع كذا وكذا فاعرض عنه فقام الثاني وقال ما قاله صاحبه فاعرض عنه فقام الثالث فاعرض عنه فقام الرابع فقال مثلما قالوا، فاقبل الرسول (ص) والغضب يعرف في وجهة فقال: (ما تريدون من علي إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي)[٥].

---

(١) سنن الترمذي، ج٥، ص٦٣٣: النويري، نهاية الأرب، ج٢٠، ص٧، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧ م)، الخلفاء الراشدون من تاريخ الإسلام، دار الكتب العلمية، (بيروت – ١٩٨٧/ ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨م)، ص٢٥١. المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام البرهان فوري (ت ٩٧٥هـ/١٥٦٧م)، منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، طبعه وفسر غريبه: الشيخ بكري حياني صححه ووضع فهارسه: الشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج١١، ص٦٤٢.

(٢) ابن حنبل، فضائل الصحابة، ج ٢، ص٥٦٣.الترمذي، سنن الترمذي، ج٥، ص ٦٣٣. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥، ص٦. النويري، نهاية الأرب، ج٢٠، ص٤. المتقي الهندي، منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ج ١١، ص ٦٤٢.

(٣) مسلم، صحيح مسلم، ج٧، ص١٢٠: ابن ماجة، محمد ناصر الدين (ت٢٧٥هـ /٨٨٨ م)، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، ط٢، الرياض ـ شركة الطباعة السعودية، (الرياض ـ ١٩٨٤م)، ج ١، ص٢٥. م الترمذي، سنن الترمذي، ج٥، ص ٣٠٤.

(٤) مسلم، صحيح مسلم، ج٥، ص٣٦٠: الترمذي، سنن الترمذي، ج٥، ص٦٩٨: الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٦٨.

(*) البراء بن مالك بن عازب بن النضر الأنصاري شهد مع رسول الله (ص) الشاهد الأبدرا وآله في يوم اليمامة أخبار استشهد يوم حصن تستر في خلافة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج ١، ص٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٥) الترمذي، سنن الترمذي، ج٥، ص ٦٣٢.

كما يروى أن رسول الله (ص) قال لعلي: (لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك ألا منافق)[١].

وقال علي بن أبي طالب (ع): أنا أخو رسول الله (ص)، وابن عمه، لا يقولها بعدي إلا كذاب[٢].

وكان (ع) أعلم الناس بالفرائض فكان يرجع إليه الخلفاء والصحابة في الكثير من مسائل الدين وتفسير القرآن ورواية الحديث ومسائل الميراث والقضاء. ومن دقة ذكائه أنه سئل وهو على المنبر عن ميت ترك زوجه وبنتين وأبوين فما نصيب كل واحد منهما فأجاب على الفور: صار ثمنها تسعاً فسميت هذهِ المسألة بالمنبرية لأنه أفتى بها وهو على المنبر[٣]. كما أنه قال (ع): (سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم نهار في سهل أم في جبل)[٤].

وبذلك لا يسعنا ذكر المزيد من تلك الفضائل المفيضة التي كانت الشعلة المضيئة للمؤمنين وقدوة للمتقين الصابرين.

خامساً ـ شجاعتهُ:

نشأ الإمام علي بن أبي طالب (ع) في بيت رسول الله وتربى في أحضانه وتأدب بآدابه وتخلق بخلقه الكريم واشتهر بالشجاعة والبطولة والتضحية في سبيل الإسلام ومن أدل المواقف على ذلك هو ما سبق وان ذكرناه عن مبيته في فراش الرسول الكريم (ص) يوم الهجرة ليوهم المشركين أن الرسول قد بات في فراشه ليتمكن الرسول (ص) من الهجرة إلى المدينة المنورة من دون علم المشركين[٥].

وبلاؤه في بدر ٢هـ/٦٢٣م، إذ كان من أوائل المبارزين وذلك عندما طلبت قريش أقرانها في المبارزة، فقتل الوليد بن عتبة في لحظات[٦]. ودوره الجهادي في معركة الخندق عام ٥هـ/٦٢٦م من خلال منازله لعمرو بن عبد ود وقتله إياه وهزمه خيله، وفي فتح خيبر سنة

---

(١) الترمذي، ج٥، ص٦٤٣. النويري، نهاية الأرب، ج٢٠، ص٥. الذهبي، تذكرة الحافظ، ط٤، دار المعارف العثمانية، (لام ـ ١٩٦٨ م)، ج١، ص١١٠.

(٢) الطبري. تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٣١٠: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥، ص٥٩: النويري، نهاية الأرب، ج٢٠، ص٤.

(٣) التستري. الشيخ العلامة محمد تقي، قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، ط١٠، دار الشمالي للطباعة. (بيروت ـ لا. ت)، ص١٢٨ ـ ١٢٩: ماهر، مشهد الأمام في النجف الأشرف من الهدايا والتحف، مطابع دار المعارف، (مصر ـ ١٩٦٩ م)، ص٤٢.

(٤) ابن سعد. الطبقات، ج٢، ص٣٣٨: العاملي، أعيان الشيعة، ج١، ص٣٢٦.

(٥) ابن سعد. الطبقات، ج٣، ص٢٠: الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٣، ص٣٨٢: ابن الأثير، أسد الغابة، ج٣ ص٩٥: السيوطي. تاريخ الخلفاء ص١٦٦: حسن، تاريخ الإسلام، ج١، ص٢٧٢.

(٦) ابن هشام. السيرة النبوية. ج١، ص٦٢٥: ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص١٧.

٧هـ/٦٢٨م كانت له مواقف عظيمة، وذلك لما طال أمد الحصار على حصون خيبر أعطى الرسول (ص) الراية لعلي ففتحها الله على يديه[١] ومما يذكر أنه سقط عنه الترس الذي كان يتترس به من أثر ضربة يهودي على يديه فتناول باباً من أبواب حصن خيبر وتترس به وقاتل، وبعد انتهاء القتال، ذكر أن ثمانية أو عشرة أشخاص حاولوا أن يحملوا هذا الباب فلم يتمكنوا من رفعه[٢] ولا تخفى علينا شجاعته ومروءته وأخلاقه النبيلة في جميع المعارك التي شهدها مع رسول الله (ص) والخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) أو في معاركه مع مخالفيه أثناء خلافته، وكيف أنه قد تيسر له النصر على معاوية في موقعة صفين لو أنه منع الماء عن جيش معاوية مثلما فعل معاوية في بادئ الأمر[٣] لكن المبادئ الإسلامية السامية التي تربى عليها منعته من فعل ذلك، ومثل هذه المواقف كثيرة ويصعب ذكرها جميعاً في نطاق هذا البحث.

الإمام علي (عليه السلام) وصف حاله في تلك الرسالة بأن له القدرة على أكل العسل ولباب القمح ولبس الحرير لكن لا يفعل ذلك لأنه أمير المؤمنين وقدوة الرعية فكيف يفعل ذلك وهناك من لا عهد له بالشبع وكيف يقال أمير المؤمنين وهو لا يشاركهم صعوبات العيش فيكمل في رسالته إلى ثمان بن حنيف فيقول لعثمان بن حنيف: (ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب القمح ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة ولعل بالحجاز واليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع! أو أبيت مبطناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى!! أو أكون كما قال القائل:

وحسبك عاراً أن تبيت ببطنه وحولك أكباد تحن إلى القد

أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر؟ أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش)[٤].

فما خلق (ع) ليشغله طيب المأكل ليترك طريق الزهد ويسعى في طريق الظلالة والمتاهات فيقول (ع): (فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها أو

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص١١٠. مسلم، صحيح مسلم، ج٧، ص١٢٠: النويري، نهاية الأرب، ج٢٠، ص٣.

(٢) ابن هشام، سيرة ابن هشام، ج٢، ص٣٣٤: ابن الأثير، أسد الغابة، ج٧، ص٢٢٥.

(٣) الطبري، تاريخ، طبعة القاهرة، ج ٤، ص٥٧٢: ابن أعثم، الفتوح، ح٢، ص١٧٢: المنقري، أبو الفضل نصر بن مزاحم بن سيار (ت٢١٢ هـ/٨٢٧ م)، وقعة صفين، ط ٢، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع (القاهرة -١٩٦٢م)، ص١٩٣: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٣، ص٣٨٦: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مج١، ص ٧٢٢.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة بيروت، ج٤، ص٨٢٢: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٩٩.

المرسلة شغلها وتقممها[*] تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها أو أترك سدى وأهمل عابثاً أو أجر حبل الظلالة أو أعتق طريق المتاهة)[١].

ويرد الإمام (ع) على بعض الاتهامات التي قد وجهت إليه بسبب خشونة مأكله وملبسه فيقول لهم: إذا كان هذا قوت علي بن أبي طالب فإنه سيكون من الضعف بحيث لا يستطيع منازله الأبطال وقد نسى هؤلاء أن قوة الإنسان عند المنازلة تستمد من قوة الإيمان بالمبادئ التي يقاتل من أجلها وعلي بن أبي طالب (ع) يستمد قوته من إيمانه بالله وطلبه رضاه وإيمانه بالمبادئ التي يدافع عنها، فيقول (ع): (وكأني بقائلكم يقول إذ كان هذا قوت علي بن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقارن ومنازلة الشجعان)[٢] فيرد (ع) بتشبيه نفسه بالشجرة البرية الموجودة في البادية التي تمتاز بصلابة عودها وقدرتها على مواجهة الظروف الصعبة، ذات الفائدة المستمدة سواء كانت حية أو ميتة تقطع لتستخدم وقوداً فإنها ستكون ذات حرارة أقوى وأكثر ديمومة بطيئاً خمود النار فيها مقارنة بالأشجار الخضر التي تعيش قرب الأنهار فإنها ضعيفة غير قادرة على مواجهة تغيرات الظروف. فاستخدم (ع) أسلوب المقارنة بين الأشجار وربطها بالإنسان فالمعروف لنا أن البدوي أكثر قوة وصلابة وقدرة على مواجهة نفس الظروف ويعزى ذلك إلى أن الإنسان ابن بيئته يتطبع بطباع البيئة التي يعيش فيها فيقول (ع): (ألا وأن الشجرة البرية أصلب عوداً، والبرائع الخضر أرق جلوداً والنباتات البدوية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً)[٣].

ويدحض تلك الادعاءات إنه من نسل رسول الله (ص) وإن صلابته وقوته مستمدة من الرسول الكريم (ص) فهو بمنزلة الأخ والذراع من العضد وفي هذا القول تشبيهاً للتماسك القوي بينه (ع) وبين الرسول (ص) ولعل في قول الرسول (ص) بحق الإمام علي (ع): (علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي)[٤]. ما يشير إلى منزلة الإمام (ع) منه، فيقول الإمام (ع) في هذا: (وأنا من رسول الله كالصنو[*] من الصنو والذراع من العضد)[٥].

(*) تقممها قم ما على المائدة يقمه قما: أكله فلم يدع منه شيئاً. ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص٤٩٤.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة بيروت، ج٤، ص٨٧٩: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٠٠.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة بيروت، ج٤، ص٨٧٦: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٠٠.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة بيروت، ج٤، ص٨٧٦: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٠٠.

(٤) ابن حنبل، فضائل الصحابة، ج١، ص١٥.

(*) الصنو: الأخ الشقيق والعم والابن والجمع أصناء، وفي حديث النبي (ص) (عم الرجل صنو أبيه) والمعنى أصلهما واحد. ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص٤٧٠.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة بيروت، ج٤، ص٨٧٦: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٠٠.

ويقسم (ع) بالله على ترويض نفسه رياضة يعود بها معدته على قلة الزاد فيجعلها كعين ماء نفذ ماءها ليس فيها إلا القليل فيقول (ع): (وأيم الله يميناً بره استثنى فيها بمشيئة الله لا روض نفسي رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوماً وتقنع بالملح مأدوماً ولأدعن مقلتي كعين ماء نضب معينها مستفرغة دموعها)[١].

المبحث الثاني
أفكاره وعلومه

لقد كانت منزلة الإنسان في المجتمع العربي قبل الإسلام كانت مرهونة بمقدار ما يملك من الأموال، فلما جاء الإسلام، بدء بالعمل على هدم تلك التقاليد الموروثة وإيجاد طرق جديدة لبناء مجتمع إسلامي متكامل من خلال إعانة الفقراء والعمل على توفير الحياة الملائمة لهم ولجميع أفراد المجتمع الإسلامي، وإيضاح مفهوم الفقر بأنه لا ينقص من كرامة الإنسان في المجتمع، فمنزلته تقاس على قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢]. وقول الرسول الكريم (ص) في الحديث الشريف (يا أيها الناس ألا وإن ربكم واحد وإن أباكم واحد لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى)[٣]. إذن منزلة الإنسان مرهونة بالإيمان بالله والعمل الصالح والأخلاق الحسنة فتلك هي أساسيات قياس منزلة الفرد في الإسلام.

وقد فرض الله سبحانه وتعالى على المجتمع الإسلامي التكافل بين أفراده كسمة من سماته البارزة، وقد بلغ التكافل في عهد الرسول الكريم (ص) إلى ذروة درجاته، من خلال تجسيد النهج الذي رسمه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم والذي ورد في العديد من الآيات القرآنية منها قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾[٥]. كما وردت الآيات التي ترغب وتحبب هذا التكافل بين المسلمين ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٦].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة بيروت، ج٤، ص٨٧٦: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص١٠٠.

(٢) سورة الحجرات، آية ١١٣.

(٣) ابن حنبل، مسند أحمد، ج٥، ص٤١١: الطبراني، المعجم الأوسط، ج٥، ص٨٦: الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٨، ص٨٤.

(٤) سورة الذاريات، آية ١٩.

(٥) سورة البقرة، آية ٨٣.

(٦) سورة المزمل، آية ٢٠.

وبذلك يتضح أن التشريع الإسلامي أوجد للفقراء والمحتاجين حقاً في أموال الأغنياء من خلال فرض الزكاة التي تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء اتباعاً لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾[١].

والزكاة هي أول تشريع منظم يهدف إلى تحقيق الضمان الاجتماعي لا يعتمد على الصدقات الفردية أو التطوعية بل يقوم على تنظيم دوري منتظم في توزيع الأموال بغية تحقيق الكفاية لكل محتاج من غير إسراف ولا تقتير ولم يكن ذلك خاصاً بالمسلمين وحدهم بل شمل كل من يعيش في ظل دولتهم بما في ذلك اليهود والنصارى[٢].

وتعني الزكاة في اللغة النماء والطهر والصلاح وسميت بذلك لأنها سبب تنمية المال وتطهيره وإصلاحه[٣].

أما معناها في الشرع فهي أسم لأخذ الشيء مخصوص من مال مخصوص[٤].

وقد جعلت الزكاة في أربعة أصناف من المال، أحدهما الزرع والثمار، والثاني بهيمة الأغنام والإبل والبقر... والثالث المجوهرات (الذهب والفضة) والرابع أموال التجارة باختلاف أنواعها[٥].

إذن هي حق ثابت مفروض من الله سبحانه وتعالى للفقراء والمحتاجين في أموال الأغنياء وقد ذكر الله ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[٦]. فالقصد منها إغاثة الضعيف والملهوف كما أنها وسيلة لتطهير النفس من الشح والذنوب[٧]. إذن هي صورة من صور التراحم أراد الإسلام بها للمسلمين أن يكونوا كالجسد الواحد كما في الحديث الشريف: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)[٨].

كما أن الزكاة تلعب دوراً مهماً وفعال في تفتيت الثروة وتوزيعها على الفقراء وذلك تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿كَى لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾[٩].

---

(١) سورة التوبة، آية ١٠٣.

(٢) القرضاوي، مشكلة الفقر، ص١٧ –١٨.

(٣) عقلة، محمد، أحكام الزكاة والصدقة، ط١، مكتبة الرسالة الحديثة، (عمان ـ ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م)، ص٨.

(٤) عقلة، أحكام الزكاة، ص٨.

(٥) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدى خير العباد، ج٢، ص٥.

(٦) سورة المزمل، اية ٢٠.

(٧) عقلة، أحكام الزكاة، ص١٠.

(٨) البخاري، صحيح البخاري، ج١، ص٤٦٧: مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص١٩٩٩: الترمذي، سنن الترمذي، ج٤، ص٣٢٥: ابن حبان البستي، صحيح ابن حبان، ج١، ص٤٦٧.

(٩) سورة الحشر، آية ٧.

ومن المعلوم أن الدولة في الإسلام عليها واجب تحقيق العدالة والدعوة إلى الخير ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي هذا الاتجاه، حث الخليفة علي (ع) ولاته على كسب حب الرعية وتألفها وإشعارها الرحمة والمودة من خلال نشر العدل والقيام بالأعمال الصالحة لكسب حسن ظنها بواليها بإحسانه إليها وبعدم إجبارها على ما لا طاقة لها به وتخفيف الصعاب عنها لأن ذلك يجمع للوالي حسن ظن الرعية به وهذا الحسن يخفف عنه أموراً كثيرة تساعده على إدارة الإقليم، كما أن إحسان الوالي إلى من يخاف ويبتعد عنه يجعله يميل إليه لشعوره بالاطمئنان، فيقول (ع) في رسالته إلى واليه مالك الأشتر حين ولاه مصر: (واعلم أنه ليس شيء أدعى إلى حسن ظن وال برعيته من إحسانه إليهم وتخفيف المؤونات عليهم وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم، فليكن في ذلك أمر يجتمع لك فيه حسن الظن برعيتك فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حَسُنِ بلاؤه عندك وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده)[١].

ومن توصياته (ع) إلى عماله في الاقتصاد في الأمور ونبذ الإسراف ما جاء في رسالته إلى زياد بن أبيه عندما وصلته الأخبار بإسرافه وتبذيره في الأموال وقد طلب إليه الاقتصاد وذكره بالآخرة بكلمة غداً يوم يحاسب على هذه الأموال فيأمره باتباع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[٢]. فيدعوه إلى الإمساك والتصرف بالأموال بقدر الحاجة إليها فيقول (ع): (فدع الإسراف مقتصداً واذكر اليوم غداً وامسك المال بقدر ضرورتك وقدم الفضل ليوم حاجتك)[٣]، ثم يسأل زياد: كيف يرجو أن يعطيه الله ثواب المتواضعين المتقين وهو عنده من المتكبرين؟ والتكبر هنا نتيجة المبالغة في الإسراف على مطالب النفس وشهواتها وترك ونسيان الآخرة وما يحتاج إليه فيها، فيحثه (ع) على التواضع لله وترك الإسراف لأن ولي أمر المسلمين قدوة لرعيته، فعليه أن يكون نموذجاً يقتدى به في التواضع والبساطة وإن رسول الله (ص) قد حث على ذلك في قوله (ص): (إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد)[٤]. فيقول الإمام علي (ع) لزياد: (أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت عنده من المتكبرين)[٥].

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة، ج١٧، ص٤٦.

(٢) سورة الإسراء، آية ٢٧.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٥٦٩: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٤٠٠.

(٤) مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص٢١٩٨: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي (ت٥٠٥هـ/١١١١م)، إحياء علوم الدين، مكتبه ومطبعه محمد صبيح وأولاده، (مصر - لا. ت)، ج٤، ص١٩٢.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة بيروت، ج٤، ص٥٦٩: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٤٠٠.

فتنبيه الإمام (ع) لزياد هنا أن لا يطمع في الآخرة وهو يتقلب في نعيم الدنيا متمتعاً بهذه الأنعام مانعها عن الضعفاء والأرامل فكيف يوجب الله ثواب المتصدقين وهو لا يعمل عملهم في حين أنه من صميم واجبات الوالي إعانة الضعفاء والأرامل والأيتام والتخفيف عنهم وقد ذكر ذلك رسول الله (ص) في الحديث الشريف إذ قال: (ثم الساعي على الأرملة والمساكين كالمجاهد في سبيل الله)[١].

نبه الإمام (ع) عماله ووجههم إلى حسن أداء أعمالهم وأنبأهم إذا ما أخطأوا أو تأخروا في أداء أعمالهم فقد كتب (ع) إلى أحد عماله يسأله فيه عن سبب تأخره في تأدية حق الخراج الموجود لديه ويدعوهم إلى تنزيه أنفسهم عن الحرام لأنه إذا تم ذلك كان له (ع) الحق والسلطة في إنزال العقوبة به حيث قال: (... فإنك أبطأت بحمل خراجك وما أدري ما الذي حملك على ذلك، غير أني أوصيك بتقوى الله ونزه نفسك عن الحرام، ولا تجعل لي عليك سبيلاً، فلا أجد بداً من الإيقاع بك)[٢].

كما وضح لهم الأسلوب الواجب اتباعه عند الدخول إلى أهالي المنطقة الواجب عليهم دفع الصدقات، وذلك بالنزول في مياههم أي قرب الجداول والأنهار دون المرور بالمنازل وذلك لسببين:

الأول: قد يكونون فقراء ويكرهون أن يطلع الغريب على فقرهم وحاجتهم.

الثاني: أن يكونوا أغنياء ويخافوا على أنفسهم من الحسد.

فعندما يدخل عليهم عليه أن يسلم عليهم بالتحية كاملة ثم يسألهم بعد السلام إن كان في أموالهم حق الله المعلوم وهي الصدقة فإذا رفض أحدهم وجب على العامل التراجع وعد الدخول في القسر والإكراه، إنه من المعروف أن بعض جباة الأموال يدخلون إلى أماكن الماشية والمحاصيل كرهاً ويتصرفوا بها كيف شاءوا بينما رب العمل يكون موجوداً مقهوراً لا سلطة له، وفي هذا يراعي أمير المؤمنين (ع) مشاعر أصحاب الماشية إذ يقول موصياً عمال الخراج بصورة عامة بذلك: (فإذا قدمت على الحي فانزل بمائهم دون أن تخالط أبياتهم، ثم امضي بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدج بالتحية لهم ثم تقول عباد الله أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لأخذ منكم حق الله في أموالكم فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى واليه؟ فإن قال قائلاً: لا، فلا تراجعه)[٣].

---

(١) الترمذي، سنن الترمذي، ج٤، ص٣٤٦: الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م)، المعجم الأوسط، (دار الحرمين - القاهرة - ١٤١٥)، ج٢، ص٥٥.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٠٠.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٥٧٨: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٤١٠.

إن السياسة الراشدة هي التي تعمل على توفير العمل وتيسيره للقادرين من الفقراء، والعمل على تنمية مصادر الدخل لصغار الملاك ليستغني هؤلاء عن أولئك بجهدهم الخاص عن طلب المعونة من الدولة وفي ذلك تخفيف للدولة من عبء الإنفاق على هؤلاء من خزينتها[١].

وقد حدد الرسول الكريم (ص) مسؤولية الوالي في تحقيق التكافل لهم في الكثير من الأحاديث منها قوله (ص): (ما من إمام يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنه)[٢]. أما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) فإنه كان يوصي ولاته بطبقة العوام من الناس الفقراء والمحتاجين وكبار السن والمرضى فإن في هذه الطبقة نوعان من المحتاجين الأول محتاج يسأل أو يطلب حاجته من الناس والثاني الذي هو محتاج لكنه لا يسأل الناس قضاء حاجته وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ (*) وَالْمُعْتَرَّ(**)﴾[٣]. فأمر (ع) أن يعطى لهؤلاء المحتاجين من بيت مال المسلمين مالهم من الحق فيه لأنهم من الأصناف التي ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[٤]. ففي رسالة الخليفة علي بن أبي طالب (ع) إلى مالك الأشتر لما ولاه مصر قال: (ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البوسئ والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعاً* ومعتراً**)[٥].

ويوصي الخليفة علي (ع) بحفظ حقوق هؤلاء الفقراء والمساكين من بيت مال المسلمين وكذلك يصبهم من غلات صوافي الإسلام، وشدد على مقدار أعطيا تهم من تلك الأموال فأكد أنهم متساوون في مقدار الأعطيات للبعيد مثل القريب وهو مسؤول عن إيصال كل حق

---

(١) القرضاوي، مشكلة الفقر، ص١٢٩.

(٢) الترمذي، سنن الترمذي، ج٣، ص٦١٩.

(*) القانع: الفقير. القرطبي، تفسير القرطبي، ج١٢، ص٦٤ – ٦٥.

(**) المعتر: الزائر. القرطبي، تفسير القرطبي، ج١٢، ص٦٥.

(٣) سورة الحج، آية ٣٦.

(٤) سورة الأنفال، آية ٤١.

(*) قانعاً: الجالس في بيته وهو المكتفي فانه من قنعت به بكسر النون اقنع قناعه وقنعاً وقناعاً. الطبري، تفسير الطبري، دار الفكر، (بيروت – ١٤٠٥هـ)، ج١٧، ص١٧٠.

(**) معتراً: الذي يتعرض لك أي يأتيك معتراً بك لتعطيه وتطعمه. الطبري، تفسير الطبري، ج١٧، ص١٧٠.

وقد عرف الرسول الكريم (ص) المسكين في الحديث الشريف في قوله: (ليس الذي يطوف على الناس وترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس). ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة قم، ج١٧، ص٨٥.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة قم، ج١٧، ص٨٥.

إلى صاحبه فيقول الإمام (ع) لمالك الأشتر: (واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسماً من بيت مالك وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلدة فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى وكل قد استرعيت حقه)[١]. وهو بذلك يسترشد بقول الرسول (ص): (ما من عبد يسترعيه الله رعيته يموت يوم يموت وهو غاش إلا حرم الله عليه الجنة)[٢].

ومن مسؤوليات الوالي الأخرى الاهتمام بأمور الرعية وعدم الانشغال عنهم مهما كانت الأسباب فقد تشغله كثرة المسؤوليات أو التكبر والتبطر عن تفقد ما لا يصل إليه من أخبارهم فيقول (ع) لمالك الأشتر في رسالته: (ولا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تعذر بتضييع التافه لإحكامك الكثير المهم، فلا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم)[٣]. وقد حذر الله سبحانه وتعالى من التكبر والغرور في قوله: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾[٤].

كما حث ولاته على تفقد الرعية بشكل دقيق وذلك ببث العيون الذين يجب أن يكونوا من الثقات وأهل العفاف ينقلوا أخبار ومشاكل الرعية إليه بأمانة فيقول الإمام (ع): (وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم، ممن تقحمه العيون، وتحقره الرجال ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم)[٥].

وأوصى (ع) بصورة خاصة بتعهد الولاة لأمور اليتامى وكبار السن الذين لا طاقة لهم للعمل، حتى لا يعرضوا أنفسهم للمسائلة فإن ذلك صعب على هؤلاء وعيب على الوالي، فقد تعهد الله سبحانه وتعالى نبيه محمد (ص) كما جاء في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ ﴾[٦].

كما أوصى النبي (ص) بالأرامل والمساكين في قوله (ص): (ثم الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله)[٧]. فعظم منزلة من يراعي الأيتام والأرامل والمساكين بمنزلة المجاهد في سبيل الله وتلك هي منزلة عظيمة الدرجة يتوق كل مؤمن لنيلها، وفي هذا يقول الإمام علي (ع) في نفس الرسالة: (وتعهد أهل اليتيم، وذوي الرقة في السن ممن لا حيلة له)[٨].

---

(١) ابن أبي الحديد، ، طبعة قم، ج١٧، ص٨٥.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، ج١، ص١٢٥.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة قم، ج١٧، ص٨٥.

(٤) سورة لقمان، آية ١٨.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة قم، ج١٧، ص٨٥.

(٦) سورة الضحى، الآيات ٦ – ١٠.

(٧) الطبراني، المعجم الأوسط، ج٢، ص٥٥.

(٨) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة قم، ج١٧، ص٨٦.

كما أوضح (ع) أن بعض المحتاجين يصبرون على حاجتهم طلباً لحسن العاقبة التي وعدهم إياها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[١].

وقد أكد الرسول (ص) على هذا بقوله: (يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمس مائة عام)[٢]. بينما البعض الآخر من المحتاجين تضطرهم الظروف إلى عدم الصبر وتعريض أنفسهم للمسائلة فيقول (ع) لمالك الأشتر: (ولا ينصب للمسائلة نفسه وذلك على الولاة ثقيل، والحق كله ثقيل، وقد يخفف الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعد الله لهم)[٣]. ثم يبين الإمام (ع) أنه من صميم مسؤوليات الوالي تجاه الرعية التفرغ لهم والاستماع إلى مظالمهم وشكواهم والصعاب التي يعانون، متواضعاً لله سبحانه وتعالى في هذا المجلس الذي كان الهدف من قيامه أنصاف الناس والاستماع إلى شكواهم فقد أوضح الرسول الكريم (ص) منزلة الأمام العادل في رعيته بقوله: (سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، إمام عادل...)[٤].

كما اشترط الخليفة علي (ع) على ولاته أن يجلسوا أعوانهم وشرطتها وخاصتهم وحرسهم في هذا المجلس دون أن يسمح لهم بالتأثير على أحد هؤلاء المتظلمين لأنه لا بد من وجود أحد من بين هؤلاء المتظلمين من ضاق صدره بظلم أحد من هؤلاء الأمراء أو العمال أو الشرطة فلا منصف له من هؤلاء سوى الله والوالي فبالسلطة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى له وجب عليه إنصافهم وإعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم، كما ذكر ذلك النبي (ص): (كيف تقدس أمة لا يؤخذ من شديدهم لضعيفهم فيها حقه من القوي غير متتعتع)[٥]. ولعله (ص) يقصد بالمتتعتع الذي يتلعثم بالكلام فيكون كلامه مضطرب غير مفهوم أحياناً لشدة خوفه من خصمه فجاء قوله (ع) لمالك: (وأجعل لذوي الحاجات منك قسما وتفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك وتفقد عنهم جندك وأعوانك من حراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع، فإني سمعت رسول الله (ص) يقول في غير موطن، لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من

---

(١) سورة البقرة، آية ١٥٥.

(٢) الترمذي، سنن الترمذي ج٤، ص٥٧٨.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة قم، ج١٧، ص٨٦.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، ج١، ص٢٣٤: مسلم، صحيح مسلم، ج٢، ص٧١٥: ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق السلمي النيسابوري (ت٣١١هـ/٣٢٢ م)، صحيح ابن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، (بيروت - ١٩٧٠م)، ج١، ص١٨٥: ابن حبان البستي، صحيح ابن حبان، ج١، ص٣٣٨.

(٥) ابن حبان البستي، صحيح ابن حبان، ج١١، ص٤٤٥: البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، ج٦، ص٩٥.

القوي، غير متعتع)[١]. كما حذر الرسول (ص) من الظلم ودعوة المظلوم كما جاء في قوله (ص): (اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)[٢]. وكذلك قوله (ص): (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة)[٣]. وقد حث الإمام علي (ع) ولاته على حسن معاملة الرعية وطلاقة الوجه معهم في المجلس ليكون قريباً إلى أنفسهم، حيث أن إظهار المودة من قبل الوالي للرعية كفيل بتوثيق العلاقة معهم، ثم حذرهم من الغضب لأنه يعمي الأبصار والقلوب عن رؤية الحقائق والأمور على ما هي عليه، وقد حذر الرسول الكريم (ص) منه بقوله: (ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب)[٤]. أما الإمام علي (ع) فكان يوصي واليه عبد الله بن العباس بقوله: (سع الناس بوجهك ومجلسك وحكمك، وإياك والغضب فإنه طيرة من الشيطان)[٥].

وفي رسالة له (ع) إلى أحد عماله ولم يذكر اسمه يوجهه فيها إلى كيفيه معاملة الرعية، والمداولة لها بين القسوة والرحمة والشدة واللين والإبعاد والتقريب لضبط أمور الرعية فيقول (ع): (أما بعد، إن دهاقين[٥] أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوه، ونظرت فلم أجدهم أهلاً لان يدنو لشركهم ولا أن يقصوا ويحقروا لعهدهم فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة وداول لهم بين القسوة والرأفة وامزج لهم بين التقريب والإدناء والأبعاد والإقصاء، إن شاء الله). الحارث من بني هاشم وذكر عنده القدرية فقال الهاشمي أعظك بما وعظ به علي بن أبي طالب رضي الله عنه صاحباً له فقال إنه قد بلغني أنك تقول بقول أهل القدر قال إنما أقول إني أقدر على أن أصلي وأصوم وأحج وأعتمر قال علي أرأيت الذي تقدر عليه أشيء تملكه مع الله أم شيء تملكه من دونه قال فارتج الرجل فقال علي (عليه السلام) ما لك لا تتكلم أما لئن زعمت أن ذلك شيء تملكه مع الله عزّ وجلّ فقد جعلت مع الله مالكاً وشريكاً ولئن كان شيئاً تملكه من دون الله لقد جعلت من دون الله مالكاً قال الرجل قد كان هذا من رأيي وأنا أتوب إلى الله عزّ وجلّ منه توبة نصوحاً لا أرجع إليه أبداً الإبانة.

فتمثل علي عليه السلام بهذه الأبيات:

فإن يقسم لك الرحمن رزقا يعد لرزقه المقتضى بابا

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة قم، ج١٧، ص٨٨.

(٢) الترمذي، سنن الترمذي، ج٢، ص٢١.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، ج٢، ص٨٦٤: الحاكم النيسابوري، المستدرك، ج١، ص٥٥.

(٤) مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص٢٠١٤.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٢٤٩: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٢٣٣.

(٥) دهاقين: مفردها دهقان وهو رئيس الإقليم والجمع دهاقنة ودهاقين والدهاقان التاجر والدهقنة رئاسة الاقليم. ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص١٠٧.

وإن يحرمـــك لا تـــسطع بحـــول ولا رأي الرجـــال لـــه اجتلابـــا

فقـــصر في خطـــاك فلـــست تعـــدو بحليتـــك القـــضاء ولا الكتابـــا

أَخْبَرَنَا عَتَّامُ بْنُ عَلِيٍّ عَنْ الأَعْمَشِ عَنْ أبي إِسْحَاقَ عَنْ هَانِئِ بْنِ هَانِئٍ قَالَ[1]: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَدَخَلَ عَمَّارٌ، فَقَالَ: مَرْحَباً بالطَّيِّب الْمُطَيَّب، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ عَمَّاراً مُلِئَ إيماناً إلى مُشَاشِهِ». حديث علي عليه السلام: «إن الإيمان يبدأ لمظة في القلب، فكلما ازداد الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض عظماً» في أشياء من هذا النحو كثيرة يطول ذكرها تبين لك التفاضل في الإيمان بالقلوب والأعمال، وكلها يشهد أو أكثرها أن أعمال البر من الإيمان، فكيف تعاند هذه الآثار بالإبطال والتكذيب؟ ومما يصدق تفاضله بالأعمال قول الله جل ثناؤه ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ إلى قولـــه ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ فلم يجعل الله للإيمان حقيقة إلا بالعمل على هذه الشروط، والذي يزعمه أنه بالقول خاصة يجعله مؤمناً حقاً، وإن لم يكن هناك عمل، فهو معاند لكتاب الله والسنّة ومما يبين لك تفاضله في القلب، قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ ألست ترى أن هاهنا منزلاً دون منزل الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات كذلك ومثله قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فلولا أن هناك موضع مزيد ما كان لأمره بالإيمان معنى، ثم قال أيضاً ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾، وقـــال ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ وقـــال ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أفلست تراه تبارك وتعالى قد امتحنهم بتصديق القول بالفعل، ولم يرض منهم بالإقرار دون العمل، حتى جعل أحدهما من الآخر؟ فأي شيء يتبع بعد كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله سلم، ومنهاج السلف بعده الذين هم موضع القدوة والإمامة؟ فالأمر الذي عليه السنة عندنا ما نص عليه علماؤنا مما اقتصصنا في كتابنا هذا: أن الإيمان بالنية والقول والعمل جميعاً، وأنه درجات بعضها فوق بعض، إلا أن أولها وأعلاها الشهادة باللسان، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي جعله فيه بضعة وسبعين جزءاً، فإذا نطق بها القائل، وأقر بما جاء من عند الله لزمه اسم الإيمان بالدخول فيه بالاستكمال عند الله، ولا على تزكية النفوس، وكلما ازداد لله طاعة وتقوى، ازداد به إيماناً.

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص٥٦٧؛ البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٥، ص٣٩٨.

الخاتمة والنتائج:

- لقد أيد الله تعالى رسوله محمد (ص) برجال آمنوا بالله ورسوله فكانوا جنوده الميامين بحماية الدين ورسله الذين نقلوا الإسلام إلى الناس أجمعين، واستحقوا أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس كما أخبرنا الله تعالى عنهم. فقد تجلت فيهم كفايات متميزة في مختلف المجالات، ومن هؤلاء الإمام علي بن أبي طالب (ع)، صاحب المواقف العظيمة في خدمة الإسلام والمسلمين.
- فقد تربى (ع) في كنف الرسول العظيم (ص) وحظي برعايته واهتمامه منذ سني نشأته الأولى فكان له من الفضائل التي أشار إليها الرسول (ص) إلى الحد الذي جعله فيه وصيه وأخاه استناداً إلى قوله الشريف (أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي) وقوله (ص) (أنت أخي في الدنيا والآخرة) وغيرها من الأحاديث الشريفة التي تؤكد هذه المنزلة الخاصة بالإمام علي (ع).
- أما السبب الذي شدني لاختيار هذا الموضوع كما أسلفنا في المقدمة هو إحساسي بالحاجة الماسة إلى تلمس السيرة العطرة والمناقب الحميدة التي تمثل القدوة، والمثل الأعلى لمن سار على درب الإيمان الحقيقي والمجسد بسلوك شخص الإمام علي بن أبي طالب (ع)، كيف لا، وهو الذي تربى في أحضان الرسول منذ نعومة أظفاره وتأدب وتخلق بأدب وخلق الرسول (ص)، فكان حقاً كل ما عمله يمثل ثمرة يانعة لمدرسة الرسول الكريم (ص). فما أحوجنا اليوم إلى معرفة مناقب وسير الشخصيات الإسلامية الرائدة لتكون لنا المنار للسير على خطاهم وسيرهم.
- وبما أن الكلام عن مناقب الإمام أبي الحسن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) تضيق به الأسفار الكبيرة، وفضلاً عن كوني في هذا المقام أركز في بحثي على إبراز جانب محدد من سيرة الإمام علي (ع)، ألا وهو الجانب الإداري من خلافته، تلك الفترة التي شهدت اضطرابات ومنازعات عديدة ومتواصلة إلى الحد الذي طغت فيه على مجريات الإصلاح والتنظيم الإداري للدولة لذا كان جل ما تناوله الباحثون في هذا الجانب يمثل حيزاً موجزاً قياساً إلى ما سلط على تناول الحروب والفتن التي جابهت الإمام علي في خلافته. لذا أدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني في توضيح معالم إدارة الإمام علي للدولة في هيكليتها المالية والحربية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.
- أن مجمل ما يريد أمير المؤمنين علي (ع) توضيحه انه على الحاكم أن يتوقع كل الأمور من الرعية فهم ليس على درجة أو مستوى واحد من العلم والمعرفة والكفاءة والقدرات في جميع ملكاتهم. فهم متفاوتون في كل شيء فلا يطلب أو يتوقع منهم أو من نفسه الكمال في التصرفات لأن الكمال لله سبحانه وحده، إذن على الوالي أن يواجه الخطأ وقصور الرعية برحابة صدر. فهذا من صميم واجبه كراعي لهذه الرعية، تأسياً بقول الرسول (ص): (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته فالأمير راع وهو مسؤول عن رعيته).

المصادر والمراجع:

- **ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢ م).**

١. أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط٢، تحقيق: محمد إبراهيم البنا وآخرون، دار الشعب، لا. م، لا. ت. (٨ أجزاء).

٢. الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥.(١٠ أجزاء).

وطبعة ثانية، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.

- **الاسفرائيني، أبو عوانة يعقوب بن إسحاق (ت٣١٦هـ/٩٢٨ م).**

٣. مسند أبي عوانة، ط١، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٨م. (٥ أجزاء)

- **الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت٤٣٠هـ/١٠٣٨ م).**

٤. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط١، مطبعة السعادة لا. م، ١٩٣٥م.

- **الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي (ت٣٤٠هـ/٩٥١ م).**

٥. المسالك والممالك، تحقيق: محمد الحسيني، القاهرة، ١٩٦١م.

- **ابن أعثم، أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ/٩٢٦ م).**

٦. الفتوح، ط١، تحقيق: محمد عبد المنعم، مطبعة دار المعارف العثمانية، الهند، ١٩٧٥.

- **الأنباري، محمد بن القاسم (ت ٣٢٨ هـ/٩٤٠ م).**

٧. الاضداد تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، التراث العربي، سلسلة تصدرها دار المطبوعات في الكويت، ١٩٦٠م.

- **الأندلسي، محمد بن يحيى بن أبي بكر المالقي (ت٧٤١هـ/١٣٤٠ م).**

٨. التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، ط١، تحقيق: محمد يوسف زايد ن دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٥هـ.

- **البحراني، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم (ت ٦٧٢ هـ/١٢٧٣ م). (٤ أجزاء)**

٩. شرح نهج البلاغة، منشورات مؤسسة النصر، ١٣٨٤هـ.

- **البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجحفي (ت٢٥٦هـ/٨٦٩ م).**

١٠. صحيح البخاري، ط٣، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير – اليمامة، بيروت، ١٩٨٧. (٦ أجزاء)

١١. التاريخ الكبير، مطبعة دار المعارف العثمانية، لا. م، ١٩٤٠م.(٤ أجزاء)

- **البزاز، أبو بكر عمرو بن عبد الخالق (ت٢٩٣هـ/٩٠٥ م).**

١٢. مسند البزاز، ط٣، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٤٠٩هـ. (١٠ أجزاء)

- **البغدادي، أبو عبد الله إسماعيل بن القاسم.**

١٣. الأمالي والنوادر، دار الكتب العلمية، بيروت، لا. ت.

- **ابن بكار، الزبير (ت ٢٥٦ م/٦٨٩ م).**

١٤. الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكي العاني، دار إحياء التراث الإسلامي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٢.

- **البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤ م).**

١٥. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط٣، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ. (٤ أجزاء)

- **البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ/٨٩٢ م).**

١٦. فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.

- **البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسن بن علي بن موسى (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥ م).**

١٧. سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا. مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م. (١٠ أجزاء)

- **الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي (ت٢٧٩هـ/٨٩٢ م).**

١٨. سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت. لا. ت. (٥ أجزاء)

- **التميمي، النعمان بن محمد (ت٣٦٣هـ/٩٧٣ م).**

١٩. دعائم الإسلام. ط١. دار المعارف. مصر. ١٣٨٥هـ.

- **الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/٨٦٨ م).**

٢٠. البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م.

٢١. الرسائل السياسية للجاحظ، ط٣، قدم لها وبوبها وشرحها: علي أبو ملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٥م.

وطبعة ١. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي، (القاهرة - ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م) (٤ أجزاء).

- **ابن الجارود النيسابوري، أبو محمد عبد الله بن علي (ت٣٠٧هـ/٨٢٢ م).**

٢٢. المنتقى لابن الجارود، ط١، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨.

- **ابن جعفر الطبري، أحمد بن عبد الله بن محمد (ت٦٩٤هـ/١٢٩٤ م).**

٢٣. الرياض النضرة في مناقب العترة، ط١، تحقيق: عيسى عبد الله محمد مانع الحميري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦ (٢ أجزاء).

- **ابن جماعة، الإمام بدر الدين بن جماعة (ت٨٣٣هـ/١٤٤١ م).**

٢٤. تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام. (لا.ت) (لا. ج).

- **الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت٣٣١هـ/٩٤٤ م).**

٢٥. الوزراء والكتاب. ط١. عني بتصحيحه وتحقيقه ومراجعته: عبد الله إسماعيل الصاوي، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر. ١٣٥٧هـ/١٩٣٨.

- **ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠ م).**

٢٦. صفوة الصفوة. ط١. حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٣٦م. (٤ أجزاء).

٢٧. العلل المتناهية. ط١. تحقيق: خليل الميس. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ. (٢ أجزاء).

- **الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم (ت٤٠٥هـ/١٠١٤ م).**

٢٨. المستدرك على الصحيحين، ط١، تحقيق: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م. (٤ أجزاء).

- **ابن حبان البستي، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم (ت٣٥٤هـ/٩٦٥ م).**

٢٩. صحيح ابن حبان، ط٢، تحقيق: شعيب الارنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م.(٨ أجزاء)

- **ابن حجر العسقلاني، شباب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨ م).**

٣٠. الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م. (٨ أجزاء).

٣١. لسان الميزان، ط٣، مؤسسة الأعلمي للطباعة، بيروت، ١٩٨٦م. ص٧٠.

٣٢. تهذيب التهذيب، ط١، حيدر اباد الدكن، الهند، لا. ت.

- **ابن أبي الحديد، أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن حمد بن الحسين (٦٥٦هـ/١٢٥٨ م).**

٣٣. شرح نهج البلاغة. مراجعة وتصحيح: لجنة أحياء الذخائر. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لا. ت. (٥ أجزاء).

وطبعة قم، ١٤٠٤هـ. (٢٠ جزء).

- **ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد الشيباني (ت ٢٤١هـ/٨٥٥ م).**

٣٤. فضائل الصحابة، ط١، تحقيق: وصي الله ومحمود عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣م. (٢ أجزاء).

٣٥. مسند أحمد بن حنبل، مؤسسة قرطبة، مصر، لا. ت. (٦ أجزاء)

٣٦. الحليمي، الشيخ الإمام الحافظ أبي عبد الله الحسين بن الحسن (ت٤٠٣ هـ/١٠١٢ م).

٣٧. المنهاج في شعب الإيمان، ط١، تحقيق: حلمي محمد فوده، دار الفكر للطباعة والنشر، لا. م، ١٩٧٨م.

- **الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م).**

٣٨. معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، لا. ت. (٥ أجزاء)

- **ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله (ت٣٠٠هـ/٩١٢ م).**

٣٩. المسالك والممالك، بغداد، ١٩٨٩م.

- **ابن خزيمة، محمد بن اسحاق أبو بكر السلمي النيسابوري (ت٣٢١هـ/٩٣٣ م).**

٤٠. صحيح ابن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الاعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٠م.(٤ أجزاء).

- **ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥ م).**

٤١. المقدمة دار إحياء التراث العربي، بيروت، لا. ت.

- **ابن خياط، خليفة بن خياط الليثي العصفري (ت٢٤٠هـ/٨٥٤ م).**

٤٢. تاريخ خليفة بن خياط، ط٢ تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار العلم الملايين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٧م. ❖

بطولة علي بن أبي طالب

د. زكي المحاسني(*)

لا أزال أتمثل علياً بن أبى طالب صغيراً ابن عشر سنين حين أقبل على النبى - صلوات الرحمن عليه - مسلماً. لكأنى كنت أراه مؤتزراً بإزار مشمر وهو منحسر الرأس ضاحيه يدلف إلى مجالس أبيه وقد ازدحمت عليها قريش تسائله خبر فتاه محمد بن عبد الله، ما شأنه؟ وما هذا الذى ابتدره في الدعوة إلى أمر يسمى الإسلام... وكان فيمن مثل إلى أبى طالب يسائله عن أمر هذا الفتى القرشى الذى تفرد بهذه الدعوة العنيفة التى خشى الكبراء أن تزلزل بهم ما كانوا عليه من مجتمع ودين، مثل عتيبة وشيبة بن عبد شمس بن عبد مناف ومعهما أبو سفيان محرك الفتن يومذاك واسمه صخر وفيه صفات الصلابة التى في الصخور وغيرهم نفر هائجون صاخبون فإذا هم يبتدرونه:

- يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل أبناءنا. فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه.

فتبسم في وجوه وفد الثورة الفرسية على الرسول عليه صلوات الله وصرفهم بسياسة وسلام وكان يمارس حرباً في نفسه داخلية، فهو لم يرض عن ابن أخيه فيما جاء به من هذه الشرعة الحديثة وهو إلى ذلك مشفق منه يخشى عليه ما يخشى على ولده وقد شب في حجره فكان كأحد أبنائه.

وتعود وفود الثورة إلى أبى طالب تناهده في أمر ابن أخيه الذى لم يرجع عنه وإنما مضى في ازدياد وصلابة وإيمان ينشر دينه ويدعو إليه فقال له قائلهم المتكلم باسمهم وهو محتسب في مجلسه مقطب الجبين سادر في التفكير:

- يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنه، وإنا والله لا نصبر على هذا حتى يهلك أحد الفريقين.

وحين انصرفوا عظم الخطب على أبى طالب فلم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه لقد أحببت في تصوير المجلس الذى كان يحتبى في بهرته أبو طالب زعيم قريش وكبيرها وموضع ثقاتها وبيانها، الأول على ما كان يشهده على بن أبى طالب ابن عم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ورضى عن ابن عمه. كان يقتعد على غرارة صباه مكاناً بجانب أبيه فيدير رأسه في وجوه أولئك المحتجين الصاخبين الذين كان يتلقاهم أبوه بطول البال والأناة والابتسام ليصرفهم بسلام فجمع إلى خلائقه السياسة والكياسة.

فاختمر في وجدان ذلك الصبى المتطلع إلى الآفاق الآتية من حياة الإسلام والجهاد وصفاء الإيمان، التوق إلى هذا الرسول الذي نهض في ابن عمم.

(*) الدكتور زكي شكري المحاسني الدمشقي (١٣٢٦ - ١٣٩٢هـ/١٩٠٨ - ١٩٧٢م) من مشاهير أدباء سورية في القرن العشرين. له كتب عدة مطبوعة منها كتاب: (الأدب الديني) نشرناه في بيروت ١٩٨٨ وله قصيدة في بطولة الإمام علي (ع) بعنوان (أمصارع الأبطال) نشرناها في المجلد (٧) من موسوعة الموسم ص ٨٦١ لسنة ١٩٩٠.

وكان أهل الرسول وأبناء عمومته ومن لف لفهم من أهله منبهرين عجبين برسالته ودهشين لمفاجآتها فذكرت وأنا أحلك من وراء العصور أخلاقهم وسجاياهم إذا قيسوا على أخلاق المعاصرين بأن الحسد إنما ينبع بين الأقارب أول ما ينبع وبين المتجاورين والمتشابهين، ومر في خاطرى قول قاله الأديب الفرنسى أمير الشعراء المعاصرين جان كوكتو عضو الأكاديمية الفرنسية وقد توفي منذ ثلاث سنوات وكان شاعراً وناثراً كما كان خطيباً وممثلاً وهو إلى ذلك كله كان مصوراً ونحاتاً، فلقد تعددت مواهبه وكانت جميعاً لا تملأ أعين أهله فلم يكن أحد من أقربائه يعترف له بالنبوغ فقال قولته المشهورة:

"لا حظ للموهوب في أسرته".

وفيم لا أدعو إلى صاحبي على العمر أبي الطيب المتنبي فلقد كان يقول:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

إنا في أمة، تداركها الله، غريب كصالح في ثمود

وكان أبو طالب شاعراً رهيف الحس، طلق اللسان ذا بيان معهود في قوله وله شعر يحفظونه فكان على ابنه يستمع إلى هذا الشعر وهو صبى فيسلك في سمعه وينساب إلى خاطره ويولد موهبة الشعر المبكرة عنده.

ـ انطلق بنا إلى أبى طالب فلنخفف عنه من حياته آخذ من بينه وأنت تأخذ من بينه من يشاء.

وانطلقا، وقدما على الشيخ الوقور أبى طالب وهو ملفف في عباءته التى توشك أن تتمزق، فقالا له تلك المقالة الإنسانية في حمل العبء عنه. فأخذ الرسول (عليه السلام) علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه فكان أن أسلم على إسلاماً مبكراً وهو صبى ابن عشر سنين فأخذ الرسول يربيه ويعلمه أمور الدين ويزرع في فؤاده الصغير الإيمان الكبير حتى نما فؤاده واتسع لهذا الدين المبين.

وجاءهما يوماً أبو طالب وهما يلعبان فقال لابنه على بعد أن أنفتل من صلاته:

ـ أى بنى، ما هذا الدين الذى أنت عليه؟

فقال الفتى وهو يتألق نورا لأبيه الشيخ الوقور.

ـ يا أبت آمنت بالله وبرسوله، وصدقت ما جاء به وصليت معه.

يومذاك قال أبو طالب كلمته التاريخية الرائعة ـ للرسول صلوات الله عليه ـ التى كانت عنوان الذمم في دنيا الإسلام ومثال الدفاع في عالم الأسرة:

ـ والله لا يخلص أحد إليك بشيء تكرهه ما بقيت حيا.

ولعل التاريخ لم يفصل القول كيف كان الرسول يرتب عليا في البطولة والفروسية واللعب بالسيف وركوب الخيل، فإن عليا ظهر في حروبه وجهاده كأروع بطل في المناجيل

فكان يجيد التمرس بأظهر الخيل وهى مرضاة الأزمة وكان مصمم الضربة لا تخيب طعنته ولا ينبو سيفه وكان شجاعاً إذا برز في العراك شق الصفوف وشتت الفرسان ولم يخسر أية مبارزة في أية غزوة أو حرب أو مباطحة.

وهذه غزوة بدر الكبرى تشهد ببطولته حين تنمر الحارث فقتله على بن أبى طالب وبرز في المعمعة عتيبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد، فأخذت أتصور هذا البطل المغوار الذى كان دعامة قريش في حربها ببدر تلقاء جيش الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ولست أشك في أنه كان لابساً لأمة مضاعفة مهنوءة تصل به أزرادها وسلاسلها كلما تحرك وعلى جواده درع سابغة وخوذته على رأسه بين منها عيناه فيما يغطى منها وجهه.

فبرز إليه ثغر لم يملأوا عينيه، فصرخ:

- يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

- قم يا على.

فنهض بطل الملحمة الإسلامية الأولى، على بن أبى طالب، فهز سيفه القرضاب وقد أسلم العلم لمن يليه وتبارز البطلان الضرغامان وتخالفا ضربات حتى تمكن على من مقاتل عتبة فقتله وقتل ابنه الوليد.

وتزاحف المتجالدون فكان على يشق الصفوف بحسامه وينبرى كالصاعقة حتى كانت له البطولة الأولى في معركة بدر الكبرى.

وقد صورت هذه البطولة في النشيد الخاص به في الملحمة العربية، فلقد ضم البيان إلى الحسام والورع إلى الفروسية والتقوى إلى المقام العزيز، فليت البطاح التى توارى جسده الطاهر فيها الخطاب أو الكتاب أذن لهتفت فيه سجيس الليالي تقول:

علي يا دفعي على كل هالك ضممتك في قلبي بليل الحوالك

إذا لمعت شمس الضحى خلت أنها سيوفك لما أشرقت في المعارك

الإمامـــة
وحقـوق الأقليـات الدينيـة
الإمام علي (عليه السلام) أنموذجاً

م. د. خولة مهدي شاكر الجراح
كلية الفقه - جامعة الكوفة

مقدمة:

من العبث أن يحاول أحد إنكار ما حدث في حقب تاريخية طويلة من كوارث إنسانية وأحداث دموية أورثت المجتمع البشري دماراً وخراباً وإراقة دم أثر اعتبار الأمر المتفاوت والمختلف عقيدياً ودينياً مستحقاً للعذاب.

وزخرت صفحات التاريخ بإلحاق أشد العقوبات وأقسى العذاب بأناس لم يكن لهم ذنب إلا الاختلاف في الرأي والعقيدة، ولا يختلف الآن عن السابق كثيراً في وجود مثل هذه الصراعات والفتن من أقصى بقاع العالم إلا أقصاها، وإن الصراع العقيدي أو الفكري مما لا يمكن حصره في دين أو مذهب دون آخر.

والذي يروم إليه البحث هو بيان ضرورة الاعتراف بوجود آخر يختلف معنا في الرأي والرؤية وفي الدين والعقيدة وأن نتأكد من استحالة استئصال التعدد المذهبي والديني من خلال ممارسة الإلغاء وأعمال الشطب ضده.

والذي نتطلع إليه في هذا البحث التعرف على الرؤية الإسلامية المتجسدة بشخصية نظير الرسول (صلى الله عليه وآله) وأمينه ووصيه الإمام علي (عليه السلام) أنموذجاً لتلك الرؤية المحقة سعياً لتقديم حدود وأطر من الإنسانية والعقلانية والفطرة من جهة أخرى حيث تنطوي على الإيمان بالله وبالقيم المشتركة بين أبناء البشر، الأمر الذي جاء الدين مع اختلاف أسمائه وتعدد نسخه في كل حقبة تاريخية لتكريسه وتمتينه في الحياة وأحسب أن الوصول إلى فهم أن الدين بكل تجلياته وتبلوراته جاء ليدفع الإنسان إلى الأمن لا يدعوا إلى بذل جهد كبير، ولعل من خير فوائد مثل هكذا بحوث الوصول إلى تكريس الأصول الدينية والحقائق السامية في الشرائع السماوية أهم بكثير من التركيز على الجانب التشريعي والمنهاجي المتعلق بالظروف الزمانية والحيثيات الاجتماعية، وإلا فإن الطريق المؤدي للخلاص واحد غير متعدد والصراط حسب التعبير الإلهي مفرد لا يتعدد.

المبحث الأول
المفهوم اللغوي والاصطلاحي لمفردات العنوان
(الإمامة، الحق، الأقليات)

أولاً: الإمامة

١ ـ المفهوم اللغوي:

الأم: القصد، أمه يؤمه أما إذا قصده[١].

والإمام بمنزلة القدّام يقال: فلان إمام القوم، معناه هو المتقدم لهم[٢]، وفي الحديث الشريف: (إن أم الكتاب هي فاتحة الكتاب)[٣] لأنها هي المتقدمة أمام كل سورة في جميع الصلوات، وابتدئ بها في المصحف فقدمت[٤].

والإمام: كل من أقتدي به وقدم في الأمور، والنبي (صلى الله عليه وآله) إمام الأمة، والخليفة إمام الرعية، والقرآن إمام المسلمين[٥] والإمام: المؤتم به، إنسانا كأن يقتدى بقوله أو فعله. أو كتاباً أو غير ذلك، محقاً كان أو مبطلاً[٦].

ومن خلال الجذر اللغوي لمفهوم الإمامة نستطيع التوصل إلى المفهوم الاصطلاحي لها فهو منحدر عن ذلك الأصل.

٢ ـ المفهوم الاصطلاحي:

يجب علينا قبل التوغل في المعنى الاصطلاحي للإمامة أن نبين أن المراد بالمعنى اللغوي للإمام هو كل ما أقتدي به وقدّم في الأمور والذي يؤتم به أما في الصلاة أو الجهاد، أو في جميع الشؤون السياسية والاجتماعية سواء كان بحق أو بباطل، فعن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (إن الأئمة في كتاب الله ـ عزّ وجلّ ـ إمامان: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[٧] لا بأمر الناس يقدمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم. وقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[٨] يقدمون أمرهم قبل أمر الله وحكم الله ويأخذون بأهواءهم خلاف ما في كتاب الله)[٩] وفي سورة التوبة: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾[١٠].

ولما كانت إمامة الأئمة الإثني عشر ثابتة عندنا بالنص وبوجدانهم شرائط الإمامة الحقة. صار هذا سبباً لانصراف لفظ الإمام عندنا إليهم (عليهم السلام)، حتى كأن لفظ الإمام وضع لهم. فالإمامة: (هي منصب إلهي يختاره الله سبحانه وتعالى بسابق علمه بعباده. كما يختار النبي، ويأمر النبي بأن يدل الأمة عليه، ويأمرهم بأتباعه)[١١] وبذلك فالإمامة هي عهد من الله بينه وبين من يختاره لذلك وتعتبر الإمامة هي الأصل الذي امتازت به الإمامية وافترقت عن سائر فرق المسلمين، وهو فرق جوهري أصلي، وما عداه

من الفروق فرعية عرضية، كالفروق التي تقع بين أئمة الاجتهاد عندهم كالحنفي والشافعي وغيرهم[١٢].

وقد أجمع المسلمون على وجوب الإمامة إلا ما يحكى عن أبي بكر الأصم من قدماء المعتزلة من عدم وجوبها إذا تناصفت الأمة ولم تتظالم، وقال المتأخرون من أصحابه: إن هذا القول غير مخالف لما عليه الأمة، لأنه إذا كان لا يجوز في العادة أن تستقيم أمور الناس من دون رئيس يحكم بينهم فقد قال بوجوب الإمامة على كل حال[١٣] ووافق الأصم بذلك النجدات من الخوارج[١٤].

وقد أختلف في دليل وجوب الإمامة هل هو العقل أم الشرع أم هما معاً في كلام طويل نحيل من يريد الاطلاع عليه إلى مصادرها.

ثانياً: الحق

١ - المفهوم اللغوي:

الحق نقيض الباطل، وجمعه حقوق وحقائق، وفي حديث التلبية: لبيك حقاً حقاً أي غير باطل..، وهو مصدر مؤكد لغيره، كما تقول: هذا عبد الله حقاً فتؤكده به وتكرره لزيادة التأكيد[١٥].

والحق: الوجوب واللزوم والثبات، قال تعالى ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[١٦] أي وجبت وثبتت[١٧].

وأحقه: صيره حقاً. وحقه وحققه: صدقه.

ويقال أحققت الأمر إحقاقاً إذا أحكمته وصححته.

وحققت الأمر وأحققته إذا كنت على يقين منه.

وأحتق القوم: قال كلمة واحدة منهم: الحق في يدي[١٨].

وورد في كتب اللغة[١٩] معانٍ عدة للحق منها:

١ - الحق من أسماء الله عزّ وجلّ، وقيل من صفاته، قال ابن الأثير: هو الموجود حقيقته المتحقق وجوده وإلهيته.

٢ - الحق: التنزيل، قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ ﴾[٢٠] أي بالقرآن على الكفر. وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾[٢١] قال الزجاج: ويجوز أن يكون الحق هنا التنزيل أي لو كان القرآن بما يحبونه لفسدت السماوات والأرض.

٣ - الحق بمعنى الحظ والنصيب، جاء في الحديث: (وأعط كل ذي حق حقه) أي حظه ونصيبه الذي فرض له.

ومن معاني الحق: الأمر المقضي، والعدل، والإسلام، والمال، والملك، والموجود الثابت، والموت، والحزم)[٢٢].

وعند النظر في هذه المعاني التي ذكرت للحق نجدها جميعاً ترجع لأول وهلة إلى معنيين.

الأول: الأمر الثابت المتحقق.

الثاني: المطابقة والموافقة

فإطلاقها على الباري سبحانه وعلى الأمر المقضي وعلى الموت وعلى الملك والنصيب واليقين والحزم وأمثالها: لأنها ثابتة واقعاً أو اعتباراً.

وإطلاقها على القرآن والإسلام والصدق والعدل ومقابل الباطل باعتبار مطابقتها للواقع: فالحق عرفاً الحكم المطابق للواقع يطلق على الأقوال والعقائد والأديان والمذاهب باعتبار اشتمالها على ذلك[٢٣].

غير أن المطابقة والموافقة تعني بالتالي: الثبوت، ولذلك فإنه يمكن إرجاع معاني الحق جميعها إلى ذلك[٢٤].

٢ ـ المفهوم الاصطلاحي:

لقد عرّف الحق اصطلاحاً عدة تعريفات، وأغلبها منحدر عن الأصل اللغوي لها، وخصوصاً ما ورد في القرآن الكريم.

إن أغلب مضامين كلمة الحق ترجع جميعاً إلى معنى التحقق والثبوت[٢٥].

لقد عرّف السيد الخوئي الحق بأنه: (يصح إطلاق الحق على كل أمر متقرر في وعائه المناسب له سواء أكان هذا تقررا تكوينياً أو اعتبارياً)[٢٦].

أما توسلي فقد عرفه بأنه (ثبوت اعتباري لأمر وضعي، وقد تقرر لشخص بنحو يكون في صالحه وامتيازاً له)[٢٧].

ويقول الدكتور أمجد الزهاوي (ومن الأصوليين من أراد أن يعرف الحق تعريفاً جامعاً، فعرفه محمد عبد الحليم اللكنوي بأنه: حكم يثبت. إلا أن تعريفه جاء مجملاً في بيان ما يتميز به الحق، وواضح أن مراده بالحكم أثر لا ذات الخطاب. وقد وضع الفقهاء المعاصرون عدة تعريفات للحق، منها تعريف أستاذنا الشيخ علي الخفيف: بأنه مصلحة مستحقة شرعاً. وتعريف أستاذنا الشيخ مصطفى الزرقا بأنه: اختصاص يقربه الشرع سلطةً أو تكليفاً)[٢٨].

ثالثاً: الأقليات

١ ـ المفهوم اللغوي:

الأقليات من القلة، والقلة بالكسر: ضد الكثرة والكثر[٢٩]. وقوم قليلون، أقلاء، قلل. ويكون ذلك في العدد ودقة الجثة والنحافة والقليل من الرجال: القصير الجثة النحيف [illegible][٣٠].

قال تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ﴾[٣١] أي كثر عددهم أو زادهم غنى[٣٢]. وتذكير بتدرجهم من القلة إلى الكثرة[٣٣].

ويلاحظ أن القلة تشير إلى النقص كما جاء في القرآن الكريم ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[٣٤].

وكذلك تستخدم لبيان حالة اجتماعية إلى جانبها صفة الاستضعاف كما في قوله ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٣٥] **والاستضعاف عد الشيء ضعيفاً بتوهين** أمره[٣٦].

٢ - المفهوم الاصطلاحي:

لم يعرف مصطلح الأقلية في الحضارة الإسلامية بدلالته المعاصرة التي تعرفها العلوم السياسية والاجتماعية المعاصرة، والتي تعني: مجموعة خصائص تفارق بها الأقلية الأغلبية، فإنما صارت أقلية لكونها أقل عدداً ولديها خصائص تفارق بها الأغلبية العددية في المقومات الطبيعية أو الثقافية، ويؤدي هذا الاختلاف إلى تدني نصيبها من القوة الاجتماعية والسياسية، وتعرضها لممارسة تمييزية تدفع بأفرادها إلى التضامن فيما بينهم لمواجهة هذه الأخطار والممارسات مما يؤدي إلى توتر في العلاقة بين الأقلية هذه والأغلبية في المجتمع وتقلل من فرص التعايش والاندماج[٣٧].

وقد عرفت الأقلية بأنها: جزء من سكان دولة معينة، كما أن الأغلبية تراها بصورة مختلفة أو تعترف لها بمكانة خاصة مجتمعياً[٣٨].

وعرفت كذلك بأنها: جماعة تصر لأسباب تخصها على أن تبقي نفسها خارج نطاق الأغلبية متشبثة بوضعها الماضوي وبخصوصيتها النسبية أو الثقافية أو الأقوامية[٣٩] ويلاحظ من هذه التعريفات أن الأقلية تتميز بوجود خصائص في العقل القيمي متميزة عن خصائص ذلك العقل عند الأغلبية، وربما تعاني تهميشاً اجتماعياً، وانكفاء على الذات مما يشجع ظهور شعور تضامني داخلي يوحدها في مواجهة الأغلبية أو الأقليات الأخرى.

أما الحضارة الإسلامية فقد عرفت مصطلحات أخرى، ولها مفاهيمها الخاصة كانت تعبر بها عن الآخرين الذين يختلفون عن المسلمين[٤٠]. مع ملاحظة إن المعيار الأساس للتمييز بين الناس في التفكير العملي لدولة الإسلام كان قائماً على أساس الدين، حتى داخل الجماعة المسلمة: لاعتبار إن دولة الإسلام هي دولة دينية وعقائدية لقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٤١] وقوله: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٤٢] إلا أن معيار التفاضل بين الناس قد بني على التقوى لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٤٣] والتقوى هنا التزام أوامر الله ونواهيه[٤٤].

فالأقلية داخل الدولة الإسلامية هي تلك الجماعات التي تعيش داخل المجتمع الإسلامي على سبيل الاستقرار (الدوام) بيد أن لها أحكاماً شرعية مختلفة عن أحكام المسلمين أو الذين فارقوا جماعة المسلمين بتأويل ديني لا يسوغ، أي لا تجيزه قواعد اللغة وضوابط الشرع، فيدخل ضمن هؤلاء الفرق التي عدت خارجة عن الإسلام[٤٥].

وهكذا بعد أن تعرفنا على كل من مصطلحات الإمامة والحق والأقليات سوف يخوض البحث في معرفة كيفية تعامل الإمام علي (عليه السلام) مع هذه الأقليات وما لها من حقوق في ظل أمة موحدة إسلامية.

المبحث الثاني

المنظور الإسلامي للأقليات الدينية

الإمام علي (عليه السلام) أنموذجاً

لعل من المهم أن ندرك طبيعة النظرة الإسلامية إلى النفس الإنسانية بصفة عامة لندرك كيف تناول المنهج الإسلامي قضية غير المسلمين وكيفية التعامل معهم.

إن النفس الإنسانية بصفة عامة مكرمة ومعظمة وهذا الأمر على إطلاقه وليس فيه استثناء بسبب لون أو جنس أو دين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٤٦].

وهذا التكريم عام وشامل للمسلمين وغير المسلمين، فالجميع مفضل على الكثير من خلق الله، وقد انعكس هذا التكريم العام على كل بند من بنود الشريعة الإسلامية.

وإذا علمنا أن المسلم يعتقد أن الحساب يوم القيامة بيد الله وحده، أدركنا إن المسلم لا يفكر مطلقاً في إجبار الآخرين على اعتناق الإسلام، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[٤٧].

فمهمة المسلم ببساطة أن يصل بدعوته نقية إلى غير المسلم، أما ردود أفعالهم تجاه هذه الدعوة فلا يسأل عنها المسلم ولا يحاسب عليها، قال تعالى ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[٤٨].

من هذا المنطلق جاءت أوامر الشريعة الإسلامية الخاصة بالعدل والرحمة والألفة والتعارف، وفضائل الأخلاق جاءت عامة تشمل المسلمين وغير المسلمين.

الأقليات الدينية في المجتمع الإسلامي:

تقتضي سنة الله أن يتجاور في الاجتماع الإنساني أهل مختلف الملل والنحل، كما يتجاور فيه أهل الألوان والألسنة. وهم جميعاً إخوة لأب وأم، وإن تباعد بمعاني الأخوة الإنسانية

طول الأمد بين الأصول والفروع. ولذلك قرر القرآن هذه الحقيقة في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[٤٩].

وفي الحديث: (يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد: كلكم لآدم وآدم من تراب)[٥٠].

فكان أول لقاء بين الإسلام – الدولة – وبين غير المسلمين المواطنين في الدولة الإسلامية وهو ما حدث في المدينة المنورة غداة الهجرة النبوية إليها. وكان لابد للدولة من نظام يرجع أهلها إليه، وتتقيد سلطتها به (الدستور). عندئذ كُتبت بأمر الرسول (صلى الله عليه وآله) – والغالب أنها كتبت بإملائه شخصياً – الوثيقة السياسية الإسلامية الأولى المعروفة تاريخياً باسم: وثيقة المدينة، أو صحيفة المدينة، أو كتاب النبي (صلى الله عليه وآله) إلى أهل المدينة، أو كما يسميها المعاصرون: دستور المدينة.

وفي هذه الوثيقة نقرأ أنها: (كتاب من محمد النبي رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم،

- أهم أمة من دون الناس.
- وأن من تبعنا من يهود، فأن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.
- وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن.
- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.
- وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم: مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم.
- وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.
- وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.
- وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.
- وأن ليهود بني حُبشَم مثل ما ليهود بني عوف.
- وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف.
- وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.
- وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم)[٥١].

فهذه قبائل، أو تجمعات يهودية، تنص الوثيقة عليها، وتقرر لهم مثل ما ليهود بني عوف.

وتقرر الوثيقة النبوية إن بينهم النصح ـ هم والمسلمون ـ على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصر والنصيحة، والبر دون الإثم، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره (أي الله شاهد ووكيل على ما تم الاتفاق عليه).

فهذه الوثيقة تجعل غير المسلمين المقيمين في دولة المدينة مواطنين لهم من الحقوق مثل ما للمسلمين، وعليهم من الواجبات مثل ما على المسلمين.

١ ـ الإمام علي (عليه السلام) وأهل الكتاب:

يميز الإسلام بين نوعين من الأديان:

- الأديان السماوية، أي التي نزل إليها كتاب من السماء كالمسيحية واليهود والصابئة والمجوس.
- وأديان المشركين من عبدة الأشخاص والأشياء وحدها أو إلى جانب الله تعالى.

وتعاطى مع كل فئة على نحو يختلف عن تعاطيه مع الأخرى.

وفيما يلي لن نتطرق إلى مناقشة الموقف من المشركين وسنقصر كلامنا على أهل الكتاب:

لقد وضعت مصادر التشريع أسس التعامل مع أبناء الأديان الأخرى، وطبقها الخلفاء الراشدين الذين سبقوا الإمام علي (عليه السلام)، ولم تبق إلا أمور محددة عالجها الإمام علي (عليه السلام).

فالإسلام لم يساوِ الذمي بالمسلم، بل جعله في وضع يجد مصلحته في الخلاص منه واعتناق الإسلام، فقد فرض عليه الخراج في الأرض، أو الجزية على الرؤوس إذا كان قادراً على القتال استدلالاً بالآية الكريمة: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[٥٢].

وكما إن الإسلام حرّم على أهل الذمة أن يتبوأوا مناصب الولاية على المسلمين من إمارة وقضاء وما إليها بدليل الآية الكريمة: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٥٣]، والآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[٥٤] وفي النكاح يمنع الإسلام زواج المسلمة بكتابي في حين يسمح بزواج المسلم بكتابية. أما في مسائل القصاص، فليس هناك إجماع من المسلمين في موضوع نفس المسلم ونفس الكتابي، إذ ترى بعض المذاهب إن هناك مساواة بحيث يقتل المسلم بالكتابي كالحنفية، فيما ترى مذاهب أخرى أنه لا يقتل إلا إذا اعتاد قتل أهل الذمة[٥٥].

وفيما خلا هذا إذا تفحصنا موقف الإمام علي (عليه السلام) من أهل الذمة، فأننا نراه ينطلق من قوله في عهده إلى مالك الأشتر عندما ولاّه مصر إذ يقول: (وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخٌ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق)[٥٦].

أما تفصيل هذا الموقف وبحسب المصادر التي بين أيدينا فيبتدئ في: مسألة ممارسة الشعائر الدينية، ومسألة أرواحهم، وكراماتهم، وأموالهم، وحقوقهم الاجتماعية والاقتصادية، وفي مساواتهم بالمسلمين.

٢ - تعامل الإمام علي (عليه السلام) مع أهل الذمة:

أ - مسألة ممارسة الشعائر الدينية:

لم يتعرض الإمام علي (عليه السلام) لأهل الكتاب في ممارستهم لشعائرهم الدينية بالطريقة التي وردت في عهود الخلفاء السابقين له، ومن هنا، فإنه يكون معترفاً ضمنياً بحريتهم بممارسة هذه الشعائر، ومن باب أولى أن يبقوا على أديانهم ولا يكرهوا على تغييرها.

ب - مسألة أرواح أهل الذمة (أو نفوسهم):

يقول الإمام علي (عليه السلام) عن أهل المذمة: (إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا)[٥٧].

فالذمة إذن هي عقد وليست وضع، والذمة في اللغة هي العهد والأمان والضمان.

أما في مصطلح الفقهاء فهي عقد مؤبد يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم وتمتعهم بأمان الجماعة الوطنية الإسلامية وضمانها بشرط بذلهم الجزية، وقبولهم أحكام دار الإسلام في غير شؤونهم الدينية[٥٨].

ونرجع إلى قول الإمام علي (عليه السلام) فإن عقد الذمة يحقن دماء أهل الكتاب، ويوجب العقوبة على من يتعدى عليهم تحت أي ذريعة كانت. فقد حصل أن اعتدى جنود معاوية في إحدى غاراتهم التي شنوها تحت شعار الانتقام لدم عثمان، على بعض أهل الذمة، فيمن اعتدوا عليهم، فكتب الإمام علي (عليه السلام) إلى معاوية مستنكراً بقوله: (ويحك، وما ذنب أهل الذمة في قتل ابن عفان)[٥٩].

أما في مسألة دية الكتابي، فقد أثر عن الإمام (عليه السلام): (إن دية اليهودي والنصراني كمثل دية المسلم)[٦٠].

ج - مسألة كرامات أهل الذمة:

لقد حافظ الإمام علي (عليه السلام) على كرامات أهل الذمة، فمنع تعذيبهم أو ضربهم لمجرد تحصيل المال منهم، إذ كان يوصي عماله على الخراج بألا يلجئوا إلى الإكراه المادي ضد المكلفين بالخراج لإجبارهم على دفع ما يستحق عليهم، فقد كان يقول:

(ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم)[٦١].

د - أموال أهل الذمة:

لقد ورد في كلام الإمام علي (عليه السلام) كما بيّنا سابقاً بخصوص أهل الذمة، إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا.

وهذا يعني أنه يجب الحفاظ عليها كما يحافظ على أموال المسلمين، وقد كان الإمام قدوة في ذلك، فهو لم يقبل من أهل الخراج أن يقدموا له طعاماً ودواباً إلا بأثمانها رغم ظاهر طيب أنفسهم بذلك. فقد أجابهم الإمام علي (عليه السلام) على عرضهم التقدمة بقوله: (وأما دوابكم هذه، فإن أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم أخذناها منكم. وأما طعامكم الذي صنعتم لنا فإنا نكره أن نأكل من أموالكم شيئاً إلا بثمن)[٦٢] كما كان يأمر بعدم التعرض لمال المعاهدين إذ يقول: (ولا تمسن مال أحد من الناس مصل أو معاهد)[٦٣].

ثم إن الإمام يدعو إلى عدم إلحاق الظلم بأهل الذمة، كما جاء في وصيته لأبنه الحسن (عليه السلام): (الله في ذمة نبيكم فلا يظلمن بين أظهركم)[٦٤].

وعدم إلحاق الظلم يتناول الجانب المالي إلى غيره من الجوانب. وهكذا فلا اغتصاب ولا مصادرة تحت أي حجة كانت بل حماية وضمان.

هـ ـ الحقوق الاجتماعية لأهل الذمة:

لم يكن أهل الذمة محرومين من ضمان الحد الأدنى الضروري لمعيشتهم بل كان الإمام يتعهد إعالتهم كالمسلمين، فقد صدف أن رأى شيخاً يتسول في الطريق، فاستغرب الموقف وسأل كيف يحصل ذلك فأجيب: أن الرجل من أهل الذمة فوبخ أصحابه والمسؤولين عن الأمر قائلاً: (استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه؟ أنفقوا عليه من بيت المال)[٦٥].

هذا كما كان الإمام علي (عليه السلام) يمنع أن تنزع من الذمي مؤونته أو كسوته أو دابته التي يعمل عليها لتباع، أو يجبر على بيعها لتسديد ما يتوجب عليه. فقد كان يأمر عماله بقوله: (ولا تبين لهم رزقاً يأكلونه ولا كسوة شتاء ولا صيف. ولا دابة يعتملون عليها، لأنا لم نؤمر بذلك، وإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو)[٦٦].

و ـ المساواة والحق بالمقاضاة:

فيما خلا ما يأمر به الإسلام من الضغط على الذمي في ذلك الحين، فقد كان الإمام علي (عليه السلام) يساوي بالمسلمين، بل وحتى بنفسه، وما قصة مثوله والذمي أمام القاضي شريح، للتقاضي وهو الخليفة، ورضوخه لموجبات المساواة أمام خصمه وتسليمه بحكم القاضي الذي صدر في غير مصلحته، إلا خير دليل على تلك المساواة[٦٧].

فقد أضاع الإمام إبان خلافته درعاً له في الطريق إلى الشام. وفي يوم من الأيام وجدها مع شخص من أهل الذمة، فطلبها منه فرفض إعطاءها إياه مدعياً أنها ملكه، فشكاه الإمام إلى شريح القاضي، فمثلا معاً فسأل القاضي الإمام عن مدعاه، فقال: هي درعي ولم أهب ولم أبع. فرد الذمي منكراً، فسأل القاضي الإمام عن بيّنه فقال (ليس لي بيّنه) فقضى شريح بالدرع للذمي ورضخ الإمام[٦٨].

وهكذا نجد إن أهل الذمة في الإسلام كانوا يُرغمون على إعطاء الجزية ويجري بينهم وبين المسلمين تمييز في المعاملة، وذلك لأنهم في الوضع الذي تصفهم الآية الكريمة ﴿ قَٰتِلُوا

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾[٦٩] فإذا أسلموا رُفعت عنهم الجزية والتمييز، وذلك في زمن الدعوة إلى الإسلام وجهاد أعدائه.

أما الإمام علي (عليه السلام) فإنه كان يعترف لأهل الكتاب بحقوق الإنسان الكاملة، باستثناء الشرع الحنيف، ويراهم بعد ذلك مساوين للمسلمين.

وإذا حاولنا مقارنة الأمر بما تحويه صكوك وإعلانات حقوق الإنسان الحديثة، فإننا نجد أنفسنا أمام مستويين من النقاش:

١ - **المستوى الأول:** وهو المستوى المتروك للحاكم الذي يقوم باستنباط الأحكام من المبادئ الأساسية للشرع الحنيف. وهو المستوى الذي كان يجتهد فيه الإمام (عليه السلام) فيحدد الأحكام الواضحة والدائمة.

وإذا حاولنا عقد مقارنة مع النصوص الحديثة، نجد الإمام قد سبقها بأكثر من أحد عشر قرناً.

فقد كفل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان[٧٠] الصادر في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٨م، في مادته الأولى المساواة في الحقوق والكرامة للناس (يولد جميع الناس أحراراً ومتساوين في الكرامة والحقوق، وهم قد وهبوا العقل والوجدان وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضا بروح الإخاء) ومنع في مادته الثانية التمييز بسبب الدين (لكل إنسان حق التمتع بجميع الحقوق والحريات المذكورة في هذا الإعلان، دونما تمييز من أي نوع، ولاسيما التمييز بسبب العنصر، أو اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين) وأعطى الجميع الحق في الحياة والحرية في المادة الثالثة (لكل فرد حق في الحياة والحرية وفي الأمان على شخصه) وهي الحقوق التي كفلها الإمام علي (عليه السلام) لأهل الكتاب، بعد وفائهم بواجباتهم التي حددها القرآن الكريم والنبي (صلى الله عليه وآله) والخلفاء السابقون. كما منع التعذيب والمعاملة القاسية في مادته الخامسة (لا يجوز إخضاع أحد للتعذيب ولا للمعاملة أو العقوبة القاسية أو الإنسانية أو الحاطة بالكرامة) وهو ما كان يطبقه الإمام علي (عليه السلام) خاصة في تحصيل الخراج. وقد اعترف الإعلان بالشخصية القانونية في مادته السادسة (لكل إنسان في كل مكان الحق بأن يعترف له بالشخصية القانونية) وبحق اللجوء إلى المحاكم في مادته الثامنة والعاشرة (لكل شخص حق اللجوء إلى المحاكم الوطنية المختصة لإنصافه الفعلي من أية أعمال تنتهك الحقوق الأساسية التي يمنحها إياه الدستور أو القانون) (لكل إنسان على قدم المساواة التامة مع الآخرين الحق في أن تنظر قضيته محكمة مستقلة ومحايدة نظراً منصفاً وعلنياً للفصل في حقوقه والتزاماته وفي أية تهمة جزائية توجه إليه) وقد مكّن الإمام علي (عليه السلام) أهل الكتاب حتى من مقاضاته شخصياً، وهو الخليفة، أمام قاضيه.

كما ضمن الإعلان توفير حد أدنى من المعيشة للجميع في مادته الخامسة والعشرين (لكل شخص حق في مستوى معيشة يكفي لضمان الصحة والرفاهية له ولأسرته وخاصة على صعيد المأكل والملبس والمسكن والعناية الطبية وصعيد الخدمات الاجتماعية الضرورية، وله الحق في ما يأمن به الغوائل في حالات البطالة أو المرض أو العجز أو الترمل أو الشيخوخة أو غير ذلك من الظروف الخارجة عن إرادته والتي تفقده أسباب عيشه). وقد منع الإمام علي بيع كسوة المدينين للدولة، بما فيهم أهل الكتاب، ومؤونتهم ودوابهم الضرورية لمعيشتهم كما أقر حقوقاً لهم في بيت المال عندما يكونون عاجزين عن الكسب.

٢ - **المستوى الثاني:** وهو مستوى الأحكام الأساسية المفروضة على الجميع، بمن فيهم الإمام والتي تنظم فيما تنظم الموقف الإسلامي من أبناء الديانات الأخرى، وهذه الأحكام صنفان:

أ - أحكام منزلة حددها الشارع المقدس وتتمثل بالجزية، وإلا الاقتتال.

ب - أحكام عائدة لولي الأمر يتخذها للحفاظ على الجماعة وعلى النظام العام داخلها من مثل منعهم من حمل السلاح، والأخبار عما يصل إلى عملهم من أخطار على المسلمين، وحق الضيافة، والتمييز بالهيئة...[٧١].

أما النوع الأول من الأحكام فعائدة إلى حكمة المشرع الذي أمر بقتال من ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[٧٢].

وأما النوع الثاني فهي تفرض عليهم على أنهم هم جزء من الأمم المغلوبة وأن بإمكانهم مساندة أممهم بتشكيل طابور خامس لمصلحتها ما دامت متربصة بالمسلمين، ومساندتها في حال هجومها على دار الإسلام. ذلك إلى تأكيد الصف المفروض شرعاً، في زمن كان الانتماء فيه إلى الدين لا إلى الوطن.

وإذا حاولنا هنا المقارنة، نجد إن حقوق الإنسان التي حملتها المواثيق منذ الصكوك الأمريكية في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، إلى الإعلان الفرنسي لسنة ١٧٨٩م[٧٣] إلى نصوص عصبة الأمم بعد الحرب الأولى، إلى إعلان حقوق الإنسان إلى سائر النصوص التي تلت الحرب العالمية الثانية، وصولاً إلى اليوم، ، نجد إن كل هذه النصوص لا تطبق إلا على المستوى الداخلي، وحيث لا تعيش أقليات إلى جانب الأكثرية، أما في الخارج فإن أبناء الأديان المختلفة عن الدين المسيطر، فلا حقوق فعلية. فإذا عاينا وضع الهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية، فإننا نجد أنه بعد عمليات الإبادة وانتزاع الأرض لم يبق منهم إلا أعداد قليلة تقيم في مناطق محاصرة، حظائر، وهم الذين كانوا يملكون كل تلك الأرض.

أما وضع السود في تلك البلاد، أو الفلسطينيين في فلسطين أو سائر أبناء المستعمرات، أو حتى البلدان الصغيرة غير المستعمرة مباشرة، فأنه يبين حقيقة ما تقدمه صكوك حقوق الأفراد والأقليات على الصعيد الفعلي، مما يتناقض مع الهدف الذي رسمه واضعو تلك الصكوك والذين ناضلوا من أجلها. أما إذا حققنا في وضع الأقليات الدينية والتي قاست ما لا يحتمل عبر التاريخ في مختلف بلدان العالم، فإننا نجد اليوم أن الحماية المفروضة بالنصوص الدولية تقزمها القوانين في الداخل، ولكن بشكل غير مباشر.

أما على الصعيد الفعلي، فهي مقهورة ومنهوبة ومطاردة، ويكفي النظر إلى مشاكل الكاثوليك والبروتستانت في ايرلندا الجنوبية، ووضع الوالون المتدينين، الغلامان العلمانيين في بلجيكا، ووضع المسلمين في الهند والصين والفلبين وفي أثيوبيا وأوغندا، بل وحتى في أوربا وأمريكا، حيث يشكلون أقليات كبيرة.

أهم نتائج البحث:

١ - لقد استطاع الإمام علي (عليه السلام) في الحقل المتروك لاجتهاده أن يبرز للإسلام صورة سمحة مشرقة عن طريق اعترافه بحقوق الأقليات الدينية، لم تتجاوز عصره فحسب، بل هي تتجاوز عصرنا.

٢ - إن موقف الإمام (عليه السلام) من أهل الكتاب، وفي المجال المحفوظ للحاكم، فهو يتجاوز المتاح اليوم في أقل تقدير، دونما تنكر لمبادئ الإسلام، فكان الإمام إنسانياً كأقصى ما تكون الإنسانية.

٣ - كل ذلك في ظل إيمانه بالوحدة الإسلامية الصحيحة القائمة على احترام العقيدة الإسلامية دون أي انتقاص، بحيث تكون وحدة بالتنوع، وحدة منفتحة يمارس فيها كل حريته ليتحمل مسؤوليته فيكون إنساناً حقيقياً كما أراد له خالقه أن يكون، فيعيش ذاته بفطرته، دونما قسر غير مُحِقٍّ أو تشويه فيكون قائداً بل راعياً مصداقاً لقول الرسول (صلى الله عليه وآله): (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته)[٧٤].

٤ - لقد تجاوز الإمام علي (عليه السلام) عصره، وهو متجاوز لعصرنا مع فارق نوعي لصالحه يتمثل بضمانة الأحكام التي أرساها، تلك الضمانة المتمثلة بإيمان الإمام نفسه، وهو إيمان مطلق، وبإيمان من سيسير على هديه، فيصبح من يخالف مخالفاً لأحكام أساسية في الإسلام تدمغ صاحبها بشوب من الكفر، فيما الأحكام التي تم التواضع عليها في هذا العصر، ولا ننكر أهميتها، ولا تتمتع بضمانه موازية، بل هي تخرق كلما أمكن التحايل على القانون، وما أسهله، عندما تقضي مصلحة الحاكمين بذلك.

الخاتمة:

إننا نعتقد أن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي الوحيد في هذا الزمن، ونعتقد في الوقت نفسه بوجوب التعايش السلمي مع أتباع الأديان السماوية الأخرى، سواء عاشوا في البلاد الإسلامية أو خارجها، إلا من رفع لواء محاربة الإسلام والمسلمين، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾(٧٥).

ونعتقد بأن قابلية الاستقطاب والجذب في الإسلام من القوة بحيث يمكن لفت الأنظار نحوه وكسب الناس إليه إذا جرى توضيحه بشكل صحيح، ولهذا فإننا نعتقد بأن الإسلام يجب أن لا يفرض على الآخرين قسرا، قال تعالى ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ... ﴾(٧٦).

وإننا نعتقد بأن الأنبياء، ولاسيما خاتمهم النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وكذلك الإمام علي (عليه السلام) والأئمة من بعده (عليه السلام) كانوا يرفضون كل أنواع التمييز العنصري والقومي، وإنما ينظرون إلى جميع الأمم والأقوام واللغات والأجناس نظرة واحدة.

ولذلك ومن خلال هذا البحث الموجز عن العلاقة ما بين الإمامة وحقوق الأقليات، قد بينا وعرفنا كيفية تعامل الإمام علي (عليه السلام) مع تلك الأقليات الدينية، وذلك لتجنب إراقة الدماء وتفتيت وحدة المسلمين، ففي كل زمان ومكان هناك أيادي تحاول تضخيم الاختلافات بين المسلمين أنفسهم أو بين المسلمين وأهل الديانات الأخرى وذلك لتسعير نار الفتنة بينها، وتحجيم حركة الإسلام الجبارة.

ولذلك علينا وعلى الأمة المسلمة أن لا تسمح للعدو بتحقيق هدفه فتضيع الفرصة الثمينة المتاحة للإسلام من أجل عرض أفكاره عالمياً.

الهوامش:

(١) الفراهيدي/العين/١٢/٢٢.

(٢) ظ: ابن منظور/لسان العرب/١٢/٢٦.

(٣) الميرزا النوري/مستدرك الوسائل/٤/١٦٨.

(٤) ظ: الفراهيدي/العين/٨/٤٢٦، ابن منظور/لسان العرب/١٢/٣١.

(٥) ظ: الفراهيدي/العين/٨/٤٢٨، ابن فارس/معجم مقاييس اللغة/١/٢٨.

(٦) الراغب الأصفهاني/المفردات/٢.

(٧) الأنبياء: ٧٣.

(٨) القصص: ٤١.

(٩) الكليني/الكافي/١/٢١٦.

(١٠) التوبة: ١٢

(١١) محمد حسين آل كاشف الغطاء/أصل الشيعة وأصولها/٢٢١.

(١٢) م ن/٢٢١، عباس حسن جعفر كاشف الغطاء/رسالة في الإمامة/١.

(١٣) ابن أبي الحديد/شرح نهج البلاغة/٣٠٨/٣.

(١٤) النجدات: هم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي بايعه أصحابه وسموه أمير المؤمنين ثم نقموا عليه أشياعه فقتلوه سنة ٦٩ هـ. ظ: الشريف المرتضى/الشافي في الإمامة/٥/١ عن مصدره.

(١٥) ابن منظور/لسان العرب/٤٩/١٠.

(١٦) الزمر: ٧١.

(١٧) ابن منظور/لسان العرب/١٠ ٥٢/٤٩، محمد بن عبد القادر/مختار الصحاح/٦٦، الطريحي/مجمع.

(١٨) ظ: م ٠ ن/٤٩/١٠.

(١٩) ظ: ابن منظور/لسان العرب/٥٠/١٠، الطريحي/مجمع البحرين/٥٤٥/١ - ٥٤٦.

(٢٠) الأنبياء: ١٨.

(٢١) المؤمنون: ٧١.

(٢٢) ظ: الفيروز آبادي/القاموس المحيط/٢٢١/٣، الزبيدي/تاج العروس/٣١٥/٦.

(٢٣) ظ: الزبيدي/تاج العروس/٣١٥/٦.

(٢٤) ظ: عدنان البكاء/الحكم والحق/٢٣.

(٢٥) م. ن/٣١، سعيد أمجد الزهاوي/التعسف في استعمال الحق/١٦.

(٢٦) الخوئي/مصباح الفقاهة/٧٤/٢.

(٢٧) حسين توسلي/مفهوم الحق دراسة تحليلية في الفقه والقانون/مجلة الحياة الطيبة/٢٩.

(٢٨) أمجد الزهاوي/التعسف في استعمال الحق/١٦.

(٢٩) الزبيدي/تاج العروس/٢٢٧/١٥.

(٣٠) الشعراء: ٥٤.

(٣١) ظ: الطريحي/مجمع البحرين/٥٤٣/٣.

(٣٢) الطبرسي/مجمع البيان/٣٥٦/٢.

(٣٣) الطباطبائي/الميزان/١٩٦/٨.

(٣٤) البقرة: ٢٤٩.

(٣٥) الأنفال: ٢٦.

(٣٦) الطبرسي/مجمع البيان/٥٣٥/٢.

(٣٧) بتول فاروق/الأقليات وأحكامها في الفقه الإسلامي - دراسة مقارنة/١٤ عن مصدرها.

(٣٨) محمد علي كتاني/مشاكل الأقليات المسلمة/٨٧.

(٣٩) جعفر المهاجر/الأقليات في دار الإسلام/مجلة المنهاج/٢٨٥.

(٤٠) ظ: كمال السعيد حبيب/الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية/٣٥.

(٤١) آل عمران: ١٩.

(٤٢) آل عمران: ٨٥.

(٤٣) الحجرات: ١٣.

(٤٤) ظ: الطبرسي/مجمع البيان/١٣٦/٥، الطباطبائي/الميزان/٣٥٤/١٨.

(٤٥) ظ: كمال السعيد حبيب/الأقليات السياسية/٥٦.

(٤٦) الإسراء: ٧٠.

(٤٧) يونس: ٩٩.

(٤٨) الحج: ٦٨ – ٦٩.

(٤٩) الحجرات: ١٣.

(٥٠) ورد هذا الحديث بصيغة في مسند أحمد ابن المبارك/ص١٤٧.

(٥١) السيرة النبوية/ابن هشام الحميري/ج٢/ص٣٥.

(٥٢) سورة التوبة: ٢٩.

(٥٣) سورة آل عمران: ٢٨.

(٥٤) سورة المائدة: ٥١.

(٥٥) ظ: التشريع الإسلامي لغير المسلمين/عبد الله مصطفى المراغي/ص٨١.

(٥٦) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد/ج٤/ص١٢٠.

(٥٧) بدائع الصنائع/الكاساني/ج٧.

(٥٨) الخراج/أبو يوسف/ص٧٨، ١٥٥، ١٥٩.

(٥٩) نهج السعادة/المحمودي/ج٥/ص٣٠٨.

(٦٠) م. ن.

(٦١) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد/ج٤/ص١١٦.

(٦٢) تمام نهج البلاغة/صادق الموسوي/ص٥٠٢.

(٦٣) شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد/ج٤/ص١١٦.

(٦٤) التاريخ/الطبري/ج٥/ص١٤٨.

(٦٥) وسائل الشيعة الإسلامية/الحر العاملي/ج١١/ص٤٩.

(٦٦) تمام نهج البلاغة/صادق الموسوي/ص٥٠٨.

(٦٧) ينظر تاريخ دمشق/ابن عساكر/ج٣/ص٢٤٤.

(٦٨) ظ: الأغاني/الأصفهاني/ج١٦/٣٨.

(٦٩) التوبة: ٢٩.

(٧٠) ظ: الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ١٩٤٨.

(٧١) الأحكام السلطانية/الماوردي/ص١٤٥ + الكافي/الكليني/ص٥٦٦.

(٧٢) التوبة: ٢٩.

(٧٣) وهو الإعلان الذي أصدرته الجمعية الوطنية في ٢٦آب ١٧٨٩ ويعتبر من وثائق الثورة الفرنسية الأساسية وتعرف فيها الحقوق الفردية والجماعية للأمة. وهذا الإعلان متأثر من فكر التنوير ونظريات العقد الاجتماعي (الصكوك الأمريكية) والحقوق الطبيعية التي قال بها المفكرون أمثال جان جاك روسو، وجون لوك، وفولتير، ومونيسكو، وهو يشكل الخطوة الأولى لصياغة الدستور. ينظر الإعلان الفرنسي١٧٨٩م شبكة الانترنيت.

(٧٤) صحيح البخاري/البخاري/ج١/ص٢١٥، ج٢/ص٧٩، ج٣/ص٨٨، ج٦/ص١٥٢.

(٧٥) الممتحنة: ٨.

(١٦) البقرة: ٢٥٦.

المصادر والمراجع:

١ - القرآن الكريم.

٢ - الأحكام السلطانية والولايات الدينية/أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، مط: دار الحرية للطباعة - بغداد/١٤٠٩هـ.

٣ - أصل الشيعة وأصولها/الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء/تح: علاء آل جعفر/١٤١٥هـ/ط١/مط: ستارة.

٤ - الإعلان العالمي لحقوق الإنسان/اعتمد بموجب قرار الجمعية العامة ٢١٧ الف(د٠٣) المؤرخ في ١٥ كانون الأول/ديسمبر١٩٤٨.

٥ - الأغاني/أبو الفرج علي بن الحسين القرشي الأصفهاني/تحقيق: إحسان عباس وبكر عباس/دار صادر بيروت.

٦ - الأقليات وأحكامها في الفقه الإسلامي – دراسة مقارنة/بتول فاروق محمد علي/ط١/١٤٣٠هـ - دار الضياء للطباعة – النجف.

٧ - الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية/كمال السعيد حبيب/ط٢/مط: العربية للطباعة والنشر - القاهرة – ٢٠٠٢ م.

٨ - بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع/أبو بكر بن مسعود الكاساني/تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود/ط١/١٤٠٩هـ/نشر: المكتبة الحبيبية - باكستان.

٩ - تاج العروس من جواهر القاموس/محب الدين أبي فيض الزبيدي/تحقيق: علي شيري /مطبعة دار الفكر/بيروت/١٤١٤هـ.

١٠ - تاريخ الأمم والملوك/أبو جعفر محمد بن جرير الطبري/تحقيق، مراجعة، وتصحيح، ضبط: نخبة من العلماء الأجلاء/ط٤/١٤٠٣/مؤسسة ألأعلامي/بيروت.

١١ - تاريخ دمشق/أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر/تحقيق: محمد باقر المحمودي/ط٢ - بيروت.

١٢ - التشريع الإسلامي لغير المسلمين/عبد الله مصطفى المراغي/مكتبة الجماهير - القاهرة.

١٣ - التعسف في استعمال الحق/سعيد أمجد الزهاوي/ط١: دار الاتحاد العربي للطباعة/القاهرة.

١٤ - تمام نهج البلاغة مما اختاره السيد الشريف الرضي من كلام مولانا أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام).

١٥ ـــ حقوق الأقليات في الإسلام/جعفر المهاجر/مجلة المنهاج/العدد ١٠/مركز الغدير للدراسات الإسلامية/بيروت – ١٩٩٨ م.

١٦ - الحكم والحق/عدنان البكاء/ط١ - الغري/١٩٧٦م/ساعدت جامعة بغداد على طبعه.

١٧ - الخراج/أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن عبته الأنصاري/تح: طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد/نشر المكتبة الأزهرية للتراث.

١٨ - رسالة في الإمامة/عباس حسن الشيخ جعفر كاشف الغطاء/بلا.

١٩ - السيرة النبوية/تأليف: أبو عبد الله محمد بن إسحاق المطلبي/تهذيب: أبو محمد عبد الملك ابن هشام الحميري/تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد/مطبعة المدني - القاهرة/١٩٦٣م.

٢٠ ـ الشافي في الإمامة/الشريف المرتضى/ط٢/مط: مؤسسة إسماعيليان.
٢١ ـ شرح نهج البلاغة/ابن أبي الحديد/تح: محمد أبو الفضل إبراهيم/ط١/دار إحياء الكتب العربية/ ١٣٧٨هـ.
٢٢ ـ صحيح البخاري/أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي/نشر: دار الفكر ـ بيروت/١٤٠١هـ.
٢٣ ـ العين/أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي/تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي/ط٢ ـ إيران/نشر: مؤسسة دار الهجرة/١٤٠٩هـ.
٢٤ ـ القاموس المحيط/الفيروز آبادي/بلا.
٢٥ ـ الكافي/أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني/تح: علي أكبر الغفاري/ط٥/دار الأضواء/ بيروت/١٩٨٥م.
٢٦ ـ لسان العرب/أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور المصري/١٤٠٥ هـ/نشر أدب الحوزة/قم.
٢٧ ـ مفهوم الحق/دراسة تحليلية في الفقه والقانون/حسين توسلي/مجلة الحياة الطيبة/العدد ١٢/سنة ٤/١٤٢٤هـ.
٢٨ ـ مجمع البحرين/الشيخ فخر الدين الطريحي/تح: أحمد الحسيني/ط٢: ١٤٠٨/نشر: مكتب النشر الثقافة الإسلامية.
٢٩ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن/أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي/تح: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين/تحق: محسن الأمين العاملي/ط١/مؤسسة الأعلمي للمطبوعات/بيروت – ١٤١٥هـ.
٣٠ ـ مختار الصحاح/محمد بن أبي بكر بن عبد القادر/الرازي/تص: أحمد شمس الدين/ط١/دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥ هـ.
٣١ ـ مستدرك وسائل الشيعة/المحقق النوري/تح: مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث/ط٢: ١٤٠٨.
٣٢ ـ مسند ابن المبارك/عبد الله ابن المبارك/تحقيق: مصطفى عثمان محمد/ط١/١٤١٧هـ/نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٣٣ ـ مشاكل الأقليات المسلمة/محمد علي كتاني/بحث ضمن كتاب الأقليات المسلمة في العالم/إعداد رعد هادي جبارة/رابطة الثقافة والعلاقات الدولية – طهران ـ ٢٠٠٠م.
٣٤ ـ مصباح الفقاهة/السيد الخوئي/تقرير بحث السيد الخوئي لمؤلفه الميرزا محمد على التوحيدي التبريزي/ط١/مط: العلمية، قم.
٣٥ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/محمد فؤاد عبد الباقي/نشر: آوند دانش ـ طهران.
٣٦ ـ معجم مقاييس اللغة/أبو الحسن أحمد بن فارس/تح: عبد السلام محمد هارون/مط: مكتبة الإعلام الإسلامي – ١٤٠٤ هـ.
٣٧ ـ المفردات في غريب القرآن/أبو القاسم الحسين المعروف بالراغب الأصفهاني/ط٢/١٤٠٤ هـ/نشر: دفتر نشر الكتاب.
٣٨ ـ الميزان في تفسير القرآن/محمد حسين الطباطبائي/منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية – قم.
٣٩ ـ نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة/محمد باقر المحمودي/مؤسسة المحمودي/ط١: مط دار التعارف ١٣٩٦هـ/بيروت.
٤٠ ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة (الإسلامية)/محمد ابن الحسن الحر العاملي/تحقيق: عبد الرحيم الرباني الشيرازي/ط٥/١٤٠٣هـ. ❖

الإحالات السياقية والمناظرات الفكرية في تفسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)

أ. م. د. نضال حنش شبار حبيب الساعدي
جامعة بغداد ـ كلية التربية ـ ابن رشد

مقدمة:

كان من فضل الله تعالى على عباده أنّ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يُزكيهم، ويُعلمهم الكتاب والحكمة، ويهديهم للتي هي أقوم، وإنّ كانوا من قبل لفي ضلال مبين، مؤيداً جلّ وعلا رسوله الكريم بنفسه، وأخيه، وباب مدينة علمه، ومن كان بمنزله هارون من موسى، علي بن أبي طالب (عليه السلام) أمير المؤمنين، وخير الوصيين فهو الثروة الغنية بالعلوم والمعارف الإلهية، فلا يُدانيه فيها أحد وهو القائل: سلوني عن طرق السماء فإنّي أعلم بها من طرق الأرض).

لذا فمن دواعي سروري أنّ أكون أول من بحث بجزئية السياق الخاص في التفسير بالمأثور عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، ولكن على طريقة (الإحالات القرآنية)، وتعد هذه الدراسة من الدراسات الجديدة والتي قلّ نظيرها في الدراسات الإسلامية؛ إذ لم نشهد أو نسمع على حد علمنا من طرق الإحالات القرآنية، مقارنة بالإحالات السياقية للنصوص العلوية، وتبيينها بوضوح الدلالة على الحجيّة، وما تمثله من التكامل السياقي بين النص القرآني، وتراث أمير المؤمنين (عليه السلام)، من تفسير، وخطبة، ومناجاة، ودعاء، أو مناظرات، أو محاججاتٍ وغير ذلك، لذا فإنّ الغاية التي نسعى إليها هو تدبر النص وفهمه عن طريق معرفة العلامات المنطوقة أو المكتوبة في النص وبالتالي نستطيع من خلالها معرفة المبنى في اللفظ من خلال القرائن ذات المدلولات المختلفة، والتي تفصح عن ماهيتها في أكثر من مدلول، والقرآن غني بروعة الأسلوب التي لا تنتهي، ودقة ألفاظه، وعجائب نكته التي تتجدد بتجدد تأمله وتفسيره.

والجدير بالذكر أنّ دراستنا السياقية فيها نوع من التفسير بالمأثور؛ كما في تفسير القرآن بالقرآن: إلا أنها لا تخضع لأي اجتهاد سوى البحث عن مواضع الإحالة لمعرفة المُحال من الآيات القرآنية والنصوص العلوية فإذا عرفنا أنّ الإحالة هي من الله مباشرة في النص القرآني، ومن أمير المؤمنين (عليه السلام) في النص العلوي عرفنا بذلك أنّ الدراسة السياقية من أوضح

وأدق طرق التأمل والتفسير: سعياً منّا لما لهذه الدراسة من أهمية علمية وتربوية في تأمل النص القرآني، وإعمال الذهن في النص البلاغي لسيدي ومولاي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): فهي مصداق لحديث الثقلين الذي روي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): حيث قال: (إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إنّ تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً حتى يردا عليّ الحوض)[١]

وهذا ما يؤكد للإنسانية جمعاء أنّ أهل البيت (عليهم السلام) هم حجة إلى جانب القرآن، وهذه الحجّية ليست إلا حجية سُنتهم، ورواياتهم التفسيرية تعتبر جزءاً من سُنتهم: فهي حجة معتبرة، ويتوجب علينا التمسك بها، والبحث في أغوارها من حيث السياق القرآني والذي جاء بتمهيد ومباحث ثلاث: الأول: أثر السياق في الإحالات القرآنية والنصوص العلوية، أما الثاني فقد جاء بعنوان: التشابه السياقي، وتضمن (أ) النص القرآني، (ب) النص العلوي، وجاء المبحث الثالث: في دلالة الرواية وتضمن (أ) الرواية عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، (ب) الرواية عن أهل البيت (عليهم السلام)، ثم نتائج البحث، والتوصيات، وقائمة بالمصادر وأخرى بهوامش البحث.

تمهيد:

للدراسات السياقية، تأريخ قديمٌ: منذُ صدرِ الإسلام وحتى عصرنا الحاضر، اقترنت بدراسات لغوية تحدد معنى الكلمة الواحدة باعتبار السياق[٢] أو القرينة الدالة عليه، أو ما يمكن تسميته بسياق النص[٣]، وبلاغية اهتمت بمطابقة الكلام لمقتضى الحال أو ما يتعلق بسياق الموقف[٤] وتفسيرية اهتم فيها أهل التفسير اهتماماً بالغاً، فكان السياق عندهم من الوسائل المهمة التي ساعدتهم للكشف عن المعنى المراد من النص القرآني[٥] بالرجوع لمباحث علوم القرآن من محكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ، وأسباب نزول، وغيرها من القرائن اللفظية والتفسيرية، وكذلك أصولية أنصبت فيه دراسات الأصوليين حول الدليل الشرعي في استنباط القواعد الفقهية، أو الأحكام الواردة في النص القرآني، والتي تستلزم بدورها من العالم أو الباحث في هذا العلم إمكانيات لغوية وفقهيه ودراية تامة بعلوم القرآن وكل ما من شأنه يُسهم في استنباط الأحكام الشرعية بكل دقة وموضوعية.

وهذا يستدعي منّا النظر في اللفظ لإدراك دلالته في التركيب، واكتشاف معطياته في المعنى. وفي العلاقة القائمة بين الألفاظ والتراكيب ودورها في إظهار المعنى المراد من الكلام، لذا سنحاول تبيين مفهوم السياق بحسب ما يسمح به مقام البحث: -

عُرّف السياق في اللغة من جذر اللفظ (سَوَقَ)، و(ساق) وجمعها (سُوَق)، و(سُوَقَة) وقيل: سياقا وسياقةً وأساقه، إساقة، واستساق استياقة[٦]، فيكون اسما، أو فعلاً، كما جاء في

نص قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[٧]؛ بمعنى عن شِدَّةٍ وفي الإنسان: الساقُ: ساقُ القدمِ[٨]، وساق الشجرة: جذعها[٩]، فالساق إذن تكون للإنسان وغيره، وإنما سميت بذلك لأنَّ الماشي ينساق عليها.

ونقول مجازاً: هو يسوق الحديثَ أحسن سياق[١٠]، وإليك يُساق الحديث، وكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه، على سرده[١١]. ويُكنى عن السَّاقِ بالنَّفْسِ، مِثْلَمَا وَرَدَ عَنْ أمير المؤمنين عَلِي بنَ أبي طَالِب (عليه السلام) فِيْ حَرْب الشُّرَاةِ (لا بد لي من قتالهم ولو تَلِفَت سَاقِي)[١٢]، ومن ذلك يتضح لنا أنّ تسلسل ألأحداث المترابطة فيما بينها بحيث يتألف منها حبكة ببداية وتنامٍ ونهاية: يُطلق على هذه العمليةِ مُسمى بالسياق.

والجدير بالذكر أنّ للفظةِ السياقِ مرادفاتٌ خارجَ الإطارِ القاموسي: المُعجمي، إستعملها عُلماءٌ من خارجِ الإطارِ اللغوي، رغمَ عِلمهم باللغةِ، ودراستهم لها، كما في نظرية النظم التي تناولها عبد القاهر الجرجاني في كتابه، والمقام، ودلالة الحال، ، أو قرينة الحال، أو شاهد الحال، أو دلالة الحال، أو مقتضى الحال، أو قرينة الحال، أو شاهد الحال، أو بساط الحال، والقرينة، والغرض، أو مقصود الكلام، واللسان المراد به الكلام، والمناسبة[١٣].

وذكر في أنواع القرائن السياقية، بأنها قرائن لفظية سياقية تقوم على أساس قرب، وبعد تلك القرائن، فمنها ما يكون سياق لفظي منفصل، ومنها المركب[١٤]، والذي نحصل عليه من خلال القرائن السياقية التي تساعدنا في الكشف باللفظ المفرد أو المركب عن المعنى المراد من النص: فهي إما تسبق ما تفسره وتدل عليه بأحد وجوه التفسير اللفظي، أو تكون متأخرة عنها[١٥]؛ فتكون مبيّنةً لها ومفسرة لما أُبهم منها، أو تحيط تلك القرائن بجوانب النص فتكون موضحةً وكاشفةً للمعنى بأبهى صوره، فمن الإعجاز القرآني أنّه يفسر بعضه بعضاً.

ومعلوم بداهةً أنّ دراستنا ستتمركز حول بعض النصوص القرآنية، والإحالات السياقية المأثورة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في تفسيره لتلك النصوص، ووصفه للقرآن بأجمل الصفات وأبدع النعوت: فقد وصفه بالناصع المشفق الذي يهدي الناس للتي هي أقوم، كما وصفه بالمحدّث الذي لا يكذب، وإنّما يتلو الحق، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وهو الدواء الذي يعالج جميع أمراض الإنسان ويحسم مشاكله، وهو الشافع يوم القيامة لمن قرأه بإمعان وسار على هديه سائلين المولى تعالى أنّ يجعله لنا شفيعاً لنا ولوالدينا يوم الحساب، إنّه سميعٌ مجيب.

المبحث الأول

أثر السياق في الإحالات القرآنية والنصوص العلوية

(١) قال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١٦]: أي جعل على قلوب الكافرين غطاءً فلا ينتفعون بالمعارف الإلهية.

فقد ذكر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ﴾[١٧]، نلاحظ في تفسير أمير المؤمنين (عليه السلام) اهتمامه بالسياق من خلال أحالته إلى قوله تعالى من سورة الأنفال ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[١٨]: موضحاً هذه الإحالة بقوله (عليه السلام): (سبق في علمه تعالى أنهم لا يؤمنون فختم على قلوبهم وسمعهم ليُوافق قضاؤهُ عليهم عِلمهُ فيهم)[١٩]، وبذلك يتضح لنا أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يغفل في تفسير القرآن بعضه بعضاً، فكانت الآية الثانية موضحة لقوله: لا يسمعون، ولا يفقهون، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾، كما جاءت الإجابة التوضيحية بقوله (عليه السلام): (فختم على قلوبهم وسمعهم ليُوافق قضاؤهُ عليهم عِلمهُ فيهم).

وبتدبر القرآن يتبين لنا حجّية المعنى بدلالة السياق القرآني وهو وجه من وجوه الإعجاز البياني في القرآن الكريم، والذي وظفه أمير المؤمنين (عليه السلام) أروع توظيف، وأدق تعبير.

(٢) ولو تدبرنا قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾[٢٠]، نجد المعنى ذاته في موضع آخر من سورة المؤمنون من قوله تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾، فقد بيّن (عليه السلام) هذه الإحالة السياقية بقوله: (من كان ظاهرُهُ أرجح من باطِنِهِ خُفّت مِيزانُهُ يوم القيامة، ومن كان باطنه أرجح من ظاهرِه ثقُل مِيزانُهُ يوم القيامة)[٢١]، نلاحظ أنّ آية الأنعام فصلت القول في القرينة اللفظية ﴿ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾: إلا أنّ تمام المعنى فيها جاء في سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ تفصيلاً لقوله تعالى ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾، ونلاحظ في هذا الموضع وضوح الدلالة السياقية في حجية المعنى القرآني من خلال الإحالة التكاملية بين خواتم الآيات ﴿ خَٰلِدُونَ ﴾ ، و ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾، وبين الأرجحية في نص أمير المؤمنين (عليه السلام)، فنجد تكامل المعنى بينهم بجميع جوانبه، ففي كل نص لا يكتمل المعنى إلا بضمه مع بعضه، وإنّ كان في موضع آخر من القرآن.

ثم نلاحظ في الإحالة السياقية بين الآيتين إعجازاً إلهياً: إذ أنّ آية الأنعام أشارت إلى القيمة القياسية للأعمال الإنسانية المتمثلة في قوله تعالى: ﴿ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ ، ثم إنّ آية المؤمنون في

قوله تعالى: ﴿ مَوْزِنُهُۥ ﴾ قد تبعها قوله تعالى: ﴿ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ وهي أكثر تفصيلاً لما جاء في قوله تعالى: ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ ، على الرغم من أنّ سورة الأنعام قبل سورة المؤمنون في الترتيب: أي في ترتيب القرآن الكريم: وبذلك نلاحظ أنّ السياق القرآني قد أفادنا في تمام المعنى، وهو ما لم يغفل عنه أهل التفسير: فمثلاً نجد في تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي[٢٢] الاستفادة الكبيرة من هذه الطريقة في توظيف السياق القرآني لفهم النص من خلال إحالتها السياقية للآيات الكريمة.

(٣) وجاء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢٣] ، ولبيان معنى المناجاة من خلال إحالة الآية إلى غيرها من الآيات نجدها في هذه المرة بالسورة نفسها ويمكن تأكيد ذلك بما روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حيث قال: (إنّ في كتاب الله لآيةً ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، وفي آية النجوى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، كان عندي دينارٌ فبعتهُ بعشرةِ دراهم، فكنتُ كلّما ناجيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قدّمتُ بين يدي نجواي درهماً، ثم نُسخت فلم يُعمل بها أحد فنزلت: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٢٤]، ومن الواضح في النص القرآني تفصيل المعنى للنجوى قد جاء تفسيره من خلال نسخ الآية بالإحالة السياقية: إذ أنّها انحصر المعنى فيها بين الآيتين الثانية عشر، والثالثة عشر من سورة المجادلة فكان ذلك في سياق السورة نفسها، وهو ما فصّل معناه أمير المؤمنين (عليه السلام) فأشار إلى أهمية السياق في الكلمات بقوله: (إنّ في كتاب الله لآيةً ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، آية النجوى)[٢٥]، فالقرينة اللفظية (النجوى) إشارة واضحة لفهم المعنى من خلال السياق.

(٤) وفي التحية والسلام قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾[٢٦]، ومفاد هذه الآية الكريمة واضح في تفسير أمير المؤمنين: إذ بيّن المعنى القرآني بإحالة السياق لما جاء في سورة هود من قوله تعالى: ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾[٢٧]، وفي سورة النساء نجد المعنى لا يبتعد عن المعنى في سورة هود، ومفاده أنّ من سلّم فيُردّ عليه سلامه أو بأحسن منه، وهو من آداب الإسلام وتعاليمه القيّمة، وينبغي أنّ يكون الردّ بالأحسن ولا يتجاوزه.

(٥) ونلاحظ في الآية الكريمة التسلسل في المعنى القرآني: إذ جاء في سورة هود المعنى المطلق في التحية، والتقييد في سورة النساء بقوله ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾، فمهما تباعدت الألفاظ في السياق القرآني فإنّ المعنى يضمها ويتدرج بها من العموم إلى الخصوص بحسب مناسبة الآيات، أو سبب نزولها.

المبحث الثاني
التشابه السياقي

يُعد التشابه السياقي من أهم مزايا كتب التفسير في تثوير، وتنوير النص القرآني وكمال إعجازه: إذ ذهب المفسرون في حمل قوله تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[٢٨]: أي يصدق بعضها بعضاً[٢٩]، وليس مفاد بحثنا هذا التشابه؛ بل هو أوسع من ذلك: إذ أنّه يشمل التشابه اللفظي والمعنوي معاً، وهو ينسجم ما ذهب إليه أبو صفية[٣٠] في تقسيم المتشابه إلى قسمين: -

(أ) التوضيحي: أي أنّ أحد المتشابهين يوضح الآخر.

(ب) التكاملي: بمعنى أنّ أحدهما يُكمّل ما في الآخر من نقص.

والجدير بالذكر هنالك حالات قليلة يكون التشابه فيها تماثلاً وتطابقاً من كل وجه طلباً للتأكيد والتصديق من خلال الاستدلال بحجية السياق القرآني، وإليك نماذج في توضيح ذلك التشابه السياقي في القرآن الكريم منها: -

(أ) التوضيحي؛ أي أنّ أحد المتشابهين يوضح الآخر:

قال تعالى: ﴿... مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ ...﴾[٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ...﴾[٣٢]، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[٣٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ﴾[٣٤].

وأخيراً في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[٣٥].

أنظر كيف تضمنت الآيات الكريمة على لفظ الجزاء (الحساب)؛ فجاء بألفاظ مختلفة بحسب السياق القرآني (حِسَابِهِم، حِسَابكَ، حِسَابُهُمْ)، تشتمل على القدرة الإلهية في محاسبة الخلق على الرغم من كثرتهم، واختلاف أجناسهم، ولو تمعنا في سياق الآيات الكريمات ترغيب في الأولى والثانية، وترهيب في الثالثة والرابعة، ونلاحظ هنا كيف عبّر السياق عن المعنى باختلاف اللفظ (حساب)، ولولا إحالة قوله تعالى: ﴿... مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ ...﴾ إلى قوله تعالى من السورة ذاتها ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ ...﴾ لما اتضح لنا المعنى العام في نص الآية الأولى، وقد أحال أمير المؤمنين (عليه السلام) الآية الثالثة إلى الرابعة عندما سئل عن كيفية محاسبة الله الخلق على الرغم من كثرتهم: فأجابهم بقوله (عليه السلام): (كما يرزقُهُم على كثرتهم. قيل: كيف يُحاسبهم ولا يرونه؟، قال: كما يرزقهم ولا يرونهُ)[٣٦] فما أعظم دلالات هذين السياقين عند أمير المؤمنين (عليه السلام) في إحالته السياقية الجميلة كاشفاً فيها عن عدله (عزّ وجلّ) وإحاطته بخلقه في كل صغيرة وكبيرة حساباً إلهياً لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.

(ب) التكاملي؛ بمعنى أنّ أحدهما يُكمّل ما في الآخر من نقص:

قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾[٣٧]، وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[٣٨].

وجاء في قوله تعالى من سورة القارعة: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾[٣٩] وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾[٤٠]، نلاحظ من خلال الإحالة السياقية بين الآية الأولى، والثاني من تشابه تكاملي في قوله تعالى ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وعلى الرغم من التشابه اللفظي بين الآيتين فهو ليس من قبيل التكرار؛ بل أنه يتلون بلون السياق معنىً ولفظاً، ومصداق قولنا ما ذهب إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) في معنى قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[٤١] عندما سأل الإمام (عليه السلام) رجل عمّا اشتبه عليه من الآيات، فقال (عليه السلام): (وأما قوله تبارك وتعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ فهو ميزان العدل، يؤخذ به الخلائق يوم القيامة، يُدين الله تبارك وتعالى الخلق بعضهم من بعض بالموازين[٤٢].

ويتضح من ذلك أن التكامل في السياق اللفظي في النصوص القرآنية غني في الدلالات الإعجازية التي لا تبتعد كثيراً عن الإعجاز العلمي والبياني من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى آخر آية من سورة الناس.

(ت) قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤٣] وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾[٤٤] ولو تأملنا قوله تعالى ﴿أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾ في الآية الأولى، وفي الثانية من قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نلاحظ الإحالة السياقية التكاملية لمعنى الولاية، وهذا ليس ببعيد عن الإحالة التفسيرية السياقية لأمير المؤمنين (عليه السلام)؛ إذ قال (عليه السلام): (إنّ أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاؤوا به) ثم تلا: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم قال: (إنّ وليَّ مُحمد مَنْ أطاع الله وإنْ بَعُدت لُحمته، وإنّ عَدوّ محمدٍ من عصى الله وإنْ قَربت لُحمته)[٤٥]، وفيما ذهب إليه أمير المؤمنين (عليه السلام)، ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ

مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾[٤٦]، فمن خلال السياق اللفظي في موضع الولاية نجد التأكيد الإلهي في الولاية لمن تبع النبي وأهل بيته (عليهم السلام) وأحسن طاعتهم قولاً، وفعلاً، لذلك جاء سياق الآية الثالثة مكملاً للآيتين أعلاه بقوله تعالى: ﴿ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾.

(ث) قال تعالى: ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[٤٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾[٤٨] وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ ﴾[٤٩] نجد في آيات الانشقاق الثلاث متشابهة الكلمات والحروف إلا في الثانية قدم (وَانشَقَّتِ) على (السَّمَاء)، والتكرار هنا للتأكيد على قدرة الخالق في شق السماء وشطرها والتحكم في جميع ما خلق بمشيئته وقدرته، وفي تفسيرها قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (تنشق السماء من المجرة)[٥٠]، والمتدبر في قول أمير المؤمنين يجد فيه مراعاته في تفسيره لسياق الآية الكريمة فجاء اللفظ متشابه للفظ الآيات مبيناً للمعنى بإيجاز من خلال إحالة تفسيره إلى سياق الآيات التكاملي.

وعلى كل حال فإنّ هذه الظاهرة لا تخلو من دلالة إعجازية تُضم إلى سائر وجوه الإعجاز القرآني: سواء كان في السياق اللفظي أو في المعنى، أو كان في التشابه أو التكامل وغيره من.

وهكذا نجد التناغم والتكامل بين السياقين مع ما فيهما من التشابه الكبير، والجدير بالذكر أنّ التشابه رغم كثرته في القرآن إلا أنّه ليس من قبيل التكرار، والتأكيد، وإنّما هو التناسق الذي يقتضيه المقام، ويستتبعه الغرض الرئيس في كل سورة والجو العام الذي يُحيط بها من خارجها ويلونها من داخلها: وهكذا نجد أنّ كل حرف فضلاً عن الكلمة، والجملة، والآية، والمقطع في السورة، لابد أنّ يكون له مقتضاه في كل سورة عرف ذلك من عرفه أو بقي سراً مكنوناً حتى يأذن الله تعالى بكشفه وفوق كل ذي علم عليم.

المبحث الثالث

دلالة الدعاء بالإحالة القرآنية

يُعد الدعاء خير وسيلة يلجأ إليها الإنسان إلى الله عزّ وجلّ في دفع السوء، والمكروه، فإنّ بيده تعالى جميع مجريات الأحداث، وهو لا غيره القادر على إنقاذ الإنسان مما ألم به من محن الدنيا، والتي صاغها أمير المؤمنين بكلمات من الدرر قائلاً: (الدُّعاء مفاتيح النجاح، ومقاليد الفلاح، وخير الدعاء ما صدر عن صدرٍ نقي، وقلب تقي، وفي المناجاة سبب النجاة، وبالإخلاص يكون الخلاص، فإذا اشتدّ الفزع فإلى الله المفزعُ)[٥١].

عندما سُئِلَ أمير المؤمنين (عليه السلام) عن الحُجب التي حجب إبراهيم (عليه السلام) النمرود فكان جواب أمير المؤمنين (عليه السلام) (لقد كان كذلك، ومحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) حُجب عمّن قتلهُ بحُجبٍ خمسة، فثلاثة بثلاثة، واثنان فضل، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[٥٢]، فهذا الحجاب الأول، ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ فهذا الحجاب الثاني، ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ فهذا الحجاب الثالث، ثم قال: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾[٥٣] فهذا الحجاب الرابع، ثم قال: ﴿ فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾[٥٤] فهذه حُجب خمسة، نلاحظ الحجيّة السياقية في قول أمير المؤمنين (عليه السلام): فقد جاء في الحجاب الأول والثالث القرينة اللفظية للحجاب بقوله تعالى: ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾، وكان في الحجاب الثاني القرينة اللفظية للحجاب قوله تعالى ﴿ سَدًّا ﴾ ، أما في الحجاب الرابع فقد جاء صريحاً بلفظه، وفي الحجاب الخامس جاء بقرينة قوله تعالى: ﴿ مُّقْمَحُونَ ﴾ ، وهنا نلاحظ أنّ أمير المؤمنين (عليه السلام) جعل لتلك الحُجب الخمس نظرة فاحصة، وشاملة أحاطت بالمعنى المراد من النص القرآني بدليل حجّية السياق والإحالات العلوية الرائعة بين آيات القرآن، وبلاغة دعاء أمير المؤمنين (عليه السلام).

وعندما سُئل أمير المؤمنين (عليه السلام) عن ردّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لسؤال أبي بن خلف الجمحي يا محمد ﴿ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[٥٥] فقال: ﴿ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[٥٦]، فكان (عليه السلام) استعان بالسياق التوضيحي في بيان معنى الآية التي استفسر عنها الصحابي والتي جاءت بلفظ قوله تعالى: ﴿ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾، وحجيّة ذلك ما جاء في تفصيل معناه وتوضيح الساق اللفظي في الإجابة بقوله تعالى: ﴿ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، فأي تفسير أبلغ من تفسير أخي رسول الله وحبيبه أمير المؤمنين (عليه السلام).

دلالة السياق برواية أمير المؤمنين (عليه السلام):

وفي رواية عن أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما قُرئ بين يديه من سورة الواقعة: ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾[٥٧] فقال: وما شأن الطلح؟! إنّما وطلعٌ منضود، ثم تبعها بآية أخرى مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾[٥٨] مستدلاً بسياق هذه الآية الكريمة لتصحيح لفظة طلح من سورة الواقعة، فقيل له: أفلا نحوّلها؟ وفي رواية أخرى: أنُحكُّها من المصحف: أي نمحوها بالحك..؟ فكان جوابه (عليه السلام): لا يُهاج القرآن ولا يُحوّل[٥٩]، وقال أبو بكر الأنباري: وعنى هذا أنّه رجع إلى ما في المصحف، وعلم أنّه هو الصواب، وأبطل الذي كان من قوله: أي رجع إلى الرسم المُجمع عليه[٦٠].

وفي مسألة أخرى يشهد فيه التاريخ لمآثر أمير المؤمنين (عليه السلام) في فك معضلات الآخرين، شهد له به كل من أحبه وأبغضه، ومنها الحادثة المشهورة في مسألة مدة الحمل من سورة الأحقاف: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾[٦١] إذ فسر الآية (عليه السلام) من خلال المقارنة السياقية: أي سياق بسياق للآيتين، وهذا ليس بالأمر الهيّن، وإنّما يحتاج إلى عالم غير مُعلم حافظ للقرآن وبارع في تفسيره وفاهم لأحكامه فهماً محمديّ علوي لا يباريه فيه جهابذة العلم والتفسير وهو ما لا يغفل عنه الجميع، إذ فسر قوله تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ بسياق قوله تعالى: ﴿ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾[٦٢] فقد كان بارعاً (عليه السلام)، في طرحه عامين: أي (٢٤) شهراً من (٣٠) شهراً تكون النتيجة دقيقة موضحةً مدة الحمل بـ(٦ أشهر).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[٦٣]، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام) عندما أقبل على الناس توجه لهم بالسؤال قائلاً: أي آية في كتاب الله أرجى عندكم؟

فقال بعضهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾، فقال (عليه السلام): حسنة، وليست إيّاها، وقال بعضهم: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٦٤]، قال (عليه السلام): حسنة، وليست إيّاها، قال ثم أحجم الناس، فقال: ما لكم يا معشر المسلمين؟! فقالوا: لا والله ما عندنا شيء، فقال (عليه السلام): سمعت حبيبي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول أرجى آية في كتاب الله: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾[٦٥]، ولو أمعنا النظر وتدبرنا استدلال أمير المؤمنين (عليه السلام) الاستفهامي، لعرفنا أنه استفهام من خلال حجية السياق، وتكرار الاستماع لإجابة المؤمنين، وتباين إجاباتهم ما هو إلا دليل واضح على تدبر هم لكتاب الله وتمعنهم في فهمه وتفسيره، وهو ما كان واضح من خلال الإجابات التي تحمل في طياتها دقة حفظهم، وبراعة مقارنتهم في البحث الموضوعي المناسب لسياق النص القرآني، وهذا ما أيّده أحد الباحثين في دقة المقارنة بين معاني الآيات المتشابه: من حيث استحسانه لما ذكروا مع ترجيحه لدلالة آية أخرى: حتى أنّه قال: (لولا الهيبة من مقام سيدنا علي رضي الله عنه: لقلت قياساً على نظرته: إن قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٦٦]، أرجى من آية هود من قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾[٦٧] كما هو ظاهر: فآية هود تقتصر على إذهاب السيئات بالحسنات، لكن آية الفرقان تزيد ببيان تبديل السيئات حسنات)[٦٧]، وهذا مما يؤكد بوضوح وقوة إلى النظرة الشمولية للقرآن الكريم عند أهل البيت (عليهم

السلام)، وأغلب الصحابة المنتجبين من خلال قوة حفظهم، وتفاوت فهمهم لمعاني القرآن وإحاطتهم الشاملة لأسباب النزول، وشواهد الوحي، وتلاوتهم للقرآن.

المبحث الرابع

الإحالات السياقية في احتجاجات ومناظرات أمير المؤمنين (ع)

تُعد ظاهرة الاحتجاجات، والمناظرات بين الأديان والمذاهب قديمة، لجأ إليها أرباب الأديان وزعماء المذاهب وأتباعهم على مرّ العصور: فهي من أوثق الأسباب، وأكثرها عمقاً، وأجدرها في فصل الخصومات، وحسم النزاعات: فكان هو السّمت البارز في دعوة الأنبياء إلى الله تعالى، وإبطال خصومهم الوثنين[٦٨]، كما في محاججة إبراهيم (عليه السلام) عند محاججته لأحد فراعنة عصره ومصداق ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٦٨]؛ فكانت حجة دامغة الجمت فرعون ومن معه، أما محاججة الرسول الأعظم عليه وعلى آله أفضل الصلاة والتسليم بكمال الخلق، بدليل أمره تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[٧٠] فوقف (صلى الله عليه وآله وسلم) يحتج ويناظر كالطود الشامخ أمام طغيان القرشيين وعتاتهم حتى فتح الله له الفتح المبين.

وسار أمير المؤمنين (عليه السلام) على نهج وسُنّة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في تصديه لخصومه بالمحاججة والمناظرة بكل دقة وموضوعية، كيف لا، وهو من أفقه الناس لجميع مباحث العلوم، وأخبرهم في المسائل الكلامية، فقد أفحم الخلفاء بمناظراته وناظر علماء الأديان السماوية، والحق بهم هزيمة ساحقة، فقد علم مناطق الضعف، والزيف في أناجيلهم وتوراتهم فوضعها بين أيديهم، فلم يستطيعوا الدفاع عن أديانهم ووقفوا واجمين أمام منطقه الفيّاض، معترفين بعجزهم خاضعين لملكاته وقدراته العلمية[٧٠].

وبالتأكيد سيكون تركيزنا في هذا المبحث حول الإحالات السياقية في تلك الاحتجاجات والمناظرات العلوية، والتي سنسلط الضوء على نماذج منها بحسب ما يسمح به مقام البحث:-

(أ) من أروع ما أحتج به الإمام (عليه السلام) على معاوية نستدل بجزء من هذا الاحتجاج الذي كان جواباً لرسالة معاوية بقوله (.. فإسلامنا قد سُمع، وجاهليتُنا لا تدفع، وكتاب الله يجمع لنا ما شذّ عنّا، وهو قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾[٧١]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٧٢]،

نلاحظ روعة الإحالة السياقية لأمير المؤمنين (عليه السلام) في سورة الأنفال إلى حق أولي القربى من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله (عليه السلام): (فنحن أولى قُربى)، والإحالة الثانية من سورة آل عمران بقوله (عليه السلام): (وتارةً أولى بالطاعة)، من مجمل ردّه (عليه السلام) بإحالة الآية الأولى، وضمّها إلى الثانية بوحدة السياق طلباً للمعنى العام للآيتين فكان إحالته السياقيه للآيتين بقوله (عليه السلام): (فنحن مرّةً أولى بالقربة، وتارة أولى بالطاعة)[٧٣].

(ب) ويستمر الإمام الممتحن (عليه السلام) في رسالته واحتجاجه على معاوية قائلاً: (ثم ذكرت ما كان من أمري وأمر عُثمان، فلك أن تُجاب عن هذهِ لرحمك منهُ، فأيُنا كان أعدى لهُ، وأهدى إلى مقاتلهِ! أمن بذل له نُصرتهُ فاستقعدهُ واستكفّه، أم من استنصرهُ فتراخى عنهُ وبث المنون إليه، حتى أتى قدرُهُ عليه، كلا والله ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٧٤]، فقد أحال الإمام (عليه السلام) من خلال سياق الآية الكريمة، أنّه لا غضاضة، ولا منقصة عليه في أن يكون مظلوماً غير شاكٍ في دينه، ولا مرتاباً بيقينه: فكانت الإحالة السياقية لأمير امؤمنين (عليه السلام) دقيقة وموضحة لمكانة أهل البيت (عليهم السلام)، فجاء قوله: (وما أردت إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب)[٧٥].

(ت) وعند مناظرته (عليه السلام) لأحد الزناديق، عندما سُئل (عليه السلام) عن تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾[٧٦]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٧٧] فقال (عليه السلام) فإنّ ذلك في مواطن غير واحدٍ من مواطن ذلك اليوم الذي كان مقداره خمسين ألف سنة وهو مصداق لقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٧٨].

نلاحظ في تفسيره (عليه السلام) لهذه الآية لم يشر إليها، وإنّما أكتفى بقوله: كان مقداره خمسين ألف سنة، وكأنه يريدنا الرجوع إلى الآية الكريمة والتمعن أكثر في سياقها لمحكم، والمتكامل مع قوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[٧٩].

فقد أحال أمير المؤمنين (عليه السلام) معنى الآية الكريمة إلى أهل المعاصي، فالكفر هو المعصية، وهم يُكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، ثم ينسب (عليه السلام) ذلك الكفر إلى البراءة، وأيضاً كانت إشارته (عليه السلام) بمعنى الآية، وليس بالآية ذاتها من قوله تعالى: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[٨٠]، وقول إبراهيم (عليه السلام): ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾[٨١]. وهذا مما يوحي لنا على القدرة الفائقة في حفظ أمير المؤمنين للقرآن الكريم، ومعرفته بعلومه ومباحثه: فهو يهتم في تبيين المعنى القرآني من خلال السياق بين الآيات سواء كان ذلك من حيث التشابه أو التكامل، أو من حيث التصريح بالاية في بيان

المعنى أو الإشارة إلى مضمونها من حيث أتفاق السياق بالمعنى أو اللفظ والأمثلة كثيرة على ذلك في موسوعة أمير المؤمنين (عليه السلام).

المبحث الخامس

السياق التكاملي في إحالات أمير المؤمنين (ع) التفسيرية

(إجتماع العباد في مواطن متعددة إنموذجاً)

مازلنا في موضوع حجية السياق القرآني: الذي نستطيع من خلاله الاستدلال قرآنياً: أي بالقرآن نفسه، فيسمى حجّية السياق القرآني وهو أقرب إلى منهج التفسير الروائي (تفسير القرآن بالقرآن): إلا أنه يحتاج بالسياق التكاملي إلى تمعن في النص القرآني من حيث المعنى، والمناسبة الموضوعية بين الآيات، ومن خلاله نستدل على مشروعية الإحالات القرآنية السياقية، من حيث التكامل في المعنى القرآني، ويمكن بيان ذلك من خلال بعض المواطن التي وقف عندها سيدي ومولاي أمير المؤمنين (عليه السلام)، :-

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٨٢]. يبيّن لنا أمير المؤمنين (عليه السلام) هنالك عدة مواطن يُستنطق فيه العباد يوم القيامة، وفي الآية الكريمة استنطاق المقرّين في دار الدنيا بالتوحيد فلا ينفعهم إيمانهم بالله لمُخالفتهم رُسُله وتكذيبهم ونقضهم عهودهم واستبدالهم الذي أدنى بالذي هو خير فكذبهم الله فيما انتحلوهُ من الإيمان بقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[٨٣]، فيختم الله على أفواههم، ويستنطق الأيدي والأرجل والجلود فتشهد بكل معصية..، ومن الملاحظ الدقة والموضوعية في الإحالات السياقية بتكامل السياق بين الآيتين من سورة الأنعام، ثم تابع أمير المؤمنين تلك المواطن بقوله: (ثم يجتمعون في موطنٍ آخر فيُستنطقون، فيفر بعُضهُم من بعض)، ثم وظف أمير المؤمنين (عليه السلام) سياق الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾[٨٤]، فيُستنطقون فلا يتكلمون، ثم في موطنٍ آخر يُسأل المرسلون عن تأدية الرسالة التي حملوها إلى أُممهم، وتُسأل الأمم فتجحد، كما في سياق قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، فنجد السياق التكاملي في الإجابة فيقولون: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾[٨٥]، فالآية الكريمة من سورة الأعراف فتُشهدُ الرُسُل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيشهد بصدق الرسل، وتكذيب من جحدها من الأمم، فيأتي قوله تعالى رداً على تكذيبهم للرسل ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي مقتدرٌ على شهادة جوارحكم عليكم بتبليغ الرسل إليكم رسالاتهم وهنا نلاحظ مدى أهمية السياق القرآني في تكامل المعنى القرآني، ثم يعزز أمير المؤمنين في تفسيره بدليل آخر من القرآن يوافق وينسجم لمعنى ماسبقه من الآيات من خلال قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ

أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[٨٦]، فلا يستطيعون ردّ شهادته، خوفاً من أنّ يختم الله على أفواههم فتشهد عليهم جوارحهم بما كانوا يعملون، ثم يقولون باجمعهم في سورة المؤمنون: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾[٨٧]، ثم يجتمعون في موطنٍ آخر يكون فيه مقام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[٨٨] فهنيئاً لمن فاز بذلك المقام العظيم فكان ذو حظ ونصيب كريم، وويلٌ لمن لم يكن له في ذلك المقام حظٌ ولا نصيب.

والجدير بالذكر أنّ الإمام (عليه السلام) عرض لنا تفاصيل المواقف التي يقف بها العباد في يوم القيامة، وذلك قبل يوم الحساب، ولا نظن أنّ رواية وردت عن أئمة الهدى (عليهم السلام)، عرضت لذلك مفصلاً.

الخاتمة:

وبعد هذه الرحلة الممتعة مع حجيّة السياق في تفسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، توصلنا إلى مجموعة من الحقائق التي لابد لنا أنّ نذكرها بإيجاز:-

(١) تبيّن في البحث أنّ طائفةً من القرائن السياقية زيّنت تفسير أمير المؤمنين (عليه السلام)، طلباً للمعنى المراد من النص القرآني.

(٢) عناية أمير المؤمنين (عليه السلام) في القرائن السياقية التي تصاحب النص القرآني؛ مبيّناً لنا الدلالة الحالية أو السياقية سواء كانت لفظية، أو معنوية من خلال تفسيره الذي اتسم بروعة البيان، وفصاحة الكلام.

(٣) جاء تفسير أمير المؤمنين (عليه السلام) مستعيناً بما في النص القرآني من إعجاز بيانه، وبراعة نظمه، وجزالة أسلوبه، وكثرة دلالاته السياقية، ووضوح معانيه القرآنية وأحكامه الإلهية.

(٤) وجدنا في تفسيره (عليه السلام) الإحالات السياقية من خلال الأدلة والشواهد القرآنية بأنواعها المختلفة، مثل التكامل السياقي، والمتشابه وغيرها.

(٥) لقد أفادتنا هذه الدراسة في معرفة الجواهر البلاغية، والدرر السياقية في الإحالات القرآنية في تفسيره (عليه السلام).

(٦) وقد تبيّن في البحث اهتمام الإمام (عليه السلام) في التكامل السياقي من خلال حجية اللفظ، والسياق، فكان نوع من المناهج التفسيرية السياقية القديمة الجديدة في نفس الوقت.

(٧) كما أفادتنا في تلمس جمالية النص القرآني وهو ينساق في نظامه الإعجازي الجميل، وكأنه سلسلة من المعاني التي يشبه بعضه بعضاً، ويتعلق بعضه برقاب بعض مكوناً منظومةً قرآنية في البيان، والتركيب الدلالي والسياقي.

(٨) وهو من أفقه الناس لجميع مباحث العلوم، وأخبرهم في المسائل الكلامية، فقد أفحم الخلفاء بمناظراته وناظر علماء الأديان السماوية، والحق بهم هزيمة ساحقة، فقد علم مناطق الضعف، والزيف في أناجيلهم وتوراتهم فوضعها بين أيديهم، فلم يستطيعوا الدفاع عن أديانهم ووقفوا واجمين أمام منطقه الفيّاض، معترفين بعجزهم خاضعين لملكاته وقدراته العلمية.

الهوامش:

القرآن الكريم.

(١) الكافي: للكليني ٥٤٣/٢.

(٢) رومان ياكوبسون، الاتجاهات الأساسية في علم اللغة، ص٦٣

(٣) حاتم صالح الضامن، علم اللغة، ص١٥٠

(٤) أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة ١٩٩٨م، ط٥، ص٧١

(٥) هادي نهر، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، ص١٧

(٦) محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي)، ص١٩

(٧) سورة القلم: الآية ٤٢.

(٨) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٤ ص١٤٩٩/الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج٢٥ ص٤٧٠

(٩) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ج٢٥ ص٤٧٢/الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٤ ص١٤٩٩

(١٠) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج٣ ص١١٧

(١١) بطرس البستاني، محيط المحيط، ص٤٤١/أ.د. أحمد أبو حاقة، وجماعة من المختصين، معجم النفائس الكبير، ج١ ص٩١٩

(١٢) السياق والأنساق: لمحمد عبد الكريم الحميدي، جامعة المدينة العالمية (١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م)١٣.

(١٣) يُكنى عن السَّاقِ بالنَّفْسِ، مِثْلَمَا وَرَدَ عَنْ عَلِي بنَ أبي طَالِب فِيْ حرْب الشُرَاةِ "لا بد لي من قتالهم ولو تَلِفَت سَاقِي"زمخشري، أساس البلاغة، ص٣١٤.

(١٤) السياق والأنساق: لمحمد عبد الكريم الحميدي، جامعة المدينة العالمية (١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م)١٥.

(١٥) ينظر: موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ١٧/٣.

(١٦) سورة البقرة: الآية٧.

(١٧) سورة الأنعام: الآية ٢٥.

(١٨) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

(١٩) ينظر: مواهب الرحمن: ٨٥/١.

(٢٠) سورة الأعراف: الآيتان ٨ – ٩.

(٢١) ينظر: تفسير الميزان: للطبأطبائي١٥/٨.

(٢٢) التوحيد ٢٦٨.

(٢٣) سورة المجادلة: الآية ١٢.

(٢٤) السورة نفسها: الآية١٣.

(٢٥) مجمع البيان: للطبرسي ٢/٧٧٠.

(٢٦) سورة النساء: الآية ٨٦.

(٢٧) سورة هود: الآية ٧٣.

(٢٨) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢٩) تفسير الميزان: للطبأطبائي٢٠/٢٤٧.

(٣٠) ينظر: موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ٤/١٤.

(٣١) سورة الأنعام: الآية ٥٢.

(٣٢) السورة نفسها: الآية ٦٩.

(٣٣) سورة الأنبياء: الآية ١.

(٣٤) سورة الشعراء: الآية ١٣٣.

(٣٥) سورة الغاشية: الآية ٢٦.

(٣٦) سورة الأعراف: الآية ٨.

(٣٧) السورة نفسها: الآية ٩.

(٣٨) سورة المؤمنون: الآية ١٠٣.

(٣٩) سورة القارعة: الآيتان ٦ – ٧.

(٤٠) السورة نفسها: الآيتان ٧ ـ ٨.

(٤١) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

(٤٢) ينظر: نهج البلاغة: ٢/٣٤٢.

(٤٣) سورة آل عمران: الآية ٦٨.

(٤٤) سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٤٥) ينظر: رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم: لعبد الفتاح إسماعيل شلبي ١٢.

(٤٦) سورة محمد: الآية ٢١.

(٤٧) سورة الرحمن: الآية ٣٧.

(٤٨) سورة الحاقة: الآية ١٦.

(٤٩) سورة الانشقاق: الآية ١.

(٥٠) حجية الدلالة السياقية في التفسير: لعبد الوهاب صالح١٢٦.

(٥١) ينظر: موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): لباقر شريف القرشي٨/٧.

(٥٢) سورة يس: الآية ٩.

(٥٣) سورة الإسراء: الآية ٤٥.

(٥٤) سورة يس: الآية ٨.

(٥٥) السورة نفسها: الآية ٧٨.

(٥٦) نفسها: الآية ٧٩.

(٥٧) سورة الواقعة: الآية ٢٩.

(٥٨) سورة ق: الآية ١٠.

(٥٩) ينظر: موسوعة آمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): لباقر شريف القرشي٨/٨

(٦٠) موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ٥٧/٤.

(٦١) سورة الأحقاف: الآية ١٥.

(٦٢) سورة لقمان: الآية ١٤.

(٦٣) سورة النساء/الآية ٤٨.

(٦٤) السورة نفسها: الآية ١١٠.

(٦٥) موسوعة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ٥٩/٨.

(٦٦) سورة الفرقان: الآية ٧٠.

(٦٧) سورة هود: الآية ١١٤.

(٦٨) سورة البقرة: الآية ٢٥٨.

(٦٩) سورة النحل: الآية ٢٥.

(٧٠) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ٣٤٢/٢.

(٧١) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

(٧٢) سورة آل عمران: الآية ٦٨.

(٧٣) ينظر: حجية الدلالة السياقية في التفسير: لعبد الوهاب رشيد صالح أبو صفية٥٦

(٧٤) سورة الأحزاب: الآية ١١.

(٧٥) تفسير الميزان: للطبأطبائي ٢٧٧/٢٠، نقلاً عن نهج البلاغة.

(٧٦) سورة النساء: الآية ٣٨.

(٧٧) سورة الأنعام: الآية ٢٣.

(٧٨) سورة المعارج: الآية: ٤.

(٧٩) سورة العنكبوت: الآية ٢٥.

(٨٠) سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

(٨١) سورة الممتحنة: الآية ٤.

(٨٢) سورة الأنعام: الآية: ٢٣.

(٨٣) السورة نفسها: الآية ٢٤.

(٨٤) سورة عبس: الآية ٣٦.

(٨٥) سورة المائدة: الآية ١٩.

(٨٦) سورة النساء: الآية ٤١.

(٨٧) سورة المؤمنون: الآية ١٠٦.

(٨٨) سورة الإسراء: الآية ٧٩.

❖ ❖ ❖

التفكير الإبداعي في قضاء الإمام علي (ع)

د. سيف طارق حسين العيساوي
جامعة بابل/كلية التربية الأساسية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾

صدق الله العلي العظيم

(الزخرف: ٧)

المقدمة:

الحمد لله الأول قبل الإنشاء والآخر بعد فناء الأشياء والصلاة والسلام على رسوله وآله الأتقياء وبعد:

إن ثناء النبي (صلى الله عليه وآله) في مجال القضاء على أمير المؤمنين (عليه السلام) بل وتعينه قاضياً من قبله في حياته وإقراره لما قضاه من أعظم الأدلة على تقدمه على الكل في الحكومة والولاية فضلاً عن احتياج الخلفاء إليه حتى اشتهر على لسان الفريقين قول عمر بن الخطاب بعد كل قضية يفزع فيها إلى أمير المؤمنين فتنحل على يده مشكلها يقول (لولا علي لهلك عمر) وقد شاع من بدائع قضائه ما صار أقصوصة على السنة العامة فضلاً عن الكتب التي ألفت فيه وما كان هذا التميز في قضاء أمير المؤمنين إلا بما احتواه من إبداع قل نظيره لذا ارتأى الباحث إلى تحليل بعض مواقف الإمام علي (ع) في القضاء على وفق مهارات التفكير الإبداعي فجاء البحث على مبحثين:

بينت في المبحث الأول: الإبداع، المعنى اللغوي والاصطلاحي، مفهوم الإبداع، جوانب الإبداع، مهارات التفكير الإبداعي، ثم تطرقت إلى القضاء في الإسلام، ونبذة عن قضاء الإمام علي (عليه السلام).

وبينت في المبحث الثاني: رؤية تحليلية لبعض مواقف الإمام في القضاء على وفق مهارات التفكير الإبداعي وهي: (الطلاقة، المرونة، الأصالة، الإفاضة، الحساسية للمشكلات)، ثم جاءت الخاتمة لتبين النتائج التي توصل إليها البحث.

ولا أدعي إن وصلت إلى إدراك ما كان يبتغيه الإمام من أحكامه لكنها مساهمة علمية بسيطة في نشر جزء صغير من عبقريته عليه أفضل الصلاة والسلام، فالعذر له إذا أخفقنا ومن الله سبحانه التوفيق.

المبحث الأول

المحور الأول: الإبداع

أولاً: المعنى اللغوي والاصطلاحي للتفكير الإبداعي:

١ - في اللغة العربية:

الإبداع لغةً ابتداء الشيء أو صنعه على غير مثال سابق، إذ جاء تعبير (بديع السموات والأرض) في القرآن الكريم في كل من سورتي، البقرة (الآية، ١١٧) وسورة الأنعام (الآية، ١٠١). وفسرت كلمة "البديع" بالمحدث العجيب. والبديع: مبدع، أي أن الله سبحانه وتعالى خالقها ومبدعها، فهو الذي أنشاها على غير مثال سابق[١].

٢ - في اللغة الانجليزية:

تشتق كلمة إبداع (Creativity or Creativeness) من كلمة الخلق (Creation)، والفعل يخلق (Create) أصله اللاتيني (Creare) ومعناها يخرج إلى الحياة أو يصمم أو ينشئ أو يخترع أو يكون سبباً[٢].

ويرى كاتينا (Khatena، ١٩٧٥)، إن أصل كلمة إبداع (Creativity) كما ورد في قاموس ويبستر (Webester، ١٩٦٢) يعود إلى المصطلح اللاتيني "Kere" الذي يعني النمو أو سبب النمو، والفعل الانجليزي يبدع (Create) يعني يوجد أو يصنع أو يؤصل (Originate)، ومن يتصف بهذا الوصف يكون مالكاً للقدرات الإبداعية.

والاسم (Creativity) يشير إلى خاصية الإبداع أو القدرة على الخلق[٣].

ثانياً - مفهوم الإبداع:

لا يوجد تعريف جامع لمفهوم الإبداع، وقد يرجع سبب ذلك إلى أن الإبداع ظاهرة متعددة الجوانب، وكذلك إلى اختلاف وجهات نظر الباحثين للإبداع باختلاف مدارسهم الفكرية ومنطلقاتهم النظرية[٤].

ثالثاً - جوانب الإبداع:

ويرى ماكينون (Mackinnon) وهو من أعلام الباحثين في هذا المجال، إن الإبداع يعد ظاهرة متعددة الوجوه أكثر من عده مفهوماً نظرياً محدد التعريف[٥] ويميز ماكينون بين أربع

---

(١) لسان العرب المحيط، ابن منظور، ص ١٧٥.

(٢) سيكلوجية الإبداع بين النظرية والتطبيق، حسن أحمد عيسى، ص ١٥.

(٣) التفكير الإبداعي عند طلبة المرحلة الثانوية في اليمن وعلاقته بالعمر والجنس والتخصص الدراسي والمستوى التعليمي للوالدين، أحمد علي حسن العمري، ص٤٣.

(٤) تنمية قدرات التفكير الإبداعي، محمد حمد الطيطي، ص ٥١.

(٥) الإبداع العام والخاص، الكسوندور روشكا، ص ١٩.

جوانب أو مظاهر أساسية للإبداع، ويضيف ماكينون أنه لا يمكن توضيح مفهوم الإبداع إلا من خلال الإحاطة الشاملة بالجوانب الأربع الآتية: -

١ - الشخص المبدع (Creative Person)

٢ - الإنتاجية الإبداعية (Creative product)

٣ - العملية الإبداعية (Creative Process)

٤ - الموقف الإبداعي (Creative Press)[١].

وفيما يأتي عرضاً للجوانب الأربعة: -

١ - الشخص المبدع (Creative Person)

وهو يمثل محور اهتمام علماء نفس الشخصية الذي يرون أنه يمكن التعرف على الشخص المبدع عن طريق دراسة متغيرات الشخصية والفروق الفردية في المجال المعرفي ومجال الدافعية. وفي هذا الصدد يبرز جلفورد (Guil Ford) سمات وخصائص الشخص المبدع في تعريفه المشهور للإبداع: "الإبداع سمات استعدادية تضم طلاقة التفكير ومرونة التفكير والأصالة والحساسية للمشكلات وإعادة تعريف المشكلة وإيضاحها بالتفاصيل"[٢].

كما يؤكد سيمبسون (Simpson) على الشخص المبدع في تعريفه للإبداع على أنه "المبادأة التي يبديها الشخص في قدرته على التخلص من السياق العادي للتفكير واتباع نمط جديد من التفكير"[٣].

٢ - الإنتاجية الإبداعية (Creative Product)

يؤكد الكثير من العلماء والباحثين على أن الإبداع يعني الإنتاج، على أن يتصف هذا الإنتاج بسمات محددة منها (الواقعية، عدم التقليد، الاستمرارية، الرضا الاجتماعي، الأصالة). ويعد ديفز (Davis، ١٩٨٦) أحد هؤلاء العلماء والذي عرف الإبداع على أنه "الإتيان بالشيء الجديد والحل الناجح للمشكلة بطريقة مفيدة وأصيلة". وميز ديفز (Davis) بين نوعين من الإبداع هما: -

أ - الإبداع الكامن: ويعني استعداد الشخص لإنتاج أفكار جديدة.

ب - الإنتاج الإبداعي: ويظهر من خلال المنتجات العملية والفنية[٤].

---

(١) الموهبة والإبداع طرائق التشخيص وأدواته المحسوبة، تيسير صبحي، ص ٢٥.

(٢) التفكير عند الأطفال، محمود محمد غانم، ص ١٤٠.

(٣) تنمية قدرات التفكير الإبداعي، محمد حمد الطيطي، ص ٥١.

(٤) تربية المتميزين والموهوبين، ناديا هايل السرور، ص ١٣٣.

٣ ـ العملية الإبداعية (Creative Process)

يمثل هذا الاتجاه محل اهتمام علماء النفس المعرفيين الذين استهوتهم فكرة الاستبصار، التي جاء بها علماء نفس الجشطالت، والذين يعرفون الإبداع على أنه عملية[١].

ويعد ميدنك (Mednick) أحد هؤلاء العلماء، حيث عرف ميدنك الإبداع على أنه: عملية صب عدة عناصر متداعية في قالب جديد يحقق احتياجات معينة أو فائدة ما"[٢]. (الصراف، ١٩٩٩: ٢٠).

٤ ـ الموقف الإبداعي (Creative Press):

يفسر الإبداع على أساس الموقف الإبداعي بأنه المناخ أو البيئة بما تتضمنه من ظروف متباينة والتي قد تيسر الإبداع أو تعيقه، ويرى (الدريني، ١٩٨٢)، إن هذه الظروف يمكن تقسيمها إلى قسمين هما: ـ

أ ـ ظروف عامة ترتبط بالمجتمع وثقافته بصفة عامة.

ب ـ ظروف خاصة ترتبط بالمدرسة والمدرسين والمدراء والمشرفين التربويين[٣].

رابعاً ـ مهارات التفكير الإبداعي:

اختلف العلماء في أنواع مهارات التفكير الإبداعي فمنهم من اعتمد المهارات الرئيسية الثلاثة وهي: ١. الطلاقة، ٢. المرونة، ٣. الأصالة، ومنهم من وسعها لتشمل مهارتي: ١. الإفاضة، ٢. الحساسية للمشكلات، وبذلك تصبح خمس مهارات وسيأتي توضيحها في المبحث الثاني أثناء تطبيقها على صور من قضاء الإمام علي (عليه السلام)[٤].

المحور الثاني: القضاء في الإسلام

أولاً ـ مقدمة عن القضاء:

إن القضاء من الأمور الأبرز في الأهمية والصعوبة، لأنها الطريق إلى إحقاق الحق وإرجاعه إلى أهله وإنصاف المظلوم، ولما كان القضاء بهذه الأهمية، لم يتركه المشرع الإسلامي من غير ضوابط، إذ أنه يعد من المناصب الإلهية ولا يستطيع أن يقوم به إلا من كان مؤيداً بروح قدسية أو من يأخذ بعلم وأمانة عن مؤيد بتلك الروح لأنه قرين الحكومة الإلهية

---

(١) التفكير عند الأطفال، محمود محمد غانم، ص ١٤٠.

(٢) أثر استخدام طريقة الوحدات في التفكير الابتكاري والتحصيل في العلوم، زياد عبد الغني أحم الصراف، ص ٢٠.

(٣) تنمية الإبداع والتفكير الإبداعي في تدريس العلوم، عايش محمود زيتون، ص ١٣ ـ ١٥.

(٤) سايكلوجية التفكير والوعي بالذات، سعاد جبر سعيد، ص٥٥.

التي بينها الله سبحانه وتعالى في قوله ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (ص: ٢٦).

وبما أن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) هم الممثلين الشرعيين للحكومة الإلهية، فقد بينوا في الكثير من كلماتهم وحددوا صفات القاضي ومن يجب عليه القضاء ومنها:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: اتقوا الحكومة فإن الحكومة إنما هي للإمام العالم بالقضاء العادل في المسلمين لنبي أو وصي نبي[١].

قال العلامة المجلسي معلقاً على هذا الخبر في مرآة العقول: لا يخفى أن هذه الأخبار تدل بظواهرها على عدم جواز القضاء لغير المعصوم (عليه السلام) ولا ريب أنهم عليهم السلام كان يبعثون القضاة إلى البلاد فلابد من حملها على أن القضاء بالأصالة لهم ولا يجوز لغيرهم تصدى ذلك إلا بإذنهم وكذا في قوله: (لا يجلسه إلا نبي) أي بالأصالة والحاصل أن الحصر إضافي بالنسبة إلى من جلس فيها بغير إذنهم ونصبهم عليهم السلام ومن الأخبار الأخرى:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: القضاة أربعة ثلاثة في النار وواحد في الجنة: رجل قضى بجور وهو يعلم فهو في النار، ورجل قضى بجور وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بالحق وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بالحق وهو يعلم فهو في الجنة، وقال (عليه السلام): الحكم حكمان: حكم الله وحكم الجاهلية فمن أخطأ حكم الله حكم بحكم الجاهلية[٢].

وعن أبي جعفر (عليه السلام) قال: الحكم حكمان حكم الله وحكم الجاهلية، وقد قال الله عزّ وجلّ: ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون وأشهدوا على زيد بن ثابت لقد حكم في الفرائض بحكم الجاهلية[٣].

ومن شروط القضاة أن يحكموا بعلم وبما انزل الله وإلا فحكمهم حكم الشيطان:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) قالا: من حكم في درهمين بغير ما أنزل الله عزّ وجلّ ممن له سوط أو عصا فهو كافر بما أنزل الله عزّ وجلّ على محمد صلى الله عليه وآله[٤].

ثانياً ـ قضاء الإمام علي (عليه السلام):

لقد برز الإمام علي (عليه السلام) كألمع شخصية على مسرح القضاء الإسلامي، علمية موهوبة، عرفها التاريخ الإسلامي في فن القضاء، لقد وضع (عليه السلام) معظم أسس

---

(١) الكافي ج ٧ ص ٤٠٦.

(٢) الكافي ج ٧ ص ٤٠٧.

(٣) الكافي ج ٧ ص ٤٠٧.

(٤) الكافي ج ٧ ص ٤٠٧.

القضاء، وكان بذرة ذلك من رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقد ميز الإمام بين الحق والباطل في دعوى المتخاصمين، التي أحيطت بكثير من الغموض والإبهام، لعدم وجود الوسائل المساعدة في ذلك الوقت، فاستطاع بأروع الأساليب أن يكشف الحق، ويزيح الالتباس، الأمر الذي أثار إعجاب علماء القانون ن والقضاة، ومنه استمدوا الكثير من العلماء في التمييز بين الدعاوى ومعرفة الحق[١].

وقبل الخوض في بحار قضاء أمير المؤمنين والاطلاع على تلك القضايا والمعضلات الحكمية التي حل مشكلها لابد لنا من وقفة مع الأدلة النبوية في تخصيص القضاء بأمير المؤمنين (عليه السلام) من قبل النبي صلى الله عليه وآله:

- قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): أقضى أمتي علي بن أبي طالب[٢].
- عنه (صلى الله عليه وآله): أعلم بالسنة والقضاء بعدي علي بن أبي طالب.

أما إمام المتقين فيقول عن نفسه وهو المعصوم: والله لو ثنيت لي الوسادة لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم، وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم، وبين أهل الزبور بزبورهم، وبين أهل القرآن بقرآنهم ينطق كل واحد منهم ويقول: قد قضى علي في بما أنزل[٣].

واجمع الرواة على أن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) كان المرجع الأعلى للقضاء والفتيا أيام حكومة الخلفاء لا يعدون رأيه فيما يقضي ويفتي به خصوصاً في عهد عمر بن الخطاب، فقد شاعت كلماته التي تقر بأفضلية أمير المؤمنين ومنه (لولا علي لهلك عمر) وقال غير مرة (لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن) لقد اعترف عمر بتفوق الإمام الملهم العظيم عليه وعلى غيره في ميدان القضاء وغيره[٤].

وحين نمعن النظر في هذا الاعتراف نجد أن في اعترافاً ضمنياً بأحقية الإمام علي (عليه السلام) بتولي أمر المسلمين فمن كان أقضاهم كان أعلمهم ومن كان أقضاهم وأعلمهم كان الأولى في الخلافة ولكنهم كما يصفه القرآن الكريم (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم).

الإبداع في قضاء الإمام علي (عليه السلام):

رب سائل يسأل ما علاقة الإبداع وهو علم حديث بقضاء الإمام علي (عليه السلام) على قدم زمنه، ويجيب الباحث على هذا التساؤل من جانبين، الجانب الأول: إن تسليط الضوء على مثل هذه الأمر إنما يكشف عبقرية الإمام علي (ع) وفق منظور علمي حديث، ويعيد

---

(١) قضاء الإمام علي (ع) من ذخائر الفكر الإسلامي، باقر شريف القرشي، ص١٠.

(٢) الأمالي للصدوق ص ٦٤٢.

(٣) قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الشيخ التستري/ص١.

(٤) قضاء الإمام علي (ع) من ذخائر الفكر الإسلامي، باقر شريف القرشي، ص١٠.

للأذهان دور هذا القائد العظيم في بناء الأمة الإسلامية، الجانب الثاني: هو نشر علوم آل البيت بأسلوب علمي بحثي يطابق مقتضيات العصر تأسياً بقول الإمام الرضي (عليه السلام) أحيوا أمرنا رحم الله من أحيا أمرنا، قالوا يا ابن رسول الله كيف نحي أمركم؟ قال: تتعلموا علومنا وتعلموها الناس، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لتبعونا.

زيادة على ما تقدم يرى الباحث أن القضاء ميداناً رحب متنوع الأحداث يحتاج إلى عقلية خاصة عارفة ومبدعة وقد وجد أن خصائص المفكر المبدع وجدت في الإمام عن طريق استقراء قضائه والتي نلخصها بـ:

١. الحساسية المرهفة لإدراك ما تنطوي عليه مواقف الحياة المختلفة من ثغرات، وتعد هذه الحقيقة نقطة الانطلاق للتفكير المبدع.
٢. إن رؤية المبدع للثغرات على هذا النحو قد لا يشاركه فيها أحد ممن يحيطون به.
٣. إن الاختلاف في الرؤية بين المبدع وبين المحيطين به قلما يظل اختلافاً على المستوى المعرفي فحسب، بل يكون أشمل من ذلك.
٤. هنالك عناصر وجدانية قيمة تتألف حول مشاعر الرغبة والمفاضلة.
٥. عناصر دافعية تشير إلى التوجه الواجب للفعل[١].

المبحث الثاني
تطبيق مهارات التفكير الإبداعي
في قضاء الإمام علي (ع)

١- مهارة الطلاقة (حادثة الأرغفة الثمانية أنموذجاً).
٢- مهارة المرونة (حادثة اتّهام امرأة بريئة بالبغاء أنموذجاً).
٣- مهارة الأصالة (حادثة الشاب الذي يطالب بأموال أبيه أنموذجاً).
٤- مهارة الإفاضة (حادثة زبية الأسد).
٥- مهارة الحساسية للمشكلات (فتى يدّعي على امرأة أنّها أمّه وهي تنكره).

بما أن قصص قضاء الإمام كثيرة فقد اتبع الباحث منهجية النماذج والتي عن طريقها يتم اختيار أنموذج (موقف قضائي) مطابق لمهارة من مهارات التفكير الإبداعي وتحليلها على وفق تلك المهارة لبيان نوعية الإبداع التي ورد فيها وقد حددنا المهارات بـ(الطلاقة، المرونة، الأصالة، الإفاضة، الحساسية للمشكلات).

---

(١) علم النفس في حياتنا الاجتماعية، مصطفى سويف، ص١٠٧.

١ ـ مهارة الطلاقة (حادثة الأرغفة الثمانية أنموذجاً) [١]:

من عجائب قضاء الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) أنّ رجلين اصطحبا في طريق، فلمّا أرادا الغداء أخرج أحدهما خمسة أرغفة، وأخرج الآخر ثلاثة أرغفة، ومرّ بهما شخص فدعواه إلى تناول الطعام فأجابهم إلى ذلك، وأكلوا جميعاً الأرغفة الثمانية، وبعد الفراغ من الطعام قدّم لهما الرجل ثمانية دراهم جزاء لدعوتهما له، وانبرى صاحب الأرغفة الثلاثة فقال لصاحبه: اقسّم الدراهم نصفين، فردّ عليه صاحبه أنّ كلّ واحد منّا يأخذ من الدراهم عدد ما أخرج من الأرغفة، ووقع الشجار بينهما، فترافعا إلى الإمام عليه السلام فأمرهما بالصلح فلم يستجيبا له، وقالا: اقض بيننا بالحقّ، فحكم الإمام بينهما، فأعطى صاحب الخمسة أرغفة سبعة دراهم، وأعطى صاحب الثلاثة درهما، وبهرا من ذلك، فقال عليه السلام مبيّناً الوجه في هذه القسمة.

«أليس أخرج أحدكما من زاده خمسة أرغفة وأخرج الآخر ثلاثة؟».

بلى.

«أليس أكل ضيفكما معكما مثلما أكلتما؟».

بلى.

«أليس أكل كلّ واحد منكما ثلاثة أرغفة غير ثلث؟».

بلى.

«أليس أكلت يا صاحب الثلاثة ثلاثة أرغفة غير ثلث؟ وأكلت أنت يا صاحب الخمسة ثلاثة أرغفة غير ثلث؟ وأكل الضيف ثلاثة أرغفة غير ثلث؟ أليس بقي لك يا صاحب الثّلاثة ثلث رغيف من زادك؟ وبقي لك يا صاحب الخمسة رغيفان وثلث، وأكلت ثلاثة غير ثلث، فأعطاكما لكلّ ثلث رغيف درهماً، فأعطى صاحب الرّغيفين وثلث سبعة دراهم، وأعطى صاحب الثّلاثة درهما».

لقد حكم الإمام (عليه السلام) بهذه القسمة المثيرة للدهشة التي لا يلتفت إليها إلاّ المتمرّس في علم الحساب، وهنا برزت طلاقة الإمام (ع) الفكرية وهي إحدى مهارات التفكير الإبداعي، والتي تعني القدرة على توليد أكبر عدد من البدائل أو المترادفات أو الأفكار أو الاستعمالات عند الاستجابة لمثير معين، مع سرعة وسهولة في توليدها وهي إحدى القدرات الذهنية التي تعتمد على الثروة اللغوية والتحصيلية، والخيال الخصب، واتساع الذاكرة[٢].

---

(١) موسوعة الإمام علي (ع)، الجزء١١، ص٤٥.

(٢) التفكير الإبداعي علم وفن، جلال عزيز فرمان البرقعاوي، ص٣٨.

ونجد الطلاقة في هذه القضية ظهرت بجانبين الأول: تثبيت الحقوق من خلال سحب اعتراف كلاً منهما بعدد الأرغفة التي أخرجها وكم أكل من الأشخاص الثلاثة، وهذه تسمى بعملية استدعاء اختيارية لمعلومات سابقة[١].

الجانب الثاني: يتمثل في عملية توزيع الدراهم لنتأمل في هذا المقطع "أليس أكلت يا صاحب الثلاثة ثلاثة أرغفة غير ثلث؟ وأكلت أنت يا صاحب الخمسة ثلاثة أرغفة غير ثلث؟ وأكل الضيف ثلاثة أرغفة غير ثلث؟ أليس بقي لك يا صاحب الثلاثة ثلث رغيف من زادك؟ وبقي لك يا صاحب الخمسة رغيفان وثلث، وأكلت ثلاثة غير ثلث، فأعطاكما لكلّ ثلث رغيف درهما، فأعطى صاحب الرّغيفين وثلث سبعة دراهم، وأعطى صاحب الثّلاثة درهماً، فظهرت طلاقته في حجم الحل الذي أعطاه خلال هذه المدة الزمنية القصيرة والتي لا تتجاوز مدة الحوار، فالمبدع متفوق من حيث كمية الأفكار، التي يقترحها من موضوع معين، في مدة زمنية معينة[٢].

٢ ـ مهارة المرونة (حادثة اتّهام امرأة بريئة بالبغاء أنموذجاً)[٣]:

روى الإمام أبو عبد الله (عليه السلام) قال:

أتي بجارية إلى عمر بن الخطّاب قد شهدوا عليها أنّها بغت، وكان من قصّتها أنّها كانت عند رجل، وكان كثير السفر، فشبّت الجارية فخافت زوجته أن يتزوّجها زوجها، فدعت جماعة من النساء فأمسكنها، وأخذت عذرتها بإصبعها، فلمّا قدم زوجها من سفره رمت زوجته الجارية بالفاحشة، وأقامت البيّنة من جاراتها على ذلك، فرفع الرجل أمرها إلى عمر بن الخطّاب فلم يدر كيف يصنع.

ثمّ أخذ الجارية والرجل والنساء إلى الإمام (عليه السلام)، وعرض عليه الأمر، فقال الإمام (عليه السلام) لامرأة الرجل:

ألك بيّنة أو برهان؟

قالت: لي شهود جاراتي يشهدن عليها بما أقول.

فأمر الإمام عليه السلام بإحضارهنّ، فلمّا مثلن أمامه أخرج السيف من غمده ووضعه بين يديه، ثمّ دعى بزوجة الرجل، فأصرّت على قولها، فردّها إلى البيت ثمّ دعى إحدى النساء، وجثا على ركبتيه، وقال لها:

أتعرفينني؟ أنا عليّ بن أبي طالب، وهذا سيفي، وقد قالت امرأة الرّجل ما قالت، ورجعت إلى الحق، أي إلى الحبس، وأعطيتها الأمان، فإن لم تصدقيني لأملأنّ السّيف منك التفت المرأة إلى عمر فقالت له: الأمان على الصدق، فأجابها الإمام فاصدقي.

---

(١) التفكير الإبداعي علم وفن، جلال عزيز فرمان البرقعاوي، ص٣٨.

(٢) التفكير الإبداعي علم وفن، جلال عزيز فرمان البرقعاوي، ص٣٨.

(٣) قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الشيخ التستري/٥٦.

قالت: لا والله! إنّها أي زوجة الرجل رأت جمالاً وهيئة، فخافت فساد زوجها فسقتها المسكر ودعتنا فأمسكناها، فافتضّتها بإصبعها، وراح الإمام يقول:

الله أكبر أنا أوّل من فرّق بين الشّهود إلاّ دانيال النّبيّ.

وألزم المرأة حدّ القذف، وألزمهنّ جميعاً العقر، وجعل عقرها أربعمائة درهم، وأمر المرأة أن تنفى عن الرجل ويطلّقها، وزوّجه الجارية.

وفي تحليل لهذه الحادثة نجد أن عمر بن الخطاب بعد أن عجز عن حل القضية أحالها إلى الإمام (عليه السلام) وهذا اعتراف بأنه يمتلك مرونة فكرية قل نظيرها، والتي تعني القدرة على توليد أفكار متنوعة ليست من نوع الأفكار المتوقعة عادة، وتوجيه مسار التفكير أو تحويله مع تغير المثير، أو متطلبات الموقف[١]، وتتمثل هذه القدرة في العمليات العقلية التي من شأنها أن تميز بين الفرد الذي لديه قابلية على تغيير اتجاه تفكيره من زاوية أخرى عن الفرد الذي يجمد تفكيره في اتجاه واحد[٢].

وهناك نوعان لمهارة المرونة هي (المرونة التلقائية والشكلية) ونلاحظ أن الإمام (عليه السلام) قد استعمل النوعان فعندما أراد انتزاع الحقيقة منهما فرق بين الشهود وغير أسلوب الاستجواب وهو أول من فرق بين الشهود في الإسلام ويسمى هذا النمط من التفكير بالمرونة الشكلية وتعني: القدرة على تغيير الوضع لإعطاء حلول متنوعة للمثيرات أو المشكلات[٣].

أما في إصدار الحكم فقد كان متنوع وحديث من نوعه فنلاحظ انه ألزم المرأة حدّ القذف، وألزمهنّ جميعاً العقر، وجعل عقرها أربعمائة درهم، وأمر المرأة أن تنفى عن الرجل ويطلّقها، وزوّجه الجارية، وهنا انتقل الإمام (عليه السلام) من المرونة الشكلية إلى المرونة التلقائية وتعني: القدرة على إنتاج استجابات مناسبة لمشكلة أو موقف وهذه الاستجابات تتسم بالتنوع واللا نمطية وهذا ما وجدناه في الحكم.

٣ ـ مهارة الأصالة (حادثة الشاب الذي يطالب بأموال أبيه أنموذجاً)

رفع شاب شكواه إلى الإمام ومعه جماعة، فقال للإمام: إنّ هؤلاء النفر خرجوا ومعهم أبي في السفر، فرجعوا ولم يرجع أبي معهم، فسألتهم عنه فقالوا: قد توفّي، وسألتهم عن أمواله، فقالوا: ما ترك مالاً، فقدّمتهم إلى شريح فاستحلفهم، فانبرى الإمام قائلاً:

والله! لأحكمنّ بينهم بحكم ما حكم به خلق قبلي إلاّ داود النّبيّ (عليه السلام)، ثمّ أمر الإمام قنبر بإحضار شرطة الخميس، فلمّا حضروا وكلّ بكلّ واحد منهم شرطيّاً، والتفت إليهم قائلاً:

---

(١) تعليم التفكير مهارات وتطبيقات، فتحي جروان، ص ٨٤.

(٢) دمج مهارات التفكير في المحتوى الدراسي، محمد بكر نوفل، ومحمد قاسم سعيفان، ص٩٦.

(٣) آفاق جديدة في دراسة الإبداع، عبد الستار إبراهيم، ص٢٥٩

ماذا تقولون؟ تقولون: إنّي لا أعلم ما صنعتم بأبي هذا الفتى؟ إنّي إذاً لجاهل.

ثمّ أمر بتفريقهم وتغطية رؤوسهم، وأقيم كلّ واحد منهم إلى اسطوانة من أساطين المسجد، وقد غطّيت رءوسهم بثيابهم، ثمّ دعا كاتبه عبيد الله بن رافع، وأمره بإحضار صحيفة ودواة، وجلس الإمام في مجلس القضاء، وجلس الناس في مجلسه، وقال لهم: إذا أنا كبّرت فكبّروا، ثمّ دعا بواحد منهم وكشف الثوب عن وجهه، وقال لعبيد الله كاتبه: اكتب إقراره وما يقول، ثمّ أقبل على الرجل، وقال له:

في أيّ يوم خرجتم من منازلكم، وأبو هذا الفتى معكم؟

في كذا وكذا، وعيّنه.

في أيّ شهر؟

في شهر كذا، وعيّنه.

في أيّ سنة؟

في سنة كذا، وعيّنها.

إلى أين بلغتم في سفركم حتّى مات أبو هذا الفتى؟ إلى موضع كذا، وعيّنه.

في منزل من مات؟

في منزل فلان، وشخّصه.

ما كان من مرضه؟

كذا وكذا، وعيّن مرضاً خاصّاً.

كم يوماً كان مرضه؟

وعيّن الوقت الذي مرض.

في أيّ يوم مات؟ ومن غسله؟ ومن كفّنه؟ وبما كفّنتموه، ومن صلّى عليه؟ ومن نزل قبره؟

ثمّ كبّر الإمام (عليه السلام) وكبّر الناس معه، فارتاب الباقون ولم يداخلهم شكّ إنّ صاحبهم قد أقرّ عليهم وعلى نفسه بما اقترفوه من الجريمة، ثمّ أمر (عليه السلام) بالرجل إلى السجن، ودعا بشخص آخر منهم وقال له:

كلاّ! زعمتم أنّي لا أعلم ما صنعتم؟

فارتاب الرجل وطفق يخبر الإمام بما اقترفوه قائلاً:

يا أمير المؤمنين، ما أنا إلاّ واحد من القوم، ولقد كنت كارهاً لقتله.

ثمّ دعا بكلّ واحد منهم فأقرّ بالقتل وسلب المال، ثمّ أمر بردّ الرجل الذي أمر به إلى الحبس فأقرّ كأصحابه، فألزمهم بالمال والدم.

وحكت هذه البادرة مدى مواهب الإمام وقدرته الفائقة على إظهار الحقّ، وإبرازه بعد إحاطته بظلامة الغلام[1].

---

(١) موسوعة الإمام علي (ع)، الجزء١١، ص٤٥.

في هذه الحادثة نجد أن الإمام (ع) قد أتى بفكرة جديدة في القضاء الإسلامي وهي التفريق بين الشهود، واستعمال الحرب النفسية على المتهمين من غير إيذائهم والتي تمثلت بعملية (التكبير) بعد استجواب الشاهد والذي أدى إلى دخول الريبة في قلوبهم ومن ثم اعترافهم وهي تمثل قمة الإبداع وتسمى الفكرة الجديدة بالأصالة وتعني: تلك القدرة التي تبدو في سلوك الفرد عندما يبتكر في بالفعل إنتاجاً جديداً من الأفكار خلال مدة زمنية محددة، وذات علاقة غير مباشرة بالموقف المثير، فالأصالة بهذا المعنى تعني الجدة والندرة، لكن هناك شرط آخر لابد توافره مع الجدة، هو أن يكون مناسباً للهدف الذي سيؤديه المبتكر[١].

وقد وجدنا هذه الشروط قد تألفت في حكم الإمام علي (ع) في هذه القضية مما جعله مبدعاً بامتياز في عصر قل فيه المبدعون.

٤ - مهارة الإفاضة (حادثة زبية الأسد):

من القضايا التي حكم فيها الإمام عليه السلام حينما كان في اليمن قصّة «زبية الأسد» التي وقع فيها جماعة وهلكوا، وقد رويت هذه الحادثة بروايتين نروي إحداهما: روى مسمع عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنّ قوما احتفروا زبية للأسد باليمن، فوقع فيها الأسد، فازدحم الناس عليها ينظرون للأسد، فوقع رجل فيها، فتعلّق بآخر، وتعلّق الآخر بآخر، والآخر بآخر، فجرحهم الأسد، منهم من مات من جراحة الأسد، ومنهم من أخرج فمات، فتشاجروا في ذلك حتى آل الأمر إلى القتال، فقال لهم الإمام (عليه السلام): هلمّوا أقض بينكم».

فقضى أنّ للأوّل ربع الدية، وللثاني ثلث الدية، وللثالث نصف الدية، وللرابع الدية الكاملة، وجعل ذلك على قبائلهم.

ولعلّ الوجه في ذلك أنّ للأوّل ربع الدية: لأنّ موته يحتمل قد استند إلى أربعة أشياء:

أحدها: مزاحمة الناس له، وثانيها: سقوط الثاني عليه، وثالثها: سقوط الثالث عليه، ورابعها: سقوط الرابع عليه.

وأمّا الثاني فله ثلث الدية: لأنّه يحتمل استناد موته إلى ثلاثة أمور: أحدها: إسقاط الأول له، والثاني: إسقاط الثالث عليه، والثالثة إسقاط الرابع عليه.

وأمّا الثالث فله نصف الدية: لأنّ موته يحتمل استناده إلى أمرين: الأول: إسقاط الثاني له، والثاني: سقوط الرابع عليه.

وأما الرابع فله تمام الدية: لأن قتله كان مستنداً إلى الثلاثة)[٢].

وهذا إبداع آخر للإمام على (ع) ولكن بمهارة أخرى وهى مهارة الإفاضة وتعنى: القدرة على استخراج أو إضافة تفاصيل جديدة ومتنوعة لفكرة ما، أو حل مشكلة لتساعد على تطويرها أو أغنائها.

---

(١) دمج مهارات التفكير في المحتوى الدراسي، محمد بكر نوفل، ومحمد قاسم سعيفان، ص٩٧.

(٢) قضاء الإمام علي (ع) من ذخائر الفكر الإسلامي، باقر شريف القرشي، ص٣٤.

خطوات تنفيذ المهارة:

١ - تحديد عناصر الفكرة.

٢ - النظر إلى الفكرة من زوايا متعددة.

٣ - العمل على مد الفكرة إلى مجالات أكثر تفصيلاً.

٤ - التفكير بأكثر عدد ممكن من الإضافات التي يمكن إضافتها لفكرة ما لتكون أكثر فائدة[١].

ورب سائل يسأل لماذا لجأ الإمام (ع) إلى هذه المهارة ونجيب: إن الحالة في هذه القضية لم تكن متعمدة إنما حدثت بشكل عفوي، وفضلاً عن ذلك فقد كاد يحدث قتال بين المتنازعين حول الدية، فهي معقدة نوعاً ما، ومع أنها حدثت بسرعة قياساً إلى غيرها فقد أصدر (عليه السلام) فيها حكماً ولكنه احتاجه إلى تبيان تفاصيل أكثر والنظر إليها من زوايا متعددة لكي يقنع المتخاصمين بحكمه وقد اتضح ذلك في تفاصيل منح الدية، والتي قال فيها رسول الله (ص) عندما وصل الخبر إليه: "لقد قضى أبو الحسن فيهم بقضاء الله عزّ وجلّ".

٥ - مهارة الحساسية للمشكلات (فتى يدّعي على امرأة أنّها أمّه وهي تنكره):

من بدائع قضاء الإمام (عليه السلام) أنّ غلاما ادّعى على امرأة أنّها أمّه، وهي تنكره، وقد رفع أمره إلى عمر، فأمر بإحضار المرأة، فجاءت ومعها إخوان أربعة، وأربعون قسامة يشهدون أنّها لا تعرف الغلام، وأنّه مدّع غشوم ظلوم يريد أن يفضحها بين أسرتها، وأنّ المرأة لم تتزوّج قطّ، فالتفت الإمام (عليه السلام) وكان حاضراً إلى عمر فقال له:

تأذن لي أن أقضي بينهم...؟

فانبرى عمر قائلاً:

سبحان الله! كيف لا، وقد سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: أعلمكم عليّ بن أبي طالب، والتفت الإمام إلى المرأة فقال لها:

ألك شهود...؟.

قالت: نعم.

وتقدّم الشهود فشهدوا، فالتفت الإمام (عليه السلام) إلى الحاضرين وقال لهم:

لأقضينّ اليوم بينكم بقضيّة هي مرضاة الربّ من فوق عرشه علّمنيها حبيبي رسول الله (صلى الله عليه وآله)... ثمّ التفت إلى المرأة فقال لها:

ألك وليّ...؟.

نعم، هؤلاء إخوتي..

ووجّه الإمام قوله إلى إخوتها فقال لهم:

أمري فيكم وفي أختكم جائز...؟.

---

(١) تنمية الإبداع والتفكير الإبداعي في تدريس العلوم، عايش محمود زيتون ص ٧٤.

قالوا: نعم.

أشهد الله وأشهد من حضر من المسلمين أنّي قد زوّجت هذه الجارية من هذا الغلام بأربعمائة درهم، والنّقد من مالي يا قنبر، عليّ بالدّراهم مضى وقنبر فأحضر الدراهم فصبّها في يد الغلام، وأمره الإمام أن يدفعها إلى المرأة، ولا يأتي إلاّ وعليه أثر العرس يعني الغسل، فقام الغلام وصبّ الدراهم في حجر المرأة وأمرها بالقيام معه، وفزعت المرأة وصاحت:

النار، النار يا ابن عمّ محمّد! تريد أن تزوّجني من ولدي هذا والله! ولدي، زوّجني إخوتي هجيناً، فولدت منه هذا، فلما ترعرع وشبّ أمروني أن انتفي منه[1].

إلى هنا انتهت القضية وهنا يفاجئنا الإمام (ع) بتصرف نادراً ما يظهر منه إلا لمصلحة مهمة فقد طلب من عمر بن الخطاب أن يفوضه القضاء في هذه المسالة المحسومة الأمر من الظاهر إذا فيها مدعي (الولد) لا توجد لديه بينة بالمقابل (المرأة) تنكر ولها شهود، وهنا تبرز مهارة الحساسية للمشكلات لدى الإمام التي أنقذت الموقف وتعني: بأنها قدرة الفرد على رؤية المشكلات في أشياء أو في أدوات أو نظم اجتماعية قد لا يراها الآخرون فيها أو التفكير في إدخال تحسينات يمكن إدخالها على هذه النظم ويضيف جروان ١٩٩٩ إن هذه القدرة يقصد بها وعي الفرد بوجود مشكلات أو حاجات أو عناصر ضعف في البيئة أو موقف وهذا يفيد في إن الأفراد المبدعين أسرع من غيرهم في ملاحظة هذه المشكلات أو العناصر من وجودها في الموقف وتعتبر عملية اكتشافها أولى خطوات البحث عن حل لها يلي ذلك إضافة معرفة جديدة أو إدخال تحسينات وتعديلات موجودة في الموقف المثير[2].

النتائج:

١. إن الإمام علي (عليه السلام) كان متميزاً في قضائه وأحكامه مسايراً للقرآن ولسنة رسول الله صلى الله عليه وآله.
٢. إن الإمام (ع) لم يكن قاضياً بل كان محققاً بارزاً من الطراز الأول.
٣. إن إبداع الإمام لم يكن فقط في قضائه إنما جمعه مع القضاء التحقيق حتى يصل إلى الحقيقة ويقنع بها الحضور.
٤. إن الإمام (ع) كان مبدعاً بامتياز فمن خلال البحث نجد انه كانت تنطبق عليه صفات الشخصية المبدعة.
٥. تنوع تفكير الإمام باختلاف الحالة فنراه يستعمل مهارات التفكير الإبداعي حسب الحالة وأحياناً يجمع بين أكثر من مهارة مثل (الطلاقة، المرونة، الأصالة، الإفاضة، الحساسية للمشكلات.

---

(١) قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الشيخ التستري، ص٤٥.

(٢) دمج مهارات التفكير في المحتوى الدراسي، محمد بكر نوفل، ومحمد قاسم سعيفان، ص٩٨.

٦. رغم جدة ما كان يطرحه (عليه السلام) إلا أننا لم نجد حسب ما اطلعنا على اعتراض على أحكامه لا من المتخاصمين أو من الحاضرين وذلك لإحاطته بتفاصيل القضية وجودته في أحكامه.

٧. إن العملية الإبداعية عنده كانت عفوية ولم تكن متكلفة.

المصادر والمراجع:

١. الإبداع العام والخاص، الكسندور روشكا، ترجمة غسان عبد الحي أبو فخر، العدد (١١٤)، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت ١٩٨٩.

٢. أثر استخدام طريقة الوحدات في التفكير الابتكاري والتحصيل في العلوم، زياد عبد الغني أحمد الصراف. جامعة الموصل، كلية التربية. (رسالة ماجستير غير منشورة) ١٩٩٩.

٣. آفاق جديدة في دراسة الإبداع. عبد الستار إبراهيم. وكالة المطبوعات. الكويت. ١٩٧٨.

٤. الأمالي. الشيخ المفيد.

٥. تربية المتميزين والموهوبين. ناديا هايل السرور. ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن ١٩٩٨.

٦. تعليم التفكير (مفاهيم وتطبيقات)، فتحي جروان، ط١، دار الفكر، الأردن، ٢٠١٠

٧. التفكير الإبداعي علم وفن، جلال عزيز فرمان البرقعاوي، ط١، دار الرضوان للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠١٤

٨. التفكير الإبداعي عند طلبة المرحلة الثانوية في اليمن وعلاقته بالعمر والجنس والتخصص الدراسي والمستوى التعليمي للوالدين، أحمد علي حسن العمري بغداد، جامعة بغداد، كلية التربية (ابن رشد)، (أطروحة دكتوراه غير منشورة) ١٩٩٨.

٩. التفكير عند الأطفال، محمد غانم محمود، ط١، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ٢٠٠٤.

١٠. تنمية الإبداع والتفكير الإبداعي في تدريس العلوم، عايش محمود زيتون جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان. الأردن ١٩٨٧.

١١. تنمية قدرات التفكير الإبداعي. محمد حمد الطيطي. ط١، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان. الأردن ٢٠٠١.

١٢. دمج مهارات التفكير في المحتوى الدراسي، محمد بكر نوفل، ومحمد قاسم سعيفان، ط١، دار المسيرة للنشر والتوزيع. عمان، ٢٠١١.

١٣. سايكولوجية الإبداع بين النظرية والتطبيق، حسن أحمد عيسى ط١، المركز الثقافي في الشرق الأوسط. طنطا – مصر ١٩٩٣.

١٤. سايكولوجية التفكير والوعي بالذات. سعاد جبر سعيد. ط١، جدارا للكتاب العالمي، عمان، ٢٠٠٨.

١٥. علم النفس في حياتنا الاجتماعية. مصطفى سويف. ط١. دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠١١.

١٦. قضاء الإمام علي (ع) من ذخائر الفكر الإسلامي. باقر شريف القرشي. مطبعة النجف الأشرف، د.ت.

١٧. قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الشيخ محمد تقي التستري. ط٥، المطبعة الحيدرية، ١٩٦٦.

١٨. الكافي. ج١. ثقة الإسلام أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي رحمه الله

١٩. لسان العرب المحيط، أبي الفضل جمال الدين ابن منظور. تقديم العلامة الشيخ عبد الله العلايلي، أعداد وتصنيف يوسف خياط. دار لسان العرب. بيروت، لبنان ١٩٥٦.

٢٠. موسوعة الإمام علي (ع). باقر شريف القرشي. ط٢، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٩.

٢١. الموهبة والإبداع طرائق التشخيص وأدواته المحسوبة، تيسير صبحي، ط١، دار التنوير العلمي للنشر والتوزيع. عمان – الأردن ١٩٩٢. ❖

التنشئة الأسرية
في فكر الإمام علي (ع)
رؤية معاصرة

م. م. عقيل رشيد عبد الشهيد الأسدي
م. م. رشا حسين عبد الكاظم الركابي
كلية التربية الأساسية - جامعة الكوفة

تضطلع الأسرة بدور أساسي في التربية، لأن الإنسان يقضي شطراً طويلاً من حياته بين أحضانها وبهذا تتشكل روحه وشخصيته من خلالها، وان السنوات الخمس الأولى التي يقضيها الطفل في الأسرة هي عماد تكوين شخصيته، وما يكون عليه الفرد في المستقبل هو انعكاس لتلك المرحلة. فإذا كانت الأسرة صالحة فإنها ستنتج أولاداً صالحين، فثقافة الأسرة وتدينها وتماسكها الاجتماعي من أهم عناصر ربط الفرد بالمجتمع ومنعه من الانحراف، وتنشئته نشأة سليمة قوامها الخلق الرفيع والحب والتسامح، وتعمل على غرس بذور السلطة الداخلية التي يطلق عليها (الضمير) في نفس الطفل والذي يأخذ في النمو ويقوى بالتدريج مع نمو الطفل ونضجه خلال مراحل نموه المتعاقبة، أما إذا فسدت الأسرة فان أولاد سيكونون كذلك.

إن الأسرة ذات قوة ضاغطة ونظام للضبط، وتعتمد فاعليتها وتأثيرها على أفرادها من خلال ما تشبعه من حاجات ودوافع نفسية ومادية، فإذا توافر الجو الأسري الملائم الذي يشبع حاجات الطفل البيولوجية والنفسية أدى ذلك إلى تحقيق نموه السليم وتوافقه الشخصي والاجتماعي وعلى العكس إذا ساد جو أسري غير سليم مليء بمواقف الكبت والحرمان والحقد والبغضاء فان ذلك ينعكس على الطفل في جميع أنشطته في كل مراحل حياته، وفي كل المجتمعات بصرف النظر عن مستوى تعقيدها وتطورها.

إن النظرة المستقبلية للطفولة تستدعي الاهتمام بدراسة طرق وأساليب التنشئة الأسرية للأطفال الذين هم عماد المستقبل، وأساس تنمية المجتمع وتطوره ولكي نهيئ للأطفال اليوم مكاناً في المستقبل ونعدّهم بشكل صحيح وبما ينسجم مع متطلبات العصر الحديث يجب علينا أن نراعي في عملية تنشئتهم وتربيتهم أساليباً وأنماطاً اجتماعية مدروسة وعلمية تلبي كافة احتياجات الطفل الضرورية.

وتراث أهل البيت (ع) ثر في أساليب التنشئة الأسرية السليمة وأخص بالذكر الإمام علي (عليه السلام) فكانت أفعاله وأقواله معيناً لا ينضب في هذا المجال لذا جاء هذا البحث

إسهامة متواضعة لتسليط الضوء على دور الأسرة في التنشئة الصالحة، وضبط سلوك الفرد، وتحقيق توافقه النفسي والعقلي، بما أشار إليه الإمام (ع) سابقاً فيه العلم الحديث وما جاءت به الدراسات النفسية والاجتماعية في عصرنا الحالي.

اشتمل البحث على مبحثين تسبقهما مقدمة وتليهما خاتمة. تناولنا في المبحث الأول: تعريف الأسرة وبيان أهميتها، وأهمية مرحلة الطفولة في الأسرة، ووظيفة الأسرة تجاه أبنائها، أما المبحث الثاني فقد تناولنا فيه التنشئة الأسرية في فكر الإمام علي (ع)، من خلال عرض مجموعة من الأحاديث الشريفة في هذا المجال وتحليلها بما ينسجم مع عصرنا الحالي مستفيدين من الدراسات النفسية والاجتماعية ذات العلاقة، ثم انتهى البحث بخاتمة مع مجموعة من الاستنتاجات والتوصيات، وقائمة بالمصادر.

المبحث الأول

التعريف بالأسرة وأهميتها ووظيفتها

للأسرة دور مهم وريادي في بناء المجتمع الصالح من خلال إعداد الأبناء إعداداً سليماً ينسجم مع الرؤى والتطلعات التربوية الهادفة ومن خلال السطور القادمة سنبين هذا الدور بشيء من الإيجاز.

١ ـ الأسرة:

الأسرة هي أحدى الأنساق الاجتماعية الأساسية في البناء الاجتماعي تقوم على نظام الزواج، وتنقل معايير المجتمع إلى أعضائها الصغار وتلقن أفرادها الاتجاهات والقيم المرغوب فيها. وهي الأساس الذي تقوم عليه الأنساق الأخرى إذ تعتمد معظم الأنساق في استمرارها وأداتها على ما يتعلمه الفرد داخل نطاق الأسرة من نماذج السلوك المرتبط بالأدوار الاجتماعية والأنماط السلوكية الأخرى التي يحتذى بها خارج الأسرة[١].

والأسرة هي أساس التنشئة الاجتماعية ومصدر الاستقامة أو الانحراف في فطرة الطفل وعقيدته التي هي مبعث ثقافته، وفي مراحل النمو يتعرض الطفل لنماذج سلوكية مباشرة في أسرته، والمحيطين به، أو نماذج سلوكية رمزية من وسائل الإعلام ومن القصص والحكايات التي تقدم في الأسرة من كبارها وصغارها معاً. ففي هذا النوع من التعليم يلاحظ الطفل الشخص النموذج، ويصوغ ما يشاهده ويختزنه وينتظر الوقت المناسب لكي ينتج السلوك نفسه. فالأسرة هي الوعاء الثقافي الذي تتبلور داخله شخصية الطفل تشكيلاً فردياً واجتماعياً ودينياً وهي بهذا تمارس عمليات تربوية وتثقيفية هادفة من أجل تحقيق نمو الفرد نمواً سليماً[٢].

وقد تعرضت الأسرة للتغير في وظائفها نتيجة للتحضر والتصنيع وما رافقها من آثار مارست دورها بصورة مباشرة وغير مباشرة على عملية التنشئة الاجتماعية التي تقوم بها الأسرة وأبلغ دليل على ذلك كان الاتجاه العام قديماً يؤكد معاملة الأطفال معاملة البالغين أي بالحزم، بل بالقسوة أحياناً، في حين يؤكد علماء التربية والنفس والاجتماع أهمية مصادقة الأطفال ومنحهم الحب والعطف والحنان، كذلك لم ينصح بالتفرقة على أساس الجنس أو السن، إلا أن هذا لا يعني أن المجتمع بأسره يلتزم هذه الأيدلوجية الجديدة في التربية والتنشئة لأن الاختلاف بين فئات المجتمع اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً ينعكس على مدى الإبقاء على الأساليب القديمة والأخذ بالمناهج الجديدة[٣].

وظيفة الأسرة تجاه أبنائها:

يولد الطفل ضعيفاً عاجزاً عن تأمين المتطلبات الضرورية لحياته ومنذ اللحظات الأولى تظهر حاجته الأساسية إلى الغذاء والأمان العاطفي اللذين من دونهما لا يمكن للطفل أن ينمو ويبقى في الحياة. أما حاجاته الأخرى فتستمر في الظهور خلال مراحل نموه من الطفولة إلى الرشد. وكل حاجاته تُعد ضرورية لاكتمال نموه وتفتح قدراته وملكاته وتحوله من كائن بيولوجي إلى إنسان ناضج وقادر على التكيف مع وسطه. ولعل أهم حاجاته في مرحلة الطفولة الأولى هي الغذاء والشراب والرعاية والطمأنينة والحب والعاطفة، وبإشباع هذه الحاجات يتحقق للكائن الإنساني النمو المتوازن إذ يتمكن من الحفاظ على بقائه وتكيفه مع ظروف الحياة بينما عدم إشباعها أو إشباع بعضها ينتج عنه توترات عضوية أو نفسية أو اجتماعية أو ذهنية أو كلها جميعاً مما يعيق نموه وتحقيق تكيفه[٤].

ويمكن القول أيضاً أن الأسرة ومن خلال وظيفتها الاقتصادية تتمكن من إشباع حاجات الفرد من الغذاء والكساء والشراب لكنها لا تزوده بذلك فحسب، بل تعلمه كيف يحقق إشباعاته على وفق آداب وقواعد سلوكية معينة ومقبولة[٥]. كما إنها من خلال وظيفتها النفسية العاطفية تشبع حاجاته إلى الحب والحنان والاهتمام وذلك يضمن للفرد توازنه الانفعالي والعاطفي[٦]. وبناءً على ما تقدم يمكن عرض وظيفة الأسرة في محورين أساسيين هما الوظيفة الاقتصادية في الأسرة ودورها في إشباع الحاجات الأساسية لأعضائها. الوظيفة النفسية العاطفية في الأسرة ودورها في إشباع الحاجات الاجتماعية لأعضائها.

١ - الوظيفة الاقتصادية في الأسرة ودورها في إشباع الحاجات الأساسية لأعضائها:

الأسرة تشبع الحاجات الأساسية من الطعام والشراب والملبس والمسكن وكل هذه الحاجات لا يمكن للشخص الاستغناء عنها أو تعويضها بوصفها تحقق للشخص استقراره النفسي والاجتماعي[٧]. وتشير إحدى الدراسات إلى تأثير الأزمات الاقتصادية في وحدة

الأسرة وتضامنها. فالأزمة الاقتصادية تؤثر في متانة العلاقات والروابط الاجتماعية داخل الأسرة، وتبين أن قدرة الأسرة على التوافق دون حدوث تأثيرات قوية في العلاقات الاجتماعية يعتمد على درجة ارتباط أفراد الأسرة بمستوى معين للمعيشة فإذا تأثرت المستويات المادية بصورة كبيرة تفككت العلاقات الاجتماعية [٨]. وضعف حجم الإشباع النفسي والعاطفي الذي يحتاجه كل فرد في الأسرة ليحقق استقرار سلوكه أو علاقاته مع الآخرين المحيطين به [٩]. فضلاً عن إن الأزمة الاقتصادية تضعف الشعور بالأمن والطمأنينة وتسبب القلق والخوف والإحباط وذلك لفشل المعيل وعجزه عن إشباع الحاجات الأساسية له وللآخرين الذين يعولهم، وبتواتر الظروف ذاتها تزداد مشاعر الضيق للمعيل وتضعف علاقاته بالآخرين وتضعف مكانته الاجتماعية أيضاً وقد يحس أنه عبء على الآخرين وغير مرغوب فيه [١٠]. مما يفقده احترامه لنفسه واحترام الآخرين له ويفقده أيضاً هيبته وسطوته الاجتماعية على زوجته وأبنائه فتكثر الصراعات بين أعضاء الأسرة أو يكثر توجيه اللوم والتأنيب إلى الأب بوصفه المتسبب عن ذلك. وقد يتخذ الأب مواقف معينة منها عدم الاهتمام واللامبالاة والهروب من المسؤوليات الملقاة على عاتقه وثم الانسحاب من الحياة العائلية أو يتجه نحو الاستسلام والقبول بالواقع [١١].

٢ - الوظيفة النفسية العاطفية في الأسرة ودورها في إشباع الحاجات الاجتماعية لأعضائها:

تتضمن الوظيفة النفسية العاطفية حالة من التفاعل العميق والتعاطف بين الأبوين، وبينهم وبين الأبناء ويلاحظ أن القرآن الكريم قدم المودة على الرحمة من قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم: ٢١) وذلك لأهمية المشاعر العاطفية في تعميق الشعور بالأمن والطمأنينة، فالأسرة المتماسكة هي المنبع الرئيسي للإشباعات العاطفية لجميع أفراد الأسرة [١٢]. وترتبط الوظيفة النفسية العاطفية بإشباع الحاجات الاجتماعية مثل الحاجة إلى الحب والانتماء والحاجة إلى الاحترام والتقدير الاجتماعي والحاجة إلى الأمن. ولكي يشبع الإنسان حاجته إلى الحب يتطلب عليه أن يعيش في ضمن علاقات اجتماعية طيبة مع غيره. فمشاعر الحب المتبادل تقوي لدى الفرد الشعور بالأمن والطمأنينة وتعطيه نوعاً من الاستقرار الانفعالي فيشعر إن هناك من يخاف ويعطف عليه فتقوى فيه مشاعر الأمن والأمان، بينما الفرد الذي لا يشبع هذه الحاجة يكون في حالة خواء عاطفي تبعده عن التفاعل الإيجابي مع الآخرين. أما الحاجة إلى الانتماء إلى جماعة معينة فهي شعور الفرد بوصفه عضو في هذه الجماعة تقدره وتشعره بقيمته ومكانته فيحظى بالتقدير الاجتماعي الذي أساسه الشعور بالانتماء ومن دون التقدير الاجتماعي الذي يناله الفرد فإنه قد يبحث عن مخرج للتوتر الانفعالي الذي يعانيه وقد يجد ذلك بأساليب السلوك المنحرف [١٣]. لذا يمكن القول أن الحرمان من إشباع الحاجات يؤدي بالفرد إلى

الشعور بالنقص أو إلى العقد النفسية[١٤]. أو قد يدفع به إلى التمرد والعصيان والانفلات من الضوابط الاجتماعية أو عدم أدائه للواجبات والالتزامات الاجتماعية[١٥]. وتشير الدراسات أن رعاية الأم وعطفها وحبها لطفلها له أهمية كبيرة في نجاح عملية التنشئة الاجتماعية، وتبين أن أخطر نقص في تنشئة الطفل هو فقدان عطف ورعاية الأم وتبين أيضاً أن شخصية الطفل الذي يحظى برعاية الأم وعطفها هي أكثر اتزاناً نفسياً وعاطفياً من شخصية الطفل الذي فقد أمه وحرم من حبها في عمر مبكر[١٦]. ويمكن القول إن أهم مصدرين يستمد منها الطفل إشباعاته النفسية والعاطفية هما الأم والأب.

في ضوء ما تقدم يمكن القول أن الإشباع النفسي والعاطفي له أهمية مميزة في بناء وتشكيل شخصية سوية ومتزنة وذلك لما تنطوي عليه تلك الإشباعات من دفع الفرد إلى الالتزام بالضوابط الاجتماعية وتقوية روابطه الاجتماعية مما يبعده عن الانحراف.

٢ - أهمية مرحلة الطفولة في الأسرة:

الطفل هو تركيب أو بناء عضوي بيولوجي واجتماعي يتصف بكونه شديد الحساسية سريع التأثير بمن حوله كثير التقليد والاقتباس. وتدل كثير من الأبحاث الاجتماعية والنفسية على أن الأشخاص الذين يعانون من الاضطرابات هم الذين تعرضوا في طفولتهم إلى كثير من الصعوبات والمشكلات والصدمات التي تركت آثاراً عميقة في شخصياتهم[١٧].

لذلك تعد مرحلة الطفولة من أهم مراحل حياة الإنسان ومن أكثرها خطورة لكونها مرحلة تكوينية تتشكل فيها جميع خصائص شخصية الفرد وتتحد أبعاد سلوكه ودوافعهِ التي تلازمهُ في حياتهِ المقبلة[١٨]. يقول أحد المتخصصين في العيادات الكلينكية النفسية من خلال مشاهداتي الاكلينيكية أن الأبناء الأسوياء يقف ورائهم آباء وأمهات أسوياء يجيدون فنون التربية السليمة، وأن الأبناء غير الأسوياء يقف وراءهم آباء وأمهات غير أسوياء لا يجيدون فنون التربية، ولاحظت أن صلاح الآباء ينفع في صلاح الأبناء[١٩].

لذلك أصبحت دراسة الطفولة موضع عناية الآباء والمربين وعلماء النفس ورجال الطب وغيرهم وأصبحت العناية بنمو الطفل نمواً صحيحاً سالماً والعمل على رعاية هذا النمو وحفظهِ من كل ما يعوق سيرهُ الطبيعي أو يقف حجر عثرة في طريق وصولهِ إلى أقصى طاقاتهِ وعطاءاتهِ مؤشراً حضارياً للأمة التي تسعى إلى خلق المواطن الصالح القادر على تحمل أعباء الحياة وبناء مجتمع قوي يمتلك كل عناصر البناء والقدرة على الإسهام في بناء الحضارة الإنسانية وأخذ مكانته بين المجتمعات المتقدمة[٢٠]، لذا أصبح من الضروري إعداد الطفل للتعامل مع التحديات التي يفرضها عليه القرن الحالي والذي يتصف بكونهِ عصر المعلومات المتدفقة والمعرفة المتزايدة ومجتمع العلم والتكنولوجيا

المتطورة والتفكير العلمي والفكر الخلاق وتمكيناً للطفل من أثبات وجوده والمحافظة على كيانهِ وهويتهِ القومية في عالمنا المعاصر[٢١].

إن النهوض بواقع الطفل يحتم علينا تكثيف الجهود تجاه توعية الأسرة العربية والتشديد على القيم الإيجابية التي تعتنقها، وتخليصها من القيم التي تؤثر في تطورها، وتحصينها من أية قيم خارجية مستوردة تستنزف قدراتها وإمكانياتها والتي تتنافى مع قيمنا الإيجابية وطموحنا نحو التقدم[٢٢] وهذا يتطلب التعرف على أبرز التحديات التي تواجه الأسرة وثقافة الطفل في عالمها ومجتمعها، مما يؤدي إلى التحرك نحو التجديد والتطوير وتحديد الأولويات التي ينبغي أن تقود إلى هذا المسعى، والسبل التي يمكن أن تحقق هذا التغير المنشود لإعداد أبنائنا لمواجهة قرن قادم تؤذن بوادرهُ بتغيرات عميقة واسعة ومتلاحقة تشمل الجوانب العلمية والتكنولوجية والثقافية من حياة مجتمعنا[٢٣].

فحياة الطفولة وكيفية تربيتها والتعامل معها يعد غاية كل مجتمع، فالتغيرات السريعة التي تشهدها المجتمعات المعاصرة يجعل العناية بثقافة الطفل هدفاً إستراتيجياً وتنموياً، والعناية بالطفولة بصورة عامة وبثقافة الطفولة بصورة خاصة لا يعني فقط إحياء الماضي واستشراف المستقبل، بل لابد أيضاً من أن ينبع من الحاضر ويتعامل معهُ ومن ثم تظهر أهمية وضع تصور متكامل لخطة قومية تربوية وتنموية للوصول إلى أهداف تربوية مشتركة من شأنها أن ترتقي بواقع الطفل وتخطط لمستقبله وتحي تراثهِ. إلا أن هناك بعض المعوقات التي تؤثر في إستراتيجية ومنهجية التعامل مع الأطفال وثقافتهم ويدخل في ذلك إشكالية علاقة الراشد بالطفل (إشكالية المزاوجة بين الأصالة والمعاصرة) وإشكالية التركيز في الماضي أو المستقبل وتهميش الحاضر، وهذهِ الإشكاليات تؤثر في أسلوب التربية، وعلى موقف المجتمع من الأطفال[٢٤].

وفي خلاصة هذا المبحث يجب على الأسرة أن تأخذ دورها الفاعل في تربية الطفل وتأديبه من أجل إرفاد المجتمع بأفراد صالحين يتمتعون بشخصية سليمة خالية من كل العقد والاضطرابات النفسية، قادرين على تحمل مسؤوليتهم في الحياة والتفاعل الايجابي فيها.

المبحث الثاني

أحاديث الإمام (ع) في التنشئة الأسرية

يتضمن هذا المبحث أحاديث التنشئة الأسرية للطفل في فكر الإمام علي (عليه السلام) ومن الجدير بالذكر أن التنشئة في فكر الإمام (عليه السلام) تبدأ من مرحلة اختيار الزوجة بوصفها مقدمة لتربية أبناء صالحين مروراً بمراحل النمو الأخرى كما سنبين ذلك بعرض هذه الأحاديث وقراءتها في ضوء النظريات النفسية والاجتماعية الحديثة:

١ ـ اختيار الزوجة:

يقول الإمام (عليه السلام): **(إياكم وتزويج الحمقاء فإنّ صحبتها بلاء وولدها ضياع)**[٢٥].

يبدأ بناء الأسرة الصالحة في فكر الإمام علي (عليه السلام) من اختيار الزوجة الصالحة لما لها من أثر عميق وكبير في حياة الأسرة وتماسك بنيانها على اعتبار أن الزوجة الصالحة هي مقدمة لتربية أبناء صالحين وهذا الأمر واضح في كلامه (عليه السلام): (ولد الحمقاء ضياع)، فالإمام (ع) يخشى تزوّج الحمقاء لانتقال هذهِ الصفة إلى الطفل، ولعدم قدرتها على تربية الطفل تربية سويّة، وقد أثبت ذلك علماء النفس والاجتماع والأخلاق بأن المرأة الكريمة المهذبة هي المسؤولة على تهيئة الجو النفسي والأخلاقي لنشأة الطفل نشأة سليمة متوازنة، وهي التي تبني شخصيته واتجاهاته وعاداته وأخلاقه، وهي التي تسمو به نحو عالم الخير والكمال وصنع المستقبل الزاهر[٢٦]. فمن أراد أن يتخذ لنفسه زوجة عليه أن يعرف سجاياها أصلاً وفصلاً وحسباً ونسباً: لكي يحظى بامرأة نجيبة وعفيفة يقول الإمام علي (ع): (حسن الأخلاق برهان كرم الأعراق)[٢٧]. وهذا الحديث يثبت إمكانية اكتشاف الطهارة العائلية للفرد من السجايا الفاضلة عنده. وعن الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: (تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس)[٢٨] وقد أورد (صلى الله عليه وآله وسلم) كلمة العرق في حديثه قاصداً الجين أو الذرات التي تكمن في الخلايا وهي ما أشار إليها علماء الحياة حين قالوا بتأثيرها في العادات والصفات التي يمكن أن يتمتع بها المولود وتكون على شكل موجودات غير منظورة بالعين المجردة تهجع في خلايا حاملة الصفات المنتقلة من جيل لآخر أي أنها تحمل الصفات الجيدة وغير الجيدة من الأبوين إلى أبنائهما[٢٩].

ويتضح هذا الأمر جلياً في اختيار الإمام علي (ع) لفاطمة الكلابية (أم البنين) بعد وفاة ابنة عمه الصديقة الزهراء، إذ قال (ع) لأخيه عقيل ـ وكان عارفاً بالأنساب ـ: "اخطب لي امرأة ولدتها الفحولة من العرب لأرزق منها ولداً يكون عوناً لولدي الحسين يوم عاشوراء... الخ" فإن الإمام ينظر إلى شجاعة الأسرة التي يريد أن يخطب منها زوجته لتنجب له ولداً شجاعاً.

٢ ـ الرضاعة:

يقول الإمام (ع): **(ما من لبن يرضع به الصبي أعظم بركة عليه من لبن أمه)**[٣٠].

وفي حديث آخر قال (ع): **(انظروا من يرضع أولادكم فإن الولد يشب عليه)**[٣١].

تذهب العلوم الطبية الصحيحة أن حليب الأم هو أفضل غذاء طبيعي للطفل وضمان وقايته من الأمراض[٣٢]. فضلاً عن تأثيره الايجابي على الوضع النفسي والعاطفي للطفل، وهو

أهم المراحل في البناء العاطفي للطفل حيثُ تحتضن الأم طفلها وتضمه إلى صدرها، فيشعر بالحنان المتواصل والدفء العاطفي، إذ أن إرضاع الطفل من ثدي أمه يحقق هدفين هما الرضاعة الغذائية والرضاعة الانفعالية لما يرتبط بعملية الرضاعة من إحساس الطفل بالدفء والحنان إن اللبن هو أكمل غذاء جسمي والحب هو أشهى غذاء نفسي والذي يلاحظ استجابات الطفل للرضاعة من تعبيرات وجهه يتبين مدى أهمية هذه العملية لديه فإن الطفل حين يرضع من ثدي أمه لا يملأ معدته فقط ولكنه يبدو سعيداً مسروراً هادئاً مطمئناً، وإذا تأخر عنه الثدي أو نزع من فمه نجده مضطرباً ويصبح في ثورة احتجاج ونحن نعرف إن الفم وعملية المص مصدر لذة كبرى للطفل فهنا مصدر الغذاء المشبع وأيضاً مصدر الإحساس بوجود الأم والشعور بحنانها والإحساس بالأمن وهكذا يؤكد علماء النفس أن الرضاعة ليست مجرد إشباع حاجة فسيولوجية وإنما هي موقف نفسي اجتماعي شامل يشمل الرضيع والأم وهو أول فرصة للتفاعل الاجتماعي[٣٣].

لقد بلغ اهتمام الإمام بحياة الطفل أن دعا إلى توفير الغذاء الجيد والمتوازن للطفل سابقاً في ذلك العلم الحديث الذي يقول إن "للغذاء تأثيراً في الجسم والروح على حد سواء، حيث أنه مؤثر في إيجاد الخصائص الجسمية كالنمو والجمال ... الخ كذلك في خلق الصفات النفسية والأخلاقية، كالرذائل والفضائل أيضاً[٣٤].

٣ ـ تسمية المولود:

يقول الإمام (عليه السلام): **(أول ما يبرّ الرجل ولده، أن يسميه باسم حسن. فليحسن أحدكم اسم ولده)**[٣٥].

وفي حديث آخر قال (عليه السلام): **(وحقُّ الولد على الوالد أن يحسِّن اسمه، ويحسِّن أدبه، ويعلمّه القرآن)**[٣٦].

ترى الشريعة الإسلامية أن من بين حقوق الطفل على والديه حسن اختيار الاسم الذي يدعى به بين الناس والذي يميزه عن غيره من الأشخاص بحيث يكون اسماً ذا معنى محمود أو صفة طيبة يرتاح لها القلب وتطمئن لها النفس أو اسماً يبعث على الأمل والتفاؤل أو اسما يدل على الشجاعة والنشاط والهمة[٣٧]، أما إذا كان الاسم قبيحاً يصبح سبباً للشعور بالحقارة ويحمل صاحبه على الشعور بالضجر والانطواء ومحل لسخرية الأطفال واستهزائهم به، ولا ريب إن الذين ينمازون بأسماء جميلة أو ينتمون إلى عشيرة ذات اسم جميل يفتخرون بذلك ويسعدون ويذكرونه بكل ارتياح وسرور وطلاقة دونما الشعور بالحقارة والأذى، وأما الذين على العكس من ذلك نراهم يأبون عن ذكر أسمائهم وأسماء عشيرتهم القبيحة وإن اضطروا إلى الذكر شعروا بالخجل والضياع والألم[٣٨].

٤ ـ تأديب الطفل:

وقال (عليه السلام): **(علمّوا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم)**[٣٩].

وفي حديث آخر يقول (ع): **(لا ميراث كالأدب)**[٤٠].

وعنه أيضاً (عليه السلام) يقول: **(ما نَحَل والد ولداً نحلاً أفضل من حسن الأدب)**[٤١].

يؤكد الإمام (ع) على تأديب الطفل إذ أن من أهم الواجبات الملقاة على عاتق الآباء هو القيام بتأديب الأطفال ومراقبة سلوكهم خوفاً من شذوذهم أو ارتكابهم ما يخالف التقاليد الدينية والاجتماعية، أو يجافي الآداب العامة، أو جنوحهم نحو الشر وارتكاب الجريمة، فيجب على الآباء الإسراع في تأديبهم وتربيتهم[٤٢]، فالولد أمانة عند أبويه وقلبه الطاهر يقبل كل ما يلقى إليه من خير أو شر، قال رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم): (كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهوّدانه وينصّرانه)[٤٣] يقول الإمام علي (ع) لولده الحسن: (إنما قلب الحدث كالأرض الخالية. ما ألقي فيها من شيء قبلته فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبك)[٤٤]. وهنا بيان واضح من الإمام (ع) على أن قلب الطفل صفحة بيضاء، لا يوجد فيها فكرة صحيحة أو خاطئة، ونجد اليوم العلم الحديث يشير إلى هذه الحقيقة ويؤكد على أن السنوات الخمس الأولى هي عماد تكوين شخصية الإنسان بحسب ما يتلقاه الطفل من الأسرة.

لذا يجب على الأبوين ـ وهما يستطيعان بتوفيق الله لهما ـ العمل على حسن تربية الطفل عن طريق القدوة الحسنة أولاً، ثم تلقينه الآداب الفاضلة، والعمل على غرس الخصال الكريمة في نفسه وتطبيعه على الصفات الحميدة، وتقوية صلته بالله تعالى عن طريق حفظ القرآن الكريم وممارسة العبادات والتحلي بالأخلاق الفاضلة، وتعويده آداب الحديث، وآداب السؤال بحيث يكون مهذباً في سؤاله لطيفاً في حديثه يحسن الوصول إلى ما يريد برقة وأدب، ويتعود القدرة على الاعتذار للغير إن صدر منه خطأ[٤٥].

وقد جسد الإمام علي (ع) مضامين الفكر الإسلامي في التربية وكيف لا وهو ربيب الرسول الأكرم محمد (ص) فكانت أقواله وأفعاله مستوحاة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فكان بحق حكيماً عالماً ومربياً فاضلاً لا يسبقه سابق ولا يلحقه لاحق بعد رسول الله محمد (ص) وهذه وصيته لولده الحسن(ع) من روائع خلقه الرفيع والتي تعد الحجر الأساس في توثيق الروابط الاجتماعية وبناء المجتمع بناء سليماً قوامه الحب والتسامح والعدل ونبذ الظلم واحترام الآخرين إذ يقول (ع): **(واجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك وأحب لغيرك ما تحب لنفسك، وأكره له ما تكره لها، لا تظلم كما لا تحب أن تظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح لنفسك ما تستقبحه من غيرك، وارضَ من الناس ما ترضى لهم منك، ولا تقل ما لا تعلم، بل لا تقل كلما علمت مما لا تحب أن...)**[٤٦].

٥ ـ الحب والحنان:

يقول الإمام (ع): **(من قبل ولده كان له حسنة ومن فرحه فرحه الله يوم القيامة)**[٤٧].

من الميول الفطرية للإنسان، والتي تظهر في مدة الطفولة الحاجة إلى الحب والعطف والحنان. إن الاستجابة لهذا الميل الطبيعي وإشباع هذه الحاجة جزء من المنهاج الفطري. فإذا نال الطفل حظاً وافراً من العطف والحنان في أيام طفولته كان ذا روح مطمئنة ونفس وديعة وكان سلوكه طبيعياً طيلة أدوار حياته. أما الأطفال المحرومون من الحب العائلي وعطف الوالدين فإنهم يملكون أرواحاً ملؤها اليأس والتشاؤم ويكونون على شفا جرف من الانحراف[٤٨]، فيجب أن يحظى الطفل من ساعة ولادته بدفء الأم وحنانها، ورعاية الأب والعناية به ليعيش في جو ملؤه المحبة والتقدير، وفي محيط يسوده الاطمئنان والراحة النفسية وطفولة سعيدة[٤٩]، ليكون في أمان من العقد النفسية، وتتفتح في قلبه أزهار الخير والفضائل فينشأ إنساناً سوياً فاضلاً يحب الخير للجميع كما يحبه لنفسه[٥٠].

لذلك نجد الإمام (ع) يقول: (من قبل ولده كانت له حسنة) ومن المعروف أن الحسنات لا تأتي جزافاً من دون عمل خير يستحق ذلك وهذه القبلة من الولدين للطفل من أصدق مصاديق عمل الخير لما لها من انعكاسات ايجابية تشعر الطفل بالراحة ودفء العاطفة وأنه شخص مرغوب فيه له مكانته في الأسرة.

يقول الدكتور صالح عبد الكريم: (لاحظت من خلال الممارسات الإكلينيكية في العيادة النفسية إن العامل المشترك بين أغلب المشكلات النفسية والسلوكية لدى الأطفال والمراهقين هو غياب الحب الحقيقي بينهم وبين الوالدين، كما لاحظت أن الأطفال السعداء الأصحاء نفسياً هم المحبوبون الذين يصلحهم حب الوالدين ويشعرون به وهم من تربوا على الحب وولدوا في محيط أسري يتسم بالحب وتأكدت إن الحب أفضل أسلوب لتربية الأبناء، وأفضل علاج لكل المشكلات النفسية والسلوكية للأطفال والمراهقين والشباب والراشدين والمسنين وتأكد لي أنه إذا كان غذاء الجسد هو الطعام والشراب وإذا كان غذاء العقل هو القراءة، وإذا كان غذاء الروح هو الإيمان فغذاء النفس ودواؤها هو الحب الحقيقي[٥١].

وقد اكتشف علماء النفس أن هنالك اضطراباً يصيب الأطفال المحرومين من الحب وأطلقوا عليه (القزم العاطفي) حيث وجدوا هنالك بعض الأطفال نموهم الجسمي بطيء ويتسمون بضآلة الجسم مقارنة بالعمر الزمني لهم واكتشفوا أن السبب الذي يكمن خلف ذلك الاضطراب هو نقص الحب وعدم النشأة في جو أسري يتسم بالحب[٥٢].

ومن هذا يتضح تأكيد الرسول محمد وآل بيته (ع) على حب الأطفال وتقبيلهم يروى أن رجلاً جاء إلى الرسول محمد (صلى الله عليه وآله) فقال: **(ما قبلت صبياً قط فلما ولى قال (صلى الله عليه وآله): هذا رجل عندنا إنه من أهل النار)**[٥٣].

ومن جانب آخر يؤكد الإمام (ع) على إدخال السعادة إلى نفسية الطفل كي لا يشعر بالحرمان ويصف ذلك بقوله (ع): (ومن فرحه فرحه الله يوم القيامة)، فالطفل من منظور الإمام علي (ع) كتلة من المشاعر والأحاسيس يجب صيانتها وإحاطتها ببيئة صالحة لتزدهر وتنمو شخصيته وتصل إلى إشراقاتها التكاملية، حيث يقول (ع) واصفاً الطفل بأنه: (ذو نية سليمة ونفس صافية)[٥٤].

لذا يجب على الآباء تحمل مسؤوليتهم تجاه أبنائهم، وأن يشبعوا حاجاتهم النفسية والعاطفية، وأن يعملوا إسعادهم: لينالوا بذلك سعادة الدنيا وآجر الآخرة.

٦ - لعب الطفل:

يقول الإمام (عليه السلام): **(يرخى الصبي سبعاً...)**[٥٥].

وفي حديث آخر قال (عليه السلام): **(من كان له ولد صبا)**[٥٦].

اللعب حاجة فطرية يحتاج إليها الفرد في كل مراحل حياته ولا سيما في مرحلة الطفولة المبكرة، فهو نشاط تلقائي لا يمكن تعلمه ولا يقل أهمية عن الأكل والشرب والتنفس، بل إن الطفل أحياناً يفضل اللعب على الأكل، فهو يعيش مع لعبته يحكي لها، ويشكي لها، يضربها، يقبلها، يحضنها، يرميها، ويركبها. ولا شك أن هذا اللعب له أهمية كبرى بالنسبة للطفل حيث يساعده على النمو الجسمي والعقلي والحركي والاجتماعي واللغوي والأخلاقي، والطفل الذي لا يلعب هو طفل غير طبيعي[٥٧].

ومن خلال اللعب (يتعلم الطفل المعايير الاجتماعية، وضبط الانفعالات والنظام والتعاون... ويشبع حاجاته مثل حب التملك... ويشعر الطفل بالمتعة ويعيش طفولته)[٥٨].

ويؤكد علماء النفس والتربية حرية الأطفال في اللعب ومن قولهم: (إذا حاول الأطفال رسم برنامج خاص لهم في أعمالهم فلا تمنعوهم من ذلك، لأنّ مواصلة تطبيق خطّة مرسومة دون عوائق في الطريق... عامل فعّال في تكوّن الشخصية عندهم)[٥٩].

وهذا لا يعني أن يترك الحبل على الغارب بحيث يفعل الطفل ما يشاء، بل يجب أن يكون اللعب بأدوات مباحة، وأن يكون مأمون الخطر والضرر، وأن يماس باعتدال بحيث لا يستهلك جلّ وقت الطفل، وأن يكون تحت إشراف الوالدين وتحت مراقبتها حتى يتم التوجيه والتصويب للخطأ إن وقع[٦٠].

فالإمام (ع) أشار إلى مسألة اللعب منذ أمد بعيد بوصفه وسيلة فعالة لبناء شخصية الطفل، والإمام (ع) لم يؤكد على أهمية لعب الطفل فحسب، بل أشار إلى أهمية اللعب مع الطفل فعن الأصبغ بن نباته قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (من كان له ولد صبا).

وكان رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يشارك الحسن والحسين في فعلهما، ومشاركته لا تعني التدخل في شؤونهما، وإنّما يشارك متصرفاً كأنّه أحدهما

فكان (صلى الله عليه وآله وسلم) يبرك للحسن والحسين ويخالف بين أيديهما وأرجلهما، ويقول: (نعم الجمل جملكما)[٦١].

يقول موريس في كتابه (دروس للوالدين): يجب أن تسلكوا مع أولادكم كأصدقاء، أن تعملوا معهم، أن تشاركوهم في اللعب، أن تقرأوا لهم القصص أن تتحدثوا معهم بعبارات الود والصدقة. وبصورة خاصة فإن الفرد يجب أن يعرف كيف يجعل نفسه بمستوى الأطفال ويتكلم بلغة يفهمونها[٦٢].

٧ ـ تعليم الطفل:

يقول الإمام (عليه السلام): **(حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن)**[٦٣].

وفي حديث آخر قال (عليه السلام): **(علموا صبيانكم من علمنا ما ينفعهم الله به، لا تغلب عليهم المرجئة برأيها)**[٦٤].

اهتم الإسلام بالتعليم اهتماماً كبيراً، بل جعل التعليم من الحقوق الواجبة على الآباء تجاه أبنائهم، ولاشك أن الحق يسأل عنه الإنسان يوم القيامة. فقد أشار الإمام (ع) إلى تعلم القرآن كونه دستوراً إلهياً شاملاً لكلّ جوانب العلم في مجالاته المختلفة العلمية والإنسانية، والروحية والعبادية، فضلاً عن تعلّم القراءة والكتابة الصحيحة على وفق الضوابط اللغوية والتشجيع على الحفظ والتفسير الصحيح لبعض الآيات والسور التي يحتاجها الطفل في هذه المرحلة، وخصوصاً ما يتعلّق بالجانب العقائدي والأخلاقي، والجانب الفقهي المتعلّق بالأحكام الشرعية المختلفة من العبادات والمعاملات[٦٥].

وقد أوجب الله سبحانه وتعالى فضلاً كبيراً للوالدين لتعليمهم القرآن أبنائهم على الرغم من كونه حقاً عليهم فقد ورد عن رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: (... ومن علّمه القرآن دُعي بالأبوين فكسيا حلّتين تضيء من نورهما وجوه أهل الجنة)[٦٦].

والجانب الآخر الذي يؤكده الإمام (ع) هو تعلم العلوم النافعة لتكون لدى الطفل حصانة فكرية أمام التيارات المنحرفة في قوله (ع): (علموا صبيانكم من علمنا ما ينفعهم الله به لئلا تغلب عليهم المرجئة برأيها).

والحق أن الطفل بعد ولادته لا يعرف سوى بعض المعلومات الغريزية والفطرية، فهو يجهل جهلاً كاملاً لتلك الظواهر المختلفة لهذا العالم الواسع. ولا يعلم شيئاً عن قضايا العلة والمعلول ولا يمكنه أن يستثمر ما هو موجود في الحياة اليومية ويستفيد منه، لذا فهو بحاجة إلى الوعي حتى يدرك ماذا عليه أن يفعله في هذا العالم وما هي المواقف التي لا بد من أن يتخذها: لذا فالأب هو المسؤول عن توعية طفله وتنشئته ثقافياً، فالطفل يعتقد أن أباه يعلم كل شيء. ويمكنه الإجابة على جميع الأسئلة، ويعي جميع المعادلات، وأنه يعلم بجميع

الحوادث أينما وقعت، وهو الذي يجب أن يتحدث عن الماضي ويخبر عن المستقبل ويدرك تفاصيل الحياة ودقائقها، وأخيراً فإنه هو الذي يفتح بوابة العلم والمعلومات أمام طفله[٦٧].

٨ ـ عقاب الطفل:

يقول الإمام (عليه السلام): **(إن العاقل يتعظ بالأدب والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب)**[٦٨].

يفهم بعض الناس بان العقاب يعني الضرب في حين أنه يشمل أموراً أخرى كثيرة لها نفس المعنى دون أن تترك آثاره وأعراضه. إذ يقوم العقاب على فكرة أن يشعر الفرد بالعذاب والجزاء فيتذوق آلامه ويعيشها ليفكر بالتخلص منها والابتعاد عن ارتكاب تلك الأعمال، فللعقاب صور مختلفة في تربية الطفل أهمها: التوبيخ والإشارة والكناية والتهديد بحرمانه من بعض الامتيازات التي يهواها كالسينما وأفلام التلفزيون والقصة وقطع المصروف اليومي والمقاطعة[٦٩]، وقد أشار إلى هذا النوع من العقاب عالم النفس الأمريكي (سكنر) وأسماه بـ (العقاب السلبي) ويقصد به إزالة حدث سار مرغوب فيه نتيجة قيام الطفل بسلوك غير مرغوب فيه بهدف تقليل احتمالية تكرار مثل هذا السلوك لاحقاً[٧٠].

ومن الجدير بالذكر أن الإمام علي (ع) أشار إلى هذا النوع من العقاب منذ (١٤٠٠) ونيف عام، قال بعضهم: شكوت إلى أبي الحسن (ع) ابناً لي، فقال: (لا تضربه واهجره... ولا تطل).

فالإمام (ع) حذر من ضرب الطفل لأن ذلك لا ينفع في تحقيق نموه وتكامله، بل على العكس يؤثر عليه سلبياً. ومن أعراضه أنه يشعر الطفل بالحقد والإحساس بالحقارة والهروب من البيت، والوقوف بوجه من يمارسه، وفقدان الثقة بالمربي، واللامبالاة بالحياة، والشعور بالذنب، والكذب، واللجوء إلى الحيلة، وممارسة العنف، والانحراف الفكري والروحي، والتمرد والعصيان وغير ذلك من النتائج الخطيرة[٧١].

وفي الوقت الذي يحذر فيه الإمام من العقوبة البدنية يؤكد على العقوبة العاطفية فيقول (ع): للرجل (اهجره ولا تطل)، فلا شك أن الأب هو الملجأ الوحيد للطفل ومعقد آماله، وإن هجره للولد أكبر عقوبة روحية ومعنوية، ويوصي الإمام (ع) بعدم طول مدة الهجر، وذلك لأنه إذا كان لهجر الوالد أثر عميق في روح الطفل فإن طول مدته يبعث على تحطيم روحيته، أما إذا كان أثره ضعيفاً فإن شخصية الوالد ستصغر في نظر الطفل لطول مدة الهجر وسوف لا يكون لتألم الولد أثر أصلاً[٧٢].

إن العقوبة العاطفية هي عقوبة مؤثرة وفاعلة ومن الممكن أن تؤدي إلى تغيير السلوك الخاطئ عند الطفل، فاقتناع الطفل أن السلوك الخاطئ سوف يؤدي إلى فقدانه هذا الحب وتلك المقبولية التي يحوزها من والديه سوف لا يكرر هذا السلوك[٧٣].

٩ - التفريق بين الصبيان في المضاجع:

يقول الإمام (عليه السلام): **(مروا صبيانكم بالصلاة إذا كانوا أبناء سبع سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع إذا كانوا أبناء عشر سنين)**[٧٤].

لقد راعى الإسلام في منهاجه التربوي الانسجام الكامل بين قوانينه التشريعية والتكوينية وحقق بذلك الوسائل الممهدة لجمود الميل الجنسي عند الأطفال في الفترة المذكورة، فقد جنبهم عن كل عمل مثير يؤدي إلى للنشاط الجنسي واوجب على الآباء والأمهات إيجاد الجو المناسب لبقاء هذا النشاط مجمداً حتى يحين موعد نضجه[٧٥]، فيجب على الوالدين وقاية الأطفال من الإثارة الجنسية، والتفريق بينهم في حالة المنام، بأن توضع فاصلة بينهم فلا ينامون تحت غطاء واحد بحيث يحتك جسم أحدهم بالآخر فضلاً عن تجنبهم التقبيل وغيره ومن الخطأ الفاحش الذي يقوم به بعض الوالدين هو التحدث عن أمور الجنس أمام الأطفال في بعض المناسبات، فإن ذلك يدفع الأطفال إلى زيادة فضولهم.

وفي خلاصة هذا المبحث يمكن القول أن الإمام (عليه السلام) كان رائداً في مجال التربية الأسرية، وكانت أقواله وأفعاله أسس ومبادئ يستنار بها في المجال التربوي.

الخاتمة:

يتضح مما تقدم في البحث أن للتنشئة الأسرية دور بارز في حياة الأبناء وبناء شخصياتهم لدرجة أن الكثير من مظاهر التوافق أو عدم التوافق التي تظهر في سلوك الأبناء وتحقيق النجاح أو الفشل يمكن إرجاعها إلى نوع العلاقات الأسرية التي تسود بين أفراد الأسرة وإلى أساليب المعاملة التي يعاملها به الوالدان، فنمو شخصيات الأبناء يحتاج إلى إمكانات اقتصادية واجتماعية أسرية تهيئ البيئة الصالحة، وأن أهل البيت (عليهم السلام) ولا سيما الإمام علي (عليه السلام) قد وضع منهجاً متكاملاً لبناء الأسرة بالشكل الصحيح ابتداء من اختيار الزوجة الصالحة وحتى مرحلة المراهقة.

وفي ضوء ما تقدم استنتجت الباحثان الآتي:

١ - إن المنهج الذي وضعه آل البيت (عليهم السلام) ولا سيما الإمام علي (عليه السلام) كان منهجاً متكاملاً في تربية الطفل من النواحي (الجسمية، والوجدانية، والاجتماعية، والخلقية).

٢ - اختيار الزوجة له أثر في تكوين الطفل وتربيته.

٣ - الاسم الحسن للولد له أثر على نفسيته وتفاعله الاجتماعي.

٤ - الحب والعطف على الأولاد له أثر بالغ في تربية الطفل وتأديبه.

٥ - اللعب بالنسبة للطفل مهم جداً لتحقيق التوافق العضلي، وإشباع حاجة الطفل بالاكتشاف والمعرفة.

٦ - العقاب المعنوي العاطفي أجدى من العقاب الجسدي لما للأخير من آثار سلبية على الطفل.

وفي ضوء الاستنتاجات توصي الباحثة بالآتي:

١ - يجب أن يكون اختيار الزوجة على أساس النسب الطاهر وليس على أساس الجمال والمال فقط.

٢ - يجب أن يختار الوالدان الاسم الجميل والحسن لطفلهم.

٣ - يجب على الوالدين إشعار الطفل بالحب والحنان، وأنه شخص مرغوب فيه بالأسرة.

٤ - يجب احترام شخصية الطفل، وتجنب العقاب البدني إلا عند الضرورة على نحو التأديب بما لا يحدث الضرر.

٥ - التفريق بين الأطفال في المنام، لإبعادهم عن الاحتكاك الجسمي، وإثارة الشهوة الجنسية لديهم.

٦ - أن يتعامل الوالدان مع الولد في مرحلة المراهقة بحكمة ودراية من دون المساس بشخصيته.

الهوامش:

(١) محمد سعيد فرج، البناء الاجتماعي والشخصية: ٢٤٠.

(٢) بشير خلف، ثقافة الطفل ومنجزات العصر، ٢٠٠٨/١٠/١ متوفر على الموقع الالكتروني: www.diwanalarab.com

(٣) سناء الخولي، التغير الاجتماعي والتحديث: ٢٢.

(٤) عباس مكي وزهير حطب: ٧ - ٨.

(٥) المصدر نفسه، ص٨.

(٦) محمد عاطف غيث: تطبيقات في علم الاجتماع: ١٦٢.

(٧) المصدر نفسه، ص١٠٤.

(٨) محمود حسن، مصدر سابق، ٦٩.

(٩) المصدر نفسه، ص٥٦ - ٥٧.

(١٠) السيد رمضان، مصدر سابق، ١٤١ - ١٤٢.

(١١) محمود حسن، مصدر سابق، ٦٨ - ٧١.

(١٢) سناء الخولي، المدخل إلى علم الاجتماع، مصدر سابق، ٢٣٠.

(١٣) أحمد زكي صالح، علم النفس التربوي: ٨٠٣.

(١٤) إحسان محمد الحسن وبهيجة أحمد شهاب، مصدر سابق: ١٦٧.

(١٥) المصدر نفسه، ص١٧٢.

(١٦) قيس النوري: الأسرة مشروعاً تنموياً، مصدر سابق: ٢٧.

(١٧) سالمة داوود الفخري وآخرون، سيكولوجية الطفولة والمراهقة: ٦.

(١٨) صباح حنا هرمز، سيكولوجية لغة الأطفال: ٣٨.

(١٩) صباح عبد الكريم فن التربية الأبناء، : ٢٧.

(٢٠) هناء حسين الفلفلي، خصائص شخصية الطفل العراقي: ٦٥.

(٢١) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الخطة القومية الشاملة لثقافة الطفل العربي: ٧.

(٢٢) حقوق الطفل العربي، أحمد عبد الحليم: ٧٩.

(٢٣) يوسف عبد المعطي، ماذا أعددنا لتربية أبنائنا في القرن الحادي والعشرين: ٥٤.

(٢٤) حول تطوير ثقافة الطفل في المجتمع السعودي، هند خالد خليفة، www.hewarat.com.

(٢٥) وسائل الشيعة، الحر العاملي: ٥٧/١٤.

(٢٦) التربية وإشراقاتها التكاملية، مصدر سابق: ١١٠.

(٢٧) ميزان الحكمة: ٨٠٣/١.

(٢٨) المصدر نفسه: ١١٨٤/٢.

(٢٩) مظاهري، تربية الطفل في الإسلام، : ٣٨ ـ ٣٩.

(٣٠) الكافي، الكليني ٤١/٦.

(٣١) وسائل الشيعة، الحر العاملي: ١٨٩/١٥.

(٣٢) الأسرة ومتطلبات الأطفال، علي القائمي: ٦٨.

(٣٣) سين وجيم عن علم النفس التطوري، طلعت همام: ١٠٩ ـ ١١٠.

(٣٤) الأسرة ومتطلبات الأطفال، علي القائمي: ٦٨.

(٣٥) الكافي، الكليني: ١٩/٦.

(٣٦) ميزان الحكمة، مصدر سابق: ٢٥٢٣/٣.

(٣٧) الأسرة وتربية الطفل، مصدر سابق: ٤١.

(٣٨) التربية واشراقاتها التكاملية، مصدر سابق: ٣٠٧.

(٣٩) ميزان الحكمة، مصدر سابق: ٥٧/١.

(٤٠) بحار الأنوار، مصدر سابق: ٩٥/١.

(٤١) مستدرك الوسائل، مصدر سابق: ١٦٦/١٥.

(٤٢) التربية وإشراقاتها التكاملية، مصدر سابق: ٣٢٣.

(٤٣) بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي: ٢٨٢/٣.

(٤٤) ميزان الحكمة، مصدر سابق: ٥٧/١.

(٤٥) الأسرة وتربية الطفل، مصدر سابق: ١٠٢.

(٤٦) بحار الأنوار، مصدر سابق: ٢٠٤/٧٤.

(٤٧) بحار الأنوار، مصدر سابق: ١٠٠/١٠١.

(٤٨) الطفل بين البيئة والوراثة، محمد تقي الفلسفي: ١١٦/٢.

(٤٩) الطفولة في الإسلام حاجاتها النفسية والاجتماعية والتربوية، نجم الدين علي مردان: ١١٦.

(٥٠) تربية الطفل وإشراقاتها التكاملية، مصدر سابق: ٣٩٨.

(٥١) فن تربية الأبناء كيف نربي أبناءنا تربية نفسية سليمة، صالح عبد الكريم: ١٢٨.

(٥٢) المصدر نفسه: ١٢٩.

(٥٣) بحار الأنوار، مصدر سابق: ١٠٠/١٠١.

(٥٤) المصدر نفسه: ٢٠٢/٧٤.

(٥٥) المصدر نفسه: ٩٧/١٠١.

(٥٦) الكافي، الكليني: ٥١/٦.

(٥٧) فن تربية الأطفال، صالح عبد الكريم: ١٤٠.

(٥٨) العلاج النفسي الجماعي للأطفال، كاميليا عبدالفتاح: ١٦٢.

(٥٩) الطفل بين البيئة والوراثة، محمد تقي فلسفي: ٦٠/٢.

(٦٠) تربية الطفل، سوسن حسين: ٨٤.

(٦١) مستدرك الوسائل، مصدر سابق: ١٧٣/١٥.

(٦٢) الطفل بين البيئة والوراثة، مصدر سابق: ٩١/٢.

(٦٣) ميزان الحكمة، مصدر سابق: ٣٦٨٠/٤.

(٦٤) المصدر نفسه: ٣٦٨١/٤.

(٦٥) تربية الطفل في الإسلام، المصدر موجود في المكتبة الشاملة الالكترونية: ١٠٢.

(٦٦) ميزان الحكمة، مصدر سابق: ٣٦٧٠/٤.

(٦٧) دور الأب في التربية، علي القائمي: ٨٨.

(٦٨) ميزان الحكمة، مصدر سابق: ٥٨/١.

(٦٩) الأسرة ومتطلبات الأطفال، مصدر سابق: ٢٦٧.

(٧٠) نظريات التعلم، عماد الزغول: ٨٦.

(٧١) الأسرة ومتطلبات الأطفال، مصدر سابق: ٢٦٩.

(٧٢) الطفل بين البيئة والوراثة، مصدر سابق: ٣٦٢/١.

(٧٣) تربية الطفل، سوسن حسين: ٣٦.

(٧٤) مستدرك الوسائل، مصدر سابق: ٢٨٩/١٤.

(٧٥) الطفل بين البيئة والوراثة، مصدر سابق: ٢٥٥/٢.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

١ ـ الحسن، إحسان محمد، وبهيجة أحمد شهاب، **خدمة الجماعة**، الموصل، مطابع التعليم العالي، ١٩٩٠.

٢ ـ حسن، محمود. **الأسرة ومشكلاتها، بيروت**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٨١.

٣ ـ حسين، سوسن. **تربية الطفل**، لادي للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠١٢.

٤ ـ حطب، زهير، وعباس مكي، **السلطة الأبوية والشباب**، بيروت، شركة تكنوبوس الحديثة، ١٩٧٨.

٥ ـ الخرسان، السيد صالح السيد عبد الرزاق الموسوي. **تربية الطفل وإشراقاتها التكاملية**، ط١، شركة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، ٢٠١٢م.

٦ ـ خلف، بشير. **ثقافة الطفل ومنجزات العصر**، ٢٠٠٨/١٠/١ متوفر على الموقع الالكتروني www.diwanalarab.com

٧ ـ خليفة، هند خالد. **حول تطوير ثقافة الطفل في المجتمع السعودي**، الرياض، ٢٠٠٥/١٢/٦ www.hewarat.com

٨ ـ الخولي، سناء. **التغير الاجتماعي والتحديث**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص٢٢.

٩ - رمضان، السيد. **الجريمة والانحراف من المنظور الاجتماعي**، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، ١٩٨٥.

١٠ - الريشهري، محمد. **ميزان الحكمة** التحقيق: دار الحديث الناشر: دار الحديث المطبعة: دار الحديث الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

١١ - الزغول، عماد. **نظريات التعلم**، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١، ٢٠٠٣.

١٢ - **سين وجيم عن علم النفس التطوري**. طلعت همام، ط١، مؤسسة الرسالة دار عمار، عمان: الأردن، ١٩٨٤م.

١٣ - صالح، أحمد زكي**علم النفس التربوي**، ط١٣، القاهرة، دار الشباب للطباعة، ١٩٨٨، ص٨٠٣.

١٤ - العاملي، العلامة الشيخ محمد بن الحسن الحر. **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة** تصحيح وتحقيق وتذييل المحقق الحاج الشيخ محمد السرازي، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.

١٥ - عبد الحليم، أحمد، **حقوق الطفل العربي**، مجلة المستقبل العربي، العدد (٤٩)، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ١٩٨٣.

١٦ - عبد الفتاح، كاميليا. **العلاج النفسي الجماعي للأطفال**، - مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٥.

١٧ - عبد الكريم، صالح. **فن تربية الأبناء كيف نربي أبناءنا تربية نفسية سليمة**، دار الراية للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠١١م.

١٨ - عبد المعطي، يوسف. **ماذا أعددنا لتربية أبنائنا في القرن الحادي والعشرين**، المجلة التربوية، المجلد ١٣، العدد ٥١، جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي، الكويت، ١٩٩٩.

١٩ - غيث، محمد عاطف، **تطبيقات في علم الاجتماع**، الإسكندرية، مطابع رويال، ١٩٧٠.

٢٠ - الفخري، سالمة داود وآخرون. **سيكولوجية الطفولة والمراهقة**، مطبعة بغداد، بغداد، ١٩٨٢.

٢١ - فرج، محمد سعيد. **البناء الاجتماعي والشخصية**، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص٢٤٠.

٢٢ - فلسفي، محمد تقي. **الطفل بين الوراثة والتربية**، مطبوعات دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩.

٢٣ - الفلفلي، هناء حسين. **خصائص شخصية الطفل العراقي**، مجلة أحاديث في التربية والاجتماع، العدد ١٣، مسلسلة التراث القومي، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٩.

٢٤ - القائمي، علي. **الأسرة ومتطلبات الأطفال**، دار النبلاء، بيروت، لبنان، ١٩٩٦.

٢٥ - القائمي، علي. **دور الأب في التربية**، دار النبلاء، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٨.

٢٦ - الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحاق، **الكافي**، صححه وقابله وعلق عليه علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، تهران، ١٣٦٧هـ.

٢٧ - مظاهري. **تربية الطفل في الإسلام**، ط٣، دار البلاغة للنشر والتوزيع، لبنان، ٢٠١٠م.

٢٨ - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. **الخطة القومية الشاملة لثقافة الطفل العربي**، تونس، ١٩٩٣.

٢٩ - الناشف، هدى محمود. **الأسرة وتربية الطفل**، ط١، دار السيرة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٧.

٣٠ - النوري، حسين. **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

٣١ - النوري، قيس. **الأسرة مشروعاً تنموياً**، بغداد، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٤.

٣٢ - هرمز، صباح حنا، **سايكولوجية لغة الأطفال**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٩. ❖

النّصبُ والنّواصب عند علماء العامة

السيد محمود المُقدّس الغُريفي

توطئة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أبي القاسم محمد، وعلى يعسوب الدين وإمام المتقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعلى أولاده الطيبين الطاهرين، ومن والاهم إلى يوم الدين، وبعد:

في مجلس ضمني مع أحد مشايخ العامة في مكة المكرمة دار بيننا حوار هادئ تعرضنا فيه إلى فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ومناقبه الكثيرة والعظيمة، فقال: إنه حقاً شخصية عظيمة يفتخر بها المسلمون...

ثم قال إنكم الشيعة تتهمون عموم أهل السنة بالنصب والبغض للإمام علي (عليه السلام)، مع أننا نتبرأ من ذلك، ونرفض مَنْ ينتقص من الإمام علي (رضي الله عنه) أو يسبه أو يبغضه: لأنه فاسق من أهل الأهواء والبدع.

قلت: أبداً إننا لا نتهم أهل السنة بذلك، ونعلم أن معظم أهل السنة يحترمون الإمام عليا (عليه السلام) ويقدسونه، من جهات عدة، منها كونه أحد الخلفاء الراشدين، وأنه من الصحابة الكرام وأول من أسلم، وأنه من أهل البيت الأطهار الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وأن الإسلام قام بسيفه وجهاده، وغير ذلك...

إلا أن البعض منهم، وإن أخفى موقفه السلبي من علي (عليه السلام) ولم يصرح به، إلا أنه أخذ يدافع عن أعدائه ومبغضيه، بل وثقوهم وقبلوا رواياتهم مع إعلانهم النصب للإمام علي (عليه السلام)، وهذه مصادركم وكتبكم الحديثية والرجالية تشهد بذلك وتنقله وتؤكده.

فبادر بالكلام وبالإجابة مسرعاً كأنه حافظ، ذو لباقة وذلاقة، فقال: إن كنت تقصد ما جرى بين الصحابة فهذا أمر مسكوت عليه!؟ ولا يحق لنا التكلم عنهم، حيث أننا لم نصل إلى مكانتهم ولا منزلتهم وقد قال تعالى ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1]، ثم أن كل الصحابة عُدول وثِقات!!، وبأيهم اقتديتم اهتديتم!!، فعلينا أن نمسك عن الكلام فيما شجر بينهم، فهذا أسلم للدين!!. وكأنه أراد قطع الكلام في هذا المحور.

---

(١) سورة البقرة، آية ٣٤.

قلت له: أن هناك كثيراً من النواصب قد وثقهم أصحاب الحديث ورووا عنهم في صحاحكم، ولم يُجرِّحهم أحد من الرجاليين؛ لبغضهم عليا (عليه السلام) وسبهم إياه، مع أنهم ليسوا من الصحابة العدول كما تقول؟

فقال: منفعلاً، هذا لا يصح وآتني باسم شخص واحد من هؤلاء الرواة النواصب وثقه أهل الجرح والتعديل، أو روى له البخاري في صحيحه؟

قلت: قد احتج البخاري بالناصبي حريز بن عثمان الرحبي ومحمد بن زياد الألهاني في صحيحه، وهما مشهوران بالنصب والعداء لأمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وغيرهما كثير.

قال: ومن قال إنهما ناصبيان، أنتم الشيعة تتهمونهم بالنصب لتسقطوا أحاديثنا ورجالنا، وتطعنوا بالصحاح!!؟

ثم حاول أن يغير الموضوع وينفلت منه بكل صورة، واستأذن ومضى لسبيله...

وبعد هذه الجلسة، انقدح في ذهني بيان قول هذا الشيخ الواهم وتصحيحه، بما اتهم به الشيعة زورا وبهتانا، في أن دعوى نسبة النصب إلى بعض رجال الصحاح جاءت من الشيعة لا من علماء السنة!؟، فبحثت وسجلت كل مَنْ ثبت نص على نصبه ـ بهذا اللفظ الخاص ـ أو التحامل على علي أمير المؤمنين، من رواة أصحاب الصحاح الستة، وغيرهم، ممن نص على نصبه علماء العامة فقط ومدون في مصادرهم، بعيداً عن كتبنا ومصادرنا، وإن كان الذين لم نذكرهم من الرواة النواصب أكثر بكثير ممن ذُكروا هنا.

حيث أعرضنا عمن له صحبة بالنظر للمفهوم اللغوي الواسع للصحبة الذي التزم به القوم وتبنوه، حيث جعلوهم فوق النقاش والكلام من أول الأمر.

كما أعرضنا عن ذكر الرجال (العثمانية) و(الخوارج) الذين كانوا يتحاملون على أمير المؤمنين علي (عليه السلام) ويعلنون بغضه وشتمه وتنقيصه، وقد أملئت كتب الحديث برواياتهم.

وذلك التزاماً منا بالمنهج الذي اعتمدناه في هذا البحث، وقد سطرناهم في موضوع أوسع وأشمل إن شاء الله تعالى: وذلك لإقامة الحجة وتثبيت الدليل عليهم.

وقد عرضت في أول البحث تعريفاً للنصب والنواصب، وما هو الحكم الشرعي على من نصب العداء والبغض للإمام علي (عليه السلام) وشتمه وسبه؟ وهل الناصبي يملك العدالة، حتى يمكن العمل على رواياته؟، ذلك بما يراه علماء العامة ودَوَنُوه في كتبهم ورسائلهم، مع تعريف يسير لهؤلاء العلماء وترجمة موجزة: لبيان منزلتهم وفضلهم ومكانتهم العلمية وسط محيطهم المذهبي: للدلالة على اعتبارهم وقبول آرائهم، فيما دونه خصوص رجالهم، لا بما نراه نحن الشيعة الإمامية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تعريف النصب والنواصب:

النَّصْبُ: بالفتح العداوة وناصبت فلاناً عاديته، ومنه اشتق الناصبية والنواصب وأهل النَّصب، وهم الذين ينصبون العداء والبغض لأمير المؤمنين ويعسوب الدين علي بن أبي طالب (عليه السلام) والانحراف عنه، والخلاف له، وتقديم غيره عليه، قولاً وفعلاً، سراً وجهراً، تَديّنَ بذلك إلى الله أم لا، وهذا ما عُرف في الصدر الأول للإسلام، حتى توسع النصب وشمل العداء والبغض لأولاد علي (عليه السلام) وذراريه من أهل البيت (عليهم السلام) الأطهار نكاية وبغضاً له (عليه السلام)، بل شمل حتى من أبغض شيعته ومحبيه، وكل من ذكر فضيلة من فضائله الجمة، أو منقبة من مناقبه العظيمة، حتى عَدَّ البعض أن النصب بدعة من بدع الضلال.

وكل من شمله هذا التعريف أو صورة من صوره فهو ناصبي بحكم علماء السنة ومحدثيهم قبل الشيعة، وهذا التعريف السابق للنصب هو لمة من أقوال جملة من مشايخ أهل السنة وعلماءهم ومؤرخيهم، من الذين يعتمد على أقوالهم، ويعمل بآرائهم، ويؤخذ عنهم، والتي استفاضت بها كتب الرجال والحديث، والتاريخ واللغة، وللدلالة على هذا نذكر بعض أقوالهم.

قال ابن حجر العسقلاني[١] في مقدمة (فتح الباري): والنصب بغض علي وتقديم غيره عليه[٢]. والظاهر يراد منه تقديم معاوية عليه.

أما أبو البقاء الكفوي[٣] فقال: والنَّصب بالفتح يقال لمذهب هو بغض علي بن أبي طالب.. ويقال لهم الطائفة النواصب، وهم مثل الخوارج[٤].

---

(١) هو أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر (٧٧٣ - ٨٥٢ هـ): من أئمة العلم والتاريخ. أصله من عسقلان بفلسطين ومولده ووفاته بالقاهرة، ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع الشيوخ، وعلت له شهرة فقصده الناس للأخذ عنه وأصبح حافظ الإسلام في عصره، قال السخاوي: انتشرت مصنفاته في حياته وتهادتها الملوك وكتبها الأكابر) وكان فصيح اللسان، راوية للشعر، عارفاً بأيام المتقدمين وأخبار المتأخرين، صبيح الوجه. وولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل. أما تصانيفه فكثيرة جليلة، منها: (لسان الميزان - ط)، و(الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة - ط)، و(الأحكام لبيان ما في القرآن من الأحكام - خ)، و(تقريب التهذيب - ط) في أسماء رجال الحديث، و(الإصابة في تمييز أسماء الصحابة - ط)، و(تهذيب التهذيب - ط) في رجال الحديث، و(بلوغ المرام من أدلة الأحكام)، و(فتح الباري في شرح صحيح البخاري - ط) وغيرها. انظر الأعلام - خير الدين الزركلي - ج ١ - ص ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) مقدمة فتح الباري - ابن حجر ج ١ - ص٤٦٠.

(٣) هو أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي صاحب (الكليات - ط) كان من قضاة الأحناف. عاش وولي القضاء في (كفه) بتركيا، وبالقدس، وببغداد. وعاد إلى استانبول فتوفي بها سنة ١٠٩٤هـ، ودفن في تربة خالد. وله كتب أخرى بالتركية. انظر الأعلام - خير الدين الزركلي ج٢ - ص ٣٨.

(٤) كتاب الكليات - أبي البقاء الكفوي ج٤ - ص٣٦٣.

وقال الزمخشري[١]: الناصبة والنواصب وأهل النصب الذين ينصبون لعلي كرم الله وجهه[٢]. وكذا قال ابن أبي عاصم[٣]: النواصب هم الذين يبغضون علياً[٤].

وقال الفيروز آبادي[٥]: والنواصب والناصبية وأهل النصب: المتدينون ببغضة علي، رضي الله عنه، لأنهم نصبوا له، أي: عادوه[٦].

وأضاف الزَبيّدي[٧] إلى البغض بإظهار الخلاف له (عليه السلام) فقال: النواصب والناصبة وأهل النصب وهم المتدينون ببغضة سيدنا أمير المؤمنين ويعسوب المسلمين أبي الحسن

---

(١) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري، جار الله. أبو القاسم (٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ): من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب. ولد في زمخشر من قرى خوارزم. وسافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله، وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية من قرى خوارزم، فتوفى فيها. أشهر كتبه: (الكشاف ـ ط) في تفسير القرآن، و(أساس البلاغة ـ ط)، و(الفائق ـ ط) في غريب الحديث، و(ربيع الأبرار ـ ط) وغيرها. وكان معتزلي المذهب، مجاهراً، شديد الإنكار على المتصوفة، أكثر من التشنيع عليهم في الكشاف وغيره. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٧ ـ ص ١٧٨.

(٢) أساس البلاغة ـ الزمخشري ج ١ ـ ص٦٣٥.

(٣) هو أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الضحاك ابن مخلد الشيباني، أبو بكر بن أبي عاصم، ويقال له ابن النبيل (٢٠٦ ـ ٢٨٧ هـ): عالم بالحديث، زاهد رحالة، من أهل البصرة. ولي قضاء أصبهان سنة ٢٦٩ ـ ٢٨٢هـ، له نحو ٣٠٠ مصنف، منها: (المسند الكبير) نحو ٥٠ ألف حديث، و(الآحاد والمثاني) نحو ٢٠ ألف حديث، وكتاب (السنة)، و(الديات ـ ط)، و(الأوائل ـ خ)، قيل: (ذهبت كتبه بالبصرة في فتنة الزنج فأعاد من حفظه خمسين ألف حديث! وقال الذهبي: وقع لنا جملة من كتبه). انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ١ ـ ص ١٨٩.

(٤) الآحاد والمثاني ـ ابن أبي عاصم ج ١ ـ ص ١٩.

(٥) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروز آبادي(٧٢٩ ـ ٨١٧ هـ): من أئمة اللغة والأدب. ولد بكارزين (بكسر الراء وتفتح) من أعمال شيراز. وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند. ورحل إلى زبيد (سنة ٧٩٦ هـ) فأكرمه ملكها الأشرف إسماعيل وقرأ عليه. فسكنها وولي قضاءها، وانتشر اسمه في الآفاق، حتى كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، وتوفى في زبيد. أشهر كتبه: (القاموس المحيط ـ ط) أربعة أجزاء، وينسب للفيروزآبادي (تنوير المقباس في تفسير ابن عباس ـ ط)، و(بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ـ ط)، و(سفر السعادة ـ ط) في الحديث والسيرة النبوية، و(المرقاة الوفية في طبقات الحنفية ـ خ) وكان شافعياً، وكان قوي الحافظة، يحفظ مئة سطر كل يوم قبل أن ينام. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٧ ـ ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

(٦) القاموس المحيط ـ الفيروز آبادي ج ١ ـ ص١٣٣.

(٧) هو محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، أبو الفيض، الملقب بمرتضى (١١٤٥ ـ ١٢٠٥هـ): علامة باللغة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنفين. أصله القديم من واسط (في العراق) ومولده بالهند في (بلجرام) ومنشأه في زبيد (باليمن) رحل إلى الحجاز، وأقام بمصر، فاشتهر فضله وانهالت عليه الهدايا والتحف، وكاتبه ملوك الحجاز والهند واليمن والشام والعراق والمغرب الأقصى والترك والسودان والجزائر. وزاد اعتقاد الناس فيه حتى كان في أهل المغرب كثيرون يزعمون أن من حج ولم يزر الزبيدي ويصله بشيء لم يكن حجه كاملاً! وتوفى بالطاعون في مصر. من كتبه: (تاج العروس في شرح القاموس ـ ط) عشرة مجلدات. و(إتحاف السادة المتقين ـ ط) في شرح إحياء العلوم للغزالي، عشرة مجلدات، طبعة مصر، و(أسانيد الكتب الستة ـ خ)، و(عقود الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة ـ ط) مجلدان، و(غاية الابتهاج لمقتفي أسانيد مسلم بن الحجاج ـ خ)، و(عقد اللآلي المتناثرة في حفظ الأحاديث المتواترة ـ خ)، وكان يحسن التركية والفارسية وبعضاً من لسن الكرج. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٧ ـ ص ٧٠.

علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه لأنهم نصبوا له أي عادوه وأظهروا له الخلاف[١].

وقال ابن منظور[٢] أيضاً: إن النواصب قوم يتدينون ببغضة علي (عليه السلام)[٣].

غير أن الذهبي[٤] قد وسع المفهوم، وضمَّ إلى النواصب من ذم الإمام علي (عليه السلام)، حيث قال: وكل من تَعرض للإمام علي بذم فهو ناصبي[٥]. فيكون من باب الأولى البغض والعداوة والخلاف والشقاق.

أما ابن حجر العسقلاني فقد وسع مفهوم النصب أكثر وضَمَّ إلى الانحراف عن علي (عليه السلام)، الانحراف عن آل البيت الأطهار عليهم السلام فقال: والنصب هو الانحراف عن علي وآل بيته[٦].

كما نص على ذلك أيضاً ابن تيمية الحراني[٧] في أن النصب كل قول أو عمل يؤذي

---

(١) تاج العروس ـ الزبيدي ج ٤ ـ ص ٢٧٧.

(٢) هو محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (٦٣٠ ـ ٧١١ هـ)، صاحب (لسان العرب): الإمام اللغوي الحجة. من نسل رويفع بن ثابت الأنصاري. ولد بمصر (وقيل: في طرابلس الغرب) وخدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي القضاء في طرابلس، وعاد إلى مصر فتوفى فيها. وقد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد، وعمي في آخر عمره. قال ابن حجر: كان مغرى باختصار كتب الأدب المطولة. وقال الصفدي: لا أعرف في كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره. أشهر كتبه: (لسان العرب ـ ط) عشرون مجلداً، جمع فيه أمهات كتب اللغة، فكاد يغني عنها جميعاً. ومن كتبه: (مختار الأغاني ـ ط)، و(مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ـ خ)، و(مختصر تاريخ بغداد للسمعاني ـ خ)، و(اختصار كتاب الحيوان للجاحظ ـ خ)، و(أخبار أبي نواس ـ ط) جزآن صغيران. له شعر رقيق. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٧ ـ ص ١٠٨.

(٣) لسان العرب ـ ابن منظور ج١ ـ ص ٧٦٢.

(٤) هو محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله (٦٧٣ ـ ٧٤٨ هـ): حافظ، مؤرخ، علامة محقق. تركماني الأصل، من أهل ميافارقين، مولده ووفاته في دمشق. رحل إلى القاهرة وطاف كثيراً من البلدان، وكف بصره سنة ٧٤١ هـ. تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المئة، منها: (دول الإسلام ـ ط)، و(المشتبه في الأسماء والأنساب، والكني والألقاب ـ ط)، و(تاريخ الإسلام الكبير ـ خ)، و(سير النبلاء ـ ط)، و(الكاشف ـ خ) في تراجم رجال الحديث، و(ميزان الاعتدال في نقد الرجال ـ ط)، و(تجريد أسماء الصحابة ـ ط)، و(المستدرك على مستدرك الحاكم ـ ط) في الحديث، وغيرها. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٥ ـ ص ٣٢٦.

(٥) سير أعلام النبلاء ـ الذهبي ج ٧ ـ ص ٣٧٠.

(٦) فتح الباري ـ ابن حجر ج١٠ ـ ص ٤٢٠.

(٧) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ): الإمام، شيخ الإسلام. ولد في حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها، فتعصب عليه جماعة من أهلها فسجن مدة، ونقل إلى الإسكندرية. ثم أطلق فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ، واعتقل بها سنة ٧٢٠ هـ وأطلق، ثم أعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته!؟. كان كثير البحث في فنون الحكمة، داعية إصلاح في الدين!. آية في التفسير والأصول، فصيح اللسان، قلمه ولسانه متقاربان. وفي الدرر الكامنة: أنه ناظر العلماء واستدل وبرع في العلم والتفسير وأفتى ودرس وهو دون العشرين. أما تصانيفه ففي الدرر: أنها ربما تزيد على أربعة آلاف كراسة، وفي فوات الوفيات: أنها تبلغ ثلاث مئة مجلد، منها: (السياسة الشرعية)، و(الفتاوى ـ ط)، و(الجمع بين النقل والعقل ـ خ)، و(منهاج السنة ـ ط)، و(الصارم المسلول على شاتم الرسول ـ ط)، و(التوسل والوسيلة ـ ط)، و(نقض المنطق ـ ط)، و(الفتاوي ـ خ) وغيرها. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ١ ـ ص ١٤٤.

عموم أهل البيت (عليهم السلام) حيث قال:.. إنهم يتبرؤون من طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، وهي طريقة الخوارج الذين يؤذون أهل البيت (عليهم السلام) بقول أو عمل[١]. وقد عَدَّ الشيخ صالح الفَلاّني[٢]، التعصُّب على الحسين (عليه السلام) وأهل بيته من النصب، فقال: بل النواصب هم المتعصبون على الحسين وأهل بيته[٣]. كما نص على ذلك أيضاً ابن تيمية في (الفتاوى الكبرى)[٤].

بل إن ابن تيمية وسع مفهوم النصب أكثر، فشمل كل من عادى أولياء الإمام علي (عليه السلام) ومحبيه، كما صرح بذلك، إذ قال: وهؤلاء هم الذين نصبوا العداوة لعلي ومن والاه[٥].

وقد نص على هذا الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) حيث قال: إن النواصب ليس من نصب لنا أهل البيت، لأنك لا تجد أحدا يقول: أنا أبغض محمدا وآل محمد، ولكن الناصب من نصب لكم وهو يعلم أنكم تتولونا وأنكم من شيعتنا[٦].

ولا يخفى على المتتبع أن هذه نماذج وأقوال لجملة من علماء العامة وأهل اللغة في بيان مفهوم النصب وحقيقته.

حكم الناصبي:

إن للنواصب صِفات وأحكاماً كثيرة وردت عن جمهور علماء أهل السنة ومحدثيهم، وأصبحت من الأمور المتسالم عليها في مبانيهم، التي يجمعها الخروج عن طاعة الرحمن والدخول في الهوى وطاعة الشيطان، والانحراف عن أهل الملة والدين، والانضمام في حزب المنافقين المضلين، من أهل البدع والضلالة، ومن أحكامهم المقررة في النواصب:

١ ـ الناصبي يعزر ويجلد، وهل يجوز قتله؟

التعزير[٧] لغة هو المنع والرد، واصطلاحاً هو التأديب لأنه يمنع ويردع من تعاطي القبيح والمحرمات.

---

(١) مجموعة الفتاوى ـ ابن تيمية ج ٣ ـ ص١٥٤.

(٢) هو صالح بن محمد بن نوح بن عبد الله العمري المعروف بالفلاني (١١٦٦ ـ ١٢١٨ هـ): عالم بالحديث مجتهد. من فقهاء المالكية، من أهل المدينة، ووفاته بها. نسبته إلى (فلان) أو فلانة (كرمانة) من قبائل السودان. نزلها بعض أسلافه، وولد صالح ونشأ بها، وتنقل في طلب العلم، فقرأ ببلدة القبلة (بشنقيط) ومراكش وتونس ومصر، ثم استقر في المدينة إلى أن توفي. من كتبه: (قطف الثمر، في أسانيد المصنفات في الفنون والأثر ـ ط)، و(إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار ـ ط)، و(الثمر اليانع ـ خ) رسالة في تراجم أشياخه. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٣ ـ ص ١٩٥.

(٣) قطف الثمر ـ الفلاني ج ١ ـ ص ١٠٣.

(٤) الفتاوى الكبرى ـ ابن تيمية ج ٢ ـ ص ٢٩٦.

(٥) مجموع الفتاوى ـ ابن تيمية ج ٤ ـ ص ٤٦٨.

(٦) معاني الأخبار ـ الشيخ الصدوق ص٣٦٥.

(٧) وله معنى آخر وهو النصر وما في معناه. ومنه قوله تعالى (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) والمقصود به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهذا المعنى خارج عن موضوع البحث كما ترى.

ويقع لكل معصية لا حَدَّ فيها ولا كفارة، ويرجع في تحديدها وتقديرها إلى نظر الإمام أو الحاكم من الحبس أو الضرب جلداً أو صفعاً، والجمع بينهما والاقتصار على أحدهما حسب ما يراه[١].

وذكر المرداوي[٢] في (الإنصاف)[٣]، وغيره من علماء أهل السنة، أنه يجب - أي التعزير - على كل مكلف نُصَّ عليه في سب الصحابي.

وأوجب الذهبي ذلك بخصوص مَنْ سب الإمام أمير المؤمنين عليا وذمه وحكم عليه بالنصب في (سير أعلام النبلاء) حيث قال: ومن تعرض للإمام علي بذم فهو ناصبي يعزر، فإن كفره هو خارجي مارق[٤].

على أن هذه التعزير يتكرر بتكرر موجبه، حتى يؤدي به إلى القتل مع عدم الارتداع بغيره من أنواع العقوبات والتعزيرات.

إلا أنه لو تأملنا في الكثير من النصوص الثابتة الصحيحة التي تنص على أن سب علي أمير المؤمنين (عليه السلام) سب للرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقد أجمع المسلمون على أن ساب الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يقتل، وبإسقاط الحد الأوسط، ينتج إن من سَبَّ عليا يقتل.

منها ما رواه الحاكم في (المستدرك على الصحيحين) عن أبي عبد الله الجدلي قال: دخلت على أم سلمة (رضي الله عنها) فقالت لي أيسب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيكم، فقلت: معاذ الله أو سبحان الله أو كلمة نحوها، فقالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول مَن سبّ علياً فقد سبني. وقال هذه حديث صحيح الإسناد، وقد أخرجه أحمد، والهيثمي في مجمع الزوائد وغيرهم[٥].

ومثله عن بكير بن عثمان البجلي يقول سمعت أبا إسحاق التميمي يقول سمعت أبا عبد الله الجدلي يقول: حججت وأنا غلام فمررت بالمدينة وإذا الناس عنق واحد فاتبعتهم فدخلوا

---

(١) مطالب أولي النهى - السيوطي ج ٦ - ص٢٢٠، روضة الطالبين - النووي ج١٠ - ص١٧٤.

(٢) هو علي بن سليمان بن أحمد المرداوي ثم الدمشقي (٨١٧ - ٨٨٥ هـ): فقيه حنبلي، من العلماء. ولد في مردا قرب نابلس، وانتقل في كبره إلى دمشق فتوفي فيها. من كتبه: (الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف - ط)، و(التنقيح المشبع في تحرير أحكام المقنع - ط)، و(تحرير المنقول - خ) في أصول الفقه، وشرح (التحبير في شرح التحرير)، و(الدر المنتقى المجموع في تصحيح الخلاف - خ). انظر الأعلام - خير الدين الزركلي - ج٤ - ص ٢٩٢.

(٣) الإنصاف - المرداوي ج١٠ - ص ٢٣٩.

(٤) سير أعلام النبلاء - الذهبي ج ٧ - ص ٣٧٠.

(٥) المستدرك على الصحيحين - النيسابوري ج٣ - ص١٣٠، مسند أحمد - ابن حنبل ج ٦ - ص٣٢٣، مجمع الزوائد - الهيثمي ج ٩ - ص١٣٠.

على أم سلمة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فسمعتها تقول يا شبيب بن ربعي: فأجابها رجل جلف جاف لبيك يا أمتاه، قالت: يسب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ناديكم قال: وأنى ذلك، قالت فعلي بن أبي طالب قال إنّا نقول أشياء نريد عرض الدنيا قالت: فإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول من سبّ علياً فقد سبني ومن سبني فقد سب الله تعالى. وقد أخرجه أحمد، وفي مجمع الزوائد[١].

وروى الهيثمي في (مجمع الزوائد) عن كعب بن عجرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا تسبوا علياً فإنه ممسوس في ذات الله[٢].

وقد أخرج أيضاً عن أبي رافع أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لعلي: من أحبه فقد أحبني ومن أحبني فقد أحبه الله، ومن أبغضه فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله (عزّ وجلّ)[٣].

وأخرج قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا تسبوا علياً فانه من سب علياً فقد سبني ومن سبني فقد سب الله ومن سب الله عذبه الله[٤].

وغيرها الكثير مما هو ثابت في كتب الصحاح والحديث في أن الساب لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) هو ساب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن اقتصرنا على هذه للإشارة والتنبيه.

كما اجمع المسلمون على أنَّ مَنْ سَبَّ رسول الله محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) فإن حكمه القتل، فهذا ابن تيمة الحراني يقول: إن من سب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من مسلم أو كافر فإنه يجب قتله، هذا مذهب أهل العلم، قال ابن المنذر: أجمع عوام ـ أي عامة ـ أهل العلم على أن حد من سب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) القتل: وقد حكى أبو بكر الفارسي[٥] من أصحاب الشافعي إجماع المسلمين على أن حد من يسب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) القتل، كما أن حد من سب غيره الجلد، وهذا الإجماع الذي حكاه هذا محمول على إجماع الصدر الأول من الصحابة أو التابعين، أو أنه أراد به إجماعهم على أن ساب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يجب قتله إذا كان مسلماً، وكذا قيده القاضي

---

(١) المستدرك على الصحيحين ـ النيسابوري ج٣ ـ ص١٢١، مسند أحمد ـ ابن حنبل ج ٦ ـ ص ٣٢٣، مجمع الزوائد ـ الهيثمي ج ٩ ـ ص ١٣٠.

(٢) مجمع الزوائد ـ الهيثمي ج ٩ ـ ص ١٣٠.

(٣) مجمع الزوائد ـ الهيثمي ج ٩ ـ ص ١٣١.

(٤) مجمع الزوائد ـ الهيثمي ج ١١ ـ ص ٢٦٢.

(٥) هو أحمد بن الحسين بن سهل، أبو بكر الفارسي (ت ٣٠٥ هـ): من فقهاء الشافعية، له (عيون المسائل) في نصوص الشافعي. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ١ ـ ص ١١٤.

عياض[١] فقال: اجمعوا على قتل منتقصه - أي الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) - من المسلمين وسابه، وكذلك حكي غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره[٢].

وقد تحصل مما سبق إن ساب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بإجماع المسلمين يجب قتله، وقد عرفت بالدليل الصريح الصحيح عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) إن من سب علياً (عليه السلام) فقد سب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن أبغضه (عليه السلام) أبغض الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ لأنهما نفس واحدة، كما نص به الكتاب العزيز في آية المباهلة حيث انزل علياً منزلة نفس الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله تعالى ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٣]. بل في كثير من الأحكام والوقائع كتبليغ سورة براءة، إذ روى الحاكم في (المستدرك على الصحيحين) قال: حدثنا أحمد بن كامل القاضي حدثنا أحمد بن محمد بن عيسى البرقي حدثنا إسحاق بن بشر الكاهلي حدثنا محمد بن فضيل عن سالم بن أبي حفصة عن جميع بن عمير الليثي قال أتيت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فسألته عن علي رضي الله عنه فانتهرني ثم قال ألا أحدثك عن علي هذا بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في المسجد وهذا بيت علي رضي الله عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بعث أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ببراءة إلى أهل مكة فانطلقا فإذا هما براكب فقالا من هذا قال أنا علي يا أبا بكر هات الكتاب الذي معك قال ومالي قال والله ما علمت إلا خيراً فأخذ علي الكتاب فذهب به ورجع أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى المدينة فقالا ما لنا يا رسول الله قال ما لكما الأخير ولكن قيل لي أنه لا يبلغ عنك إلا أنت أو رجل منك[٤].

وفي (مجمع الزوائد) عن أبي بكر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعثه ببراءة إلى أهل مكة لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ومن كان بينه وبين رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مدة فأجله مدته والله بريء من المشركين ورسوله قال فسار بها ثلاثاً ثم قال لعلي (عليه السلام): ألحقه فرد عليّ أبا بكر

---

(١) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (٤٧٦ - ٥٤٤هـ): عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم، ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، وتوفي بمراكش مسموماً، قيل: سمه يهودي. من تصانيفه: (الشفا بتعريف حقوق المصطفى - ط)، و(ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك - ط)، و(شرح صحيح مسلم - خ)، و(الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع - ط) في مصطلح الحديث وغيرها. انظر الأعلام - خير الدين الزركلي - ج ٥ - ص ٩٩.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول - ابن تيمية ج ٢ - ص ١٣.

(٣) سورة آل عمران: آية ٦١.

(٤) المستدرك على الصحيحين - الحاكم النيسابوري - ج ٣ - ص ٥١.

وبلغها! قال: ففعل فلما قدم على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بكى قال: يا رسول الله حدث فيَّ شيء؟ قال: ما حدث فيك إلا خير، ولكن أمرت ألا يبلغه إلا أنا أو رجل مني. قال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه رواه أحمد ورجاله ثقات[1]. وغير ذلك.

فالحكم يجري هنا أيضاً، فكما وقع الإجماع على أنَّ من سبّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حكمه هو القتل، كذلك يجري على مَنْ سب أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بصريح هذه النصوص المارة، وعلى هذا يكون حكم من سب أمير المؤمنين عليا (عليه السلام) خارج تخصيصاً عن عموم التعزير وحد الجلد لمن سب غير الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كأحد الصحابة بمقتضى عملهم وحكمهم، وعملاً بهذه الروايات الثابتة.

إلا أن فقهاء العامة ومحدثيهم توقفوا في حكم القتل على النواصب، وأداروا ظهورهم لهذه الروايات الصحيحة والصريحة وأغمضوا أعينهم عنها والتي رواها أعاظم محدثيهم وعلمائهم وما سبب هذا التوقف إلا استحياءً ومجاملةً، أو خوفاً وطمعاً، أو لأنه يستلزم سقوط الكثير من رجالهم وضياع مروياتهم، وإسقاط الأخير يجرّ إلى الأول وهكذا حتى يصل الحال إلى ما لا تُحمد عُقباه، فيسقط أشخاص قد وضعوا محلاً للتقديس والنزاهة.. وربما لهذا وغيره توقف كثير من فقهاء الجمهور بحكم القتل تجاه النواصب: على أنهم لم يلتزموا حتى بحكم الفسق والتسقيط!!؟.

وغاية ما يبرر ذلك أن الحكم بالقتل هنا جاء تأويلاً لا تصريحاً منه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيتوقف على القدر المتيقن وهو الجلد والتعزير، وهذا واضح الفساد لكل ذي لب. لأن هناك جملة من الأحكام اشترك بها أمير المؤمنين علي (عليه السلام) مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يشترك معهما أحد، ومنها أن حُكم مَنْ سب عليا، حُكم الساب للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فما يحكم به على من سب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، يجري على من سب الإمام عليا (عليه السلام).

وعلى هذا المبنى والحكم، كان رد واستنكار أم المؤمنين أم سلمة رضي الله تعالى عنها وأرضاها على من سب أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وقد استفادت واستدلت باحتجاجها على النواصب أن الساب لعلي أمير المؤمنين هو ساب لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على نحو التصريح لا التأويل، وهي المرأة العارفة العاقلة المميزة لكلام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقد روى ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) مقالة محمد ابن الحنفية في ما يؤيد هذا. حيث قال: والله ما يشتم عليا إلا كافر، يُسر شتم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ويخاف أن يبوح به، فيكني بشتم عليّ (عليه السلام) عنه[2].

---

(١) مجمع الزوائد - الهيثمي ج٣ - ص٢٣٨ - ٢٣٩.

(٢) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد ج٤ - ص٦٢.

وأشار لهذا المعنى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في دعاءه على ظالميه، فقال: اللهم إني أستعديك[١] على قريش، فإنهم أضمروا لرسولك (صلى الله عليه وآله) ضروباً من الشر والغدر، فعجزوا عنها، وحلت بينهم وبينها، فكانت الوجبة بي، والدائرة عَليّ، اللهم احفظ حسناً وحسيناً، ولا تمكن فجرة قريش منهما ما دمت حيّاً، فإذا توفيتني فأنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد[٢].

وهذا ابن تيمية في رسالته في (الرد على الروافض) يقرر أن من اعتقد بفسق الصحابة أو ارتدادهم أو اعتقاد بجواز سبهم ومنهم الخلفاء الراشدون كما يعتقد النواصب في حق أمير المؤمنين علي (عليه السلام) الخليفة الراشد فقد كفر بالله تعالى ورسوله فيما أخبر، حيث قال: وقد تواتر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يدل على كمال الصحابة (رضي الله عنهم) خصوصاً الخلفاء الراشدين فإن ما ذكر في مدح كل واحد مشهور بل متواتر: لأن نقله ذلك أقوام يستحيل تواطؤهم على الكذب، ويفيد مجموع أخبارهم العلم اليقيني بكمال الصحابة وفضل الخلفاء، فإذا عرفت أن آيات القرآن تكاثرت في فضلهم، والأحاديث المتواترة بمجموعها ناصة على كمالهم، فمن اعتقد فسقهم أو فسق مجموعتهم وارتدادهم وارتداد معظمهم عن الدين أو اعتقد حقية سبهم وإباحته، أو سبهم مع اعتقاد حقية سبهم أو حليته فقد كفر بالله تعالى ورسوله فيما أخبر من فضائلهم وكمالاتهم المستلزمة لبراءتهم عما يوجب الفسق والارتداد وحقية السب أو إباحته، ومن كذبهما فيما ثبت قطعاً صدوره عنهما فقد كفر.

بل أضاف على ذلك: أن من غَيَّر معنى أحاديث فضائلهم إلى غير المعنى المتعارف بينهم فقد حكم بكفره!! خصوصاً لمن تواتر النقل في فضله وكماله كالخلفاء الراشدين، حيث قال: وكذا لو أولها - أي أحاديث فضائلهم - على غير المعنى الذي نعرفه كفر: لأن العلم الحاصل من نصوص القرآن والأحاديث الدالة على فضلهم قطعي، ومن خص بعضهم بالسب فإن كان ممن تواتر النقل في فضله وكماله كالخلفاء فإن اعتقد حقية سبه أو إباحته فقد كفر[٣]: لتكذيبه ما ثبت قطعاً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومكذبه كافر، وإن سبه من غير اعتقاد حقية سبه أو إباحته فقد تفسق لأن سباب المسلم فسوق[٤].

ولا يخفى أن عليا أمير المؤمنين (عليه السلام) من خيرة الصحابة وأحد الخلفاء الراشدين ممن كرمه الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) بفضائل ومدائح، وحاز على كمالات ومناقب، وآيات القرآن الكثيرة تُرتل وتشهد على فضله، والأحاديث المتواترة

---

(١) أستعديك: أطلب أن تعديني عليهم وأن تنتصف لي منهم.

(٢) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد ج٢٠ - ص٢٩٨.

(٣) وليته التزم بما أثبت وقرر!؟.

(٤) رسالة الرد على الروافض - ابن تيمية ج ١ - ص ١٨ - ١٩.

قد تناثرت في الكتب والمصادر تصدح في مدحه، بما لم يجتمع من ذلك لصحابي غيره بين عامة المسلمين من الفريقين.

ومع ذلك ترى الناصبي يعلن شتمه وسبه، ويعمل على خلاف رأيه، وينكر ويحرف فضائله، بل يحترم ويقدس أعداءه ويبرر مواقفهم نكاية به (عليه السلام)، فتأمل وافهم وع.

٢ ـ الناصبي فاسق:

الفسوق في اللغة الخروج، والمراد به في الشرع الخروج عن الطاعة الإلهية والابتعاد عن الحق الواضح والانحراف عنه، وقد اتفق علماء العامة ومحدثيهم على أن الناصبي فاسق فاجر ضال، حيث اجمعوا على أن ساب الصحابي فاسق ضال، وإن سبه كبيرة من الكبائر، فكيف بمن أبغض خليفة المسلمين الراشد أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وعاداه، فضلاً عن سبه وشتمه، وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): سباب المسلم فسوق وقتاله كفر[١]. والسباب هم الشتم والتكلم في عرض الإنسان بما يعيبه.

وحكى ابن عابدين[٢]، عن ابن ملك[٣] في (شرحه لمجمع البحرين): وترد شهادة من يظهر سب السلف لأنه يكون ظاهر الفسق[٤].

وقال الماوردي[٥]: من سب الصحابة أو لعنهم أو كفرهم فهو فاسق مردود الشهادة[٦].

---

(١) صحيح البخاري ـ البخاري ج١ ـ ص١٧ ـ ١٨.

(٢) هو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي (١١٩٨ ـ ١٢٥٢ هـ): فقيه الديار الشامية وإمام الحنفية في عصره. مولده ووفاته في دمشق. له: (رد المحتار على الدر المختار ـ ط) خمسة مجلدات، فقه، يعرف بحاشية ابن عابدين، و(العقود الدرية في تنقيح الفتاوي الحامدية ـ ط)، و(نسمات الأسحار على شرح المنار ـ ط)، و(الرحيق المختوم ـ ط) في الفرائض، و(حواش على تفسير البيضاوي) التزم فيها أن لا يذكر شيئاً ذكره المفسرون وغيرها. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٦ ـ ص ٤٢.

(٣) هو عبد اللطيف بن عبد العزيز بن أمين الدين بن فرشتا الكرماني، المعروف بابن ملك (ت ٨٠١ هـ): فقيه حنفي، من المبرزين. له: (مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار ـ ط) في الحديث، و(شرح تحفة الملوك ـ خ) لمحمد ابن أبي بكر الرازي، فقه، و(شرح مجمع البحرين لابن الساعاتي ـ خ) فقه، و(شرح المنار ـ ط) في الأصول، و(بدر الواعظين وذخر العابدين ـ خ) وغير ذلك. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٤ ـ ص٥٩.

(٤) حاشية رد المختار ـ ابن عابدين ج٤ ـ ص٢٣٧.

(٥) هو علي بن محمد حبيب، أبو الحسن الماوردي (٣٦٤ ـ ٤٥٠ هـ): أقضى قضاة عصره. من العلماء الباحثين، أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة. ولد في البصرة، وانتقل إلى بغداد، وولي القضاء في بلدان كثيرة، ثم جعل (أقضى القضاة) في أيام القائم بأمر الله العباسي، وكان يميل إلى مذهب الاعتزال، وله المكانة الرفيعة عند الخلفاء، وربما توسط بينهم وبين الملوك وكبار الأمراء في ما يصلح به خللاً أو يزيل خلافاً. نسبته إلى بيع ماء الورد، ووفاته ببغداد. من كتبه: (أدب الدنيا والدين ـ ط)، و(الأحكام السلطانية ـ ط)، و(الحاوي ـ خ) في فقه الشافعية، و(نصيحة الملوك ـ خ)، و(تسهيل النظر ـ خ) في سياسة الحكومات، و(أعلام النبوة ـ ط)، و(معرفة الفضائل ـ خ) وغير ذلك. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٤ ـ ص٣٢٧.

(٦) انظر مغني المحتاج ـ الشربيني ج ٤ ـ ص٤٣٦.

وفي (حاشية ابن عابدين): إن مَن سب أحداً من الصحابة فهو فاسق ومبتدع بالإجماع[١].

وحكى الصنعاني عن كتاب (جمع الجوامع والفصول) تصريحه: إن سب الصحابة من الكبائر[٢].

وقال ابن مأكولا[٣] في (الإكمال): وسب أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وتنقيصهم أو لأحد منهم من الكبائر المحرمات وقد لعن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فاعل ذلك[٤].

ونقل المواق الغرناطي[٥] في (التاج والإكليل)، عن القاضي عياض قوله: سب آل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأزواجه وصحبه وتنقيصهم حرام، ملعون فاعله[٦].

واللعن هو الابتعاد والطرد عن الخير وعن رحمة الله عزّ وجلّ.

وقال ابن تيمية في رسالته (الرد على الروافض): .. من خص بعضهم بالسب - أي الصحابة - فان كان ممن تواتر النقل في فضله وكماله كالخلفاء فإن اعتقد حقية سبه أو إباحته فقد كفر، وإن سبه من غير اعتقاد حقية سبه أو إباحته فقد تفسق: لأن سباب المسلم فسوق[٧].

والشمس لا يجللها السحاب أن أمير المؤمنين عليا (عليه السلام) أفضل وأشرف الصحابة وخليفة رسول الله عليهم.

كما أن مرتكب الكبيرة فاسق بإجماع المسلمين تصريحاً لا تأويلاً، كما عن (ثمرات النظر)[٨].

---

(١) حاشية رد المختار - ابن عابدين ج٧ - ص ١٦١.

(٢) ثمرات النظر - الصنعاني ج١ - ص ٩٥.

(٣) هو علي بن هبة الله بن علي بن جعفر، أبو نصر، سعد الملك، من ولد أبي دلف العجلي (٤٢١ - ٤٧٥هـ): أمير، مؤرخ، من العلماء الحفاظ الأدباء. أصله من جرباذقان من نواحي أصبهان، ولد في عكبرا قرب بغداد وسافر إلى الشام ومصر والجزيرة وما وراء النهر وخراسان، وقتله غلمان له من الترك بخوزستان، خارجاً من بغداد، طمعاً بماله. من كتبه: (الإكمال - ط) أربعة مجلدات منه، في المؤتلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب، قال ابن خلكان: لم يوضع مثله، و(تكملة الإكمال - خ) و(الوزراء)، و(تهذيب مستمر الأوهام على ذوي المعرفة وأولي الإفهام - خ). وله شعر حسن. انظر الأعلام - خير الدين الزركلي - ج ٥ - ص ٣٠.

(٤) انظر مواهب الجليل - الرعيني ج٦ - ص٢٨٦.

(٥) هو محمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدري الغرناطي، أبو عبد الله المواق (ت ٨٩٧ هـ): فقيه مالكي: كان عالم غرناطة وإمامها وصالحها في وقته. له: (التاج والإكليل - ط) في شرح مختصر خليل، فقه، و(سنن المهتدين في مقامات الدين - ط). انظر الأعلام - خير الدين الزركلي - ج ٧ - ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٦) التاج والإكليل - المواق ج٦ - ص ٢٨٨.

(٧) الرد على الروافض - ابن تيمية ج ١ - ص ١٩.

(٨) ثمرات النظر - الصنعاني ج ١ - ص ٩٥.

وعلى هذا تحصل أن الناصبي المبغض لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) والساب له فاسق وملعون، بل مبتدع.

وقد وردت جملة من الآيات والروايات في ذم الفاسق منها بعد قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾[١]، ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٢]، ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٖۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[٣].

روي عن عمران بن حُصين قال: نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن إجابة طعام الفاسقين[٤].

وقال الغزالي[٥] في (الإحياء): آفة المدح في المادح انه قد يكذب وقد يرائي الممدوح بمدحه ولا سيما إن كان فاسقاً أو ظالماً. فقد جاء في حديث أنس رفعه: إذا مدح الفاسق غضب الرب[٦].

وعن الأعمش، عن إبراهيم قال: ثلاث كانوا لا يعدونهن من الغيبة: الإمام الجائر، والمبتدع، والفاسق المجاهر بفسقه[٧].

وروي عن قتادة، عن الحسن، رضي الله عنه، قال: ليس بينك وبين الفاسق حرمة[٨].

وعن الربيع بن صبيح، عن الحسن رضي الله عنه، قال ليس لمبتدع غيبة[٩].

وروي عن أبي خلف، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إذا مدح الفاسق غضب الله، واهتز لذلك العرش[١٠].

---

(١) سورة الحجرات: آية ٦.

(٢) سورة البقرة: آية ٩٩.

(٣) سورة التوبة: آية ٦٧.

(٤) مجمع الزوائد ـ الهيثمي ـ ج ٤ ـ ص ٥٤.

(٥) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ): فيلسوف، متصوف. له نحو مئتي مصنف. مولده ووفاته في الطابران، قصبة طوس، بخراسان، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته. نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي) أو إلى غزالة (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف. من كتبه: (إحياء علوم الدين ـ ط)، و(تهافت الفلاسفة ـ ط)، و(الاقتصاد في الاعتقاد ـ ط)، و(معارج القدس في أحوال النفس ـ خ)، و(منهاج العابدين ـ ط)، و(المستصفى من علم الأصول ـ ط)، و(ياقوت التأويل في تفسير التنزيل)، و(عقيدة أهل السنة ـ ط) وغيرها. وله كتب بالفارسية. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٧ ـ ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٦) فتح الباري ـ ابن حجر ـ ج ١٠ ـ ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩.

(٧) كتاب الصمت وآداب اللسان ـ ابن أبي الدنيا ـ ص ١٢٨.

(٨) كتاب الصمت وآداب اللسان ـ ابن أبي الدنيا ـ ص ١٢٨.

(٩) كتاب الصمت وآداب اللسان ـ ابن أبي الدنيا ـ ص ١٢٨.

(١٠) كتاب الصمت وآداب اللسان ـ ابن أبي الدنيا ـ ص ١٢٩.

وعن أبي خلف، عن أنس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إن الله يغضب إذا مدح الفاسق[١].

وروي عن الأعمش عن إبراهيم قال: ثلاث ليس لهم غيبة: الظالم، والفاسق، وصاحب البدعة[٢].

وعن أبي صالح قال: سمعت رافع بن أشرس قال: كان يقال: إن من عقوبة الكذاب، أن لا يقبل صدقه. قال: وأنا أقول: ومن عقوبة الفاسق المبتدع، أن لا تذكر محاسنه[٣].

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: خطبهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: حتى متى ترعون عن ذكر الفاسق هتكوه حتى يحذره الناس[٤].

وغير ذلك كثير من الروايات الشريفة في ذم الفاسق والتجنب عنه وهتكه بين الناس وعدم إظهار الاحترام له.

٣ - الناصبي صاحب بدعة:

البدعة في اللغة هي كل شيء عمل على غير مثال سابق، وفي الشرع هي المحدثات التي ليس لها في الشريعة أصل يشهد لها بالصحة، حيث ابتدعها من غير فعل أو مقال إمام، أي إدخال في الدين ما ليس منه، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار[٥].

قال ابن الأثير[٦]: الابتداع من المخلوقين إن كان في خلاف ما أمر الله تعالى به ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو في حيز الذم والإنكار، وان كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله تعالى إليه وحض عليه أو رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو في حيز المدح[٧].

---

(١) كتاب الصمت وآداب اللسان - ابن أبي الدنيا - ص ١٢٩.

(٢) كتاب الصمت وآداب اللسان - ابن أبي الدنيا - ص ١٢٩.

(٣) كتاب الصمت وآداب اللسان - ابن أبي الدنيا - ص ٢٦٤.

(٤) المعجم الأوسط - الطبراني - ج ٤ - ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

(٥) سنن النسائي - النسائي ج٣ - ص١٨٨ - ١٨٩.

(٦) هو المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري، أبو السعادات، مجد الدين ابن الأثير (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ): المحدث اللغوي الأصولي. ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر، وانتقل إلى الموصل، فاتصل بصاحبها، فكان من أخصائه، وأصيب بالنقرس فبطلت حركة يديه ورجليه، ولازمه هذا المرض إلى أن توفى في إحدى قرى الموصل، قيل: إن تصانيفه كلها ألفها في زمن مرضه، إملاء على طلبته، وهم يعينونه بالنسخ والمراجعة. من كتبه: (النهاية - ط) في غريب الحديث، و(جامع الأصول في أحاديث الرسول - ط) عشرة أجزاء، جمع فيه بين الكتب الستة، و(الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف) في التفسير، و(الشافي في شرح مسند الشافعي - خ) في الحديث، و(تجريد أسماء الصحابة - خ). وهو أخو ابن الأثير المؤرخ، وابن الأثير الكاتب. انظر الأعلام - خير الدين الزركلي - ج ٥ - ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر - ابن الأثير ج١ - ص١٠٦.

قال الأمير الصنعاني[١] في (ثمرات النظر): فمن الابتداع النصب، فالمتصف به مبتدع شر ابتداع فاعل لمحرم تارك لواجب فان محبة علي مأمور بها عموماً وخصوصاً، أما الأول: فلأنه داخل في أدلته وإيجاب محبة أهل الإيمان، وأما الخاصة: فأحاديث لا يأتي عليها العد آمرة بحبه ومخبرة بأنه لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق[٢].

كما أنه عدَّ: النصب من البدع[٣].

وفي (مجموعة الفتاوي) لابن تيمية قال: المنصوص عن أحمد تبديع من توقف في خلافة علي، وقال: هو أضل من حمار أهله، وأمر بهجرانه ونهى عن مناكحته، ولم يتردد أحمد ولا أحد من أئمة السنة في أنه ليس غير علي أولى بالحق منه، ولا شكوا في ذلك فتصويب أحدهما لا بعينه تجويز لأنه يكون غير علي أولى منه بالحق، وهذا لا يقوله إلا مبتدع ضال فيه نوع من النصب، وإن كان متأولاً..[٤].

بل ادعى الإجماع في (حاشية ابن عابدين) فيمن سب أحداً من الصحابة فكيف بمن سب خليفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أو أبغضه، حيث قال: مَنْ سب أحداً من الصحابة فهو فاسق ومبتدع بالإجماع[٥].

حتى أن ابن تيمية جعل الفرح والسرور يوم عاشوراء واتخاذه عيداً من بدع النواصب كما في (منهاج السنة)، إذ قال: السنة ما سنّه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي برية ـ أي بريئة ـ من كل بدعة، فما يفعل يوم عاشوراء من اتخاذه عيداً بدعة أصلها من بدع النواصب[٦].

وقال أبو زرعة الرازي: إذا رأيت رجلاً ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاعلم أنه زنديق[٧].

---

(١) هو محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (١٠٩٩ ـ ١١٨٢ هـ): مجتهد، من بيت الإمامة في اليمن، يلقب (المؤيد بالله) ابن المتوكل على الله، أصيب بمحن كثيرة من الجهلاء والعوام!؟، له نحو مئة مؤلف، ذكر صديق حسن خان: أن أكثرها عنده في الهند). ولد بمدينة كحلان، ونشأ وتوفي بصنعاء. من كتبه: (توضيح الأفكار، شرح تنقيح الأنظار ـ ط) مجلدان في مصطلح الحديث، و(سبل السلام، شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني ـ ط)، و(منحة الغفار) حاشية على ضوء النهار، و(اليواقيت، في المواقيت ـ خ)، و(شرح الجامع الصغير للسيوطي)، وكتاب (ثمرات النظر في علم الأثر) في مصطلح الحديث. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٦ ـ ص ٣٨.

(٢) ثمرات النظر ـ الصنعاني ج ١ ـ ص ٣٠.

(٣) ثمرات النظر ـ الصنعاني ج ١ ـ ص ٣٠.

(٤) مجموعة الفتاوي ـ ابن تيمية ج٤ ـ ص٤٣٨.

(٥) حاشية رد المحتار ـ ابن عابدين ج ٧ ـ ص ١٦١.

(٦) منهاج السنة ـ ابن تيمية ج ٨ ـ ص ١٥٣.

(١) مسند بن راهويه ـ إسحاق بن راهويه ج١ ـ ص٢٦.

وقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذم البدع وأهلها أحاديث كثيرة منها:

عن عرباض بن سارية السُلمي قال صلى لنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الفجر ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت لها الأعين ووجلت منها القلوب، قلنا أو قالوا: يا رسول الله كان هذه موعظة مودع؟ فأوصنا، قال: أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يعش منك يرى بعدى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة[١].

وقد علق ابن حجر في (فتح الباري) على الحديث فقال: وأما قوله في حديث العرباض (فإن كل بدعة ضلالة) بعد قوله (وإياكم ومحدثات الأمور) فإنه يدل على أن المحدث يسمى بدعة وقوله (كل بدعة ضلالة) قاعدة شرعية كلية بمنطوقها ومفهومها، أما منطقوها فكأن يقال: حكم كذا بدعة، وكل بدعة ضلالة، فلا تكون من الشرع: لأن الشرع كله هدى، فإن ثبت أن الحكم المذكور بدعة صحت المقدمتان، وأنتجتا المطلوب، والمراد بقوله (كل بدعة ضلالة) ما أحدث ولا دليل له من الشرع بطريق خاص ولا عام[٢].

وقد روي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إنه قال: أهل البدع شر الخلق والخليقة[٣].

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): إذا رأيتم صاحب بدعة فاكفهروا في وجهه فإن الله يبغض كل مبتدع، ولا يجوز أحد منهم على الصراط ولكن يتهافتون في النار مثل الجراد والذباب[٤].

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): من مشى إلى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الإسلام[٥].

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا يقبل الله لصاحب بدعة صلاة ولا صوماً ولا صدقة ولا حجاً ولا عمرة ولا جهاداً ولا صرفاً ولا عدلاً، يخرج من الإسلام كما تخرج الشعرة من العجين[٦].

وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): من أعرض عن صاحب بدعة بغضاً له ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً، ومن انتهر صاحب بدعة آمنه الله يوم الفزع الأكبر، ومن أهان صاحب بدعة

---

(١) مسند أحمد - ابن حنبل ج٤ - ص١٢٦.

(٢) فتح الباري - ابن حجر ج١٣ - ص٢١٣.

(٣) المعجم الأوسط - الطبراني ج٤ - ص١٩٦.

(٤) كنز العمال - المتقي الهندي ج١ - ص٣٨٨.

(٥) مجمع الزوائد - الهيثمي ج١ - ص١٨٨.

(٦) كنز العمال - المتقي الهندي ج١ - ص٢٢.

رفعه الله في الجنة مائة درجة، ومن سلم على صاحب بدعة أو لقيه بالبشر واستقبله بما يسره فقد استخف بما أنزل الله على محمد[١]. وغير ذلك كثير.

٤ ـ الناصبي منافق:

النفاق أصله في اللغة معروف مأخوذ من النافقاء أحد حُجرِ اليربوع إذا طُلب من أحدها هرب إلى الآخر وخرج منه، وقيل هو من النّفق وهو السّرب الذي يستتر فيه لستره كفره.

وهم اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه: أو هو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه في باب: أو لان صاحبه يكتم خلاف ما يظهر، فكان الإيمان يخرج منه أو يخرج هو من الإيمان في خفاء، وعلى ذلك نبه عزّ وجلّ بقوله ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[٢] أي الخارجون عن الشرع، وجعل الله المنافقين شراً من الكافرين فقال ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٣]، [٤].

ومن هنا تعرف أن النفاق أمر مستور لا يمكن الاطلاع عليه ومعرفته في النفوس إلا من خلال أمارات وعلامات يختبر بها سلوك الإنسان فيعرف إيمانه من نفاقه، وكان أبرز هذه العلامات في عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والصحابة هي حب علي بن أبي طالب (عليه السلام) علامة على الإيمان، وإن بغضه علامة تدل على النفاق.

وقد ورد في (مستدرك الصحيحين) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: ما كنا نعرف المنافقين إلا بتكذيبهم الله ورسوله، والتخلف عن الصلوات، والبغض لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)[٥].

وفي (صحيح الترمذي) عن أبي سعيد الخدري قال: إنا كنّا نعرف المنافقين ـ نحن معاشر الأنصار ـ ببغضهم عليّ بن أبي طالب[٦].

على أن هذه الميزة والعلامة أثبتها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأرسى دعامتها الذي ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾[٧] بجملة من الروايات المستفيضة الصحيحة التي تشير إلى أن حب علي من الإيمان وبغضه من النفاق، ففي (صحيح الترمذي) و(كنز العمال) عن أم سلمة قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: لا يحب علياً منافق ولا يبغضه مؤمن[٨].

---

(١) كنز العمال ـ المتقي الهندي ج٣ ـ ص٨٢.

(٢) سورة التوبة: آية ٦٧.

(٣) سورة النساء: آية ١٤٥.

(٤) انظر المفردات ـ الأصبهاني، معجم مقاييس اللغة ـ ابن فارس، النهاية ـ ابن الأثير (مادة نفق).

(٥) مستدرك الصحيحين ـ النيسابوري ج ٣ ـ ص١٣٩.

(٦) صحيح الترمذي ـ الترمذي ج٥ ـ ص٦٣٥.

(٧) سورة النجم: آية ٣ ـ ٥.

(٨) صحيح الترمذي ـ الترمذي ج ٥ ـ ص ٦٣٤، كنز العمال ـ المتقي الهندي ج ١١ ـ ص٢٧٦.

وهذا مُسلم بن الحجاج النيسابوري عقد باباً في (صحيحه) أسماه الدليل على حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان[١]، وروى عن علي (عليه السلام): والذي فلق الحبة وبرأ النسمة أنه تعهد النبي الأمي (صلى الله عليه وآله وسلم) إليّ: أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق)[٢]، وأخرجه الترمذي وقال حسن صحيح، والمتقي الهندي وغيرها كثير.

وفي (ثمرات النظر) قال الصنعاني بعد أن عَدَّ النصب من البدع: لأدلة وجوب محبة أهل الإيمان.. فأدلته طافحة كما في (صحيح مسلم) مرفوعاً: لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا[٣].. ثم قال: فالمتصف به مبتدع شر ابتداع أيضاً فاعل لمحرم تارك لواجب، فإن محبة علي رضي الله عنه مأمور بها عموماً وخصوصاً، أما الأول: فلأنه داخل في أدلته وإيجاب محبة أهل البيت، وأما الخاصة: فأحاديث لا يأتي عليها العد آمرة بحبه ومخبرة بأنه لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق)[٤].

والإيمان لا بد أن يكون إيماناً تاماً خالصاً كاملاً بجميع ما أنزل الله تعالى وشرع، وبكل ما نص عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وسنه من سيرته ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[٥]، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٦]. وهؤلاء النواصب ببغضهم لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) وسبهم له، خالفوا كلام الله عزّ وجلّ، ولم يتمسكوا بما قاله رسول الله (ص) في فضل أمير المؤمنين علي (عليه السلام) والثناء عليه وبيان علو شأنه ومقامه.

قال ابن تيمية في رسالته في (الرد على الروافض): إن العلم الحاصل من نصوص القرآن والأحاديث الدالة على فضلهم ـ أي الصحابة ـ قطعي ومن خص بعضهم بالسب فإن كان ممن تواتر النقل في فضله وكماله كالخلفاء فإن اعتقد حقية سبه أو إباحته فقد كفر: لتكذيبه ما ثبت قطعاً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومكذبه كافر...[٧]

ومنها ما أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد) عن أبي رافع أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لعلي: من أحبه فقد أحبني ومن أحبني فقد أحبه الله، ومن أبغضه فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله عزّ وجلّ[٨].

---

(١) صحيح مسلم ـ النيسابوري ج١ ـ ص٦٠.
(٢) صحيح مسلم ـ النيسابوري ج١ ـ ص٦٠ ـ ٦١.
(٣) ثمرات النظر ـ الصنعاني ج١ ـ ص٣٠.
(٤) ثمرات النظر ـ الصنعاني ج١ ـ ص ٣٦.
(٥) سورة الأحزاب: آية ٣٦.
(٦) سورة الحشر: آية ٧.
(٧) الرد على الروافض ـ ابن تيمية ج ١ ـ ص ١٩.
(٨) مجمع الزوائد ـ الهيثمي ج ٩ ـ ص١٣١.

وفي واقعة خيبر قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حق علي (عليه السلام): والله لأعطين الراية غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله ويحب الله ورسوله كرار غير فرار..[١] وغيرها كثير.

فالله عزّ وجلّ ورسوله الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) يقرران حب علي ويقرنانه بحب الله ورسوله وبغضه بغض الله ورسوله، لأنه (عليه السلام) يحبه الله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم)، والناصبي يقول وإن كان كذلك فأنا أبغض علي (عليه السلام)، وأسبه وأعاديه وأحاربه، أليس هذا مروقاً في الدين، وخروجاً عن أوامر الله تعالى ونواهيه، وعصياناً لقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخروجاً عن الملة والشريعة.

فإن النواصب من أظهر مصاديق المخاطبين والموصوفين بقوله تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢]، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[٣]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[٤].

وقد روي عن أبي البختري عن أبي سعيد قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما: القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأي المدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه[٥].

وعن صفوان بن محرز المازني، قال: بينما نحن مع عبد الله بن عمر وهو يطوف بالبيت إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر! كيف سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يذكر في النجوى؟ قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: يدنى المؤمن من ربه يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه. ثم يقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: يا رب أعرف. حتى إذا بلغ منه ما شاء الله أن يبلغ قال: إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. قال، ثم يعطى صحيفة حسناته، أو كتابه، بيمينه. قال: وأما الكافر

---

(١) صحيح البخاري - البخاري ج٤ - ص٢٠.

(٢) سورة البقرة: آية ٨٥.

(٣) سورة البقرة: آية ٨٦.

(٤) سورة النساء: آية ١٥٠ - ١٥١.

(٥) مسند أحمد - ابن حنبل - ج ٣ - ص ١٧.

أو المنافق فينادى على رؤوس الإشهاد.. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1][2].

وروى عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): سباب المسلم فسوق وقتاله كفر. هذا حديث حسن صحيح[3].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): نية المؤمن خير من عمله، وعمل المنافق خير من نيته، وكل يعمل على نيته، فإذا عمل المؤمن عملاً ثار في قلبه نور[4].

فكيف تكون عاقبتهم؟! وأين محل قرارهم؟! وإلى أي حال تنقلب بهم الأمور؟!

قال ابن حجر في (فتح الباري): قال العلماء: عذاب المنافق أشد من عذاب الكافر لاستهزائه بالدين. قال ربنا الباري تقدست أسماؤه ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ..﴾[5].

وروي عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان[6].

وعن أبي عثمان النهدي قال: سمعت عمر بن الخطاب وهو على منبر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أكثر من عدد أصابعي هذه وهو يقول: إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة: المنافق العليم. قيل: وكيف يكون المنافق العليم؟! قال: عالم اللسان جاهل القلب والعمل[7].

وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أكثر منافقي أمتي قراؤها[8].

وعن سليم بن عامر عن معاوية الهذلي - وكان من أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) - قال: إن المنافق ليصلي فيكذبه الله عزّ وجلّ، ويصوم فيكذبه الله عزّ وجلّ، ويتصدق فيكذبه الله، ويجاهد فيكذبه الله ويقاتل، فيقتل فيجعل في النار[9].

---

(١) سورة هود: آية١٨.

(٢) سنن ابن ماجة - ابن ماجة - ج ١ - ص ٦٥.

(٣) سنن الترمذي - الترمذي - ج ٤ - ص ١٣١ - ١٣٢.

(٤) مجمع الزوائد - الهيثمي - ج ١ - ص ٦١.

(٥) فتح الباري - ابن حجر ج ٨ - ص ٢٦٦.

(٦) صفة المنافق - الفريابي - ص ٦٧.

(٧) صفة المنافق - الفريابي - ص ٦٩.

(٨) صفة المنافق - الفريابي - ص ٧٣.

(٩) صفة المنافق - الفريابي - ص ٨٦.

وعن المبارك بن فضالة حدثنا الحسن - في هذه الآية: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ قال: هو المنافق: لا يهوى شيئاً إلا ركبه[١].

وعن أبي الأشهب قال: قال الحسن: من النفاق اختلاف اللسان والقلب، واختلاف السر والعلانية، واختلاف الدخول والخروج[٢].

وعن حبيب بن فضالة قال: كان بعض المهاجرين يقول: والله، ما أخاف المسلم ولا أخاف الكافر: أما المسلم فيحجزه إسلامه، وأما الكافر فقد أذله الله عزّ وجلّ؛ ولكن كيف لي بالمنافق[٣].

وعن محبوب بن أبي الزناد المديني قال قالت الأنصار: إن كنا لنعرف الرجل لغير أبيه ببغضه علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٤].

وعن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا يبغض عليا إلا منافق أو فاسق أو صاحب دنيا [٥].

وروى الهيثمي عن بريدة - يعنى ابن الحصيب - قال: أبغضت علياً بغضاً لم أبغضه أحداً قط. قال: وأحببت رجلاً من قريش لم أحبه إلا على بغضه عليا رضي الله عنه! قال: فبعث ذلك الرجل على جيش فصحبته، ما صحبته إلا ببغضه عليا رضي الله عنه! قال: فأصبنا سبايا، فكتب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إبعث إلينا من يخمسه؟ قال: فبعث عليا رضي الله عنه. وفى السبي وصيفة هي أفضل السبي. قال: فخمس وقسم، فخرج ورأسه يقطر! فقلنا: يا أبا الحسن ما هذا؟ قال: ألم تروا إلى الوصيفة التي كانت في السبي، فإني قسمت وخمست فصارت في الخمس، ثم صارت في أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ثم صارت في آل علي، فوقعت بها. قال: فكتب الرجل إلى نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقلت: ابعثني مصدقاً. قال: فجعلت أقرأ الكتاب وأقول صدق، قال: فامسك يدي والكتاب! وقال: أتبغض عليا؟ قال: قلت: نعم! قال: فلا تبغضه، وإن كنت تحبه فازدد له حباً، فوالذي نفس محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بيده لنصيب آل علي في الخمس أفضل من وصيفة!! قال: فما كان أحد من الناس بعد قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أحب إليّ من علي. قال عبد الله - يعني ابن بريدة - : فوالذي لا إله غيره ما بيني وبين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا الحديث إلا أبو بريدة. قلت: في الصحيح بعضه رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عبد الجليل بن عطية وهو ثقة وقد صرح بالسماع[٦].

---

(١) صفة المنافق - الفريابي - ص ٨٧.

(٢) صفة المنافق - الفريابي - ص ٩٠.

(٣) صفة المنافق - الفريابي - ص ١٠٠ - ١٠٢.

(٤) إكمال الكمال - ابن ماكولا - ج ٤ - ص ٢٠٠.

(٥) تاريخ مدينة دمشق - ابن عساكر - ج ٤٢ - ص ٢٨٥.

(٦) مجمع الزوائد - الهيثمي - ج ٩ - ص ١٢٧.

وعن جابر بن عبد الله قال: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا ببغضهم عليا.

وعن زهير أبو خيثمة عن أبي الزبير عن جابر قال: كنا نعرف نفاق الرجل منا ببغضه عليا.

وعن معاوية بن عمار عن أبي الزبير قال: سئل جابر عن علي فقال: ما كنا نعرف منافقي هذه الأمة إلا ببغضهم عليا.

وعن ابن أبي ليلى عن أبي الزبير عن جابر قال كنا نعرف المنافقين ببغض علي بن أبي طالب.

وعن الوليد بن عبادة بن الصامت عن أبيه قال: كنا ننور أولادنا بحب علي بن أبي طالب، فإذا رأينا أحداً لا يحب علي بن أبي طالب علمنا أنه ليس منا، وأنه لغير رشدة![1].

وعن مالك بن أنس عن محبوب بن أبي الزناد قال: قالت الأنصار: إن كنا لنعرف الرجل إلى غير أبيه ببغضه علي بن أبي طالب[2].

روى أبو شجاع بن شيرويه ـ معاوية بن حيدة ـ عن النبي: من مات وفي قلبه بغض علي بن أبي طالب فليمت يهودياً أو نصرانياً[3].

ـ عدالة الصحابة عند أهل السنة:

أجمع علماء أهل السنة على عدالة الصحابة وكمالهم جميعاً، فهذا ابن حجر في (الإصابة في تمييز الصحابة) يقول: (اتفق أهل السنة على أن الجميع ـ أي الصحابة ـ عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شذوذ من المبتدعة)[4].

وقال النووي[5]: (الصحابة كلهم عدول من لابس الفتن وغيرهم بإجماع من يعتد به)[6].

---

(١) لغير رشدة: يقرأ بفتح الراء وكسرها وقيل بالكسر أفصح، أي ابن زنا.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ـ ج ٤٢ ـ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨.

(٣) فردوس الأخبار ـ الديلمي ج ٣ ـ ص ٥٠٨.

(٤) الإصابة ـ ابن حجر ج١ ـ ص١٦٢.

(٥) هو يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين (٦٣١ ـ ٦٧٦ هـ): علامة بالفقه والحديث. مولده ووفاته في نوا من قرى حوران، بسورية، واليها نسبته. تعلم في دمشق، وأقام بها زمناً طويلاً. من كتبه: (منهاج الطالبين ـ ط)، و(تصحيح التنبيه ـ ط) في فقه الشافعية، و(المنهاج في شرح صحيح مسلم ـ ط)، و(التقريب والتيسير ـ ط) في مصطلح الحديث، و(رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ـ ط)، و(شرح المهذب للشيرازي ـ ط)، و(الإشارات إلى بيان أسماء المبهمات ـ ط)، و(الأربعون حديثا النووية ـ ط) شرحها كثيرون وغير ذلك. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٨ ـ ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٦) انظر الإصابة ـ ابن حجر ج١ ـ ص٢٢.

والخطيب البغدادي[١] في (كفايته) قال: (هذا مذهب كافة العلماء - أي عدالتهم - ومن بعدهم أبد الآبدين)[٢].

وهذا هو الرأي السائد والمشهور عند علماء أهل السنة، بناء على المفهوم اللغوي لكلمة الصحبة، بل وسعوا هذا المصطلح ليشمل كل من رآه من بعيد ولو يسيرا، وإن لم يكلمه، ولم يسمع منه حديثاً واحداً.

ولكن مقتضى الفطرة السليمة والعقل الخالي عن السقم والمنطق العقلاني الراجح أن القدر المتيقن الذي يؤخذ به من مفهوم الصحبة لكل ذي عينين، أنه ما لم يتلبس أو يخرج ببدعة أو نفاق أو انحراف عن الدين والملة التي أمر بها الله عزّ وجلّ وسنها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والتزمها الصحابة الكرام (رض)، في حياة النبي وبعد وفاته (صلى الله عليه وآله وسلم).

والناصبي بنص كلام هؤلاء العلماء ومفهومه وغيرهم من أهل السنة والجماعة ومن عُقِد بهم الإجماع وعملوا به وأثبتوه اتفاقاً، هو مَنْ ابتدع في الدين، ونافق عن الإيمان، وفسق عن الصراط المستقيم وانحرف عنه - كما مرَّ عليك - بمخالفة ما ثبت قطعاً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خصوصاً في سب أحد الخلفاء الراشدين وبغضهم والاعتقاد بفسقهم كبغض أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وسبه ولعنه.

ومن هؤلاء ابن تيمية في رسالته (في الرد على الروافض) حكم بكفر هؤلاء، لأن النصب يستلزم تكذيب الرسول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ومكذبه كافر، حيث قال: وقد تواتر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما يدل على كمال الصحابة رضي الله عنهم خصوصاً الخلفاء الراشدين فإن ما ذكر في مدح كل واحد مشهور بل متواتر لأن نقله ذلك أقوام يستحيل تواطؤهم على الكذب يفيد مجموع أخبارهم العلم اليقيني بكمال الصحابة وفضل الخلفاء فإذا عرفت أن آيات القرآن تكاثرت في فضلهم والأحاديث المتواترة

---

(١) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب البغدادي (٣٩٢ - ٤٦٣ هـ): أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين. مولده في (غزية) - بصيغة التصغير - منتصف الطريق بين الكوفة ومكة، ومنشؤه ووفاته ببغداد. رحل إلى مكة وسمع بالبصرة والدينور والكوفة وغيرها، وعاد إلى بغداد فقربه رئيس الرؤساء ابن مسلمة (وزير القائم العباسي) وعرف قدره، ثم حدثت شؤون خرج على أثرها مستتراً إلى الشام، فأقام مدة في دمشق وصور وطرابلس وحلب، سنة ٤٦٢ هـ، ولما مرض مرضه الأخير وقف كتبه وفرق جميع ماله في وجوه البر وعلى أهل العلم والحديث، وكان فصيح اللهجة عارفا بالأدب، يقول الشعر. ولوعاً بالمطالعة والتأليف، ذكر ياقوت أسماء ٥٦ كتاباً من مصنفاته، من أفضلها: (تاريخ بغداد - ط)، و(الكفاية في علم الرواية - ط) في مصطلح الحديث، و(الجامع، لأخلاق الراوي وآداب السامع - خ)، و(تقييد العلم - ط)، و(الرحلة في طلب الحديث - خ)، و(الأسماء المبهمة - خ)، و(الفقيه والمتفقه - خ) وغيرها. انظر الأعلام - خير الدين الزركلي - ج ١ - ص ١٧٢.

(٢) الكفاية - الخطيب البغدادي ص٤٩.

بمجموعها ناصة على كمالهم فمن اعتقد فسقهم أو فسق مجموعتهم وارتداد معظمهم عن الدين أو اعتقد حقية سبهم وإباحته أو سبهم مع اعتقاد حقية سبهم أو حليته فقد كفر بالله تعالى ورسوله فيما أخبر من فضائلهم وكمالاتهم المستلزمة لبراءتهم عندما يوجب الفسق والارتداد وحقية السب أو إباحته ومن كذبهما فيما ثبت قطعاً صدوره عنهما فقد كفر.. وكذا لو أولها - أي أحاديث فضائلهم - على غير المعنى الذي نعرفه كفر؛ لأن العلم الحاصل من نصوص القرآن والأحاديث الدالة على فضلهم قطعي ومن خص بعضهم بالسب فإن كان ممن تواتر النقل في فضله وكماله كالخلفاء فإن اعتقد حقية سبه أو إباحته فقد كفر لتكذيبه ما ثبت قطعاً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومكذبه كافر، وإن سبه من غير اعتقاد حقية سبه أو إباحته فقد تفسق لأن سباب المسلم فسوق[1].

قال مسلم النيسابوري في (صحيحه): ما كان منها عن أهل التهم والمعاندين من أهل البدع والدليل على أن الذي قلنا من هذا هو اللازم دون ما خالفه قول الله جل ذكره ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ وقال جل ثناؤه ﴿ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ وقال عزّ وجلّ ﴿ وَأَشْهِدُواْ ذَوَيْ عَدْلٖ مِّنكُمْ ﴾ فدل بما ذكرنا من هذه الآية أن خبر الفاسق ساقط غير مقبول وأن شهادة غير العدل مردودة، والخبر وإن فارق معناه معنى الشهادة في بعض الوجوه فقد يجتمعان في أعظم معانيهما، إذ كان خبر الفاسق غير مقبول عند أهل العلم كما أن شهادته مردودة عند جميعهم ودلت السنة على نفي رواية المنكر من الأخبار كنحو دلالة القرآن على نفي خبر الفاسق وهو الأثر المشهور عن رسول الله (صلى الله عليه وآله سلم) من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين[2].

عدالة الناصبي:

بعد أن عرفت من هو الناصبي من خلال أقوال جملة من علماء أهل السنة وكلماتهم، وما أفتوا به من خلال مدوناتهم، وبعض ما أجمعوا عليه في حكم الناصبي، وحيث أنهم من علماء الإسلام، ومحدثيهم، وموثقي رواياتهم، بمعنى أنهم حفاظ للشريعة وأمناء عليها، والعاقل لا يكذب نفسه أو يخالف قوله أو ينقض غرضه، وقد مرَّ أنهم حكموا على الناصبي أنه فاسق، مبتدع، منافق، يستحق الجلد والتعزير، إن لم يصل إلى حد القتل.

وبناء على هذا نتساءل هل يمكن قبول رواية الناصبي والأخذ بها واعتمادها حجة بيننا وبين الله عزّ وجلّ في إثبات تكاليف أحكام الشريعة الإسلامية أو رفعها عنا، تنجيزاً أو تعذيراً، والإيمان بالعقائد الإسلامية التي يرويها، والأخذ بالمرويات التاريخية التي ينقلها، خصوصاً في تصوير وتوضيح معالم التاريخ الإسلامي وسيرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

---

(١) الرد على الروافض - ابن تيمية ج ١ - ص ١٨ - ١٩.

(٢) صحيح مسلم - النيسابوري - ج ١ - ص ٦ - ٧.

وما جرى بعده بصدق وأمانة، سؤال يطرح نفسه كثيراً لمن يعقل ويتأمل؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[١].

ولكن ويا للأسف المجيب عنه من علماء أهل السنة القليل النادر!!

إما هرباً دفعاً للقيل والقال عنه، فيبرر للناصبي بما لا يقال ولا يعقل!!، أو طمعاً وتزلفاً للسلطة الحاكمة، وأغلب هؤلاء النواصب من أركانها وعلماءها، أو أن شبيه الشيء منجذب إليه، فلا يرى في النصب من بأس!!، أو ربما حقيقة الجواب تجر إلى التشكيك في بعض الشخصيات التي أعطوها صبغة القداسة والنزاهة، وقد تكشف الغطاء عنهم، وتهلهل البديهيات الثابتة التي زرعوها في نفوسهم وفي عقول الآخرين، مما يدفع إلى سقوط هالة الكثير من هؤلاء الرجال، وقد تُطرح الكثير من المرويات، ويضيع إرث وتراث شيده أهل الملك وأصحاب السياسات والمصالح الدنيوية، ودَفن ما برروه لبقاء حكمهم وتسلطهم الذي قام بالدماء والحروب والقهر، فتنسحب الأخيرة إلى الأولى وهكذا حتى يتهدم البنيان، وهذا ما لا يستسيغه أهل العصبية والجاهلية، وأصحاب النيات السيئة، وإن عرفوا وتيقنوا أن هذا الموقف بعيد عن الدين والعقل وحرية الفكر، ويؤدي إلى وأد الحقيقة وطمسها بالتبريرات الواهية. ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[٢].

ولكن صرح أئمة النقد من علماء العامة إنهم إذا تكلموا في الجرح والتعديل ـ للراوي ـ فإنهم ينظرون إلى أمرين أساسيين، وهما: العدالة والضبط[٣]. حيث جعلوهما أساس قبول رواية الراوي والعمل بروايته، وقد ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما رووا قوله: (لا تحدثوا عمن لا تعملون بشهادته)[٤]، وقد أجمع الفقهاء على أن شرط قبول شهادة الشاهد هو العدالة، حكى ابن عابدين عن العيني[٥] في (شرح المجمع): لا تقبل شهادة من يُظهر سب السلف بالإجماع[٦]. وعُلل ذلك بسقوط العدالة بسب المسلم.

---

(١) سورة ق: آية ٣٧.

(٢) سورة النمل: آية ١٤.

(٣) معرفة الثقات ـ ابن حبان ج ١ ـ ص ١٣٥.

(٤) أصول السرخسي ـ أبي بكر السرخسي ج١ ـ ص٣٧٠، الجرح والتعديل ـ الرازي ج٢ ـ ص٣١.

(٥) هو محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد، أبو محمد، بدر الدين العيني الحنفي (٧٦٢ ـ ٨٥٥ هـ): مؤرخ، علامة. من كبار المحدثين. أصله من حلب ومولده في عينتاب، وإليها نسبته، أقام مدة في حلب ومصر ودمشق والقدس. وولي في القاهرة الحسبة وقضاء الحنفية ونظر السجون، وتقرب من الملك المؤيد حتى عد من أخصائه. ولما ولي الأشرف سامره ولزمه، وكان يكرمه ويقدمه. ثم صرف عن وظائفه، وعكف على التدريس والتصنيف إلى أن توفي بالقاهرة. من كتبه: (عمدة القاري في شرح البخاري ـ ط)، و(مغاني الأخيار في رجال معاني الآثار ـ خ) في مصطلح الحديث ورجاله، و(العلم الهيب في شرح الكلم الطيب ـ خ) لابن تيمية. و(مباني الأخبار في شرح معاني الآثار ـ خ) حديث، و(نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار ـ خ). و(البناية في شرح الهداية ـ ط) في فقه الحنفية، و(شرح سنن أبي داود ـ خ)، و(شرح المجمع) وغيرها. وله بالتركية (تاريخ الأكاسرة). انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٧ ـ ص١٦٣.

(٦) تكملة حاشية رد المحتار ـ ابن عابدين ج١ ـ ص٥٨٠.

وحكى عن أبي يوسف[١] قوله: لا أقبل شهادة من يشتم أصحابه عليه الصلاة والسلام: لأنه لو شتم واحداً من الناس لم تقبل شهادته فها هنا أولى كما في (المحيط)[٢].

وكذا أفاده الزيلعي[٣] بقوله: أو يظهر سب السلف يعني الصالحين منهم وهم الصحابة والتابعون لأن هذه الأشياء تدل على قصور عقله وقلة مروءته، ومن لم يمتنع عن مثلها لا يمتنع عن الكذب عادة[٤]. على أنه لا يمكن الاعتماد على ظاهر العدالة بل لا بد من البحث والتفحص عن أحوال الراوي خصوصاً، وبهذا صرح الفقيه الحنفي الشيخ عبد العزيز البخاري[٥] في (كشف الأسرار): ولأن في رواية الحديث معنى الإلزام فلا بد من أن يعتمد فيه دليل ملزم وهو العدالة التي تظهر بالتفحص عن أحوال الراوي ولا اعتبار بظاهر العدالة[٦].

إذا فما هي العدالة؟ ومَن هو العدل؟

ذكر الجرجاني[٧] في (التعريفات): العدالة في اللغة الاستقامة، وفي الشريعة عبارة عن الاستقامة على طريق الحق بالاجتناب عما هو محظور ديناً[٨]. لان غير العدل لم يبالِ بارتكاب

---

(١) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، أبو يوسف (١١٣ ـ ١٨٢ هـ): صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وأول من نشر مذهبه. كان فقيها علامة، من حفاظ الحديث. ولد بالكوفة، وتفقه بالحديث والرواية، ثم لزم أبا حنيفة، فغلب عليه (الرأي) وولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد، ومات في خلافته، ببغداد، وهو على القضاء. وهو أول من دعي (قاضي القضاة) ويقال له: قاضي قضاة الدنيا!، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب. من كتبه: (الخراج ـ ط)، و(الآثار ـ ط) وهو مسند أبي حنيفة، و(أدب القاضي)، و(الأمالي في الفقه)، و(الفرائض)، و(الجوامع) في أربعين فصلاً، ألفه ليحيى بن خالد البرمكي، ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ به. وغيرها. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٨ ـ ص١٩٣.

(٢) تكملة حاشية رد المحتار ـ ابن عابدين ج١ ـ ص٥٧٩.

(٣) هو عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي، أبو محمد، جمال الدين (ت ٧٦٢ هـ): فقيه، عالم بالحديث. أصله من الزيلع في الصومال، ووفاته في القاهرة. من كتبه: (نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية ـ ط) في مذهب الحنفية، و(تخريج أحاديث الكشاف ـ خ). وهو غير الزيلعي (عثمان) شارح الكنز. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٤ ـ ص ١٤٧.

(٤) حاشية رد المحتار ـ ابن عابدين ج ٤ ـ ص٢٣٧.

(٥) هو عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري (ت ٧٣٠ هـ): فقيه حنفي من علماء الأصول. من أهل بخارى. له تصانيف، منها: (شرح أصول البزدوي ـ ط) مجلدان، سماه (كشف الأسرار)، و(شرح المنتخب الحسامي ـ ط). انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج٤ ـ ص ١٣.

(٦) كشف الأسرار ـ البخاري ج ٣ ـ ص ٢٩.

(٧) هو علي بن محمد بن علي، المعروف بالشريف الجرجاني (٧٤٠ ـ ٨١٦ هـ): فيلسوف. من كبار العلماء بالعربية. ولد في تاكو قرب استراباد، ودرس في شيراز. ولما دخلها تيمور سنة ٧٨٩ هـ فر الجرجاني إلى سمرقند. ثم عاد إلى شيراز بعد موت تيمور، فأقام إلى أن توفي. له نحو خمسين مصنفا، منها: (التعريفات ـ ط)، و(شرح مواقف الإيجي ـ ط)، و(مقاليد العلوم ـ خ)، و(تحقيق الكليات ـ خ)، و(رسالة في فن أصول الحديث ـ ط)و غيرها. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٥ ـ ص ٧.

(٨) التعريفات ـ الجرجاني ج١ ـ ص ١٩١.

جميع المحظورات مع اعتقاد حرمتها فالظاهر أنه لا يبالي من الكذب مع اعتقاد حرمتَه، فعرفنا أن العدالة في الراوي شرط لكون خبره حجة، كما قاله البخاري في (كشف الأسرار)[١].

وأما العدل فهو مَن له ملكة تحمله على ملازمة التقوى والمروءة، كما عرّفه المناوي[٢] في (اليواقيت والدرر)[٣]، ثم فسّر التقوى بأنها: اجتناب الأعمال السيئة من شرك أو فسق أو بدعة[٤]. وقال ابن حبان[٥]: إن العدل من لم يعرف فيه الجرح[٦].

فهل هذه الصفات تنطبق على الراوي الناصبي؟ وهل يمكن الركون إلى مروياته؟ وهل يمكن إحراز العدالة فيه؟، وتأنس النفس الصادقة مع ربها إلى ذلك؟ وقد ثبت بنص علماء أهل السنة ـ كما سبق ـ فسقه، وابتداعه، ونفاقه، ووجوب تعزيره، ونِعمَ ما قاله العلامة المحدث (محمود سعيد ممدوح) في كتابه (رفع المنارة): النواصب مجروحون بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق) ففض يدك من جَرح النواصب تسلم[٧].

---

(١) كشف الأسرار ـ البخاري ج ٢ ـ ص ٥٧٢.

(٢) هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، زين الدين (٩٥٢ ـ ١٠٣١ هـ): من كبار العلماء بالدين والفنون. انزوى للبحث والتصنيف، وكان قليل الطعام كثير السهر. فمرض وضعفت أطرافه، فجعل ولده تاج الدين محمد يستملي منه تآليفه. له نحو ثمانين مصنفاً، منها الكبير والصغير، والتام والناقص. عاش في القاهرة وتوفي بها. من كتبه: (كنوز الحقائق ـ ط) في الحديث، و(التيسير ـ ط) في شرح الجامع الصغير، مجلدان، اختصره من شرحه الكبير (فيض القدير ـ ط). و(اليواقيت والدرر ـ خ) في الحديث، و(الصفوة ـ خ) في مناقب آل البيت، و(تاريخ الخلفاء) وغيرها. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٦ ـ ص ٢٠٤.

(٣) اليواقيت والدرر ـ المناوي ج ١ ـ ص ٣٣٥.

(٤) اليواقيت والدرر ـ المناوي ج ١ ـ ص ٣٣٧.

(٥) هو محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي، أبو حاتم البستي، ويقال له ابن حبان (ت ٣٥٤هـ): مؤرخ، علامة، جغرافي، محدث. ولد في بست من بلاد سجستان، وتنقل في الأقطار، فرحل إلى خراسان والشام ومصر والعراق والجزيرة، وتولى قضاء سمرقند مدة، ثم عاد إلى نيسابور، ومنها إلى بلده، حيث توفي في عشر الثمانين من عمره، وهو أحد المكثرين من التصنيف. قال ياقوت: أخرج من علوم الحديث ما عجز عنه غيره، وكانت الرحلة في خراسان إلى مصنفاته. من كتبه: (المسند الصحيح) في الحديث، يقال: إنه أصح من سنن ابن ماجة، و(الأنواع والتقاسيم ـ خ) في الأزهرية، جمع فيه ما في الكتب الستة، محذوفة الأسانيد، و(معرفة المجروحين من المحدثين ـ خ)، و(الثقات ـ خ) وغيرها. وكان قد جمع مؤلفاته في دار رسمها بها في بلدته (بست) ووقفها ليطالعها الناس، وقرئ عليه أكثرها. انظر الأعلام ـ خير الدين الزركلي ـ ج ٦ ـ ص ٧٨.

(٦) انظر المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين ـ ابن حبان مقدمة المحقق ج١ ـ ص١١.

(٧) رفع المنارة ـ محمود سعيد ممدوح ص١٥٢.

وقد استغرب محقق كتاب (تهذيب الكمال) الدكتور بشار عواد معروف الأعظمي من توثيق بعض علماء الرجال لمن ثبت في حقه النصب، حيث قال: قلت: كيف يكون الناصبي ثقة؟! وقد ثبت عن الرجل أنه كان يبغض سيدنا عليا ويحمل عليه!!، فتأمل. نسأل الله السلامة من الأهواء[1].

ولكن تجد مَن يبرر لبعض الرواة الفسقة والنواصب ويحاول تمرير مروياته على أهل العلم وعامة الناس، ولكن هاك رداً من الشيخ عبد العزيز البخاري في كتاب (كشف الأسرار)[2] على من أراد تبرير ذلك بالقول: زعم بعض المشايخ أن في رواية الفاسق يجب تحكيم الرأي فان كان اكبر رأي السامع أنه صادق وجب عليه أن يعمل به استدلالاً بها إذا اخبر بنجاسة الماء أو طهارته أو بحل الطعام وحرمته فانه يجب تحكيم الرأي فيه مع أنه أمر ديني فكذلك هاهنا.

فأجاب الشيخ البخاري عن ذلك ورده بقوله: خبره في الدين أي نقله للحديث غير مقبول أصلا سواء وقع في قلب السامع صدقه أم لا، لأن الخبر إنما يصير حجة بترجيح الصدق فيه، وبالفسق يزول ترجحه بل يترجح جانب الكذب فيه لأنه لما لم يمنعه العقل والدين عن ارتكاب محظور الدين لا يمنعانه عن الكذب أيضاً فلا يكون خبره حجة بخلاف إخباره عن حرمة طعام أو حله أو نجاسة ماء أو طهارته، حيث يقبل إذا تأيد بأكبر الرأي لأن ذلك أي الحرمة والحل والنجاسة والطهارة أمر خاص بالنسبة إلى رواية الحديث ربما يتعذر الوقوف عليه من جهة غيره لحصول العلم له بذلك دون غيره فتقبل إذا انضم إليه التحري أي تحكيم الرأي للضرورة، أما هاهنا أي في رواية الحديث فلا ضرورة في المصير إلى قبول روايته لأن في العدول الذي تلقوا نقل الأخبار كثرة تمكن الوقوف على معرفة الحديث بالسماع منهم فلا حاجة إلى الاعتماد على خبر الفاسق وقد أمرنا المولى عزّ وجلّ بالتثبيت والتبيين في خبر الفاسق بقوله عزّ وجلّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾[3] انتهى.

فكيف بمن هو شرٌ من الفاسق وأنكى على الدين والشريعة، من المتمادين في غياهب الحيرة والضلال، ألا وهو المنافق والمبتدع، قال الشيخ الصنعاني في (ثمرات النظر): إن الناصبي المطلق خارج عن العدالة فإن انضاف إلى نصبه إطلاق لسانه فيمن يبغضه ـ أي أمير المؤمنين علي (عليه السلام) ـ فقد ازداد عنها بعداً..[4].

---

(١) تهذيب الكمال ـ المزي ج ١٥ ـ ص٩٢ هامش المحقق.

(٢) كشف الأسرار ـ البخاري ج٣ ـ ص ٣٢٩.

(٣) سورة الحجرات: آية ٦.

(٤) ثمرات النظر ـ الصنعاني ج١ ـ ص ٣٩.

وقال ابن حبان: ومنهم المعلن بالفسق؟ وان كان صدوقاً في روايته: لأن الفاسق لا يكون عدلاً، والعدل لا يكون مجروحاً ومن خرج عن حد العدالة لا يعتمد على صدقه وإن صدق في شيء بعينه في حال من الأحوال[١].

وقد حدد البخاري في (كشف الأسرار) الضابطة لقبول رواية الراوي حيث قال: الضابط ـ أي في الراوي ـ قد يكذب وقد يصدق لأن كلامنا في خبر مخبر غير معصوم فلا يثبت صدقه في خبره ضرورة، أي لا يكون جهة الصدق متعينة في خبره بطريق الضرورة كما في خبر الرسول، بل بالاستدلال والاحتمال، أو بل يثبت الصدق في خبره بالاستدلال وذلك بالعدالة والانزجار أي الامتناع عن محظورات دينية ليثبت به أي بالانزجار عن المحظورات رجحان الصدق في خبره لأن الكذب محظور دينياً، فيستدل بانزجاره عن سائر ما يعتقد محظوراً على انزجاره عن الكذب الذي يعتقد محظوراً أو لما كان منزجراً عن الكذب في أمور الدنيا كان ذلك دليل انزجاره عن الكذب في أمور الدين وأحكام الشرع بطريق أولى، وإذا لم يكن عدلاً في تعاطيه فاعتبار جانب اعتقاده وإن دل على الصدق في خبره فاعتبار جانب تعاطيه يرجح معنى الكذب في خبره لأنه لا يبال من ارتكاب سائر المحظورات مع اعتقاد حرمتها فالظاهر أنه لا يبالي من الكذب مع اعتقاد حرمته أيضاً فيقع المعارضة ويجب التوقف للعمل شرعاً، فعرفنا أن العدالة في الراوي شرط لكون خبره حجة[٢].

فالمعتمد أن الذي ترد روايته من أنكر أمراً متواتراً من الشرع معلوماً من الدين بالضرورة، وكذا من اعتقد عكسه، مثل بغض الخلفاء الراشدين وإنكار فضائلهم المتواترة ومخالفة الله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ أمر بحب علي (عليه السلام): إذ أن أصل عدالة المحدث ـ الراوي ـ أن يكون مسلماً لا يدعو إلى بدعة ولا يعلن من أنواع المعاصي ما تسقط به عدالته[٣].

إن حد الثقة هو العدالة والإتقان ـ الضبط ـ فكيف يكون عدلاً وهو صاحب بدعة[٤]. كالناصبي مثلاً، وقد ثبت أنه فاسق، صاحب بدعة، ومنافق، فتسقط روايته لسقوط عدالته لأكثر من جهة.

قال أبو العرب الصقلي في (الضعفاء) في معرض تعليقه على أحد الرجال النواصب: كان يحمل على عليّ تحاملاً شديداً وقال لا أحب عليا، وليس بكثير الحديث، ومن لم يحب الصحابة فليس بثقة ولا كرامة[٥].

---

(١) المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين ـ ابن حبان ج ١ ـ ص ٧٩.

(٢) كشف الأسرار ـ البخاري ج٢ ـ ص ٥٧٢.

(٣) معرفة علوم الحديث ـ الحاكم النيسابوري ج١ ـ ص٥٢.

(٤) لسان الميزان ـ ابن حجر ج ١ ـ ص ٩.

(٥) تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ج١ ـ ص٢٠٦.

وكذا قال د. بشار عواد معروف الأعظمي محقق كتاب (تهذيب الكمال) في مَعرِضِ تعليقه على أحد الرجال النواصب: إذا صح أنه كان يسب عليا رضي الله عنه فهو ضعيف إن شاء الله لا يحتج به ولا كرامة، ومثله مثل الذي يسب أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم أجمعين، فهذه بدعة كبرى مثلها مثل الرفض الكامل والغلو فيه، ولا أدري كيف يتجرأ البعض فيسب واحداً من الخلفاء الراشدين، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[1].

ولكن يا للأسف فان هذا الكلام يقال في باب التنظير والتصنيف، ولكن عند التطبيق يُضرب عرض الجدار، إذ أنهم - أي علماء الحديث والرواية - لم يلتزموا بأقوالهم ولا بمنهجهم في توثيق الراوي حيث نقلوا في صحاحهم ومسانيدهم وسننهم الكثير من المرويات عن رواة حكموا عليهم بالنصب، بل نص أئمتهم في الجرح والتعديل على ذلك دون تحرز أو تحرج؟.

والسؤال يعيد نفسه، هل من العقل أن يكذب الإنسان نفسه؟، وهل من المروءة أن يخالف الإنسان قوله وينقض غرضه؟ وهل من الدين أن يعمل خلاف ما أجمعت عليه عصابته مع اعتقاده بحجيتها؟، وهل من العلم والمعرفة أن يُنهى عن مرويات راوي ما في الجملة تبعاً لشروط حقيقية وموازين ثابتة اقرها أهل العلم والدراية في قبول الرواية، فإذا ما شُخص هذا الراوي، أو عُين اسمه (فلان بن فلان المعروف بالنصب) بُرر له عمله الفاجر ومروقه ونفاقه، إن لم يُغمض عينه عن ذلك، فاخذوا مروياته وعملوا بها دون نقاش أو تأمل.

إن قيام أصحاب الأهواء من الرجاليين وغيرهم بتعديل هؤلاء النواصب وقبول مروياتهم، وحياكة الستار عليهم بخيوط أوهن من بيت العنكبوت، لهو أمر يناقض الدين والعقل ويخالف المروءة والأخلاق، إذ سرعان ما يتكشف المحتوى الحقيقي لهؤلاء وبنسمة ريح خفيفة، وأما رياحنا العاتية فتركناها جانباً لأننا نعرف موقف القوم منها مسبقاً، ولذا لم ننقل من مروياتنا ولا أقوال علمائنا الإمامية شيئاً هنا بتاتاً، واكتفينا بعرض أراء جملة من علماءهم ونقل إجماعاتهم، من بعض مصنفاتهم وكتبهم المعتمدة ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾[2]، ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[3].

فإن قلت: إن رواية الناصبي قد لا يضر الأخذ بها ما دام ثقة في نفسه لا يكذب، وهذا ليس بعزيز عنكم، فأنتم - الإمامية - تأخذون بقول الفطحي والناووسي والواقفي والعامي وغيرهم ما دام ثقة في نفسه ولا يكذب؟؟

---

(١) تهذيب الكمال - المزي ج ٢ - ص٣٢٩.

(٢) سورة البقرة: آية ١٥٠.

(٣) سورة الشورى: آية ١٥.

أقول: هذا صحيح ولكن مع الفارق بينهما، فان من ذكرت مع وثاقتهم لا ينكرون أصلاً ثابتاً من الدين، ولا ضروريا من ضرورياته، ولا هم مكذبون لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الموجب للكفر والمروق عن الدين، غاية ما يؤخذ عليهم أنهم غير مؤمنين بالأئمة الاثني عشر بشخوصهم المعينة المرتبة بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع إيمانهم بأصل الإمامة، وهذا نتج عن شبهة وقعت في أذهانهم، فالاختلاف وقع في المصاديق والشخوص، لا في أصل الإمامة.

كما أن الإمامة أصل من أصول مذهب أهل البيت خاصة ـ التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد ـ، لا من أصول الدين الإسلامي ـ التوحيد والنبوة والمعاد ـ، فالاختلاف في بعض مصاديقه أو ترتيبها أو نحو ذلك، لا يخرجه عن أصل الدين والملة، بخلاف رد كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والعمل على خلافه فانه تكذيب لنبوته (صلى الله عليه وآله وسلم)، وبما جاء به من السماء، كما هي طريقة النواصب، وهذا هو المروق في الدين والكفر به، وشتان ما بينهما، قال تعالى ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1].

وإن من شرائط قبول رواية الراوي هو الإسلام بإجماع المسلمين.

قال الغزالي: أن من شرائط قبول الرواية لكل مكلف عدل مسلم ضابط... وقال الشرط الرابع: أن يكون مسلماً، ولا خلاف في أن رواية الكافر لا تقبل، لأنه متهم في الدين... وهو أولى من قولنا الفاسق مردود الشهادة، والكفر أعظم أنواع الفسق[2].

فالنواصب مكذبون لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبما جاء به من ربه عزّ وجلّ في التبليغ والدعوة الذي ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ﴾[3]، ومنكرين لما ثبت عنه، غير راغبين فيه، مخالفين قوله تعالى ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[4]، بل هم جاحدون معاندون لقضاء الله ورسوله، وما شرعاه في الدين، منكرين لمدلول قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾[5]، عاملين بأهوائهم وآراءهم المريضة، حيث يقول الله ورسوله أحبوا عليا ولا تبغضوه ولا تسبوه فإنه ممسوس في ذات الله، وهم يقولون لا نحب عليا ونعلن العداء والبغض له، بل نرد هذا الأمر الإلهي ونكفر به ونعمل خلافه ـ وإن لم يعلنوا ذلك صراحة ـ ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٤٩.

(٢) المستصفى ـ الغزالي ـ ص ١٢٣ ـ ١٢٤. أصول السرخسي ـ أبو بكر السرخسي ج ١ ـ ص ٣٤٦.

(٣) سورة النجم: آية ٣ ـ ٥.

(٤) سورة الحشر: آية ٧.

(٥) سورة الأحزاب: آية ٣٦.

اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1]، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[2]، وأصبحوا خارجين عن الإسلام، كافرين بما جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مكذبين لبعض ما أنزل عليه من بيان ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[3]، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾[4].

فالنواصب يندرجون في هذا الباب، كما قال ابن تيمية: ومن خص بعضهم ـ أي الصحابة ـ بالسب فإن كان ممن تواتر النقل في فضله وكماله كالخلفاء ـ وعلي أحدهم ـ فإن اعتقد حقية سبه أو إباحته فقد كفر[5]: لتكذيبه ما ثبت قطعاً عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ومكذبه كافر[6]. فهل يمكن للمسلم قبول رواية الكافر؟، وكيف يأتمن من يغلب هواه وشهوته على قول الله ورسوله؟ وهل يمكن الركون والاطمئنان إلى قوله وخبره؟، ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[7].

وللتدليل على ذلك، إليك جملة من الرجال النواصب الذين نص على نصبهم علماء أهل السنة خصوصاً، وشهدوا عليهم بذلك، وان كان الذين لم نذكرهم من الرواة النواصب أكثر بكثير ممن ذكرناهم هنا، حيث لم يرد نص على نصبهم من الرجاليين، التزاماً منا بمنهج البحث، ولكن سلوكهم ومواقفهم وكلماتهم تشير إلى أنهم من النواصب المبغضين لأمير المؤمنين علي (عليه السلام).

ثم قمنا بتحديد اسم الراوي ونسبه، والنص على نصبه، وبيان من روى له في الصحاح الستة، تثبيتاً للمنهج وإقامة للحجة.

وهذا ما تيسر به الحال لعرض بعض الصور المشوهة التي رُسمت في التاريخ الإسلامي وحشرت بين رجاله ورواته.

---

(١) سورة الجاثية: آية ٢٣.

(٢) سورة محمد: آية ٩.

(٣) سورة البقرة ٨٥ ـ ٨٦.

(٤) سورة محمد: آية ١١.

(٥) وليته التزم بما أثبت وقرر!؟.

(٦) رسالة الرد على الروافض ـ ابن تيمية ج ١ ـ ص ١٩.

(٧) سورة الرعد: آية ١٨ ـ ١٩.

مَنْ نُص على نصبهم من رواة التابعين في كتب صحاح أهل السنة والعامة

❖ زياد بن علاقة الثعلبي (ت ١٣٥ هـ)

ـ اسمه ولقبه:

أبو مالك زياد بن علاقة بن مالك الغطفاني الثعلبي الكوفي.

ـ النص على نصبه:

قال ابن حجر في (تهذيب التهذيب) حيث نقل قول الأزدي في زياد بن علاقة فقال: وقال الأزدي سيء المذهب كان منحرفاً عن بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم[١].

إما في (تقريب التهذيب) قال: زياد بن علاقة بكسر المهملة والقاف الثعلبي بالمثلثة والمهملة أبو مالك ثقة، رمي بالنصب[٢].

ـ روى له الستة في الصحاح:

البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وأبو داود.

❖ ميمون بن مهران الجزري (ت ١١٧هـ)

ـ اسمه ولقبه:

أبو أيوب ميمون بن مهران (مولى بني أسد)، وقيل لغيره الجزري نسبة إلى الجزيرة إذ يعد من أهلها.

ـ النص على نصبه:

قال العجلي في (معرفة الثقات): كان يحمل على علي رضي الله عنه[٣].

وروى ابن عساكر بسنده عن صالح بن أحمد حدثني أبي قال ميمون بن مهران جزري تابعي ثقة، وكان يحمل على علي[٤].

وعن الفرات بن السائب قال سألت ميمون بن مهران فقلت: كان ـ وفي حديث ـ كان علي أول إسلاماً أو أبو بكر؟ فقال: والله لقد آمن أبو بكر بالنبي (عليه السلام) زمن بحيرا الراهب!! واختلف فيما بينه وبين خديجة حتى أنكحها إياه!؟ وهذا وقال ابن زياد وذلك كله قبل أن يولد علي بن أبي طالب[٥].

---

(١) تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ج ٣ ـ ص٣٢٧.

(٢) تقريب التهذيب ـ ابن حجر ج١ ـ ص٣٢٢.

(٣) معرفة الثقات ـ العجلي ج٢ ـ ص٣٠٧.

(٤) تاريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ج ٦١ ـ ص ٣٤٨.

(٥) تاريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ج ٣٠ ـ ص ٤٢.

وعن سوادة الجرمي عن ميمون بن مهران قال: قال لي ابن عباس: يا ميمون لا تشتم السلف وادخل الجنة بسلام[١].

وفي (تهذيب التهذيب) عن إسماعيل بن عبد الله قال ميمون بن مهران: كنت أفضل عليا على عثمان. فقال لي عمر بن عبد العزيز: أيهما أحب إليك رجل أسرع في المال أو رجل أسرع في كذا ـ يعني في الدماء ـ قال فرجعت وقلت لا أعود!؟[٢].

ـ روى له الستة في الصحاح:

البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وأبو داود.

❖ أبو قلابة عبد الله الجرمي (ت ما بين ١٠٤ ـ ١٠٧ هـ)

ـ اسمه ولقبه:

أبو قلابة بكسر القاف وفتح الباء المعجمة بواحدة عبد الله بن زيد بن عمر (عامر) الجرمي البصري.

ـ النص على نصبه:

قال العجلي في (معرفة الثقات): وكان يحمل على عليّ ولم يرو عنه شيء قط[٣].

وقال ابن حجر في (تقريب التهذيب): قال العجلي: فيه نصب يسير[٤].

ـ روى له الستة في الصحاح:

البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وأبو داود.

❖ خالد بن سلمة المخزومي الفأفاء

ـ اسمه ولقبه:

أبو سلمة خالد بن سلمة بن العاص بن هشام بن المغيرة القرشي المخزومي الكوفي الملقب بالفأفاء.

ـ النص على نصبه:

روى العقيلي في (ضعفاءه): عن جرير قال كان خالد بن سلمة الفافاء راسا في المرجئة وكان يبغض عليا[٥].

وكذا ابن عدي في (الكامل)، وابن عساكر في (تاريخ دمشق)[٦].

---

(١) تاريخ مدينة دمشق ـ ابن عساكر ج ٦١ ـ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(٢) تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ج ١٠ ـ ص ٣٤٩.

(٣) معرفة الثقات ـ العجلي ج ٢ ـ ص٣٠.

(٤) تقريب التهذيب ـ ابن حجر ج١ ـ ص ٤٩٤.

(٥) الضعفاء ـ العقيلي ج ـ ص٥.

(٦) الكامل ـ ابن عدي ج ٣ ـ ص٢١، تاريخ دمشق ـ ابن عساكر ج ١٦ ـ ص٩٢.

وقال ابن حجر في (تهذيب التهذيب): كان الفافاء راساً في المرجئة وكان يبغض عليّ[١].

أما في (تقريب التهذيب) فقال: رمي بالإرجاء والنصب[٢].

أما الذهبي في (المغني في الضعفاء) فقال: وهو من المرجئة وفيه نصب[٣].

وفي (سير أعلام النبلاء) قال: وكان مرجئاً ينال من عليّ رضي الله عنه، قتل في أواخر سنة ١٣٢ هـ وهو من عجائب الزمان كوفي ناصبي ويندر إن تجد كوفيا إلا وهو يتشيع[٤].

ـ روى له الستة في الصحاح:

البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وأبو داود.

❖ أسد بن وداعة الطائي (ت١٣٧ هـ)

ـ اسمه ولقبه:

أبو العلاء أسد بن وداعة الطائي الحمصي الشامي.

ـ النص على نصبه:

قال الذهبي في (ميزان الاعتدال): شامي من صغار التابعين، ناصبي يسب[٥].

وفي (تاريخ الإسلام) قال: وكان من العلماء بدمشق، وفيه نصب معروف نسأل الله العفو[٦].

وأما في (معرفة التذكرة) فقد ضعفه؛ لأنه كان يسب عليّ[٧].

وفي (المغني في الضعفاء) قال: شامي ناصبي سباب، عداده في التابعين[٨].

إما ابن حجر في (لسان الميزان): شامي من صغار التابعين ناصبي يسب[٩].

ـ روى له الستة في الصحاح:

البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وأبو داود.

❖ شبث بن ربعي (ت ٧٠ هـ)

ـ اسمه ولقبه:

أبو عبد القدوس شبث بن ربعي بن حصين بن عثيم بن ربيعة التميمي اليربوعي الكوفي.

---

(١) تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ج٣ ـ ص٨٣.

(٢) تقريب التهذيب ـ ابن حجر ج ١ ـ ص١٨٨.

(٣) المغني في الضعفاء ـ الذهبي ج١ ـ ص٢٠٢.

(٤) سير أعلام النبلاء ـ الذهبي ج٥ ـ ص٣٧٤.

(٥) ميزان الاعتدال ـ الذهبي ١ج ـ ص٢٠٧.

(٦) تاريخ الإسلام ـ الذهبي ج ٨ ـ ص٣٧٢.

(٧) معرفة التذكرة ـ الذهبي ج١ ـ ص٨٦.

(٨) المغني في الضعفاء ـ الذهبي ج١ ـ ص٧٦.

(٩) لسان الميزان ـ ابن حجر ج١ ـ ص٣٨٥.

- النص على نصبه:

قال الذهبي في (سير أعلام النبلاء): كان ممن خرج على عليّ، وأنكر عليه التحكيم، ثم تاب وأناب!؟[١].

وقال العجلي في (معرفة الثقات): هو مَنْ أعان على قتل الحسين بن علي[٢].

- روى له في الصحاح:

أبو داود والنسائي.

❖ زياد بن جبير الثقفي (ت١٠٤)

- اسمه ولقبه:

أبو محمد زياد بن جبير بن حية بن مسعود بن معتب الثقفي البصري.

- النص على نصبه:

ذكر ابن حجر في (تهذيب التهذيب): وروى ابن أبي شيبة من طريق عبد الرحمن بن أبي نعيم قال: كان زياد بن جبير يقع في الحسن والحسين! فقلت له: يا أبا محمد إن أبا سعيد حدثني عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة[٣].

- روى له في الصحاح:

البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وأبو داود.

❖ الصلت بن دينار الأزدي البصري (ت١٦٠)

- اسمه ولقبه:

أبو شعيب الصلت بن دينار الأزدي، ويقال الهنائي البصري المعروف بالمجنون الهنائي.

- النص على نصبه:

قال ابن حجر في (تقريب التهذيب): متروك ناصبي[٤].

وكذا في (تحفة الأحوذي)[٥].

- روى له في الصحاح:

الترمذي وابن ماجه.

---

(١) سير أعلام النبلاء - الذهبي ج٤ - ص١٥٠.

(٢) معرفة الثقات - العجلي ج١ - ص٤٤٨.

(٣) تهذيب التهذيب - ابن حجر ج٣ - ص٣٠٨.

(٤) تقريب التهذيب - ابن حجر ج١ - ص٤٤٠.

(٥) تحفة الاحوذي - المباركفوري ج١٠ - ص١٦٦.

❖ عبد الله بن سالم الأشعري (ت ١٧٩ هـ)

- اسمه ولقبه:

أبو يوسف عبد الله بن سالم الأشعري الوحاظي الحمصي.

- النص على نصبه:

قال ابن حجر في (تقريب التهذيب): ثقة رمي بالنصب[١].

وفي مقدمة (فتح الباري) قال: وذمه أبو داود من جهة النصب[٢].

أما الذهبي في (ميزان الاعتدال) قال: قال أبو داود كان يقول - إي عبد الله بن سالم - عليّ أعان على قتل أبي بكر وعمر، وجعل يذمه، يعني أنه ناصبي[٣].

وفي كتاب (من له رواية في كتب الستة) قال: صدوق فيه نصب[٤].

- روى له في الصحاح:

البخاري وأبو داود والنسائي.

❖ أزهر بن عبد الله الحراني الحمصي (ت ١٢٩)

- اسمه ولقبه:

أزهر (الأزهر) بن عبد الله بن جميع الحرازي الحمصي الحميري.

قال البخاري في (التاريخ الكبير): هو أزهر بن يزيد، وأزهر بن سعيد، وأزهر بن عبد الله، الثلاثة واحد، نسبوه مرة مرادي ومرة حمصي ومرة هوزني ومرة حرازي. والحرازي نسبة إلى حراز بن عوف بن عدي بن مالك بطن من ذي الكلاع نزل أكثرهم حمص كما عن (لب اللباب)[٥].

- النص على نصبه:

قال ابن حجر في (تقريب التهذيب): أزهر بن عبد الله بن جميع الحرازي حمصي صدوق، تكلموا فيه للنصب، وجزم البخاري بأنه بن سعيد[٦].

والذهبي في (ميزان الاعتدال) قال: أزهر بن عبد الله الحرازي، يقال: هو أزهر بن سعيد تابعي حسن الحديث، لكنه ناصبي ينال من علي رضي الله عنه[٧]. وكذا في تحفة الأحوذي[٨].

---

(١) تقريب التهذيب - ابن حجر ج١ - ص٤٩٥.

(٢) مقدمة فتح الباري - ابن حجر ج١ - ص٤١٣.

(٣) ميزان الاعتدال - الذهبي ج٤ - ص١٠٤.

(٤) من له رواية في كتب الستة - الذهبي ج١ - ص٥٥٥.

(٥) التاريخ الكبير - البخاري ج١ - ص٤٥٩.

(٦) تقريب التهذيب - ابن حجر ج١ - ص٧٥.

(٧) ميزان الاعتدال - الذهبي ج١ - ص١٧٣.

(٨) تحفة الاحوذي - المبار كفوري ج٩ - ص٣١٠.

أما في (المغني في الضعفاء): قال صدوق، لكنه ناصبي ينال من عليّ رضي الله عنه[١].

وفي (الكاشف) قال: ناصبي[٢].

وأما ابن حجر في (تهذيب التهذيب) فقال: أزهر بن عبد الله بن جميع الحرازي قيل: هو ابن سعيد... ناصبي[٣].

وقال ابن الجارود في (الضعفاء): كان يسب عليا[٤].

وفي (خلاصة التهذيب) - إي تهذيب الكمال - للخزرجي قال: ناصبي صدوق اللهجة[٥].

وقد نقل عنه العظيم آبادي في (عون المعبود)[٦].

وقال مغلطاي في (إكمال تهذيب الكمال): قال أبو داود: كان يسب عليا، وفي موضع آخر قال أبو داود: إنيّ لأبغض أزهر الحراني...[٧].

- روى له في الصحاح:

البخاري في الأدب، وأبو داود والترمذي والنسائي.

❖ نعيم بن أبي هند الأشجعي (ت ١١٠ هـ)

- اسمه ولقبه:

نعيم بن النعمان بن أشيم الأشجعي الكوفي. ولأبيه صحبة.

- النص على نصبه:

قال ابن حجر في (تقريب التهذيب): ثقة رمي بالنصب[٨].

أما الذهبي في (ميزان الاعتدال) فقال: ونعيم لون غريب كوفي ناصبي[٩].

- روى له في الصحاح:

البخاري في التعاليق، ومسلم، وأبو داود في المراسيل، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

❖ لمازة بن زبار الأزدي الجهضمي

- اسمه ولقبه:

أبو لبيد بن زبار الأزدي الجهضمي البصري.

---

(١) المغني في الضعفاء - الذهبي ج١ - ص٦٥.

(٢) الكاشف - الذهبي ج١ - ص٢٣١.

(٣) تهذيب التهذيب - ابن حجر ج١ - ص١٧٨.

(٤) انظر إكمال تهذيب الكمال - مغلطاي ج٢ - ص٤٨.

(٥) خلاصة التهذيب - الخزرجي ج١ - ص٢٥.

(٦) عون المعبود - العظيم آبادي ج١٣ - ص٢٩١.

(٧) انظر إكمال تهذيب الكمال - مغلطاي ج٢ - ص٤٧.

(٨) تقريب التهذيب - ابن حجر ج١ - ص٤١.

(٩) ميزان الاعتدال - الذهبي ج٤ - ص٢٧١.

ـ النص على نصبه:

قال الذهبي في (ميزان الاعتدال): حضر وقعة الجمل وكان ناصبياً ينال من علي رضي الله عنه ويمدح يزيد[١].

وأما في (المغني في الضعفاء) فقال: صدوق ناصبي. قال جرير: كان شتاماً[٢].

وفي كتاب (من له رواية في كتب الستة) قال: فيه نصب وثق[٣].

وأما ابن حجر في (تقريب التهذيب) فقال: صدوق ناصبي[٤].

وقال ابن ماكولا في (إكمال الإكمال): أنه كان منحرفاً عن علي رضي الله عنه[٥].

وكذا قال ابن عساكر في (تاريخ دمشق)[٦].

وكان ممن قاتله ـ أي علي ـ يوم الجمل. كما في (تهذيب الكمال) و(تاريخ دمشق)[٧].

وفي (تاريخ بن خياط) عن الزبير بن الخريت قال: قيل لأبي لبيد أتحب عليا؟ قال: وكيف أحب رجلاً قتل من قومي حين كانت الشمس من ها هنا إلى إن صارت هاهنا ألفين وخمس مائة؟![٨].

ـ روى له في الصحاح:

الترمذي، وأبو داود، وابن ماجه.

❖ خالد بن عبد الله القسري (ت ١٢٦ هـ)

ـ اسمه ولقبه:

أبو الهيثم خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد (أسيد) بن كرز القسري البجلي اليماني.

وقسر بفتح القاف وسكون السين المهملة فهو قسر بن عبقر بن إنمار قبيلة من بجيلة.

وخالد بن يزيد القسري، هما واحد بلا ريب كما قال ابن حجر[٩].

ـ النص على نصبه:

قال الذهبي في (ميزان الاعتدال): صدوق لكنه ناصبي بغيض ظلوم، ثم نقل عن ابن معين، قال: إنه رجل سوء يقع في عليّ رضي الله عنه[١٠].

---

(١) ميزان الاعتدال ـ الذهبي ج٣ ـ ص٤١٩.

(٢) المغني في الضعفاء ـ الذهبي ج٢ ـ ص٨٠٤.

(٣) من له رواية في كتب الستة ـ الذهبي ج٢ ـ ص١٥١.

(٤) تقريب التهذيب ـ ابن حجر ج٢ ـ ص٦٧.

(٥) إكمال الإكمال ـ ابن ماكولا ج٤ ـ ص١٧٤.

(٦) تاريخ دمشق ـ ابن عساكر ج٥٠ ـ ص٣٠٥.

(٧) تهذيب الكمال ج٢٤ ـ ص٢٥١، تاريخ دمشق ـ ابن عساكر ج ٥٠ ـ ص٣٠٥.

(٨) تاريخ خليفة بن خياط ـ ابن خياط ص١٤٠، تاريخ دمشق ـ ابن عساكر ج٥٠ ـ ص٣٠٦.

(٩) لسان الميزان ـ ابن حجر ج٢ ـ ص٣٩٢.

(١٠) ميزان الاعتدال ـ الذهبي ج٢ ـ ص٤١٥.

وفي (تاريخ الإسلام) قال: ناصبي. ثم نقل قول ابن معين[١].

وفي كتاب (من له رواية في كتب الستة) قال: كان جواداً ممدوحاً ناصبياً عذب[٢].

وفي (سيرة أعلام النبلاء) فقال: فيه نصب معروف. **وقد نقل فيه، عن ابن خلكان أنه قال: كان خالد يتهم في دينه، بنى لأمه كنيسة تتعبد فيها**[٣].

وأما في (المغني في الضعفاء) قال: صدوق لكنه ناصبي جلد[٤].

وفي (تهذيب الكمال) و(تهذيب التهذيب) نقلاً قول ابن معين: إنه رجل سوء يقع في عليّ رضي الله عنه[٥].

وقال ابن الأثير في (أسد الغابة): وكان خالد جواداً ممدوحاً إلا أنه كان يبالغ في سب علي، فقيل: كان يفعله خوفاً من بني أمية وقيل غير ذلك...[٦].

وذكر المبرد في (الكامل): إن خالد بن عبد الله القسري لما كان أمير العراق في خلافة هشام، كان يلعن عليا (عليه السلام) على المنبر فيقول: اللهم إلعن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، صهر رسول الله (صلى الله عليه وآله) على ابنته، وأبا الحسن والحسين!! ثم يقبل على الناس، فيقول هل كَنيَّت!![٧].

ـ روى له في الصحاح:

البخاري في كتاب أفعال العباد حديثاً واحداً (قصة قتله الجعد بن درهم)، وأبو داود عن مسدد عن أمية بن خالد (لما ولي خالد القسري أضعف الصاع). وأخرج له أحمد في مسنده.

❖ حريز بن عثمان الرحبي (ت١٦٣)

ـ اسمه ولقبه:

أبو عثمان حريز بن عثمان بن جبر بن أحمد بن أسعد الرحبي الحمصي المشرقي.

ـ النص على نصبه:

قال الحاكم النيسابوري في (المدخل إلى كتاب الإكليل): وقد احتج البخاري في الصحيح بمحمد بن زياد الالهاني وحريز بن عثمان الرحبي، وهما مما اشتهر عنهما النصب!![٨].

---

(١) تاريخ الإسلام ـ الذهبي ج٨ ـ ص٨٣.

(٢) من له رواية في كتب الستة ـ الذهبي ج١ ـ ص٣٦٦.

(٣) سيرة أعلام النبلاء ـ الذهبي ج٥ ـ ص٤٢٧.

(٤) المغني في الضعفاء ـ الذهبي ج١ ـ ص٢٠٣.

(٥) تهذيب الكمال ـ المزي ج٨ ـ ص١١٦، تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ج ٣ ـ ص٨٨.

(٦) أسد الغابة ـ ابن الأثير ج١ ـ ص٩١.

(٧) انظر شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد ج٤ ـ ص٥٧.

(٨) المدخل إلى كتاب الإكليل ـ الحاكم النيسابوري ج١ ـ ص٤٩.

قال الذهبي في (تذكرة الحفاظ): انه من صغار التابعين ومتقنيهم على نصب فيه[١].

وفي (سير أعلام النبلاء): إنه يرمى بالنصب[٢].

وفي (المغني في الضعفاء): تابعي صغير ثبت لكنه ناصبي[٣].

أما في كتاب (من له رواية في كتب الستة) فقد قال: وهو ناصبي[٤]. وكذا في (الكاشف)[٥].

وفي رسالة (الرواة الثقات المتكلم فيهم) قال:... وثقه غير واحد لكنه ناصبي نسأل الله السلامة إلا أنه لا يسب[٦].

وقال ابن حجر في (لسان الميزان): ناصبي[٧].

وأما في (تهذيب التهذيب) فقد قال: وحريزي المذهب نسبة إلى حريز بن عثمان المعروف بالنصب[٨].

أما ابن ناصر الدين الدمشقي في (توضيح المشتبه) فقال: ناصبي. وفي موضع آخر قال: ثقة في الحديث ناصبي، وقيل تاب، والله أعلم[٩].

- روى له في الصحاح:

البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وأبو داود.

❖ حصين بن نمير الواسطي

- اسمه ولقبه:

أبو محصن حصين بن نمير الضرير مولى لهمدان الكوفي.

- النص على نصبه:

أما ابن حجر في (تقريب التهذيب) فقال: لا بأس به رمي بالنصب[١٠].

---

(١) تذكرة الحفاظ - الذهبي ج١ - ص١٧٦.

(٢) سير أعلام النبلاء - الذهبي ج٧ - ص٨٠.

(٣) المغني في الضعفاء - الذهبي ج١ - ص١٥٤.

(٤) من له رواية في كتب الستة - الذهبي ج١ - ص٣١٩.

(٥) الكاشف - الذهبي ج١ - ص٣١٩.

(٦) الرواة الثقات المتكلم فيهم - الذهبي ج١ - ص٨٢.

(٧) لسان الميزان - ابن حجر ج٢ - ص١٠٣.

(٨) تهذيب التهذيب - ابن حجر ج١ - ص١٥٩، ج - ص٢٠٧.

(٩) توضيح المشتبه - ابن ناصر الدين الدمشقي ج٢ - ص٢٨٩، ج٨ - ص١٧١.

(١٠) تقريب التهذيب - ابن حجر ج١ - ص٢٢٤.

وفي (تهذيب التهذيب): قال ابن أبي خيثمة: قلت لأبي: لم لا تكتب عن أبي محصن؟ قال: أتيته فإذا هو يحمل على علي فلم أعد إليه[١]. وكذا نقله مغلطاي عن تاريخ ابن أبي خثيمة...[٢].

- روى له في الصحاح:

البخاري، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

❖ عنبسة بن عبد الواحد القرشي الأموي

- اسمه ولقبه:

أبو خالد عنبسة بن عبد الواحد بن أمية بن عبد الله بن سعيد بن العاص الأموي الكوفي الأعور.

- النص على نصبه:

قال ابن حجر في (فتح الباري في شرح صحيح البخاري): أموي نسب إلى شيء من النصب[٣].

- روى له في الصحاح:

البخاري وذكره في التعاليق، واستشهد له بحديث واحد، وروى له أبو داود.

❖ إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني (ت٢٥٩ هـ)

- اسمه ولقبه:

أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق السعدي الجوزجاني.

- النص على نصبه:

قال ابن حجر في (تهذيب التهذيب): نزيل دمشق ثقة حافظ رمي بالنصب[٤].

وفي (لسان الميزان) قال: .. لشدة انحرافه في النصب[٥].

وقال الذهبي في (ميزان الاعتدال): وكان شديد الميل إلى مذهب أهل الشام في التحامل على عليّ رضي الله عنه. قلت: قد كان النصب مذهبا لأهل دمشق[٦].

وقال ابن الصديق المغربي في (إرغام المبتدع الغبي): هو ناصبي مشهور[٧].

---

(١) تهذيب التهذيب - ابن حجر ج٢ - ص٣٣٧.

(٢) انظر تهذيب الكمال - المزي ج٦ - ص٥٤٧.

(٣) فتح الباري - ابن حجر ج١٠ - ص٤٢١.

(٤) تهذيب التهذيب - ابن حجر ١ج - ص٦٩.

(٥) لسان الميزان - ابن حجر ج١ - ص١٦.

(٦) ميزان الاعتدال - الذهبي ج١ - ص٢٠٥.

(٧) إرغام المبتدع الغبي - ابن الصديق المغربي ص٥٧.

وفي (توجيه النظر إلى أصول الأثر) قال الجزائري الدمشقي: والجوزجاني غال في النصب[١].

وفي (توضيح المشتبه) قال: حفظه ابن عدي من جهة النصب...[٢].

وقال الحافظ العراقي في (فتح المغيث): لشدة انحرافه في النصب[٣].

ـ روى له في الصحاح:

أبو داود، والترمذي، والنسائي.

❖ إسحاق بن سويد العدوي (ت ١٣١ هـ)

ـ اسمه ولقبه:

إسحاق بن سويد بن هبيرة العدوي البصري التميمي الشاعر.

ـ النص على نصبه:

قال ابن حجر في (تقريب التهذيب): صدوق تكلم فيه للنصب[٤].

وقال العجلي في (معرفة الثقات): بصري ثقة، وكان يحمل على عليّ رضي الله تعالى عنه[٥].

ـ روى له في الصحاح:

البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي.

❖ محمد بن زياد الالهاني

ـ اسمه ولقبه:

أبو سفيان محمد بن زياد الالهاني الحمصي.

ـ النص على نصبه:

قال الحاكم النيسابوري في (المدخل إلى كتاب الإكليل): محمد بن زياد الالهاني وحريز بن عثمان من أهل البدع ممن اشتهر عنهما النصب[٦].

وحكى قول الحاكم النيسابوري كل من الباجي في (التعديل والتجريح)، والذهبي في (ميزان الاعتدال)، وابن حجر في (تهذيب التهذيب)[٧].

---

(١) توجيه النظر إلى أصول الأثر ـ الجزائري الدمشقي ج١ ـ ص٢٥٥.

(٢) توضيح المشتبه ـ ابن ناصر الدين الدمشقي ج٥ ـ ص٩٧.

(٣) فتح المغيث ـ الحافظ العراقي ج٣ ـ ص٣٦٢.

(٤) تقريب التهذيب ـ ابن حجر ج١ ـ ص٨١.

(٥) معرفة الثقات ـ العجلي ج١ ـ ص٢١٩.

(٦) المدخل إلى كتاب الإكليل ـ الحاكم النيسابوري ج١ ـ ص٤٩.

(٧) التعديل والتجريح ـ الباجي ج٢ ـ ص٦٨٩، ميزان الاعتدال ـ الذهبي ج٣ ـ ص٥٥١، تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ج ٩ ـ ص١٥٠.

- روى له في الصحاح:

البخاري، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وابو داود، سوى مسلم.

❖ عبد الله بن شقيق العقيلي البصري (ت ١٠٨ هـ)

- اسمه ولقبه:

أبو عبد الرحمن (وقيل أبا عامر) عبد الله بن شقيق من بني عُقيل بن كعب البصري، والد عامر العُقيلي.

- النص على نصبه:

قال ابن حجر في (تقريب التهذيب): بصري ثقة فيه نصب[١].

وقال الذهبي في (المغني في الضعفاء): ثقة ناصبي كان سليمان التيمي سيء الرأي فيه[٢].

وقد استغرب محقق كتاب (تهذيب الكمال) الدكتور بشار عواد معروف الأعظمي في تعليقه على توثيق بعض علماء الرجال للناصبي عبد الله بن شقيق فقال: قلت: كيف يكون الناصبي ثقة!؟ وقد ثبت عن الرجل أنه كان يبغض سيدنا عليا ويحمل عليه!!، فتأمل. نسأل الله السلامة من الأهواء! وقد أحسن البخاري حينما لم يخرج له في الصحيح[٣].

أقول: ربما فات الأستاذ الفاضل ما أخرجه البخاري في الصحيح وغيره عن جملة من النواصب وعلى رأسهم حريز بن عثمان الرحبي. فتأمل، اللهم لا تجعلنا من الغافلين.

- روى له في الصحاح:

البخاري في الأدب، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وأبو داود.

❖ ثور بن يزيد الحمصي (ت ١٥٥ هـ)

- اسمه ولقبه:

أبو خالد ثور بن يزيد الكلاعي الرحبي الحمصي. ورحبة بطن من حمير.

- النص على نصبه:

قال الصنعاني في (ثمرات النظر): وكان يرمى بالنصب، قال يحيى بن معين: وكان يجالس قوما ينالون من عليّ رضي الله عنه لكنه كان لا يسب[٤].

- روى له في الصحاح:

البخاري، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وأبو داود، سوى مسلم.

---

(١) تقريب التهذيب - ابن حجر ج ١ - ص٥١.

(٢) المغني في الضعفاء - الذهبي ج١ - ص٣٤٢.

(٣) تهذيب الكمال - المزي ج ١٥ - ص٩٢ هامش المحقق.

(٤) ثمرات النظر - الصنعاني ج١ - ص٨٩.

❖ أسد بن موسى الأموي (ت ١١٢ هـ)

- اسمه ولقبه:

أبو سعيد أسد بن موسى بن إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان الأموي المصري.

- النص على نصبه:

قال ابن حجر في (تقريب التهذيب): أسد السنة صدوق يغرب وفيه نصب[١].

وقيل له أسد السنة وذلك لكتاب صنفه في السنة، كما قال مغلطاي.

- روى له في الصحاح:

البخاري في الصحيح استشهادا وفي الأدب، وأبو داود، والنسائي.

❖ قيس بن أبي حازم البجلي (ت ٩٤ - ٩٨هـ)

- اسمه ولقبه:

أبو عبد الله قيس بن أبي حازم عوف بن الحارث (عبد الحارث) البجلي الأحمسي الكوفي. أسلم واتى النبي (ص) ليبايعه فقبض نبي الله وقيس هذا في الطريق.

- النص على نصبه:

قال السيوطي في (تدريب الراوي): فائدة: أردت إن أسرد هنا من رمي ببدعته ممن اخرج لهم البخاري ومسلم أو أحدهما ثم ذكر المرجئة، وبعدها عدّ بعض النواصب: إسحاق بن سويد العدوي، بهز بن أسد، حريز بن عثمان، حصين بن نمير الواسطي، خالد بن سلمة الفأفاء، عبد الله بن سالم الأشعري، قيس بن أبي حازم، هؤلاء رموا بالنصب وهو بغض علي رضي الله عنه وتقديم غيره عليه[٢].

وفي (فتح الباري) قال ابن حجر: في معرض مناقشة حديث أحد رواته قيس بن أبي حازم: وقد استشكل بعض الناس صحة هذا الحديث لما نسب إلى بعض رواته من النصب وهو الانحراف عن علي وآل بيته. ثم قال، قلت: أما قيس بن أبي حازم، فقال: يعقوب بن شيبة تكلم أصحابنا في قيس... ومنهم من حمل عليه في مذهبه، وقال: كان يحمل على عليّ، ولذلك تجنب الرواية عنه كثير من قدماء الكوفيين[٣].

- روى له في الصحاح:

البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وأبو داود.

---

(١) تقريب التهذيب - ابن حجر ج١ - ص٨٨.

(٢) تدريب الراوي - السيوطي ج١ - ص٣٢٨.

(٣) فتح الباري - ابن حجر ج١٠ - ص٤٢٠.

❖ أبو بُردة بن أبي موسى الأشعري (ت ١٠٤ هـ)

ـ اسمه ولقبه:

أبو بُردة عامر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري الكوفي. وقيل إن اسمه الحارث، وقيل إن اسمه كنيته.

ـ النص على نصبه:

كان من المبغضين لأمير المؤمنين علي (ع) ولأصحابه، أصحاب رسول الله (ص) كحجر بن عدي، وعمار بن ياسر. قال ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) في عدّ المبغضين للإمام علي(ع) قال: ومن المبغضين القالين: أبو بردة بن أبي موسى الأشعري، ورث البغضة له لا عن كلالة ـ يقال لم يرث عن كلالة: إي لم يرثه عن عرض بل عن قرب، يريد انه ورث البغض عن أبيه أبي موسى الأشعري ـ .

روى عبد الرحمن بن حندب قال: قال أبو بُردة لزياد: إن حجر بن عدي قد كفر كفرة أصلع، قال عبد الرحمن: إنما عني بذلك نسبة الكفر إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام): لأنه كان أصلع.

قال وقد روى عبد الرحمن المسعودي عن ابن عياش المنتوف، قال: رأيت أبا بردة قال لأبي العادية الجهني قاتل عمار بن ياسر: أأنت قتلت عمار بن ياسر؟ قال: نعم، قال: ناولني يدك فقبلها، وقال: لا تمسك النار أبداً.

وروى أبو نعيم عن هشام بن المغيرة عن الغضبان بن يزيد، قال: رأيت أبا بردة قال لأبي العادية قاتل عمار بن ياسر: مرحبا بأخي ها هنا، فأجلسه إلى جانبه[1].

ـ روى له في الصحاح:

البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وأبو داود.

❖ مكحول الدمشقي (ت ١١٣ هـ)

ـ اسمه ولقبه:

أبو عبد الله مكحول الدمشقي الشامي، كان من سبي كابل لسعيد بن العاص فوهبه لإمرأة من هذيل فأعتقته، فأصبح الهذلي بالولاء.

ـ النص على نصبه:

وقد عده ابن أبي الحديد من المبغضين لعليّ، إذ قال في (شرح نهج البلاغة): وكان مكحول من المبغضين له (عليه السلام)، روى زهير بن معاوية عن الحسن بن الحرّ قال: لقيت مكحول فإذا هو مطبوع ـ يعني مملوءاً ـ بغضاً لعليّ (عليه السلام) ـ فلم أزل به حتى لان وسكن.

---

(١) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد ج٤ ـ ص٩٩.

وروى المحدثون عن حماد بن زيد انه قال ـ أي مكحول ـ : أرى أنَّ أصحاب عليّ أشد حباً له من أصحاب العجل لعجلهم، وهذا كلام شنيع.

وروى شبابة بن سوار أنه ذكر عنده ولد عليّ (عليه السلام) وطلبهم الخلافة، فقال: والله لا يصلون إليها أبداً، والله ما استقامة لعلي، ولا فرح بها يوماً، فكيف تصير إلى ولده! هيهات هيهات! لا والله لا يذوق طعم الخلافة مَن رضي بقتل عثمان[١].

ـ روى له في الصحاح:

البخاري في جزء القراءة، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وأبو داود.

❖ عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٤ هـ)

ـ اسمه ولقبه:

أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي المدني.

ـ النص على نصبه:

قال ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة): روى جرير بن عبد الحميد عن محمد بن شيبة قال: شهدت مسجد المدينة، فإذا الزهري وعروة بن الزبير جالسان يذكران عليا (عليه السلام) فنالا منه، فبلغ ذلك علي بن الحسين (عليه السلام): فجاء حتى وقف عليهما، فقال: أما أنت يا عروة فإن أبي حاكم أباك إلى الله فحكم لأبي على أبيك، وأما أنت يا زهري فلو كنت بمكة لأريتك كِيرَ[٢] أبيك.

وقد روي من طرق كثيرة إن عروة بن الزبير كان يقول: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله (ص) يزهو إلا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد.!؟

وروى عاصم بن أبي عامر البجلي عن يحيى بن عروة قال: كان أبي إذا ذكر علي نال منه. فقال لي مرّة: يا بني والله ما أحجم الناس عنه إلا طلباً للدنيا، لقد بعث إليه أسامة بن زيد أن ابعث إلي بعطائي، فوالله إنك لتعلم انك لو كنت في فم أسد لدخلت معك، فكتب إليه: إن هذا المال لمن جاهد عليه، ولكن لي مالاً بالمدينة فاصب منه ما شئت. قال يحيى: فكنت أعجب من وصفه إياه بما وصفه، وعيبه له وانحرافه عنه[٣].

ـ روى له في الصحاح:

البخاري، مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه، وأبو داود.

---

(١) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد ج٤ ـ ص١٠٣.

(٢) الكير: كير الحداد، وهو زق أو جلد غليظ ذو حافات ينفخ فيه. انظر مجمع البحرين للطريحي مادة كير.

(٣) شرح نهج البلاغة ـ ابن أبي الحديد ج٤ ـ ص١٠٢.

❖ هيثم بن الأسود النخعي المذحجي (توفي ما بعد ٢٠٠هـ)

ـ اسمه ولقبه:

أبو العريان الهيثم بن الأسود بن أقيش بن معاوية المذحجي النخعي الكوفي.

ـ النص على نصبه:

قال ابن حجر في (تهذيب التهذيب) نقلاً عن المرزباني في (معجمه) قوله: هو أحد الشعراء وكان عثمانياً منحرفاً، وهو أحد من شهد على حجر بن عدي[١].

في (تقريب التهذيب) قال: شاعر صدوق رمي بالنصب[٢].

ـ روى له في الصحاح:

البخاري في (الأدب المفرد).

❖ إسماعيل بن سميع الحنفي (ت ١٣٠ ـ ١٥٠هـ)

ـ اسمه ولقبه:

أبو محمد إسماعيل بن سميع الحنفي الكوفي بياع السابري.

ـ النص على نصبه:

حكى ابن حجر في (تهذيب التهذيب) قول الحاكم: انه قرأ بخط أبي عمرو المستملي سئل محمد بن يحيى عن إسماعيل بن سميع فقال: كان بيهسياً[٣] كان ممن يبغض عليا[٤].

ـ روى له في الصحاح:

مسلم وأبو داود والنسائي.

❖ أسد بن وداعة الطائي (ت ١٣٧ هـ)

ـ اسمه ولقبه:

أبو العلاء أسد بن وداعة الطائي الحمصي الشامي.

ـ النص على نصبه:

قال الذهبي في (ميزان الاعتدال): شامي من صغار التابعين ناصبي يسب[٥].

وفي (تاريخ الإسلام): وكان من العلماء بدمشق وفيه نصب معروف نسأل الله العفو[٦].

---

(١) تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ـ ج ١١ ـ ص ٧٩.

(٢) تقريب التهذيب ـ ابن حجر ـ ج ٢ ـ ص ٢٧٥.

(٣) طائفة من الخوارج ينسبون إلى رأسهم أبي بيهس وهم من الخوارج الصفرية، ويعتقدون إن من لا يعتقد معتقدهم فهو عندهم كافر.

(٤) تهذيب التهذيب ـ ابن حجر ج١ ـ ص٢٦٦.

(٥) ميزان الاعتدال ـ الذهبي ج١ ـ ص٢٠٧.

(٦) تاريخ الإسلام ـ الذهبي ج٨ ـ ص٢٧٢.

وأما في (المغني في الضعفاء) فقال: شامي ناصبي سباب عداده في التابعين[١].

وقال ابن حجر في (لسان الميزان): شامي من صغار التابعين ناصبي يسب[٢].

أما العقيلي في (الضعفاء) روى بسنده قال: سمعت يحيى بن سعيد قال: حدثنا أزهر الحراني وأسد بن وداعة وجماعة يسبون عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكان ثور بن يزيد في ناحية لا يسب فإذا لم يسب جروا برجله[٣].

وفي (سؤالات الآجري لأبي داود): قال أبو داود: بلغني عن يحيى بن سعيد قال: كان أسد بن وداعة وأزهر بن عبد الله الحرازي يقعان في علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وحدث عن أبي هريرة الحمصي: قال كان أسد بن وداعة يقول: احمدوا الله ثلاثاً، وسبحوه ثلاثا، والعنوا فلانا ثلاثا[٤].

- روى له في الصحاح:

لم يرو له أحد من الستة، ولكن اخرج له أحمد في المسند مرسلا في باب الزهد، والبيهقي في السنن الكبرى، والهيثمي في مجمع الزوائد، وابن أبي شيبة في المصنف، والطبراني في مسند الشاميين وغيرهم.

❖ عمران بن حطان (ت ٨٤ هـ)

- اسمه ولقبه:

عمران بن حطان بن ظبيان بن لوذان بن عمرو بن الحارث السدوسي البصري.

- النص على نصبه:

على الرغم من أنه خارجي[٥] معروف، فقد مدح قاتل أمير المؤمنين علي (عليه السلام) عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله ورثاه بأبيات مشهورة: تشفيا بمقتله (عليه السلام)، رواها جملة من المؤرخين ورجال الحديث، كابن حجر وابن عبد البر، وابن عساكر وغيرهم[٦]، والأبيات هي:

---

(١) المغني في الضعفاء - الذهبي ج١ - ص٧٦.

(٢) لسان الميزان - ابن حجر ج١ - ص٣٨٥.

(٣) الضعفاء - العقيلي ج١ - ص٢٦.

(٤) سؤالات الآجري - لأبي داود ج٢ - ص٢٢٦.

(٥) الخوارج يعدون من جملة النواصب أيضاً، وإنما اعرضنا عن ذكرهم هنا إلى مقام آخر، تقيدا بما التزمنا به: بذكر من نص على نصبه، من علماء العامة بالنص واللفظ والمعنى، وذكرنا (عمران بن حطان) هنا من باب المثال لا غير.

(٦) الاستيعاب - ابن عبد البر - ج ٣ - ص ١١٢٨ - ١١٢٩، الجوهر النقي - الماردين - ج ٨ - ص ٥٨ - ٥٩، تاريخ مدينة دمشق - ابن عساكر - ج ٤٣ - ص ٤٩٥، الإصابة - ابن حجر - ج ٥ - ص ٢٣٢، تهذيب الكمال - المزي - ج ٢٢ - ص ٣٢٥وغيرها كثير.

يـا ضـربة مـن تقـى مـا أراد بهـا ... إلا ليبلـغ مـن ذي العـرش رضـوانا
إنـي لأذكـره حينـا فأحـسبه ... أوفـى البريـة عنـد الله ميزانـا
أكـرم بقـوم بطـون الطـير أقـبرهم ... لم يخلطـوا دينـهم بغيـا وعـدوانا

وقد روى ابن عبد البر في (الاستيعاب) معارضة بكر بن حماد التاهرتي هذه الأبيات فقال:

قـل لابـن ملجـم والأقـدار غالبـة ... هـدمت ويلـك للإسـلام أركانـا
قتلـت أفـضل مـن يمـشي علـى قـدم ... وأول النـاس إسـلاماً وإيمانـا
وأعلـم النـاس بـالقرآن نم بمـا ... سـن الرسـول لنـا شـرعاً وتبيانـا
صـهر النـبي ومـولاه وناصـره ... أضـحت مناقبـه نـوراً وبرهانـا
وكـان منـه علـى رغـم الحسود لـه ... مـا كـان هـارون مـن موسـى بـن عمرانـا
وكـان في الحـرب سـيفاً صـارماً ذكـراً ... ليثـاً إذا لقـى الأقـران أقرانـا
ذكـرت قاتلـه والـدمع منحـدر ... فقلـت سـبحان رب النـاس سـبحانا
إنـي لأحـسبه مـا كـان مـن بـشر ... يخـشى المعـاد ولكـن كـان شـيطانا
أشـقى مـرادا إذا عـدت قبائلـها ... وأخـسر النـاس عنـد الله ميزانـا
كعـاقر الناقـة الأولى الـتي جلبـت ... علـى ثمـود بـأرض الحجـر خـسرانا
قـد كـان يخـبرهم أن سـوف يخـضبها ... قبـل المنيـة أزمانـاً فأزمانـا
فـلا عفـا الله عنـه مـا تحملـه ... ولا سـقى قـبر عمـران بـن حطانـا
لقولـه في شـقى ظـل مجترمـا ... ونـال مـا نالـه ظلمـاً وعـدوانا
يـا ضـربة مـن تقـى مـا أراد بهـا ... إلا ليبلـغ مـن ذي العـرش رضـوانا
بـل ضـربة مـن غـوى أوردتـه لظـى ... فـسوف يلقـى بهـا الـرحمن غـضبانا
كأنـه لم يـرد قـصدا بـضربته ... الا ليـصلى عـذاب الخلـد نيرانـا

كما رد على الأبيات القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الشافعي الطبري المعاصر للبخاري صاحب (الصحيح)، فقال:

يـا ضـربة مـن شـقي مـا أراد بهـا ... إلا ليهـدم مـن ذي العـرش بنيانـا
إنـي لأبـرأ ممـا أنـت قائلـه ... عـن ابـن ملجـم الملعـون بهتانـا

إنـــي لأذكـــره يومـــاً فألعنـــه وألعـــن الـــدهر عمـــران بـــن حطانـــا
عليـــك ثـــم عليـــه الـــدهر متـــصلاً لعـــائن الله إســـراراً وإعلانـــا
فـــأنتم مـــن كـــلاب النـــار جـــاء بـــه نـــص الـــشريعة برهانـــا وتبيانـــا

ورد على الأبيات أيضاً محمد بن أحمد الطبيب، فقال:

يـــا ضـــربة مـــن غـــدور صـــار ضـــاربها أشـــقى البريـــة عنـــد الله إنـــسانا
إذا تفكـــرت فيـــه ظلـــت ألعنـــه والعـــن الكلـــب عمـــران بـــن حطانـــا

- روى له في الصحاح:

البخاري، وأبو داود، والنسائي.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. الآحاد والمثاني - ابن أبي عاصم.
٣. إرغام المبتدع الغبي - ابن الصديق المغربي.
٤. أساس البلاغة - الزمخشري.
٥. الاستيعاب - ابن عبد البر.
٦. أسد الغابة - ابن الأثير.
٧. الإصابة - ابن حجر .
٨. أصول السرخسي - أبي بكر السرخسي.
٩. إكمال الإكمال - ابن ماكولا.
١٠. إكمال تهذيب الكمال - مغلطاي.
١١. الإنصاف - المرداوي.
١٢. تاج العروس - الزبيدي.
١٣. التاج والإكليل - المواق.
١٤. تاريخ الإسلام - الذهبي.
١٥. التاريخ الكبير - البخاري .
١٦. تاريخ خليفة بن خياط - ابن خياط.
١٧. تاريخ مدينة دمشق - ابن عساكر.
١٨. تحفة الأحوذي - المباركفوري.
١٩. تدريب الراوي - السيوطي.
٢٠. التعديل والتجريح - الباجي.
٢١. التعريفات - الجرجاني.
٢٢. تقريب التهذيب - ابن حجر.

٢٣. تكملة حاشية رد المحتار - ابن عابدين.
٢٤. تهذيب التهذيب - ابن حجر.
٢٥. تهذيب الكمال - المزي.
٢٦. توجيه النظر إلى أصول الأثر - الجزائري الدمشقي.
٢٧. توضيح المشتبه - ابن ناصر الدين الدمشقي.
٢٨. ثمرات النظر - الصنعاني .
٢٩. الجرح والتعديل - الرازي.
٣٠. الجوهر النقي - المارديني.
٣١. حاشية رد المختار - ابن عابدين .
٣٢. خلاصة التهذيب - الخزرجي.
٣٣. رسالة الرد على الروافض - ابن تيمية.
٣٤. رفع المنارة - محمود سعيد ممدوح .
٣٥. الرواة الثقات المتكلم فيهم - الذهبي.
٣٦. روضة الطالبين - النووي .
٣٧. سنن ابن ماجة - ابن ماجة.
٣٨. سنن النسائي - النسائي.
٣٩. سؤالات الآجري - لأبي داود .
٤٠. سير أعلام النبلاء - الذهبي.
٤١. شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد.
٤٢. الصارم المسلول على شاتم الرسول - ابن تيمية.
٤٣. صحيح البخاري - البخاري.
٤٤. صحيح الترمذي - الترمذي.
٤٥. صحيح مسلم - النيسابوري.
٤٦. صفة المنافق - الفريابي.
٤٧. الضعفاء - العقيلي.
٤٨. عون المعبود - العظيم آبادي.
٤٩. الفتاوى الكبرى - ابن تيمية.
٥٠. فتح الباري - ابن حجر.
٥١. فتح المغيث - الحافظ العراقي.
٥٢. فردوس الأخبار - الديلمي.
٥٣. القاموس المحيط - الفيروز آبادي .
٥٤. قطف الثمر - الفلاني .
٥٥. الكاشف - الذهبي.
٥٦. الكامل - ابن عدي.
٥٧. كتاب الصمت وآداب اللسان - ابن أبي الدنيا.

٥٨. كشف الأسرار - البخاري.
٥٩. الكفاية - الخطيب البغدادي.
٦٠. الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية). لأبي البقاء الكفوي.
٦١. كنز العمال - المتقي الهندي.
٦٢. لسان العرب - ابن منظور.
٦٣. لسان الميزان - ابن حجر.
٦٤. المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين - ابن حبان.
٦٥. مجمع البحرين - الطريحي.
٦٦. مجمع الزوائد - الهيثمي.
٦٧. مجموعة الفتاوى - ابن تيمية.
٦٨. المدخل إلى كتاب الإكليل - الحاكم النيسابوري.
٦٩. المستدرك على الصحيحين - النيسابوري.
٧٠. المستصفى - الغزالي.
٧١. مسند أحمد - ابن حنبل.
٧٢. مسند بن راهويه - إسحاق بن راهويه.
٧٣. مطالب أولي النهى - السيوطي.
٧٤. معاني الأخبار - الشيخ الصدوق.
٧٥. المعجم الأوسط - الطبراني.
٧٦. معجم مقاييس اللغة - ابن فارس.
٧٧. معرفة التذكرة - الذهبي .
٧٨. معرفة الثقات - ابن حبان.
٧٩. معرفة الثقات - العجلي.
٨٠. معرفة علوم الحديث - الحاكم النيسابوري.
٨١. مغني المحتاج - الشربيني.
٨٢. المغني في الضعفاء - الذهبي.
٨٣. المفردات - الأصبهاني.
٨٤. مقدمة فتح الباري - ابن حجر.
٨٥. من له رواية في كتب الستة - الذهبي.
٨٦. منهاج السنة - ابن تيمية .
٨٧. مواهب الجليل - الرعيني .
٨٨. ميزان الاعتدال - الذهبي.
٨٩. النهاية في غريب الحديث والأثر - ابن الأثير.
٩٠. اليواقيت والدرر - المناوي.

❖ ❖ ❖

فضل
أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
(كرم الله وجهه)

من أمالي الشيخ الإمام العالم

الحافظ تقي الدين أبي القاسم

علي بن الحسن بن هبة الله بنِ عبد الله الشافعي

المعروف بابن عَسَاكر (٤٩٩-٥٧١هـ)

عُني بنشرها

مُحَمَّد سعيد الطُّرَيحي

الكوفة
Kufa Academy

فضل أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)

محمد سعيد الطريحي

بسم الله و بحمده وبعد

توطئة:

من بين مصوراتي الخاصة بسير وأحوال أهل البيت (ع)، هذا الجزء المخطوط من أمالي الحافظ ابن عساكر رحمه الله، وقد أملى فيه (٢٧) رواية في فضل أمير المؤمنين عليه السلام، وهذه الصفحات كنا قد نقلناها بعناية من أصل المخطوطة المدونة بخط المُحدث الشيخ يوسف بن عبد الهادي (٨٤٠ ـ ٩٠٩هـ) المحفوظة حالياً في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق، وهي ما موجود بين ورقتي (٩٨ ـ ١٠١) ضمن المجموع ذي الرقم ٣٧٥٣ والذي كان من جملة مخطوطات المكتبة العمرية، وكنا قد نشرناها سابقاً ضمن كتابنا الموسوم (من كرامات أهل البيت) الذي صدر عن دار المرتضى ببيروت عام ٢٠٠٥.

وفي العام ٢٠٠٨ حين نشر مجمع اللغة العربية المجلد (٥٠) من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، وجدنا أن معظم الروايات الواردة في الأمالي قد وردت أيضاً في ذلك المجلد المختص بسيرة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ونعيد نشرها في الأنسكلوبيديا حفظاً وتذكاراً لهذا المسك المُتضوع من مآثر الإمام العظيم، ولله المِنة و الفضل.

محمد سعيد الطريحي

- ١ -

حدّثنا الشيخُ الإمام العالم الحافظ تقيُّ الدين أبو القاسم عليُّ بن الحسن بن هبة الله الشافعي قدّس الله روحه قال:

أخبرنا: القاضي أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن عليّ البيهقي بـ (خسر وجرد)، والشيخ أبو القاسم زاهر بن طاهر بن محمد الشحّامي: قالا:

أنبأنا أبو بكر أحمد بن منصور بن القيراوني، أنبأنا أبو الفضل الفاميّ ـ هو عبيد الله بن محمد ـ أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق السرّاج، حدثنا قُتيبة بن سعيد، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن وعبد العزيز بن أبي حازم ـ وهذا حديث يعقوب عن أبي حازم قال:

أخبرني سهل بن سعد: أن رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم، قال يوم خيبر: «لأعطينَّ الراية غداً، رجلاً يفتحُ الله على يده: يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله».

قال: فباتَ الناس يدركون ليلتهم[1]: أيهم يُعطاها.

---

(١) دالَ القوم ونحوهم ـ دوكاً ودوكةً ومداكاً: ماجوا واختلفوا: (المعجم الوسيط: ٣٠٤/١).

فلما أصبح الناس، غدوا على رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم، كلهم يرجوا أن يُعطاها فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه.

قال: فأرسلوا إليه: فأتي به، فبصق رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم في عينيه، ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجعٌ: فأعطاه الراية.

فقال عليٌّ: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلَنا؟ فقال: انفِذ على رِسلِكَ حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه: فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خيرٌ لك من أن يكون كل حُمْرُ النعم. رواه البخاري ومسلم عن قتيبة عنهما.

- ٢ -

وبالإسناد قال: حدثني الحكم بن عتيبة أنه سمع عبد الرحمن بن أبي ليلى يقول: كان أبو ليلى يسُمر مع عليٍّ رضي الله عنه: قال: اجتمع إلي نفرٌ من أهل المسجد فقالوا:

إنا ننكر من أمير المؤمنين لباسه: في الشتاء الثوب الواحدَ، وفي الصيف القَباء المحشو.

فلو سألت أباك أن يسأله إذا سمر عنده.

قال عبد الرحمن: فدخلنا عليه: فسأله أبو ليلى؟ فقال: أما كنت معنا بخيبر؟! قال: بلى، قال: فإنَّ رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم قال: «لأعطين الراية رجلاً، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، لا يرجع حتى يفتح الله على يده: فتشرَّفَ لها أصحاب رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم: فقال: أين عليٌّ؟ فقيلَ: انه أرمد: فدعاني فتفَل في عيني وقال: اللهم، اذهب عنه الحرَّ والبرد، وأعطاني الراية، ففتح الله علي، فما وجدتُ بعدها حراً ولا برداً.

- ٣ -

وبالإسناد عن سلمة بن عمرو بن الأكوع قال: بعث رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم إلى أبي بكر الصديق برايته إلى بعض حُصون خيبر، فقاتل، فرجع ولم يكن فتح، وقد جهد: ثم بعث الغدَ عمرَ بن الخطاب، فقاتل، ثم رجع ولم يكن فتح، وقد جهد: فقال رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم: «لأعطين الراية غداً، رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرّار».

قال سلمة: فدعا رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم علياً رضي الله عنه، وهو أرمد: فتفل في عينيه ثم قال: خُذ هذه الراية، فامضِ بها حتى يفتح الله عليك.

قال سلمة: فخرج والله بها يهرول هرولةً، وإنّا لخلفه نتبعُ أثره، حتى ركز رايته في رُجَم من حِجارة تحت الحُصن.

فاطلع إليه يهوديٌّ من رأس الحصن قال: مَن أنت؟

قال: أنا علي بن أبي طالب.

قال: فقال اليهودي: غُلِبتم ومن أنزل التوراة على موسى عليه السلام.

أو كما قال: فما رجع حتى فتح الله على يديه.

- ٤ -

وبالإسناد عن سعد بن أبي وقاص قال: قد مرَّ معاوية في بعض حجّاته: فأتاهُ سعد بن أبي وقاص: فذكروا علياً.

فقال سعد: سمعت رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم يقول له: - «ثلاثُ خصالٍ لئن يكون لي واحدٌ منهن أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها -».

سمعت رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم يقول: «مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه».

وسمعت رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم يقول: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله».

وسمعت رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم يقول له: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنّه لا نبيَّ بعدي».

- ٥ -

وبالإسناد قال: حدّثني جابر بن عبد الله: أنَّ علياً رضي الله عنه حملَ الباب على ظهره يوم خيبر، حتى صعد المسلمون عليه ففتحوها، وإنّه لم يحملهإلاّ أربعون رجلاً.

- ٦ -

وبالإسناد عن جابر بن سُمَرة قال: قالوا: يا رسول الله، من يحمل رايتك يوم القيامة؟ قال: «ومن عسى أن يحملها يوم القيامة؟ إلاّ مَن كان يحملها في الدنيا، عليّ بن أبي طالب».

قال: وقال رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم: «عليٌّ مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنّه لا نبيَّ بعدي».

قال: وقال رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم: «تقتلُ عمّاراً الفئة الباغية».

- ٧ -

وبالإسناد عن ابن عباس رحمه الله قال: دفع رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم الراية إلى عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه يوم بدرٍ، وهو ابنُ عشرين سنة.

- ٨ -

وبالإسناد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال:

قيل لي يومَ بدرٍ ولأبي بكر: قيل لأحدنا: معك جبريل: وقيل للآخر: معك ميكائيل وإسرافيل ملكٌ عظيم، يشهدُ القتال، ولا يُقاتل، ويكون في الصفّ.

- ٩ -

وبالإسناد عن الحارث عن علي رضي الله عنه قال:

لما كانت ليلة بدرٍ قال رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم: «مَن يستقي لنا من الماء»؟ فاحجم الناس: فقام عليٌّ رضي الله عنه، واحتضن قِربةً، ثم أتى بئراً بعيدَة القعر مُظلمة، فانحدر فيها: فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل: اهبطوا لِنَصرِ محمدٍ وحزبه.

فنصلوا من السماء، لهم لَغَطٌ يُذعرُ من سمعه: فلما جازوا بالبئر، سلّموا عليه، من عند آخرهم، إكراماً وتبجيلاً.

- ١٠ -

وبالإسناد عن هبيرة بن يريم قال:

خطبنا الحسن بن علي رضي الله عنها فقال: لقد فارقكم رجلٌ بالأمس، لم يسبقهُ الأولون بعلمٍ، ولا يدركه الآخرون.

كان رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم يبعثه بالراية، جبرائيلٌ عن يمينه، وميكائيلٌ عن شماله، لا ينصرفُ حتى يفتح له.

- ١١ -

وبالإسناد عن هشام بن حسان قال:

بينا نحنُ عند الحسن البصري رحمه الله: إذ أقبل رجلٌ من الأزارقة فقال له: يا أبا سعيد: ما تقول في عليٍّ بن أبي طالب؟ قال: فاحمرَّت وجنتا الحسن وقال: رَحِم الله علياً: إنَّ علياً كان سهماً للهِ صائباً في أعدائه، وكان في محلة العلم أشرفها وأقربها من رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم، وكان رُهبانيَّ هذه الأمة: لم يكن لمال الله بالسروقة، ولا في أمرِ الله بالنوَّامة: أعطى القرآن عزيمة علمه، فكان منه في رياضٍ مونقةٍ، وأعلامٍ بيِّنةٍ: ذاك والله علي بن أبي طالب رحمه الله.

- ١٢ -

وبالإسناد قال:

حدّثني سالم مولى أبي الحسين قال: كنت جالساً مع أبي الحسين زيد بن عليٍّ، ومعه ناسٌ من قريشٍ من بني هاشم وبني مخزوم: فأنشد زيد بن علي:

ومَن فَضَّلَ الأقوامَ يوماً برأيهِ ... فإنَّ عليّاً فضَّلتَه المناقِبُ

وقولُ رسولِ الله والحقُّ قولهُ ... وإن رُغِمتْ فيه الأنوفُ الكواذِبُ

بأنَّكَ منّي يا عليُّ مُعالِنا ... كهارون من موسى أخٍ لي وصاحب

دعاهُ ببدرٍ فاستجابَ لأمرهِ ... وبادرَ في ذاتِ الإلهِ يُضارِبُ

فما زالَ يعلوهمْ بهِ وكأنَّهُ ... شهابٌ تثنَّى بالقوايم ثاقِبُ

- ١٣ -

وبالإسناد قال:

أمر فلانٌ سعداً فقال: ما يمنعك أن تَسُبَّ أبا تراب؟

فقال: كيف أسبه: وثلاثٌ - سمعتُ رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم يقولُهُنَّ - لئن يكون لي واحدةٌ منهن، أحبُّ إليَّ من حُمْر النَّعم.

سمعتُ رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم يقول: «وقد خلّف عليّاً في أهله»، وخرج في بعض مغازيه: فقال له علي رضي الله عنه: تُخلِفُني مع النساء والصبيان: فقال له صلى الله وآله عليه وسلم: «أما ترضى أن تكونَ منّي بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبوة بعدي؟».

وسمعته يقول يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلاً، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله».

قال: فتطاول لها الناس كلهم: فقال: ادعوا لي عليّاً: فأتي به وهو أرمد، فبَصَقَ في عينهِ، ودفعَ الراية إليه: ففتح الله عليه.

ولمّا نزلت هذه الآية: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[1]: دعا رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم: عليّاً، وفاطمة، وحسناً، وحسيناً: فقال: اللهم هؤلاء أهلي.

- ١٤ -

وعن أمِّ موسى قالت: سمعت عليّاً رضي الله عنه يقول: ما رَمَدت ولا صُدِّعتُ: منذ مسح رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم وجهي، وتَفَلَ في عيني يومَ خيبر، حينَ أعطاني الراية.

- ١٥ -

وبالإسناد عن ابن عباس قال:

قال رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم: «أعطاني ربي عزَّ وجلّ في عليّ: خِصالاً في الدنيا، وخِصالاً في الآخرة. أعطاني به في الدنيا: أنّه صاحب لوائي عند كُلِّ شديدةٍ وكريهةٍ: وأعطاني بهِ: أنه غامضي، وغاسلي، ودافِني: وأنه لن يرجع بعدي كافراً. وأعطاني به في الآخرة: أنه صاحب لواء الحمد، يقدمني به: وأنه متكئي في طول الحشر يوم القيامة: وأنه يكون لي عوناً على حمل مفاتيح الجنة».

- ١٦ -

وبالإسناد عن أبي الحمراء - خادم رسول الله - قال:

سمعت رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم يقول: «لَمّا أسري بي: رأيتُ في ساق العرش مكتوبٌ: «لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، صفوتي من خلقي، أيدتهُ بعليٍّ، ونصرته به».

- ١٧ -

وبالإسناد عن أبي سعيد الخُدري قال: كُنّا نمشي مع رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم، فانقطع شِسعُ نعلهِ، فتناولها عليٌّ ليعالجها. ثم مشى رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم فقال: «إنَّ عليّاً ليقاتلكم على تأويل القرآن، كما قاتلت أنا على تنزيله».

قال أبو سعيد: فخرجت فبشرته بما قال رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم، فلم يكترث به فرحاً: كأنه شيءٌ قد سمعه.

---

(١) سورة آل عمران: ٦١.

- ١٨ -

وبالإسناد عن الشعبي قال: بلغنا أنه كان أبو بكر جالساً يوماً، إذ طلعَ عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنهما من بعيد: فلما رآه أبو بكر قال: مَنْ سرّه أن ينظر إلى: أعظم الناس منزلةً، وأقربهم قرابةً، وأفضلهم دالةً، وأعظمهم عند رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم: فلينظر إلى هذا الطالع.

- ١٩ -

وبالإسناد عن أبي سعيدٍ أنه قال:

كان لعليّ رضي الله عنه من رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم مدخلٌ، لم يكن لأحدٍ من الناس.

- ٢٠ -

وبالإسناد عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم: «عليٌّ ابن أبي طالب صاحب سِرّي، ومُعيني على أمري».

- ٢١ -

وبالإسناد عن أبي رافعٍ عن عليّ كرم الله وجهه قال:

لما خرج رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم من مكة إلى المدينة مهاجراً، أمرني أن أقيم بعده حتى أؤدي ودائع كانت عنده للناس، لأنه كان يُسمَّى الأمين. فأقمت ثلاثاً، وكنت أظهر، ما تغيَّبتُ يوماً، ثم خرجت فجعلت أتبع طريق رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم، حتى قدمتُ على بني عمرو بن عوف، ورسول الله صلى الله وآله عليه وسلم مُقيمٌ فيهم.

- ٢٢ -

وبالإسناد عن ميمون الكرديّ قال:

كنا عند ابن عباس رضي الله عنه فقال له رجلٌ: حدِّثنا عن عليّ عليه السلام فقال: أمّا لأحدِّثك حقاً: إنَّ رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم أمر بالأبواب الشارعة في المسجد فَسُدَّت، إلاّ باب عليّ.

فكأنهم وُجِدوا من ذالك: فأرسل إليهم: أنه بلغني أنكم وَجِدتم مِن سَدّي أبوابكم، وتركي باب عليّ. وإنيّ والله ما سددتُهُ مِن قِبل نفسي: إن أنا إلاّ عبدٌ مأمور، أُمِرتُ بشيء ففعلتُ، إن أتبِّعُ إلاّ ما يُوحى إليّ.

- ٢٣ -

وبالإسناد عن أم سلمة رضي الله عنه قالت:

خرج النبي صلى الله وآله عليه وسلم يوماً، حتى إذا كان بصحن المسجد نادى: «ألا إنيّ لا أُحِلُّ المسجد لِجُنُبٍ ولا حائضٍ، إلا لمحمدٍ وأزواجه، وعليٍّ وفاطمة، ألا هل بيَّنتُ لكم الأشياء أن تضِلّوا».

- ٢٤ -

وبالإسناد عن عبد الله بن دينار الأسلميّ، عن خالهِ عمرو الأسلمي - وكان من أصحاب الحُديبية - قال: كنتُ مع عليٍّ بن أبي طالب - كرم الله وجهه - في خيلهِ، التي بَعَثَهُ فيها رسول الله صلى الله وآله عليه وسلم إلى اليمن: فجفاني عليٌّ بعض الجفا، فوجدتُ عليه في نفسي، فلما قدمتُ المدينة، اشتكيته في مجالس المدينة وعند من لقيته، وأقبلت يوماً ورسول الله صلى الله وآله عليه وسلم جالس في المسجد: فلما رآني أنظر إلى عليّ شَزَراً، تركني حتى جلستُ: فلما جلستُ قال: «إنه واللهِ يا عمرو لقد آذيتني»: فقلت: إنّا لله وإنا إليه راجعون: أعوذ بالله والإسلام أن أؤذي رسول الله، فقال صلى الله وآله عليه وسلم: «مَن آذى عليّاً، فقد آذاني».

- ٢٥ -

وبالإسناد عن أبي الأسود، عن عروة: أنّ رجلاً وقع لعليّ بمحضرٍ من عمر رضي الله عنهما، فقال له عمر: تعرف صاحب هذا القبر، محمَّدَ بن عبد الله بن عبد المطلب؟ وعلي بن أبي طالب بن عبد المطلب؟ لا تذكر عليّاً إلا بخير: فإنك إن آذيته، آذيت محمداً هذا في قبره.

- ٢٦ -

جاء ابن أحوز التميمي إلى معاوية رضي الله عنه، من عند عليٍّ فقال يا أمير المؤمنين: جئتك مِن عند: آلَم الناس، وأبخلِ الناس، وأعيا الناس، وأجبنِ الناس.

فقال له معاوية: ويلك، أنّى أتاهُ اللؤمُ ونحنُ كنا نتحدث: أن لو كان لعليّ بيتاً من تِبنٍ، وآخر من تِبر، لأنفذَ التبرَ قبل التِبن. وأنى أتاهُ العِيُّ، وإن كُنا لنتحدث إنّه ما جرت الموسى على رأس رجلٍ من قريشٍ أفصح من عليّ.

ويلك، وأنّى أتاهُ الجبنُ، وما برز له رجلٌ إلا صرعه. والله يا ابن أحوز، لولا أن الحرب خُدعةٌ لضربتُ عنقك. اخرج فلا تقيمُ في بلدي.

قال عطاء: إن كان يقاتله، فإنه كان يعرفُ له فضله.

- ٢٧ -

قال: أنشدنا أبو القاسم سعيدُ بن عليٍّ الميمذي لنفسهِ بصور:

وعلـــي مُـــردِي الكُمـــاة بحـــدٍّ ... المـــشرفيّ القِـــرمِ الحمَـــيِّ الـــذّمارِ

بـــدرِ آلِ الرّســـول ســـيفِ الهُـــدى ... المـــسلول زوج البتـــولِ ذاتِ الفَخـــارِ

وأبـــي الـــسيّدين سِـــبطي نـــبيّ الله ... خـــيرِ البـــادين والحُـــضّارِ

كـــم فقَـــارٍ مِـــن ذي افـــتراءٍ علـــى الله ... فـــراهُ بـــشفرَتي ذي الفَقـــارِ

وعظـــيمٍ مـــن الأمـــورِ كفـــاهُ ... غيرَمـــا هايـــبٍ ولا خـــوّارِ

ســـلْ بـــه خيـــبراً وبـــدراً وأحـــداً ... وحُنينـــاً تُنبيـــكَ بالأخبـــارِ

آخره: والحمدُ لله ربِّ العالمين وصلى الله على سيّدنا محمَّدٍ وآلهِ الطاهرين. ❖

الغدير
نهاية وبداية

د. رزاق عبد الأمير مهدي الطيَّار
جامعة الكوفة - كلية التربية الأساسية

مقدمة:

لم تزل رعاية الله تعالى تحفُّ بأكرم خلقه (الإنسان)، منذ لحظة إبداعه وتكوينه في السموات العلا، وبعد نزوله إلى الأرض لم تنقطع تلك العناية الإلهية، ومع كثرة الخطايا والمعاصي والجرائم التي اقترفها هذا المخلوق، كانت رسلُ السماء تترى إلى الأمم، كلهم يدعو إلى العودة إلى ساحة الربوبية والعبودية لله تعالى وحده، ونبذ الشرك، والامتثال لإرادة الخالق وتعاليمه، ليتحقق بذلك معنى الخلافة الإلهية خلافة الإنسان للأرض، ولا يغادر الرسول قومه حتى يترك فيهم أوصياء من بعده يهدونهم إلى شريعته، ويتمون ما بدأه من الدعوة الصالحة، وكان ختام أولئك الرسل نبينا المصطفى محمد (ص)، بعث على فترة من الرسل للبشرية جميعاً برسالة السماء السمحاء، معلناً الدعوة لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، مصدقاً لما بين يديه من الرسل، ومتوجاً لجهودهم، وخاتماً لشرائعهم، واقتضت حكمة الله تعالى أن يعين خاتم الأنبياء أوصياء من بعده، مثلما كان حال من سبقه من الرسل، لتستمر الدعوة وتقام الحجة من الله تعالى على خلقه.

كانت حجة الوادع في السنة العاشرة من الهجرة النبوية المباركة بمثابة مؤتمر إسلامي عام خطط له النبي الأكرم (ص) بكثير من العناية، وحرص على حشد أكثر عدد من المسلمين لحضور هذا المؤتمر، وأخبر المسلمين أن هذا المؤتمر لن يتكرر: لأن هذا آخر عام يحج به النبي، وسيلتحق بالرفيق الأعلى بعد ذلك، وشدد عليهم بأنه قد بَلَّغَ عن ربه كل ما أرسله به إليهم، ثم ختم مؤتمره هذا بإعلان مصيري في (غدير خم) فأعلن فيه عن وصيه وخليفته من بعده، ثم عقد له البيعة في أعناق الحاضرين، وأمرهم بأن يبلغ الشاهد منهم الغائب، وبعدها انتهى المؤتمر وتفرق الجمع وفي أعناقهم بيعة، لخليفة السماء ووصي النبي الأكرم (ص).

تمثل واقعة الغدير نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة، نهاية مرحلة الرسالة، وبداية مرحلة الوصاية والخلافة: فالرسول قد أتمَّ مهامه، وأنجز تبليغ رسالة ربه، وبإعلانه عن وصيه وخليفته من بعده، وأخذه البيعة له من المسلمين في هذا المؤتمر العام تكون آخر مهام الرسالة قد أنجزت، وعندها أعلنت السماء عن كمال الدين. وهكذا بدأت مرحلة جديدة هي مرحلة

الخلافة، وكانت بيعة الغدير نقطة الانطلاق الثانية في دين الله لإكمال ما بدأه النبي الأكرم (ص).

يحاول هذا البحث بيان أهمية واقعة (غدير خم) من حيث كونها تجسيداً للخلافة الإلهية، وإعلاناً لخليفة الله تعالى في أرضه، وتتويجاً له. انقسم البحث على ثلاثة محاور الأول منها خصص للحديث عن مرحلة الإعداد الإلهي للخليفة، والثاني للحديث عن التتويج الإلهي للخليفة، فيما ناقش المحور الثالث مسؤولية الأمة بعد البيعة في رعاية الخلافة. وكان منطلق البحث وفرضيته الرئيسة أن بيعة الغدير نهاية مرحلة وبداية أخرى.

تمهيدٌ: مفهوم الخلافة الإلهية:

جاء في المعجم العربي: اسْتَخْلَفَ فلاناً من فلان: جعله مكانه، وخَلَفَ فلان فلاناً إذا كان خَلِيفَتَه، واسْتَخْلفه: جعله خليفة، والخَلِيفةُ: الذي يُسْتخْلَفُ ممن قبله، والخِلافةُ: الإمارةُ (ينظر: ابن منظور، ١٤٠٥: ١٨٣/٩) ويتفق المعنى القرآني لكلمة (الخلافة) مع الدلالة المعجمية للكلمة، والذي يعنينا هنا تحديداً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠) فقد أخبر الله تعالى ملائكته بأنه جاعلٌ في الأرض خليفة، والجعل: (إيجاد الشيء بعد أنْ لم يكن موجوداً) (الطوسي، ١٤٠٩: ١٣١/١) والخلافة: هي قيام شيء مقام آخر، وسياق الآية المباركة يشعر بأمرين:

الأول: إن الخلافة المذكورة في الآية إنما هي خلافة الله تعالى في الأرض، لا خلافة نوع من الموجود الأرضي كانوا في الأرض قبل الإنسان وانقرضوا، ثم أراد الله تعالى أن يخلفهم بالإنسان، مثلما احتمله بعض المفسرين (ينظر: المصدر نفسه)، ومعنى تعليم الأسماء إيداع هذا العلم في الإنسان بحيث يظهر منه آثاره تدريجاً دائماً (ينظر: الطباطبائي، ١٤١٥: ١١٥/١).

والأمر الثاني المستفاد من سياق الآية الشريفة: أن هناك أمراً لا يقدر الملائكة على حمله ولا تتحمله، في حين يتحمله هذا الخليفة الأرضي، فهو يحكي عن الله سبحانه أمراً، ويتحمل منه سراً ليس في وسع الملائكة، وبهذا يتدارك ما اعترض به الملائكة من أمر الفساد وسفك الدماء. (ينظر: المصدر نفسه).

لاشكّ أن ما فضّل آدم على الملائكة هو علمه بأسماءَ لم تكن تعلم بوجود مسمياتها الملائكةُ. ومعنى هذا العلم معرفة آدم (ع) حقائق تلك المسميات لا علمه بالأسماء وجهله بحقيقة المسمى، وذلك لأن علمه هذا جاء بتعليم من الله تعالى فهو انعكاس عن علم الله عزّ وجلّ. ولأن الخليفة يقوم مقام المُستَخلِف له، ولما كان علم الله تعالى نافذاً في المخلوقات؛ كان علم آدم بهذه المسميات مرتبطاً بهذه المرتبة العليا من علمه تعالى. أما الملائكة فكانت

تجهل تلك الأسماء ولا تعلم حقيقة مسمياتها، ولمّا أنبأها آدم بأسمائها أصبحت تعلم الأسماء، وبقيت تجهل حقيقة المسميات، (ينظر: المصدر نفسه).

لقد تعدد أقوال العلماء في تفسير تلك الأسماء التي علمها الله تعالى لآدم (ينظر: الطوسي، ١٤٠٩: ١/١٣٨)، والذي يطمئن إليه البحث أن المراد بالأسماء هنا (كل اسم يقع لمسمى): وذلك لأن كلمة (الأسماء) في الآية المباركة جاءت جمعاً محلى باللام، ولم يكن هناك تقييد ولا عهد: لذا فهي تفيد العموم ثم أُكّدَ هذا العموم بكلمة (كلها) (ينظر: الطباطبائي، ١٤١٥: ١/١١٧)، وتدل كلمة (عرضهم) في سياق الآية الشريفة على أن مسميات تلك الأسماء ذوات حياة وأنها واقعة تحت حجاب الغيب غيب السماوات والأرض، ويمكن أن يقال: (إن هؤلاء الذين عرضهم الله تعالى على الملائكة موجودات عالية محفوظة عند الله تعالى، محجوبة بحجب الغيب، أنزل الله سبحانه كل اسم في العالم بخيرها وبركتها واشتق كل ما في السماوات والأرض من نورها وبهائها) (المصدر نفسه: ١/١١٨).

تبيَّن من الآية المباركة: إن آدم (عليه السلام) خليفة الله تعالى في الأرض، ولازم هذا أن الخلافة لا تتم إلاّ (بكون الخليفة حاكياً للمُستَخلِف في جميع شؤنه الوجودية وآثاره وأحكامه وتدابيره بما هو مُستَخلفٌ، والله سبحانه في وجوده مسمى بالأسماء الحسنى متصف بالصفات العليا، من أوصاف الجمال والجلال، منزه في نفسه عن النقص، ومقدس في فعله عن الشر والفساد جلت عظمته) (الطباطبائي، ١٤١٥: ١/١١٥)، ولمّا كان عمر آدم محدودا والغاية من الخلافة لم تنجز بعمره المعدود، يدلُّ هذا أن الخلافة باقية في عقبه، مستمرة في أولاده حتى يرث الأرض ويرجع الأمر إليه، ولكن السؤال الآن هل تنطبق معايير الخلافة على كل فرد من ولد آدم أو أنها تنتقل في أفراد مخصوصين منهم يحاكون صفات المُستخلِف، ويحققون غاية الخلافة والغرض منها؟

للجواب عن هذا السؤال يمكن أن يقال: إن الله تعالى في معرض حديثه مع الملائكة في الآية المباركة لم يفند ادعاءهم بأن بني آدم يسفكون الدماء ويفسدون في الأرض، ولم ينف ذلك عنهم، فكان الجواب من تعالى شأنه: ﴿قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣٠)، ومثل هؤلاء الأفراد العصاة من بني آدم بعيدون كل البعد عن ساحة الخلافة الإلهية، فالخلافة لاشكّ لا تتجسد إلاّ ببعض بني آدم من كان مثالاً لإرادة السماء وحاكيا لصفات الربوبية عالماً بما علّمه له الله تعالى، واختيار هؤلاء الخلفاء إرادة إلهية، وليست راجعة إلى بني البشر بأي حال من الأحوال، فالله تعالى يختار من يشاء ويصطفي من عباده رسلا وأئمة وخلفاء. وهذه الخلافة لا تثبت إلاّ بالدليل الشرعي الحاكي عن الله تعالى، فهي منصب إلهي. وهذه هي الخلافة الإلهية التكوينية، وقد أقام النبي المصطفى (ص) الحجج البالغة على الناس دالاً على خلافة الأئمة الهداة من عترته الطاهرة وحدد عددهم وأشار إلى أسمائهم وخصَّ أولهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بكثير من الرعاية والعناية. (ينظر: ابن شهر آشوب، ١٣٧٦: ١/٢٥٨).

وهناك مفهوم آخر للخلافة مفهوم دنيوي بمعنى الأمرة والسلطنة والولاية على مجتمع معين، وهذه الخلافة قد تثبت لأي شخص بطرق مختلفة، مثلما شاهدنا نماذجها في تراثنا الإسلامي، فمرَّة تثبت بالاختيار، ومرَّة بالبيعة، ومرَّة بالقوَّة والغلبة، فحالها حال رئاسة الدول اليوم، تتعدد طرق الحصول على الرئاسة والزعامة، وهذه الرئاسة الظاهريّة الصوريّة أمر لم يعتن بها الأئمة (عليهم السلام) إلاّ لإجراء الحقّ، وهي التي أرادها عليّ (ع) بقوله: **(واللّه لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ إِمْرَتِكُمْ)** (الإمام علي، ١٣٨٧: ٧٦) مشيراً إلى نعل لا قيمة لها، وقوله: **(أَمَا والَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَوْلا حُضُورُ الْحَاضِرِ، وقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ، ومَا أَخَذَ اللّه عَلَى الْعُلَمَاءِ، أَن لا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ ولا سَغَبِ مَظْلُومٍ، لأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا ولَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوَّلِهَا، ولأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِه أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ)** (المصدر نفسه: ٥٠). وأمّا مقام الخلافة الكبرى الإلهيّة، فليس هيّناً عنده، ولا قابلاً للرفض والإهمال وإلقاء الحبل على غاربه، وهكذا كان علي بن أبي طالب (ع) خليفة لله في أرضه منذ اللحظة التي اختاره فيه الله تعالى لهذه الخلافة في سماواته، ولم يتأخر عنها طرفة عين، وإن أبعده الناس عن الإمرة الدنيوية أكثر من عشرين عاماً.

المبحث الأول
الإعداد الإلهي للخليفة

يعرف علماء النفس الشخصية بأنها (جملة من الصفات الجسمية والعقلية والمزاجية والاجتماعية والخلقية التي تميز الشخص عن غيره تمييزا واضحا) (د. أحمد عزت راجح: ٤٥٩) ويرى علماء النفس أنَّ المؤثرات الرئيسة في بناء شخصية الفرد عاملان رئيسان هما: ١ ـ الوراثة: ٢ ـ البيئة، وهما عاملان يتصارعان فيما بينهما لإثبات سيادة التأثير على شخصية الفرد. (ينظر: سلمان خلف الله، ١٩٩٨م: ٣٠) وتشمل البيئة المحيط الخارجي للفرد والتربية والتعليم، ووسائل الإعلام وغيرها، ولكلٍّ من هذه العوامل نصيب وافرٌ في تكوين شخصية الفرد ونموها، وتؤثر تأثيراً عميقاً في بناء كيانه، ويمكن أن يقال: إنَّ كل ما يتصف به الفرد من صفات خَلقيَّة أو خُلقيَّة، حسنة أو قبيحة، عالية أو وضيعة، تنتقل إليه أو يكتسبها عبر هذه القنوات.

أولا ـ المؤثرات الوراثية لخليفة الله:

حينما تنفصل الحيوانات الذكرية من الأب فهي تحمل معها نسخة كاملة من الجين الوراثي (DNA) والذي يحمل مورثات الأب كاملة الجسدية والنفسية، ولا تقتصر المورثات التي يحملها هذا الجين على صفات الأب المباشر، بل هي تختزن صفات الآباء والأسلاف المتقدمين. وما أن تلتقي هذه الجينات بمثيلتها من الأم في عملية تخصيب البويضة حتى تمتزج

مورثات الأب بمورثات الأم ليعاد إنتاج جينة وراثية جديدة، سيتخلق منها الفرد الجديد، وهكذا تعمل المورثات الجينية على تشكيل شخصية الفرد وترسم صفاته وميوله وغرائزه، وإذا أردنا أن نتتبع سيرة فرد من الأفراد فعلينا أن ننظر في تاريخ عائلته من طرف الأب والأم لنكشف مكامن الخير في شخصيته أو نتعرف على مواطن الشر فيها.

وإذا كان الحديث عن علي بن أبي طالب (ع) فيفترض أنا نتعرض لذكر أبويه: (أبو طالب) و(فاطمة بنت أسد) وحسب كلِّ امرئ أن يفخر بمثل هذين الأبوين: فهما من سلالة العز والشرف والمروءة فأبو طالب زعيم مكة، وسيد البطحاء، ورئيس بني هاشم، ورث السيادة والزعامة من أبيه عبد المطلب سيد قريش، وحامي البيت العتيق. نال أبو طالب من الهيبة ما لم ينله أحد من ولد عبد المطلب، وليس أدلُّ على ذلك من أن طغاة قريش بكل جبروتهم وهمجيتهم لم يستطع أي منهم أن يتعدى على نبي الله في حياة أبي طالب، وكانت هيبته تمنعهم من التعرض لابن أخيه مادام بينهم.

وأما فاطمة بنت أسد فهي وريثة الفخار والشمم والحنفية السمحاء، ورثت تلك الصفات كابرا عن كابر من أجدادها سادة الجزيرة من ولد إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، وكانت لها كرامة عند الله تعالى تفردت بها دون نساء العالمين، فحينما اقترب موعد ولادة خليفة الله حرصت أمُّهُ فاطمة على أن تتطوف بالبيت العتيق، بيت أبيهم إبراهيم (ع)، وكانت تدعو رَبَّها، وهناك أخذها المخاض فألصقت نفسها بجدار الكعبة تناجي ربها وتتضرع إليه متوسلة إليه بحملها، فاستجاب لها ربها دعائها، فولدت في محراب الدين نوراً إلهياً، وطيفاً قدسياً، وروحاً علوية، وكانت هذه الولادة في هذا المكان وبهذه الكيفية كرامة لها ولوليدها لم يشاركهما فيها أحدٌ. فعليٌّ وحده ولد في الكعبة، وفاطمة وحدها ولدت وليدها في الكعبة (ينظر: المسعودي د.ت: ٣٥٨/٢، الصدوق، ١٤١٧: ١٩٥، ابن عبد البر، ١٩٩٢: ١٠٨٩/٣ ـ ١١٣١، الأميني، ١٩٧٧: ٢١/٦، الفرطوسي، ٢٠١١: ٦٢/١ ـ ٧٤) وبعد هذا فهي من السابقات إلى الإسلام والإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله، أمنت به في بداية الدعوة، وهاجرت إلى المدينة، وقدمت كل ما تقدر عليه في سبيل نصرة دين الله ورسوله الكريم.

وحق لطالب وعقيل وجعفر أن يفخروا على الناس ويرفعوا رؤسهم يشمخوا بأنوفهم فخرا بأبيهم وأمهم فهما ذروة الشرف وسنام الفخر، ولكن الكلام بحق علي (ع) مختلف تماماً، فعلي (ع) يتجاوز الفخر بأبويه لينتقل إلى الفخر بمرتبة سامية أعلى شأننا، وأشرف مكاناً، وحق له ذلك، فمن يمتلك مثل ما يملك لا يقنع بالقليل، وعليٌّ (ع) لا يطاول الناس بما اعتادوا بل يطاولهم بما لم يُعهد. ولبيان ذلك نقول:

أحاطت رعاية الله تعالى بنبيِّه الأكرم محمد (ص) ووصيه الأعظم علي (ع) منذ أن شاءت إرادته عزَّ شأنه أن يخلقهما، فاختار صفاتهما من صفاته، واشتق اسميهما من أسمائه، وإذا أردنا أن ندلل على ذلك بدليل علمي مواكب لما توصل إليه علماء الجينات الوراثية، فإننا

نجد مجموعة وافرة من الأخبار الواردة عن نبيه المصطفى التي تشير إلى هذه الحقيقة (حقيقة الانتقاء الإلهي والاصطفاء الرباني) لمواصفات خليفتيه في أرضه في آخر الزمان، منها:

روى صاحب الخصال حديثا عن الإمام علي بن موسى الرضا (ع) عن أبائه الطاهرين عن النبي (ص) قال: **قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (خُلقْتُ أنا وعَليٌّ مِن نُورٍ وَاحِدٍ)** (الصدوق، ١٤٠٣: ٣١)، وذكرت مجموعة أخرى من المصادر تفاصيل هذا النور، وتنقلاته من عالم الملكوت الأعلى إلى عوالم الدنيا، وروى صاحب الخصال عن النبي محمد(ص) قوله: **(قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) كُنْتُ أَنَا وَعَلِيٌّ نُوراً بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ بِأَرْبَعَةِ آلافِ عَامٍ فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ سَلَكَ ذَلِكَ النُّورَ فِي صُلْبِهِ فَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ يَنْقُلُهُ مِنْ صُلْبٍ إِلى صُلْبٍ حَتَّى أَقَرَّهُ فِي صُلْبِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ثُمَّ أخرجه مِنْ صُلْبِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَسَمَهُ قِسْمَيْنِ فَصَيَّرَ قِسْمِي فِي صُلْبِ عَبْدِ اللَّهِ وَقِسْمَ عَلِيٍّ فِي صُلْبِ أبي طَالِبٍ فَعَلِيٌّ مِنِّي وأَنَا مِنْ عَلِيٍّ لَحْمُهُ مِنْ لَحْمِي ودَمُهُ مِنْ دَمِي، ...)** (الصدوق، ١٤٠٣هـ: ٦٤٠) وروى مثله عن أبي ذر رحمه الله في (علل الشرائع) (ينظر: الصدوق، ١٣٨٥هـ: ١/ ١٣٤).

نتلمس في هذه الأحاديث النبوية الشريفة دقة الوصف، مبيِّنَةً لنا كيف أن الإرادة الربانية شاءت أن تكون نفس النبي محمد (ص)، ونفس الإمام علي (ع) من سنخ واحد، وجسديهما الشريفين من أصل واحد، فهما متماثلان تماثلاً تاماً في الصفات والشمائل والخصال والخصائص، عدا بعض الفوارق الجسدية المميزة بينهما بوصفهما فردين مختلفين، والتي تحدَّرت من أبوي كُلٍّ منهما، ولنا أن نفسر مفهوم النور هنا بالجينات الوراثية، فقد اختار الله تعالى كل جينة تحمل صفة من صفات الكمال والجمال، انتقتها يد السماء بعناية واختارتها بدقة: لتكون صورةُ هذا المخلوق المكرَّم منطبقةً مع مفهوم الخلافة الإلهية، فمن تظهر به هذه الصفات، ويتخلق من هذه الجينات سيكون دون أدنى شك بشراً مختاراً يعكس مواصفات السماء وخلقها. ويبدو أن تلك الجينات التي انتقتها يد السماء كانت جينات سائدة وصفاتها نقية، ولم تتأثر بعناية الله تعالى بكثرة الاختلاط والمزاوجة بين الآباء، فبقيت تنتقل بنقائها بين الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة كما بينها الحديث أنف الذكر، وهذا معنى قوله (ص): **(.. وَلَقد رَكَبَ نُوحٌ في السَّفينةِ ونحنُ في صُلبهِ وَلَقدْ قُذِفَ إبراهيم في النَّارِ ونحنُ في صُلبهِ...)** حتى وصلت تلك الجينات إلى صلب عبد المطلب، ونرى دقة الوصف في الحديث الشريف حينما يقول: إن ذلك النور انشطر نصفين، ونحن نعلم اليوم أن الجينات تكون على شكل (أزواج) متماثلة كل فرد يمثل نسخة مطابقة لقرينه، وتنفصل هذه الأزواج في الحيوانات الذكرية، لتكون سلسلة مفردة من الجينات تلتقي بجينات البيضة القادمة من الزوجة لتشكل مواصفات الجنين الجسدية والنفسية، وهكذا انقسم النور الإلهي، وانشطر نسختين متماثلتين. ذهبت واحدة منهما في صلب عبد الله، والثانية في صلب أبي طالب، فخُلِقَ من

تلك خاتمُ الأنبياء، وخُلِقَ من هذه سيدُ الأوصياء، ويؤكد النبي (ص) في ختام حديثة الشريف أن لحمهما واحد، ودمهما واحد، متماثل تماماً في الخواص الجينية.

إن تلك الخصائص النفسية، والصفات الجسدية، والسمات الروحانية، عند عليٍّ (ع) كانت هي نفسها صفات النبي محمد (ص)، وخصائصه وسجاياه، ومصدرها عند الاثنين ذلك النور الإلهي الذي تخيره الله تعالى في علياته، وأودعه صلب آدم (ع)، ولم يزل ينتقل ويتنزل بين الأصلاب الطاهرة، والأرحام المطهرة من سلالة الأنبياء، وأولادهم، بخُطَّةٍ إلهيةٍ محكمة حتى وَصَلَ إليهما.

ومن هذه الزاوية ننظر إلى مجموعة من الأحاديث النبوية الواردة في حق علي بن أبي طالب (ع)، والتي تشير إلى أن أصلهما واحد، أو أنهما خلقا من طينة واحدة، أو شجرة واحدة، منها قوله (ص): **(علي منّي وأنا منه)** أو **(عليٌّ مني وأنا من عليٍّ)** (ينظر: أحمد بن حنبل، د.ت: ١٦٥/٤)، وقوله (ص): **(يا علي النَّاسُ من شَجَرٍ شَتَّى وأنا وأنتَ من شَجَرةٍ واحِدَةٍ...)** (النيسابوري، د.ت: ٢٤١/٢) وقوله(ص): **(الناسُ من شَجرٍ شَتَّى وأنا وعَليٌّ مِنْ شَجَرةٍ وَاحِدَةٍ)** (الطبراني، ١٤١٥: ٢٦٤/٤، الهيثمي، ١٤٠٨: ١٠٠/٩) وكثير غيرها مما ورد في كتب المحدثين من العامة والخاصة.

ولقد ذكر الإمام أمير المؤمنين(ع) في بعض خطبه وكلامه تكريم الله تعالى لخاتم الأنبياء وتخيره عزّ وجلّ الأصول الطاهرة والطرق الشرعية في تنقل نبيه وعترته الطيبة في أصلاب الآباء من آدم وصولاً إلى أبيه عبد الله، وأشار في غير موضع من كلامه إلى اشتراكه مع النبي الأكرم (ص) بصفات الكمال التي انتقتها يد السماء منها قوله (ع): **(حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللّه سُبْحَانَه وتَعَالَى إلى مُحَمَّدٍ (ص) فَأَخْرَجَه مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبتاً، وأَعَزِّ الأَرُومَاتِ مَغْرِساً، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أنبياءه، وانْتَخَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَه، عِتْرَتُه خَيْرُ الْعِتَرِ، وأُسْرَتُه خَيْرُ الأُسَرِ، وشَجَرَتُه خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ فِي حَرَمٍ، وبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ، لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ، وثَمَرٌ لا يُنَالُ)** (الإمام علي، ١٣٨٧: ١٣٩) بيَّن الإمام (ع) في هذا الكلام أن إرادة الله تعالى شاءت أن يجمع لنبيه المصطفى (ص) طيب المولد وكرامة الأصل ونقاء الأرومة، أي إن تلك الصفات كانت بتخير من الله تعالى، وقال (عليه السلام) في حق المصطفى: **(تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الأَصْلاب إلى مُطَهَّرَاتِ الأَرْحَامِ، كُلَّمَا مَضَى مِنْهُمْ سَلَفٌ، قَامَ مِنْهُمْ بدِينِ اللّه خَلَفٌ)** (المصدر نفسه)، وقال واصفا نبيه (ص): **(كُلَّمَا نَسَخَ اللّه الْخَلْقَ فِرْقَتَيْنِ جَعَلَه فِي خَيْرِهِمَا، لَمْ يُسْهِمْ فِيه عَاهِرٌ ولا ضَرَبَ فِيه فَاجِرٌ، أَلا وإِنَّ اللّه سُبْحَانَه قَدْ جَعَلَ لِلْخَيْرِ أَهْلا، ولِلْحَقِّ دَعَائِمَ، ولِلطَّاعَةِ عِصَماً)** (المصدر نفسه: ٣٣٠)، من هنا يتبين لنا أن عناية الله تعالى بنبيه الأكرم وخليفته الأعظم كانت منذ اللحظة التي شاءت فيها إرادته تعالى أن يخلقهما، وأن يستخلفهما في أرضه، وبهذه العناية كانت صفاتهما عليهما السلام تعكس صفات السماء، وتكشف لنا سبب اختيارهما دون سواهما.

وبعد هذا نقول نعم حق لعليٍّ (ع) أن يفخر بانتقاء صفات الكمال من قبل الله تعالى، ومع هذا الفخر يتصاغر كل فخر بالآباء مهما عظم شأنهم، وعلا مكانهم لذا نرى عليًّا (ع) يفخر دوما بتكريم الله له ولنبيه ولا يفتخر بمثل ما تعاهده الناس من الفخر بالآباء والأجداد.

ثانياً - البيئة:

البيئة هي مجموعة العوامل المادية والاجتماعية والثقافية والحضارية التي تسهم في تشكيل شخصية الفرد، وتشكيل أنماط سلوكه أو أساليبه في مواجهة مواقف الحياة. إن البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد تُشكّله اجتماعياً، وتحوله إلى شخصية اجتماعية متميزة، ويكتسب الفرد أنماط سلوكه وسمات شخصيته نتيجة تفاعل العوامل الاجتماعية مع غيره من الناس من خلال التنشئة الاجتماعية . وتشمل التربية عوامل عديدة منها التربية والتعليم والمحيط الخارجي المادي والمعنوي والأصدقاء، ووسائل الإعلام وغيرها.

وسنركز حديثنا في هذه السطور على اثنين من العوامل البيئية فحسب، لما لهما من أثر كبير في البيئة التي أحاطت بأمير المؤمنين (ع) هما: تربية الإمام (ع) وتعليمه. فنقول: ما أنْ جاءت فاطمة بنت أسد بوليدها من الكعبة حتى تلقاه رسول الله (ص) بالفرح والسرور، وحضي هذا المولود بحب شديد من النبي الأكرم حتى أنه قال لأُمِّهِ: **(اجعلي مهده بقرب فراشي، وكان (صلى الله عليه وآله) يُطهِّرُ عليا في وقت غُسله، ويوجره اللبن عند شربه، ويحرك مهده عند نومه، ويناغيه في يقظته، ويلاحظه ويقول: هذا أخي، ووليي وناصري وصفيي وذخري وكهفي، وصهري، ووصيي وزوج كريمتي وأميني على وصيتي وخليفتي، وكان يحمله دائماً ويطوف به جبال مكة وشعابها وأوديتها)** (المجلسي، ١٩٨٣: ٣٥/ ١٠).

إن مخيلة الطفل في هذه المدة من عمره تشبه صفحة بيضاء نقية تقبل كل لون، وتنطبع عليها كل صورة مهما كانت، ولعل صورة النبي محمد(ص) هي ثاني صورة انطبعت في مخيلة علي(ع) بعد صورة أُمِّه: إذ أن أبوه (أبو طالب) كان مسافرا، فلم يره إلا بعد عودته من السفر(ينظر: ابن المغازلي، ١٤٢٦: ١٥٠)، وإني لعلى يقين أنَّ صورة النبي محمد (ص) كانت أكثر وضوحاً ورسوخاً في ذهن عليٍّ (ع) من أي شيء آخر: لشدة ملازمته له، وعظيم تعلق النبي الأكرم (ص) به، فقد تولى رعايته والعناية به أكثر من أي شخص آخر، حتى أن نرى النبي يأخذ عليا معه في جولاته اليوميَّة فيطوف به جبال مكة وشعابها وأوديتها، فضلاً عن أسواقها وشوارعها، وقابل عليٌّ (ع) هذا التعلق بما يماثله من الحب والتعلق، فنراه يتبع النبي اتباع الفصيل أثر أُمِّهِ، فنسمعُ عليا(ع) يصف هذه المدَة من حياته قائلاً: **(وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ، يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ، وَيُمِسُّنِي جَسَدَهُ، وَيُشِمُّنِي عَرْفَهُ، وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ، وَمَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ، وَلا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ، وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ**

(صلى الله عليه وآله) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخلاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخلاقِهِ عَلَماً، وَيَأْمُرُنِي بِالاقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ وَلا يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإسلام غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ وَأَشَمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ) (الإمام علي، ١٣٨٧: ١٣٩)، يصف هذا النص في بدايته مرحلة الطفولة المبكرة من عمر علي (ع) موضحاً أنَّ النبي الأكرم (ص) قام على تربيته بأفضل ما يمكن أن يقوم به الآباء فقد أشبعه حنانا وغذاه غذاءه المادي والروحي، وهذه المرحلة من العمر تعدُّ خير فرصة لان يُنَمِّي المربون والمعلمون فيها كل ما أودعت يد الخالق في كيان الطفل من سجايا طيبة وصفات كريمة، وفضائل أخلاقية نبيلة، ويوقفوا الطفل عن طريق التربية على القيم الأخلاقية والقواعد الإنسانية وطريقة الحياة السعيدة وتحقيقا لهذا الهدف السامي تولى النبي الكريم (صلى الله عليه وآله) بنفسه تربية علي(ع) بعد ولادته، ولم تكن ملازمته للنبي محمد(ص) من أول يوم صدفة، ولم يكن ذلك التعلق بينهما والشغف عبثاً، ولم يصطحبه النبي معه سهواً، بل كان يصطنعه بعين الله، ويُعدَّه للمهمة السماوية التي تنتظره، وكانت تربية عليٍّ على يد خاتم الأنبياء جزءاً من مهام النبي الأكرم (ص) التي حرص على تنفيذها بدقة وإتقان، حتى سلمه راية قيادة الأمة في يوم الغدير.

وأيُّ عناية ورعاية إلهية أكبر من أنَّ خاتم الأنبياء (ص) كان يمضغ الشيء ثم يلقمه لفتاه؟ إن فهم معنى كلمة (الشيء) بالمعنى الحسي الأولي الدال على الطعام يكون فهما ساذجا بسيطا، بل لاشكَّ أنَّ ذلك (الشيء) لم يكن الطعام فحسب، إنه: الإيمان، والعلم، والتقى، والهدى، لقد كان النبيُّ (ص) يلقمه مكارم الأخلاق، ويغذيه لطائف الحكم، ويُشربَه الأسرار السماوية، ويُشبعه بالمعارف الدنيوية، كان النبي الأكرم يعلم عليًا كل يوم الشجاعة والفصاحة والنبل والشهامة، كان النبي (ص) يتلقاها كل ذلك عن السماء، فيمضغها ويلقمها عليا (ع) في كل حين، ألا ترى أنه (ع) يقول إن الله تعالى قد وكل بنبيه(ص) أعظم ملك في السماء ليربي النبي بأخلاق الله تعالى، وكان النبي يرفع لفتاه في كل يوم درساً من دروس السماء فيلتهمها عليٌّ بشغف ويعيها بذكاء، فيفهم الدروس ويتعلم المعارف والعلوم ويتهذب بأخلاق مربيه ومعلمه.

وهكذا كان الإعجاز الإلهي والتسديد الرباني يحيطان بتفاصيل حياة علي(ع)، فتهيأ للنبي (ص) يأخذ النبي عليا إلى بيته، وأن يقع منذ نعومة أظفاره تحت تربيته، وذلك بعدما أصابت قريشاً سنة مهلكة مجدبة فأشار الرسول (ص) على عميه العباس وحمزة أن يتكفل كل واحد منهما ولداً من ولد أبي طالب للتخفيف عنه (**فأخذ العباس طالباً، وأخذ حمزة**

جعفراً، وأخذ محمد (ص) علياً، وقال لهم: قد اخترت من اختاره الله لي عليكم علياً، قالوا: فكان علي (ع) في حجر رسول الله (ص)، منذ كان عمره ست سنين) (ابن أبي الحديد، ١٩٥٩: ١٥/١) وهكذا مرة أخرى أصبح علي (عليه السلام) في حوزة رسول الله (ص) بصورة كاملة واستطاع، بهذه المرافقة أن يقتطف من ثمار أخلاقه العالية، وسجاياه النبيلة، الشيء الكثير، وان يصل تحت رعايته وعنايته وبتوجيهه وقيادته إلى أعلى ذروة من ذرى الكمال الروحي، ولم يكن لأحد غير النبي (ص) دخل في تكوين الشخصية العلوية الكريمة.

لم يفارق عليٌّ (ع) النبيَّ الأكرم (ص) في طفولته وفتوته، ولو قسمنا عُمْرَه الشريف خمسة أقسام لوجدنا أنَّ الخمس الأول من حياته البالغ عشر سنوات يشكل السنوات التي قضاها مع النبي قبل البعثة، ولاشكَّ أن هذه السنوات الأول من عمر الفرد تمثل مرحلة التربية والتعليم لديه، وكان يرافق النبي (ص) في أكثر لحظاته خصوصية وعبادة في غار (حراء) عندما كان النبيَّ يصحبه معه، فيرى نور الوحي ويسمع كلامه، ويشم ريح النبوة، ويذوب في أجواء العبودية والتذلل لرب الأرباب قال أمير المؤمنين في واصفا النبي وعلاقته به في تلك الأوقات: (**ولَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاه ولا يَرَاه غَيْرِي، ولَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الإسلام، غَيْرَ رَسُولِ اللّه (ص) وخَدِيجَةَ وأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ والرِّسَالَةِ، وأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ، ولَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْه(ص)، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّه مَا هَذِه الرَّنَّةُ، فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِه، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وتَرَى مَا أَرَى، إِلا أَنَّكَ لَسْتَ بنَبِيٍّ ولَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ، وإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ**) (الإمام علي، ١٣٨٧: ٣٠١). لقد رَبَّتْ السماء علياً (ع) من خلال النبي الأعظم، فقد تلقى دروسه التربوية من هذه القناة ومنها اكتسب معارفه وعلومه وأخلاقه وآدابه، فمن يدانيه في هذه التربية؟ ومن يقاربه في تعليمه؟ لقد أحاطت العناية الإلهية بهذا الفتى لغاية سامية. ولقد اضمحلت الفوارق الفردية بين النبي الأكرم (ص) وعليٍّ (ع): لأن أصلهما واحد وتعليمهما واحد، وبيئتهما واحدة.

المبحث الثاني
التتويج الإلهي للخليفة

إنّ أمر الخلافة الإلهية صعب مستصعب، ولقد رأينا الملائكة المقربين يعترضون على الباري جلّ وعلا لمّا أن أخبرهم بأنه جاعل في الأرض خليفة، فكيف ببني آدم المركبة نفوسهم من شهوات غريزية، ومتطلبات مادية، تصارعها أفكار وإرادات عقلية؟ هل يعقل منهم أن يُسلّموا مباشرة لمن اختاره الله تعالى نبياً أو رسولاً أو إماماً أو خليفة من بينهم؟ أو أنهم يشككون ويعترضون ويجادلون ربهم في الاختيار؟

لقد اعترضوا من قبل على اختيار الله لنبيه الأكرم (ص) فقالوا: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾ (الزخرف: ٣١)، واقترحوا أسماء مقابل اختيار الله لـ(محمد بن

عبد الله) (ينظر: الطبرسي، ١٣٨٦: ١/ ٢٧)، فأجابهم الله تعالى ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ .. ﴾ (الزخرف: من الآية: ٣٢)، هذه طبيعة النفس الإنسانية قائمة على الحسد والتنافس غير المنصف. والنبوة والإمامة والخلافة، كلها مناصب إلهية والله تعالى يختار من عباده من يراه مناسباً لأداء هذا المنصب أو ذاك، فهو خالق الخلق وعالم الأسرار، وهذا الاختيار جزء مما فضل الله تعالى به بعض العباد على بعض، من هنا لا يحق للعباد الاعتراض على إرادة رب الأرباب.

ولقد كان النبي محمد (ص) عالماً بصعوبة مهمته مدركاً للمشاق التي يلقاها في سبيل تبليغ رسالات الله تعالى وأداء المهمة التي تخيرته السماء لها، وجزء من تلك الرسالات تبليغ الناس بخليفة الله في أرضه، ووصيه على شرعه، وأمينه على قرآنه ووحيه، فكيف بَلَّغ عن الله ما أمره في شأن خليفته؟ هذا ما نحاول بيانه في هذه السطور:

أولاً ـ مقدمات التتويج:

لقد حرص النبي الأكرم (ص) في كل الأوقات على إظهار مكانة عليٍّ وإعلان حبه له وقربه منه ثم التصريح بأنه أخوه، أو خليفته، أو وزيره، أو وصيه، أو شريكه في أمره، وكان يحرص على ذلك في كل محفل، ليشعر الناس كلهم بأن علي بن أبي طالب (ع) هو ولي الأمر من بعده، حتى إذا حان الوقت وجاء أمر السماء سيكون مقبولاً عند المسلمين، ويقلّ المعترضون وتخبوا نار الحاسدين وتطفأ جمرة المنافقين. وشكلت هذه المواقف مقدمات التتويج الإلهي لخليفة السماء وسيد الأوصياء، وسنذكر بعض تلك المواقف للاستشهاد:

- **في يوم عليٍّ الأول:** مرَّ علينا آنفاً أن فاطمة بنت أسد(ع) عندما جاءت بوليدها حرص النبي على تولي أموره وشؤونه، وكان يلاحظ هذا المولود بعناية وفرح وترقب **(ويقول: هذا أخي، ووليي وناصري وصفيي وذخري وكهفي، وصهري، ووصيي، وزوج كريمتي، وأميني على وصيتي، وخليفتي)** (المجلسي، ١٩٨٣: ٣٥/ ١٠). فمنذ اليوم الأول لولادة عليٍّ حرص النبي الأكرم على إظهار مكانته وإعلاء شأنه، لعلمه أنَّ هناك وظيفة إلهية تنتظره، وتكليفاً سماوياً يترقبه.
- **إنذار العشيرة:** في خضمِّ دعوة النبي القرشيين للإيمان بالله تعالى والاعتراف برسالته وبعد ست سنوات أو سبع من الجهد المتواصل في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ وضعف الاستجابة في مكة جاء الأمر الإلهي للنبي بوجوب إنذار عشيرته الأقربين ودعوتهم للإيمان قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٦) واستجاب الرسول (ص) لأمر السماء فأولم لهم وليمة ودعاهم لها، ولم يستجب له في تلك الدعوة غيرُ عليٍّ فقال النبي (ص): **(هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا. فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع)** (ابن أبي الحديد، د.ت: ١٣/ ٢١٠)، ولم يكن هذا الكلام من النبي (ص) محاباة لعليٍّ

أو شفقة منه عليه، وحاشا نبي الله أن يقول ذلك إلا عن رأي سديد وعلم رصين بأن إرادة السماء قد اختارت عليا خليفة ووصيًّا وعليه أن يبيِّن مكانته لأمته وقومه فمثلما دعاهم للإيمان بنبوته دعاهم بالوقت نفسه للإيمان بخلافة عليٍّ من بعده فكأن دعوتهم للإيمان بالنبوة لا تتم إلا مقترنة بدعوتهم للإيمان بخلافة علي ووصايته عليهم وعلى الأمة كلها.

- **المبيت على الفراش:** لمّا حزمت قريش أمرها وعقدت عزيمتها على قتل النبي (ص) مشتركين جمعاء بخطة ماكرة، جاء الأمر الرباني لرسوله الأكرم بعدم المبيت في الفراش قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠) فخرج الرسول (ص) بعناية الله تعالى من داره وخلّف عليا مكانه (ينظر: الطبري، ١٤٠٣: ١٠١/٢، ابن الأثير، ١٣٨٦: ١٠٢/٢،) وكان مبيت عليٍّ في فراش النبي من مواقفه الخالدة، وقد اختاره الله لأدائها دون سواه، ولم يكن النبي قد خلف علياً خلافه في مكة للمبيت في فراشه فحسب، جاء في (أسد الغابة) قوله: (**وخلفه النبي صلى الله عليه وسلم يعني خلف علياً يخرج إليه بأهله، وأمره أن يؤدي عنه أمانته، ووصايا من كان يوصي إليه، وما كان يؤتمن عليه من مال، فأدى عليٌّ أمانته كلها، وأمره أن يضطجع على فراشه ليلة خرج،**) (ابن الأثير، ١٩٥٥: ٥٩١/٣ - ٥٩٢)، ومرَّة أخرى يخلف النبي عليٌّ دون سواه ليقوم مقامه ويؤدي عنه أماناته وينجز أعماله وينقذه، ليرسخ في ذهن مجتمع المسلمين فضلاً عن غيرهم أن عليّاً خليفتي دوماً.
- **المؤاخاة:** في المدينة قرر النبي إيجاد أواصر جديدة تربط بين المهاجرين والأنصار فقرر أن يؤاخي بينهم، فقال (ص): (**تآخوا في الله أخوين أخوين، أخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: هذا أخي، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين، الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد، وعلي بن أبي طالب رضي الله عن، أخوين**) (ابن هشام، ١٣٨٣: ٣٥١/٢)، ومع أن النبي قد طلب المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار إلاّ أنه لم يكن له أخٌ غير عليٍّ وهو من المهاجرين أيضاً، وكانت مؤاخاة النبي لعلي امتداداً لمواقفه السابقة يوم ولادته ويوم إنذار العشيرة وغيرها فكان يعلن دوماً أن عليّا أخوه وخليفته ووصيه.
- **غلق أبواب المسجد إلا باب علي:** ذكرت كتب السير أنّه كان لنفر من أصحاب رسول الله (ص) أبوابٌ شارعة في المسجد، فأمر رسول الله (ص) أن تُسَدَّ الأبواب جميعاً، إلا باب عليٍّ. وقال له: (**لك في هذا المسجد مالي وعليك فيه ما عليّ، وأنت وارثي ووصيّي: تَقْضي دَيْني وتُنْجزُ عِداتي وتُقْتلُ على سُنّتي،...**) (ابن المغازلي، ١٤٢٦: ٢١٢) وهنا تأكيد على أن محمداً وعليّاً من جنس واحد ومن سنخ واحد دمهما واحد وجسدهما واحد: إذ أصلهما نور واحد وطينة واحدة.

- **بلاغٌ إلهيٌّ في عهدة عليٍّ:** في السنة التاسعة من الهجرة، كلّف النبيُّ (ص) أبا بكر أن يقيم الحج للناس، فخرج وخرج معه ثلاثمئة رجل، وما أن خرج أبو بكر حتى نزلت سورة براءة على الرسول الأكرم، فقال: **(لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتي، ثم دعا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد فهو له إلى مدته)** (ابن هشام، ١٣٨٣: ٤/٩٧٣) ونقل أحمد في مسنده قول رسول الله على النحو الآتي **(قال رسول الله (ص): عليٌّ منى وأنا منه ولا يؤدى عنى إلا أنا أو عليٌّ)** (أحمد بن حنبل، د.ت: ٤/١٦٥) وبقيّة القصة مشهورة، والذي يعنينا فيها هنا أن علياً كان نائباً وخليفة عن النبي الأكرم في توصيل بلاغ الله تعالى، وأن هذه الميزة كانت منحصرة به فهو وحده الذي يمكن أن يقوم مقام النبي في نقل رسائل الله تعالى.
- **منزلة هارون من موسى:** روى أحمد في مسنده عن ابن عباس أنّ رسول الله (ص) **(خرج بالناس في غزوة تبوك، قال فقال له عليٌّ أخرج معك؟ قال فقال له نبي الله: لا، فبكى عليٌّ، فقال له: أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ إلاّ أنّك لست بنبي، إنّه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي)** (المصدر نفسه: ١/٣٣١) فتضمن هذا القول من رسول الله (ص) نصه عليه بالإمامة، ودل به على فضل لم يشركه فيه أحد سواه، وأوجب له به جميع منازل هارون من موسى إلا ما خصه العرف من الأُخوة، واستثناه هو من النبوة (ينظر: المجلسي، ١٤٠٣: ٢١/٢٠٩).

ويستمر الحال على هذا المنوال، عليٌّ (ع) خليفة النبي(ص) وأخوه ووصيه والمبلغ عنه وقاضي دينه ومنجز مواعيده. وكان النبي الأكرم يشير إليه كلما حانت فرصة مناسبة ويخبرهم بمكانته منه، وما هذا التركيز إلاّ مقدمة ليوم محدد، يومٌ سيتوج الله تعالى به علياً بتاج خلافته ويثبت له الولاية على الأمة بعد نبيه.

ثانياً - التتويج الإلهي:

بعد ثلاث وعشرين سنة من الدعوة والجهاد في سبيل دين الله ونشره أوشك النبي في السنة العاشرة من الهجرة المباركة على الانتهاء من تبليغ تعاليم السماء ورسالاتها، وتنفيذ المهمة الرسالية التي كلفها الله تعالى بها، ولم يبق غير بعض الأحكام الختامية، ولكن ختام الرسالة يكمن في شيء بالغ الأهمية، ألا وهو تعيين وصي النبي، وخليفته على شريعته من بعده، وهذه سنة الأنبياء الماضين كلهم، أن يخلف كل رسول وصي أو أوصياء على شريعته: لضمان استمرار رعاية الله لخلقه، وقيام حجته عليهم.

أما وقد حان موعد الإعلان السماوي لخليفة الله بعد خاتم الأنبياء، نجد النبي الأكرم يعد العدّة لهذا الإعلان، ويخطط ليكون هذا الإعلان في أكبر مؤتمر إسلامي يعقده النبي في

حياته، وعليه أن يختار المكان المناسب لعقده، والزمن المناسب، ويدعو المسلمين للحضور الواسع ليتم الإعلان على الملأ، فوجد النبي الأكرم أنَّ أفضل مكان يمكن أن يعقد فيه هو بيت الله الحرام والمسجد الحرام، وأفضل الأوقات هو الشهر الحرام، وعلى هذا ستكون مناسبة الحج هي أفضل المناسبات التي يقترن بها عقد المؤتمر الإسلامي العام الأخير في حياة النبي الأكرم(ص)، وقد عقد النبي العزم على هذا الأمر.

لذا قرر النبي الخاتم في السنة العاشرة من الهجرة المباركة حجَّ بيت الله الحرام، وتنفيذ مؤتمره العام، وسميت حجته هذه بحجة الوداع أو حجة الإسلام، وبعيداً عن التفاصيل الدقيقة لهذه الحجة التي زخرت بها مصادر التاريخ والسيرة، فإن النبيَّ الأكرم خطط لحشد عشرات الآلاف لحضور هذا المؤتمر، حتى قيل أن عدد ذلك العام قد بلغ الحجيج بلغ تسعين ومئة ألف حاجٍ أو مئة وعشرين ألفاً (ينظر: الأميني، ١٣٩٧: ٩/١).

وما كان رفيق النبي الأول علي بن أبي طالب ليتخلف عن هذا المؤتمر الهام، ولكنه كان خارج المدينة فقد أرسله النبي إلى اليمن (ينظر: الفرطوسي، ٢٠١١: ٤٠٢/١) فكتب إليه النبي أن يلتحق به للحج، وفعلاً وافاه للحج والتحق به ومعه خلق كثير ممن كانوا قبله، والذي يعنينا في هذا البحث من تفاصيل هذه الحجة أمر إعلان خليفة الله تعالى بعد النبي محمد. كيف تمَّ ذلك؟

إن النبي كان على يقين بثِقَل الأمر على كثير من المسلمين وصُعوبة تقبله منهم، وكانت تراوده المخاوف من رد فعل بعض المنافقين الذين قد يتخذون مناسبة تتويج عليٍّ خليفة للنبي فرصة لإعلان الردة من الدين الجديد، أو إشاعة البلبلة بين صفوف المسلمين. وقد استشعر النبي ثقلاً كبيراً بتبليغ أمر الخلافة.

في هذه السنة خطب الرسول أكثر من مرَّة وبيَّن لأصحابه أحكام الإسلام وأخذ ينبههم إلى مصيره المحتوم مما أثار في نفوسهم كوامن الخوف على حياته، فقد قال لهم من ضمن ما **(أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدرى لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً)** (الطبري، ١٤٠٣: ٤٠٢/٢) ومثل هذه العبارات التي تيقن منها المسلمون أن هذه آخر سنة في حياة النبي الأكرم (ص) فخطب بالناس بعرفة **(خطبته التي بين فيها للناس ما بين، وكان الذي يبلغ عنه بعرفة ربيعة بن أمية بن خلف لكثرة الناس، فقال بعد حمد الله: أيها الناس: اسمعوا قولي فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كَحُرْمَة يومكم هذا، ...)** (ابن الأثير، ١٣٨٦: ٣٠٢/٢) فبيَّن فيها بعض الأحكام الإسلامية العامة وبعض أحكام الحج، وخطب خطبة ثانية بمنى وخطب عند زمزم خطبة حجة الوداع الشهيرة، وقد تضمنت تفاصيل كثيرة ووصايا عديدة وأحكاماً عامة. والخطبة طويلة جاء في نهايتها حديث الثقلين إذ قال النبي (ص): **(إني قد خلفت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ألا هل بلغت؟ قالوا نعم، قال:**

اللهم اشهد، ثم قال: إنكم مسؤولون، فليبلغ الشاهد منكم الغائب) (اليعقوبي، د.ت: ١١١/٢ - ١١٢)، وكان هذا التبليغ هو الجرعة الرسمية الأولى التي دفعها للمسلمين في تحديد خليفته من بعده، وكانت بمثابة جرعة تحفيزية، تحفزهم على تلقي الخبر الصريح بتتويج علي في الخطبة الأخيرة في هذا المؤتمر.

ذكرت بعض المصادر: أن رسول الله (ص)، قد خطب الناس في حجة الوداع في عرفة، وقيل في منى، وذكر حديث الثقلين، ثم ذكر عدد الأئمة، وأنهم اثنا عشر، فواجهته فئات من الناس بالضجيج والفوضى، إلى حد أنه لم يتمكن من إيصال كلامه إلى الناس، وقد صرح بعدم التمكن من سماع كلامه كل من: أنس، وعبد الملك بن عمير، وعمر بن الخطاب، وأبي جحيفة، وجابر بن سمرة، ويبدو أن رواية هذا الأخير، كانت أكثر وضوحاً، وقد روى ذلك مرات عديدة، فرويت عنه بأكثر من طريق، منها: ما ذكره أحمد في مسنده: قال: عن جابر بن سمرة، قال: **(خطبنا رسول الله (ص) بعرفات،..، فسمعته يقول: لن يزال هذا الأمر عزيزاً ظاهراً، حتى يملك اثنا عشر كلهم - ثم لغط القوم، وتكلموا - فلم أفهم قوله بعد [كلّهم]؛ فقلت لأبي: يا أبتاه، ما بعد كلّهم؟ قال: كلّهم من قريش)** (أحمد بن حنبل، د.ت: ٩٩/٥) واختلفت الروايات في وصف حال الناس عندما وصل النبي (ص) إلى هذا المقطع من خطبته، فقيل: **(ثم لغط القوم وتكلموا) أو(وضج الناس) أو(فقال كلمة أصمّينها الناس) أو(فصرخ الناس، فلم أسمع ما قال) أو(فكبر الناس، وضجوا) أو(فجعل الناس يقومون، ويقعدون)** (ينظر: العاملي، ١٩٩٦: ٦٠ - ٦٧) خلاصة الأمر أن الناس منعوا النبي من أن يتم كلامه، فعندها تيقن النبي الأكرم أن الوقت لم يعد مناسبا لإكمال حديثه بعد هذا الموقف، فقرر تأجيله.

وكانت الجلسة الختامية التي صرَّح فيها النبي الخاتم بخليفته ووصيه من بعده وأمينه على شريعته، وقد ذكر بعض الباحثين أسباباً لتأخير التصريح باسم الخليفة وتنصيبه للناس بأمر السماء، منها موقف قريش المتشنج من عليٍّ (ع) لكونه قتل صناديد الكفار من القرشيين، وخشية النبي من تلقي الخبر بسوء نية إذ أن النفوس بعدها قريبة العهد بالجاهلية، وتحسباً لموقف المنافقين المتقلب أخَّر النبي الإعلان، وقد يكون أراد أن يعلنه وينصبه بالمدينة بمعونة الأنصار، ولا شكَّ أن تلك السباب وجيه، ولكنا نحسب أيضاً أن النبيَّ أخر البلاغ والتصريح لأنه أراد هذا البلاغ يكون آخر ما يفارق المسلمين عليه، فتكون الوصية الأخيرة من النبي لأمته هي تنصيب الخليفة وتتويجه.

ولم يكن النبي يحب المكوث في مكة التي أخرج منها ظلماً، لذا قرر الرحيل منها بعد إتمام مناسك الحج فوراً، وتحرك الركب بمسيرة عظيمة فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له: (غدير خم)، وهو مفترق طرق تتشعب منه طرق المصريين، والمدنيين، والعراقيين، وبلاد الشام، وكان وصولهم في يوم الخميس لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة، نزل جبرائيل عليه في ذلك الموضع، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ

وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٦٧)، فأمره الله سبحانه أن يقيم علياً (ع) إماماً للأمة، ويبلغهم أمر الله سبحانه فيه. فأمر الرسول (ص) برد من تقدم من الناس، وحبس من تأخر منهم، ثم صلى بهم الظهر، وبعدها قام بهم خطيباً على أقتاب الإبل، وذلك في حر الهاجرة، **(وأخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: فمن كنت مولاه، فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. ثم قال: أيها الناس أني فرطكم وأنتم واردي على الحوض، وإني سائلكم، حين تردون علي، عن الثقلين فانظروا كيف تخلفوني فيهما. وقالوا: وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم، فاستمسكوا به ولا تضلوا، ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي)**. (اليعقوبي، د.ت: ١١١/٢ ـ ١١٢). وحالما نصَّبَ رسول الله (ص) علياً يوم غدير خم، هبط جبرائيل عليه بهذه الآية: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣)، (ينظر: الأميني، ١٣٩٧: ٢٣١/١). ورُوِيَ أن رسول الله قد أمر علياً (ع) أن يجلس في خيمة له بإزائه، ثم أمر المسلمين أن يدخلوا عليه فوجاً فوجاً فيهنئوه بالمقام، ويسلموا عليه بإمرة المؤمنين، ففعل الناس ذلك كلهم، بما فيهم أزواجه (ص)، وكان فيمن أطنب في تهنئته بالمقام عمر بن الخطاب، وأظهر له من المسرة به وقال فيما قال: **(بخ بخ لك يا علي، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة)**، واستأذن حسان بن ثابت النبي فقال أبياته المشهورة في هذه المناسبة. (ينظر: المجلسي، ١٤٠٣: ٣٨٨/٢١) وبعد الانتهاء من مراسيم التهنئة انتهى الاجتماع الأخير فكان هذا الإعلان والتتويج الإلهي لعليٍّ هو ختام أعمال مؤتمر المسلمين الأكبر في حياة النبي الأعظم، وتفرق المؤتمرون، وفي أعناقهم بيعة بشهادة الله ورسوله لخليفته من بعده.

وإذا نظرنا بإمعان لواقعة الغدير نجد أن النبي قد أتمَّ فيها تبليغ آخر رسالات السماء وقضى عهده وأنجز المهمة التي انتخبه الله تعالى لتنفيذها وبهذا اليوم تكون الرسالة المحمدية قد أنهت أعمالها، وهكذا تتحقق فرضية البحث أن يوم الغدير نهاية مرحلة الرسالة المحمدية وبداية مرحلة الخلافة والوصاية لعليٍّ، فما هي إلا أيام وغادر النبي الأعظم (ص) هذه الدنيا ملتحقاً بالرفيق الأعلى.

المبحث الثالث

مسؤولية الأمة

إذا أنعمنا النظر بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (المائدة: ٦٧) نجد الآية تتكون من أمر مباشر للنبي بتبليغ أمر خاص أنزل إليه من الله تعالى (وكان هذا الأمر إعلان عليٍّ خليفة من بعده)، ثم جملة شرطية (عدم تبليغ هذا الأمر الخاص) يعادل (عدم تبليغ الرسالة

السماوية كاملة)، ونجد في هذا الجزء تهديداً واضحاً، وقد يرى البعض أنه تهديد للرسول (ص) نفسه، بالعذاب والعقاب إن لم يبلّغ ما أنزل إليه من ربه، والحقيقة أنَّ هذا الخطاب كان من باب (إياكِ أعني، واسمعي يا جارة)، فالتهديد الحقيقي موجه لفئات من الناس كان يخشاها الرسول، وقد صرح هو نفسه (ص) بذلك ولم يكن النبي ممتنعاً عن الإبلاغ، ولكنه كان ممنوعاً منه (ينظر: العاملي، ١٩٩٦: ١٦)، ومَنعُ النبي من إبلاغ هذه الرسالة يعني حرمان الإنسان من الهداية الإلهية، ومن الرعاية الربانية، فمن هم هؤلاء الذين كانوا يمنعون النبي من التصريح باسم الخليفة والوصي الذي اختارته السماء لخلافة نبي الله الخاتم (ص).

بمراجعة بسيطة للتاريخ وحوادثه الكثيرة يتبيَّن لكل باحث عن الحقيقة أنَّ قوم رسول الله (ص) قريشاً هي التي حاربت الإسلام حاربته في بدء ظهوره، وحاربته وهو غض طري العود، ثم حاربته بعد أن ضرب بجرانه، وعملت على زعزعة أركانه، وحاولت ذلك في كل مناسبة، وحاربته حينما أراد تعيين الخليفة الإلهي. والنصوص التالية خير شاهد على سياسات قريش هذه، قال عثمان بن عفان لابن عباس: (لقد علمتُ: أن الأمر لكم، ولكن قومَكُم دفعوكُم عنه) فأجابه ابن عباس (فأما صرف قومنا عنا الأمر، فعن حسد قد والله عرفته، وبغي والله علمته بيننا وبين قومنا) (ابن أبي الحديد، د.ت: ٩/٩)، ودخل العباس على رسول الله (ص)، فقال: **(يا رسول الله إنا لنخرج فنرى قريشاً تُحَدِّث؛ فإذا رأونا سكتوا، ففضِبَ رسول الله (ص)، ودرّ عرق بين عينيه، ثم قال والله لا يدخل قلب امرئ إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتي)** (أحمد بن حنبل، د.ت: ٢٠٨/١)، وسئل الإمام السجاد(ع) وابن عباس أيضاً: **(لم أبغضت قريش عليا(ع)؟ قال: لأنه أورد أولهم النار وقلّد آخرهم العار)** (المجلسي، ١٤٠٣: ٤٨٢/٢٩)، وقال عمر لابن عباس، وهو يتحدث عن سبب صرف الأمر عن علي (ع): (أم والله يا بني عبد المطلب لقد كان صاحبكم أولى بهذا الأمر مني ومن أبي بكر... والله، ما فعلنا الذي فعلنا معه عن عداوة، ولكن استصغرناه، وخشينا أن لا يجتمع عليه العرب، وقريش؛ لما قد وترها) (المصدر السابق نفسه: ٢١٢/٣٠)، وأحسب أن في هذه الأقوال كفاية.

ولقد حمّل أمير المؤمنين (ع) قريشاً مسؤولية كل المصائب والرزايا والبلايا التي واجهها هو والأمة كلها بعد وفاة النبي(ص)، ولا سيما فيما يرتبط بأمر الخلافة، وما نشأ عن ذلك من تمزق، في جسم الأمة، وتوزع في أهوائها، ثم ما كان من تقاتل وتناحر، وانحراف عن خط الإسلام ومفاهيمه وأحكامه، قال (ع): **(اللهم أخز قريشاً، فإنها منعتني حقي، وغصبتني أمري)** (ابن أبي الحديد، د.ت: ٣٠٦/٩)، وقال أيضاً: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ - فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي وصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِيَ - وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي)** (الإمام علي، ١٣٨٧: ٢٤٦) وفصّل عليٌّ (ع) حال قريش ونزاعها محمد النبي الأكرم ثم حرصها على الخلافة قائلاً: **(أن العرب كرهت أمر محمد (ص) وحسدته على ما آتاه الله من**

فضله، واستطالت أيامه...، وأجمعت مذ كان حيا على صرف الأمر عن أهل بيته بعد موته، ولولا أن قريشاً جعلت اسمه ذريعة إلى الرياسة، وسلما إلى العز والأمرة، لما عبدت الله بعد موته يوماً واحداً...) (ابن أبي الحديد، د. ت: ٢٠/٢٩٩).

لقد كان النبي(ص) أكثر شخص علماً بنوايا قريش والمنافقين، وإذا رجعنا إلى كلماته (ص) فإننا نجده يؤكد على معرفته بتلك النوايا تجاه أهل بيته عموماً، وأمير المؤمنين علي (ع) بصورة خاصة، ويكفي أن نذكر هنا: أن تأخيره إبلاغ ما أنزل إليه في شأن الإمامة والولاية، قد كان بسبب المعارضة الكبيرة التي يجدها لدى قريش، التي كانت لا تتورع عن اتهام شخص الرسول (ص)، والطعن في نزاهته، وفي خلوص عمله ونيته، وقد صرحت طائفة من النصوص المتقدمة بأن قريشاً كانت رائدة هذا الاتجاه، وهي التي تتصدى وتتحدى، ومن تصريحات الرسول (ص) الدالة على معرفته بالمتآمرين، ووقوفه على حقيقة نواياهم ما رواه الطوسي في تفسير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧) قال: **(قال أبو جعفر وأبو عبد الله (عليهما السلام) إن الله تعالى لما أوحى إلى النبي (ص) أن يستخلف علياً كان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه، فأنزل الله تعالى هذه الآية تشجيعاً له على القيام بما أمره بأدائه)** (الطوسي، ١٤٠٩: ٣/٥٨٨). وجاء في تفسير الرازي عنه (ص): **(إن الله بعثني برسالته فضقت بها ذرعاً وعرفت أن الناس يكذبوني واليهود والنصارى وقريش يخوفوني، فلما أنزل الله هذه الآية زال الخوف بالكلية)** (الرازي، د.ت: ١٢/٤٨) ومثل هذه الروايات كثيرٌ جداً يضيق المقام عن سردها(ينظر: العاملي، ١٩٩٦: ٥٠ ـ ٥٧). خلاصة الأمر أن الرسول الأكرم (ص) كان يواجه عاصفة من التحدي، والإصرار على إفشال الخطط الإلهية، بأي ثمن كان، وبأي وسيلة كانت، وأن التدخل الإلهي، والتهديد القرآني كان موجها إلى العناصر التي أثارت تلك العاصفة، لإفهامهم أن إصرارهم على التحدي، يوازي في خطورته وقوفهم في وجه الدعوة الإلهية من الأساس، وقد حَسَم هذا التدخل الموقف، وإذا كان الله سبحانه هو الذي سيتصدى لكل معاند وجاحد، فليس بمقدور أحد أن يقف في وجه الإرادة الإلهية، فما عليهم إلا أن ينسحبوا من ساحة التحدي، من أجل أن يقيم الله حجته، ويبلغ الرسول رسالته وهذا ما فعله بغدير خم.

مع انتهاء قصة الغدير ينتهي دور النبي الأعظم في تعريف الأمة بقائدها ومنقذها من الردى بعد نبيها ومفزعها في الخطوب ذلك خليفة الله في أرضه، فقد بينه لهم بشخصه واسمه ومازال منذ اليوم الأول لولادته المباركة يُبيِّنُ للناس مكانته وأنه مختار لمهمة إلهية سيحين وقتها بعد مدَّة من الزمن، ولم يترك النبي الأكرم مناسبة سانحة إلاَّ ذكر فيها أنَّ علياً خليفته ووصيه وحافظ شرعه وشريعته.

لقد اختار الرسول الأكرم (ص) لمؤتمره العام زمانا ومكانا مناسبين تماماً، لإنجاح مهمته، وقد أخبر الناس بأنها أخر عهدهم به وهذا يعطي الحدث زخماً عاطفياً يدفعهم

للترقب، ثم اختار أسلوب الخطاب الجماهيري، لا خطاب الأفراد والأشخاص، كما هو الحال في المناسبات العادية، كل هذه العوامل تدلُّ بشكل واضح أنه (ص) أراد أن يضع الأمة أمام مسؤولياتها، وليفهمها: أن تنفيذ هذا الأمر يقع على عاتقها: ليس للأفراد أن يعتذروا بأن هذا الأمر لا يعنيهم، ولا يقع في دائرة واجباتهم، فقد تم خطابهم مجتمعين وأوصاهم أن (يبلغ الشاهد منهم الغائب)، وأنهم لا يمكنهم دعوى الجهل بأبعاده وملابساته، بل الجميع مطالبون بهذا الواجب، ومسؤولون عنه، وبذلك تكون الحجة قد قامت على الجميع، ولم يبق عذر لمعتذر، ولا حيلة لمتطلب حيلة.

وبهذه الطريقة في العمل أخرج النبي (تعيين الخليفة) عن احتكار أيَّة جماعة قد يروق لها أن تدَّعي: أنها وحدها (صاحبة الحل والعقد والمعرفة بمصلحة الأمة)، أخرجها لتصبح قضية الأمة بأسرها، ومن مسؤولياتها التي لا بد وأن تطالِب، وتطالَب بها، فليس لقريش بعد هذا، ولا لغيرها أن تحتكر القرار في أمر الإمامة والخلافة.

ولنا أن نَعُدَّ هذا من أهم إنجازات مؤتمر الغدير، وهو خطوة ناجحة وموفقة في مجال التخطيط لمستقبل الرسالة، وتركيز الفهم الصحيح لمفهوم الإمامة لدى الأجيال جميعها. وكان لزاما لهذه القضية من أن تخرج من يد أناس يريدون أن يمارسوا الإقطاعية السياسية والدينية، على أسس جاهلية ومفاهيم قبليَّة، تحركها الأهواء الشيطانية، والأطماع الرخيصة، والأحقاد المقيتة والبغيضة دونما أثارة من علم، ولا دليل من هدى.

الاستنتاجات:

١- للخلافة معنيان اصطلاحيان الأول هو الخلافة التكوينية وهي خلافة آدم وبعض ذريته المصطفين لله تعالى في أرضه، والمعنى الثاني الخلافة الدنيوية وهي السلطنة.

٢- المورثات الجينية للنبي محمد (ص) والإمام علي (ع) متماثلة تماماً فهي من جنس واحد وأصل واحد وقد تخيرتها يد السماء وحفظتها عبر الزمن.

٣- تولى النبي الأكرم (ص) تربية عليٍّ وتعليمه ولم يفترقا أبداً حتى كانت شخصية الإمام علي نفس شخصية النبي واضمحلت الفوارق الفردية بينهما لأن بيئتهما كانت واحدة وجيناتهما الوراثية واحدة.

٤- حرص النبي الأكرم على بيان مكانة عليٍّ (ع) منذ اليوم الأول لولادته حتى حانت ساعة تتويجه خليفة للنبي الخاتم (ص) وكان يصرح في كل محفل أن عليا خليفته وأخوه ووصيه وكانت تلك مقدمات للتتويج الإلهي لعليٍّ (ع).

٥- كان التتويج الإلهي لسيد الأوصياء علي بن أبي طالب في حجة الوداع في غدير خم وكانت هناك عقبات وتحديات تمنع النبي من إعلان التتويج السماوي لعليٍّ، حتى تجاوزها النبي بمعونة السماء في غدير خم، فقام وتوَّج عليا بالخلافة.

٦- مثّل قضية غدير خم نهاية عهد الرسالة المحمدية فبتتويج علي (ع) خليفة أتمَّ النبي مهامه وبدأت مرحلة الخلافة والوصاية.

٧- اعتمد النبي (ص) طريقة خاصة في تبليغ أمر الخلافة الإلهية وجعل الأمة كلها مسؤولة عن الخليفة، ونزع من كل الأفراد قرار تنصيب الخليفة، وبيَّن أن ذلك بيد الله تعالى وحده.

المراجع والمصادر:

- القرآن الكريم.
- ابن أبي الحديد، ١٩٥٩م، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتاب العربي.
- ابن الأثير، ١٣٨٦هـ، الكامل في التاريخ، بيروت دار صادر
- ابن الأثير، ١٩٥٥م، أسد الغابة، بيروت، دار الفكر.
- ابن المغازلي، ١٤٢٦هـ، ق، مناقب علي بن أبي طالب، ط ـ ١، إيران، مطبعة سبحان
- ابن شهر آشوب، ١٣٧٦هـ، مناقب آل أبي طالب، النجف الأشرف، المكتبة الحيدرية.
- ابن عبد البر، ١٩٢٢م، الاستيعاب، تحقيق: محمد علي البجاوي، بيروت، دار الجيل.
- ابن منظور، ١٤٠٥هـ، لسان العرب، قم، أدب الحوزة.
- ابن هشام، ١٣٨٣هـ، السيرة النبوية، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، محمد علي صبيح.
- أحمد بن حنبل، د.ت، مسند أحمد، بيروت، دار صادر.
- أحمد عزت راجح، ١٩٨٨، أصول علم النفس، الكويت، دار القلم.
- الإمام علي بن أبي طالب، ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧م، نهج البلاغة، جمع: الشريف الرضي، تحقيق: صبحي الصالح، ط ـ ١، بيروت.
- الأميني، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م، الغدير، ط ـ ٤، بيروت، دار الكتاب العربي.
- الرازي، فخر الدين، د.ت، الطبعة الثالثة.
- سلمان خلف الله، ١٩٩٨م، الحوار وبناء شخصية الطفل، ط ـ ١، الرياض، مكتبة العبيكان.
- الصدوق، ١٣٨٥، علل الشرائع، النجف الأشرف، المكتبة الحيدرية.
- الصدوق، ١٤٠٣، الخصال، تحقيق: علي أكبر غفاري، قم، جماعة المدرسين.
- الصدوق، ١٤١٧، الأمالي، ط ـ ١، قم، مؤسسة البعثة.
- الطباطبائي، ١٤١٥هـ، الميزان في تفسير القرآن، قم، مؤسسة النشر الإسلامي.
- الطبراني، ١٤١٥، المعجم الأوسط، دار الحرمين للطباعة والنشر.
- الطبرسي، ١٣٨٦، الاحتجاج، تحقيق: محمد باقر الخرسان، النجف الأشرف دار النعمان.
- الطبري، ١٤٠٣هـ، تاريخ الأمم والملوك، ط ـ ٤، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- الطوسي، ١٤٠٩هـ، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد قصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي.
- العاملي، جعفر مرتضى، ١٩٩٦، الغدير والمعترضون، بيروت، دار السيرة.
- الفرطوسي، الدكتور صلاح مهدي، ٢٠١١م، وما أدراك ما علي، بيروت، العتبة العلوية.
- المجلسي، العلامة، ١٩٨٣م، بحار الأنوار، ط ـ ٢، بيروت، مؤسسة الوفاء.
- المسعودي، د.ت، مروج الذهب، تحقيق: محمد علي محي الدين، بيروت، المكتبة الإسلامية.
- النيسابوري، د.ت، المستدرك على الصحيحين، بيروت، دار المعرفة.
- الهيثمي، ١٤٠٨، مجمع الزوائد، بيروت، دار الكتب العلمية.
- اليعقوبي، د.ت، تاريخ اليعقوبي، قم/بيروت، فرهنك أهل البيت. ❖

الإمـام عـلـي ذلـك المسـلم الكـونـي

د. بيان عبيد العريض

توطئة:

لقد بعث النبي محمد (ص) سيداً للبشر وخاتمة للأنبياء ورسولاً ورحمة للناس كافة، ولما كانت منزلة الأنبياء صعبة الارتقاء بل عصية على الخلق إلاّ بإذن السماء، لذا كان لابد من مثال بشري وأنموذجاً يمتلك صفات ومزايا النبي محمد (ص) ولا يكون مبعوثاً من رب الأرباب خالق الأرضين والسموات، يحتذى به ويقتدي كل من آمن ويؤمن برسالات الأنبياء..، فكان (علياً) (عليه السلام) أقرب المخلوقات من نقطتي التجاذب (النبوة) و(الإنسان).

فعلي عند نقطة (النبوة) سيد الأوصياء وخليفة النبوة وذو المنزلة: "أنت مني بمنزلة هارون من موس إلاّ أنه لا نبي بعدي"... إلاّ أنه ليس بنبي.

وعند نقطة الإنسان تجده أطوع وأروع وأخضع الخلق إنساناً أمام عظمة الخالق، لا رهبة ولا رغبة ولكن محبة وحرية وتولهاً بالمحبوب حد الذوبان..، فكم من مسلم كابد مشاق طريق معرفة الله عزّ وجلّ ومحبته احتذاءً بعلي ومسالك أبو الحسن وكلماته ونفحات تقربه الوجدانية والعرفانية.

هذا حال الإمام علي (ع) مع الله رب العالمين، أما مع البشر فهو المتقشف الورع، المتجافي السمح، الصبور الجلد، المتعفف النزه، قليل المؤونة والكنز، كثير المودة والرأفة، شديد البأس والوطأة على أعداء الإسلام والإنسانية، شديد التمسك بحبل الإنسانية مع كل مخلوق وإن كان ذو نفرة واختلاف عنه، فهو الناطق صدقاً... (الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق).

ومن هنا جاء هذا البحث المقتضب، لتركيز فكرة مبسطة الوجود، شديدة الألق، دائمة التجدد، إن الإمام علي مؤمن ومسلم عالمي التكوين، وكوني التوجهات والهدف. بمجمل ما حباه الباري من خصائص خاصة وعامة آنية ومستقبلية.

المبحث الأول

خصائص الإمام علي (ع) الخاصة

أجمع العارفون لحاله، والمنقبون عن آثاره، والمبهورون بعظم خصاله..، أن لعلي بن أبي طالب من الفضائل والخصال ما فاق بها الأقران، ولم تجمع لغيره من أشباه الأشباه من السابقين واللاحقين ما انصبت في بوتقه هذا (المسلم الكوني) من خصائص تفرد بها وتميز على مر الدهور.. ومنها: -

١- **فرادة الولادة:** كل أطفال الخليقة يكون مسقط رأسهم في بيوت أهاليهم وفي المشافي أو عند القابلات..، في البوادي والحضر.. ألاّ ابن (فاطمة بنت أسد) فقد وضعت وليدها في الكعبة وانطبقت دونها جدرانها، ليغدو (علياً) ركناً خامساً من أركانها لا يختلف على رواية إعجاز انبثاق الحياة في جسد ابن أبي طالب اثنان ففي مستدرك الصحيحين جـ٣ ص٤٨٣ قال:

تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في جوف الكعبة. وفي نور الأبصار للشبلنجي ص٧٦ ط٥ عام ١٩٥١ قال: ولد رضي الله عنه بمكة داخل البيت الحرام - على قول - يوم الجمعة ١٣ رجب الحرام سنة ثلاثين من عام الفيل قبل الهجرة بثلاث وعشرين سنة. وقيل: بخمس وعشرين...، ولم يولد في البيت الحرام قبله أحد سواه.

وقال الحاكم في المستدرك: وقد تواترت الأخبار أن فاطمة بنت أسد ولدت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في جوف الكعبة[١].

وقال ابن الصباغ المالكي: ولد علي (ع) بمكة المشرفة بداخل البيت الحرام في يوم ثالث عشر شهر الله الأصم رجب الفرد سنة ثلاثين من عام الفيل ولم يولد في البيت الحرام قبله أحد سواه[٢].

وحكى الحافظ الكنجي الشافعي في "الكفاية" عن طريق ابن النجار عن الحكيم النيسابوري إنه قال: ولد أمير المؤمنين علي بمكة في بيت الله الحرام ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل ولم يولد قبله ولا بعده مولود في بيت الله الحرام سواه، إكراماً له بذلك، وإجلالاً لمحله في التعظيم[٣].

وقد أورد العلاّمة الشيخ عبد الحسين الأميني في موسوعته الغدير جـ٦ ص٣ أسماء ستة عشر مصدراً من جل علماء العامة، كما أورد أسماء خمسين مصدراً من علماء الشيعة ما خلا ما نظم من قصيد في ذكر هذه الولادة المباركة والمتفردة.

٢- **سبق الإسلام:** ولما كان قد ربي في حجر النبي (ص) منذ كان عمره ست سنين، لذا كان الأسبق مع مولاتنا خديجة الكبرى (ع) في اعتناق الإسلام حين أظهر النبي (ص) دعوته وهو القائل: (لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة سبع سنين)، وقوله: (كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعاً)[٤].

٣- **وحدانية المؤاخاة:** كل المسلمين أخوة، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض، ولكن الإمام علي (ع) هو من توحد بالمؤاخاة مع ابن عمه نبي هذه الأمة، ففي حديث الإسراء ما يؤيد هذه الخاصية... فقد ورد فيه: نادى مناد من وراء الحجاب: "نعم الأب أبوك إبراهيم، ونعم الأخ أخوك علي فاستوصي به خيراً"[٥]. كما أعلن النبي (ص) أخوته لعلي (ع) يوم أنذر عشيرته الأقربين. ويوم آخى بين المسلمين بعد الهجرة حيث جعل لكل مسلم مهاجراً أخاً من مسلمي

الأنصار وقال لهم: "تآخوا في الله أخوين أخوين" ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال: (هذا أخي) فكان رسول الله سيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد وعلي بن أبي طالب أخوين)[٦].

فالباري عزّ وجلّ هو الذي اختار هذه الأخوة في تلك المواطن، وهذا شرف اختص به الإمام علي (ع) من بين البشر كافة.

٤- **قرب المنزلة:** ولو لم تكن له من الخصائص الذاتية غير هذه لكانت الحجة والدليل الواضح على قرب منزلته من النبي المختار (ص)، جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ في المناقب: في تفسير مجاهد: إن هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي (ع) حين خلفه رسول الله (ص) بالمدينة فقال: يا رسول الله أتخلفني على النساء والصبيان؟ فقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى حين قال موسى: ﴿ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ ﴾[٧][٨]، وقد روى حديث المنزلة جمع كثير من الصحابة عن النبي (ص)، وهو من الأحاديث الصحيحة عند علماء السنة وعلماء الإمامية، فقد أخرجه البخاري في صحيحه جـ١٤ ص٣٦٣ و٣٢٤ ط مصر سنة ١٣٢٢هـ وكذلك الحاكم النيسابوري الشافعي والترمذي والنسائي وابن ماجة القزويني، والمحب الطبري في (ذخائر العقبى) و(الرياض النضرة) وابن حجر العسقلاني في الإصابة... وغيرهم[٩].

بل إن من شهرة الحديث وعلو شأنه، أن الكثير من الصحابة كان يتمناه لنفسه..، (عن عبدالله بن عباس قال: سمعت عمر بن الخطاب، وعنده جماعة، فتذاكروا السابقين إلى الإسلام، فقال عمر: أما علي فسمعت رسول الله (ص) يقول فيه: ثلاث خصال وددت لو أن لي واحدة منهن كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعة من الصحابة، إذ ضرب النبي (ص) بيده على منكب علي، فقال: يا علي أنت أول المؤمنين إيماناً، وأول المسلمين إسلاماً، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى)[١٠].

٥- **ربانية المصاهرة:** الإمام علي (ع) هو صهر النبي محمد (ص) وزوج ابنته الزهراء البتول (ع)، وهذه كذلك لم تعط لبشر..، روت مصادر الجميع أن أبا بكر وعمر وغيرهما خطبا الزهراء فردهم النبي (ص)... ففي المناقب: ١٢٢/٣: "اشتهر في الصحاح بالأسانيد عن أمير المؤمنين (ع) وابن عباس، وابن مسعود، وجابر الأنصاري، وأنس بن مالك، والبراء بن عازب، وأم سلمة، بألفاظ مختلفة ومعان متفقة، أن أبا بكر وعمر خطبا إلى النبي (ص) مرة بعد أخرى فردهما"[١١].

وفي الصحيح من السيرة: ٣٧٠/٥: "وقد عاتب الخاطبون النبي (ص) على منعهم تزويج علي (ع) فقال (ص): والله ما منعتكم وزوجته بل الله منعكم وزوجه؛ وقد ورد عنه (ص) أنه قال: لو لم يخلق علي ما كان لفاطمة كفؤ"[١٢].

وكان الأمر الإلهي بزواج النور من النور تنفيذاً للمصاهرة الربانية التي أشار إليها جبرائيل (ع) عندما قال: "يا محمد أتاني ملك فقال لي يا نبي الله إن الله يقرؤك السلام ويقول لك: إني زوجت فاطمة من علي في الملأ الأعلى فزوجها منه في الأرض"[١٣]. وهذه إحدى خصائص الإمام علي (ع) التي انفرد بها وغبطته وحسدته الأنفس على الفوز بها، لأنها جاءت تدبير رباني ودليل على عظم منزلة علي والزهراء (ع)، ولأن النبي (ص) لم ينتظر في زواج غيرهما من المسلمين الأقربين منه والأبعدين أمراً ربانياً أو وحياً إلهياً. وفي الكافي: ٥٦٨/٥ بسند صحيح عن الإمام الباقر (ع) قال: "قال رسول الله (ص): إنما أنا بشر مثلكم أتزوج فيكم وأزوجكم، إلاّ فاطمة، فإن تزويجها نزل من السماء".

٦- **إمارة الإيمان في غدير خم:** ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾[١٤].. إنها ولاية علي (ع) فولايته شرط أساسي من شروط الإسلام، ومن شروط الدخول في الجنة، جاء في (المناقب) لأبي المؤيد الخوارزمي يروي عن علي، عن رسول الله (ص) قال: "يا علي لو أن عبداً عبد الله عزّ وجلّ مثلما قام نوح في قومه، وكان له مثل أحد ذهباً، فأنفقه في سبيل الله، ومد في عمره حتى حج ألف عام على قدميه، ثم قتل بين الصفا والمروة مظلوماً، ثم لم يوالك يا علي لم يشم رائحة الجنة ولم يدخلها".

وعن أبي هريرة، قال رسول الله (ص): "لما أُسري بي في ليلة المعراج، فاجتمع عليّ الأنبياء في السماء، فأوحى الله تعالى: سلهم يا محمد، بماذا بعثتم؟ قالوا بعثنا على شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده، وعلى الإقرار بنبوتك، والولاية لعلي بن أبي طالب"[١٥].

أما رواة حديث الغدير من الصحابة - كما ذكر الأميني في (غديره) - فهم مائة وعشر رواة، ومن التابعين أربعة وثمانون راوياً وحديث الغدير أو حديث ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وحديث إكمال الدين، أشهر من نار على علم، وولايته مفروضة على كل مسلم ومسلمة، لأن ولاية الرسول مقرونة بولاية ابن عمه ووصيه وأخيه علي، مصداقاً لما أعلن وصرح به في جموع الناس قائلاً: "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وابغض من أبغضه وانصر من نصره واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب"[١٦].

وهذه واحدة أخرى من خصائص الإمام علي (ع) الذاتية والمتفردة التي كتبها الله عزّ وجلّ له دون كل أصحاب النبي وأفراد عشيرته الأقربين فهو لا غيره أمير المؤمنين.. عن ابن عباس (رض) قال: "قال: رسول الله (ص): ما أنزل الله في القرآن آية يقول فيها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إلاّ وعلي رئيسها وأميرها"[١٧].

٧- **فصل الخطاب:** ومن خصائصه الأخرى... أن الله سبحانه وتعالى قد حباه بفصل الخطاب.. فكان قوله سلوني قبل أن تفقدوني كلمة لم يقلها أحد قبله أو بعده.. ومن خزين حكمه وأقواله وخطبه وردوده على استفهامات المسلمين... كان نهج البلاغة أحرف

تتفاعل معها قلوب المسلمين وغير المسلمين، حتى أن أحد المطلعين على أقواله وسيرته يستدل على نبوة محمد (ص) من خلال وجود علي (ع) من أتباعه.. وهو قول شهير للكاتب الفرنسي (لامارتين)[١٨].

ولقد حارت عقول الحكماء والقضاة والكتاب والمفسرين والوعاظ والساردين في كنه سر بلاغة علي وسطوته على بحور العلم كافة...، كيف لا وقد احتارت عقول من عاصره وحضر خطب منبره..، عن فضائل شاذان روى أنه (عليه السلام) كان ذات يوم على منبر البصرة إذ قال: أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن طرق السماوات فإني أعرف بها عن طرق الأرض، فقام إليه رجل من وسط القوم وقال له: أين جبرائيل في هذه الساعة؟ فرمق بطرفه إلى السماء ثم رمق بطرفه إلى المشرق، ثم رمق بطرفه إلى المغرب، فلم يجد موطناً، فالتفت إليه وقال: ياذا الشيخ أنت جبرائيل، قال: فصفق طائراً من بين الناس فضج الحاضرون، وقالوا: نشهد أنك خليفة رسول الله حقاً[١٩].

أما بقية خصائص الإمام علي (ع) الخاصة من فدائية المنازلة وامتلاكه لروح العدالة، وكونه يشارك الرسول الأعظم (ص) في أبوة الأئمة وهذه الأمة، فأشهر من أن تخفى أو تذكر.. حتى أن النبي محمد (ص) قد أشفق علينا وعلى الآخرين فأحجم عن ذكر الكثير من فضائله ومزاياه حينما قال له: "لولا أني أشفق أن تقول فيك طوائف ما قالت النصارى في عيسى لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمر على ملأ منهم إلاّ أخذوا التراب من تحت نعليك تبركاً"[٢٠].

ومن كثرة فضائل علي (ع) قال أحمد بن حنبل: ما جاء لأحد من الصحابة من الفضائل مثل ما لعلي بن أبي طالب[٢١].

وقال أحمد: قال رجل لابن عباس: سبحان الله ما أكثر فضائل علي بن أبي طالب ومناقبه، إني لأحسبها ثلاثة آلاف منقبة فقال ابن عباس: أولا تقول أنها إلى ثلاثين ألفاً اقرب.

وبسنده عن مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ص): لو أن الأشجار أقلام، والبحر مداد، والجن حسّاب، والإنس كتّاب، ما أحصوا فضائل علي بن أبي طالب[٢٢].

المبحث الثاني

خصائص الإمام علي (ع) العامة

إن كانت نقطة التقاء الإمام علي (ع) بـ(النبوة) ومزاياها بعيدة المنال عن كل مسلم ومسلمة، فإن اقترابه إلى نقطة (الإنسان) وبروز خصائصه العامة وشيوعها وتواترها تجعلها في متناول يد كل مجتهد له نصيب من التوفيق.

فعلو شأن خصائص الإمام علي (ع) الخاصة وكثرتها، لا تمنع من بزوغ العديد من الخصائص العامة والمشتركات مع كل مسلم نطق الشهادتين، بل مع كل بني البشر. وإذا ما كانت كثيرة هي المشتركات والنظائر بين النبي محمد (ص) والإمام علي (ع)، حيث نجد

أن كل ما في النبي من كرامة قبل الإسلام وبعده موجودة في ذات الإمام علي مصداقاً لقول رسول الله (ص): "يا علي أنت مني وأنا منك"، والتي قد جمعها العالم أحمد شهاب الدين في كتابه (توضيح الدلائل على ترجيح الفضائل)، إذ قال: (ولا يخفى إن مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قد شابه النبي (ص) في كثير بل أكثر الخصال الرضية والفعال الزكية وعاداته وعباداته وأحواله العلية)[٢٣].

فالإمام علي (ع) بخصاله العامة كان مثالاً للمسلم الكوني الذي نتوافق صفاته وأقواله وأفعاله مع أفقر خلق الله في كل زمان وكان، فأصبح صورة حية ناطقة للإنسان الكامل، دون تصنع ومحابا.. تمثلت في: -

١- **تواضع الخلق:** علي بن أبي طالب تأسى بمحمد وموسى وعيسى، وكل الأنبياء والرسل، لأنه ثمرة هذه الشجرة النبوية، وخلاصة نسغها الصاعد... فكان نعم العبد لمولاه، عن الإمام جعفر الصادق (ع) (كان أمير المؤمنين (ع) يجلس جلسة العبد ويأكل أكلة العبد)، فعلي لا يعظ الآخرين ولا يدعوا إلى طاعة، ولا ينهى عن معصية إلاّ بعد أن يطبق ذلك عملياً.. وهو القائل: "أيها الناس إني والله ما أحثكم على طاعة إلاّ أسبقكم إليها، ولا أنهاكم عن معصية إلاّ أتناهى قبلكم عنها"[٢٤]. وما وصف ضرار الضبائي له ببعيد عن الاستذكار (وكان كأحدنا يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله مع تقريبه إيانا، وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له، وهو يعظم أهل الدين، ويقرب المسكين، ولا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف في عدله..)[٢٥].

وكل الخلق عنده سواسية... (روى أبو إسحق الهمداني أن امرأتين أتتا علياً (ع)، إحداهما من العرب والأخرى من الموالي، فسألتاه، فدفع إليهما دراهم وطعاماً بالسواء فقالت إحداهما: إني امرأة من العرب، وهذه من العجم، فقال: إني والله لا أجد لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلاً على بني إسحق)[٢٦].

والإمام علي (ع) هو الذي عوتب لأنه خرج يوماً بإزار مرقوع وهو خليفة المسلمين، فقال: يخشع القلب بلبسه، ويقتدي به المؤمن إذا رآه عليّ[٢٧].

هذا هو شأن علي الذي أعلمه رسول الله (ص) بحاله وزينته التي زينه الله بها دون الخلق فقال له: " يا علي إن الله زينك بزينة لم يزين الخلائق بزينة هي أحب إليه منها، الزهد في الدنيا، وجعلك لا تنال من الدنيا، ولا تنال منك شيئاً، ووهب لك حب المساكين، فرضوا بك إماماً ورضيت بهم أتباعاً)[٢٨].

وبذا كان علي (ع) أبو المساكين وإمامهم، وأبو الأئمة والأمة، وحق علي على المسلمين أينما وجدوا هو حق الوالد على ولده[٢٩].

٢- **تقشف المعيشة:** لا يذكر الزهد إلاّ وذكر الإمام علي (ع) سيداً للزهاد، وأفضل العباد بعد رسول رب العباد (ص) فقد كان قدوتهم في أعماله وأقواله ولباسه وطعامه، كان

يلبس الخشن، ويأكل الخشب، ونعلاه من ليف، ويرقع قميصه بجلد تارة وبليف أخرى، وقد طلق الدنيا ثلاثاً. وهو في هذا المضمار (كما في غيره) المعلم الأعظم حيث يظهر قباحة الدنيا بزجره لها (إليك عني يا دنيا..، أغربي عني..، فإني أحذركم الدنيا..).

ويملي لتابعيه بالنصح: (أنظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها، الصادفين عنها...) ومهما تفنن الكتاب وأجادوا في وصف الدنيا وابتلاءاتها فهم عيال على كلمات ابن أبي طالب ومن نبعه ينهلون.. ومن أسلوب معيشته يتعلمون الخطو في دروب الزهد والعفاف... عن الإمام الصادق (ع) كان يطعم الناس خبز البر واللحم، ويرجع إلى أهله فيأكل خبز الشعير بالزيت والخل، ويشتري القميص من الكرابيس السنبلاني، ويعطي خيرها لغلامه قنبر.، ولقد ولي قرب خمس سنين، فما وضع آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا أورث بيضاء ولا صفراء...)[٣٠].

وهو القائل: والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهداً، وأجر في الأغلال مصفداً، أحب إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها؟[٣١]

هكذا عاش علي (ع) معيشة تتكافأ مع معيشة أفقر الفقراء من المسلمين، وكان يراقب نفسه قبل مراقبة عماله مراقبة دقيقة كأنما ينظر إلى الجنة والنار، فيطلقها صادحة: "والله لدنياكم هذه أهون في عيني من عراق خنزير في يد مجذوم". "ولألفيت دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز".

٣- **حرية التعبد:** في العبادة علي بن أبي طالب عنوان مبرز فكان أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصوماً، ومنه تعلم الناس صلاة الليل وملازمة الأوراد وقيام النافلة[٣٢]. وما إلى هذه كنا نرمي بل إلى سبر أغوار عبادة سيد المتقين والتي ما كان يمكن لأحد أن يفهم كنهها لولا إفصاحه هو ذاته عن مكنوناتها وأسرارها العميقة، عندما جعل للعبادة أشكال وأصناف، منها عبادة العبيد وعبادة التجار وعبادة الأحرار.. وهي خير العبادات وإليها شد الرحال (المسلم الكوني).

ولعل المتأمل لدعوات الإمام علي (ع) ومناجاته، ووقف على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله وما يتضمنها من الخضوع لهيبته والخشوع لعزته، تلمسنا فضاءات الحرية والانطلاق التي تكتنف قلب علي ولسانه وجوارحه..، ومن هذا التحرر من أسر العادات وقيود الممارسات الشكلية يظهر نموذجاً تعبدياً لا ينحصر عند ملة أو دين ومذهب أو جنس، وكأن سيد الغر المحجلين يريد أن يرسم دائرة تعبد أوسع من رهبة ورغبة وخوف ورجاء المؤمنين إلى ترنيمة النبات والجماد والإنس والجن المتناغمة في انطلاقتها نحو خالقها المعبود.

لذا كان الإمام علي (ع) دائم الوصل والاتصال بخالقه، شديد التعلق بمناجاته وأوراده حتى وأن بسط نطعه ما بين الصفين ليلة الهرير والسهام تقع عليه ذات الشمال وذات اليمين[٣٣].

٤- في المحبة... سيد المحبتين: أما محبة الخالق فهو لها أهل، وقد وضع في دائرة ثلاثية الأبعاد من قبل خاتم الأنبياء (ص) فلم يعرف الله إلاّ النبي محمد (ص) والإمام علي (ع) معرفة حقة، ولقد قرن الباري عزّ وجلّ محبته وبغضه بمحبة علي وبغضه، وجعله فيصلاً ما بين الكفر والإيمان، بل قرن به الحق كله يدور معه أينما دار[٣٤]. فهو سيد في الدنيا والآخرة والسيادة له جامعة مانعة في مجمل مكارم الأخلاق. فكان سيد المتألهين والعارفين والمحبتين.

وأما محبته للمخلوقين فتكاد تكسر حدود المعقول في انغماسه ومداراته ونصحه في احتواء الآخر.. حتى غدت كلماته مضرب الأمثال لدى النخب والعامة وعند كل الأجناس، فأقواله وأفعاله أعطت للإنسانية جرعات محبة وود واطمئنان وتناظر. وهو القائل (رب أخ لم تلده أمك)، (والناس صنفان أما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)، (نعم السياسة الرفق)، (خير الدنيا والآخرة في خمس خصال غنى النفس وكف الأذى وكسب الحلال ولباس التقوى والثقة بالله على كل حال)، (لا تكره أحداً مهما أخطأ في حقك)، (الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب أمه)، (خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم وإن عشتم حنوا إليكم).. وغيرها من درر الكلام وجواهره المتلألأة تطبيقاً فعلياً جعلت من الإمام علي (ع) رجل تحبه كل الأقوام وتعظمه كل النخب الفكرية من حكماء وفلاسفة وعلماء ومتكلمين..... وكل تهفو نفسه إلى الاقتداء ببعض ما نضح من إناء النبوة الطاهر والبعض يتوسم شرف الانتساب إليه اقتداء وإعجاباً.

الخاتمة:

الأنجم الزاهرة في سماء الإنسانية والوجود في ألق وأفول، إلاّ نجم علي بن أبي طالب فهو نجم زاهر أبد الدهور...

من عبق سيرته العطرة استمد المسلمون فحوى الرسالة النبوية، ومن ارتماس روحه الطاهرة في بحر الإسلام، استظل المؤمنون بوارف الشجرة الهاشمية المثمرة المونقة بالنبوة والإمامة... فكان الإمام علي (ع) ذاك المسلم الكوني أبداً، به نحتذي وإلى خصائصه المتفردة تتطاول أعمال الخلائق... علها تقتبس بعضاً من نور محبته الولهة والمنغمسة في حب الله ونبيه والإسلام.

الهوامش:

(١) المستدرك على الصحيحين: ٤٨٣/٣؛ أسد الغابة: ٣١/٤.

(٢) الفصول المهمة في معرفة الأئمة لابن الصباغ المالكي: ١٧٤/١.

(٣) الغدير. للشيخ الأميني، ج٦ ص٢٢.

(٤) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١ ص٤١.

(٥) فرائد السمطين، الباب العشرون: كنز العمال ٦: ١٦٧١: ينابيع المودة، ص ١١٨.

(٦) تاريخ ابن هشام ٢: ٢٣٢: تاريخ ابن كثير ٣: ٢٢٦.

(٧) سورة الأعراف: ١٤٢.

(٨) ينابيع المودة لذوي القربى، القندوزي الحنفي، ص١٣٧: مناقب آل أبي طالب: ١٥/٣.

(٩) للمزيد من ذكر المصادر ينظر: مقام الإمام أمير المؤمنين، نجم الدين العسكري، ص٣٣ ـ ٣٦.

(١٠) الناقب، للخطيب الموفق بن أحمد الخوارزمي الحنفي، طبعة ١٩٦٥، المطبعة الحيدرية النجف، ص ٢٩.

(١١) جواهر التاريخ، علي الكوراني العاملي، المجلد الأول، ط١، ١٤٣٠هـ، ص٥٩٣.

(١٢) تاريخ اليعقوبي ٢: ٣١: كفاية الطالب، ص١٦٤.

(١٣) ذخائر العقبى، ص٣٢.

(١٤) سورة الصافات: آية ٢٤.

(١٥) رواه الحافظ أبو نعيم، يراجع للمزيد: ينابيع المودة للقندوزي، ج٢، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ص٦٢.

(١٦) الغدير، عبد الحسين أحمد الأميني النجفي، ج١، ص٩ وما بعدها.

(١٧) مختصر ينابيع المودة لذوي القربى، للقندوزي، ص١٤٥.

(١٨) الإسلام والرأي الآخر ـ الإمام علي نموذجاً، حسن السعيد، ٢٠٠٣م.

(١٩) محمد علي فاطمة ـ سيرتهم حياتهم مصائبهم، المولى محمد باقر البهبهاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ج٢ ـ الدموع الساكبة، ط١، بيروت، ١٩٩٠، ص ٦٨.

(٢٠) للمزيد يراجع: المناقب للخوارزمي، مصدر سبق ذكره.

(٢١) ينابيع المودة، للقندوزي، ص١٣٩.

(٢٢) فوائد السمطين: ١٦/١.

(٢٣) الإمامة عقيدة قرآنية، أبو حيدر عبدالزهرة الخزاعي، العارف للمطبوعات، ط١، لبنان ـ العراق، ص ٢٠٧.

(٢٤) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج١، ص١٠٩.

(٢٥) أخرجه الدولابي في الذرية الطاهرة: وصاحب الصفوة: ينابيع المودة، للقندوزي، ج٢، ص٤١ ـ ٤٢.

(٢٦) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج٢، ص٢٠٣.

(٢٧) كشف الغمة للأربيلي، ج١، ص١٧٥.

(٢٨) ينابيع المودة، للقندوزي، ج٢، ص٥٦.

(٢٩) هذا قول النبي المصطفى (ص) له أخرجه في المناقب الخوارزمي: ٣١٠ حديث ٣٠٦.

(٣٠) ينابيع المودة، للقندوزي، ج١، ص١٤٥.

(٣١) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج٢، ص٢٤٣ وما بعدها.

(٣٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج١، ص٥١.

(٣٣) المصدر نفسه.

(٣٤) ينابيع المودة، القندوزي، ص١٢٠.

❖ ❖ ❖

الإمـام عـلـي في تـفسير الألوسي

نجم عبد الرضا الدراجي

الحـديث عـن أمـير المـؤمنين (ع) وفـضائله وفواضـله ومناقبـه لا يحتـاج إلى مقـدمات قصيرة فضلاً عن الطويلة بل هـو حديث عن مجمع الفضائل جميعاً وحديث عن الإسلام المجسد فـإذا كـان القـرآن والسنة هـو الوجـود الكـتبي للإسـلام فـإن رسـول الله (ص) وأوصيائه (ع) بعده هم الوجود العيني للإسلام وعلى رأس أولئك الأوصياء أولهم وأفضلهم علي (ع) والحديث عنه لا يحتاج إلى مناسبة ما دام الحديث عنه هو حديث عن الإسلام وضرورة ذلك بل كثرته وتكراره مطلوب ومرغوب فضلاً عن كونه إحياء لأمر أهل البيت (ع) المأمور به شرعاً وما يترتب على ذلك من الأجر الجزيل الذي ينتظر ذاكره (ع) وأخيراً فالحديث عنه (ع) حديث عن شخصية مجمع على جلالتها وعظمتها بين المسلمين بل بين البشر قاطبة وفي هذا البحث المتواضع نذكر قبس مما ذكره بعض أعلام المسلمين وهو الألوسي (أبو الثناء شهاب الدين (١٢١٧ ـ ١٢٧٠هـ، ١٨٠٢ ـ ١٨٥٤م). شهاب الدين محمود بن عبد الله وهو فقيه ومفسر ومحدث. ولد في بغداد، وتلقى العلوم على شيوخ عصره، وكان شديد الحرص على التعلم ذكياً فطناً، لا يكاد ينسى شيئاً سمعه، اشتغل بالتأليف والتدريس في سن مبكرة، فذاع صيته وكثر تلاميذه، تولى منصب الإفتاء وبقي فيه حتى سنة ١٢٦٣هـ. قام بعدة زيارات علمية إلى الآستانة وغيرها. له عدة كتب قيِّمة، أبرزها تفسيره الموسوم ("روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" الذي استغرق تأليفه خمس عشرة سنة)[1]. وفي هذا التفسير والذي قيل فيه (من أجل التفاسير وأوسعها وأجمعها نظم فيه روايات السلف بجانب آراء الخلف المقبولة وألف فيه بين ما يفهم بطريق العبارة وما يفهم بطريق الإشارة رحمه الله وتجاوز عنه)[2]. فقد ذكر كثيراً من فضائل الإمام علي (ع) ومناقبه مما نتفق معه فيها ولنا وقفة أخرى معه نناقشه فيما قاله عن أمير المؤمنين (ع) وبعض ما يتصل به.

---

(١) الموسوعة العربية العالمية. مجموعة من العلماء والباحثين. الناشر مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٤١٩ ـ ١٩٩٩. ط٢. ٦٢٩/٢.

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن. لمحمد بن عبد العظيم الزرقاني. ط دار إحياء الكتب العربية ـ بيروت ـ لبنان سنة ١٣٧٢ هـ. ٦١/٢.

المبحث الأول

اليعسوب

وصف الألوسي أمير المؤمنين (ع) أكثر من مرة بأنه (يعسوب المؤمنين)[١]، وهذا اللقب الشريف ورد على لسان رسول الله (ص) فـ(عن أبي سخيلة عن أبي ذر وعن سلمان قالا أخذ رسول الله (ص) بيد علي رضي الله عنه فقال إن هذا أول من آمن بي وهو أول من يصافحني يوم القيامة وهذا الصديق الأكبر وهذا فاروق هذه الأمة يفرق بين الحق والباطل وهذا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الظالم)[٢]، ومعنى اليعسوب لغة (ملك النحل، ومنه قيل للسيِّد: يعسوب قومه)[٣]، والملاحظ إن غير الإمام (ع) لم يحصل على مثل هذا النص بإمارة المؤمنين والملاحظة الثانية إن للمنافقين أمير آخر وهو المال وهذا ما حذر منه الرسول الأكرم (ص) فقد أخرج الطبراني في (الكبير) عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله (ص) يقول: (لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغي تأويله وما يبتغي تأويله إلا الله تعالى)[٤]، وقد وسع في مكان آخر خوف النبي (ص) على أمته إلى زهرة الدنيا ففي الحديث (أخوف ما أخاف على أمتي زهرة الدنيا وكثرتها)[٥]، وفي صحيح البخاري إن المخوف عليه هم الصحابة الحضور عند النبي (ص) وليس الأمة ففيه تضييق من ناحية المخوف عليه فعن (عقبة ابن عامر أن النبي (ص) خرج يوماً فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال إني فرط لكم وأنا شهيد عليكم وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا)[٦]، ففي هذا الحديث ضمان للحاضرين من الوقوع في الشرك فهم في مأمن من ذلك لكن الخوف كل الخوف أن يقع بينهم التنافس وقد حذر القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[٧] ومعنى الآية (ولا تتمنوا ما أعطاه الله تعالى بعضكم وميزه به عليكم من المال والجاه وكل ما يجري فيه التنافس، فإن ذلك قسمة صادرة من حكيم خبير وعلى كل من المفضل عليهم أن يرضى بما قسم له ولا يتمنى حظ المفضل ولا يحسده لأن ذلك أشبه الأشياء

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١/٧٢ و١/٩٧و ١٠/٢٢٩و ١٠/٢٦٩و ٢١/١٠٧.

(٢) المعجم الكبير - الطبراني - ج ٦ - ٢٦٩.

(٣) الصحاح في اللغة - ١/٤٦٨.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢/٤٢٤.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٨/٢٧٢.

(٦) صحيح البخاري - البخاري - ٢ - ٩٤.

(٧) النساء: ٣٢.

بالاعتراض على من أتقن كل شيء وأحكمه ودبر العالم بحكمته البالغة ونظمه)[١]، وفي صحيح مسلم ورد هذا التحذير فـ(عن أبي سعيد الخدري إن رسول الله (ص) قال أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا قالوا وما زهرة الدنيا يا رسول الله قال بركات الأرض قالوا يا رسول الله وهل يأتي الخير بالشر قال لا يأتي الخير إلا بالخير لا يأتي الخير إلا بالخير لا يأتي الخير إلا بالخير إن كل ما أنبت الربيع يقتل أو يلم إلا آكلة الخضر فإنها تأكل حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس ثم اجترت وبالت وثلطت ثم عادت فأكلت إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع)[٢]، وقد نقل الألوسي عدة كلمات ليعسوب المؤمنين (ع) في حقارة الدنيا فـ(الدنيا أحقر من ذراع خنزير ميت بال عليها كلب في يد مجذوم)[٣] و(أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة وأشرف شرابه رجيع نحل)[٤] و(هي لين مسها قاتل سمها)[٥]. وبالفعل كان يخشى على الأمة اثنتين (إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمر وإتباع الهوى فإن طول الأمل ينسي الآخرة وإتباع الهوى يصد عن الحق)[٦] وكان (ع) يحذر الأمة من التوسع في الدنيا (من وسع عليه في دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع في عقله)[٧] وحذر من البناء والركوب واللباس الفاخر وهي من مظاهر حب الدنيا (من بني المشيد وركب المنظور ولبس المشهور ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[٨] ووصف غفلة أكثر الناس بأنها تستغرق كل حياتهم (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)[٩].

السابق:

يقسم القرآن الكريم البشر يوم القيامة إلى ثلاث مجاميع وهم أصحاب اليمين وأصحاب الشمال وأحسن الثلاثة السابقون. وقد اختلفت التفاسير في معنى السابقين فنقل الألوسي الأقوال الكثيرة في الآية ومن أهم تلك الآراء ما (أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت في حزقيل مؤمن آل فرعون. وحبيب النجار الذي ذكر في يس. وعليّ بن أبي طالب كرم

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٤/٣٥.

(٢) صحيح مسلم ـ مسلم النيسابوري ـ ٣ ـ ١٠١.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢١/٤٠١.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٠/٢٢٨.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم٣/٣٤٨.

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٩/٤٣٩.

(٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٧/٦٦و١٢/٣٨٥.

(٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٢/٢٠.

(٩) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٠/٢٩٥.

الله تعالى وجهه وكل رجل منهم سابق أمته وعليّ أفضلهم)[١]، فهو (ع) ليس سابقاً فقط بل هو أفضل السابقين وفي نقل آخر عن نفس الثلاثة وأسماهم الصديقين (فقد أخرج أبو نعيم في المعرفة. وابن عساكر. وابن مردويه من حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبيه أبي ليلى الأنصاري عن النبي (ص) قال: (الصديقون ثلاثة، حبيب النجار مؤمن آل يس الذي قال: (يا قوم اتبعوا المرسلين)، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) وعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه وهو أفضلهم)[٢]، أما نسبته لهذه الأمة فقد نقل في تفسير الآية الكريمة ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[٣] عن أبي الأسود. ومجاهد في رواية. وجماعة من أهل البيت وغيرهم: الذي صدق به هو علي كرم الله تعالى وجهه. وأخرجه ابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً إلى رسول الله (ص)[٤] وقد عبر عنه الألوسي بأنه (إمام الصديقين)[٥]، لكن الوارد عن (رسول الله (ص): (أوحي إلي في علي ثلاث أنه سيد المسلمين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه)[٦]، وفي هذا الحديث الشريف تحديد للمتقين بإمامهم فمن اتخذ علياً إماماً فهو من المتقين ومن لم يكن إمامه علي (ع) فهو خارج عن دائرة المتقين وقد اعترف الألوسي بهداية المقتدي بالإمام (ع) فقال: (من اقتدى في دينه بعلي فقد اهتدى مسلم)[٧]، بل تعدى هذا الأمر عند حكايته عن بعض الشيعة يسمون أبناءهم بكلب علي ويؤمل من سمي بذلك النجاة بالقياس الأولوي على ما ذكر وينشد:

فتيـــة الكهـــف نجـــا كلـــبهم كيـــف لا ينجـــو غـــداً كلـــب علـــي

ولعمري أن قبله علي (كرم الله تعالى وجهه) كلباً له نجا ولكن لا أظن يقبله لأنه عقور)[٨]، وعلى العموم فقد جعل (ع) ميزان لمعرفة المنافقين بل هو عند الألوسي من أقوى العلامات على النفاق فقد (ذكروا من علامات النفاق بغض علي كرم الله تعالى وجهه. فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: ما كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله (ص) إلا ببغضهم علي بن أبي طالب. وأخرج هو وابن عساكر عن أبي سعيد الخدري ما يؤيده، وعندي أن

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٠/٢٠٣.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ج ١٦ - ١٤٥.

(٣) الزمر: ٣٣.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٧/٤٧١.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢/٣٤٢.

(٦) المستدرك - الحاكم النيسابوري ٣/١٢٧ - ١٢٨.

(٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١/١٠.

(٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١١/١٨٠.

بغضه رضي الله تعالى عنه من أقوى علامات النفاق)[١]، وذكر في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢] عن (علي كرم الله تعالى وجهه الحسنة حب الرسول وآله عليهم الصلاة والسلام والسيئة بغضهم)[٣] ولكل ذلك حكم الألوسي على قاتل أمير المؤمنين بأنه أشقى الأولين والآخرين فقد (جاء أن أشقى الأولين عاقر الناقة وأشقى الآخرين قاتل علي كرم الله تعالى وجهه وقد أخبر (ص) بذلك علياً رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه. وعندي أن أشقى الآخرين أشقى من أشقى الأولين. والفرق بينهما كالفرق بين علي كرم الله تعالى وجهه والناقة. وقد أشارت الأخبار بل نطقت بأن قاتل الأمير كان مستحلاً قتله بل معتقداً الثواب عليه وقد مدحه أصحابه على ذلك فقال عمران بن حطان غضب الله تعالى عليه:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... الا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوماً فأحسبه ... أوفى البرية عند الله ميزانا

ولله در من قال:

يا ضربة من شقي أوردته لظى ... فسوف يلقى بها الرحمن غضبانا

كأنه لم يرد شيئاً بضربته ... إلا ليصلى غدا في الحشر نيرانا

إني لأذكره يوماً فألعنه ... كذاك ألعن عمران بن حطانا[٤]

ومع السبق وهو سبق بالإيمان هناك مسارعة بالطاعة فقد (أخرج الترمذي وحسنه). وجماعة عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ﴾ الخ قال لي النبي (ص): (ما ترى في دينار؟ قلت: لا يطيقونه، قال: نصف دينار؟ قلت: لا يطيقونه، قال: فكم؟ قلت: شعيرة، قال: فإنك لزهيد) فلما نزلت ﴿أَأَشْفَقْتُمْ﴾[٥] الآية قال (ص): (خفف الله عن هذه الأمة) ولم يعمل بها على المشهور غيره كرم الله تعالى وجهه، أخرج الحاكم وصححه. وابن المنذر. وعبد بن حميد. وغيرهم عنه كرم الله تعالى وجهه أنه قال: (إن في كتاب الله تعالى لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي آية النجوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ الخ كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم فكنت كلما ناجيت النبي (ص) قدمت بين يدي نجواي درهماً ثم نسخت فلم يعمل بها أحد)[٦]، ولذلك ولغيره جعل الله سبحانه له في

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٦٢/١٩

(٢) فصلت: ٣٤.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٩٩/١٨.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٤٦/٦

(٥) المجادلة: ١٣.

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٩١/٢٠.

في صدور المؤمنين الود فقد (أخرج ابن مردويه. والديلمي عن البراء قال: قال رسول الله (ص) لعلي كرم الله تعالى وجهه: قل اللهم اجعل لي عندك عهداً واجعل لي في صدور المؤمنين وداً فأنزل الله سبحانه هذه الآية، وكان محمد بن الحنفية رضي الله تعالى عنه يقول: لا تجد مؤمناً إلا وهو يحب علياً كرم الله تعالى وجهه وأهل بيته. وروى الإمامية خبر نزولها في علي كرم الله تعالى وجهه عن ابن عباس. والباقر. وأيدوا ذلك بما صح عندهم أنه كرم الله تعالى وجهه قال: (لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني ولو صببت الدنيا بجملتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني وذلك أنه قضى فانقضي على لسان النبي (ص) أنه قال: (لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق) والمراد المحبة الشرعية التي لا غلو فيه)[١]. وقد ذكر الألوسي علاقة الكفار أو المنافقين بالإمام فـ(في "البحر" روى أن علياً كرم الله تعالى وجهه وجمعاً من المؤمنين معه مروا بجميع من كفار مكة فضحكوا منهم واستخفوا بهم فنزلت ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ﴾ قبل أن يصل علي كرم الله تعالى وجهه إلى رسول الله (ص) وفي "الكشاف" حكاية ذلك عن المنافقين وأنهم قالوا ربنا اليوم الأصلع أي سيدنا يعنون علياً كرم الله تعالى وجهه وإنما قالوا استهزاء ولعل الأول أصح)[٢]، وقال في تفسير الآية الكريمة ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[٣] لكنه نسب ذلك إلى الـ(قيل نزلت في منافقين كانوا يؤذون علياً كرم الله تعالى وجهه ويسمعونه ما لا خير فيه)[٤] ونعتقد جازمين أن سبه وحربه من ألوان إيذائه.

الإمام:

يذكر الألوسي حديث الثقلين وفي أكثر من موضع وبصيغ مختلفة فمنها قوله (ص) (إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتي لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض)[٥] وقوله عليه الصلاة والسلام: (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)[٦] وقوله عليه الصلاة والسلام (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)[٧] وقوله (ص): (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي)[٨] وقوله عليه الصلاة والسلام (كأني قد دعيت فأجبت إني قد تركت فيكم

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٨١/١٢.
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٨٣/٢٢.
(٣) الأحزاب: ٥٨.
(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٢٢/١٦.
(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٢/٣.
(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٩٩/١٦.
(٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٩٩/١٦.
(٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٤٦/٢٠.

الثقلين كتاب الله تعالى وعترتي أهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، الله تعالى مولاي وأنا ولي كل مؤمن، ثم أخذ بيد علي كرم الله تعالى وجهه فقال: من كنت مولاه فهذا وليه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه)[١] ونقل عن (صحيح مسلم) عن يزيد بن حبان قال: (انطلقت أنا. وحصين بن سبرة. وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم فلما جلسنا إليه قال له حصين: لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً رأيت رسول الله (ص) وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً حدثنا يا زيد بما سمعت من رسول الله (ص) قال: يا ابن أخي والله لقد كبرت سني وقدم عهدي ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله (ص) فما حدثتكم فاقبلوا وما لا تكلفونيه ثم قال: قام رسول الله (ص) يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: (أما بعد ألا يا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وإني تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: (وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ثلاثاً) فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده قال: ومن هم قال هم آل علي وآل عقيل. وآل جعفر. وآل عباس)[٢] واعترف بثبوت حديث الغدير بقوله (ثبت عندنا أنه (ص) قال في حق الأمير كرم الله تعالى وجهه هناك: من كنت مولاه فعلى مولاه وزاد على ذلك كما في بعض الروايات)[٣] ولم يذكر هذه الزيادة ونقل رواية ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن بريدة الأسلمي قال: (غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله (ص) ذكرت علياً كرم الله تعالى وجهه فتنقصته، فرأيت وجه رسول الله (ص) قد تغير، فقال يا بريدة: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله قال: من كنت مولاه فعلي مولاه)[٤]، وعن منزلة أمير المؤمنين (ع) يروي عن رسول الله (ص) أنه (قال: لعلي كرم الله تعالى وجهه (أنا وأنت أبوا هذه الأمة) وإلى هذا أشار (ص) بقوله: (كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي)[٥] وعن منزلة الأمير قال (ص) لعليّ كرم الله تعالى وجهه (أنت مني بمنزلة هارون من موسى)[٦] وعن منزلة الزهراء البتول (ع) يقول مستدلاً بحديث الثقلين (إن قوله عليه الصلاة والسلام:

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٦٩/٥.
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١١٥/١٦.
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٧٦/٤.
(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٦٨/٥.
(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٣٩/١٦
(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٨٩/٩.

(إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتي لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض) يقوم مقام ذلك الخبر وزيادة كما لا يخفى كيف لا وفاطمة رضي الله تعالى عنها سيدة تلك العترة؟)[١].

الفدائي:

من الأمور العجيبة في شخصية الإمام جمعه الصفات المتضادة:

هو البكاء في المحراب ليلا هو الضحاك إن آن الضراب

فـ(إذا دخل وقت الصلاة أصفر وجهه الشريف وتغير لونه فسئل عن ذلك فقال: إنه دخل على وقت أمانة عرضها الله تعالى على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وقد حملتها أنا مع ضعفي فلا أدري كيف أؤديها)[٢] ومن جانب آخر يقول عن الموت الذي تفر منه أكثر البشرية (لا أبالي أوقعت على الموت أم وقع الموت علي، أو لا ضير علينا في ذلك لأن مصيرنا ومصيرك إلى رب يحكم بيننا فينتقم لنا منك)، وفي معنى ذلك قوله:

إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم[٣]

والآلوسي عندما يضرب مثلاً للتواتر المعنوي يقول (متواتر المعنى كشجاعة علي كرم الله تعالى وجهه)[٤] ونقل هذا الـ(قيل في وصف علي كرم الله تعالى وجهه: إنه كان إذا اعتلى قدّ وإذا اعترض قط، وقيل، القدّ هنا مطلق الشق)[٥] وذكر من أشعاره في المعارك:

صيد الملوك ثعالب وأرانب وإذا ركبت فصيدتي الأبطال[٦]

وقوله: حين بارز مرحباً اليهودي يوم خيبر:

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره

أو فيهم بالصاع كيل السندره...[٧]

وعن حسمه لمعركة الأحزاب بقتله عمر بن ود يقول في تفسيره لقوله تعالى ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عن القتال أي أغناهم سبحانه عنه ولا وجه له وهذه الكفاية كانت كما أخرج ابن جرير. وابن أبي حاتم عن قتادة بالريح والملائكة عليهم السلام، وقيل: بقتل علي كرم

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٢/٣.
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٤٠/١٦.
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢١٣/١٤.
(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣١٣/١٣.
(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٤٨٤/٨.
(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٣٣/٥.
(٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢١٩/٦.

الله تعالى وجهه عمرو بن عبد ود. وأخرج ابن أبي حاتم. وابن مردويه. وابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه كان يقرأ هذا الحرف (وَكَفَى اللّه المؤمنين القتال بَعْلِي) وفي مجمع البيان هو المروى عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه ولا يكاد يصح ذلك[1]، وقد وصف حال المسلمين في تلك المعركة (واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق كما قص الله تعالى، ومضى قريب من شهر على الفريقين لا حرب بينهم سوى الرمي بالنبل والحجارة من وراء الخندق إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود وكان يعد بألف فارس. وعكرمة بن أبي جهل. وضرار بن الخطاب. وهبيرة بن أبي وهب. ونوفل بن عبد الله قد ركبوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكاناً ضيقاً فضربوا بخيولهم فاقتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع فخرج علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه في نفر من المسلمين رضي الله تعالى عنهم حتى أخذ عليهم الثغرة التي اقتحموا منها فأقبلت الفرسان معهم وقتل علي كرم الله تعالى وجهه عمراً في قصة مشهورة)[2]. ونسب إلى الإمامية والبعض من غيرهم أن آية ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾[3] إنها (نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه حين استخلفه النبي (ص) على فراشه بمكة لما خرج إلى الغار، وعلى هذا يرتكب في الشراء مثل ما ارتكب أولاً ﴿ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ أي المؤمنين حيث أرشدهم لما فيه رضاه، وجعل النعيم الدائم جزاء العمل المنقطع وأثاب على شراء ملكه بملكه)[4]. وقد ذكر تفاصيل الحادثة في موضع آخر (أن قريشاً لما رأت أن رسول الله (ص) قد كانت له شيعة وأصحاب من غيرهم من غير بلدهم ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة فحذروا رسول الله (ص) إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم فاجتمعوا في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها يتشاورون فيها ما يصنعون في أمره عليه الصلاة والسلام فلما اجتمعوا كما قال ابن عباس لذلك واتعدوا أن يدخلوا الدار ليتشاوروا فيها غدوا في اليوم الذي اتعدوا فيه وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة فاعترضهم إبليس عليه اللعنة في هيئة شيخ جليل عليه بدلة فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً قالوا: أجل فادخل فدخل معهم وقد اجتمع أشراف قريش فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما رأيتم وإنا والله ما نأمنه قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٦/٧٩.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٦/٤٩.

(٣) البقرة: ٢٠٧.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢/١٨٣.

باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهيراً والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم. فقال الشيخ النجدي: لا واللّه ما هذا برأي واللّه لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره فتشاوروا ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فتنفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فو اللّه ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت. قال الشيخ النجدي: لا واللّه ما هذا برأي ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟ واللّه لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يبايعوه ثم يسير بهم إليكم فيطؤكم بهم في بلادكم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأياً غيره. فقال أبو جهل: واللّه إن فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد. قالوا وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً فينا ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدون إليه فيضربونه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم قال فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل هو هذا الرأي لا أرى غيره فتفرقوا على ذلك، فأتى جبريل (عليه السلام) رسول اللّه (ص) فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام فيثبون عليه فلما رأى رسول اللّه (ص) مكانهم قال لعلي كرم اللّه وجهه نم على فراشي وتسبح بردي هذا الحضرمي الأخضر فنم فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم وكان رسول اللّه (ص) ينام في برده ذلك إذا نام، وأذن له عليه الصلاة والسلام في الهجرة فخرج مع صاحبه أبي بكر رضي اللّه تعالى عنه إلى الغار، وأنشد علي كرم اللّه تعالى وجهه مشيراً لما من اللّه تعالى به عليه:

وقيت بنفسي خير من وطئ الحصى ... ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر

رسول إله خاف أن يمكروا به ... فنجاه ذو الطول الإله من المكر

وبات رسول اللّه في الغار آمنا ... وقد صار في حفظ الإله وفي ستر

وبت أراعيهم وما يتهمونني ... وقد وطنت نفسي على القتل والأسر[1]

وذكر في سبب نزول الآية ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[2] (ما روي عن الكلبي من أن عتبة.

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، ١٨٦/٥.

(٢) الجاثية /٢١.

عتبة. وشيبة. والوليد بن عتبة قالوا لعلي كرم الله تعالى وجهه. وحمزة رضي الله تعالى عنه. والمؤمنين: والله ما أنتم على شيء ولئن كان ما تقولون حقاً لحالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما هو أفضل في الدنيا فنزلت الآية)[١]. وبقى الإمام على ذلك الجهاد صادقاً ولم يبدل بل كان منتظراً لقضاء نحبه فـ(في مجمع البيان عن أبي إسحق عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال: نزلت فينا ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية وأنا والله المنتظر، وفي وصفهم بالانتظار المنبىء عن الرغبة في المنتظر شهادة حقه بكمال اشتياقهم إلى الشهادة)[٢] ونستطيع تصور حزن الأرض والسماء حين شهادته من خلال قوله (ع): (إن المؤمن إذا مات بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ثم تلا ﴿فَمَا بَكَتْ﴾)[٣].

العالم:

وصف الآلوسي أمير المؤمنين (ع) في خمس مواضع من تفسيره بأنه (باب مدينة العلم)[٤]، وهو في هذا تابع للسنة الشريفة فقد قال (رسول الله (ص): أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها)[٥] غاية ما في الأمر أنه بهذا يصحح هذا الحديث مقابل من يضعفه ونقل عن (محمد بن الحنفية. والباقر كما في (البحر): المراد (بمَنِ) علي كرم الله تعالى وجهه، والظاهر أن المراد (بالكتاب) حينئذٍ القرآن، ولعمري أن عنده رضي الله تعالى عنه علم الكتاب كملاً لكن الظاهر أنه كرم الله تعالى وجهه غير مراد)[٦]، فهو يعترف بالعلم الكامل للإمام للقران وإن كان يشكك بنزول الآية به بل تعدى ذلك بأنه يعلم الكتب الأخرى فقد ذكر ما روي عن أمير المؤمنين (ع) من قوله (لو ثنيت لي الوسادة لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم وأهل الإنجيل بإنجيلهم)[٧]، لكنه هذه المرة أعقبه بقوله إن صح وقد ذكر منبع علم الإمام بأنه فهم الكتاب الكريم فـ(قد سئل علي كرم الله تعالى وجهه هل أسرَّ إليكم رسول الله (ص) شيئاً كتمه عن غيركم فقال: لا إلا أن يؤتى الله تعالى عبداً فهما في كتابه)[٨]، وفي موضع آخر أضاف إلى فهم الكتاب صحيفة هي من مختصات الإمام (ع) فـ(عن أبي جحيفة، قال: قلت لعلي كرم الله تعالى وجهه: هل عندكم كتاب خصكم به رسول الله (ص)؟ قال: لا إلا كتاب الله تعالى أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢١/١٩.
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٧٥/١٦.
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٤٥٦/١٨.
(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ج ١٢٠/١١و ج ٤٠١/١٥ و١٨٠/١٧و ١٣٧/١٨ و٣٥٨/١٩.
(٥) كنز العمال - المتقي الهندي ١٤٨/١٣.
(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٠٥/٩.
(٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٤٩٤/٤.
(٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٢٧/١٥.

هذه الصحيفة وكانت متعلقة بقبضة سيفه قال: قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل وفكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر)[١]، وكان تلميذ رسول الله (ص) وقد وصف (ع) سعة علمه (ص) (لم يغم على نبيكم (ص) إلا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية في آخر لقمان إن الله عنده علم الساعة إلى آخر السورة)[٢] وفي نص آخر يضيف إلى كتاب الله كتاب آخر وهو (الجفر الجامع المنسوب إلى أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه فإنهم قالوا: إنه جامع لما شاء الله تعالى من الحوادث الكونية وهو أيضاً مستخرج من القرآن العظيم)[٣]، ولم يعترض الألوسي على تحديث الملائكة لأهل البيت (ع) وهو من منابع علومهم فقد نقل بلا اعتراض (عن بعض أئمة أهل البيت أن الملائكة لتزاحمنا بالركب أو ما هذا معناه)[٤] وقال في موضع أخر (ونسب إلى بعض أئمة أهل البيت أنه قال: إن الملائكة لتزاحمنا في بيوتنا بالركب)[٥] إضافة إلى الحافظة العجيبة التي منحها الله سبحانه لأمير المؤمنين (ع) وحسب التعبير القرآني ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي من شأنها أن تحفظ ما يجب حفظه بتذكره وإشاعته والتفكر فيه ولا تضيعه بترك العمل به وعن قتادة الواعية هي التي عقلت عن الله تعالى وانتفعت بما سمعت من كتاب الله تعالى وفي الخبر (أن النبي (ص) قال لعلي كرم الله تعالى وجهه أني دعوت الله تعالى أن يجعلها أذنك يا علي قال علي كرم الله تعالى وجهه فما سمعت شيئاً فنسيته وما كان لي أن أنسى)[٦]، ومع كل ذلك قد يعترض على أجوبته (ع) فقد (سأل ابن الكواء علياً كرم الله تعالى وجهه عنهم[٧] فقال: منهم أهل حروراء يعني الخوارج، واستشكل بأن قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٨] الخ يأباه لأنهم لا ينكرون البعث وهم غير كفرة)[٩]، ولا نعرف معنى لمروقهم من الدين وهو وصفهم على لسان رسول الله (ص) هذا علم الإمام (ع) بينما يذكر عن آخرين أنهم لا يعرفون معنى الأب فيقول الأول (أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله تعالى ما لا أعلم)[١٠]، والآخر يعتبر ذلك من التكلف وينهى عن (أن يزاد في الصداق على أربعمائة درهم فاعترضته امرأة من قريش فقالت: أما سمعت ما أنزل الله تعالى ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾[١])[٢]، ويعترف هنا بخطئه لكنه أجاب على أسئلة

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٥/٦٤.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٥/٤٧٧.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم١٠/٢٧٧

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٨/٢٢٦.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٦/١٥١.

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢١/٢١٥.

(٧) الكلام عن قوله تعالى (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا).

(٨) الكهف/١٠٥.

(٩) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١١/٤٢٢.

(١٠) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٢/١٩٦.

﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا [١] ﴾[٢]، ويعترف هنا بخطئه لكنه أجاب على أسئلة السائل في موضع آخر ونقلاً عن رسول الله (ص) في معنى بعض الآيات لكنه ختم الجواب بقوله (ولولا أني سمعت رسول الله (ص) يقوله ما قلته ثم أمر به فضرب مائة وجعل في بيت فلما برأ دعاه فضربه مائة أخرى وحمله على قتب وكتب إلى أبي موسى الأشعري امنع الناس من مجالسته فلم يزالوا كذلك حتى أتى أبا موسى فحلف له بالإيمان المغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئاً فكتب إلى عمر رضي الله تعالى عنه ما أخاله إلا قد صدق فخلى بينه وبين مجالسة الناس)[٣]، ثم استدل بهذه الحادثة على عدم سلامة قلب السائل! وهو في كل الأحوال يلتمس الأعذار وفي أغلب الأحيان تكون غير مقبولة، وكم فرق بين هذا وبين (ما أخرجه ابن أبي شيبة. وابن جرير. وابن المنذر. وابن أبي حاتم. والحاكم. والبيهقي في سننه) عن علي كرم الله تعالى وجهه أن رجلاً من الخوارج ناداه وهو في صلاة الفجر فقال: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٤]. فأجابه كرم الله تعالى وجهه وهو في الصلاة ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ولا بدع في هذا الجواب من باب مدينة العلم وأخي رسول الله (ص)[٥]. وقد حدد (ع) وظيفة العالم بأنها (ما أخذ الله تعالى على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا)[٦].

المبحث الثاني

المطلب الأول

درر علوية

زيّن الألوسي تفسيره بعشرات من أحاديث مدينة علم الرسول (ص) ومنها إن الإمام حدد المخرج من الفتنة فروى عن رسول الله (ص) (إنها ستكون فتنة قلت فما المخرج منها يا رسول الله قال كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذي لا تزيغ فيه الأهواء ولا تشبع منه العلماء ولا تلتبس به الألسن ولا يخلق عن الرد ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم تنته الجن لما سمعته عن أن قالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن

---

(١) النساء: ٢٠.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم٣/٤٨٦.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٩/٣٥٧.

(٤) الزمر: ٦٥.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٥/٤٠١.

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣/٣٥٣.

عمل به أجر ومن هدي به هدي إلى صراط مستقيم)[١] وتحدث عن أفضل آية فقال (ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله (ص): ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ وسأفسرها لك يا علي ما أصابك من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم والله تعالى أكرم من أن يثنى عليكم العقوبة في الآخرة وما عفا الله تعالى عنه في الدنيا فالله سبحانه أكرم من أن يعود بعد عفوه)[٢] وتحدث عن أوسع آية فقال (أي آية أوسع؟ فجعلوا يذكرون آيات من القرآن ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ﴾[٣] الآية ونحوها فقال علي كرم الله تعالى وجهه: ما في القرآن أوسع آية من ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[٤] الآية[٥]. وتحدث عن أرجى آية فقال (لم أر أرجى من ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[٦] الآية)[٧]. وفي موضع آخر ذكر آية أخرى فقد (أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في (الحلية) من طريق حرب بن شريح قال قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين على جدهم وعليهم الصلاة والسلام أرأيت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أحق هي قال أي والله حدثني محمد بن الحنفية عن علي كرم الله تعالى وجهه أن رسول الله (ص) قال (اشفع لأمتي حتى ينادي ربي أرضيت يا محمد فأقول نعم يا رب رضيت) ثم أقبل علي فقال إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية في كتاب الله تعالى ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾[٨] قلت إنا لنقول ذلك قال فكلنا أهل البيت نقول إن أرجى آية في كتاب الله تعالى ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ وقال هي الشفاعة وقيل هي أعم من الشفاعة وغيرها ويرشد إليه ما أخرجه العسكري في المواعظ وابن مردويه وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال دخل رسول الله (ص) على فاطمة وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من جلد الإبل فلما نظر إليها قال يا فاطمة تعجلي مرارة الدنيا بنعيم الآخرة غداً فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾[٩]. وتحدث عن أحب أية فقال (أحب آية إليّ في القرآن ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[١٠])[١١]. وعرف الإيمان بالمعرفة (إن الإيمان معرفة والمعرفة تسليم

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٢/٣٥٥.
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٨/٢٧٨.
(٣) النساء: ١١٠.
(٤) الزمر: ٣٥.
(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٧/٤٩٨.
(٦) الزمر: ٥٣.
(٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١١/٧١.
(٨) الزمر: ٥٣.
(٩) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٣/٩.
(١٠) النساء: ٤٨.
(١١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٤/٨٥.

والتسليم تصديق، ويؤيد هذا المذهب قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[٣] وقوله (ص): (اللهم ثبت قلبي على دينك) حيث نسبه فيها وفي نظائرها الغير المحصورة إلى القلب فدل ذلك على أنه فعل القلب وليس سوى التصديق إذ لم يبين في الشرع بمعنى آخر)[٤] ونسب الإسلام نسبة لا تجدها في كلام غيره فقال (لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي، الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل ثم قال: إن المؤمن أخذ دينه عن ربه ولم يأخذه عن رأيه إن المؤمن من يعرف إيمانه في عمله وإن الكافر يعرف كفره بإنكاره أيها الناس دينكم دينكم فإن السيئة فيه خير من الحسنة في غيره إن السيئة فيه تغفر وإن الحسنة في غيره لا تقبل)[٥]. وقال عن التوحيد (التوحيد أن لا تتوهمه)[٦] وعن استحالة معرفة كنه الذات الإلهية قال (إنما تحد الأدوات أنفسها وتشير الآلات إلى نظائرها فلا يعرف الله تعالى إلا الله عزّ وجلّ)[٧] وعن عدم إمكان رؤية الله الحسية عندما قيل له: (هل رأيت الله تعالى؟ فقال: ما كنت لأعبد رباً لم أره، ثم قال: لم تره العيون بشواهد العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان)[٨] وعن اختيار العبد يقول (إن الله تعالى لم يعص مغلوباً ولم يطع مكرهاً ولم يملك تفويضاً ولم يكونوا مجبورين في اختيارهم الأزلي لأنه سابق الرتبة على العلم السابق على تعلق الإرادة والجبر تابع للإرادة التابع للعلم التابع للمعلوم الذي هو هنا اختيارهم الأزلي فيمتنع أن يكون تابعاً لما هو متأخر عنه بمراتب فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى لأنه سبحانه متفضل بإيجاد ما اختاروه لا يجب عليه مراعاة الحكمة ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه لأن إرادته جل شأنه لم تتعلق بما صدر منهم من الأفعال إلا لكونهم اختاروها أزلاً بمقتضى استعدادهم فاختارها تعالى مراعاة للحكمة تفضلاً، والعباد كاسبون بالله تعالى إذ لا كسب إلا بقوة ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)[٩] وعن أهمية التقوى يقول (لا يقل عمل مع

---

(١) المجادلة: ٢٢.

(٢) الحجرات: ٤١.

(٣) النحل: ١٠٦.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٩٧/١.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٤٥٦/٢.

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٤٦٣/٥.

(٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٦٩/١٠.

(٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٢٣/٤.

(٩) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٤٨٦/٥.

تقوى وكيف يقل ما يتقبل)[١] وعن التوبة بعد سماعه لأعرابي يقول اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك فقال: (يا هذا إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين، فقال الأعرابي: وما التوبة؟ قال كرم الله تعالى وجهه: يجمعها ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندامة. وللفرائض الإعادة. ورد المظالم. واستحلال الخصوم. وأن تعزم على أن لا تعود. وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية. وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصي)[٢].

المطلب الثاني

حكم ومواعظ علوية

كان أمير المؤمنين (ع) شاعراً بل (وكان مجوداً حتى قيل: إنه أشعر الخلفاء)[٣] و (الشعر ميزان العقول)[٤] ومما ينسب إليه في محورية الإنسان قوله:

(دواؤك فيك وما تبصر ودواؤك منك وما تشعر

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر)[٥]

وأكد على محورية الكلام واللسان في تكوين شخصية الإنسان (ما الإنسان لولا اللسان إلا صورة مصورة أو بهيمة مهملة، وقال رضي الله عنه: المرء مخبوء تحت طي لسانه لا طيلسانه، وقال رضي الله تعالى عنه: المرء بأصغريه قلبه ولسانه)[٦] وحذر من التأكيد على المتحدث وإهمال نفس الحديث (لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال)[٧] وحث في مقام التخاطب مع الناس مراعاة مستوياتهم (حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله تعالى ورسوله (ص)[٨] وعلم الناس إن الإحسان إحسان للنفس وأساتها عليها (ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه وتلا الآية ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[٩] لكنه في الوقت نفسه حث على المروءة وقد فسرها للناس (أو ما كفاكم الله عزّ وجلّ ذاك في كتابه إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ فالعدل الإنصاف والإحسان التفضل فما بقي بعد هذا، وأعلى مراتب الإحسان على هذا الإحسان إلى المسيء وقد أمر به نبينا (ص)[١٠]. وحث

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٧٧/٤.
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٤ ١٠٧/٢١.
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٩٧/١٤
(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٩٨/١٤.
(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٥٣/١.
(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٨٩/١٢.
(٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٦٩/١٠و ١١٧/٨.
(٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٦٥/٥.
(٩) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٧٤/١٠.
(١٠) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٧٩/١٠.

على البر وحذر من الجفاء (من برك فقد أسرك ومن جفاك فقد أطلقك)[١] وحث على الصفح الجميل الذي عرفه بـ(صفح لا توبيخ فيه ولا حقد بعده مع الرجوع إلى ما كان قبل ملابسة المالفة)[٢] ونهى في العشرة عن تتبع أخطاء الآخر فقال (ما استقصى كريم قط)[٣] وحث على تعليم وتأديب النفس والأهل (علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم)[٤] وأوصى بشكر النعم (إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر)[٥] وحذر من مغبة الحسد (لله در الحسد ما أعد له بدأ بصاحبه فقتله)[٦].

المطلب الثالث

المسألة الأولى: تشكيكات

قد ورد الأمر الإلهي بمسألتين لا بمسألة واحدة فأمر بالتقوى أولاً وبالكون مع الصادقين ثانياً ومن الخطأ أن يعمل العبد بأحدهما دون الآخر بل عليه الالتزام بالاثنين معاً فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[٧]، وقد (أخرج ابن مردويه عن ابن عباس. وابن عساكر عن أبي جعفر أن المراد كونوا مع علي كرم الله تعالى وجهه)[٨]، لكنه ذكر أن الاستدلال بالآية على الخلافة فساده ظاهر أن كان صحيحاً مما يدل على عدم إذعانه بصحته وشكك في موضع آخر بحديث آخر في تفسير قوله ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾[٩]، شكك أن يكون الشاهد هو علي (ع) رغم أن ذلك مروي فقد أخرج ابن أبي حاتم. وابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: (ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: أما تقرأ سورة هود ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴾ الآية من كان على بينة من ربه رسول الله (ص) وأنا شاهد منه)، وأخرج المنهال عن عبادة بن عبد الله مثله، وأخرج ابن مردويه بوجه آخر عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: قال رسول الله (ص): ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ أنا ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ ﴾ علي). وأخرج الطبرسي نحو ذلك عن بعض أهل البيت رضي الله تعالى عنهم وتعلق به بعض الشيعة في أن علياً كرم الله تعالى وجهه هو خليفة رسول الله (ص) لأن الله تعالى سماه شاهداً

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٧/٣٥٠.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٠/٨٦.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢١/٩٢.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢١/١٠١.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٨/١٨٠.

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٣/١٩٠.

(٧) التوبة: ١١٩.

(٨) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٧/٣٩٩.

(٩) هود: ١٧.

كما سمى نبيه عليه الصلاة والسلام كذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[١]، والمراد ﴿شَٰهِدًا﴾ على الأمة كما يشهد له عطف ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ عليه فينبغي أن يكون مقامه كرم الله تعالى وجهه بين الأمة كمقامه عليه الصلاة والسلام بينهم، وحيث أخبر سبحانه أنه يتلوه أي يعقبه ويكون بعد دل على أنه خليفته، وأنت تعلم أن الخبر مما لا يكاد يصح[٢]، وخطابه للقارئ بالجزم بعدم صحته الخبر عجيب، وأعجب منه تشكيكه بحديث تذكره عشرة مصادر في تفسير الآية الكريمة ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٣]، فبعد أن ينسب للشيعة في ذلك أخبار ويذكر أن ذلك ليس مقتصر عليهم بل قد (ذكر ذلك القشيري منا. وأخرج ابن جرير. وابن مردويه. والديلمي. وابن عساكر عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ الآية وضع رسول الله (ص) يده على صدره فقال: أنا المنذر وأومأ بيده إلى منكب علي كرم الله تعالى وجهه فقال: أنت الهادي يا علي بك يهتدي المهتدون من بعدي. وأخرج عبد الله بن أحمد في (زوائد المسند). وابن أبي حاتم. والطبراني في الأوسط. والحاكم وصححه. وابن عساكر أيضاً عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال في الآية: رسول الله (ص) المنذر وأنا الهادي، وفي لفظ الهادي رجل من بني هاشم يعني نفسه. واستدل بذلك الشيعة على خلافة علي كرم الله تعالى وجهه بعد رسول الله (ص) بلا فصل. وأجيب بأنا لا نسلم صحة الخبر، وتصحيح الحاكم محكوم عليه بعدم الاعتبار عند أهل الأثر، وليس في الآية دلالة على ما تضمنه بوجه من الوجوه، على أن قصارى ما فيه كونه كرم الله تعالى وجهه به يهتدي المهتدون بعد رسول الله (ص) وذلك لا يستدعي إلا إثبات مرتبة الإرشاد وهو أمر والخلافة التي نقول بها أمر لا تلازم بينهما عندنا)[٤]، وفي موضع ثالث لا يذكر الأحاديث وينسبها إلى رواتها والكتب التي وردت فيها لكنه يحكم عليها حكماً قاطعاً جازماً بلا دليل ففي تفسيره لآية إنذار عشيرة النبي (ص) الأقربين بقول (من الروايات ما يتمسك به الشيعة فيما يدعونه في أمر الخلافة وهو مؤول أو ضعيف أو موضوع)[٥]، وعندما يأتي لتفسير صالح المؤمنين وهو من أعوان النبي (ص) مع الله وملائكته إزاء من تظاهرن عليه من أزواجه يذكر أنه (قيل: علي كرم الله تعالى وجهه، وأخرجه ابن مردويه. وابن عساكر عن ابن عباس، وأخرج ابن مردويه عن أسماء بنت عميس قالت. سمعت رسول الله (ص) يقول: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ علي بن أبي طالب: وروى الإمامية عن أبي جعفر أن النبي (ص) حين نزلت أخذ بيد علي كرم الله تعالى وجهه فقال: يا أيها الناس هذا صالح

---

(١) الفتح: ٨.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٩٤/٨.

(٣) الرعد: ٧.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٠٧/٩.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٧٣/١٤.

المؤمنين)[١]، ثم يفرق ذلك بالاحتمالات الأخرى أن صالح المؤمنين فلان أو فلان أو هما معاً أو غيرهما ويرفض في موضع كون الإمام (ع) هو وحده أو هو وأهل بيته أو هو شيعته خير البرية رغم صدور ذلك عن الرسول الأكرم (ص) (فقد أخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه قال قال لي رسول الله (ص) ألم تسمع قول الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ هم أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض إذا جئت الأمم للحساب يدعون غراً محجلين وروي نحوه الإمامية عن يزيد بن شراحيل الأنصاري كاتب الأمير كرم الله تعالى وجهه وفيه أنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك له عند الوفاة ورأسه الشريف على صدره رضي الله تعالى عنه وأخرج ابن مردويه أيضاً عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[٢] الخ قال رسول الله (ص) لعلي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين وذلك ظاهر في التخصيص وكذا ما ذكره الطبرسي الإمامي في (مجمع البيان) عن مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال في الآية نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه وأهل بيته وهذا إن سلمت صحته لا محذور فيه إذ لا يستدعي التخصيص بل الدخول في العموم وهم بلا شبهة داخلون فيه دخولاً أولياً وأما ما تقدم فلا تسلم صحته فإنه يلزم عليه علي كرم الله تعالى وجهه خيراً من رسول الله (ص) والإمامية وإن قالوا إنه رضي الله تعالى عنه خير من الأنبياء حتى أولي العزم عليهم السلام ومن الملائكة حتى المقربين عليهم السلام لا يقولون بخيريته من رسول الله (ص) فإن قالوا بأن البرية على ذلك مخصوصة بمن عداه عليه الصلاة والسلام للدليل الدال على أنه (ص) خير منه كرم الله تعالى وجهه قيل إنها مخصوصة أيضاً بمن عدا الأنبياء والملائكة ومن قال أهل السنة بخيريته للدليل الدال على خيريتهم وبالجملة لا ينبغي أن يرتاب في عدم تخصيص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالأمير كرم الله تعالى وجهه وشيعته ولا به رضي الله تعالى عنه وأهل بيته وان دون إثبات صحة تلك الأخبار خرط القتاد والله تعالى أعلم)[٣].

المسألة الثانية: الانقلاب

أخبر القرآن الكريم عن انقلاب بعد قتل رسول الله (ص) أو موته وبينما كان أمير المؤمنين (ع) مشغولاً بتجهيز الرسول الأكرم (ص) و(خرج الناس وخلا الموضع فلما وضعته على المغتسل إذا بهاتف يهتف من زاوية البيت بأعلى صوته لا تغسلوا محمداً فإنه طاهر طهر فوقع في قلبي شيء من ذلك وقلت: ويلك من أنت فإن النبي (ص) بهذا أمرنا وهذه سنته وإذا بهاتف آخر يهتف بي من زاوية البيت بأعلى صوته غسلوا محمداً فإن الهاتف الأول كان إبليس

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢١/٩٧.

(٢) البينة: ٧.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٣/٧٩.

الملعون حسد محمداً (ص) أن يدخل قبره مغسولاً فقلت: جزاك الله تعالى خيراً قد أخبرتني بأن ذلك إبليس فمن أنت؟ قال أنا الخضر حضرت جنازة محمد (ص))[1] وفي خارج هذه الدار المحزون أهلها والمفجوعون برحيل سيدهم قام رجل من أصحابه ليقول للناس (إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله (ص) توفي وإن رسول الله (ص) والله ما مات ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات والله ليرجعن رسول الله (ص) كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله (ص) مات، فخرج أبو بكر فقال: على رسلك يا عمر أنصت فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله تعالى فإن الله تعالى حي لا يموت، ثم تلى هذه الآية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ إلى آخرها فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ فأخذها الناس من أبي بكر، وقال عمر: فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول الله (ص) قد مات)[2] ولا نعرف إن أحداً كان يعبد الرسول حتى يصح هذا الخطاب الذي خلا من لوعة المصاب وهذا من العجائب وأعجب منه القول برجعته والتي أغفلها الألوسي بينما قال في موضع آخر (القول بالرجعة محض سخافة لا يكاد يقول بها من يؤمن بالبعث)[3] ويستمر العجب عندما نجد هذا الرجل نفسه وصاحبه من أقوى المجادلين والمدافعين عن أحقية قريش في الخلافة وانتهت فعلاً بخلافة أحدهم والذي بدوره ختم حياته بـ(وصيته حين عهد لعمر رضي الله تعالى عنه وذلك أنه أمر عثمان رضي الله تعالى عنه أن يكتب في مرض موته حينئذ (بسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم) هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقي فيها الفاجر ويصدق فيها الكاذب إني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه وأن يجر ويبدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[4])[5] وأنشدت بنته عند احتضاره:

(أعاذل ما يغني الحذار عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال أبو بكر: ليس كذلك يا بنية ولكن قولي: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[6] وفي رواية لابن المنذر. وأبي عبيد أنها قالت:

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣١٩/١١.
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٤٢/٣.
(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٦٣/١٠.
(٤) الشعراء: ٢٢٧.
(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٤٠١/١٤.
(٦) ق/١٩

وأبـــيض يستـــسقي الغمـــام بوجهـــه ثمـــال اليتـــامى عـــصمة للأرامـــل[١]

ولم يعمل صاحبه بعده بمثل عمله رغم اعترافه بـ(إن صاحبكم هذا يعني علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه إن ولى زهد ولكني أخشى عجب نفسه أن يذهب به)[٢] رغم ذلك جعلها شورى سداسية أنتجت ما أنتجت وفي كل الأحوال لم يكن هناك إلا آراء البعض فرضت على الأمة ومن الغريب أن يستدل على صحة الحكم ونسبته إلى الله سبحانه ما قاله الألوسي في تفسير قوله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[٣] فـــادعى (أن الله تعالى وعد فيها من في حضرة الرسالة من المؤمنين بالاستخلاف وتمكين الدين والأمن العظيم من الأعداء ولا بد من وقوع ما وعد به ضرورة امتناع الخلف في وعده تعالى ولم يقع ذلك المجموع إلا في عهدهم فكان كل منهم خليفة حقا باستخلاف الله تعالى إياه حسبما وعد جل وعلا ولا يلزم عموم الاستخلاف لجميع الحاضرين المخاطبين بل وقوعه فيهم كبنو فلان قتلوا فلاناً فلا ينافي ذلك عموم الخطاب الجميع، وكون من بيانية، وكذا لا ينافيه ما وقع في خلافة عثمان. وعلي رضي الله تعالى عنهما من الفتن لأن المراد من الأمن الأمن من أعداء الدين وهم الكفار كما تقدم)[٤]. وأغرب من ذلك أن يجعل سر النبي (ص) المفشي من قبل بعض زوجاته فقد (أخرج ابن مردويه عن ابن عباس. وابن أبي حاتم عن مجاهد أن النبي (ص) أسر إلى حفصة تحريم مارية وأن أبا بكر. وعمر يليان الناس بعده فأسرت ذلك إلى عائشة فعرف بعضه وهو أمر مارية وأعرض عن بعض وهو أن أبا بكر. وعمر يليان بعده مخافة أن يفشو، وقيل: بالعكس، وقد جاء أسرار أمر الخلافة في عدة أخبار: فقد أخرج ابن عدي. وأبو نعيم في فضائل الصديق، وابن مردويه من طرق عن علي كرم الله تعالى وجهه. وابن عباس قالا: إن أمارة أبي بكر. وعمر لفي كتاب الله ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ قال لحفصة: (أبوك وأبو عائشة واليا الناس بعدي فإياك أن تخبري أحداً). وأخرج أبو نعيم في فضائل الصحابة عن الضحاك أنه قال: في الآية أسر (ص) إلى حفصة أن الخليفة من بعده أبو بكر ومن بعد أبي بكر عمر، وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران نحوه، وفي (مجمع البيان) للطبرسي من أجل الشيعة عن الزجاج قال: لما حرم عليه الصلاة والسلام مارية القبطية أخبر أنه يملك من بعده أبو بكر. وعمر فعرفها بعض ما أفشت من الخبر وأعرض عن بعض أن أبا

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٢٦/١٩.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٨٢/١٢.

(٣) النور: ٥٥.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٤٩٦/١٣.

بكر. وعمر يملكان من بعدي، وقريب من ذلك ما رواه العياشي بالإسناد عن عبد الله بن عطاء المكي عن أبي جعفر الباقر رضي الله تعالى عنه إلا أنه زاد في ذلك أن كل واحدة منهما حدثت أباها بذلك فعاتبهما في أمر مارية وما أفشتا عليه من ذلك، وأعرض أن يعاتبهما في الأمر الآخر انتهى)[1]. والغريب في صياغات هذه الأحاديث أنها تعبّر عن هذا السرّ بأنه: (بشارة)، أو أنه: (استخلاف من الباري تعالى)، وأنه: (من فضائل البعض) وخاصة إذا تأملنا التمثيل والتعريض في أخر السورة بامرأتين من أزواج الأنبياء، وأنهما مثلاً للّذين كفروا وإنّ الخيانة التي ارتكبتها هاتين الامرأتين كانت في الدين، وعداوتهما للنبيّيْن العظيميْن كانت في رسالتيهما الإلهيّتين، فكيف يكون كلّ هذا الجو الذي ترسمه الآية هو عن بشارة خلافة والدي زوجتي رسول الله (ص)؟!

المسألة الثالثة: الاختلاف

كرر القرآن الكريم الحديث عن اختلاف الأمم بعد الرسل والأنبياء ولم تكن الأمة الإسلامية بعيدة عن هذا الموضوع ومن ذلك الأخبار عن الخصومة يوم القيامة التي نص عليها بقوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾[2] وقد ذكر الألوسي في تفسيره للآية (أخرج عبد الرزاق. وعبد بن حميد. وابن جرير. وابن عساكر عن إبراهيم النخعي قال: نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾ الخ فقالوا: وما خصومتنا ونحن إخوان فلما قتل عثمان بن عفان قالوا هذه خصومة ما بيننا. وأخرج سعيد بن منصور عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ كنا نقول: ربنا واحد ودیننا واحد فلما كان يوم صفين وشد بعضنا على بعض بالسيوف قلنا: نعم هو هذا. وأخرج عبد بن حميد. والنسائي. وابن أبي حاتم. والطبراني. وابن مردويه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: لقد لبثنا برهة من دهرنا ونحن نرى أن هذه الآية نزلت فينا وفي أهل الكتابين من قبل ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قلنا: كيف نختصم ونبينا واحد وكتابنا واحد حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعرفت أنها نزلت فينا، وفي رواية أخرى عنه بلفظ نزلت علينا الآية ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ وما ندري فيم نزلت قلنا: ليس بيننا خصومة فما التخاصم حتى وقعت الفتنة فقلت: هذا الذي وعدنا ربنا أن نختصم فيه.وأخرج أحمد. وعبد الرزاق. وعبد بن حميد. والترمذي وصححه. وابن أبي حاتم. والحاكم وصححه. وابن مردويه. وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في البعث والنشور عن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قلت: يا رسول الله أينكر علينا ما يكون بيننا في الدنيا مع

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢١/٩٣.

(٢) الزمر ٣٠ - ٣١.

خواص الذنوب قال: نعم ينكر ذلك عليكم حتى يؤدي إلى كل ذي حق حقه قال الزبير: فوالله إن الأمر لشديد)[١]. وقد حذر القرآن من الوقوع في مثل هذه الفتنة فقال سبحانه ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[٢] ولا ريب إن الخطاب يشمل المسلمين الأوائل بل فسره البعض إلى اختصاصهم بذلك (ومن ذهب إلى أن الخطاب خاص فسر الفتنة بافتراق الكلمة، وجعل ذلك إشارة إلى ما حدث بين أصحاب بدر يوم الجمل. وممن ذهب إلى أنهم المعنيون السدي وغيره، وأخرج غير واحد عن الزبير قال: قرآنا هذه الآية زماناً وما نرى أنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها، وقد أخرج نهيهم عن ذلك على أبلغ وجه وأقيم الظالمون مقام ضميرهم تنبهياً على أن تعرض الفتنة وهي افتراق الكلمة من أشد الظلم لا سيما هؤلاء الأجلاء، ثم فسر بضميرهم دلالة على الاختصاص وأكد بخاصة وكثيراً ما يشدد الأمر على الخاصة ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لم خالف أمره وكذا من أقر من انتهك محارمه)[٣].

وترى أن الكلام في تفسير آيتي سورة الزمر كان منصب على ما جرى في صفين وقبله ما حدث من أحداث التي أودت بحياة عثمان من دون ذكر لما حدث بين هذين الحدثين أما في الكلام في تفسير آية الأنفال فتركز الكلام عن واقعة الجمل وقد رد على الصوفية أدعائهم رؤية النبي (ص) بعد وفاته (وقد سمعت بذهاب عائشة رضي الله تعالى عنها إلى البصرة وما كان من وقعة الجمل فهل سمعت تعرضه (ص) لها قبل الذهاب وصده إياها عن ذلك لئلا يقع أو تقوم الحجة عليها على أكمل وجه)[٤]، وقد نقل عن الإمام المجتبى (ع) إن دوافع حرب صفين دنيوية فقد (أخرج ابن سعد عن الأسود بن قيس قال: لقي الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما يوماً حبيب بن مسلمة فقال: يا حبيب رب مسير لك في غير طاعة الله تعالى فقال: أما مسيري إلى أبيك فليس من ذلك قال: بلى ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة فلئن قام بك في دنياك فلقد قعد بك في دينك ولو كنت إذ فعلت شراً فعلت خيراً كان ذلك كما قال الله تعالى: ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ ولكنك كما قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾)[٥]. قد نقل ما (أخرج الحاكم وصححه. والبيهقي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدت في نفسي من هذه الآية يعني ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ ﴾ الخ إني لم أقاتل هذه الفئة بالباغية كما أمرني الله تعالى يعني بها معاوية ومن معه الباغين

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٤٦٦/١٧.

(٢) الأنفال: ٢٥.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٥٨/٧.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٤٩/١٦.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٤٩/٧.

على علي كرم الله تعالى وجهه، وصرح بعض الحنابلة بأن قتال الباغين أفضل من الجهاد احتجاجاً بأن علياً كرم الله تعالى وجهه اشتغل في زمان خلافته بقتالهم دون الجهاد، والحق أن ذلك ليس على إطلاقه بل إذا خشي من ترك قتالهم مفسدة عظيمة دفعها أعظم من مصلحة الجهاد، وظاهر الآية أن الباغي مؤمن لجعل الطائفتين الباغية والمبغي عليها من المؤمنين. نعم الباغي على الإمام ولو جائراً فاسق مرتكب لكبيرة إن كان بغيه بلا تأويل أو بتأويل قطعي البطلان. والمعتزلة يقولون في مثله: إنه فاسق مخلد في النار أن مات بلا توبة، والخوارج يقولون: إنه كافر، والإمامية أكفروا الباغي على علي كرم الله تعالى وجهه المقاتل له واحتجوا بما روي من قوله (ص) له: (حربك حربي) وفيه بحث)[١]، ولم نطلع على هذا البحث حتى نراه ونستفاد منه إن كان ذا فائدة أو نرده إن كان يخلو من الفائدة أو الدليل ولا نعرف معنى للتفريق بين حكم باغي وباغي ثاني خاصة بعد استدلاله بهاتين الواقعتين على عدم أهلية كل الصحابة للشورى فـ (المراد أن يشاور أهل الآراء منهم والمتدربين فيهم، وكون الصحابة كلهم كذلك أول المدعى، ودون إثباته وقعة الجمل وحرب صفين)[٢].

ويرد ادعاء اجتهاد من بغى على (إمام الفريقين)[٣] بما قاله الألوسي عن ادعاء اجتهاد قاتل الإمام (وكون فعله كان عن شبهة تنجيه مما لا شبهة في كونه ضرباً من الهذيان ولو كان مثل تلك الشبهة منجياً من عذاب مثل هذا الذنب فليفعل الشخص ما شاء سبحانك هذا بهتان عظيم)[٤].

المبحث الثالث

المطلب الأول

بنو أمية

نقل الألوسي في تفسير قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾[٥] عن (الحاكم وصححه. وابن جرير. والطبراني. وغيرهم من طرق عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال في هؤلاء المبدلين: هما إلا فجران من قريش بنو أمية. وبنو المغيرة فأما بنو المغيرة فقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين. وأخرج البخاري في تاريخه. وابن المنذر. وغيرهما عن عمر رضي الله تعالى عنه مثل ذلك)[٦].

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٩/٢٧٤.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣/٢٨٩.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣/٤٨٧.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٦/٢٤٦.

(٥) الرعد: ٢٨.

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٩/٣٦٤.

ورغم ذلك فقد شكك في كون بني أمية هم المعنيون بقوله تعالى ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[١] رغم وجود ذلك في كتب الفريقين فقد(روى الإمامية وأنت تعرف حالهم عن أبي جعفر رضي الله تعالى عنه تفسيرها ببني أمية وتفسير الشجرة الطيبة برسول الله (ص): وعلي كرم الله تعالى وجهه. وفاطمة رضي الله تعالى عنها وما تولد منهما، وفي بعض روايات أهل السنة ما يعكر على تفسير الشجرة الخبيثة ببني أمية. فقد أخرج ابن مردويه عن عدي بن أبي حاتم قال: قال رسول الله (ص): (إن الله تعالى قلب العباد ظهراً وبطناً فكان خير عباده العرب وقلب العرب ظهرا وبطناً فكان خير العرب قريشاً وهي الشجرة المباركة التي قال الله تعالى في كتابه: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾[٢] لأن بني أمية من قريش وأخبار الطائفتين في هذا الباب ركيكة وأحوال بني أمية التي يستحقون بها ما يستحقون غير خفية عند الموافق المخالف)[٣] ونحن لا نعجب من رده لروايات الشيعة فقد عبر عنهم أكثر من مرة بأنهم (بيت الكذب)[٤] لكن العجب أن يرد روايات أهل نحلته وبلا دليل بزعم الركاكة أو معارضتها بحديث خيرية قريش على العرب وكأن معنى ذلك أن كل قبائل قريش مؤمنة رغم أن هناك أغيلمة من سفهاء قريش يكون على أيديهم فساد الدين وهو معنى وعاء أبي هريرة الذي لم يذعه (أن يكون المراد منه إخبار الفتن وأشراط الساعة وما أخبر به الرسول (ص) من فساد الدين على أيدي أغيلمة من سفهاء قريش، وقد كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقول: لو شئت أن أسميهم بأسمائهم لفعلت، أو المراد الأحاديث التي فيها تعيين أسماء أمراء الجور وأحوالهم وذمهم، وقد كان رضي الله تعالى عنه يكني عن بعض ذلك ولا يصرح خوفاً على نفسه منهم بقوله: (أعوذ بالله سبحانه من رأس الستين وإمارة الصبيان)، يشير إلى خلافة يزيد الطريد لعنه الله تعالى على رغم أنف أوليائه لأنها كانت سنة ستين من الهجرة، واستجاب الله تعالى دعاء أبي هريرة رضي الله تعالى عنه فمات قبلها بسنة)[٥]. ورغم هذه الأحاديث وغيرها ومن ذلك الغير ما (أخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال: رأى رسول الله (ص) بني أمية ينزون على منبره نزو القردة فساءه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات عليه الصلاة والسلام وأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ﴾ الخ.

---

(١) إبراهيم: ٢٦

(٢) إبراهيم: ٢٤.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٥٩/٩.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٥٥/٦. و٢٩٢/٧. و ١٧٣/٨و٨١/١٢. و٢٦٠/١٣.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٦٥/٥.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه. والبيهقي في الدلائل. وابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال: رأى رسول الله (ص) بني أمية على المنابر فساءه ذلك فأوحى الله تعالى إليه إنما هي دنيا أعطوها فقرت عينه وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ الخ. وأخرج ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرة قال: (قال رسول الله (ص): رأيت بني أمية على منابر الأرض وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوء واهتم عليه الصلاة والسلام لذلك فأنزل الله سبحانه ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ الآية. وأخرج عن ابن عمر أن النبي (ص) قال: (رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة وأنزل الله تعالى في ذلك ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ الخ والشجرة الملعونة الحكم وولده) وفي عبارة بعض المفسرين هي بنو أمية. وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت لمروان بن الحكم: (سمعت رسول الله (ص) يقول لأبيك وجدك: (إنكم الشجرة الملعونة في القرآن) فعلى هذا معنى إحاطته تعالى بالناس إحاطة أقداره بهم، والكلام على ما قيل على حذف مضاف أي وما جعلنا تعبير الرؤيا أو الرؤيا فيه مجاز عن تعبيرها، ومعنى جعل ذلك فتنة للناس جعله بلاء لهم ومختبراً وبذلك فسره ابن المسيب، وكان هذا بالنسبة إلى خلفائهم الذين فعلوا ما فعلوا وعدلوا عن سنن الحق وما عدلوا وما بعده بالنسبة إلى ما عدا خلفاءهم منهم ممن كان عندهم عاملاً وللخبائث عاملاً أو ممن كان من أعوانهم كيفما كان، ويحتمل أن يكون المراد ما جعلنا خلافتهم وما جعلناهم أنفسهم إلا فتنة، وفيه من المبالغة في ذمهم ما فيه، وجعل ضمير (نخوفهم) على هذا لما كان له أولاً أو للشجرة باعتبار أن المراد بها بنو أمية ولعنهم لما صدر منهم من استباحة الدماء المعصومة والفروج المحصنة وأخذ الأموال من غير حلها ومنع الحقوق عن أهلها وتبديل الأحكام والحكم بغير ما أنزل الله تعالى على نبيه عليه الصلاة والسلام إلى غير ذلك من القبائح العظام والمخازي الجسام التي لا تكاد تنسى ما دامت الليالي والأيام، وجاء لعنهم في القرآن إما على الخصوص كما زعمته الشيعة أو على العموم كما نقول فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾[1] وقال عز وجل ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[2] إلى آيات أخر ودخولهم في عموم ذلك يكاد يكون دخولاً أولياً)[3].

ومن صور إراقة الدماء ما قاله الألوسي عن مسير عبيد الله بن زياد وهو احد ولاة بني أمية فقد (سار بنحو من ثمانين ألف مقاتل على المختار بن أبي عبيد فلقيه إبراهيم بن الأشتر

---

(١) الأحزاب: ٥٧.

(٢) محمد: ٢٢ - ٢٣.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١١/٤.

صاحب المختار بأرض نصيبين فيما دون سبعة آلاف مقاتل فقتل من عسكره نحواً من ثلاثة وسبعين ألفاً وضربه وهو لا يعرفه فقتله ولم يقتل من أصحابه أكثر من مائة)[١]، لكن يبقى قتل أهل بيت النبي (ص) أفظع وقد ذكر الألوسي في معرض كلامه على إيذاء الرسول الأكرم (ص) قول بعضهم (إن الإيذاء لا يختص بحال حياته (ص) بل يكون بعد وفاته (ص) أيضاً وعدوا من ذلك التكلم في أبويه (ص) بما لا يليق وكذا إيذاء أهل بيته رضي الله تعالى عنهم كإيذاء يزيد عليه ما يستحق لهم وليس بالبعيد)[٢]، ويذهب أبعد من ذلك فيدخل أبا طالب والذي (مسألة إسلامه خلافية، وحكاية إجماع المسلمين أو المفسرين على أن الآية نزلت فيه لا تصح فقد ذهب الشيعة وغير واحد من مفسريهم إلى إسلامه وادعوا إجماع أئمة أهل البيت على ذلك وإن أكثر قصائده تشهد له بذلك: وكأن من يدعي إجماع المسلمين لا يعتد بخلاف الشيعة ولا يعول على رواياتهم، ثم إنه على القول بعدم إسلامه لا ينبغي سبه والتكلم فيه بفضول الكلام فإن ذلك مما يتأذى به العلويون بل لا يبعد أن يكون مما يتأذى به النبي عليه الصلاة والسلام الذي نطقت الآية بناءاً على هذه الروايات بحبه إياه، والاحتياط لا يخفى على ذي فهم ولأجل عين ألف عين تكرم...)[٣].

المطلب الثاني

معاوية

من العجيب أن يستدل بالآية الكريمة ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[٤] بما صرح به البعض (أنه لا يبلغ تابعي وإن جل قدراً في الفضل مرتبة صحابي وإن لم يكن من كبار الصحابة، وقد سئل عبد الله بن المبارك عن معاوية. وعمر بن عبد العزيز أيهما أفضل؟ فقال: الغبار الذي دخل أنف فرس معاوية أفضل عند الله من مائة عمر بن عبد العزيز فقد صلى معاوية خلف رسول الله (ص) فقرأ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[٥] الخ فقال معاوية: أمين)[٦].

وكذب حكاية (الشيعة أن علياً كرم الله تعالى وجهه قال حين صمم على عزل معاوية وأشار عليه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بإبقائه على عمله إلى أن يستفحل أمر الخلافة: يمنعني من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ فلا اتخذ معاوية عضداً

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٦١/١٧.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٧٦/٧.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٦١/١٥.

(٤) الجمعة: ٣.

(٥) الفاتحة: ٦.

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٤٩٧/٢٠.

أبداً، وهو كذب لا يعتقده إلا ضال مضل)[١]. ولم يبين كيفية ضلال وإضلال من يعتقد بذلك وما الدليل عليه وقد نقلنا عنه سابقاً بأن بغض علي (ع) من أبرز علامات النفاق وقد أخبر القرآن إن أهل النفاق ينقسمون إلى مشهورين أو غير مشهورين والأخبار بذلك كثيرة ومنها (ما أخرج ابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط. وغيرهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: (قام رسول الله (ص) يوم جمعة خطيباً فقال قم يا فلان فاخرج فإنك منافق أخرج يا فلان فإنك منافق فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم ولم يك عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له فلقيهم وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا واختبأوا هم منه وظنوا أنه قد علم بأمرهم فدخل المسجد فإذا الناس لم ينصرفوا فقال له رجل: أبشر يا عمر فقد فضح الله تعالى المنافقين اليوم فهذا العذاب الأول والعذاب الثاني عذاب القبر). وفي رواية ابن مردويه عن ابن مسعود الأنصاري أنه (ص) أقام في ذلك اليوم وهو على المنبر ستة وثلاثين رجلاً)[٢]. بل وصل الحال عند بعضهم أن يحاولوا اغتيال الرسول الأكرم (ص) فقد(أخرج البيهقي في الدلائل عن حذيفة بن اليمان قال (كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله (ص) أقود به وعمار يسوق أو أنا أسوق وعمار يقود حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوا فيها فأنبهت رسول الله (ص) فصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله (ص): هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا يا رسول الله كانوا متلثمين ولكن قد عرفنا الركاب قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة. هل تدرون ما أرادوا؟ قلنا: لا، قال: أرادوا أن يزلوا رسول الله (ص) في العقبة فيلقوه منها قلنا: يا رسول الله أولا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث لك كل قوم برأس صاحبهم قال: أكره أن يتحدث العرب عنا أن محمداً عليه الصلاة والسلام قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم، ثم قال: اللهم ارمهم بالدبيلة، قلنا: يا رسول الله وما الدبيلة؟ قال: شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك)[٣]، وبعضهم كان يأخذ من أهل الكتاب مع وجود الرسول الأكرم (ص) فقد أخرج عبد الرزاق. والبيهقي أيضاً عن أبي قلابة (أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مر برجل يقرأ كتاباً فاستمعه ساعة فاستحسنه فقال للرجل: اكتب لي من هذا الكتاب قال: نعم فاشتري أديماً فهيأه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره وبطنه ثم أتي النبي (ص) فجعل يقرؤه عليه وجعل وجه رسول الله (ص) يتلون فضرب رجل من الأنصار الكتاب وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ألا ترى وجه رسول الله (ص) منذ اليوم وأنت تقرأ عليه هذا الكتاب فقال

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١١ /٢٨٣.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٣٤٧/٧.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٩٥/٧.

النبي (ص) عند ذلك: إنما بعثت فاتحاً وخاتماً وأعطيت جوامع الكلم وخواتمه واختصر لي الحديث اختصاراً فلا يهلكنكم المتهوكون)[١].

أما غير المنافقين فليس كلهم من الأبرار بل فيهم من هو فاجر فقد (أخرج البخاري. وابن جرير. وابن مردويه عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله تعالى آية الحجاب)[٢] ومن الفجور بل من اكبر الكبائر إراقة قطرة دم بغير حق فكيف إذا كان الحال كما أخبر كعب الأحبار عندما مر على صفين فقال: (ليهراقن بهذه البقعة من دماء المسلمين شيء لا يهراق ببقعة من الأرض مثله)[٣].

ذكر الألوسي أن نهاية المعركة كانت لصالح الخليفة الواجب الطاعة (فانتصر على أهل الشام ولم يقدروا على التخلص إلا بالحيلة)[٤]، وكان من أعوان الباغي الوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي نزلت فيه الآيات من قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾[٥] إلى هنا[٦] نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه. والوليد بن عقبة بن أبي معيط أخي عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه لأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، أخرج أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني. والواحدي. وابن عدي. وابن مردويه. والخطيب. وابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة لعلي كرم الله تعالى وجهه أنا أحد منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملأ للكتيبة منك فقال علي رضي الله تعالى عنه: اسكت فإنما أنت فاسق فنزلت ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا ﴾ الخ. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي نحو ذلك، وأخرج هذا أيضاً عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنها نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه. والوليد بن عقبة ولم يذكر ما جرى، وفي رواية أخرى عنه أنها نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه. ورجل من قريش ولم يسمه)[٧]، ثم وبعد صفحة واحدة وفي تفسير آية النبأ الوارد فيها كلمة فاسق ينقل قول ابن عبد البر: (لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن أنها نزلت فيه حيث أنه (ص) بعثه مصدقاً إلى بني المصطلق فعاد وأخبر أنهم ارتدوا ومنعوا الصدقة ولم يكن

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٥/٣٠٠.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٦/١٩٨.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٦/٣٥٦.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٧/١٦١.

(٥) السجدة: ١٨.

(٦) يقصد قوله تعالى (وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ).

(٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٦/١٥.

الأمر كذلك لأن الفسق ههنا بمعنى الكفر وهناك ليس كذلك)[١]. ولا نعرف الوجه في كون الفسق هنا هو الكفر وليس الخروج من الطاعة الذي قد نلمح تلميح الألوسي بذلك فقد نقل (قول الوليد بن عقبة بن أبي معيط عامله الله تعالى بما هو أهلة يحض معاوية على حرب الأمير علي كرم الله تعالى وجهه:

فإنك والكتاب إلى علي كدابغة وقد حلم الأديم)[٢]

واعترف بموضع آخر إن قصة الوليد هذا هو النازل فيها ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[٣])[٤] ونقل استدلال العضد بهذا (أن من الصحابة رضي الله تعالى عنهم من ليس بعدل لأن الله تعالى أطلق الفاسق على الوليد بن عقبة فيها، فإن سبب النزول قطعي الدخول وهو صحابي بالاتفاق)[٥].

أما من الناحية التاريخية فقد (أخرج أبو داود. وجماعة عن زيد بن وهب قلنا لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عقبة بن معيط تقطر لحيته خمراً؟ فقال ابن مسعود: قد نهينا عن التجسس فإن ظهر لنا شيء أخذنا به)[٦].

المطلب الثالث

يزيد

ذكر الألوسي ظروف بيعة يزيد وموقف الأمة تجاه ذلك فقد (أخرج ابن أبي حاتم. وابن مردويه عن عبد الله قال: إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال: إن الله تعالى قد أرى لأمير المؤمنين يعني معاوية في يزيد رأياً حسناً أن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر. وعمر فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: أهرقلية إن أبا بكر رضي الله تعالى عنه والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده، فقال مروان: ألست الذي قال لوالديه أف لكما فقال عبد الرحمن: ألست ابن اللعين الذي لعن رسول الله (ص) أباك فسمعت عائشة فقالت: مروان أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا كذبت والله ما فيه نزلت نزلت في فلان بن فلان. وفي رواية تقدمت رواها جماعة وصححها الحاكم عن محمد بن زياد أنها كذبته ثلاثاً ثم قالت: والله ما هو به تعني

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٦/١٦

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٥٩/١٧.

(٣) الحجر: ٦.

(٤) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٥٨/٩.

(٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٦٧/١٩.

(٦) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٨٢/١٩.

أخاها ولو شئت أن اسمي الذي أنزلت فيه لسميته إلى آخر ما مر. وكان ذلك من فضض اللعنة إغاظة لعبد الرحمن وتنفيراً للناس عنه لئلا يلتفتوا إلى ما قاله وما قال إلا حقاً فأين يزيد الذي تجل اللعنة عنه وأين الخلافة)[1].

واستدل بالآية الكريمة ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾[2] على جواز (لعن يزيد عليه من الله تعالى ما يستحق نقل البرزنجي في الإشاعة والهيثمي في الصواعق إن الإمام أحمد لما سأله ولده عبد الله عن لعن يزيد قال كيف لا يلعن من لعنه الله تعالى في كتابه فقال عبد الله قد قرأت كتاب الله عزّ وجلّ فلم أجل فيه لعن يزيد فقال الإمام إن الله تعالى يقول: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾[3] الآية وأي فساد وقطيعة أشد مما فعله يزيد انتهى.....

وعلى هذا القول لا توقف في لعن يزيد لكثرة أوصافه الخبيثة وارتكابه الكبائر في جميع أيام تكليفه ويكفي ما فعله أيام استيلائه بأهل المدينة ومكة فقد روى الطبراني بسند حسن (اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخفه وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل) والطامة الكبرى ما فعله بأهل البيت ورضاه بقتل الحسين على جده وعليه الصلاة والسلام واستبشاره بذلك وأهانته لأهل بيته مما تواتر معناه وإن كانت تفاصيله آحاداً، وفي الحديث (ستة لعنتهم وفي رواية لعنهم الله وكل نبي مجاب الدعوة المحرف لكتاب الله وفي رواية الزائد في كتاب الله والمكذب بقدر الله والمتسلط بالجبروت ليعز من أذل الله ويذل من أعز الله والمستحل من عترتي والتارك لسنتي) وقد جزم بكفره وصرح بلعنه جماعة من العلماء منهم الحافظ ناصر السنة ابن الجوزي وسبقه القاضي أبو يعلى، وقال العلامة التفتازاني: لا نتوقف في شأنه بل في إيمانه لعنة الله تعالى عليه وعلى أنصاره وأعوانه، وممن صرح بلعنه الجلال السيوطي عليه الرحمة وفي تاريخ ابن الوردي. وكتاب (الوافي بالوفيات) أن السبي لما ورد من العراق على يزيد خرج فلقي الأطفال والنساء من ذرية علي. والحسين رضي الله تعالى عنهما والرؤوس على أطراف الرماح وقد أشرفوا على ثنية جيرون فلما رآهم نعب غراب فأنشأ يقول:

لما بدت تلك الحمول وأشرفت ... تلك الرؤوس على شفا جيرون

نعب الغراب فقلت قل أو لا تقل ... فقد اقتضيت من الرسول ديوني

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٦٨/١٩.

(٢) محمد: ٢٣.

(٣) محمد: ٢٢.

يعني أنه قتل بمن قتله رسول الله (ص) يوم بدر كجدة عتبة وخاله ولد عتبة وغيرهما وهذا كفر صريح فإذا صح عنه فقد كفر به ومثله تمثله بقول عبد الله بن الزبعري قبل إسلامه: ليت أشياخي... الأبيات، وأفتى الغزالي عفا الله عنه بحرمة لعنه وتعقب السفاريني من الحنابلة نقل البرزنجي والهيثمي السابق عن أحمد رحمه الله تعالى فقال: المحفوظ عن الإمام أحمد خلاف ما نقلا، ففي الفروع ما نصه ومن أصحابنا من أخرج الحجاج عن الإسلام فيتوجه عليه يزيد ونحوه ونص أحمد خلاف ذلك وعليه الأصحاب، ولا يجوز التخصيص باللعنة خلافاً لأبي الحسين. وابن الجوزي. وغيرهما، وقال شيخ الإسلام: يعني والله تعالى أعلم ابن تيمية ظاهر كلام أحمد الكراهة، قلت: والمختار ما ذهب إليه ابن الجوزي. وأبو حسين القاضي. ومن وافقهما انتهى كلام السفاريني. وأبو بكر بن العربي المالكي عليه من الله تعالى ما يستحق أعظم الفرية فزعم أن الحسين قتل بسيف جده (ص) وله من الجهلة موافقون على ذلك ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[1] قال ابن الجوزي: عليه الرحمة في كتابه السر المصون من الاعتقادات العامة التي غلبت على جماعة منتسبين إلى السنة أن يقولوا: (إن يزيد كان على الصواب وأن الحسين رضي الله تعالى عنه أخطأ في الخروج عليه ولو نظروا في السير لعلموا كيف عقدت له البيعة وألزم الناس بها ولقد فعل في ذلك كل قبيح ثم لو قدرنا صحة عقد البيعة فقد بدت منه بواد كلها توجب فسخ العقد ولا يميل إلى ذلك إلا كل جاهل عامي المذهب يظن أنه يغيظ بذلك الرافضة).

هذا ويعلم من جميع ما ذكره اختلاف الناس في أمره فمنهم من يقول: هو مسلم عاص بما صدر منه مع العترة الطاهرة لكن لا يجوز لعنه، ومنهم من يقول: هو كذلك ويجوز لعنه مع الكراهة أو بدونها ومنهم من يقول: هو كافر ملعون، ومنهم من يقول: إنه لم يعص بذلك ولا يجوز لعنه وقائل هذا ينبغي أن ينظم في سلسلة أنصار يزيد وأنا أقول: الذي يغلب على ظني أن الخبيث لم يكن مصدقاً برسالة النبي (ص) وأن مجموع ما فعل مع أهل حرم الله تعالى وأهل حرم نبيه عليه الصلاة والسلام وعترته الطيبين الطاهرين في الحياة وبعد الممات وما صدر منه من المخازي ليس بأضعف دلالة على عدم تصديقه من إلقاء ورقة من المصحف الشريف في قذر: ولا أظن أن أمره كان خافياً على أجلة المسلمين إذ ذاك ولكن كانوا مغلوبين مقهورين لم يسعهم إلا الصبر ليقضي الله أمراً كان مفعولا، ولو سلم أن الخبيث كان مسلماً فهو مسلم جمع من الكبائر ما لا يحيط به نطاق البيان، وأنا أذهب إلى جواز

---

(١) الكهف: ٥.

لعن مثله على التعيين ولو لم يتصور أن يكون له مثل من الفاسقين، والظاهر أنه لم يتب، واحتمال توبته أضعف من إيمانه، ويلحق به ابن زياد. وابن سعد. وجماعة فلعنة الله عزّ وجلّ عليهم أجمعين، وعلى أنصارهم وأعوانهم وشيعتهم ومن مال إليهم إلى يوم الدين ما دمعت عين على أبي عبد الله الحسين، ويعجبني قول شاعر العصر ذو الفضل الجلي عبد الباقي أفندي العمري الموصل وقد سئل عن لعن يزيد اللعين:

يزيد على لعني عريض جنابه فاغدو به طول المدى ألعن اللعنا

ومن كان يخشى القال والقيل من التصريح بلعن ذلك الضليل فليقل: لعن الله عزّ وجلّ من رضي بقتل الحسين ومن آذى عترة النبي (ص) بغير حق ومن غصبهم حقهم فإنه يكون لاعناً له لدخوله تحت العموم دخولاً أولياً في نفس الأمر، ولا يخالف أحد في جواز اللعن بهذه الألفاظ ونحوها سوى ابن العربي المار ذكره وموافقيه فإنهم على ظاهر ما نقل عنهم لا يجوزون لعن من رضي بقتل الحسين رضي الله تعالى عنه، وذلك لعمري هو الضلال البعيد الذي يكاد يزيد على ضلال يزيد)[1].

وذكر في تفسيره لآية المودة ما أخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال: لما جيء بعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما أسيراً فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم فقال له علي رضي الله تعالى عنه: أقرأت القرآن؟ قال: نعم قال: أقرأت آل حم؟ قال: نعم قال: ما قرأت ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال: فإنكم لأنتم هم؟ قال: نعم. وروى ذاذان عن علي كرم الله تعالى وجهه قال: فينا في آل حم آية لا يحفظ مودتنا إلا مؤمن ثم قرأ هذه الآية، وإلى هذا أشار الكميت في قوله:

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منا تقي ومعرب

ولله تعالى در السيد عمر الهيتي أحد الأقارب المعاصرين حيث يقول:

بآية آية يأتي يزيد غداة صحائف الأعمال تتلى

وقام رسول رب العرش يتلو وقد صمت جميع الخلق قل لا

والخطاب على هذا القول لجميع الأمة لا للأنصار فقط وإن ورد ما يوهم ذلك فإنهم كلهم مكلفون بمودة أهل البيت. فقد أخرج مسلم. والترمذي. والنسائي عن زيد بن أرقم أن رسول الله (ص) قال: (أذكركم الله تعالى في أهل بيتي) وأخرج الترمذي. وحسنه. والطبراني. والحاكم. والبيهقي في (الشعب)عن ابن عباس قال: قال عليه الصلاة والسلام: (أحبوا الله تعالى لما يغذوكم به من نعمة وأحبوني لحب الله تعالى وأحبوا أهل بيتي لحبي).

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٥٣/١٩.

وأخرج ابن حبان. والحاكم. عن أبي سعيد قال: (قال رسول الله (ص) والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلا أدخله الله تعالى النار) إلى غير ذلك مما لا يحصى كثرة من الأخبار، وفي بعضها ما يدل على عموم القربى وشمولها لبني عبد المطلب أخرج أحمد. والترمذي وصححه. والنسائي عن المطلب بن ربيعة قال: دخل العباس على رسول الله (ص) فقال: (إنا لنخرج فنرى قريشاً تحدث فإذا رأونا سكتوا فغضب رسول الله (ص) ودر عرق بين عينيه ثم قال: والله لا يدخل قلب امرىء مسلم إيمان حتى يحبكم لله تعالى ولقرابتي)، وهذا ظاهر إن خص القربى بالمؤمنين منهم وإلا فقيل: إن الحكم منسوخ، وفيه نظر، والحق وجوب محبة قرابته عليه الصلاة والسلام من حيث أنهم قرابته (ص) كيف كانوا، وما أحسن ما قيل:

داريت أهلك في هواك وهم عدا ولأجل عين ألف عين تكرم

وكلما كانت جهة القرابة أقوى كان طلب المودة أشد، فمودة العلويين الفاطميين ألزم من محبة العباسيين على القول بعموم (القربى) وهي على القول بالخصوص قد تتفاوت أيضاً باعتبار تفاوت الجهات والاعتبارات وآثار تلك المودة التعظيم والاحترام والقيام بأداء الحقوق أتم قيام، وقد تهاون كثير من الناس بذلك حتى عدوا من الرفض السلوك في هاتيك المسالك. وأنا أقول قول الشافعي:

يا راكباً قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والناهض

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى فيضاً كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان إني رافضي)[1]

ولم ينكر سب بني أمية لأمير المؤمنين (ع) فقال (كانوا بنو أمية غضب الله تعالى عليهم يجعلونه في أواخر خطبهم من سب علي كرم الله تعالى وجهه ولعن كل من بغضه وسبه)[2] ولم ينكر عدم رضا الأمة بهم كما تقدم بل ثبت خوف ناقلي السنة منهم فهذا أنس بن مالك يروي روايات متناقضة في قراءة البسملة (فتارة يروى عنه الجهر وأخرى الإخفاء للخوف من بني أمية المخالفين لعلي كرم الله وجهه إذ مذهبه الجهر)[3]، وفوق ذلك اثبت نصبهم وأفكهم ومن ذلك (الافك الناشىء من النصب قول هشام بن عبد الملك عليه من الله تعالى ما يستحق حين سئل الزهري عن ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ فقال له: هو ابن أبي كذبت هو علي يعني به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه وقد روي ذلك عن هشام

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٨/٢٦٤.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٠/٢٨٢.

(٣) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١/١٠.

البخاري. والطبراني. وابن مردويه. والبيهقي في الدلائل، ولا بدع من أموي الافتراء على أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه ورضي عنه)[١].

أما حقد ملوك بني العباس فلم ينقل إلا ما في (بعض التواريخ كما في البحر أن إبراهيم بن المهدي كان منحرفاً عن علي كرم الله تعالى وجهه فرآه في النوم قد تقدم إلى عبور قنطرة فقال له: إنما تدعى هذا الأمر بامرأة ونحن أحق به منك فحكى ذلك على المأمون ثم قال: ما رأيت له بلاغة في الجواب كما يذكر عنه فقال له المأمون: فما أجابك به قال: كان يقول لي: سلاماً سلاماً فقال المأمون: يا عم قد أجابك بابلغ جواب ونبهه على هذه الآية فخزي إبراهيم واستحي عليه من الله تعالى ما يستحق)[٢].

المصادر:

١- القرآن الكريم.

٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم. شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي.

٣- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. إسماعيل بن حماد الجوهري. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط١، القاهرة ١٩٥٦م.

٤- صحيح البخاري، الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة البخاري الجعفي، طبعت بالأوفست عن دار الطباعة العامرة باستانبول، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨١م.

٥- صحيح مسلم، أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الفكر، بيروت ـ لبنان.

٦- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، العلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان الفوري، ت ٩٧٥، طبعه وفسر غريبه: الشيخ بكري حياني، صححه ووضع فهارسه: الشيخ صفا السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، ١٩٨٩م.

٧- مناهل العرفان في علوم القرآن، لمحمد بن عبد العظيم الزرقاني. ط دار إحياء الكتب العربية ـ بيروت ـ لبنان سنة ١٣٧٢ هـ.

٨- المعجم الكبير، للحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ٢٦٠ هـ ـ ٣٦٠ هـ، الطبعة الثانية، مزيدة ومنقحة، حققه وخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي.

٩- مستدرك على الصحيحين، للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري. وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي رحمهما الله طبعة مزيدة بفهرس الأحاديث الشريفة. بإشراف د. يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

١٠- الموسوعة العربية العالمية، مجموعة من العلماء والباحثين، الناشر مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٤١٩ ـ ١٩٩٩، ط٢. ❖

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ٢٦٨/١٣.

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ١٣٥/١٤.

الخطاب الاجتماعي في نهج البلاغة

د. خالد حوير الشمس
كلية الآداب جامعة ذي قار - قسم اللغة العربية

المقدمة:

إنَّها لمجازفة وخطر أنْ يُقبل مثلي على الإمام علي (عليه السلام) الذي امتلك سلطة العقل، وسلطة الروح، وسلطة السيف، وسلطة الحق وإلى ما لانهاية، فيصعب حينها أن يُقتَحم نهج البلاغة: لأنَّه نهج الحقيقية، ونهج الحياة، ونهج الكون، ونهج النص، ونهج كل حلقات الفكر، وقد ترددت كثيراً، ثم أقبلت بجموح مستعيناً بالله تعالى، قادتني الرغبة للتطلع إلى نظرة مولانا علي نحو المجتمع، ومَن هو المجتمع الذي خاطبه؟ وكيف خاطبه؟ وفي أي الموضوعات الاجتماعية؟ وبتعبير آخر البحث عن منهجه الاجتماعي الذي اختطه لتربية النفس داخل المجتمع، وكيفية التعامل معه.

لتحقيق ذلك كانت الخطة التعريف بالخطاب باختصار، ثم الموضوعات الاجتماعية التي عناها ذلك الخطاب الاجتماعي العَلَوي وهي كثيرة نحو: الجوار، الجار، إصلاح ذات البين، الغنى والفقر، الأيتام وغيرها. ثم كيفية إيصال الخطاب للمتلقي من لدنه، فانجلى التحذير، والوصية، والشكوى من أهل زمانه، والأمر، والنهي، والوصف. اتبع ذلك بالسمات التي اتسم بها خطابه، من قَبيل أنَّه خطاب تكميلي أي يكمل بعضه بعضاً، وقد يحوي النص الواحد على أكثر من موضوع واحد، لم يكن له عنوان اجتماعي في النهج، فضلاً عن السمات اللسانية فيه. وبما أنَّ الخطاب موجَّه إلى فئات مجتمعية معينة أصبح التعرف على أنواع المجتمع الواردة في نهج البلاغة هدفاً في البحث، فكانت مقسمة على قسمين: الأول المجتمع الأكبر، والأصغر. والقصد من الأكبر الخطاب الموجه إلى المتلقي العام الذي يدخل بضمنه المجتمع الأصغر المقسم على وفق الثنائيات، فكان مجتمع الرجال/النساء، ومجتمع العلماء/الجهال، ومجتمع الأنبياء/غير الأنبياء وهكذا.

والمشغل أو ميدان الخطاب التي دارت عليه تلك الخطة متمثل بنهج البلاغة المكون من أربعة أجزاء شرحها محمد عبدهُ وبيَّن غريبها، ثم الركيزة الأساس هي تحليل الخطاب الوارد في ذلك الميدان والبحث عن المسكوت عنه على وفق فرضية البحث، والسبب في ذلك أنَّ منهج تحليل الخطاب هو المنهج الأفضل لدراسة الخطاب الاجتماعي: لأنَّه ينظر إلى العَلاقة بين ذات المتكلم وإنتاج الجمل على وفق المعطى الاجتماعي[1].

---

(١) ينظر: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو (د. الزواوي بغورة): ٩١.

المطلب الأول
الموضوعات الاجتماعية

دار الخطاب العَلَوي على مرافق الحياة كلها، نحو: السياسة، والاقتصاد، والحرب، والتربية، والمجتمع. ويستحسن التفتيش عن مفهوم المجتمع ليتسنى لي البناء على مفهومه والفحص عن متعلقاته في نهج البلاغة. نجد لفظة المجتمع من (جمع) الشيء المتفرق، وجمْعٌ أي الناس مجتمعون، والمجتمع مكان الناس للاجتماع. وقد أُطلقت لفظة المجتمع مجازاً على جماعة من الناس الخاضعين لقوانين ونُظم عامة[١].

وفي التعريف تعدُّ هذه اللفظة من أعقد المفاهيم في دلالتها؛ لذا تعددت تعريفاتها، فيرى أوغست كومت، وهربرت سبنسر عالِمَي الاجتماع أنَّ المجتمع: تجمُّع الأفراد الذين يشتركون في خصائص وسمات يمكن أنْ تكون ناتجة عن طبيعة نشوء الإنسان[٢].

وفي تعريف قاموس وبستر دقة وتحديد لمفهومه التزمه بعيداً عن الإسفاف والتشتت تاركاً الأمر للمختصين من دارسي الاجتماع بمناقشة التعريفات المتعددة، فيعرِّف المجتمع فيه بأنّه (الناس بشكل عام، أو هو جمعية أو جماعة الأشخاص التي تجمعت لغرض محدد (مجتمع الفائدة المتبادلة). أو هو ذلك الجزء من الجماعة والذي يعد وحدة تميَّزت بالاهتمامات، أو المعايير، أو القواعد العامة. أو هو نسق الكائنات الحية أو مجموعة الوحدات البايولوجية المعتمدة على بعضها بصورة عضوية)[٣].

فبني التعريف على أُسس منها: التجمع، وتبادل المنافع، واحتكامه بمجموعة قواعد، تواكل بعضه على بعض على أساس السلوكيات الاجتماعية التي عني بدراستها علم الاجتماع، ويمكن أنْ توسم تلك السلوكيات بـ(النظام الاجتماعي) الذي ورد في نهج البلاغة وهو عبارة عن الأُسرة، الأخلاق، الجار، النفقة على الأرملة، الإخاء، الرشوة، التكافل، الغنى والفقر، التواضع، صلة الرحم، ترك الحقد، العَلاقة مع الآخر، وغير ذلك مما يقوم على تسيير العَلاقات بين أعضاء المجتمع. عولجت تلك الموضوعات بقابلية الإمام علي (عليه السلام) على صوغه خطاباً مدعماً أو منطلقاً من الرؤية الإسلامية المنحدرة من القرآن الكريم، والسنة النبوية، اللذين يعالجان مكونات المجتمع التي تعد قواعد الخطاب. يُطلق على تلك الرؤية بـ(الخطاب الاجتماعي) الذي يعني المنطوقات المنحدرة نحو المعالجات الاجتماعية وهي ذات منطلقات وقيم محددة تندرج فيها مقاصد اجتماعية وظيفتها بناء ذات

---

(١) ينظر: المنجد في اللغة والأعلام: ١٠١.

(2) Julius Gould: 674

(٣) Anew Websters Dictionary. Reprinting By Librairie Du Libnan-Beirut 1981: 725، وقد اقتربت التعريفات في المعجمات العربية من هذا المفهوم. ينظر: المعجم الفلسفي (د.جميل صليبا): ٢/٣٤٥ - ٣٤٦.

الفرد باستيعاب تلك المبادئ والقيم التي يؤكدها علم الاجتماع. وفي هذا التبني انطلاق مما قاله فوكو في إحدى مفاهيمه للخطاب: (نطلق مصطلح خطاب على مجموع الملفوظات التي تنتمي إلى تشكيلة خطابية واحدة)[١]. وينضم هذا الخطاب إلى مجموعة الخطابات العَلَوية الواردة في عيبته، نحو: الخطاب السياسي، والديني، والعسكري، والاقتصادي، والأدبي وغيرها. مع لحاظ مجيء تلك الخطابات جميعها في أنواع خطابه المعروفة أقصد الخطبة، والكتاب، والوصية، والحديث[٢].

والوعي بالموضوعات الاجتماعية ضروري يقف بنا على حجم النظام الاجتماعي في فكر الإمام، ونأتيها بحسب تسلسلها في النهج مع حساب طبيعة الإطار الذي وردت فيه، والبنية اللسانية أيضاً.

فقد أوصى **بإصلاح ذات البين** باستعماله **فعل الأمر** بقوله: (وأصلحوا ذات بينكم)[٣]، فأمر بالإصلاح، وربطه وعدمه بالفرد، وكرر **الاهتمام** بهذا الموضوع في عددٍ من مواضع خطابه الوارد في النهج، ففي سياق وصيته لولديه الحسن والحُسين يخصص الخطاب الخاص بإصلاح ذات البين، ثم يعممه على الناس كافة مقدماً حجاجاً نبوياً يستشهد فيه على إصلاح ذات البين مقروناً بالصلاة، والصيام: (أوصيكما بتقوى الله، وأنْ لا تبغيا الدنيا وإنْ بغتكما... أوصيكما، وجميع ولدي، وأهلي، ومن بَلَغه كتابي، بتقوى الله، ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإنّي سمعت جدكما (صلى الله عليه وآله) يقول: صلاح ذات البين، أفضل من عامة الصلاة والصيام)[٣].

فقد ربط إصلاح ذات البين بالفرد عكس ما ربط الفقر والغنى بالله تعالى: (كل شيء خاشعٌ له، وكل شيء قائمٌ به، غنى كل فقير، وعز كل ذليل)[٤]. في الوقت نفسه وفي موضع آخر جعل علاج ذلك الفقر حج البيت واعتماره: (وحج البيت واعتماره، فإنّهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب)[٥].

وفي سياق خطبي إقناعي للمتلقي يقنعه بثمار **صلة الرحم** لما ينطلق من أنّها أفضل طرائق التوسل إلى الله تعالى من خلال الحديث عن فضلها: (إنَّ أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه، الإيمان به وبرسوله..وصلة الرحم، فإنّها مثراة في المال ومنساة في الأجل)[٦].

---

(١) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب (دومينيك مانغونو): ٤٠.

(٢) ينظر: نهج البلاغة: ٣٥٢، ٣٥٥.

(٣) نهج البلاغة: ٣٩٥.

(٤) نهج البلاغة: ١٥٩.

(٥) نهج البلاغة: ١٦٣.

(٦) نهج البلاغة: ١٦٣.

وكان الإمام يطلب تحريك المتلقي نحو الارتكاز على نظام **العدل الاجتماعي** الذي يسمى في الإسلام بالعطاء والإنفاق من خلال إدراجه في قضية توزيع المال، والاهتمام به، فيقول لمّا عوتب على التسوية فيه: (أتأمروني أنْ أطلب النصر بالجور فيا من وليت عليه، والله ما أطور به ما سمَّر سمير، وما أمَّ نجم في السماء نجماً. لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف وإنّما المال مال الله!! ألا إنَّ إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف)[١].

ويقول عزيز السيد جاسم عن عدله: (وتبعاً لمنطلقات العدل المتكامل، كان علي بن أبي طالب يركز على عملية التغيير الاجتماعي، وهي عملية إحقاق الحق بين طبقات الأمة، وفقاً لدور تلك الطبقات في البناء الاجتماعي المتوازن)[٢]. طبقة الأمة في وقته هي: الجند، والكتّاب، والقضاة، والعمال، والتجار، وأهل الصناعات، والسفلى، وأهل الجزية، والخراج[٣]. فيقول عن التسوية بين تلك الطبقات: (وكلا قد سمى الله له سهمه، ووضع على حده فريضته في كتابه، أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله، عهداً منه عندنا محفوظاً)[٤].

وقد ناقش الإمام طبيعة العَلاقة الاجتماعية بين العباد، ومنها ستر **عيوب المذنب**، وأفاد من أسلوب الطلب بالنهي ليتراجع **العبد عن ذنوبه**: (وإنّما ينبغي لأهل العصمة، والمصنوع إليهم في السلامة أنْ يرحموا أهل الذنوب والمعصية، ويكون الشكر هو الغالب عليهم، والحاجز لهم عنهم، فكيف بالعائب الذي عاب أخاه وعيره ببلواه. أما ذكر موضع ستر الله عليه من ذنوبه، مما هو أعظم من الذنب الذي عابه به؟ وكيف يذمه بذنب قد ركب مثله؟... يا عبد الله! لا تعجلْ في عيب أحد بذنبه فلعله مغفور له، ولا تأمن على نفسك صغير معصية، فلعلك معذب عليه)[٥]. ويتماشى مع هذا الموضوع موضوع آخر وهو **سياسة الراعي للمجتمع** (الرعية) الذي يندرج فيما يسمى بالسياسة الاجتماعية لما يوصي الأشتر بالتعامل معهم بلين: (وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبُعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنَّهم صنفان إما أخٌ لك في الدين، وإما نظيرٌ لك في الخلق)[٦].

وقد ركز الإمام في خطابه الاجتماعي على الحفاظ على **الأخوة** المشروطة بتوافر الدين على الأخ بنداء للناس كافة: (أيُّها الناس! من عرف من أخيه وثيقة دينٍ وسداد

---

(١) نهج البلاغة: ١٨٤.

(٢) علي بن أبي طالب سلطة الحق: ٢٩٢.

(٣) ينظر: علي بن أبي طالب سلطة الحق: ٢٩٣.

(٤) نهج البلاغة: ٤٠٤.

(٥) نهج البلاغة: ١٩٦.

(٦) نهج البلاغة: ٤٠٠.

طريقٍ، فلا يسمعن أقاويل الرجال)[١]. وقد وجه بالابتعاد عن **التكبر على الأخ والتواضع له** بصيغة الأمر أيضاً: (فأطفؤوا ما كمن في قلوبكم من نيران العصبية وأحقاد الجاهلية... وخلع التكبر من أعناقكم، واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده... ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أُمه من غير ما فضلٍ جعله الله فيه سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسد)[٢]. ولم يقتصر على ذلك، بل ذمَّ الشخص العاجز عن اكتساب الإخوان: (أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيَّع من ظفِر به منهم)[٣]. وقد تؤكد المنظومة الاجتماعية على الأخ الناصح وتقرنه مع العقل يروي ابن أبي الحديد ت ٦٥٦هـ عن الحكماء: (ينبغي للإنسان أن يوكّل بنفسه كالئين: أحدهما يكلؤه من أمامه، والآخر يكلؤه من ورائه، وهما عقله الصحيح، وأخوه النصيح)[٤]. إلى غير ذلك من النصوص التي رويت عنه (عليه السلام) توزعت بين النثر والشعر الذي قاله، والذي نسب إليه[٥].

ومن الموضوعات المتعاقد عليها في المجتمع حماية **الجوار (الدخيل)، وقرن معها كظم الغيظ**، وعدَّهما من مكارم الخصال التي ينبغي للفرد أنْ يتمسك بها، ويستقتل عليها: (فإنْ كان لا بد من العصبية، فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، محامد الأفعال، محاسن الأمور التي تفاضلت فيها المُجَداء والنُجداء من بيوتات العرب، ويعاسيب القبائل بالأخلاق الرغيبة،... فتعصبوا لِخِلال الحمد من الحفظ للجوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبر، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكف عن البغي، والإعظام للقتل، والإنصاف للخلق، والكظم للغيظ، واجتناب الفساد في الأرض)[٦].

والذي يظهر أنَّ النهج حوى نهجاً يختص **بالصداقة** من خلال بيان مفهوم **الصاحب والصديق** وإدراك الفرق بينهما عن طريق الإخبار بمفهومهما: (والصاحب مناسَب، والصديق من صدق غيبه)[٧].

فجعل الصحبة تشبه قرابة النسب، والصداقة باشتقاقها من الصدق، مثل ما جعل **إكرام العشيرة** يشبه الطيران الذي يشكل عامل قوةٍ للطير، بل أكثر من ذلك جعلها موضع انطلاق الفرد، وقوَّته التي تتركز في يده آمراً المتلقي بفعل الأمر، مع إبداء الحجة بالرابط

---

(١) نهج البلاغة: ١٩٧.

(٢) نهج البلاغة ٢٧٥ - ٢٧٦.

(٣) نهج البلاغة: ٤٤٢.

(٤) شرح نهج البلاغة: مج ٩/٢٦٦.

(٥) ينظر: شرح نهج البلاغة: مج ٩: ٢٦٥.

(٦) نهج البلاغة: ٢٨١.

(٧) نهج البلاغة: ٣٧٩.

الحجاجي التعليلي (إن): (وأكرم عشيرتك فإنَّهم جناحك الذي به تطير، وأصلك الذي إليه تصير، ويدك التي بها تصول)[١].

من البديهي أنَّ النظام الاجتماعي واسع باتساع سيرورات حياة الإنسان وعَلاقته بالإنسان الآخر إلا أنَّ ما وجد منه في النهج ما كان ذا أهميةٍ كبرى تصيّر الإنسان مقترباً من أداء رسالته التي كلفه الله بها تعالى: إذ كلف العبد بالإحسان إلى **الأيتام** والابتعاد به عن القهر، ومادام الإمام القرآن الآخر، فإنَّه يوصي به كما أوصى به القرآن الكريم وقد يكون هذا من باب التناص معه: (والله اللّه في الأيتام، فلا تُغبوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم)[٢].

ولم يقف الإمام عند المنطلق القرآني في الالتزام بالنظام الاجتماعي لاسيَّما في كفالة اليتيم، وعدم تكميم فيه، وطي لسانه: بغية تربيته التربية الحسنة، بل وجَّه الفرد إلى مراعاة القيم العربية الأصيلة التي توارثوها من قيم قبل الإسلام وهي: حسن الجوار، وأسند الأمر فيها إلى توصية النبي به من خلال توظيف التكرار في لفظ الجلالة وهو ما يبين قيمة الجار: (والله الله في جيرانكم، فإنَّهم وصية نبيكم، ما زال يوصي بهم حتى ظننا أنَّه سيورثهم)[٣].

وفي كلام آخر من نهجه يؤسس لمشروع يقضي على التنافر والتباعد الاجتماعي بين الأفراد من خلال تأكيده على **التواصل والتزاور** الذي يخفف من نسب الجفاء والتناحر بحضور اسم فعل الأمر (عليكم): (وعليكم بالتواصُل والتباذُل، وإياكم والتدابر والتقاطع)[٤]. وقد ينصرف الذهن إلى أنَّ هذا التواصل يكون مع بعض الناس كأن يكون مع القريبين من الفرد، لكن الإمام يدفع هذا التخصيص في المعنى بنص آخر يفهم منه العمومية فيه عن طريق الحث على المخالطة بين الناس: (خالطوا الناس مخالطةً إنْ متّم معها، بكوا عليكم، وإن عشتم، حنُّوا إليكم)[٥].

تجد هذه الموضوعات وموضوعات أُخر سأقف عندها في المطلب الثاني نحو: الغدر، والنفاق وغيرها من الآفات الاجتماعية التي لن أذكرها هنا تجنباً للاضطراب في المنهج أي الموضوعات التي أُثيرت في النهج تجدها هي الأكثر حساسية وتماساً مع حياة الفرد، والأكثر تواردا معه، على مستوى نطاقين الأول: الفرد مع أسرته وصلة رحمه، ثم الفرد مع أقرانه

---

(١) نهج البلاغة: ٣٨٠.

(٢) نهج البلاغة: ٣٩٥. ومعنى لا تغبوا: أي لا تجيعوهم بأن تطعموهم غبّاً. ينظر: شرح نهج البلاغة: مج ٨/٩.

(٣) نهج البلاغة: ٣٩٥.

(٤) نهج البلاغة: ٣٩٦.

(٥) نهج البلاغة: ٤٤٢.

الغرباء بعيداً عن صلة القرابة، منطلقة من أُسس مهمة وهي القرآن، والحديث، والقيم العربية، والقيم الإنسانية، تتجاوز بوتقة المحلية إلى سمة العالمية المتسم بها ديننا الإسلامي الحنيف، فلم يدُر في خلد أحد أنّ الصداقة مقتصرة على المسلمين، ولا التكافل الاجتماعي الذي يراعي حالات الفقر والحرص على مال الدولة أيّاً كانت، بل هي صيحات ذات محتوى قضوي للإنس كافة.

على ما اتفق عليه أنَّ لكل خطابٍ منطلقاتٌ ومقاصد، تكون المقاصد التي يبتغياها الخطاب الاجتماعي العَلَوي مقاصد تربوية وتنظيمية فضلاً عن إحياء الرؤية القرآنية والنبوية، وتحقيق السلام بين أفراد المجتمع، ودفع التباغض، واستجلاء الوحدة الإسلامية.

المطلب الثاني
كيفية صياغة الخطاب الاجتماعي

كل خطاب يصاغ بكيفية معينة يتخذها المتكلم استراتيجية دالة على القصد وبحسب طبيعة المتلقي، ولا داعي لتبرير هذه الحقيقة الألسنية، فقد يتحقق صوغ الخطاب بمتتالياتٍ عدة من التوجيه إلى الزجر إلى التنويه إلى التودد إلى النُّصح وهكذا. ولم يخرج خطاب نهج البلاغة كله عن ذلك، وتكليفنا المنهجي ينحصر في ما يخص الموضوعات الاجتماعية، وسبل تقديمها للمتلقي بأنواعه المتعددة، ومنه المتلقي الخاص مثل ولديه الحسن والحُسين عليهما السلام لمّا يخاطبهم يا ولدَي، أو أوصيكما، مع انطباق خصوص السبب وعموم المورد، ومنه معاوية وأبو ذر وغيرهما. والمتلقي العام أي الناس عامة بندائه لهم أيها الناس، أو عباد الله.

واستناداً إلى التسلسل في ورود الخطابات والكيفيات التي تؤطرها أجد **الشكوى** من المجتمع وجهالته، وضلالته، وإهماله الكتاب، وإنكاره للمعروف، وعشقه للمنكر: (إلى الله أشكو من معشر يعيشون جُهَّالاً، ويموتون ضُلالاً، ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حُرِّف عن مواضعه، ولا عندهم أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر)[1].

يشخص الإمام أهم الآفات الاجتماعية التي يتحلى بها مَن يتصدون للحكم من الأمة وهم ليسوا بأهلٍ له، فلم تكن مؤهلاتهم الاجتماعية تؤهلهم لمعالجة أنفسهم، وتؤهلهم للسبيل التي تخلّص المجتمع من هذه المنكرات. وقد تجد بعض الخصوصية لهذا النص لا تجدها في نص آخر لمّا يشتكي من أهل زمانه بصيغة العموم: (واعلموا - رحمكم الله - أنّكم في زمانٍ القائل فيه بالحق قليلٌ، واللسان عن الصدق كَليلٌ، واللازم للحق ذَليلٌ، أهله معتكفون على

---

(١) نهج البلاغة: ٤٧.

العصيان، مُصْطلِحون على الإدْهان، فَتَاهُم عَارِم، وشائِبُهم آثِمٌ، وعالمهم منافقٌ، وقارئهم مُمَاذِق، لا يعظم صغيرهم كبيرهم، ولا يَعُول غنيُّهم فقيرهم)[١].

وفي إطار عيوب المجتمع وتشخيصها ترد سيئة جمع المال والبخل به. فما كان منه إلا أنْ يحذّر من ذلك ويذكّر بتركه: لأنَّ الموت آت لا محالة، مستعملاً طريقة المقارنة والمماثلة حجة على المتلقي، أي مقارنة مَن بخل بمثيله: (فإنّه والله الجِد لا اللعب، والحق لا الكذب، وما هو إلا الموت أسمع داعيه، وأعجل حاديه، فلا يغرنك سواد الناس من نفسك، فقد رأيت من كان قبلك ممن جمع المال، وحذِر الإقلال، وأمِن العواقب، طولَ أمل، واستبعاد أجل، كيف نزل به الموت فأزعجه عن وطنه)[٢].

ولأنْ كان التحذير ضرورة شرعية للحفاظ على ذات الإنسان أفاد منها الإمام في التحذير من أهل النفاق والنفاق نفسه، الذي يعد خللاً اجتماعياً يهدّد المجتمع تهديداً كبيراً، ويترتب على أهله الضلالة، والزلل، ورفد ذلك المحتوى القضوي بسلّم حجّاجي[٣] يقوم على توالي الحجج لتغيير قناعة المتلقي أو لإقناعه: (أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحذركم أهل النفاق، فإنّهم الضالون المضلون، والزالّون المُزلّون، يتلونون ألواناً، ويفتنُون افتناناً، ويعمدونكم بكل عماد، ويرصدونكم بكل مرصاد)[٤].

وقد حاول الإمام أنْ يدفع الظلم عن المجتمع بتوجيه ندائه إلى المخاطب ببيعته من أجل رفع الحيف عن المجتمع مستعملاً أسلوب القسم في دفع ذلك المرض الاجتماعي: (لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحداً، إنّي أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم. أيُّها الناس، أعينوني على أنفسكم، وأيم الله! لأنصفنَّ المظلوم من ظالمه، ولأقودنَّ الظالم بخزامته، حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً)[٥].

وقد هيمن أسلوب **الأمر، والنهي** على بعض الموضوعات الاجتماعية ومنها الأمر بالتواضع والنهي عن المنكر: (واتخذوا التواضع مسلحة بينكم وبين عدوكم إبليس وجنوده...

---

(١) نهج البلاغة: ٢٣٣.

(٢) نهج البلاغة: ١٩٠.

(٣) السّلم الحجاجي: إحدى مقولات نظرية الحجاج اللساني التي يراها ديكرو وانسكومبر ومرادها يقوم على ترتيب الحجج المقدمة للمتلقي لتجعل منه مذعنا ومغيرا قناعاته، فتكون الحجة الأخيرة أقوى من التي قبلها وهذه أقوى من التي قبلها نحو التدليل على علمية زيد فنقول باستعمال السلم: حصل على البكلوريوس والماجستير والدكتوراه. للاستزادة ينظر: نظرية الحجاج في اللغة (شكري المخوت) ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم: ٣٦٣ وما بعدها.

(٤) نهج البلاغة: ٢٩١.

(٥) نهج البلاغة: ١٩٣.

ولا تكونوا كالمتكبر على ابن أمه من غير ما فَضْلٍ جعله الله فيه سوى ما ألحقت العظمة بنفسه من عداوة الحسد)[١].

وسمة الوصف هي الأخرى في خطاب الإمام يريد بها رسالة مجتمعية أي وصف بعض التراكمات التي توصل الفرد إلى التفكك والهلاك، فقد وصف أحد أفراد المجتمع وهو معاوية من أجل الابتعاد عن هذه الأوصاف التي يمارسها مثل الغدر والفجور: (والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجُر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غَدْرَةٍ فَجْرَةٍ، وكل فَجْرَةٍ كَفْرَةٍ)[٢].

والاستمرار في التجوال في نهج البلاغة يوصلك إلى نتيجة ظاهرة وغير خفية أنَّ جُلَّ خطابه جاء على شكل وصية، نال الموضوع الاجتماعي منها حظاً غير قليل، ومنها الوصية بالقرابة لمّا خاطب ابن عباس ت٦٩هـ في المدة التي شغل فيها عمله على البصرة: (وقد بلغني تنمُّرك لبني تميم، وغلظتك عليهم، وإنَّ بني تميم لم يغب لهم نجمٌ إلا طلع لهم آخر، وأنَّهم لم يسبقوا بوغم في الجاهلية، ولا إسلام، وإنَّ لهم بنا رَحِماً ماساً، وقرابةً خاصةً، نحن مأجورون على صلتها، ومأزورون على قطيعتها، فأرْبَعْ أبا العباس ـ رحمك الله ـ فيما جرى على لسانك ويدك من خير وشر، فإنَّا شريكان في ذلك)[٣].

المطلب الثالث

سمات الخطاب الاجتماعي

لكلِّ نصٍّ سمةٌ عامةٌ وأخرى خاصة تؤهلانه ليرقى إلى مصاف الخطاب، فسمة الخطاب الاجتماعي العامة أنَّه يختص بمعالجات اجتماعية تتضمن النقد الاجتماعي، والبناء الصالح لذلك المجتمع، وقبل ذاك تكون مهمته تصوير المجتمع أجلى صورة في لحظةٍ متأخرة من إنتاجه، وهذا ما لمسته في الخطاب العَلَوي المختص بالمجتمع. أما السمة الخاصة، فهي ترجع لطبيعة الفلسفة الاجتماعية التي ينطلق منها ذلك الخطاب، فضلاً عن طبيعة المدونة الاجتماعية الوارد فيها، فسمات الخطاب الاجتماعي لدى ابن خلدون ت٨٠٨ هـ تختلف تماماً عن سمات الخطاب الاجتماعي لدى عالم الاجتماع العراقي علي الوردي مع لحاظ التأثير والتأثر، وهذا ما يجعلنا نطمئن إلى أنَّ سمات نهج البلاغة الاجتماعية هي الأخرى تختلف بدورها عن ذينك الخطابين وغيرهما.

---

(١) نهج البلاغة: ٢٧٥.

(٢) نهج البلاغة: ٣٠١.

(٣) نهج البلاغة: ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

من أول السمات أنّه لم يأت منفرداً في عنوان اجتماعي مستقلٍ، وإنّما ورد ضمناً في طي الحديث أو مقولات الإمام على مدى حياته التي صُبَّت في النهج. ومنه خطاب العشيرة والقرابة[١] إذ وردا في خطبة له تناول فيها بعض الخطاب الديني نحو: الخيانة، والتحذير من الله تعالى، وترك الرياء. وكذلك خطابه الخاص بالنساء ودفاعه عنهن المختلط مع الخطاب العسكري[٢].

ولكي يدوم الترابط الاجتماعي بين الناس وجه الإمام نقداً اجتماعياً للذين يجتمعون وهم متفرّقون كما يعبر عنهم القرآن الكريم ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، فيقول الإمام: (أيُّها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم، كلامكم يُوهِي الصُّم الصِّلابَ، وفِعلكم يُطمع فيكم الأعداء، تقولون في المجالس كَيْت وكيت، فإذا جاء القتال قلتم حِيْدِي حَيَاد)[٣].

وقد انماز هذا الخطاب بأنّه تنظيمي للمجتمع المعني به، من خلال إبداء بعض القواعد له، ودفع بعض الأوهام التي تدور فيه، مثل الإيمان بالتنجيم، فقال لرجلٍ من أصحابه لمّا نصحه أنْ لا يسير إلى الخوارج في وقت معيَّن: لأنّه بدا له بأنَّ الإمام لا يحقق ما يريده من خلال التنجيم، فقال له الإمام لدفع حجته: (أتزعم أنّك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صُرِف عنه السوء؟ وتُخَوِّف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضُّر؟ فمن صدقك بهذا، فقد كذّب القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله في نيل المحبوب، ودفع المكروه)[٤].

ويمكن تقسيم السمة التنظيمية للمجتمع على بعدين: الأول تنظيم الفرد ـ بوصفه واحداً من المجتمع ـ مع ربه عن طريق إقامة الطقوس والعبادات نحو: الصبر، والتقوى، وترك العصبية الجاهلية، وترك النفاق، والإيمان بالله تعالى، ولا داعي للإطالة بالأمثلة. وسأذكر مثالاً واحداً خاصاً بالتقوى لكونها تجمع كل الصفات الآخر: (أوصيكم ـ عباد الله ـ بتقوى الله فإنّها حق الله عليكم، والموجبة على الله حقكم، وأنْ تستعينوا عليها بالله، وتستعينوا بها على الله...)[٥]. يقابل ذلك القسم تنظيم حياة الفرد بالفرد الآخر أو مع المجتمع والأمثلة متعددةٌ في النهج، منها قوله: (سَع الناس بوجهك، ومجلسك، وحكمك، وإياك والغضب، فإنّه طيرة من الشيطان، واعلم أنَّ ما قرَّبك من الله يباعدك من النار، وما باعدك من الله يقربك من النار)[٦].

---

(١) ينظر: نهج البلاغة: ٥٣.

(٢) ينظر: نهج البلاغة: ٣٥٠.

(٣) نهج البلاغة: ٦١.

(٤) نهج البلاغة: ١٠٠.

(٥) نهج البلاغة: ٢٧١.

(٦) نهج البلاغة: ٤٣٧.

يقابل هذه السمة التنظيمية سمة أخرى لو مارسها المجتمع أو كلُّ فرد فيه، لنجى، وهي السمة التهذيبية أي تهذيب ذات الفرد من السذاجات التي يعيشها المجتمع كما في ردِّه للرجل الذي نصحه بناءً على علم التنجيم. ينطوي بضمنها ترك الفرد الرياء، ومجالسة أهل الهوى لتحقيق النجاح: (واعلموا أنَّ يسير الرياء شركٌ، ومجالسة أهل الهوى منساةٌ للإيمان)[١].

ومن سماته الأخرى أنَّه ذكرت فيه المجتمعات المقسمة على أساس الطوائف بوصفها جزءاً من المجتمع، نحو طائفة الخوارج: (أصابكم حاصبٌ، ولا بقي منكم آبرٌ! أبعدَ إيماني بالله، وجهادي مع رسول الله، أشهد على نفسي بالكفر؟ لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين. فأوَبوا شر مآبٍ، وارجعوا على أثر الأعقاب. أما أنَّكم ستلقون بعدي ذلاً شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة[٢].

وقد يرد نص تتكاثف فيه الموضوعات الاجتماعية، ففي نصٍّ واحدٍ كانت القرابة، والضيافة، وفك الأسير، وإعطاء الفقير: (فمن أتاه الله مالاً فليصلْ به القرابةَ، وليحسِن منه الضيافةَ، وليفكَّ به الأسير والعاني، وليعطِ منه الفقيرَ والغارمَ، وليصبِّرْ نفسه على الحقوق والنوائب ابتغاء الثواب)[٣].

وقد تمتع الخطاب الاجتماعي في نهج البلاغة بسمة التكميلية: والسبب في ذلك أنَّه ليس مختصاً بالمجتمع، بل كان موسوعةً لعلومٍ عدة من ضمنها ما يعتني بالمجتمع وتنظيمه، فما ورد في أول النهج قد يرد في موضعٍ لاحقٍ له سواء أكان في المنتصف أم في النهاية حاملاً قيماً تخص الموضوع عينه، وأبرز موضوع نمثل به هو خطاب النساء[٤].

وقد يقسم المجتمع على أنواع بحسب معيار المكان، فنقول مجتمع أهل الشام، ومجتمع العراق، ومجتمع البصرة، ومجتمع الكوفة انطلاقاً من مفهوم المجتمع في اللغة الدال على التحوّط والاجتماع من لدن الناس، فلم يفت هذا التقسيم الإمام في خطابه لهم وهو كثير في نهج البلاغة يصور لنا طبائع تلك المجتمعات البشرية، فنفهم أهل الشام من خلال وصفه لهم: (جُفاة طُغام، وعَبيد أقزام، جُمِّعوا من كل أوْبٍ، وتُلُقطُوا من كل شوب، ممن ينبغي أن يُفقَّه أو يؤدب، ويعلَّم ويدرَّب، ويولَّى عليه ويؤخذ على يديه، ليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا الذين تبوؤا الدار والإيمان)[٥].

---

(١) نهج البلاغة: ١١٦.

(٢) نهج البلاغة: ٨٤.

(٣) نهج البلاغة: ١٩٧.

(٤) ينظر: نهج البلاغة: ١٠١، و: ٢١٠.

(٥) نهج البلاغة: ٣٢٥. وينظر: ٤١ في خطاب أهل البصرة، ٧٠ في خطاب أهل النهروان، ٧٧ في خطاب أهل الكوفة، ٩٣ في أهل العراق.

وقد ذكرت في مفصل سابق يخص المتلقي أنَّ بعض خطابه جاء لولديه الحسن والحسين عليهما السلام، ومع هذه الخصوصية تنطبق عليه قاعدة خصوص السبب وعموم المورد، أي انطباق خطابه على العامة من الناس فمن غير المعقول أنْ يكون خطابه لولده الحسن بهذا النص وهو يريده له فقط: (يا بني! اجعل نفسك ميزاناً في ما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واكره ما تكره لها، ولا تظلم كما تحب أنْ لا تُظلم، وأحسن كما تحب أنْ يُحسن إليك)[١].

ولم يغب الجانب التداولي في خطابه الاجتماعي ومراعاة المتلقي من خلال ممارسة مبدأ التأدب، أي استعمال العبارات المؤدبة التي تريح المتلقي[٢]، فكيف لا وهو أبو الحسن عليهما السلام، فقد خاطبهم بعبارات حافظت على وجوههم، منها أيُّها الناس، عباد الله، معاشر الناس، معاشر المسلمين[٣]، وهذا ما يحقق التضامن معه، أي كسب المتلقي وتقريبه[٤].

واستكمالاً للسمات اللسانية والمجال التداولي ينبغي تقديم العرض اللساني للخطاب الاجتماعي، فقد انماز خطابه بتكوين لساني توزع بين جزئيات النحو، والحجاج، والبلاغة، منها: أسلوب الطلب بصيغتي الأمر والنهي، والتناص الخارجي مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والحجاج بالحديث النبوي والسلّم الحجاجي، والمماثلة أو المقارنة بين الموضوعين، والقسم، والإخبار، والتكرار، والتوكيد، وغير ذلك.

المطلب الرابع
أنواع المجتمع

أقصد بالأنواع فئات المجتمع التي تناولها الإمام في خطابه، وقد سمحت لي طبيعتها بتوزيعها على نوعين، سمّيتُ الأول بالمجتمع الأكبر، وهو المخاطب بلغة الجمع، والموجَّه إلى مخاطبٍ عام أو كونيٍّ كما سُمِّي في العُرف اللساني الحديث، والمجتمع الأصغر وهنا يتوزع على أنماط منها: مجتمع الحكام، ومجتمع الأنبياء، ومجتمع الرجال وهكذا. وارتأيت أنْ أقسمها على أساس معيار الثنائيات، فكانت على وفق الآتي:

- مجتمع الرجال/النساء.
- مجتمع محدد بمكان/غير محدد بمكان.
- مجتمع الحكام/غير الحكام.

---

(١) نهج البلاغة: ٣٧٢.

(٢) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي (د. طه عبد الرحمن): ٢٤٠.

(٣) ينظر: نهج البلاغة: ٩٠، و: ١١٥، و: ١١٧.

(٤) ينظر: استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية(عبد الهادي الشهري): ٢٥٧.

- مجتمع النموذج السيئ من البشر/المحمود منه.
- .مجتمع العلماء/الجهال.
- مجتمع الأنبياء/غير الأنبياء.

مثال خطاب الرجال واضح وبالإمكان مراجعة بعض النصوص في المباحث السابقة نحو خطابه لولده الحسن (عليه السلام) أو خطابه لابن عباس عامله على البصرة. أما خطاب النساء في نهج البلاغة الذي يثير جدلاً خطيراً لو تناولته، لقادني إلى مشكلٍ عقدي، وقدسي، قد يَرُدُه علماء الإسناد والرجال بحجة الشك بكلام النهج تجاه المرأة، إذ تجده خطاباً تحقيرياً، وسوداوياً تجاهها ولا يعقل ذلك. بعيداً عن تلك الإشكالية، أتركها لأهلها. فلنأخذ أحد خطاباته عن المرأة لتتضح الصورة للقارئ، وهو هذه المقولة المشهورة للإمام التي لا ترتضيها النسوة؛ لكونها تقلل من شأنهن كثيراً: (معاشر الناس: إنَّ النساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول...فاتقوا شرار النساء، وكونوا من خيارهن على حذر، ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر)[١].

وهناك خطاب خاص بمجتمعٍ غير محدّدٍ بمكان مثل ما في بعض النصوص الواردة في المطالب السابقة، وبعضها محدد بمكان مختص، وكلما ذكر المجتمع مقيداً بالمكان، تكون دلالة ذلك الخطاب الذم، أو التخويف، أو رسم صورةٍ غير محمودةٍ عنه، ومنه مختص بالمجتمع البصري مثلاً: (كنتم جند المرأة، وأتباع البهيمة، رَغَا فأجبتم، وعقِر فهربتم، أخلاقكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق...)[٢].

والقسم الثالث من خطابه المجتمعي الأصغر مجتمع غير الحكام ومجتمع الحكام الأول (غير الحكام) صادفني في أغلب نصوصه السابقة، أما ما يخص الثاني، فمنه خطابه لمروان بن الحكم (ت٦٥هـ) لمّا بيَّن فيه صورته الحقيقية وأُسه اليهودي (أولم يبايعني بعد قتل عثمان؟ لا حاجة لي في بيعته إنَّها كفٌ يهودية! لو بايعني بكفه لغدر بسبته. أما إنَّ له إمرة كلعقة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبُش الأربعة، وستلقى الأمة منه ومن وَلَده يوما أحمر)[٣]. مقابل ذلك ذكر مجتمع الحكام الخيِّر فمدح محمد بن أبي بكر: (وقد أردت تولية مصر هاشم بن عُتبة، ولو وليته إياها لمَا خلّى لهم العَرْصَة، ولا أنهزهم الفرصة، بلا ذم لمحمد بن أبي بكر، فلقد كان إليَّ حبيباً، وكان لي ربيباً)[٤].

---

(١) نهج البلاغة: ١٠١.

(٢) نهج البلاغة: ٤١. وينظر: ٦٧ في خطابه لمجتمع الشام، و: ٧٠ في تخويف أهل النهروان، و: ٧٧ في أهل الكوفة والتنبؤ بمستقبلهم الذميم.

(٣) نهج البلاغة: ٩٧.

(٤) نهج البلاغة: ٩٢.

ولا حاجة لذكر مثال لنموذج من المجتمع السيئ فقد أكتفي بالنص الخاص بمروان، وأحيل إلى نص خاص بالمغيرة بن الأخنس لمّا تشاجر الإمام مع عثمان بحسب تخريجة محمد عبده، ولعله لما تشاجر عثمان مع الإمام، فقال المغيرة لعثمان أنا أكفيكه، فانهال الإمام عليه يوبِّخه[١].

وتعد ثنائية العلم والجهل هي الأساس الذي يقوم عليه الوعي المجتمعي وطرد الآفة الاجتماعية، وقد حذر الإمام من مجتمع العلماء الضالين والجُهال المتحذلقين الذين يدعون العلم زوراً وكذباً، فقد قرن الأمر بين اثنين. الأول من خاف الله، واستشعر الحزن، واستمسك بالعروة، (وآخر قد تسمى عالماً وليس به، فاقتبس جهائل من جهال، وأضاليل من ضلال، ونصب للناس أشراكاً من حبائل غرور، وقول زور، قد حمل الكتاب على آرائه، وعطف الحق على أهوائه...فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان...)[٢].

وبقيت الثنائية الأخيرة المختصة بالأنبياء وغيرهم، فقد وصف مجتمع الأنبياء بلا أنْ يحدد واحداً منهم: (فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام. كلما مضى منهم سلف، قام منهم بدين الله خلف)[٣].

ولعل السؤال المطروح بعد الانتهاء من هذا السرد الاجتماعي الخاص بطبقات المجتمع الوارد ذكرهم في هذا المطلب مفاده ما الجدوى من ذكر هذه الطبقات؟ ترى الإمام يناور بين الإيجابية في هذه المجتمعات وبين سلبياتها؛ والبغية من ذلك خلق صورة حميدة وأخرى غير حميدة يريد من العبد الإفادة من الأولى، وتجنب الأخرى على أساس البناء الاجتماعي السليم.

حصيلة البحث:

إنَّ في نهج البلاغة ـ ولا شك في ذلك ـ معالم لتشكيل خطابي اجتماعي، والداعي على الجزم توافر مصاديق الخطاب، أقصد النص على وفق الرؤية المؤدلجة له والمحركة لأطرافه وبتعبير آخر قواعد الخطاب، مدعماً ذلك بمنطلقات تمثلت بالدينية والتربوية مع وجود مقاصد اجتماعية. ناقش ذلك الخطاب موضوعاً واحداً وهذا ما يميز الخطاب، ذلك الموضوع هو قضايا المجتمع، فحولها إلى ممارسات اجتماعية نحو: صلة الرحم، التكافل الاجتماعي، إصلاح ذات البين، الأُخوة في الله، التواضع، التكبر، حسن الجوار، الأيتام، نفاق المجتمع وغير ذلك من ممارسات المجتمع التي قدمتْ بكيفيات أو استراتيجيات معينة حاملة بداخلها النهي، والأمر، والشكوى من بعض المجتمع، والوصف، والوصية، والتوجيه، وغير ذلك مما

---

(١) ينظر: نهج البلاغة: ١٩٣.

(٢) نهج البلاغة: ١١٨.

(٣) نهج البلاغة: ١٤١.

يروم القيم التربوية للفرد وللمجتمع من خلال الابتعاد عن المنكرات والآفات والأوهام الاجتماعية التي لا تسهم في تنظيم حياة الفرد وإسعاده.

تلك الموضوعات وذلك العرض الاجتماعي العلَوي اتسم بسمات انفرد بها شأنه شأن كل مدونة اجتماعية أخرى، منها عدم انفراد الموضوعات الاجتماعية لوحدها بعنوان خاص، وسبب هذا واضح، وإنَّما جاءت متداخلة مع الخطابات الآخر، ومع تداخلها فقد أدت النقد الاجتماعي الذي ينظم المجتمع المتعدد في نهج البلاغة، فقد يكون مجتمع ذكرت فيه الطائفة، أو ذكر فيه المكان، أو ذكر فيه الجنس (رجل/امرأة)، وغير ذلك مما عرض بأداء لساني تمثل بالطلب، والتوكيد، والتكرار، والقسم، والتناص، المعزز بحجاج قراني ونبوي وأحيانا سُلَّمي.

المصادر والمراجع:

- استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية. تأليف عبد الهادي بن ظافر الشهري. دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ـ لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
- الحجاج في اللغة، تأليف شكري المبخوت، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، منشورات جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية ـ تونس.
- شرح نهج البلاغة، تأليف ابن أبي الحديد المعتزلي، ط٢، مؤسسة الصفاء للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، ودار الكتاب العربي، بغداد ـ العراق١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.
- علي بن أبي طالب سلطة الحق، تأليف عزيز السيد جاسم، ط٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ـ العراق، ٢٠١٢م.
- اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، تأليف الدكتور طه عبد الرحمن، ط٢، المركز الثقافي العربي، بيروت ـ لبنان، الدار البيضاء ـ المغرب، ٢٠٠٦م.
- المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، تأليف دومينيك مانغونو. ترجمة محمد يحياتين، ط١، منشورات الاختلاف، بيروت ـ لبنان، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م.
- المعجم الفلسفي، تأليف الدكتور جميل صليبا، منشورات ذوي القربى، ط١، قم ـ إيران.
- مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، تأليف الدكتور الزواوي بغورة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠م.
- المنجد في اللغة والأعلام، دار الشروق، بيروت ـ لبنان، ط٢٦، ١٩٨٦م.
- نهج البلاغة، شرح محمد عبدُهُ، ط٣، منشورات ذوي القربى، ١٤٢٩هـ.
- Anew Websters Dictionary. Reprinting By Librairie Du Libnan-Beirut 1981.

❖ ❖ ❖

تأملات قانونية
في رسالة القضاء للإمام علي (ع)

أ. د. عباس زبون العبودي

المقدمة:

تتملكني هيبة عظيمة، عندما أكتب في الفكر القانوني للإمام علي (عليه السلام) في القضاء، ذلك الإمام المقدس، الذي كلما زاد الإنسان به معرفة زاد له حباً وتعظيماً. وهو الذي يقول لو أحبني جبل لتهافت، فكيف بنا ونحن نملك قلوب آدمية. وهذا الحب لم يأت من فراغ. فقد أخذ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بيد الإمام علي (عليه السلام) وقال له أرفعها إلى السماء واسأل ربك يعطيك شيئاً، فرفع الإمام يده وقال: (اللهم اجعل لي عندك ودا)، فنزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[١]. والإمام علي (عليه السلام) لا يحتاج إلى تعريف، فهو صفحة رائعة من الإشراق الإنساني، تضيف شرفاً إلى تاريخ الإنسانية. وثروة علمية لا تحد بحدود، إذ اتسم فكره بالاستقامة والواقعية التي كونت له رصيداً من الألق والثراء، لم نجده في غيره بالرغم مما يمتلكونه من هالة القدسية والعظمة في نفوس المسلمين وأذكر في هذا المجال الشاعر المتنبي، حين عوتب في تركه مدح الإمام علي (عليه السلام) فأنشد هذين البيتين:

وتركت مدحي للوصي تعمداً إذ كان نوراً مستطيلاً شاملا

وبالرغم من قضاء الإمام (عليه السلام) يعد ثروة علمية، فإنها لم تحظى باهتمام المختصين بالقانون بالدراسة والتحليل وبالعمق الذي تضمنته هذه الرسالة، وإنما انصب جهد الفقهاء على سرد الوقائع التي قضى بها الإمام على سبيل الحكمة والموعظة.

ويجمع الباحثون على أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (أقضاكم علي) و(أقضى أمتي علي)[٢]. وأن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) قال: (ليس أحد يقضي بقضاء يصيب في الحق إلا مفتاحه قضاء علي)[٣]. ويقول الإمام علي (عليه السلام) بهذا الصدد: (لو ثنيت لي الوسادة، لقضيت بين أهل التوراة بتوراتهم وأهل الإنجيل بإنجيلهم وأهل الفرقان بفرقانهم، حتى ينطق كل واحد ويقول قد قضى علي فيّ بما أنزل) وأقر المخالف كالمؤالف أنه أقضى الأمة[٤].

فالإمام علي (عليه السلام) أقضى أهل زمانه، لأنه أعلمهم بالفقه والشريعة وهما الوجدان، الذي أعطاه القدرة في استخدام علمه في القضاء أصدق توجيه. وفي المأثور عن عمر بن الخطاب قوله للإمام علي (عليه السلام): (لا بارك الله في معضلة لم تحكم فيها يا أبا الحسن)

وقوله: (لولا علي لهلك عمر) وقوله أيضاً: (لا يُفتين أحد في المسجد وعلي حاضر)[٥]. ولا ريب أن التأمل القانوني في قضاء الإمام علي (عليه السلام) يعد بحثاً عن القضاء الإسلامي بأعلى مستوياته وستقتصر دراستنا على رسالة القضاء التي كتبها الإمام علي (عليه السلام) للصحابي الجليل مالك بن الأشتر النخعي رضوان الله تعالى عليه حين ولاه على مصر والذي يكفيه فخراً أن الإمام قال فيه: (رحم الله مالكاً فلقد كان لي كما كنت لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)).

وهذا البحث إسهامة متواضعة، آملاً أن يأخذ بها المشرع العراقي بنظر الاعتبار من أجل بناء نظام قضائي عادل، ذلك أن القضاء ولاية جليلة القدر في الإسلام ويعد من أجل المناصب خطراً وأشرفها قدراً وأعظمها ذكراً، لأنه مقام عليّ ومنصب نبوي، به الدماء تعصم وتسفح والإبضاع تحرم وتنكح والمعاملات يعلم ما يجوز منها وما يحرم. وقد وردت آيات كثيرة تدل على أهمية القضاء، لأنه تلو النبوة، أي ما يتلوها ويتبعها إذ بعث الله تعالى الأنبياء للناس بوصفهم مبشرين وقضاة ليحكموا بينهم، فقد ورد قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[٦].

ورسالة القضاء للإمام علي (عليه السلام)، تعد نظرية متكاملة في القضاء، تفوق أرقى نظم القضاء في العصور الحديثة دقة وعدالة، فهي من الوثائق العلمية التي استنبط منها الفقهاء تحديد صفات القاضي وشروطه[٧]. وسنتناول دراسة هذه الرسالة بتوزيعها إلى المبحثين الآتيين:

المبحث الأول - صفات وشروط اختيار القاضي في رسالة الإمام علي (عليه السلام).

المبحث الثاني - ضمانات التقاضي عند الإمام علي (عليه السلام).

نسأل الله الموفقية والسداد وأن يهدينا إلى سواء السبيل والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول

صفات وشروط اختيار القاضي في رسالة الإمام علي (ع)

تعد رسالة القضاء للإمام علي (عليه السلام) من الوثائق المهمة التي استند إليها الفقهاء في تحديد صفات اختيار القاضي وشروطه وتحقيق العدالة والمساواة أمام القضاء والتي كانت معطلة بين الحكام والناس، فقد درج غالبية الحكام على تولية القضاء رجالاً ذوي صفات تستلزمها مصالح هؤلاء الحكام، حتى إذا ما ساوى القانون بين طبقات الناس فإن القاضي يعطل هذه المساواة ويحكم بمصالح الحكام وأصحاب الامتيازات. ويشير الأستاذ جورج جرداق[٨] إلى أن تاريخ أوربا في القرون الوسطى، يفيض باختيار هذا النوع من القضاة، وكذلك تاريخ الشرق العربي أيام الأمويين والعباسيين والمماليك والأتراك وغيرهم، إذ أن الجرائم التي أرتكبها القضاة المنحرفون باسم العدالة، لما يخزي جبين الإنسانية وتستوجب اللعنة على رؤوس أولئك القضاة.

وقد ركز الإمام علي (عليه السلام) في رسالته في القضاء على قواعد صارمة في اختيار القاضي وشروطه ليحول دون الغبن الذي يلحق بالناس عن طريق القاضي. والشروط التي استنتجها الفقه من رسالة القضاء يمكن تحديدها على النحو الآتي: -

أولاً - شرط الكفاءة العلمية:

شرط الكفاءة العلمية، يعد من أول الشروط التي يجب أن تتوفر عند القاضي، لأنه بدون هذا الشرط، سوف يضطر القاضي إلى أن يحكم إما بعلمه المحدود وإما وفق هواه وكلاهما لا يكفي لأن يقيم حدود المساواة بين الناس، فالكفاءة العلمية تعني معرفة القاضي الشاملة بالقوانين والأحكام وتحديد الواقعة التي يريد الحكم فيها تحديداً دقيقاً فهو يستند بذلك على خبرة الأجيال والقوانين والشرائع التي سبقته. ويجب أن يستند كذلك على قوانين موحدة، تكون نافذة في جميع أنحاء البلاد، فلا يصدر قاضي البصرة مثلاً، حكماً في قضية، يكون قاضي الكوفة قد أصدر حكماً معارضاً له في قضية مشابهة لها، ويكون قاضي بغداد قد أصدر حكماً ثالثاً لا يتفق مع واحد من هذين في أساس ولا فرع. وشرط الكفاءة يستوجب على القاضي أن يكون لديه علم مرتبط بالقانون والأحكام وعلم يرتبط بالواقع، ويعتمد في تطبيقه للأحكام والقوانين على قدرة القاضي على الاستنباط عند ربطه بين النظرية والواقع.

وقد اختلف الفقه في درجة الكفاءة العلمية للقاضي، فهل تصل هذه الكفاءة إلى حد الاجتهاد فمنهم من أوجب[٩] الاجتهاد، وهو ملكه استنباط الأحكام الفرعية من أدلتها التشريعية التفصيلية. والرأي[١٠] الراجح حصر الاجتهاد بقدرة القاضي على الترجيح بين الأقوال. وأشار الإمام علي (عليه السلام) على شرط الكفاءة العلمية في رسالته والتي جاء فيها: (ثم اختر للحكم (أي القضاء) أفضل رعيتك، واشتراط أفضل الرعية لا يعني أن يكون القاضي أعلم زمانه وإنما يفهم منها الترجيح في الصفات التي يجب أن تتوفر في القاضي على غيره وأن يحيط علماً بمعرفته بتفاصيل القضايا التي تعرض عليه. وقد عبر عنها الإمام (عليه السلام) بأنه (لا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه) أي أنه لا يكتفي عند إصدار حكمه بما يبدو له بأول فهم ويقر به دون أن يأتي على أقصى الفهم بعد التأمل، فهو لا يكتفي بأقوال الخصوم، وإنما يحاول أن يستزيد ويضيف إلى معلوماته، معلومات أخرى حتى يحيط بالقضية المعروضة أمامه من كل جوانبها، لأن الإحاطة بذلك ستمكنه من الوصول إلى جعل الحقيقة القضائية مطابقة للحقيقة الواقعية، ولذلك وصف الإمام هذا القاضي بـ(وأوقفهم في الشبهات) وهي ما لا يتضح الحكم فيه بالنص، فلا يحكم إلا وقد دله علمه على أصل الحادثة الصحيح بعد الصبر على تكشف الأمور وبعد الأخذ بالحجج والمقاييس. وينتقد الإمام علي (عليه السلام) القاضي الجاهل الذي أوصلته إلى منصب القضاء أمور غير الكفاءة العلمية، بأنه: (قد سماه أشباه الناس عالماً وليس به فاستكثر من جمع ما قلّ منه

خير ما كثر. حتى إذا ارتوى من ماءٍ جن واكتنز من غير طائل، جلس بين الناس قاضياً ضامناً تخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به أحدى المهمات هيأ حشواً رثاً من رأيه ثم قطع به فهو من لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت)[١١].

ولتحقيق شرط الكفاءة العلمية، كان الإمام علي (عليه السلام) يجمع القضاة والفقهاء بين حين وحين، ليوحد الأسس التي تقوم عليها الأحكام القضائية في كافة أنحاء البلاد ويجعل من القضاة على علم واسع بما بلغ إليه الاجتهاد.

ثانياً - شرط العدالة:

العدالة ملكة في النفس، تمنع صاحبها من ارتكاب الكبائر والرذائل والإصرار على الصغائر فهي استواء أحوال الإنسان في دينه واعتدال قوله وأفعاله[١٢]. وشرط العدالة يمكن أن نستنتجه من عهد الإمام لمالك بن الأشتر والذي جاء فيه: (ولا يكونّن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة، وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه)[١٣]. وجاء في هذا العهد أيضاً قوله (عليه السلام) (وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية).

ولما كانت شخصية الإمام علي (عليه السلام) من الأصالة والتماسك، فقد ضرب بنفسه أروع الأمثال على المساواة المطلقة بين الناس أمام القضاء، فقد شكا أحد الناس الإمام علي (عليه السلام) إلى عمر بن الخطاب في خصومه، وكان عمر خليفة، فأحضرهما وقال لعلي قف يا أبا الحسن بجانب خصمك، فبدا التأثر على وجه الإمام علي (عليه السلام): فقال عمر: أكرهت يا علي أن تقف إلى جانب خصمك، فقال لا ولكني رأيتك لم تُسوّ بيني وبينه، إذ عظمتني بالتكنيه ولم تُكنُه[١٤].

والعدالة عند الإمام علي (عليه السلام) تستند إلى روح التشريع الإسلامي ونصوصه، فهي ليست مجرد فضيلة من الفضائل، بل بوصفها جزءاً من الشريعة، وقد وردت كثير من الآيات القرآنية في الحث على الأخذ بالعدالة، منها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[١٥]، بل ذهبت العدالة في الإسلام مدى بعيداً، أبعد مما عرف في آية شريعة أخرى من الشرائع السماوية أو الوضعية، إذ نجد القرآن الكريم يحث على العدالة حتى ضد نفس المرء وحتى مع الأعداء، فقد ورد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾[١٦]. فإن الله يأمرنا في هذه الآية الكريمة أن نكون عدولاً حتى ولو جاء ذلك العدل ضد أنفسنا أو الولدين أو ذوي القربى ولحقنا الضرر من ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾[١٧]. والإسلام لا يتطلب العدالة من القضاء فحسب، وإنما هي مفروضة على كل من يملك سلطة أيضاً، فقد أوجب الإسلام على الحكام، التزام العدالة حتى مع الأعداء[١٨].

وشرط العدالة يمكن أن نستنتجه أيضاً من اختيار الأفاضل للقضاة فكلما كان القاضي فاضلاً عادلاً، فإن له فاعلية أكبر في إصدار الحكم القضائي بالعدل ومعيار العدالة التي يجب أن يتوفر في القاضي هو اجتناب الكبائر وعدم الإصرار على الصغائر، لأن ارتكاب الكبائر يؤدي إلى الإخلال بالعدالة أما ارتكاب الصغائر، فإنه لا يؤدي إلى الإخلال بالعدالة إلا عند الإصرار عليها. والإصرار حالة نفسية، تعني كون الإنسان مرتكباً للذنب، لا بوصفه صدفه عابرة على النفس، بل بإقبال نفسي ثابت والكبائر هي كل ذنب توعد الله عليه بالعقاب بالكتاب العزيز أو هي كل ذنب توعد الله عليه بالنار[١٩]. وهي ارتكاب المحرمات المتفق عليها، وهي الكفر بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وأكل الربا ومال اليتيم ظلماً والفرار من الزحف. أما الصغائر، فهي حسب تعبير العلامة الحلي، ترك المندوبات وإن أصر عليها ما لم يبلغ الترك إلى التهاون بالسنن[٢٠].

ثالثاً ـ شرط العقل والبلوغ:

أجمع الفقهاء المسلمون[٢١] على هذين الشرطين، لأن كل منهما شرط طبيعي، ذلك إن فاقد العقل الذي هو مناط التكليف غير مكلف، فإنه من باب أولى أن تكليفه بالقضاء لا يصح. وعليه لا تصح ولاية المجنون ولا السفيه للقضاء، وكذلك لا يجوز تقليد الصبي القضاء، لأنه لا يملك الولاية على نفسه، فكيف يملك الولاية على غيره. ذلك أن العقل هو وسيلة مثلى يستطيع بها القاضي أن يكون قادراً على أداء وظيفته القضائية على أفضل شكل. وفي رسالة القضاء للإمام علي (عليه السلام) ما يؤكد على أن هناك بعض الصفات، لا تتم إلا بتسديد العقل، ليس فقط العقل بوصفه مقابلاً للجنون، وإنما الاستفادة من العقل في مراحله العليا، التي يتوصل بها القاضي إلى الكشف على الحقائق الواقعية المطابقة للحقائق القضائية. فجاء في رسالة الإمام (عليه السلام) بأن يختار القاضي الذي تتوفر فيه بأن يأخذ (بالحجج وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم، من لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء. وتعتمد هذه الأمور على قدرة وإرادة ووعي، وهذه كلها من معطيات العقل.

رابعاً ـ شرط سلامة الحواس:

نقصد بشرط سلامة الحواس، أن تكون حواسه سليمة من أي عيب، وذلك بأن يكون القاضي سليماً في سمعه وبصره ونطقه، ونتفق مع الرأي الراجح من الفقه[٢٢] إلى عدم جواز قضاء الأصم والأعمى والأخرس، لأن الأعمى لا يستطيع التمييز بين الخصوم وكذلك الأصم لا يفرق بين أقرار وإنكار، بل إن جانب من الفقه ذهب إلى استحباب صفات أخرى في القاضي. منها سلامة أطرافه وبهجة صورته وزيادة ورعه واتصافه بكل جميلة، تزيده هيبة في النفوس وعظمة في القلوب وخلوه عن كل ما ينقص من قدرته ومنزلته[٢٣].

وبالرغم من أن الإمام علي (عليه السلام)، لم يشر إلى هذه الصفات بصورة مباشرة في رسالته، غير أن هذا الشرط، يمكن أن نجده في وصاياه، فقد أمر القاضي شريح بقوله: (وساوي بين المسلمين بوجهك ومنطقك ومجلسك)، وهذه المساواة لا تتحقق إلا لمن سلمت حواسه على النحو الذي بيناه.

خامساً ـ شرط المزايا الخلقية الكريمة:

الخلق العظيم، الكريم مصدر كل قضاء شريف، لذلك يجب أن يتوفر في شخص القاضي، شرط خلقي لا ينفع وجود الشروط التي ذكرناه بدونه، وقد اشترطت رسالة القضاء للإمام علي (عليه السلام) شروطاً أخرى تؤكد على توفر المزايا الخلقية وهي على النحو الآتي:ـ

١ ـ ولا تضيق به الأمور:

أي يمتلك سعة الصدر وضبط النفس والرفق بالمتخاصمين حتى ولو أسمعوه كلاماً عنيفاً يضيق به الصدر، فهو يسيطر على عواطفه بما يمتاز به من كفاءة علمية ونفس عزيزة.

٢ ـ ولا تُمحِكُهُ الخصوم:

ويقصد بهذه الصفة أن لا يضيق خلق القاضي عندما يثيره الخصوم ومبالغتهم بالأمور الهامشية، وإنما يجب أن يكون حيادياً، يقتصر دوره على ما يقدمه الخصوم من أدلة في الدعوى، وأن ينطلق اقتناعه دائماً من إثباتهم فيما قدموه من أدلة وما اتخذوه من موقف وأن يسيطر على مشاعره، مهما أثاره الخصوم، وذلك بأن يلتزم الحياد وأن يقف بين الخصوم موقف الحكم الذي يزن المصالح القانونية للخصوم بالعدل[٢٤].

٣ ـ ولا يتمادى في الزّلة:

يجب على القاضي أن لا يصر على الخطأ، لأنه إنسان عادل يهدف عمله إلى رفع الظلم عن الخصوم، فعليه أن يقدر الأمور كما هي ويعمل بموجبها، وأن يعمل دائماً على تصحيح الخطأ ولا يصر عليه.

٤ ـ ولا يحصَرُ من الفيء إلى الحق إذا عرفه:

من الصفات التي يجب على القاضي أن يتصف بها، هي أن لا يضيق صدره من الرجوع إلى الحق، فهو يعود إلى الحكم السابق إذا عرف صواب هذا الحكم لأن القاضي بشر، وقد يخطأ لذلك فإن الإمام (عليه السلام) أجاز له تصحيح هذا الخطأ والرجوع إلى الحكم الصحيح، لأن تصحيح الحكم خير من التمادي فيه[٢٥].

٥ ـ ولا تُشرف نفسه على طمع:

الطمع من سافلات الأمور، ومن نظر إليه وهو في أعلى منزلة النزاهة، لحقته وصمة النقيضة، فكيف بمن هبط إليه وتناوله. لذلك يؤكد الإمام علي (عليه السلام) على

القاضي بأن لا يشرف على طمع ويجب عليه أن لا يتسرع إلى كسب الغنائم، لأنه لا يخاف أن يفوته شيء من الربح إذا حكم بما أراد الله[٢٦].

٦ - ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه:

وهذه الصفة تعني أن لا يكتفي القاضي في الحكم بما يبدو له بأول فهم ويقربه وإنما يحيط بالحكم إلى أقصى درجة من الفهم والتأمل، لأنه يمتلك شرط الكفاءة العلمية، وهي شرط أساس في الشخص الذي يجب أن يتولى وظيفة القضاء، فهو يتبصر بأمور القضية تبصراً طويلاً، ولا يكتفي بالمعلومات الأولية التي يحصل عليها كل قاض وإنما يزيد عليها من استنباطه الإبداعي، وعملية الاستنباط عملية شاقة، تتطلب من القاضي بذل مجهود ذهني في تكوين اعتقاده. وبما أن استنباط القاضي يقوم على الاحتمال والترجيح، فإنه يكون معرضاً للخطأ، لأن القاضي بشر وقدراته محدودة، ولذلك يجب عليه أن يظهر كثيراً من الحكمة والحذر فيما يستنبطه من وقائع الدعوى[٢٧].

٧ - وأوقفهم في الشبهات:

ويقصد بهذه الصفة أن لا يأخذ القاضي بما لا يتضح فيه الحكم إلا بالدليل الواضح، فإذا لم يتضح له الدليل، فيجب عليه عدم إصدار الحكم في القضية المعروضة عليه إلى أن يصل إلى أصلها الصحيح، لذلك يجد صاحب الحق نفسه مضطراً إلى أن يقنع القاضي بإقامة الدليل على وجوده إذا ما تعرض هذا الحق للإنكار من جانب الغير، وبدون إقامة هذا الدليل، لا يستطيع أن يحصل على الحماية القضائية، فيتعرض لفقدان حقه، لأن القاضي لن يكون ملزماً بأن يسلم بصدق هذا الادعاء ويستطيع القاضي أن يحسم المنازعات بين الخصوم وأن يدحض الادعاءات الكاذبة والكيدية، تحقيقاً للعدالة لصالح جميع المتخاصمين[٢٨].

٨ - وأخذهم بالحجج:

أي يجب أن يستند القاضي في حكمه على الأدلة التي يقدمها الخصوم أمامه، لذلك إن الحق دون دليل، يصبح هو والعدم سواء بسواء وإذا كانت الشريعة الإسلامية ترسم لكل فرد حدود حريته وتبين حقوقه وواجباته، فإن أسباب النزاع، قد تنعدم بين الناس إذا ما التزم كل شخص حدوده وأدى حق غيره، غير أنه لما كانت النفس الإنسانية مطبوعة على الأثرة، ميالة إلى الاستزادة مما لها، للتخلص مما عليه ولو بغير حق، كان ذلك مثاراً للمنازعات بين الأفراد[٢٩]. ولقد جاء في الحديث الشريف إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: (لو يعطى الناس بدعواهم لادعى ناس دماء رجال وأموالهم ولكن اليمين على المدعى عليه)[٣٠]. ولذلك يجب على القاضي أن يجعل الدليل هو الأساس في قبول الدعوى ويجب عليه أن يرد كل دعوى لا تستند إلى دليل.

٩ - وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم:

يجب على القاضي أن لا يكون ضجراً من كثرة مراجعة الخصوم له، وإنما عليه أن لا يمل من هذا الأمر، وأن لا يقضي وهو غضبان أو جائع أو ممتلئ أو عطشان، لأن هذه العوارض تشوش عليه نظره وفكره، مما يشغله عن الحق. وهذه الصفات من آداب القضاء المعروفة في الفقه الإسلامي.

١٠ - وأصبرهم على تكشف الأمور:

يشترط الإمام (عليه السلام) على القاضي أن لا يتسرع عند إصدار الحكم وإنما يجب عليه أن يتبصر في الأمور تبصراً طويلاً وان يتحمل الصبر من أجل كشف الملابسات التي تحيط بالقضية المعروضة عليه.

١١ - وأصرمهم عند اتضاح الحكم:

اشترط الإمام (عليه السلام) في القاضي الحب المطلق للعدالة والميل الأصيل لدفع الظلم، فمجرد أن يصل إلى الحقيقة الواقعية، يجب عليه أن يكون صارماً في قطع الخصومة وإصدار الحكم العادل بها.

١٢ - ممن لا يزدهيه إطراء:

على القاضي أن لا يخشى في الحق أحداً ولا يتأثر بالمديح أو الإطراء، لأنه يمتلك شخصية قوية في كل حكم يجب أن يصدره.

١٣ - ولا يستميله إغراء:

وهذه الصفة تعني أن على القاضي أن لا يتأثر بالإغراءات المادية التي يقدمها الخصوم أحياناً من هدية أو رشوة، أو يكون فيه حنين إلى الحظوة لدى الوجهاء، فهو لا يشرف على طمع، لأنه من أفضل الرعية، ولأن الإغراء يؤدي بالقاضي إلى الانحراف عن العدل. وقد عالج الإمام علي (عليه السلام) هذا الأمر كما سنرى ذلك بتأمين القاضي اقتصادياً، كي لا يطمع برشوة أو منفعة فينحرف عن العدالة[٣١].

سادساً -

وهناك شروطاً أخرى ذكرها الفقهاء وهي محل خلاف لديهم وهما شروط الحرية والذكورة والإسلام وطهارة المولد وسنتناول دراسة هذه الشروط في النقاط الأربعة الآتية:

١ - شرط الحرية:

ذهب جانب من الفقه[٣٢] إلى اعتبار الحرية شرطاً للقضاء، ذلك إن القضاء من باب الولاية ولا ولاية لغير الحر على نفسه، فمن باب أولى أن لا تكون الولاية على غيره. ووضع فقهاء الإمامية[٣٣] قاعدة أكثر وضوحاً في القواعد التي تقضي بأن كل من (لا تقبل شهادته،

لا ينفذ حكمه) كالولد على والده والعبد على سيده والعدو على عدوه. ولما كانت شهادة العبد مقبولة فإن له الحق في تولية القضاء.

٢ ـ شرط الإسلام:

وذلك لأن القضاء ولاية لغير المسلم على المسلم. وقد ورد قوله تعالى ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[٣٤] فضلاً عن ذلك أن القضاء، يتطلب معرفة بأصول الأحكام الإسلامية وأنه نوع من المسؤولية والأمانة لا يتحملها إلا من يخشى الله. وعليه لابد أن يكون القاضي مسلماً، فلا ينعقد القضاء للكافر لأنه ليس أهلاً للأمانة.

٣ ـ شرط الذكورة:

تذهب غالبية المذاهب الفقهية إلى أن الذكورة شرط لجواز ولاية القضاء، لذلك اختلفوا في قضاء المرأة، وذهب الرأي السائد إلى عدم جواز ولاية المرأة للقضاء[٣٥]. ويذهب رأي آخر إلى أن المرأة يجوز أن تكون قاضية في الأمور المدنية ولا يجوز أن تكون قاضية في الأمور الجزائية، لأن هذا النوع من القضاء، لا يتناسب وطبيعة المرأة وان إعفاءها من تحمل مسؤولية القضاء الجنائي والإمارة، يرجع إلى تخفيف المسؤولية عنها والرفق بها وليست لنقصها وعدم أهليتها. ونعتقد أن هذا الرأي جدير بالتأييد.

٤ ـ شرط طهارة المولد:

وأشترط جانب[٣٦] من الفقه هذا الشرط، لأن شهادة ابن الزنا تكون باطلة، ومن باب أولى تكون توليته للقضاء باطلة أيضاً، وبالرغم من أنه لم يعزل شخص عن منصب القضاء، لأنه يفتقر إلى شرط طهارة المولد، غير أن الاهتمام بهذا الشرط جاء بسبب الهالة والمهابة التي يجب أن يمتلكها القاضي، ليكون على أفضل صورة وأحسن سمعة حتى لا يستطيع أحد النيل منه، ويترتب على ذلك أضعاف سلطته القضائية. وهذا ما يفهم من رسالة الإمام علي (عليه السلام)، عندما طلب من مالك الأشتر أن يختار للقضاء أفضل رعيته ممن يتصف بصفات وفضائل لا يتصف بها عامة الناس.

المبحث الثاني
ضمانات التقاضي عند الإمام علي (ع)

تستند رسالة القضاء للإمام علي (عليه السلام) على أسس مهمة تهدف إلى تنظيم حسن سير القضاء وإجراءاته وضمان حقوق الخصوم وعدم الأضرار بهم، فضلاً عن ذلك يحرص الإمام علي (عليه السلام) على إيجاد قواعد خاصة لضمان نزاهة القضاة وحيدتهم وحماية استقلالهم تجاه الخصوم. والغرض من هذه الضمانات، هي حماية القاضي من نفسه، التي قد تدفعه إلى التعسف في استعمال السلطة القضائية أو إلى نوع من التعدي على حقوق المتقاضين. ورسالة الإمام (عليه السلام) وضعت حداً لهذه التصرفات التي قد تأثر على نزاهة

القاضي وحياده لأن القاضي بشر والنفس أمارة بالسوء[٣٧] وقد وضع الإمام علي (عليه السلام) أسساً لضمان وظيفة التقاضي ندرجها على النحو الآتي:

أولاً - اختيار الأكفاء للقضاء.

ثانياً - تأمين الأمن الوظيفي والاقتصادي للقضاة.

ثالثاً - استقلال القضاء والرقابة الدقيقة على أعمال القضاة.

رابعاً - مراعاة وحدة الأحكام القضائية.

خامساً - مراعاة حق الدفاع والمساواة بين الخصوم.

ولا ريب أن هذه الأسس تعد من الضمانات المهمة لصحة التقاضي وسنخصص مطلب لكل أساس منها ونضيف عليها مطلباً آخر نخصصه للمقارنة بين شروط القاضي عند الإمام علي (عليه السلام) والتشريع العراقي. ولما كان اختيار الأكفاء للقضاء سبق وأن تم بحثه، فإننا سنوزع دراسة هذه الأسس إلى المطالب الخمسة الآتية:

المطلب الأول
تأمين الأمن الوظيفي والاقتصادي للقضاة

يستند النظام القضائي عند الإمام علي (عليه السلام) على ضرورة تأمين وسيلتين أساسيتين، وهما تأمين الأمن الوظيفي والاقتصادي للقضاة، لأن عدم ضبط هاتين الوسيلتين، قد تؤدي إلى اضطرار القضاة إلى الانحراف وقد أوضح الإمام (عليه السلام) هذا الأمر إلى مالك بن الأشتر والتي جاء في رسالته: (وأعطه - أي القاضي - من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك، فانظر في ذلك نظراً بليغاً). وبهذه الرسالة يوصي الإمام علي (عليه السلام)، أن تكون للقاضي منزلة رفيعة عند السلطة التنفيذية بحيث لا يستطيع أحد مهما كانت درجته أن يعيق عملهم، ذلك لأن القاضي إذا ما تم تأمين الأمن الوظيفي له، فإن الخاصة أو العامة سوف تهابه، ولا يجرؤ أحد على الوشاية به عند السلطة خوفاً منها وإجلالاً لعظمة القاضي، لأنه من دون تأمين هذا الأمن الوظيفي للقاضي وبوصفه بشر فإنه يخاف من السلطة أن تغدر به أو نقضي عليه، أو يخاف من التهديد بالقتل ومن أن ينال الوجهاء المتنفذين من كرامته والاعتداء عليه إذا قضى عليهم لصالح مظلوم أو لغير مصلحتهم. وقد أقرت التشريعات المعاصرة هذا المبدأ الذي اعتمده الإمام علي (عليه السلام) وأخذت به غالبية التشريعات المعاصرة. واعتبر المشرع العراقي[٣٨] تدخل المسؤولين أو أي مواطن في شؤون القضاء، جريمة يعاقب عليها القانون.

أما الوسيلة الثانية التي تضطر القضاة إلى الانحراف عن الحق، فهي عدم تأمين الاحتياجات الاقتصادية لهم. ولذلك حقق الإمام علي (عليه السلام) الأمن الوظيفي للقضاة في رسالة لمالك بن الأشتر والتي جاء فيها: (وأفسح له - أي القاضي - في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس) ولذلك ألزم الإمام (عليه السلام) السلطة بأن توسع على القاضي وعلى

عياله، خوفاً من أن يطمع في أموال الناس. لذلك كان عطاء القاضي في عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أكبر عطاء يناله عامل من عمال الدولة الإسلامية. وهذا ما دأبت عليه تشريعات الدول المتقدمة، يمنح القاضي راتباً يصل إلى أعلى مسؤول في الدولة، لكي لا يطمع لرشوة أو منفعة وينحرف على جادة الحق.

المطلب الثاني

استقلال القضاء والرقابة الدقيقة على أعمال القضاة

يعد استقلال السلطة القضائية من الأسس المهمة التي يستند إليها النظام القضائي والذي أقرته غالبية التشريعات المعاصرة. ويقصد به إن لكل من السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية، وظيفة تختلف عن الأخرى ولا يجوز التداخل بين هذه الوظائف وإلا فإن التوازن المنظم للمجتمع سوف يختل[٣٩]. ويترتب على هذا الاستقلال عدم جواز نقل القاضي أو نقله[٤٠].

وبالرغم من أن السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية، كانت موحدة وغير منفصلة، فإننا نجد فكرة استقلال السلطة التشريعية في منهج الإمام علي (عليه السلام)، وذلك من خلال ممارساته القضائية عند تأمينه الأمن الوظيفي والاقتصادي للقضاة، فأكسبهم بذلك الحصانة وضمان عدم عقاب السلطة التنفيذية لهم. غير أن القضاة بالرغم من كل أسباب الوقاية التي كفلها لهم الإمام (عليه السلام) في رسالته، فإنه أجاز للسلطة العليا مراقبتهم والنظر في أحكامهم ومراجعتها في ضوء العقل والوجدان. فجاء في رسالته: (ثم أكثر تعاهد قضائه) أي تتبعه بالاستكشاف والتعرف على أفضل القضاة الذين تتوفر فيهم الشروط التي أشار إليها الإمام (عليه السلام) في رسالته. فقد كان يمارس الأشراف المباشر على عمل القضاة بنفسه ونظراً لما يحظى به الجهاز القضائي من موقع ممتاز في إصلاح شؤون المجتمع، فقد كان يحرص على ممارسة القضاء والفصل في القضايا من خلال موقع أطلق عليه (دكة القضاء) بالرغم مما عليه من مهام ومسؤوليات[٤١].

والرقابة الدقيقة للإمام علي (عليه السلام) بهذه المواصفات للقضاء لا تتعارض مع استقلال القضاء، بل تعد عاملاً مساعداً في دعم هذا الاستقلال، لأن هذه الرقابة، تهدف إلى التأكيد على تقويم الجانب الأخلاقي والسلوكي للقاضي وتضمن عدم انحرافه واستقلاله للحرية الممنوحة له.

وبالرغم من أن التشريعات المعاصرة نصت على استقلال السلطة القضائية، إلا أن هذا الاستقلال مقيداً ولا وجود له في الواقع، فلا تزال السلطة القضائية، تحت هيمنة السلطة التنفيذية والتشريعية، فالقانون أعطى الحق للسلطة التنفيذية، أن تقوم بعزل القاضي، فمثلاً نصت المادة (٥٨) من قانون التنظيم القضائي العراقي رقم (١٦٠) لسنة ١٩٧٩، على: (إنهاء خدمة القاضي إذا ثبت عدم أهليته في الاستمرار في الخدمة القضائية).

واستناداً للرقابة التي فرضها الإمام (عليه السلام) على القضاء، فإن القاضي إذا خرج عن حدود الضوابط التي رسمها الإمام له في رسالته، فإنه يجوز لولي الأمر أن يتدخل ويعزل هذا القاضي. ونتفق مع الرأي[٤١] الراجح في الفقه الإسلامي والذي اعتمده الإمام (عليه السلام) في ممارساته القضائية بعدم جواز عزل القاضي من قبل ولي الأمر، إلا إذا كانت هناك أسباب مسوغة ومشروعة تجيز هذا العزل. وقد عزل الإمام (عليه السلام) أبا الأسود الدؤلي لأسباب تتعلق بالمصلحة العامة، كما سنرى ذلك لاحقاً.

المطلب الثالث

مراعاة وحدة الأحكام القضائية

الأصل في القضاء الإسلامي عدم جواز اختلافهم في إصدار الأحكام القضائية بل لابد من وحدة الرؤية فيها ومن مطابقة الحقيقة القضائية للحقيقة الواقعية، على قدر الإمكان. وأحكام الإمام (عليه السلام)، هي أحكام مطابقة للحق وهي أحكام ثابتة لا تتقيد بتغير الزمان والمكان، لأنه يستقي علومه وقضاءه من العلم الإلهي، وبهذا الصدد يشير الإمام (عليه السلام): (لو اختصم إليّ رجلان، فقضيت بينهما ثم مكثا أحوالاً كثيرة ثم أتياني في ذلك الأمر لقضيت بينهما قضاءً واحداً، لأن القضاء لا يحول ولا يزول)[٤٢] وبالتأكيد فإن هذا الحكم أمر يتفرد به الإمام (عليه السلام) وحده، لأن الحقيقة القضائية عنده، تكون دائماً مطابقة للحقيقة الواقعية، أما الحقيقة القضائية عند القضاة العاديين فإن الأحكام التي يصدرونها بعيدة من أن تكون محل يقين مطلق، وإنما قناعتهم بها تبنى في الأساس على احتمال قوي بقدر الإمكان، يكفي للإقرار بوجود الحق المدعى به، إذ أن من المسلم به أن القاضي يستند على أدلة أثبات لا تؤدي مهما كانت قوتها إلى حقيقة يقينية، بل مجرد احتمال يقتنع به القاضي على أنه الوضع الأرجح والأقرب إلى الواقع. فالحقيقة القضائية، قد لا تكون مطابقة للحقيقة الواقعية في بعض الأحيان[٤٣].

وقد كان الإمام (عليه السلام) يجمع القضاة والفقهاء بين حين وآخر ليوحد الأسس التي يقوم عليها الأحكام في كافة أرجاء دولته، ويجعل كلا من القضاة على علم واسع بما إليه الاجتهاد وكان (عليه السلام) يقول: (ترد على أحدهم القضية في حكم من الأحكام، فيحكم فيها برأيه، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه. ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذي استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً[٤٤].

وعلى حد تعبير الأستاذ الفرنسي (هنري كابيتان): (إن المحاكم أقامت شيئاً فشيئاً بناء خاصاً من القواعد القانونية وفقهاً يكمل ويثري العمل التشريعي، وبغير هذه الثروة الدائمة من قضاء المحاكم، تشيخ القوانين ويلحقها الذبول)[٤٥]. وعليه فإن اطلاع الفقه القانوني على أحكام المحاكم والتعليق عليها، يعزز من رصانتها العلمية ومن الوصول إلى الحقيقة الواقعية.

والتشريعات الحديثة تعمل على أن يكون الأصل في إصدار أحكام قضائية موحدة، ولذلك نظمت هذه التشريعات التقاضي على درجتين وجعلته من الأسس المهمة التي يستند إليها القضاء. ومقتضى هذا النظام أن للخصوم الحق في إعادة طرح النزاع بعد الحكم به مرة أخرى على محكمة أعلى درجة لإعادة النظر في قضاء المحكمة التي أصدرت الحكم فيه وتصحيح الأحكام لاحتمال وقوع خطأ فيها، وبذلك تحقق رقابة قضائية ذاتية للمحكمة الأعلى على المحكمة الأدنى، مما يجعل حكم المحكمة الأخيرة أكثر دقة بدراسة موضوع الدعوى والتدقيق فيها للوصول إلى العدالة ووحدة الأحكام وهذا ما أشار إليه الإمام (عليه السلام) بقوله السابق، فالإمام هو المحكمة العليا التي تصحح الأخطاء التي يقع بها القضاة.

المطلب الرابع

مراعاة حق الدفاع والمساواة بين الخصوم أمام القضاء

حق الدفاع من الأسس المهمة التي يستند عليها نظام التقاضي في التشريعات المعاصرة، إذا أعطت هذه التشريعات للخصوم حق الدفاع أمام القضاء سواء كانوا مدعين أو مدعى عليهم في الدعوى. واشترطت حضورهم عند اتخاذ الإجراءات القانونية في مواجهة الخصوم، لكي يحيطوا علماً بكل هذه الإجراءات التي اتخذوها وإعطاءهم الفرصة في الرد عليها. وقد حضر الإمام علي (عليه السلام) بنفسه إلى المحكمة للإجابة عن أسئلة القاضي الذي نصبه، وهو بهذا السلوك يدلل عملياً على الموقع الممتاز الذي يحظى به القضاء واستمد الإمام (عليه السلام) هذه المبادئ من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي أوجب على القاضي أن يسمع دعوى أطراف النزاع، فلا يحكم لأحد الخصمين دون أن يسمع كلام الآخر، وذلك عملاً بما رواه الإمام علي (عليه السلام) إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال يا علي إذا جلس إليك الخصمان، فلا تقضي بينهما حتى تسمع من الآخر، كما سمعت من الأول، فإنك إن فعلت ذلك تبين لك القضاء)[٤٦].

وطبق الإمام علي (عليه السلام) هذه القاعدة في القضية التي روي فيها (إن امرأة شهد عليها الشهود أنهم وجدوها في بعض مياه العرب مع رجل بطؤها ليس ببعل لها، فأمر عمر برجمها وكانت ذات بعل، فقالت اللهم إنك تعلم إني بريئة، فغضب عمر، وقال: وتجرح الشهود أيضاً؟

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (ردوها واسألوها فلعلّ لها عذراً، فردت) وسئلت عن حالها. فقالت كان لأهلي إبل فخرجت في إبل أهلي وحملت معي ماءً، ولم يكن في إبل أهلي لبن. وخرج معي خليطنا وكان في إبله لبن، فنفذ مائي، فاستقيته فأبى أن يسقيني حتى أمكنه من نفسي، فأبيت، فلما كادت نفسي تخرج أمكنته من نفسي كُرها، فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) (الله أكبر) (فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه)[٤٧] فلما سمع

ذلك عمر خلّى سبيلها[٤٨]. فالخليفة عمر أخذ بالعرف السائد في مثل هذه القضايا وهو اعتماد رأي الشهود مع وجود الدلائل التي توحي بأن المرأة قد ارتكبت جريمة الزنا، ورفض أن يسمع إلى حقها في الدفاع عن نفسها والطعن بشهادة الشهود، لكن مع تطبيق قاعدة حق الدفاع عن نفسها تغير الأمر الذي أثبت بأنها كانت مجبرة ولا توجد عقوبة على المضطر.

أما المساواة بين الخصوم فجعل منها علي (عليه السلام) قاعدة أساسية في القضاء، فلا يجوز الانحراف عنها، فالناس أمام القضاء متساوون وحق اللجوء للقضاء مضمون للجميع ودون أن يكون هناك أي تمييز بينهم بسبب اللغة أو الجنس أو اللون أو الدين. وتجلت هذه المساواة بأبهى صورة لها في عهد الإمام (عليه السلام) فنقل عن ابن فرحون أنه: (ذُكر أن علياً (عليه السلام) خاصم يهودياً عند القاضي شريح، فجلس علي (عليه السلام) في صدر المجلس وجلس شريح والذّمي دونه، وقال علي: لولا أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عفا عن مساواتهم في المجالس لجلستُ معه). وأستدل ابن فرحون وغالبية الفقه من هذا الموقف على وجوب التساوي بين الخصمين في النظر والكلام والسلام. ولقد عزل الإمام (عليه السلام) أبا الأسود الدؤلي عن القضاء لما بلغه أن صوته علا على صوت الخصم، فقال له لم عزلتني وما خنت وما جنيت فقال الإمام (عليه السلام) إني رأيت كلامك يعلو كلام خصمك)[٤٩].

مما تقدم يتضح الشعور العميق لدى الإمام (عليه السلام) في مساواته الخصوم وان هذا الخُلق العظيم هو مصدر كل قضاء أصيل وعادل.

المطلب الخامس

اختيار القضاة في التشريع المقارن

اختلفت التشريعات في اختيار القضاة على الطرق الآتية: -

أولاً - طريقة اختيار القضاة بالانتخاب العام:

وهذه الطريقة أخذت بها الولايات المتحدة الأمريكية وسويسرا ويكون اختيار القضاة من قبل الشعب شأنه في ذلك شأن اختيار السلطة التشريعية وانتقدت هذه الطريقة، لتأثير النظام السياسي والاقتصادي بصورة واضحة، ذلك أن الناخبين يميلون إلى تفضيل من يراعي ميولهم السياسية والاقتصادية، بصرف النظر عن مدى كفاية وصلاحية القاضي لتولي منصب القضاء فضلاً عن ذلك إن وظيفة القضاء وظيفة سامية، يجب أن تكون بعيدة عن المبادئ الديمقراطية البراقة وما يغالى من أساليب في عملية الانتخاب.

ثانياً - طريقة اختيار القضاة بالتعيين:

ومقتضى هذه الطريقة أن السلطة التنفيذية، هي التي تقوم بتعيين القضاة، بوصفها أقدر من جمهور الناخبين على معرفة الكفاية والصلاحية التي يجب توافرها فيمن يتولى

وظيفة القضاء، وأخذت بهذه الطريقة غالبية الدول ومنها فرنسا ومصر والعراق. وانتقدت هذه الطريقة خشية وقوع القضاة تحت سيطرة الحكومة التي عينتهم. وحلاً لهذا الانتقاد، فقد حرصت هذه الدول على أن لا يترك أمر تعيين القضاة للسلطة المطلقة للحكومة وإنما استلزمت توافر شروطاً خاصة فيمن يتعين قاضياً فضلاً عن تنظيم ضمانات تكفل استقلال القاضي في مواجهة الحكومة[٥٠].

ثالثاً ـ اختيار القضاة عن طريق نظام المسابقة:

وهو أن تجري مسابقة للمتقدمين إلى وظيفة القضاء من قبل لجنة يعينها الوزير المختص من كبار القضاة لاختيار المتقدمين إلى هذه الوظيفة. وقد أشار قانون استقلال القضاء الأردني لسنة ١٩٧٢ المعدل إلى هذه الطريقة في اختيار القضاة فأوجب في المادة (١٢) من هذا القانون بأن تجري مسابقة للمتقدمين لملأ الوظيفة الشاغرة للقضاء من قبل لجنة يعينها الوزير من ثلاثة من كبار القضاة.

أما في التشريع العراقي فإن وزارة العدل هي التي تقوم بتعيين المتخرجين في المعهد القضائي[٥١]، إذا توافرت فيهم الشروط الآتية:

١. أن يكون عراقياً بالولادة ومتمتعاً بالأهلية المدنية الكاملة.
٢. أن لا يزيد عمره عند قبوله في المعهد على أربعين سنة ولا يقل عن ثمان وعشرون سنة.
٣. أن لا يكون محكوماً عليه بجناية غير سياسية أو جنحة مخلة بالشرف.
٤. أن يكون محمود السيرة وحسن السمعة.
٥. أن تتوافر فيه الجدارة البدنية واللياقة.
٦. أن يكون متخرجاً من إحدى كليات القانون في العراق أو أية كلية قانون معترف بها بشرط اجتيازه امتحاناً بالقوانين العراقية، يحدده مجلس المعهد ومواده وكيفية إجراءه.
٧. أن لا يكون قد سبق فصله من المعهد.
٨. أن تكون له ممارسة فعلية بعد التخرج في الكلية، مدة لا تقل عن ثلاث سنوات في المحاماة، أو في وظيفة قضائية أو قانونية في دوائر ومؤسسات الدولة[٥٢]. ويعفى من شروط الممارسة الطلبة من حملة الشهادات العليا في الدراسة القانونية من درجة الماجستير أو أعلى.
٩. واشترطت المادة السابعة المعدلة من قانون التنظيم القضائي رقم (١٦٠) لسنة ١٩٧٩، فيمن يعين قاضياً أو نائب مدع عام، أن يكون متخرجاً من المعهد القضائي ومتزوجاً.

وعند مقارنة هذه الشروط مع الشروط التي استلزمها الإمام علي (عليه السلام) في رسالته القضائية، نجد أن هناك شروطاً مهمة، أغفلت هذه التشريعات عنها وهو شرط الكفاءة العلمية والتي حددها الإمام علي (عليه السلام) بأن يكون القاضي من أفضل الرعية وكذلك شرط تمسك القاضي بالآداب الشرعية للقضاة.

الخاتمة والاستنتاجات:

تعد رسالة القضاء للإمام علي (عليه السلام) من الرسائل الأصيلة، التي أرست الأسس التي يستند إليها النظام القضائي الإسلامي، وإذا كانت هناك رسائل أخرى، كرسالة الخليفة عمر بن الخطاب، ساهمت في هذا البناء الإسلامي للقضاء، فإن رسالة الإمام علي (عليه السلام) تعد من أكثر الرسائل أصالة وسعة في بناء هذا النظام. ولم نجده في غيرها من الرسائل الأخرى بالرغم مما يمتلكه أصحاب هذه الرسائل من هالة القدسية والعظمة في نفوس المسلمين. وأصبحت أفضلية هذه الرسالة من المسلمات التي لا يستطيع أحد إنكار حقيقتها. ولا يبدو ذلك الأمر غريباً، لأن النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) أكد على أن (أقضى أمتي علي). وقد أوضحت لنا رسالة الإمام علي (عليه السلام) الشروط والصفات التي يجب أن تتوفر في الشخص الذي تسند إليه وظيفة القضاء، وقدمت لنا الوسائل الكفيلة لضمان هذه الوظيفة والتقاضي أمامها. نأمل من المشرع العراقي، أن يأخذ هذه الرسالة بنظر الاعتبار وفي ضوءها نقترح تعديل قانون التنظيم القضائي رقم (١٦٠) لسنة ١٩٧٩ وإضافة شرط الكفاءة العلمية لتصبح الفقرة السادسة من المادة التاسعة من هذا القانون على النحو الآتي:

(أن يكون حاصلاً في الأقل على شهادة الماجستير في القانون أو متخرجاً من إحدى كليات القانون بشرط أن لا يقل معدله عن ٨٠٪) فضلاً عن ذلك يجب أن تكون هذه الرسالة من ضمن المناهج المقررة التي تدرس في المعهد القضائي، ضمن رسائل القضاء في القضاء الإسلامي.

الهوامش:

(١) سورة طه - الآية الكريمة - ٩٦، ويشير بهذا الصدد الشهيد محمد باقر الصدر (قدس سره) إلى أن حب الله في قلب هذا الإمام العظيم، أستقطب وجدانه إلى الدرجة التي منعته من أن يرى شيئاً آخر غير الله، فهذا الحب يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقلوب الخاشعة لحب الله والنبي وأهل بيته:.
محمد باقر الصدر - التفسير الموضوعي للقرآن الكريم - طبع مجمع الثقلين العلمي طبع بغداد دون سنة نشر ص٢٦٧.

(٢) للمزيد من التفصيل راجع د. محسن باقر الموسوي - القضاء والنظام القضائي عند الإمام علي (عليه السلام) طبع بيروت - الطبعة الأولى ١٩٩٩ ص٩ وما بعدها. وأنظر كذلك هشام آل قطيط - الكل يسأل وعلي يجيب - طبع دار آوند دانش للكتاب - إيران ٢٠٠٥ ص٦٦٢.

(٣) الشيخ محمد تقي التستري - قضاء أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (عليه السلام) طبع أهل الذكر - الطبعة الأولى صفر ١٤٢٦ هـ ص١.

(٤) التستري - المرجع السابق - ص٥.

(٥) الأستاذ جورج جرداق - الإمام علي صوت العدالة الإنسانية - المجلد الأول طبع بيروت - دار المهدي - الطبعة الأولى منقحة ٢٠٠٤ ص٨٢.

(٦) سورة البقرة الآية الكريمة ٢١٣.

(٧) ذكر الشيخ المفيد في شروط القاضي ان يكون (عاقلاً، كاملاً، عالماً بالكتاب وناسخه ومنسوخه، وعامه وخاصه، وندبه وإيجابه، ومحكمه ومتشابهه، عارفاً بالسنة، وناسخها، عالماً باللغة، مطلعاً بمعاني كلام العرب، بصيراً بوجوه الأعراب، ورعاً عن محارم الله عزّ وجلّ، زاهداً في الدنيا، متوفراً على الأعمال الصالحات، ، متجنباً للذنوب والسيئات، شديد الحذر من الهوى، حريصاً على التقوى) الشيخ المفيد ـ محمد بن النعمان ـ المقنعة في الأصول والفروع ـ سلسلة الينابيع الفقهية طبع طهران ١٤٠٦ هـ ص١٩٥ وما بعدها.

(٨) جورج جرداق ـ المرجع السابق ص٣٥٧.

(٩) الشيخ المفيد ـ المقنعة ـ المرجع السابق ص١٩.

(١٠) لمزيد من التفصيل ـ راجع السيد كاظم الحسيني الحائري ـ القضاء في الفقه الإسلامي ـ طبع مجمع الفكر الإسلامي ١٤٢٣هـ ص٥ ـ ص٦٦ والذي يرى أن كلمة (أفضل) لا تعطي معنى (اعلم) كي يثبت المقصود، بل تعطي الترجيح من حيث مجموع الجهات.

(١١) جورج جرداق ـ المرجع السابق ص٣٥٨. ومعنى ذلك أي أستكثر من جمع معلومات تافهة قليلها خير من كثيرها.

(١٢) راجع مؤلفنا أحكام قانون أصول المحاكمات المدنية ـ المرجع السابق ص٤١.

(١٣) جورج جرداق ـ المرجع السابق ص٣٥٣.

(١٤) جورج جرداق ـ المرجع السابق ص٣٥٤.

(١٥) سورة النحل الآية الكريمة (٩٠).

(١٦) سورة النساء الآية الكريمة (١٢٥).

(١٧) سورة المائدة الآية الكريمة (٨).

(١٨) د. عبد الحميد متولي ـ مبادئ نظام الحكم في الإسلام ـ الإسكندرية ١٩٧٤ ص٢١٨.

(١٩) الحائري ـ المرجع السابق ص١١٠ وص١٣٠.

(٢٠) العلامة الحلي ـ القواعد الفقهية سلسلة الينابيع الفقهية ـ ط ـ طهران ١٤٠٦ هـ ص٤٤٥.

(٢١) للمزيد من التفصيل راجع د. محمد باقر الموسوي ـ المرجع السابق ص١٣٦. وراجع كذلك مؤلفنا في شرح أحكام أصول المحاكمات المدنية ـ المرجع السابق ص٤٠.

(٢٢) للمزيد من التفصيل راجع د. عبد الكريم زيدان ـ نظام القضاء في الشريعة الإسلامية ـ ط بغداد ١٩٨٤ ص٢٥ وما بعدها.

(٢٣) راجع مؤلفنا في شرح أحكام قانون المحاكمات ـ المرجع السابق ـ ص٤١.

(٢٤) للمزيد من التفصيل راجع مؤلفنا في الإثبات ـ شرح أحكام قانون الإثبات المدني ـ طبع دار الثقافة ـ الإصدار الثاني ـ عمان ٢٠٠٥ ص٨٧ وما بعدها.

(٢٥) وهناك رسالة القضاء تنسب إلى الخليفة عمر بن الخطاب جاء فيها أنه: (لا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم، فراجعت فيه رأيك، فهديت فيه لرشدك، إن تراجع الحق فيه، لأن الحق قديم، لا يبطله شيء ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ـ للمزيد من التفصيل راجع ابن قيم الجوزية أعلام الموقعين عن رب العالمين ـ طبع بيروت ـ ط٢ ـ ج١ ١٩٧٧ص٤٨.

(٢٦) د. محسن باقر ـ المرجع السابق ص١٤٦.

(٢٧) د. محسن باقر ـ المرجع السابق ص١٤٦.

(٢٨) مؤلفنا في شرح أحكام قانون الإثبات المدني ـ المرجع السابق ص١٠.

(٢٩) مؤلفنا في شرح أحكام قانون الإثبات المدني ـ المرجع السابق ص١٠.

(٣٠) رواه مسلم: راجع النووي ـ شرح صحيح مسلم ـ ج١ ـ المطبعة المصرية ١٩٧٢ ص٢ ويشير النووي إلى ان هذا (الحديث قاعدة كبيرة من قواعد أحكام الشرع. ففيه أنه لا يقبل قول إنسان فيما يدعيه بمجرد دعواه، بل يحتاج إلى بينة أو تصديق المدعى عليه، فإن طلب يمين المدعى عليه فله ذلك، وقد بين النبي (ص) الحكمة بوصفه لا يعطى بمجرد دعواه، لأنه لو كان أعطى بمجردها لأدعى قوم دماء قوم وأستبيح، ولا يمكن للمدعى عليه أن يصون ماله ودمه، وأما المدعي فيمكنه صيانتها بالبينة).

(٣١) وقد اعتبرت المادة (٢٨٦) من قانون المرافعات المدنية النافذ قبول القاضي منفعة مادية لمحاباة أحد الخصوم من الأسباب التي تؤدي مسؤولية القاضي عن تعويض الخصوم عن الضرر الذي لحق بهم من جراء هذه المحاباة.

(٣٢) للمزيد من التفصيل راجع مؤلفنا في شرح أحكام قانون أصول المحاكمات المدنية ـ المرجع السابق ص٤٠.

(٣٣) للمزيد من التفصيل راجع د. محسن باقر الموسوي ـ المرجع السابق ص١٤١.

(٣٤) سورة النساء ـ الآية الكريمة ١٣١.

(٣٥) للمزيد من التفصيل راجع مؤلفنا ـ تاريخ القانون ـ طبع دار الثقافة ـ الأردن ١٩٩٨ ص٢٧٨.

(٣٦) الحلي (المحقق) أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن ـ شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام ـ طبع إيران دون سنة نشر ـ ج٤ ص٨٨١ وأنظر كذلك الحلي العلامة ـ المرجع السابق ص٣٩٤.

(٣٧) جاء في سورة يوسف الآية (٥٣) قوله تعالى: (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارةٌ بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفورٌ رحيم). وجاء في الآية (٢٨) من سورة النساء قوله تعالى: (وخلق الإنسان ضعيفاً).

(٣٨) المادة (٣٣) من قانون العقوبات العراقي رقم ١١١ لسنة ١٩٦٩ المعدل. وللمزيد من التفصيل راجع مؤلفنا في شرح أحكام قانون أصول المحاكمات المدنية المرجع السابق ص١٦.

(٣٩) لقد حرص دستور جمهورية العراق لعام ٢٠٠٥ على تأكيد هذا المبدأ، فنصت المادة (٨٤) منه على ان (السلطة القضائية مستقلة، وتتولاها المحاكم على اختلاف أنواعها ودرجاتها وتصدر أحكامها وفقاً للقانون). ونصت المادة (٨٥) منه علماً ان: (القضاة منقلون، لا سلطان عليهم في قضائهم لغير القانون ولا يجوز لأية سلطة التدخل في القضاء أو في شؤون العدالة).

(٤٠) أحمد الرحماني الهمداني ـ الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) حبه عنوان الصحيفة ـ ط١ منشورات التاريخ العربي ـ بيروت ٢٠٠٥ ص٣٨.

(٤١) للمزيد من التفصيل راجع د. محسن باقر الموسوي ـ المرجع السابق ـ ١١٢

(٤٢) الشيخ الطوسي (شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن) ـ الأمالي ـ طبع مؤسسة الوفاء ـ ط٢ ـ ١٩٨١ ص٣٩.

(٤٣) راجع مؤلفنا في شرح أحكام قانون الإثبات ـ المرجع السابق ص١٠٣.

(٤٤) جورج جرداق ـ المرجع السابق ص ٣٥٩.

(٤٥) أشار إلى ذلك أستاذنا الدكتور آدم النداوي ـ المرافعات المدنية ـ طبع جامعة بغداد/كلية القانون ١٩٨٨ ص٢٧.

(٤٦) للمزيد من التفصيل راجع ـ د. شوكت عليان ـ الوجيز في الدعوى والإثبات في الشريعة الإسلامية ـ طبع بغداد ١٩٧٨ ص٣٩.

(٤٧) سورة البقرة الآية الكريمة ١٧٣.

(٤٨) للمزيد من التفصيل راجع د. محسن باقر الموسوي ـ المرجع السابق ـ ص٣٩.

(٤٩) ابن فرحون (برهان الدين المالكي) تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام طبع دار المعرفة ـ بيروت ـ دون سنة نشر ـ ص٤٧.

(٥٠) د. فتحي والي ـ الوسيط في قانون القضاء المدني ـ طبع القاهرة ١٩٨٧ ص١٦٠.

(٥١) راجع المادة السابعة من قانون المعهد القضائي رقم ٣٣ لسنة ١٩٧٦.

(٥٢) وأجازت الفقرة الثانية المضافة إلى المادة الرابعة من القانون رقم (١٦) لسنة ١٩٨٨ والمعدل لأحكام قانون التنظيم القضائي رقم (١٦٠) لسنة ١٩٧٩، تعيين المحامي قاضياً بمرسوم جمهوري إذا مضي مدة ممارسة في مهنة المحاماة، لا تقل عن عشر سنوات ولم تجاوز عمره الخامسة والأربعين استثناء من شرط التخرج في المعهد القضائي.

مراجع البحث:

١ ـ ابن فرحون (برهان الدين المالكي) تبصره للحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام طبع دار المعرفة ـ بيروت ـ دون سنة نشر.

٢ ـ ابن قيم الجوزية ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين ـ طبع بيروت ـ ط٢ ـ ج١ ـ ١٩٧٧.

٣ ـ أحمد الرحماني الهمداني ـ الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) من حبه عنوان الصحيفة ـ ط١ ـ منشورات التاريخ العربي ـ بيروت ٢٠٠٥.

٤ ـ د.آدم وهيب النداوي ـ المرافعات المدنية ـ طبع جامعة بغداد/كلية القانون ١٩٨٨.

٥ ـ الحائري السيد كاظم الحسيني ـ القضاء في الفقه الإسلامي ـ طبع مجمع الفكر الإسلامي ١٤٢٣ هـ.

٦ ـ الشيخ محمد تقي التستري ـ قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ـ طبع أهل الذكر ـ ط١ صفر ١٤٢٦ هـ.

٧ ـ الشيخ المفيد محمد بن النعمان ـ المقنعة في الأصول والفروع ـ سلسلة الينابيع الفقهية ـ طبع طهران ١٤٠٦هـ.

٨ ـ د. شوكت عليان ـ الوجيز في الدعوى والإثبات في الشريعة الإسلامية. طبع بغداد ١٩٧٨.

٩ ـ الشيخ الطوسي (شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن)، الأمالي ـ طبع مؤسسة الوفاء ط٢ ١٩٨١.

١٠ ـ الحلي (العلامة) القواعد الفقهية ـ سلسة الينابيع الفقهية ـ ط١ طهران ١٤٠٦ هـ.

١١ ـ الحلي (المحقق) أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن ـ شرائع الإسلام في مسائل الحلال والحرام ـ طبع طهران الجزء الرابع ـ دون سنة نشر.

١٢ ـ النووي ـ شرح صحيح مسلم ـ ج١٢ ـ المطبعة المصرية ـ ١٩٧٢.

١٣ ـ جورج جرداق ـ الإمام علي صوت العدالة الإنسانية ـ المجلد الأول ـ طبع بيروت ـ دار المهدي ـ ط١ منقحة ٢٠٠٤.

١٤ ـ د. عباس العبودي ـ تاريخ القانون ـ طبع دار الثقافة عمان ـ الأردن ـ ١٩٩٨.

١٥ ـ د. عباس العبودي ـ شرح أحكام قانون الإثبات المدني ـ طبع دار الثقافة ـ الإصدار الثاني ـ الأردن ٢٠٠٥.

١٦ ـ د. عباس العبودي ـ شرح أحكام قانون أصول المحاكمات المدنية ـ طبع دار الثقافة ـ الأردن ٢٠٠٦.

١٧ ـ د. عبد الحميد متولي ـ مبادئ نظام الحكم في الإسلام ـ طبع الإسكندرية ١٩٧٤.

١٨ ـ د. عبد الكريم زيدان ـ نظام القضاء في الشريعة الإسلامية ـ طبع بغداد ١٩٨٤.

١٩ ـ د. فتحي والي ـ الوسيط في قانون القضاء المدني ـ طبع القاهرة ١٩٨٧.

٢٠ ـ محمد باقر الصدر ـ التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ـ طبع مجمع الثقلين العلمي ـ طبع بغداد ـ دون سنة النشر.

٢١ ـ د. محمد باقر الموسوي ـ القضاء في النظام القضائي عند الإمام علي (عليه السلام) طبع الغدير ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٩٩.

٢٢ ـ د. هشام آل قطيط ـ الكل يسأل وعلي يجيب ـ طبع دار آوند اش للكتاب ـ إيران ـ ٢٠٠٥. ❖

أساليب الخطاب عند أمير المؤمنين (ع) في الرد على خصومه

د. عقيل جاسم دهش
مركز دراسات الكوفة ـ جامعة الكوفة

كان الإمام (ع) في ردّه على خصومه يشتغل على حقلين، الأول ما يتركه ذلك من أثر نفسي عظيم في نفسية العدو إذ تبدو كلماته وأسلوبه التهكمي أشد وقعاً على معاوية من زبر الحديد، الثاني بث الاطمئنان وزيادة العزيمة في نفوس أصحابه لأن الحرب الكلامية لا تقلُّ شأناً عن الحرب في الميدان وأن النصر فيها يعبِّدُ الطريق إلى تحقيق النصر الفعلي في ميادين القتال. ولذلك حرص الإمام (عليه السلام) على التعبير بأسلوب قوي مؤثر له وقع شديد في النفس ما من شأنه أن يفحم العدو ويلجمه ويعجزه ويعييه من جهة ويرفع الروح المعنوية لدى أصحابه ويقوي عزائمهم في الثبات للعدو واقتحام لهوات الحرب لتحقيق النصر المرتقب من جهة أخرى.

لقد عمد الإمام (ع) إلى استعمال أساليب البلاغة في الرد على خصومه لما لذلك من وقع كبير في النفس، وإيصال المعنى بطريقة فنية لتحقيق الاستجابة المقصودة، ومن أبرز تلك الأساليب (الأمر، النهي، الاستفهام، القسم، التشبيه، الاستعارة، التضاد، التنكير، البنية الاسمية، البنية الفعلية). وقد اعتمدنا على المنهج التحليلي لبيان أثر تلك الأساليب الفنية في التعبير عن المعنى المقصود وخلق التأثير الانفعالي في نفس المتلقي.

أولاً ـ أسلوب الأمر:

ورد الأمر باستعمال صيغة فعل الأمر في قول علي (عليه السلام) لمعاوية في ردّه على إحدى رسائله: "فاتق الله في نفسك ونازع الشيطان قيادك واصرف إلى الآخرة وجهك"[1].

إذ أفاد الفعل (اتق) معنى الإشفاق، فالإمام (ع) ـ وهكذا دأبه ـ مشفق على أعدائه إشفاقاً شديداً يخشى أن يدخلوا النار بسببه حريص كل الحرص على هدايتهم وإعانتهم على أنفسهم وتحريرهم من اتباع الهوى ومكائد الشيطان ورفع حجب الغواية والضلال عنهم، وكأنه يقول لخصمه معاوية: أشفق على نفسك فلا تلقينَّ بها في درك الجحيم في سعيك وراء الأماني المضللة واتباعك العقائد الفاسدة المنحرفة، في حين خرج الفعل (نازع) إلى معنى النهي، أي لا تمكّن الشيطان من نفسك فيسوقك كما تساق النعاج قهراً وسلباً وإذلالاً، قهراً لإرادتك وسلباً لإنسانيتك وإذلالاً لكبريائك، ولا يخفى ما في (نازع) من دلالات نفسية إيحائية ومقاصد تربوية تكشف عن حدَّة الصراع وشدَّة مجاهدة النفس وكبح جماحها من جهة

وتدفع من جهة أخرى إلى التفاؤل والعمل الجاد واستشعار ملامح النصر بقوَّة الإرادة الصلبة لكسر إرادة الشيطان وتحقيق التغيُّر السلوكي المرتقب، أما الفعل (اصرف) فقد جيء به للدلالة على الندب، وقد أفاد تقديم متعلق الفعل الجار والمجرور (إلى الآخرة) على معموله المفعول به (وجهك) معنى الاختصاص، أي ليكن قصدك وغايتك طلب الآخرة دون سواها واحتقار الدنيا مهما عظمت فيها المغريات ولتعرضنَّ عنها إن هي أقبلت عليك فإنها دار الشقاء وأقبل بوجهك نحو الآخرة فإنها دار البقاء. ولمّا كان الأمر ممّا لا شك فيه يتطلّب ترويضاً للنفس وقهرها على مجانبة الهوى وتغييراً في المواقف وتصحيحاً للمعتقدات استدعى استعمال البنية الفعلية في الجمل الثلاث للدلالة على ذلك التحوّل المنشود.

وقوله "فدع الناس جانباً واخرج إليّ واعف الفريقين عن القتال"[٢] إذ استعمل الفعلان (دع. اعف) للدلالة على التمني في استعمل الفعل (اخرج) للدلالة على التعجيز.

إذ يحرص الإمام في ردِّه على تعريض الخصم لقدر كبير من الضغط النفسي لعلمه اليقيني بأنه مهزوز من الداخل لادعائه أمراً ليس له وركوبه مركباً صعباً يوشك أن يطيح به وبملكه إلى الهاوية ويعطف به إلى حيث مصرعه وبطلان إحدوثته، محذراً إياه في هذا النص أن يسوّل له غروره أو تبلغ به أحلامه المريضة وأمانيه المضللة فيتمادى في غيِّه ويغترَّ بما عنده من ملك أو جاه أو أتباع، فأين أنت من هذا الأمر ولم يكن لك قدم سابق ولا شرف باسق فضلاً عن نفاقك وانغماسك في الغواية والضلال؟، وهو قوله "فاقعس عن هذا الأمر" و"متى كنتم ساسة الرعية وولاة الأمر؟"، فضلاً عن تعريته من الهالة التي يحيط بها نفسه، أمام جيشه المغرر به المغلوب على أمره، فلطالما كان معاوية يدعي بأنه رجل سياسة وحرب ودهاء وحزم وأنه لم يكن يوماً متردداً في أمر ولا متوانياً عن سؤدد وفضل وأنه لم يزل يسوس الأمر برويّة وحلم ويعالج المواقف بتعقُّل وحنكة وأنه "من يزن الجبال حلمه ويفصل بين أهل الشك علمه"[٣]!!. لقد كان الإمام حريصاً كل الحرص على حقن دماء المسلمين وحسم الصراع بالطرق السلمية أو بأقل الخسائر، مع صلابة موقفه ويقينه من تحقيق النصر، لكونه ذا نفس كبيرة لا تعرف للحقد وجهاً ولا طريقاً وهو صاحب مبادئ سامية وأهداف رسالية لا يفكر بنصر مادي أو ملك زائل وإنما يتطلع إلى ما ادخره الله تعالى عنده للأولياء والصالحين، فكان في كل خطوة يخطوها يطلب فيها وجه الله ويراعي فيها أحكام الشريعة المقدسة، ولذلك نجده مُلحّاً في الطلب إلى معاوية أن يخرج إليه لتضع الحرب أوزارها أيّاً كانت نتيجة المواجهة بينهما، وهو دائم الوعظ والتذكير له بأن ملكه لن يدوم وأنه يوشك أن يقف بين يدي الله للحساب، ولتأكيد هذا المعنى يعمد إلى استعارة خلع الثياب لزوال الملك والنعمة في قوله "وكيف أنت صانع إذا تكشفت عنك جلابيب ما أنت فيه؟" لكونهما أي الثياب والملك شيئا عارضاً يبلى جديده ولا يدوم حسنه، وإن الثياب تستر بدن الإنسان وتجمّله فإذا ما خلعها انكشفت عورته وبانت سوأته فكذلك زخرف الدنيا ونعيمها الزائل وملكها الفاني يوشك أن

يزول عنك ويفسد عليك الدهر أمرك فيخلع عنك ما ألبسك إياه من ملك أو جاه أو سلطان ويعرّيك مما أنت فيه كما يُعرّى الجسد حين تنزع عنه ثيابه.

وفي أعراف الحرب أنَّ المقاتل إذا دعي للمنازلة الفردية لبّى حتى لو كلّفه ذلك حياته وإلاّ لحقه عار وسُبَّة لا يبارحانه مدى الدهر فكيف بمن يكون قائداً أو أميراً وهو يتوارى بين جنده ولا يجرؤ على مواجهة خصمه؟!. ولم يكن يخفى على الإمام أنَّ هذا مطلباً بعيد المنال لأن خصمه بكل الحسابات والقراءات سوف لن يجيبه إلى ما يسعى إليه من حسم الصراع بالمواجهة الفردية لكونه أولاً ليس معدوداً في صفوف الفرسان أو ممّن لهم شأن في الحروب ثم إنه ثانياً يطلب الدنيا بكل ما أوتي من مكر ودهاء ومراوغة ويتطلّع دوما إلى تثبيت إمارته وتعزيز ملكه، ومن هذه سماته أو توجهاته لا يفكّر في مغامرة أو حميَّة أو مروءة ولا تأبى عليه نفسه إذا ما تطلّب الأمر فراراً في ميدان أو إحجاماً عن مواجهة أو نكوصاً عن موقف أو مبدأ مقدَّس، ولكن الإمام كان يسعى دوماً إلى أن يبيّن لأتباعه ومؤيديه توانيه وعجزه عن المواجهة وأنه لا يتوانى عن التغرير بجنده والزج بهم في الميدان لأحقاد شخصية مريضة ومكاسب دنيوية دنيئة تتمثل في الدفاع عن إمارته وملكه.

ثانياً ـ أسلوب النهي:

ورد النهي في قول علي (عليه السلام) في ردّه على معاوية: "فلا تجعلنَّ للشيطان فيك نصيبا"[٤].

إنَّ فساد عقيدتك ـ يا معاوية ـ وضعف إرادتك وخروجك عن جادة الحق هيَّأ لك أن تتيه في طرق متشعبة مضللة وأن تتنازع فيك أهواء كثيرة بحسب الظروف والأحوال فتمكّن الشيطان منك وغدا يسيطر على أنظمة اتخاذ القرارات لديك وإذا به يقترع عليك بسهم ويضرب فيك بنصيب وقد ناخ جملك ليمتطيه ويسوقه إلى حيث يشاء!، وقد جاء استعمال حرف الجر بحسب ما يتطلبه المعنى المقصود وما يقتضيه سياق الكلام إذ دلّت (في) على الظرفية المجازية في حين أفادت (على) الدلالة على الاستعلاء المعنوي. ولا شك في أن استعمال الصيغة المضارعة ودخول نون التوكيد على الفعل يدلان على أنه باق على غيّه مستمر في عناده، ولذلك جاء النهي لتوبيخه على صدور الفعل منه ودوامه عليه، وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد: المعنى لا تستلزم من أفعالك ما يدوم به كون الشيطان ضارباً فيك بسهم وأراد نهيه عن دوام ذلك واستمراره[٥]. بمعنى أنه لا ينبغي أن يستحوذ عليك الشيطان ويعمي بصيرتك فيستوي عندك المحق والمبطل والمهاجر والطليق والمؤمن والمنافق والعزيز والذليل والصريح واللصيق، فارجع عن غيّك وضلالك ولا تبتغي ما ليس لك وابق على نفسك وكن حيث أراد الله لك وخالف هواك ولا تمكّن الشيطان من قيادك وادخل فيما دخلت فيه جماعة المسلمين لعلك تبصر طريق الحق وتتبع سبيل المؤمنين. وقد جاء التوكيد بالنون في سياق النهي زيادة في

الإنكار عليه وتمكينا له من نفسه لحقن دماء المسلمين وتوحيد كلمتهم، وقد قدَّم المفعول الثاني (فيك) على المفعول الأول (نصيبا) للاختصاص لأنه بصدد توبيخه ودفعه اتجاه مراجعة الذات وتصحيح المسار وتهذيب السلوك، وقد خصَّ النفس في قوله (ولا على نفسك) لكونها هي المسؤولة عن إدارة غرائز الإنسان وطباعه وتوجيه نزعاته الانفعالية، ولعله أراد (نفسك الأمارة بالسوء) وهي أقرب الطرق التي تؤدي إلى إغوائه وضلاله، والسبيل هو أن يستجيب الإنسان لوسوسة الشيطان ويسلم له قياده فيسوقه إلى حيث هلاكه وسوء عاقبته.

وفي قوله "ولا تُمكّن الغواة من سمعك"[٦].

إذ خرج النهي عن معناه الحقيقي للدلالة على الوعظ والإرشاد وإسداء النصيحة للعدو وإن كان قد لجَّ بعدائه له وتعبَّد ببغضه وشنآنه إياه وتفاخره بمقته والحقد عليه لعله يعود إلى رشده ويقلع عن غيِّه وأن يباشر بتصحيح عقائده الفاسدة والتخلي عن أمانيه الضالة وأحلامه الشيطانية المجنونة. ويحتمل أن يكون أراد به التوبيخ، أي لقد قربت إليك الغواة ومكنتهم من سمعك فجرُّوا عليك الويلات وحمَّلوك ما لا تطيق حمله ولم يكن يجدر بك فعل ذلك من الاستماع لهم والعمل بمشورتهم، وبوسعك الآن تدارك ما فرطت به وأن تلملم ما شتَّته وترقِّع ما فتقته وأن تتنبَّه لأراجيف من حولك من حاشيتك ومقربيك وأصحاب المشور لديك ومكائدهم وأطماعهم وإقبالهم على الدنيا ونهمهم بالمناصب وشغفهم بالمال والسلطان، وإن لم ترعو عن هذا الأمر وما جرَّه عليك من المفاسد فقد حقَّ عليك الوعيد بما لججت في عنادك وحكَّمت هوى نفسك وأنخت ظهرك لشيطانك وأسلمت له قيادك "وبلغ فيك أمله وجرى منك مجرى الروح والدم". ولا شك أن هؤلاء النفر المقربين منك يزينون لك أفعالك ويسوِّغون لك جورك واستعبادك للرعية ويقربون منك البعيد ويبعدون عنك القريب بأكاذيبهم ودسائسهم وافتراءاتهم وما تمليه عليهم أهواؤهم وما تقتضيه مصالحهم وأطماعهم، وهم يباركون لك خروجك على وحدة الصف والجماعة وتمردك على خليفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتنصلك عن البيعة له وقد تآمرت على الرعية وتصرفت بالأموال وكأنها إرث أو غنيمة لك ولحاشيتك ورهطك وأرسيت في رقعة من بلاد المسلمين دعائم ملك عضوض. إن هؤلاء لكي تستقيم لهم الأمور وتقبل عليهم الدنيا بكل ملذاتها وزخرفها فإنهم لا يفتأون يلهجون بذكر محاسنك والتغني بمناقبك وإن لم تكن لك محاسن ومناقب! ويخفون عنك عيوبك وأخطائك ويصورون لك الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق لينالوا عندك الحظوة والقربى ويكسبوا ثقتك بهم ورضاك عنهم ويظفروا بالامتيازات الخاصة والمناصب المرموقة، وهم في العادة يخلعون عليك وعلى أنفسهم رداء الدين والصلاح ويدَّعون لك ولهم العلم والفضيلة ويجترئون على الله بالمعاصي والآثام ويفترون على عباده الكذب وهم يعلمون، فهؤلاء هم عبيد الدنيا وأعداء الدين وقد ابتاعوا دنياهم بآخرتهم وقد نصبوا العداء لنا أهل البيت وشهروا في وجوهنا سيوف البغي وتنكروا لكل القيم الأصيلة والمبادئ الإنسانية السامية.

ثالثاً - أسلوب الاستفهام:

ورد الاستفهام باستعمال الاسم (كيف) في قول علي (عليه السلام) في ردّه على معاوية: "وكيف أنت صانع إذا تكشفت عنك جلابيب ما أنت فيه"[٧] إذ خرج الاستفهام عن معناه الحقيقي لإفادة معنى مجازي هو التوبيخ لنكتة بلاغية، فليس غرض المتكلم السؤال عن الكيفية التي يتصرف بها المخاطب إذا سلبته الدنيا ما أعطته إياه وأدبرت عنه بعدما أقبلت عليه وعرته مما يتمتع به من سلطان زائف وملك زائل، وإنما الغرض أن يتنبه ويتدبر ويعيد النظر في عناده ومكابرته ويعزف عن غيه ويعود إلى رشده. أي ما كان عليك أن تنخدع بزخرف الدنيا الكاذب وأن تنقاد لهوى نفسك وتكون أسيراً لغرورك واختيالك متمادياً في ضلالك وغوايتك.

كما ورد الاستفهام باستعمال الاسم (أي) في قوله "فدع الناس جانباً واخرج إلي وأعف الفريقين من القتال لتعلم أينا المرين على قلبه"[٨].

الرين في اللغة هو الصدأ الذي يعلو السيف والمرآة، وران الثوب رِيناً إذا تطبَّع وران الذنب على قلبه أي غلب عليه وغطاه وكلُّ ما غطى شيئاً فقد ران عليه، وذكر ابن الأثير أن الطبع هو الرين وذهب مجاهد إلى أن الرين أيسر من الطبع والطبع أيسر من الإقفال[٩]، وهو قريب من قوله تعالى ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١٠]، قال الزمخشري: أي ركبها كما يركب الصدأ وغلب عليها فلا تقبل الخير ولا تميل إليه[١١]، والذي يظهر من السياق أن الإمام يشير إلى شيء أشد من الختم أو التغطية وكأنه يشير إلى تلف القلب وتفسخه وانحلاله. ولم يكن الاستفهام مقصوداً به السؤال عن أي منهما المخبر عنه بأنه (مرين على قلبه) ليجاب عنه بـ (أنت أو أنا) وإنما سياق الكلام يقتضي أن المخبر عنه هو المخاطب لا غير وأنه هو الموصوف بهذا الوصف، أي أن الاستفهام خرج إلى معنى مجازي، وأكبر الظن أنه أراد به التهديد والوعيد بدلالة تكرار صيغة الأمر ثلاث مرات في قوله (دع - اخرج - اعف)، وقد جاء الوعيد في قبال دعوة معاوية إياه إلى الحرب في كتاب سطّره إليه متعجباً من شدة الرين على قلب الإمام وغفلته عن قبول الحق ساخراً من توانيه عن الحرب وجزعه عند المواجهة!!، وهو قوله "فما أعظم الرين على قلبك والغطاء على بصرك... فشمر للحرب واصبر للضرب"[١٢]، أقول جاء الوعيد في معرض جواب الإمام (عليه السلام) على كتاب معاوية هذا وكشف زيف تحديه وعزمه على المواجهة وبيان مدى جبنه ونكوصه عن لقاء خصمه ومواجهة الإمام (عليه السلام) في الحرب، فهي دعوى كاذبة يقصد منها رفع معنويات الجيش وإيهامهم بأنه يستحق أن يكون نداً للإمام وأن يقف قباله في ساحات القتال، وقد بلغت جرأته وتماديه في الضلال أن يصف الإمام بالمطبوع على قلبه[١٣]، والطبع في اللغة التغطية على الشيء والاستيثاق من أن يدخله شيء[١٤]، وأراد المعاند الذي أعمى الله بصيرته فلا يأتي بخير، فاستحق هذا الكلام رداً عنيفاً من الإمام ليكشف كذبه وضلاله ويجدد دعواته المتكررة إياه بالخروج إليه ولقائه في الحرب وجهاً لوجه فأخرج

الكلام مخرج الوعيد والتهديد وقد رد عليه ادعاءه باستعمال أسلوب الاستفهام للتعبير عن الثقة العالية بالنفس من جهة ولبث الرعب والهلع في نفس المخاطب من جهة أخرى، بعد أن اتضح كذبه وافتضح أمره ورد كيده إلى نحره، مستخفاً به معرِّضاً إياه لمثير نفسي حاد، وهو ملاقاة علي في الميدان، كاشفاً عن ضعفه وقلة حيلته وفقدانه أهلية القيادة ومؤهلات الإمارة ويقينه ببطلان دعواه وعدم جدِّيَّته في الإصرار على مباشرة الحرب والصبر على القتال.

رابعاً ـ أسلوب القسم:

❖ **القسم بلفظ الجلالة:**

ورد القسم بلفظ الجلالة في قول علي (عليه السلام) في ردِّه على معاوية: "فإنك والله الأغلف القلب المقارب العقل"[١٥].

إنّ القسم وإن كان أسلوباً مألوفاً في كلام العرب وإنه قد يأتي في كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) جرياً على أساليب العرب في كلامها ولكن كانت له في هذا الموضع وظيفة مزدوجة، نفسية تتمثل في تخويف المخاطب وبث الرعب في نفسه بتأكيد ضلاله وعمى بصيرته وسوء عاقبته، ونحوية تتمثل في تأكيد صدق ادعائه وهو كون المخاطب من المطبوعين على قلوبهم، قال ابن أبي الحديد: الأغلف القلب الذي لا بصيرة له كأن قلبه في غلاف والمقارب العقل الذي ليس عقله بجيد[١٦]، وفيه إشارة إلى قوله تعالى ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[١٧]، قال أبو حيان: وقولهم (قلوبنا غلف) أي في حجب فهي لا تفهم وقد أخبر الله تعالى أنه قد طبع عليها بسبب كفرهم[١٨]. وخُصَّ القسم بلفظ الجلالة لكونه أقوى أساليب القسم، وهو ما يحتاج إليه الكلام لأنه في معرض إبطال التهمة وردها على صاحبها، إذ كان معاوية قد وصف الإمام بأنه مطبوع على قلبه في كتاب وجَّهه إليه فجاء الرد على طريقة (رمتني بدائها وانسلت) ليبيِّن الإمام (عليه السلام) حقيقة جهل هذا الرجل وعناده واستكباره ووقاحته إذ بلغ من هذه الصفات مبلغاً عظيماً جعله يسمُ علياً بهذا الوصف وهو يعلم قدره ومكانته في الإسلام، لذلك نجد أن الإمام يعمد إلى تأكيد نفاق معاوية وتدليسه على الناس وأنه رجل كلام لا رجل أفعال في الميدان متعجباً غاية التعجب من تطاوله عليه وهو قوله "فما أبعد قولك عن فعلك!"، فضلاً عن تذكير المخاطب بالله وأنه هو الحكم العدل الذي سيقضي بينهما في ذلك اليوم الذي يحشر فيه الناس للحساب وأنه إن استطاع بضلاله ومكره أن يروِّج للباطل أو يحوز أمراً دنيوياً فإنه سوف يساق بين يدي الله عزّ وجلّ الذي لا يخفى عليه شيء وسيحاسبه على ما جنت يداه من سوء مكره وضلاله، وفيه نكتة أخرى وهي أن الله تعالى هو الذي طبع على قلب معاوية لما رأى من ضلاله وعناده ولذلك جاء القسم بلفظ الجلالة مصداقاً لقوله تعالى ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[١٩]. وقد جاء الخبر اسم تفضيل لذم المخاطب والدلالة على زيادة نقص فيه ثم عرّفه بـ (أل) لبيان كمال الوصف

في المخاطب وتأكيد اتصافه به أي أن هذا الوصف وإن أمكن إطلاقه على غير المخاطب إلاّ إن المخاطب أجدر من غيره بأن يوصف به لكونه قد فاق من سواه في ثبوت الوصف له ودلالته عليه وبلوغه أعلى درجات كمال الاتصاف به أي لقد بلغ الطبع على قلبه حدَّ الكمال وصار حرياً بأن يوصف بهذا الوصف دون سواه.

❖ **القسم بألفاظ يغلب استعمالها في القسم:**

ورد القسم باللفظ (عَمْرُ) في قول علي (عليه السلام) في ردِّه على معاوية: "ولعمري ليتمنَّ النور على كرهك"[٢٠].

ويأتي استعمال الإمام لهذا اللفظ في القسم جرياً على أساليب العرب في كلامهم فهو من الألفاظ التي يغلب استعمالها في القسم، وجاء هذا اللفظ في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[٢١]، والإمام هنا يقسم بحياته صادقاً بأن الله سيتمُّ نور الإمامة كما أتمَّ نور النبوة، فقد تكفَّل الله بنصرة المؤمنين كما نصر محمداً وأصحابه على قومهم حين تمادوا في شركهم وضلالهم وأتم نور الإسلام رغم أنوفهم وأعلى كلمة التوحيد وهم كارهون، وهذا وعد وعده الله عباده المؤمنين في قوله تعالى ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[٢٢]، وإنك يا معاوية مهما طال بك المقام ودالت لك الأمور وصفاً لك الملك ستفتضح بجريرتك وتجازى بعملك في إشارة إلى قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[٢٣] وقوله ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[٢٤]، ويأتي هذا بقصد الاستفزاز وممارسة الضغط النفسي على الخصم من خلال الظهور بمظهر القوة والثقة العالية بالنفس.

❖ **القسم بالفعل:**

ورد القسم بالفعل المضارع (أقسم) في قول علي (عليه السلام) في ردِّه على معاوية: "وأقسم بالله أنه لولا بعض الاستبقاء وصلت مني إليك قوارع"[٢٥].

إذ يلجأ الإمام (عليه السلام) إلى التغليظ والتشديد على الخصم لتماديه في غيِّه وعناده، وسنجد أن الإمام يصرح بهذا التمادي ويؤكده في قوله (واعلم أن الشيطان قد ثبطك على أن تراجع أحسن أمورك وتأذن لمقال نصيحك، أي أن شيطانك يا معاوية قد استولى عليك وحكَّم رأيه فيك فقعد بك عن تدارك ما ضيَّعته وترقّع ما فتقته وصمَّ أذنيك عن سماع الموعظة والأخذ بالنصيحة، أقول يلجأ الإمام إلى التغليظ فيستعمل الفعل (أقسم) لصرف الذهن إلى التذكر بما سيأتي وتنبيه الخصم بأنه لم يزل جانحاً إلى السلم مستبقياً على اللحمة مراعياً للرحم والقربى مغلّباً الرويَّة على السيف والحلم على الحزم والشدة خوفاً من تشتت وحدة الكلمة وتفرُّق اجتماع الأمة مؤملاً أن تعود يا معاوية إلى رشدك وتكفَّ عن غيِّك وتبقي على جماعتك، ولذلك جاء جواب (لولا) بلهجة شديدة متوعداً إياه بصولاته وحملاته المشهورة

ليستولي على جوانح نفسه ويُطيِّر لبَّه عن مستقرِّه باستعمال المجاز العقلي بإسناد الفعل (وصلت) إلى ما لا يعقل (قوارع) وهذا أبلغ في الدلالة على المعنى وتأكيده وأشد تأثيراً في النفس ثم تقديم متعلق الفعل (مني) للعناية والاهتمام ثم استعمال الصيغة المضارعة في (تقرع) و(تنهس) لامتداد أثرها إلى زمن بعيد، ثم إنها قوارع أو صولات يتلو بعضها بعضاً، وكل ذلك يأتي بدافع تحطيم معنويات الخصم وزعزعة ثقته بنفسه وهي إجراءات احترازية يلجأ إليها القائد المحنَّك قبل بدء الحملات العسكرية لتفعل فعلها في إضعاف الخصم في الميدان وإجباره على الفرار أو التراجع لحسم نتيجة النزاع بأقل الخسائر الممكنة. وذهب ابن أبي الحديد إلى أنه أراد بالقوارع شهادة نفر من الصحابة بلعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حياته لمعاوية ونعته بالكفر والنفاق ولو واجه بها أهل الشام لانتهس لحمه ولكنه آثر الإبقاء عليه والعدول عن ذلك لأمر يعلمه ومصلحة يقدرها[٢٦].

خامساً ـ أسلوب التشبيه:

التشبيه هو أسلوب من أساليب تصوير المعنى بطريقة فنية، يعتمد على قوة الطبع ودقة الملاحظة وسعة المخيِّلة والإدراك العقلي المتميز[٢٧]. ويؤدي التشبيه وظيفة بلاغية تتمثل في إبراز المعنى وتأكيده والمبالغة فيه[٢٨]، وله وظيفة نفسية تتمثل في التأثير في المتلقي من خلال تحريك انفعالاته وإثارة عنصر التعجيب لديه، يقول عبد القاهر: إذا جاء التشبيه في أعقاب المعاني ضاعف من قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفاً وقصر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً[٢٩].

ورد التشبيه في قول علي (عليه السلام) في ردِّه على معاوية: "فإنَّ حالك اليوم كحال الثوب المهيل"[٣٠].

وهو تشبيه معنى مجرد بمحسوس إذ شبَّه حال معاوية بحال الثوب البالي الرقيق، ومن سمات الثوب البالي أنه لا يرغب فيه أحد وليس فيه نفع وليس له أدنى قيمة ولا رونق ولا جدَّة ولا نضارة وقد ملَّه صاحبه ونفر منه واستثقله على جسده فكذلك معاوية لم يكن يوماً أهلاً للخلافة والحكم إذ ليس له دين ولا ورع ولا دراية ولا علم كما لم تكن له سابقة في الإسلام ولا فضيلة في نصرته والذود عنه فضلاً عن كونه من أبناء الطلقاء ممن دخلوا الإسلام بحد السيف وهم له مبغضون واعتنقوه اضطراراً وهم كارهون مرغمون، وقد ملَّه الناس وبرموا من ظلمه وبطشه وإيغاله في الدماء واستباحته للحرمات وولعه بالترف وحياة القصور وشرهه إلى الطعام والملذات ونهمته في الملك والإمارة. وهو موسوم بالنفاق مشهور ببغضه للإسلام وحقده على المهاجرين والأنصار وعدائه وحسده لأهل بيت النبوة فضلاً عن كذبه وافترائه وتجبره وعناده ولزومه للباطل ونصرة أهله ومجافاته للحق ومحاربة أتباعه فضلاً عن ظهور علامات الضعف والانكسار في جيشه، فهو جيش يقاتل طمعاً في الغنائم وحباً للمناصب

وليس عن عقيدة راسخة أو مبدأ مقدّس وهو يرون في أميرهم كبراً وعتواً وضلالة ومكراً وجبناً وبرماً ويتحسّسوه طالباً للدنيا متفانياً في ملذاتها مضيّعاً للآخرة زاهداً فيها وفي قبال ذلك يلمسون في خصمه علي سماحة وتقوى وإيماناً وورعاً وشجاعة وبأساً ويتحسّسونه معرضاً عن الدنيا زاهداً فيها تواقاً إلى الآخرة مجتهداً في طلبها، فمثله في هذا كله مثل من يغطي عورته بكفّه فما أن يستر منها موضعاً إلاّ تعرّى موضع آخر وكذلك معاوية ما أن يجتهد في إخفاء منقصة أو عيب مما ذكرنا حتى ظهرت عيوب أخرى وتكشّفت مثالب لا تحصى، ومن هذه حاله فهو أشبه براقع الثوب الخلق لذي عجز راقعه عن إصلاحه فما أن يخيط منه فتقاً أو يصلح خرقاً إلاّ انفتق من موضع آخر وبانت فيه خروق من جهات عدّة.

سادساً ـ أسلوب الاستعارة:

تعد الاستعارة أداة الشاعر في عملية الخلق الشعري. وهي أقدر وسائل التعبير الفني على إحداث التأثير المطلوب في المتلقي ومنح التعبير الشعري هويته الفنية والجمالية، إذ تجنح إلى تشكيل علائق غير متجانسة وإحداث خروقات غير مسبوقة لتنسحب من فلك المألوف والمتجانس إلى نقيض ذلك[٣١]، يقول الدكتور مجيد عبد الحميد: إن الاستعارة عملية خلق جديد في اللغة ولغة داخل اللغة فيما تقيمه من علاقات جديدة بين الكلمات وبها تحدث إذابة لعناصر الواقع وإعادة تركيبها من جديد[٣٢]، وبذلك تمنع الاستعارة اللغة الشعرية من الابتذال بما تقوم عليه من مبدأ تجاوز اللغة الدلالية إلى اللغة الإيحائية[٣٣].

ومن الاستعارات التي وردت في ردّ الإمام (ع) على خصومه استعارة البعير الهائج للأمر الشاق في قوله: "حملتهم على الصعب"، وهي استعارة تمثيلية إذ صوّر لنا الأمر الشاق العسير بعيراً هائجاً صعب المراس يركبه الإنسان فيلقي به إلى حيث مصرعه وأراد كلّفتهم ما لا يطيقونه وأوردتهم مورداً لا قبل لهم به وهو الخروج على طاعة الخليفة الشرعي للأمة والاحتكام إلى العصبية والهوى والعدول عن القصد وإجماع الأمة.

ومنها استعارة السرابيل للاستعداد إلى الشهادة في سبيل المبدأ الحق في قوله "متسربلين سرابيل الموت"[٣٤]، وهي استعارة تصريحية إذ شبّه إيثار أصحابه للشهادة بالقميص في الاستحواذ والاشتمال فكما أن القميص يغطي عموم الجسد ويشتمل عليه ويلتصق به فكذلك التوطّن على الشهادة التي شغلت جُلَّ تفكيرهم واستولت على قلوبهم فلم يعد فيها مكان لحب الدنيا أو التفكير في البقاء، ثم حذف المشبه وأبقى المشبه به على سبيل الاستعارة.

ومنها استعارة العض للشدة في قوله "تضج من الحرب إذا عضتك"[٣٥]، والعض في اللغة الشدُّ بالأسنان على الشيء وهو مثل عند العرب للزوم واللصوق، يقال: عضَّ الرجل بصاحبه إذا لزمه ولزق به، وقوس عضوض إذا لزق وترها بكبدها، وملك عضوض أي شديد فيه ظلم وتعسُّف، وعضَّه الدهر والحرب مستعار من عضِّ الناب والأفعى. وهي استعارة تصريحية إذ

شبَّه التفاف الحرب على المقاتل وشدة وقعها وتضييقها عليه بعضَّة الأفعى وإطباق فكّيها على فريستها، والشبه بين العضَّة والحرب شدَّة وقعهما وقوَّة أثرهما فكما أن الفريسة تصرخ من ألم العض وتنوء بنفسها فكذلك وقع الحرب على المقاتل إذا ما أطبقت عليه بفكيها واصطلته بأوارها وضيَّقت عليه طريق النجاة وإذا ما أحاطت به الخيل والرجال وخذله أصحابه وأسلموه عند اصطكاك السيوف واشتباك الرماح وليس معه ناصر ولا معين فإنه لا شك ينوء بحمله ويستسلم إلى قدره وينقاد إلى حتفه، ولا يخفى عليك أن الحرب والأفعى يشتركان في كونهما موسومين بالغدر والتلون وإحكام القبضة (تضييق فرص النجاة/الإطباق على الفريسة)، أي كيف بك إذا أكلت الحرب أصحابك وأفنت جموعك وأفردتك في الميدان إفراد البعير الأجرب فعندئذ تنوء بنفسك وتضجُّ "ضجيج الجمال بالأثقال"!!.

ومنها استعارة موج البحر لمن يتعرض للهلاك أو الخطر الشديد (أو لهول الفتنة وقوة الشبهة) في قوله "وألقيتهم في موج بحرك تغشاهم الظلمات وتتلاطم بهم الشبهات"[٣٦]، وهي استعارة تصريحية إذ شبَّه الفتنة بموج البحر، في كونهما وسيلة من وسائل الهلاك فكما أن الإنسان يصارع عبثاً موج البحر المتلاطم الذي يضرب بعضه بعضاً لقوة عصفه وشدة هيجانه حتى يركبه الموج ويودي به فكذلك الشك في أمر العقيدة مهلكة للدين وطريق إلى الضلال، ثم حذف المشبه وأثبت المشبه به على سبيل الاستعارة. وأراد أنه عرَّضهم لفتنة تزلُّ بهم عن دينهم إذ غشيتهم الحيرة وعصفت بهم الشبهة فحادوا عن جادة الحق وعدلوا عن بيعة إمام الأمة وحكّموا العصبية والهوى في أمرهم ولم يرجعوا إلى الشريعة وحكم الإسلام وهو قوله "فجاروا عن وجهتهم وعوَّلوا على أحسابهم"، قال ابن أبي الحديد: والإشارة إلى بني أمية وأمراثهم الذين اتهموا علياً بدم عثمان فحاموا عن الحسب ولم يأخذوا بموجب الشرع.

ويؤكد هذا المعنى في موضع آخر بأن فتنة المصاحف ورفعها على أسنة الرماح لم تكن بدافع الإذعان إلى الحق والعدول عن البغي وإنما كانت بدافع الشعور بالهزيمة والانكسار لاشتداد جزع الرجال من تتابع الضرب والمجالدة وكثرة القتلى ووقوع القضاء المبرم بفناء القوم واستئصالهم على يد علي وأصحابه وهو قوله "وكأني بجماعتك تدعوني جزعاً من الضرب المتتابع والقضاء الواقع ومصارع بعد مصارع إلى كتاب الله"[٣٧].

سابعاً ـ أسلوب التضاد:

يعد التضاد من أكثر الأساليب فاعلية في خلق البنى النصية الإبداعية، التي تستدعي حضوراً فكرياً ونفسياً للمتلقي في النص الإبداعي، لما يحدثه من خرق أو انحراف في بنية النص قادر على إحداث خرق من نوع آخر، هو خرق في أسلوب التفكير عند المتلقي والتحرر من سلطان المألوف والطبيعي، وهو ما يدفع به إلى مزيد من التفاعل مع النص ويستدعي منه حضوراً ذهنياً متميزاً للكشف عن أغوار النص ودلالاته بمزيد من التأمل والتفكير.

ورد التضاد في قول علي (عليه السلام) في ردّه على معاوية: "ولا المحق كالمبطل ولا المؤمن كالمدغل"[٣٨].

يظهر من سياق النص أن الإمام (عليه السلام) عمد إلى تصنيف المسلمين على ثلاثة أصناف أو طبقات، وهذه الأصناف هي (أهل البيت) و(المهاجرون والأنصار) و(عامة المسلمين) وهذا الصنف الأخير ينقسم بدوره على قسمين، قسم أسلم عن عقيدة صادقة وبمحض إرادته والقسم الآخر أكره على اعتناق الإسلام إما إبقاء على نفسه وإما طلبا للمال أو المنصب أو الذكر الحسن بعد أن اتسعت رقعة الإسلام وعلا شأنه وقوي سلطانه، وهذا معنى قوله "ولا الصريح كاللصيق"، قال ابن أبي الحديد: الصريح هو من أسلم اعتقاداً وإخلاصاً أما اللصيق فهو من أسلم بحد السيف أو رغبة في الدنيا[٣٩]. فأين هؤلاء المكرهون وأنت يا معاوية منهم من أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل السبق والفضل من المسلمين ممن حاز سبق الهجرة أو فضل النصرة؟ وأين أصحاب اليقين والإيمان من أصحاب الشك والنفاق؟! لقد بني النص على الضدية بين فريقين أو صنفين، علي وأصحابه ومعاوية وأصحابه، وعلى النحو الآتي:

إنَّ لنا يا معاوية سهم النبوة..... ولكم سهم الشيطان
وفينا المهاجر ..... وفيكم الطليق
وفينا المؤمن ..... وفيكم المنافق
وفينا المحق..... وفيكم المبطل
وفينا الصريح ..... وفيكم اللصيق
وفينا أتباع الآخرة ..... وفيكم أتباع الدنيا

فأين أنتم يا معاوية منا؟ وأين هؤلاء من أولئك؟ وأين أصحاب الجنة من أصحاب السعير؟ فالفرق بيننا وبينكم شاسع والفضل لعمري بائن وإن القياس على هذا النحو لا ريب باطل.

وفي قوله **"تعظمونه بألسنتكم وتجحدونه بقلوبكم"**[٤٠].

الغرض من النص تأكيد نفاق القوم، وذلك أنه لما كانت حقيقة الإيمان اعتقاداً في القلب وإقراراً في اللسان وكان هؤلاء يلهجون بالقرآن ويظهرون تمسكهم به ويزعمون أنهم يحتمون إليه وهم في سرائرهم ينكرونه ويكفرون به ويعملون بخلاف ما جاء به ودعا إليه بقصد تفريغه من مضامينه من قول العرب: أرض جحدة أي يابسة لا نبات فيها، جاء الإنكار القلبي في قوله "تجحدونه بقلوبكم" ليؤكد أن القوم لم يؤمنوا بالله طرفة عين أبداً ولم يهتدوا بهدي القرآن ومضامينه السامية وأنهم قد مردوا على النفاق إذ يظهرون خلاف ما يبطنونه ويعتقدون به. وجاءت الصيغة المضارعة في قوله (تعظمونه - تجحدونه) للإفادة من الزمنية المفتوحة لقراءة الأحداث والتنبؤ بالمستقبل وبيان أسلوب العدو ومنهجه واستراتيجيته في

التعامل مع القرآن في إشارة إلى الصراع الأزلي بين الحق والباطل أو اتباع القرآن واتباع الهوى، ولعله في صدد الإشارة إلى صلح الحسن (عليه السلام) ومعاوية الذي دعا إليه الأخير في الظاهر ثم تنصّل عن مضامينه وأفرغه من محتواه. ولعله أراد بقوله (تعظمونه - تجحدونه) الإشارة إلى أصحاب الظاهر ممن يتمسكون بظواهر النصوص وحقائق الألفاظ ولا يلتفتون إلى بواطنها ومعانيها العميقة وأغراضها الخفية. وقد أدى التضاد بين (تعظمونه بألسنتكم) و(تجحدونه بقلوبكم) إلى إحداث خرق في البنية وكسر التوقعات لزيادة التأثير في المتلقي لتحقيق الاستجابة المطلوبة:

تعظمونه بألسنتكم..... • تقرونه بقلوبكم

• تعرفونه بقلوبكم

• تهابونه بقلوبكم

تعظمونه بألسنتكم..... تجحدونه بقلوبكم!!

وفي قوله: **"فلقد أضحكت بعد استعبار"**[٤١].

إذ بني النص على المفارقة في التناوب بين الضدين الضحك والبكاء، وفيه إشارة إلى قوله تعالى (فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً)[٤٢]، قال الطبرسي: هذا تهديد في صورة الأمر أي فليضحك المنافقون في الدنيا قليلاً لكثرة أحزانها وهمومها وليبكوا كثيراً في الآخرة[٤٣]، وهذا كلام لا شك يندرج في معرض الوعظ والاعتبار وكأنه تعالى يقول: لا تغتر أيها الإنسان ولا تفرح بما عندك فإنه زائل ولو بعد حين وإنك صائر إلينا وسيطول أمد حسرتك وبكائك على ما فرطت في جنب الله.

إنَّ كلامك يا معاوية وإن كان مبعثاً للسخرية والاستهزاء غير أنه لا يخلو من عبرة وعظة. ففي رعونتك وسفاهتك وتماديك في غيِّك وضلالك أحسن المثل لاعتبار غيرك بك ممن يشرأب عنقه لأمر لم يكن له أهلاً أو من ليس له في مجالدة أهل الحق صبراً، وهذا لا شك أمرٌ مضحكٌ مبكٍ أو مبكٍ مضحكٌ لاشتماله على دلالات النكاية والاعتبار في آن معاً، وذلك أن معاوية قد تطاول في الخطاب وتبجَّح في تركه للبيعة وتنصُّله عن الرحم والعتبى ثم وعيده بالحرب والمناجزة في قوله "وليس لك ولأصحابك عندي إلا السيف"[٤٤]، فجاء الرد مباغتا والإنكار صريحاً في قوله "فلقد أضحكت بعد استعبار متى ألفيت بني عبد المطلب عن الأعداء ناكلين وبالسيف مخوفين؟"، فأغلظ له في الجواب ولب عليه الدعوى رأساً على عقب، وهو قوله "فسيطلبك من تطلب... وأنا مرقل نحوك"، وقد استعمل البنية الفعلية في (فسيطلبك) للدلالة على تغير الأحوال وتسارع الأحداث وتحقيق عنصر المباغتة وامتلاك زمام المبادرة، ثم أردفها باستعمال البنية الاسمية في (وأنا مرقل) لترسيخ المعنى في الذهن والتأكيد على أن وقوع ما أنبأ به أمر كائن لا محالة، وجاء استعمال ضمير التكلم الدال على المفرد (أنا) ولم يقل (نحن مرقلون) لتأكيد الثقة المطلقة بالنفس في معرض إخافة الخصم والتهويل

عليه في إشارة إلى أنه (عليه السلام) جيش بكامله وكتيبة لوحده وتذكيره بمواقفه المشهورة في الحروب وأن هيبته لم تزل ترعد الأبطال وتجبنهم عن مواجهته أو الصمود قباله أو يأتي ذلك على سبيل التهكم بالخصم لكون علي (عليه السلام) يقود الجيش بنفسه ويتقدم الكتائب ويصول ويجول في الميدان في حين لا يجرؤ خصمه معاوية على ترك مقره أو محميته والمغامرة بنفسه في الدخول إلى الميدان ومواجهة الفرسان، فكيف لمن هذه حاله أن يملك زمام المبادرة ويتوعَّد علياً رجل المواقف الصعبة وأصحابه الأشاوس بأنه سيحكّم فيهم سيفه؟!! ولذلك أنكر عليه قوله وقلب له الأمر ظهر المجن وأخذ يتوعده بجحافل من المهاجرين والأنصار وهم متسربلون سرابيل الموت أحبُّ الحسنيين إليهم لقاء الله عزّ وجلّ.

ثامناً ـ أسلوب التنكير:

ورد استعمال النكرة (ذاكر) في قول علي (عليه السلام) في ردّه على معاوية: "لذكر ذاكر فضائل جمة"[٤٥].

الذكر في اللغة هو الحفظ للشيء وجري الشيء على اللسان وإظهاره، والذكر كذلك الصيت والشرف، والمجُّ هو القذف ومجَّ الشراب يمجُّه مجّاً أي رماه ومجَّ بريقه إذا لفظه[٤٦]. والذاكر لفظ يتَّسع لدلالات متعددة محتملة، فهو المتكلم الذي يخبر عن مقاصده بالقول والكلام وهو الذي يروي الأخبار ويحفظها وهو المؤمن الذي يلهج لسانه بتقديس الله وتسبيحه وتمجيد صفاته وأفعاله وهو المعتبر بغيره قولاً وفعلاً، وبحسب ذلك يكون الإمام (عليه السلام) قد عمد إلى استعمال الجناس في قوله (ذكر ذاكر) لتكثيف المعنى وفتح آفاق الذهن للوقوف على مقاصد الكلام فضلاً عن تحقيق قدر أكبر من التشاكل الصوتي الجميل والانسجام التعبيري العالي. وجاءت النكرة (ذاكر)، التي يقصد بها نفسه، للدلالة على التعظيم لكونه في معرض التحدي وفي مقام الترجيح والتفاضل وإثبات السبق والمنزلة وإنزال الناس منازلهم وترتيبهم في طبقاتهم، ألا ترى أن النص مفعم بقرائن الترجيح والمفاضلة نحو قوله (أفضل الناس) و(الفاضل والمفضول) و(التمييز بين المهاجرين) و(سيد الشهداء) و(تتأخر حيث أخرك القدر)[٤٧]. ولعله أتى بـ (ذاكر) وأراد (ذكير) وهو الرجل الأبي ذو الشرف والمنزلة ومن له الصيت والثناء. ويُظهر النص مدى تمسُّك الإمام (عليه السلام) بالنصوص القرآنية والتزامه بأحكام السماء وبلوغه الدرجة القصوى في ترويضه لنفسه بإعراضه عن ذكر فضائله وإظهارها والتفاخر بها لثبوت النهي عن تزكية الإنسان لنفسه والثناء عليها في إشارة إلى قوله تعالى ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[٤٨]، أي لولا ما تقدم من النهي لحدَّثتكم بفضائلي ومناقبي وأظهرتها بين الناس حتى تلهج بذكرها الألسن ويتناقلها الرواة والمحدِّثون، وقوله (تعرفها قلوب المؤمنين) لكونها مما هو معلوم متواتر غير خاف ولا منكر قد شهدها المسلمون وعاصروا أحداثها وألِفوا بها، أو لعله أراد تعيها القلوب الواعية التي ربط الله عليها بالإيمان والتقوى، وقوله (ولا تمجُّها آذان السامعين) أي لا تلفظها أو لا تملُّ من

سماعها لكونها مما لم يسمع مثله أو يعرف له نظير لحلاوتها في السمع ولما فيها من الدروس والعبر والفعال الجسام والبطولات الخارقة مما يصلح أن يكون مادة دسمة لقصائد الشعراء وقصص القصّاصين، ولعله كنّى بذلك عن جدّتها، أي هم حديثو عهد بها كونها من الأخبار البكر التي لم تطرق الأسماع بعدُ ولم يلهج بها لسانه من قبل، أو أراد أنها لم تزل طريَّة لقرب العهد بها، من قولهم (الماج) للبعير إذا آسنَّ وسال لعابه.

وجاءت النكرتان (أقوام) و(أمرا) في قوله: "وقد رام أقوام أمراً بغير الحق"[٤٩].

وقد أفادت في الأولى الدلالة على التهوين وفي الثانية الدلالة على التعظيم، وآية ذلك ـ برأينا ـ أنه يشير إلى حادثة السقيفة وكيف عزم الرجلان على إرغامه على البيعة للأول فتوعدوا وأقسموا على ذلك الأمر فأكذبهم الله ورد كيدهم إلى نحورهم، وأما قوله (بغير الحق) فيحتمل أربعة أمور:

١. من دون نص ولا إجماع على خلافة الأول.
٢. بخلاف القرآن والسنة اللذين نصاً على خلافته لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٥٠] وقول الرسول في بيعة الغدير (من كنت مولاه فهذا علي مولاه).
٣. تأكيد إكراهه على البيعة وإرغامه عليها عنوة من دون رضا ولا اقتناع.
٤. إقرار وتأكيد بأنه أحق بالخلافة من سواه وقد تقلد رداءها من تقلد من دون وجه حق.

ويحتمل الكلام معنى آخر وهو الأقرب إلى سياق وهو أنه عنى حادثة التحكيم بدلالة قوله (وقد دعوتنا)، ويحتمل في (أقوام) أنه يعرض بجماعة من جيشه ممن جنحوا إلى التمرد وعزفوا عن القتال وألزموا الإمام (عليه السلام) بقبول التحكيم، وقد استعمل النكرة للدلالة على التهوين من شأنهم وأنهم لا دراية لهم بخدع القوم ومكائدهم أو لعله أراد بهم جيش العدو وقد أفادت النكرة الدلالة على التعجيز أي لقد لجأوا إلى المكر والخديعة بعد أن ظهر عجزهم وتفرق جمعهم وأوشكوا على الفرار، وقوله (بغير الحق) أي بغير الوجه الحقيقي لما جاءوا به مصداقاً لقوله (كلمة حق يراد بها باطل) أي لم يكن فعلهم (رفع المصاحف) عن توجه حقيقي ونية صادقة لتحكيم القرآن واتباع الحق وإنما طلبوا أحد أمرين:

الأول: انقسام جيش الإمام على نفسه وانكساره ومن ثم إلحاق الهزيمة به.

الثاني: الحصول على هدنة مؤقتة لالتقاط الأنفاس ورص الصفوف وإعادة هيكلة الجيش والمراهنة على تفتيت جيش الإمام بإشاعة الأراجيف وبث الفتن والعمل على زيادة الضغط النفسي باستثمار عامل الزمن وإطالة أمد الحرب.

تاسعاً ـ البنية الاسمية:

وردت البنية الاسمية في قول علي (عليه السلام) في ردّه على معاوية: "وأنا صاحبهم في تلك المواطن"[٥١].

إذ استعمل البنية الاسمية للدلالة على الثبوت والاستقرار لإظهار الثقة العالية بالنفس في معرض الفخر والاعتداد بالنفس، وهو اعتداد مشروع في ظل تلك الحرب الكلامية والأجواء المشحونة بالتوتر الانفعالي، ففي ظل هذا كله يعلن الإمام (عليه السلام) بمنتهى الثقة والاطمئنان النفسي أنه قادر على حسم نتيجة الصراع لصالحه لكونه السيف المجرب الذي لا يفلل حدُّه ولا ينبو ضباه وهو صاحب الوقائع المشهودة والحملات المعروفة وأن خصمه معاوية لم يكن يوماً مشهوداً له بالشجاعة ولم يسجل له التاريخ موقعة أو حدث بارز في ميادين القتال وأنه متبع معاوية بأسلافه لا محالة وكأن الأمر حقيقة ثابتة وأمر حاصل مفروغ منه، كيف لا يكون كذلك وهو قاتل آبائه في نصرة الدين المبين يوم كانوا على الشرك والنفاق وكان هو (عليه السلام) يذود عن الإسلام ويدافع عن حمى المسلمين ويجتث رؤوس الضلالة والبغي وهو عازم كل العزم أن يلحقه بآبائه ويتبعه بسلفه ويسقيه من الكأس الذي شربوا منه، كيف لا وعنده السيف الذي ذاقوا حرَّه فخرُّوا من وقعه صرعى كأن لم يحدثوا أمراً ولم يكونوا قبل ذلك شيئاً مذكوراً، ولا شك أن هذا يفعل فعلاً عظيماً في نفس الخصم إذ يثبِّط قواه ويشل قدراته ويزعزع قدميه في الميدان ولذلك نجد علياً يؤكد هذا المعنى في قوله (ما برز إلي أحد إلا أعانتني نفسه عليه) وهذا الأمر كان واضحاً لدى معاوية ولذلك كان حريصاً كل الحرص على أن لا يواجه علياً في الميدان ليس لكونه شجاعاً مقداماً فحسب بل لكونه علياً لأن الفارس بمجرد أن يلاقيه في الميدان تكاد نفسه تخرج من أحشائه كمداً لإدراكه أنه مقتول لا محالة.

وفي قوله "فأنا أبو الحسن قاتل جدك وأخيك وخالك وما أنت منهم ببعيد"[٥٢].

إذ جاء استعمال البنية الاسمية للدلالة على الاستقرار النفسي والترنُّم، وتعزَّز هذا الترنم أو التلذذ بالإخبار عن نفسه بكنيته المشهورة (أبو الحسن)، وكل ذلك لزيادة التأثير النفسي على الخصم وبث الرعب في جوانحه، وكأنه يرسم لنا بهذه الكلمات صورة بصرية متخيَّلة لسبع متاهِّب للانقضاض على فريسته وهو مكشِّر عن أنيابه عاض على نواجذه، وجاء الخبر الثاني وهو قوله (قاتل جدك) لتذكيره بذلك الحدث التاريخي الهام وتفاخره عليه وتعييره بكفر من قتلهم من رهطه ليتوعده بعد ذلك بالقتل في قوله (وما أنت منهم ببعيد) باستعمال (ما) الحجازية ودخول الباء الزائدة على خبرها للتوكيد وتقدم الجار والمجرور (منهم) على عامله، خبر (ما) وهو قوله (بعيد)، لقصره عليه وصرفه عما سواه لتوافق العقيدتين وتماثل العاقبتين.

عاشراً ـ البنية الفعلية:

وردت البنية الفعلية في قول علي (عليه السلام) في ردِّه على معاوية: "وأرديت جيلاً من الناس كثيراً خدعتهم بغيك"[٥٣].

إذ جاء استعمال البنية الفعلية لتغطية البعد الحركي للمشهد من ممارسة القتل والتنكيل وترويج الادعاءات والأكاذيب وإشاعة الفتن والدسائس وارتداء لباس الدين وادعاء

الانتصار للخليفة المقتول والمطالبة بدمه بقد تمزيق وحدة الأمة الإسلامية وتحويل الخلافة إلى ملك عضوض يتلاقفه بنو أمية ويجعلونه إرثاً لهم. وبدأ بقوله (أرديت جيلاً) لأولويته على من سواه لكونه يتعلق بأرواح الناس وذلك أن حفظ دماء المسلمين من أولويات سياسة أمير المؤمنين (عليه السلام) فهو لا يفكر في نصر دنيوي أو مكاسب ضيقة بل جل همّه وغايته أن تحقيق العدالة بين الناس وإصلاح شؤون الأمة وجمع كلمتها على الإسلام الحقيقي الذي جاء به محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وضحّى من أجله الصحابة الأوائل من المهاجرين والأنصار، ولذلك كان أول فعل يشنّعه عليه هو الإيغال في القتل وسفك الدماء بغير وجه حق بل إبقاء لملكه وبغياً على الخليفة الشرعي للأمة وهو قوله (وأرديت جيلاً من الناس كثيراً) ثم إنك لم تزل تمكر بالمسلمين وتخادعهم وقد كلّفتهم أمراً لا يطيقونه بأن سوّلت لهم الخروج على الجماعة وأغريتهم بالمال والمناصب حتى عصفت بهم أمواج الشك والحيرة واستولت عليهم الشبهات وأخذت تتلاعب بهم الفتن والأهواء فخرجوا عن جادة الحق ونكصوا عن بيعة من أجمعت عليه كلمة المسلمين وحكّموا في أمرهم العصبية والهوى ولم يلتفتوا إلى عقل أو شريعة أو إجماع. ولعل في قوله (خدعتهم بغيك) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ (يس: ٦٢) فكما أن الشيطان لا يختلف على كفره وخبثه ودوره في إضلال الناس وإغوائهم كذلك صار معاوية رمزاً للضلالة والكفر والنفاق ومصدراً من مصادر إضعاف الأمة الإسلامية وتمزيقها والقضاء على هيبة الإسلام وتحويل الخلافة الإسلامية إلى ملك عائلي وسلطان دنيوي.

وقوله: "فسيطلبك من تطلب ويقرب منك ما تستبعد"[٥٤].

إذ استعمل البنية الفعلية للدلالة على التحول والانتقال من وضعية الدفاع إلى وضعية الهجوم. فالخصم لا شك قد استغلّ وضع الدولة الحرج والاضطرابات التي حدثت بعد مقتل الخليفة عثمان ومآل الخلافة إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) وامتناع طائفة من القوم عن البيعة ووقوع حرب الجمل إذ شجع هذا كله معاوية على التعنت ورفض الدخول في طاعة الإمام ومطالبته بدم عثمان لخلق الاضطرابات وقلب أوضاع الحكم والاستئثار بملك الشام بلا منازع. والإمام (عليه السلام) يتوعده بفرض هيبة الدولة وبسط نفوذه على ولاية الشام بأقرب فرصة ممكنة ووأد الفتنة في مهدها وفض الاضطرابات التي تشهدها البلاد الإسلامية وأنه ماض إليه لا محالة لإجباره على الرضوخ إلى سلطة الخلافة، وسيلجأ عندئذ إلى التمترس في مقره في الشام والدفاع عن ملكه بعدما عاث في الأرض فساداً يروّج للفتن ويدعو إلى شق عصا الأمة والانقلاب على الخلافة الشرعية. وإن استعمال حرف الاستقبال (السين) في قوله (فسيطلبك) يعزز المعنى الذي نحن بصدده وهو تأكيد قرب ساعة المحاسبة والردع بملاحقته وإرغامه على الخضوع إلى قرار الخليفة الشرعي بعزله عن ولاية الشام، وقد تأكد هذا المعنى بالوصل بين الجملتين للدلالة على أنهما يشتركان في تأدية المعنى المقصود وهو اقتراب ساعة

العزل وانتزاع الشام من مخالبه وفك قبضته عليها وتخليص المسلمين من حكمه الجائر وعتوه وإلاله للرعية وتسلطه على رقابهم. ويأتي قوله (من تطلب) في معرض التهكم والسخرية من وعيده وتهديده الأجوف بالاحتكام إلى السيف وحسم الصراع عسكرياً في قوله "وليس لك ولأصحابك عندي إلا السيف"[٥٥] فإنه لا شك يضحك الثكلى ولكنه في الوقت ذاته فيه من عظة وعبرة للمسلمين بأن الدهر متقلب لا يدوم على حال واحدة وإن من هوان الدنيا على الله إن معاوية يتهدد علياً بالمنازلة والقتال ويصيِّر نفسه نداً له وهو أبعد ما يكون إلى ذلك!! وأنه لا يقاس بعلي بأي حال من الأحوال لأنه سيذوب وتلاشى قباله كما تتلاشى قطرة الماء في قبال النهر العظيم.

نتائج الدراسة:

خلصت الدراسة إلى ما يأتي:

١. تضمَّن خطاب الإمام أمير المؤمنين (ع) في ردِّه على خصومه توظيف أسلوب الطلب للتعبير عن المعاني المقصودة لكونه أبلغ من الأسلوب الخبري في إثبات المعاني وتأكيدها.
٢. خرج أسلوب الأمر في النصوص عينة الدراسة عن معناه الحقيقي إلى دلالات مجازية كالتعجيز والإشفاق والنهي والتمني والندب.
٣. خرج أسلوب النهي في النصوص عينة الدراسة عن معناه الحقيقي إلى دلالات مجازية كالتوبيخ والوعظ والإرشاد.
٤. خرج أسلوب الاستفهام في النصوص عينة الدراسة عن معناه الحقيقي إلى دلالات مجازية كالتوبيخ والتهديد والوعيد.
٥. ورد أسلوب القسم في النصوص عينة الدراسة بصيغ مختلفة بحسب غرض المتكلم، أهمها القسم بلفظ الجلالة وبالفعل (أقسم) وباللفظ (عَمْرُ) بوصفه من الألفاظ التي يغلب استعمالها في القسم في كلام العرب.
٦. وُظِّفَ أسلوب التنكير في النصوص عينة الدراسة للدلالة على معان عديدة كالتعظيم والتهوين والتعجيز.
٧. وُظِّفَت البنية الاسمية في النصوص عينة الدراسة انطلاقاً من دلالتها المركزية على الثبوت والاستقرار لتحقيق غاية نفسية تتمثل في إظهار الثقة العالية في معرض الفخر والاعتداد بالنفس.
٨. وُظِّفَت البنية الفعلية في النصوص عينة الدراسة انطلاقاً من دلالتها المركزية على التحول والتغيير لتحقيق غاية نفسية تتمثل في توفير الجرعة اللازمة للانتقال من الوضعية الدفاعية إلى وضعية الهجوم أو مقصد دلالي يتمثل في تغطية البعد الحركي للنص.

هوامش الدراسة:

(١) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد): ١٠٣/١٧.

(٢) نفسه: ٦٠/١٥.

(٣) نفسه: ١٠٥/١٦.

(٤) نفسه: ٨٩/١٥.

(٥) نفسه: ٨٩/١٥.

(٦) نفسه: ٦٠/١٥.

(٧) نفسه: ٦٠/١٥.

(٨) نفسه: ٦٠/١٥.

(٩) ظ: لسان العرب، مادة (رين)..

(١٠) سورة المطففين: ١٤.

(١١) ظ: الكشاف: ٧٢١/٤.

(١٢) شرح نهج البلاغة: ١٠٤/١٦.

(١٣) نفسه: ٦٢/١٥.

(١٤) ظ: لسان العرب، مادة (طبع)..

(١٥) شرح نهج البلاغة: ١٩٠/١٧.

(١٦) ظ: نفسه: ١٤/١٨.

(١٧) سورة النساء، آية ١٥٥.

(١٨) ظ: البحر المحيط: ٤٠٣/٣.

(١٩) سورة النحل، آية ١٠٨.

(٢٠) نفسه: ١٠٤/١٦.

(٢١) سورة الحجر، آية ٧٢.

(٢٢) سورة النور، آية ٥٥.

(٢٣) سورة الأنعام، آية ١٤٦.

(٢٤) سورة فصلت، آية ٢٧.

(٢٥) شرح نهج البلاغة: ٤٨/١٨.

(٢٦) نفسه: ٥٠/١٨.

(٢٧) ظ: علم البيان، مصطفى هدارة: ٣٣..

(٢٨) أساليب البيان، فضل حسن عباس، ط٢، ٢٠٠٩م: ٢١٨.

(٢٩) ظ: أسرار البلاغة: ٩٢ ـ ٩٣ (بتصرف)..

(٣٠) شرح نهج البلاغة: ١٠٣/١٦.

(٣١) ظ: قضايا الشعرية: ١٥٨.

(٣٢) ظ: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، مجيد عبد الحميد ناجي، ط١، ١٩٨٤م: ١٠٧..

(٣٣) ظ: نظرية البنائية، صلاح فضل، ط ١ ١٩٨٨ م: ٣٥٩..

(٣٤) شرح نهج البلاغة: ١٣٩/١٥.

(٣٥) نفسه: ٦٠/١٥.

(٣٦) نفسه: ١٠٢/١٦.

(٣٧) نفسه: ٦٠/١٥..

(٣٨) نفسه: ١٣٨/١٥.

(٣٩) نفسه: ٩٩/١٥.

(٤٠) نفسه: ٨٩/١٥.

(٤١) نفسه: ١٣٩/١٥.

(٤٢) سورة التوبة، آية ٨٢.

(٤٣) ظ: مجمع البيان: ٧٧/٥.

(٤٤) شرح نهج البلاغة: ١٤١/١٥.

(٤٥) نفسه: ١٣٧/١٥.

(٤٦) ظ: لسان العرب، مادتا (ذكر) و(مجج)..

(٤٧) شرح نهج البلاغة: ١٣٧/١٥.

(٤٨) سورة النجم: ٣٢.

(٤٩) شرح نهج البلاغة: ١٣/١٧.

(٥٠) سورة المائدة، آية ٥٥.

(٥١) نفسه: ١٠٣/١٦.

(٥٢) نفسه: ١٠٥/١٦.

(٥٣) شرح نهج البلاغة: ١٠٢/١٦.

(٥٤) نفسه: ١٣٩/١٥.

(٥٥) نفسه: ١٤١/١٥.

المصادر:

القرآن الكريم.

- أساليب البيان: فضل حسن عباس، دار النفائس ـ عمّان، ط٢، ٢٠٠٩م.
- أسرار البلاغة في علم البيان: عبد القاهر الجرجاني، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٩٨٨ م.
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية: مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ـ بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
- البحر المحيط: محمد بن يوسف بن علي بن حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ٢٠٠١م.
- شرح نهج البلاغة: عز الدين عبد الحميد بن هبة الله مدائني. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي ـ بغداد، ط١، ٢٠٠٥م.
- علم البيان: بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة. ١٩٦٢م.
- قضايا الشعرية: رومان ياكبسون، ترجمة محمد الولي ومبارك حنوز، دار الوثائق للنشر، ط١، ١٩٨٨م.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ١٩٨٦م.
- لسان العرب: أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور المصري، دار صادر ـ بيروت.
- مجمع البيان في تفسير القرآن: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي. دار العلوم، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- نظرية البنائية في النقد الأدبي: صلاح فضل، دار الشروق ـ القاهرة. ط ١، ١٩٨٨م. ❖

الإمام علي (عليه السلام) القـدوة الصالحـة

م. د. زهراء رؤوف جواد الموسوي
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، مكتب الوزير، قسم التعليم الأهلي

أ. عرفة عباس
الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، فرع العراق

المقدمة: القدوة الصالحة

لو رجعنا إلى حياة الأئمة (عليهم السلام) وعلى الخصوص أمير المؤمنين (ع) نجدها حافلة بما يفوق الإحصاء فيما يجسده عملهم وسلوكهم وأخلاقهم وتعاملهم مع الناس من أسوة حسنة ولذلك كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يشير إليهم - والى الإمام علي (ع) خصوصاً - لأن الأمة لابد أن تقتدي وتأتم بأمام مثلهم فهم كما أشاروا إلى أنفسهم في أكثر من موضع القرآن الناطق أي الحالة التطبيقية للقوانين النظرية فالإمام أمير المؤمنين (ع) كان وما يزال القمة في كل شيء من أخلاق وعبادات وسلوك وإذا أردنا التعرف على شخص ننتظر متى يتكلم لنعرفه لأنه وكما قال الإمام (ع) (المرء مخبوء تحت لسانه) فنحن نعرف الله تعالى من خلال كلامه (القرآن الكريم) واحد طرق معرفة المعصوم أيضاً كلامه فيها يعرف درجة إيمانه (المعرفة بحسبنا لا بحسبه) وإخلاصه وعلمه بل وعصمته كذلك مرت حياة الإمام بأدوار عدة فكان في الدور التكويني قطب الرحى الذي يدور حوله الكون بل هو تحت سلطته وقيد أمره أما دوره التشريعي فلم يكن للأمة مناص وملجأ أفضل ممن قد أوصى به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلمه بمكانة الإمام (ع) ومقدرته في مجال حفظ الدين وبيانه للأمة وبيان الأحكام. وأما دوره السياسي فمن أول يوم السقيفة وما بعدها نهض الإمام (ع) بدوره على أحسن وجه فكان بدعوته لنفسه - كما أمره الله - وكذلك بجلوسه في بيته مثال للسياسي والقيادي العظيم وهكذا في مجال رصيده من الحروب فكان يتعامل بمنتهى العدالة حتى مع أعداءه والذين قاموا عليه بالسيف وكانوا بهذا شاهرين الباطل بوجه الحق.

ولقد سلطنا الضوء في هذا البحث عن قيام الإمام بدور (القدوة الصالحة) فهو القمة بالعلم والبلاغة والفصاحة والأخلاق فقد كان يعيش مع الله تعالى فهو سيد العارفين به بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وبذلك أصبح سيد العابدين عبادة الأحرار.

تقسيم العلم:

يقسم العلم الاستدلالي - الذي له دور في سعادة الإنسان - إلى قسمين:

الأول: الحكمة النظرية، **والثاني** الحكمة العملية، وتدور الأمور مناط البحث فيهما تارة خارج حدود حرية الاختيار البشري، وتارة داخل هذه الحدود.

والأول: كالبحث في مسائل التوحيد والنبوة والمعاد وسائر المسائل النظرية التي لا تأثير لوجود الإنسان في وجودها موجوداً أم لم يكن، فإن وجودها محفوظ في محله، ولا يبلغ الإنسان الكمال إلا بمعرفته لها، والتدقيق فيها، فهي إذن أصول لا تنتفي بانتفاء الإنسان.

والثاني: الحكمة العملية، وهي مسائل لا توجد إلا بوجود الإنسان كتلك المتعلقة بالأخلاق، وتهذيب النفس وتربية الروح، وتدبير المنزل، وإدارة المجتمع ومثيلاتها، وبديهي أن وجود هذه المسائل مرتبط بوجود الإنسان.

وقد قسموا العلوم الإنسانية التي لها دور مؤثر في كمال الإنسان إلى قسمين **الأول:** هو الحكمة النظرية، **والثاني:** هو الحكمة العملية وتختلف هاتان الحكمتان عن العقل النظري وعن العقل العملي، لكونهما نوعين من المعارف وأما العقل النظري والعقل العملي فهما طاقتان من الطاقات الإنسانية[1].

ولو أردنا معرفة منزلة علي بن أبي طالب (ع) في إطار الحكمة النظرية والعملية ينبغي أن نعتمد أقواله التي قالها في تعريف نفسه:

جاء في إحدى الرسائل التي بعث بها (ع) إلى معاوية بن أبي سفيان وهو يشرح فيها جانباً من فضائل أهل البيت (ع) قوله: (لولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه)[2]، أي لولا نهي الله تعالى في القرآن الكريم عن تزكية النفس بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ (النجم: ٣٢).

ذكر فضائل جمة تعرفها قلوب المؤمنين ولما كان ذكر فضائل أهل البيت (ع) بحد ذاته، هو تعداد لنعم الله، وهو كمال الخضوع والعبودية لله تعالى شأنه فإنه يقول: (فإنا صنائع ربنا، والناس بعد صنائع لنا)[3] أي أننا ممن تربى ونشأ وترعرع في أحضان الوحي، وأن باقي الناس ينهلون من معيننا ويكتسبوا العلوم منا، تربون في أحضاننا، إننا اكتسبنا العلوم الإلهية من مدرسة الوحي أما غيرنا فقد اكتسبوا العلوم منا، إننا جلسنا

---

(١) أخلاق الإمام علي ابن أبي طالب (عليه السلام)، خضر القزويني، ١٤٣٢هـ، الناشر العتبة العلوية المقدسة، النجف الأشرف، ص٤٥.

(٢) نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام)، شرح ابن أبي الحديد، الناشر: دار الذخائر، قم ـ إيران، ط١، مطبعة النهضة ـ ١٤١٢هـ، ج١٥، ص١٨٢.

(٣) نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام)، ص ١٨٢.

إلى مائدة الوحى وجلس غيرنا إلى مائدة وعظنا، إننا لم نحتج إلى غير الله أما الآخرون فمحتاجون إلى الممر الذى منه فيض الله، ونحن ذلك الممر. وبديهى أن من يتتلمذ في أحضان الوحى من غير واسطة يكون حكيماً فرداً والرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو من هذا النوع، وينطبق عليه هذا الوصف، حيث تلقى الحكمة والمعرفة من الله عبر الوحى ونهل من معارف القرآن بلا وساطة، وعلى بن أبى طالب (ع) هو الذى بمزلة نفس الرسول الأكرم - طبقاً، لآية المباهلة - هو الآخر نهل من نفس هذه المدرسة وتلقى العلم اللدنّى. إنه (ع) في الحقيقة حكيم تفجرت الحكمة من قلبه على لسانه، فهو مصداق قول الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): (من أخلص لله أربعين يوماً فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)[١].

أي من عاش أربعين يوماً خالصاً من أي شائبة لوجه الله، وكانت أفعاله واقواله وحركاته وسكناته لمدة أربعين يوماً في الله وكانت كلها في إطار قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢) وتجلت في قلبه العبادات الإلهية خالصة لوجه الله تعالى فإذا ينابيع الحكمة تنفجر من قلبه على لسانه.

يقول (عليه السلام): (ما شككت في الحق مذ أريته)[٢] أي لم أشك ولم أرتب فيما انطوت عليه الحكمة النظرية من أصول، مثلما لم يتأخر عن ممارسة ومزاولة ما تدعو له الحكمة العملية، إنه (ع) بلغ في الحكمة النظرية حداً قال فيه: (لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة...إلا أنبأتكم)[٣] أي أنه مستبعد للإجابة عن كل ما تودّون سؤاله من الحوادث الذي ستقع من الآن وحتى يوم القيامة[٤].

وهذه العبارة هي غير عباراته التي يقول فيها: (أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني فلاناً بطرق السماء أعلم مني بطرق الأرض)[٥] فإنسان يتمتع بهذا البعد من النظر وبهذا الشمول من الإشراف على عالم الطبيعة حري به أن يكون حكيماً في الحكمة النظرية وفي الحكمة العملية[٦].

---

(١) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، م. س. ج٦٧، ص٢٤٩.

(٢) نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، م. س. ج٤، ص٣٨.

(٣) م. ن.، ج٧، ص٤٤.

(٤) أخلاق الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، خضر القزويني، ١٤٣٢هـ، الناشر العتبة العلوية المقدسة، ص ٤٧، النجف.

(٥) م. ن.، ج١٣، ص١٠١.

(٦) أخلاق الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، خضر القزويني، ١٤٣٢هـ، الناشر العتبة العلوية المقدسة، ص ٤٨، النجف.

نهج البلاغة فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق:

نحن لدينا إهمال، فكم بذلنا من الوقت لمطالعة نهج البلاغة؟ وهو مفتاح لحل مشكلات الحياة.. المشكلات الفكرية والمشكلات الاجتماعية والمشكلات الاقتصادية.

ينقل الكليني (رحمة الله تعالى عليه) في أوائل الكافي خطبة توحيدية عن أمير المؤمنين (صلوات الله عليه)، ثم يقول لو أن جميع الجن والإنس اجتمعوا - بعد الأنبياء لهم مقامهم - على أن يقولوا مثل هذا الكلام في توحيد الله سبحانه وتعالى لم يقدروا على ذلك، ويقول: لولا بيانه لم يعرف الناس التوحيد، فأين نحن من هذه المعارف، ولا بأس بحفظ ألفية ابن مالك، لكنها ألف بيت، ونحن نقضي عمراً لحفظ الألفية من بدايتها حيث تقول:

قال محمد هو ابن مالك أحمد رب الله خير مالك

وحتى نهايتها:

وما بجمعه عنيت قد كمل نظماً على جل المهمات اشتمل

فكم نبذل وقتاً على ألفية ابن مالك؟ وهل بذلنا مثل هذا الوقت على نهج البلاغة؟ وهل قرأنا خطب التوحيد؟ وهل قرأنا المعارف في نهج البلاغة؟

البعض يتوجه إلى ما قاله أرسطو وأفلاطون وسقراط، فيما المتصل بالوحي موجود[1].

قال الرضي: كان أمير المؤمنين (ع) مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها ومنه ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها. ومن خطبة التوحيد والشقشقية والهداية والملاحم واللؤلؤ والفراء والقاصعة والافتخار والأشباح والأقاليم والوسيلة والطالونية والدامغة وغيرها[2]..

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الزمر: ٩).

قال ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة: وأما الفصاحة فهو (ع) أمام الفصحاء وسيد البلغاء وعن كلامه قيل: هو دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق. ومنه تعلم الناس الخطابة والكتابة. ولما قال محفن ابن أبي محفن (لمعاوية): جئتك من عند أعيى الناس، قال معاوية: ويحك أكيف يكون أعيى الناس؟ فوالله ما سنَّ الفصاحة لقريش غيره. وروى الكلبي بإسناده عن الرضا (ع) عن آبائه (عليهم السلام) أنه اجتمعت الصحابة فتذكروا أن الألف أكثر دخولاً في الكلام. فأرتجل أمير المؤمنين (ع).

---

(١) منهج الغدير، السيد محمد رضا الشيرازي، دار الاثر، ط٢، ص ٣٢، ١٤٣٣هـ، بيروت.

(٢) الشريف الرضي - كتاب (نهج البلاغة).

الخطبة المونقة وهي: حمدتُ من عظمتُ منه وسبغت نعمته وسبقت رحمته غضبه، وتمت كلمته، ونفدت مشيئته، وبلغت قضيته، حمدته حمد مقر بربوبيته، متخضع لعبوديته، متنصل من خطيئته، متفرد بتوحده، مؤمل منه مغفرة تنجيه يوم ينشغل عن فصيلته وبنيه، ونستعينه ونسترشده..... الخ.

ثم ارتجل الإمام (ع) بخطبه أخرى خالية من النقط وهي: الحمد لله الملك المحمود المالك الودود المصور كل مولد، ومال كل مطرود، ساطح المهاد وموطد الأطواد ومرسل الأوطار، عالم الأسرار ومدركها، ومرسل الأمطار، ومسهل الأوطار ومدمر الأملاك ومهلكها، ومكور الدهور ومكررها، ومورد الأمور ومصدرها، عمَّ سماحه وكمل وكامه، وطاوع السؤال والأمل، وأوسع الرمل وأرمل، أحمدهُ حمداً ممدوداً وأوحده كما وحد آلاؤه، وهو الله لا إله للأمم سواه، ولا صادع لما عدله وسواه، أرسل محمداً علماً للإسلام وإماماً للحكام مسدداً للرعاع ومعطل أحكام ودَّ وسواع..... الخ.

ومن خطبه له فيها يذكر بديع خلقه "الخفاش" منها ومن لطائف صنعته وعجائب خلقته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حي وكيف أغشيت أعينها، عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها، وتتصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها، وردعها بتلألؤ ضيائها عن المضي في سبحات إشراقها.... الخ.

وله خطبه يذكر فيها عجيب خلقه الطاووس وغيرها. هذا وللإمام أمير المؤمنين (ع) آراء ونظريات في التوحيد حول الإلهيات، كالصفات الثبوتية والسلبية وما يتعلق بذلك من كلام وبحث دقيق حول العلوم الكونية والطبيعة كالفلك والنجوم والسحاب والرعد والبرق وله تحليل جليل حول الإنسان. نطفة وجنيناً ورضيعاً ووليداً وشاباً وكهلاً وما يدور في هذا الفلك من علم النفس والفلسفة البشرية، وغير ذلك يظهر كل ذلك من مطاوي كلماته وخطبة الموجودة في نهج البلاغة وغيره من كتب الحديث.. وذكر البلاذري: في أنساب الأشراف أن علياً (ع) أشهر الصحابة وأفصحهم وأكتبهم. ومنهم الوعاظ وليس لأحد من الأمثال والعبر والمواعظ ما لأمير المؤمنين (ع) ومنهم الفلاسفة وهو (ع) أرجحهم قال أمير المؤمنين (أنا النقطة أنا الخط، أنا الخط أنا النقطة، أنا النقطة والخط) فقال جماعه (إن القدرة هي الأصل، والجسم حجابه، والصورة حجاب الجسم، لأن النقطة هي الأصل، والخط حجابه ومقامه) وقال ابن سينا، لم يكن شجاعاً فيلسوفاً قط إلا علي (ع) وتتميماً لهذا البحث نذكر كلام ابن الحديد في هذا الموضوع قال: وقد عرفت أن أشرف العلوم هو العلم الإلهي. لأن شرف العلم بشرف المعلوم ومعلومة أشرف الموجودات. فكان هو أشرف العلوم ومن كلامه (ع) اقتبس عنه ونقل واليه انتهى ومنه ابتدأ، ومن العلوم: علم الفقه وهو (ع) أصله وأساسه. وعلم تفسير القرآن، فسأل ابن عباس (أين علمك من علم ابن عمك)؟ فقال كنسبة

قطرة من المطر إلى البصر) وعلم النحو والعربية وتقسيمة للكلمة وتقسيم وجوه الأعراب. وهذا يكاد يلحق بالمعجزات لأن القوة البشرية لا تعني بهذا الحصر ولا تنتهي بهذا الاستنباط[١].

كما ينقل عنه في نهج البلاغة أنه قال (ع) في التوحيد: اتقوا معاصي الله في الخلوات فإن الشاهد هو الحاكم.

الدعوة إلى مراقبة الله تعالى دائماً وفي جميع الحالات وخصوصاً تلك التي يظن العبد أن الله تعالى غير مطلع عليه، فإنه سبحانه محيط بنا ومطلع علينا وقد أودع كل واحد منا ما يسجل عليه أعماله فلا يمكن للعاصي أن ينكر معصيته أو يزور في كيفيته بما ينجي به نفسه، وبموجب هذه الشهادة يصدر الحكم بالإدانة[٢].

وقال الإمام علي (ع): (يا كميل سمّ كل يوم باسم الله، وقل لا حول ولا قوة إلا بالله، وتوكل على الله، واذكرنا وسمّنا بأسمائنا وصلّ علينا، وأدر بذلك على نفسك وما تحوطه عنايتك، تكف شرّ ذلك اليوم إن شاء الله)[٣].

إن اختيار هذه العبارات الأربع وترتيبها مع بعضها كما اشرنا كراراً ليس عبثاً واعتباطاً، بل للعلاقة القائمة بينها. أما اسم (بسم الله الرحمن الرحيم) فلأن كل عمل ينبغي أن يشرع في الثقافة الإسلامية باسم الله، وكل فعل حسن لا يبلغ هدفه ما لم يبدأ باسم الله)[٤].

والحائل بيننا وبين المكان هو ذلك القادر المطلق، وإننا لا نقوى على الإتيان بعمل ولا نقوى على دوافع الموانع دون أن نستند إليه تعالى. وأما إسناد جميع الأمور لله العالم بالسر والعلن والتوكل على تلك القدرة المطلقة فذلك إننا نعرض له بكل كياننا قائلين: اللهم إننا لا نملك لأنفسنا شيئاً ولسنا قادرين على شيء دون الركون للطفك والتوكل على قدرتك وعلمك وكل ما هناك فمنك وبيدك.

وأخيرا نتوسل في الختام بالأربعة عشر معصوماً عليهم السلام كأن يقال (اللهم صلي على محمد وآله وأمير المؤمنين الأئمة المعصومين). والإنسان بإتيانه بهذه الأعمال الأربعة والإيمان بمضامينها يأمن شر ذلك اليوم، من جميع الشرور: شر النفس وشر الشيطان والجن والإنس والآفات والبلايا والحوادث وبالتالي الأمان من كل شرّ.

---

(١) ابن أبي الحديد ـ في شرح نهج البلاغة.

(٢) أخلاق الإمام علي (عليه السلام)، محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان، ط٢، ١٤٢٧هـ، دار المرتضى، ص٥٣، بيروت.

(٣) الدروس الأخلاقية والتربية الروحية، آية الله مكارم الشيرازي ص٢٣٥ نقلاً عن بحار الأنوار، ج٤، ص٤٨٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٥ مر شرح هذا المطلب في الحديث الأول.

التخلق بصفات الله:

المسألة المهمة في أذكار الله، التخلق بالأذكار: أي أن الذكر لا ينبغي أن يكون مجرد لقلقلة لسان، بل لا بدّ أن يخترق روح الإنسان وقلبه ويترك أثره عليه ويصبغ الإنسان بصبغته.

فإن قذفت قطعة حديد باردة في نار مستعرة تصبح بلون النار وتتخلق بأخلاق النار.

وعليه نحن أيضاً حين نكرر هذه الأذكار لابدّ أن نمد بالتدريج جسراً من ألسنتنا إلى قلوبنا ونؤمن بمضامينها[١].

وقال (ع) في التوحيد أيضاً:

التوحيد: أن لا تتوهمه، والعدل: أن لا تتهمه.

من أصول الدين الإسلامي التي يجب على الإنسان أن يعتقد بها اعتقاداً قلبياً راسخاً عن قناعة شخصية لا متابعة لأحد ـ لمجرد المتابعة ـ هو: أن الله تعالى واحد لا شريك له ولا مثال له ولا يصل إلى معرفة ذاته المقدسة أحد مهما بلغ في مستواه العلمي.

وأن الله تعالى لا يظلم ولا يحتاج إلى أن يتعدى على أحد من المخلوقين لأنه الغني وهم الفقراء إليه ولأنه الخالق لهم وهم المخلوقين المحتاجين إليه.

فالدعوة إلى الله أن يوحد الإنسان ربه ولا يتصور في لحظة ما أن معه شريكاً، وأن ينزه الإنسان ربه عن الظلم والتعدي والتجاوز على حق أحد مهما كان.

وبذلك يكون مسلماً موحداً ويبقى عليه أن يحافظ على ذلك عملياً فلا ينخدع بأضاليل المضللين الذين يبغون جرف الناس للتوجهات المعادية مما ينتج الانحراف وتوهم التجسيم أو الكينونة في مكان مّا كما يفعل عبدة الأصنام الذين يتوهمون تجسيد الإله فيما يعبدون بحيث يتصورون أنه هو الإله ولا يكون غيره مما يدخله تحت عنوان المشرك بالله والذي تترتب عليه أحكام كثيرة.

كما عليه أن يحافظ على ذلك الانتماء عملياً فلا يترك مجالاً للتشكيكات المطروحة بمختلف الوسائل لاتهام الحكمة الإلهية بالظلم والحيف وإنزال الغضب بلا موجب ونحو ذلك مما يروج له أو يتصوره بعض الفاشلين في الحياة ممن لم يكافحوا في الحياة أو ممن ظنوا أن الحياة تكون بلا تعب فيحاولون سدّ النقص الذي يشعرون به ويحسون أثره من خلال اتهام الخالق عزّ وجلّ في عدله[٢].

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٣٤.

(٢) أخلاق الإمام علي (عليه السلام)، محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان، ط٢، ١٤٢٧هـ، دار المرتضى، ص ١٥٣ ـ ١٥٤، بيروت.

وفي الكلام والسكوت قال الإمام علي (عليه السلام): **(لا خير في الصمت عن الحكم كما أنه لا خير في القول بالجهل)**[١].

أخذ الله عهد أولئك الذين يعملون، عدم الصمت إزاء الانحراف والاعوجاج والظلم وهضم الحق وسموم الأعداء ليضيئوا القلوب ويفيضوا عليه نور الهدى بمنطقهم وبيانهم المستدل المتين (فكل إنسان مسؤول بقدر ما لديه من علم وإن قلّ) كما لا ينبغي أن ينبري من لا يعلم ليقود الناس إلى الضلال. فذلك الصمت وهذا الكلام كلاهما يؤدي إلى البؤس والشقاء[٢].

ويستفاد من هذه الرواية انه لا الصمت لكل شخص وحيثما كان يعد قيمة وإلا الكلام للجميع وأينما كان. بل التحدث والتكلم من الأمور النسبية تقيم من خلال الأفراد والأزمنة والأمكنة.

فربما كان كلام شخص من أهم الواجبات وكلام آخر من أسوأ المحرمات! ولعل صمت إنسان في موضع عبادة وكلام نفس هذا الإنسان في موضع آخر، عبادة[٣].

فعلى المؤمن العاقل والفطن أولاً: أن يلم بقدر من المعلومات بشأن كل موضوع بالتحدث فيه. وثانياً: أن يشخص الموقع والمكان وإلا لابد أن يصمت[٤].

وقال (عليه السلام): **إذا تم العقل نقص الكلام.**

قد عرف العقل بعدة تعريفات فمنها: إن (العقل... جوهر مجرد يدرك الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة).

العقل: ما يعقل به حقائق الأشياء، قيل محله الرأس، وقيل محله القلب.

العقل: جوهر مجرد عن المادة في ذاته، مقارن لها في فعله، وهي النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد بقوله (أنا)... وقيل العقل نور في القلب يعرف الحق والباطل).

فالعقل ميزان، من خلال توازن كفيته يعرف الإنسان صحة أو خطأ ما حواليه من أسس ومبادئ في الحياة، وكذلك يعرف به التعادل الصحيح بين الأشياء المتاح له استخدامها والتنعم بها.

ومما أنعم الله تعالى به على الإنسان قدرته على إبراز مطالبه وإظهار أفكاره من خلال (الكلام) فإنه قد يستخدم ويكون نعمة توصل إلى المراد بأقصر الطرق ولكن إذا أساء

---

(١) المصدر السابق، ص ١٤١ نقلاً عن نهج البلاغة، قصارى الكلمات، ١٨٢، ٤٧١.

(٢) نقلاً عن مائة وخمسون درساً من الحياة، ص٤٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤١.

(٤) المصدر نفسه، ص١٤٢، راجع مختلف الأبحاث المتعلقة بالصمت والكلام ومنها: الصمت واستقامة اللسان والصمت في آيات القرآن والصمت في الروايات الإسلامية وإخطار اللسان والأصول الكلية لرفع أخطار اللسان وسائر المباحث الأخلاق في القرآن، ج١، ص ٢٩٨.

المتكلم استخدامه فترد عليه مجموعة ضخمة من القضايا السلبية جرّها إلى نفسه إذ لم يقيد لسانه ولم يلحظ بيانه فيواجه مصاعب عديدة يصعب عليه التخلص منها في كثير من الحالات. فالحث على موازنة الكلام جيداً لأنه ما لم ينطق الإنسان كان حراً، وأما إذا تفوه أسرته كلمته فإن كان سعيد الحظ كان إساره مريحاً وإلا فيبقى يدفع ضريبة ذلك من سمعته، أمواله، حياته... وكلنا نحافظ على ذلك. إذن يلزمنا مراعاة أطراف الكلام وآثاره وتبعاته... وعندئذ يضمن - غالباً - عدم المساءلة والمساءة[١].

قال الإمام علي (ع): **(وكم من عقل أسير تحت هوى أمير)**[٢].

هناك قوتان لدى كل إنسان:

١- قوة العقل التي ينبغي ان تكون أميرة على جميع الاعضاء والقوى والمشاعر.

٢- الميول والشهوات النفسية التي ينبغي أن تكون ادوات العقل التنفيذية وتحت أمره.

ولو استعمل كل من هاتين القوتين بموضعها لحصل كلما ينتظره الله من الإنسان ويصبح بحق خليفة الله. أما إن حصل العكس وتآمر الهوى وخضع له العقل كوسيلة وأصبح أسير الميول والشهوات فمثل هذا الإنسان ينحرف من مسار الحق وربما يزداد هذا الانحراف فيبتعد هذا الإنسان عن الصراط ليصبح كالأنعام بل أسوأ[٣].

نعم إن كان العقل بمنزلة الأب العظيم التجربة في أسرة، أسير ميولات ومراهقة الشبان السذج وعديمي التجربة والمليئين بالشهوات فسوف لن تسلم هذه الأسرة من أية أخطار! وعليه إن أردنا الفوز بعناية الله فلابدّ أن نحكم ونؤمر العقل في الأسرة والمجتمع، بل في جميع أنحاء العالم ونحرّره من قيود الأهواء. فلاشك في هذه الحالة سيتبدل العالم الذي يمثل في الظروف القائمة جهنّم إلى بستان. وسيكون لجميع الناس حياة وادعة آمنة خالية القلق وانتهاك حقوق البعض الآخر[٤].

وقال (عليه السلام): **لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل، ولا ميراث كالأدب، ولا ظهير كالمشاورة.**

يبين (ع) في هذه الحكمة أموراً قد تخلّى عن التمسك بها الكثير من الناس لحسبانهم أنها من الماضي الغابر الذي لم يعد نافعاً في عصرهم فأراد (ع) إعادة الرونق والنضارة لها والكشف عنها بما يجعل المتصف بها عارفاً بأهميتها وقيمتها.

---

(١) أخلاق الإمام علي (عليه السلام)، محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان، ط٢، ١٤٢٧هـ، دار المرتضى، ص ٦٧ - ٦٩، بيروت.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٥٥، نقلاً عن نهج البلاغة، قصار الكلمات، ٢١١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٥٥، أشير لهذا المطلب في سورة الأعراف، الآية ١٧٩وسورة الفرقان، الآية ٤٤.

(٤) المصدر نفسه، ص١٥٨.

١- **العقل:** إذا تم للإنسان أن يدرك الأشياء بواسطة (نور روحاني تدرك النفس ما لا تدركه بالحواس)[١] فإنه سيتمكن من معرفة الاشياء المواجهة معرفةً أقرب ما تكون للصواب والدقة ويكون قوياً في إصدار الأحكام والجدل في القضايا لأنه يستند إلى ذلك المصدر الوثيق الذي يكشف عن الأمور كشفاً دقيقاً فإذا كان كذلك فهو غني بفكره ومصدره تحريكه للأمور فلا يشكو عوزاً في استيعاب القضايا حتى لو كان فقيراً بالحسابات المادية ولغة الارقام لأن العقل يهديه لاستحصال المال (المشروع طبيعياً) بينما الذي يحوز المال الكثير وهو مفتقر للعقل لا يمكنه ـ دائماً الاستهداء لشيء أو حلّ مشكلة بواسطة المال، وإذا أمكنه ذلك فهو بواسطة شراء العقول والاعتماد عليها وإن حسب نفسه ممن يملك عقلاً.

وفي هذه الفقرة من الحكمة تسكين لآلام الفقراء ذوي الطاقات المبدعة وشد على سواعدهم ليتوصلوا في كفاح الحياة ليحققوا الانجازات الممكنة وإن تجاهلهم الأغنياء فهم ينتظرون من الإمام (ع) هذه اللفتة والتقدير لا أحد سواه.

٢- **الجهل:** ضد العلم بالشيء وهو من المعلومات الواضحة. وقد تبين مما تقدم أن الجهل يعني الحاجة والعوز وعدم الكفاية، وذلك باعتبار المقابلة بين العقل الذي يعني العلم والانفتاح والمعرفة، وبين الجهل الذي هو مقابلها ولذا كان في اختيار التقابل بين كلمتي الغنى والفقر وبين كلمتي العقل والجهل ـ كان ـ حسناً بلاغياً له أثره اللطيف في ربط المعاني وإيصالها إلى الذهن بحيث يتأثر بها السامع ليقتنع بها.

فالجاهل ولو كان غنياً بلغة الأرقام والمقتنيات هو الفقير حقاً والمحتاج واقعاً. ولا يحسبنّ قي وقت يمرّ عليه أنه من الأغنياء لأن الغنى الصحيح هو الثراء العقلي لأنه الذي يقوّم الأمم ويهدي الشعوب ويحقق الآمال ويهدف إلى تحقيق المنافع وتوسيع قاعدة المصالح وليس ذلك كله بالمال وإن تّم بعضه بالمال فهو باعتباره أحد الوسائل لا أهمها[٢].

وقال أمير المؤمنين (ع) في حساب النفس: (من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر)[٣].

---

(١) أخلاق الإمام علي (عليه السلام)، محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان، ط٢، ١٤٢٧هـ، دار المرتضى، ص ٢٩٨، بيروت. نقلاً ٥٢٠.

(٢) أخلاق الإمام علي (عليه السلام)، محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان، ط٢، ١٤٢٧هـ، دار المرتضى، ص٢٩٨ ـ ٢٩٩، بيروت.

(٣) الدروس الأخلاقية والتربية الروحية، آية الله مكارم الشيرازي، ط١، ١٤٣٠ هـ، دار جواد الأئمة، ص ٩٧، بيروت نقلاً عن نهج البلاغة، قصار الكلمات، ٢٠٨.

حظيت المحاسبة بتأكيد شديد في الروايات الإسلامية والتي ينفك علماء السير والسلوك عن التركيز عليها. فما المحاسبة؟ لابد أن نقول في الجواب إن للإنسان مصادر مهمة طيلة عمره ينهمك في تأمينها واستهلاكها.

والمحاسبة أن يراقب ما الذي يحصل عليه من تأمين هذه المصادر القيمة كالعمر والعقل والدين والإيمان وما شابه ذلك كما ينبغي؟ الله محاسب ورغم أن علمه مطلق فقد صنع سجل عمل لجميع الأفراد وسيحاسبهم على أعمالهم وعقائدهم وسلوكياتهم، ويا له من سجل دقيق ومنظم بحيث يحصي أصغر أعمال الإنسان[١].

ويجري جميع نظام الوجود على أساس الحساب مع أنه لا يعتبر حتى قطرة من بحر عالم الوجود؟ لابدّ أن نحاسب أنفسنا مرة كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر: كم أدينا من عبادة خالصة؟ كم خدمنا الآخرين؟ ما مدى تجاوزنا لحقوقنا؟ هل ضيعنا حقوق الآخرين؟ ألسنا مدينين للآخرين؟ ومئات الأسئلة الأخرى: لأننا سنهزم إن لم نكن من أهل الحساب، سننبه فجأة إلى ضياع كل مصادرنا دون أن نظفر بشيء. ويتضح ممال تقدم كيف يستفيد من يخوض في محاسبة نفسه وما مدى الخسران الذي يصيب من يغفل عن حساب نفسه[٢].

وقال (عليه السلام): **أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه.**

مما لاشك فيه أن عملية الترويض بمختلف أشكاله ومستوياته تثمر نتائج جيدة تنفع في مجالات عديدة، والدعوة من الإمام (ع) موجهة لممارسة هذه العملية مع النفس وهو أمر يجمع بين السهولة والصعوبة.

فمن منطلق القرب فالنفس شيء إلى بدن الإنسان لاحتوائه لها وإدراكه الأشياء عن طريقها فيسهل الترويض.

ومن منطلق التباين بين النفس الإنسانية والتعاليم السماوية تبدأ مرحلة الصعوبة لأن التعاليم تتضمن مجموعة من الأوامر والنواهي التي يصعب على الإنسان الاستجابة لها إلا بالترويض والتعويد تدريجياً لأن الفعل المستعجل تكون ردة فعل قوية جداً على مختلف التقادير، فالتدرج ومحاولة الإقناع بالفائدة المرجوّة من العمل أمر ضروري في هذه العملية، فإذا عرف الإنسان أن هذه التعاليم لمصلحته وتدور حول فائدته الدنيوية أو الأخروية، المادية، أو المعنوية، آمن بضرورة الامتثال، أو الانتهاء. ومن الضروري إيجاد وسائل دعم وتشجيع للمواصلة فكان منها هذه الحكمة منه (ع) ليتحفز الإنسان في أداء العمل المطلوب ولو لم يتلائم مع هواه، ما دام أنه الأفضل وكلنا يسعى نحو الأفضل، فلا بد من استيعاب هذه

---

(١) المصدر نفسه، وللوقوف على شرح المباحث المتعلقة بصحيفة الأعمال راجع نفحات القرآن، ج ٦، ص ٧٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٩٧ ـ ٩٨.

الحكمة جيداً لئلا يقع الإنسان في مطبّات المخالفة والمعصية على أساس أن العمل المنهي عنه من الأمور الشخصية الطبيعية فلا حق أحد في تحجيم هذه الحرية، أو العمل المأمور به مما لا يرغب به. لأن القضية غير متروكة للاختيار بعد الالتزام بموجب الميثاق الإسلامي. ولابد من المخالفة للأهواء الباطلة التي تبتعد بصاحبها عن طريق الحق والصراط المستقيم، وأيضاً لابد من تحمل المتاعب الجسمية انتظاراً لما أعده الله تعالى في الدنيا والآخرة من الثواب الجزيل بمختلف أشكاله[1].

وقال (ع) في التقوى:

(لا يقل عمل مع التقوى، وكيف يقل ما يتقبل).

الدعوة إلى التقوى ومجانبة المحرمات لنكون من المتقين حقاً لا مجرد رفع الشعارات التي يعتاد رفعها لدى قطاع المتدينين بما يجعل القضية تدور ضمن إطار العادة والاعتياد بل لابد أن نكون صادقين فيما نقول، مستعدين للتطبيق غير متنازلين عن المبدأ مهما حصل لنكون حقاً من المتدينين المتقين وإلا لأصبح الاسم غير مطابق للمسمى ولكانت التسمية أقرب إلى الادّعاء منها إلى الواقع والحقيقة.

فلابد أن لا يعتبر العمل قليلاً أو صغير الحجم أو من دون بذل قليلاً أو صغير الحجم أو من دون بذل مجهول كبير فيستقل لذلك لان العمدة القبول والتوصل من خلال العمل إلى رضا الله سبحانه والبركة والتوفيق وسائر ما يتمناه لأنه عندما يقدم على عمل ما فإنه لولا المحفزات القبولية لما كان متشجعاً نحو انجاز العمل.

إذن فالهدف هو القبول، والقبول مقرون بالتقوى وقد قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧)، فإذا قبل العمل فهذا أقصى المنى وإلا فما الفائدة من الكثرة[2].

فالدعوة إلى أن يقرن الإنسان أعماله بإرادة رضا الله تعالى ومسايرة التقوى في جميع الأمور بما يجعل الأمر وفق المقاييس الشرعية وإلا فلا يقبل مهما كان حجمه أو تأثيره لأن

---

(١) أخلاق الإمام علي (عليه السلام)، محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان، ط٢، ١٤٢٧هـ، دار المرتضى، ص ١٠١ ـ ١٠٢، بيروت.

(٢) قد يدور في ذهن البعض في لحظة ضعف يواجهها من نفسه وأمامهم فلا يهتم بالمعروض عليه على أساس قلة حجمه أو عدم الكلفة فيه وقد افترض في نفسه القيام بالصعاب والمهمات وهذا عمل قليل غير صعب فيوكل القيام به إلى غيره ممن هم اقل قدرة منه، ونحو ذلك مما يفكر به البعض بل ويتعاملون على أساسه، وكأنهم قد اختاروا لأنفسهم مواقع معينة يخدمون من خلالها أنفسهم والمجتمع من حواليهم غير مبالين بما هو أهم وأهم من القبول والوصول ولكنهم قد تناسوا الهدف الأسمى الذي يسعون إليه ألا وهو القبول وهو ما لا يحصل إلاّ مع تقوى العبد وورعه عن محارم الله، وخوفه من الله عز وجل.

المدار والاعتماد على المقبول من الأعمال لا غير، فليكن همّنا قبول أعمالنا لا كمية أعمالنا والقبول لا نحرزه إلا بالتقوى، وفقنا الله تعالى لذلك[١].

الحياة الروحية عند الإمام أمير المؤمنين (ع):

يتمثل الجانب الروحي في شخصية الإنسان في مجموعة من العناصر النفسية الداخلية المنشدة إلى الله تعالى، والمرتبطة به، بصائر وعواطف، وإرادة، فإيمانك بالله تعالى واطمئنانك له، وخوفك منه، ورجاؤك فيه، وحبه وأمثال ذلك هي المعاني التي يشكل منها الجانب الروحي.

وأما الصلاة وتلاوة القرآن وما شاكل، فهي وسيلة التربية الروحية والإعداد الروحي، وليست هي في ذاتها عناصر روحية.

ومن روائع دين الله، أنه لم يحث على ربط القلب والإدارة بالله تعالى ولم يلزم به فقط وإنما بين طريق ذلك وأسلوبه الصحيح، وتسهيلاً للناس وتوضيحاً للسبيل المستقيم في أن مسألة قابلية الانقسام في التربية الروحية تقوم على أساس من القوانين النفسية، ونظم الترابط بين الذهن، القلب، الإدارة، والسلوك وليس المقصود من أن الإسلام بين الطريق إلى التربية الروحية وتنمية الصلة النفسية بالله تعالى، وأنه قد تحمل مسؤولية للتربية والبناء على الإنسان المسلم، وإنما كل ما فعله هو أن وضح المعالم، ورسم الطريق، وعلى المسلم أن يبادر، ويعاني في سلوك هذا الطريق حتى ينتهي أخيراً إلى الدرجة اللائقة من الله بالله والعلاقة الروحية به[٢].

وهكذا فإن بناء الجانب الروحي والتربية الروحية لا تتم بالشكل الصحيح إلا بشروط ثلاثة:

١ ـ **الشرط التكويني:** وهو وجود قوانين تحكم العلاقة بين الجانب الروحي والصلة النفسية بالله. وبين مجموعة من المواقف والأعمال يمكن من خلالها أداء هذه الأعمال، وعلى أساس الترابط الموجودة بين الفعل، والجانب الروحي بالله تعالى، وقد تكفل الله سبحانه بهذا الشرط في النظام التكويني للأشياء ويكشف القرآن في آيات متعددة ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢) عن الكثير من هذه القوانين النفسية، والترابطات الموجودة بين أجهزة الشخصية الإنسانية ويقيم على أساس من ذلك نظامه التربوية.

---

(١) أخلاق الإمام علي (عليه السلام)، محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان، ط٢، ١٤٢٧هـ، دار المرتضى، ص٣١٤ ـ ٣١٦، بيروت.

(٢) الدروس الأخلاقية والتربية الروحية، آية الله مكارم الشيرازي، ص٣٤٦.

٢ ـ **الشرط التشريعي**: وهو وضوح الوسائل والمواقف التي تؤدي إلى تلك النتائج النفسية بحكم القانون النفسي المغروس فطرياً، والمودع في جهاز التكوين البشري، وقد قام الإسلام بذلك.

٣ ـ **المبادرة الفردية**: والمعاناة في إتباع هذا الخط وتبني هذه الوسائل، وإنتاجها وإذا كان الشرط الأول من مهمات الجانب التكويني في خلق الإنسان، وكان الشرط الثاني من مهمات الإسلام التشريعية فإن الشرط الثالث كما هو واضح من مهمات الفرد، الإنسان المسلم نفسه، وليس من مهمات الإنسان المسلم أن يستحدث وسائل عبادية منه، وأساليب للتربية الروحية[١] وعلى هذا الأساس فقد قسَّم القرآن الكريم المتقين والذين نالوا مقام القرب الإلهي إلى "أصحاب الميمنة" و"الأبرار" و"المتقين"، كما اعتبر أن مقام "المقربين" هو أعلى من سائر المقامات الأخرى، وذكر أن إحدى علامات هذه الأفضلية على اطلاع المقربين على خفايا الفجوات في خواطر الأبرار وإشرافهم على الرموز المسطورة في صحائف أعمالهم والتي تعود كلها إلى عقائد وأخلاق وأفعال الأبرار التي يكون المقربين شاهدين لها: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ (المطففين: ١٨ ـ ٢١) والظاهر أن الشهود المذكورة في الآية هو نفسه العلم الحضوري لا الحصولي.

وعلى الرغم من أن الآية المذكورة لم تكن صريحة في إثبات العلم الحضوري للمقربين لجميع عالم الخلقة، إلا أن لها القدرة على إثبات علمهم الحضوري بقسم واسع من صحيفة عقائد الناس وأخلاقهم وأعمالهم من ذوي المراتب الدنيا بالنسبة لهم بلحاظ الدرجة الوجودية وبما أن علي بن أبي طالب (ع) هو أكمل مصداق للمقربين لله. وعليه، فإنه حتماً يكون مطّلعاً على باطن وظاهر إعمال جميع المجتمعات البشرية كما يشمل ذلك بلحاظ الدرجة الوجودية كل ماله درجة أدنى من ذلك ليكون مشهوداً لعلي (ع)[٢].

وقد كانت عبادة الإمام علي (ع) لله تعالى كعبادة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في صلاته وخشوعه... حتى قال مطرف بن عبد الله: (صليت أنا وعمران ابن حصين خلف علي بن أبي طالب، فلما انصرفنا أخذ عمران بيدي فقال: فقد صلى صلاة محمد، ولقد ذكرني صلاة محمد).

وقيل: (إنه لم يقدر أحد أن يحكي صلاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا علي، ولا صلاة علي إلا علي بن الحسين (ع)[٣].

---

(١) الدروس الأخلاقية والتربية الروحية، آية الله مكارم الشيرازي ص ٣٤٧.

(٢) الحياة العرفانية للإمام علي (عليه السلام)، العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي، ط ٢، دار الإسراء، ١٤٣٢، ص ٣٨ ـ ٣٩، بيروت.

(٣) الحياة الروحية في سيرة النبي والأئمة عليهم السلام، السيد حسين نجيب محمد، ط١، ١٤٣١هـ دار العلوم، ص١٩٥، بيروت.

صلاته (ع):

كان الإمام علي (ع) إذا حضر وقت الصلاة تلون وتزلزل، فقيل له: مالك؟ فيقول: (جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان على ضعفه، فلا أدري أحسن إذا حملت أم لا؟).

وكان (ع) يستغرق في عبادة الله تعالى بحيث يكون (كأنه بناء ثابت أو عمود قائم لا يتحرك، وكأنه ربما ركع أو سجد فيقع الطير عليه).

ويروى (أنه عليه السلام كان كثيراً ما تصيبه الجراحات في الحروب فكانوا إذا أرادوا إخراج النشاب والحديد من جسده تركوه حتى يصلي فإذا أشغل بالصلاة وأقبل على الله أخرجوا الحديد من جسده ولم يحس بالألم من شدة توجه إلى الله تعالى).

قال ابن أبي الحديد: (وأما العبادة، فكان أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصوماً، ومنه تعلم الناس صلاة الليل، وملازمة الأوراد، وقيام النافلة، وما ظنك برجل يبلغ من محافظته على ورده أن يبسط له نطع بين الصفين ليلة الهرير فيصلي عليه ورده والسهام بين يديه، وتُمر على صماخيه يميناً وشمالاً فلا يرتاع لذلك، ويقوم حتى يفرغ من وظيفته؟ وما ظنك برجل كانت جبهته كثفنة البعير لطول سجوده؟ وأنت إذا تأملت دعواته ومناجاته، ووقفت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه وإجلاله، ما ينطوي عليه من الإخلاص، وفهمت من أي قلب خرجت، وعلى أي لسان جرت)[1].

"علي (ع) أمام المتقين وسيد العابدين":

أما في التقوى فهو سيد المتقين والممتاز بأعلى درجات اليقين والإنسان كلما أزداد يقيناً أزداد تقوى، ولقد أشتهر الخبر عنه ونقل أكثر العلماء والمحدثين ذلك، وعن محمد بن طلحة العدوي النصيبي في كتابة مطالب السؤول/الفصل السابع قال (وقد كان علي (ع) منطوياً على يقين لا غاية لمداه ولانهاية لمنتهاه وقد صرح بذلك تصريحاً مبيناً فقال (ع) لو كشف الغطاء ما أزدت يقيناً) فكانت عبادته إلى الغاية القصوى تبعاً ليقينه وطاعته في الذروة العليا لمتانة دينه. ولقد لقبة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأمام المتقين كما روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ورواه الحافظ أبو نعيم في حليه الأولياء، والعلامة الهمداني في كتابه (مودة الغربى) والعلامة الشافعي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا أنس أسكب لي وضوءاً، فتوضأ وصلى ركعتين. ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا أنس أوّل من يدخل من هذا الباب هو أمير المؤمنين وأمام المتقين وسيد المسلمين وقائد الغر المحجلين وخاتم الوصيين. قال أنس: قلت: اللهم اجعله رجلاً من الأنصار

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٥ - ١٩٦.

وكتمته، أذجاء علي (ع) فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) من هذا يا أنس: قلت علي بن أبي طالب. فقام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مستبشراً فاعتنقه ثم يجعل يمسح عرق وجهه بوجهه ويمسح عرق علي بوجهه، قال عَلي (ع) يا رسول الله لقد رأيتك صنعت بي شيئاً ما صنعت بي قبل. قال: وما يمنعني وأنت تؤدي عني وتسمعهم صوتي وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدي) وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد قال (صلى الله عليه وآله وسلم) (مرحباً بسيد المسلمين وأمام المتقين) رواه عن الحافظ أبي نعيم في الحلية. وقال محمد بن طلحه في كتاب مطالب السؤول. إما حصول صفه التقوى له فقد أثبتها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأبلغ الطرق وأعلاها فأنه قال له يوماً (مرحباً بسيد المسلمين وأمام المتقين) ثم قال: إذا وصفه بكونه أمام أهل التقوى كان مقدماً عليهم بزيادة تقواه.. وروى العلامة الكنجي بسنده عن عبد الله بن أسعد ابن زراره قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (لما أسري بي إلى السماء انتهى بي إلى قصر من لؤلؤ فراشه من ذهب يتلألأ، فأوض إليَّ وأمرني في عليّ بثلاث خصال: بأنه سيد المسلمين وأمام المتقين وقائد الغر المحجلين)[1].

وروى أحمد في المسند أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوماً خاطب علياً (ع) فقال: يا عليَّ النظر إلى وجهك عبادة، أنك أمام المتقين وسيد المؤمنين من أحبك فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله ومن أبغضك فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله. من الواضح انه إذا وصف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أحداً وأعطاه اللقب فإن مدحه للشخص يغرق سائر الناس فربما وصف الناس ملكاً وسلطاناً بما لا يليق به فيغالون في الوصف والمدح. كمدح الوزراء والسلاطين. ولكن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) منزه عن التملق والمغالاة في مدح الأشخاص ولا يقول ألاحقاً ولا يصف ألا واقعاً بل في مثل هذه القضايا فهو (صلى الله عليه وآله وسلم) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ ولاسيما في هذا الأمر إذ يؤكد (صلى الله عليه وآله وسلم) (ليلة أسرى بي إلى السماء أوحي وأمرني في عليّ (ع) بثلاث خصال: بأنه سيد المسلمين وأمام المتقين، وقائد الغر المحجلين) فهذه الخصائص عظيمة ومقامات كريمة خص الله تعالى بها وليّهُ علي بن أبي طالب (ع) على لسان خاتم الأنبياء وسيد رسله وفي الأمالي عن عروة بن الزبير قال: كنا جلوساً في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتذاكرنا أعمال بدر وبيعة الرضوان، فقال أبو الدرداء: يا قوم إلا أخبركم بأقل القوم مالاً وأكثرهم ورعاً وأشدهم اجتهاداً في العبادة؟ فقالوا: من؟ قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) قال فو الله أن كان في جماعة أهل المجلس إلا معرض بوجهه عنه، ثم انتدب له رجل من الأنصار فقال له يا عويمر لقد تكلمت بكلمة ما وافقك عليها أحد منذ أتيت بها، فقال أبو الدرداء يا قوم أني قائل ما رأيت، وليقل كل قوم منكم ما رآه،

---

(١) العلامة محمد بن يوسف الكنجي الشافعي في كفاية الطالب ـ باب ٤٥.

شهدت علي بن أبي طالب (ع) بشويحطات (أشجار) النجا، وقد أعتزل عن مواليه واختفى ممن يليه وأستتر بغيلات النخل، فافتقدته وبعد علي مكانه، فقلت: لحق بمنزله، فإذا أنا بصوت حزين ونغمه شجي وهو يقول (إلهي كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنعمتك، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك، إلهي أن طال في عصيانك عمري وعظم في الصحف ذنبي فما أنا بمؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك فشغلني الصوت واقتفيت الأثر، فإذا هو علي بن أبي طالب (ع) بعينه فاسترت له وأخملت الحركة فركع ركعات في جوف الليل الغابر، ثم فرغ إلى الدعاء والبكاء والبث والشكوى[1].

فكان مما به الله ناجاه أن قال (آه من نار تنضج الأكباد والكلى، آه من نار نزاعه للشوي، آه من غمرة من ملهيات لظى) قال: ثم أنغمر في البكاء فلم أسمع له حساً ولا حركة فقلت غلب عليه النوم لطول السهر، أوقظه لصلاة الفجر قال أبو الدرداء: (فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة فحركته فلم يتحرك وزيته فلم ينزو) فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، مات والله علي بن أبي طالب قال: فأتيت منزله مبادراً أنعاه إليهم فقالت فاطمة (ع): يا أبا الدرداء ما كان من شأنه وما قصته؟ فأخبرها الخبر، فقالت: هي والله يا أبا الدرداء الغشية التي تأخذه من خشيه الله ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه فأفاق، ونظر إلي وأنا أبكي، فقال: مما بكاؤك يا أبا الدرداء؟ فقلت: ما أراه تنزله بنفسك فقال: يا أبا الدرداء فكيف ولو رأيتني ودعي به إلى الحساب وأيقن أهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني الملائكة غلاظ وزبانيه غظاظ فوقفت بين يدي الملك الجبار قد أسلمني الإحياء ورحمني أهل الدنيا، لكنت أشد رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية فقال أبا الدرداء: فو الله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي بحار الأنوار من قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال يوم برز أمير المؤمنين لعمر بن ود العامري (برز الإيمان كله إلى الشرك كله) فعدل به إيمان كل مؤمن، كما عدل بشرك عمرو بشرك كل مشرك وظاهر هذا قول مع سلامته من لفظ الاستثناء عام وشامل وعمومه لا يخرج منه إلا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) للإجماع ولأن المفضل لا يدخل في جمله من فضل وهذا يقتضي أن أمير المؤمنين (ع) يقوم مقام كل من آمن برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (ذكر علي عباده والنظر إلى علي عبادة) فيكف بعبادة علي! وقال علي بن الحسين (زين العباد): وهو يقرأ في أوراق فيها عن عبادة علي، أين أنا وعباد علي (ع) وهو الملقب بالسجاد لكثرة السجود وعبادته وقيل لعلي بن الحسين (ع) وكان لغاية في العبادة أين عبادتك من عباده جدك؟ قال: عبادتي عن عبادة جدي كعبادة جدي عن عبادة رسول الله (صلى الله عليه

---

(١) العلامة الكنجي في كفاية الطالب ـ باب٤٥ رواه الحاكم في المستدرك ج ٣ ـ ص ١٣٨.

وآله وسلم) وعن صفوان الجمال قال: لي الصادق (ع) حث في ناحيتك على الصوم شعبان فقلت: جعلت فداك ترى فيه شيئاً فقال: نعم إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان إذا رأى هلال شعبان أمر ينادي في المدينة يا أهل يثرب إني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إليكم الآن شعبان شهري فرحم الله من أعانني على شهري[١].

ثم قال أن أمير المؤمنين كان يقول: ما فاتني صوم شعبان منذ سمعت منادي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ينادي في شعبان ولن يفوتني بأيام حياتي صوم شعبان إن شاء الله تعالى وكان أمير المؤمنين (ع) يؤدي أكثر من عبادة في وقت واحد ولم يكن أحداً يسبقه بذلك من الصحابة وغيرهم. وقصة التصرف بالخاتم من الروايات المشهورة عندما كان يصلي وهو في ركوعه تصدق بالخاتم عندما سمع السائل وقد نزلت آية تشتهر بفضله وفي سورة المائدة ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ وقد قال علي بن الحسن (ع) كان جدي أمير المؤمنين (ع) يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، وكان له بستان فيه أكثر من (٥٠٠ نخلة) كان يصلي عند كل نخلة ركعتين. وقد ذكر العلماء أن أمير المؤمنين (ع) كان طول الوقت في عبادة وصلاة حتى وهو يعمل في بستانه لأن النوافل والمستحبات لا تحتاج للتوجه إلى القبلة ولا إلى ركوع أو سجود ويمكن الإيماء بالصلاة.

تعريف الرسول الأكرم (ص) للإمام علي (ع):

إن اقوال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حول جامعية أمير المؤمنين (ع) هي التالي: من أراد علم آدم وفهم نوح وحلم إبراهيم عليهم السلام وزهد يحيى بن زكريا وبطش وشجاعة موسى عليهم السلام فليطلب علي بن أبي طالب (ع)[٢].

وإن كان يمكن لوصف علي بن أبي طالب (ع) بأنه "عمود الدين"[٣] أن يعبر عن المقام العلوي الأسمى: مثلما ورد عنه (ع) أنه: "قسيم الجنة والنار"[٤] والتي تتحدث عن عمق وسمك خاصين إلى جانب وصفه (ع) بأنه "باب مدينة العلم"[٥] و"باب مدينة الحكمة" وهو ما يكشف عن العظمة الخاصة له (صلى الله عليه وآله وسلم).

خصوصاً تعبير الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) عنه بمدينة الحكمة كما أطلق عليه تسمية الجنة حيث قال: "يا علي أنا مدينة الحكمة وهي الجنة وأنت يا علي بابها

---

(١) أخرجه المصنف في كنز الفوائد وبحار الأنوار ح ٢٠ ـ ص ٢١٥ والجاحظ في العثمانية ـ ص ٣٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٠ نقلاً عن البداية والنهاية، ص ٧. ح ٣٥٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٠ نقلاً عن مناقب ابن آشوب، ج٣، . ص٧٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٩٠ نقلاً عن الخصال، ص٤٩٦، ح٥.

(٥) المصدر نفسه، ص٩٠ نقلاً عن البحار، ج٣٩، ص ٢١٠.

وكيف يهتدي المهتدي إلى الجنة اليها إلا من بابها"[١] وبما أن علياً (ع) هو باب مدينة الحكمة والحكمة حالياً هي الجنة لذا فإن علياً (ع) يكون حالياً في الجنة. وعلى هذا الأساس، قد نقل عن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): "علي في الجنة" أي أن علي بن أبي طالب (ع) حالياً هو في الجنة[٢] لا إنه لا يرد الجنة إلا يوم القيامة[٣].

ختامه مسك:

البحث في أن الإمام أمير المؤمنين (ع) قدوة صالحة مسك في أوله وآخره ونحن نقف مع آخر سطور هذا المسك فهو ختامه لا خاتمه فللبحث نوافذ أخرى متعددة يعجز المتتبع عن حصرها وعدها فضلاً عن درجها وبيانها في هذه الأسطر القليلة وكان من توفيقات الله تعالى وفضله إن وفقنا بعطاياه التي لا تنفذ فأمرنا بعونه أن نلتمس الطريق نحو الكمال المطلق عبر طريق رسمه لنا فقال تعالى ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ وهذه الرحلة جعلتنا نقف عند بعض النقاط التي يجب الالتزام بها واتباعها في طريقنا للاقتداء بعدل القرآن الكريم الذين هم القمة والمثال الأعلى للإنسان المؤمن الناجح.

المصادر:

- القرآن الكريم.
- الحياة الروحية في سيرة النبي والأئمة عليهم السلام، السيد حسين نجيب محمد، ط١، ١٤٣١هـ دار العلوم، بيروت.
- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي:، م. س. ج٦٧.
- أخلاق الإمام علي ابن أبي طالب (عليه السلام)، خضر القزويني، ١٤٣٢هـ، الناشر العتبة العلوية المقدسة، النجف الأشرف.
- أخلاق الإمام علي (عليه السلام)، محمد صادق السيد محمد رضا الخرسان، ط٢، ١٤٢٧هـ، دار المرتضى، ص٥٣، بيروت.
- منهج الغدير، السيد محمد رضا الشيرازي، دار الأثر، ط٢، ص ٣٢، ١٤٣٣هـ، بيروت.
- نهج البلاغة، شرح محمد عبدة، م.س.ج٤.
- نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام)، شرح ابن أبي الحديد، الناشر: دار الذخائر، قم ـ إيران، ط١، مطبعة النهضة ١٤١٢هـ، ج١٥.
- الحياة العرفانية للإمام علي (عليه السلام)، العلامة الشيخ عبد الله الجوادي الطبري الآملي، ط ٢، دار الإسراء، ١٤٣٢، بيروت.
- الدروس الأخلاقية والتربية الروحية، آية الله مكارم الشيرازي ص٢٣٥ نقلاً عن بحار الأنوار، ج٤. ❖

---

(١) المصدر نفسه، ص٩١ نقلاً عن أمالي الصدوق، ص٤٧٢، ح٦٣٢

(٢) المصدر نفسه، ص ٩١ نقلاً عن سنن أبي داود ج٤، ص ٢١٢، ح٤٦٤٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩١.

الولاية التكوينية
عند الإمام علي بن أبي طالب (ع)
دراسة تحليلية في النصوص القرآنية والأحاديث

د. صادق فوزي العبادي
كلية الزراعة/جامعة الكوفة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله خير من أوصى وعلم الناس وعلى اله الطيبين الأبرار خزائن علم الله وآيات القرآن وحقائق التأويل.

فالحديث عن الإمام علي(ع) هو حديث لا يستطيع أي باحث أو كاتب مهما علا مقامه وعلمه أن يكتب عنه شيئاً فهو بحر من العلم والمعرفة.

فلقد نشأ الإمام علي(ع) في بيت الهداية ومهبط الوحي ومعدن العلم، البيت الذي قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وقد تربى في كنف رسول الله (ص) ولم يفارقه في حله وترحاله طوال فترة حياته أخذ خلالها الإمام علي (ع) مقاليد الإمامة ومواريث النبوة وعلوم رسول الله (ص).

ومن المؤكد للعامة والخاصة أن مقام الإمام أبي الحسن كبير لدرجة تفوق العاطفة والانفعال والمحاباة؛ وقد منحه رب العزة العلم اللدني وعلم الغيب وأطلعه على الأسرار والنوايا القلبية، فكان أعلم أهل زمانه فقد روي عنه (عليه السلام) من أنواع العلوم والمعارف ما فيه هداية للبشرية نحو الخير.

فعلم الإمام المعصوم (ع) كعلم أخيه رسول الله (ص) علم شمولي وهو دون علم رب الجلالة وفوق علم الخلائق كلها: كما قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن: ٢٦ - ٢٧).

وانطلاقاً من ذلك حاولنا الوقوف على الولاية التكوينية المتعلقة بالأمور الغيبية التي تنبأ بها الإمام علي (ع) والتي تؤدي بدورها إلى هداية المخالفين والكفار.

فقد تصدى الإمام أبو الحسن (ع) للذب عن الإسلام والدفاع عنه بكل ما يمكنه فأبطل أوهام المخالفين وزيف شبههم: وبناءً على ذلك سوف يسلط هذا البحث الضوء على الأمور الغيبية والنوايا الداخلية التي أخبر بها الإمام (ع) عن طريق المعاجز والكرامات التي تثبت بدون شك أنه معصوم من قبل الله عزّ وجلّ وأن اطلاعه على الغيب ما هو إلا بإذنٍ من الله سبحانه وتعالى.

فجاء البحث مقسماً على تمهيد عرضنا فيه إلى توضيح علم الإمام (ع) حيث أنّه دائرة علومٍ متنوعةٍ وموسوعة معرفةٍ متكاملةٍ؛ ووقفنا في المبحث الأول عند تعريف الغيب ومدى استخدام هذا العلم من قبل الإمام وانحصاره في الموارد المقررة التي أذن الله عزّ وجلّ فيها فحسب دون سائر الموارد الأخرى حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة، وأوضحنا المعاني المستعملة في القرآن العزيز ودلالة لفظة الغيب الواردة فيه وناقشنا الأدلة التي يستند بها المبطلون لمعرفة الغيب من قبل الأئمة الأطهار (عليهم السلام) ودحضنا أسئلتهم بالبراهين والحجج المأخوذة من النص القرآني وبيننا في المبحث الثاني الشروط اللازمة لجعل الإمام علي (ع) يستعمل الغيب وبذلك يكون الخلاص من المشاكل والصعوبات التي تواجه العقل البشري الفاني وتدفع بالشبهات نحو التفنيد كل ذلك قائمٌ على الروايات والأخبار المعتبرة التي يخبر بها الإمام عن الغيب من خلال كلامه مع الأصحاب والمعاندين.

إن الغيب خلاف الشهادة وينطبق عليه الحس، وهو على نوعين: أولاً، الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلا الله؛ والثاني: هو في معرض المعرفة بغيره تعالى. وهذا النوع الأخير له مفرداتٌ عديدةٌ وكثيرةٌ فربَّ أمرٍ يعدّ شهادة في حق أحد إلا أنه غيب في حق آخر؛ وهذا متأتٍ من طبيعة حجب عالم الملك المادية ومحدودية القوى الإدراكية عند الإنسان وضعف نفوذها.

ويذكر الشيخ ناصر مكارم الشيرازي إن الغيب والشهود نقطتان متقابلتان، عالم الشهود هو عالم المحسوسات، وعالم الغيب هو ما وراء الحس، لأن الغيب في الأصل يعني ما بطن وخفي.

وقيل عن عالم ما وراء المحسوسات (غيب) لخفائه عن حواسنا. والتقابل بين العالمين مذكور في آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الحشر: ٢٢). ويضيف الشيخ بان الإيمان بالغيب هو بالضبط النقطة الفاصلة الأولى بين المؤمنين بالأديان السماوية، وبين منكري الخالق والوحي والقيامة[١].

إن للارتباط بالغيب والتوجه إليه مظاهر واقعية ملحوظة في حياتنا حيث أن الأعمال التي نقوم بها لا تحمل ثمارها في أوانها بل إن ثمارها مؤجلة إلى وقت لاحق هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الانشداد إلى الأمر الغيبي والإيمان به له درجات في الشدة والضعف.

إن روح الإسلام وأساسه يقوم على الإيمان بالغيب: انظر إلى قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ (البقرة: ١ ـ ٣)، وقد فسر الغيب هنا بالإله الذي لم يره المتقون. والآيات التي تشمل الأخبار بالغيب ليست بقليلة، (فقد أخبر القرآن الكريم في عدد من آياته عن أمور مهمة، تتعلق بما يأتي من الأنباء والحوادث، وقد كان في جميع ما أخبر به صادقاً، لم يخالف الواقع في شيء منها. ولا شك في أن هذا من الأخبار بالغيب)[٢].

كالآية الثانية حتى الرابعة من سورة الروم: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٥)، وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ (الفتح: ٢٧)، وغيرها من الآيات الواردة في النص المقدس.

وقد أنكر العديد من الناس والعلماء وجود أو صدور مفردات من علم الغيب من النبي (ص) والأئمة الأطهار (عليهم السلام)، بحجة أن الغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه، نافين ذلك باعتمادهم على فهمهم الخاطئ لبعض آيات القرآن الكريم من نحو قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ (الأعراف: ١٨٨)، إلا أنهم تناسوا أو تغافلوا عن قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن: ٢٦ - ٢٧)، فالله يظهر بعض علوم الغيب وليس كلها لمن يشاء من رسله وغيرهم من عباده لكي تكون الحجة بالغة لرسله على الخلق أجمعين، وليس لتحقيق أهداف شخصية من قبيل جلب الخير ودفع الشر. ثم أنهم نسوا قصة العبد الصالح مع نبي الله موسى (ع) وكيف كان يعلم الغيب بفضل من الله ورضوان.

والأنبياء كما هو معروف لدينا يعلمون الغيب؛ لأنهم رسل من عند الله عزّ وجلّ لذا يطلعهم على غيبه تأكيداً لنبوّتهم، فهل يعد الأئمة الأطهار (عليهم السلام) كالأنبياء من هذه الجهة؟

وللإجابة عن هذا السؤال يمكننا الاعتماد على ما ذكره السيد كمال الحيدري في إثبات أنهم عليهم السلام يعلمون الغيب من خلال أمور:[٣]

أ- روي عن الإمام علي بن موسى الرضا(ع) في سياق حديث: ثم نظر الرضا (عليه السلام) إلى ابن هذاب، فقال: إن أنا أخبرتك أنك ستبتلي في هذه الأيام بدم ذي رحم لك، أكنت مصدقاً لي؟

قال: لا، فإن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى.

قال (ع): أو ليس الله يقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾، فرسول الله عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على ما يشاء من غيبه فعلمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة)[٤].

وذكر السيد الطباطبائي أن الأخبار في هذا الباب فوق حد الإحصاء ومدلولها أن النبي (ص) أخذه بوحي من ربه وأنهم أخذوه بالوراثة منه (ص)[٥].

ب- إن من واضحات القرآن الكريم أنه نزل تبياناً لكل شيء، وتفصيلاً لكل شيء وهدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون، وأهل البيت (ع) لا يفارقون القرآن بمقتضى حديث الثقلين

المتواتر، فلو افترضنا أنهم (عليهم السلام) لا يعلمون كل شيء فيلزم من ذلك مفارقتهم القرآن الكريم لا محالة.

وتعضيداً لما ذكر فإن الشيخ ناصر الشيرازي قد أشار إلى أن هناك طريقان لإثبات حقيقة أن النبي (ص) والأئمة المعصومين الأطهار يعلمون الغيب بصورة إجمالية[٦]، من خلال:

أ- إننا نعلم أن مهمتهم لم تحدد بمكان وزمان خاص، بل إن رسالة النبي (ص) وإمامة الأئمة (عليهم السلام) هي عالمية وخالدة، فكيف يمكن لمن يملك هذه المهمة ألا يعلم شيئاً سوى ما يحيط به وبزمانه؟

وبعبارة أخرى إن النبي (ص) أو الإمام (ع) عليه أن يبين الأحكام الإلهية ويطبقها في فترة حياته، بحيث يلبي احتياجات البشرية في كل زمان ومكان، وهذا لا يمكن إلا بمعرفته على الأقل لقسم من أسرار الغيب.

ب- إن هناك ثلاث آيات في القرآن المجيد إذا وضعت إلى جانب بعضها البعض فسرعان ما يتضح لنا ما يتعلق بعلم الغيب النبي (ص) والأئمة (عليهم السلام) فالأول ما يذكره القرآن حول من أحضر عرش ملكة سبأ في طرفة عين ـ وهو آصف بن برخيا ـ فيقول تعالى في كتابه: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ (النمل: ٤٠)، ونقرأ في آية أخرى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (الرعد: ٤٣)، ومن جهة أخرى نقل في أحاديث مختلفة في كتب الخاصة والعامة أن أبا سعيد الخدري قال سألت النبي (ص) عن معنى الآية ﴿الَّذِي عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ فقال: هو وصي أخي سليمان بن داود، قلت ومن المراد في ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ فقال: ذاك أخي علي بن أبي طالب[٧]. فالملاحظ فيما يقوله أن (علم من الكتاب) الذي جاء فيما يخص (آصف) هو علم جزئي، وأما حينما يقول في (علم الكتاب) الذي ورد فيما يخص عليا (ع) هو علم كلي.

ومن جهة ثالثة نقرأ في الآية (٨٩) من سورة النحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ فمن الواضح أن من يعلم بأسرار مثل هذا الكتاب لابد أن يكون مطّلعاً على أسرار الغيب وهذا دليل واضح على إمكان الاطلاع والمعرفة على أسرار الغيب بأمر من الله لإنسان هو من أولياء الله.

وبهذا يتضح لنا أن المراد من اختصاص علم الغيب بالله تعالى هو العلم الذاتي والاستقلالي، ولهذا لا يعلم الغيب إلا هو وما يعلمه الأنبياء والأئمة فهو من عند الله: وذلك بلطفه وعنايته. ثم أن أسرار الغيب قسمان قسم يعلم به الله وحده ولا يعلمه أحد من الأنبياء أو الأوصياء ألا وهو قيام الساعة وغيرها مما يشابه ذلك: وقسم آخر يعلمه الأنبياء والأوصياء من خلال ما يخبرهم به الله عزّ وجلّ.

التمهيد:

قلنا إن علياً نشأ في بيت النبوة حيث تتلى آيات الله والحكمة فيحظى بالنصيب الأوفى من تعاليم الإسلام وقد حفظ القرآن كله ووقف على أسراره فتفجرت من أنامله البلاغة وظهرت عليه ينابيع الحكمة ويتجلى أثر ذلك واضحاً في نهج البلاغة، وقام الإسلام بسيفه وبات على فراش الرسول مفتدياً له بروحه الطاهرة من مخططات أعداء الله؛ وأخذ عنه القاصي والداني من الناس ولنحيلك إلى مورد واحد من موارده الكثير التي لا تعد ولا تحصى فمثلاً في علم التفسير اشتهر من بين الصحابة حتى أنه قال: سلوني عن كتاب الله فوا لله ما من آية تسألوني عنها إلا أخبركم وما من آية إلا وإنا أعلم بليلٍ نزلت أم بنهارٍ أم في سهلٍ أو جبل، وذكر أيضاً والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم أنزلت إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً؛ وفي مناقب ابن شهر أشوب قال ابن عباس جلُّ ما تعلمت من التفسير من علي بن أبي طالب وابن مسعود إن القرآن أُنزل على سبعة أحرفٍ ما منها إلا له ظهر وإن علي بن أبي طالب علم الظاهر والباطن.

ثم أن أسرار الغيب مثبتة في مكانين الأول منهما في اللوح المحفوظ ـ الخزانة الخاصة لعلم الله وهو غير قابل للتغيير ولا يمكن لأحد أن يعلم عنه شيئاً ـ والثاني لوح المحو والإثبات ـ الذي هو علم المقتضيات وليس العلة التامة ولهذا فهو قابل للتغيير ـ لذا نقرأ في حديث عن الإمام الصادق (ع): (إن لله علماً لا يعلمه إلا هو، وعلماً أعلمه ملائكته ورسله، فما أعلمه ملائكته وأنبيائه ورسله فنحن نعلمه)[٨]. ونقل عن علي بن الحسين (ع) أيضاً أنه قال: (لولا آية في كتاب الله لحدثتكم بما كان وما يكون إلى يوم القيامة) فقيل له: أية آية؟ فقال: قول الله ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٩].

وعليه فعلم الغيب المختص بالله تبارك وتعالى هو الموجود على نحو الاستقلال والغنى، ومن ثم قد يثبت علم الغيب لمخلوق من مخلوقاته تعالى ولكن لا على نحو الاستقلال؛ بل يكون بذلك معتمداً على الله ومحتاجاً إليه.

وممن يعلم الغيب بهذه الكيفية هم الأنبياء والأوصياء ومنهم الأئمة الأطهار، فهؤلاء الذين ارتضى الله عنهم واصطفاهم واستخلصهم لنفسه: فبمقدورهم الإطلاع على مكنونات عالم الغيب بتعليم منه جلَّ وعلا.

ولعل الهدف من عدم إظهار كل علوم الغيب للرسول (ص) والأئمة (عليهم السلام) هو أن لا يتخذهم بعض الناس آلهة من دون الله تعالى كما فعل بعض النصارى عندما اتخذوا عيسى المسيح (ع) إلهاً، وقد نقل الطبرسي في الاحتجاج ما نصه: (أعلم أن الله تعالى لا يخاطب الناس بمشاهدة العيان، ولا يشافههم بالكلام، ولكنه جلت عظمته يبعث إليهم من أجناسهم وأصنافهم بشراً مثلهم ولو بعث إليهم رسلاً من غير صنفهم وصورهم لنفروا عنهم، ولم يقبلوا منهم، فلما جاؤوهم وكانوا من جنسهم يأكلون الطعام، ويمشون في

الأسواق قالوا لهم: أنتم بشر مثلنا لا نقبل منكم حتى تأتونا بشيء نعجز عنه، من أن نأتي بمثله، فنعلم أنكم مخصوصون دوننا بما لا نقدر عليه فجعل الله عزّ وجلّ لهم المعجزات التي يعجز عنها... فلما أتوا بمثل ذلك، وعجز الخلق من أممهم عن أن يأتوا بمثله كان تقدير الله جل جلاله ولطفه بعباده وحكمته أن جعل أنبياءه مع هذه المعجزات في حال غالبين وأخرى مغلوبين وفي حال قاهرين وأخرى مقهورين ولو جعلهم الله في جميع أحوالهم غالبين وقاهرين ولم يبتلهم ولم يمتحنهم لاتخذهم الناس إلهة من دون الله عزّ وجلّ ولما عرف فضل صبرهم على البلاء والمحن والاختبار ولكنه جعل أحوالهم في ذلك كأحوال غيرهم ليكونوا في حال المحنة والبلوى صابرين، وفي حال العافية والظهور على الأعداء شاكرين، ويكونوا في جميع أحوالهم متواضعين غير شامخين ولا متجبرين وليعلم العباد أن لهم إلهاً هو خالقهم ومدبرهم فيعبدوه ويطيعوا رسله)[١٠]. من هنا كان استعمال علم الغيب من قبل الإمام علي (ع) ينحصر في الموارد المقررة التي أذن الله فيها فحسب دون سائر الموارد مضافاً إلى أنه (عليه السلام) أسوة للبشرية جمعاء، فإذا كان يعمل دائماً بالغيب في أعماله لم يكن أسوة للناس: لأن الناس حينئذ سوف تقول: لا يمكننا أن نتبع الأمام لأنه يعلم بالغيب ونحن نفقدها فهو لا يخطئ لعلمه بالغيب.

المبحث الأول

والغيب لغة: كل ما غاب عنك، أو غاب عن العيون، وان كان محصلاً في القلوب، ويقال: سمعت صوتاً من وراء الغيب، أي من موضع لا أراه، وقيل كل مكان لا يدرى ما فيه فهو غيب[١١] . وعليه يكون الغيب هو ما غاب عن مدركات الحس، فالأشياء المحسوسة التي نراها ونلمسها ولا يختلف فيها أحد أما الغيب فهو الشيء الذي ليس له مقدمات ولا يمكن أن يصل إليه علم خلق من خلق الله حتى ملائكته بدليل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (البقرة: ٣١ - ٣٣)، وكذلك الجن بدليل موت نبي الله سليمان ولم تعلم الجن بذلك على الرغم من أنها سخرت له من قبل الله عزّ وجلّ إلا بعد أن أكلت دابة الأرض منساته. ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم من يشاء من عباده ما يشاء من غيبه ويكون هذا معجزة لهم ولمن أتبعهم.

ولو تتبعنا معاني الغيب في النص القرآني فهو مرة يعني الإيمان بالله في قوله تعالى: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (البقرة: ٣)، أو يعني يؤمنون بما غاب عن العباد من أمر الجنة والنار، ويعني أخبار الأمم السابقة وأنباء قصصهم وذلك في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ (آل عمران: ٤٤)، ومرة يعني الأسرار الشخصية أو العمل سراً في قوله تعالى: ﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن

يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (المائدة: ٩٤)، و ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (يوسف: ٥٢)، و ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ ﴾ (فاطر: ١٨)، و ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (يس: ١١): ومن خلال التمعن والتدبر في آيات النص المقدس المختلفة يتضح لنا إن الآيات الواردة بشأن الغيب تقسم على:

أ- ما يتعلق بذاته المقدسة ولا يعلمه إلا هو كما في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام: ٥٩)، و ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (النمل: ٦٥)، و ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ (الأنعام: ٥٠)، و﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ (يونس: ٢٠)، وغيرها من آيات الكتاب المعجز.

ب- يخبر بوضوح لا شك فيه عن إطلاع أولياء الله على الغيب سواء كانوا أنبياء أم أوصياء كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (آل عمران: ١٧٩)، فالله يهب الغيب لمن يرتضيه من رسله وذلك لأن استثناء النفي إثبات. فقد سئل الإمام علي (ع) عن علم النبي (ص) فقال: علم النبي علم جميع النبيين وعلم ما كان وعلم ما هو كائن إلى قيام الساعة، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأعلم علم النبي وعلم ما كان وعلم ما هو كائن فيما بيني وبين قيام الساعة[١٢].

وعليه فإن نفي علم الغيب عنه معناه أنه لا يعلم ذلك من نفسه بغير تعليمه تعالى بوحي أو إلهام وإلا فالظاهر أن عمدة معجزات الأنبياء والأوصياء عليهم السلام من هذا النوع واحد أوجه إعجاز القرآن الكريم من خلال اشتماله على الأخبار بالمغيبات ونحن نعرف العديد من المغيبات بإخبار الله تعالى ورسوله والأئمة الأطهار من قبيل يوم القيامة والرجعة وأحوال النار والجنة وغير ذلك.

وقد تضمنت كتب الحديث المعتمدة عند غير علماء الشيعة الأمامية على أبواب كاملة في علم الغيب ففي صحيح البخاري وسنن ابن ماجة نجد (كتاب الفتن) وفي صحيح مسلم (كتاب الفتن وأشراط الساعة) حيث إن الأحاديث تتكلم عن أمور غيبية تقع في المستقبل البعيد عن عصرهم فمثلاً ما تناقلته هذه الكتب حادثة فتح خيبر عندما ندب النبي (ص) علياً لفتح خيبر بعد أن رد عنها حامل الراية مرة بعد أخرى، قائلاً أمام المسلمين: (لأعطين الراية غداً، رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله كرار غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يده) ثم أعطى الراية إلى الإمام علي (ع) فلم يرجع إلا منتصراً[١٣].

ومن المعروف إن الوحي السماوي الذي يهبط على الرسل هو نوع من الغيب الذي أطلعهم الله عليه، فكيف يمكن أن ننفي إطلاعهم بالغيب في الوقت الذي يهبط عليهم الوحي، فضلاً عن ذلك كله فإن هناك العديد من الروايات التي تدل على أن النبي (ص) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) مطلعون على الغيب، ويخبرون به أحياناً، فمثلاً إخبارهم بحوادث معركة مؤتة واستشهاد جعفر الطيار (ع) وبعض القادة المسلمين في الوقت الذي كان الرسول (ص) يطلع الناس على ذلك في المدينة[١٤]. وكذلك حادثة فتح

مكة. وما روي عن أمير المؤمنين عن طريق الخاصة والعامة في قوله لحجر بن قيس: (إنك من بدى تجبر على لعني)[١٥] وما قاله كميل بن زياد للحجاج إن أمير المؤمنين علياً (ع) قد أخبرني بأنك قاتلي[١٦].

فالغيب على هذا النحو يقسم على قسمين:

قسم هو غيب عند الكل، وقسم هو غيب عند بعض شهادة عند آخر، والأول قد يعبر عنه بالعلم المكفوف وهو مختص بالله سبحانه وعليه يحمل الأدلة الدالة على أن الغيب لله.

والثاني هو المعبر عنه بالعلم المبذول وعليه يحمل الأدلة المثبتة لعلمهم بالغيب[١٧]. وعليه فإن المراد بالغيب ما غاب عن الحس، فإذا قيل غيب الله يراد به ما غاب عن بعض خلقه أو عن كلهم، لأن الله عزّ وجلّ لم يغب عنه غائبة فلا يكون عنده غيب، وإما خلقه فلهم غيب وشهادة، وقد يكون غيب في أمكان عند بعض شهادة عند بعض آخر، وقد يكون غيب عند الكل.

فأما الأول هو الغيب الذي ارتضاهم عليهم السلام له، وهو غيب عند غيرهم وشهادة عندهم. وإما الثاني وهو ما كان غيباً عند كل الخلق فهو ما دخل في الإمكان وأحاطت به المشية إلا أنه لم تتعلق به تعلق التكوين، وهذا لا يتنافى ولا ينفذ أبداً وذلك هو خزائنه التي لا تفنى ولا يتصور فيها نقص بكثرة الإنفاق، فهو عزّ وجلّ ينفق منها كيف يشاء والذي ينفق منه في أوقات الإنفاق وأمكنته ينزل من الغيب إلى البيوت التي ارتضاهم لغيبه وينزل من أبوابها ما يشاء، وذلك المخزون منه محتوم ومنه موقوف فالمحتوم منه ما لا يمكن تغييره وهو كون ما كان فإنه لا يمكن بعد أن كان ألا يكون، ومنه ما يمكن تغييره ولكنه وعد ألا يغيره وهو لا يخلف الميعاد وقال تعالى في محتوم الخير: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾، وفي محتوم الشر: ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين، وهذا المحتوم لو شاء غيره ومحاه.

والموقوف مشروط فيكون كذا إن حصل كذا وإن لم يحصل كذا لكان كذا وكذا، والشرط هو السبب وأما المانع فقد يكون في الغيب والشهادة، وقد يكون في الغيب ولا يكون في الشهادة لأنه إذا وجد في الشهادة وجد في الغيب ولا يلزم العكس.

فإذا وجد المقتضى فان وجد المانع منه فإن اعتدلا فهو الموقوف وإن رجح أحدهما فالحكم له، فإذا وجد المقتضى وفقد المانع فإن فقد في الغيب والشهادة حتم وجوده، فإن تمت قوابله وجد ووصل إليهم علمه لأنه مما شاء، وإن انتظرت جاز في الحكمة الإخبار به فيخبر به على جهة الحتم ولا بد أن يكون إلا أنه قبل كونه في الصفحة الثانية من اللوح، وهذا عندهم عليهم السلام ومنه ما كان ومنه ما يكون، وإلى هذا القسم أشاروا عليهم السلام في إخبارهم إن عندنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

وإن فقد المانع في الغيب خاصة جاز في الحكمة الأخبار به فيخبر به من غير حتم، وهذا قد يكون وقد لا يكون، والفائدة في الإخبار به مع أنه سبحانه لا يكذب نفسه ولا يكذب أنبيائه ورسله وحججه هي إظهار التوحيد بالخلق والأمر والاستقلال بالملك وإرشاد الخلق إلى اعتقاد البداء، لأنه ما عبد الله شيء أفضل من البداء أي إثبات البداء لله تعالى، وهذا يجوز للحجج الإخبار به لا على سبيل الحتم بل عليهم أن يعرفوا من لا يعرفوا إن الله يفعل ما يشاء إنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. ولهذا قالوا عليهم السلام ما معناه إذا أخبرناكم بأمر فكان كما قلنا فقالوا صدق الله ورسوله وإن كان بخلاف ذلك فقولوا صدق الله ورسوله توجروا مرتين[١٨].

إن علم الإمام كعلم رسول الله (ص) علم شمولي لدني وهو دون علم الباري سبحانه وتعالى وفوق علم جميع الخلائق: ومن الأئمة الذين كانوا على اطلاع بالغيب صاحب هذا البحث الإمام أبو الحسن (ع) فعلمه بالنوايا نوع من علم الغيب الذي منحه الله له فالإمام علي (ع) يعلم كل شؤون الناس (والله لو شئت أن أخبر كل رجل منكم بمخرجه ومولجه وجميع شانه لفعلت) أي لو شاء الإمام علي لأخبر كل واحد من الناس بأنه من أين خرج وأين دخل وكيفية خروجه وولوجه ويخبر بجميع شأنه وشغله من أفعاله وأقواله ومطمعه ومشربه وما أكله وما ادخره في بيته وغير ذلك مما أضمروه في قلوبهم وأسروه في ضمائرهم ولكن أخاف أن تكفروا في برسول الله (ص) أي أخاف عليكم الغلو في أمري وأن تفضلوني على رسول الله بل أخاف عليكم أن تدعوا في الإلهية كما أدعت النصارى ذلك في المسيح لما أخبرهم بأمور غيبية؛ ومع أن الإمام علي قد كتم ما علمه حذراً من أن يكفروا فيه برسول الله فقد ضل كثير منهم به وادعوا فيه النبوة وادعوا فيه أنه شريك الرسول في الرسالة وادعوا فيه أنه هو كان الرسول ولكن الملك جبرائيل غلط فيه وادعوا أنه الذي بعث محمداً (ص) إلى الناس وادعوا فيه الحلول وادعوا فيه الاتحاد ولم يتركوا نوعاً من أنواع الضلالة فيه إلا وقالوه واعتقدوه.

فقد روى ابن عباس أنه قال: صلينا العشاء الآخرة ذات ليلة مع رسول الله (ص) فلما سلم أقبل علينا بوجهه ثم قال: إنه سينقض كوكب من السماء مع طلوع الفجر فيسقط في دار أحدكم فمن سقط ذلك الكوكب في داره فهو وصيي وخليفتي والإمام بعدي، فلما كان قرب الفجر جلس كل واحد منا في داره ينتظر سقوط الكوكب في داره وكان أطمع القوم في ذلك أبي العباس بن عبد المطلب، فلما طلع الفجر انقض الكوكب من الهوا فسقط في دار علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال رسول الله (ص) لعلي (عليه السلام) يا علي والذي بعثني بالنبوة لقد وجبت لك الوصية والإمامة والخلافة بعدي، فقال المنافقون ـ عبد الله ابن أبي وأصحابه ـ لقد ضل محمد في محبة ابن عمه وغوى وما ينطق في شأنه إلا بالهوى فأنزل الله تبارك وتعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أي خالق النجم إذا هوى ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ يعني

في محبة علي بن أبي طالب ﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ يعني في شأنه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ﴾[١٩].

ومن هذا الباب أيضاً ما جاء في الكافي عن أبي بصير قال: بينما رسول الله (ص) جالس إذ أقبل أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال رسول الله (ص): إن فيك شبهاً من عيسى بن مريم (عليه السلام) لولا أن يقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم (عليه السلام) لقلت فيك قولاً لا تمر بملأ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدمك، قال: فغضب الإعرابيان والمغيرة بن شعبة وعدة من قريش معهم فقالوا: ما رضي أن يضرب لابن عمه مثلاً إلا عيسى بن مريم فأنزل الله على نبيه ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ يعني من بني هاشم ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ قال: فغضب الحارث بن عمرو الفهري فقال ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ إن بني هاشم يتوارثون هرقلاً بعد هرقل ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فأنزل الله عليه مقالة الحارث ونزلت الآية ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ثم قال (عليه السلام) له يا بن عمرو أما تبت وأما رحلت فدعي براحلته فركبها فلما صار بظهر المدينة أتته جندلة فرضت هامته فقال رسول الله (ص) لمن حوله من المنافقين انطلقوا إلى صاحبكم فقد أتانا استفتح وقال الله ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[٢٠].

المبحث الثاني

وهناك العديد من المرويات التي تبين لنا جانباً من علم الإمام علي (ع) بالغيب نورد بعضاً منها على أن هذه الأحاديث والأخبار والروايات ينبغي قبولها معرفياً وتصديقها، استناداً إلى الإيمان أولاً، باعتباره وسيلة القبول ومصدر الحكم بالتصديق، ثم استناداً إلى الوثوق من صدق قائلها وعصمته عن الخطأ أو الوهم والنسيان، وأخيراً استناداً إلى نوع من القبول الأولي والاستجابة الداخلية المعبر عنها بوصفها شعوراً عميقاً يطرأ على النفس ويرتفع حداً مكانها تبنيه، شعور ينبع من فطرة الإنسان بوصفها علماً أولياً مودعاً فيه وإلا فلا سبيل عقلاني أو تجريبي حسي يكن من خلال وسائله التوصل إلى يقين عن حقيقة الموضوعات هذه - الغيبيات - الأمر الذي يعني إن قضية التصديق بما يقوله الإمام المعصوم (ع) عن الأمور الغيبية هي رهينة بالنفوس المؤمنة ومن ثم سوف تتحقق في الوجود الواقعي الفعلي.

فقد ورث الإمام علي (ع) علوم الرسول (ص) وقد منحه الله العلم اللدني وعلم الغيب وأطلعه على الأسرار والنوايا فكان أعلم أهل زمانه بروايات الصحابة والتابعين.

وسنورد بعض الأخبار والروايات التي تدل على علم الإمام علي (عليه السلام) بالغيب وكيفية استعماله ولو أردنا أن نورد جميع الأخبار والروايات المتعلقة بالإمام علي (عليه

السلام) لاحتجنا إلى مجلدات ومجاميع علمية تبحث في علم الإمام الغيبي وإخباره عن المستقبل وما يحدث فيه كيف لا وهو صاحب المقولة الشهيرة (سلوني قبل أن تفقدوني).

١ ـ تضافرت الأخبار وتناصرت الآثار من الفريقين أن أمير المؤمنين (عليه السلام) أخبر الناس في ذي قار بأن رجالاً من قبل الكوفة يأتونه لنصرته ويبايعونه على الموت: قال (عليه السلام) بذي قار وهو جالس لأخذ البيعة يأتيكم من قبل الكوفة ألف رجل لا يزيدون رجلاً ولا ينقصون رجلاً يبايعوني على الموت، قال ابن عباس: فجزعت لذلك وخفت أن ينقص القوم عن العدد أو يزيدون عليه فيفسد الأمر علينا ولم أزل مهموماً دأبي إحصاء القوم حتى ورد أوائلهم فجعلت أحصيهم فاستوفيت عددهم تسعمائة وتسعة وتسعون رجلاً، ثم انقطع مجيء القوم فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون ماذا حمله على ما قال: فبينما إنا مفكر في ذلك إذ رأيت شخصاً قد أقبل حتى إذا دنى وإذا هو رجل عليه قباء صوف معه سيفه وترسه وأدواته، فقرب من أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال له: امدد يدك أبايعك فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام) على م تبايعني؟ قال: على السمع والطاعة والقتال بين يديك حتى أموت أو يفتح الله عليك، فقال (عليه السلام) ما اسمك؟ قال أويس قال أنت أويس القرني؟ قال نعم. قال: الله أكبر أخبرني حبيبي رسول الله (ص) إني أدرك رجلاً من أمته يقال له أويس القرني يكون من حزب الله ورسوله يموت على الشهادة يدخل في شفاعته مثل ربيعة ومضر؛ قال ابن عباس فسرى والله عني[٢١].

٢ ـ عن جابر الجعفي عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: خطبنا علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن قدام منبركم هذا أربعة رهط من أصحاب محمد (ص) منهم أنس بن مالك والبراء بن عازب الأنصاري والأشعث بن قيس الكندي وخالد بن يزيد البجلي ثم أقبل بوجهه على أنس بن مالك فقال: يا أنس إن كنت سمعت رسول الله (ص) يقول: من كنت مولاه فهذا علي مولاه ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية فلا أماتك الله حتى يبتليك ببرص لا تغطيه العمامة.

وأما أنت يا أشعث فإن كنت سمعت من رسول الله(ص) وهو يقول: من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وآل من والاه وعاد من عاداه ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية فلا أماتك الله حتى يذهب بكريمتيك. وأما أنت يا خالد بن يزيد إن كنت سمعت رسول الله (ص) يقول: من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية فلا أماتك الله إلا ميتة جاهلية.

وإما أنت يا براء بن عازب إن كنت سمعت رسول الله (ص) يقول: من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ثم لم تشهد لي اليوم بالولاية فلا أماتك الله إلا حيث هاجرت منه.

قال جابر بن عبدالله الأنصاري: والله لقد رأيت أنس بن مالك قد ابتلى ببرص يغطيه بالعمامة فما يستره. ولقد رأيت الأشعث بن قيس وقد ذهبت كريمتاه وهو يقول: الحمد الله الذي جعل دعاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) بالعمى في الدنيا ولم يدع علي بالعذاب في الآخرة فأعذب. وأما خالد بن يزيد فإنه مات فأراد أهله أن يدفنوه وحفر له في منزله فسمعت بذلك كندة فجاءت بالخيل والإبل فعقرتها على باب منزله فمات ميتة جاهلية. وإما البراء بن عازب فإنه ولاه معاوية اليمن فمات بها ومنها كان هاجر[٢٢].

٣ ـ روى جابر الجعفي عن الإمام الباقر (عليه السلام) قال خرج علي (عليه السلام) بأصحابه إلى ظهر الكوفة، قال: أرأيتم إن قلت لكم لا تذهب الأيام حتى يحفر ههنا نهر يجري فيه الماء أكنتم مصدقي فيما قلت؟ قالوا يا أمير المؤمنين ويكون هذا. قال: إي والله، لكأني انظر إلى أنه في هذا الموضع وقد جرى فيه الماء والسفن وانتفع به، فكان كما قال[٢٣].

٤ ـ روى عثمان بن قيس العامري، عن جابر بن الحر، عن جويرية بن مسهر العبدي قال: لما توجهنا مع أمير المؤمنين (عليه السلام)، إلى صفين فبلغنا طفوف كربلاء وقف ناحية من المعسكر، ثم نظر يميناً وشمالاً واستعبر ثم قال: هذا والله مناخ ركابهم وموضع منيتهم. فقيل له: يا أمير المؤمنين ما هذا الموضع؟ فقال: هذا كربلاء يقتل فيه قوم يدخلون الجنة بغير حساب، ثم سار وكان الناس لا يعرفون تأويل ما قال حتى كان من أمر الحسين بن علي صلوات الله عليهما وأصحابه بالطف ما كان[٢٤].

٥ ـ قالت صفية بنت الحارث الثقفية زوجة عبدالله بن خلف الخزاعي لعلي (عليه السلام) يوم الجمل بعد الواقعة: يا قاتل الأحبة يا مفرق الجماعة، فقال (عليه السلام): إني لا ألومك أن تبغضني يا صفية، وقد قتلت جدك يوم بدر وعمك يوم أحد وزوجك الآن، ولو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذه البيوت، ففتش فكان فيها مروان وعبدالله بن الزبير[٢٥].

٦ ـ قال زين الفاقفي سمعت علي بن أبي طالب (عليه السلام) يقول: يا أهل العراق سيقتل منكم سبعة نفر بمرج عذراء مثلهم كمثل أصحاب الأخدود، فقتل حجر وأصحابه[٢٦].

٧ ـ قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لما بايعه الملعون عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله قال له: تالله إنك غير وفي بيعتي، ولتخضبن هذه من هذا وأشار بيده إلى كريمته وكريمه فلما أهل شهر رمضان جعل يفطر ليلة عند الحسن وليلة عند الحسين عليهما السلام فلما كان بعض الليالي قال: كم مضى من رمضان؟ قالا له كذا وكذا، فقال لهما عليهما السلام في العشر الأخير تفقدان أبيكما، فكان كما قال (عليه السلام)[٢٧].

٨ ـ قال نصر بن مزاحم: حدثنا عبد العزيز بن سباه عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد التيمي المعروف بعقيصا قال: كنا مع علي (عليه السلام) في مسيرة إلى الشام حتى إذا كان بظهر الكوفة من جانب هذا السواد عطش الناس واحتاجوا إلى الماء فانطلق بنا علي (عليه السلام) حتى أتى إلى صخرة مضرس في الأرض كأنها ربضة عنز، فأمرنا فاقتلعناها، فخرج لنا من تحتها ماء فشرب الناس منه حتى ارتوى، ثم أمرنا فأكفأناها عليه وسار الناس حتى إذا مضى قليلاً قال (عليه السلام) أمنكم أحد يعلم مكان هذا الماء الذي شربتم منه؟ قالوا نعم يا أمير المؤمنين قال فانطلقوا إليه فانطلق منا رجال ركباناً ومشاة فاقتصصنا الطريق إليه حتى انتهينا إلى المكان الذي يرى أنه فيه فطلبناه فلم نقدر على شيء حتى إذا عيل علينا انطلقنا إلى دير قريب منا، فسألناهم أين هذا الماء الذي عندكم؟ قالوا ليس قربنا ماء فقلنا بلى إنا شربنا منه قالوا أنتم شربتم منه؟ قلنا نعم فقال صاحب الدير والله ما بني هذا الدير إلا بذلك الماء وما استخرجه إلا نبي أو وصي نبي[٢٨].

٩ ـ روى ابن نباتة أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان يوماً جالساً في نجف الكوفة فقال لمن حوله: من يرى ما أرى؟ فقالوا: وما ترى يا عين الله الناظرة في عباده؟ فقال: أرى بعيراً يحمل جنازة ورجلاً يسوقه ورجلاً يقوده، وسيأتيكم بعد ثلاث فلما كان اليوم الثالث قدم البعير والجنازة مشدودة عليه ورجلان معه، فسلما على الجماعة فقال لهما أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد أن حياهم: من أنتم ومن أين أقبلتم ومن هذه الجنازة ولماذا قدمتم؟ فقالوا نحن من اليمن وإما الميت فأبونا وأنه عند الموت أوصى إلينا فقال: إذا غسلتموني وكفنتموني وصليتم علي فاحملوني على بعيري هذا إلى العراق فادفنوني هناك بنجف الكوفة، فقال لهما أمير المؤمنين (عليه السلام): هل سألتماه لماذا؟ فقالا: أجل قد سألناه فقال: يدفن هناك رجل لو شفع يوم القيامة لأهل الموقف لشفع، فقام أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال: صدق إنا والله ذلك الرجل[٢٩].

١٠ ـ كان علي (عليه السلام) يخطب يوماً على المنبر فقال أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني سلوني عن طرق السموات فإني اعرف بها مني بطرق الأرض. فقام رجل من القوم فقال يا أمير المؤمنين أين جبرائيل هذا الوقت؟ فقال علي (عليه السلام) دعني انظر فنظر إلى فوق، وإلى الأرض، ويمنة ويسرة. فقال (عليه السلام) أنت جبرائيل فطار من بين القوم وشق سقف المسجد بجناحه فكبر الناس وقالوا الله أكبر يا أمير المؤمنين من أين علمت إن هذا جبرائيل؟ فقال (عليه السلام) إني لما نظرت إلى السماء بلغ نظري إلى ما فوق العرش والحجب، ولما نظرت إلى الأرض خرق بصري طبقات الأرض إلى الثرى ولما نظرت يمنة ويسرة رأيت ما خلق ولم أر جبرائيل في هذه المخلوقات فعلمت أنه هو[٣٠].

الهوامش:

(١) ينظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ٥٣/١.

(٢) البيان في تفسير القرآن/الخوئي ٦٩.

(٣) ينظر: عصمة الأنبياء في القرآن ١٣٧.

(٤) بحار الأنوار ٧٣/٤٩.

(٥) الميزان في تفسير القرآن ١٣٢/٢.

(٦) ينظر: الأمثل ٧٠/١٩ - ٧١.

(٧) نور الثقلين ٥٢٣/٢.

(٨) بحار الأنوار ١٦٠/٢٦.

(٩) ينظر: نور الثقلين ٥١٢/٢، والأمثل ٦٨/١٩.

(١٠) الاحتجاج ٢٨٨/٢.

(١١) ينظر: لسان العرب مادة (غيب).

(١٢) ينظر: بحار الأنوار ٧٦/٣٠.

(١٣) بحار الأنوار ٢٣٧/٢.

(١٤) مستدرك الصحيحين ٣٥٨/٢.

(١٥) الإصابة ٣٢٥/٥.

(١٦) المناقب ٤٢١/٤.

(١٧) سلوني قبل أن تفقدوني ١٩٥/١.

(١٨) المصدر نفسه ١٩٦/١.

(١٩) مجالس الصافي

(٢٠) الكافي ٥٠٣/١.

(٢١) ينظر: الإرشاد ١٤٩و تاريخ الطبري ٥١٣/٣.

(٢٢) ينظر: بحار الأنوار ٢١٦/١٢.

(٢٣) ينظر: الخرائج والجرائح ١٢٢.

(٢٤) الإرشاد ١٥٦ - ١٥٧.

(٢٥) سلوني قبل أن تفقدوني ٣٥٢/٢.

(٢٦) مناقب آل أبي طالب ٤٢٧/١ - ٤٢٩.

(٢٧) ينظر: الفضائل ١٠٨ - ١٠٩، والروضة ٥.

(٢٨) شرح نهج البلاغة ٣٦٦/١.

(٢٩) مشارق الأنوار ١٤٥.

(٣٠) أنوار النعمانية ٣١/١.

المصادر:

١- القرآن الكريم.

٢- الاحتجاج: الطبرسي، أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب، تحـ: السيد محمد باقر الخرسان، مطبعة دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف ١٩٦٦م.

٣- الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٤- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم، دار الأميرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط٢/٢٠٠٩م.

٥- الأنوار النعمانية: السيد نعمة الله الجزائري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٣٠هـ.

٦- بحار الأنوار(الجامع لدرر إخبار الأئمة الأطهار): المجلسي، محمد باقر، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢/١٩٨٣م.

٧- البيان في تفسير القرآن: الخوئي، السيد أبو القاسم، مطبعة العمال المركزية، بغداد ١٩٨٩م.

٨- تاريخ الطبري: الطبري، تحقيق ومراجعة وتصحيح وضبط نخبة من العلماء الإجلاء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.

٩- الخرائج والجرائح: قطب الدين الراوندي، تحقيق ونشر مؤسسة الإمام المهدي، قم، ط٢/١٤٠٩.

١٠- الإرشاد: الشيخ المفيد، مطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ط٢/١٩٧٢م.

١١- الكافي: الكليني، محمد بن يعقوب، تحـ: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ط٥/١٣٦٣هـ.

١٢- الروضة: محمد النسابوري، تقديم محمد بهجت السيد حسين، منشورات الشريف الرضي، قم.

١٣- سلوني قبل أن تفقدوني: الشيخ محمد رضا الحكيمي، مكتبة الصدر، طهران.

١٤- شرح نهج البلاغة: ميثم البحراني، طبعة مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، مكتبة النهضة بغداد.

١٥- فضائل الخمسة من الصحاح الستة: النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، د.ت.

١٦- عصمة الأنبياء في القرآن: السيد كمال الحيدري، دار فراقد للطباعة والنشر، طهران، ط١/٢٠٠٣.

١٧- مجالس الصافي: الصافي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط١/١٤١٧هـ.

١٨- مستدرك الصحيحين: محمد بن عبد الله الحاكم النسابوري، تح: مصطفى عبد القادر محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط١/١٩٩٠م.

١٩- مشارق الأنوار: البرسي، دار الكتاب الإسلامي، لبنان ط٤/١٣٦٥هـ.

٢٠- الميزان في تفسير القرآن: الطباطبائي، السيد محمد حسين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط١/١٩٩٧م.

٢١- مناقب آل أبي طالب: ابن شهر آشوب، محمد بن علي السروي. المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٨١هـ.

٢٢- لسان العرب: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، مطبعة دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، د.ت.

٢٣- نور الثقلين: الحويزي، الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي، تحـ: هاشم الرسولي المحلاتي، مؤسسة اسماعيليان، قم ١٩٩٢م. ❖

المقولات الديموغرافية والاقتصادية في منهج الإمام علي (عليه السلام)

د. ياسين الخليفة

تمثل آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (السنة الشريفة) وكذلك منهج الإمام علي (عليه السلام) المصادر الثلاثة الرئيسية لوضع منهجية إسلامية شاملة في الحياة والمجتمع لكل النواح الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والديموغرافية والثقافية.

كما انه وللفهم الشامل لمنهج الإمام علي (عليه السلام) لا بد من التعرف:

أولاً: وبشكل عميق على المصدرين الأساسيين (القرآن والسنة) لأن منهجية الإمام (عليه السلام) قد جاءت مطابقة ومفسرة للنصوص المقدسة وللسنة الشريفة وهذا يتطلب منا جميعاً العمل المتواصل وبروح الفريق الواحد لوضع نظرية إسلامية متكاملة في كل قضايا وجوانب الحياة لتكون دستوراً للعالم الإسلامي خالداً ومتطوراً مع تطور الحياة والحضارات.

وبالطبع فإن التعرف والفهم العميق لمنهجية الإمام علي (عليه السلام) بشكل شامل تحتاج لوقت طويل لاستيعاب السفر الهائل من الخطب والحكم والمواعظ والمقولات في جميع ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والقضائية والاجتماعية والديموغرافية وفي قضايا الحرب والسلم.

وكوني ديموغرافياً اقتصادياً فقد شدتني المقولات الديموغرافية التي وضعها الإمام علي (عليه السلام) في قضايا السكان والتشغيل والفقر والبطالة والتعليم والتأهيل والتدريب والتي تمثل نظرية ديموغرافية متكاملة تقدم الحلول والسلوكيات المطلوبة لحل القضايا الديموغرافية الصعبة التي يوجهها العالم اليوم في مرحلية العولمة والمعرفة والانفجار التكنولوجي الهائل والتوسع الذي لم يسبق له مثيل في عالم الاتصالات والغزو الثقافي المركز لحضارات وثقافات شعوب العالم الثالث من قبل الطغمة الرأسمالية وحكوماتها هذه القضايا الديموغرافية الصعبة والمسؤولة حالياً عن الكثير من الظواهر الاقتصادية والسياسية في العالم واجهتها شعوب العالم في كل مراحل التطور الاقتصادي التي مرت بها الإنسانية وأعني بها مراح العبودية والإقطاع والرأسمالية اليوم.

وقد تصدى لمعالجة هذه القضايا الكثير من الفلاسفة أمثال أفلاطون وكونفوشيوس وأرسطو ثم بعدهم ابن خلدون وصولاً لمالتس وماركس وسبنسر وكورادو جيني وسادلر

ودبلداي وغيرهم كثيرون وجاءت أفكارهم ونظرياتهم لمعالجة ومواجهة المشاكل السكانية المعاصرة لهم أو السابقة لعصرهم.

وتمثل نظرية توماس روبرت مالتس في بداية القرن الثامن عشر النظرية الأوسع انتشاراً والأشمل لمعالجة قضايا السكان ولكنها مثلت تبريراً وأساساً للنظام الرأسمالي وسلوكياته تجاه شعوب العالم المتخلف في مواجهة المشكلة السكانية المتمثلة بالنمو الديموغرافي السريع.

بداية وقبل التعرف على منهجية الإمام علي (عليه السلام) في معالجة هذه المشكلة السكانية لابد من التعرف أولاً على جوهر هذه المشكلة عبر المراحل التاريخية ليتسنى لنا تقدير المنهجية التي وضعها الإمام علي (عليه السلام) لاستيعابها وحلها.

وتتلخص المشكلة السكانية بعلاقة النمو السكاني مع التنمية الاقتصادية من جانب ومن جانب آخر بالتركيب العمري لسكان المجتمع أي نسب الأطفال دون الخامسة عشرة (سن الإنتاج) ونسب السكان في سن العمل ١٥ ـ ٦٥.

أما منابع هذه المشكلة الديموغرافية فهي تقوم على العلاقة بين ثلاثة عوامل تتفاعل مع بعضها البعض تحت تأثير عوامل خارجية موضوعية كالهجرة وينتج عن تفاعلها الصراع الأبدي بين الاقتصاد والسكان.

لأجل الفهم الشامل للمشكلة السكانية لابد أولاً من إلقاء بعض الضوء على المشكلة الأشمل وهي (المشكلة الاقتصادية) والتي تتمثل بالتناقض بين مقولتين هما:

أولاً ـ الموارد الاقتصادية المتاحة من رأسمال وأيدي عاملة وأرض وما فوقها وما في باطنها من ثروات ومياه وتربة زراعية وكذلك عامل التقنية وعامل العلم والمعرفة وتوحدت هذه الموارد بكل المراحل التاريخية وفي جميع الدول الغنية والفقيرة بأنها محدودة نسبياً يقول تعالى ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾.

ثانياً ـ الحاجات الإنسانية التي يجب إشباعها وتعتبر غير محدودة ولا يمكن إشباعها بشكل كتمل لأنها توصف بالدورية والمتجددة واللامتناهية بما فيها للحاجات المادية والمعنوية وأن حجم الكتلة المنتجة من السلع والخدمات لإشباعها ورغم تطورها الهائل في الفترة الحالية وبلوغها أكثر من خمسين ترليون بالدولار الأمريكي كناتج عالمي إلا أن النمو السكاني السنوي لسكان العالم والذي يبلغ الآن قرابة المائة مليون نسمة سنوياً لازال يبتلع هذا الإنتاج يضاف إلى ذلك العوامل السلبية الأخرى التي تعقد المشكلة الاقتصادية والسكانية على السواء من بطالة تكلف أكثر من ٤٠٠ مليون عاطل عن العمل في العالم ومشكلة الجوع الديموغرافي الذي يشمل الآن واحد مليار نسمة من ٦.٥ مليار الموجودين على الكرة الأرضية اليوم وكذلك ارتفاع معدلات الفقر ونسب

السكان العالية تحت خط الفقر كبيرة جداً في كل دول العالم الغني والفقير لتصل أحياناً إلى ٤٠٪ من سكان بعض الدول.

أضف إلى ذلك التصحر وشح المياه ونفاذ بعض الموارد الغير متجددة والمتجددة على السواء بسبب الاستهلاك النهم للبشرية لهذه الموارد وكذلك التلوث البيئي الذي تسببه مئات الآلاف من المصانع في العالم بما تقذفه في بيئة كوكبنا من غازات وملوثات في مصبات الأنهار والبحيرات وكذلك ارتفاع درجة حرارة الكوكب وما يسببه من ذوبان للثلوج وارتفاع منسوب المحيطات التي تلتهم سنوياً مئات الكيلومترات من اليابسة.

ويشتد الصراع بين الموارد الاقتصادية المحدودة على كوكبنا وبين الحاجات البشرية المادية والمعنوية اللامحدودة بل المتزايدة بسب النمو السكاني السريع الذي بدوره يتوقف على عاملين أساسين هما:

الولادة والوفاة: كما قال تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢). وفي قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ويقول الإمام علي (عليه السلام) في موضوع الموارد والسكان والحاجات (عياله الخلائق ضمن أرزاقهم وقدر أقواتهم ونهج سبل الراغبين إليه والطالبين لديه). ثم يقول (قدر ما خلق فأحكم تقديره. دبر فألطف تدبيره ووجهه لوجهته فلم يتعد حدود منزلته).

في المنهج: عند تحليلنا للعوامل المؤثرة في السلوك الإنجابي والديموغرافي للأسرة برفض القبول بالمقولات والمنطلقات والمبادئ المالتوسية وهي:

١ ـ اعتبار السكان عنصراً بيولوجياً وكذلك عملية الإنجاب.

٢ ـ اعتبار السكان عاملاً مستقلاً عن تأثير العوامل الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والبعد الروحي (الانتربولوجيا).

٣ ـ اعتبار معدلات الإنجاب العالية العائق الوحيد للتنمية الاقتصادية.

٤ ـ كما نرفض مقولات المالتوسية الفلسفية وهي مبادئ الإطلاق والتعددية والأبدية والتجريدية والذاتية معتمدين مبادئ الموضوعية والملموسة والانتروبولوجية والنسبية.

حيث نعتبر أن السكان عامل تابع بآن واحد لكل الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيولوجية معاً.

كذلك نرفض الاعتراف بالمقولة المالتوسية التي تفسر الجوع والفقر والبطالة والتخلف فقط بارتفاع معدلات الإنجاب والنمو السكاني.

السكان دالة لثلاثة متغيرات أساسية وهي: الإنجاب والوفيات والهجرة ويعتبر الإنجاب أهمها على الإطلاق لان تغيراته تقود إلى تغييرات في حجم وتركيب السكان كما أن سيطرة الإنسان عليها بطيئة جداً لارتباطها بقضايا اجتماعية وعادات وتقاليد حضارية انتروبولوجية وروحية.

لذا فكل النظريات السكانية انصبت على تفسير هذه الظاهرة ووضع ضوابط لها ولسلوكها أو وضع موانع وطرق لتنظيمها والسيطرة عليها.

يعتبر الإنجاب ظاهرة ديموغرافية بيولوجية واقتصادية واجتماعية وتعاونية وسلوكية وحضارية وبيئية بآن واحد وهنا تكمن صعوبة السيطرة على السلوك الإنجابي لأي شعب من الشعوب إلا من خلال عنصر الثقافة والعمل (التشغيل) وخاصة النساء.

منع الاعتراف بأن البيولوجي والجغرافيا والكيمياء (ومن خلال الصبغيات) تصنع الحدود القصوى للإنجاب وهو قرابة ٦٠ بالألف سنوياً ولكنها حدود واسعة وبالتالي فإن انخفاض أو ارتفاع معدلات الإنجاب يكمن تفسيرها فقط باستعمال كل المتغيرات الثقافية والسلوكية.

وهكذا فالقدرة على الإنجاب هي طاقة بيولوجية كامنة في الإنسان وهي شرط لازم لاستمرار العنصر البشري وهناك حقائق بيولوجية ثابتة في تحديد قدرات الإنجاب تتعلق بسن البلوغ وسن اليأس وعدد مرات الإنجاب وكلها عوامل بيولوجية لا يمكن السيطرة عليها.

ولفهم مقولة الإمام علي (عليه السلام) الديموغرافية لابد من التعرف على المرحلة الحضارية التي جاءت بها فالمرحلة التي جاءت فيها الديانات السماوية السمحة بما فيها الدين الإسلامي قد اتصفت ديموغرافيا بما يلي في جميع إنحاء العالم.

١ - معدلات إنجاب عالية جداً تصل إلى الحدود القصوى البيولوجية ٦٠ بالألف.

٢ - معدلات وفيات عالية جداً أيضاً تصل أحياناً إلى مستوى الإنجاب أي تفوق ٥٠ بالألف ولذا فإن مليارات الولادات في تلك المرحلة قد طواها الموت.

٣ - معدلات نمو سكاني منخفض جداً لا يكاد يبلغ (١) بالعشرة آلاف سنوياً أي تحتاج البشرية آنذاك لمئات بل أحياناً لآلاف السنين لتحقق تضاعفاً سكانياً واحداً، ولذا فإن عدد سكان الكرة الأرضية عند ولادة السيد المسيح (عليه السلام) بلغ قرابة ٢٠٠ مليون نسمة وفي بداية التاريخ الهجري لم يتجاوز عدد سكان الكرة الأرضية ٢٥٠ مليون نسمة وقد احتاج الإنسان للوصول إلى هذا العدد أكثر من آلاف الأجيال.

٤ - انخفاض متوسط عمر الإنسان بسبب كثرة وفيات الأطفال الرضع والتي تقترب من ٦٠٠ لكل ألف ولادة بسبب الظروف المناخية والمعيشية السيئة والعنف ضد الأطفال وسوء التغذية والوضع الصحي المتردي والحروب.

٥ - البطالة الهائلة بنسبة لليد العاملة حيث نسبة العاملين لا تزيد عن ١٥٪ من عدد السكان.

٦ - وجود ظاهرة العبودية (السخرة دون أجر) وهي قوة العمل التي قامت على أكتافها حضارات تلك المرحلة الاقتصادية وهي مرحلة الرعي والزراعة البدائية.

٧ - انتشار ظاهرة وأد الأطفال والتخلص من الشيوخ والأرامل من المجتمع.

٨ - انتشار ظاهرة تعدد الزوجات لأكثر من أربعة وقد تزيد عن عشرة وهي ظاهرة شملت كل المجتمع البشري آن ذاك لامتصاص ظواهر اجتماعية كانت منتشر بشكل واسع مثل الترمل واليتم للأطفال بسبب الحروب والوفيات العالية المبكرة للرجال.

٩ - تدني المستوى المعاشي والغذائي والصحي وانخفاض أو انعدام الدخل للكثير من طبقات المجتمع.

وكما ذكرنا سابقاً فقد تصدت الكثير من النظريات السكانية لهذا الوضع بالتحليل ومنهم نظريات مالتس وكورا دو جيني ودبلداي وغيرهم وقد وضعت حلولاً أكثرها كان قاسياً ويقع عبئه على الفقراء والجياع واهم هذه الحلول اللاإنسانية التي طرحت وأصبحت سائدة سابقاً هي:

١ - نشر الحروب.

٢ - التخلي عن الفقراء.

٣ - وأد الأطفال وخاصة الإناث.

٤ - نشر الإجهاض وإباحته.

٥ - منع زواج العبيد وحرمانهم من الإنجاب وبالتالي الحصول عليهم بطريقة الأسر.

في هذه الظروف الديموغرافية الصعبة والمعقدة والمتشابكة والقاسية تجيء مقولة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لتضع مجالاً واسعاً ورحباً للحلول أمام الفكر البشري والقادة السياسيين وذلك من خلال طرحها سلوكاً ديموغرافياً جديداً لتنظيم عملية الإنجاب والنمو السكاني. يقول الإمام (عليه السلام) بمقولته الديموغرافية الشهيرة والتي تختزل نظرية بكاملها في عبارة واحدة ألا وهي:

"قلة العيال أحد اليسارين".

هذه المقولة تختزل كل النظريات الديموغرافية السابقة واللاحقة لها وهي تقدم سلوك ديموغرافي جديد يهدف إلى:

١ - السيطرة على عدد الأطفال المرغوب بإنجابهم بدل الوأد بعد الولادة أو ممارسة الإجهاض أثناء الحمل.

٢ - ترك عدد الأطفال المرغوب بإنجابهم مفتوحاً حيث لم يحدده الإمام (عليه السلام) لحكمة وهي أن يتم تحديد عدد الأطفال المرغوب بإنجابهم حسب وضع الأسرة المادي وحسب وضع المجتمع وكذلك حسب المرحلة الحضارية والاقتصادية القائمة أي أنها مقولة تصح لكل زمان ومكان.

٣ - رفض فيها الإمام (عليه السلام) التمييز بين الأحرار والعبيد وجعلها شاملة لكل المجتمع.

٤ - لم يستخدم فيها أسلوب الإلزام أو الفرض وتركها لحرية الاختيار عكس ما يحدث في الصين حالياً من تحديد عدد الأطفال بواحد فقط وفي حال إنجاب الطفل الأول أنثى يحق للوالدين إنجاب طفل آخر فانتشرت ظاهرة التخلص من المواليد الإناث حديثي الولادة وذلك بإلقائهم بالترع والبحيرات (أي الوأد) على الطريقة الصينية حيث ظاهرة حب الذكور مازالت عالمية وشاملة (أي إننا نعيش مرحلة ذكورية المجتمع).

٥ - ترك الإمام (عليه السلام) الباب مفتوحاً أمام الزوجين لممارسة طريقة "العزل" وقد ذكر الصحابة رضي الله عنهم أنهم كانوا يمارسون العزل أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم ينههم. ويقول صلى الله عليه وآله وسلم "تعزل الحرة بأمرها "وهو أسلوب لازال متبعاً في أيامنا لتنظيم الأسرة وهو أفضل من الطرق القاسية مثل الوأد أو الإجهاض أو ربط الرحم. أو غيرها من الأساليب اللاحضارية.

٦ - وقد أراد الإمام (عليه السلام) من تحديد عدد الأطفال الاختياري للوالدين أنه سلوك يتلاءم مع حرية الفرد والمجتمع وذلك حسب الظروف المعاشية والذي عليه يتوقف بالتالي معدل النمو السكاني والتركيب العمري للسكان فمعدل خصوبة المرأة الآن في العالم يتراوح بين طفلين إلى سبعة أطفال لدى بعض الشعوب وعلى هذا المعدل تتوقف معدلات الفتوة الديموغرافية في السكان أي ارتفاع عدد الأطفال (دون سن العمل ١٥سنة) بحيث يصل لدى بعض الشعوب المتخلفة إلى ٥٠٪ من السكان بينما هو فقط ٢٠٪ في دول متقدمة أخرى تعيش ظاهرة الشيخوخة الديموغرافية وعليه أيضاً تتحدد نسبة قوة العمل أي السكان الناشطين اقتصادياً والتي تتراوح بين ٢٠٪ في الدول المتخلفة لتصل إلى أقصى حد لها وهو ٦٠٪ في بعض الدول المتقدمة مما يخفض معدل الإعالة الاقتصادية والديموغرافية وعلى هذا يرتفع وينخفض معدل الإعالة الديموغرافية للسكان الناشط اقتصادية من دولة لأخرى. (من شخص واحد إلى أربعة).

٧ - ربط الإمام (عليه السلام) بين عدد الأطفال المرغوب بإنجابهم في الأسرة الواحدة والمستوى المعاشي لهم حيث وضع أمام الدولة اتباع أحد طريقين لرفع المستوى المعاشي للسكان إما:

أ - باتباع الحل الديموغرافي بتقليل معدل نمو السكان إذا كانت الموارد شحيحة لا تسمح برفع المستوى المعاشي.

ب - اتباع الحل الاقتصادي وذلك برفع وتيرة معدل التنمية الاقتصادية عند وفرة الموارد الطبيعية والبشرية (الكوادر المؤهلة).

ونشير هنا إلى المدارس الاجتماعية التي فسرت الظواهر الديموغرافية بعدة عوامل أهمها:

١. المدرسة الاجتماعية البيولوجية (هربرت سبنسر) والتي تربط بين الظواهر البيولوجية والاجتماعية.
٢. المدرسة التاريخية (كارل ماركس) وترى إن العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد الذي يؤثر بشؤون المجتمع السياسية والقيمية.
٣. المدرسة الجغرافية (براون) وقد فسر كل ما يحدث في المجتمع بظواهر جغرافية بحته.

وهنا لابد إن ننوه بأن المنهج الإسلامي بمصادره الثلاثة (القرآن الكريم ـ السنة الشريفة ـ منهجية الإمام علي (عليه السلام) عكس هذه الدارس السابقة مجتمعة ترى بشمولية العوامل المؤثرة في الظواهر الاجتماعية والديموغرافية ومنها يمكن أن نستخلص القوانين والمبادئ التي تتحكم بتطور المجتمع بالإضافة إلى المؤثرات الخارجية (العولمة والتطور الهائل لوسائل الاتصال والانفجار العلمي والتقني والغزو الثقافي لحضارات دول العالم الثالث.

وهكذا لا بد من دراسة المجتمع دراسة ديموغرافية ودراسة تاريخية لجميع المراحل الحضارية ودراسة سيكولوجية الأفراد وسلوك المجتمع وإعطاء دور كبير للعقيدة الدينية والبعد الروحي ودراسة العادات والتقاليد والأعراف والثقافة ووضع الطبقات الاجتماعية وواقع الصفوة العلمية التي تشكل قاطرة التطور الاجتماعي وهذا كله يؤكد الارتباط الوثيق بين حركة التاريخ وعلم الاجتماع والديموغرافيا.

وتعتبر الولادة كأكبر قوة ديموغرافية وقد حددت نواميس الإرادة الإلهية حدودها القصوى البيولوجية بقوانين وسنن ثابتة بحيث لا تتجاوز ٦٠ بالألف سنوياً حفظاً للبشرية بينما تركت الحدود الدنيا للولادة مفتوحة أمام العوامل الاقتصادية والاجتماعية والحضارية والانتروبيولوجية ليحدد كل شعب وحسب كل مرحلة معدل الإنجاب والخصوبة المرغوب به كنتاج لظروفه الحياتية وقد بلغت الكثير من الشعوب الحدود القصوى للولادة فهي تتكاثر عند الحدود البيولوجية القصوى الصارمة للتزايد البشري أي يقترب من ٥٠ بالألف.

وأما الوفاة فتشاء الإرادة الإلهية عكس الولادة أن تحدد حدودها البيولوجية الدنيا وذلك عند معدل لا ينخفض لأكثر من ١ بالألف سنوياً بشكل صارم لا يتعدى هذا الحد مهما بلغ الإنسان من التقدم العلمي والصحي وتركت الحدود العليا للوفيات مفتوحة أمام العوامل الاقتصادية والاجتماعية والتقنية والصحية والانتروبيولوجية لتحدد معدلاتها التي بلغت في بعض المراحل الحضارية حدوداً عالية تقترب من معدلات الولادات بحيث التهمت الوفيات معظم الولادات مما جعل النمو السكاني شبه منعدم أو بطيء لكنها انخفضت اليوم إلى معدلات تتراوح بين ٢ ـ ٥ بالألف لدى الشعوب المتقدمة وأكثر من ١٥ بالألف لدى الشعوب المتخلفة وكذلك أدت إلى تطور التراكيب السكانية ومتوسطات البقاء.

وفي تفسير سلوك هاتين القوتين الديموغرافيتين تصارعت النظريات السكانية في مختلف الحضارات السابقة واللاحقة منذ ألاف السنين لتحديد أو شرح سلوك هذه العوامل وتقديم أفضل وأحياناً أسوأ الطرق لمواجهة مشكلة التزايد السكاني والذي يفوق قدرات الإنتاج الاقتصادي على استيعابها مما يقود لظهور أفات اجتماعية كالفقر والبطالة والتخلف والأوبئة وانخفاض مستوى المعيشة والجوع ونفاذ الموارد الغير قابلة للتجدد وأحياناً المتجددة.

يقول تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وفي شأن الموارد على كوكبنا فإنها محدودة وليس هناك من تزايد إلا ببعض المعادن التي تقذفها الشهب والنيازك على كوكبنا كل ثانية يقول تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ هذا المعدن الذي يتشكل في مجرة غير مجرتنا فأنزله سبحانه وتعالى على كوكبنا ليشكل مورداً اقتصادياً وقوة جذب داعمة لتماسك الغلاف الغازي الذي يلف الأرض والذي هو المحيط الحيوي للبشرية حيث تحتاج ذرة الحديد لتشكلها إلى درجات حرارة عالية تقدر بآلاف المرات أكثر من حرارة شمسنا بل شموس المجرة بأكملها يقول تعالى ﴿ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ لإمساك وجذب الغلاف الغازي من بقوة جاذبية معدن الحديد الذي بداخل الجبال بما يعادل ستة أضعاف ارتفاع الجبال.

يبلغ عدد سكان العالم اليوم بلغ أكثر من ٦.٥ مليار نسمة وقد بدأ بشخصين آدم وحواء عليهما السلام يقول تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ويقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا ﴾ وفي تصارع قوتي الحياة والموت سار النمو السكاني عبر آلاف السنين بطيئاً حتى بلغ ٢٠٠ مليون نسمة عند ولادة السيد المسيح (عليه السلام) وذلك بسبب تفوق قوة الوفيات وبلوغها معدلات عالية التهمت مليارات الولادات والتي بلغت أكثر من ٨٠ مليار عبر مئات الأجيال رغم معدلات الخصوبة العالية وبسبب الحروب وانخفاض المستوى الغذائي والصحي والممارسات اللاإنسانية لتحديد النسل منها وأد الأطفال وحرق الأرامل أو طردهم والتخلص من الشيوخ في بعض الحضارات والإجهاض، واستغلال ملايين البشر ومنع زواج العبيد أو إنجابهم ولم تبلغ البشرية المليار الأول إلا في عام ١٨٣٠م ولكن بعد ١٠٠ عام من هذا التاريخ وصل تعداد سكان العالم بين الحربين إلى ٣ مليارات وبأقل من نصف قرن وصل إلى ٦.٥ مليار وذلك بسبب الانخفاض الهائل في عدد الوفيات وخاصة وفيات الرضع وبقاء الخصوبة بمعدلات عالية بحيث يتزايد سكان العالم اليوم بما يقارب ١٠٠ مليون نسمة سنوياً وهكذا كان لا بد للعلماء من التصدي لوقف هذا النمو الهائل لعدد السكان فوق كوكبنا ذي الإمكانات والموارد المحدودة رغم كل تطوره التكنولوجي.

تاريخياً وسلوكياً تصدت الكثير من الحضارات لهذه الظاهرة بسلوكيات مختلفة بعضها كان وحشياً مثل وأد الأطفال خوفاً من الفقر قال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وشعوباً وحضارات أخرى مارست طقوساً قاسية مثل طرد الشيوخ من القبيلة أو التخلص من المرضى بسبب صعوبة الإعالة الاقتصادية مثل شعوب شرق آسيا وبعضهم مارس طقوس حرق الأرامل بعد موت أزواجهن أو معيليهن مثل الهند في حين قام الهنود الحمر بطرد الأرملة بعد مقتل زوجها ونهب ممتلكاتها.

وهنا تبدو عظمة منهجية إمامنا (عليه السلام) بمقولته الخالدة في الديموغرافيا والتي قدمت حلاً شاملاً وأبدياً لمشكلة السكان في كل العصور والمراحل الحضارية بقوله (عليه السلام) (قلة العيال أحد اليسارين) هذه المقولة الديموغرافية تنطوي على أساساً لنظرية في السكان متكاملة وبجملة واحدة اختزل الطرق الديموغرافي في جميعها وقدم (عليه السلام) نظرية تواجه نظريات مالتس وماركس وأعطى سلوكا ديموغرافيا يعتبر الحل الأمثل لكل قضايا السكان في مواجهة التنمية الاقتصادية وتمتاز هذه النظرية بما يلي:

أولاً: اتخاذ قرار حر بعدد الأطفال المرغوب بإنجابهم حسب كل مرحلة من مراحل النمو الاقتصادي فهو قرار حر والنظرية لا تضع عدداً معيناً للأطفال بل تركت العدد مفتوحاً بين الطفلين لتصل إلى أرقام وأعداد تحددها الأسرة والمجتمع حسب كل مرحلة حضارية إذ عدد الأطفال المرغوب بهم في مرحلة الرعي غير عدد الأطفال المرغوب بهم في مرحلة الزراعة أو الصناعة وذلك لان عمالة الأطفال تبدأ مبكرة في مرحلة الرعي والزراعة بينما تتأخر في المرحلة الصناعية إلى ما بعد ١٥ سنة من العمر وكما ذكرنا سابقاً لجأت الحكومة الصينية لقرار صارم بتحديد طفل واحد لكل أسرة بالإلزام ونتج عنه إلقاء مئات الآلاف من الإناث حديثي الولادة في الترع والبحيرات وهو وأد للأطفال على الطريقة الصينية مما جعل الحكومة الصينية تتراجع عن قرارها المتسرع والسماح بإنجاب طفل آخر إذا كان المولود الأول أنثى وقد نتج عن ذلك اختلال نسبة الذكور ونسبة الإناث في المجتمع الصيني وقد حددت النواميس الإلهية نسبة الجنس (الذكور والإناث) عند الولادة في كل دول العالم بـ٥١٪ ذكور و٤٩٪ إناث لكل مائة مولود ثم تتوازن وتتساوى هذه النسبة عند العمر ٥ سنوات بسبب ارتفاع وفيات الأطفال الذكور قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾.

ثانياً: عدد الأطفال المرغوب بهم يحدده الفرد والمجتمع قبل الولادة وبهذا واجه ظاهرة الإجهاض القسري أو الاختياري كما وتخلص من ظاهرة وأد الأطفال حديثي الولادة بسبب الفقر حيث يتم اتخاذ قرار عدد الأطفال المرغوب بهم قبل الحمل بطرق منها العزل وقد ذكر صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنهم كانوا يمارسون العزل أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم ينههم.

ثالثاً: يقول الإمام (عليه السلام) مؤكداً أن الحل لمشكلة السكان والمشكلة الاقتصادية يأتي بأحد طريقين الحل الاقتصادي ويكون ذلك برفع معدلات التنمية الاقتصادية وتحسين مستوى الحياة فان كانت الموارد لا تسمح بذلك لجأنا إلى الطريق الآخر وهو الحل الديموغرافي أي التحكم بعدد الأطفال المرغوب بهم حسب حاجة المجتمع وهذا أحد اليسارين وأحد الحلول التي تؤمن الرفاهية الاقتصادية للمجتمع.

رابعاً: من المعروف ديموغرافيا بأن قدرة المرأة على الإنجاب تصل خلال عمرها الإنجابي إلى ما يقرب من ١٢ ولادة في المتوسط وهذا ما يقود إلى ظهور ما يسمى بالفتوة الديموغرافية أي ارتفاع نسبة الأطفال دو سن العمل ١٥ سنة لقرابة ٥٠٪ من السكان وهذه الظاهرة تشكل عبئاً اقتصادياً وديموغرافياً كبيراً في حين الدول المتقدمة تعاني من مشكلة ارتفاع سبة الشيوخ فوق ٦٥ سنة ونسبتهم قاربت ٢٠٪ من السكان بينما نسبتها لدينا في الدول المتخلفة من ٣ ـ ٥٪ بسبب انخفاض متوسط العمر بين ٤٠ ـ ٧٠سنة بينما هي في الدول المتقدمة تجاوزت ٨٥ سنة وأيضاً بسبب قلة الأطفال لديهم إذ لا تزيد نسبتهم عم ٢٠٪ من السكان وينتج عن ذلك أيضاً انخفاض نسبة السكان في سن العمل في الدول المتخلفة لأقل من ربع السكان بينما تصل نسبتهم في الدول المتقدمة إلى ٦٠٪ وهذا يخفف من عبء الإعالة الاقتصادية والديموغرافية على السكان حيث العامل في الدول المتقدمة يعيل نفسه ونصف شخص أو شخص آخر على الأكثر بينما في الدول المتخلفة يعيل نفسه وثلاثة أو أربعة أشخاص آخرين لقد ربط الإمام (عليه السلام) بين عدد الأطفال المرغوب بهم والمستوى المعاشي للمجتمع (المادي والمعنوي) من خلال دالة طردية بين هاذين المتغيرين في ظل الظروف المحددة للموارد الاقتصادية والطبيعية المتاحة وهكذا أراد الإمام (عليه السلام) بإعطاء الخيار لكل شعب وكل أسره باتخاذ القرار المناسب بعدد الأولاد للتحكم بالتركيب العمري للسكان ولمواجهة مشكلة الإعالة السكانية وترك الخيار مفتوحاً دون إلزام بعدد ثابت لأنه لكل مرحلة حضارية معدلات ديموغرافية مناسبة حسب أسلوب الإنتاج ووفرة الموارد الاقتصادية فهناك دول تسعى لزيادة عدد المواليد لكثرة الاستثمارات لديها أو بسبب قلة السكان مثل (كندا ـ فرنسا ـ انكلترا ـ ألمانيا ـ الإمارات العربية ـ استراليا) وكلها تحاول زيادة المواليد بل واستقبال الأيدي العاملة المهاجرة إليها وذلك بسبب وفرة مواردها الاقتصادية والطبيعية وقلة سكانها.

في حين دول أخرى تغص بسكانها رغم سعة البعد الجغرافي لديها لأن العبرة في الموارد الاقتصادية وليس في الجغرافيا كما في السودان الذي يمثل الخزان العربي للمياه والأرض الزراعية وفي الطرف الآخر تقف النظرية المالثوسية وهي أشهر النظريات الديموغرافية لتقدم حلولاً لاإنسانية للمشكلة الديموغرافية فتشجع على عدم الزواج أو

تأخيره وتشجع على الحروب وإفشاء الأمراض للتخلص من سكان العالم الثالث كما لا تسمح بمساندة الفقراء والجياع في العالم وإذا قدرنا الزكاة العالمية بمعدل ٢.٥٪ من الناتج العالمي البالغ ٥٠ تريليون دولار فستكون حصيلتها ١.٢٥ تريليون أي ١٢٥٠ مليار دولار وهي كافية سنوياً لحل مشكلة كل فقراء وجياع العالم وحل مشكلة العاطلين عن العمل في العالم.

وتتبنى الرأسمالية العالمية اليوم الفكر المالثوسي لتطرح فكرة المليار الديموغرافي الذهبي من سكان الدول المتقدمة وترى بضرورة التخلص من عدد السكان الزائد وهو ٣.٥ مليار نسمة والإبقاء على ٢ مليار نسمة كقوة عاملة لخدمة الرأسمالية العالمية ذات المليار الذهبي عن طريق خلق التي سماها بوش بالفوضى البناءة والحروب الإقليمية وإفشاء الأمراض المصنعة مخبرياً (انفلونزا الطيور والخنازير وجنون البقر وغيرها) كل هذا للتخلص من سكان العالم الفقير وعدم المساعدة في تطوير اقتصادياتهم وإعالة الفقراء.

بينما في الإسلام السمح وهذا رسول الله يقول لأحد أصحابه لقد أستشهد أخوك فلان اذهب فتزوج أرملته وهو يهدف من هذا السلوك لتبني الأرملة هي وأولادها الأيتام وإعالتهم اقتصادياً وليس الزواج منها بهدف التمتع يقول تعالى داعياً لتقليل عدد الزوجات بسبب الضعف الاقتصادي ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ وهؤلاء اليتامى هم أبناء زوجاتهم اللاتي تزوجوا بهن بهدف إعالتهم وأطفالهم وهكذا جاءت ظاهرة تعدد الزوجات في المجتمع الرعوي كحل لمشكلة الترمل ومشكلة نقص الذكور بسبب الحروب وكذلك لم يقف الإسلام السمح أمام الزواج المبكر لتشكيل الأسر يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج) في حين طالب أفلاطون بوضع سن الزواج للذكور عند العمر ٣٦ سنة خوفاً من التيتم والترمل بسب الحروب وكثرة القتلى من الذكور وظهور مشكلة الإعالة الديموغرافية والاقتصادية التي قدم الإسلام لها الحل ليتعاضد المجتمع مع بعضه البعض.

بينما في حضارات أخرى مورست طقوس الإجهاض ألقسري أحياناً للتخلص من الحمول الغير مرغوب بها وبعضها سن قوانين مختلفة لسن زواج الذكور والإناث لتحديد النسل.

كذلك ظهرت مشكلة الإعالة الاقتصادية: إذ ينتج العالم اليوم كما ذكرنا سابقاً ما قيمته بالدولار الأمريكي من السلع والخدمات ما يقرب من ٥٠ تريليون أكثر من ثلاثة أرباعها ينتج في ثمانية دول سكانها يشكلون أقل من واحد مليار وهذا ما دعته العولمة

اليوم بالمليار الذهبي بينما تنتج الـ١٨٤ دولة الباقية وعدد سكانها يفوق ٥.٥ مليار نسمة الربع الآخر من الناتج العالمي وأيضاً تتوزع الدخول القومية بشكل غير عادل داخل الدول الرأسمالية حيث تمثل ثروة ٢٠٠ أسرة أمريكية قرابة ٤٠٪ من ثروات أمريكا البالغة ١٥ تريليون دولار سنوياً. يقبع ملايين الأقليات العرقية (زنوج - هنود حمر - المتحدرين من دول أمريكا اللاتينية - ومن المكسيك وشرق أسيا ومن إفريقيا) تحت خط الفقر وفي الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها بينما يرتفع معدل دخل الفرد الأمريكي ليصل إلى أكثر من ٥٠ ألف دولار في حين ينخفض دخل الفرد في عشرات الدول الإفريقية والأسيوية إلى أقل من ٤٠٠ دولار بل ٢٠٠ دولار في بعضها مثل (مدغشقر وإريترية وموريتانيا والصومال وبنغلادش وجزر القمر وغيرها).

المشكلة السكانية الأخرى التي واجهتها البشرية هي ظاهرة العبودية أي العمل بلا أجر (السخرة) وقد شكل السكان العبيد قوة العمل الأساسية لكثير من الحضارات السابقة في حين منع السكان العبيد من الزواج وإنجاب الأطفال لان ذلك مكلف اقتصادياً لمجتمع طبقة السادة.

وقد طالب الإسلام بتحرير العبيد واعتبر تحرير العبيد (فك الرقاب) وسيلة أو طقساً من طقوس العبادة وساواه بالصيام وجعل الكفارة إما بفك رقبة أو بالصيام أيام معدودات وقد تصدى إمامنا (عليه السلام) لظاهرة العبودية فانفق كل ماله على تحرير العبيد وفك الرقاب ودعا لذلك وقد ذكر بأنه أعتق ألف مملوك من كد يديه.

أما المشكلة التالية التي نتجت عن النمو السكاني فهي الفقر ويعرف اليوم في أدبيات الأمم المتحدة بعدم قدرة الفرد بالوصول للسلع والخدمات التي تلبي حاجاته المادية والمعنوية (غذاء - كساء - تعليم - خدمات صحية) ويقدر عدد الفقراء اليوم بأكثر من مليار نسمة يعتبرون كلهم إما تحت خط الفقر العالمي أو تحت خط الفقر الوطني الذي يقدر بـ ٢٠٠ - ٤٠٠ دولار للفرد سنوياً.

يقول الإمام (عليه السلام) (كل شيء خاشع وكل شيء قائم به غني كل فقير وعز كل ذليل وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف قسم أرزاقهم وأحصى آثارهم واله الخلق ورازقه) وواجه الإمام (عليه السلام) بكل طاقاته ظاهرة الفقر وساواها بالكفر وقال (عليه السلام) (لو تمثل الفقر رجلاً لقتلته) وبالوقت نفسه طرح (عليه السلام) مفهوم حل للصراع الطبقي سلمياً حتى لا يتحول الفقراء إلى حاقدين على الأغنياء ويحل التناقض الطبقي بطريقة ماركس بالعنف إذ طالب (عليه السلام) الفقراء بالتحلي بالعفة وقال (زينة الفقر العفة وزينة الغنى السخاء) وهكذا قدم الإمام (عليه السلام) أروع صورة للحل السلمي لمسألة توزيع الناتج القومي وإعادة توزيعه بين الطبقات إذ طالب الفقراء بالعفة والتحمل وطالب الأثرياء بالسخاء

والعطاء وهذا لظروف بسبب ظروف الإنتاج الرعوي والتجاري المتخلفة وكان الإنتاج في أدنى مستوياته فما بالكم اليوم والإنتاج لعالمي قد تجاوز العام لماضي ٥٠ تريليوناً وإذا طبق مبدأ الزكاة كما جاء بها الإسلام لكانت مبالغ الزكاة سنوياً تبلغ ما مقداره ١٢٥٠مليون دولار وهذا يكفي لحل قضية المليار فقير في العالم. وبالأمس تمخض عن قمة الدول الثمانية في ايطاليا التبرع بـ ٢٠ مليار دولار لحل مشكلة الفقر في إفريقيا وهذا مبلغ زهيد لا يعادل ثمن غواصة نووية.

الظاهرة الاقتصادية والسكانية التي واجهها الإمام (عليه السلام) هي (الاكتناز) أو حجب السيولة النقدية عن الاستثمار والتداول قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

والاكتناز ضار بالمجتمع إذ يقود إلى بطالة عناصر الإنتاج جميعها (بطالة العمال والأراضي الزراعية وبالتالي خفض الإنتاج وانتشار وتفشي ظاهرة الفقر لذا طالب الإمام (عليه السلام) الأمة بالعمل وإحياء الأرض والاهتمام بالثروة الحيوانية لأنهما المصدر الرئيسي للإنتاج آن ذاك فقال (عليه السلام) (فإنكم مسؤولون عن البقاع والبهائم) أي إحياء الأرض الزراعية الموات والاهتمام بالثروة الحيوانية وخلق فرص عمل للعاطلين عن العمل لحل مشكلة البطالة في المجتمع وتحريك السيولة النقدية المكتنزة والمعروف اليوم أن خلق فرصة عمل واحدة تكلف أي دولة في العالم مبلغ ١٠ آلاف دولار لاستثمار وخلق وإيجاد فرص عمل والقضاء على ظاهرة البطالة المتفشية اليوم والتي تقدر بأكثر من ٤٠٠ مليون عاطل عن العمل في العالم يقول تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ويقول الإمام (عليه السلام) (انظروا إلى النملة في صغر جثتها ولطافة هيئتها لا تكاد تنال بلحظ البصر ولا بمستدرك الفكر كيف دبت على أرضها وحبت على رزقها وتنقل الحبة إلى حجرها وتعدها في مستقرها وتجمع في حرها لبردها وفي وردها لصدها) لله درك يا أمير المؤمنين على هذه البصيرة النفاذة إذ أكد العلم اليوم بأن النملة هي أقوى كائن على وجه الأرض تستطيع حمل ما يفوق ٢٠ ضعف وزنها بينما الإنسان لا يستطيع حمل أكثر من وزنه إلا بضعف أو ضعفين وهكذا دأب أمير المؤمنين بالحث على العمل والبذل والعطاء واستغلال المال في عمل الخير ونفع الأمة يقول (عليه السلام) (فمن آتاه الله مالاً فليصل به القرابة وليمسن منه للضيافة ولفك به الأسير والعاني وليعط منه الفقير والمحروم) ويقول في أهل الاكتناز هلك خزان الأموال وهم أحياء وأعتبرهم حراس على أموالهم فقط يقول (عليه السلام) (يا ابن أدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك) ويقول (لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل) وفي هذا محاربة للأمية والتخلف ودعم للعلم والمعرفة ويقول (عليه السلام) (لا مال أعود من العقل).

تأكيداً لمقولة أمير المؤمنين (عليه السلام) هذه فاقتصاديات العالم اليوم تنقسم إلى ثلاث مجموعات = دول ذات اقتصاد الموارد = ومجموعة دول اقتصاد التكنولوجيا ومجموعة دول اقتصاديات المعرفة وهي أقوى اقتصاديات العالم وقد بلغتها اليابان حيث تنتج اليابان اليوم باقتصاد المعرفة (العقول) أكثر من ٨ تريليون دولار سنوياً مع العلم إن اليابان بمساحتها الجغرافية الصغيرة (تقدر بمساحة العراق) وعدد سكانها ١٢٢مليون نسمة ولا تملك أي ثروة باطنية أو أراضي زراعية بل تملك ثروة المعرفة والعقول فقط ويبلغ إنتاجها ضعف إنتاج دولة كبرى مثل الصين عدد سكانها يزيد على ١٣٠٠ مليون نسمة أي أكبر من سكان اليابان بأحد عشر مرة ومساحتها أكبر من مساحة اليابان بعشرين مرة ٩ مليون كم٢.

وهكذا اعتبر الإمام (عليه السلام) أن عنصر رأس المال وعنصر الأيدي العاملة وعنصر الأرض كلها ذات إنتاج محدود بدون عنصر العلم والمعرفة يقول في هذا (المال بلا علم بدون فائدة ولا مال لمن لا تدبير له) وهكذا تتعدد المقولات الاقتصادية والسكانية عند الإمام (عليه السلام) لذا رسم لنا صورة لعملية التنمية الشاملة في الديموغرافيا والتنمية والاستثمار وكحل لمشكلة البطالة وتحريك السيولة النقدية لخير وصلاح الأمة يقول تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

ويقول تعالى أيضاً ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ وقد اهتم أيضاً أمير المؤمنين (عليه السلام) بالبعد الثقافي والتاريخي للشعوب كما جاء في رسالته لمالك ابن الأشتر في مصر (اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور ولا تنقص سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن).

هذا تأكيد من أمير المؤمنين (عليه السلام) على أهمية الأعراف والعادات والتقاليد في المجتمع خاصة الصالح منها والاعتراف بالتراث الحضاري لشعوب كأحد المصادر المرجعية في تسيير المجتمع وذلك باتباع نهج القرآن الكريم والسنة الشريفة ومنهج الإمام (عليه السلام) يقول تعالى ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ويقول تعالى أيضاً ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ وهذا يدل على ربط الفكر الاجتماعي والديموغرافي عند الإمام (عليه السلام) والنهج الإسلامي من بالاستقراء التاريخي لسنن ونواميس الساحة التاريخية للشعوب.

قال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾.

كل ذلك في نظام اجتماعي وكوني هائل قال تعالى ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ صدق الله العظيم. ❖

نهج البلاغة في مرآة القرآن

أ. د. عمر موسى باشا (سورية)

«أنا من رسول الله كالضوء من الضوء» (علي بن أبي طالب)

من المفيد جداً أن نستهل بحث النهج وعلاقته الوثيقة بالقرآن الكريم، فنتحدث عن أهمية ذلك في تراثنا الفكري والحضاري، فهو المرآة الصادقة للحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية، على اختلاف وجوهها وتنوع فنونها، وهو المصدر الثالث من مصادر البيان العربي الأصيل، بعد كتاب الله المعجز، والسنّة النبوية الغرّاء.

ولا بد لنا في طرّة هذا الاستهلال من أن نشير إلى أهمية هذا السفر العربي الذي هو قدوة البلغاء، ومنهج المنشئين، والمثل الأعلى للمفكرين والمبدعين.

ومن المستحسن هنا أن نشير إلى البواعث الأصيلة والمصادر المعتمدة التي جعلت الإمام البليغ علياً بن أبي طالب (ع) يبدع في خطبه ورسائله، وكتبه وكلامه عامة، وفي حكمه وأمثاله، ومواعظه وأقواله خاصة، وليس من باب العبث اللفظي قوله: «القلب مصحف البصر»[1]. وفي هذا التشبيه البليغ رمز، وليس المراد فيه التشبيه نفسه فحسب، وإنما هو تأكيد، أو لعله يقول: إن القرآن هو البصر أو البصيرة أو هو ملء البصر والبصيرة معاً، وذلك حين نتجاوز ظاهر اللفظ، ساعين إلى معرفة باطنه، لأنه الماضي والحاضر والمستقبل، يؤكد لنا ذلك قوله في كلامه السائر: «وفي القرآن نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم»[2]، وفي هذا القول الفصل الحقيقة الأبدية.

علي والرضي:

مما لا شك فيه أن للشريف الرضي الفضل كل الفضل في البدء بجمع كلام الإمام وصونه من الضياع والفقد، وذلك نظراً لأهميته واتصاله الفعّال بالأحداث الكبرى في حياة العرب والمسلمين، ولا سيما هذه الأحداث التي شلت الكلمة وفرّقت الإخوة، وكان لكلام الإمام الأثر الكبير في جمع القلوب وتوحيد المشاعر، وقد تجلى ذلك كله في هذه الومضات الإنسانية، والإضاءات البيانية، والإبداعات الفكرية، وذلك بالاعتماد على ما في القرآن من شرائع وأحكام، وما فيه من عظات وآيات، فلقد انعكس ذلك كله في أقواله وأعماله.

من ذلك قوله في خطبة له في إحدى الجمع: «إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله». ثم تعوّذ وقرأ سورة (العصر) ثم قال: «جعلنا الله وإياكم ممن تسعهم رحمته،

---

(١) نهج البلاغة (تح ص) ص ٥٤٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٣٠.

ويشملهم عفوه ورأفته، وأستغفر الله لي ولكم» ثم جلس يسيراً وتابع الحمد الثاني في خطبته المذكورة.

ومما هو جدير بالذكر أن الإمام علياً (ع) كان يعلّم القرآن ويشرحه ويفسره لمن حوله، كما أشار إلى ذلك في خطبة ذم فيها بعض العاصين من أصحابه بقوله: «قد دارستكم الكتاب وفاتحتكم الحِجاج».

كما ذكر الشريف الرضي أنه ابتدأ بتأليف كتاب في خصائص الأئمة، وذكر «محاسن أخبارهم وجواهر كلامهم»، وتوقف بعد الانتهاء من خصائص إمام الأئمة علي (ع)، إذ عاقته «محاجزات الأيام ومماطلات الزمان» عن إنجاز هذا الكتاب، ويبدو لنا أن هذا التوقف كان ـ في اعتقادنا ـ غير متعلق بالأيام والزمان، كما يقول، وإنما يرجع إلى أسباب نفسية خاصة وعوامل ذاتية، ذلك أنه شعر بالتقصير في حق الإمام علي (ع)، فهو قمة الإبداع البياني، بيد أن أدبه المشهور كان معروفاً ومشتتاً بين العلماء وضائعاً بين الناس، فآثر آنئذ التوجه الكلي لجمع ما تفرّق من أدبه، وتوزع من فكره، ومما يؤكد ذلك أن الناس كانوا معجبين بما اختاره من «محاسن ما نقل عنه، عليه السلام، من الكلام القصير في المواعظ والحكم والأمثال والآداب، دون الخطب الطويلة، والكتب المبسوطة»[1].

واستطرد الشريف الرضي قائلاً: «فاستحسن جماعة من الأصدقاء ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره، معجبين ببدائعه، ومتعجبين من تواضعه، وسألوني عند ذلك أن أبتدئ بتأليف يحتوي على مختار كلام أمير المؤمنين (ع)، في جميع فنونه، ومتشعبات غصونه، من خطب وكتب، ومواعظ وأدب، علماً أن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة، وغرائب الفصاحة، وجواهر العربية، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية، ما لا يوجد مجتمعاً في كلام، ولا مجموع الأطراف في كتاب، إذ كان أمير المؤمنين (ع)، مشرع الفصاحة وموردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه (ع)، ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ. ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وقد تقدم وتأخروا، لأن كلامه (ع)، الكلام الذي عليه مِسحة من العلم الإلهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي، فأجبتهم إلى الإبتداء بذلك عالماً بما فيه من عظيم النفع ومنشور الذكر..»[2].

أوردت بعض كلام الشريف الرضي، وذلك يؤكد ما قلته في البدء، وهو أنه شعر بالغبن الذي لحق بالإمام عليٍّ (ع)، حين قصّر أصحابه بحقه، ولا سيما بعد أن ألح عليه الناس طالبين جمع آثاره الأدبية المشتتة هنا وهناك، وقد اختتم مقدمته بقوله: «ولا أدعي ـ مع ذلك ـ أني أحيط بأقطار جميع كلامه (ع)، حتى لا يشذ عني منه شاذ، ولا يندّ نادّ، بل لا أبعد أن يكون القاصر

---

(١) مستدرك نهج البلاغة (تح هـ) ص ٦٨، ٩٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤.

عني فوق الواقع إليّ، والحاصل في ربقتي، دون الخارج من يديّ، وما عليّ إلا بذل الجهد، وبلاغ الوسع، وعلى الله سبحانه وتعالى نهج السبيل، وإرشاد الدليل، إن شاء الله تعالى»[1].

وحقاً ما قاله، فلقد استدرك القدماء والمحدثون على ما جمعه الشريف الرضي، وبذلك كان حقاً أميناً عما فعل، وأشار إلى من سيقوم بعده فيكمل هذا الجمع، ويبقى الأمر والفضل للسابق المتقدم.

علي والقرآن:

أكثر الإمام علي (ع) من وصف القرآن، والاستشهاد بآياته ومثانيه وبيان معجزاته وأحكامه في كل مناسبة سانحة اقتضاها الخطاب، واقترنت بها المناسبة، ذلك أنه كان يعتقد أن من حق الولد على والده «أن يحسّن اسمه، ويحسّن أدبه، ويعلّمه القرآن»[*].

ومن الملاحظ أنه كان يدور في فلك القرآن، ويتغنى به يصفه ويبيّن قدسيته وعظمته. والملاحظ أنه كان يجد فيه مثله الأعلى في بلاغته العظمى، وإعجازه المطلق، وما عرفنا من القدماء أو المحدثين من أدرك ما أدركه من الحقائق العليا، وسوف نلاحظ أنه تبنّى ما فيه من محاسن الحكم والأمثال والأقوال، حتى إنه كان في بعض الأحيان يصنّف أو يخطب خطبة كما توحيه إليه بعض الآيات ذات الدلالة والمغزى، وقد توضح لنا ذلك في خطب ثلاث توضيحاً لآيات ثلاث، وكأنما كان ينشئ ذلك تعليماً وتثقيفاً، وتبياناً توضيحاً، وهذا الأسلوب خاص به، وهو الرائد فيه.

أما مظاهر هذا الأثر والتأثر القرآني الكلي أو الجزئي، فيمكن أن نتبينها في عدة أساليب، فهو حيناً يتغنى بالقرآن، ويصف إعجازه، ويعدد أحكامه، ويبين زواجره ونواهيه من خلال بيانه وتبيانه، ولا يقتصر الأمر على ذلك، وإنما نراه يقتبس آياته يزين بها أسلوبه وينمق بها ديباجته، وقد يكتفي من الآية بأكثرها أو أقلها، أو بكلمة واحدة، وهذا من أجل الرمز القرآني في الديباجة النهجية.

وسوف نعرض شواهد وتماثيل من ذلك كله، كما وردت في النهج، إذ لا نستطيع إيراد جزء محدد منها، إيماناً منا بالوحدة الكلية في هيكل النص الأدبي، ذلك لأن الاجتزاء يُفقد الأحكام الأدبية والنقدية قيمتها الفنية. ومما هو جدير بالذكر أن الإمام كان منهجياً في بلاغته، والمهم أننا نعجب كل العجب حين نجده حريصاً على الوحدة الكلية الموضوعية، وقل أن نجده يأخذ من كل موضوع بطرف، وإنما كان يبحث دوماً موضوعاً محدداً في خطبته. ساعده على ذلك أصالة منهجية، وهذا التوجه الذي بدأه، وهو الجوهر في العمل الأدبي، من الأمور الهامة التي لم يتنبه لها النقاد القدماء منهم والمحدثون.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٦.

(*) نهج البلاغة (تح ص) ص ٥٤٩.

القرآن والنهج:

ولا بد لنا من وقفة قصيرة، نوضح فيها أهمية القرآن في النهج، ونشير إلى ما رواه الجاحظ عن أبي يعقوب الثقفي، عند عبد الملك بن عمير: «قال: سُئل الحارث بن أبي ربيعة، عن علي بن أبي طالب (رض)، فقال: كم كان له ما شئت من ضرس قاطع في العلم بكتاب الله، والفقه في السنة، والهجرة إلى الله ورسوله، والبسطة في العشيرة والنجدة في الحرب، والبذل للماعون»[١].

لقد تضمن نهجه العلم بكتاب الله، بالإضافة إلى هذه الصفات الخمس التي رويت في هذا الخبر الجامع المانع، وذلك كله موثق بالاقتباس من آياته ومثانيه.

يقول الدكتور صبحي الصالح: «... وفي خطب علي خاصة فريدة لا تكاد تفارقها، وهي كثرة اقتباسه من القرآن المجيد والحديث الشريف... والمعروف أن الاقتباس من كتاب الله وحديث نبيه جائز، حتى ولو اقتطع المقتبس موضع الشاهد المناسب من أواخر الآية أو أواسطها، أو اختار عبارات من الحديث أو ألفاظاً، وقد كان من دلائل جواز الاقتباس عند بعض البلاغيين أن الإمام (ع)، أكثر منه في كلامه، وهو حجة، فلا مسوّغ للتساؤل عن اقتطافه، كرم الله وجهه، ألفاظاً وتركه ألفاظاً أُخر، ما دام غير قاصد إلى النقل الحرفي، وإنما كان قاصداً إلى طبع أسلوبه بطابع إسلامي صريح...»[٢].

كما أشار الباحث نفسه إلى أن (نهج البلاغة) هو خير «نموذج للنثر الفني في صدر الإسلام»[٣].

بيد أننا نضيف إلى هذا التقويم المنهجي المتعلق بالشكل أمراً آخر، وهو أن النهج يمثل القيم المثلى للحياة الإنسانية، والسعادة البشرية، ومن هذا الجانب تبرز عبقرية الإمام الرائد الذي كان يضع في حسبانه خير البشرية قاطبة، وهو القائل: «وأنا من رسول الله كالضوء من الضوء والذراع من العضد»[*]، وقوله هذا غني عن كل بيان وتبيان.

أوصاف القرآن:

وصف الإمام علي، كرم الله وجهه، في النهج القرآن، ولا أعرف مصدراً أبدع في وصفه، كما أبدعه، إذ نجد خطباً كاملة للتحدث عن القرآن، ولا يتكرر الحديث نفسه، فنراه تارة يحجل حيث يجب الإحجال، ويفصل حين يجب التفصيل، ويمكن أن نجمل أوصافه في ثلاثة أنواع وصفية:

---

(١) الجاحظ: البيان والتبيين ١/١٣١.

(٢) مقدمة نهج البلاغة للدكتور صبحي الصالح، ص ٢٦ ـ ٢٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧.

(*) نهج البلاغة (تح ص) ص ٤١٨.

النوع الأول: نصوص كاملة، أو شبه كاملة، في الكتب والخطب والرسائل.

النوع الثاني: فقرات مطوّلة تضمنتها بعض النصوص المذكورة.

النوع الثالث: إشارات عابرة لآيات مجتزأة وألفاظ قرآنية.

وتتضمن هذه الأنواع البيانية الثلاثة من المعاني الكلية ما يتضمنه القرآن نفسه من شرائع الأحكام، وما استجد من الأحداث والفتن والحروب والأحوال الاجتماعية المختلفة.

النوع الأول:

يمكن أن نتبين أربعة نماذج من التماثيل الفنية، وسوف نشير إلى أهم مميزاتها من خلال الوقوف عندها تعريفاً وتوضيحاً وتمثيلاً.

أما النموذج الأول، فهو الخطبة الأولى التي استهل بها النهج، وقد تضمنت التحدث عن ابتداء الخلق: خلق السماء والأرض، وخلق الملائكة وآدم، واختيار الأنبياء، ومبعث الرسول محمد (ص)، وذكر القرآن وما تضمنه من الأحكام الشرعية وغيرها.

استهل الإمام علي (ع) خطبته بقوله: «وخلّف.. كتاب ربكم فيكم، مبيناً حلاله وحرامه، وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه..»[١].

وأما النموذج الثاني فقد تضمن وصف قدرة الله بعد الحمدلة، وخلص منها إلى قوله: «وجعل لكل شيء قدراً، ولكل قدْر أجلاً، ولكل أجل كتاباً»[٢].

ثم استطرد لذكر فضل القرآن، ونعته بأنه «آمر زاجر، وصامت ناطق، حجة الله على خلقه، أخذ عليهم ميثاقه، وارتهن عليهم أنفسهم، أتم نوره، وأكمل به دينه»[٣]. واختتم خطبته بالوصية والتقوى.

وأما النموذج الثالث فقد تضمن طلب الانتفاع ببيان الله والاتعاظ بمواعظه، وقد استهله بقوله: «واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يُضل، والمحدث الذي لا يكذب»[٤].

أما النموذج الرابع، فهو أطول النماذج المذكورة، وهو من خطبة له، يحسن بنا الوقوف عندها، وقد اختتمها بذكر القرآن مطولاً. استهلها بالتحدث منبهاً على إحاطة علم الله بالجزئيات، ثم يحث على التقوى ويبين فضل الإسلام وبعثه النبي محمد (ص) بالحق حتى انتهى إلى ذكر القرآن الكريم، ومن الواجب أن نورد ختام خطبته، وهو قوله: «ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تُطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يُدرك قعره، (ومنهاجاً لا

---

(١) نهج البلاغة (تح ص) ص ٤٤ - ٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٦٥.

(٤) المصدر السابق، ص ٢٥٢.

يُضل نهجه) وشعاعاً لا يُظلم ضوؤه، وفرقاناً لا يُخمد برهانه، وبياناً لا تُهدم أركانه، وشفاء لا تُخشى أسقامه، وعزاً لا تُهزم أنصاره، وحقاً لا تُخذل أعوانه».

فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا يستنزفه المستنزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل (نهجها) المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون.

جعله الله رياً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجّ لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عُروته، ومعقلاً منيعاً ذروته، وعزاً لمن تولاه، وسلماً لمن ائتم به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لم تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاجّ به، وحاملاً لمن حمله، ومطية لمن أعمله، وآية لمن توسَّم، وجنة لمن استلأم، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى»[1].

أبرز ما يلاحظ في هذا التمثال القرآني أن نصه قد أعطانا أدق صورة، وأكمل نموذج عن كتاب الله، عز وجل، ويمكن للباحث أن يتبين الملاحظات الثلاث التالية:

فالأولى: أنه تحدث عن الكتاب المنزل، والفرقان الأمثل، وأنه النور والشعاع والسراج، والبحر والحق والعز والشفاء، وقد شفع ذلك بذكره (منهاجاً لا يضل نهجه).

والثانية: أنه تحدث من خلاله عن الإسلام والإيمان والعلم، والعدل، وشفع ذلك كله أيضاً بذكره (نهجها) ثانية بعد ذكرها الازدواجي الأول.

والثالثة: أنه أبرز أهمية الكتاب الفرقان عند العلماء والفقهاء والصلحاء لأنه مصدر كل شيء وهدى ورحمة للعالمين، ولا يستغني عنه أي إنسان.

وذكر النهج ثلاث مرات يؤكد على ما ذكرناه في بدء الحديث، وهو أن التسمية كانت مستوحاة من كلام الإمام نفسه.

النوع الثاني:

يتضمن النوع الثاني بعض المقتطفات والشذرات البليغة في أسطر معدودات، بيد أنها لا تستنفد القسم الأعظم من النص النهجي، وإنما تأتي استطراداً أو استشهاداً لما يعرض له من المعنى، وقد أحصينا هذا النوع في ستة نماذج مجتزأة تضمنتها النصوص.

أما النموذج الأول فهو من خطبة له في ذكر أركان الدين، وقد اختتمت بالدعوة إلى الإفاضة في ذكر الله، والاقتداء بالنبي (ص) ثم خلص من ذلك طالب تعلم القرآن بقوله: «وتعلموا القرآن، فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه، فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء

(١) المصدر السابق، ص ٣١٥ - ٣١٦.

الصدور، وأحسنوا في تلاوته فإنه أنفع القصص، وإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم»[١].

وأما النموذج الثاني فهو من كلام الإمام علي (ع) في مخاطبته أهل البصرة، فتحدث عن الإيمان، ووصف حال أهل القبور يوم القيامة، ودعا إلى التمسك بحبل القرآن في قوله: «وعليكم بكتاب الله، فإنه الحبل المتين، والنور المبين، والشفاء النافع، والري الناقع، والعصمة للمتمسك، والنجاة للمتعلق، لا يعوج فيقام، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تخلقه كثرة الرد، وولوج السمع، من قال به صدق، ومن عمل به سبق»[٢].

وأما النموذج الثالث فهو من خطبة الأشباح، وهي من جلائل خطبه خطب بها على منبر الكوفة، وقد استهلها بالتحدث عن الله، عز وجل، وذكر صفاته اعتماداً على ما ورد منها في القرآن، كما تضمنت وصف السماء والملائكة والأرض والبحار، وهي من أطول خطبه، ومما قاله: «فانظر أيها السائل: فما ذلك القرآن عليه من صفته فائتم به، واستضئ بنور هدايته، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس في الكتاب عليك فرضه، ولا في سنّة النبي (ص) وأئمة الهدى أثره، فكِلْ علمه إلى الله سبحانه فإن ذلك منتهى حق الله عليك..»[٣].

وأما النموذج الرابع فهو من كلام له في ذم اختلاف العلماء في الفتيا، وذم أهل الرأي، وأن الحكم للقرآن، وقد استشهد بقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[٥]، واختتم حديثه واستشهاده بعد هاتين الآيتين بقوله: «وإن القرآن ظاهره أنيق، وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تُكشف الظلمات إلا به»[٦].

هذه الكلمات المعدودات في جزء من وصف القرآن إنما تجمع كل شيء الظاهر والباطن والعجائب والغرائب، وماذا أبقى بعدئذ؟!

وأما النموذجان الخامس والسادس فهما على جانب كبير من الأهمية، ذلك لأنهما يتعلقان ببعض الأحداث الهامة، ولا سيما ما يتعلق منها برفع المصاحف والتحكيم، ونحن نكتفي هنا بما يتعلق بالقرآن.

ففي النموذج الخامس المتعلق بالتحكيم وموقفه بعد سماعه لأمر الحكمين، في مطلع كلام له (ع): «إنّا لم نحكّم الرجال، وإنما حكمنا القرآن، هذا القرآن إنما هو خط مستور

---

(١) نهج البلاغة (تح ص) ص ١٦٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٢١٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٤) سورة الأنعام: ٣٨.

(٥) سورة النساء: ٨٢.

(٦) نهج البلاغة (تح ص) ص ٦١.

بين الدفتين، لا ينطق بلسان، ولا بد له من ترجمان، وإنما ينطق عنه الرجال، ولما دعانا القوم إلى أن نحكم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله، سبحانه وتعالى، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[1]، فرده إلى الله أن نحكم بكتابه، ورده إلى الرسول أن نأخذ بسنته، فإذا حُكم بالصدق في كتاب الله، فنحن أحق الناس به، وإن حكم بسنّة رسول الله (ص)، فنحن أحق الناس وأولاهم بها..»[2].

والملاحظ أن الإمام علياً (ع) كان يناقش قصة التحكيم مناقشة منطقية مقنعة، ويدعم حججه بما ورد في القرآن، فهو يتحدث عن القرآن بالقرآن، وهنا تكمن براعته البلاغية.

والأمر نفسه في النموذج السادس، وهو من كتاب أمر جماعة من أصحابه أن يقرؤوه أيضاً على شيعته، بيّن لهم ما يقوله فيما سألوه عنه، ومنه قوله: «.. وكان صلحي بينهم على رجلين حكمين، يحييا ما أحيا القرآن، ويميتان ما أمات القرآن، فاختلف رأيهما، وتفرق حكمهما، ونبذا حكم القرآن، وخالفا ما في الكتاب، واتبعا هوىاهما بغير هدى من الله، فجنبهما السداد، وأهوى بهما في غمرة الضلال..»[3].

كما أشار في الكلام نفسه إلى الحكماء والعلماء والفقهاء وحملة القرآن والمتهجدين بالأسحار، والعباد والزهاد في الدنيا وعمّار المساجد وأهل تلاوة القرآن[4].

هذه النماذج والتماثيل تعطبنا كما رأينا في النوع الأول خير دليل على أن الثقافة القرآنية في نهج البلاغة هي العماد الأصيل والجوهر المتلألئ في البلاغة العربية.

النوع الثالث:

يتضمن النوع الثالث إشارات عابرة ورموزاً خاطفة إلى القرآن الكريم في بعض المناسبات من خطبه وكلامه ورسائله في كلمات معدودات، وقد تمتد إلى أكثر من سطر أو سطرين بيد أنها لا تتجاوز أربعة أسطر في الأغلب، ويمكن أن نتبينها في ثمانية نماذج. ومن المفيد لهذا البحث أن نعرضها لاستكمال الصور الكلية، لأنها تثبيت أحياناً بعض الأقوال المأثورة مما يتعلق بالقرآن، وقل أن نجد مثيلاً في مصدر آخر بمثل هذا المظهر المطبوع بالطابع الذاتي، فقد قوّم حياته وأعماله بالتقويم القرآني المحض! ولا أعرف أحداً فعل مثل فعله وفق منهجه الخاص.

من ذلك قوله في النموذج الأول من خطبة له، وهي الخطبة العجيبة المسمّاة بـ (الغراء): «فكفى بالجنة ثواباً ونوالاً، وكفى بالنار عقاباً وبالاً، وكفى بالله منتقماً ونصيراً، وكفى بالكتاب حجيجاً وخصيماً»[5].

---

(١) سورة النساء: ٥٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٢، النص ١٢٥.

(٣) مستدرك نهج البلاغة (تح هـ) ص ١٢٢.

(٤) المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٥) نهج البلاغة (تح ص) ص ١١٢.

وقوله في النموذج الثاني من خطبة له يتحدث فيها عن صفات الحق ووعظ الناس بالتقوى والمشورة: «وأنزل عليكم الكتاب تبياناً لكل شيء وعمَّر فيكم نبيه أزماناً حتى أكمل له ولكم - فيما أنزل من كتابه - دينه الذي رضي لنفسه»[١].

وقوله في النموذج الثالث من كلام له حين عزم على المسير إلى الخوارج وقد اعترض عليه بعض الصحابة: «فمن صدقك بهذا فقد كذب القرآن». ومما هو جدير بالذكر أن المعترض عليه كان يعتمد على علم النجوم، بيد أنه نبه إلى عدم الاعتماد على التنجيم والمنجمين.

وقوله في النموذج الرابع بعد ليلة الهرير: «أين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرؤوا القرآن فأحكموه»[٢].

وقوله في النموذج الخامس من خطبة له في تعظيم الله ووعظ الناس وذكر القرآن: «وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعيا لسانه، وبيت لا تهدم أركانه، وعز لا تهزم أعوانه»[٣].

ولم يكتف بذلك، وإنما أعاد ذكر القرآن في وعظه الناس بقوله: «وكتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف بالله، ولا يخالف بصاحبه عن الله»[٤].

وقوله في النموذج السادس من كلام له يدحض حكم الحكمين: «فإنما حكم الحكمان ليُحييا ما أحيا القرآن، ويميتا ما أمات القرآن، وإحياؤه الاجتماع عليه، وإماتته الافتراق عنه، فإن جرَّنا القرآن إليهم اتبعناهم، وإن جرَّهم إلينا اتبعونا»[٥].

وهذه المرة الثالثة التي يرد فيها ذكر التحكيم وموقف علي منه.

وقوله في النموذج السابع بعد انصرافه من صفين، وفيها وصف حال الناس قبل البعثة وصفة آل النبي: «أرسله بالدين المشهور والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع، إزاحة للشبهات، واحتجاجاً بالبينات وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمُثلات»[٦].

وقوله في النموذج الأخير الثامن من خطبة له في بيان فضل القرآن والرسول (ص): «ذلك القرآن فاستنطقوه، ولن ينطق، ولكن أخبركم عنه، إلا أنه فيه علم ما يأتي، والحديث عن الماضي، ودواء دائكم، ونظم ما بينكم»[٧].

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٧.

(٣) نهج البلاغة (تح ص) ص ١٩١.

(٤) المصدر السابق، ص ١٩٢.

(٥) المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٦) المصدر السابق، ص ٤٦.

(٧) المصدر السابق، ص ٢٢٣.

هذه ثمانية عشر نموذجاً للتماثيل البيانية النهجية، وقد لاحظنا من خلالها أن الإمام علياً (ع) كان يجد في القرآن البيان كل البيان، يعتمد عليه، ويستشهد به مسترشداً بهديه، ويجعله الحكم الفاصل، والقول الفصل، في كل ما يتعلق بالأحداث التي مرت به، أو التي تعرض له، ومن المفيد هنا الوقوف عند قصة سودة بنت عُمارة الهمدانية، فقد روت هذه المرأة «أنها جاءت تشتكي من رجل ولاّه صدقاتهم، فوجدته قائماً يصلي، فلما انفتل من صلاته قال لها بتعطف ورأفة: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى، ثم رفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا تركِ حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراء فكتب فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم: قد جاءتكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، بقية الله خير لكن إن كنتم مؤمنين، وما أنا عليكم بحفيظ».

إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك حتى يأتي من يقبضه منك، والسلام»[1].

أبرز ما يلاحظ هذا الطبع القرآني الأصيل، فقد وضّح أمر الشرع بالنسبة إلى الحاكم. وطلب من عامله الأمانة وإعطاء الناس حقوقهم المشروعة. ولكن البيان النهجي كان على غاية من الدقة، إذ لا يستطيع الباحث أن يجعل النص القرآني معزواً إلى سورة واحدة، لأنه استخدم ببراعة، هذا التداخل القرآني في النص الذي كتبه وذلك كما يلي في عدة سور معاً.

أولاً: في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾[2].

ثانياً: في سورة هود قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾[3].

ثالثاً: رواية (جاءكم) عوضاً عن (جاءتكم) فقد وردت في قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾[4].

هكذا يتضح أنه استخدم أكثر من ثلاث آيات، ولا نجد آية واحدة تجمع النص المذكور كاملاً، والواقع أن مثل هذا التداخل يوضح الإعجاز النهجي في استخدام القرآن، فهو من حيث التكامل النصي مستقيم، ومن حيث الاستخدام صحيح، ولكن يبقى علينا أن

---

(١) مستدرك نهج البلاغة، ص ١٣٨.

(٢) سورة الأعراف: ٨٥ ـ ٨٦.

(٣) سورة هود: ٨٦.

(٤) سورة الأنعام: ١٥٧.

نشير إلى أن مثل التنسيق في الاستشهاد لم يسبق إليه ولا نعرف فيما اطلعنا من نصوص اقتباسية من فعل مثل ذلك، وربما يحسبه الشراة أنه غير مستقيم مع النص القرآني. قد يبدو هذا للوهلة الأولى، ولكن النظرة الفاحصة بأكثر من زاوية تبرز لنا الدقة النهجية في هذا الاستخدام اللفظي في النظرة التفصيلية، والاستخدام المعنوي في النظرة التكاملية.

مقتبسات القرآن:

كنا تحدثنا عن أوصاف القرآن، واستخداماته الفنية، من خلال النماذج والتماثيل الجمالية في النهج، وقد لاحظنا أن الإمام علياً (ع) كان يشفع في وصف القرآن بآيات من القرآن نفسه في أكثر من آية في بعض الأحيان، بيْد أن هذا التوجه كان أكثر استخداماً في غير المجال السابق، لأنه يشمل النهج كاملاً سواء أكان في وصف القرآن أم في غيره من الموضوعات التي كانت موضع حديثه وخطبه وكتبه.

قد نستغرب إن قلنا إن عدد اقتباساته القرآنية عامة هو إحصائياً مساوٍ لعدد السور القرآنية، وهو مائة وأربع عشرة سورة.

يمكن تقسيم الآيات الاقتباسية في النهج إلى ثلاثة أنواع بحسب طول الاستشهاد أو قصره.

النوع الأول: آيات الاستشهاد الكبرى ست عشرة آية.

النوع الثاني: آيات الاستشهاد الوسطى إحدى وخمسون آية.

النوع الثالث: آيات الاستشهاد الصغرى سبع وأربعون آية.

ومما هو جدير بالذكر أن الاستشهاد لا يعني الآية كلها، فقد يكون النص كاملاً، وقد يكون معظمه، وقد يكون أقله.

يضاف إلى ذلك عدد آيات المستدرك.

ولا بد من الإشارة هنا إلى رأي الإمام علي (ع) في قراءة القرآن وترتيله والتغني به، وهو قوله: «بينه تبياناً، ولا تهذه هذّ الشعر، ولا تنثره نثر الرمل، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة»[١].

ومن ذلك قوله: «ترتيل القرآن حفظ الوقوف وبيان الحروف»[٢].

هذا كله يؤكد لنا معرفة الإمام علي (ع) بقواعد التلاوة والتجويد. يضاف إلى ذلك حفظه، ذلك أن طبيعة المناسبات أكدت لنا، إذ كان يكتفي في بعض الأحيان بالتعبير عما يريده قرآناً كما كان الحال في شكواه. كما كان يستخدم في بعض حكمه وأمثاله معاني القرآن معبراً بأسلوبه الذاتي، من ذلك قوله: «إذا حييت بتحية فحيي بأحسن منها، وإذا أسديت إليك يد، فكافئها بما يربي عليها، والفضل مع ذلك للبادئ»[٣].

---

(١) مستدرك نهج البلاغة، ص ١٧٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٧٩.

ثلاث جمل في هذه الفقرة أو القول السائر للإمام علي (ع)، فالجملة الأولى مستمدة من كتاب الله معنى ولفظاً ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾[١] ولم يكتف بهذا الاقتباس القرآني بما ينسجم والمناسبة العارضة، وإنما شفعها بما يلائم ذلك، فتحدث عن المحسن الذي أسدى إليه صنيعاً حسناً، واختتمه بأن الفضل للسابق المتقدم.

الشرح القرآني:

لا بد لنا بعد التحدث عن الأوصاف القرآنية في نهج البلاغة، والاقتباسات الاستشهادية في المناسبات المختلفة، من توضيح ميزة ثالثة، وهي الشرح القرآني توضيحاً لعظمة القرآن، وتبياناً لمواطن إعجازه، وتوضيحاً لفنون بلاغته.

والملاحظ وجود ضربين من الشرح والتبيان القرآني، فأما الضرب الأول فيتعلق بالشرح المباشر رغبة من الإمام علي (ع) لأهمية الموضوع المجمل في كتاب الله عز وجل: وأما الضرب الثاني فيتعلق بسؤال أو طلب من بعض صحابته، وهو الشرح المطلوب غير المباشر، أو هو شرح المطلق.

الشرح المباشر:

يتضمن هذا الضرب ثلاثة نماذج، يحسن الوقوف عندها،

أما النموذج الأول فهو كلامه حين تلا قوله تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾[٢].

فقد استهل شرحه بقوله: «يا له مراماً ما أبعده! وزوراً ما أغفله! وخطراً ما أفظعه!..»[٣] واختتمه بقوله: «وإن للموت لغمرات، هي أفظع من أن تُستغرق بصفة، أو تعتدل على عقول أهل الدنيا»[٤].

وأما النموذج الثاني فهو كلامه حين تلا قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾[٥].

فقد استهل شرحه بقوله: «إن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء للقلوب، تسمع به بعد الوقرة، وتُبصر به بعد القشوة، وتنقاد به بعد المعاندة»[٦].

واختتمه بقوله: «فحاسب نفسك لنفسك، فإن غيرها من الأنفس لها حسب غيرك»[٧].

---

(١) سورة النساء: ٨٦.

(٢) سورة التكاثر: ١ - ٢.

(٣) نهج البلاغة (تح ص) ص ٣٣٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٤١.

(٥) سورة النور: ٣٦ - ٣٧.

(٦) نهج البلاغة (تح ص) ص ٣٤٢.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٤٣.

وأما النموذج الثالث فهو كلامه حين تلا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[١].

فقد استهل شرحه بقوله: «أدحض مسؤول حجة، وأقطع مغتر معذرة، لقد أبرح جهالة بنفسه»[٢].

ثم استطرد بعد هذا الاستهلال المعنف يقول: «يا أيها الإنسان، ما جرأك على ذنبك، وما غرك بربك، وما أنسك بهلكة نفسك؟!»[٣].

واختتمه بقوله: «فتحرَّ من أمرك ما يقوم به عذرك، وتثبت به حجتك، وخذ ما يبقى لك، مما لا تبقى له، وتيسر لسفرك، وشم برق النجاة، وارحل مطايا التشمير»[٤].

يتضح من هذا الضرب من الشرح أنه كان صادراً عن إبداع ذاتي في أدب الإمام، إذ لم يقل رغبة في أمر خاص، وإنما كان هدفه الإفادة العامة للناس والدعوة إلى فهم أحكام القرآن وتدبر آياته.

الشرح المطلق:

كان الإمام علي (ع) مصدراً من مصادر الشريعة والتشريع بعد موت الرسول الأعظم محمد (ص)، فلم يكن يهمل سؤال سائل، أو شرح أمر في مناسبة عارضة، وقد توضح لنا ذلك من خلال ثلاثة شواهد.

أما الشاهد الأول فهو في التحدث عن (المغفرة والاستغفار) وقد وردت في القرآن على اختلاف صيغها واشتقاقاتها مائتين واثنتين وثلاثين مرة.

قال الإمام علي (ع) لقائل ذكر في حضرته: (أستغفر الله).

«ثكلتك أمك! أتدري ما الاستغفار؟

الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معان.

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتى تُلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد.

---

(١) سورة الانفطار: ٦.

(٢) نهج البلاغة (تح هـ) ص ٣٤٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٤٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٤٦.

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية.

فعند ذلك تقول: (أستغفر الله)»[١].

ولم يقتصر الأمر على ما مر معنا هنا، وإنما كان يردد قوله: «عجبت لمن يقنط ومعه الاستغفار»[٢].

وأما الشاهد الثاني فهو في وصف (المتقين) بعد ذكر الاستغفار والمستغفرين، ذلك لأن «التقى رئيس الأخلاق»[٣].

«روي أن صاحباً لأمير المؤمنين (ع)، يقال له همام، كان رجلاً عابداً، فقال له: (يا أمير المؤمنين، صف لي المتقين حتى كأني أنظر إليهم، فتثاقل (ع) عن جوابه، ثم قال: (يا همام، اتق الله وأحسن: فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[٤]، فلم يقنع همام بهذا القول حتى عزم عليه، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي (ص)، ثم قال (ع): فالمتقون فيها هم أصل الفضائل: منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم، عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم..»[٥].

وهكذا أفاض واستطرد يتحدث في هذه الخطبة عن الجنة والنار، ويصف المتقين في الليل «تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً»[٦].

إن هذه الخطبة في وصف المتقين من أجمل النصوص النهجية، فلا تستغرب إن رأينا صاحبه هماماً يصعق صعقة كانت نفسه فيها...

كذلك وصف النفاق والمنافقين، في خطبة أيضاً[٧]، وقد اختتمها بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٨].

وأما الشاهد الثالث فهو في بحث الفتنة، وموقف القرآن من هذا الموضوع الهام، وكأنما كان الإمام علي (ع) يحرص على تحذير المسلمين من الأحداث التي تثير الفتن بينهم.

ومما هو جدير بالذكر أن رجلاً قال: «يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن الفتنة، وهل سألت رسول الله (ص)، عنها، فقال عليه السلام: «إنه لما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ

---

(١) نهج البلاغة (تح ص) ص ٥٥١.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٨٢.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦.

(٤) سورة النحل ١٢٨/١٦.

(٥) المصدر السابق، ص ٥٤٨

(٦) المصدر السابق، ص ٣٠٦.

(٧) المصدر السابق، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨.

(٨) سورة المجادلة: ١٩.

﴿ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[1] علمت أن الفتنة لا تزل بيننا، ورسول الله صلى الله عليه وآله بين أظهرنا..»[2].

خاتمة المطاف:

يتضح مما تقدم معنا أن كتاب نهج البلاغة سفر متميز لا كسائر الأسفار، لأنه انطباعات إمام كبير من أئمة الإسلام، شهد أحداثه الكبرى، فكان نهجه بحق مذكرات ذاتية، وانطباعات إبداعية لهذا الإمام الكبير الذي أسهم في هذا الصراع المرير بين الخير والشر، ومن خلال هذا التعبير الإنساني من الجاهلية الجهلاء إلى العقيدة السمحة الغراء.

وهكذا سما أتباع الدين الجديد سمواً إنسانياً، فكانت رسالتهم إلى العالم كله والناس أجمعين.

ومن هذا المنطلق بالذات تبدو عظمة النهج لأنه صورة واقعية ونظرة حقيقة إلى المجتمع الجديد، يضاف إلى ذلك أنه كان مجسداً للقيم الإسلامية والمعاني القرآنية، وهذا ما حرصنا على تبيانه والبرهان عليه من خلال النهج.

ولقد استطعنا أن نجلو هذه الحقيقة من خلال البحث في التحدث عن العلاقة بين الإمام علي (ع) والشريف الرضي، كما تعرضنا بعد ذلك للتسمية، وأثر القرآن فيه، وخاصة الأوصاف القرآنية في النهج بالإضافة إلى الشروح والاقتباسات والحوارات.

هكذا نستطيع بعد هذا كله أن نقول:

إن نهج البلاغة كان قطاف القرآن، وما فيه من آراء وشروح ليس إلا التفسير الدقيق لذلك كله، ولا سيما أن صاحبه أحد العمد الكبرى في فهم القرآن وتدبير مثانيه وآياته، فكان نهج البلاغة المرآة الحقيقية للمجتمع العربي الإسلامي، اعتماداً على ما في كتاب الله من عقيدة ومواعظ وعبر، وهكذا نستطيع أن نرى نهج البلاغة في أنوار مرآة القرآن.

مصادر البحث:

(١) نهج البلاغة، تحقيق الشيخ محمد عبده، المكتبة التجارية الكبرى ـ المطبعة الرحمانية بمصر جزءان.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، جزء واحد جامع طبع في بيروت سنة ١٣٨٧هـ، وطبع في إيران بقم سنة ١٣٩٥هـ بإشراف انتشارات الهجرة ـ إيران ـ قم.

(٣) نهج البلاغة، تحقيق عبد العزيز سيد الأهل أربعة أجزاء طبع مكتبة الأندلس للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان ١٣٧٤هـ و١٩٥٤م.

(٤) مستدرك نهج البلاغة، ومدارك نهج البلاغة ودفع الشبهات عنه ـ كتابان في مجموع واحد تأليف وجمع الهادي كاشف الغطاء، مطبعة مكتبة الأندلس للطباعة والنشر ١٣٧٤هـ و١٩٥٤م. ❖

---

(١) سورة العنكبوت: ١ ـ ٢.

(٢) نهج البلاغة (تح ص) ص ٢٢٠.

علي والعدالة الإنسانية

م. م. خليل إبراهيم الشوكي
جامعة ميسان - كلية القانون

المقدمة:

مهما تقادمت بالإنسان التجارب والرؤى المستقبلية، وبات يرتقي سلّماً من المجد الذي يقطع معه أسار العلاقة مع الآخر، أو يقصيه عن ماضيه، فإنه يبقى أسير علائق عقائدية وروابط تاريخية، يستحيل معها التحايل على واقع يرافقه مرافقه الشيء لظله، فالإنسان بما هو إنسان له علاقة حميمة مع بيئته الاجتماعية - أفراداً أو تاريخاً - مما لا يسع تجاهلها بأي حال من الأحوال، فالعلاقة مع هؤلاء يترتب معها الأثر حاضراً ومستقبلاً، بحيث لا يمكن تجاهلها أو التخلي عنها.

جدير ذكره أن ننوه إلى حقيقة صنع الإنسان التي تتركب من مادة (الطين) والروح، التي تشابه إلى حد كبير، النسخة التي في عالم الذر - عالم الموجودات الإمكانية -، وركّب فيها دواعي الخير والشرّ، وكانت الغاية القصوى من وضع النواميس والأديان، وبعثة المصطفين من عظماء الإنسان هو سوق هذه النسخة المفردة إلى طريق الهداية والرشاد، وقطع أسار العلقة بكل ما يمت إلى سجله التاريخي المظلم، فكل إنسان في هذا الوجود له سجلّ تاريخي، قد طوته ذاكرت الأيام، وإذا ما أراد أن يسترجع الماضي، يجد نفسه قد أمن بفكر ما أو عقيدة معينة، أو خالف إنسان ووالى آخر، وعليه اليوم أن يدقق النظر بهذا الماضي، وهل أن تلك العقائد والأشخاص، لها تجسيد حي وواقعي مع ما يؤمن به من موازين خلقية وقواعد مثالية وتعاليم دينية، فيزداد اقتناعاً ورضاً وتمسكاً بها، أو ينسفها عن ذاكرته وأن تركت بصماتها في نفسه.

فكان من الواجب على كلّ إنسان في هذه المعمورة أن يأخذ أهبته، ويبذل همّته في تطهير طينته عن الأقذار الجسميّة وأنجاسها قبل أن يتيه في بيداء الشّقاق، ويهوي في مهاوي الضلالة والهلاك.

فلابد من وقفة يقطع من خلالها قيود الأهواء، وأن يعيش المبادئ والواقعية، التي يصدّق من خلالها ما يؤمن به، وأن يرسم مساره العقدي عبر ما يؤمن به من مبادئ وقيم تحتم عليه أن يعرف الحق والباطل في معرفته لمن يواليه، ولا يصرع لمرديات الهوى، ويفتر بالأشخاص عن هوى، وأن يعرف الحق ويعرف موازينه التي ليس الرجال منها في أية حال، فالرجال - مهما بلغوا من التعين والثقة في الاعتماد عليهم - لا يمكن أن يكونوا معياراً لمعرفة الحق والباطل، هكذا أراد لنا الإسلام أن نعيش المبدئية وأن لا نحابي عن ديننا، فلا نمحض ثقتنا لرجل

نصدقه في كل ما يقول، ولا نستطيع أن نصدّق أو نحترم أو نوالي قائداً يدّعي الخلافة والزعامة بعد الرسول (ص) ويظهر أنه يحارب من أجل الإسلام الذي يمنع القتل والزنا والكذب، بينما هو يقتل ويزني ويكذب.

حتى ندنو من كوّه النور ونبتعد عن الأوصاف التي يطول المقام معها، نجد أنفسنا قد وضعنا بصمة الإبهام على شخصية تاريخية دوّت أصداءها أركان الوجود بأسره، وتلاطمت أمواج بحرها، ببديع بيان لو نطق به لانقض على لسان أمواجه، ولو نطق بالحكمة لفجر براكين لها أصداء وأضواءُ، وساق المنصتين له إلى ما يريده سوقاً، وطاف بهم بالكون سحراً وجمالاً.

شخصية بقيت تتلألأ على ملامح الدهور والقرون، وقد شقت طريقها إلى أعماق القلوب، وباتت تجذب العشاق على مدى العصور، بحيث أنَّ الناس بعد قرون إذا ذكروها، وذكروا أخلاقها وسجاياها انهمرت دموع الشوق من عيونهم، وبكوا على ما أصابه من الدهر الخئون، الأمر الّذي أثر حتّى في نفوس الأعداء واستذرف منهم الدموع، وهذه أشد الجاذبات قوة.

هذه الشخصية كانت محطاً للمعترك الكلامي بين علماء الأمة الإسلاميّة، فلم تشهد الأمة خلافاً مريراً على عظيم من عظمائها كما اختلفت أمتنا الإسلاميّة حول شخصية الإمام علي.

ولم يكن هذا الخلاف وليد عصره، وإنما انقدحت جذوة ناره منذ الوهلة الأولى لظهور هذه الشخصية في الميدان الإسلامي، ولربما كانت المحك الأساس في انقداح ومعرفة سرّ الاختلاف في النفوس وحكمته، وأنه مظهراً من مظاهر التجلّي لهذه الفلسفة ـ الجذب والطرد ـ، ولكي يشق الإنسان طريقه في خضم هذه الابتلاءات، وهو يخوض هذا الغمار في رحلة التكامل والارتقاء التي يقضي عمره كلّه كادحاً لقطعها نحو خالقه سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ (الانشقاق: ٦).

أنه (علي) الذي جسد دهراً في يوم، لا يوم في دهر، فمن عرفه وعرف حقه فاز بالدارين ومن جهله غار في القعرين.

فنحن نقف اليوم أمام شخصية تاريخية فاقت عصرها وسبقته بمئات السنين، شخصية تضمّنت تاريخاً يحق لنا أن نتصفحه ونقرأ حروفه بتأمل حرفاً حرفاً، شخصية تجعلنا نقف حائرين أمام هذا الكم الهائل من السجايا والخصال الحميدة، التي يتصف بها هذا الجبل الشامخ ليكون لنا مناراً يُهتدى به، ونبراساً يُقتدى به، لينير الطريق للأجيال ويزيل العُتمة الداكنة التي أحاطت بجوانب الحياة على طول التاريخ، لتحس إن هذا النبع المتدفق لا يمكن الاغتراف منه لسعته وثرائه، حتى في حالة أخذ الجزء اليسير منه تكون قد تهت بين ثناياه وعمقه وشموله.

لذا يجب أن نقرأ هذا الكم الهائل، وهذا التراث المتجدد، الذي بقي ألقاً متلألأً أمام الجميع، ومنهلاً عذباً لطالبي العلم والباحثين عن الحقيقة بكل أشكالها.

ـ إرهاصات البيئة القرشية:

بنظرة فاحصة يستتبعها نوعاً من التأمل والإنشداد لقراءة التاريخ؛ قراءة تحليلية ناضجة بعيدة عن أيّ لون من ألوان التحيّز والميول القومي والطائفي، ومَن ثم عرضها على القرآن الكريم واستنطاق آياته الشريفة الحاكية عن تركيبة المجتمع ـ أي مجتمع كان ـ وطبيعته النفسية والفسيولوجية، نرى المستوى المتردي الذي آلت إليه المجتمعات من أصحاب الديانات السماوية والوثنية قبل الإسلام، وما وصلت إليه من انحراف عقائدي واضطهاد سياسي واجتماعي خلّف وراءه الكثير من الاضطرابات السياسية والنعرات الطائفية وإذكاء روح العداوة إلى غير ذلك من مفاسد جمعها البيان الإلهي.

هذه الموروثات البيئية خلّفت سلوكاً مضطرباً مغايراً للطبيعة الإنسانية؛ إذ لاشك أنّ للموروث البيئي دوراً مهماً في تحديد فكر أي إنسان واتجاهاته، حيث تصبح الموروثات البيئية مع مرور الزمن ومع الاعتياد عليها قولاً وسلوكاً ـ حقائق ثابتة لا يجوز الخروج عليها ـ، كما لا ننسى أن هناك عادات قد تركها هذا الموروث، وهي متأصلة في النفوس من الصعب جداً إزالتها، وهي العصبية القبلية والانتقام وأخذ الثأر، كل هذه التركات، كان لعلي(ع) النصيب الأوفر من العداء، وهو أن علياً قد وتر قريشاً في حروبها ضد الإسلام، وإن كل دم أراقه رسول الله (ص) بسيف علي فإن العرب بعد وفاة النبي قد عصبت تلك الدماء بعليّ وحده، لأنه لم يكن في رهط النبي من يستحق في شرع قريش وعاداتهم أن يعصب به تلك الدماء إلا علي وحده[1]، فما من بيت من بيوتات قريش وتميم وعدي وغيرها، إلا وفيه نائحة بسيف علي كل هذه الشوائب لا زالت عالقة في أذهانهم. مما يرسم صورة قاتمة لمستقبل الإسلام. فكان الرسول يراقب عن كثب تصرفات تلك الجموع الغفيرة، ويراقب حركاتهم وفلتات ألسنتهم التي كانت تصدر منهم بغير إرادتهم لأدنى موقف يرّون فيه التفضيل عليهم كما حدث في واقعة الحارث بن النعمان الذي جاء وملئه الغضب ليستنكر على رسول الله (ص) لتنصيبه أمير المؤمنين علي (ع) خليفة شرعياً من قبل الله على الأمة الإسلامية من بعده، فقال: «يا محمد أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقبلنا منك، ثم ذكر سائر أركان الإسلام وقال: ثم لم ترضى بهذا حتى مددت بضبعي ابن عمّك وفضّلته علينا وقلت من كنت مولاه فهذا علي مولاه، فهذا منك أم من الله؟ فقال النبي والله الذي لا إله إلا هو، هو أمر الله، فولى الحارث وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من

---

(١) نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٣ص٢٨٣.

عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذاب أليم، فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته وخرج من دبره، وأنزل الله تعالى ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾[1] كل هذه التصرفات والحماقات الجاهلية كان الرسول العظيم يتوجس منها خيفةً على الإسلام من بعده، وكان يعلم أن أول ضربة ستوجه من بعده إلى الخط الرسالي الذي أرسى قواعده الإمام علي والخُلص من الصحابة الأوفياء لأن وجود هذا الخط سيحول دون تنفيذ مآربهم ومخططاتهم الدفينة والرامية إلى تغيير النهج الإسلامي الأصيل، تبعاً لما ترتئيه مزاجاتهم وأهوائهم فكانوا يترقبون الأحداث وينتظرون الفرصة المؤاتية للانقضاض على قيادة الدولة الإسلامية وذلك برحيل النبي فما كان من النبي إلا أن يقف أمام الملأ ليعلنها صراحةً ومن دون تردد أو رهبة بما يدور في أذهانهم من احتراب لعلي ولأهل بيته (ع). وإن الأمة الإسلامية سوف تتقلب من بعده إلى طرائق وفرق، وإن الحق يوم ذاك مع علي فكان يؤكد لأصحابه دور علي وأنه الإمام الحق من بعده، فكان يقول: إن تستخلفوا علياً - وما أراكم فاعلين - تجدوه هادياً مهديا يحملكم على المحجة البيضاء. وروي أن (سعد بن عبادة) قال في ملأ من الناس: «فوالله لقد سمعت رسول الله يقول: إذا أنا مت تضلّ الأهواء بعدي ويرجع الناس على أعقابهم، فالحق يومئذ مع علي»[2].

وحديث الثقلين خير شاهد على ضرورة التمسك بنهج علي والسير على هديه وطاعته وذكر الطبرسي: عن أحمد بن همام قال: «أتيت عبادة بن الصامت في ولاية أبي بكر، قبل أن يستخلف؟ فقال يا أبا ثعلبة إذا سكتنا عنكم فأسكتوا ولا تباحثونا فوالله لعلي ابن أبي طالب كان أحق من أبي بكر كما كان رسول الله أحق بالنبوة من أبي جهل، قال وأزيدكم، إنا كنا ذات يوم عند النبي فجاء علي وأبو بكر وعمر ثم دخل علي على أثرهما فكأنما سفيّ على وجهه رسول الله الرماد، ثم قال يا علي أيتقدمانك هذان وقد أمرك الله عليهما؟ فقال أبو بكر نسيت يا رسول الله، وقال عمر سهوت يا رسول الله، فقال ما نسيتما ولا سهوتما، وكأني بكما قد سلبتماه ملكه وتحاربتما عليه وأعانكما على ذلك المهاجرين والأنصار يضرب بعضهما وجوه بعض بالسيف ولكأني بأهل بيتي وهم المقهورون

---

(١) المعارج: ٧٠، تفسير المنار ج٦ص٤٦٤، وتذكرة الخواص: ص٣١ مع اختلاف في اللفظ، والفصول المهمة لابن الصباغ ص٤٢، أبو إسحاق الثعلبي في تفسيره والحاكم الحسكاني في كتابه دعاة الهداة، والقرطبي في تفسيره والحموين في فرائد السمطين، والزرندي والحنفي في معارج الأصول ودرر السمطين، والسمهودي في جواهر العقدين، والعماري في تفسيره، والشر بيني القاهري الشافعي في تفسيره، والمناوي الشافعي في فيض القدير، والحلبي في السيرة الحلبية والحنفي الشافعي في شرح الجامع الصغير، والزرقاني المالكي في شرح المواهب اللدنية، والشبلنجي في نور الأبصار، وغيرهم - راجع كتاب الجزء الأول من موسوعة الغدير - حلية الأولياء لأبي نعيم ج١ص٦٤، ومختصر تأريخ دمشق لابن عساكر ج١٨ص٣٢.

(٢) الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة، علي خان المدني ص٣٢٦.

المشتتون في أقطارها، وذلك لأمر قضيّ، لهذا الأمر المهم كان يدعوا رسول الله الناس للإقتداء بعلي مراراً وتكراراً، ويقول: أن تستخلفوا علياً وما أراكم فاعلين تجدوه هادياً مهدياً يحملكم على المحجة البيضاء»[١] ولقد أودع النبي علياً أسرار النبوة وتفاصيل الرسالة وحمله عبء المسؤولية وأوجب عليه رعايتها وصيانتها، وما كان من موقف أو واقعة إلا ويكلله بأكاليل الولاية والخلافة من بعده وكان يقول: «من أراد أن ينظر إلى أدم في علمه وإلى نوح في فهمه وإلى إبراهيم في حلمه وإلى يحيى بن زكريا في زهده وإلى موسى بن عمران في بطشه، فلينظر إلى علي بن أبي طالب»[٢] وفي موقف أخر كان يقول: «إن الله عهد إلي في علي بن أبي طالب عهداً، قلت يا رب بينه لي قال: أسمع. قلت: قد سمعت: قال أن علياً راية الهدى وإمام أوليائي ونور من أطاعني وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين، ومن أحبه أحبني ومن أطاعه أطاعني[٣].

ـ الانقلاب على الأعقاب:

بعد وفاة رسول الله انطوت قريش على مكنون حقد دفين أظهرته من خلال ثورة عارمة على أهل بيته (ع) واستئصالهم تماماً عن خلافته الإلهية وتأسيس دولة إسلامية ذات طابع علماني مبتني على انتقال الخلافة بين قبائل قريش ناقضين بذلك جميع الأُسس الإلهية التي جاءت لكي تؤسس منهجاً إسلامياً مبتنياً على الارتباط بالوحي الإلهي والنص النبوي، هذا العهد اتخذ بإجماع حزب الطلقاء ومن سولت لهم أنفسهم من المهاجرين والأنصار بتنحية بنو هاشم بعد أن نالوا حضاً وافراً من النبوة إذ لا تجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد.

ـ إبعاد علي عن الخلافة الإلهية:

من أهم ما يميز المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت أنه مجتمعاً غارقاً برواسب الجاهلية والنعرات العشائرية والقبلية التي حالت دون تأييد المسلمين للإمام علي إذ كانوا ينظرون إلى مسالة خلافة الإمام (ع) بأنها مجرّد زعامة أثرها الرسول لابن عمه وقبيلته، ولم يكونوا ينظرون لها من زاوية عقيدية وأنها اختيار الله سبحانه وتعالى، يقول السيد الصدر حول هذه النقطة (وأنا أظن ظناً كبيراً أن علي بن أبي طالب لو لم يكن ابن عم النبي(ص) لو أن الصدفة لم تشأ أن يكون الرجل الثاني في الإسلام، لو لم يكن من أسرة محمّد لو كان من عدي أو لو كان من تميم، لو كان من أسرة أخرى لكان لهذه الولاية مفعول كبير جداً...[٤].

---

(١) ميزان الحكمة ج١ص٢٠٤.

(٢) كشف الغطاء: الشيخ جعفر كاشف الغطاء ص١٣.

(٣) تأريخ الطبري ج٣ص١٩٣.

(٤) أهل البيت تنّوع أدوار ووحدة هدف. دار التعارف للمطبوعات ص٨٣.

- إعداد كوادر معادية لأهل البيت (ع) لتولي مناصب الحكم:

أشرف الحزب القرشي على إعداد كوادر يتصفون بحنقهم وعدائهم لعلي وأهل بيته (ع) وتهيئتهم في المنافسة لهم في الوصول إلى المناصب العالية في الحكم، ويحتل الأمويون موقع الصدارة في هذا المضمار: لما تميزوا به من طموحات عالية في السلطة والخلافة، لذا نجدهم قد احتلوا المناصب الإدارية المهمة أيام أبي بكر وعمر، مضافاً لمبدأ الشورى الذي ابتدعه عمر، ليعطي الحظ الأوفر لعثمان بن عفان للوصول إلى دفة الحكم، وقد أخذت هذه الكتلة تزداد وتتسع يوماً بعد يوم حتى استتبت لها الأمور: وذلك لأنها لم تكن متمثلة في شخص واحد، بل كانت في بيت كبير من قريش، وبالتالي سوف يكون وصول آل محمّد إلى سدّة الحكم متعذراً، أو ليس سهلاً على أقل تقدير.

- الحيلولة دون وصول بنو هاشم إلى أي منصب رئاسي في الدولة البكرية العمرية:

أجمع القوم الذين حضروا السقيفة أن يشترطوا في إعطاء البيعة لأبي بكر هو منع بنو هاشم من الوصول إلى سدّة الحكم، قال عبد الرحمن بن عوف: أبايعك على شرط عمر أن لا تجعل أحداً من بني هاشم على رقاب الناس، أي عدم توليه هاشمي، فقال علي عند ذلك: ما لك ولهذا إذا قطعتها في عنقي فإن عليَّ الاجتهاد لأمّة محمّد حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها كان في بني هاشم أو غيرهم، قال عبد الرحمن: لا والله حتى تعطيني هذا الشرط، قال علي: والله لا أعطيكه أبداً[1].

ومعنى ذلك أن عبد الرحمن قد سار على نهج الخلفاء الثلاثة.

- عزل كل العناصر التي تميل إلى بني هاشم:

أيضاً من بنود الاتفاق أن يقوم الخليفة الجديد بعزل جميع من له ميل وحب لأهل البيت، ولذا عزل أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص عن قيادة الجيش الذي وجّهه لفتح الشام، لأنَّ عمر نبه أبا بكر إلى نزعة خالد الهاشمية، وميله لآل محمّد (ص)، وذكّره بموقفه المعارض لهم بعد وفاة الرسول[2].

- السعي لإضعاف القدرة الاقتصادية:

العامل الاقتصادي له دور كبير في تحفيز الرجال وشحذ هممهم للنصرة، وهذا ما كان يؤرق الحكام الجدد، فقاموا بسلب فدك والعوالي عن بيت النبوة خشية أن يستثمرها الإمام في الدعوة لاستعادة حقّه الشرعي في الخلافة، لعلمهم أنها كانت سنداً قوياً

---

(١) الإمامة والسياسة، ص ٢٥.

(٢) تاريخ الطبري، الطبري: ج٢ ص ٥٨٦.

لعلي، لا سيّما وأن أبا بكر نفسه اتخذ المال وسيلة من وسائل الإغراء وكسب الأصوات، وإليك بعض تلك الشواهد، منها:

أ ـ شراء الذمم بالأموال والمناصب:

عندما عاد أبو سفيان إلى المدينة سأل عمّا جرى أثناء غيبته عنها: فقالوا: مات رسول الله فقال: من وليٌّ بعده؟ قيل: أبو بكر، قال: أبو فصيل؟! قالوا: نعم، قال: ما فعل المستضعفان علي والعباس؟ أمّا والذي نفسي بيده لأرفعنَّ لهما من أعضادهما، قال أبو بكر، وذكر الراوي وهو جعفر بن سليمان: أن أبا سفيان قال: شيئاً آخر لم تحفظه الرواة، فلمّا قدم المدينة قال: إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلاّ دم، فكلّم عمر أبا بكر، فقال: إنّ أبا سفيان قدم وإنا لا نأمن شرّه، فدفع إليه ما في يده فتركه ورضي[1]. وكان في يد أبي سفيان في ذلك الحين صدقات كثيرة للمسلمين قد جمعها منهم؟!

ولم يقف الأمر على الرشوة المالية حتّى تعداه إلى الرشوة السلطوية، إذ يظهر أن أبا سفيان لم يقنعه المال وحده، بل طمح إلى أبعد من ذلك، فقال أبو سفيان: ما لنا ولأبي فصيل؟! إنما هي بنو عبد مناف!! فقيل له: إنه قد ولي ابنك، قال: وصلته رحم[2].

ب ـ التسلل إلى بعض الرموز المهمّة:

أجمع أرباب التاريخ أن أبا بكر أرسل إلى عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح والمغيرة بن شعبة، فقال: ما الرأي[3]؟ قالوا: الرأي أن تلقى العباس بن عبد المطلب فتجعل له في هذا الأمر نصيباً، يكون له ولعقبه من بعده، فتقطعون به ناحية علي بن أبي طالب، حجّة[4] لكم على علي إذا مال معكم، فانطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح والمغيرة حتى دخلوا على العباس ليلاً[5].

ج ـ الإجحاف في تقسيم الأموال:

لما اجتمع الناس على أبي بكر قسّم قسماً بين نساء المهاجرين والأنصار، فبعث إلى امرأة من بني عدي بن النجار قسماً مع زيد بن ثابت، فقالت: ما هذا؟ قالوا: قسم قسّمه أبو

---

(١) السقيفة، أبو بكر الجوهري: ص٣٩. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٢ ص٤٤. شرح النهج: ١: ١٣٠ طبعة القاهرة ـ مصطفى البابي الحلبي.

(٢) تاريخ الطبري ٢٠٢/٣.

(٣) في نص الجوهري أن قائل هذا الرأي هو المغيرة بن شعبة وهذا هو الأقرب إلى الصواب.

(٤) هذه الزيادة في نسخة الإمامة والسياسة ١٤/١.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ج٢ ص١٢٤ ـ ١٢٥: ونحوه الإمامة والسياسة، الدينوري: ج١ ص٢١: السقيفة، أبو بكر الجوهري: ص٤٩: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي: ج٢ ص٥٢.

بكر للنساء، قالت: أتراشونني عن ديني، فقالوا: لا، فقالت: أتخافون أن أدع ما أنا عليه؟ فقالوا: لا، فقالت: والله لا آخذ منه شيئاً أبداً[١].

ومنها: منح أبو بكر مزايا خاصّة لابنته عائشة، إذ أنه جعل زيادة في عطائها ألفي دينار بعدما جعل عطايا أمهات المؤمنين ستة آلاف دينار لكل واحدة[٢]، واستمرت عائشة بأخذ الزيادة في عهد أبيها وعمر الذي أوصى له بالخلافة من بعده.

ثانياً: الأيدي التي ساهمت في إنجازها:

كان الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، وتركوا جنازة الرسول يغسّله أهله، فقالوا: نولي هذا الأمر بعد محمّد، سعد بن عبادة.وكان بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي وأسيد بن الحضير سيد الأوس، يضمران الحقد لزعيم الخزرج سعد بن عبادة وينافسانه في السيادة فحسداه على هذا الترشيح وخافا أن يتم له الأمر، فأضمرا له الحقد الدفين مجمعين على صرف الأمر عنه بكل ما لديهما من وسيلة، وصافقهما على ذلك عويم بن ساعدة الأوسي[٣]، ومعن بن عدي[٤] حليف الأنصار، وقد كان هذان على اتفاق سرّي مع أبي بكر وعمر وحزبهما، فكانا من أولياء أبي بكر على عهد رسول الله، وكانا مع ذلك ذوي بغض وشحناء لسعد بن أبي عبادة، فانطلق عويم إلى أبي بكر وعمر مسرعاً فشحذ عزمهما لمعارضة سعد، وأسرع بهما إلى السقيفة ومعهما أبو عبيدة، وسالم مولى أبي حذيفة، ولحقهم آخرون من حزبهم من المهاجرين، فكثر بينهم اللغط وارتفعت الأصوات، حتى فرقت من الاختلاف، فقال عمر: "ابسط يدك يا أبا بكر! فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار"[٥]. ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد [الخزرجي] وما تدعوا إليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض، وفيهم أسيد بن حضير، وكان أحد النقباء: والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة، لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم فيها نصيباً أبداً، فقوموا فبايعوا أبا بكر. وفي رواية المعتزلي: لما رأت الأوس أنّ رئيساً من رؤساء الخزرج قد بايع، قام أسيد بن حضير، وهو رئيس الأوس، فبايع حسداً لسعد ومنافسة له أن يلي الأمر[٦]. فقاموا إليه فبايعوه، فانكسر على سعد بن عبادة وعلى

---

(١) السقيفة وفدك: ص٥١؛ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: ج٢ ص٥٣. وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١٨٢/٣).

(٢) راجع: تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: ج٢ ص١٥٣.

(٣) صحابي أنصاري كان مؤاخياً لعمر بن الخطاب (الاستيعاب: ١٧٠/٣).

(٤) ابن هشام ٣٣٩/٤ وفي الموفقيات للزبير بن بكار (معن بن عدي) بدل (عاصم) راجع ابن أبي الحديد ج٢ في شرحه (ومن كلام له في معنى الأنصار).

(٥) البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا.

(٦) ابن أبي الحديد: شرح النهج: ٢/٢.

الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم. فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر، وكادوا يطؤون سعد بن عبادة [في رواية عمر في البخاري: فنزونا على سعد بن عبادة][1]. فقال أُناس من أصحاب سعد: اتقوا سعداً لا تطؤوه! فقال عمر: اقتلوه! قتله الله! ثم قام على رأسه، فقال: لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضوك. إلى أن وثب ابنه قيس بن سعد، وأخذ بلحية عمر وقال له: والله يا ابن الصهاك الحبشية الجبان الفرار في الحروب والليث في الأمن، لو حركت منه شعرة ما رجعت إلى وجهك ضاحكة، أي: ما أبقيت لك سناً تبدو عند الضحك. فقال أبو بكر: مهلاً يا عمر! الرفق هاهنا أبلغ. فأعرض عنه عمر. وقال سعد: أما والله لو أن بي قوة ما، أقوى على النهوض، لسمعت مني في أقطارها وسككها زئيراً يحجرك وأصحابك؛ أمّا والله إذا لألحقنك بقوم كنت فيهم تابعاً غير متبوع؛ احملوني من هذا المكان. فحملوه فأدخلوه في داره[2].

وأخرج البخاري بسنده عن عائشة قالت: لقد خوف عمر الناس وإن فيهم لنفاقاً فردّهم الله بذلك[3].

وروى أبو بكر الجوهري: أنَّ عمر كان يومئذ ـ يعني يوم بويع أبو بكر ـ محتجزاً يهرول بين يدي أبي بكر ويقول: ألا إن الناس قد بايعوا أبا بكر[4].

وحال انتهاء مؤتمر السقيفة وحفاظاً على هذا المنجز الذي حصل فلتةً قام عمر بن الخطاب بنشر قوةً عسكريةً ملئ بها جميع سكك المدينة، وذلك بالاستنجاد بمرتزقة العرب بعد استمالتهم ببعض المغريات والمناصب، يقول الطبري: وأقبلت أسلم بجماعتها وهم بكامل أسلحتهم وبأيديهم مشاعل النيران حتّى تضايقت بهم السكك تبحث عن معارض لتفتك به، فكان عمر يقول: "ما هو إلا أن رأيت أسلم فأيقنت بالنصر"[5]. فلما بويع أبو بكر أقبلت الجماعة التي بايعته تزفه زفاً إلى مسجد رسول الله (ص) فصعد على المنبر ـ منبر رسول الله ـ فبايعه الناس حتى أمسى، وشغلوا عن دفن رسول الله حتى كانت ليلة الثلاثاء[6].

---

(١) نسبه في جمهرة ابن حزم ص ٦٥، والاستيعاب ٢/٣٢ ـ ٣٨ والإصابة ٢/٢٧ ـ ٢٨.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: ط سويدان: ٣/٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٣) المصدر السابق: ج٧ص٢٤ ح٣٦٦٩.

(٤) في كتابه السقيفة، راجع ابن أبي الحديد: ١/١٣٣. وفي ٧٤ منه بلفظ آخر.

(٥) الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير (المتوفى٣١٠)، التاريخ الطبري، ج ٢، ص ٢٤٤، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت. وقال زبير بن بكار في الموفقيات برواية النهج ٦/٢٨٧: (فقوي بهم أبو بكر) ولم يعينا متى جاءت أسلم ويقوى الظن أن يكون ذلك يوم الثلاثاء. وقال المفيد في كتابه (الجمل): إن القبيلة كانت قد جاءت لتمتار من المدينة (الجمل ص٤٣).

(٦) الموفقيات، ص ٥٧٨، والرياض النضرة ١/١٦٤، وتاريخ الخميس ج ١/١٨٨. (١) ابن هشام، ٤/٣٤٠. والطبري، ٣/٢٠٢ (وط. أوروبا ١/١٨٢٩).

وهذا دليل واضح على أنَّ هناك مؤامرة قد خطط لها عمر بن الخطاب، قد حشدّ لها الكثير من مرتزقة العرب في بسط نفوذ بنود السقيفة، هذه الشبكة الهائلة من العلاقات والمعتقدات، مكّنت زعامة الأكثرية من اختراق وحدة القلة المؤمنة، ومن إيجاد شرخ فيها، ومكّنت عمر بن الخطاب من تكوين جبهة عريضة، تتكون من الأكثرية التي كانت مشركة ثم أسلمت، ومن المرتزقة من الأعراب.

- علي رجل المبادئ:

طيلة الفترة الزمنية التي تصرمت على عهد الخلفاء الثلاثة، الذين راحوا من خلالها أن ينظرّوا للإسلام رؤىً اجتهادية وشخصية بحسب ما تمُليه عليهم المرحلة الزمنية التي يمر بها كل واحد منهم، هذا والإمام أمير المؤمنين (ع) قعيد الدار، يراقب الإسلام وشريعة الله فيذوب قلبه حسرة وألماً، أن يرى الشذوذ فلا يستطيع تغييره، ويُبصر المنكر فيعجز عن منعه، والمسلمون في سباتهم العميق، لذا وبناءاً على ما أوصاه الرسول ولعدم وفرة الأنصار المخلصين كان كل ذلك وراء عزوفه عن استعمال القوة في مواجهة الانحراف، والاكتفاء بالمعارضة السلمية، كتعبير عن رفضه للأوضاع القائمة بعد أحداث السقيفة، حينها خفّت الأضواء عن الإمام عند ارتحال النبي إلى جوار ربه عزّ وجلّ، وأسدل التأريخ عنه الستار ابتداءً من السنة الحادية عشر للهجرة، ولم يدون لنا أرباب التأريخ أي دور بارز للإمام (ع) خلال هذه الفترة العصيبة، إلا أن الذي أراه أن الإمام أنه كان يتحرك بدقة وذهنية عملية متكتماً على تحركاته، وقد انتهج منهجاً جديداً تبعاً للفترة الانتقالية التي يعيشها، ولم يكن هذا الأمر هيناً بالنسبة للإمام، وهو يسمع ويرى الكثير من أصحاب النفوس الضعيفة التي يكثر كلامها عن فعلها، وهي توجه أصابع الاتهام له، بأنه قعيد الدار الأمر الذي حدا بالإمام أن يبرز على الساحة الإسلامية تبعاً لاقتضاء الضرورة كما قلنا، فكان يبادر إلى إبداء النصح وإسداء الرأي الصحيح للخلفاء طيلة حكمهم وهو القائل: "فأمسكت حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمد فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم"[1]، وقد أوصلت به هذه الروح العظيمة إلى قلوب الخلفاء حتى كان عمر بن الخطاب يقول وهو صادق فيما يقول: "يا أبا الحسن لا أبقاني لشدة لست لها ولا لبلية لست فيهاج:[2] وكان يقول أيضاً: "أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبا الحسن، وقد ظهر رجوعه إلى علي في ثلاث وعشرين مسألة حتى قال: لولا علي لهلك عمر، وقد رواه خلق منهم أبو بكر بن عباس، وأبو المظفر السمعاني، قال الصاحب:

---

(١) الغارات. إبراهيم بن محمد الثقفي ج١ ص٣٠٥.

(٢) مناقب آل أبي طالب. ابن شهر آشوب ج١ ص٣١١.

في مثل فتواك إذا قالوا مجاهرة لولا علي لهلكنا في فتاوينا

وقال خطيب خوارزم:

إذا عمر تخطى في جواب ونبهه علي بالصواب

يقول بعدله لولا علي لهلكت في ذلك الجواب

وقد اشتهر عن أبو بكر (أن استقمت فاتبعوني وإن زغت فقوموني).

فالإمام كان صادق المشورة مطّلع على حقائق الأمور وله معرفة كاملة في تأريخ الشعوب، فكان حرصه على الدولة الإسلامية يوجب عليه إسداء النصيحة لمن استشاره.

ولعل اعتماد الخلفاء على الإمام في إسداء النصيحة والأخذ بها يؤكد مدى صدق الإمام لأنهم يعلمون أنه صادق في كلامه، وكذلك مدى خبرت الإمام التي اكتسبها من ابن عمه رسول الله من خلال ملاصقته له طيلة ثلاث وعشرون عاماً، مما أعطاه القدرة الواسعة في جميع الميادين الاجتماعية والسياسية والعسكرية.

- مواصفات حكومة الإمام:

لمّا آلت الخلافة إلى أهلها الشرعيين بعد أن مضت عليها فترة طويلة من اغتصابها، فهاهي اليوم تستقبل يوماً جديداً لم تعهده من قبل، نعم تستقبل صاحبها الشرعي الذي ألفته زمان النبي (ص) بعد أن عهده بها، وهي ترمق السماء لتسدل الستار لتطوي تلك الأيام الحزينة التي مرت عليها، وتجرعت غصصها، نعم إنه صاحبها الشرعي، الذي أرادها لإقامة العدل بين الناس، وتطبيق مبادئ السماء في بسط الحق ورفع الجور عن المظلومين.

ليست الخلافة في نظر علي إلا جسراً يعبر عليه ليقيم صرح العدل وأُسس الحق الذي بُعث من أجله النبي، وإلا فالخلافة أحوج إليه من حاجته إليها. فقال: (اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك)[1].

انصرف الإمام منذ اليوم الأول لتنفيذ مشروعه الإصلاحي، بعد أن وضع الأُسس التي يبتني عليه، وإصلاح ما نخره المتقدمون عليه وعُثمان وعمّاله على صعيد الاتّجاه السياسي والاجتماعي، وحتى الثقافي، في دولة رسول الله.

وإن من أهم الصعوبات التي واجهته بعد توليته زمام الدولة هي مسألة تشكيل الوزارة وتوزيع الحقائب الوزارية في الدولة وتطعيم مؤسسات الدولة بالعناصر الكفوءة المختلفة والقادرة على تصريف الأمور، لذلك كان على الإمام علي أن يغير البناء السياسي والتشكيلة الوزارية التي كانت من قبله بعد أن أوضح لمن حوله استراتيجية عمله الجديدة المبتنية على

---

(١) نهج البلاغة ص٩٨.

اعتماد العناصر الكفوءة، فقال لمن حوله: (وليس أمري وأمركم واحداً إني أريدكم لله وانتم تريدونني لأنفسكم)[1]. فاعتمد على عزل العناصر الفاسدة الذين ولاّهم الخليفة الثالث على إمارة المسلمين (كالوليد بن أبي معيط ـ الذي سمّاه القرآن فاسقاً ـ وعبدالله بن أبي سرح، الذي انتفضت عليه مصر، وعبدالله بن عامر، ومعاوية الرجل المتجبِّر)، وأشباههم واستبدل مكانهم العناصر المؤمنة وأصحاب السمعة الجيدة في الوسط الاجتماعي والسياسي والذين كان لهم بعد ذلك دور كبير في دولته وحكومته أمثال مالك الأشتر وعمار بن ياسر وعبد الله بن عباس وغيرهم من الوجوه المعروفة بالورع والإيمان. ثم انه من الركائز الأخرى التي انتهجها هو عدم انحجابه عن الناس والمؤمنين والجلوس لسماع مشاكلهم مع السلطة والموظفين فيكون على مقربة من الحدث مما يكون ذلك سبباً للمتابعة فضلاً عن وضع شرطه سرية ترصد حركات الموظفين والعمال الحكوميين مما يساعد الإمام على سياسة العزل والتنصيب وإقامة أسس الحق. فقد كان الإمام حاسماً في صنع القرار وقاطعاً كالسيف في تنفيذه. ولذلك فقد عاقب الولاة الذين خانوه، بشدّة، وأيضا وضع قانون التأمين الاجتماعي للعاطلين والعاجزين عن العمل بحيث يصرف لهم من بيت المال راتباً شهرياً وإنعاش الاقتصاد عبر نظام اقتصادي يتيح للفرد التملك ضمن سياسة إحياء الأراضي فكان الإمام علي يشجع على التنمية الاقتصادية والزراعية فضلاً عن إلغاء المحسوبية والرشوة والطرق الملتوية في نظام الحكم الجديد واعتماده على المساواة وإلغاء الحواجز العنصرية في سبيل مجتمع متكامل.

ـ آليات صنع القرار:

كانت سرعة صنع القرار في تنفيذ القوانين تعود للمراقبة الميدانية التي انتهجها الإمام عن طريق تواجد الأعوان في الساحة (أمثال: سلمان، والمقداد، وعمار، وعمرو بن الحمق، وكميل بن زياد، ومزرع، والأشتر النخعي، ومحمد بن أبي بكر، وعشرات غيرهم)، وتوفر الوسائل التي تؤدي إلى تنفيذ القرار (وهو السلاح). ودور المشاركة الميدانية للأمة في عصره. ولم يؤثر تمادي شرائح من أهل الكوفة وتباطؤهم في صنع القرار على الصورة الكلية لمجتمع المسلمين. بل كانت مناصرة الفقراء والمستضعفين الذين سُدّت حاجاتهم الأساسية في زمنه للنظام السياسي الإسلامي كافية في إعطاء صورة ناصعة عن الوضع العام.

ـ قانون الضمان الاجتماعي:

تضمنت حكومة الإمام علي (ع) جوانباً مشرقة في تاريخ الإسلام، تمثلت بالعدل والمساواة ونبذ العنصرية والتمييز العروبي الذي فشى في الحكومات الثيوقراطية إبان حكم

---

(١) دليل نهج البلاغة: أنصاريان ص٤٣٢.

الخلفاء الثلاثة، فحكومة علي (ع) كانت انطباعاً واضحاً عن شخصية القائد الذي عزف عن سفاسف الحياة والتركاض حول حطامها، والتكالب على مكاسبها، بحيث ضلت كلماته مدوية تهز الضمير الإنساني، لتلامس شغاف القلوب، ليكون ذلك العزوف برنامجاً تاريخياً تمارسه الأجيال جيلاً بعد جيل، يعطيهم المدّ والقوة لاسيما في ساحات الوغى وقراع الأبطال، فالقوة عنده تكمن في ترويض النفس، وليس بطاعتها، وحتى لا يطول بنا المقام في سرد كل القوانين التي شرّعها أمير المؤمنين (ع) نقتصر على بعض منها:

قانون الضمان الاجتماعي:

أعطى الإمام أهمية بالغة للضمان والرعاية الاجتماعية كركيزة مهمة في مشروعه الإصلاحي، وباعتبار أن النظام الإسلام أكد على مبدأ التكافل الاجتماعي كأحد الأسس التي من خلالها تتحقق الحياة الكريمة للفرد، فهذا القانون يعدّ بحق صبابة الإنسانية في قمّتها، والمشروع الإسلامي الأصيل، حيث ينطلق من زاوية الإنسانية، ولهذا فقد أوجد العديد من أشكال العطاء الديني التي من خلالها يتحقق التكافل الاجتماعي ومن بينها: الزكاة والصدقة والوقف والكفارات والنذور و...، تتوزع بشكل منظم وميّسر إلى أصحابها الشرعيين باعتبار أن هناك طبقات متضررة ومحرومة قد تغفل عنها الأعُين فهم بحق يستحقون الرعاية الاجتماعية المستمرة ويقع العبء الأكبر على الولاة والهيئات المنصبة من قبلهم.

وهذه الأشكال لا تقتصر فقط على العطاء لسد الاحتياجات الأساسية لهم بل لتحقيق حد الكفاية وحد الغنى. ومن جملة ما أوصى لهم الإمام: (وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحقره الرجال ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع إليك أمورهم ثم أعمل فيهم بالأعذار إلى الله يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم.

ثم يقول: وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن (كبار السن من الشيوخ والعجزة) ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه)[1].

فالإمام وهو زعيم أكبر دولة على وجه الأرض ذلك اليوم إذ تمتد إلى شمال إفريقيا، وأواسط آسيا إضافة إلى الجزيرة العربية، والشام والعراق، فهو لا يلقي الكلام بجزم وإنما هو يدرك بعين اليقين أن هناك في زوايا دولته المترامية الأطراف شخصاً فقيراً واحداً لم يشبع طيلة حياته، ولا إنساناً واحداً لا يطمع في تحصيله على قرص خبز، من أجل عدم التأكد لهذه الدرجة من الفقر، فيلقي الكلام بـ (لعل) وبذلك يذكر السبب لزهده وعدم شبعه من الأكل، لأن الإمام ينبغي له أن يواسي أضعف الرعية، وكيف يشبع الإمام علي وربما يوجد في الرعية من لم يشبع. ومن هذا المفهوم شرع في سنّ قانون القضاء على عامل الفقر في دولته،

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٣، ص١٤٩.

وفعلاً استطاع أمير المؤمنين (ع) أن يعدم مصطلح الفقر والتسكع في دولته، وذلك فينشر روح المساواة بين جميع أفراد المجتمع دون التفرقة بين ديانة أو جنسية. وكان يخرج بنفسه ويتفقد طبقات مجتمعه، وهذا يدل على أن الفقر كاد أن لا يرى لنفسه مجالاً في الدولة الإسلامية حتى إذا رأى الإمام أمير المؤمنين (ع) فقيراً واحداً كان يستغرب، ويعتبره ظاهرة غير طبيعية وغير لائقة بالمجتمع الإسلامي، والنظام الاقتصادي الإسلامي.

هذا واحد من بنود الضمان الاجتماعي في الإسلام، ويظهر منه عمق الإنسانية في الإسلام.

ولكي يعرف العالم، والمسلمون أنفسهم أنّ الحكومة الإسلامية تقضي على الفقر وترفع مستوى الفقراء لا بالنسبة للمسلمين فحسب، بل تنفي الفقر حتى عن الكفّار ماداموا تحت رعاية الدولة الإسلامية القارة السوداء التي لا تزال حتى اليوم - رغم كل التقدم الاقتصادي في مختلف الميادين في العالم - ترزح تحت وطأة الجوع والفقر والبؤس، والتي يموت فيها المئات والألوف.

هذه القارة التي تربض على مخازن الثروة الضخمة، والتي يسرق الطغاة في العالم ثرواتها دون أن يعطوها خبزاً وقمحاً يسدان الجوع.

هذه القارة كانت - قبل أكثر من عشرة قرون - تنعم بالغنى والثروة نتيجة حكم الإسلام عليها.

تفرعات القانون

أولاً: الطبقة السفلى (الفقير والمسكين)

الفقير هو الإنسان الذي يعجز عن توفير أبسط وسائل العيش المحترمة، نتيجة لعدم توفر العمل المناسب أو لوجود عاهة بدنية تُعجزه عن القيام بأبسط الأعمال التي يتناول من خلالها لقمة العيش، هذه الظاهرة الاجتماعية تكاد تلعب دوراً مهماً في نشر الرذيلة وإفشاء ظاهرة السرقة في المجتمع، وقد عالج النظام الإسلامي في قانونه الحقوقي هذه الظاهرة واعتبرها شراً إنسانياً تسبب حرمان الإنسان من أحد حقوقه الذي هو الكفاية في العيش، وشراً اجتماعياً باعتباره يعوق المجتمع عن التقدم المادي والمعنوي، واعتبر الإسلام أن المجتمع الأمثل الذي يسعى إلى تكوينه هو المجتمع الذي لا فقر فيه ولا فقراء.

من هنا قد شرع النظام الإسلامي في إعطاء اللُقاحات الناجعة للوقوف أمام هذا المرض العضال. ضمن منهجية علمية مدروسة، لمعالجة مشكلة الفقر، فضمّن حقوق العجّزة والمسنين. والضعفاء والمحرومين، وفرض لأجلهم الضرائب الخاصة، وألزم الدولة بالصرف عليهم. وتأمين حاجاتهم الضرورية، ودفع أفراد المجتمع إلى إخراج نصيب لهذه الطبقة المحرومة من ثرواتهم بعد تحديدها، وجعل ذلك عبادة مقدسة. وبذلك استطاع تشخيص أصل المشكلة ووضع العلاج الحاسم لها.

صحيح أن التجربة الإسلامية الأولى قد شهدت بعض ألوان الفقر والحرمان، إلا أنه ينبغي الإشارة إلى أن ذلك الحرمان يرجع إلى ندرة الثروات في منطقة الجزيرة العربية التي شهدت التجربة الإسلامية الرائدة ولا يتصل بالتشريعات الإسلامية بهذا الخصوص، بل يمكن القول أن التشريعات الإسلامية ساهمت إلى حد كبير في تقليص آثار القحط والجدب الطبيعي، ووضعت المجتمع على بداية طريق الثراء والرفاه، المقترن بالإيمان.

ولم تمض فترة طويلة من عمر التجربة الشابة حتى وجد المجتمع الإسلامي نفسه يعيش في بحبوحة من الخيرات والنعم. خصوصاً في الفترة الرائدة التي تضمنت الحقبة الزمنية للدولة العلوية، حيث شرع الإمام ضمن منهاج مبرمج في القضاء على هذه الطبقة والارتقاء بها ضمن صفوف طبقات المجتمع الإسلامي الأخرى وذلك عبر نظام يتكفل التوزيع العادل للأموال العامة يغذّى من الضرائب ومصادر الثروة العامة، يضمن مستوى الكفاية في العيش لجميع الناس. ففي عهد الإمام أمير المؤمنين (ع) في عهده إلى مالك الأشتر فقال له: (اللّهَ اللّهَ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لا حِيلَةَ لَهُم، مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينِ وَأَهْلِ الْبُؤسَى وَالزَّمْنَى، فَإنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَراً، وَاحْفَظْ اللهِ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكَ، وَقِسْماً مِنْ غَلاَّتِ صَوَافِي الإسلام في كُلِّ بَلَد، واجعل لهم قسماً في كل بلد، فَإنَّ لِلأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلأَدْنَى، وَكُلٌّ قَدِ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ، فلا يشغلنك عنهم بطر فإنك لا تعذر بتضييعك التافه لإحكام الكثير، فلا تشخص همّك عنهم، ولا تصّعر خدّك لهم، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم، ممن تقحمه العيون، وتحقره الرجال، ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فيرفع غليك أمورهم، ثم أعمل فيهم بالإعذار، فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه، وتعهد أهل اليتم، ودوي الرقّة في السنّ، ممّن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه، وذلك على الولاة ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العافية فصبروا أنفسهم، ووثقوا بصدق موعود الله لهم، واجعل لذّوي الحاجات منك قسماً تفّرغ لهم فيه شخصك، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك، حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع، فإني سمعت رسول الله (ص) يقول في غير موطن: (لن تقّدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متعتع) ثم احتمل الخرق منهم والعيّ، ونحّ عنهم الضيق والأنف، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته، ويوجب لك ثواب طاعته، واعط ما أعطيت هنيئاً، وامنع في إجمال وإعذار)[1]، وبذلك يحول بين المجتمع الإسلامي وبين أن توجد فيه ظاهرة الفقر بالمعنى الاقتصادي الاجتماعي المعروف، وإن كان هذا لا يعني أن يتساوى الناس في دخلهم وفيما يملكون، لأن هذا أمر مستحيل في أي مجتمع يتخيله الإنسان على الإطلاق. ويدخل في باب الأحلام والتصورات الطوباوية التي تأباها واقعية الإسلام. وبذلك يشعر الفقراء أنهم ليسوا

(١) نهج البلاغة: الخطبة رقم: ٦١.

مهملين: لا عين ترعاهم، ولا يد تمسح جراحهم، وتقيلهم عثرات الزمان.. بل يشعرون أنهم ملء سمع المجتمع وبصره، فتختفي دوافع الإجرام من أنفسهم، وعند ذلك يكون الشعار الإسلامي واحد، وإن المثل الأعلى هو الفضيلة، ويطلب إليهم أن يكونوا فضلاء... وأن يجعلوا الأرض أختاً للسماء.

فقد وعى الإمام أن الإنسان الجائع، المستغل، المحروم، المصفد بالأغلال لا يستطيع أن يكون فاضلاً، وأن من اللغو أن يوعظ بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وإن إنساناً كهذا ينقلب كافراً: كافراً بالقيم، والفضائل والإنسان. إن معدته الخاوية، وجسده المعذّب، ومجتمعه الكافر بإنسانيته، المتنكر له، وشعوره بالاستغلال، وميسم الضعة الذي يلاحقه أنى كان - هذه كلها تجعله لصاً، وسفاحاً، وعدواً للإنسانية التي لم تعترف له بحقه في الحياة الكريمة. ووعى أن المجتمع القائم على سيادة فريق وعبودية فريق، وعلى استغلال الأسياد للعبيد، والأحرار للمصفدين بالأغلال، مجتمع لا يمكن أن توجد فيه فضيلة ولا يمكن أن يوجد فيه فضلاء. إنه ليس إلا مجتمع لصوص ومجرمين وعبيد، تسيّر أفراده الأحقاد والمكر والاستغلال، وما كانت اللصوصية والعبودية وما إليها يوماً فضائل تشرف الإنسان.

على أساس من هذا الوعي جعل الإسلام الإصلاح الاقتصادي أساساً للإصلاح الاجتماعي.

ولقد كان من الطبيعي جداً - حتى عند المفكرين والمصلحين - في عصر الإمام وقبله أن يوجد أناس جائعون فقراء، وأن يوجد أغنياء يحارون كيف ينفقون أموالهم، فلم يكن الفقر بذاته والغنى بذاته مشكلة اجتماعية تطلب حلاً، لأنها في نظرهم أمر طبيعي لا محيد عنه. إنما المشكلة هي: كيف السبيل إلى إسكات الفقراء وحماية الأغنياء؟ فكان الإمام - بعد النبي الأعظم هو أول من كشف أن الفقر والغنى مشكلة اجتماعية خطيرة، ونظر إليها على أساس أفاعيلها الاجتماعية.

إن فلسفة الفقر عنده تجتمع في هاتين الكلمتين: (إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء فما جاع فقير إلا بما متع به غني)[1]، وقوله (ص): (ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع)[2].

ومن هنا أصبح من أبرز المشاكل التي حفل بها منهجه الإصلاحي يوم وليَ الحكم، مشكلة الفقر والغنى. ولقد كان مجتمعه إذ ذاك يعاني جراحاً عميقة بسبب هذه المشكلة، فقد وليَ الإمام الحكم والتفاوت الطبقي في المجتمع الإسلامي على أشد ما يكون عمقاً واتساعاً.

---

(١) نهج البلاغة - باب المختار من حكم أمير المؤمنين - رقم: ٣٢٨.

(٢) واتع نهج البلاغة: جورج جرداق ص٨٣.

ففي العهد السابق أي قبل ولاية الإمام للحكم، كانت الطريقة المتبعة في التقدير وإظهار الكرامة هي التفضيل في العطاء. وقد اتبعت هذه الطريقة في بعض الحالات بصورة خارجة عن حدود المعقول والمقبول، ففُضِّلَ من لا سابقة له في الدين ولا قِدم له في الإسلام على ذوي السوابق والأقدار. وقد أوجد هذا اللون من السياسة المالية طبقة من الأشراف لا تستمد قيمتها من المثل الأعلى للإسلام، وإنما تستمدها من السلالة والغنى والامتيازات التي أسبغها عليها الحكم القائم، وطبقة الشعب التي ليس لديها مال، ولا امتيازات، ولا ماض عريق، وكان من عقابيل ذلك أن أحس الفقراء الضعفاء بالدونية واستشعر الأشراف الاستعلاء، وحرم الفقراء المال الذي تدفق إلى جيوب الأغنياء.

فلما ولي الإمام الحكم ألفى بين يديه هذا الإرث المخيف الذي يهدد باستئصال ما غرسه النبي (ص) في نفوس المسلمين.

وقد عالج هذا الواقع الذي سبق إليه بالتسوية بين الناس في العطاء، فالشريف والوضيع، والكبير والصغير، والعربي والعجمي، كلهم في العطاء سواء. فلم يجعل العطاء مظهراً للتفاضل بين الأفراد والأفراد والطبقات والطبقات. وبهذا أظهر للناس أن القيمة ليست بالمال، وحال بين الفقراء والضعفاء وبين الشعور بالدونية، وبين الأشراف والأقوياء وبين أن يشعروا بالاستعلاء. وأهاب بالناس أن يثوبوا إلى الله فيجعلوا التقوى مناط التفاضل ومقياس التقويم.

فالإنسان في نهج عليّ، إذا جاء للوجود تضمّنت له القدرة الإلهية - أي أن يكون حيّاً - لتكفل له كفْلاً أساسيّاً ما يقيه خطر الموت قبل حينه. فإنّ العدالة الكونية ما أقامت حيّاً من الأحياء إلاّ وعدلتْ وجودَه بما يُمسك عليه مدّة بقائه. وهذا ما يعنيه عبقريّ الملاحظة الدقيقةِ الضابطة عليّ بن أبي طالب بقوله: (ولكلٍّ ذي رمَقٍ قوتٌ، ولكل حبةٍ آكل، وأنت قوت الموت)[1]. فإن في هذا المنع اعتداء على موازين العدالة الكونية، وافتراء على قيمة الحياة ومعنى الوجود. يقول علي: (والله لو أعطيت الأقاليم السبعة على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلبة شعير ما فعلت)، وكان يقول أيضاً: (إن الله جعلني إماماً لخلقه ففرض عليّ التقدير في نفسي ومطعمي ومشربي وملبسي كضعفاء الناس لكي يقتدي الفقير بفقري ولا يطغي الغني غناه)[2]، ومن هنا كانت النظرة العلوية إلى معنى الحياة الواحدة بكثيرها وقليلها، بكبيرها وصغيرها. فالعدالة الكونية التي وازنت بين الأحياء في مختلف حالاتهم وأقامت بينهم أعمالاً مشتركة وحقوقاً متبادلة وواجبات متعادلة، لم تفرق بين مظهر من مظاهر الحياة وأخر، ولم تأمر بأن يعتدي قوي على ضعيف لما خص به القوي من أداة العتو، ولم تأذن للكثير بأن يغبن القليل حقه بما خص من صفاة الكثرة. وهي من ثم لا تغفر ظلم القليل بحجة مصلحة الكثير.

---

(١) الكافي الكليني ج٨، ص٢٣.

(٢) أصول الكافي، ج ١، ص ٤١٠.

فالذي بغبن كائناً حياً في نهج علي بن أبي طالب (ع) فكأنما غبن الكائنات الحية جميعاً. ومن قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل النفوس جملة. ومن آذى ذا رمق فكأنما آذى كل ذي رمق على وجه الأرض. فالحياة هي الحياة في نهجه واحترامها هو الأصل وعليه تنمو الفروع ففي نظريات عددٍ كبير من المفكرين والمشرعين، وفي (آراء) معظم هؤلاء الذين يسمّون أنفسهم رجال سياسة، يجوز الاعتداء على العدد القليل من الناس في سبيل العدد الكثير. وفي حساب هؤلاء، لا يقاس الخير إلاّ بسلامة العدد الكثير، ثم في بلوغه ما يصبو إليه من حال. فإذا قُتل بحادث اعتداءٍ ألفٌ من الخلق، فالأمر فظيع. وإذا قُتل ألفان فالأمر أفظع. وهكذا دواليك. أمّا إذا قُتل إنسان واحد، بمثل هذا الحادث، فالقضيّة هيّنة والأمر بسيط. فإنّ دفاتر تجّار الأرواح عند ذاك لا يسقط منها الكثير. أمّا جداول الضرب وعمليّات الجمع والقسمة، فإن الميسور تعديلها بعمليّة حساب بسيطة.

أمّا ابن أبي طالب فيسحق نظريات هؤلاء التجّار، بقولٍ يتناوله مباشرةً من روح الوجود الذي لا قيمة لديه للأرقام في معنى الحياة، بل للحياة نفسها:

(فو اللّهِ لو لم يُصيبوا من الناس إلاّ رجلاً واحداً معتمدين لقتله، بلا جُرمٍ جَرّه، لَحَلّ لي قتلُ ذلك الجيش كلّه)[1]. ويسحق نظريات المتسلطين على الرقاب بالقوة والجبروت بقوله: (إلا إن كل قطيعة أقطعها عثمان، وكل مال أعطاه من مال اللّه، فهو مردود في بيت المال. فإن الحق لا يبطله شيء. ولو وجدته قد تزوج به النساء، وفرق في البلدان لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق)[2].

وكم كان يقض مضجعه عدم التوازن في توزيع الثروات في زمانه، فتراه يصرخ أكثر من مرة، من على منبر الكوفة، بمثل هذا القول:

(.. وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدباراً، والشر فيه إلاّ إقبالاً، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً.. اضرب بطرفك حيث شئت من الناس: هل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً؟ أو غنياً بدل نعمة اللّه كفراً؟ أو بخيلاً اتخذ البخل بحق اللّه وفراً؟ أو متمرداً كأن بأذنه عن سمع المواعظ وقراً، أين خياركم وصلحاؤكم، وأحراركم وسمحاؤكم؟ وأين المتورعون في مكاسبهم، والمتنزهون في مذاهبهم؟)[3].

ولا يعالج الفقر عند الإمام بالمواعظ والخطب، وإنما يعالج بحماية مال الأمة من اللصوص والمستغلين، ثم بصرفه في موارده.

---

(١) رواتع نهج البلاغة: جورج جرداق ص٤٦.

(٢) نهج البلاغة ـ رقم الخطبة: ١٥، وهذا الكلام جزء من خطبة خطبها في اليوم الثاني من بيعة الناس له بالخلافة. ولم يذكر الرضي (رحمه الله) النص بكامله.

(٣) نهج البلاغة ـ رقم الخطبة: ١٢٧.

وبهذا عالجه الإمام، فكان عيناً لا تنام عن مراقبة ولاته على الأمصار، وعن التعرف على أموال الأمة وطرق جبايتها وتوزيعها.

وكم من وال عزل وحوسب حساباً عسيراً لأنه خان أو ظلم أو استغل.

وكم من كتاب كتبه (ع) إلى ولاته يأمرهم (أن يلزموا جادة العدل فيمن ولوا عليهم من الناس)[١]. وبينما هو يأمرهم بهذا يضع عليهم العيون والرقباء ليرى مدى طاعتهم وتنفيذهم لأوامره. لقد كان، بهذا، أول من اخترع نظام التفتيش. ولقد كان يكتب إلى ولاته: (إن أعظم الخيانة خيانة الأمة)[٢]، وليس الولاة أعضاء في شركة مساهمة هدفها أن تستغل الأمة وإنما هم كما كان يكتب إليهم (خزان الرعية، ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة)[٣].

وهكذا أدرك عليّ بن أبي طالب أنّ الكون واحد، عادلٌ، ثابتٌ في وحدته وعدله، جاعلٌ في طبيعة الكائنات ذاتها قوّةَ الحساب والقدرةَ على العقاب والثواب. وهكذا عبّر عمّا أدركه أروع تعبير. بَيْدَ أنّ وجوهاً غير هذه من وجوه العدالة الكونية تَفحّصها عليّ وضَبَطَ أشكالها وألوانها. فما هي هذه الوجوه؟

تلك الوجوه هي التي أرخت لعلي تاريخاً حافلاً بأسمى المعاني الإنسانية، وأن يعيش ألقاً تعشقه النفوس على مرّ الدهور.

ثانياً ـ كبار السنّ والعجزة:

معالجة أخرى تأخذ لنفسها حيزاً ومتسعاً في النظرية العلوية القائمة على بسط (قانون نظام التأمين والرعاية الاجتماعية) وهذا القانون لا يعتد بعمر معين كما هو المتعارف عليه اليوم بالقوانين الوضعية التي تعطي لكبار السنّ والشيخوخة حدّاً معيناً، فمنهم من جعل سن الـ ٧٥ أو ٨٠ بداية للشيخوخة.. أما النظام الإسلامي فله رأيه الشامل في حقوق الإنسان وهو يطرح حقوقاً لا تعرفها القوانين الدولية المتقدمة من قبيل (الحقوق الأخلاقية) وهي بطبيعة الحال تشمل كل الأعمار ورأيت رواية عن الإمام الصادق تقول: (إذا زاد الرجل على الثلاثين فهو كهل، وإذا زاد على الأربعين فهو شيخ)[٤]، ولن ندخل في تفاصيلها إلا أن الإسلام يمنح المسنين حقوقاً إضافية بمقتضى حاجتهم للرعاية الأخلاقية والاجتماعية كما يؤكد تماماً

---

(١) نهج البلاغة ـ راجع مثلاً كتابه على الأشعث بن قيس عامل آذربيجان، رقم النص: ٥، وكتابه إلى زياد بن سمية وهو متول على البصرة، رقم النص: ٢٠ ـ ٢١، وكتابه إلى بعض عماله، رقم النص: ٤٦، وغير ذلك كثير نجده في باب المختار من كتب أمير المؤمنين في القسم الأخير من نهج البلاغة.

(٢) نهج البلاغة ـ من عهد له إلى بعض عماله على الخراج، رقم النص: ٢٦.

(٣) نهج البلاغة ـ من كتاب له إلى عماله على الخراج، رقم النص: ٢٦.

(٤) الإمام الصادق علم وعقيدة: رمضان لاوند ص١٣٥.

- وإلى أقصى حد - عنصر الرعاية العائلية لهم، وهذا ما يبدو في نصوص قرآنية رائعة بهذا الصدد، وهي كما يلي:

أ - النصوص العامة حول الوالدين من قبيل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾[١].

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[٢].

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[٣].

وقد تعددت الآيات التي توصي الإنسان بوالدين بأعظم الوصية: بالبر والإحسان وتذكره بالمصائب التي واجهتهما.

ب - النص الذي يذكر مرحلة الكبر ويشدد على الإنسان التسليم لأوامرهما وعدم الرد عليهما مطلقاً: وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾[٤].

وهذه النصوص تظهر بما لا يحتاج إلى توضيح مدى اهتمام الإسلام بموضوع الوالدين وخصوصاً عند بلوغهما مرحلة الكبر والشيخوخة.

ويبدو هذا التأكيد من خلال:

١ - مجيء التوصية بذلك في المواثيق الإلهية المقدسة عبر التاريخ.

٢ - اقتران الإحسان إلى الوالدين بأهم موضوع في خلد المسلم وهو عدم الشرك بالله تعالى.

٣ - النهي عن التأفيف وهو أول مراحل التضجر والأمر بالقول الكريم وخفض جناح الذل (وهو أروع تشبيه) وطلب الرحمة من الله تعالى.

والملاحظ أن الوالدين عندما يبلغان مرحلة الكبر وتزداد أعباؤهما على الفرد تتوافر أرضية التضجر والبرم أحياناً وهنا ينبري القرآن الكريم للإنذار والنهي ليؤكد عنصر

---

(١) سورة البقرة الآية ٨٣.

(٢) سورة النساء: الآية ٣٦.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥١.

(٤) سورة الإسراء الآية ٢٣.

الاحترام المتواصل والرحمة والذل أمام الوالدين المسنين، فهي إذن طاقة دفع جديدة لضمان الاحترام المستمر.

هذا والملاحظ أن المجتمع الإسلامي لم يعرف مسألة قيام العوائل بتسليم شيوخها ومسنيها إلى دور العجزة إلا في مراحل متأخرة جداً، وذلك نظراً لانتشار ثقافة احترام الوالدين ورعايتهم انتشاراً واسعاً.

أما بالنسبة لحقوقهم بصورة عامة فالذي يلاحظ في النصوص الشريفة تأكيد ما يلي:

ـ منح الشيوخ المسنين غاية الاحترام:

والنصوص هنا كثيرة نختار منها ما يلي:

١ ـ روي عنه (ص) أنه قال: (ما أكرم شاب شيخاً إلى قد من الله له عند كبر سنه مَن يكرمه)، وقال (ص): ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا)[١].

وقوله (ص) : (البركة مع أكابركم)، وقوله (ص) : (من إكرام جلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم)[٢].

٢ ـ وروي عنه (ص) قوله: (الشيخ في أهله كالنبي في أمته)[٣] إن الله تعالى جواد يحب الجواد ومعالي الأمور ويكره سفسافها، وإن من عظم جلال الله إكرام ثلاثة: ذي الشيبة في الإسلام، والإمام العادل، وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه)[٤].

٣ ـ عن الصادق إن رسول الله (ص) قال: (من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم)[٥].

٤ ـ وذكر الإمام زين العابدين إن حق الكبير توقيره لسنه وإجلاله لتقدمه في الإسلام قبلك، وترك مقابلته عند الخصام، ولا تسبقه إلى طريق، ولا تتقدمه ولا تستجهله، وإن جهل عليك احتملته وأكرمته لحق الإسلام وحرمته[٦].

٥ ـ وذكر الإمام الرضا (ع) عن آبائه عن رسول الله (ص) وقد خطب استقبالاً لشهر رمضان المبارك والأعمال المستحبة فيه أنه قال: (ووقروا كباركم وارحموا صغاركم)[٧].

---

(١) مستدرك الوسائل: الميرزا النوري ج٨ ص٣٩٣.

(٢) مستدرك الوسائل، الميرزا النوري ج٨ ص٣٩٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) معجم المحاسن والمساوئ: أبو طالب التجليل التبريزي ص٣٠٧.

(٥) الكافي، الكليني ج٢ ص١٦٥.

(٦) جامع أحاديث الشيعة: السيد البروجردي ج١٤ ص١٠٦.

(٧) مشارق الشموس، المحقق الخوانساري ج٢ ص٤٤١.

حقوق الأقليات الدينية:

على ضوء البنود الإسلامية الراعية لحقوق الأقليات الدينية، والتي وقف منها الإسلام موقف المحايد وخصوصاً في مسألة الدماء، فلم يفرق بين دم المسلم وغير المسلم، والقانون الإسلامي قد شرّع أحكاماً تُعاقب قاتل النفس المسلمة وغير المسلمة ما داموا قد أخذوا العهود والمواثيق من الدولة الإسلامية، فالحديث الشريف يقول: (دم الذمي كدم المسلم حرام) وقوله: (دمائهم كدمائنا).

ونظام المساواة الذي أختطه أمير المؤمنين (ع) ينبثق من مبدأ الحق والعدل والمساواة بين الرعية، وقد أجرى هذا النظام على نفسه الشريفة، فبدأ بنفسه أولاً وهو القائل: (أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصّة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك)[١].

وهكذا وقف أمير المؤمنين (ع) موقفاً حازماً تجاه كل من يحيد عن حق أهل الذمة، فقد وقف الإمام (ع) وجلّ همّه أن يُفشي العدل والمساواة، بعد أن تفشت الطبقية، والتميّز على أساس القبيلة أو القومية، فبدأ يزيل تلك التراكمات العرقية التي فرضها الواقع الاجتماعي المتخلف، وخصوصاً في عهد عثمان بن أبي عفان، وطرح في قباله مبدأ العدل والمساواة في الحقوق والواجبات، وذلك في أول كلمة قالها بعد البيعة، وبعث بها إلى ولاته على الأمصار يطلب منهم فرض هذا المبدأ بين الناس حتى في توزيع لحاظ العيون.

فهناك طبقات مستضعفة وقعت تحت ذمة الإسلام، وهم بحاجة إلى الرعاية الدائمة والاهتمام المستمر، ويتحمل الوالي النصيب الأوفر، والمسؤولية الكبرى في رعاية شؤونهم.

ولكي يقوم الوالي بواجباته على أتمها فلابد من تشكيل هيئة تقوم بهذه المهام.

يقول: (وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون، وتحتقره الرجال ففَرِّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم أعمل فيهم بالأعذار إلى الله يوم نلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الأنصاف من غيرهم وكل فاعذر إلى الله تعالى في تأدية حقه إليه)[٢].

فأهل الذمة هم في رعاية الدولة الإسلامية، وعلى الوالي أن يرسم برنامجاً لإدارة شؤونهم المعيشية، وذلك بإنشاء هيئة مشرفة على أعمال الرعاية، وهذا ما يُسمى بالضمان الاجتماعي في المصطلح الحديث. لذا يروى أن أمير المؤمنين (ع) كان خارجاً ذات يوم وهو يسير في أحد طرق المدينة إذ مثُل أمامه رجل نصراني الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كان يمشي في سكك الكوفة، فنظر إلى رجل يستعطي الناس: فوجه الإمام السؤال إلى من حوله من الناس قائلاً: ما هذا؟

فقالوا: إنه نصراني كبر وشاخ ولم يقدر على العمل، وليس له مال يعيش به، فيكتنف الناس.

---

(١) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج٣٣ ص٦٠١.

(٢) بحار الأنوار. العلامة المجلسي ج٣٣ص٦٠٨.

فقال الإمام (ع) - في غضب -: استعملتموه على شبابه حتى إذا كبر تركتموه؟

ثم جعل الإمام لذاك النصراني من بيت مال المسلمين مرتباً خاصاً ليعيش به حتى يأتيه الموت[١]. ثم يجعل له من بيت مال المسلمين مرتباً يرتزق به مع أنه نصراني لا يدين بالإسلام، لكيلا يكون في البلد الإسلامي مظهر واحد للفقر والجوع.

وتنطلق هذه الفكرة من إنسان مسؤول، وليس من إنسان فيلسوف، أخذه الترف الفكري، فهو يرتقي بمستوى الرعية ليضع أمامها مسؤولية كبرى. ففي أحد خطبه قال: (اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم)[٢]. فهنا يلتقي مفهوم الرعية بمفهوم الإقليم، فأينما وجد إنسان فالأرض التي يقف عليها أرضه والعلاقة التي بينهما علاقة المسؤولية. وفي عهده لمالك الأشتر، يصف الرعية وصفاً دقيقاً يتصاغر أمامه كبار الأدباء والعلماء والمفكرين وذلك بقوله: (وأعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن البعض، فمنها جنود الله، ومنها كتّاب العامّة والخاصّة، ومنها قضاة العدل، ومنها أعمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة)[٣].

من هنا فقد ترجم أمير المؤمنين (ع) أقواله إلى أفعال وحول مبدأ هذه النظرية إلى تطبيق على أرض الواقع واتخذها منهاجاً دستورياً في الدولة الإسلامية، لذا نراه قد ندد بسياسة معاوية التي لا ترى حرجاً في استخدام أي أسلوب لترسيخ حكمه حتى وإن اقتضى إباحة الدماء وهتك الأعراض. فكان يأمر بالإغارة على أطراف العراق. دون أن يفرق بين المسلمين أو غير المسلمين من النصارى، فقال له الإمام (ع) ويحك ما ذنب أهل الذمة في قتل عثمان)[٤].

المراجع:

(١) القرآن الكريم، كتاب الله العزيز.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة، لأبي الحسن عزّ الدين علي بن أبي الكرم محمد ابن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجرزي. ط/القاهرة

(٣) أعلام الورى، الطبرسي. ط. مؤسسة آل البيت لإحياء التراث

(٤) أعيان الشيعة، السيد محسن الأميني، حققه وأخرجه حسن الأميني. ط/دار التعارف للمطبوعات

(٥) أبو طالب حامي الرسول وناصره، نجم الدين العسكري. ط/مطبعة الآداب في النجف الأشرف.

(٦) أمالي الطوسي، لشيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، ط/مؤسسة البعثة للطباعة والنشر.

(٧) الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الشيخ المفيد، تحقيق مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث.، ط/دار المفيد. ط٢.

---

(١) راجع وسائل الشيعة: ج١٥ ص٦٦ ح١٩٩٩٦.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي خطبة رقم ٤٨ ج٩ ص٢٨٨.

(٣) بحار الأنوار، العلامة المجلسي ج٣٣ ص٦٠٣.

(٤) نهج السعادة، الشيخ المحمودي ج٥ ص٣٠٨.

(٨) الإمام علي بن أبي طالب من حبه عنوان الصحيفة، أحمد الرحماني الهمداني. ط/المطبعة أوفسيت فتاحي.
(٩) الأيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة، محمد بن الحسسن الحر العاملي، تحقيق مشتاق المظفر، ط١.
(١٠) الإصابة في تمييز الصحابة. أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. ط/مطبعة السعادة.
(١١) آنساب الأشراف، تحقيق إحسان صدقي العمر، أحمد بن يحيى البلاذري. ط/مؤسسة الشراع العربي، الكويت.
(١٢) أرجح المطالب، العلامة نور الله التستري، ط/لاهور.
(١٣) الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد، أبو جعفر محمد أبو الحسن الطوسي، ط/مطبعة خيام، قم.
(١٤) أهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف، السيد محمد باقر الصدر، ط/دار التعارف للمطبوعات.
(١٥) البداية والنهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق علي شيري. ط/دار إحياء التراث العربي.
(١٦) البحار، العلامة المجلسي. ط/مؤسسة الوفاء. بيروت لبنان
(١٧) البيان في تفسير القرآن، السيد الخوئي، ط/دار الزهراء بيروت لبنان.
(١٨) التفسير الصافي، الفيض الكاشاني، ط/مؤسسة الهادي. قم
(١٩) تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، تعليق هاشم الرسولي المحلاتي، ط/مؤسسة إسماعيليان.
(٢٠) التشيع من رئى التسنن، محمد رضا المدرسي اليزدي، ترجمة، عبد الرحيم الحمراني، ط/صحيفة معرفت. قم.
(٢١) الخرائج والجرائح، لأبي الحسين سعيد بن عبد الله الراوندي، تحقيق ونشر مؤسسة الإمام المهدي.
(٢٢) خصائص الأئمة، الشريف الرضي، أبي الحسن محمد بن الحسين بن موسى الموسوي البغدادي، تحقيق وتعليق د. محمد هادي الأميني، ط/مجمع البحوث الإسلامية الأستانة الرضوية، مشهد المقدس.
(٢٣) الخصائص الفاطمية، محمد باقر الكجوري.
(٢٤) خصائص أمير المؤمنين - النسائي، ط/مكتبة نينوى الحديثة.
(٢٥) دراسات في منهاج السنة لمعرفة ابن تيمية عقيدة وعلما وعدالة، علي الحسيني الميلاني، ط/ياران
(٢٦) دولة الإمام علي - د محسن الموسوي، ط/دار البيان.
(٢٧) دائرة المعارف الإسلامية، ، ط - دار المعرفة.
(٢٨) ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، محب الدين أحمد بن عبد الله الشهير بالمحب الطبري، ط/القاهرة.
(٢٩) روضة الواعظين، محمد بن القتال النيسابوري. ط/منشورات الرضي قم.
(٣٠) رسائل المرتضى، الشريف الرضي، تقديم أحمد الحسيني. دار القرآن الكريم قم.
(٣١) الرجعة أو العودة إلى الحياة بعد الموت، ط./مركز الرسالة.
(٣٢) رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة، محمود سعيد ممدوح، دار الإمام النووي. ط١.
(٣٣) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد المعتزلي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/دار إحياء الكتب العربية.
(٣٤) شرح نهج البلاغة، السيخ محمد عبده. ط/دار المعرفة للطباعة والنشر.
(٣٥) الصحيح من سيرة النبي الأعظم، السيد جعفر مرتضى العاملي، ط/دار الهادي للطباعة والنشر، دار السيرة بيروت لبنان.
(٣٦) الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيثمي. تحقيق عبد الوهاب اللطيف، مكتبة القاهرة.
(٣٧) الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، زين الدين أبي محمد علي بن يونس العاملي النباطي البياضي، صححه وحققه، محمد باقر البهبودي، المطبعة الحيدرية، منشورات المكتبة الرضوية.
(٣٨) صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط/دار ابن كثير بيروت. ❖

حول أصالة نهج البلاغة

إياد الحسيني

رغم مرور أكثر من ألف عام على ظهور كتاب «نهج البلاغة»، فإنه ما زال يتفاعل في أوساط النقاد والأدباء، فتختلف فيه الآراء وتتضارب المواقف، كما لو كان حدثاً جديداً لم تستنفد دراسته وفهمه. وفعلاً فقد تناوله الأقدمون تارة بالشروح وأخرى بالملاحظات النقدية فيما يتعلق بصحة نسبته إلى الإمام علي (عليه السلام). وما تزال بعض الدراسات الحديث تقدم شيئاً جديداً، كما أن هناك سلبيات كثيرة في الجهود النقدية حول النهج سواء منها القديمة أو المعاصرة. وأما بالنسبة لطول الشوط الزمني للاهتمام بهذا الكتاب، فإنه ربما يعد أهم كتاب بعد القرآن الكريم والحديث النبوي، والمعركة حوله من أهم المعارك في التراث الإسلامي والأدب العربي.

فقد كتب أحد أدباء سوريا في أوائل هذا القرن عن النهج يقول: «ولولا أن زج في كلامه ما ليس منه. لكان استظهاره واستظهار الثقلين (القرآن والحديث) كفتي ميزان»[1].

ومهما تكن المبررات للمساهمة في هذه المعركة الفكرية والأدبية، فالمهم أن هذه المعركة لم تحسم ولم نصل فيها بعد إلى كلمة الفصل، وما تزال نتائج البحث في طي الغيب. ولا يغيب عن الذهن أن هناك دراستين هامتين صدرتا حديثاً وكانتا إلى جانب كبير من الأهمية، هما: مصادر نهج البلاغة وأسانيده» للمرحوم عبد الزهراء الحسيني، في أربعة أجزاء (صدر عام ١٩٦٩م)، والثاني: «نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة»، لمحمد باقر المحمودي، في ثمانية أجزاء على الأقل (صدرت في عام ١٩٦٥م وبعده). وإذا كان كتاب الحسيني ـ وهو الكتاب الأهم ـ يتعلق بمصادر نهج البلاغة. ذلك السؤال الذي برر كل النظريات النقدية حول موضوع الأصالة، ولكن المؤلف لم يكتف بذلك وإنما جعل من كتابه موسوعة للرد على كل ما يتصل بمشكلة الأصالة. أما المحمودي فإنه استظهر كل ما رُوي عن الإمام علي (ع) في المصادر الأخرى، لإثبات أن ما في النهج جزءاً يسيراً مما يروى عن علي (ع). وبالتالي تنتفي تهمة الوضع المزعومة. ومع ذلك فالجدال حول النهج لم ينته بهذين الكتابين، وما تزال المطابع تصدر إنتاجاً جديداً يتراوح

---

(١) محي الدين الخياط (الشارح)، نهج البلاغة، (لات)، ص٤.

بنى النقد أو الرد عليه. ولهذا وددت أن أساهم في هذه القضية النقدية، فقد أخذت باهتمامي منذ سنين بعيدة، واطلعت على كثير مما كُتب حول الموضوع، ولا سيما في بعض اللغات الأوروبية، مما لا نجد له ذكراً غالباً في دراساتنا العربية، وسأقصر اهتمامي على قيمة بعض هذه الدراسات أو الملاحظات النقدية.

الطابع المذهبي للنقد:

أود أن أوضح أيضاً أن النقاش حول النهج، لم يكن دائماً، نقاشاً أدبياً أو موضوعياً، فيكتفي بأدوات الحوار المعتادة، وإنما يأخذ بعض الأحيان شكل المعارك التاريخية، والعصبيات المذهبية، بحيث يبرز الدور الأكبر للعاطفة. وذلك لان صاحب الكلام في هذا الكتاب، أي الإمام علي (عليه السلام)، شخصية خلافية، فلأهل السنة صورة له تختلف نوعاً ما عن صورته عند الشيعة. وهذه الصورة سواء عند الشيعة أو عند السنة تطورت على مرور الأيام، بتطور الآراء المذهبية وتبلورها في قوالب معينة مبتعدة عن الاجتهاد والاحتمال إلى الجزم والقطعية. فصورة علي (ع) لدى أهل السنة المتأخرين لا تنسجم غالباً مع وجود خطبة في نهج البلاغة (الخطبة الشقشقية) تتضمن رأيه في الخلفاء الثلاثة. وهو رأي ينطوي على نقد صريح يتعلق بأحقية الخلافة، ولكن الأسلوب المجازي البليغ الذي صيغت به تلك العبارات يجعل من الصعب وصمها بـ«السب الصراح والحط من الشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما» كما زعم الذهبي وآخرون[1].

فالنقد الموضوعي من قبيل «أما والله لقد تقصمها فلان وأنّه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي..» أو «فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته» أو «فصيّرها في حوزة خشناء يغلظ كُلامها، ويخشن مسّها ويكثر العثار فيها»[2] ليس سباً أو حطاً إلا إذا أخذنا بالاعتبار أن القائل ليس علياً وإنما شخص متأخر عنه، أو أن صورة علي (ع) عند الناقد ليست الصورة الواقعية له.

الملاحظ أن الناس من ذوي الأقدار المتواضعة في دنيا الثقافة، لا يعرفون كبير فرق بين النقد والشتم، كما سآتي على ذكره فيما بعد، فالتاريخ يحدثنا عن الصراحة المتبادلة بين صحابة النبي (ص) وقد كانت المعارك الحربية في حالات نادرة ـ للأسف ـ جزءاً من تلك الصراحة.

إن تحريم البعض للنقد لا سند له في تربية القرآن الكريم، فكتاب الله ربما يوجه العتاب أو النقدات الشديدة إلى النبي الأمين (ص): (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك

---

(١) شذرات الذهب، ج٤، ص٢٠٠.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم (٣).

تبتغي مرضات أزواجك)، وقوله له مهدداً: «لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين» ذلك كله إلى جانب المدح والتعظيم للنبي: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[١]. و«النهج» يحاكي ذلك لأنه إلى جانب نقد عمر في الخطبة الشقشقية، رثائه في خطبة أخرى بقوله: «لله بلاء (أو بلاد) فلان، فلقد قوّم الأود، وداوى العمد، وأقام السنّة، وخلّف الفتنة»، وفي النسخة المخطوطة لدى الشريف الرضي، كتب موضحاً تحت «فلان»، كلمة عمر[٢]. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن لابن الخطاب آراء نقدية سلبية وإيجابية في علي. فربما وصفه بالدعابة (كناية عن لينه وانشراحه)، ووصفه تارة أخرى بالشدة في تطبيق أحكام الله.. وأي ضير في صراحة كل من الرجلين في صاحبه[٣].

تعطيل المنهج العلمي:

إننا عندما نستعرض بعض آراء المتأخرين في قضايانا التاريخية، يأخذنا العجب لضيق هؤلاء بالحقائق. فقد كتب أحدهم مؤخراً ينصح فيه بتعطيل المنهج العلمي، بحجة خطورة تطبيقه على تاريخ الصحابة، ولأن الكاتب يُنزل النقد منزلة متدنية ولا يفرق بينه وبين الشتم لذا يقول: «ويجب أن نعلم أيضاً أن ما يسمى بالنقد العلمي أو الموضوعية لتاريخ الصحابة هو السب الوارد في كتب البدع، وفي كتب الأخبار وتسميته بالمنهج العلمي لا يخرجه عن حقيقته التي عُرف بها عند أهل السنة». والكاتب ينتقد أيضاً كتّاباً مشهورين من ذوي الفضل والصلاح لاستعانتهم بالمنهج العلمي؟![٤].

إن هذا التعطيل للمنهج العلمي هو المسؤول عن كثير من الملاحظات والآراء النقدية في نهج البلاغة. يقول أحد العلماء المعاصرين عن سر الشك في «نهج البلاغة»: ما بال إخواننا السنة يشكون في النهج كله لتأثرهم مما في الخطبة الشقشقية، بينما المتطرفين من الشيعة يتوقفون عن توثيق الكتاب بسبب خطبة «لله بلاد فلان»[٥].

ومن آيات ضيق الأفق الذهبي، وتطبيق الأدب لعواطف الطائفية، إنّه في سنة ١٩٥٤ عندما ظهرت طبعة مصرية جديدة لكتاب ابن أبي الحديد الشهير، «شرح نهج البلاغة» وهو كتاب موسوعي يتضمن استطرادات تاريخية وبلاغية وكلامية وغيرها ويقع في عشرين مجلداً، وقد وصفه بعضهم «بمتحف من كتب منقرضة» لأن الكتاب ظهر قبل هجمة المغول

---

(١) سورة التحريم، الآية ١، وسورة الحاقة، الآية ٤٦، وسور القلم، الآية ٤.

(٢) د. صبحي الصالح (تحقيق)، نهج البلاغة، الخطبة رقم٢٢٨.

(٣) انظر شرح ابن أبي الحديد، عندما يتكلم عن سيرة عمر بن الخطاب بعد شرحه للخطبة ٢٢٨ «لله بلاء فلان».

(٤) محمد بن عبد الله الوهيبي، «اعتقاد أهل السنة في الصحابة» ص٥٥ وبعدها.

(٥) هبة الدين الشهرستاني، ما هو نهج البلاغة، ص٢٢.

على بغداد بقليل فانفرضت تلك الكتب المذكورة في شرحه، وقد أثار ظهور الكتاب غيض أحد الكتاب العراقيين فكتب كتيباً بعنوان «تشريع شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد». وهو محشو بالشتم والتقريع لكل من لا يرى رأيه المعين، فنحن نقرأ في مقدمته، كما لو أن هناك مؤامرة ستطيح بالإسلام والمسلمين، اسمها: طبع كتاب شرح نهج البلاغة: «إنا نشعر أن هناك مؤامرة محشوة بفن الكيد والدس. من ذلك الفن الجديد تجديد طبع الكتاب الموسوم بشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد!

«لقد تأكد لدينا هذا الخطر منذ جهر القائل بقوله: عصر التقية قد تقضى وانقضى..» ويعمد الكاتب إلى نقد شارح النهج، ويشتمه أحياناً بالإشارة إليه «بابن أبي ألّح» بدلاً من «ابن أبي الحديد» بمعنى خبث الحديد[1]. مع أن مؤلف الشرح من العلماء المرموقين والأدباء الأفذاذ وهو من مذهب منقرض هو الاعتزال لا صلة له بالخصومات السنية والشيعية، لأنَّ المعتزلة اتخذوا الموقف الوسط والمنهج العقلي، كما يتجلى في شرح ابن أبي الحديد نفسه.

من يستفيد من هدم التراث؟

إن المرء ليجب من تقدير الأوروبيين لروائعهم الأدبية، بعيداً، عن النعرات العنصرية أو المذهبية. فرغم الخصومات الإنكليزية والإيرلندية، لم نسمع ايرلندياً شكك بأصالة روايات شكسبير، أو انكليزياً طعن بكتابات برناردشو، الأمر لا يفسر إلا على أساس تسيّس الأدب عندنا، وكما يرى أحد المعاصرين: إنها ناشئة عن فشلنا السياسي، فتحولت السياسية (الطبيعية) احتقاناً في شرايننا نحو مجالات أخرى بالإسقاط والتعويض، فصار التاريخ مسيّساً والأدب مسيّساً والفكر مسيّساً وكل شيء إلا السياسة[2].

إن هذا الإهمال لتراثنا الأدبي، وخاصة «نهج البلاغة» قد لفت نظر أحد المستشرقين القدامى. فقد كتب سيمون أوكلي، أستاذ العربية في جامعة كمبردج (١٧١١ ـ ١٧٢٠م) كتاباً عن تاريخ المسلمين ضمنّه فصلاً في «كلمات قصار لعلي بن أبي طالب» اقتبسها من كتاب اسمه «ربيع الأخبار» وترجمها إلى الانكليزية، وقدّم لهذا الفصل بمقدمة انتقد فيها بعض المظاهر السائدة في المجتمع البريطاني آنذاك من قبيل الانغماس في المظاهر المعاشية كموضة الزي والأثاث وغيرها، وأشد بالشرق وخاصة بالعرب لعنايتهم بالكلام، وخاصة الحكم والأمثال، والتي تعكس عمق تجربتهم. وتطرق إلى الحكم العلوية قائلاً «إن هناك في

---

(١) محمود الملاح: تشريح شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ص٢، ص١٨.

(٢) محمد عابد الجابري، لماذا يفتقد العرب فيما بينهم روح التسوية السياسية، جريدة الحياة، في ١٩٨٤/٥/١١.

هذه الكلمات القصار ما يكفي لتخليص العرب من تهمة الجهل التي ألصقتها بهم التقليعات الحديثة»[١].

ثم إننا نجد إلى جانب ما تقدم أن المستشرقين غالباً وقفوا موقفاً سلبياً من تراثنا الحضاري والديني، وقد وقفنا ادوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» على تلك المواقف. وقد لقت الحملة المذهبية ضد نهج البلاغة في أوساطنا الإسلامية، تجاوباً وترحيباً في أوساط المستشرقين لأن إلغاء أصالة نهج البلاغة - إن حقاً أو باطلاً - سيضع في أيدي هؤلاء حجة ضد أصالة الحضارة الإسلامية وأصالة الأدب العربي، وعندما ظهرت ؤول أطروحة جامعية عن النهج في أوروبا (سنة ١٩٤٨)، كتب المشرف الفرنسي في مقدمتها كلمات تشجيع، علماً بأن الكاتب العربي لهذه الأطروحة، استعار ما وجده في الكتب المذهبية حول «النهج»، مع الاستعانة بمنهج ديكارت القائم على الشك، فخلص إلى: «أنّه إذا كان الحديث النبوي مشكوك فيه(!) فالشك فيما نسب لعلي في النهج أمر أكيد! الخ»[٢]. وعليه فزعم المشرف الراهب م. فيغالي: إن جميل سلطان قدّم اكتشافاً جديداً عندما أثبت أن النهج ليس من كلام علي. والحقيقة أنها أحكام مسبقة على البحث واجترار لما جاء في كتب المذاهب.

نقد بلا دليل:

ولا أريد استعراض ما جاء في هذه الأطروحة الآن، إنما القول أن كثيراً من الدراسات الحديثة، ليست حديثة إلا في تاريخ الطبع، لأن التكرار لأقوال السلف والاتكال على آراء غير محققة هو - للأسف - ديدن العديد من أصحاب هذه الدراسات. فإذا أخذنا ما كتبه إسعاف النشاشيبي وجميل سلطان وصفاء خلوصي وإحسان عباس وغيرهم، نجد أن الاتهامات هي ذاتها وما يسمى بالنادلة هي ذاتها.. والفارق الوحيد هو الأسلوب.

كتب الباحث وارث حسن معلقاً على ما كتبه الدكتور صفاء خلوصي عن النهج في أطروحته الموسومة: «التأثيرات الشيعية في الأدب العربي»، وكذلك مقالته في مجلة (Islamic Reviow) (في أكتوبر ١٩٥٠)[٣] قائلاً: «إن تعليقات خلوصي عن.. (كذا وكذا) مطابقة لما ذكره جميل سلطان بصورة تجلب النظر»[٤]. وفات وارث حسن أن جميل سلطان هو الآخر هضم حقوق التأليف لأسلاف له، على رأسهم ابن أبي الحديد، وإسعاف النشاشيبي، ولم يأت بشيء ذي بال من عنده، رغم أن انجازه للأطروحة استغرق ثمانية سنوات!

ومع ذلك عندما نرجع إلى أصول هذا النقد في كتب القدامى ماذا نجد؟ فالذي بذر بذرة الشك، بحسب الرأي المشهور[٥] هو ابن خلكان (٦٨١ هـ/١٢٨٢م) سبق وكتب في ترجمة

---

(1) Semom Ockley, Sentences of Ali (Wisdom of The East), Lahore, National Book Society, N .D, p10.
(2) Jamil Sultan, Etude sur Nahj Al-Balagha, Paris, 1994.
(3) S. A. Khulusi, The Authenticity of Nahj Al-Balagha, Is-lamic Review, October 19950.
(4) Warth Hasan, Studies on Nahj al-Balagha (Phd, thesis), p58.
(٥) عبد الزهراء الحسيني، مصادر نهج البلاغة وأسانيده، ج١، النجف ١٩٦٦، ص١١٥.

الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ) وهو الشقيق الأكبر للشريف الرضي الذي اختار كلام الإمام علي في «نهج البلاغة»، مما جاء في كتابه: «وفيات الأعيان» ما يلي:

«له تصانيف على مذهب الشيعة... وقد اختلف الناس في كتاب «نهج البلاغة» المجموع من كلام الإمام علي بن أبي طالب (رض) هل هو جمعه أم جمعه أخوه الرضي وقد قيل إنّه ليس من كلام علي وإنما الذي جمعه نسبه إليه هو الذي وضعه، والله أعلم»[١]. لا نجد في هذا الكلام دليلاً وبرهاناً على تهمة التزييف المزدوجة، اعني التردد بين من جمع الكلام، والتردد بين الجامع والمؤلف. لكن أسلوب «اختلف الناس، وقيل، والله اعلم» يعكس - للأسف - اللامبالاة تجاه هذا السفر الأدبي العظيم.

ثم أن ابن تيمية (توفى ٧٢٨هـ/١٣٢٧م)، «في منهاج السنة النبوية»، والذهبي (توفى ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) في «شذرات الذهب» والصفدي (توفى ٧٦٤م/١٣٦٢م) في «الوافي بالوفيات»، وابن حجر العسقلاني (توفى ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) في «لسان الميزان»[٢] كل هؤلاء رددوا شكوك ابن خلكان، وربما أضافوا إليها تعليلات معينة، مثلاً ابن تيمية ادعى خلو كتب الأدب منها، وطالب بالمصادر، أما الذهبي فوصف المرتضى بأنه «رافضي ومعتزلي» (معاً)! وبين آن علة الشك هو النقد الوارد في الخطبة الشقشقية، كما ادعى أن عبارات النهج تخالف أفكار وأساليب عصر الإمام[٣].

كل هؤلاء النقاد ينتمون على حل قول وارث حسن إلى المدرسة الشامية في العصر المملوكي. ويصف جهودهم بقوله: «وإن هؤلاء العلماء الذين ربما كتبت قائمة طويلة من المؤلفات تحت أسمائهم، لكن الأصالة في كتبهم تعتبر عملة نادرة إضافة إلى خلوها من البحث المستقل. فلا واحد من هؤلاء النقاد كلف نفسه البحث في محتويات النهج. إنما اكتفوا بتكرار الرأي الذي قال به ابن خلكان بعد صدور نهج البلاغة بقرنين ونصف».

وهكذا يتحول هذا الصرح الضخم من الدراسات النقدية إلى ركام من أحجار مكررة بليدة.. وهو أمر مؤسف. فكتاب «نهج البلاغة - في رأيي المتواضع - ليس فوق النقد، لكنه يستحق نقداً موضوعياً جاداً، نقداً على مستوى بعض الشروح التي خلّدت ذكره، مثل شرح ابن أبي الحديد، وشرح ميثم بن ميثم البحراني. وكلاهما من كبار الأدباء في القرنين السادس والسابع الهجري على التوالي، والمأمول أن يتصدى للنقد أيضاً أدباء كبار من هذا العصر، بعيداً عن الاهتمامات غير الأدبية. ❖

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، اسطنبول، لات، ج١، ص٤٢٣.

(٢) انظر: ابن تيمية، منهاج السنة النبوية، بولاق ١٩٠٤، ج٤، ص٢٤.

(٣) انظر: الذهبي، شذرات الذهب، بولاق ١٩٣٢، ج٤، ص٢٠٠.

تضمين الآيات القرآنية النازلة في الإمام علي (ع) في خطبة الغدير لرسول الله (ص)

م. م أحمد جاسم ثاني الركابي
كلية التربية ـ القرنة/ جامعة البصرة

المقدمة:

لازالت مفردات الغدير والبيعة والولي والولاية والخلافة وعيد الله الأكبر..... إلخ، من المفردات الغضة الصالحة للبحث والدراسة، ولاسيما إذا كان البحث في التراث الإسلامي الأصيل المتمثل بالقرآن الكريم، وأدب المعصومين (ص) الذي تنوع بين خطب ورسائل وأدعية وأحاديث وغيرها، وهذا البحث محاولة لدراسة فن بلاغي لطيف، وهو فن التضمين، الذي وظّفه رسول الله (ص) للاستدلال على حق الإمام علي (ع) في خطبته المعروفة بخطبة الغدير، مما أضفى على الخطبة مزيداً من جمال اللفظ إلى جانب جمال المعنى، وأسهم في إنارة النص دلالياً، وقد اقتصر البحث على تضمين الآيات النازلة في الإمام علي (ع) دون غيرها ابتعاداً عن الإطالة: لأن التضمين القرآني الوارد في هذه الخطبة كثير جداً، ومن جهة أخرى فإن غاية البحث هي الكشف عن مدى ارتباط قضية الولاية بالقرآن الكريم، فيكتفي بالآيات التي نصّت على فضائل أمير المؤمنين (ع) وفسرها رسول الله (ص) فيه.

تعريف التضمين لغةً واصطلاحاً:

التضمين لغةً: تضمَّن يتضمّنُ، تضمناً، فهو متضمِّن، والمفعول مُتَضَمَّن، تقول: تضمَّن الوعاءُ الشيءَ ضمِنه، بمعنى: احتواه واشتمل عليه، وضمَّن يُضمِّن، تضميناً، فهو مضمِّن، والمفعول مُضمَّن، تقول: ضمَّن الشاعرُ: أي أتى بالتضمين في شعره، وهو أن يأخذ شطراً من شعر غيره بلفظه ومعناه ويدخله في شعره، و"التضمين" مصدر الفعل "ضَمَّنَ"، وهو نصٌّ يأخذه الشاعر أو الناثر ويدخله في قصيدته أو مقالته بلفظه ومعناه، أو بمعناه دون لفظه، ويوظفه في سياق عمله الأدبي[1].

التضمين اصطلاحاً: (هو إحداث علاقة بين طرفين من خلال جعل أحدهما مقتبساً أو متضمِّناً لدلالة الآخر، متمثّلة في متن مقروء أو مسموع مثل: آية قرآنية أو حديث أو مَثَلٍ أو شعر أو حادثة... إلخ)[2].

---

(١) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، (ضمن): ١٣٧٠ ـ ١٣٧١.

(٢) القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، د. محمود البستاني: ٢١٧.

فن الخطبة:

الخطبة: (شكلٌ يعتمد (العنصر العاطفي) في أداته التعبيريّة: نظراً للطبيعة التي تنطوي عليها وظيفة الخطبة. إنها كلمة ارتجاليّة أو مكتوبة تُلقى على (حشد) خاص أو عام يُفرض فيها أنْ يستثير الجمهور وتجعلهم (منفعلين) بشدّة الموقف الذي يستهدفه الخطيب: كالحث على الجهاد مثلاً)[١]. ويخضع بناء الخطبة لما يأتي[٢]:

١ - **من حيث اللغة:** ينبغي أن يستعمل الخطيب ضمير المخاطب تارةً، وينتقل إلى ضمير المتكلّم تارةً أخرى: لأن الخطيب - وهو متكلّم - يمكنه أن يحوّل عواطف المخاطبين إلى عواطف مشتركة بينه وبينهم.

٢ - **من حيث الإيقاع (الصوت):** ينبغي اختيار الألفاظ والتراكيب المتّسمة بالفخامة والدويّ والصخب ونحوها من العبارات المثيرة.

٣ - **من حيث الصور:** ينبغي التقليل من العنصر الصوري إلا في حالات نادرة يتطلبها السياق، وحينئذٍ عليه أن يختار الصورة المألوفة ويبتعد عن الصور الغامضة.

٤ - **من حيث البناء:** ينبغي أن يتدرّج بعواطف الجمهور، فينتخب من المواقف ما يُهيّئ أولاً جواً تمهيدياً مناسباً للانفعال، ثم يتصاعد تدريجياً إلى المواقف الأخرى حتى ينتهي إلى قمّة الإثارة العاطفية.

٥ - **من حيث الحجم:** لابد أن يكون حجمها محدوداً، لتحتفظ بحرارة الإثارة العاطفية.

الرسول المصطفى (ص) وفن الخطبة:

يمثّل كلام الرسول المصطفى (ص) قمةَ الفصاحةِ والبلاغةِ العربية بعد كتاب الله تعالى على الإطلاق، وهو القائل: (أَنَا أَفْصَحُ العَرَب، بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْش)[٣]، وقد عُرِفَ عن العرب أنهم أهل خطابة، إذ كانت الخطابة - إلى جانب الشعر - في زمن الجاهلية والإسلام تمثّل ميداناً يتبارى فيه العرب لإبراز قدراتهم اللغوية، فمن الطبيعي أن يكون رسول الله (ص) - وهو أفصح العرب - بارعاً في هذا اللون الأدبي، وهو (ص) (حينما جاء برسالة الإسلام إنما تمَّ ذلك من خلال القرآن الكريم الذي جسَّد معجزةً أدبية، ومن خِلال أحاديثه وخُطَبه التي جاءت متسمة بالكمال الأدبي حيث صرّح (ص) بأنه أفصح العرب، وهذا يعني أن كلاً من أدب القرآن الكريم والأدب النبوي، قد فرض نفسه على الساحة الأدبية، بحيث انعكس أثرهما على الأدباء)[٤].

---

(١) المصدر نفسه: ٢٩٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٩٤.

(٣) المعارف، ابن قتيبة الدينوري: ١٣٢.

(٤) مختصر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، د. محمود البستاني: ٣٠.

ولم يكن بلوغه الذروة في فن الخطابة تعلّماً من ذي علم، وإنما علمه لدنّي من الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ﴾[1]، وحين يهتم بهذا الفن لم يكن اهتمامه من أجل الفن، وإنما يسخّره للدعوة الإسلامية ومن أجلها، فالخطبة النبوية وسيلةُ دعوةٍ هادفة لا غاية في نفسها: لذا فإن أثر القرآن الكريم يبدو واضحاً فيها، فكثيراً ما تتضمن خطبه (ص) ألفاظاً وتعابير ومعانٍ قرآنية، بل آيات من القرآن الكريم، (فقد كان الاستشهاد بالآيات القرآنية، من أبرز الملامح الفنية للخطابة النبوية، إذ كان الرسول العظيم (ص)، هو الرائد الأول في تضمين جل خطبه آياتٍ بيناتٍ من القرآن الكريم[2]، وهذا التضمين القرآني له أشد الأثر في المتلقين، ويمثّل عنصراً مهماً من عناصر الخطبة البليغة، وبناءً على ذلك (تظل خطب الرسول (ص) حافلة بأشد أنواع الإثارة العاطفية بالنسبة إلى الجمهور، وليس بالنسبة إلى النبي (ص)؛ لأن النبي (ص) يعتمد البُعد العقلي في تعامله مع الله تعالى ويحيي مبادئ الله في كيانه أجمع، أما البُعد العاطفي فيستثمره (ص) من أجل الناس، أي أنه يخاطبهم بلغتهم وعواطفهم لا بعاطفته ولغته...)[3].

الغدير والقرآن الكريم:

ارتبط الغدير بالقرآن الكريم أشد الارتباط: لأنه يمثل قضيةً في بالغ الأهمية من الشريعة الإسلامية، ألا وهي (الخلافة الكبرى) التي بها كَمُل الدين وتمّت النعمة.

وقد شاء الله تعالى أن تبقى هذه النعمة غضةً لا تبليها الدهور، ولا يأتي على جدتها مر الحقب والأعوام، فأنزل فيها آياتٍ ناصعة البيان، ترتّلها الأمة صباحاً ومساءً، فكأنه سبحانه في كل ترتيلة لأي منها يلفت نظر القارئ، وينكت في قلبه، أو ينقر في أذنه ما يجب عليه أن يدين الله تعالى به في باب خلافته الكبرى، فمن الآيات الكريمة قوله تعالى[4]:

١ ـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[5].

٢ ـ ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[6].

---

(١) النجم: ٣ ـ ٥.

(٢) خُطَب الرسول الكريم محمد (ص) دراسة توثيقية تحليلية، رسالة ماجستير، مصعب نوري محمود العزاوي، كلية التربية ـ ابن رشد ـ جامعة بغداد، ٢٠٠٤، ص: ٩٥.

(٣) أدب الشريعة الإسلامية، د. محمود البستاني: ١٢٦.

(٤) ينظر: الغدير، الشيخ الأميني: ٢١٤/١، وينظر: آيات نزلت في الإمام علي "ع"، الشيخ مكارم الشيرازي: ١١ ـ ٢٧ ـ ٣٣.

(٥) المائدة: ٦٧.

(٦) المائدة: ٣.

اسم الخطبة:

هي خطبة الغدير، وسميّت بهذا الاسم نسبة إلى (غدير خم)[١]، وهو المكان الذي وقف قربه رسول الله (ص) وألقى فيه خطبته، وأخذ فيه البيعة لأمير المؤمنين (ع)، ولفظة (الغدير) في اللغة تعني (القطعة من الماء يغادرها السيل، أي يتركها)[٢]. وتُسمى أيضاً خطبة العهد؛ لأن أمر الولاية عهدٌ معهود من الله تعالى إلى رسوله الكريم (ص).

مقاصد النبي (ص) في خطبة الغدير:

تتلخص أهم مقاصد النبي (ص) في خطبة الغدير بالأمور الآتية[٣]:

١ ـ ضمان استمرار خط النبوة وعدم ضياع ثمرات أتعاب النبي (ص)، وذلك بتعيين من يتولى حمل الأمانة وإدامة المسيرة النبوية.

٢ ـ بيان النبي (ص) للأمة أن مسؤولية حفظ الإسلام وأمته تقع على عاتق خلفاء النبوة الذين اختارهم الله تعالى، والذين لهم الكفاءة التامة لأداء مهمّتهم.

٣ ـ تعيين الخليفة تعييناً رسمياً على سنة الله في أنبيائه (ص).

٤ ـ رسم المنهج السياسي للمسلمين إلى يوم القيامة.

٥ ـ إتمام الحجة على المخالفين، المقصرين منهم والمعاندين.

وهذا ما جعل يوم الغدير يوماً خالداً، وحادثة فريدة في تاريخ الإسلام، ومن أجل هذا كان تأكيد النبي (ص) له كبيراً[٤]، إذ وقف في وسط الصحراء تحت رمضاء الحجاز في حرارة الهجير منادياً القوافل قبل فوات الأوان أن لا يفترق منهم أحد، ويعجّل المتأخر منهم، فإن في الأمر خطر عظيم لا يقبل التأخير ولا يحتمل التهاون: لأن فيه مستقبل الأمة إلى قيام يوم الدين، بل في الأمر حصاد الماضي وحياة الحاضر ومستقبل الآتي[٥]، وكما قال الإمام الباقر (ع): (بُني

---

(١) (تقع منطقة "غدير خم" في صحراء فسيحة على مسير السيول في وادي "الجحفة"، حيث يجري هذا المسيل من الشرق إلى الغرب في الشتاء، ويمرُّ بمنطقة الغدير، ثم ينتهي منه إلى الجحفة ثم منه إلى البحر الأحمر فيصب فيه. وفي مسير هذه السيول تتولد بعض الواحات والغدران الطبيعية من تجمع المياه المتبقّية في مخازن طبيعية للمياه طيلة العام، ويطلق على كل واحدة منها اسم "الغدير". وهناك العديد من الغدران في الحجاز. ويتميز "غدير خم" بأن ماءه كثير، ويوجد نبع صغير قربه من جبل صغير، وتوجد حوله خمسة أو ستة أشجار صحراوية خضراء كبيرة من نوع "السَمُر" صارت بأغصانها الكثيفة وقامتها الباسقة مكاناً ظليلاً في تلك الصحراء، فاتخذوها مكاناً لنزول النبي (صلى الله عليه وآله) ونصبوا له المنبر فيه). بيعة الغدير، محمد باقر الأنصاري: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) لسان العرب، ابن منظور: ٩/٥.

(٣) ينظر: بيعة الغدير: ٧ ـ ٨.

(٤) ينظر: بيعة الغدير: ٨.

(٥) ينظر: الغدير رحلة التاريخ والمستقبل، الحاج أحمد مصري: ١٠١.

الإسلام على خمس: الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية ولم يناد بشيء ما نودي بالولاية يوم الغدير)[١].

البناء الفني للخطبة:

تميّز الخطاب النبوي برصانة البناء وجمال العبارة ودقة التركيب، ومن يقرأ خطبة الغدير يلاحظ أنها قد رُوعي فيها ترتيب الموضوعات، وخضعت لبناء فني يقوم على الإحكام والإمتاع[٢].

فاستُهلت بالتحميد والتمجيد والشهادة بوحدانية الله تعالى: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي عَلا فِي تَوَحُّدِهِ، وَدَنا فِي تَفَرُّدِهِ، وَجَلَّ فِي سُلْطانِهِ، وَعَظُمَ فِي أَرْكانِهِ، وَأَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً وَهُوَ فِي مَكانِهِ... وَأَشْهَدُ أَنَّهُ اللهُ الَّذِي مَلاَ الدَّهْرَ قُدْسُهُ، وَالَّذِي يَغْشَى الأَبَدَ نُورُهُ، وَالَّذِي يُنْفِذُ أَمْرَهُ بلا مُشاوَرَةِ مُشِير، وَلا مَعَهُ شَرِيكٌ فِي تَقْدِيرِهِ، وَلا يُعاوَنُ فِي تَدْبِيرِهِ...)[٣].

ثم التمهيد للدخول إلى موضوع الخطبة:

(وَأُقِرُّ لَهُ عَلى نَفْسِي بِالْعُبُودِيَّةِ وَأَشْهَدُ لَهُ بالرُّبُوبِيَّةِ، وَأُؤَدِّي ما أَوْحَى بِهِ إِلَيَّ حَذَراً مِنْ أَنْ لا أَفْعَلَ فَتَحِلَّ بي مِنْهُ قارِعَةٌ... لأَنَّهُ قَدْ أَعْلَمَنِي أَنِّي إِنْ لَمْ أُبَلِّغْ ما أَنْزَلَ إِلَيَّ فِي حَقِّ عَلِيٍّ فَما بَلَّغْتُ رِسالَتَهُ، وَقَدْ ضَمِنَ لِي ـ تَبارَكَ وَتَعالى ـ الْعِصْمَةَ مِنَ النَّاسِ، وَهُوَ اللهُ الْكافِي الْكَرِيمُ)[٤].

بعد ذلك الانتقال إلى موضوع الخطبة الرئيس:

(فَأَوْحَى إِلَيَّ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ـ فِي عَلِيٍّ، يعني فِي الخلافة لعليّ بن أبي طالب ـ ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾. مَعاشِرَ النَّاسِ، ما قَصَّرْتُ فِي تَبْلِيغِ ما أَنْزَلَ اللهُ تَعالى إِلَيَّ، وَأَنا أُبَيِّنُ لَكُمْ سَبَبَ هذِهِ الآيَةِ: إِنَّ جَبْرَائِيلَ هَبَطَ إِلَيَّ مِراراً ثَلاثاً يَأْمُرُنِي عَنِ السَّلامِ رَبِّي ـ وَهُوَ السَّلامُ ـ أَنْ أَقُومَ فِي هذا الْمَشْهَدِ فَأُعْلِمَ كُلَّ أَبْيَضَ وَأَسْوَدَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أبي طالِب أَخِي، وَوَصِيِّي، وَخَلِيفَتِي عَلى أُمَّتِي، وَالإِمامُ مِنْ بَعْدِي، الَّذِي مَحَلُّهُ مِنِّي مَحَلُّ هارُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي...)[٥].

وأما بقية الخطبة فقد انتظمت في مقاطع عدة، يُفتتح كل واحد منها بعبارة "معاشر الناس"، وكل مقطع يتضمن موضوعاً محدداً، يجمعها خيط فكري واحد وهو "الولاية الكبرى".

---

(١) الكافي، الشيخ والكليني: ٢/٢١.

(٢) ينظر: أدب الشريعة الإسلامية: ١٢٩.

(٣) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير، أمير التقدمي المعصومي: ٦٥ ـ ٦٦.

(٤) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٦٧.

(٥) المصدر نفسه: ٦٧ ـ ٦٨.

التضمين القرآني في الخطبة ودلالاته:

من الملفت للنظر أن هذه الخطبة المباركة تكثر فيها التضمينات القرآنية، إذ لا تجد فيها مقطعاً يخلو من معنى أو لفظ قرآني أو آية صريحة، ويمكن أن نعزو ذلك إلى عدة أسباب، منها:

١ ـ إن طبيعة الموضوع الذي تستهدفه الخطبة هو أمر في بالغ الأهمية كما قلنا من قبل، فقد وردت عدة آيات في القرآن في هذا الموضوع.

٢ ـ كما أن صاحب البيعة الإمام علي (ع) له علاقة حميمة بالقرآن الكريم، ونزلت بحقه آيات كثيرة في القرآن[١]، حتى قال فيه رسول الله (ص): (علي مع القرآن والقرآن معه لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض)[٢].

٣ ـ ومنها أيضاً إن رسول الله (ص) في صدد إبلاغ أمر يحتمل أن يتعرّض للتكذيب والعياذ بالله، وقد صرّح رسول الله (ص) بذلك في الخطبة نفسها: (وَسَأَلْتُ جَبْرَئِيلَ أَنْ يَسْتَعْفِيَ لِيَ السَّلامَ عَنْ تَبْلِيغِ ذلِكَ إِلَيْكُمْ ـ أَيُّهَا النَّاسُ ـ لِعِلْمِي بِقِلَّةِ الْمُتَّقِينَ وَكَثْرَةِ الْمُنافِقِينَ وَإِدْغالِ اللاَّئِمِينَ وَحِيَلِ الْمُسْتَهْزِئِينَ بِالإِسلام، الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ فِي كِتابِهِ بِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، وَيَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ)[٣]، ويؤكد ذلك أنه (ص) طلب من الله تعالى أن يعصمه من الناس: لذلك جاءه الجواب: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[٤]. وما التضمين القرآني والاستدلال بآيات القرآن الكريم إلا وسيلة ودليل قاطع لإثبات صدق مدعاه، وأحقية هذا الأمر، وأنه أمر مباشر من الله تعالى لا من عنده.

ومن التضمين الذي يصب في خدمة الموضوع المستهدف ما يأتي:

١ ـ الإمام علي (ع) ولي المؤمنين:

(إِنَّ عَلِيَّ بْنَ أبي طالِب أَخِي، وَوَصِيِّي، وَخَلِيفَتِي عَلى أُمَّتِي، وَالإِمامُ مِنْ بَعْدِي، الَّذِي مَحَلُّهُ مِنِّي مَحَلُّ هارُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي، وَهُوَ وَلِيُّكُمْ بَعْدَ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ ـ تَبارَكَ وَتَعالَى ـ عَلَيَّ بِذلِكَ آيَةً مِنْ كِتابِهِ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٥]، وَعَلِيُّ بنُ أبي طالِب الَّذِي أَقامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكاةَ وَهُوَ راكِعٌ يُرِيدُ اللهَ ـ عزّ وجلّ ـ فِي كُلِّ حال)[٦].

---

(١) للمزيد من الاطلاع على هذا الموضوع، راجع كتاب (آيات نزلت في الإمام علي "ع") لمكارم الشيرازي.

(٢) المعجم الأوسط، الطبراني: ١٣٥/٥.

(٣) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٦٨.

(٤) المائدة: ٦٧.

(٥) المائدة: ٥٥.

(٦) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٦٧ ـ ٦٨.

٢ ـ تبليغ الخلافة أمر إلهي:

(وَكُلُّ ذلِكَ لا يَرْضَى اللّهُ مِنِّي إلاّ أَنْ أُبَلِّغَ ما أَنْزَلَ اللّهُ إِلَيَّ فِي حَقِّ عَلِيٍّ، ثمّ تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ في حقِّ عليٍّ ـ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1][2].

٣ ـ علي (ع) هو الإمام المبين:

(مَعاشِرَ النّاسِ، فَضِّلُوهُ، ما مِنْ عِلْمٍ إلاّ وَقَدْ أَحْصاهُ اللّهُ فِيَّ، وَكُلُّ عِلْمٍ عُلِّمْتُ فَقَدْ أَحْصَيْتُهُ فِي إمامِ الْمُتَّقِينَ، وَما مِنْ عِلْمٍ إلاّ وَقَدْ عَلَّمْتُهُ عَلِيّاً، وَهُوَ الإِمامُ الْمُبِينُ الَّذي ذَكَرَهُ اللّهُ فِي سُورَةِ يس: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[3])[4].

٤ ـ علي (ع) يهدي إلى الحق ويُزهق الباطل:

(مَعاشِرَ النّاسِ، لا تَضِلُّوا عَنْهُ، وَلا تَنْفِرُوا مِنْهُ، وَلا تَسْتَنْكِفُوا مِنْ وِلايَتِهِ، فَهُوَ الَّذي يَهْدِي إلى الْحَقِّ وَيَعْمَلُ بِهِ، وَيُزْهِقُ الْباطِلَ وَيَنْهَى عَنْهُ، وَلا تَأْخُذُهُ فِي اللّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ)[5]. وهو تضمين لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[6].

٥ ـ عقوبة مَنْ أنكر ولاية علي (ع):

(مَعاشِرَ النّاسِ، إنَّهُ إمامٌ مِنَ اللّهِ، وَلَنْ يَتُوبَ اللّهُ عَلى أحد أَنْكَرَ وِلايَتَهُ وَلَنْ يَغْفِرَ لَهُ، حَتْماً عَلَى اللّهِ أَنْ يَفْعَلَ ذلِكَ بِمَنْ خالَفَ أَمْرَهُ، وَأَنْ يُعَذِّبَهُ عَذاباً نُكْراً أَبَدَ الأَبادِ وَدَهْرَ الدُّهُورِ، فَاحْذَرُوا أَنْ تُخالِفُوهُ فَتَصْلَوْا ناراً وَقُودُها النّاسُ وَالْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ)[7]. وهو تضمين لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[8].

٦ ـ لعنة الله وغضبه على مَنْ عادى علياً (ع):

(أَلا إنَّ جَبْرائِيلَ خَبَّرَنِي عَنِ اللّهِ تَعالى بِذلِكَ وَيَقُولُ: «مَنْ عادَى عَلِيّاً وَلَمْ يَتَوَلَّهُ فَعَلَيْهِ لَعْنَتِي وَغَضَبِي»، ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ ـ أَنْ تُخالِفُوهُ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها ـ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[9])[10].

---

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٦٨ ـ ٦٩.

(٣) يس: ١٢.

(٤) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٦٩ ـ ٧٠.

(٥) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٧٠.

(٦) الإسراء: ٨١

(٧) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٧٠.

(٨) البقرة: ٢٤.

(٩) من الآية: ١٨ من سورة الحشر، والآية: ٩٤ من سورة النحل.

(١٠) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٧١.

٧ ـ علي (ع) هو جَنْبُ الله:

(مَعاشِرَ النّاسِ، إنَّهُ جَنْبُ اللهِ الّذي ذَكَرَ فِي كِتابِهِ الْعَزِيزِ، فَقالَ تَعالَى ـ مُخْبِراً عَمَّنْ يُخالِفُهُ ـ : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾[١])[٢].

٨ ـ علي (ع) مفسر القرآن:

(مَعاشِرَ النّاسِ، تَدَبَّرُوا الْقُرْآنَ وَافْهَمُوا آياتِهِ، وَانْظُرُوا إلى مُحْكَماتِهِ وَلا تَتَّبِعُوا مُتَشابِهَهُ، فَوَاللهِ لَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ زَواجِرَهُ وَلَنْ يُوضِحَ لَكُمْ تَفْسِيرَهُ إلاّ الّذي أَنَا آخِذٌ بِيَدِهِ وَمُصْعِدُهُ إلَيَّ وَشائِلٌ بِعَضُدِهِ وَرافِعُهُ بِيَدَيَّ...)[٣]. وهو تضمين لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[٤].

٩ ـ بولايته (ع) كَمُلَ الدينُ وتمّت النعمة:

(اللّهُمَّ إنَّكَ أَنْزَلْتَ الآيَةَ فِي عَلِيٍّ وَلِيِّكَ عِنْدَ تَبْيِينِ ذلِكَ وَنَصْبِكَ إيّاهُ لِهذَا الْيَوْمِ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٥]، وَقُلْتَ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[٦]، وَقُلْتَ: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٧]. اللّهُمَّ إنّي أُشْهِدُكَ أنّي قَدْ بَلَّغْتُ)[٨].

١٠ ـ تحذير مَنْ لم يأتم به وبالأئمة من بعده (ص) :

(فَمَنْ لَمْ يَأْتَمَّ بِهِ وَبِمَنْ يَقُومُ مَقامَهُ مِنْ وُلْدِي مِنْ صُلْبِهِ إلى يَوْمِ الْقِيامَةِ... فَأُولئِكَ الّذينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَفِي النّارِ هُمْ خالِدُونَ ﴿ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[٩][١٠]).

١١ ـ منزلة علي (ع) في القرآن الكريم:

(وَما نَزَلَتْ آيَةُ رِضىً فِي الْقُرْآنِ إلاّ فِيهِ، وَلا خاطَبَ اللهُ الّذينَ آمَنُوا إلاّ بَدَأَ بِهِ، وَلا نَزَلَتْ آيَةُ مَدْحٍ فِي الْقُرْآنِ إلاّ فِيهِ، وَلا شَهِدَ اللهُ بِالْجَنَّةِ فِي ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾[١١] إلاّ لَهُ، وَلا أَنْزَلَها

---

(١) الزمر: ٥٦.

(٢) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٧١.

(٣) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٧١.

(٤) آل عمران: ٧.

(٥) المائدة: ٣.

(٦) آل عمران: ١٩.

(٧) آل عمران: ٨٥.

(٨) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٧٣.

(٩) آل عمران: ٨٨.

(١٠) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٧٣.

(١١) الإنسان: ١.

فِي سِواهُ، وَلا مَدَحَ بها غَيْرَهُ... وَفِي عَلِيٍّ ـ وَاللهِ ـ نَزَلَتْ سُورَةُ الْعَصْرِ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ = وَالْعَصْرِ = إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[1] إِلاَّ عَلِيٌّ الَّذِي آمَنَ وَرَضِيَ بِالْحَقِّ وَالصَّبْرِ)[2].

١٢ ـ عليٌّ (ع) نورٌ من الله تعالى:

(مَعاشِرَ النّاسِ، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[3]. مَعاشِرَ النّاسِ، آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذي أُنْزِلَ مَعَهُ[4]، ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾[5]، ... مَعاشِرَ النّاسِ، النُّورُ مِنَ اللهِ ـ عزّ وجلّ ـ مَسْلُوكٌ فِيَّ، ثُمَّ فِي عَلِيِّ بْنِ أبي طالِب، ثُمَّ فِي النَّسْلِ مِنْهُ إلى الْقائِمِ الْمَهْدِيِّ الَّذي يَأْخُذُ بِحَقِّ اللهِ وَبِكُلِّ حَقٍّ هُوَ لَنا)[6].

١٣ ـ علي (ع) الصابر الشاكر:

(مَعاشِرَ النّاسِ، أُنْذِرُكُمْ أَنِّي رَسُولُ اللهِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِيَ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مِتُّ أو قُتِلْتُ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً، وَسَيَجْزِي اللهُ الشّاكِرِينَ الصّابِرِينَ، أَلا وَإِنَّ عَلِيّاً هُوَ الْمَوْصُوفُ بِالصَّبْرِ وَالشُّكْرِ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ وُلْدي مِنْ صُلْبِهِ)[7]. وهو تضمين لقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[8].

١٤ ـ علي (ع) الصراط المستقيم بعد رسول الله (ص):

(مَعاشِرَ النّاسِ، أَنا صِراطُ اللهِ الْمُسْتَقِيمُ الَّذي أَمَرَكُمْ باتِّباعِهِ، ثُمَّ عَلِيٌّ مِنْ بَعْدي، ثُمَّ وُلْدي مِنْ صُلْبِهِ أئمة الْهُدى، يَهْدُونَ إلى الْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ. ثمّ قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ...﴾[9] إلى آخرها، وقال: فِيَّ نَزَلَتْ وَفِيهِمْ ـ وَاللهِ ـ نَزَلَتْ، وَلَهُمْ عَمَّتْ وَإِيّاهُمْ خَصَّتْ، ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[10].

---

(١) العصر: ١ ـ ٢.

(٢) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٧٤.

(٣) آل عمران: ١٠٢.

(٤) إشارة إلى الآية ٨ من سورة التغابن.

(٥) النساء: ٤٧.

(٦) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٧٥.

(٧) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٧٥.

(٨) آل عمران: ١٤٤.

(٩) الفاتحة: ١ ـ ٢.

(١٠) نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير: ٧٧.

وأخيراً يصرّح رسول الله (ص) بأن فضائل الإمام علي (ع) عند الله كثيرة: (مَعاشِرَ النّاسِ، إنَّ فَضائِلَ عَلِيِّ بْنِ أبي طالِب عِنْدَ اللّهِ ـ عزّ وجلّ، وَقَدْ أَنْزَلَها فِي الْقُرآنِ ـ أَكْثَرُ مِنْ أنْ أُحْصِيَها فِي مَقام واحِد، فَمَنْ أَنْبَأَكُمْ بها وَعَرَفَها فَصَدِّقُوهُ)[1].

الخاتمة:

وفي الختام يمكن القول إن مسألة الخلافة والولاية هي مسألة قرآنية ولا تقبل أدنى شك، وقد استطاع رسول الله (ص) ببراعة أدبه وبلاغة أسلوبه أن يصوغها صياغة فنية في خطبته، ويرصّع هذه الخطبة بالآيات القرآنية النازلة في الإمام علي (ع)، المتضمنة فضائله، فجاء هذا التضمين متجانساً تماماً مع سياق الخطبة المباركة التي دارت حول محور فكري مفاده: عليٌ إمام وولي وخليفة بنص الكتاب والسنة. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآل بيته الطيبين الطاهرين.

مصادر البحث:

القرآن الكريم.

١ ـ أدب الشريعة الإسلامية، د. محمود البستاني، ط/١، ١٤٢٤ هـ، مؤسسة السبطين، العالمية، مطبعة محمد، قم.

٢ ـ آيات نزلت في الإمام علي (ع)، الشيخ مكارم الشيرازي، ط/١، ١٤٢٦ هـ، دار جواد الأئمة، بيروت ـ لبنان.

٣ ـ بيعة الغدير، محمد باقر الأنصاري، ط/١، ١٤٢٢ هـ، منشورات دليل ما، قم.

٤ ـ خُطَب الرسول الكريم محمد، دراسة توثيقية تحليلية، رسالة ماجستير، مصعب نوري محمود العزاوي، كلية التربية ـ ابن رشد ـ جامعة بغداد، ٢٠٠٤.

٥ ـ الغدير رحلة التاريخ والمستقبل، الحاج أحمد مصري، ط/١، ٢٠٠٣ م، دار الغدير، قم.

٦ ـ الغدير، الشيخ الأميني، ط/٤، ١٩٧٧ م، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان.

٧ ـ القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، د. محمود البستاني، ط/١، ١٤١٤هـ، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد ـ إيران.

٨ ـ الكافي، الشيخ والكليني، ط/٥، ١٣٦٣ ش، دار الكتب الإسلامية، طهران.

٩ ـ لسان العرب، ابن منظور، ط/١، ١٤٠٥ هـ، دار إحياء التراث العربي.

١٠ ـ مختصر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، د. محمود البستاني، ط/١، ١٣٨١ ش، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، الأستانة الرضوية.

١١ ـ المعارف، ابن قتيبة الدينوري، ط/٢، ١٩٦٩ م، دار المعارف بمصر.

١٢ ـ المعجم الأوسط، الطبراني، (د.ط)، ١٤١٥ هـ، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع.

١٣ ـ معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار عمر، ط/١، ٢٠٠٨ م، عالم الكتب، القاهرة.

١٤ ـ نور الأمير (ع) في تثبيت خطبة الغدير، أمير التقدمي المعصومي، ط/١، ١٤٢١ هـ، مؤسسة مولود الكعبة، بيروت. ❖

---

(١) المصدر نفسه: ٨٤.

صور إحياء البيعة الغديرية وأبعادها الزمنية والاحتفالية

د. حميد سراج جابر
جامعة البصرة، كلية التربية للعلوم الإنسانية، قسم التاريخ

من المعلوم أن حادثة الغدير قد انعكست بصور عدة عبر العصور، ومن هذه الصور المراسيم الاحتفالية المختلفة والتي تمثل إحياء للمبدأ الذي مثلته هذه الحادثة أو المناسبة أو البيعة.

ومن هنا كان هذا البحث محاولة لتسليط الضوء على جانب مهم من جوانب المراسيم الاحتفالية في هذا اليوم، وبالذات حول تاريخ ظهور هذه المراسيم عبر العصور وكيف كانت هناك إشكالية عند المصادر القديمة بقصد وربما بدون قصد في ذكر تواريخ لا تنسجم مع التاريخ والزمن الحقيقي حتى أبعدت زمن الاحتفال إلى العصر البويهي، وقد نوقشت كل هذه الروايات مناقشة مستفيضة وبالأدلة، مع إبراز نتائج المناقشات وأدلتها.

أيضاً درس البحث أنواع المراسيم وتطوراتها عبر العصور، وكيف أصبحت تعكس ثقافة مجتمع بأسره لأنها أصبحت على أشكال تتلائم مع طبيعة المجتمع، وحتى هذه الأشكال أصبحت ضمن الأدلة في إثبات وجود الاحتفالات منذ زمن الرسول (ص).

إذاً هذه الدراسة هي محاولة بسيطة لتحديد التاريخ الصحيح لبدء مراسيم الاحتفال بيوم الغدير من خلال دراسة كل الآراء ومناقشتها مناقشة علمية وبالأدلة المتنوعة العقلية منها والنقلية ومن ثم الوصول إلى النتيجة الأصح سيما وإن هذه المراسيم تعرضت لهجمة شرسة لإلغائها أولاً واثبات بعدها عن النفس الديني وأنها صورة مبتدعة ومدعاة ثانياً، غير أن طيات البحث وبالدراسة الموضوعية يمكن أن تكون مفتاحاً للقراء الباحثين عن الدليل القائم على منهج البحث العلمي.

وربما أن قراءة البحث بشكل متكامل تغني تماماً عن ما يذكر من تلخيصات بسيطة في هذه الصفحة بحكم تعدد الصور والنماذج، وتعدد الأدلة والروايات، وباختلاف المصادر التاريخية التي اعتمدنا عليها.

يعد موضوع تحديد زمن بداية الاحتفال بعيد الغدير ومراسيم ذلك الاحتفال من الموضوعات التي انتابها نوع من التشكيك ولاسيما عند المدارس الأخرى غير مدرسة أهل البيت، وقد حاول بعضهم وكالعادة إفراغ تاريخ هذه الاحتفالات من محتواها بوساطة التشكيك بانتسابها إلى زمن الحادثة، إذ تجسد هذا التشكيك بما أورده بعض مؤرخيهم (إن

جاز تسميتهم بالمؤرخين فعلاً) من أن نسبة الاحتفال وأداء المراسيم الغديرية يعود إلى زمن بعيد جداً عن عصر الرسول (ص) والأئمة، فقد ذكر المقريزي أن عيد الغدير (لم يكن عيداً مشروعاً، ولا عمله أحد من سالف الأمة المقتدى بهم، وأول ما عرف في الإسلام بالعراق أيام معز الدولة علي بن بويه[١]، فإنه أحدثه في سنة ٣٥٢، فاتخذه الشيعة من حينئذ عيداً)[٢].

وذكر النويري ما يشبه هذا الكلام حينما أشار إلى أن عيد الغدير ما هو إلاّ عيد ابتدعه الشيعة وسبب ابتداعهم له هو مؤاخاة الرسول (ص) علي (ع) وإن أول من أحدثه (عيد الغدير) معز الدولة أبو الحسن علي بن بويه سنة (٣٥٢)[٣].

وقد تصدى الأميني لهذا الفهم ولهذا الادعاء مستنداً على ورود خبر الاحتفال قبل تاريخ ٣٥٢هـ في المصادر إذ بنى رده بحسب السياق الآتي:

١- إنه أخذ على مثل هؤلاء البحاثة آراءهم دون الرجوع للمصادر إذ قال (ما عساني أن أقول في بحاثة يكتب عن تأريخ الشيعة قبل أن يقف على حقيقته أو أنه عرف نفس الأمر فنسيها عند الكتابة، أو أغضى عنها لأمر دبر بليل، أو أنه يقول ولا يعلم ما يقول، أو أنه ما يبالي بما يقول)[٤].

٢- إنه أشار إلى عدد من المؤلفين الذين ذكروا الاحتفال قبل التاريخ الذي حدده المقريزي والنويري أي تاريخ (٣٥٢هـ)، ومنهم المسعودي المتوفى ٣٤٦ في التنبيه والإشراف[٥]، والكليني في الكافي توفي سنة ٣٢٩[٦] وقبله فرات بن إبراهيم الكوفي المفسر الذي هو في طبقة مشايخ ثقة الإسلام الكليني المذكور[٧]، فالكتب هذه ألفت قبل ما ذكراه "النويري والمقريزي" من التاريخ (٣٥٢)[٨]. وأيضاً نجد أن الفياض بن محمد بن عمر

---

(١) معز الدولة علي بن بويه، يبدو أن المقصود هو معز الدولة أحمد بن بويه وهو الذي حكم في هذه الفترة ولا يوجد من اسمه علي، وأحمد هذا هو معز الدولة السلطان، أبو الحسين، أحمد بن بويه بن فنا خسرو بن تمام بن كوهي الديلمي الفارسي، كان أبوه سماكا، تملك العراق نيفاً وعشرين سنة، مات في ربيع الآخر سنة ٣٥٦هـ، وله ثلاث وخمسون سنة. ينظر الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٦/١٨٩ - ١٩٠.

(٢) ينظر النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب ١/٤٨ (مرقم الكترونياً موقع الوراق)، المقريزي، الخطط المقريزية ١/٣٨٣، النقوي، خلاصة عبقات الأنوار ٧/١١٩، الشيخ الأميني، الغدير ١/٢٨٨.

(٣) نهاية الإرب ١/٤٨ (مرقم الكترونياً موقع الوراق).

(٤) الشيخ الأميني، الغدير ١/٢٨٩.

(٥) الغدير ١/٢٨٩، وقد قال المسعودي في التنبيه والإشراف: وولد علي رضي الله عنه وشيعته يعظمون هذا اليوم. ص٢٢٢.

(٦) الغدير ١/٢٨٩.

(٧) الغدير ١/٢٨٩.

(٨) الغدير ١/٢٨٩.

الطوسي قد أخبر به سنة ٢٥٩ وذكر أنه شاهد الإمام الرضا سلام الله عليه المتوفى سنة ٢٠٣ يتعيد في هذا اليوم ويذكر فضله وقدمه[١].

٣- ذكر الأميني أن عيد الغدير يوافق ما جرت به العادة عند الملوك والأمراء من التعيد في أيام تسنموا فيها عرش الملك، وقد أمر أئمة الدين عليهم السلام في عصورهم القديمة شيعتهم بأعمال برية ودعوات مخصوصة بهذا اليوم وأعمال وطاعات خاصة به[٢].

٤- يرى الأميني أن الرجلين أرادا طعناً بالشيعة فأنكرا ذلك السلف الصالح وصوراه بدعة معزوة إلى معز الدولة وهما يحسبان أنه لا يقف على كلامهما من يعرف التاريخ فيناقشهما الحساب[٣].

وعلى الرغم من أن ما ذكره الأميني هو رد علمي مفحم، إلاّ أن هناك صور أخرى ذكرت في التاريخ تؤكد ذلك الرد، وإذا ما أردنا التصديق على ما قاله الأميني فإننا ينبغي أن نقسّم الأدلة إلى مجاميع بحسب المنطق الفكري وبحسب الدليل النقلي وبحسب المنهج الخاص بمدرسة أهل البيت في التعامل مع هكذا أمور ونقصد مراسيم العيد في فكر الأئمة عليهم السلام، ومن هنا فإن التقسيم كالآتي:

١- الأدلة النقلية وما ذكر عن مدرسة الصحابة أنفسهم وعن أخبار الولادات والوفيات والتنصيب في هذا اليوم.

٢- احتفالات الأئمة عليهم السلام وحثهم عليها.

٣- الأدلة الواقعية وموضوع الحريات.

فبالنسبة لما اصطلحنا عليه الأدلة النقلية من مدرسة الصحابة فإن الروايات تدل على أن ما ذكره العامة في بعض الأحيان هو رد على هؤلاء فاستقراء النصوص يوصلنا إلى نتيجة إثبات وجود المراسيم الخاصة بالغدير في الفكر الإسلامي فعن صحيح مسلم: قالت اليهود لعمر: لو علينا معشر اليهود نزلت هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٤] ونعلم اليوم الذي أنزلت فيه لاتخذنا ذلك اليوم عيداً[٥]، ورواه السيوطي في الدر المنثور أيضاً[٦].

وهذا الكلام يشير ويؤكد على اعتياد وبديهية الاحتفال بتسلم السلطة وإن كانت بقرار وضعي فكيف إذا كان المصدر إلهي، ومن الرسول (ص) الذي لا ينطق عن الهوى إلاّ

---

(١) الغدير ٢٨٩/١. وينظر الشيخ فارس الحسون، المجازر والتعصبات الطائفية في عهد الشيخ المفيد ص٤٢.

(٢) الغدير ٢٨٩/١.

(٣) الغدير ٢٩٠/١.

(٤) سورة المائدة/٣.

(٥) الشيخ النمازي، مستدرك سفينة البحار ج ٤٧٣/٧ وينظر مسلم، الصحيح ٢٣٩/٨.

(٦) الشيخ النمازي، مستدرك سفينة البحار ج ٤٧٣/٧. وينظر السيوطي، الدر المنثور ٢٥٨/٢.

هو وحي يوحى، وكأن مسألة ضرب القواعد مباحة إذا كانت ضد أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وأشار بعضهم في تراجم بعض الشخصيات إلى يوم الغدير عرضاً ولكن بشكل نستطيع أن نعده دليل قاطع على الاحتفالات التي أشار لها اتباع مدرسة الصحابة أنفسهم، فتارة تذكر هذه التراجم وفاة أحدهم في يوم الغدير ١٨ ذي الحجة، وتارة تذكر ولادة آخر، وتارة ثالثة تذكر تنصيب بالسلطة وتشير إلى مصادفة التنصيب في نفس يوم الغدير الذي كان في عهده، ومن ذلك ما أشار إليه ابن خلكان في ترجمة أبي تميم معد الملقب بالمستنصر بالله بن الظاهر (المستنصر بالله العبيدي)[١]: (وتوفي ليلة الخميس لاثنتي عشر ليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة رحمه الله تعالى، قلت: وهذه الليلة هي ليلة عيد الغدير أعني ليلة الثامن عشر من ذي الحجة وهو غدير خم "بضم الخاء وتشديد الميم" ورأيت جماعة كثيرة يسألون عن هذه الليلة متى كانت من ذي الحجة، وهذا المكان بين مكة والمدينة وفيه غدير ماء ويقال: إنه غيضة هناك، ولما رجع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من مكة شرفها الله تعالى عام حجة الوداع ووصل إلى هذا المكان وآخى علي بن أبي طالب رضي الله)[٢].

وليس هذا حسب وإنما نجده أي ابن خلكان يذكر تنصيب بعض الملوك في نفس هذا اليوم عندما يترجم لهم مثل قوله في ترجمة المستعلى ابن المستنصر[٣]: (فبويع في يوم عيد غدير خم وهو الثامن عشر من ذي الحجة سنة٤٨٧)[٤].

وهذه الأخبار دالة على أن أمر العيد أصبح متسالم عليه ولا ينكر وإن كان في فترة متأخرة، مما يثبت إن أصل العيد موجود في زمن الحادثة نفسها، لذا فقد ذكره هؤلاء بصفة تدل على إثباته، وربما نستطيع القول أن كلام ابن خلكان هذا يعني جملة أمور:

١- شهرة العيد إلى درجة كونه أداة قياس زمنية.

٢- أهميته وثبوته لا سيما وإن ابن خلكان أشار إلى زمنه ثم إلى الحادثة نفسها بالتفصيل تقريباً.

---

(١) المستنصر العبيدي أبو تميم معد الملقب المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بن العزيز بن المعز لدين الله بويع بالأمر بعد موت والده الظاهر وذلك يوم الأحد النصف من شعبان سنة ٤٢٧هـ. ينظر ابن خلكان. وفيات الاعيان٥/٢٢٩.

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ٥/٢٣٠. وينظر الشيخ الأميني، الغدير ١/٢٦٨.

(٣) المستعلي بن المستنصر أبو القاسم أحمد بن المستنصر ولي الأمر بعد أبيه بالديار المصرية والشامية وفى أيامه اختلت دولتهم وضعف أمرهم واستولى الفرنج على كثير من بلاد الساحل كانت ولادته بالقاهرة سنة ٤٦٩ وبويع يوم غدير خم سنة ٤٨٧ وتوفى بمصر سنة ٤٩٥. الشيخ عباس القمي، الكنى والألقاب٢/٤٥٩ - ٤٦٠.

(٤) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. وينظر الشيخ الأميني، الغدير ١/٢٦٨.

٣- يبدو أن نوعية المراسيم كانت مؤثرة وكبيرة حتى تكتسب كل هذا الاهتمام.

وقد أفصحت الروايات عن ما يدل على أن يوم الحادثة نفسها في زمن الرسول (ص) كان يوم احتفالي فلا عجب أن يستمر الاحتفال في بقية السنوات، وقد عد هذا العيد بنظر بعض علماء مدرسة الصحابة من أعياد الإسلام فقد قال البيروني في كتابه الآثار الباقية أن هذا العيد مما استعمله أهل الإسلام من الأعياد[١].

وهنا نريد أن نؤكد على ما ذكر عن بعض رموز مدرسة الصحابة وكيف ساهم في هذا الاحتفال، إذ ذكرت الروايات أنه لما أخذ الرسول (ص) بيد علي (ع) وقال (اللهم من كنت مولاه فعلي مولاه...) فلقيه عمر بعد ذلك فقال هنيئاً يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة[٢]. والمعروف أن التهنئة تأتي لأمر احتفالي أو تكريمي أو معنوي وفي كل الحالات فإنها تدخل في جو الاحتفال هذا فضلاً عن أن المصادر تشير صراحة إلى ما يشبه الاحتفال في يوم الغدير زمن الرسول (ص) وكيف تم إظهار الفرح والسرور، فالتهنئة التي ذكرتها مصادر مدرسة الصحابة فيها دلالات تؤكد ما نريد قوله من جملة أمور:

١- إن الرسول (ص) أقدم على أمر عظيم وإن الإمام علي (عليه السلام) كُلّف بأمر جسيم يستحق معه الاحتفال والتهنئة.

٢- إن تهنئة عمر للإمام علي (ع) تخرس الرافضين لفكرة الاحتفال لا سيما وأن عمر يمثل مدرستهم ومن ثم فإنه إذا كان هناك ثمة طعن في المسألة فإنه طعن في عمر أيضاً.

٣- إن ألفاظ التهنئة فيها مبالغة بالفرح والاستبشار والاحتفالية وليس كما يتصور في بعض الأذهان أن التهنئة هي بمودة الرسول (ص) لعلي (ع) وإنما قول عمر (بخ بخ لك يا علي أصبحت موالي ومولى كل مؤمن ومؤمنة) متوافق مع طبيعة الاحتفال[٣].

وهناك استدلالات أخرى في كتب مدرسة الصحابة حول التأكيد على مراسيم معينة في يوم الغدير مثل فضل صوم عيد الغدير: (عن أبي هريرة من صام يوم ثمان عشر من ذي الحجة كتب له صيام ستين شهراً، وهو يوم غدير خم... الخ.)[٤].

ولعل أبسط الأدلة وأهمها وأكثرها إفحاماً على وجود أعياد الغدير قبل الزمن البويهي هو ما ذكر من أن الأئمة (عليهم السلام) كانوا يحتفلون بهذا العيد ويدعون إلى

---

(١) الشيخ الأميني، الغدير ٢٦٧/٢، نقلاً عن البيروني الآثار الباقية ص٣٣٤.

(٢) ينظر أحمد بن حنبل، المسند ٢٨١/٤، المتقي الهندي، كنز العمال ١٣٤/١٣.

(٣) القندوزي، ينابيع المودة ٢٤٩/٢.

(٤) الشيخ علي الكوراني العاملي، الحق المبين في معرفة المعصومين (ع) ص١٢٦، وينظر ابن البطريق، العمدة ص١٠٦.

الاحتفال به، فإلى جانب ما ذكرناه عن احتفال الرسول (ص) به يوم الحادثة فإنه كان يدعو إلى الاحتفال به بل وعده من أفضل الأعياد إذ ورد أنه (ص) قال: (يوم غدير خم أفضل أعياد أمتي وهو اليوم الذي أمرني الله تعالى ذكره فيه بنصب أخي علي بن أبي طالب علماً لأمتي، يهتدون به من بعدي، وهو اليوم الذي أكمل الله فيه الدين، وأتم على أمتي فيه النعمة، ورضي لهم الإسلام دينا)[١].

وقد مر أن المسعودي في التنبيه والإشراف أشار إلى أن الأئمة عليهم السلام يحتفلون ويأمرون بالاحتفال يوم الغدير إذ قال (وولد علي رضي الله عنه وشيعته يعظمون هذا اليوم)[٢] وهناك أمور عدة يمكن أن نستنتجها من هذا النص:

١- إن كل الأئمة عليهم السلام احتفلوا بعيد الغدير.
٢- إن الاحتفال بالغدير كان من زمن الرسول (ص) والإمام علي (ع).
٣- رد قول القائلين باستحداث العيد سنة ٣٥٢هـ لأن المسعودي متوفى ٣٤٥ أو ٣٤٦هـ.
٤- إن هناك حملة في المصادر أرادت التغطية والتوجيه في مسألة يوم الغدير لأغراض سياسية وربما شذ عنهم المسعودي.

وقد صرح الأئمة عليهم السلام بهذا الأمر وأهمية العيد عندهم فعن أحمد بن محمد بن أبي نصر: كنا عند الرضا (عليه السلام) والمجلس غاص بأهله، فتذاكروا يوم الغدير، فأنكره بعض الناس، فقال الرضا (عليه السلام): حدثني أبي عن أبيه (عليه السلام) قال: إن يوم الغدير في السماء أشهر منه في الأرض، إن لله في الفردوس الأعلى قصراً لبنة من فضة ولبنة من ذهب..)[٣].

ومثل هذه الأحاديث توحي بالأمر بتعظيم هذا اليوم والتأكيد عليه وهو أمر أصبح من البديهيات المؤكدة التي عرفت عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وعن أبي عبد الله جعفر بن محمد (عليهما السلام) أنه قال لمن حضره من مواليه وشيعته عن يوم الغدير: أتعرفون يوماً شيد الله به الإسلام، وأظهر به منار الدين، وجعله عيداً لنا ولموالينا وشيعتنا؟)[٤] وكما يظهر بأن الإشارة صريحة من الإمام الصادق عن هذا العيد والاحتفال به، وهناك علامات يمكن أن نستفيدها من هذا الكلام:

١- الدلالة على أن الأئمة (عليهم السلام) أنفسهم يحتفلون بهذا العيد، وهذا هو دليل قوله (ع) (عيداً لنا).

---

(١) محمد الريشهري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (ع) في الكتاب والسنة والتاريخ ٢/٣٤٠.
(٢) ص٢٢٢. وينظر الشيخ الأميني، الغدير ١/٢٨٩، الشيخ فارس الحسون، المجازر والتعصبات الطائفية في عهد الشيخ المفيد ص ٤٢.
(٣) محمد الريشهري، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (ع) في الكتاب والسنة والتاريخ ٢/٣٤٠.
(٤) مركز المصطفى، آيات الغدير ص١٨٤. وينظر المجلسي، في بحار الأنوار ٩٥/٣٠٠.

٢- الدلالة على شمول جميع الموالين والشيعة في مراسيم الاحتفال، وهذا دليل قوله (عيداً.. لموالينا وشيعتنا).

٣- الدلالة على الاستمرارية في المراسيم الاحتفالية وما يدل على ذلك قوله (عليه السلام) (عيداً... لشيعتنا) والمعروف أن شيعة أهل البيت (ع) لم يكونوا في زمان الأئمة فقط وإنما إلى يومنا هذا.

وغير ذلك مما روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، والإمام الصادق (عليه السلام) المتوفى سنة ١٤٨هـ قد علم أصحابه بذلك كله وأخبرهم بما جرت عليه سنن الأنبياء من اتخاذ يوم نصبوا فيه خلفاءهم عيداً[١]. وكيف كان الإمام الهادي (ع) يزور مرقد الإمام أمير المؤمنين (ع): إذ زاره في السنة الأولى من تشريفه إلى سر من رأى وقد صادفت زيارته يوم عيد الغدير[٢]. وبالتأكيد فإن الزيارة لم تكن من باب المصادفة وإنما من باب تأدية الشعيرة بزيارة الإمام الاحتفالية في يوم الغدير.

وقد اتخذت المراسيم الاحتفالية أشكال شتى تدل هي الأخرى على أصالة الاحتفال سيما وأن من هذه المراسيم ما يتعلق بأحكام فقهية استحبابية، وجوانب أخلاقية وغير ذلك، ويمكننا أن نحدّد هذه المراسيم بالنقاط الآتية:

١- التهاني والتبريك ما بين المسلمين والمؤمنين كما فعل عمر عندما هنئ الإمام (عليه السلام) يوم الحادثة فضلاً عن تهنئة بقية المسلمين له (عليه السلام) وفيما بينهم على مر الزمن[٣]. وقد رأى العلماء استحباب أن يلقى الرجل أخاه أو صديقه فيأخذه بيده ويصافحه في عيد الغدير[٤].

٢- الدعاء بدعوات خاصة ومنها: (اللهم بنورك اهتديت، وبفضلك استغنيت، وقلت وقولك الحق) ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ـ وقلت: "ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم"[٥] وقلت: "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعاني"[٦] اللهم فإني أسألك وأشهدك وأشهد ملائكتك أنك ربي...)[٧] ومن هذه الأدعية (اللهم إني أسألك بحق محمد نبيك وعلي وليك والشأن والقدر الذي خصصتهما به دون خلقك، أن تصلي على محمد وعلي وأن

---

(١) الشيخ فارس الحسون، المجازر والتعصبات الطائفية في عهد الشيخ المفيد ص ٤٢.

(٢) مركز المصطفى، من أحاديث الشيعة والسنة صفحة شريف القرشي، حياة الإمام الهادي ص ٢٥٠.

(٣) أبو المجد الحلبي، إشارة السبق ص ٥٣.

(٤) العلامة الحلي، تذكرة الفقهاء ٥٧/٢.

(٥) سورة الشعراء/٧٧.

(٦) سورة البقرة/١٨٦.

(٧) المجلسي، بحار الأنوار ٣١٣/٩٥.

تبدأ بهما في كل خير عاجل، اللهم صلِّ على محمد وآل محمد الأئمة القادة، والدعاة السادة، والنجوم الزاهرة، والأعلام الباهرة، وساسة العباد، وأركان البلاد...)[١]. وقد عد يوم الغدير من أيام استجابة الدعاء[٢].

٣- إظهار الفرح والسرور[٣].

٤- الصلاة المستحبة الخاصة بهذا اليوم[٤].

٥- الغسل والذي يستحب الإتيان به قبل الظهر من يوم الغدير[٥].

٦- الصيام إذ يستحب في هذا اليوم[٦].

٧- التقرب إلى الله في هذا اليوم بالبر وصلة الرحم وصلة الإخوان فإن الأنبياء كانوا إذا أقاموا أوصياءهم فعلوا ذلك وأمروا به[٧].

٨- إقامة المهرجانات الأدبية التي تتلى فيها آيات الشعر وروائع الكلمات[٨].

٩- زيارة مراقد الأئمة عليهم السلام ولا سيما مرقد الإمام علي (عليه السلام)[٩].

١٠- كان الاحتفال بعيد الغدير يتم في صدر الدولة الفاطمية بطريقة مبسطة فقد ذكر في حوادث سنة ٤١٥ إن الناس جروا على رسومهم في يوم عيد الغدير وتزيوا بأفخر زيهم وطلع المنشدون إلى القصر يدعون وينشدون على رسومهم ولم يجر منهم شيء من سب السلف بمصر[١٠].

النوع الآخر من الأدلة هو ما يمكن أن نطلق عليه الأدلة الواقعية والعقلية، إذ أن المتتبع لموضوع المراسيم يجد أن ما قيل عن نسبة بداية الاحتفال للبويهين يصطدم بأدلة واقعية تتعلق بمسألة جغرافية الاحتفالات فحتى إذا سلمنا بأن البويهين هم أصحاب الاحتفال فإن الدلائل تشير إلى أن هناك احتفالات في مناطق لا تتعلق بالبويهين ولا تحسب عليهم، فما دخل البويهيين في احتفالات مصر واليمن وبلاد الشام كما يقول حسن الأمين[١١].

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار ٣٢٠/٩٥.

(٢) مركز الرسالة، الدعاء حقيقته، آدابه، آثاره ص ٦٣.

(٣) الشيخ محمد علي الأنصاري، الموسوعة الفقهية الميسرة ١٠٧/٤.

(٤) علي أصغر مروارید، الينابيع الفقهية ٤٠٠/٣.

(٥) الشيخ المنتظري، الأحكام الشرعية ص ١١٩.

(٦) الشيخ المنتظري، الأحكام الشرعية ص ٣٠٧، الشيخ محمد تقي بهجت، توضيح المسائل ص ١٣٥.

(٧) الشيخ هادي النجفي، موسوعة أحاديث أهل البيت (ع) ٣٩/٨.

(٨) الشيخ باقر شريف القرشي، حياة الإمام الرضا (ع) ٣٤٥/١، مركز المصطفى، من احاديث الشيعة والسنة صفحة شريف القرشي، حياة الإمام الهادي ص ٢٥٠.

(٩) الشيخ باقر شريف القرشي، حياة الإمام الرضا (ع)١٦/٢.

(١٠) لجنة، صفحة نزهة المقلتين لابن الطوير ١٨٦/١.

(١١) مستدركات أعيان الشيعة ٣٦٤/٢.

أي أن هذه المناطق لا تقع ضمن النفوذ البويهي ومع ذلك كانت احتفالاتها مستمرة وبمراسيم مختلفة مما يؤكد على أن القائلين بأن الاحتفال هو بويهي في أصله، كانوا ينطلقون من منطلق تعصبي بحت سيما وأنهم يمثلون اتجاه معاكس من هذه الناحية ونقصد الناحية المذهبية، فقد كان أغلب العداء للبويهين ينسجم مع طبيعة التعصب المذهبي وهو الأمر الذي لم نلاحظه بنفس القوة في التعامل مع السلاجقة على الرغم من أنهم قوة أجنبية أيضاً.

وليس البويهيون وحدهم هم الذين يبكون على أمواتهم وينتحبون عليهم، ليكونوا مثالاً للباكين المنتحبين، فكل الناس تبكي على أمواتها وتنتحب عليهم. وأما عن عيد غدير خم وأن البويهيين اخترعوه وجعلوه عيداً شعبياً شبيهاً بعيد الربيع، فهو أيضاً داخل في باب الأوهام، فعيد غدير خم الذي يطلق عليه اسم عيد الغدير كان يحتفل به قبل البويهيين[١].

ولم تقتصر هذه الاحتفالات الواسعة على مناطق نفوذ البويهيين، ففي مصر الفاطمية كان يوم الغدير من الأيام المشهودة في تاريخها، ولا يزال عيد الغدير في اليمن العيد الشعبي الأول. وكذلك في بلاد الشام فأبو العلاء المعري نفسه كان يحتفل بعيد الغدير مع المحتفلين به في بلاد الشام فهو القائل:

لعمرك ما أسر بيوم فطر ولا أضحى ولا بغدير خم[٢]

وهذا الأمر يفصح عن جملة نتائج:

١- اتساع الدائرة الجغرافية لاحتفالات الغدير بل وأن هذه الاحتفالات ربما عكست طبيعة كل مجتمع على حده من حيث الثقافات المكونة له، ومن حيث مدى تمسكه بالنفس الإسلامي.

٢- اتساع رقعة الموالين والمتشيعين لأهل البيت (عليهم السلام) على الرغم من كل الإجراءات التي كانت تمارسها السلطات المتعاقبة لمنع انتشار مذهب التشيع، ومحاولة طمس مسألة الاحتفالات والمراسيم الغديرية.

٣- شمولية مصدرية المعلومات في قضية الاحتفال فتارة من مصدر تاريخي وتارة أخرى من كتاب فقهي أو كتاب حديث وتارة ثالثة من الأشعار والأدب بشكل عام.

٤- شمول فئات المجتمع المختلفة في أداء المراسيم إذ لم يقتصر الأمر على فئة دون أخرى من علماء وأدباء وعامة وغير ذلك.

---

(١) حسن الأمين، مستدركات أعيان الشيعة ٢/٣٦٤.

(٢) الأمين، مستدركات أعيان الشيعة ٢/٣٦٤.

أيضاً هناك التحليل الواقعي للوضع أيام البويهين وهو ما يتخذ دليلاً مهماً للرد في هذه المسألة، فموضوع الاحتفال زمن البويهين ما هو إلاّ صورة عاكسة لمرحلة جديدة تختلف عن المراحل السابقة من حيث فتح باب الحريات، وعلى ما يبدو أن الاعتقاد بأن احتفالات الغدير بدأت في الزمن البويهي يعود لجملة أسباب أبرزها مجال الحريات الذي كفلته السلطة لكل الفئات ومنها الشيعة ومن ثم فإن الكبت الذي كان سابقاً قبل البويهين لا يعني بأي حال من الأحوال عدم وجود العيد والاحتفال وإنما كان على نطاق ضيق جداً، لم يظهر على السطح بصورة معلنة لان الاحتفال بهكذا يوم ممنوع أكيداً سيما مع الاختلاف في التوجه بين المحتفلين وبين السلطة، ثم أن الاحتفال بتنصيب الإمام (عليه السلام) يعني أحقيته بالخلافة وصدق دعوى الأئمة (عليهم السلام) مما يشكل تضاد مع السلطة التي يفترض أن تكون مغتصبة للحكم بحسب هذا السياق، فما أن فتح البويهيون الباب على مصراعيه للحريات حتى ظهرت الاحتفالات على نطاق واسع، فاعتقد هؤلاء بأن الأمر يعني استحداث للعيد، ولكن هذا لا يعني أنهم لم يعوا هذا الأمر وإنما العملية كانت بتأثير السلطة نفسها.

ويؤيد طرحنا هذا ما أشار إليه حسن الأمين من أن ما فعله البويهيون هنا هو عين ما فعلوه في احتفالات عاشوراء وهو أنهم أطلقوا الحرية للناس فخرجوا به من النطاق الضيق إلى النطاق الواسع[1].

وربما نستطيع أن نؤكد هذا الرأي بجملة أمور:

- إن البويهين كفلوا الحريات لكل الفئات ولم يقتصروا على فئة دون أخرى مما يؤكد الرأي قيد الدراسة، ولعل الأخبار أشارت إلى هذا الأمر في أكثر من مناسبة[2].
- إن البويهين كانوا محسوبين في درجة من درجاتهم على الشيعة، والمعروف عن الشيعة أنهم يسمحون بأداء كل فئة لطقوسها ومراسيمها.
- إن دراسة واقعنا اليوم يثبت صحة الرأي القائل بظهور المراسيم بشكلها الرسمي العلني في زمن من الأزمان نتيجة للحرية وليس نتيجة للاستحداث، فاحتفالات الغدير في العراق زمن حكم الطاغية المباد لم تظهر بصورة علنية موسعة، ليس لعدم وجودها وإنما بسبب الخوف من السلطة آنذاك فكانت الاحتفالات على نطاق ضيق، ولكن بعد سقوط الطاغية نلاحظ أن الاحتفالات والمؤتمرات بدأت تأخذ أبعاداً إعلامية كبيرة بسبب مستوى الحرية المكفول للجميع ومنهم الموالين لأهل البيت (عليهم السلام).

---

(١) مستدركات أعيان الشيعة ٢/٣٦٤.

(٢) ينظر الشيخ الأميني، الغدير ١/٢٨٨.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- أحمد بن حنبل: الإمام ت (٢٤١ هـ).المسند، بيروت د. ت.
- الأمين، حسن، مستدركات أعيان الشيعة ط الثانية ١٤١٨ دار التعارف للمطبوعات - بيروت - ١٩٩٧.
- الشيخ الأميني، الغدير، ط الرابعة دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان، عني بنشره الحاج حسن إيراني صاحب دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان ١٩٧٧.
- الأنصاري، الشيخ محمد علي، الموسوعة الفقهية الميسرة، ط الأولى، قم، ١٤٢٢.
- بهجت، الشيخ محمد تقي، توضيح المسائل، ط الثانية، قم د.ت.
- ابن خلكان: شمس الدين أبو العباس أحمد ت (٦٨١ هـ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ١٩٧٠م.
- الذهبي: أبو عبدالله محمد بن أحمد ت (٧٤٨ هـ). سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، حسين الأسد، ط٩، بيروت ١٤١٣.
- الريشهري، محمد، موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (ع) في الكتاب والسنة والتاريخ، مركز بحوث دار الحديث وبمساعدة: السيد محمد كاظم الطباطبائي، السيد محمود الطباطبائي ط الثانية، قم ١٤٢٥.
- السيوطي، الحافظ جلال الدين ت٩١١هـ.، الدر المنثور، القاهرة د.ت.
- عباس القمي، الشيخ، الكنى والألقاب، تقديم محمد هادي الأميني، مكتبة الصدر - طهران، د. العلامة الحلي ت٧٢٦، تذكرة الفقهاء، منشورات المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، طبعة حجرية، إيران، د.ت.
- القريشي، الشيخ باقر شريف، حياة الإمام الرضا، قم، ١٣٧٢.
- المتقي الهندي: علاء الدين علي المتقي ت (٩٧٥ هـ). كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق الشيخ بكري حياتي، الشيخ صفوة السقا، بيروت ١٤٠٩.
- أبو المجد الحلبي ت ق ٦، إشارة السبق، تحقيق الشيخ إبراهيم بهادري ط١ الأولى، قم ١٤١٤.
- المجلسي، محمد باقر محمد تقي ت ١١١٠هـ - ١٦٩٨م، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٤هـ.
- مركز الرسالة، الدعاء حقيقته، آدابه، آثاره ط الأولى، قم، ١٤١٩.
- المسعودي، علي بن الحسين ت٣٤٥هـ، التنبيه والإشراف، دار صعب، بيروت، د.ت.
- مروارید، علي أصغر، الينابيع الفقهية ط الأولى دار التراث - بيروت - لبنان - ١٩٩٠
- الإمام مسلم: أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ).
- الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، د.ت.
- المقريزي، أحمد بن علي ت٨٤٥هـ، الخطط المقريزية، القاهرة، ١٣٢٤هـ.
- الشيخ المنتظري، الأحكام الشرعية ط١، قم ١٤١٣.
- النجفي، الشيخ هادي موسوعة أحاديث أهل البيت (ع)، ط الأولى دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ٢٠٠٢ م ١٤٢٣هـ.
- النقوي، السيد حامد١٣٠٦، خلاصة عبقات الأنوار، ط الأولى، طهران ١٤٠٤.
- النمازي، البحارالشيخ علي النمازي الشاهرودي، مستدرك سفينة النجاة، تحقيق وتصحيح: الشيخ حسن بن علي النمازي مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة ١٤١٨.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت٧٣٢هـ، نهاية الإرب في فنون الأدب، ، القاهرة، د.ت. ❖

صيانة الحريات
في حكومة الإمام علي (عليه السلام)

نبيل محسن

مقدمة:

لا نعلم حاكماً في التاريخ زهد هذا الزهد كله، حتى رأى في نعله البالية خيراً من الأمارة، وسعى الناس إليه يحملونه إليها حملاً، إلا ما كان من أمر الإمام علي (عليه السلام) وحكومته، أليست الإمارة في ذاتها جزءاً من دنياه التي كان يراها أهون من ورقة في فم جرادة تقضمها؟ وما عسى أن يكون لهذه الورقة من قيمة لو دامت وبقيت؟ فكيف وهي توشك أن تقضم في الفم الشره؟ وهل قصرت بلاغة الإمام في رسم صورتها (الفنية) للتبشيع والتنفير منها حين قال إنها أهون في عينه من عراق خنزير في يد مجذوم؟ وهل سيجد بعد ذلك قيمة لشيء من زادها إلا التقوى؟ ماذا نقول لرجل أعطاه الله تعالى قلباً وعينين يرى بهما الدنيا عارية بحقيقتها لفظاً ومعنىً؟ أبداً، لن يكون لهذا السجين عشق إلا الإنعتاق من أسرها، والتخفف من إصرها، والتوحد بلذيذ مناجاة الله، والشوق إلى لقياه، حتى يكون كما عبّر: أنس بالموت من الطفل بثدي أمه. إنه الإمام الذي زم نفسه بزمامها وألجمها بلجامها، وأقسم أنه سيروضها برياضة التقوى حتى تهش إلى القرص مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً. ولن يشغله هذا الزهد كله - مع ذلك - من أن يجعل حركة حياته حرباً على الظالم، ونصفاً للمظلوم، وأن تكون حرية الإنسان وكرامته أسمى أهداف حكومته.

حكومة الإمام (عليه السلام) وإعلان المبادئ:

وخطب علي في الناس ليعلن مبادئ حكمه، فقال: (أيها الناس، إن لي عليكم حقاً، ولكم عليّ حق. فأما حقكم عليّ فالنصيحة لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كيلا تجهلوا، وتأديبكم كيما تعلموا، وأما حقي عليكم فالوفاء بالبيعة، والنصيحة في المشهد والمغيب، والإجابة حين أدعوكم، والطاعة حين آمركم.

إن المبادئ الأربعة التي أعلنها الإمام من حقوق الناس هي:

النصيحة ـ توفير الفيء (المال) ـ التعليم ـ التربية. تشكل بحق أسس المجتمع الصالح الراشد.

إننا نرى أن هذه المبادئ هي التي تؤسس للحرية الإنسانية، فلا معنى للحرية بغير نصيحة، ولا بحال لها مع الظلم والإفقار، ولا ثمرة لها بغير تعليم وتربية.

ويؤكد في خطبة أخرى واجباته في مقام الإمامة بالقول: (إنه ليس على الإمام إلا ما حمل من أمر ربه، الإبلاغ في الموعظة، والاجتهاد في النصيحة، والإحياء للسنة، وإقامة الحدود على مستحقيها، وإصدار السهمان على أهلها).

وفي تأكيده على أهمية العدالة الإنسانية أقسم أمام الناس: (وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارهاً).

ويلقي بهذه الوصية في آخر يوم من أيام دنياه إلى ولديه الحسن والحسين، قائلاً لهما: كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً.

ولا تعجب من مساحة الحرية التي تمتع بها الناس على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم في حكومة علي (عليه السلام)، فإنها وبكل وضوح وبساطة ثمرة القيود الشرعية التي قيد بها نفسه، ونتاج إخلاصه لمدرسة الإسلام ومعلمها الأول رسول الرحمة المهداة صلوات الله عليه.

مناخ للحريات:

على توفير مناخ الحريات الإنسانية عامة عبر خطبه ووصاياه وكتبه. ومن ذلك قوله في خطاب عام للناس: (لا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا عندي بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي، فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل، فإني لست في نفسي بفوق أن أخطئ).

وفحوى هذا الكلام العربي المبين أن يرتفع الحرج والتكليف والخوف والمداراة في خطاب الرعية للحاكم، الذي يعلن لهم أنه لن يجد شيئاً من قول الحق ثقيلاً، ولا من فعله، ثم يأمرهم بقول ما يرونه حقاً، وتقديم ما يعتقدونه من الشورى عدلاً، ويقرر بهذا اللسان المبين الذي لا يقبل التأويل أنه بحاجة ذلك القول وتلك الشورى، فهو ليس في نفسه بفوق أن يخطئ، ولا يأمن ذلك من فعله، إلا أن يكفي الله ما هو أملك به.

ويعلم رعيته أن لهم عليه مثل ما له عليهم، وأن أعظم الحقوق هذا الحق المتبادل بين الوالي والرعية.

وكتب في وصيته للأشتر: (أشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، أطلق عن الناس عقدة كل حقد، واقطع عنك سبب كل وتر، وتغاب عن كل ما لا يصح لك).

وفي هذا الكتاب للأشتر يأمره أن يجعل لذوي الحاجات مجلساً يكون آية التواضع والرحمة ومنه: (واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك، حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع، فإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول في غيري موطن: (لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع) ثم احتمل الخرق منهم والعي، ونح عنهم الضيق والأنف).

إننا ندرك أن حرية التعبير والتظلم قد تكون متاحة من الناحية النظرية، وكم ادعى الحكام الظلمة عبر التاريخ ويدعون أن لشعوبهم حرية التعبير والتفكير والتظلم والشكوى والنقد، ولكن أنى يكون ذلك؟ وسحائب الخوف تظلل الرؤوس، وذهب الحاكم تميل إليه النفوس، فتخرس الألسنة رغباً أو رهباً.

أما علي فلم يكن عنده ترهيب ولا ترغيب للناس من أجل موالاته ونصرته وطاعته، فكم سيبقى معه ممن أخلص النصر، وانتظر من الله الأجر؟

وأورد ابن أبي الحديد في شرح النهج أن أمير المؤمنين كان له بيت مساه بيت القصص، يلقي الناس فيه رقاعهم، ولعله مرادف لما يعرف اليوم بصندوق الشكاوى.

صور من الحريات في خلافة أمير المؤمنين (عليه السلام):

١ ـ حرية البيعة:

ما أكره الإمام أحداً على بيعته، بل لو جاز لقلنا إن الناس أكرهته على الإمارة، كما وصف الحال بقوله: (بسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها.... العليل وحسرت إليها الكعاب).

وأكد هذه الحقيقة في رسالته إلى أهل الكوفة: (بايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين بل طائعين مخيرين).

ثم نكث البيعة من نكث، فكان الإمام يغض الطرف عنهم ولم يشهر سيفاً ولم يبرز عنفا. حتى ألبوا عليه، وجيّشوا الجيوش، ورموه بما لم تجن يده ولا لسانه، في أسوأ استثمار لأجواء الحرية التي نعم بها أعداؤه ومخالفوه، كما نعم بها أقرب الناس إليه.

ولم يحاول الإمام أن يحد من حرية طلحة والزبير بعد أن بدت أمارات الغدر والنكث، حتى تعللا بالعمرة، وذهبا بكل حرية ليعودا قائدين لجيش يحاربه، ووصف ذلك بقوله: (وأبرزا حبيس رسول الله في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكره).

وأخذ مروان بن الحكم أسيراً يوم الجمل، وكان قد بايع الإمام ثم نكث مع الناكثين وحاربه، فاستشفع الحسن والحسين، فكلماه فيه فخلى سبيله، ولم تستبد به

شهوة الانتقام من رجل كان رأس الفتنة، وبطانة السوء في حكم الخليفة عثمان، ولم يقبل بيعته بعد النكث، وقال لولديه: (لا حاجة لي في بيعته، إنها كف يهودية).

وخرج عليه خوارج من جيشه، وكفروه، ودعوا إلى قتله، وكانوا يروحون ويجيئون بين أصحابه الموالين، فلم يكن للإمام لغة معهم إلا الموعظة والنصيحة، ورجعت طائفة منهم إلى الجادة كما أحب ورجا.

وقام معاوية في الشام ليشعل حرباً ضروساً على الخلافة الشرعية، وليقتل فيها مئات من أصحاب رسول الله (ص)، ومنهم ثلاثة وستون شهيداً بسيوف معاوية من أصحاب بيعة الرضوان وحدها، كما يذكر أرباب السير.

وكانت سياسة الإمام العامة ما عبر عنه في أحد كتبه إلى جنده بشأن القتال: (لا تبدؤوهم حتى يبدؤوكم).

وجاء كذلك في كتابه إلى معقل بن قيس حين أنفذه إلى الشام: (لا تقاتلن إلا من قاتلك، ولا تدن من القوم دنو من يريد أن ينشب الحرب، ولا تباعد عنهم تباعد من يهاب البأس، حتى يأتيك أمري، ولا يحملنكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم الإعذار إليهم).

بهذا الشعار هو الذي جعل حرب الإمام مع أهل القبلة دفاعية مئة بالمئة، ويعني أن الذي كان يشعل فتيل الحرب في كل مرة هم خصوم علي، ولولا ذلك لم يكن في التاريخ شيء اسمه وقعة الجمل ولا النهروان ولا صفين.

وقد ذكر أنه قلب الأمر من جميع وجوهه، حتى منعه ذلك من النوم، فما وجد خياراً إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وسبب له هذا التريث أن اتهمه بعض أصحابه بكراهية القتال، أو الشك في مشروعية القتال نفسه، حتى خطب فيه قائلاً: (أما قولكم: أكل ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أبالي، أدخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي، وأما قولكم شكاً في أهل الشام! فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشو إلى ضوئي، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها).

هذا الحب العظيم هو الذي غلف سلم الإمام وحربه، وهو الذي جعل الرغبة في إنقاذ الغريق الآثم أكبر من شهوة قتله وإسلامه إلى عمله.

٢ - حرية القتال:

ولم يكن عند علي تجنيد إجباري للحرب، ولم يفعل إلا ما فعله رسول الله من تحريض المؤمنين على القتال، والترغيب بأجر الآخرة، والزهادة فيمن زهد في هذه الفريضة.

وخطبته في فضل الجهاد التي يقول في أولها: (إن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه) أشهر من أن تعرف.

وكم شكا من تقاعس أصحابه، في حرب مصيرية بين نهج الإسلام ونهج الجاهلية، بين نظام الشورى وولاية العهد، بين مرجعية الإسلام ومرجعية كسرى وقيصر.

ومع كل هذا الخطر لهذه المواجهة، إلا أن الإمام لم يسلك سبيل الإكراه، وكان بنص كلامه يداري أصحابه، ويغضي على الأذى، ويصبر على أمر من طعم العلقم، وألم للقلب من حز الشفار، وهذا (نهج البلاغة) ما تزال مواجعه واجفة، وجراحه نازفة، يعج إلى الله من تفرق عن الحق، أو اجتماع على الباطل.

وكيف لا تسهر عيناه ويعصر الألم قلبه وهو يعلم علم اليقين أن سنن الله لا تتخلف في خلقه، وأن التخاذل عن الحق لا يعقب إلا الهزيمة، لنستمع إليه يقول لأصحابه وهو يقرر هذه الحقيقة المحزنة التي يماري فيها بعض جهلة المسلمين إلى الآن: (أما والذي نفسي بيد ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقي).

وقوله: (إني والله لأظن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفركم عن حقكم، وبمعصيتكم إمامكم في الحق، وطاعتهم إمامهم في الباطل، وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم، وخيانتكم، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم).

وما لجفنه لا يؤرق وهذه حاله مع صحبه: (منيت بمن لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت، أقوم فيكم مستصرخاً، وأناديكم متغوثاً، فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً. حتى تكشف الأمور عن عواقب المساءة، فما يدرك بكم ثار، ولا يبلغ بكم مرام، دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم جرجرة الجمل الأسر..).

وكان من عواقب هذه المساءة أن يغير جند معاوية على أطراف البلاد، ويحتلوا بعض الأمصار، ويغتالوا قادة وولاة الإمام، ومنهم محمد بن أبي بكر، حيث صور الموقف في رسالته إلى ابن عباس قائلاً: (وقد كنت حثثت الناس على لحاقه، وأمرتهم بغياثه قبل الوقعة، ودعوتهم سراً وجهراً وعوداً وبدءاً، فمنهم الأتي كارهاً، ومنهم المعتل كاذباً، ومنهم القاعد خاذلاً...).

وكانت الأخبار ترده من أمرائه بتكاسل الناس وتهربهم من الجهاد، فلا يزيد على أن يقول كما جاء في أحد كتبه: (استغن بمن انقاد معك عمن تقاعس عنك، فإن المتكاره مغيبه خير من مشهده، وقعوده أغنى من نهوضه).

وهو مشتق من أدب لقرآن وتوجيهه، حيث قال حكاية عن المنافقين: (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً).

ومن قوله في تعليم رسوله: (فإن رجعك الله إلى طائفة منهم استأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين).

إنها حقاً رسالة السماء التي تجعل المنع من المشاركة في القتال عقوبة تجعل صاحبها مهان الجانب، هملاً ملقى كأنه من سقط المتاع.

ويبدو أن جهود الإمام كانت تفلح في استنهاض الهمم لدى أصحابه أحياناً، ولم يكن الموقف القتالي على سوية واحدة، وقد عبر الإمام عن رضاه في بعض المواقف عن تصديهم لجند معاوية، حيث يقول في كلام لهم: (ولقد شفى وحاوح صدري أن رأيتكم بأخرة تحوزونهم كما حازوكم، وتزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم، حساً بالنصال، وشحراً بالرماح، تركب أولاهم أخراهم كالإبل الهيم المطرود).

وهذا ما ألجأ أهل الشام إلى خدعة التحكيم، بعدما مالت كفة النصر إلى جيش علي، كان الموقف حاسماً، فقد كان في أصحاب الإمام من يريد المسالمة والراحة، فاضطروه إلى وقف القتال، وأقر أمر الحكومة مكرهاً، حتى وصف ذلك بقوله: (كنت أمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً، وكنت أمس ناهياً فأصبحت اليوم منهياً، وقد أحببتم البقاء، وليس لي أن أحملكم على ما تكرهون).

لقد أمروه بالتحكيم، ثم نهوه عنه، حيث تبينت المكيدة، وعرفوا خطأهم، ولم يكتفوا بذلك بل أرادوا منه أن يشهد على نفسه بالكفر، ثم يعلن توبته، بل إسلامه من جديد!!

٣ - حرية الولاء والبراء:

حين انشق الخوارج عن جيش الإمام في وقت حاسم كان يمكن أن يتغير معه مجرى التاريخ الإسلامي كله، ووجهوا سيوفهم إلى الجبهة الشرعية، حققوا لمعاوية أعظم ما تمنى في نومه فرآه يقظة، مقتل الإمام علي (عليه السلام) وانفراط عقد جيشه.

كان الخوارج يقولون في علي ما شاؤوا، وهم ينعمون بالحرية، وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم، إنهم شيعته السابقون، وهم وإن كفروه في التحكيم، يعلمون حقاً ما تنطوي عليه نفسه من خلق عظيم، وقد عاد منهم من عاد إلى طاعته وولايته بعدما بصرهم، وأزال الشبهة من نفوسهم.

وجلس خارجي بين أصحاب علي يستمع معهم إلى بلاغة خطابه، ولم يلبث هذا الخارجي أن قال بالفم الملآن يعبر عن إعجابه بطريقته: قاتله الله كافراً ما أفقهه!

ويثب أصحاب الإمام ليقتلوه، إلا أنه يمنعهم ويقول: رويداً إنما هو سب بسب، أو عفو عن ذنب.

وبلغه أن ابن عباس عامله على البصرة يسيء معاملة بني تميم الذين وقفوا ضده في حرب الجمل، وربما حسب ابن عباس أن الغلظة على هؤلاء تشفي غيظ الإمام وغيظه، إلى أن الإمام أرسل برسالة عتاب ولوم لعامله قال فيها: (وقد بلغني تنمرك لبني تميم، وغلظتك عليهم، وإن بني تميم لم يغب لهم نجم إلا طلع لهم آخر، وإنهم لم يسبقوا بوغم في جاهلية ولا إسلام، وإن لهم بناً رحماً ماسة، وقرابة خاصة، نحن مآجورون على صلتها، ومأزورون على قطيعتها، فاربع أبا العباس رحمك الله فيما جرى على لسانك ويدك من خير وشر! فإنا شريكان في ذلك، وكن عند صالح ظني بك).

يحق لنا أن نعجب ولكنها أخلاق رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ دخل مكة فاتحاً، وقال لأهلها: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وها هو تلميذه النجيب يوصي بأعدائه، ويذكر لهم فضائل في هذا المقام الذي تطمس الخصوم بعضهم فضائل بعض، ولا تطفو على السطح إلا سيئات الآخر، ولا ينسى الإمام تذكير ابن عباس بأن لبني تميم رحماً وقرابة، وأن عداوتهم له لا تسقط أجر الصلة ولا تمحو إثم القطيعة، فأي أخلاق!

وليت الحكام الذين ابتليت بهم الأمة تأسوا بشيء من هذه السيرة، فإن الحاكم الذي يوطد ملكه منهم كن ينصب همه لاستئصال أعداء الأمس، ومحوهم بالكلية من خارطة الدولة، ومن ناصرهم أو عطفته عليهم عاطفة.

وكان رجال يتركون ولاء الإمام ويفروه إلى معاوية بالشام لأسباب ذكرها الإمام في كتابه إلى سهل بن حنيف عامله على المدينة، حيث قال له: (بلغني أن رجالاً ممن قبلك يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم، فكفى لهم غياً، ولك منهم شافياً، فرارهم من الهدى والحق، وإيضاعهم إلى العمى والجهل، وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون إليها، وقد عرفوا العدل ورأوه، وسمعوه ووعوه، وعرفوا أن الناس عندنا في الحق أسوة، فهربوا إلى الأثرة، فبعداً لهم وسحقاً!! إنهم والله لم يفروا من جور، ولم يلحقوا بعدل).

ولم يقل أحد من المتسللين إلى معاوية أنه فر من الظلم ولحق بالعدل، ولكن الحق ثقيل عند الناس في حكومة الإمام، فمع فضاء الحرية الواسع، لا تسامح في حدود الله، ولا تنازل عن حقوق الناس، ولا تصرف في بيت المال إلا من جهة الاستحقاق الشرعي، والعدالة الاجتماعية، وقد عوتب الإمام على التسوية في العطاء، فقال: (لو كان المال لي لسويت بينهم، فكيف؟ وإنما المال مال الله).

وعند أكثر هؤلاء كان ولاء لعاجل الحطام، ونفساً ضعفت عن تحمل ضريبة الحق، وجاءه الحارث بن حوط ليعلن رأيه المعارض، قائلاً: أتراني أظن أن أصحاب الجمل كانوا على

ضلالة؟ ولم يكن رد الإمام بذكر فضائله ومنزلته ووجوب طاعته، بل كان فحواه قاعدة شرعية عقلية عامة: اعرف الحق تعرف أهله.

لكن الحارث لا يريد أن يتعب نفسه في معرفة الحق أولاً، لأن ذلك يتطلب جهداً عقلياً في دراسة بدء الحدث وتطوره، وعرضه من ثم على أحكام القرآن، وحلاله وحرامه، ولو فعل ذلك لسمع الله تعالى يقول: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾، ولا يقول: (اعتزلوا الطائفتين، كما اختار أن يفعل، ولم يحل الإمام بينه وبين اختياره.

٤ ـ حرية في أداء الزكاة:

قد يتمكن حاكم من تحصيل المال قهراً وعنفاً من بعض رعيته، ولكنها لن تكون زكاة في جوهرها وأجرها، إذ لا أجر في الإكراه، كما تفقد بعدها الإنساني في تأليف قلوب الأغنياء والفقراء بعضها ببعض، وتصبح علاقة الحاكم بالمحكوم غلاً وحقداً، هذا إذا تمكن الجباة من تتبع حركة المال ونموه عند صاحبه، وخاصة مع اتساع رقعة الدولة، وتحول المال إلى صور مختلفة من النقد، وتعدد مجالات الصرف، واختلاف المذاهب في بعض موارد الزكاة أو الخمس.

إن الإكراه لا يؤسس تربية إسلامية في المجتمع، وهو قبل كل شيء مخالف لقاعة قرآنية عامة، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ لا يملك الحاكم أن يضع لها شيئاً من الاستثناءات، وكيف واتساقاً مع هذه القواعد، أقام الإمام نظام الزكاة في حكومته، وأبلغه إلى موظفيه على الصدقات، ولا مجال لإيراد نصوص وصاياه في ذلك لطولها، ولكن البعض يشي بالكل، جاء في إحداها: (ولا تروعن مسلماً ولا تجتازن عليه كارهاً)، ثم أوصاه أن يلقي صاحب المال بما وسعه من اللطف والتهذيب، وأن يسأله الزكاة بهذا الأسلوب: (عباد الله، أرسلني إليكم ولي الله وخليفته لآخذ منكم حق الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم من حق، فتؤدوه إلى وليه، فإن قال قائل: لا، فلا تراجعه، وإن أنعم لك منعم، فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل، فلا تدخلها إلا بإذنه).

هكذا وبوضوح وحسم، إذا قال صاحب المال: لا، فلا مناقشة مع رده، ولا مراجعة لقراره، ولا تحقيق في صدق قوله، ولا تتبع لحركة ماله وما انطوت عليه خزائنه، صاحب المال هو المرجع في وجوب الزكاة أو عدمه، وإن أدى الزكاة طائعاً فهو المنعم وهو المحسن، ولا يدخل على شيء من ملكه إلا بإذنه.

ومن كتاب له إلى عماله على الخراج: (ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم، ولا تمسن مال أحد من الناس مصل ولا معاهد، إلا أن تجدوا فرساً أو سلاحاً يعدي به على أهل الإسلام).

وهذا هو الحد الذي تقف عنده الحريات في حكومته: أن تلامس هذه الحريات حقوق الناس وتلحق بهم بالظلم.

٥ ـ الحرية الفكرية:

لا يدخل في حيز التصور ولا التصديق أن يكون هذا الرجل الرباني الذي طالما تعرض لمن حضره من المسلمين يقوله الشهير: سلوني، ممن يحجر على الفكر، ويضيق ذرعاً بالسؤال، رغم أن من أشعلوا الحرب ضده لم يمكنوه من أن تثني له الوسادة.

لم يكن حرج على من شاء أن يسأل عما يشاء، فقد سأله ذعلب اليماني: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال له: أفأعبد ما لا أرى؟ قال: كيف تراه؟ قال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان..... الخ الكلام.

وكان في أصحابه من يدعي علم النجوم فنصح الإمام ألا يسير في وقت مسيره إلى أعدائه، وخوفه من الفشل، فاكتفى الإمام بوعظه وإرشاده ولم ينكل به. بل كشف أمام بقية الأصحاب عن عدم فائدة هذا العلم، وأن المنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر... ولم يأخذه بعقوبة، ولم يخرجه من أصحابه.

وقام من أصحابه رجل آخر، فسأل مشككاً بحكمة قراره فيما يتعلق بالحكومة: نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها، فلم ندر أي الأمرين أرشد؟ فبين (عليه السلام) حقيقة الموقف، وأنه ما أراد الحكومة ولا أمر بها، ولكنه أجاب رغبة أصحابه مكرهاً مع علمه بالمكيدة قبل تبينها لهم.

وظن بعض أصحابه به كراهة للقتال، أو الشك فيه حين استبطؤوه، فأصحر لهم بالعذر، وشرح الأمر.

وروي ابن عساكر: لما قدم علي من صفين قام إليه شيخ من أصحابه فقال يا أمير المؤمنين أخبرني عن مسيرنا إلى أهل الشام بقضاء الله وقدر؟ فقال علي: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما قطعنا وادياً ولا علوناً تلعة إلا بقضاء وقدر، فقال الشيخ عند الله احتسب عنائي. فقال علي: ولم؟ بل عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم مصعدون وفي منحدركم وأنتم منحدرون، وما كنتم في شيء من أموركم مكرهين، ولا إليها مضطرين.

فقال الشيخ: وقدراً حاتماً، لو كان ذلك لسقط الوعد والوعيد، ولبطل الثواب والعقاب. ولا أتت لأئمة من الله لمذنب، ولا محمدة من الله لمحسن، ولا كان المحسن أولى

بثواب الإحسان من المذنب، ذلك مقال إخوان عبدة الأوثان وجنود الشيطان.. ثم قرأ علي: (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه)، فقال الشيخ تلقاء وجهه ثم قال:

أنت الإمام الذي نرجو بطاعته ... يوم النشور من الرحمن رضوانا

أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً ... جزاك ربك عنا فيه إحسانا

لقد زالت الشبهة من نفسه بالحجة، لا بالتهديد والتكفير والنطع والسيف، كما أصبحت لغة الحوار بعد علي.

وقال له بعض اليهود: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه، فأجابه: (إنما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنكم ما جفت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيكم اجعل لا إلهاً كما لهم آلهة، فقال: إنكم قوم تجهلون).

والخلاصة في ذلك أن الإمام قد نصب نفسه لتعليم الناس لا لزجرهم عن العلم، لأنه لا حرية بلا علم، ولا علم بلا حرية.

٦ - لا إكراه في العمل:

وبالرغم من تعظيم الإمام للعمل، وعلمه بقيمته في الدين والدنيا، وكونه قدوة في الكد والكدح، وقد استخرج بيديه عيوناً في المدينة وينبع وسويعة، وأحيا بها مواتاً كثيرة، وأخرجها من ملكه، وزرع بيديه آلافاً من فسائل النخل، وتصدق بدار له بالمدينة، وبالضيعتين المعروفتين بعين أبي نيزر والبغيبغة على فقراء أهل المدينة وابن السبيل بعدما استخرج ماءهما بكد يده، إلا أنه لم يكره أحداً في حكومته على أداء عمل...

ومن شواهد ذلك ما رواه البلاذري في أنساب الأشراف أن قوماً من الكوفة جاؤوه يسألونه أن يأمر عامله على الكوفة ليكلف الناس بحفر نهر يعود خيره على البلاد، فكتب الإمام إليه: (أما بعد فإن قوماً من أهل عملك أتوني فذكروا أن لهم نهراً قد عفا ودرس، وأنهم إن حفروه واستخرجوه عمرت بلادهم، وقووا على خراجهم، وزاد في فيء المسلمين قبلهم، وسألوني في الكتاب إليك لتأخذهم بعمله وتجمعهم لحفره والإنفاق عليه، ولست أرى أن أجبر أحداً على عمل يكرهه، فادعهم إليك فإن كان الأمر في النهر على ما وصفوا فمن أحب أن يعمل فمره بالعمل، والنهر لمن عمله دون كرهه، ولأن يعمروا ويقووا أحب إلي من أن يضعفوا والسلام).

خاتمة: شهادة علي وأزمة الحريات:

وطعنت ضربة ابن ملجم قلب الحرية في الصميم، وثارت أعاصير طغيان الحاكم لتكنس ما بقي من قيم السماحة والرحمة، وانفض عشاق الحرية من حوله، فردهم شهداء أو سجناء، واستمال من أراد الدنيا وهي في يده.

وكان أعظم شهداء الحرية سبط رسول الله الحسين الذي خيروه بين السلة وبين الذلة، بين البيعة وبين القتل.

وطلع حاكم ليقول لشعبه المسلم: لا يأمرني أحد بتقوى الله إلا ضربت عنقه، وكانت الناس تساق قهراً لحرب أعداء الحاكم، الذي تشكلت قداسته كما أحب، فأصبح له ذات ملكية وجلالة وسمو، وجمع في شخصه كل أنواع السلطات، وصارت مهمة الفقيه في الأعم الأغلب تطويع الفقه لمصلحة الحاكم، وشرعنة اغتصاب السلطة، والمؤاخاة بين كسرى وقيصر وبين أمير المؤمنين.

وتراكمت الظلمات في المجتمع المسلم سريعاً حتى سمعنا أنس بن مالك آخر الصحابة موتاً يقول لمن حوله: ما أعرف شيئاً مما كان على عهد النبي (صلى الله عليه وآله) قيل: الصلاة، قال: أليس ضيعتم ما ضيعتم فيها؟

وتكاثرت القيود على الفكر والقول والعمل، حتى كان الرجل ينام مسلماً، ويصبح كافراً أو زنديقاً أو مبتدعاً ولا يعلم من أين جاءت التلوث؟

لقد أحصيت في دراسة أعددتها عن الزندقة في العصر العباسي أكثر من ثمان وثلاثين تهمة للزندقة منها: القول بخلق القرآن ـ التوقف في القول بخلق القرآن ـ علم الكلام ـ إنكار رؤية الله في الآخرة ـ تقسيم الصلاة إلى فرض وسنة ـ التقية ـ تتبع الرخص...الخ.

وكثيرون هؤلاء الذين قتلوا بتهم مزاجية كتهمة الزندقة ومنهم لسان الدين بن الخطيب أشهر علماء الأندلس، والملاحظ أن الفقهاء والحكام تمالؤوا على القتل بهذه التهم، وغالباً كان القتل ينفذ على مذهب الإمام مالك لأنه لا يقبل توبة الزنديق.

وتمددت فتاوى القتل حتى رأينا فقيهاً يفتي بقتل من ادعى أن الجهر بالنية في الصلاة واجبة، أو من أثبت الرسل والملائكة وسائط بينه وبين الله، أو من زعم أن الله لا يرى في الآخرة... إلا كثير من أمثالها.

وكان من الطبيعي أن تطال حملات قمع الحرية أهل الكتاب في مملكة الحكام، فقد أمر أحد (أمراء المؤمنين) أن يحمل أهل الذمة في رقابهم كرات خشبية كبيرة، أمر بتخريب كنائسهم المحدثة، وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب.. الخ.

وغادر إمام الحرية الدنيا، وأمامه ريحانتان تسمعان قولته: (كونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً). ❖

نظرية السجن الإصلاحي في فكر الإمام علي بن أبي طالب (ع)

علي سعد عمران
جامعة كربلاء - كلية القانون

إن فكرة السجن كمؤسسة إصلاحية علاجية تأهيلية لم تتبلور في الفكر القانوني الإنساني المعاصر إلا بعد مخاضٍ طويل، غير أنها وجدت تطبيقاً لها في بدايات الدولة الإسلامية، ولاسيما في فكر الإمام العظيم علي بن أبي طالب (ع) على نحوٍ سبق فيه الأفكار الحديثة بمئات السنين، وعلى ذلك سنتولى عرض فكرة السجن الإصلاحي في الفكر القانوني الإنساني أولاً، وفي الفكر الإسلامي الذي يمثله الإمام (ع) ثانياً.

أولاً: نظرية السجن الإصلاحي في الفكر الإنساني الغربي حتى القرن العشرين:

كما أشرنا سلفاً فإن نظرية السجن الإصلاحي لم تتضح معالمها إلا بعد مراحل تطور عديدة، هذا التطور الذي حدث بعد أن تطورت الأهداف المتوخاة من استحداث السجن بحد ذاته ابتداءً من العصور القديمة وانتهاءً بالعصور الحديثة وكالآتي:

١. هدف السجن في العصور القديمة: ويتمثل بالهدف من العقوبة ذاتها وهو الانتقام من الجاني وتعذيبه.

٢. هدف السجن في العصور الوسطى: وكان الهدف من السجن في هذه الفترة يوافق الأفكار الكنسية حول العقوبة والذي تمثل بتطهير المجرم من الذنوب والخطايا من خلال الاقتصاص التطهيري[١]، فعقوبة السجن لم تكن تستهدف سوى الانتقام والإرهاب بداعي تطهير المجرم لأن هدف العقوبة كان آنذاك هو الردع فقط دون الإصلاح، لذا نجد أن السجون كانت عبارة عن قلاع أو حصون قديمة يودع المجرمون فيها بسراديب مظلمة مكبلين بالسلاسل مع التعذيب وإجبارهم على القيام بأعمال السخرة[٢].

إذن فالسجون في أوروبا كانت مكاناً لتنفيذ العقوبات البدنية فقط فالسجين كان ينتظر وصول "المحاكم المتنقلة" لفرض عقوبة عليه والتي قد تكون بدنية فتنفذ داخل السجن وقد تكون مالية متمثلة بالغرامة، لذا قيل بان السجن عبارة عن (محطات انتظار) لترقب وصول (عربة المحاكمة)[٣].

٣. هدف السجن في العصر الحديث والمعاصر: بعد تطور هدف عقوبة السجن من الانتقام والاقتصاص إلى الإصلاح والتأهيل من خلال تغير النظرة إلى شخص الجاني نفسه بوصفه

غير منضبط أخلاقياً واجتماعياً وانه بحاجة إلى علاج بدأ التحسن يطرأ على السجن والسجين عموماً وذلك نتيجة لجهود المفكرين ورجال الدين الغربيين منذ نهاية القرن الثامن عشر ومروراً بالقرن التاسع عشر والقرن العشرين[٤]، فاتجهت القوانين العقابية الحديثة إلى تصنيف السجن وتخصيص السجون والرعاية بالمسجونين من النواحي الطبية والنفسية والفكرية والجسدية مع إيجاد الأخصائيين في مختلف هذه النواحي، وقد صاحب هذا التطور اهتمام دولي بالسجون ووضع التوصيات والقرارات اللازمة في سبيل إصلاحها وتطويرها، حيث انعقد المؤتمر الدولي الأول للسجون في لندن سنة ١٨٧٢ والمؤتمر الدولي الثاني في استكهولم سنة ١٨٧٨ وغيرها من المؤتمرات[٥] وفي ١٩٣٤/٩/٢٦ اعتمدت عصبة الأمم المتحدة قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين والتي أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في مؤتمر مكافحة الجريمة ومعاملة المذنبين في جنيف وذلك عام ١٩٥٥ والتي اعتمدها المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة بقراره المرقم ٦٦٣ في ١٩٥٧/٧/٣١[٦].

وتعرف قواعد الحد الأدنى لمعاملة المسجونين بأنها "مجموعة المبادئ والأسس التي تحدد اقل الأوضاع والمعايير المقبولة لمعاملة مختلف طوائف المسجونين البالغين وتنظيم وإدارة مؤسساتهم طبقاً للآراء والممارسات المعاصرة لعلم العقاب الحديث". وتعد هذه القواعد خلاصة النظرة الإنسانية العلمية المتطورة في مجال المعاملة العقابية، لذا فهي أهم وثيقة دولية لتنظيم السجون يعمل بموجبها في الوقت الحاضر[٧].

ومن هنا نجد أن المؤتمرات الدولية جميعها التي عقدت بعد ذلك أكدت على هذه القواعد وضرورة تطبيقها وإعمالها في مجال المعاملة العقابية من قبل الدول جميعها[٨].

ثانياً: نظرية السجن الإصلاحي في الفكر الإسلامي ورائده الإمام علي بن أبي طالب (ع):

هناك حقيقة واضحة لا غبار عليها وهي أن الإسلام يعد المنبع الرئيس لكل النظريات التي تهدف إلى حفظ حقوق وحريات الإنسان وصيانة كرامته بما هو إنسان وإن كان مجرماً، لذلك اهتم الفقه الإسلامي بالسجن والسجين، غير أن هذا الاهتمام لم يأت دفعة واحدة.

ابتداء نلاحظ أن لفظة السجن كمؤسسة عقابية وكعقوبة قد وردت في القرآن الكريم في سورة يوسف في ثمانية مواضع، والسجن كعقوبة وإن عرف في زمان الرسول الأكرم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غير أنه لم يكن هناك مكان يحبس فيه الشخص المجرم، فكان الحبس يتم إما بساحة المسجد النبوي أو في الدهاليز أو في البيوت[٩]، ومنها بيت المضرور[١٠]، وجدير بالذكر أن السجن لم يكن سوى عقوبة

من نوع التعازير وليست من نوع الحدود أو القصاص أو الديات[١١]. وظل عدم وجود مكان معين يحبس فيه الأشخاص ـ على حد قول البعض ـ حتى عهد الخليفة الثاني الذي يروى أنه اشترى من صفوان بن أمية داراً بأربعة آلاف درهم وجعلها حبساً أي سجناً لتنفيذ العقوبات التعزيرية[١٢].

وحينما تولى الإمام علي (ع) الخلافة اهتم بالسجن أيَّما اهتمام فبنى سجناً في الكوفة من قصب وسماه (نافعاً) فنقبه اللصوص وهربوا منه، ثم بنى سجناً آخر من مدر وسماه (مخيساً)[١٣]. وتلاحظ النزعة الإصلاحية لهذين السجنين من اسميهما ـ كما يذكر الأستاذ توفيق الفكيكي ـ، فالسجن الأول اسمه (نافع) والنفع ضد الضرر، أما الثاني فقد سماه (ع) مخيس والتخييس يعني التذليل والتليين والمرونة، هذا من حيث الاسم، أما من حيث المعاملة العقابية فقد عمد الإمام (ع) إلى وضع قواعد خاصة في معاملة المسجونين ترمي إلى الحفاظ على كرامة الإنسان بما هو إنسان أولاً وكونه مسلماً ثانياً.

فنجد أن هناك عناية بالسجين من نواحي الجسد والروح والفكر، فكان الإمام علي (ع) يتابع طعامهم وشرابهم وكان يصرف لهم كسوة صيفية وأخرى شتوية وفي حال مرض أحد السجناء فكان يعالج داخل المؤسسة العقابية وان لم يكن له خادم يقوم بخدمته قوَّم له واحداً، وإن كان مرضه لا يرجى شفائه أو خطراً على حياته فينقل إلى بيته لعلاجه ومن ثم يصدر قراراً بإعفائه من مدة محكوميته، وكان يسمح للمسجونين بالخروج والمشي داخل المؤسسة العقابية، بل نجد أن الإمام (ع) قد أقر للسجناء بحق الخروج لأداء صلاة الجمعة والعيدين، مع حق ذويهم وأهلهم في زيارتهم، ثم نجد أن الإمام (ع) قد أقر تعليم السجناء القراءة والكتابة والأحكام الدينية والعقائدية والمواظبة على ممارستها، ثم أكد على ضرورة معاملة السجناء (النزلاء) بالحسنى من قبل القائمين على إدارة المؤسسة العقابية وذلك كله يتم تحت إشرافه ورقابته المباشرين، بل كان يوصي عماله في الأمصار الأخرى بذلك كله، هذا الفكر الإصلاحي أصبح نقطة الانطلاق فيما بعد للفكر الجنائي الإسلامي (والإنساني) عموماً في الاهتمام بالسجن والسجين)[١٤].

وعلى ذلك يمكن القول أن الإمام علي بن أبي طالب (ع) هو أول من وضع قواعد الحد الأعلى وليس الأدنى لمعاملة المسجونين وتنظيم السجون باعتبارها مؤسسة إصلاحية تأهيلية علاجية، ثم انتشرت بعد ذلك فكرة السجون في الدولة الإسلامية وخاصة في العهدين الأموي والعباسي غير أن الغاية منها قد ابتعدت عن الإصلاح والتأهيل والتهذيب لتتحول إلى التنكيل والانتقام من السجناء، ولم يطبق الفكر الإصلاحي للسجن إلا في عهد الخلفية عمر بن عبد العزيز، الذي أكد في كتبه إلى عماله ما جاء به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)[١٥].

وعليه فإن الفكر الإنساني قد استفاد من تلك النظريات والممارسات التي كان رائدها صاحب الفكر الإنساني والقانوني العظيم الإمام علي بن أبي طالب (ع) ولكن بعد مرور مئات السنين، حيث لم يتم الاهتمام بالسجون من ناحية البناء من ناحية المعاملة أي كمؤسسة إصلاحية علاجية تأهيلية بصورة فعلية إلا بعد القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

الهوامش:

(١) ينظر د. حسن طالب: الجريمة والعقوبة والمؤسسات الإصلاحية، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ٢٠٠٢، ص١٧٢ - ١٧٣.

(٢) د. محمود معروف عبد الله: علم العقاب، بغداد، بلا سنة طبع. ص١٩.

(٣) د. أ حسن طالب: المصدر السابق، ص١٧٦.

(٤) المصدر نفسه، ص١٧٤ - ١٧٦.

(٥) د. محمود معروف عبد الله: المصدر السابق، ص٢٠ - ٢١.

(٦) د. رؤوف عبيد: أصول علمي الإجرام والعقاب، ط٦، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٥، ص٦١٠.

(٧) د. محمد معروف عبد الله: المصدر السابق، ص٢١.

(٨) ينظر في تفاصيل هذه المؤتمرات ومقرراتها د. رمسيس بهنام: علم مكافحة الإجرام، الإسكندرية، منشأة المعارف، بلا سنة طبع، ص١٧٣ - وما بعدها. وللاطلاع على قواعد الحد الأدنى لمعاملة المجرمين ينظر د. سليمان عبد المنعم سليمان: أصول علم الجزاء الجنائي، الإسكندرية، دار الجامعة الجديدة، ٢٠٠١، ص٢٤٩ - وما بعدها، د. رؤوف عبيد: المصدر السابق، ص٦٤٩ - وما بعدها.

(٩) د. أحمد الوائلي: أحكام السجون بين الشريعة والقانون، ط٣، بيروت، دار الكتبي للمطبوعات، ١٩٨٧، ص٤٥.

(١٠) د. أحمد الحصري: السياسة الجزائية في فقه العقوبات الإسلامي المقارن، المجلد الأول، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٣، ص٣٨٩.

(١١) د. أحمد الوائلي: المصدر السابق، ص٥٧ - ٥٩.

(١٢) د. محمد معروف عبد الله: المصدر السابق، ص٢٣.

(١٣) د. أحمد الحصري: المصدر السابق، ص٣٩٠.

وقد قال الإعرابي المفسد من بني طيئ حين اصدر الإمام (ع) أمراً بإلقاء القبض عليه وفر بعد وصول منفذي أمر الإمام (ع):

ولّما أن رأيت ابني شميط ... بسكة طيئ والباب دوني

تجلّلت العصا وعلمت أني ... رهينُ مخيس أن يثقفوني

فلو انظرتهم شيئاً قليلاً ... لساقوني إلى شيخ بطين

شديد مجاميع الكتفين صلب ... على الحدثان مجتمع الشؤون

مخيس: سجن بناه علي، والعصا فرس لهذا الإعرابي، أورد ذلك د. طه حسين: الفتنة الكبرى، الجزء الثاني. علي وبنوه، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٦، ص١٥٢.

(١٤) لمزيد من التفاصيل ينظر: د. أحمد الوائلي: المصدر السابق، ص١٢٣ - ١٢٥.

(١٥) ينظر في كتب عمر بن عبد العزيز د. أحمد الوائلي: المصدر نفسه، ص١٩١ - ١٩٣. ❖

العدالة سمة السياسة المالية العامة (*)

عند أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (ع)

د. عفيف الصندوق

من دواعي السرور أن نعود إلى تراثنا العربي والإسلامي حيث الحق والعدل.

وإن من أساسات طلب العلم أن ندرس الفكر الاقتصادي عند أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (ع)، حيث اختصه الله سبحانه وتعالى من بين الصحابة رضوان الله عليهم بخصائص كثيرة منها العلم الغزير، ذلك العلم الذي زقه رسول الله (ص)، حيث كان (ص) هو من رباه وأدبه وعلمه.

لقد وفقني تعالى لاختيار جذوة من مصباح رسول الله (ص) كان قد استقاها أمير المؤمنين علي (ع) منه في "السياسة المالية العامة"، حيث كتب الإمام علي (ع) إلى واليه "مالك الأشتر" يقول:

(وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله)[1] انتهى كلامه (ع).

المقصود بالخراج في المصطلحات الاقتصادية الحالية هو الضرائب، وهنا نلاحظ أن الإمام (ع) يلفت إلى أن الغرض من الخراج والضرائب هو الإصلاح الاقتصادي، كما يعتبر أن السياسة الضريبية الصالحة العادلة تؤدي إلى إصلاح حال الأمة، باعتبار أن ذلك يعالج الفائض الموجود في أيدي الأغنياء بالاقتطاع، في الوقت الذي يعالج فقر الفقراء بالإنفاق عليهم وسد حاجاتهم. ويعتبر (ع) أن الناس كلهم يعيلهم الأغنياء بما يؤدون من ضرائب وخراج، ولولا ذلك المال المقتطع من الأغنياء لما تم تامين الحاجات والمنافع العامة للأمة كلها.

وفي سياسة جباية الخراج أو السياسة الضريبية يتابع (ع) في كتابه نفسه فيقول:

(وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلا)[2] انتهى كلامه (ع).

في الواقع هذا أبلغ ما كتب في علم المالية العامة، فالمقصود بعمارة الأرض تنميتها، وفي المصطلحات الاقتصادية الحالية هي "التنمية الاقتصادية المستدامة"، تلك التي تتحقق من خلال تدخل الدولة عبر السياسات الاقتصادية بهدف تحقيق نمو مستمر للدخل القومي أو دخل الأمة. وأما استجلاب الخراج فهو الاقتطاع الضريبي في المصطلحات الحالية كما ذكر آنفاً.

فالمقصود - والله العالم - هو أن التنمية أو عمارة الأرض قيد وشرط لا يتحقق تحصيل الخراج أو الضرائب إلا بتحققها، لأن التنمية أو عمارة الأرض تؤدي إلى نمو الإنتاج وبالتالي نمو الدخل القومي أو دخل الأمة، وهذا يؤدي إلى تحقيق الفائض الاقتصادي الذي يمكن اقتطاع الخراج أو الضرائب منه.

ثم يتابع الإمام (ع) كتابه إلى واليه فيقول:

(... فإن شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو بالة، أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم، بما ترجو أن يصلح به أمرهم، ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك)[٣] انتهى كلامه (ع).

وهنا نلاحظ ضرورة تحقيق العدالة في التكليف الضريبي ودراسة الحالة المالية للمكلف، فالإجحاف الضريبي في حق المكلف ليس فقط خلاف العدالة الضريبية فحسب، بل هو سبب لنقص الحصيلة الضريبية. كما نلاحظ أن تخفيف العبء الضريبي عن المكلفين في حالات الانكماش والتعثر الاقتصاديين إذا أدى إلى انخفاض آني للحصيلة الضريبية، فإنه يؤدي إلى حصيلة ضريبية وفيرة في جباية لاحقة، وذلك يشبه ترك الحب في سنبله إلى يوم فيه يغاث الناس وفيه يعصرون.

ثم يتابع (ع) فيقول:

(مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم، معتمداً فضل قوتهم، بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم (أي من إراحتهم)، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم، فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به، فإن العمران محتمل ما حملته، ...)[٤] انتهى كلامه (ع).

وهنا يؤكد (ع) على ضرورة المعاملة العادلة والحسنة للمكلفين بالضرائب، وضرورة الاقتطاع من فائض أو فضل أموالهم، الأمر الذي يعزز ثقة المكلفين بإدارة الخراج أو الضرائب. كما يشير (ع) إلى أن المكلفين بالضرائب والخراج عند شعورهم بالعدالة في التكليف الضريبي سيقفون إلى جانب حكوماتهم في الملمات والكوارث التي قد تقع على البلاد برمتها.

ثم يقول (ع) في كتابه نفسه إلى واليه متابعاً:

(... وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، إنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر)[٥] انتهى كلامه (ع).

وهكذا فجمع الحكومات لحصيلة ضريبية كبيرة ليس مؤشراً إيجابياً إذا لم ترافقه العدالة في التكليف الضريبي، بل على العكس من ذلك، فإذا ما بالغت الحكومات في فرض الضرائب فان الأوعية الضريبية ستتآكل إلى درجة قد نصل معها إلى دخل قومي - أو دخل للأمة - لا يمكن الاقتطاع الضريبي منه، لأن ذلك الاقتطاع سيمس الحاجات الأساسية لاستمرار وجود الإنسان نفسه في المجتمع.

ثم يقول (ع) في موضع آخر من كتابه نفسه:

(ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات، وأوص بهم خيراً: المقيم منهم، والمضطرب بماله (أي المتردد بين البلدان)، والمترفق ببدنه (أي المتكسب ببدنه)، فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق، وجلابها من المباعد والمطارح (أي أنهم هم الذين يجلبون المنافع من الأماكن البعيدة)، في برك وبحرك وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها، ولا يجترئون عليها، فإنهم سلم لا تخاف بائقته (أي لا يخشى دهاؤهم)، وصلح لا تخشى غائلته، وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك)[٦] انتهى كلامه (ع).

وهنا نلاحظ وصيته (ع) بالإحسان إلى التجار وأصحاب الصناعات، باعتبارهم أساس التنمية، ولأن جهدهم هو ركيزة الاقتصاد، فهم سبب النشاط الاقتصادي، ومن الجدير ذكره هنا أن طبيعة توجههم للضرب في الأرض والسعي في برها وبحرها وسهلها وجبلها لتحصيل الكسب يجعلهم مسالمين محتاجين إلى الرعاية والحماية وتوفير سبل السلامة والتشجيع من قبل الحكومات.

ثم يوصي (ع) بالفقراء في موضع آخر من كتابه نفسه فيقول:

(ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى (أي شديدي الفقر) والزمنى (أي أصحاب العاهات)، فإن في هذه الطبقة قانعا (أي سائلاً) ومعتراً (أي متعرضاً للعطاء دون سؤال)، واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم (أي أد لله حقهم)، واجعل لهم قسماً من بيت مالك، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكل ما قد استرعيت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر (البطر طغيان النعمة)، فإنك لا تعذ بتضييع التافه لإحكامك الكثير المهم (أي انك مسؤول عن كل الأمور من صغيرها إلى كبيرها). فلا تشخص همك عنهم (أي لا تصرف اهتمامك عنهم)، ولا تصعر خدك لهم (أي لا تتكبر عليهم).....)[٧] انتهى كلامه (ع).

نلاحظ براعة الوصف ودقة التمحيص في السلوك، حيث يعلمنا (ع) الرقابة على التصرفات من صغيرها إلى كبيرها وخاصة في معاملة الطبقة الفقيرة، فهو (ع) يأمر بالرعاية التامة لها، تلك التي فرضها الله سبحانه وتعالى، حيث يجب إعانتهم من الخزينة العامة للدولة ومن الإعانات المحصلة من دول أخرى، ويؤكد (ع) على أن يعامل قريبهم كما يعامل بعيدهم بغرض تحقيق العدالة في التوزيع بينهم.

لاحظنا أيها السادة والسيدات أن بضعة أسطر من كتاب كتبه أمير المؤمنين الإمام علي (ع) إلى واليه على مصر "مالك الأشتر"، قد تضمن هذا البحر المتدفق من أصول الفكر والتطبيق في "علم المالية العامة":

- حيث تضمن أساس فكرة الخراج أو الضرائب، وأكد على أن الغرض منها إصلاح الاقتصاد برمته، وأن السياسة الضريبية العادلة تصلح حال الأمة كلها.

- كما لفت إلى أن التنمية الاقتصادية وتشجيع النشاط الاقتصادي هو شرط لتحقق الفوائض التي يمكن اقتطاع الخراج أو الضرائب منها، وأن الاقتطاع الضريبي دون تنمية يؤدي إلى خراب البلاد وهلاك العباد.
- كما وجه إلى ضرورة النظر في الوضع المالي للمكلف بدفع الضرائب، وعدم الإجحاف بحقه، بل على العكس فقد أمر بالتخفيف عنه في حالات الركود والتعثر الاقتصاديين، لأن هذا يعود لاحقاً بالخير على المكلف وعلى الحصيلة الضريبية.
- ثم يؤكد أن الفقر هو سبب هلاك الأمم، وغالباً ما يكون - في الظروف الاقتصادية العادية - بسبب الاقتطاع الضريبي غير العادل والذي يقوم على أساس فكرة جمع الأموال في الخزانات العامة دون النظر إلى الوضع الاقتصادي العام.
- ثم يشير إلى ضرورة المحافظة على مكانة التجار وذوي الصناعات وتشجيعهم وحمايتهم وتسهيل أعمالهم باعتبارهم أساس النشاط الاقتصادي، وبذلك يمكن المحافظة على ركائز التنمية الاقتصادية المستدامة، وزيادة معدلات نمو الدخل القومي أو دخل الأمة.
- ثم يأتي في موضع آخر من كتابه ليؤكد على رعاية الفقراء وضرورة الإنفاق عليهم وإعانتهم، لأن الفقراء يمثلون معظم الطلب الكلي على السلع والخدمات، فإذا لم يجدوا ما ينفقون فلن يجد التجار وذوي الصناعات مشترين، وبالتالي لوقفت عجلة الاقتصاد عن النمو.

وهكذا فالعدالة تؤدي إلى التكامل الطبقي لمكونات الاقتصاد عند أمير المؤمنين الإمام علي (ع)، فتبدأ من طبقة التجار وذوي الصناعات الذين يمثلون الطبقة المنتجة أو جانب عرض السلع والخدمات في الاقتصاد، لتنتهي بطبقة الفقراء الذين يمثلون معظم جانب الطلب على السلع والخدمات في الاقتصاد.

أردت من خلال ورقة العمل هذه أن أعرض قبساً من فكر الإمام علي (ع)، أفادنا تعالى وإياكم من تراثنا العربي والإسلامي، ومن الكنوز التي تركها رسول الله (ص).

المصادر:

(*) ورقة مقدمة إلى المهرجان العالمي التاسع للإمام علي بن أبي طالب الذي عقد تحت شعار: النهج الاقتصادي للإمام علي (عليه السلام).. دروس للحاضر والمستقبل في مدينة حمص في دولة سوريا.

(١) نهج البلاغة، تأليف الشريف الرضي (رض)، تحقيق الشيخ فارس الحسون، مؤسسة البلاغ، دار سلوني، الطبعة الأولى، عام ٢٠٠٥م، صفحة (٥٥٩).

(٢) المرجع السابق نفسه، صفحة (٥٥٩).

(٣) المرجع السابق نفسه، صفحة (٥٥٩).

(٤) المرجع السابق نفسه، صفحة (٥٥٩ - ٥٦٠).

(٥) المرجع السابق نفسه، صفحة (٥٦٠).

(٦) المرجع السابق نفسه، صفحة (٥٦١).

(١١) المرجع السابق نفسه، صفحة (٥٦٣). ❖

الروايات الشامية لوقعة صفين قيمتها التاريخية وموقف المؤرخين منها

أ. د عمار عبودي نصار
كلية الآداب ـ جامعة الكوفة

توطئة:

لم تنتدب الدراسات الحديثة التي كتبها الباحثون عن وقعة صفين إلى التعمق بالتعريف بالمصادر الفكرية الأولى لهذه المعركة والرواة الذين نقلوا لنا وقائعها وانتماءاتهم القبلية والمذهبية، إذ ركزت هذه الدراسات على الأثر الذي تركته معركة صفين في مجمل الأحداث التي تلتها، سواء أكانت بصورة مجتزأة عن الحوادث التي سبقتها ولحقتها أو ضمن إطارها التحقيبي في حوليات الإسلام، فضلاً عن السردية لمجرياتها وتفاصيل أحداثها دون التركيز المعمق على المدارس والأيديولوجيات التي ينتمي لها الرواة لهذه الواقعة. وتتضح جلياً للدارس للمصادر التي تحدثت عن هذه المعركة وظروفها وسرد وقائعها والنتائج التي تمخضت عنها أن هنالك تبايناً واضحاً في طبيعة سرد تلك الأحداث التي رافقت مجريات هذه الواقعة وطبيعة الملابسات التي رافقتها.

نظر المستشرقون لهذه الوقعة نظرة تتسم بالتباين في موضوعية الدراسات والآراء التي ذكروها وتبنوها عن هذه المعركة ومجرياتها وتقييم المواقف فيها، فقد اعتبر المستشرق بول إن دراسة وقعة صفين تعد غير مكتملة الجوانب ما لم ترفد بروايات المعسكر الشامي الذي غاب وراء الكثرة الكاثرة من روايات الإخباريين الكوفيين والبصريين، إذ ينتهي برصد هذه الملاحظة الجديرة بالاهتمام فيقول: "ولذا فإننا نشعر إلى حد كبير بالحاجة إلى وصف لهذه المعركة على لسان الفريق الآخر يمكن أن نتخذه وسيلة للتحقيق، حتى دون أن نحصل على هذا الوصف يمكننا أن نشير إلى نقاط عدة من شأنها أن تدلنا في أرجح الظن على وجود قدر من التحيز لفريق دون آخر"[١].

كانت حادثة التحكيم التي جرت في أعقاب الهدنة ورفع المصاحف في المعركة إحدى الشواهد التاريخية الماثلة التي استشهد بها هذا المستشرق في إظهار حالة التباين بين الروايات التي تحدثت عن هذه الحادثة فالبصريين والكوفيين أنفسهم قد تباينت رواياتهم نوعا ما عن هذه الحادثة ـ وهم يمثلون المدرسة العراقية ـ فضلاً عن ما رواه الشاميون أنفسهم عن مجريات تلك الحادثة[٢].

شاطر أيضاً هذا الرأي آنف الذكر المستشرق الألماني يوليوس فلها وزن عند وقوفه على مجريات الحوادث التي صاحبت تولي الإمام علي بن أبي طالب (ع) الخلافة في كل من

كتابيه الذين خصصهما لدراسة تاريخ الإسلام المبكر حتى نهاية عصر بني أمية، وما لعبته كل من فرقتي الشيعة والخوارج في حوادث ذلك التاريخ، إذ اعتبر الحلقات التي تستوعب تلك الحوادث - ولاسيما الحادثة موضوعة البحث (صفين) - هي حلقات غير متكاملة عن مسار هذه المعركة ومجرياتها، لأن جل أخبارها قد كانت من رواية أبو مخنف الأزدي الكوفي، أما المتناثر منها فكان بين رواية المدائني والواقدي[٣]، ويستغرب هذا المستشرق في دراسة أخرى من طول الروايات التي نقلها أبو مخنف عن شيعة علي (ع) في الكوفة، رغم اعتماد الطبري على نقول أبي مخنف عن تلك الحوادث[٤]، ولكنه يميل في هذه الدراسة إلى اعتبار رواية أبو مخنف هي الأكثر مقبولية من بين باقي الروايات ولاسيما الروايات الشامية التي تحدثت عن حروب الإمام علي أيام خلافته.

يذهب فلها وزن - بعد عرضه لروايات أبو مخنف وغيره عن صفين ومجرياتها وتوابعها إلى تقييم هذه الروايات ومدى نجاحها في إعطاء الصورة الفعلية لحقيقة مجريات هذه المعركة والحوادث التي رافقتها فيقول: "ونحن لا نظفر فيما يتعلق بسير المعركة الحقيقية، بصورة واضحة، ففي وصفها من الاضطراب الكبير مثل ما كان في مجراها، نعم نحن نجد في كثير من الأحيان معلومات دقيقة عن تقسيم الجند وترتيبهم وقياداتهم، ولكن هذه المعلومات غير متفقة فيما بينها، ولا تكاد تكون لها من أجل ذلك أية قيمة علمية فيما يتعلق بمجرى القتال الحقيقي، وتتكون من وصف هذا القتال من مجرد روايات لا تبين إلا ناحية واحدة، ولا ينجح الكاتب في محاولته أن يجعل منها وحدة منسجمة الأجزاء، فمن وصف المعركة يعوزه ارتباط بين الأجزاء، وكل من شهد المعركة يميل إلى أن يجعل الفضل كله لأبطال قبيلته..."[٥].

أما المستشرق الدانمركي بيترسن فيذهب إلى عد الروايات الواصلة عن صفين لا تعدوا كونها صورة كاشفة لصراع التيارات الفكرية التي تبلورت في أيام العباسيين الأولى وظهور المدارس الممثلة لهذه التيارات من مدنية وكوفية وبصرية وشامية، حتى انعكس ذلك على طبيعة الروايات التي رويت عن أحداث الإسلام ولاسيما موضوعة البحث، ولأجل ذلك حاول فرز الروايات التي تمثل تلك المدارس، ولكنه لم يجد أمامه سوى شخصيتين بارزتين تمثلان المدرسة الشامية ألا وهما صالح بن كيسان وأبي شهاب الزهري، وهما مدنيان في الأصل، ولم يقدموا روايات متكاملة عن هذه المعركة، واقتصارهم على جوانب منها، فهو لم يعتمد على المصادر المتأخرة في دراسته، بل انتقى رواياته من الكتب المتقدمة ولاسيما على وجه التحديد لا الحصر كتابي أنساب الأشراف للبلاذري (ت٢٧٩ هـ) وتاريخ الرسل والملوك للطبري (ت٣١٠ هـ).

والحال نفسه عند بعض الباحثين العرب الذين اتسمت دراستهم لهذه الوقعة بالموضوعية. إذ اعتبروا الروايات المتداولة عن صفين في المصادر الإسلامية الواصلة إلينا

لا تقدم تلك الصورة الشافية عن مجريات تلك المعركة، وذلك للتضارب والتباين الحاصل فيها ـ كما يقول الدكتور جعيط ـ في وصف كل من المعسكرين العراقي والشامي، مع إسهاب وتفصيل بذكر الأول واقتضاب وغموض في المعسكر الثاني: لدرجة غابت معها التفاصيل المتعلقة بدور القبائل الشامية في الجيش الذي قاده معاوية لحرب علي (ع)، باستثناء ما ذكر من دور بارز في هذه المعركة لليمانية وزعيمهم ذي الكلاع الحميري أمام التغييب الواضح لدور القيسية وقبيلة كلب أكبر قبائل قضاعة، والإسهاب بذكر المبارزات بين القادة والفرسان، والأراجيز الشعرية التي قالها كل من المتخاصمين حتى أطلق الباحث المذكور على وقعة صفين اسم (إلياذة العرب)[٦].

يتوافق جعيط بذلك مع ما طرحه الدكتور الدوري من أن هيمنة روايات الإخباريين العراقيين (الكوفيين والبصريين) على من سواهم من رواة الأمصار قد جعل تلك الروايات تصطبغ بالمفاخرات والمآثر القبلية ليس في معارك الفتوح فحسب بل شملت حتى الحروب والمنازعات التي اندلعت بين المسلمين أنفسهم، وما روايات نصر بن مزاحم (ت ٢١٣هـ) عن وقعة صفين إلا صورة من تلك النصوص التي وثق بها نصر ما جرى بمعسكر الإمام علي من حوادث وكان يمثل بها وجهة نظر أهل العراق، وهو مما لم نجد له قرين في الشاميين[٧].

إن هذا الإسهاب في تسليط الضوء على جوانب والاقتضاب في جوانب أخرى قد أربك الباحثين في إعطاء وجهات نظر لا ينعدم فيها التخمين ولاسيما في حادثة مهمة ومفصلية من حوادث صفين: ألا وهي حادثة لقاء كل من أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص بمدينة أذرح، للتفاوض والتحكيم في أمر المسلمين بعد أن سفكت منهم دماء كثيرة، إذ شاب هذه الحادثة الغموض بسبب أحادية الجهة المنقولة عنها هذه الرواية، فضلاً عن الاضطراب الحاصل في تحديد المكان الذي حدث فيه التحكيم بين دومة الجندل وأذرح، وإن كانت الأخيرة هي الأقرب للصواب[٨]. مع تأكيد حالة الجو العام المربك والمشنج لهذا الاجتماع الذي وصفته الرواية الكوفية، وهو مما ظهر جلياً في تضارب الروايات غير الكوفية عن حادثة التحكيم مما يستدعي التأني في إعطاء الرأي القاطع في توجيه الروايات المتعلقة بحادثة التحكيم.

وينطبق الأمر نفسه على الدراسة التي كتبها الدكتور صالح العلي عن أهل الكوفة في صدر الإسلام، إذ شخص هذا التباين الحاصل في مرويات صفين من خلال إفاضة المصادر بذكر مواقف القبائل الكوفية وتفاعلها مع الأحداث المتسارعة التي سبقت المعركة، مقارنة بمثيلهم من أهل الشام، الذين لم تكن الأخبار الواصلة إلينا عنهم بمستوى أقرانهم الكوفيين، حتى كان المصدر المعول في ذلك هو كتاب (وقعة صفين) نصر بن مزاحم (ت ٢١٣هـ)[٩].

وأحسب إن هذا السبب هو أيضاً وراء الاقتضاب الواضح في دراسة الدكتورة نجدة خماش عن (الشام في صدر الإسلام) من خلال الإشارة العابرة لدور القبائل الشامية في معركة صفين والغارات التي قام بها معاوية على مسالح جيش العراق[١٠]، ويحتمل إن هذه الباحثة لم تستطع أن تقدم مادة وافية عن هذا الموضوع بسبب هيمنة الرواية العراقية على أخبار هذه الوقعة، أو إنها لم ترد لنفسها أن تخوض في هذا المحور الحساس الذي يسجل من خلاله نقطة سلبية على موقف تلك القبائل - التي نعتت بالبغاة على قول الإمام محمد بن إدريس الشافعي[١١] -، مادامت هي قد مجدت مواقف تلك القبائل في فتوح الشام والمغرب وحروب الروم، ودعم مؤسسة الخلافة في الفتن والاضطرابات التي اندلعت ضدها[١٢].

ويحتمل إن هذا الأمر قد دفع الرواة الشاميون إلى الاقتضاب في الحديث عن صفين، أو السكوت البتة عن أخبار هذه المعركة، وإن تحدثوا كانت رواياتهم أما إشارة عامة لبعض الحوادث، أو إيضاحا لموقف اتهم فيه أهل الشام، فمثلما سكت الرواة من ذوي الأصول القرشية - أبناء الطلقاء وأحفادهم - في التحدث عن أخبار المغازي والسير لأن فيها ذكراً لمثالب أجدادهم ومواقفهم السلبية والمعارضة للرسول محمد (ص)، ومسيرة الدعوة الإسلامية، بأن ظلت هذه الأخبار حكراً على أبناء الأنصار والمهاجرين وأحفادهم، بأن تسمع وتروى من شفاههم[١٣]: كانت أخبار صفين ومجرياتها هي الأخرى من الحوادث التي لم يرغب الشاميون الحديث عنها حتى من أجل ذلك طفقوا يدافعون ويقدمون التبريرات لمواقف أجدادهم التي كانت فيصلاً في تقويض خلافة الشورى إلى الملك العضوض.

المبحث الأول

رؤية أهل الشام في مشروعية القتال ضد الإمام علي (ع)

تعد مسألة التعرف على المهيمنات الفكرية التي حركت الشاميين للوقوف بهذا الكم الهائل من المقاتلين بوجه الجيش الذي جهزه الإمام علي (ع) - الخليفة الشرعي - والتي ذكرت معظم المصادر إنه تساوى أو فاق ذلك الجيش مسألة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار[١٤]؛ لأن وقائع الأحداث التي رافقت معركة صفين وأعداد القتلى الغفيرة الذين سقطوا من الجانبين[١٥]، تذهبنا إلى تلمس الحجج والمبررات التي ساقها المتخاصمان في قتال كل واحد منهما الآخر، ولاسيما معاوية أصحابه، الذين أجمع الفقهاء ببغيهم، إذ قال أبو الخطاب بن دحية الكلبي (ت٦٣٣هـ) مبيناً هذا الأمر: "وأجمع فقهاء الحجاز والعراق من فريقي الحديث والرأي منهم مالك والشافعي وأبو حنيفة والأوزاعي والجمهور الأعظم من المتكلمين أن علياً مصيب في قتاله لأهل صفين... لأن الذين قاتلوه بغاة ظالمون له، ولكن لا يجوز تكفيرهم ببغيهم"[١٦]، وأضاف ابن أبي الحديد (ت٦٥٦هـ) في معرض حديثه عن رأي أصحابه من المعتزلة في من خرج على علي (ع) في صفين فيقول: "وأما عسكر الشام بصفين فإنهم هالكون كلهم عند

أصحابنا لا يحكم لأحد منهم إلا بالنار، لإصرارهم على البغي وموتهم عليه، رؤساؤهم والأتباع جميعاً"[١٧]، ويذهب مؤرخ شامي متأخر (ابن كثير ت٧٧٢هـ) إلى التشكيك في الجم الغفير من الروايات الواصلة إليه عن صفين ولاسيما ما رواه الكوفيون منهم، إذ يقول: "ثم ذكر أهل السير كلاماً طويلاً جرى بينهم وبين عليّ، وفي صحة ذلك عنهم وعنه نظر، فإن في مطاري ذلك الكلام من علي ما ينتقص فيه معاوية وأباه، وأنهما إنما دخلا في الإسلام ولم يزالا في تردد فيه، وغير ذلك، وأنه قال في ذلك: لا أقول إن عثمان قُتل مظلوماً ولا ظالماً:... وهذا عندي لا يصح من علي رضي الله عنه".

وينتهي ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) إلى النتيجة نفسها بعد أن يقف ملياً في شرحه لحديث (يا عمار تقتلك الفئة الباغية) وطرق إسناده ومن خرجه من المحدثين فيقول: "وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة وفضيلة ظاهرة لعلي ولعمار ورد على النواصب الزاعمين أن علياً لم يكن مصيباً في حروبه"[١٨].

وفي المقابل من ذلك حاول بعض المنصفين في رأي ابن عساكر أن يعطي رأي توفيقياً بين هذه الآراء التي شاعت بين جمهور الناس آنذاك إذ نقل رأياً للتابعي رياح بن الحارث يبين فيه حكم البغاة من الشامين مفاده: "لا تقولوا كفر أهل الشام ولكن قولوا ظلموا وفسقوا"[١٩].

ومن ثم فإن التعرف على تلك الحجج والمبررات يوصلنا إلى فهم طبيعة وأبعاده ونطاق المروي على مسامع الناس من قبل الرواة الشاميون لحوادث صفين، والصبغة التي اصطبغت بها تلك الروايات من حيث شخص الراوي لها والمضامين التي حوتها.

جمع المؤرخون المسلمون في مصنفاتهم روايات عديدة ومتنوعة عن معركة صفين واصفين بها مسار الأحداث التي رافقتها وملتقطين لها من أفواه رواة ذوي مشارب وأفكار متعددة ولا تنتمي إلى اتجاه واحد، إذ شكل الرواة الشاميون جزءاً من تلك الاتجاهات، فالذي يستقرئ كل من كتابي البلاذري (أنساب الأشراف) ومحمد بن جرير الطبري (تاريخ الرسل والملوك)؛ سيجد نفسه أمام مجموعة من الروايات ذات المسحة الشامية، مقابل مثيلاتها العراقية؛ وإن كانت الأخيرة أرجح كفة من حيث مجموع الروايات وتفاصيلها المتنوعة في ذكر جزئيات الأحداث، دون الاقتصار على أخبار العراق فحسب، بل وحتى أحداث الشام نفسها[٢٠].

وقف الشاميون أمام تلك الروايات موقفاً يتسم البعض منه بالمكابرة فنجد أحد محدثي الشام (أبو خالد الكلاعي ثور بن يزيد)[*] يعبر عن موقفه من قتال علي للمخالفين له من أهل الشام إذ كان جد ثور بن يزيد قد شهد صفين مع معاوية وقتل يومئذ فكان ثور إذا ذكر عليا قال: "لا أحب رجلاً قتل جدي"[٢١].

لم يقتصر الأمر عند هذا الرجل فحسب بل نجد الذهبي (ت ٧٤٨هـ) يصف محدثي أهل الشام ورواتهم بالقول: "غالب الشاميين فيهم توقف عن أمير المؤمنين علي (رضي الله عنه) من يوم صفّين، ويروون إنهم وسلفهم أولى الطائفتين بالحق"[٢٢].

يؤكد هذا المعنى ما نقله ابن عساكر في رواية يصف فيها تفاني الشاميين ولاسيما اليمانية منهم في خدمة الأمويين حتى بعد أفول دولتهم على يد بني العباس سنة ١٣٢هـ، إذ يقول بعد إيراد سنده للرواية: "حدثنا كثير بن أبي صابر القنسريني قال كنت يوماً عند إسحاق بن قضاعة التنوخي وهو جد بني العصيص فدعا بسيوف فجعل يقلبها فقال لي يا كثيرة هذه سيوف آبائنا التي قاتلوا بها يوم صفين وهي عندنا مدخرة حتى يقوم القائم من آل أبي سفيان فنقاتل بها معه"[٢٣].

ويطابق هذا الأمر ما رواه ابن عساكر أيضاً أيام خلع الشاميين للخليفة الموفق، إذ تظهر كلمات أحد وجهاء الشام وعلمائهم الفخر والاعتزاز بما فعله أسلافهم بمحاربتهم عليا، وذلك بعد أن أمر الموفق بلعن أحمد بن طولون على المنابر بالعراق فلما بلغ ذلك أحمد بن طولون أمر بلعن الموفق على المنابر بالشام ومصر فما كان من أبي زرعة محمد بن عثمان القاضي الدمشقي إلا أن خلع الموفق ولعنه وقال يوم لعن الموفق وقف قائماً عند المنبر بدمشق بعد صلاة الجمعة: " نحن أهل الشام نحن أصحاب صفين وقد كان بيننا من حضر الجمل ونحن القائمون بمن عاند أهل الشام"[٢٤].

ونفس هذا الموقف يظهره الحوار الذى دار بين معاوية وأحد زعماء تنوخ (النعمان بن جبلة)، حينما رأى اشتداد القتال أهل العراق عليهم، استدعى بالنعمان بن جبلة التنوخى - وكان صاحب راية قومه في تنوخ وبَهْرَاء، وقال له: "لقد هممتُ أن أُولّى قومك مَن هو خيرٌ منك مقدماً، وأنصَح منك ديناً، فقال له النعمان: إنّا لو كنّا ندعو قومنا إلى جيش مجموع لكان في كسع الرجال بعض الأناة، فكيف ونحن ندعوهم إلى سيوف قاطعة، ورُدَيْنية شاجرة، وقوم ذوى بصائر نافذة واللّه لقد نصحتك على نفسى، وآثرتُ ملكَكَ على دينى، وتركتُ لهواكَ الرشد وأنا أعرفه، وحُدتُ عن الحقّ وأنا أُبصره، وما وُفّقت لرشد حين أُقاتل على ملكك ابن عمّ رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله) وأوّل مؤمن به ومهاجر معه، ولو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرعيّة، وأجزل في العطيّة، ولكن قد بذلنا لك الأمر، ولابدّ من إتمامه كان غيّاً أو رشداً، وحاشا أن يكون رشداً، وسنقاتل عن تين الغوطة وزيتونها؛ إذ حُرمنا أثمار الجنّة وأنهارها وخرج إلى قومه، وصمد إلى الحرب[٢٥].

إن هذه الطاعة العمياء لمعاوية من قبل الشاميين لم تكن وليدة أيام صفين، إذ استطاع معاوية بسياسته المتسامحة مع القبائل الشامية ذات الأصول النصرانية ولاسيما بأمور تطبيق الحدود والأحكام الشرعية، وحياة الترف والدعة التي يعيشونها أن يرسل رسالة إلى تلك القبائل من أن هذه الأوضاع التي ينعمون بكنفها اليوم سوف تتبدل وتتغير إلى أمور لا تعرف عقباها إذا انتصر علي الحريص على تطبيق الشريعة وإقامة الحدود المعطلة وأداء الحقوق المسلوبة ومعه المتزمتين في ذلك بنظرهم على معاوية والشاميين، وهذا ما أوضحته خطبته التي خطب بها أمام أفراد جيشه حين عبأهم لقتال علي (ع) وجيشه، إذ قال فيها: "يا أهل الشام،

إنكم قد سرتم لتمنعوا الشام، وتأخذوا العراق، ولعمري ما للشام رجال العراق وأموالها. ولا لأهل العراق بصر أهل الشام ولا بصائرهم، مع أن القوم بعدهم غيرهم مثلهم، وليس بعدكم غيركم، فإن غلبتموهم فلم تغلبوا إلا من قد أتاكم، وإن غلبوكم عاقبوا من بعدكم، والقوم لأقوكم ببصائر أهل الحجاز، ورقة أهل اليمن، وقسوة أهل مصر، وكيد أهل العراق، وإنما يبصر غداً من أبصر اليوم"[٢٦].

ولأجل كلام معاوية هذا اندفع حوشب الحميري[٥] نحو معسكر الإمام علي (ع) حينما تقابل الجيشان في صفين فقال لعلي (ع): "انصرف عنا يا ابن أبي طالب فإنا ننشدك الله في دمائنا ودمك نخلي بينك وبين عراقك وتخلي بيننا وبين شامنا ونحقن دماء المسلمين، فقال علي: هيهات يا ابن أم ظليم، والله لو علمت أن المداهنة تسعني في دين الله لفعلت، ولكان أهون علي في المؤونة، ولكن الله لم يرض من أهل العراق بالإدهان والسكون والله يعصى"[٢٧].

أكد هذا المعنى محاورة جرت بين الإمام علي وبين رجل من بني تغلب يوم صفين قائلاً له: "آآثرتم معاوية؟ فقال ما آثرناه، ولكنا آثرنا القسب الأصفر، والبر الأحمر، والزيت الأخضر"[٢٨].

ويحاكي هذا المسلك الخطبة التي خطب بها ذي الكلاع الحميري أمام عسكر أهل الشام والتي أفصحت عن خلجات هذا الجمع وقادته والتي يقول في جانب منها: "وإنا لنعلم أنه قد كانت لابن أبي طالب سابقة حسنة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن لم يكن مالأ على قتل عثمان فلقد خذله، وإنه لأخوه في دينه وابن عمه وسلفه وابن عمته. ثم قد أقبلوا من عراقهم حتى نزلوا شامكم، وبلادكم وبيضتكم، وإنما عامتهم بين قاتل وخاذل، فاستعينوا بالله واصبروا، فلقد ابتليتم أيتها الأمة"[٢٩].

فضلاً عن ذلك لم يكن يوماً من أهداف معاوية متابعة تطبيق التعاليم الإسلامية في أرجاء ولايته تدل على ذلك الشواهد التاريخية التي أظهرت حقيقة هذا الأمر، إذ تجول التابعي مكحول الشامي (ت ١٢٢هـ) في أرجاء ولاية الشام ليجد أحداً يسأله عن كيفية تقسيم الرسول محمد (ص) للإنفال فلم يحالفه الحظ إلا بالعثور - وبعد جهد جهيد - على شيخ هرم من بني تميم أجابه عن سؤاله هذا[٣٠].

كذلك فقد خطب في الكوفة بعد صلحه مع الإمام الحسن (ع) قائلاً: إني الله ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتزكوا إنكم لتفعلون ذلك. وإنما قاتلتكم لا تأمر عليكم وقد أعطاني الله ذلك وانتم كارهون"[٣١].

إن هذا النص يظهر لنا الجو العام الذي كان سائداً في بلاد الشام أيام ولاية معاوية عليها، إذ لم يعر لمسائل الشريعة أذنا صاغية بقدر ما أراد من فرض سلطانه على هذه الولاية المهمة من ولايات الدولة الإسلامية، حيث ربط معاوية مصيره بمصير القبائل الشامية التي

أغدق على زعمائها الهبات والعطايا الجزيلة، وهذا مما لا يرتضيه علي (ع) ، فقد جعل معاوية الناس يشاهدون عقيل بن أبي طالب (أخو الخليفة) وهو يسأله أن يقضي له ديناً عليه ومالاً يسد به أفواه عياله، بعد أن امتنع الإمام علي (ع) من أن يعطيه من بيت مال المسلمين مالا ليس له[٣٢].

وبهذا فإن معاوية بهذا التصرف قد أظهر للشاميين إن انتصار علي ومن معه من أهل العراق سوف يؤدي إلى فقدانهم للمكاسب التي يحصلون عليها من مساندتهم لمعاوية وبني أمية، ومن ثم فهم أرادوا أن يتركهم الخليفة الجديد ينعمون بنفس تلك الامتيازات التي كانوا يحصلون عليها أيام الخليفة عمر بن الخطاب وعثمان، ولا سيما منع التدفق غير المبرمج لقبائل البدو المهاجرة إلى مدن الشام من بوادي الجزيرة، مما يعني مشاركة هؤلاء القادمين الجدد لهم في خيرات تلك الربوع، وهو إجراء لم يسمح علي (ع) بديمومته واستمراره[٣٣].

وأما قميص الخليفة عثمان الذي ألهب حماس العوام من الناس بعد أن نشر معاوية له في دمشق، فقد كان هو الأداة التي من خلالها جمع أكبر عدد ممكن من الأنصار للأخذ بثأر الخليفة المقتول، باعتباره ولي الدم[٣٤]، مع قعود أبناء الخليفة أنفسهم عن ذلك[٣٥].

وفوق كل ذلك حافظ معاوية على جنده من الإشاعات والأخبار التي تسيء إلى سمعته ومكانته، لدرجة إنه كان يتململ من سماع حتى الأحاديث النبوية التي قد تخدم المعسكر الآخر، من إخبار الرسول محمد (ص) بما سيجري في لاحق الأيام من الفتن والحروب وترجيح موقف جماعة على أخرى[٣٦]، فقد حاول إخراس صوت عبد الله بن عمرو بن العاص حينما سمعه يحدث بحديث الرسول (ص) (يا عمار تقتلك الفئة الباغية) بعد استشهاد الأخير في صفين، وذلك خشية أن يتبلبل معسكره ويضطرب جنده، حتى إن التعتيم الإعلامي الذي مارسه معاوية فقد استطاع الاحتفاظ بمساندة الشاميين رغم التحدي الخطير الذي شكله استشهاد عمار بن ياسر مع معسكر علي وهيجان معسكر معاوية لذلك، حتى قال معاوية: "إنما من قتله الذي جاء به إلينا"[٣٧]. وهذا ما دفع جماعة من معسكر أهل الشام بمطالبة أهل العراق بالمشاركة في الصلاة على جثمان عمار بن ياسر بحسب ما ورد في بعض الروايات الشامية[٣٨]، حيث ورد في إحداها رواية عن أحد الرواة الشاميين (بكار بن بلال) ما نصه: "قال بلغني أنه لما بلغ أهل الشام يوم صفين أن عمار بن ياسر قد قتل بعثوا من يعرفه ليأتيهم بعلمه فعاد إليهم فأخبرهم أنه قد قتل فنادى أهل الشام أصحاب علي إنكم لستم بأولى بالصلاة على عمار بن ياسر منا قال فتوادعوا عن القتال حتى صلوا عليه جميعاً"[٣٩].

ولكن هذا التبرير والموقف لم ينطلي على الجميع فقد وصل إلى مسامع معاوية التحاق أحد وجهاء جيشه وقادته (زيد بن عبد الخولاني) بمعسكر الإمام علي بعد استشهاد عمار[٤٠]. فعند ذلك قال معاوية لعمرو بن العاص: "ألا تسكت عنا مجنونك يا عمرو" بعدما وجده يلهج بهذا الحديث في معسكر جيشه[٤١].

دفعت هذه المواقف التعتيمية من قبل معاوية أن يعتبر السواد الأعظم من الشاميين إن قتل عمار بن ياسر هو فتح الفتوح برواية يوردها محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ) مسندة إلى محمد بن السائب الكلبي قائلاً فيها - عن الأخير -: "وحدثني أبو فراس محمد بن فراس السلمي عن هشام عن أبيه قال: كنت بباب الوليد بن عبد الملك فاقبل شيخ ضخم احمر بين كتفيه مكتوب شهد فتح الفتوح وكانوا يسمون قتل عمار فتح الفتوح فقال للحاجب استأذن وقل هذا أبو الغادية قاتل عمار قال الكلبي فأخذت بيده وقلت له: "وأبيك! لقد استسمنت الخصم"[٤٢].

ويتماثل مع موقف زيد الخولاني وهذا الموقف آنف الذكر ما قام به شخص شامي من لوي عنان فرسه والالتحاق بمعسكر الإمام علي (ع) لمجرد سماعه بوجود أويس القرني في هذا المعسكر، لما سمعه من أحاديث في حق هذا الرجل تجعله من خيار التابعين[٤٣].

ولكن هذا الموقف من زيد الخولاني لم يحاكيه موقف مشابه له من شخصية تفوق بمرات عديدة ثقافة الخولاني، إذ بالرغم منم إطلاع عبد الله بن عمرو بن العاص وموسوعيته فلم تؤثر فيه الأحاديث والروايات التي كان يرويها هو لا غيره حول قتل الفئة الباغية لعمار بن ياسر كما لاحظنا آنفا باتخاذ موقف صارم من مشاركته في هذه الحرب مع معاوية، فضلاً عن اهتمامه المفرط برواية أخبار وأحاديث الملاحم والفتن[٤٤]. والتي بدورها الأخرى لم تكن عاصمة له من الوقوع في دائرة الاتهام والتقريع أينما حل أو نزل، فقد عير في أكثر من مكان لمشاركته في هذه الحرب التي كان فيها قابضاً لراية معاوية في ميمنة أهل الشام[٤٥]، إذ قال له عبد الله بن صفوان بن أمية: "أنت لم توق شح نفسك يوم صفين"[٤٦].

لاقى عبد الله بن عمرو بن العاص نفس هذا التقريع في مصر بعدما كان يحذر الناس أيام ولاية أبيه الأولى عليها (٢٠ - ٢٦ هـ) من فتن مقبلة على الأمة بحديث سمعه عن رسول الله يقول فيه: "سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول إنها ستكون فتنة عمياء صماء الراقد فيها خير من اليقظان والجالس فيها خير من القائم والماشي فيها خير من الساعي"[٤٧]، ولكن لما كانت صفين حضر فيها عبد الله بن عمرو فقاتل بجنب معاوية حاملا راية ميمنته، فاستعمل معاوية بذلك عبد الله بن عمرو بن العاص على مصر بعد وفاة أبيه سنة ٤٣هـ[٤٨]، فلما قدم عبد الله مصر جلس ذلك المجلس الذي كان يجلسه في زمن عمر وعثمان فحدث كيف كان القتال بصفين فقال له رجل من أهل مصر: "قاتلت أنت وأبو عبد الله قال بلى قال والله لا أكلمك كلمة بعد هذا سمعت أنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: إنها ستكون فتنة عمياء صماء الراقد فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من الجالس والجالس فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي، فقاتلت أنت وسمعت أنا هذا الحديث منك وما فتحت بابي إلا لصلاة مكتوبة حتى تصرمت الفتن"[٤٩].

وفي نص آخر يمر عبد الله بن عمرو الموقف ذاته في مسجد الرسول (ص) وذلك حينما كان جالساً في حلقة فيها أبو سعيد الخدري وعبد الله بن عمرو فمر بهم الإمام الحسين بن علي (ع) فسلم فرد عليه القوم فسكت عبد الله بن عمرو حتى إذا فرغوا القوم رفع عبد الله بن عمرو صوته فقال: وعليك ورحمة الله وبركاته ثم أقبل على القوم فقال: ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء قالوا بلى قال هذا هو الماشي ما كلمني كلمة منذ ليالي صفين ولأن يرضى عني أحب إلي من أن تكون لي حمر النعم، فقال أبو سعيد ألا تعتذر إليه قال بلى فتواعدا أن يغدوا إليه فاستأذن أبو سعيد فأذن له فدخل ثم استأذن لعبد الله بن عمرو فلم يزل به حتى أذن له فلما دخل قال أبو سعيد يا ابن رسول الله إنك لما مررت أمس فأخبره بالذي كان من قول عبد الله بن عمرو فقال له الحسين: أعلمت يا عبد الله أني أحب أهل الأرض إلى أهل السماء أي ورب الكعبة قال فما حملك على أن قاتلتني وأبي يوم صفين فوالله لأبي كان خيراً مني قال أجل ولكن عمرو شكاني إلى رسول الله فقال يا رسول الله إن عبد الله يقوم الليل ويصوم النهار فقال لي رسول الله يا عبد الله بن عمرو صل ونم وأفطر وأطع عمرا قال فلما كان يوم صفين أقسم علي فخرجت أما والله ما كثرت لهم سواداً ولا اخترطت لهم سيفاً ولا طعنت برمح ولا رميت بسهم فقال له الحسين أما علمت انه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق قال بلى قال فكأنه قبل منه قال فكأنه قبل منه"[٥٠].

إن هذا الموقف من عبد الله بن عمرو بن العاص المتزعزع والمتردد بالأمر الذي بدر منه قد ظهر جلياً في صفين وقبل الدخول في مجريات هذه المعركة، إذ أشارت الروايات إلى نصحه لأبيه بعدم الخوض في الأمر الذي انتدبه معاوية لا أجله، وذلك في محاورة لأبيه ـ نقلتها المصادر المتقدمة ـ حينما وصلته رسالة من معاوية يدعوه إلى الالتحاق به ومساندته في الوقوف بوجه تطلعات الخليفة الجديد علي بن أبي طالب الرامية إلى عزل الأخير من ولاية الشام، واتخاذ مقتل الخليفة عثمان ذريعة لهذه المواجهة الحتمية[٥١]؟

إردافاً لما قيل فإنا نجد المسعودي (ت ٣٤٦هـ) أيضاً ينقل لنا رواية تبين لنا حجم طاعة أهل الشام لمعاوية في أيام صفين إذ صلى بهم صلاة الجمعة يوم الأربعاء خشية أن يتباطىء مسير جيشه الزاحف إلى هذه المدينة[٥٢].

وتدعم الرواية التالية التي نقلها ابن عساكر ما قلناه آنفاً من الارتباط المصير بين أهل الشام ومعاوية، إذ نقل هذا المؤرخ محاورة جرت بين معاوية وبعض يمانية الشام في سنوات لاحقة من حكمه (٤١ ـ ٦٠هـ) تضمنت معاتبتهم لمعاوية بعد جفوة الأخير لهم، يذكرونه فيها بحسن بلاءهم ومساندتهم إياه أيام صفين، إذ قال له متحدث ما نصه: "ونحن نصرناك ومنعناك يوم صفين ونصرناك على الأنصار والمهاجرين وآثرناك على الإمام التقي الرقي الرضي الوفي ابن عم النبي (صلى الله عليه وسلم) فبنا علوت المنابر ولولا نحن لم تعلها وبنا دانت لك المعاشر ولولا نحن لم تدن لك فأنكرت منا ما عرفت وجهلت منا ما علمت"[٥٣].

يردف ما ذكرنا مباهاة روح بن زنباغ(*) أمام عبد الملك بن مروان بما كان من شدة بلائه ونصرته لبني أمية في كل من صفين ومرج راهط، حينما وجد ميلاً عنه من قبل الأخير(٥٤).

إن هذه الإرهاصات جميعها قد انصهرت في الجيش الذي خرج لملاقاة الإمام علي (ع) في صفين، مع تأكيد إحدى الدراسات ومن خلال الإحصائيات إلى لعب القبائل العربية المتنصرة دوراً بارزاً في هذه الحرب جنبا إلى جنب مع قريبتها المسلمة(٥٥).

كل ذلك سوف ينعكس على بطبيعة الحال على مضمون الروايات التي تناقلها المؤرخون من أفواه الشاميين ليقوم متكلمو الفرق الإسلامية بوضع بصماتهم واستنتاجاتهم على تلك الروايات، ولاسيما الشاميون منهم على وجه التحديد، إذ نشاهد ابن عساكر (ت٥٦٧هـ) يعقد فصلاً مستقلاً في مطلع كتابه (تاريخ مدينة دمشق) أسماه: "ما ورد من أقوال المنصفين فيمن قتل من أهل الشام بصفين"(٥٦).

أراد ابن عساكر في هذا الفصل تجميل الصورة التي علقت في أذهان جمع غفير من العلماء المسلمين عن مواقف أهل الشام في صفين، إذ صور ابن عساكر في التراجم المستفيضة التي كتبها عن الأعلام من الشخصيات الشامية المشتركة في صفين؛ إن الموقف المستميت لهذه الشخصيات في تلك المعركة لم يكن عن عناد ومكابرة بل كان عن عدم دراية أو قلة علم أو فقه، فيسرد روايات متعددة موظفاً في بعضها المنامات، تظهر خلجات الشاميين من مقتل كل من (حابس بن سعد الطائي)(*) و(ذي الكلاع الحميري)(*) في صفين(٥٧).

ولكن بالمقابل من هذا المنام نجد مناماً آخر يرويه أبو مخنف ونصر بن مزاحم عن رغبة أحد المشتركين في صفين من جيش الإمام علي (علقمة بن قيس النخعي)(*) رؤية أخاه - الذي استشهد في هذه المعركة - في منامه إذ يروي نصر بن مزاحم: " وقاتلت النخع مع علي (عليه السلام) ذلك اليوم قتالاً شديداً، وقطعت رجل علقمة بن قيس النخعي، وقتل أخوه أبي بن قيس، فكان علقمة يقول بعد: ما أحب أن رجلي أصح ما كانت لما أرجو بها من حسن الثواب. إذ يذكر نصر أن علقمة كان يقول: "لقد كنت أحب أن أبصر أخي في نومي، فرأيته، فقلت له: يا أخي، ما الذي قدمتم عليه، فقال لي: التقينا نحن وأهل الشام بين يدي الله سبحانه، فاحتججنا عنده، فحججناهم. فما سررت بشيء منذ عقلت سروري بتلك الرؤيا"(٥٨).

وفي موضع آخر من كتابه حاول ابن عساكر تدعيم رواية الأبدال الذين سيكونون معظمهم من الشاميين، وإن هذا الأمر الذي بدر منهم في صفين بمحاربتهم علياً لم يكن يمثل رأي الأكثرية، وعليه لم يجوز الإمام علي (ع) بسب أهل الشام جميعهم لأن منهم من هو كاره لهذا الأمر، لأن من أصلابهم سيخرج الأبدال في آخر الزمان، عل حد قول الرواة الشاميين في ذلك(٥٩).

وعلى النقيض من تلك المواقف ظهرت على بعض المشتركين في صفين من الشاميين علامات الندم والحسرة والتأسف لما بدر منهم من مواقف وشهودهم تلك المعركة، إذ يقول

أدهم بن محرز بن أسيد الباهلي الحمصي واصفاً حضوره القتال مع معاوية في صفين: "ولقد شهدت مشهداً ما أحب إن لي بذلك المشهد حمر النعم"[٦٠].

لم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل نجد الشاميون ينفردون بأحاديث يسندونها إلى الإمام علي (ع) ، تظهر ترحمه لقتلى صفين قائلاً: "إن الله جعل كفارة ذنوبهم قتلهم إياهم"[٦١]، ولكنهم بمقابل ذلك يجعلون من قتل علي (ع) لأصحاب النهروان (الخوارج) تعجيلا لهم إلى النار[٦٢].

ليس هذا فحسب بل نجد حديثاً أخذت المصادر تتناقله مفاده أن الرسول الكريم محمد (ص) قال: "لا تقوم الساعة حتى تقتتل فرقان تكون بينهم مقتلة عظيمة دعواهما واحدة"[٦٣]. ولا أحسب إلا أنها من الترويج الأموي لإسقاط حديث: "يا عمار تقتلك الفئة الباغية" ذلك الحديث الذي وصلت طرقه من الكثرة بمكان أن أفرد لها ابن عبد البر الأندلسي مصنفاً مستقلاً جمع فيه رواته أسماه: (الاستظهار في طرق حديث عمار)[٦٤].

إن مسلك ابن عساكر هذا كان بمثابة رد فعل للهجوم العنيف الذي شنه نصر بن مزاحم المنقري (ت ٢١٢هـ) في كتابه (وقعة صفين) ـ والذي بدوره كان أحد مصادره الرئيسة في الحديث عن هذه المعركة ـ إذ حشد الأخير مجموعة من الروايات التي تضمنت أقوالاً للإمام علي (ع) في ذم جيش معاوية وأصحابه من الشاميين وغيرهم[٦٥].

بالرديف من ذلك تأتينا رواية من مصدر يكاد يكون محايداً من بين رواة معسكري الشام والعراق: فيذكر أبو حنيفة الدينوري (ت٢٨٢هـ) رواية مفادها: "بلغ علياً أن حجر بن عدي وعمرو بن الحمق يظهران شتم معاوية، ولعن أهل الشام، فأرسل إليهما أن كفا عما يبلغني عنكما. فأتياه، فقالا: يا أمير المؤمنين، ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟، قال: بلى، ورب الكعبة المسدنة، قالوا: فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟، قال: كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعانين، ولكن قولوا: اللهم أحقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي من لجج به"[٦٦].

أمام هذا الأخذ والرد من المواقف انبرى ابن عساكر في كتابه هذا لكي يخفف من شدة التحامل من قبل الفقهاء والمتكلمين على الشاميين المشتركين مع معاوية في صفين والتي وصلت حدا كما لاحظنا إلى اعتبارهم مخلدون في النار كما لاحظنا، كما كان من بعض من شاطر ابن عساكر في توجهه هذا إلى تبني هذه الفكرة وتأكيدها، حتى انبرى للأجل ذلك أبي الخطاب بن دحية الكلبي ليعقد مصنفاً أسماه (إعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين) ويدرء الجدل الحاصل بين الناس حول هذا الموضوع[٦٧].

ولكن ومع كل ما ذكرناه فإن ابن عساكر في كتابه هذا لم تأخذ أفكاره وتبريراته تلك أبعاداً واضحة على مجمل الروايات التي ضمنها حول صفين والشخوص المشتركين في أحداث هذه المعركة، لدرجة لم يتجنب فيها إيراد الروايات العراقية عن هذه المعركة بما تحمله من وجهة نظر مغايرة لما أراد تبريره، حتى إننا نستطيع ومن خلال نقول ابن

عساكر عن كتاب نصر بن مزاحم المنقري (وقعة صفين) في كتابه (تاريخ مدينة دمشق)، إعادة تشكيل نسخة هذا الكتاب وبطريق آخر غير الطريق الذي سلكه ابن أبي الحديد حينما أورد كتاب صفين في ثنايا صفحات كتابه: (شرح نهج البلاغة)[٦٨]، الذي حقق على ضوءه كتاب صفين لنصر بن مزاحم بعد أن جمع شتاته من الأخير[٦٩].

ومن ثم فإن هذا المسلك من الشاميين قد أراده معاوية أن يشاع في أيام صفين وما بعدها، فقد تحدثت المصادر إن الأخير قد أرسل زفر بن الحارث إلى عائشة يخبرها بما جرى في هذه المعركة من أمور وحوادث، فيحدث هذا الرجل بما جرى في هذا اللقاء بينه وبين أم المؤمنين فيقول: "كنت رسول معاوية إلى عائشة بوقعة صفين فلما قدمت عليها قالت من قتل من الناس قلت عمار بن ياسر قالت ذاك رجل يتبعه الناس في دينه قالت ومن قلت هاشم الأعور قالت ذاك رجل ما كادت أن ترد رايته"[٧٠].

وصلت أيضاً إلى مسامع عائشة أبيات محمد بن عمرو بن العاص التي يصف بها مشهده في صفين وما جرى فيها، حتى وصفته بالقول: ما سمعت بشاعر أصدق شعراً منه، والأبيات هي:

لو شهدت جمل مقامي ومشهدي ... بصفين يوماً شاب منها الذوائب

غداة أتى أهل العراق كأنهم ... من البحر لج موجه متراكب

وجئناهم نمشي كأن صفوفنا ... شهاب حريق رفعته الجنائب

فقالوا لنا إنا نرى أن تبايعوننا ... فقلنا بل نرى أن نضارب

فطاروا إلينا بالرماح كأنهم ... وطرنا إليهم بالأكف قواضب

إذا ما أقول استهزموا اعترضت لنا ... كتائب منهم وارجحنت كتائب

فلا هم يولون الظهور فيدبروا ... فراراً كفعل الخادرات الدوائب

يدلل النص آنف الذكر عن أخبار صفين كانت تنقل وتروى منذ أيامها الأولى حتى إن هذا الاهتمام من قبل معاوية بوصول أخبار صفين إلى أم المؤمنين عائشة ليثير تساؤلاً حول المغزى من مسلك معاوية هذا؟.

مهما يكن من أمر فإن حدثاً خطيراً كوقعة صفين وما رافقتها من تبعات لا بد وأن يظهر كل تلك الخلجات التي وصلت حداً أن تأسست عليها نظريات سياسية تبناها ودافع عنها قوم ورفضها آخرون، فضلاً عن توالد تلك النظريات، لدرجة تداخلت معها الأفكار محل الخلاف[٧١]، لتظهر لنا هجيناً غير متجانس من النصوص التي أخذت تعبر عن وجهة نظر جماعة لها جمهورها وحضورها بين أفراد المجتمع، أخذت تقدم الحجج والبراهين على مصداقية موقفها[٧٢].

وتظهر لنا النصوص آنفة الذكر حجم الهوة التي كانت بين المعسكرين المتلاحمين في صفين.

المبحث الثاني

الرواة الشاميون لوقائع معركة صفين

أسهم الشاميون بقسط جيد في الرواية التاريخية لأحداث الإسلام الأولى تدفع ذلك عوامل وظروف فرضها الواقع الذي عاشه هذا الصقع من أصقاع المسلمين، إذ لم يكن مستوى وحجم الروايات والفكر المنقول والمسموع من أهل الشام بمستوى وحجم ما رواه أقرانهم ومعاصريهم المدنيون والعراقيون ببصرييهم وكوفييهم، وذلك راجع بحسب الظاهر إلى طبيعة الفاتحين لأرض الشام الذين يختلفون كلياً عن غيرهم من فاتحي البلدان الأخرى، فقد هاجر إلى بلاد الشام واستوطن فيها معظم مسلمة الفتح ومتأخري الإسلام من القبائل البدوية، تخبر بذلك الإحصائية التي قدمها ابن سعد (ت٢٣٠ هـ) حول من نزل الشام من صحابة رسول الله (ص)[٧٣]، يضاف إلى ذلك إن الطاعون والأوبئة ولاسيما طاعون عمواس قد حصد سنة ١٨ هـ أرواح أعداد غفيرة من الصحابة الأوائل الذين فتحوا الشام، وعلى رأسهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وشرحبيل بن حسنة، والفضل بن العباس بن عبد المطلب، كل ذلك قد أفقد الشاميين منابع وروافد مهمة للأخبار والأحداث التي شاهدوها وعاصروها والأحاديث التي سمعوها من فم النبي محمد (ص)، وكذلك الجيل الثاني من التابعين الذين أتوا بعدهم لم يكونوا بمؤازرة أقرانهم المدنيين والعراقيين لا من حيث العدد، ولا حتى حجم العلم المنقول عنهم.

أمام هذه الفرضية نجد الأمويين قد استعانوا بالمحابين لهم والموالين من أصحاب الحديث والرواية، من الأمصار الإسلامية ولاسيما المدينة والبصرة، واستقطابهم وإغداق الهبات عليهم، لكي يكوّنوا خطاً موازياً للرواية المعارضة (الكوفية) التي أخذت بالتعاضم والانتشار انتشار النار في الهشيم بين أفواه الرواة. فلم يسمحوا بانتشار أخبار السيرة النبوية لأن فيها أخبار علي بن أبي طالب ومآثره[٧٤]، وهذا ما يزعزع ثقة الناس بهم، وعوض عن ذلك ردم معاوية هذا الفراغ الفكري المتولد من تحجيم أخبار السيرة بأن شجع القصاص، واستقدم البعض منهم إلى الشام أمثال عبيد بن شرية، وأخذ يحدثهم بأساطير اليمن وأمجاد ملوكهم وأخبار الجاهلية وأيامها[٧٥]، وظل يراقب ما يقوله هؤلاء القصاص، حتى إنه أدرك أحدهم يقص بمكة بكلام لا يتطابق مع ما يريده من هذه الممارسة الإعلامية فقال له: "أمرت بهذه القصص؟ قال لا، قال فما حملك على أن تقص بغير إذن قال ننشر علما علمناه الله عزّ وجلّ فقال له معاوية: لو كنت تقدمت إليك لقطعت منك طابقاً"[٧٦].

فضلاً عن هذا كله فإن معاوية قد سن سنّة اتبعها من جاء بعده إلى أيام عمر بن عبد العزيز ألا وهي سب علي بن أبي طالب على منابر دمشق ومن ثم على منابر باقي أمصار المسلمين. حتى سأله مجموعة من أبناء عمومته عن ذلك المسلك قائلين له: "يا أمير المؤمنين،

إنك قد بلغت ما أملت، فلو كففت عن لعن هذا الرجل! فقال: لا والله حتى يربو عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلاً"[٧٧].

أمام هذا النص آنف الذكر يتبادر إلى الذهن تساؤل تفرضه الممارسات الموضوعية والعلمية حول قيمة الأحاديث والأخبار التي روت وفق هذا المسلك المعلن، ومدى حجم المسكوت عنه والمحذوف من تلك الروايات والتي تقاطعت مع التوجهات التي أوضحها النص السابق؟.

تحدثنا في المبحث السابق عن دور معاوية في تضليل الرأي العام في الشام، وما قام به من إخراس لصوت عبد الله بن عمرو بن العاص حينما رآه يلهج في معسكره وأمام جنده بحديث الفئة الباغية التي تقتل عمار بن ياسر، وهذا ما يجعل الأخبار المروية تتسم بسمة واحدة تكاد تكون محابية لما تريده الأسرة الأموية، وهذا ما دفع أصحاب الجرح والتعديل إلى نعت الشاميين بالقول: "غالب الشاميين فيهم توقف عن أمير المؤمنين علي(رضي الله عنه) من يوم صفّين، ويروون إنهم وسلفهم أولى الطائفتين بالحق"[٧٨].

ولكن هذا الأمر لم يكن ما يماثله عند رواة أهل العراق فقد تنوعت مشارب الإخباريين بين مؤيد ومحابي للأمويين وبين معارض لهم ولا سيما من عثمانية البصرة والكوفة أمثال عوانة بن الحكم (ت ١٥٨هـ) الذي وصفته المصادر بأنه كان يضع الأخبار لبني أمية[٧٩]، وزاد من اهتمام الأمويين به أن صنف لهم كتاباً أسماه: "سيرة معاوية وبني أمية"[٨٠]، والظاهر إن الأخبار التي أسندها الطبري إلى عوانة في حوادث صفين وما تبعها هي من هذا الكتاب[٨١].

يضاف إلى ذلك أن الروايات التي أوردها عوانة هي روايات تقف بالضد مما رواه أهل بلدته (الكوفة)، مما دفع ذلك أحد الباحثين إلى جعل عوانة في مصاف الرواة الشاميين الذين مثلوا الخط والرؤية الأموية التي أرادوا شياعها بين الناس[٨٢].

وكذلك كان حماد الراوية الكوفي (ت ١٥٥هـ)، إذ نعته المدائني بالقول: "كان من أعلم الناس... وكانت ملوك بني أمية تقدمه وتستزيره، فيفد عليهم وينادمهم، ويسألونه عن أيام العرب وعلومه ويجزلون صلته"[٨٣].

هذا بالنسبة إلى الإخباريين أما بالنسبة إلى المحدثين الرواة فقد كانوا هم الآخرين قد انقسموا بين مؤيد ومتبن للأيديولوجية السياسية للأمويين وبين معارض، وقسم بين هذا وذلك وفق ما تمليه الظروف والمتغيرات، ولاسيما آل الزبير الذين تنوعت رواياتهم بين مناوئة للأمويين ومنسجمة معهم، إذ استقطب الأمويين كل من عامر الشعبي وعروة بن الزبير ومحمد بن شهاب الزهري وأغدقوا عليهم الهبات والعطايا حتى صاروا يمثلون في توجهاتهم وجهة النظر الأموية، بعد أن كانا يمثلان وجهة نظر المعارضة، إذ اشترك الشعبي بثورة عبد الرحمن بن الأشعث (٨١ ـ ٨٢ هـ) ضد الحجاج وعبد الملك بن مروان، ولكنه أصبح فيما بعد أحد

الشخصيات المقربة جداً من الأخير، لدرجة نسى فيها مواقفه السابقة المعادية له حتى نجده قد مثل وجهة النظر الشامية في مسارات الحوادث السابقة، ولاسيما موضوعة البحث (صفين) إذ قال وصف المتقاتلين فيها ومن المعسكرين بالقول: "هم أهل الجنة، لقي بعضهم بعضاً فلم يفر أحد من أحد"[٨٤].

إن هذه الرواية آنفة الذكر تعطي مؤشراً للتحول الذي بلغه الشعبي في توجهاته الفكرية، وهذا سينعكس بلا ولا ريب شكل على مضمون ما سيقوله ويرويه من أحاديث وروايات تقف بالضد مما روته مدرسة الكوفة المعروفة بمعارضتها للدولة والأيديولوجية الأموية.

وكان عروة من الذين طلبوا الأمان من الحجاج بن يوسف الثقفي حين محاصرته مكة أيام ثورة أخيه عبد الله سنة (٧٣هـ).

تنقسم الأخبار التي رواها أهل الشام عن صفين إلى قسمين:

القسم الأول: أخبار أهل الشام ممن اشترك فعلياً في مجريات هذه المعركة، ويشمل ذلك كل من روى خبراً عن صفين من جيش أهل الشام أو سأل عن أخبارها، وهؤلاء النفر لم يكونوا بالكثرة إزاء أقرانهم الكوفيين، إذ دون إخباريو الكوفة أسماء المشتركين مع جيش الإمام علي (ع) في صفين، وهو مما لم نجده عند الشاميين، فقد ذكرت كتب البيليوغرافيا في أسماء مصنفات هشام بن السائب الكلبي تخصيصه لثلاثة منها لإحصاء أعلام المشتركين مع الإمام علي (ع) في معركة صفين وهي[٨٥]:

١: كتاب من شهد صفين مع علي من الصحابة.

٢: كتاب من شهد صفين مع علي من الأنصار.

٣: كتاب من شهد صفين مع علي من البدريين.

لم تصل إلينا هذه المصنفات وضاعت مع ما ضاع من تراثنا الفكري، ولكن من مراجعة القوائم المطولة التي أثبتها القاضي أبي حنيفة النعمان المغربي (ت ٣٦٣هـ) في: "تسمية من شهد مع علي حروبه من المهاجرين والأنصار الذين بشرهم رسول الله (ص) بالجنة ومن التابعين ومن أفاضل العرب"[٨٦] نحتمل إدراج هذه المصنفات في قوائمه تلك.

أما المشتركين من أهل الشام في هذه المعركة فلم يفرد الشاميون مصنفات مستقلة في إحصاءهم، وأحتمل إن ذكر تلك الأسماء ومواقفها لم تكن من المسائل التي يفتخر بها أو يتباهى إمام الناس بذكرها، على اعتبار أن موقفهم في صفين ليس مما يكزن مدعاة للفخر بحيث يقوموا بإفراد رسائل أو مصنفات مستقلة له كما صنع أصحاب المعسكر الآخر، وإن دونت أسماء المشتركين منهم فقد جاءت من غيرهم، فهذا محمد بن حبيب (ت ٢٤٥هـ) يورد قائمة بإعلام المشتركين مع معاوية في صفين، إذ يقول: "شهد صفين مع معاوية بن أبي سفيان (عمرو) بن العاص بن وائل السهمي. (عبد الله) بن عمرو بن العاص زمل بن خشاف بن خديج

العذري. وفد على رسول الله صلى الله عليه وكتب له كتاباً، وعقد له لواء. فشهد بلوائه ذلك صفين مع معاوية. (بسر) بن أبي أرطاة أحد بني عامر بن لؤي. يقال إن رسول الله صلى الله عليه قبض وهو صغير لم يرو عنه شيئاً ويقال بل روى عنه أنه: "بسارق من الغنم فلم يقطعه" (حبيب) بن مسلمة الفهري، روى أنه أتى النبي صلى الله عليه وهو بالمدينة فأدركه أبوه فقال: "يا نبي الله! يدي ورجلي فقال له ارجع به فإنه يوشك أن يهلك. قال فهلك أبوه في تلك السنة. وقبض النبي صلى الله عليه وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، ولم يغز معه شيئاً وله أحاديث يرويها عن النبي صلى الله عليه وكان مع معاوية بصفين. ووجهته نائلة بقميص عثمان رحمه الله إلى معاوية إلى الشام، فنزل الشام والعراق وصار ولده بعد ذلك إلى المدينة وبغداد. وكان أحد عمال معاوية على الكوفة. (صحار) بن عباس العبدي من بني مرة ابن ظفر بن الديل وفد على النبي صلى الله عليه. وكان صحار ممن طلب بدم عثمان. (عقبة) بن عامر الجهني. صحب رسول الله (ص) فلما ندب أبو بكر الناس إلى الشام خرج فشهد فتوح الشام ومصر ونزل مصر وبنى بها داراً شهد مع معاوية صفين (خارجة) بن حذافة كان خليفة عمرو بن العاص بمصر وإياه ابن عبيد. شهد أحد والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه ثم خرج إلى الشام ونزل دمشق وكان على قضاء معاوية (الصمة) بن قيس له أحاديث عن رسول الله (ص). وكان على شرط معاوية. (الحكم) بن عمرو الغفاري. صحب النبي صلى الله عليه حتى قبض. وتحول إلى البصرة وبنى بها داراً. ولاه زياد بن أبيه خراسان فلم يزل والياً عليها حتى مات بها في زمن معاوية (سمرة) ابن جندب الفزاري. ولى شرطة زياد بن أبيه. (المغيرة) بن شعبة. ولى الكوفة لمعاوية. (معاوية) بن خديج الكندي. قاتل محمد بن أبي بكر الصديق رحمه الله بمصر. (الضحاك) بن قيس الفهري. له أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه. كان على شرط معاوية. (عدي) بن عميرة بن فروة بن زرارة بن الأرقم بن النعمان بن عمرو بن وهب بن ربيعة بن معاوية الأكرمين. ولبنى الأرقم مسجد بالكوفة. فلما قدم الكوفة على رضي الله عنه جعل أصحابه يتناولون عثمان. فقال بنو الأرقم: لا نقيم ببلد يشتم فيه عثمان. فخرجوا إلى الجزيرة فنزلوا الرها. وشهدوا مع معاوية صفين. فضرب عدى ابن عميرة يومئذ على يده. (أبو الغادية) شهد مع رسول الله صلى الله عليه الحديبية. وروى أنه قاتل عمار بن ياسر رضي الله عنه، ويقال إن الذي قتله حوي بن ماتع السكسكي جد نوح بن عمرو الذي كان مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الخراساني وذكروا أنه شرك في قتل عمار رحمه الله خمسة نفر كلهم يدعى قتله. فكان أبو الغادية الذي حز رأسه"[٨٧].

ويقدم خليفة بن خياط قائمة أخرى بأسماء المشتركين في صفين مع معاوية من أمراء الجيش وزعماء القبائل وقادة الألوية، فيقول: "كان لواء معاوية مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى الرجالة مسلم بن عقبة المري، وعلى الميمنة عبد الله بن عمرو بن العاصي، وعلى الميسرة حبيب بن مسلمة

الفهري، وأهل حمص الميمنة ذو الكلاع، وعلى أهل قنسرين على الميمنة زفر بن الحارث، وعلى أهل الأردن الميسرة أبو الأعور السلمي، وعلى أهل فلسطين الميسرة مسلمة بن مخلد، وعلى رجالة أهل دمشق بسر بن أرطاة، وعلى رجالة أهل حمص حوشب ذو ظليم، وعلى رجالة أهل قنسرين طريف بن الحسحاس الهلالي، وعلى رجالة أهل الأردن عبد الرحمن القيسي، وعلى رجالة أهل فلسطين الحارث بن عبد الأزدي، وعلى رجالة الميمنة كلهم حابس بن سعد الطائي، وعلى رجالة الميسرة بلال بن أبي هريرة الدوسي، وعلى قيس دمشق حسان بن بحدل الكلبي، وعلى قضاعة مصر عباد بن يزيد الكلبي، وعلى كندة دمشق ابن حوي السكسكي، وعلى كندة حمص يزيد بن صبيرة السكوني، وعلى الحضرميين والحميريين ابن عفيف، وعلى قضاعة الأردن حبيش بن دلجة، وعلى كنانة فلسطين شريط الكناني، وعلي مذحج الأردن مخارق بن الحارث الزبيدي، وعلى جذام فلسطين ولخمها ناتل بن قيس الجذامي، وعلى همدان الأردن حمرة بن مالك، وعلى خثعم ولفها فلان بن عبد الله الخثعمي، وعلى غسان الأردن يزيد بن أبي النمس"[٨٨].

القسم الثاني: الذين سمعوا ودونوا أخبار المشتركين من أهل الشام في صفين، وهؤلاء هم الذين كان عليهم المعول في حفظ أخبار هذه المعركة وهم:

الوليد بن مسلم، أبو العباس الدمشقي من الشاميين مولى آل مسلمة بن عبد الملك، توفي سنة ١٩٥هـ[٨٩]، وصفته المصادر بأنه كان عالما بأيام أهل الشام[٩٠].

روى الوليد عن صفين - بحسب ما وصلت إليه أيدينا من المصادر - موقف أبي هريرة في أيامها، إذ نقل رواية يسندها إلى شيوخ شهدوا صفينا ما نصها بحسب قولهم: "أتينا جبل الجودي فإذا نحن بأبي هريرة فوافيناه قابضاً بيديه إحداهما بالأخرى خلف ظهره متكئاً على الجبل يذكر الله تعالى فسلمنا عليه فرد السلام فقلنا أخبرنا عن هذه الفتنة فقال: إنكم تنصرون فيها على عدوكم ثم قال: تكون فتنة ما هذه عندها إلا كالماء في العسل تتركم وأنتم قليل نادمون"[٩١].

وفي نص آخر ينفرد الوليد برواية محاورة جرت بين الإمام علي وقيس بن عباد يسأله فيها الأخير عن مشروعية قتالهم في صفين وإهراق هذه الدماء الكثيرة، إذ قال لصاحبه: "انطلق بنا إلى هذا الرجل نسأله هل عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا أو رأياً رآه قال فانطلقنا حتى أتيناه فقلنا تبلغ الجراحة منا ما ترى وإنا نذكرك الله والإسلام هذا شيء عهده إليك النبي أم رأيا رأيته فقال إلى هذا ألا نذكرك الله والإسلام مرتين أو ثلاثاً قال بل رأياً رأيته وما عهد إلي النبي صلى الله عليه وآله فيه بشيء ولكن قتل عثمان فبايع الناس ورأيت أني أحق بها فقالا له على ما نهرق مهج دمائنا في أجرة الرجال فجلسا في بيوتهما"[٩٢]. يعلق الطبراني على هذه الرواية بأنها مما تفرد بروايته الوليد بن مسلم[٩٣].

وهناك شخصيات أخرى أسهمت في رواية أخبار هذه الوقعة مما يدفعنا إلى إعادة تشكيل وقعة متكاملة لصفين كالتي كتبها نصر بن مزاحم ولكن من طرق أهل الشام حصراً.

هوامش البحث:

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (صفين) ٢٤٥/١٤.

(٢) المصدر نفسه، مادة (صفين) ٢٤٥/١٤ ـ ٢٤٨.

(٣) ينظر: تاريخ الدولة العربية وسقوطها، ص ٧٠ ـ ٨٠.

(٤) ينظر: الخوارج والشيعة، ص ١١٣.

(٥) ينظر: تاريخ الدولة العربية وسقوطها، ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٦) ينظر: هشام جعيط، الفتنة، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٧) ينظر: عبد العزيز الدوري، بحث في نشأة علم التاريخ، ص ١٣١ ـ١٣٣.

(٨) ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، لامانس، مادة (آذرح) ٥٦٦/١ ـ ٥٦٧، بول، مادة (صفين) ٢٤٥/١٤ ـ ٢٤٨، شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص٨٦.

(٩) ينظر: صالح العلي، أهل الكوفة في صدر الإسلام، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

(١٠) ينظر: نجدة خماش، الشام في صدر الإسلام، ص ١٠١ ـ ١٠٣.

(١١) ينظر: الشافعي، كتاب الأم ٢٣٦/٤ ـ ٢٣٨.

(١٢) ينظر: نجدة خماش، الشام في صدر الإسلام، ص ١٥٥ ـ ١٨٧.

(١٣) ينظر: عمار نصار، تطور كتابة السيرة النبوية، ص٤٦ ـ ٤٧، ٦٨.

(١٤) ينظر: المنقري، وقعة صفين، أنساب الأشراف، الأخبار الطوال، تاريخ دمشق.

(١٥) ابن دحية الكلبي، إعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين، ص٥٩.

(١٦) إعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين، ص٨٤ ـ ٨٥.

(١٧) شرح نهج البلاغة ٩/١.

(١٨) فتح الباري ٤٥٢/١.

(١٩) ابن عساكر، تاريخ دمشق ٣٤٦/١.

(٢٠) مرجليوث، دراسات عن المؤرخين العرب، ص٩٦ ـ ٩٧.

(*) أبو خالد الكلاعي: ثور بن يزيد بن زياد الكلاعي شامي من أهل حمص عد من الطبقة الرابعة مات ببيت المقدس في خلافة أبي جعفر المنصور سنة ١٥٣ هـ، وكان جده زياد ممن اشترك في صفين مع معاوية وقتله الإمام علي (ع) بسيفه. ينظر

(٢١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٨٦/١١.

(٢٢) ميزان الاعتدال، ٥٥١/٣ ـ ٥٥٢.

(٢٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣١/٤٣.

(٢٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٩١/٥٤.

(٢٥) المسعودي، مروج الذهب، ٣٩٤/٢.

(٢٦) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ١٢٣/١، ابن عساكر، تاريخ دمشق ١٥٢/٦٥ ـ ١٥٣، ابن كثير، البداية والنهاية ٢٩٠/٧.

(*) حوشب الحميري:

(٢٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٩٠/٣٧، ابن الأثير، أسد الغابة ٢٩٠/٣٧.

(٢٨) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة.

(٢٩) تاريخ دمشق، ٣٩٢/١٧، شرح نهج البلاغة ١٩٢/٥.

(٣٠) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٠٥/٦٠.

(٣١) الإرشاد ١٤/٢، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٥٠/٥٩، شرح نهج البلاغة ١٥/١٦.

(٣٢) تاريخ دمشق، ١٥٠/٥٩، شرح نهج البلاغة ١٥/١٦.

(٣٣) ينظر، شعبان، صدر الإسلام والدولة الأموية، ص٨٥.

(٣٤) تاريخ دمشق، ١٥٠/٥٩، شرح نهج البلاغة ١٥/١٦.

(٣٥) تاريخ دمشق، ١٥٠/٥٩، شرح نهج البلاغة ١٥/١٦.

(٣٦) ينظر عن آثر هذه الأحاديث والأخبار في مسار الحوادث في معركة صفين، عمار نصار، أخبار الملاحم والفتن وآثرها في العقلية العربية، ص١٣٦ ـ ١٣٩، ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٣٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤١٤/٤٣.

(٣٨) ينظر، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣٦٠/١٠.

(٣٩) ينظر، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤٧٩/٤٣.

(٤٠) ينظر، تاريخ دمشق، ٣٠٦/١٨.

(٤١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٧٣/٣٩.

(٤٢) المحبر، ٢٩٦.

(٤٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٤٤٢/٩.

(٤٤) ينظر، عمار نصار، أخبار الملاحم والفتن وآثرها في العقلية العربية، ص١٩٤ ـ ٢٠٢.

(٤٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٧١/٣١.

(٤٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٨٠/٣١.

(٤٧) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٨٠/٣١.

(٤٨) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٨٠/٣١.

(٤٩) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٨٠/٣١.

(٥٠) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٧٥/٣١.

(٥١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٨٠/٣١.

(٥٢) ينظر، مروج الذهب ٤١/٣.

(٥٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق ٣٧١/٢٤.

(٥٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق ٢٤٩/١٨.

(٥٥) تاريخ دمشق، ١٥٠/٥٩، شرح نهج البلاغة ١٥/١٦.

(٥٦) ينظر، تاريخ دمشق، ٣٤٢/١ ـ ٣٤٩.

(*) حابس بن سعد الطائي:

(*) شرحبيل بن ذي الكلاع الحميري:

(٥٧) ينظر، تاريخ دمشق، ٣٥١/١١ ـ ٣٥٣، ٣٩٦/١٧.

(*) علقمة بن قيس النخعي:

(٥٨) وقعة صفين، ٢٨٧، تاريخ الطبري ٣٢/٥.

(٥٩) ينظر، تاريخ دمشق، ٣٣٤/١ ـ ٣٤٢.

(٦٠) ينظر، تاريخ دمشق، ٤٦٥/٧.

(٦١) ينظر، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٧٧/٣٨.

(٦٢) ينظر، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣٩٦/١٧.

(٦٣) ينظر، البخاري، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣٩٦/١٧.

(٦٤) ينظر، ابن عبد البر، الاستيعاب، ٣٢/٢.

(٦٥) ينظر: وقعة صفين، ص ٢٥١، ص٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٦٦) الأخبار الطوال: ١٦٥، وقعة صفين، ص ٢٥١، ص٣٢٢ ـ ٣٢٣.

(٦٧) إعلام النصر المبين في المفاضلة بين أهل صفين.

(٦٨) شرح نهج البلاغة ٩/١.

(٦٩) كتب الأستاذ عبد السلام هارون عرضاً تفصيلياً للطريقة التي من خلالها استطاع تجميع كتاب (وقعة صفين) لنصر بمزاحم، وتحقيقه. ينظر، تحقيق النصوص ونشرها ص٥٥.

(٧٠) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٣٥/١٩.

(٧١) ينظر، الريس، النظريات السياسة الإسلامية، ٤٦ ـ٥١.

(٧٢) ينظر، القاضي أبا بكر بن العربي، العواصم من القواصم، ١٦٤ ـ ١٦٨.

(٧٣) ينظر، الطبقات الكبرى، ٣٨٤/٧ ـ ٤٣٩.

(٧٤) ينظر، أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٤/٢٢.

(٧٥) ينظر، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ٢٠٢/٣٨ ـ ٢٠٥، الإصابة ٨٩/٥.

(٧٦) البلاذري، أنساب الأشراف، ابن أبي عاصم، المذكر والتذكير والذكر، ٨٥.

(٧٧) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٥٧/٤.

(٧٨) ميزان الاعتدال، ٥٥١/٣ ـ ٥٥٢.

(٧٩) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ٩٤/٦، ابن حجر، لسان الميزان ٣٨٦/٤.

(٨٠) الفهرست، ١٠٣، سير أعلام النبلاء ٢٠١/٦.

(٨١) الطبري ٥.

(٨٢) حسين عطوان، الرواية التاريخية في بلاد الشام في العصر الأموي، ٤٤.

(٨٣) الأغاني ٧٠/٦، معجم الأدباء ٣٧/٤، وفيات الأعيان ٢٠٦/٢.

(٨٤) تاريخ دمشق ٤٨٨/١١، البداية والنهاية ٣٠٨/٧.

(٨٥) أغا بزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة ٢٢٩/٢٢.

(٨٦) ينظر، شرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار ١٦/٢ ـ ٣٦.

(٨٧) المحبر، ٢٩٣ ـ ٢٩٦.

(٨٨) تاريخ خليفة بن خياط.

(٨٩) الطبقات الكبرى ٤٧١/٧، التاريخ الكبير ١٥٢/٨ ـ ١٥٣، تاريخ دمشق ٢٨٣/٦٣ ـ ٢٨٥.

(٩٠) تهذيب التهذيب ٨٦/٥.

(٩١) نعيم بن حماد، الفتن: ١٩.

(٩٢) الطبراني، المعجم الأوسط ٦٩/٢.

(٩٣) المعجم الأوسط ٦٩/٢. ❖

السّياسة العَلَويّة السّلميّة

دِرَاسَةٌ تَحْلِيْلِيَّةٌ

د. الشيخ عَبّاس كَاشِف الغِطَاء

مقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد خاتم النبيين وسيد المرسلين، وعلى آله الغر الميامين.

إن السِلم كان وما زال حقيقة وأصلاً تنشده الإنسانية أفراد ومجتمعات ودولاً، وهدفاً تسعى إليه طيلة الأحقاب الزمنية المترامية في تاريخها، كما أنه سعادة البشر التي يهدف إليها الإنسان، وهو حلم كل إنسان ودعوى كل قانون، إنه الغاية لمجتمعه لا يمكنها أن تتحقق إلا في ظل السلام الدائم، فيصبح السلام هو القاعدة الدائمة، والحرب هي الاستثناء.

واليوم العالم بأسره يعيش في قلق، وسلامه مهدد، حيث لم يقم إلا على توازن الرعب النووي، ولم يعد للدول سلام حقيقي ما لم تكن لها القوة الكافية التي ترهب وتخيف أصحاب النزعات العدوانية.

وفي هذا البحث نحاول أن نستعرض السياسة العلوية السلمية من خلال بيان فقه السلم عند الإمام علي بن أبي طالب (ع) ببيان بعض الأحكام، وأبرز المبادئ التي ثبتها في المجتمع الإسلامي ومزاياها العملية الواقعية، وقد قسّمتُ البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، في المبحث الأول مفهوم السلم في اللغة، والمبحث الثاني مفهوم السلم في المنظور القرآني، والمبحث الثالث سياسة السلم عند الإمام علي بن أبي طالب (ع)، وخاتمة قد أوجزت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال بحثي هذا.

وأنا آمل أن أصل ولو إلى بعض ما سَعيتُ من أجله وهو الكشف عن الحقيقة بأن الإمام علي (ع) رجل سلام وسلم، وإنما الحروب فُرضت عليه، ومِن أجل ذلك كان الإمام علي (ع) داعية السلم الأكبر مع كثرة الشغب والفتن التي أثارها النفعيون والوصوليون في طريق سيرته الإصلاحية، فإن أصبت فمن توفيق الله عليّ، نشكره ونحمده أولاً وآخراً.

اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يرجع السلام، أحينا بسلام وأمتنا بسلام وابعثنا بسلام وكرمنا برضاك عن عملنا وجازنا بالعفو من الزلل في دار السلام.

المبحث الأول
مفهوم السلم في اللغة

السلم والسلام: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة، ومنه قيل للجنة دار السلام: لأنها دار السلامة من الآفات، والسلام: اسم من أسماء الله تعالى، قيل: وُصف بذلك من حيث لا يلحقه العيوب والآفات التي تلحق الخلق.

والسلام يكون بمعنى السلامة. وقول الناس: السلام عليكم، أي: السلامة من الله عليكم. والإسلام: الاستسلام لأمر الله تعالى وهو الانقياد لطاعته، والقبول لأمره. والسَّلم: ضد الحرب، ويقال: السَّلم والسّلم واحد.

والسلام والسِلم والسَلم: الصلح، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا ﴾[2].

وقيل: السِلم بإزاء الحرب، والإسلام: الدخول في السلم، وهو أن يُسلم كل واحد منهما أن يناله من ألم صاحبه.

والسَلم والسلام: شجرٌ عظيم، كأنه سُمي لاعتقادهم أنه سليم من الآفات، والسِلام: الحجارة الصلبة[3].

وجاء في لسان العرب، إن السَلم، السِلم: الصلح بفتح وكسر ويُذكر ويؤنث، والسَلم: السلام كالسِلم، وقد سالمه مسالمة وسلاماً.

والسِلم: المسالم، تقول: أنا سِلمٌ لمن سالمني، وقومٌ سِلم وسَلمٌ: مسالمون، وكذلك امرأة سِلمٌ وسَلمٌ.

وقال الخطابي: السَلَم بفتح السين واللام: الاستسلام والإذعان، والسِلم: الصلح.

وحُكي: السِلم والسَلم: الاستسلام، وضد الحرب أيضاً[4].

وورد في المعجم الوسيط: سَلم، سِلم: سلام، أمان، وهو خلاف الحرب[5].

---

(١) سورة البقرة، من الآية ٢٠٨.

(٢) سورة الأنفال، من الآية ٦١.

(٣) المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، ضبط هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ص٢٤٨.

(٤) لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ)، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ١٩٩٠م، ج١٢، ص٢٩٣.

(٥) المعجم الوسيط، الدكتور أنصار أحمد وآخرون، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ج١، ص٢١٧.

المطلب الثاني

مفهوم السلم في المفهوم القرآني

الإسلام يوجب على أتباعه حل المنازعات بينهم وبين غيرهم بالطرق السلمية، فنجد الإسلام عبر قرون عديدة في مواجهة حضارات متعددة وديانات مختلفة، فتعامل بالحكمة والتعايش وذلك من خلال التوجيه الحكيم والإرشاد الأمين.

وردت مادة (س ل م) في القرآن الكريم بصيغ ودلالات مختلفة وذلك في مائة وأربعين موضعاً[١].

وقد جاءت في مائة واثني عشر موضعاً بصيغة الاسم، منها قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾[٢]، فهو أمر بقبول السلم إذا ما مال إليه العدو ورغب فيه، يقول الفخر الرازي في تفسيره: (إذا مالوا إلى الصلح فالحكم قبول الصلح)[٣].

وإنّ تعبير القرآن بالجنوح عن الميل فيه إشارة إلى ترجيح داعي السلم في الإسلام على داعي الحرب، فإن الجنح والجنوح مأخوذ من الجناح، فهو تعبير عن الميل إلى أحد الجانبين المتقابلين داعي السلم وداعي الحرب[٤]. فالآية تلوّح في رغبة الإسلام العميقة في السلام وقوة دعوته إليه.

ووردت في ثمانية وعشرين موضعاً بصيغة الفعل، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[٥].

وقد وردت هذه المادة اللغوية في القرآن الكريم دالة على ثمانية معان رئيسية، بالإضافة إلى معناها اللغوي وهو الصلح، وهي:

اسم من أسماء الله تعالى، السلام، فقد ورد في قوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾[٦]، فالسلام في الآية اسم من أسمائه سبحانه، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٧]، فدار السلام هنا تعني دار الله[٨].

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي. ضبطها ورتبها محمد سعيد الفحام، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٧م.

(٢) سورة الأنفال، من الآية ٦١.

(٣) التفسير الكبير، الفخر الرازي محمد بن عمر، طهران، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بدون تاريخ، ج١٥، ص١٨٧.

(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثانية، بدون تاريخ طبع، ج١٠، ص٦٩.

(٥) سورة الأحزاب، ٥٦.

(٦) سورة الحشر، من الآية ٢٣.

(٧) سورة الأنعام، من الآية ١٢٧.

(٨) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ج١، ص٥٠٢.

أما السلام بمعنى الإسلام فمنه قوله تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾[١]، أي طرق السلامة من العذاب بالإسلام[٢].

ونحو قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾[٣]، روى العياشي عن الإمام الصادق (ع): (السلم ولاية الإمام علي (ع) والأئمة المعصومين من بعده)[٤].

وأما السلام بمعنى التحية المعروفة، فقد وردت في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾[٥]، فالسلام هنا بوساطة رسول الله (ص) أو انه من الرسول (ص) مباشرة، وهو على كلا الاحتمالين دليلٌ على القبول والترحيب والتفاهم والمحبة[٦]، ومثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾[٧]، جاء في تفسير الآية الكريمة عن الإمام الباقر (ع) قال: (إذا دخل الرجل منكم بيته فإن كان فيه أحد يُسلم عليهم، وإن لم يكن فيه أحد فليقل: السلام علينا من عند ربنا، يقول الله: تحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً)[٨].

والسلام كذلك بمعنى السلامة من كل شر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ ﴾[٩]، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾[١٠]، فالسلام يشير إلى السلامة من أي أذى وألم والأمن من كل خطر[١١].

ومن معاني السلام في المنظور القرآني كذلك الثناء الجميل، ومنه قوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾[١٢]، فبعد تحمل نوح (ع) كافة الصعاب والآلام منحه الله سبحانه وتعالى وساماً خالداً يفتخر به في العالمين[١٣]، ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾[١٤].

---

(١) سورة المائدة، من سورة ١٦.

(٢) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، ج١، ص٤٠٢.

(٣) سورة البقرة، من الآية ٢٠٨.

(٤) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، ج١، ص١٧٨.

(٥) سورة الأنعام، من الآية ٥٤.

(٦) الأمثل في كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، ج٤، ص٢١١.

(٧) سورة النور، من الآية ٦١.

(٨) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، ج٢، ص٥٤٠.

(٩) سورة هود، من الآية ٤٨.

(١٠) سورة الحجر، الآية ٤٦.

(١١) الأمثل في كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج٨، ص٦٠.

(١٢) سورة الصافات، الآية ٧٩.

(١٣) الأمثل في كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج١٤، ص٢٤٨.

(١٤) سورة الصافات، الآية ١٠٩.

ومن معاني السلام في القرآن الكريم الخير، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[١]، فالسلام هنا لا بمعنى سلام التحية الذي هو علامة المحبة ورابطة الصداقة، بل هو علامة اللامبالاة المقترنة بالعظمة، وليس الناشئ من الضعف، والسلام الدال على عدم المقابلة بالمثل حيال الجهلة والحمقى، سلام الوادع لأقوالهم غير المتروية[٢]. ومثل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾[٣].

وأما السلام الذي هو بمعنى خلوص الشيء من كل شائبة فمن قبيل قوله تعالى ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾[٤]، أي خالصاً لواحد ليس لغيره عليه سبيل[٥].

فالملحوظ أن الإسلام يرغب في السلام ويحرص عليه، ويدعو إليه، ويعتبره هدفاً أصيلاً لدعوته، كما يتجلى ذلك في تعاليمه وأحكامه وآدابه، وهو أيضاً يكره الحرب وينفر منها، ويحرص على أن يتفاداها ما استطاع، وإذا ما وقعت يحاول أن يضيّق دائرتها، وأن يقلل خسائرها، ويخفف من آثارها ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

ومن دلائل ذلك إن السلام والإسلام مشتقان من مادة واحدة وهي (س ل م) وقد قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[٦]، وقد فُسّرت كلمة السلم في الآية بالسلام المقابل للحرب[٧]، وبهذا تكون الآية دعوة للمؤمنين أن يدخلوا في السلام جميعاً، ولا يعرضوا عنه إذا دُعوا إليه.

وفسّرت أيضاً كلمة السلم بالإسلام[٨]، أي: ادخلوا في شعب الإسلام كافّة، عقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته، فتدخلوا بذلك في السلم الحقيقي سواء أكان ذلك مع أنفسكم أم مع مجتمعاتكم أم مع الناس كافة.

ومن الدلائل على ذلك أيضاً إشاعة كلمة السلام في المجتمع، وجعله تحية الإسلام.

ومن الالتفاتات القرآنية بهذا الشأن أنه سمّى صلح الحديبية بـ(الفتح المبين). ويُعبر القرآن الكريم عن ذلك بسورة الفتح بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[٩]، فهو هنا لا يمتن بكف أيدي المشركين عن المؤمنين فقط،

---

(١) سورة الفرقان، من الآية ٦٣.

(٢) الأمثل في كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج١١، ص٢٢١.

(٣) سورة الزخرف، من الآية ٨٩.

(٤) سورة الزمر، من الآية ٢٩.

(٥) تفسير الصافي، الفيض الكاشاني، ج٣، ص٢٤٢.

(٦) سورة البقرة، الآية ٢٠٨.

(٧) الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، تحقيق إياد باقر سلمان، قدم له السيد كمال الحيدري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ج٢، ص٨٥.

(٨) الميزان في تفسير القرآن، العلامة محمد حسين الطباطبائي، ج٢، ص٨٥.

(٩) سورة الفتح، من الآية ٢٤.

بل يمتن أيضاً بكف أيدي المؤمنين عن المشركين أيضاً ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾. وهذا من أنصع الدلائل على تحبيب إشاعة السلام بين الطرفين.

ومن ذلك يتبين أن الأمل السلمي هو الركيزة الأساسية في التشريع الإسلامي والقرآني في مختلف مجالات العلاقات الإسلامية، سواء أضاق إطار هذه العلاقات أم اتسع ليشمل الاجتماع الإنساني بأوسع نطاقاته. فالمضمون السلمي من المضامين الثابتة في التشريع الإسلامي[١].

وهذا ما يدل عليه بوضوح قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٢].

ويؤكد هذا النص القرآني على مبدأ التعارف، وهو مبدأ لا يمكن أن يحصل من الناحيتين النفسية والعملية من دون جو وإطار سلميين. فالذي يجب أن ينبثق من حالة التنوّع هو تنمية العلاقات السامية بين الجماعات المتنوعة ليكون مآل ذلك إلى حالة التكامل بين الناس، وهذا يعني أنه لا يجوز أن يتحول التحول الذي يحمل إمكانية التواصل التكاملي إلى تناقص يُبعد الجماعات الإنسانية عن حالة السلم[٣].

فهذا النص يوجه دعوة إلى الجماعات الإنسانية كافة بتوثيق السلم بينهما، والمحافظة عليه بالتعاون والتعارف والتآلف، ونبذ التعادي والتقاتل، وإن اختلافهما في الإقليمية والشعوب ليس موجباً للتنافر؛ لأنه في الأصل كالأسرة المتكونة من ذكر وأنثى تعيش على المحبة والمودة[٤].

وبمثل هذه الدعوة للتعاون قوله تعالى أيضاً: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٥].

قائمة تطبيقات قرآنية كثيرة تحث على التعامل بأعلى مستويات السلوك السلمي وإن لم يتعامل الآخر سلمياً كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٦]، وبهذا تكون هذه الآية القرآنية قد دعت إلى التعامل مع فعل هدامي لا يحمل معنىً سلمياً بتصرفٍ سلمي بمستوى البر والتقوى.

---

(١) دراسات في نهج البلاغة، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الطبعة الثانية، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م، ص٢٤.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٣) دراسات في نهج البلاغة، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، ص٢٣.

(٤) الإسلام عقيدة وشريعة، شيخ محمود شلوت، القاهرة، دار القلم، بدون تاريخ، ص٤٦٤: العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة، القاهرة، دار القوصية، ١٩٦٤، ص٢٠.

(٥) سورة الممتحنة، الآية ٨.

(٦) سورة المائدة، من الآية ٢.

وفي الوقت الذي يحث القرآن الكريم المؤمنين بالله على الدخول في سلم عام وشامل مع الناس جميعاً، فإنه يعتبر أن مخالفته عمل عدواني من خطوات الشيطان التي يريد بها الوقيعة بين الناس، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[1].

كما تتضح أولوية السلم في التشريع القرآني في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[2]، فالميثاق السلمي محترم في الإسلام ومقدّم، وإن كان فيه بعض الضرر على بعض المسلمين.

كذلك لم يجوّز الإسلام مقاتلة من يلقي السلم، ولا يمارس الحرب على المسلمين. يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾[3].

أما في حالة صد العدوان على المسلمين، فقد أباح الإسلام المواجهة بالمثل من أجل ضرورة السلامة والأمن، إلا أنه لم يبح أي فعل يخرج عن حد إطار الفعل العدواني المقابل، يقول الله تعالى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[4].

ومن النصوص التشريعية القرآنية المتقدمة يظهر إن الأولوية والأصالة تكون للسلم، وإنه هو الأصل في العلاقات الدولية للدولة الإسلامية، وإن السلم قاعدة أساسية في النظام الإسلامي، وإن الحرب حالة استثنائية أطلقتها الضرورة. وهذا ما ذهب إليه جمهور الباحثين الإسلاميين المحدثين[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٨.

(٢) سورة الأنفال، الآية ٧٢.

(٣) سورة النساء، الآية ٩٠.

(٤) سورة البقرة، الآية ١٩٤.

(٥) من العلماء والباحثين المحدثين المؤيدين لرأي الأصل في الإسلام السلم: الإمام محمد عبده، الإسلام والنصرانية، ص٢٢؛ الشيخ محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ج١٠، ص٢١٠؛ ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، ص٢٢٠؛ الشيخ المراغي، التشريع الإسلامي لغير المسلمين، ص٢٣؛ أبو زهرة، العلاقات الدولية في الإسلام، ص٤٧؛ عبد الله دروزه، الدستور القرآني، ص٢٨٦؛ عبد الوهاب الخلاق، السياسة الشرعية، ص٧٦؛ الشيخ محمود شلتوت، الإسلام عقيدة وشريعة، ص٤٦٥؛ حسن البنا، السلام في الإسلام، ص٢٥؛ عبد الرحمن عزام، الرسالة الخالدة، ص٤٨؛ محمد البهي، السبيل إلى دعوة الحق والقائم بأمرها، ص٣١؛ السيد سابق، فقه السنة، ج٣، ص٥.

المبحث الثالث

سياسة السلم عند الإمام علي (ع)

تمتاز سياسة السلم عند الإمام علي (ع) بأعلى مستويات القرب والتماس مع المنظور الإسلامي السلمي - المار الذكر في المنظور القرآني - سواء أكان ذلك على الصعيد النظري أم على الصعيد التطبيقي العملي، ويمكن بيان ذلك في ما يلي:

المطلب الأول

الجانب النظري

كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) رجل السلم ورائده، ففي الوقت الذي يرى نفسه صاحب الحق في الخلافة والإمامة كما عبّر ذلك في إحدى خطبه المروية عنه والمعروفة بالخطبة الشقشقية، فقال: (أما والله لقد تقمّصها فلان، وإنه يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير)[1]. وقد كان بإمكانه أن ينبري للدفاع عما يعتقد أنه حق له، وكان يعلم أن في توليه الخلافة مصلحة للأمة والرسالة، ولكنه وجد أن هذا التصدي وهذا الموقف يضر بالسلام للأمة، ويمزق وحدة المسلمين ويضعفها؛ ولذلك لم يطالب بحقه وإنما أعلن: (والله لأسلمنّ ما سلمتْ أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلاّ عليَّ خاصّة؛ التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه)[2].

فمن الناحية النظرية نجد أن الإمام علي (ع) قد أكد مبدأ السلم بوصفه أصلاً يجب أن يكون له الصدارة في التعامل مع الآخر، وهذا ما يبرز في نصوص عدة أشار بها، ومنها قوله لأحد قادة الجيش لما أنفذه إلى الشام: (.. ولا تقاتلن إلا من قاتلك.. ولا تدنُ من القوم دنوَ مَن يريد أن ينشب الحرب)[3].

وقوله في عهده لمالك الأشتر: (.. ولا تدفعن صُلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى، فإنّ في الصلح دعة لجنودك، وراحة من همومك، وأمناً لبلادك)[4].

وجاء في تعليق الشيخ محمد مهدي شمس الدين على هذا النص قوله: (في ذلك إشارة إلى أن الحرب ضرورة وليست خياراً.. وإن البديل لها هو أولى منها، وهو السلم، وإن

---

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم (٣).

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم (٧٣).

(٣) شرح نهج البلاغة الجامع لخطب وحكم ورسائل أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (ع)، جمع الشريف الرضي، ابن أبي الحديد المعتزلي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م، ج١٥، ص٦٥.

(٤) عهد الأشتر، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الدولية للدراسة والنشر، ط٢، ٢٠٠٠م، ص١٧٧.

الحرب لا تكون لأجل الحاكم.. وليس لها أهداف عدوانية، ومن هنا تبدو أولوية السلم في نظر الإمام علي (ع))[١].

وهكذا فإن الإمام علي (ع) ينظر إلى السلم بحالة من أسس وارتكازات شرعية توجب اعتماده والأخذ به من جهة، وبما له من انعكاسات موضوعية تثمر على العلاقات الإنسانية والاجتماعية وأمن البلاد بنتائج إيجابية من جهة أخرى.

والحاكم الناجح هو الذي يواجه بحزم الأحقاد الاجتماعية، والعقد النفسية، ويصنع لها العلاج من منظار الإنسان المربي والمصلح الاجتماعي[٢].

وهذا ما يتضح في قوله (ع) في عهد الأشتر: (أطلق عن الناس عقدة كل حقد)[٣].

لقد غرس الإمام علي (ع) في أتباعه أخلاق الرحمة والعدل حتى في أشد الحالات مع مخالفيه، فقد سعى سعياً حثيثاً لجمع شتات الأمة وجعلها متحدة ومتآلفة مسالمة.

وتجدر الإشارة أن المسالمة عند الإمام علي (ع) لا تعني - مطلقاً - الاستسلام أو الخضوع المذل أمام العدو، بدلالة ما جاء في قوله: (وجدت المسالمة ما لم يكن وهن في الإسلام أنجع من القتال)[٤].

كما لا تعني أولوية الصلح مع العدو - حين يدعو لها - الوقوع في شراكه ومكائده كفريسة يستهدف الإجهاز عليها لاحقاً، وهذا ما يظهر في قوله (ع) للأشتر بعد أن دعاه إلى تقديم الصلح على القتال، ولكن بشروط موضوعية للصلح: (.. ولكن الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم في ذلك حسن الظن)[٥].

المطلب الثاني

الجانب العملي

إن الجانب العملي والتطبيقي للسياسة السلمية للإمام علي (ع) تمتد جذورها إلى ما قبل تاريخ قيادته للحكومة الإسلامية، فمنذ رحيل قائدها الأول الرسول الأكرم محمد (ص) وحتى تولي الإمام علي (ع) للقيادة السياسية وعلى طول تلك الفترة الزمنية نرى أن الإمام (ع) كان يتصرّف بمقتضى كونه الإمام المستخلف على حفظ الشرع والرسالة الإسلامية، وعلى صياغة الواقع الإسلامي وإن لم يكن هو الحاكم فعلياً.

---

(١) عهد الأشتر، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، ص١٧٧.

(٢) علي بن أبي طالب (ع) رجل المعارضة والدولة، الدكتور حسن باقر القزويني، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م، ص٢١٩.

(٣) عهد الأشتر، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، ص٨٥.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الأمد التميمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٧هـ، الحديث ١٥٨٧، ص٣٦٦.

(٥) عهد الأشتر، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، ص١٧٧.

وتتضح فحوى هذه السياسة بإعلانه الصريح: (لقد علمتم أني أحقُ بها من غيري، ووالله لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جورٌ إلا عليّ خاصّة، التماساً لأجر ذلك وفضله، وزهداً فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه)[١].

وقد كلّفه هذا الالتزام المبدئي بضرورة عدم انحدار الواقع الإسلامي إلى ما هو أشد خطراً على الإسلام كعقيدة، وإلى ما هو أكثر فرقة للمسلمين كمجتمع أكلافاً غالية على صعيد حقوقه الدينية والسياسية، وعلى مستوى حقوقه الشخصية كذلك[٢].

ومنذ انطلاق قيادة الإمام علي (ع) للحكومة الإسلامية فقد قاطعه جماعة ولم يبايعوه، إلا أنه تعامل معهم بأعلى حالات السلم[٣].

ولم يكن موقفه من هؤلاء النفر إلا أن يُجيبهم ولا يمسهم بسوء، وكانت سياسته أن يظل متحاججاً معهم بحجة الحق[٤].

ومِن أولى مواقف الاضطراب والاختلاف التي واجهتها حكومة الإمام علي (ع) هو الموقف الذي أعقب مقتل الخليفة عثمان: إذ جاءته جماعة فقالوا للإمام (ع): (لو عاقبت قوماً ممن أجلب على عثمان)[٥]، فأجابهم الإمام (ع): (.. إنّ الناس من هذا الأمر ـ إذا حُرّك ـ على أمور، فرقة ترى على ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك، فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق مسمحة)[٦].

وجواب الإمام علي (ع) في الوقت الذي يدل فيه على أولوية المعالجة السليمة لحوادث الاضطراب، فإنه في ذات الوقت يشير إلى درايته العميقة ومعرفته الواسعة باتجاهات المجتمع الإسلامي في تلك الفترة الزمنية، وتصنيفه الدقيق لميولات واصطفافات الجماعات.

وقال (ع) في المناسبة ذاتها: (وسأمسك الأمر ما استمسك، وإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكي)[٧]. وهذا النص من أكثر النصوص صراحة على بيان أن ممارسة القمع باتجاه التمرّد لا يمثل إلا الخيار الأخير في سياسة الإمام (ع). بل وحتى عندما اتُخِذ موقف التمرّد من حكومة الإمام علي (ع) صفة جماعية، وتشكيل المعسكرات القتالية المعادية والتي أعلنت جهارا الابتداء بالحرب، حيث تمثّل ذلك بجماعات الناكثين والقاسطين والمارقين، نجد أن

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٦، ص٢٨٧.

(٢) دراسات في نهج البلاغة، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، ص٢٨.

(٣) الفتنة الكبرى، طه حسين، دار المعارف، القاهرة، الطبعة التاسعة، ١٩٧٨م، ج٢، ص١٩.

(٤) علي بن أبي طالب (ع) رجل المعارضة والدولة، القزويني، ص٣٤٢.

(٥) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٩، ص١٩٢.

(٦) تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ج٤، ص٢٩٧.

(٧) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٩، ص١٩٢.

سياسة الإمام (ع) تجاه هذه التمردات والانشقاقات المسلّحة قد استفرغت الجهد في اعتماد الحل السلمي قبل الاضطرار إلى الحل العسكري والقتالي.

إن الإمام علي (ع) عالج حركة التمرّد معالجة تربوية كأب يتعامل مع أبنائه الأشقياء، فهو لم يتعامل على أساس كونه حاكماً يرى أن واجبة تهدئة الأوضاع بالقوة ولو كان الإمام متلهفاً للحكم لواجه المتمردين على حكمه بقوة السلاح ومِن أول لحظة، وأجهز عليهم حتى لا يستشري وجودهم ويطغى)[١].

لقد بذل الإمام علي (ع) كل ما في وسعه أن يجنب الأمة سفك الدماء وتمزق الصف، ومما لا شك فيه أن قيادة الحكم الصالح تتطلب شرطاً مِن أهم الشروط الموضوعية في إدارة الحكم بمختلف شؤونه واستحقاقاته، وهو شرط سعة الصدر في شخصية الحاكم، يقول الإمام علي (ع) في ذلك: (آلةُ الرياسة سعة الصدر)[٢]، ويعني هذا ضرورة الحرص على الرعية والتماس العذر لها من الحاكم[٣].

ولقد كان الإمام (ع) ـ دون شك ـ بمنتهى سعة الصدر، يفكر بالخصم المسلم باجتهاده السياسي أو الديني، ويحسب جميع الحسابات للعناية به خشية الظلم ودفعاً للنزاع وإعطاءً للفرصة)[٤].

هذا وقد أشار أحد الباحثين إلى أن السياسة السلمية التي اعتمدها الإمام علي (ع) في حكومته قد ارتكزت على مبادئ ثلاثة، أولها: تقديم النصح، وثانيها: التحاور، وثالثها: المصالحة.

إن السياسة السلمية للإمام علي (ع) يمكن تلخيصها بالاتجاهات التالية:

الفرع الأول: حرية البيعة وعدم الإجبار:

إن الإمام علي (ع) لم يجبر أحداً على البيعة له، مسلماً كان أم غير مسلم، بل أطلق الحرية كاملة للناس في البيعة أو عدمها، وذلك ما يشير إليه (ع) بالقول: (.. وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين، بل طائعين مخيّرين)[٥].

وذكر ذلك أيضاً في صدد حديثه عن جيش الجمل المعادي بالقول: (.. في جيشٍ ما منهم رجلٌ إلاّ وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعاً غير مكره)[٦].

---

(١) علي بن أبي طالب (ع) رجل المعارضة والدولة، القزويني، ص٢٩٠.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١٨، ص٤٣٢.

(٣) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١٨، ص٤٣٢.

(٤) لينظر: علي سلطة الحق، عزيز السيد جاسم، تحقيق وتعليق صادق جعفر الروازق، الغدير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م، ص٢٣٩.

(٥) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١٤، ص٢٢٢.

(٦) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٩، ص٢٠٣.

وبنفس هذا المضمون أيضاً احتج الإمام علي (ع) على طلحة والزبير[١]، وبهذا المعنى يأتي قوله في أمر البيعة: (لم تكن بيعتكم إياي فلتة)[٢]، وأمّا قوله (ع): (.. فإن شغَبَ شاغب استُعتب، فإن أبى قُوتِل..)[٣]، فإنّه لا يشير إلى عكس ذلك إطلاقاً، وإنّما يُكرّس أصالة المبدأ السلمي في سياسة الإمام الحكومية.

الفرع الثاني: أولوية النصح وتأخير القتال:

فاضت مصادر التاريخ بكراهية الإمام علي (ع) للبدء بالقتال مع الآخر، وإيثاره للهداية والنصح، ودفعه للحرب ما استطاع على ذلك سبيلا، فقد ذكر اليعقوبي في معرض حديثه عن مقدمات حرب الجمل حينما اصطف المعسكران قبالة بعضهما، أن الإمام علي (ع) قال لأصحابه: لا ترموا بسهم، ولا تطعنوا برمح، ولا تضربوا بسيف.. اعذروا، ولم يأذن لأصحابه بالحرب إلاّ بعد أن قُتل منهم ثلاثة نفر رُمُوا بسهامٍ من العدو، فأشهد الله على ذلك، وكانت الحرب[٤].

وفي حرب صفين وجّه الإمام علي (ع) إلى معاوية ويسأله الرجوع، وألاّ يُفرّق الأمة بسفك الدماء، فأبى إلاّ الحرب[٥].

وحينما استبطأ الكثير من جيش الإمام (ع) إذنه لهم بمباشرة القتال ضد الجيش الأموي حتى اتهموه اتهاماً عجيباً، وهو أن الإمام علي (ع) قد كره الموت، فأجابهم حينئذ بالقول: (أمّا قولكم: أكُلّ ذلك كراهية الموت؟ فوالله ما أبالي دخلتُ إلى الموت أو خرج الموت إلي، وأمّا قولكم: شكاً في أهل الشام، فوالله ما دفعتُ الحرب يوماً إلاّ وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي وتعشوا إلى ضوئي، وذلك أحبُ إليّ مِن أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها)[٦].

ويتوفر هذا النص على معنى يمكن أن تستخلص منه قاعدة ذهبية يمكن أن تندرج في إطار المذهب الدفاعي العسكري الإسلامي، بدلالة أن الحرب لا تصح أو لا تكون مشروعة حينما تكون لمصالح عسكرية أو اقتصادية أو جغرافية بهدف التوسع أو زيادة القوة والفعالية أو غيرها من المسوغات التي تعتبر مؤشراً رئيساً في صياغة الخطط العسكرية التي تتحدد

---

(١) م.ن، ج١٠، ص٩٤.

(٢) م.ن، ج٩، ص٢١٥.

(٣) م.ن، ج٩، ص٢١٥.

(٤) ليُنظر: تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ)، تحقيق عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ج٢، ص٨٠.

(٥) م.ن، ج٢، ص٨٧.

(٦) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٤، ص٢٤٨.

على أساسها حركة الجيوش القديمة والحديثة، لا سيما جيوش الدول التي لها تأثير عالمي أو إقليمي على مسرح الأحداث.

كان الإمام علي (ع) حريصاً ـ كل الحرص ـ على دعوة الآخر إلى الحق قبل مباشرة القتال معه، وقد كان مبدأ عدم الابتداء بالقتال هو المبدأ الحاكم في كل الحروب والواجهات العسكرية التي خاضها الإمام (ع) سواءً تلك التي قادها بنفسه أم التي انتدب إليها أحد قادته أو عمّاله، وقد جاء بهذا المعنى في إحدى وصاياه: (ولا تقاتلنّ إلاّ مَن قاتلك.. ولا تدن من القوم دنوَ مَن يريد أن ينشب الحرب، ولا تباعد عنهم تباعد مَن يهاب البأس حتى يأتيك أمري، ولا يحملنكم شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم)[١].

وهذا النص يؤسّس إلى الحكم بعدم جواز البدء بالقتال أو الحرب مع الآخر ـ وإن كانت عداوة المعسكر المقابل بادية وفي حالة استعار ـ من دعوتهم إلى مسالك الحق، وبالمنطق اللين الصريح.

وبخصوص النص العلوي المتقدم يعلّق الشيخ محمد مهدي شمس الدين بالقول: (إن الفكرة التي تسيطر على النص وتشع منه، هي فكرة السلام، فالقتال لا يكون إلاّ رداً على عدوان يكشف عن تصميم العصاة على الانحراف)[٢].

ويشابه المعنى المتقدم ما جاء في وصية الإمام علي (ع) لجيشه قبل لقاء العدو في صفين: (لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وتركهم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم)[٣].

وهذا النص يكشف عن مدى حرص الإمام (ع) على عدم البدء بالقتال بالرغم من اليقين الراسخ بأنه وأصحابه على حجة.

وقال (ع) أيضاً في وصف أسس المواجهة بينه وبين حركة الخوارج: (ولكنّا إنما أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل، فإذا طمعنا في خصلة يلمُ الله بها شعثنا ونتدانى بها إلى البقية فيما بيننا، رغبنا فيها، وأمسكنا عمّا سواها)[٤].

وهذا يكشف عن الرغبة الأكيدة لدى الإمام علي (ع) في الاجتماع على قاسم مشترك تحصل من خلاله نتيجة السلم، وتنأى على أساسه أسباب الحرب والقتال.

ويؤكد هذا المعنى ما ورد في مكاتبةٍ أرسلها الإمام علي (ع) إلى أحد عمال الأمصار[٥]

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١٥، ص٦٥.

(٢) دراسات في نهج البلاغة، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، ص٣٥.

(٣) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج١٥، ص٧٣.

(٤) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٧، ص٢٠٢.

(٥) وهو جرير بن عبد الله البجلي، كاتبه الإمام علي (ع) مع زحر بن قيس الجعفي، ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٣، ص٥٢.

بعد انقضاء حرب الجمل، يقول (ع) فيها: (.. فأعذرت في الدعاء، وأقلت العثرة، وناشدتهم عهد بيعتهم، فأبوا إلاّ قتالي، فاستعنت بالله عليهم، فقُتل مَن قُتل وولوا مدبرين إلى مصرهم، وسألوني ما كنت دعوتهم إليه قبل اللقاء، فقبلت العافية ورفعت السيف)[١].

الفرع الثالث: تصنيف الآخر بين قاصد للباطل وبين مشتبه لا قاصد:

لعل من أهم الصفات الذاتية في شخصية الإمام علي (ع) قدرته الهائلة على التمييز بين محتوى الحق وبين محتوى الباطل، وتلمس الالتباسات التي تجعل من العسير التمييز بينهما بدلالة تعريفه البليغ للشبهة حين سُئل عن علة تسميتها بذلك، إذ يقول (ع): (.. وإنّما سمّيت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق)[٢].

وفي موضع آخر قال (ع): (فلو أن الباطل خَلَص مِن مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أنّ الحق خلص لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان)[٣].

ومما لا شك فيه أن هذه المعرفة تكشف عن اختصاصه بالشأن التشريعي، وقد انعسكت هذه المعرفة على مجمل سلوكه القيادي تجاه التمردات والأزمات التي واجهتها حكومته منذ البدء وحتى نهاية المطاف، وأبرز ما يمكن ذكره في هذا الإطار تقييمه وتمييزه الموضوعي بين حركة الخوارج وبين حركة معاوية، إذ صرّح في هذا الخصوص بالقول: (لا تقاتلوا الخوارج بعدي، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه)[٤].

أمّا المقصود بقوله (ع): (كمن طلب الباطل فأدركه) ففيه إشارة إلى معاوية وأصحابه[٥].

وجدير بالذكر: الاستفهام عن عِلّة نهي الإمام علي (ع) عن مقاتلة الخوارج بعده؟

وجوابه: هو انتفاء العلّة الموجبة لذلك؛ بمعنى أن عِلّة استحقاق القتل تتمثل في طلب الباطل لأنه باطل، لكنها منتفية في حقهم فينتفي لازمها، وهو استحقاق القتل[٦].

وفي الختام، إن سيرة الإمام علي (ع) تؤكد إخلاصه العميق للدين، وحرصه الشديد على وحدة الأمة وسلامتها ونشر السلم والسلام بين ربوعها، فهو صلوات الله وسلامه عليه

---

(١) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٣، ص٥٢.

(٢) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٢، ص٤٦١.

(٣) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٣، ص١٦٦.

(٤) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج٥، ص٥٢.

(٥) شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم علي البحراني، بيروت، بدون تاريخ، ج٢، ص٣٢٥.

(٦) م. ن، ج٢، ص٣٢٥ - ٣٢٦.

يتعبّد إلى الله عزّ وجلّ بالحفاظ على الوحدة، ويتمسّك بها كطريق إلى ثواب الله ورضوانه. فالوحدة مبدأ ديني وفريضة شرعية قبل أن تكون قضيّة سياسية أو مصلحة وقتية، وصَدَقَ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) حينما قال: (وليس رجل ـ فاعلم ـ أحرص على جماعة أمة محمّد (ص) وألفتها منّي، أبتغي بذلك حسن الثواب، وكرم المآب، وسأفي بالذي وأيت على نفسي)[1].

الخاتمة:

ومِن خلال ما تمّ بيانه حول السياسة العلوية السليمة، والتي هي ـ في واقع الأمر ـ ترجمة وامتداد للمنظور القرآني التشريعي، تبرز أحكام عدّة منها:

١. إن مبايعة القائد العام للدولة يجب أن تكون على أساس الاختيار المحض، ولا يجوز فيها الإجبار والإكراه تحت أي مسوّغ.
٢. يجب الميل والركون إلى السلم بوصفه الركيزة الأساس في التشريع الإسلامي والقرآني، وعدم الانجرار إلى سُبل الحرب والقتال إلاّ في حال الاضطرار إلى ذلك.
٣. إنّ التشريع الإسلامي، وما أكّده الإمام علي (ع) في سياسته ـ القولية والفعلية ـ تؤكّد وتوجب مبدأ هداية الآخر والنصح والإعذار له قبل اللجوء إلى منطق القوة والقتال.
٤. إنّ الاعتقاد باصطفاف الحق وامتلاك الحجة واليقين ببطلان الآخر لا يسوّغ المبادرة على البدء بالقتال، بل لقد أكدت سياسة الإمام علي (ع) السلمية على إكراه الابتداء بالقتال مع الآخر.
٥. يجب التمييز بين النوايا الجوهرية للآخر، أكان معانداً مُصرّاً على كفره وظلاله، أم مشتبهٍ عليه، أو مغرّر به، ولكلٍ حينئذٍ معيارٌ يكال به.

المصادر:

القرآن الكريم.

١. الإسلام عقيدة وشريعة، الشيخ محمود شلوت، القاهرة، دار القلم، بدون تاريخ.
٢. الإسلام والنصرانية، الشيخ محمد عبده.
٣. أصول النظام الاجتماعي، ابن عاشور.
٤. الأمثل في كتاب الله المنزل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
٥. تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
٦. تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ)، تحقيق عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

---

(١) نهج البلاغة، كتاب رقم (٧٨).

٧. التشريع الإسلامي لغير المسلمين، الشيخ المراغي.
٨. تفسير الصافي، محمد محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
٩. التفسير الكبير، الفخر الرازي محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ)، طهران، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
١٠. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، بيروت، دار المعرفة، الطبعة الثانية، بدون تاريخ طبع.
١١. دراسات في نهج البلاغة، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، الطبعة الثانية، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.
١٢. الدستور القرآني، عبد الله دروزه.
١٣. الرسالة الخالدة، عبد الرحمن عزام.
١٤. السبيل إلى دعوة الحق والقائم بأمرها، محمد البهي.
١٥. السلام في الإسلام، حسن البنا.
١٦. السياسة الشرعية، عبد الوهاب الخلاق.
١٧. شرح نهج البلاغة الجامع لخطب وحكم ورسائل أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب (ع)، جمع الشريف الرضي، ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ)، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م.
١٨. شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم علي البحراني (ت ٦٧٩هـ)، بيروت، بدون تاريخ.
١٩. العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة، القاهرة، دار القوصية، ١٩٦٤م.
٢٠. علي بن أبي طالب (ع) رجل المعارضة والدولة، الدكتور حسن باقر القزويني، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م.
٢١. علي سلطة الحق، عزيز السيد جاسم، تحقيق وتعليق صادق جعفر الروازق، الغدير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
٢٢. عهد الأشتر، الشيخ محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الدولية للدراسة والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م.
٢٣. غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الآمدي التميمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٠٧هـ.
٢٤. الفتنة الكبرى، طه حسين، دار المعارف، القاهرة، الطبعة التاسعة، ١٩٧٨م.
٢٥. فقه السنة، السيد سابق.
٢٦. لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ)، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ١٩٩٠م.
٢٧. المعجم المفهرس لألفاظ القرن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ضبطها ورتبها محمد سعيد الفحام، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٧م.
٢٨. المعجم الوسيط، الدكتور أنصار أحمد وآخرون، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
٢٩. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ)، ضبط هيثم طعيمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
٣٠. الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢هـ)، تحقيق إياد باقر سلمان، قدم له السيد كمال الحيدري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦. ❖

العلوم ودلالاتها
عند الإمام علي (عليه السلام)
(المغيبات أنموذجاً)

الشيخ طه العبيدي
العتبة الكاظمية المقدسة

المبحث الأول

المطلب الأول

الغيب

الغيب: كل ما غاب عنك. تقول: غاب عنه غيبة وغيباً وغياباً وغيوباً ومغيباً. وجمع الغائب غيب وغياب وغيب أيضاً

وغيابة الجب: قعره. وكذلك غيابة الوادي. تقول: وقعنا في غيبة وغيابة، أي هبطة من الأرض. وقولهم: غيبه غيابه، أي دفن في قبره[1].

الغَيْبُ: الشَّكُّ، وجمعه غِيابٌ وغُيُوبٌ:

قال: أَنْتَ نَبِيٌّ تَعْلَمُ الغِيابا لا قَائلاً إِفْكاً ولا مُرْتابا

والغَيْبُ: كل ما غاب عنك.

أبو إسحق في قوله تعالى: يؤمنون بالغَيْب: أَي يؤمنون بما غابَ عنهم، مما أَخبرهم به النبيُّ (ص)، من أَمرِ البَعْثِ والجنةِ والنار.

وكل ما غابَ عنهم مما أَنبأَهم به، فهو غَيْبٌ: وقال ابن الأَعرابي: يؤمنون باللّه.

قال: والغَيْبُ أيضاً ما غابَ عن العُيونِ، وإِن كان مُحَصَّلاً في القلوب.

ويُقال: سمعت صوتاً من وراء الغَيْب أَي من موضع لا أَراه.

وقد تكرر في الحديث ذكر الغيب، وهو كل ما غاب عن العيون، سواء كان مُحصّلاً في القلوب، أَو غير محصل.

وغابَ عَنِّي الأَمْرُ غَيْباً، وغِياباً، وغَيْبَةً، وغَيْبُوبةً، وغُيُوباً، ومَغاباً، ومَغِيباً، وتَغَيَّب: بطن. وغَيَّبه هو، وغَيَّبه عنه[2].

---

(١) الصحاح، الجوهري، ت٣٩٣هـ، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت - لبنان، ج١، مادة غيب.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، ت: ٧١١هـ، سنة الطبع: محرم ١٤٠٥، الناشر: نشر أدب الحوزة، ج١، مادة: غيب.

الغيب: الشك، ج: غياب وغيوب، وكل ما غاب عنك، وما اطمأن من الأرض، والشحم، والغيبة، كالغياب، بالكسر، والغيبوبة والغيوب والغيوبة والمغاب والمغيب والتغيب. وغاب الشيء في الشيء يغيب غيابة، بالكسر، وغيوبة وغياباً وغياباً وغيبةً، بكسرهما. وقوم غيب وغياب وغيب، محركة: غائبون. والغابة: الوهدة، والجمع من الناس، والرمح الطويل، أو المضطرب في الريح، والأجمة، ... وغيابة كل شيء: ما سترك منه. ومنه (غياب الجب). وغياب الشجر، وتشدد الياء: عروقه. وغابه: عابه، وذكره بما فيه من السوء، كاغتابه. والغيبة: فعلة منه، تكون حسنة أو قبيحة. وامرأة مغيب ومغيبة ومغيب، كمحسن: غاب زوجها. وتغيب عني، لا يجوز تغيبني إلا في ضرورة شعر. وغائبك ما غاب عنك، اسم كالكاهل[1].

غيب: الغَيْبُ: الشَّكُّ قال شيخُنا: أنكره بعْضٌ، وحَمَله بَعْضٌ على المجَاز، وصَحَّحه جماعَة ج غِيَابٌ وغُيُوبٌ قال:

أَنْتَ نَبِيٌّ تَعْلَمُ الغِيَابَا ... لا قَائلاً إفكاً وَلاَ مُرْتَابَا

والغَيْبُ: كُل مَا غَابَ عَنْكَ، كأنه مَصْدَر بمَعْنَى الفَاعِل، ومثله في الكَشَّاف. قال أَبُو إِسْحَاق الزَّجَّاجُ في قَوْله تَعَالى: (يُؤْمِنُون بالغَيْب) أي بما غَابَ عنْهم، فأخبرهم به النَّبيُّ (ص) من أَمْرِ البَعْث والجنَّة والنَّارِ. وكُل مَا غَاب عَنْهُم مِمَّا أَنْبَأَهُم به فهو غَيْبٌ. وقال ابْنُ الأَعْرَابيّ: يُؤْمِنُون باللَّهِ. قال: والغَيْبُ أيضاً: مَا غَابَ عن العُيُونِ وإِنْ كَانَ مُحَصَّلاً في القُلوب. ويقال: سَمِعتُ صَوتاً مِنْ وراء الغَيْب، أَي مِنْ مَوْضِعٍ لا أَراه. وقد تَكرَّر في الحَدِيثِ ذكْرُ الغَيْب: وهو كل ما غَاب عَنِ العُيُون سَوَاءٌ كان مُحصَّلاً في القلوب أَو غَيْرَ مُحصَّل.

والغَيْبُ من الأَرْضِ: ما غَيَّبكَ، وجَمْعُه غُيُوبٌ. أَنشدَ ابْنُ الأَعْرَابيّ:

إِذَا كَرِهُوا الجمِيعَ وحَل مِنْهُم ... أَراهِطُ بالغُيوب وبالتِّلاَعِ

والغَيْبُ: مَا اطْمأَنَّ من الأَرْضِ وجَمْعُه غُيُوبٌ. قال لبيدٌ يَصِف بَقرةً أَكَل السَّبع وَلدَها، فأَقبَلت تَطُوفُ خَلفَه:

وتَسَمَّعتْ رِزَّ الأَنِيسِ فرَاعهَا ... عَن ظَهْرِ غَيْبٍ والأَنِيسُ سَقَامُهَا

تَسَمَّعَت رِزَّ الأَنِيسِ أَي صَوْتَ الصَّيَّادين، فَرَاعَهَا، أَي أَفزَعَهَا. وقوله والأَنِيسُ سَقَامُهَا، أَي أَنَّ الصَّيَّادين يَصِيدُونَها فهم سَقَامُهَا.

والغَيْبُ: الشَّحْمُ، أَي شَحْمُ ثَرْب الشَّاةِ، وشَاةٌ ذَاتُ غَيْب أَي شَحْمٍ، لتَغَيُّبه عن العيْن. وقول ابْنِ الرَّقاع يَصِفُ فَرَساً.

وتَرَى لغُرِّ نَسَاهُ غَيْباً غَامِضا ... قَلَقَ الخَصِيلة من فُوَيْقِ المَفْصِل

---

(١) ينظر القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ت: ٨١٧هـ، ج١ مادة: (غيب).

قوله غَيْباً، يَعْنِي انْفَلَقَت فَخِذَاه بلحْمَتَين عند سمَنه فجَرَى النَّسَا بَيْنَهُمَا واسْتَبَانَ. والخَصِيلةُ: كُل لحْمَة فيها عَصَبَة. والغَرُّ: تَكَسُّر الجلدِ وتَغَضُّنُه.

والغَيْبَةُ بالفَتْح، والغَيْب كالغِيَاب بالكَسْرِ، والغَيْبُوبَةِ على فَعْلولة ويقال فَيْعُولة، على اخْتلاف فيه. والغُيُوب والغُيُوبَةِ بضَمِّهِمَا والمَغَاب، والمَغِيب كُل ذلك مَصْدَر غاب عَنِّي الأَمرُ، إِذَا بَطَنَ. والغَيْبُ: مثل التَّغَيُّب. يقال: تَغَيَّبَ عَنِّي الأَمْرُ: بَطَنَ، وغَيَّبَهُ هُو وغَيَّبهُ عنْه[١].

وأما الغيب في الآية الكريمة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[٢]. فهو الله تعالى، لأنه لا يرى في دار الدنيا، وإنما ترى آياته الدالة عليه. وقيل الغيب: ما غاب عن الناس مما أخبرهم به النبي (ص) من الملائكة والجنة، والنار، والحساب. وقيل: الشك. والغيبة: البعد، والتواري[٣].

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ يعني بما غاب عن حواسهم من الأمور التي يلزمهم الإيمان بها، كالبعث والحساب والجنة والنار، وتوحيد الله وسائر ما لا يعرف بالمشاهدة، وإنما يعرف بدلائل قد نصبها الله عز وجل عليها كآدم، وحواء، وإدريس، ونوح، وإبراهيم والأنبياء الذين يلزمهم الإيمان بهم، وبحجج الله تعالى وإن لم يشاهدوهم ويؤمنون بالغيب، وهم من الساعة مشفقون[٤].

المطلب الثاني

تقسيمات العلم

للعلم تقسيمات عدة، ومن وجوه متعددة، فقال علماء المنطق إن العلم يقسم إلى:

١- التصور، هو الإدراك، وانطباع صورة الشيء في الذهن، كما تنطبع صورة الأشياء في المرآة[٥].

٢- التصديق، هو الاعتقاد، الذي يستلزم الحكم والجزم في مطابقة الخبر للواقع[٦].

---

(١) تاج العروس، الزبيدي، الوفاة: ١٢٠٥، تحقيق: علي شيري، سنة الطبع: ١٤١٤ ـ ١٩٩٤م، المطبعة: دار الفكر ـ بيروت. الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، ج٢ مادة: غيب.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢ ـ ٣.

(٣) القاموس الفقهي، الدكتور سعدي أبو حبيب، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ ـ ١٩٨٨ م، الناشر: دار الفكر – دمشق ـ سوريا، ص٢٨٠.

(٤) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ت ١١١١ هـ، تحقيق: السيد إبراهيم الميانجي، محمد الباقر البهبودي، الطبعة الثالثة المصححة، ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ م، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت – لبنان، ج ٦٥ ص٢٨٥.

(٥) المنطق، الشيخ محمد رضا المظفر، ت ١٣٨٣هـ، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ص٢١.

(٦) نفس المصدر.

وكذلك قسموه إلى ضروري ونظري:

١- الضروري: يسمى أيضاً (البديهي) وهو ما لا يحتاج في حصوله إلى كسب ونظر وفكر[١].

٢- النظري: وهو ما يحتاج حصوله إلى كسب ونظر وفكر[٢].

أما المتكلمون قالوا إن العلم يقسم إلى: العلم اللدني والكسبي

الأول: لدني متعلق بمعرفة أسرار المبدأ والمعاد[٧]، يكون تحصيله بالتعليم الربّانيّ بالتدريج وغير التدريج، يحمله صفوة مختارة أهلاً لحمله، كالأنبياء والأوصياء والأولياء، صوناً عن الوقوع عند غير أهله.

الثاني: العلم الكسبي يحصل إمّا بموهبة من الله فيفيضه على قلوب الأنبياء والأوصياء وإمّا بتحصيله من الأساتذة والعلماء[٣]، على التدريج، ويحتاج إلى زمان ومكان.

والمفسرون قالوا إن العلم علمان، هما:

الأول: علم عند الله مخزون لم يطلع عليه أحداً من خلقه، مخزون يقدم منه ما يشاء ويؤخر منه ما يشاء ويثبت ما يشاء[٤].

الثاني: علم علمه ملائكته ورسله فما علمه ملائكته ورسله فإنه سيكون لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله[٥].

المطلب الثالث

علم الإمام علي (ع)

بعد أن عرفنا أقسام العلم، مما تقدم، فأي علم كان لدى الإمام علي (ع)؟ وهل علمه كسبي أم لدني الهي؟ والحقيقة إن الإمام علي بن أبي طالب (ع)، قد حاز على جميع العلوم، ومن ذلك نذكر حديثه في علمه الكسبي حيث يقول: (علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح كل باب ألف باب ولم يعلم ذلك أحدا غيري)[٦]، وكان يقول (ع): (هذا ما زقني رسول الله (ص) زقاً

---

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الهاشمي الخوئي، ت ١٣٢٤هـ، تحقيق: سيد إبراهيم الميانجي، الطبعة الرابعة
المطبعة: مطبعة الإسلامية بطهران، الناشر: بنياد فرهنك امام المهدي (عج)، ج٢١ص١٠٨.

(٤) ينظر بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ت ١١١١هـ، تحقيق: يحيى العابدي، الطبعة الثانية المصححة، ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ م، الناشر: مؤسسة الوفاء ـ بيروت – لبنان، ج٤ ص١١٣.

(١) نفس المصدر.

(٦) ينظر الخصال، الشيخ الصدوق، ت ٣٨١هـ، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، سنة الطبع: ١٨ ذي القعدة الحرام ١٤٠٣، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ص٥٧٢.

زقاً)[١]، وفي علمه اللدني قال (ع): (انْدَمَجْتُ عَلى مَكْنُونِ عِلمٍ لوْ بُحْتُ به لاضْطَرَبْتُمْ ـ اضْطِرَابَ الأَرْشِيَةِ فِي الطَّوِيِّ البَعِيدَةِ)[٢]، وكان (ع) يقول: (اسألوني عن طرق السماء، فإني أعرف بها من طرق الأرض)[٣]، وكان (ع) يقول: (ولولا آية في كتاب الله عز وجل لأخبرتكم بما كان وبما يكون، وبما هو كائن إلى يوم القيامة، وهي هذه الآية: (يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)[٤]، أما عن علمه عن القرآن والكتب السماوية الأخرى، فكان (ع) يقول: (سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله الذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو سألتموني عن أية آية في ليل أنزلت أو في نهار أنزلت، مكيّها ومدنيّها، سفريها وحضريّها، ناسخها ومنسوخها، محكمها ومتشابهها، وتأويلها وتنزيلها لأخبرتكم)[٥]، و(قال: يا معشر الناس، سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني فإن عندي علم الأولين والآخرين، أما والله لو ثنيت لي وسادة، فجلست عليها، لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم حتى تنطق التوراة فتقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأفتيت أهل الإنجيل بإنجيلهم حتى ينطق الإنجيل فيقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأفتيت أهل القرآن بقرآنهم حتى ينطق القرآن فيقول: صدق علي ما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ، وأنتم تتلون القرآن ليلاً ونهاراً، فهل فيكم أحد يعلم ما نزل فيه؟)[٦].

والخلاصة إن علمه لدني و كسبي، ويكفي إن رسول الله (ص) قال فيه: (أنا مدينة العلم وعلي بابها)[٧]، وهذا يعني إن علم النبي (ص) أودع عند الإمام علي (ع)، وأن الإمام على (ع) أقرب الطرق المؤدية إلى العلم الإلهي، ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله (ص) يقول: (سلوني) غير الإمام عليّ[٨]، وأنه (ع) كان عنده كل ما يحتاجه وتحتاجه الأمة من العلم، وكان ابن عباس

---

(١) الأمالي، الشيخ الصدوق، ت ٣٨١هـ، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة – قم، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة، ص٤٢٢.

(٢) نهج البلاغة، خطب الإمام علي (ع) (تحقيق صالح)، ت ٤٠هـ، تحقيق: ما أختاره وجمعه الشريف الرضي/ ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي صالح، الطبعة الأولى، ١٣٨٧ ـ ١٩٦٧ م، ص٥٢.

(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ت ٧٢٨هـ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا/ مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ ـ ١٩٨٧ م، الناشر: دار الكتب العلمية، ج ٥ ص ٨٢ .

(٤) التوحيد، الشيخ الصدوق، ت٣٨١هـ، تحقيق: تصحيح وتعليق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ص٣٠٥.

(٥) نفس المصدر.

(٦) مصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة)، الميرجهاني، ت ١٣٨٨هـ، سنة الطبع: ١٣٨٨، ج٢ ص١٣٥.

(٧) فوائد الطوسية، الحر العاملي، ت ١١٠٤هـ، تحقيق: علق عليه وصححه العالمان المتتبعان الحاج السيد مهدي اللازوردي والشيخ محمد درودي، شعبان ١٤٠٣، المطبعة: المطبعة العلمية – قم، ص٢٦٥.

(٨) كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء (ط.ج)، الشيخ جعفر كاشف الغطاء، ت ١٢٢٨هـ، تحقيق: مكتب الإعلام الإسلامي ـ فرع خراسان ـ المحققون: عباس التبريزيان، محمد رضا الذاكري (طاهريان) وعبد الحليم الحلي، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٢ هـ، المطبعة: مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، الناشر: مركز النشارات دفتر تبليغات إسلامي (مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي)، ج١ص٩٠.

يقول: (علي علم علماً علمه رسول الله ورسول الله علمه الله فعلم النبي علم الله وعلم علي من علم النبي وعلمي من علم علي وما علمي وعلم أصحاب محمد في علم علي إلا كقطرة في سبعة أبحر)[١]، وأنه (ع) كان خازن سر رسول الله (ص)، فكان رسول الله (ص) يقول: (خازن سري بعدي علي)[٢]، وكان سلمان المحمدي (رض) يقول: (لا يخبركم بسر نبيكم غيره)[٣]. قال الإمام الصادق (ع): (إن الله جل وعز أخبر محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بما كان منذ كانت الدنيا ـ وبما يكون إلى انقضاء الدنيا وأخبره بالمحتوم من ذلك واستثنى عليه فيما سواه)[٤]، فعلم الإمام علي (ع) علم الرسول (ص)، وعلم الرسول (ص) هو علم الله تعالى، فلا يخفى على الإمام علي (ع)، إلا ما خفيّ على رسول الله (ص).

المبحث الثاني
الإخبار عن الماضي المجهول

إن الإمام علي بن أبي طالب (ع) كان يمتد بنظره إلى الغيب المجهول في الماضي التّليد وكذلك في المستقبل القادم البعيد، على السواء فهو يخبر عن حال وواقع أمم خلت وما وقع في حياتها من عظات وعبر، ويخبر عن الذي ستمر به الأمم في القادم من الأزمان، ويؤكد على وقوع الأحداث والخطوب وكأنه عاشها وتعرف على أحوالها، بل يخبر عن دقائق ومفردات أشخاص ممن سيكون لهم شأن في الأمم.

ومن أخبار الغيب في الماضي، إجابته بالدقة المتناهية على أسئلة قوم من أحبار اليهود، فسألوه عن أقفال السماوات ما هي؟ وعن مفاتيح السماوات ما هي؟ وعن قبر سار بصاحبه ما هو؟ وعمن أنذر قومه ليس من الجن ولا من الإنس، وعن خمسة أشياء مشت على وجه الأرض لن يخلقوا في الأرحام، وما يقول الدراج في صياحه، وما يقول الديك والفرس والحمار والضفدع والقنبر، فقال لهم علي (ع): إن لي عليكم شريطة: إذا أنا أخبرتكم بما في التوراة دخلتم في ديننا؟ قالوا: نعم.

فقال (ع): أما أقفال السماوات هو الشرك بالله، فإن العبد والأمة إذا كانا مشركين ما يرفع لهما إلى الله سبحانه عمل، فقالوا: ما مفاتيحها؟

فقال علي (ع): شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله.

---

(١) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ت ٥٨٨هـ، تحقيق: تصحيح وشرح ومقابلة: لجنة من أساتذة النجف الأشراف، ١٣٧٦ ـ ١٩٥٦ م، المطبعة: الحيدرية ـ النجف الأشراف، الناشر: المكتبة الحيدرية ـ النجف الأشراف، ج١ ص٣١٠.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) الوافي، ج١ ص٥١٥.

فقالوا: أخبرنا عن قبر سار بصاحبه،

قال: ذاك الحوت حين ابتلع يونس (ع) فدار به في البحار السبعة.

فقالوا: أخبرنا عمن أنذر قومه لا من الجن ولا من الإنس،

قال: تلك نملة سليمان إذ قالت: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾[1].

قالوا: فأخبرنا عن خمسة أشياء مشت على الأرض ما خلقوا في الأرحام،

قال: ذاك آدم وحواء وناقة صالح وكبش إبراهيم وعصا موسى.

قالوا: فأخبرنا ما تقول هذه الحيوانات؟ قال: الدراج يقول: الرحمن على العرش استوى، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين، والفرس يقول إذا مشى المؤمنون إلى الكافرين: اللهم انصر عبادك المؤمنين على عبادك الكافرين، والحمار يلعن العشار وينهق في عين الشيطان، والضفدع يقول: سبحان ربي المعبود المسبح في لجج البحار، والقنبر يقول: اللهم العن مبغضي محمد وآل محمد.

قال: وكانت الأحبار ثلاثة فوثب اثنان وقالا: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله.

قال: فوقف الحبر الآخر وقال: يا علي لقد وقع في قلبي ما وقع في قلوب أصحابي ولكن بقيت خصلة أسألك عنها.

فقال علي (ع): سل.

قال: أخبرني عن قوم كانوا في أول الزمان فماتوا ثلاث مائة وتسع سنين ثم أحياهم الله ما كان قصتهم؟

فابتدأ علي (ع) وأراد أن يقرأ سورة الكهف.

فقال الحبر: ما أكثر ما سمعنا قرآنكم، فإن كنت عالماً بهم أخبرنا بقصة هؤلاء وبأسمائهم وعددهم واسم كلبهم واسم كهفهم واسم ملكهم واسم مدينتهم.

فقال علي (ع): لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، يا أخا اليهود حدثني محمد (ص) أنه كان بأرض الروم مدينة يقال لها أقسوس وكان لها ملك صالح فمات ملكهم فاختلفت كلمتهم فسمع بهم ملك من ملوك فارس يقال له دقيانوس فأقبل في مائة ألف حتى دخل مدينة أقسوس فاتخذها دار مملكته، واتخذ فيها قصراً طوله فرسخ في عرض فرسخ واتخذ في ذلك القصر مجلساً طوله ألف ذراع في عرض مثل ذلك من الرخام الممرد، واتخذ في ذلك المجلس أربعة آلاف أسطوانة من ذهب، واتخذ ألف قنديل من ذهب لها سلاسل من اللجين تسرج بأطيب الأدهان، واتخذ في شرقي المجلس ثمانين كوة، ولغربيه كذلك، وكانت

---

(١) سورة النمل: الآية ١٨.

الشمس إذا طلعت طلعت في المجلس كيفما دارت، واتخذ فيه سريراً من ذهب طوله ثمانون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً، له قوائم من فضة مرصعة بالجواهر، وعلاه بالنمارق، واتخذ من يمين السرير ثمانين كرسياً من الذهب مرصعة بالزبرجد الأخضر فأجلس عليها بطارقته، واتخذ من يسار السرير ثمانين كرسياً من الفضة مرصعة بالياقوت الأحمر فأجلس عليها هراقلته ثم علا السرير فوضع التاج على رأسه.

فوثب اليهودي فقال: مم كان تاجه؟

قال (ع): من الذهب المشبك، له سبعة أركان على كل ركن لؤلؤة بيضاء تضيء كضوء المصباح في الليلة الظلماء، واتخذ خمسين غلاماً من أولاد الهراقلة فقرطقهم بقراطق الديباج الأحمر، وسرولهم بسراويلات الحرير الأخضر، وتوجهم ودملجهم وخلخلهم، وأعطاهم أعمدة من الذهب، ووقفهم على رأسه، واتخذ ستة غلمة وزرائه، فأقام ثلاثة عن يمينه، وثلاثة عن يساره،

فقال اليهودي: ما كان أسماء الثلاثة والثلاثة؟

فقال علي (ع): الذين عن يمينه أسماؤهم تمليخا ومكسلمينا وميشيلينا وأما الذين عن يساره فأسماؤهم مرنوس وديرنوس وشاذريوس، وكان يستشيرهم في جميع أموره، وكان يجلس في كل يوم في صحن داره والبطارقة عن يمينه والهراقلة عن يساره، ويدخل ثلاثة غلمة في يد أحدهم جام من ذهب مملوء من المسك المسحوق، وفي يد الآخر جام من فضة مملوءٌ من ماء الورد، وفي يد الآخر طائر أبيض له منقار أحمر، فإذا نظر الملك إلى ذلك الطائر صفر به فيطير الطائر حتى يقع في جام ماء الورد فيتمرغ فيه، ثم يقع على جام المسك فيحمل ما في الجام بريشه وجناحه، ثم يصفر به الثانية فيطير الطائر على تاج الملك فينفذ ما في ريشه وجناحه على رأس الملك.

فلما نظر الملك إلى ذلك عتا وتجبر فادعى الربوبية من دون الله، ودعا إلى ذلك وجوه قومه، فكل من أطاعه على ذلك أعطاه وحباه وكساه، وكل من لم يبايعه قتله فاستجابوا له رأساً، واتخذ لهم عيداً في كل سنة مرة، فبينا هم ذات يوم في عيد والبطارقة عن يمينه والهراقلة عن يساره إذ أتاه بطريق فأخبره أن عساكر الفرس قد غشيه فاغتم لذلك حتى سقط التاج عن رأسه فنظر إليه أحد الثلاثة الذين كانوا عن يمينه يقال له تمليخا - وكان غلاماً - فقال في نفسه: لو كان دقيانوس إلهاً كما يزعم إذاً ما كان يغتم ولا يفزع، وما كان يبول ولا يتغوط، وما كان ينام، وليس هذه من فعل الإله، قال: وكان الفتية الستة كل يوم عند أحدهم وكانوا ذلك اليوم عند تمليخا، فاتخذ لهم من طيب الطعام، ثم قال لهم: يا إخوتاه قد وقع في قلبي شيء منعني الطعام والشراب والمنام، قالوا: وما ذاك يا تمليخا؟ قال: أطلت فكري في هذه السماء فقلت: من رفع سقفها محفوظة بلا عمد ولا علاقة من فوقها؟ ومن أجرى فيها شمساً وقمراً آيتان مبصرتان؟ ومن زينها بالنجوم؟ ثم أطلت الفكر في الأرض

فقلت: من سطحها على ظهر اليم الزاخر؟ ومن حبسها بالجبال أن تميد على كل شيء؟ وأطلت فكري في نفسي من أخرجني جنيناً من بطن أمي؟ ومن غذاني؟ ومن رباني؟ إن لها صانعاً ومدبراً غير دقيوس الملك، وما هو إلا ملك الملوك، وجبار السماوات، فانكبت الفتية على رجليه يقبلونها، وقالوا بك هدانا الله من الضلالة إلى الهدى، فأشر علينا، قال: فوثب تمليخا فباع تمراً من حائط له بثلاثة آلاف درهم وصرّها في ردنه وركبوا خيولهم وخرجوا من المدينة، فلما ساروا ثلاثة أميال قال لهم تمليخا: يا إخوتاه جاءت مسكنة الآخرة وذهب ملك الدنيا، أنزلوا عن خيولكم وامشوا على أرجلكم، لعل الله أن يجعل لكم من أمركم فرجاً ومخرجاً، فنزلوا عن خيولهم ومشوا على أرجلهم سبعة فراسخ في ذلك اليوم فجعلت أرجلهم تقطر دماً. قال: فاستقبلهم راعٍ فقالوا: يا أيها الراعي هل من شربة لبن أو ماء؟ فقال الراعي: عندي ما تحبون ولكن أرى وجوهكم وجوه الملوك، وما أظنكم إلا هراباً من دقيوس الملك، قالوا: يا أيها الراعي لا يحل لنا الكذب، أفينجينا منك الصدق؟ فأخبروه بقصتهم فانكب الراعي على أرجلهم يقبلها، ويقول: يا قوم لقد وقع في قلبي ما وقع في قلوبكم، ولكن أمهلوني حتى أرد الأغنام على أربابها وألحق بكم، فتوقفوا له فرد الأغنام وأقبل يسعى يتبعه الكلب له. قال: فوثب اليهودي فقال: يا علي ما كان اسم الكلب؟ وما لونه؟

فقال علي (ع): لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أما لون الكلب فكان أبلقاً بسواد، وأما اسم الكلب فقطمير، فلما نظر الفتية إلى الكلب قال بعضهم: إنا نخاف أن يفضحنا بنباحه، فألحوا عليه بالحجارة، فأنطق الله تعالى جل ذكره الكلب: ذروني حتى أحرسكم من عدوكم فلم يزل الراعي يسير بهم حتى علاهم جبلاً فانحط بهم على كهف يقال له الوصيد، فإذا بفناء الكهف عيون وأشجار مثمرة، فأكلوا من الثمر وشربوا من الماء وجنهم الليل فآووا إلى الكهف وربض الكلب على باب الكهف ومد يديه عليه، فأوحى الله تعالى عز وعلا إلى ملك الموت بقبض أرواحهم، ووكل الله بكل رجل ملكين يقلبانه من ذات اليمين إلى ذات الشمال، ومن ذات الشمال إلى اليمين، فأوحى الله تعالى عزّ وعلا إلى خزان الشمس فكانت تزاور عن كهفهم ذات اليمين، وتقرضهم ذات الشمال، فلما رجع دقيوس من عيده سأل عن الفتية فأخبر أنهم خرجوا هراباً فركب في ثمانين ألف حصان، فلم يزل يقفو آثرهم حتى علا فانحط إلى كهفهم فلما نظر إليهم إذا هم نيام، فقال الملك: لو أردت أن أعاقبهم بشيء لما عاقبتهم بأكثر مما عاقبوا به أنفسهم، ولكن آتوني بالبنائين فسدّ باب الكهف بالكلس والحجارة، وقال لأصحابه: قولوا لهم: يقولوا لإلههم الذي في السماء لينجيهم وأن يخرجهم من هذا الموضع.

قال علي (ع): يا أخا اليهود فمكثوا ثلاث مائة سنة وتسع سنين، فلما أراد الله أن يحييهم أمر إسرافيل الملك أن ينفخ فيهم الروح، فنفخ فقاموا من رقدتهم، فلما أن بزغت الشمس قال بعضهم: قد غفلنا في هذه الليلة عن عبادة إله السماء، فقاموا فإذا العين قد

غارت، وإذا الأشجار قد يبست، فقال بعضهم: إن أمورنا لعجب، مثل تلك العين الغزيرة قد غارت والأشجار قد يبست في ليلة واحدة! ومسهم الجوع فقالوا: ابعثوا بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً.

قال تمليخا: لا يذهب في حوائجكم غيري، ولكن ادفع أيها الراعي ثيابك إليّ، قال: فدفع الراعي ثيابه ومضى يؤم المدينة، فجعل يرى مواضع لا يعرفها، وطريقاً هو ينكرها حتى أتى باب المدينة وإذا عليه علم أخضر مكتوب عليه: لا إله إلا الله عيسى رسول الله، قال: فجعل ينظر إلى العلم وجعل يمسح عينيه ويقول: أراني نائماً، ثم دخل المدينة حتى أتى السوق فأتى رجلاً خبازاً فقال: أيها الخباز ما اسم مدينتكم هذه؟ قال: أقسوس قال: وما اسم ملككم؟ قال: عبد الرحمن، قال: ادفع إلي بهذه الورق طعاماً، فجعل الخباز يتعجب من ثقل الدراهم ومن كبرها. قال فوثب اليهودي وقال: يا علي وما كان وزن كل درهم منها؟

قال (ع): وزن كل درهم عشرة دراهم وثلثي درهم، فقال الخباز: يا هذا أنت أصبت كنزاً؟

فقال تمليخا: ما هذا إلا ثمن تمر بعتها منذ ثلاث، وخرجت من هذه المدينة، وتركت الناس يعبدون دقيوس الملك، قال: فأخذ الخباز بيد تمليخا وأدخله على الملك فقال: ما شأن هذا الفتى؟ قال الخباز: هذا رجل أصاب كنزاً، فقال الملك: يا فتى لا تخف فإن نبينا عيسى (ع) أمرنا أن لا نأخذ من الكنز إلا خمسها، فأعطني خمسها وامض سالماً.فقال تمليخا: انظر أيها الملك في أمري ما أصبت كنزاً، أنا رجل من أهل هذه المدينة، فقال الملك: أنت من أهلها؟ قال: نعم، قال: فهل تعرف بها أحداً؟ قال: نعم، قال: ما اسمك؟ قال: اسمي تمليخا، قال: وما هذه الأسماء أسماء أهل زماننا، فقال الملك: فهل لك في هذه المدينة دار؟ قال: نعم اركب أيها الملك معي، قال: فركب الملك والناس معه فأتى بهم أرفع دار في المدينة، قال تمليخا: هذه الدار لي، فقرع الباب فخرج إليهم شيخ وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر، فقال: ما شأنكم؟ فقال الملك: أتانا هذا الغلام بالعجائب، يزعم أن هذه الدار داره، فقال له الشيخ: من أنت؟ قال: أنا تمليخا بن قسطيكين، قال: فانكب الشيخ على رجليه يقبلهما ويقول: هو جدي ورب الكعبة، فقال: أيها الملك هؤلاء الستة الذين خرجوا هراباً من دقيوس الملك. قال: فنزل الملك عن فرسه وحمله على عاتقه وجعل الناس يقبلون يديه ورجليه، فقال: يا تمليخا ما فعل أصحابك؟ فأخبر أنهم في الكهف، وكان يومئذ بالمدينة ملك مسلمٌ وملك يهودي فركبوا في أصحابهم فلما صاروا قريباً من الكهف قال لهم تمليخا: إني أخاف أن تسمع أصحابي أصوات حوافر الخيول فيظنون أن دقيوس الملك قد جاء في طلبهم، ولكن أمهلوني حتى أتقدم فأخبرهم، فوقف الناس فأقبل تمليخا حتى دخل الكهف فلما نظروا إليه اعتقوه وقالوا: الحمد لله الذي نجاك من دقيوس، قال تمليخا: دعوني عنكم وعن دقيوسكم، قال: كم لبثتم؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم!

قال تمليخا: بل لبثتم ثلاث مائة وتسع سنين، وقد مات دقيوس وانقرض قرن بعد قرن، وبعث الله نبياً يقال له المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ورفعه الله إليه، وقد أقبل إلينا الملك والناس معه قالوا: يا تمليخا أتريد أن تجعلنا فتنةً للعالمين؟ قال تمليخا: فما تريدون؟ قالوا: ادع الله جل ذكره وندعوه معك حتى يقبض أرواحنا، فرفعوا أيديهم، فأمر الله تعالى بقبض أرواحهم وطمس الله باب الكهف على الناس، فأقبل الملكان يطوفان على باب الكهف سبعة أيام لا يجدان للكهف باباً، فقال الملك المسلم: ماتوا على ديننا، أبني على باب الكهف مسجداً، وقال اليهودي: لا بل ماتوا على ديني أبني على باب الكهف كنيسةً، فاقتتلا فغلب المسلم وبنى مسجداً عليه. يا يهودي أيوافق هذا ما في توراتكم؟ قال: ما زدت حرفا ولا نقصت، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله[1].

ومن هذه الرواية الأنموذج والتي يخبر فيها الإمام علي بن أبي طالب (ع) عن الغيب المجهول من الماضي البعيد، لدى عامة الناس وخاصتهم، ويتحدث في الإجابة عن الأسئلة المطروحة التي لم يسمع أجوبتها المسلمون، وكانت إجابته إجابة المخبر والشاهد الحاضر، ويتضح من الرواية أن إجابته (ع) كانت على شكل أقسام أو محاور و كالآتي:

القسم الأول:

كانت إجابة الإمام علي بن أبي طالب (ع) على أسئلة طرحت على سبيل الاختبار، فهي متنوعة، وكان يتنقل في أجوبتها في علوم مختلفة، يطير فيها من علم إلى علم، ومن زمان إلى زمان، ينبىء عن أحداث وعبر وعظات غابت عن أقرانه و أهل زمانه، فكانت إخباره عن الأمور الآتية:

١- إخباره عن المغيبات التي تخص العقائد والشرائع السماوية، وذلك لمعرفته عن أقفال السموات ومفاتحها.

٢- إخباره عن الحوت الذي ابتلع نبي الله يونس بن متى (ع)، والذي جابت به البحار السبع، ومن ثم قذفته إلى البر.

٣- إخباره عن نملة سليمان(ع)، وتحذيرها لقومها.

٤- إخباره عن الأحياء التي لم تخلق في الأرحام.

٥- ثم إخباره عن أصوات بعض الحيوانات والتي لا تنتمي إلى صنف واحد، فأخبر عن الصائح والصاهل والناقع والصافر.

القسم الثاني:

أجاب فيها الإمام علي بن أبي طالب (ع)، على الشق الأخير من الأسئلة، عن طريق الإخبار على شكل القصة المترابطة الفصول، دقيقة التفاصيل، صحيحة الألفاظ، واضحة

---

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ت ١١١١هـ، تحقيق: عبد الرحيم الرباني الشيرازي، الطبعة الثانية المصححة، ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ م، الناشر: مؤسسة الوفاء ـ بيروت ـ لبنان، ج١٤ص٤١٧.

المعاني، متسلسلة الأحداث، ابهر فيها العقول، وأذهل السائل، حتى أذعن، واستجاب لشرطه ودخل الإسلام، وكانت إجابته على الأمور الآتية:

١- إخباره عن أصحاب الكهف، يعرفهم للحضور بأسمائهم، ومناصبهم، وصفاتهم وحتى جلوسهم في مجلس ملكهم، واسم ذلك الملك، بل اسم كلبهم ولونه.
٢- الإخبار عن اسم المدينة التي كان ينتسب إليها الملك وأصحاب الكهف.
٣- وصف الكهف الذي لجأ إليه الفتية، و وصف الماء والثمر الذي في ذلك الكهف.
٤- إخباره عن عملة ذلك الزمان، ووزن الدرهم الواحد.
٥- إخباره عن المدة التي لبثها أصحاب الكهف في نومهم.
٦- أن وقت ظهورهم كان في عصر نبي الله عيسى (ع).

أقول..

يتضح من الرواية الآنفة الذكر، إن علم الإمام علي بن أبي طالب (ع)، للماضي البعيد، هو علم لم يحط به من لدائنه أحداً، بل لا يحيط به إلا رسول أو نبيٌّ أو وصيّ، ومن كان علمه من الله تعالى، ويلاحظ في تفاصيل الرواية وما أخبر به الإمام (ع)، إخبار شاهدٍ حاضرٍ، علماً يقينياً، ينقل ويصور الأحداث كما هي في الواقع.

المبحث الثالث

الإخبار عن المستقبل القريب والبعيد

كان أمير المؤمنين (ع) يقول: (لولا آية في كتاب الله، لأخبرتكم بما كان وبما يكون وبما هو كائن إلى يوم القيامة)[١]، ومن المعروف أن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، وإخبار الإمام علي (ع) عن الأمور الغيبية، إنما هو مستمد من الله تعالى، ولذلك معرفته بالحوادث والملاحم قبل وقوعها، وما سرعة الإجابة على الأسئلة التي تطرح عليه، أو تقديم الاعتبار بالعبرة أو العظة أو الإرشاد، ينم على المعلومة الحاضرة لديه. ثم إنه لم يُسمع منه (ع) كلمة (لا أدري) أبداً، وقد قال له عمر بن الخطاب يوماً، يا أبا الحسن إنك لتعجل في الحكم والفصل للشيء إذا سُئلت عنه، فأبرز علي كفّه وقال له: كَمْ هذهِ؟ فقال عمر: خمسة، فقال: عجلت يا أبا حفص، قال: لمْ يخف عليّ، فقال علي: وأنا أُسرع فيما لا يخفى عليّ[٢].

وقد أخبر الإمام علي (ع) الكثير من الأخبار الغيبية التي تأتي على الأمة أو الأفراد في القادم من الأيام، وكان إخباره عن الذي يحدث في البلدان والأمصار، وما يجري على الناس

---

(١) بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ت ١١١١هـ، تحقيق: يحيى العابدي، الطبعة الثانية المصححة، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م الناشر: مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان، ج٤ص٩٧.

(٢) التحقيق في الإمامة وشؤونها، عبد اللطيف البغدادي، ص١٣٤.

والمجتمعات، وتسلط الطغاة على الرقاب، والإخبار بعلامات آخر الزمان، وأخبار ولده الإمام المهدي المنتظر (ع)، وعلامات قيام الساعة، ومن ذلك نذكر ما يأتي:

١- إخباره عن غرق مدينة البصرة، وذلك بقوله (ع): (وأيم الله لتغرقن بلدتكم هذه حتى كأني أنظر إلى مسجدها كجؤجؤ سفينة أو كناعمة جاثمة)[١]، إخباره إخبار الشاهد الحاضر، فقد وقع الحدث، وغرقت مدينة البصرة مرتين، (مرةً في أيام القادر بالله، ومرةً في أيام القائم بأمر الله، ولم يبق منها إلا المسجد الجامع بارزاً بعضه كجؤجؤ الطير كما أخبر أمير المؤمنين (ع). وأخبار هذين الغرقين معروفة عند أهل البصرة يتناقلها خلفهم عن سلفهم)[٢].

٢- إخباره عن الضربة التي يضرب بها رأسه فتخضب لحيته. وكان علي (ع) يقول عندما يقرأ القران الكريم ويمر بالآية الكريمة: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾[٣]، (فو الذي نفسي بيده لتخضبن هذه من هذا) وأشار بيده إلى لحيته ورأسه[٤]، ويقول (ع) أيضاً: (... أنا إذا حان أجلي انبعث أشقاها فخضب هذه من هذا) وأشار إلى لحيته ورأسه - عهداً معهوداً ووعداً غير مكذوب[٥].

٣- إخباره عن أمر الخوارج بالنهروان، وإخباره بملك معاوية الأمر من بعده، وإخباره عن قتل الإمام الحسين (ع)، وإخباره (ع) عن الحجاج بن يوسف الثقفي، وذلك أن عبّاد بن قيس من بكر بن وائل قام إلى عليّ (ع) بعد فتح البصرة وقال له: جئنا نطلب غنائمنا فجئتنا بالترّهات، فقال (ع): إن كنت كاذباً سلط الله عليك غلام ثقيفٍ، قالوا: وما غلام ثقيفٍ؟، قال: غلامٌ لا يدع له حرمة إلا انتهكها، قالوا: فيموت أو يقتل، فقال عليه السّلام: يقتله قاصم الجبّارين بموت فاحش يحترق منه دبره لكثرة ما يجري من بطنه)[٦]، وعن قتل أصحابه وعرض البراءة عليهم، وإخباره عن مقتل النفس الزكية بالمدينة وقوله إنه يقتل عند أحجار الزيت، وقتل أخاه إبراهيم في باخمرا، إلى غير ذلك من أحداث.

---

(١) مناقب أهل البيت (ع)، المولى حيدر الشيرواني، ت ق ١٢هـ، تحقيق: الشيخ محمد الحسون، شوال المكرم ١٤١٤هـ، المطبعة: مطبعة منشورات الإسلامية، ص٢١٥.

(٢) في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية، ت ١٤٠٠هـ، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ، المطبعة: مطبعة ستار، الناشر: انتشارات كلمة الحق، ج١ص١٢٥.

(٣) سورة الشمس: آية ١٢.

(٤) تفسير نور الثقلين، الشيخ الحويزي، الوفاة: ١١١٢، (ط٤، ١٤١٢مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع - قم) ج٥ ص٥٨٦.

(٥) بحار الأنوار، ج٤١ ص٢.

(٦) النجعة في شرح اللمعة، الشيخ محمد تقي التستري، ت ١٤١٦هـ، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، الناشر: ناشر: كتاب فروشي صدوق، ج٦ص٢٠٢.

٤- إخباره عن الرايات السود، فقال (ع): (إذا رأيتم الرايات السود فالزموا الأرض، فلا تحركوا أيديكم ولا أرجلكم، ثم يظهر قوم صغار لا يؤبه لهم، قلوبهم كزبر الحديد، أصحاب الدولة، لا يفون بعهد ولا ميثاق يدعون إلى الحق وليسوا من أهله، أسماؤهم الكنى، ونسبتهم القرى، شعورهم مرخاة كشعور النساء حتى يختلفوا فيما بينهم، ثم يؤتي الله الحق من يشاء)[١].

٥- إخباره عن السفياني، فقال (ع): (كأني بالسفياني أو بصاحب السفياني قد طرح رحله في رحبتكم بالكوفة، فنادى مناديه: من جاء برأس رجل من شيعة علي فله ألف درهم، فيثب الجار على جاره يقول: هذا منهم، فيضرب عنقه ويأخذ ألف درهم)[٢].

٦- إخباره عن الإمام المهدي (ع)، عن الأصبغ بن نباتة، قال: (أتيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) فوجدته متفكراً ينكت في الأرض، فقلت: يا أمير المؤمنين مالي أراك متفكراً تنكت في الأرض أرغبت فيها؟

فقال: لا والله ما رغبت فيها ولا في الدنيا يوماً قط ولكن فكرت في مولود يكون من ظهري الحادي عشر من ولدي، هو المهدي يملؤها عدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً، تكون له حيرة وغيبة، يضل فيها أقوام ويهتدي فيها آخرون،

فقلت: يا أمير المؤمنين وإن هذا لكائنٌ؟

فقال: نعم كما أنه مخلوق وأنى لك بالعلم بهذا الأمر يا أصبغ أولئك خيار هذه الأمة مع إبرار هذه العترة.

قلت: وما يكون بعد ذلك؟

قال: ثم يفعل الله ما يشاء فإن له إرادات وغايات ونهايات)[٣].

يتضح مما تقدم أن الإمام علي (ع) في الأخبار الآنفة يخبر فيها عن المستقبل المجهول، واخترنا بعض الأخبار التي تنبّئ فيها (ع) عن أحداثٍ ستقع في القادم على زمانه، وكما يأتي:

١- أنه (ع) أعطى صورةً واضحةً ودقيقةً للأحداث والوقائع التي وقعت فيما بعد، كما في أنبائه عن مدينة البصرة، وجاء الواقع مطابقاً لتلك الصورة التي أنبأ عنها.

٢- كان على علمٍ تامٍ في الضربة التي تقتله، ومن هو قاتله، والكيفية التي يقتل فيها، وتعريف الناس بأشقى الآخرين، وهذا ما حدث، حيث ضربه عبد الرحمن بن ملجم على رأسه، وأدت تلك الضربة إلى استشهاده.

---

(١) التشريف بالمنن في التعريف بالفتن (الملاحم والفتن)، السيد ابن طاووس، ت ٦٦٤هـ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، المطبعة: نشاط - أصفهان، الناشر: مؤسسة صاحب الأمر عجل الله فرجه، ص٨٩.

(٢) الغيبة، الشيخ الطوسي، ت ٤٦٠هـ، تحقيق: الشيخ عباد الله الطهراني، الشيخ علي أحمد ناصح، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، المطبعة: بهمن، الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية - قم المقدسة، ص٤٥٠.

(٣) كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ت ٣٨١هـ، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، محرم الحرام ١٤٠٥، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ص ٢٨٩.

٣- كذلك نبّأ عن حوادث وقعت في أزمانٍ مختلفةٍ، كإخباره عن الناكثين والقاسطين والمارقين، والإخبار عن ملك بني أمية والطاغية الحجاج وكيفية هلاكه، وعرض شيعته على البراءة منه وكيفية قتلهم، وإخباره عن ثورة ذي النفس الزكية وفشلها.

٤- أنه (ع) امتدّ بنظره إلى المستقبل البعيد، فنبّأ عن أصحاب الرايات السود، وأعطى صورةً واضحةً ودقيقةً لأصحابها، وصفاتهم وكناهم ونسبتهم، وهذا الذي يحدث اليوم أو قريب منه، فنلاحظ أصحاب الرايات السود - القاعدة أو داعش - ثم إن أصحاب هذه الرايات، يسمون أنفسهم بـ(أبو عمر، وأبو انس، وأبو أيمن، وابو حفص....) فتكون أسماؤهم كنى، وينسبون إلى القرى والبلدان، مثل (المصري، والبغدادي، والعراقي، والأفغاني، و...)، وأنهم يحرمون الحلاقة، فتكون شعورهم طويلةً، يدعون أنهم المسلمون حقاً، وغيرهم باطل كافرٌ غير مسلم، يستحق القتل، فيقتلون المسلمين وغيرهم باسم الإسلام والدين، والدين براء منهم، وأنهم لا يفون بوعد ولا عهد، يأسرون الناس، ثم يفادوهم، وبعدها يقتلونهم. ونبأ عن الذي يحدث في هذا العصر، حيث نزول أصحاب الفكر السفياني المتمثل بالعصابات الإرهابية التي عثت في الأرض الفساد في مختلف الأمصار والمدن، وتوسعت عملياتها في العراق، ثم يجزي ويعطي القتلة المال الوفير، حتى وثب الجار على جاره، والزوج على زوجته، والابن على أمه، فكثر التهجير وعم القتل بين الناس، وانتشر الخراب في البلاد، وعمت الطائفية في أرجاء العراق.

٥- أما إخباره (ع) عن الأحداث والخطوب التي تظهر في عصر ولده الإمام المهدي (ع)، وأن له غيبة تطول، يثبت فيها المؤمنون، فيصبرون وينتظرون ظهوره المبارك، وينزلق آخرون باتجاه الباطل، فتكثر البدع، وتتفرق الأمة إلى فرق ومذاهب، الكل يدّعي أن الحق بجنبه، فيسقط قومٌ، ويكفر آخرون.

الخاتمة:

إن علم الإمام علي (ع) إنما هو من علم رسول الله (ص)، وعلم الرسول (ص) من علم تعالى، لذا فإن علم الإمام (ع) يغيب عن الناس، فهو أعلم الناس بعد الرسول الأعظم (ص)، وأن مصادر علمه الغيبية كانت من:

١- الكتاب العزيز الحكيم، فإنه (ع) كان محيط، والكتاب فيه تبيانٌ لكل شيء، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[1]، وأنه (ع) كان يصرح في هذا، فيقول: (والله ما نزلت آيةٌ إلاّ وقد علمت فيم نزلت؟ وأين نزلت؟ وعلى من نزلت؟ إنّ ربّي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً صادقاً ناطقاً)[2].

---

(١) سورة النحل: الآية ٨٩.

(٢) موسوعة الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت (ع)، مؤسسة دائرة المعارف الفقه الإسلامي، تحقيق: مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ م، الناشر: مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، ج١ص١٥٠.

٢- من ليلة القدر المبارك التي فيها يفرّق كل أمرٍ حكيم، وفيها تتنزل الملائكة والروح، على حجة عصره، وكما هو معروفٌ أن الإمام علي بن أبي طالب (ع) هو وصي النبي محمد (ص) بل هو سيد الأوصياء. وهو الحجة بعد الرسول (ص)، وأن ما ينزل في ليلة القدر مختصٌ بالحجة على الخلق، عن بريده قال كنت جالساً مع رسول الله (ص) وعلي (ع) معه إذ قال يا علي ألم أشهدك معي سبعة مواطن الموطن الخامس ليلة القدر خصصنا ببركتها ليست لغيرنا)[١] قال الإمام الصادق (ع): (إن الله يقضي فيها مقادير تلك السنة ثم يقذف به إلى الأرض)[٢].

٣- إن الإمام علي (ع) ورث علم الأوصياء وعلم من كان قبله، ثم إنه ورث علم رسول الله (ص)، قال الإمام الباقر (ع) في حديث عن علم الإمام علي (ع) قال: (وورث علم الأوصياء وعلم من كان قبله)، و قال الإمام الصادق (ع): (إنّا ورثنا محمداً)[٣]، وعن الإمام الرضا (ع) قال: (أما بعد فإن محمداً كان أمين الله في خلقه فلما قبض كنا أهل البيت ورثته، فنحن أمناء الله في أرضه، عندنا علم البلايا والمنايا وأنساب العرب ومولد الإسلام، وإنا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وحقيقة النفاق)[١]، وعن أبي عبد الله (ع) في حديث جاء فيه: (ورب الكعبة ورب البيت - ثلاث مرات - لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما، ولأنبئهما بما ليس في أيديهما، لأن موسى والخضر أُعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة. وأن رسول الله أُعطي علم ما كان وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، فورثناه من رسول الله (ص) وراثةً[٢]، وأن الإمام الصادق (ع) وسائر الأئمة (عليهم السلام) ورثوا علومهم من رسول الله (ص) مروراً بالإمام علي بن أبي طالب (ع).

٤- إن الإمام (ع) ملهمٌ، قال ابن عباس (رض): (سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: أعطاني الله خمساً، وأعطى عليّاً خمساً: أعطاني جوامع الكلم، وأعطى عليّاً جوامع العلم، وجعلني نبياً، وجعل عليّاً وصيّاً، أعطاني الكوثر، وأعطى عليّاً السلسبيل، وأعطاني الوحي، وأعطى عليّاً الإلهام، وأسرى بي إليه، وفتحت له أبواب

---

(١) بصائر الدرجات، محمد بن الحسن بن فروخ (الصفار)، ت ٢٩٠ هـ، تحقيق: تصحيح وتعليق وتقديم: الحاج ميرزا حسن كوجه باغي، ١٤٠٤ هـ، المطبعة: مطبعة الأحمدي - طهران، الناشر: منشورات الأعلمي - طهران، ص٢٤٢.

(٢) تفسير نور الثقلين، الشيخ الحويزي، ت ١١١٢هـ، تحقيق: تصحيح وتعليق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، الطبعة الرابعة ١٤١٢ هـ، المطبعة: مؤسسة إسماعيليان، الناشر: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع - قم، ج ٥ ص٦٣٩.

(٣) حقيقة علم آل محمد (ع) وجهاته، السيد علي عاشور، ص٨٧.

السماء حتى رأى ما رأيت ونظر إلى ما نظرت إليه)[١]، وعن الإمام الرضا (ع) في حديثٍ طويل جاء فيه: (إن العبد إذا اختاره الله عز وجل لأمور عباده شرح صدره لذلك وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً فلم يعِ بعده بجوابٍ)[٢]، والذي لا يقبل الشك إن الإمام علي (ع) من الصفوة المختارة.

٥- إن الإمام عليٍّ (ع) كان محدثاً، وكان الإمام الباقر (ع) يقول بذلك، فسألوه عن ذلك، وسألوه من يحدّثه؟ فقال (ع): (ملك يحدثه قال قلت أقول إنّه نبيٌّ قال (ع): لا ولكن قل مثله مثل صاحب سليمان ومثل صاحب موسى ومثله مثل ذي القرنين)[٣].

أخيراً...

لو تأملنا قليلا في الآية الكريمة من سورة الرعد، قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[٤]، فمن يكون له الأهلية أن يكون شاهداً بين رسول الله (ص) والذين كفروا؟ ومن يكون مصداق الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾[٥]؟ أيكون غير الإمام علي (ع)!!! ومن يكون شاهداً على رسول الله (ص) وعنده علم الكتاب؟، فلا يتصوّر أن يكون غيره، فإن الشاهد ومن عنده علم الكتاب هو الإمام علي (ع)، سأل أبو بصير الإمام الصادق (ع): عن قول الله عز وجل قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب، قلت هو علي بن أبي طالب (ع) قال فمن عسى أن يكون غيره[٦]. وقال الإمام الصادق (ع) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، قال: الذي هو على بينةٍ من ربه هنا رسول الله (ص)، والشاهد الذي يتلوه منه علي (ع) يتلوه إماماً من بعده وحجّةً على من خلفه من أمته[٧]. يملك هذه الصفات وهذه المؤهلات التي اختص بها قطعاً يكون على علمٍ بالغيب سابقاً ولاحقاً عن عصره.

---

(١) الأمالي، الشيخ الطوسي، ت ٤٦٠هـ، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ، الناشر: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع - قم، ص١٩٢.

(٢) الوافي، ج٣ص٤٨٦.

(٣) ينابيع المعاجز، السيد هاشم البحراني، ت ١١٠٧هـ، المطبعة: العلمية - قم، ص٥١.

(٤) سورة الرعد: الآية ٤٣.

(٥) سورة هود: الآية ١٧.

(٦) بصائر الدرجات، ص٢٣٥.

(٧) دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ت ٣٦٣هـ، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، سنة الطبع: ١٣٨٣ - ١٩٦٣م، الناشر: دار المعارف - القاهرة، ج ١ص٢٠.

المصادر:

القرآن الكريم.

١- الأمالي، الشيخ الصدوق، ت ٣٨١هـ، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة - قم، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة.

٢- بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ت ١١١١ هـ، تحقيق: السيد إبراهيم الميانجي، محمد الباقر البهبودي، الطبعة الثالثة المصححة، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.

٣- بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ت ١١١١هـ، تحقيق: يحيى العابدي، الطبعة الثانية المصححة، ١٤٠٣ - ١٩٨٣م، الناشر: مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان.

٤- بحار الأنوار، العلامة المجلسي، ت ١١١١هـ، تحقيق: عبد الرحيم الرباني الشيرازي، الطبعة الثانية المصححة، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م، الناشر: مؤسسة الوفاء - بيروت - لبنان.

٥- بصائر الدرجات، محمد بن الحسن بن فروخ (الصفار)، ت ٢٩٠ هـ. تحقيق: تصحيح وتعليق وتقديم: الحاج ميرزا حسن كوجه باغي، ١٤٠٤ هـ، المطبعة: مطبعة الأحمدي - طهران، الناشر: منشورات الأعلمي - طهران.

٦- التوحيد، الشيخ الصدوق، ت٣٨١هـ، تحقيق: تصحيح وتعليق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

٧- تفسير نور الثقلين، الشيخ الحويزي، ت ١١١٢هـ، تحقيق: تصحيح وتعليق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، الطبعة الرابعة١٤١٢ هـ، المطبعة: مؤسسة إسماعيليان، الناشر: مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع - قم.

٨- تاج العروس، الزبيدي، الوفاة: ١٢٠٥، تحقيق: علي شيري، سنة الطبع: ١٤١٤ - ١٩٩٤م، المطبعة: دار الفكر - بيروت الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، ج٢ مادة: غيب.

٩- التشريف بالمنن في التعريف بالفتن (الملاحم والفتن)، السيد ابن طاووس، ت ٦٦٤هـ، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، المطبعة: نشاط - أصفهان، الناشر: مؤسسة صاحب الأمر عجل الله فرجه.

١٠- التحقيق في الإمامة وشؤونها، عبد اللطيف البغدادي.

١١- حقيقة علم آل محمد (ع) وجهاته، السيد علي عاشور.

١٢- الخصال، الشيخ الصدوق، ت ٣٨١هـ، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، سنة الطبع: ١٨ ذي القعدة الحرام ١٤٠٣، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.

١٣- دعائم الإسلام، القاضي النعمان المغربي، ت ٣٦٣هـ، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، سنة الطبع: ١٣٨٣ - ١٩٦٣ م، الناشر: دار المعارف - القاهرة.

١٤- الصحاح، الجوهري، ت٣٩٣هـ، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت - لبنان، ج١، مادة غيب.

١٥- الغيبة، الشيخ الطوسي، ت ٤٦٠هـ، تحقيق: الشيخ عباد الله الطهراني، الشيخ علي أحمد ناصح، الطبعة الأولى
١٤١١هـ، المطبعة: بهمن، الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية - قم المقدسة.

١٦- الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ت ٧٢٨هـ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا / مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ - ١٩٨٧ م، الناشر: دار الكتب العلمية.

١٧- في ظلال نهج البلاغة، محمد جواد مغنية، ت ١٤٠٠هـ، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ، المطبعة: مطبعة ستار، الناشر: انتشارات كلمة الحق.
١٨- فوائد الطوسية، الحر العاملي، ت ١١٠٤هـ، تحقيق: علق عليه وصححه العالمان المتتبعان الحاج السيد مهدي اللازوردي والشيخ محمد درودي، شعبان ١٤٠٣، المطبعة: المطبعة العلمية - قم.
١٩- القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ت: ٨١٧هـ، ج١ مادة: (غيب).
٢٠- القاموس الفقهي، الدكتور سعدي أبو حبيب، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م، الناشر: دار الفكر - دمشق - سوريا.
٢١- الكافي (مُشَكّل)، الشيخ الكليني، ت ٣٢٩هـ، تحقيق: صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري، الطبعة الخامسة، سنة الطبع: تابستان ١٣٦٣ ش، المطبعة: جابخانه حيدري، الناشر: دار الكتب الإسلامية - تهران - إيران.
٢٢- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق، ت ٣٨١هـ، تحقيق: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، محرم الحرام ١٤٠٥، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة.
٢٣- كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء (ط.ج)، الشيخ جعفر كاشف الغطاء، ت ١٢٢٨هـ، تحقيق: مكتب الإعلام الإسلامي - فرع خراسان - المحققون: عباس التبريزيان، محمد رضا الذاكري (طاهريان) وعبد الحليم الحلي، الطبعة الأولى، سنة الطبع: ١٤٢٢ هـ، المطبعة: مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، الناشر: مركز انتشارات دفتر تبليغات إسلامي (مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي).
٢٤- لسان العرب، ابن منظور، ت: ٧١١هـ، سنة الطبع: محرم ١٤٠٥، الناشر: نشر أدب الحوزة، ج١، مادة: غيب.
٢٥- مناقب آهل البيت (ع)، المولى حيدر الشيرواني، ت ق ١٢هـ، تحقيق: الشيخ محمد الحسون، شوال المكرم ١٤١٤هـ، المطبعة: مطبعة منشورات الإسلامية.
٢٦- منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، حبيب الله الهاشمي الخوئي، ت ١٣٢٤هـ، تحقيق: سيد إبراهيم الميانجي، الطبعة الرابعة، المطبعة: مطبعة الإسلامية بطهران، الناشر: بنياد فرهنك إمام المهدي (عج).
٢٧- مصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة)، الميرجهاني، ت ١٣٨٨هـ، سنة الطبع: ١٣٨٨.
٢٨- موسوعة الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت (ع)، مؤسسة دائرة المعارف الفقه الإسلامي، تحقيق: مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢ م، الناشر: مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي.
٢٩- مناقب آهل البيت (ع)، المولى حيدر الشيرواني، ت ق ١٢هـ، تحقيق: الشيخ محمد الحسون، شوال المكرم ١٤١٤هـ، المطبعة: مطبعة منشورات الإسلامية.
٣٠- نهج البلاغة، خطب الإمام علي (ع) (تحقيق صالح)، ت ٤٠هـ، تحقيق: ما أختاره وجمعه الشريف الرضي ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي صالح، الطبعة الأولى، ١٣٨٧ - ١٩٦٧.
٣١- النجعة في شرح اللمعة، الشيخ محمد تقي التستري، ت ١٤١٦هـ، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، الناشر: ناشر كتاب فروشي صدوق.
٣٢- الوافي، الفيض الكاشاني، ت ١٠٩١هـ، تحقيق: عني بالتحقيق والتصحيح والتعليق عليه والمقابلة مع الأصل ضياء الدين الحسيني « العلامة » الأصفهاني، الطبعة الأولى، سنة الطبع: أول شوال المكرم ١٤٠٦ هـ. ق ١٩ / ٣ / ٦٥ هـ. ش، المطبعة: طباعة أوفست نشاط أصفهان، الناشر: مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي (ع) العامة - أصفهان. ❖

بَيعَة الغَدير في شِعرِ جَبل عَامل
(الشاعرُ إبراهيم بن يَحيى العاملي اخْتِياراً)

د. حسين لفته حافظ
مركز دراسات الكوفة

د. عواد كاظم
كلية الآداب ـ جامعة ذي قار

المقدمة:

امتاز شعر جبل عامل الذي قيل بحق أهل البيت (عليهم السلام) بخصوصية ميزته عمن سواه من الأشعار التي قيلت بحق العترة الطاهرة، وتأتي هذه الميزة من العاطفة الصادقة المخلصة لحب أهل البيت (ع)، فضلاً عن هذا امتاز هذا النوع من الأدب بالالتزام، والمقصود به أن الشعراء كانوا يسخرون كل طاقاتهم الفنية لخدمة قضية أهل البيت، وما تعرضوا له من ظلم وجور خلال هذه السنوات الطويلة، وشاعرنا موضوع الدراسة من الشعراء الذين تناولوا كل ما يتعلق بأهل البيت (عليهم السلام) من مناقب ومفاخر ومآثر ومصائب حلت بهم كل ذلك تناوله بأبيات شعريّة طافحة بالتصوير الفني، وما زال شعر الغدير يفيض على الدنيا بعطائه مستمداً من صاحب الغدير ينبوعه وعزيمته، وشاعرنا الشيخ إبراهيم بن صادق العاملي، شاعر وأديب ورجل دين شيعي من جبل عامل، وقد كان أديباً وشاعراً وعالماً فاضلاً من تلامذة السيد علي محمد الأمين، مكث في النجف فترةً طويلةً، تتلمذ فيها على عدد من العلماء منهم[١]: الشيخ حسن بن جعفر آل كاشف الغطاء والشيخ مهدي بن جعفر آل كاشف الغطاء والشيخ مرتضى الأنصاري. ترجم له جواد شبّر في أدب الطف فقال: "كان من العلماء الأفاضل، خفيف الروح"[٢].

وكتب السيد حسن الأمين عنه فقال: "وآل صادق من أشرف بيوت العلم في جبل عامل وأعرقها في الفضل والأدب نبغ فيهم أعلام في الفقه والشعر لم تزل آثارهم غرة ناصعة في جبين الدهر ولاسيما شعراؤهم الأفذاذ الذين طار صيتهم في الآفاق، وكانوا يعرفون قبل الشيخ صادق بآل يحيى نسبةً إلى جدهم الذي كان من صدور علماء عصره وأدبائه"[٣]. توفي رحمه الله في العام ١٢٨٤ هجرية.

ومن القصائد الخالدة التي أشارت وبوضوحٍ تامّ إلى بيعة الغدير قصيدته الميميّة التي قال فيها:

---

(١) أعيان الشيعة ـ السيد محسن الأمين ـ المجلد ٧ ـ صفحة ٣٥٧ ـ رقم الترجمة ١٢٨٥.

(٢) ينظر أدب الطف: ١٧٦/٧.

(٣) أعيان الشيعة ـ السيد محسن الأمين ـ المجلد ٢ ـ الترجمة رقم ٢٤٦ ـ صفحة ١٤٤.

يـــا للرجـــال لجـــرح لـــيس يلتـــئم عمـــر الزمـــان وداء لـــيس ينحـــسم
حتـــى متـــى أيهـــا الأقـــوام والأمـــم الحـــق مهتـــضم والـــدين مخـــترم
وفي آل الرســـــــــول مقتـــــــــسم

أودى هـــدى النـــاس حتـــى إن أحفظهـــم للخـــير صـــار بقـــول الـــسوء لفظهـــم
فكيـــف تـــوقظهم إن كنـــت مـــوقظهم والنـــاس عنـــدك لا نـــاس فـــيحفظهم
ســـوم الرعـــاة ولا شـــاء ولا نعـــم

يـــا ليـــت شـــعري أيـــدري مـــن تعـــرقني بعذلـــه وبطـــوق الهـــم طـــوقني
ونـــام عـــن ليـــل أو صـــابي وأقلقـــني انـــي أبيـــت قليـــل النـــوم أرقـــني
قلـــب تـــصارع فيـــه الهـــم والهمـــم

ألقـــى الليـــالي وقـــد آلـــت غياهبهـــا أن لا تـــروح ولا تغـــدو كواكبهـــا
بهمـــة يـــستبيح الهـــم قاضـــبها وعزمـــة لا ينـــام الليـــل صـــاحبها
إلا علـــى ظفـــر في طيـــه كـــرم

قـــالوا أيرضـــى لـــه عـــادي منـــصبه بـــصون صـــارمه الماضـــي وســـلهبه
فقلـــت كـــلا أمـــري غـــير مـــشتبه يـــصان مهـــري لأمـــر لا أبـــوح بـــه
والـــدرع والـــرمح والصمـــصامة الخـــذم

وســـابقات جيـــادٍ لـــيس يفـــضحها مهارهـــا يـــوم مجراهـــا وقرحهـــا
لنـــا ذراهـــا وللأعـــداء مـــذبحها وكـــل مـــائرة الـــضبعين مـــسرحها
رمـــث الجزيـــرة والخـــذراف والعـــنم

تـــالله إن بـــني العبـــاس قـــد كفـــروا يـــا ويلـــهم نعـــم البـــاري ومـــا شـــكروا
فكـــم عمـــود لفـــسطاطا الهـــدى كـــسروا يـــا للرجـــال امّـــا الله منتـــصر
مـــن الطغـــاة ومـــا للـــدين منـــتقم

تعرقـــوا آل حـــرب ف وجـــارهم حرصـــاً علـــى الملـــك لا اخـــذاً بثـــأرهم
وأصـــبحت خيفـــة مـــن صـــر نـــارهم بنـــو علـــي رعايـــا في ديـــارهم
والأمـــر يملكـــه النـــسوان والخـــدم

مفـــرقين فـــلا دار مجمعـــةٍ وخـــائفين فـــلا امـــن ولا دعـــة
فكيـــف تعـــذب لـــصادين مـــشرعةٌ والأرض إلا عـــرى ملاكهـــا ســـعة
والمـــال إلا علـــى أربابـــه ديـــم

يا للحمية هذا الحادث الجلل أيصبح العل للأوغاد والنهل
وعترة المصطفى والسادة الأول محلئون فأصفى شربهم وشل
عند الورود وأوفى وردهم لمم
فقل لأعدائها اللائي تحاربها على العلى وهو تاج لا يناسبها
ويزدهي من حواها وهم غاصبها للمتقين من الدنيا عواقبها
وأن تعجل منها الظالم الأثم
لقد فشا في بني المختار نسكهم كما نشا في بني العباس إفكهم
فقال من كان لا يحويه سلكهم لا يطغين بنو العباس ملكهم
بنو علي مواليهم وإن رغموا
بنوا نثيلة لا والله ما لكم فخر على معشر كانوا جمالكم
لو أنقيتم وجانبتم ضلالكم أتفخرون عليهم لا أبا لكم
حتى كأن رسول الله جدكم
كانوا بدوراً بها الظلماء تنكشف وابحراً بالندى راحاتها تكف
فكيف تحكونهم والحال مختلف وما توازن يوماً بينكم شرف
ولا تساوت بكم في موطن قدم
لم يحك سفاحهم لو جانب الخطلا زين الورى كلهم علماً ولا عملا
وليس منصورهم كالباقرين علا ولا الرشيد كموسى في القياس ولا
مأمونكم كالرضى لو أنصف الحكم
أفاضل ربهم الله فضلهم فاختارهم للهدى والعلم حملهم
وبالخلافة دون الناس يجلهم قام النبي بها يوم الغدير لهم
واللضه يشهد والأملاك والأمم
فكان ما كان من تضييع واجها بعد النبي ومن تأخير طالبها
إرثاً وحقاً ومن تقديم غاصبها حتى إذا أصبحت في غير صاحبها
باتت تنازعها الذؤبان والرخم
ما أحسنوا بولي الله ظنهم فضيعوها وقد كانت مجنهم
وشاركوا حرهم فيها وقنهم وصيرت بينهم شورى كأنهم
لا يعرفون ولاة الأمر أين هم

يـا ليـت شـعري لا يـدرون موقعهـا أم لا يـرون بعـين العقـل مطلعهـا
أم كافـل الملـة الغـراء ضـيعها تـالله مـا جهـل الأقـوام موضـعها
لكـنهم سـتروا وجـه الـذي علمـوا
رياسـة أظهـرت للنـاس خبـثهم وأهلكـت نـسل أقـوام وحـرثهم
فاجتـاحهم عـادل لم يـرض مكـثهم ثـم ادعاهـا بنـو العبـاس إرثهـم
ومـا لهـم قـدم فيهـا ولا قـدم
إذا تمـادى مجـال الفخـر وابتـدرت بنـو عليٍّ إلا الغايـات وافتخـرت
رأيـت مـنهم زرافـاتٍ وإن كثـرت لا يـذكرون إذا مـا بيعـةٌ ذكـرت
ولا يحكـم في أمـرٍ لهـم حكـم
قـالوا لنـا الملـك حقـاً لا نجانبـه يومـاً وطالعـه فينـا وغاربـه
ومـا ترعـرع فـيهم مـن يناسـبه ولا رآهـم أبـو بكـرٍ وصـاحبه
أهـلاً لمـا طلبـوا منهـا ومـا زعمـوا
قـالوا الأئمـة كانـت غـير غاصـبةٍ خلافـةً ثـم ثنوهـا بكافيـةٍ
دعـوى الـتراث سـهامٌ غـير صـائبةٍ فهـل هـم مـدعوها غـير واجبـةٍ
أم هـل أئمـتهم في أخـذها ظلمـوا
لقـد نـشرت علـى الـدنيا صـبابتكم بغيـاً وروعـتم فيهـا عـصابتكم
كـم حملـتم علـى بعـد صـحابتكم أمـا عليٌّ فـأدنى مـن قـرابتكم
عنـد الـولاءة إن لم تكفـر الـنعم
أولى أبـاكم وصـنويه عطيتـه فـضلاً وقلـده بـالعفو منتـه
وكـم حـدا لـذوي الأرحـام رحمتـه اينكـر الحـبر عبـد الله نعمتـه
أبـوكم أم عبيـد الله أم قـثم
فكيـف جـازيتم عـن فعلـه الحسن بنيـه خـير الـورى بالقتـل والمحـن
أيـا عبيـد الهـوى في الـسر والعلـن بـئس الجـزاء جـزيتم في بـني حـسن
أبـاهم العلـم الهـادي وأمهـم
غـادرتم القـوم صـرعى في فنـائهم وآيـة النـوح تتلـى في نـسائهم
والله طالـب وتـر مـن ورائهـم لا بيعـة ردعـتكم عـن دمـائهم
ولا يمـين ولا قربـى ولا ذمـم

تـــركتم خـــير أبنـــاء لخـــير أب فريـــسة المـــرهفين الـــسمر والقـــضب
يـا أشـأم النـاس مـن عجـم ومـن عـرب هـلا صـفحتم عـن الأسـرى بـلا سـبب
للـــصافحين ببـــدر عـــن أســـيركم
صـــيرتم البغـــي والعـــدوان ديـــدنكم ولـــو تحـــريتم الإحـــسان أمكـــنكم
فأبعـــد اللـــضه في الأزمـــان أزمـــنكم هـــلا كففـــتم عـــن الـــديباج ألـــسنكم
وعـــن بنـــات رســـول الله شـــتمكم
تـــصيح يـــا غـــيرة الإســـلام زوجتـــه والفاطميـــات تبكيـــه وجثتـــه
تحـــت الـــسياط فيـــا لله حرمتـــه مـــا نزهـــت لرســـول الله مهجتـــه
عـــن الـــسياط فهـــلا نـــزه الحـــرم
أشكو إلى الله أقواماً مـا قـد اصـطلمت ذريـة المـصطفى ظلمـاً ومـا اجترمـت
إليـــةً بالهـــدى يـــا عـــصبة ظلمـــتِ مـــا نـــال مـــنهم بنـــو حـــربٍ وإن عظمـــت
تلـــك الجرائـــر إلا دون نـــيلكم
أراذل قـــال ذو جهـــل يعظمهـــا لقـــد ذكـــرتم أمـــوراً لا أســـلمها
فقلـــت والـــنفس يـــشفيها تكلمهـــا يـــا جاهـــداً في مـــساويهم يكتمهـــا
غـــدر الرشـــيد بيحيـــى كيـــف ينكـــتم
غـــداة نم بـــه ذو إحنـــةٍ عرفـــت في النـاس مـن عهـد آبـاء بـه سـلفت
وحـــين ســـاق يمينـــاً بـــالردى عـــصفت ذاق الـــزبيري غـــب الحنـــث وانكـــشفت
عـــن ابـــن فاطمـــة الأقـــوال والـــتهم
ملكتمـــوا فجـــرحتم كـــل جارحـــةٍ مـــن الهـــدى بـــسيوف أي جارحـــة
يـــا عـــصبة للمعـــالي غـــير صـــالحة كـــم غـــدرةٍ لكـــم في الـــدين فاضـــحة
وكـــم دمٍ لرســـول الله عنـــدكم
خـــالفتموا أمـــره في الآل والخلـــف وقلـــتم نحـــن أهـــل المجـــد والـــشرف
ونحـــن آل نـــبي بـــالعهود وفي أأنـــتم آلـــه فيمـــا تـــرون وفي
أظفـــاركم مـــن بنيـــه الطـــاهرين دم
إن القرابـــة إن لم تحفـــظ الـــذمم وجودهـــا عنـــد أربـــاب النهـــى عـــدم
يـــا ممـــسكين بحبـــل وهـــو منجـــذم هيهـــات لا قربـــت قربـــى ولا رحـــم
يومـــاً إذا نـــصت الأخـــلاق والـــشيم

بل القريب الذي لم يكفر النعما والأجنبي الذي لم يحفظ الذمما
لذاك يا شرحبيل في الورى علما كانت مودة سلمان له رحما
ولم يكن بين نوحٍ وابنه رحم
تلطخوا بدم الهادي وبضعته حرصاً على الملك في الدنيا ورفعته
لذاك يا ويل وغبون بسلعته باؤوا بقتل الرضا من بعد بيعته
وأبصروا بعض يوم رشدهم فعموا
فلا رعى اللضه منهم أنفساً وردت موارد الغي إسرافاً وما اقتصدت
ولا سقى الله منهم أربعاً همدت يا عصبة شقيت من بعدها سعدت
ومعشراً هلكوا من بعد ما سلموا
لله كم من فؤاد للهدى جرحوا وزند شر تحاماه الورى قدحوا
قومٌ أصابوا لواء الملك وافتضحوا لا عن أبي مسلمٍ في نصحه صفحوا
ولا الهبيري نجى الحلف والقسم
ولا لواء الهدى في أهله عقدوا ولا معارج أرباب العلى صعدوا
ولا وفوا لذوي الإخلاص ما وعدوا ولا الأمان لأزد الموصل اعتمدوا
فيه الوفاء ولا عن عمهم حلموا
وراكب صير الوجناء مدركةً وخدها لبني العباس مملكةً
ناديته يا وقاك الله مهلكةً أبلغ إليك بني العباس مالكةً
لا يدعوا ملكها ملاكها العجم
تبوؤها فما أبقوا لسائركم إلا منابر تشكو جور جائركم
تفاخرون بها يا ويل فاخركم أي المفاخر أمست في منابركم
وغيركم آمر فيها ومحتكم
أتفخرون إذا ما نابت الخدم عنكم بعقد اللوا والبأس محتدم
والعرب تهدر بالعصيان والعجم وهل يزيدكم في مفخرٍ علم
وفي الخلاف عليكم يخفق العلم
كم تدعون العلا يا أيها الهمل وما لكم ناقةٌ فيها ولا جمل
كيف الفخار ولا علمٌ ولا عمل خلوا الفخار لعلاّمين إن سُئلوا
عند السؤال وعاملين إن علموا

يـــزداد حلمهـــم إن نابـــت النـــوب مـــنهم وللعـــود عـــرف وهـــو يلتهـــب
شـــم الأنـــوف ملـــوك أمـــرهم عجـــب لا يغـــضبون لغـــير الله إن غـــضبوا
ولا يـــضيعون حكـــم اللـــضه إن حكمـــوا

عـــز يـــرى مـــنهم أبعـــد النظـــرا شمـــس الـــضحى ونجـــوم الليـــل والقمـــرا
ولا تـــزال وســـل عـــن ذاك مـــن خـــبرا تنـــشى الـــتلاوة في أبيـــاتهم ســـحرا
وفي بيـــــوتكم الأوتـــــار والـــــنغم

هـــم الهـــداة إذا زاغـــت قلـــوبكم والمحـــــسنون إذا زادت ذنـــــوبكم
نـــصيبهم كـــل فـــضل لا نـــصيبكم إذا تلـــوا آيـــةً غنـــى خطيـــبكم
قـــف بالـــديار الـــتي لم يعفهـــا القـــدم

قلـــتم لنـــا إن تـــاج الملـــك فـــضلكم علـــى بـــني أحمـــد الهـــادي ويجلكـــم
فيـــا عـــداة الهـــدى مـــا كـــان أجهلكـــم مـــنكم عليـــة أم مـــنهم وكـــان لكـــم
شـــيخ المغـــنين إبـــراهيم أم لهـــم

وأي فخـــرٍ لقـــوم مـــا لهـــم وطـــرٌ إلا الـــسلاف وضـــرب العـــود والـــوتر
بـــل الفخـــار لقـــوم بالهـــدى ظفـــروا مـــا في منـــازلهم للخمـــر معتـــصر
ولا بيـــــوتهم للـــــشرّ معتـــــصم

هـــم الأكـــارم لا تخفـــى مكـــارمهم ولا يهـــيم بغـــير المجـــد هـــائمهم
ولا نـــشد علـــى ســـوءٍ حيـــازمهم ولا تبيـــت لهـــم خنثـــى تنـــادمهم
ولا يـــرى لهـــم قـــردٌ لـــه حـــشم

وهـــو بنـــو المـــصطفى إن كنـــت تجهلـــهم وأكـــرم النـــاس أعراقـــاً وأفـــضلهم
وإن تـــسل أيـــن مغنـــاهم وموئلـــهم فـــالركن والبيـــت والأســـتار منـــزلهم
وزمـــزم والـــصفا والحجـــر والحـــرم

إن الكتـــاب الـــذي مـــا زال مرهفـــه يجـــني علـــى كـــل شـــيطانٍ ويتلفـــه
تـــثني عليـــه معانيـــه وأحرفـــه ولـــيس مـــن قـــسمٍ في الـــذكر تعرفـــه
إلا وهـــم غـــير شـــك ذلـــك القـــسم

هـــذا لثنـــاء ومـــا وفيـــت مجـــدهم ولـــو كتبـــت بنـــور العـــين حمـــدهم

وقـــد تحققـــت إن الفـــوز عنـــدهم فـــلا أخـــاف إذا أمـــسيت عبـــدهم

فالعبـــد يـــسلم إن ســـاداته ســـلموا

صـــلى الإلـــه علـــى أرواحهـــم وســـقى أجـــداثهم مـــن غـــوادي فـــضله غـــدقا

مـــا أومـــض البـــرق في الظلمـــاء وانطبقـــا عليـــه جفـــن الحيـــا المنهـــل وانـــدفقا

دمـــع الغمـــام فبـــات الرضـــو يبتـــسم

الدراسة: البناء الفني:

النص الشعري إبداع يحتاج إلى قدراتٍ خاصة لا يمتلكها كل إنسان وحاله حال أيِّ عمل إبداعي آخر ويرى بعض الدارسين[١] أنّ النص الشعري (كيانٌ تشكيليٌّ قائمٌ بذاته)[٢] والشاعر (هو معلم الدهشة والحيوية)[٣] حيث (يحاول أن يخلق نوعاً من التوافق النفسي بينه وبين العالم الخارجي عن طريق ذلك "التوقيع "الموسيقي الذي يعد أساسياً في كل عمل فنيٍّ)[٤] من جهة واستغلال الصورة المكانية لخلق هذا التوافق من جهةٍ أخرى، وقد عقد أكثر من كاتب مقارنة بين فن الرسم وعمل الرسام من جهة وبين فن الشعر وعمل الشاعر من جهةٍ أخرى لذلك فإننا حين نتحدث عن التشكيل في الشعر، لابد أن نميز بين "فن الكلمة" في أي شكل من أشكاله، من حيث أنه فنٌّ زماني، كفن الموسيقى، وبين الفنون المكانية الصرف، كالرسم والتصوير والنحت وما إليها، حيث أن اختلاف الأداة التي يستخدمها الشاعر (وهي اللغة) عن الأداة التي يستخدمها الفنان التشكيلي كالرسم مثلاً (وهي الألوان والأصباغ وما إلى ذلك من موادٍ جامدة) هو الفيصل فيما يستطيع أن يحقّقه كل من الشاعر والرسام من تصاوير[٥].

ولعل الملفت للنظر عند شاعرنا هو طول نفسه الشعري مع المحافظة على جودة النص دون الوقوع في التكرار أو الحشو الممل أو الإطالة الزائدة إنّما كان الشاعر يشد القارئ معه ويأخذه معه إلى عالم التأثير من جهة البيان الشعري وربما يعود السبب إلى غنى الموضوع

---

(١) ينظر شعر عبد الله رضوان دراسة فنيّة: ١٠.

(٢) د. محمد صابر عبيد، السيرة الذاتية الشعرية - قراءة في التجربة السيرية لشعراء الحداثة العربية - دراسة نقدية: ٤٥.

(٣) محمد الأسعد، مقالة في اللغة الشعرية: ٩٢.

(٤) د. عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر - قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية: ١٢٤.

(٥) م. ن: ١٢٩ - ١٣٥.

الشعري الذي أمدّ الشاعر بهذه الطاقة الإيحائية التي أعطته زخما دلالياً كبيراً نتيجة تنوع وكثافة الأحداث التي يعالجها الشاعر في قصيدته ومن المسائل الفنية التي ساعدت على نجاح الشاعر نذكر:

مطلع القصيدة:

إنّ الكلمة الساحرة خير ما يعجب به العربي، فللكلمة البليغة سحرها وأثرها في نفس العربي الذي طالما أعجب بها. وشدّته دلالتها اللفظية من تناسب حروفٍ وموسيقى إلى دلالتها المعنوية. وشعرنا العربيُ قاموس بلاغتنا، ودليل سحرنا وبه أعتزّ العربيُ ووقف مزهواً. وتباهت به القبائل إلى أن جاء بيان الله في محكم آياته كترسيخٍ لسحر الحرف وأثره. وقد أحسن الشاعر في اختياره لهذا المطلع الذي خرج فيه عما اعتاد عليه الشعراء من وقوفٍ على الأطلال أو تغزّل بمعشوقةٍ ليأتي لنا بمطلعٍ صادمٍ في قوله:

يا للرجال لجرحٍ ليس يلتئم عمر الزمان وداءٌ ليس ينحسم

فهذا المطلع يشتمل على أشد عبارات العتب والشكوى من الزمان من هذا الجرح الذي لا يلتئم وإن طال الزمان فهو جرح أبدي سببه ما حصل لأهل البيت عليهم السلام وفي ذلك تأكيد على أن الظلم الذي تعرضوا له لازال مستمراً إلى أن يشاء الله.

حسن التخلص:

يعرفه ابن أبى الإصبع: بأنه حسن الانتقال من موضوع لآخر مع حسن الاتصال والربط بحيث تكون القصيدة منسجمة ومتماسكة رغم تعدد الأغراض بها، وأشار إلى أن القدامى لم يكونوا حراصاً على هذا الوصل على عكس المتأخرين فقد أكثروا منه. والملاحظ على قصيدة الشاعر إبراهيم العاملي أنه كان يحسن توظيف هذا الفن إذ أنه كان ينتقل من موضوعٍ إلى آخر دون أن يشعر القارئ بذلك وكأنّ القصيدة عبارةٌ عن قطعةٍ متلاحمة الأجزاء، من هنا أجد صعوبةً في تلمس الانتقال بسبب هذا التماسك إلا أن العلامة الدالة هي الانتقال بين الأحداث هو الذي يشعر بحسن التخلص من معنى إلى معنى آخر.

غرض القصيدة:

تنوعت الدلالات التي يقصدها الشاعر في قصيدته إلا أن الرابط لها هو ذكر فضائل أهل البيت عليهم السلام وخاصةً ما يتعلق ببيعة الغدير التي تعدُّ بمثابة العيد لمحبي أهل البيت الذين يفرحون لفرحهم ويحزنون لحزنهم، من هنا أخذ الشاعر يسرد تفاصيل حياتهم وتضمينها أهم الأحداث التي مرت عليهم، وما تعرضوا له من ظلمٍ وجورٍ مستعملاً طريقة الإشارة واللمحة الدالة، ومن التقنيات التي استعملها الشاعر توظيف المثل في النص الشعري والغاية تعزيز الحجة والهدف هو إقناع المتلقي والتأثير فيه نحو قوله:

كم تدعون العلى يا أيها الهمل وما لكم ناقة فيها ولا جمل[١]

إذاً الشاعر هنا يستفيد من معنى المثل مخاطباً من يدعون العلا دون وجه حقٍ.

ومن التقنيات الأخرى التي استعملها الشاعر تقنية المقارنة بين الإمام علي عليه السلام وبين من ناصبه العداء، لذا نجده يصف الإمام بالهادي والشجاع والمحسن وصاحب كل فضل، جاء هذا في قوله:

هم الهداة إذا زاغت قلوبكم والمحسنون إذا زادت ذنوبكم

نصيبهم كل فضل لا نصيبكم إذا تلوا آية غنى خطيبكم

أما أعدائهم فقد سلبهم الشاعر كل الصفات الحميدة ونعتهم بالغناء واللهو عن القرآن وأي صفةٍ أشد إيلاماً من هذه الصفة.

لغة الشاعر:

يتفق أكثر الدارسين على أنّ اللغة هي الأداة الإبداعية للشاعر، كما أنها (المادة الأولية للأدب)[٢] وتكمن إبداعيتها عندما يحرفها الشاعر عن مسارها العام، ويستعملها في سياق فني تختلف درجاته - بحسب مقدرة الشاعر الفنية وثقافته الخاصة والعامة - بهدفٍ جماليٍ مؤثر، يتضمن رسالة يروم نقلها إلى المتلقي، ولكنه ينقلها ممسوقة مصورة، لذا تكون مؤثرة إيحائياً.

ويرى أحد الدارسين[٣] أنَّ الاستعمال الشعري للغة بهذا الاتجاه له شأنٌ آخر، إذ يجعل من اللغة ذات شخصيةٍ كاملة تنقل الأثر الفني من المبدع إلى المتلقي نقلاً أميناً[٤]، بمعنى أنها تنقل أحاسيسه وعواطفه وأفكاره عندما يفكر ويحب ويكره ويغضب.

---

(١) ورد هذا المثل في كتاب (المستقصى في أمثال العرب) فقد ورد عن الزمخشري قوله: "لا ناقةٌ لي في هذا ولا جمل، ويروى: لا ناقتي في هذا ولا جملي، أي لا خير لي فيه ولا شر، وأصله أن الصدوف بنت حنش العدوية كانت تحت زيد بن الأخنس العدوى وله بنت من غيرها تسمى الفارعة كانت تسكن بمعزل منها في خباء آخر، فغاب زيد غيبة فلهج بالفارعة رجل عذري يدعى شبثاً وطاوعته فكانت تركب كلّ عشيّةٍ جملاً لأبيها وتنطلق معها إلى شيةٍ يبيتان فيها، ورجع زيد عن وجهه فعرج على كاهنة اسمها ظريفة فأخبرته بريبة في أهله فأقبل ساتراً لا يلوى على أحد وإنما تخوف على امرأته حتى دخل عليها، فلما رأته عرفت الشر في وجهه فقالت: لا تعجل واقف الأثر لا ناقة لي في هذا ولا جمل! وسمع الحجاج بعضهم يقول ذلك فقال له: لا جعل الله لك فيه لا ناقةً ولا جملاً ولا حملاً ولا رخلاً! يضرب في التبرء عن الشيء".

(٢) ينظر: في الأدب والنقد، د.محمد مندور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (١٣١٧هـ-١٩٥٢م):١٧.

(٣) ينظر شعر رضا الهندي: ١٦٦.

(٤) ينظر: الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة، د.عز الدين إسماعيل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٣، ١٩٨٦م:٣٤٨.

والأفكار العميقة لا يمكن نقلها بأمانة إلا بالصور الفنية: والعواطف والانفعالات لا يمكن نقلها بأمانة إلا باستثمار الطاقات الموسيقية للغة، في المفردة وفي تآلفها مع سواها وانتظامها وزناً على بحر من البحور.

وتمتاز لغة الشاعر إبراهيم العاملي بأنها لغة واضحة بعيدة عن التكلف والغموض فضلا عن فصاحتها وجمالها من خلال كونها تنسجم والغرض الذي يتحدث عنه الشاعر ويبدو أن السبب وراء استعمال مثل هذه اللغة يعود إلى رغبة الشاعر في وصول المعنى إلى قلب السامعين له، لأن شاعرنا وكما ذكرنا مسبقاً صاحب رسالة تتمثل في بيان منزلة الإمام علي عليه السلام، وأحقيته من خلال ما نصّ عليه حديث الغدير الذي جسده الشاعر في قصيدته، من هنا نجد شيوع ألفاظ (النبي والهدى والخلافة والغدير والإرث) وغيرها من الألفاظ ذات الصلة بموضوع القصيدة.

الأساليب الفنيّة:

التصوير الفني:

الصورة الفنية مقياس من مقاييس نجاح القصيدة ومدى تأثيرها مرتبطٌ بقدرة الشاعر على التصوير الفني، هذا التصوير يحتاج إلى قدرةٍ على التخييل، يستطيع من خلالها إيجاد علاقاتٍ غير مألوفة بين المفردات من خلالها تتكون الصورة إذ (إن ترابط الصور داخل القصيدة بضرورة نفسية وفكرية محددة هي نفسها التي تجعل من الضرورة أن يعبر الشاعر بالصورة عن العلاقة بين الأشياء ومشاعره وتلك الضرورة هي أقوى من مجرد ادعاء انتظام الكلمات وفق أنماط وأشكال معينة)[1]. ومن النماذج الشعرية التي استعمل فيها الشاعر أسلوب التصوير الفني قوله:

كانوا بدوراً بها الظلماء تنكشف وابحراً بالندى راحاتها تكف

الشاعر هنا يصور أهل البيت على أنهم البدور التي تكشف الظلماء وهذا التصوير يشتمل على معاني الجمال والبهاء والصفاء فالبدور تمتاز بارتفاعها الذي لا يناله أحد كذلك أهل البيت عليهم السلام لا يستطيع أحد أن يصل إلى مكانهم السامي وعلو مراتبهم التي رتبهم بها الله سبحانه وتعالى، فضلاً عن هذا صورهم في الشطر الثاني من البيت الشعري على أنهم البحر الذي لا يجفّ ويظل يزخر بالعطاء والكرم وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ على سعة أخلاقهم وحلمهم.

---

(١) في الرؤية الشعرية المعاصرة: أحمد نصيف الجنابي، ١٣٦. وينظر: بناء الصورة في البيان العربي، كامل حسن البصير:١٤١.

الجمل الخبريّة والإنشائيّة:

تنوعت الأساليب الفنيّة التي استعملها الشاعر في قصيدته بين جمل خبريّة وإنشائية مستفيداً من طاقات اللغة في التعبير عن مضمون المعاني التي يقصدها ومن الأمثلة على ذلك قوله:

ونـــام عـــن ليـــل أو صـــابي وأقلقـــني انـــي أبيـــت قليـــل النـــوم أرقـــني

لقد استعمل الشاعر الجملة الخبرية المؤكدة ليثبت لنا أنه قليل النوم يعيش الأرق بسبب ما يحمله من همٍّ كبيرٍ سبب هذا الهم هو اغتصاب حق أهل البيت عليهم السلام وما مرّ عليهم من حيف وجور سببه أعداء الدين والإنسانيّة.

أما عن الجمل الإنشائيّة فقد كان لها نصيبٌ في استعمال الشاعر فقد بدأ الشاعر قصيدته بأسلوب النداء في قوله:

يا للرجال لجرح ليس يلتئم

جاء الشاعر هنا بياء النداء وهي تستعمل عادة لنداء البعيد أو ما في حكمه وكذا لنداء المتفجع عليه أو المتوجع منه، وكذا لنداء القريب فهي أم الباب، لها ما ليس لغيرها من الأحكام، ونلاحظ مدى قصديّة الشاعر في هذا الاستعمال فهو يريد أن يظهر حجم التحسر والتوجع على ما حدث في واقعة الطف الأليمة لذلك كانت البداية حزينةٌ وفيها دعوةٌ لاستنهاض الهمم لأن الحدث كبيرٌ والجرح عميقٌ غير قابل للالتئام، فيجب أن يكون التأثير كذلك بما يتناسب والواقعة الأليمة.

الاستفهام الاستنكاري:

أكثر شاعرنا من استعمال أسلوب الاستفهام المجازي الذي يخرج لغرض الاستنكار، فالشاعر في أكثر استفهاماته لا يطلب جواباً إنما يريد أن يثير العقول ويبعث فيها الصدمة عسى أن تعود إلى رشدها وتعرف حجم المسؤولية الملقاة على عاتقها انظر إلى قوله:

حتـــى متـــى أيهـــا الأقـــوام والأمـــم الحـــق مهتـــضم والـــدين مخـــترم

وفـــي آل الرســـول مقتـــسم

فالملاحظ أن الخطاب موجهٌ إلى جماعةٍ وصفهم بالأقوام وبدا بالقل ثم انتقل إلى الأكثر وهم الأمم فالقضية هنا قضيةٌ عالميّةٌ لا تنحصر بطائفةٍ معينةٍ إنما تعني العالم بأسره متمثلاً بالأمم وهذا الكلام ينسجم والخطاب القرآني لنبي الرحمة (وما أرسلناك

إلا رحمةً للعالمين)، أما لماذا هذه الدعوة لأن الموضوع يتعلق ببضعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنّها الزهراء سلام الله عليها وبعلها سيد البلغاء علي بن أبي طالب عليه السلام، ويأتي هذا الخطاب إيماناً من الشاعر بأن الشعر في أحد جوانبه يمثل الوسيلة الإعلامية المثلى لإيصال صوت الحق والعدالة لأنه يبقى صرخةً مدويّةً في وجه الظلم والطغيان تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل.

أسلوب الشكوى المجازي:

امتاز شاعرنا وبطريقةٍ فنيّةٍ جميلة أن يجسد الأشياء المعنوية من خلال محاولته نقل همومه بطريقة الشكوى الفنية التي تحاكي الهم محاولاً تصويره بطريقةٍ لا تخلو من براعةٍ وقدرة في قوله:

يا ليت شعري أيدري من تعرقني بعذله وبطوق الهم طوقني

ونام عن ليل أو صابي وأقلقني أني أبيت قليل النوم أرقني

قلب تصارع فيه الهم والهمم

فهو هنا يستعمل التمني بالأداة ليت من خلال رسم صورة مجازية تصور العذل والهم وهي أشياء معنوية على إنها أشياء محسوسة يمكن لمسها وكما حصل مع الهم فقد جعل منه طوقاً يحيط به من كل جانب حتى قيده عن الحركة، ثم يلحق ذلك كله شكوى مليئة بالمرارة أبعدت النوم عن عينيه وهنا شاعرنا يحاكي الشعراء القدامى في شكواهم وقلة نومهم وما يلحق ذلك من أرق، ويبدو أن الشاعر كان يقصد إلى تحسين اللفظ وتجميل المعنى من خلال الاهتمام بأساليبه الشعريّة فقد عمد شاعرنا إلى استعمال أسلوب الجناس في قوله (الهم والهمم) وهو شكل من أشكال الأساليب البديعية الذي يحسن اللفظ ويكسبه صبغةً جماليّةً.

السرد القصصي:

امتاز شاعرنا بقدرته الفنية على صياغة الأحداث بطريقةٍ قصصيةٍ فنيةٍ من خلال استعمال أسلوب السرد القصصي، وقد أجاد في ذلك من خلال تحويل الأحداث التي مر بها أهل البيت عليهم السلام إلى ملحمة فنيّة خالدة مهما تعاقبت الأجيال ومرت السنين، وقد كان شاعرنا يعتمد في سرده على فن الإشارة والإيحاء وطريقة التصوير الموحي، أي أن التكثيف هو السمة الأبرز على هذا الأسلوب كذلك حافظ الشاعر على التسلسل المنطقي للأحداث وذلك بحسب أسبقيّة كل حدثٍ منها.

الخاتمة:

وفيما يلي أسجل أهم النتائج التي توصل إليها البحث وهي:

أظهر البحث أن تعامل الشعراء مع بيعة الغدير كان تعاملاً على نطاقٍ واسعٍ وقد امتد أثره ليصل إلى تلك البقة التي هتفت بحب أهل البيت عليهم السلام وجسد شعراؤها هذا الولاء بقصائد ومنها قصيدة الشاعر إبراهيم العاملي.

كشف البحث عن التزام الشاعر بنهج القصيدة القديمة من خلال البناء الفني الذي بدأ بمطلع ومن ثم الغرض لينتهي بالخاتمة.

أكدّ الشاعر في قصيدته على مسألة أنّ عيد الغدير هو اليوم الذي يعلن فيه الولاء للإمام علي (أمير المؤمنين عليه السلام) إنه وصي رسول رب العالمين وخليفته وحامل سره وحامل لوائه من بعده في معية الأصحاب الكرام الذين واكبوه وحملوا معه هذا العبء وساندوه وآزروه. مشيراً إلى أن عيد الغدير هو أمر إلهي بتبليغ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قد صدر أمر إلهي بتنصيب الإمام علي (عليه السلام) خليفة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وحاملاً للواء الإسلام بعده وموال للقرآن الكريم وحامياً لبيضة الإسلام بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

مصادر الدراسة:

القرآن الكريم.

١- الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة، د. عز الدين إسماعيل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٣، ١٩٨٦م.

٢- أدب الطف، أو شعراء الحسين (عليه السلام) من القرن الأول الهجري إلى القرن الرابع عشر، جواد شبر، مؤسسة التاريخ العربي، (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٠م)، ١٧٦/٧.

٣- أعيان الشيعة، محسن الأمين، تحقيق: حسن الأمين، دار المعارف، ط٥، (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٤م).

٤- بناء الصورة في البيان العربي، كامل حسن البصير، المجمع العلمي العراقي، ط١، (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

٥- السيرة الذاتية الشعرية ـ قراءة في التجربة السيرية لشعراء الحداثة العربية ـ دراسة نقدية، د. محمد صابر عبيد.

٦- الشعر العربي المعاصر ـ قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين إسماعيل.

٧- شعر عبد الله رضوان دراسة فنيّة، إبراهيم مصطفى حمد، كلية التربية، جامعة تكريت.

٨- شعر السيّد رِضا الهنديّ (١٨٧٣ـ١٩٤٣م) دراسة في الموضوع والفن ظاهر محسن جاسم، كلية الآداب جامعة الكوفة، ٢٠٠٧م.

٩- في الأدب والنقد، د.محمد مندور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (١٣١٧هـ ـ ١٩٥٢م).
في الرؤية الشعرية المعاصرة: أحمد نصيف الجنابي.

١٠- المستقصى في أمثال العرب لمحمود بن عمر الزمخشري منشورات دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الطبعة الأولى سنة ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢ م.

١١- مقالة في اللغة الشعرية، محمد الأسعد. ❖

عدالة الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) من خلال عهده لمالك الأشتر (رض)

د. كفاية طارش العلي
كلية التربية للبنات/جامعة البصرة
رئيس قسم التاريخ الإسلامي

يعد القرآن دستور المسلمين الذي شرعه الله تعالى لهم ليتمكنوا من تسير دنياهم نحو الخير والصلاح فيحوزوا حسن ثواب الدنيا والآخرة أيضاً، ومن الطبيعي أن لا يتم لهم ذلك إلا بمرشد يساعدهم في فهم هذا القانون والدستور الإلهي متمثلاً بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) منقذ الأمة من الضلالة وهاديهم إلى النور والرحمة ولكي لا نبتعد عن مبتغانا لنعد إلى موضوعنا الرئيسي ألا وهو العدالة وهي أحد المفاهيم الأساسية التي أكد عليها القرآن والسنة النبوية، حتى أن هذه اللفظة وردت بعدة مفردات ومعانٍ كل منها تحمل دلالات مختلفة، ولعل ما يعنينا هنا تلك المفردات التي تعني العدالة في الحكم بمختلف أشكاله: في السياسة والإدارة والقضاء وبين الرعية والنساء.

ففي سورة الشورى ورد قوله تعالى ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[١] وفي سورة النساء قال تعالى ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[٢] وأخرى ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[٣] وأخرى ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[٤] وفي نفس السورة ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾[٥] وفي سورة المائدة قال تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾[٦] وفي نفس السورة قال تعالى ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[٧] وفي سورة الأعراف قال تعالى ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾[٨] وفي سورة النحل قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾[٩] وغيرها كثير.

لهذا بلغ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تلك الأوامر الإلهية للمسلمين وشرعها لهم لتكون العدالة إحدى الصفات التي يتميز بها المؤمنون، لا سيما قادة الرعية وحكامهم.

ولا أجدر من عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) لتتأكد فيه العدالة السماوية والدنيوية، وكيف لا يكون عهده كذلك وهو من أهل بيت أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا[١٠]، وفيه نزلت ما لا يحصى عدده من الآيات القرآنية الكريمة فهو نفس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بآية المباهلة بقوله تعالى ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾[١١] وهو المؤمن بقوله تعالى ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[١٢] إثر محاولة الوليد بن عقبة[*] الفخر على علي بن أبي طالب (عليه السلام) بأنه أرد للكتيبة واضرب لهامة البطل المشيح من علي (عليه السلام)[١٣] وهو أقرب

الناس للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخصهم به، نشأ في حجره يتبعه اتباع الصبي لأمه يتلقى منه مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب ومفاتيح العلوم وأسرار الحياة وفلسفتها حتى أن أهل العلم بالحديث كأحمد بن حنبل وغيره قالوا "إنه لم يرد في الصحاح الحسان لأحد من الصحابة ما ورد لعلي" وما نزل في أحد من كتاب الله تعالى ما نزل في علي[١٤].

وفيه نزلت ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[١٥] لما تخلف يوم الهجرة في فراش النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليصرف عنه الأعداء ويؤدي الأمانات إلى أهلها لتكتمل الرسالة المحمدية وفي أهل بيته وفيه نزلت سورة الدهر لما تصدقوا على المسكين واليتيم والأسير[١٦].

ولما نزل قوله تعالى ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴾[١٧] قيل للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أي بيوت هذه قال "بيوت الأنبياء" ثم قيل له: هذا البيت منها - إشارة إلى بيت علي وفاطمة فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) "نعم من أفاضلها"[١٨] وبعلي (عليه السلام) كفى الله المؤمنين القتال بوقعة الأحزاب فقال تعالى ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾[١٩] حتى أن ابن مسعود كان يقرأ الآية ﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾ بعلي بن أبي طالب [٢٠] ولما تفاخر العباس بن عبد المطلب وطلحة بالسقاية وسدانة الكعبة أنزل الله تعالى ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾[٢١] تشهد بجهاد علي (عليه السلام) وبطولاته[٢٢].

أما الآية الكريمة ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾[٢٣] فهي لا تفيد وتشهد بفضله ومآثره في الإسلام فحسب لكنها تؤكد خلافته وولايته[٢٤].

أما الآيات الكريمة بعد خطبة الغدير وفرض الولاية فأكبر دليل على خلافته واختياره من الله تعالى ليلي أمر الأمة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[٢٥].

فكبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على إكمال الدين ورضا الله تعالى برسالته وولاية علي (عليه السلام) من بعده فأصبح ولي كل مؤمن ومؤمنة[٢٦] ولما نزل قوله تعالى ﴿ وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾[٢٧] قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأن "علياً هو الأذن الواعية"[٢٨] وكما أن الآيات القرآنية في فضل علي ومنزلته وإيمانه كثيرة فالأحاديث النبوية التي تشيد به وبعدله وإيمانه وعلمه ومناقبه اكسر من أن تحصيه الصفحات منها قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) "علي أمير البررة، قاتل الفجرة، منصور من نصره، مخذول من خذله" و(أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت الباب) و(قسمت الحكمة عشرة أجزاء فأعطي علي تسعة أجزاء والناس جزءاً واحداً)[٢٩].

وحديثه "يا علي أنت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه من بعدي"[٣٠] وكلها أحاديث تدل على إمامته وخلافته واختياره من الله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ليكون حاكماً للأمة لمزاياه ومناقبه وإحداها العدالة لأنها سمة الحاكم الذي يرجوا رحمة ربه.

كما أنه تفرد بمنزلة لا يشاركه فيها أحد من صحابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لما قال له يا علي "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي"[٣١] ومن أصدق من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ قال لعلي (عليه السلام): "أنت أول من آمن بي، وأنت أول من يصافحني يوم القيامة، وأنت الصديق الأكبر وأنت الفاروق تفرق بين الحق والباطل، وأنت يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكافرين"[٣٢] كما قال لعلي (عليه السلام) "والذي نبأ محمداً وأكرمه إنك لذائد عن حوضي تذود عنه رجالاً، كما يذاد البعير الصادي عن الماء، بيدك عصاف عوسج كأني انظر إلى مقامك من حوضي"[٣٣].

ولما بعث الرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أبا بكر بسورة براءة للمشركين من قريش أرسل خلفه علياً ليأخذها منه فرجع أبو بكر يسأل النبي احدث في شيء يا رسول الله فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) "لا ولكني أمرت أن لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني"[٣٤] وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأمته "من أحب أن يحيا حياتي ويموت مماتي، ويسكن جنة عدن غرسها ربي، فليتول علي بن أبي طالب، فإنه لن يخرجكم من هدى، ولن يدخلكم في ضلالة"[٣٥]، فهل هناك أدلة أكبر من هذه لتكون شاهداً على استخلاف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام) ليكون حاكم الأمة العادل، ويحتاج الإمام والحاكم إلى صفات تساعده على الحكم منها قدرته على حل الخصومات والنزاعات فمهمة القاضي أدق وأخطر المهام لأن القاضي إذا لم يكن عارفاً بمواطن الحق هلك وأهلك فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) "أقضاكم علي"[٣٦].

وما أروع حديثه (صلى الله عليه وآله وسلم) "علي مع القرآن والقرآن مع علي لم يفترقا حتى يرد علي الحوض"[٣٧] ليكون دليلاً على أن علي (عليه السلام) هو القرآن الناطق ومن الطبيعي أن يختاره الله تعالى والنبي الأكرم ليكون حاكم الأمة، وللنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في علي (عليه السلام) أحاديث في أنه كان أعدل القوم ومعنى العدالة عند الحاكم أنه يكون عادلاً في أحكامه عندما يتصدى لرفع نزاع بين المسلمين، وعادلاً في سيرته وسلوكه مع الناس، وعادلاً عندما يقسم بينهم بيت المال، وعادلاً في كل تصرفاته المختلفة المتعلقة بالشؤون الشخصية والعامة[٣٨]، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) "كفي وكف علي في العدال سواء"[٣٩]، كما قال فيه "يا علي أخصمك بالنبوة ولا نبوة من بعدي، وتخصم الناس بسبع ولا يخصمك فيها أحد من قريش، أنت أولهم إيماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأقسمهم بالسوية، وأعدلهم في الرعية، وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم عند الله مزية"[٤٠].

ويعلم القارئ ما كان بينه وبين أخيه عقيل لعدالته[٤١]. وللجاحظ رسالة رائعة في تفضيل علي (عليه السلام) على جميع الصحابة وأنه أحق بالأمانة والخلافة لأنه أعدل الناس بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا هو صلب موضوعنا.

لما انقسم الناس بين رأيين، رأي يقول أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مات ولم يستخلف أحداً فاختار المسلمون أبا بكر والثاني يقول أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) استخلفه وجعله للمسلمين إماماً فيقول الجاحظ "فسألناهم جميعاً: هل لله خيرة من خلقه اصطفاهم واختارهم؟ فقالوا: نعم فقلنا: ما برهانكم؟ فقالوا: قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾[٤٢] فسألناهم: من الخيرة؟ فقالوا: هم المتقون فقلنا: ما برهانكم؟ فقالوا: قوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٤٣] فقلنا: هل لله خيرة من المتقين؟ فقالوا نعم، المجاهدون بأموالهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾[٤٤] فقلنا: هل لله خيرة من المجاهدين؟ قالوا جميعاً: نعم السابقون من المهاجرين إلى الجهاد بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾[٤٥] فقبلنا منهم ذلك لإجماعهم عليه، وعلمنا أن خيرة الله من خلقه: المجاهدون السابقون إلى الجهاد. ثم قلنا: هل لله منهم خيرة؟ قالوا نعم. قلنا: من هم؟ قالوا: أكثرهم عناء في الجهاد. وطعناً وحرباً وقتلاً في سبيل الله، بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[٤٦]، ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[٤٧] فقبلنا ذلك منهم، وعلمنا وعرفنا أن خيرة الخيرة: أكثرهم في الجهاد عناءً، وأبذلهم لنفسه في طاعة الله واقتلهم لعدوه، فسألناهم عن هذه الرجلين، علي بن أبي طالب وأبي بكر - أيهما عناءً في الحرب وأحسن بلاءً في سبيل الله؟ فأجمع الفريقان على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنه كان أكثر طعناً وحرباً وأشد قتالاً وأدل على دين الله ورسوله. فثبت بما ذكرنا من إجماع الفريقين ودلالة الكتاب والسنة النبوية أن علياً أفضل.

وسألناهم ثانياً عن خيرته من المتقين؟ فقالوا هم الخاشعون بدليل قوله تعالى ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[٤٨] وقال تعالى ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤٩] ثم سألناهم من الخاشعون؟ فقالوا: هم العلماء لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٥٠] ثم سألناهم جميعاً: من أعلم الناس؟ قالوا: أعدلهم بالقول، وأهداهم إلى الحق، وأحقهم أن يكون متبوعاً ولا يكون تابعاً بدليل قوله تعالى ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[٥١] فجعل الحومة لأهل العدل. فقبلنا ذلك منهم وسألناهم عن أعلم الناس بالعدل من هو؟ قالوا: أدلهم عليه قلنا من أدل الناس عليه قالوا: أهداهم إلى الحق، وأحقهم أن يكون متبوعاً ولا يكون تابعاً بدليل قوله تعالى ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾[٥٢] فدل كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) والإجماع: إن أفضل الأمة بعد نبيها أمير المؤمنين

علي بن أبي طالب (عليه السلام) لأنه إذا كان أكثرهم جهاداً كان أتقاهم، وإذا كان أتقاهم كان أخشاهم وإذا كان أخشاهم كان أعلمهم وإذا كان أعلمهم كان أدل على العدل - وهذا ما نحن بصدد تأكيده ومناقشته بهذا البحث - وإذا كان أدل على العدل كان أهدى الأمة إلى الحق وإذا كان أهدى كان أولى أن يكون متبوعاً، وأن يكون حاكماً لا تابعاً ولا محكوماً، فلما ذا شاحت الأمة بنظرها عنه ولم تمكنه من الخلافة إلا بعد ثلاث وبعد أن رأوا انه لا مناص من ولايته لأنه أعدل الناس!

وأجمعت الأمة - بعد نبيها - (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه خلف كتاب الله ذكره وأمرهم بالرجوع إليه إذا أنابهم أمر، وإلى سنة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيتدبرونهما ويستنبطوا منها ما يزول به الاشتباه فإذا قرأ قارئكم ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ فيقال له: أثبتها، ثم يقرأ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وفي قراءة ابن مسعود - أن خيركم عند الله اتقاكم - ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ﴾ فدلت هذه الآية على أن المتقين هم الخاشعون، ثم يقرأ فإذا بلغ قوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ويقال له: أقرا حتى تنظر هل العلماء أفضل من غيرهم لو لا؟ فإذا بلغ قوله تعالى ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٥٣] علم أن العلماء أفضل من غيرهم ثم يقال: اقرأ، فإذا بلغ إلى قوله ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[٥٤] قيل: قد دلت هذه الآية على أن الله قد اختار العلماء وفضلهم ورفعهم درجات، وأجمعت الأمة على أن العلماء من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذين يأخذ عنهم العلم كانوا أربعة: علي بن أبي طالب وعبد الله بن العباس وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت وقالت طائفة: عمر فسألنا الأمة: من أولى الناس بالتقديم إذا حضرت الصلاة؟ فقالوا: إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: "يؤم القوم أقرؤهم" ثم أجمعوا على أن الأربعة كانوا أقرأ من عمر فسقط عمر، ثم سألنا الأمة: أي هؤلاء الأربعة أقرأ لكتاب الله، وأفقه لدينه؟ فاختلفوا، فأوقفناهم حتى نعلم ثم سألناهم: أيهم أولى بالإمامة؟ فأجمعوا على أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: "إذا كان عالمان فقيهان من قريش فأكبرهما سناً وأقدمهما هجرة" فسقط عبد الله بن العباس وبقي علي بن أبي طالب (عليه السلام) فيكون أحق بالإمامة لما أجمعت عليه الأمة ولدلالة الكتاب والسنة عليه[٥٥].

ومن الطبيعي بعد هذه الأدلة يتفضل أمير المؤمنين (عليه السلام) على سائر الصحابة أن نتخذه مثلاً لكل حاكم يروم أن يسوس الرعية بالإصلاح والعدل والسوية كما نص القرآن والسنّة النبوية وكما طبق ذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

فمن سياسته الإصلاحية في الأمة بعد استخلافه خطبته التي يبين فيها النقاط الأساسية لواجباته فيقول "اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن

المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك"[٥٦] فرد المعالم الضائعة في الدنيا ورد الحق المنتهك لعباد الله وإقامة الحدود المعطلة هي أنجح وأعدل سياسة في الحكم الإسلامي ولأول مرة سيقام العدل ويركل الظلم وذلك في أشد حالات القتال ألا وهو القتال على التأويل كما قاتل النبي على التنزيل، وأولى خطواته الإصلاحية في مباشرته في تنفيذ العدل والمساواة بين الرعية قيامه بإلغاء التمايز الطبقي والمساواة في العطاء بين الرعية[٥٧] فقال (عليه السلام) "ألا لا يقولن رجالاً منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار وركبوا الخيول الفارهة واتخذوا الوصائف الروقة، فصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه واصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون، فينتقمون ذلك ويستنكرون، ويقولون: حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا"[٥٨]. وقال أيضاً: "مما تخلف بعض الصحابة منهم طلحة والزبير وعبدالله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم لما ساوى أمير المؤمنين بين الأحمر والأسود والمهاجرين والأنصار، فأما هذا الفيء فليس لأحد على أحد فيه أثرة، وقد فرغ الله من قسمته، فهو مال الله، وأنتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله أسلمنا، وعهد نبينا بين أظهرنا، فمن لم يرضى به فليتول كيف يشاء! فإن العامل بطاعة الله الحاكم بحكم الله لا وحشة عليه"[٥٩]. وقال أيضاً: "رحم الله امرئ رأى حقاً فأعان عليه، ورأى جوراً فرده، وكان عوناً للحق على من خالفه"[٦٠]، فكان موقف علي (عليه السلام) من هؤلاء هو إتباع لغة القرآن الكريم وسنّة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فلم يبدل حكماً ويستبدل بآخر غير الذي يراه أنه جادة الصواب والحق وزهق الباطل.

ومن مظاهر عدله ومساواته في إدارته للحكم أيضاً قيامه انتزاع الأموال والثروات التي تصرف بها عثمان وكأنها ملكه لا ملك المسلمين، سيما وأن الأموال كان يصرفها من بيت مال المسلمين بينما كان ينفقها على ذويه وخاصته من بني أمية فقال (عليه السلام) في هذا الشأن "والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق"[٦١].

فكيف نتصور بعد هذه التصريحات الخطيرة إن تكن بني أمية ولاسيما معاوية المودة أو السمع والطاعة له، وكيف لا يحرض بعضهم بعضاً على تحدي سياسته فقد كتب عمرو بن العاص إلى معاوية يقول: "ما كنت صانعاً فأصنع، إذ قشرك ابن أبي طالب كل ما لا تملكه، كما تقشر من العصا لحاها"!

وما معركة الجمل وصفين إلا أدلة على عدم قدرة المناهضين لسياسته على تحمل عدم الإسلام الذي طبقه عليهم علي بن أبي طالب (عليه السلام)[٦٢]، وبالنسبة لسياسته في الحكم وإدارة أمور الرعية وضع أمير المؤمنين (عليه السلام) دستوراً إسلامياً تسير عليه السياسة الجديدة فخطب في الرعية قائلاً: "قد جعل الله سبحانه وتعالى لي عليكم حقاً بولاية أمركم، ولكم علي من الحق مثل الذي عليكم، جعل الله من حقوقه حقوقاً، افترضها

لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق: حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل فجعلها نظاماً لألفتهم وعزاً لدينهم فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية فإذا أدى كل طرف الحق للآخر عز الحق بينهم واعتدلت معالم العدل فصلح بذلك الزمان والعكس صحيح حيث يظهر الجور وتعطل الأحكام ويعمل بالهوى[٦٣].

وهكذا يشق علي بن أبي طالب الدرب لكل سياسي وحاكم ويوضح له كيفية العمل فتتكامل المسؤوليات وتتعاضد الأدوار ويستوي الناس أمام الحق والعدل ويأخذ مبدأ التكافل الاجتماعي طريقه للواقع فيتم صناعة المجتمع النموذجي بفضل سياسته النموذجية.

ولكي يطبق تلك السياسة التي أساسها عدل القرآن والسنة المطهرة قام باستبدال ولاة الجور والظلم أقارب عثمان بن عفان كسعيد بن العاص الذي انتفضت عليه الكوفة وعبد الله بن عامر صاحب البصرة بآخرين من مدرسة علي بن أبي طالب (عليه السلام) كقيس بن سعد بن عبادة الأنصاري على مصر بدل من قريب عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي انتفضت عليه مصر وسهل بن حنيف على الشام بدلاً من معاوية وعثمان بن حنيف بدلاً من ابن عامر وعمارة بن حسان على الكوفة[٦٤].

كما جعل عبيد الله بن عباس على اليمن وقثم ابن العباس على مكة.[٦٥] وذلك إجراء أكد للجميع انه (عليه السلام) كان نافذ البصيرة مؤمناً باستجابة البلاد كلها له، لأنه لم يعمل إلا ما أملاه عليه شعور أهل الأمصار نحو أولئك الولاة، سيما وأن الزمن أثبت فراسته فجاءته الطاعة من كل الأقاليم عدا الشام التي لا تعرف من الإسلام إلا ما يعرفهم به معاوية فهل يرضى إلا أن يحتلب السلطان من كف غريمه القديم![٦٦].

ولكي لا يتشعب الحديث إلى جوانب متعددة لسيرة وسياسة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) والتي لا تتسع لها مجلدات لا صفحات، لنقصر الحديث عن أحد الأدلة على عدالة هذا الحاكم الذي لم تجد الدنيا بمثله فلأن كان علي (عليه السلام) شمس العدالة التي لا يحجبها غربال فإن تطبيقه لتلك السياسة تتجسد في عهوده لكل ولاته على الأمصار وفي عهده لصاحبه مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي الملقب (بالأشتر) خاصة لما ولاه على مصر فقد أرسل معه كتاباً لأهل مصر يبين فيه أسس خلافته الجديدة، وكيفية تطبيق ذلك من أجل الوصول إلى مجتمع نموذجي تتكامل فيه المثل والمبادئ السامية النابعة من القرآن والسنّة.

ولكي تكون الصورة واضحة عن هذا العهد وهذا الوالي لا بد لنا من إلقاء نظرة سريعة عن شخص الأشتر باعتباره أنموذجاً وقيادياً وإدارياً بارزاً من مدرسة علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وتشبع بأنوارها.

فهو مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن مسلمة بن ربيعة بن الحارث بن جذيمة بن مالك بن النخع[٦٧]. ابن عمر بن علة بن جلد بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ[٦٨]. أدرك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم ينقل عن أنه روى عنه وكان رئيس قبيلته، شهد عمر بن الخطاب بالجابية لما فتحت الشام عام ١٧هـ/٦٣٨م[٦٩]. وثقه ابن حبان وشهد اليرموك فضربه أحدهم على رأسه فسالت الجراحة قيحاً فشترت عينه فسمي بالأشتر، روي عن كثير من الصحابة أولهم علي (عليه السلام) وصحبه، وأبي ذر وعمر خالد بن الوليد وروى عن ولده إبراهيم وأبو حسان الأعرج وعبد الرحمن يزيد النخعي وغيرهم. وكان من الطبقة الأولى من التابعين بالكوفة كما قال ابن سعد[٧٠] يعد من أكابر الشيعة وعظماتها. شديد التحقق بولاء أمير المؤمنين ونصره فهو أشهر في الشيعة من أبي الهذيل في المعتزلة[٧١].

شهد له النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنه مؤمن لما أخبر عن وفاة الصحابي الجليل ابن ذر الغفاري فقال: "ليموتن أحدكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين" وكان النفر الذين حضروا موت أبي ذر بالربذة جماعة منهم حجر بن عدي ومالك الأشتر[٧٢].

أما دفاعه عن الإسلام والحق والعدل فأشهر من أن تغطيه هذه الصفحات إلا أن مواقفه في الدفاع عن مثل الإسلام ومبادئه برزت يوم رأى ولاة الجور لاسيما والي الكوفة سعيد بن العاص وظلمه لصرعيه واجتراء بني أمية على الرعية بجعلهم السواد بستاناً لقريش وما صحبت تلك الحادثة من مكاتبة الشيعة للأشتر بتأميرهم ليكون متكلمهم لأنه لا يخشى في الله لومة لائم وما تبع ذلك من المكاتبات بينه وبين أهل الكوفة من جهة وبين والي الكوفة وعثمان وبين عثمان والأشتر من جهة أخرى حتى انتفض الثائرين من أهل الكوفة بقيادته لمحاصرة الخليفة الثالث في الفتنة التي أدت إلى مقتله بسبب سياسته من تأمير أقاربه من بني أمية وعدم السير على كتاب الله وسنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الأمر الذي لم يرض أحد طلاب جامعة علي بن أبي طالب (عليه السلام)[٧٣].

أما نصرته لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وولائه له فتتجلى في صحبته له منذ استخلافه مروراً بحربي الجمل وصفين ومآثره فيها فلما استعر إوار الحرب مع معاوية وأبي الخوارج إلا الانشقاق على علي (عليه السلام) وطلبوا منه إعادة الأشتر عن صفوف معاوية خطب فيهم قائلاً: "يا أهل العراق. يا أهل الذل والوهن، أحين علوتم القوم وظنوا إنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى ما فيها وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها وسنة من أنزلت عليه؟ فأمهلوني فواقاً فإني قد أحسست الفتح[٧٤].

وذم رجل الأشتر فرد عليه رجل من النخع "اسكت فإن حياته هزمت أهل الشام وموته هزم أهل العراق"[٧٥].

فلا تستغرب إذن أن لسان حال الأشتر ينطق بكلمات علي (عليه السلام) المستمدة من القرآن والسنّة واللاتي يرونها قد ضيعت ويحاولان إحياءها من جديد لكي يعود الإسلام غضاً

جديداً فتحيا الرعية في ظلهما آمنة مطمئنة بعدل القرآن وسنّة خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

ولهذه الصفات التي قل نظيرها بين الرجال عموماً لكنها متواجدة بين رجالات علي (عليه السلام) ومنهم الأشتر فقد وصفه بن أبي الحديد بأنه جواداً رئيساً حليماً فصيحاً شاعراً، يجمع بين الين والعنف، ولعمري كان أهل لذلك[٧٦].

تلك الصفات التي أثارت إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء فهذا معاوية لما وصله خبر نعي الأشتر (رضوان الله عليه) خطب بجمهوره قائلاً: "أما بعد، فإنه كان لعلي يدان يمينان قطعت أحداهما يوم صفين وهو عمار بن ياسر وقطعت الأخرى اليوم وهو مالك الأشتر"[٧٧].

فكيف لا يجند معاوية كل طاقاته ويسخرها لقطع تلك اليمين التي يخشى سطوتها ونصرتها للحق الممثل بعلي بن أبي طالب (عليه السلام). لهذا، وحين عظم عليه ولاية الأشتر على مصر ـ لما بلغ الإمام علي (عليه السلام) ضعف إمارة محمد بن أبي بكر وعزله ـ دس له السم مع مولى لآل عمر بن الخطاب فتوفي على أثرها قبل دخوله مصر[٧٨].

أما السيوطي فذكر أنه صاحب خراج مصر وهو الجايسار الذي قدم له طعاماً وسقاه شراباً من عسل بطلب من معاوية فمات منه[٧٩]. أما اليعقوبي فأكد أن معاوية دسّ له السم مع رجل من أهل المدينة لم يذكر اسمه خدمه وقام بحوائجه ثم أتاه بقعب فيه عسل صير فيه السم فسقاه إياه فمات بالقلزم** سنة ٣٨ هـ[٨٠]، وبالتالي فإنه يمكننا الترجيح بأن هذا الرجل المديني هو أحد موالي آل عمر بن الخطاب. وقيل أنه رجل كان يملك أرضاً في العريش دون أن تؤكد المصادر أنه من المدينة أم من مصر نزع عنه معاوية خراج مصر عشرين عاماً مقابل الاحتيال للأشتر بالسم[٨١]، أما المصادر الأخرى فقد أكدت وفاته إثر شربه للعسل لكن لم تؤكد أنها بفعل معاوية[٨٢]، مع أن ضعف الروايات هذا بادياً للجميع إذ لا يعقل أن يؤدي العسل إلى الموت مع أن الله تعالى جعله شفاءً للناس[٨٣].

فضلاً عن الأسباب التي ذكرناها والتي دفعت معاوية لذلك، ولا تعدو تلك الروايات إلا تصرف ووضع ودس في النصوص التاريخية بسبب تلاعب الأقلام الأموية التي كانت تكتب لمصلحة الملوك كما يقال عن التاريخ إلا أن هذا لا يعني أنه لم تكن هناك أقلامٌ نزيهةٌ، لا تتأثر بهوى أو ميل كما هو الحال في أي وقت!.

وبما أننا في تحليل للنصوص التاريخية لا بد لنا من وقفة أمام أمرين يتعلقان بأمير المؤمنين (عليه السلام) وعلاقته بالأشتر مما تدخلت به الأقلام المغرضة فشوهت الحقيقة بل قلبتها رأساً على عقب ليشوهوا تلك العلاقة القرآنية بينهما.

منها رواية غير مسندة ذكرها ابن أبي الحديد بشأن وجد الملك الأشتر على علي (عليه السلام) إثر قيامه بتعيين أبناء عمه العباس على الحجاز واليمن والعراق فقال الأشتر: فلماذا قتلنا الشيخ ـ أي عثمان ـ بالأمس فلما بلغ الأمر علي (عليه السلام) أحضره ولاطفه واعتذر

إليه وبين له أنه لم يول أبناءه أو بني إخوته جعفر أو عقيل وإنما ولى أبناء عمه لأن العباس طلب من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الإمارة وأن بنيه يجدون في أنفسهم لما ولى غيرهم من أبناء الطلقاء فأحب أن يصل رحمهم، فزال ما في نفس الأشتر[٨٤].

والحقيقة أن مظاهر ضعف الرواية واضحٌ منها عدم وجود إسنادٍ يعزّزها كما أن الأشتر لا يشك بنية علي بن أبي طالب (عليه السلام) وأفعاله كما تحاول الرواية أن تثبت أن علياً ما اختلف عن عثمان لما ولى أقاربه على الأمصار، فضلاً عن أن ولاة علي (عليه السلام) من أبناء عمومته لا يقارنون بعمال عثمان فأحدهم حبر الأمة وترجمان القرآن وهو عبد الله بن عباس أما عبيد الله وقثم فلا يقلّون عنه ورعاً وصلاحاً. فتلك الأقلام الحاقدة على علي (عليه السلام) وحكومته لا تصمد أمام الحقيقة الحقة!

والأمر الثاني هو مسألة وفاة الأشتر وقول علي (عليه السلام) فيه لما بلغه خبر استشهاده. فقد ذكر الكندي في كتابيه أن ولايته على مصر كانت بناءً على طلب من عبد الله بن جعفر الذي تحاول الرواية تصويره أنه أحد المؤثرين على علي (عليه السلام) حالما يقسم عليه بأخيه جعفر فذكر عن ابن جعفر قال: "كنت إذا أردت أن يمنعني علي شيئاً قلت: بحق جعفر، فقلت له: أسألك بحق جعفر إلا بعثت الأشتر إلى مصر: فإن ظفرت فهو الذي تحب، وإلا استرحت منه قال سفيان ـ ربما يعني سفيان الثوري أحد المحدثين المعروفين من أبناء العامة، يقول: "وكان قد ثقل عليه وأبغضه وقلاه ـ يعني علي (عليه السلام) ـ قال: فولاه وبعثه وبعث معه طيرين لي من العرب. فلما قدم قلزم مصر لقي بها ما يلقى به العمال هناك، فشرب شربة عسل فمات فلما قدم طيراي أخبراني. فدخلت على علي (عليه السلام)، فأخبرته فقال: لليدين والفم ـ وهو دعاء عليه بمعنى أكبه الله على وجهه[٨٥] ـ فأي أكاذيب وحيل هذه وكيف يمكن لعقل أن يصدقها، فلم يرد بين المصادر التاريخية ما يشير إلى أن عبد الله بن جعفر أو علي بن أبي طالب (عليه السلام) كانت لهما موجدة وبغض تجاه الأشتر، وكيف يعقل أن يدعو أمير المؤمنين على عبد صالح نصره وأيده منذ دخوله الإسلام حتى وفاته رضوان الله عليه، ومتى دعا (عليه السلام) على أعدائه حتى يدعو على أصحابه! ثم أين صمود هذه الروايات المغرضة والأقلام الحاقدة من الروايات التي تؤكد حزن أمير المؤمنين (عليه السلام) على استشهاده وثنائه وترحمه عليه فقال فيه: "رحم الله مالكاً فلقد كان لي كما كنت لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)[٨٦] وقال: لله مالك، لو كان جبلاً لكان فنداً ولو كان من حجر لكان صلداً. على مثل مالك فلتبكِ البواكي، فهل موجود كمالك، وأنى مثل مالك، يقول علقمة بن قيس: فوالله ما زال متلهفاً ومتأسفاً عليه حتى رأينا أنه المصاب دوننا[٨٧].

وللشيخ مغنية عبارة لطيفة بهذا الشأن فيقول: "غريب حتى الكذب والاحتيال وحتى القتل بالعسل لقتل أولياء الله من صنع الله عند المجرمين لا من صنعهم، إشارةً إلى قول عمرو بن العاص أو معاوية أو أهل الشام إنّا لله جنوداً من عسل[٨٨]. وصدق المعري حيث يقول على لسان

آدم يخاطب أبناءه مؤنباً: "كذبتم على خالقكم وربكم، ثم على آدم أبيكم، ثم على حواء أمكم، وكذب بعضكم على بعض بل وعلى أنفسكم"[٨٩].

ومسك الختام عهد أمير المؤمنين (عليه السلام) لوالي مصر الذي لم يستلم ولايته فيشرع بتطبيق ذلك العهد الدستوري لخليفة المسلمين وحسن إدارة هذا الحاكم العادل الذي اتّخذ من القرآن والسنّة مسلكاً سار عليه وسير عليه الرعية. مع أن هناك أمراً يلفت النظر فيه أمر العهد هذا إذ أن كل المصادر التاريخية القديمة والحديثة نقلته عن ابن أبي الحديد في كتابه شرح نهج البلاغة المتأخر قياساً للمصادر الأولية المعروفة ولم يرد العهد برواية مسنده لنقف على مدى صحة ما جاء في هذا الكتاب من أحكام وقوانين، فالتحليل والتمحيص، ديدن أهل التاريخ للوصول إلى الحقيقة!

وإذا سلّمنا بصحة نسبة الكتاب لعلي (عليه السلام) وهو ما لا تنفيه المصادر والمراجع فلنقف أمام دقة الأحكام والنصح والإرشاد الذي أبلغ به علي (عليه السلام) لمالك الأشتر سيما تلك الأجزاء التي تؤكد على العدالة السماوية وحسن إدارة أمور الرعية كما جاء في كتاب الله وسنة الرسول الأعظم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) والتي تعدُّ بحقٍّ دستوراً إسلامياً شرعياً كاملاً يسعى لخير وصلاح أمة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) بل للإنسانية جمعاء فهو لم يهمل فيها صغيرةً ولا كبيرة تتعلق بمصالح العباد وكيفية التعامل معهم وصفات الحاكم العادل وما يحب أن يكون عليه وحسب نصوص القرآن الكريم وسنّة نبيه إلا ذكرها فضلاً عن وصفه لطبقات الرعية وأهم مبدأ جاء به الإسلام ألا وهو الشورى في الحكم وصفات وزرائه وأعوانه الذين سيكونون دعامات ولايته وبهم سيتحقق العدل الذي ينشده علي (عليه السلام) وكما سنرى.

فأول وصاياه له في عهده تقوى الله وإيثار طاعته واتّباع فرائضه وأن يكون العمل الصالح أحب الذخائر إليه وأن لا يتبع الهوى[٩٠]. وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه لينصره الله تعالى ويعزه فقال تعالى ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾[٩١]. وأن يتلطف للرعية ويحبهم فهم صنفان "إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق"[٩٢] وقال له: "أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك الهوى فيه من رعيتك فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده[٩٣].

فأي وصيةٍ وإشارةٍ للعدل والإنصاف مع الرعية أبلغ من هذه وأعظم وأين دساتير حقوق الإنسان وقوانين الدول العربية والعالمية التي تنشد خير المجتمعات البشرية وصلاحها أفضل من هذه الوصية!

وقال له أيضاً: وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل، وأجمعها لرضا الرعية، فإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة[٩٤]. ووصاه أيضاً أن يبعد المنافقين النمامين الواشين الذين لا يسترون عيوب الناس وأن لا يُدخل في مشورته بخيلاً وأن يبتعد عن

الحقد[٩٥]. لأنها صفات لا يصلح معها الوالي ولا يتمكن من تمييز الحق من الباطل، فربما دعاه ذلك إلى الظلم وعدم إحقاق الحق، وما أكثر الآيات القرآنية التي أكدت على خلق المسلم والمؤمن وعمق المبادئ الإسلامية متأسين ومقتدين بنبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لما وصفه رب العزة ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٩٦] وقوله ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[٩٧] وفي شرح الابتعاد عن البخل قال ابن أبي الحديد أن ذلك مستوحى من الآية الكريمة ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ فالفحشاء هنا البخل[٩٨].

ونهاه ألا يتخذ بطانة كانت من قبل بطانة للظلمة فإن من استعان بهم كان معيناً لهم فقال تعالى ﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾. وقال تعالى ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾[٩٩].

وأمره بأن يجعل أهل الورع والصدق خاصته وخلاصه لأنهم سيساعدونه بما يشيرون عليه من نصائح صالحة في إحقاق العدل وإنصاف المظلوم لقوله تعالى ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾[١٠٠] وأن لا يكون المحسن والمسيء عنده بمنزلةٍ سواء فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة[١٠١]. فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾[١٠٢].

وبين له أن الرعية طبقاتٌ لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى لبعضها عن بعض، فمنها جنود الله ومنها كتاب العامة والخاصة ومنها قضاة العدل ومنها عمال الإنصاف والرفق ومنها التجار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجات والمسكنة...[١٠٣] وبالتالي فإن نظرته (عليه السلام) نظرة تلف المجتمع بكل أبنائه فيهم القادر وفيهم العاجز والمحتاج وعلى الدولة أن تكفيه وتسيّر له معاشه[١٠٤]. كما أوصاه بأن "لا يعظّم بلاء رجلٍ لا لشيءٍ إلا لأنه شريف القدر ولا العكس" واردُد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب، ويشتبه عليك من الأمور، فقد قال الله سبحانه لقوم أحب إرشادهم: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾[١٠٥] فالرد إلى الله الآخذ بمحكم كتابه، والرد إلى الرسول الآخذ بسنته الجامعة غير المفرقة[١٠٦] وبالتالي فإن أمير المؤمنين (عليه السلام) وضّح أن قدرة الحاكم في إدارة أمور حكمه وتثبيت دعائم ملكه يتجلى في رد كل أحكامه إلى القرآن والسنة وأولي الأمر من الولاة والفقهاء الصالحين فبهذا يصلح المجتمع ويسير نحو الخير.

ثم يركز أمير المؤمنين على القضاء باعتباره أهم مؤسسات الدولة في إرساء قواعد العدل سيما وأنه قام بإصلاحٍ مهمٍ في هذه المؤسسة الإدارية بفضل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية بعد أن كانت موحدة قبله لكي يكسب القضاة حصانة ويؤمنهم عقاب السلطة[١٠٧] فقال له: "ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه،

ثم أكثر تعاهد قضائه، وأفسح له في البذل ما يزيح علته وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك، فانظر في ذلك نظراً بليغاً"[١٠٨]. وعلي (عليه السلام) حينما يولي القضاء هذه الأهمية الكبيرة ويخط للقضاة منهاجاً سوياً للحكم فإنه يستوحي ذلك من القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ ﴾[١٠٩].

ثم طلب منه أن ينظر بأمور عماله على ولايات مصر وأن يستعملهم بعد أن يختبرهم لا أن يعينهم محاباةً وتفضيلاً وإثرة، كما يفعل البعض حالياً وأن يختارهم من أهل الصلاح والسبق في الإسلام وأن يغدق عليهم الأموال ليغني أنفسهم فلا يرتشوا ولا يسرقوا فيكونوا مؤتمنين، وما أكثر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بشأن ذلك. وكذلك الحال بالنسبة لكتابه على الدواوين، كما أوصاه بالتجار وأهل الصناعات خيراً فإنهم مواد المنافع و أسباب المرافق وقد قسم (عليه السلام) في عهده هؤلاء إلى ثلاثة أقسام اثنان منهم للتجار وهما المقيم والمضطرب يعني المسافر والضرب يعني السير في الأرض لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[١١٠].

وواحد لأرباب الصناعات وطلب منه (عليه السلام) أن يمنع الاحتكار لأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) منع عنه وليكن البيع بموازين عدل و أسعار لا تجحف، ثم استوصاه كثيراً بالطبقة السفلى واليتامى وذوي الحاجات تطبيقاً لسنة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال في أكثر من موطن: "لن تقدس أمةٌ لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي، غير متتعتعٍ" وأوصاه بأداء الفرائض التي فرضها الله على عباده فقال: "وإن كانت كلها لله: إذا صلحت فيها النية، وسلمت منها الرعية " وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن منفرداً ولا مضيعاً فإن في الناس من به العلة وله الحاجة، وقد سألت ـ يعني علي (عليه السلام) ـ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين وجهني إلى اليمن: كيف أصلي بهم؟ فقال: "صلِّ بهم كصلاة أضعفهم، وكن بالمؤمنين رحيماً" كما أوصاه بألا يطيل الاحتجاب عن الناس لأنه يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه، فيصغر عندهم الكبير ويعظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل.

وأوصاه أن يلزم الحق من لزمة من القريب والبعيد[١١١]. وقال له: "وإن ظنت الرعية بك حيفاً فاحصر لهم بعذرك، وأعدل عنك ظنونهم بأصحارك" وعهد إليه أيضاً بأن لا يدفع صلحاً يدعوه إليه عدو الله فيه رضا فإن في الصلح دعةً لجنوده وراحةً من همومه، وإذا عقد مع العدو معاهدةً فعليه الوفاء ومراعاة ذمته بالأمانة وحذّره من سفك الدماء بغير حلّها وحقّها والقتل العمد لئلا تزول نعمة الله عليه ولا تنقطع مدة ولايته كما حذّره أيضاً من الإعجاب والفخر والثقة الزائدة بالنفس وحب الإطراء والثناء وحذّره من أمر آخر يؤدي بالسائس إلى التهلكة في الدنيا والآخرة ألا وهو المنُّ على الرعية بالإحسان "فإن المنَّ يبطل الإحسان" لقوله تعالى ﴿ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾[١١٢].

كما قال له: وإياك والتزيد فيما كان من فعلك أو أن تعهدهم، فتتبع موعدك بخلفك فإن التزيّد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المقت عند الله والناس قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[١١٣] كما نهاه عن العجلة وذمها لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[١١٤].

فأي مُثلٍ وقيمٍ وتعاليم سماوية هذه التي ينطق بها فاه الحكمة والعدل وأنى مثل باب مدينة العلم ليخط لا للأشتر فحسب بل لكل الإنسانية أصول الإدارة والسياسة، وأين دساتير الحكومات العربية والعالمية وقوانينها عن هذا الكتاب وهذا العهد الذي وضع أسس النظم الإسلامية بكل مؤسساتها الإدارية والقضائية والسياسية والفكرية والاقتصادية وكيفية تعامل الولاة وساسة الرعية مع كلٍّ جانبٍ من جوانبها، وماذا ترك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) لمنظمات حقوق الإنسان من أحكامٍ وشرائع وكل ما يكتبونه قاله القرآن الناطق في هذا العهد الذي سيظل بحراً يستقي منه الصالحون لآلئ لخير الإنسانية.

الهوامش:

(١) الشورى: آية ١٥.

(٢) النساء: آية ٣.

(٣) النساء: آية ١٢٩.

(٤) النساء: آية ٥٨.

(٥) النساء: آية ١٣٥.

(٦) المائدة: آية ٨.

(٧) المائدة: آية ٨.

(٨) الأعراف: آية ١٨١.

(٩) النحل: آية ٩٠.

(١٠) الأحزاب: آية ٦١.

(١١) آل عمران: آية ٦١.

(١٢) السجدة: آية ١٢.

- هو الوليد بن عقبة بن أبي عمرو بن أمية، مقدوح النسب في آبائه، كان كاذباً نزلت فيه آية الفسق إثر إرساله من قبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لبني المصطلق فأبلغ النبي أنهم منعوه الصدقة فقال تعالى " يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينّ. ينظر الحجرات، آية ٦: ابن قتيبة، المعارف، ص ١٨٠: العلي، كفاية طارش، الأسر الأموية التي لم تتول الخلافة، دراسة في أحوالها الاجتماعية والإدارية والسياسية والفكرية ٤١ ـ ٦٥٦هـ، ط دكتوراه، جامعة البصرة ٢٠٠٤م الفصل الأول: العلي، كفاية طارش. أسر أموية مشكوك بصحة نسبها لبني أمية، مجلة دراسات تاريخية، عدد٢: أيار ٢٠٠٦، ص ٤٠ ـ ٥٧٠.

(١٣) ابن قتيبة، المصدر السابق، ص ١٨٠.

(١٤) ابن عبد البر، الاستيعاب، ٣: ٥١: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص ١٣٤ ـ ١٤٧.

(١٥) البقرة: ٢٠٧ الطبري، التفسير الكبير، ٥: ٢٠٤.

(١٦) ينظر: الطبري، تفسير، ج٧/٤٨٦ ـ ٤٨٩: الزمخشري، الكشاف ٤: ٥٠٣: الرازي، تفسير ٣٠: ٢٤٣: الشوكاني، فتح القدير ٥: ٣٤٩: الألوسي، روح المعاني ٢٩: ١٥٧ ـ ١٥٨: البغوي، معالم التنزيل ٥: ٤٩٨: أبي السعود، تفسير ٩: ٧٣: البيضاوي، تفسير، ٢: ١١١٦ ـ ١١١٧: النسفي، تفسير ٣: ٦٢٨: الموسوي، إسلام، الإمام علي سيرة وتاريخ، ص ٤٨ ـ ١٢٠، ٤٩.

(١٧) النور: ٣٦.

(١٨) الدر المنثور عند تفسير الآية، وقال: أخرجه ابن مردويه عن أنس بن مالك وذكره الحاكم في شواهد التنزيل من سورة النور ٥٦٧ ـ ٥٦٨ والألوسي في روح المعاني ١٨: ١٧٤.

(١٩) الأحزاب: ٢٥.

(٢٠) أبو نعيم، حلية الأولياء، ص ١٧٢، تحقيق المحمودي.

(٢١) التوبة ١٩ ـ ٢٠.

(٢٢) ينظر أصحاب التفاسير المعتمدة كالطبري، تفسير، ١٣٦ ـ ١٣٨: البغوي، م.س، ج٣: ١٣ ـ ١٤: القرطبي، تفسير، مج٤: ٢٣ ـ ٢٥: الرازي، م.س، مج٨: ج١٦: ١٢ ـ ١٦عند تفسير الآيات من سورة التوبة: إسلام، م.س، ص ١٢١.

(٢٣) المائدة: ٥٥: الزمخشري، خصائص العشرة الكرام البررة، ص٩٥.

(٢٤) عن قصة تصدقه بالخاتم ينظر: تفسير الطبري ٣: ٣٦٠: الواحدي، م.س، ص ١١٤: الرازي: تفسير ١٢: ٢٦: أبو السعود:، ٢: ٥٢: النسفي، المصدر السابق، ١: ٤٢٠، البيضاوي، المصدر السابق، ١: ٢٧٤ ـ ٢٧٥: البغوي، المصدر السابق، ٢: ٢٧٢: السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، ص ٩٣: الشوكاني، المصدر السابق، ٢: ٥٣: الألوسي، المصدر السابق، ٦: ١٦٧ ـ ١٦٩: الزمخشري، الكشاف، ١: ٤٨٩ ـ ٤٩٩.

(٢٥) المائدة: ٣: الزمخشري، خصائص العشرة، ص ٩٦.

(٢٦) الموسوي، م.س، ص ١٢٩.

(٢٧) الحاقة: ١٢.

(٢٨) الميلاني: ٢٦ ـ ٢٧، الدليل العقلي على إمامة علي (عليه السلام)، ٢٦ ـ ٢٧: الزمخشري، الكشاف، ٤: ١٥١: الرازي، المصدر السابق، ٣٠: ١٠٧: البلاذري، أنساب الأشراف، ج٢: ٣٦٣: الطبري، تفسير ٢٩: ٣٥ ـ ٣٦: أبو نعيم، المصدر السابق، مج ١: ٧٠: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٢/٣٦١: الخوارزمي، المناقب، ص٢٨٢.

(٢٩) الرازي، المصدر السابق، ١٢: ٧٦: ابن عساكر، م.ن، ج٤٢/٣٨٠، ٢٢٦، ٣٨١، ٣٨٤: الخوارزمي، م.ن، ص ٨٢.

(٣٠) أبو نعيم، المصدر السابق، ١: ٦٤: ابن عساكر، المصدر السابق، ج٤٢: ٦٨٤: ١٠١٤ ـ ١٠١٨.

(٣١) ابن عساكر، المصدر السابق، ج ٤٢: ١٤٧ ـ ١٨٦: ابن الأثير، أسد الغابة، ج٤: ٩٢: ابن حجر، الإصابة، ج٣: ٤٩٣ ـ ٤٩٦.

(٣٢) البلاذري، المصدر السابق، ٢: ٣٥٤ ـ ٤١١: ابن عساكر، المصدر السابق، ج٤٢/٤١، ٤٢، ٤٣: المجلسي، بحار الأنوار، ٣٨: ٢٢٧، ٣٣.

(٣٣) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ٢: ١٨٦، ٣: ١٤٧: الخوارزمي، مناقب، ٦١ ـ ٦٢: ابن عساكر، المصدر السابق، ج٤٢: ٣٠٩.

(٣٤) ابن كثير، البداية والنهاية ٧: ٣٩٨: الموسوي، م.س، ص ١٢٥.

(٣٥) ابن حجر، لسان الميزان، ٢: ٣٤.

(٣٦) الزمخشري، خصائص العشرة، ص ٩٦: ابن الأثير، أسد الغابة، مج٣: ٥٨٧ ـ ٦١١، مغنيه، موسوعة الإمام علي، ٢: ٢١٣، الميلاني، المرجع السابق، ص٢٧.

(٣٧) الميلاني، م.ن، ص ٣٥.

(٣٨) م.ن، ص ١٣.

(٣٩) وهو حديث يرويه ابن عساكر في تاريخ دمشق، ترجمة الإمام علي، ج٤٢: ٣٦٩، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٩: ٣٧.

(٤٠) أبو نعيم، المصدر السابق، مج١: ٦٨: ابن عساكر، المصدر السابق، ج٤٢: ٥٨، ٥٩، ١٣١ ـ ١٣٣.

(٤١) الميلاني، م.س، ص٤٢.

(٤٢) القصص: آية ٦٨.

(٤٣) الحجرات: آية ١٦.

(٤٤) النساء: آية ٩٥.

(٤٥) الحديد: آية ١٠.

(٤٦) الزلزلة: الآيتين ٧و٨.

(٤٧) البقرة: آية ١١٠.

(٤٨) ق: آية ٣١: الشعراء: آية ٩٠.

(٤٩) الحديد: آية ٢١.

(٥٠) فاطر: آية ٢٨.

(٥١) المائدة: آية ١٠٦.

(٥٢) يونس: آية ٣٥.

(٥٣) الزمر: آية ٩.

(٥٤) المجادلة: آية ١١.

(٥٥) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج٢/٩٤، وذكر هذه الرسالة الأربلي، صاحب كتاب كشف الغمة وقال أنها نسخت عن مجموعة للأمير أبي محمد الحسن بن عيسى المقتدر بالله. ينظر ص ١٢ ـ ١٣، نقلاً عن، صفي الدين، محمد، طريق النجاة في معرفة النبي و أهل بيته (ع)، ص ٩٣ ـ ١٠١.

(٥٦) نهج البلاغة: خطبة ١٣١: الموسوي، م.س، ص ١٨٣ الموسوي، م.ن، ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٥٧) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ٧: ٣٧.

(٥٨) م.ن، ٧: ٤٠: الموسوي، م.س، ص ١٨٦.

(٥٩) ابن أبي الحديد، م.ن، ٧: ٤١ ـ ٤٢، الموسوي، م.ن، ص ١٨٨.

(٦٠) نهج البلاغة، الخطبة ١٥: الموسوي، م.ن، ص ١٨٨ـ ١٨٩.

(٦١) الموسوي، م.ن، ص ١٨٩.

(٦٢) نهج البلاغة، الخطبة ٢١٦: الموسوي، م.ن، ص١٩٠.

(٦٣) الطبري، تاريخ، ج٣: ٣: الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١٤١: الموسوي، م.ن، ص ١٩١: الملاح، الوسيط في السيرة النبوية، ص ٣٤٦.

(٦٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج٢: ١٧٩: الطبري، تاريخ، مج ٣: ٤٣.

(٦٥) الموسوي، م.س، ص ١٩١، ١٩٣.

(٦٦) ابن حجر، الإصابة، ج٥: ٢٣٤.

(٦٧) ابن عبد البر، الأنباه على قبائل الرواة، ص ١٢١: الكندي، ولاة مصر، ص ٤٦: الولاة والقضاة، ترجمة الأشتر، ص ٢١ ـ ٢٣: ابن أبي الحديد، م. س، ج١٥: ٧٤.

(٦٨) البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٤ ـ ١٤٥: ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ١٩٢٠، ص ٥٣ ـ ٥٦: ابن حجر، الإصابة: ج٥: ٢٣٤.

(٦٩) عنه ينظر: ابن سعد، الطبقات: ج٦: ٢١٣: ابن حجر، الإصابة ج٥: ٢٣٤، تقريب التهذيب، قسم ٢: ٥٦٥: الزركلي، الأعلام، ج٥: ٢٥٩: الزبيدي، عبد الرضا، الرسائل السياسية بين الإمام علي ومعاوية، ص ٣٢٠.

(٧٠) ابن أبي الحديد م.س، ج١٥: ٧٤ ـ ٧٦.

(٧١) م. ن، ج ١٥: ٧٥ ـ ٧٦.

(٧٢) لكل الحادثة ينظر: ابن أعثم، الفتوح، ج٢: ٣٨٤ ـ ٤٠٣، ٤٢٨.

(٧٣) ابن الأثير، الكامل، ج٣: ٣١٧ ـ ٣١٨: الموسوي، م.س، ص ٢١١، وعن صفين ينظر: الدينوري، م.س، ص ١٥٦: بيضون، إبراهيم، من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، ص ١٣١.

(٧٤) الجاحظ، البيان والتبين، ج٣/٢٥٧.

(٧٥) ابن أبي الحديد، م.س، ج١٥: ٧٧.

(٧٦) الطبري، تاريخ، ج٣: ١٢٧ (حوادث سنة ٣٨هـ): ابن الأثير، الكامل، ج٣: ٣٥٣: الزبيدي، م.س، ص ٣٢١.

(٧٧) الزبيدي، م.ن، ص ٣٣٠.

(٧٨) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج١: ٥٨٣ ـ ٥٨٤.

(٧٩) القلزم: من كور مصر وفيه غرق فرعون سمي بحر القلزم لالتهامه من ركبه، ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤: ٣٨٧.

(٨٠) تاريخ، ج٢: ١٩٤: مغنيه، محمد جواد، الشيعة والحاكمون، ص ٥٥.

(٨١) مغنيه م.ن، ص ٥٤.

(٨٢) الكندي، قضاة مصر، ص ٤٧ ـ ٤٨: الولاة والقضاة، ص ٢١ ـ ٢٢: ابن أبي الحديد، م.س، ج١٥: ٧٧: ابن حجر، الإصابة: ج٥: ٢٣٤: مغنيه م.س، ص ٥٥.

(٨٣) النحل: آية ٦٩.

(٨٤) ابن أبي الحديد، م.س، ج١٥: ص ٧٤ ـ ٧٥.

(٨٥) ابن الأثير، الكامل، مج ٣: ٣٥٣: الكندي، الولاة والقضاة، ص٢١ ـ ٢٢: ولاة مصر، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٨٦) الزبيدي، م.س، ص ٣٢٠: ابن أبي الحديد، م.س، ج١٥: ص ٧٤.

(٨٧) الكندي، ولاة مصر، ص ٤٨: الولاة والقضاة، ص٢١ ـ ٢٢: اليعقوبي، تاريخ، ج٢: ١٩٤.

(٨٨) ينظر: الكندي، الولاة والقضاة، ص٢١ ـ ٢٢: ولاة مصر، ص ٤٧ ـ ٤٨: السيوطي، حسن المحاضرة، ج١: ٥٨٣.

(٨٩) مغنية، الشيعة والحاكمون، ص ٥٥.

(٩٠) تنظر الآيات القرآنية في بداية البحث: ابن أبي الحديد، م. س، ج ١٧: ٢٦.

(٩١) الحج، آية ٤٠: ابن أبي الحديد، م. ن، ج١٨: ٢٦ ـ ٢٧.

(٩٢) ابن أبي الحديد، م. ن، ج١٧: ص٢٧.

(٩٣) م. ن، ج١٧: ٢٩.

(٩٤) م. ن، ج ٢٩: ١٧.

(٩٥) م. ن، ج١٧: ٣٠.

(٩٦) القلم: آية ٤.

(٩٧) آل عمران: ١٥٩.

(٩٨) البقرة: آية ٢٦٨، ابن أبي الحديد، م. س، ج١٧: ٣٤.

(٩٩) المجادلة: آية ٢٢: ابن أبي الحديد، م. ن. ١٧: ٣٥.

(١٠٠) آل عمران، آية ١٥٩: ابن أبي الحديد، م. ن، ج١٧: ٣٦.

(١٠١) م. ن، ج١٧: ٣٦.

(١٠٢) فصلت: آية ٣٤.

(١٠٣) ابن أبي الحديد، م. ن، ج١٧: ٣٩.

(١٠٤) جرداق، جورج، علي صوت العدالة الإنسانية، ج١: ٣٥٠.

(١٠٥) النساء: آية ٥٩.

(١٠٦) ابن أبي الحديد، م. س، ج١٧: ٤٢.

(١٠٧) جرداق، م.س، مج ١: ٣٦٠.

(١٠٨) ابن أبي الحديد، م.س، ج١٧: ٤٦ - ٤٧: اليوزبكي، دراسات في النظم العربية الإسلامية، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(١٠٩) سورة ص: آية ٢٦: ابن أبي الحديد، م. ن، ج١٧: ٤٨.

(١١٠) النساء، آية ١٠١.

(١١١) لكل ما تقدم ينظر: ابن أبي الحديد، م. س، ج١٧: ٥٤ - ٧٥.

(١١٢) البقرة: آية ٢٦٤.

(١١٣) الصف: آية ٣.

(١١٤) الأنبياء: آية ٣٧، ولكل ما تقدم ينظر، ابن أبي الحديد، م. ن، ج١٧: ٨٢ - ٨٧.

المصادر:

- ابن الأثير: عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م).
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط١ ودار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت - لبنان/١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).
- الكامل في التاريخ، دار صادر/بيروت - لبنان، (١٣٩٦هـ - ١٩٧٩م).
- الأربلي: أبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م).
- كشف الغمة في معرفة الأئمة، قدم له السيد أحمد الحسني، منشورات الشريف، ط١، (إيران/ ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
- ابن أعثم: أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ/٩٢٩م).
- الفتوح، تح علي شيري، ط١، دار الأضواء (بيروت/لبنان - ١٤١١هـ - ١٩١١م).
- الألوسي: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (ت ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م).
- روح المعاني، دار إحياء التراث العربي (بيروت/١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
- البغوي: أبي محمد الحسين بن مسعود بن فراء البغوي (ت٥١٠هـ/١١١٥م).
- معالم التنزيل في التفسير والتأويل، ط١، دار الفكر، (بيروت/لبنان ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
- البلاذري: أحمد يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢ م).
- أنساب الإشراف، حققه وقدم له د. سهيل زكار، د. رياض زركلي، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت - لبنان/بلا).
- البيضاوي: ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي.

- أنوار التنزيل وإسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، تقديم محمود عبد القادر الأرناؤوط، ط١، دار صادر، (بيروت/١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م).
- بيضون: إبراهيم.
- من دولة عمر إلى دولة عبد الملك بن مروان، ط١، (قم/١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م).
- الجاحظ: أبي عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م).
- البيان والتبيين: تح وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (بيروت ـ بلا).
- جرداق، جورج: علي صوت العدالة الإنسانية، ط١، دار المهدي، (بيروت/١٤٢٣ ـ ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤م).
- ابن حجر: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م).
- فتح الباري شرح صحيح البخاري مع تصحيحاتها، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١، (بيروت/لبنان ـ ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م).
- الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، ضبط وتوثيق أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، دار الكتاب العربي، (بيروت/لبنان)، (١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م).
- الإصابة، راجع نصوصه وضبط إعلامه وخرج حديثه وفهرس أعلامه على حروف المعجم صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت/لبنان ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م).
- لسان الميزان، حقق نصوصه وعلق عليه على نسختين مكتب التحقيق بإشراف محمد عبد الرحمن المرعشي، ط٢، دار أحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي (بيروت ـ لبنان/١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م).
- ابن أبي الحديد: عز الدين أبي حامد عبد الحميد هبة الله الميداني (ت٦٥٦هـ/١٢٥٨م).
- شرح نهج البلاغة: تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار الكتاب العربي، (العراق ـ بغداد/١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م).
- الخطيب البغدادي: أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م).
- تاريخ بغداد، ضبط وتوثيق صدقي جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر، ط١ (بيروت/١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م).
- الخوارزمي، الموفق بن أحمد بن محمد المكي الخوارزمي (ت ٥٦٨هـ/١١٧٢م).
- المناقب، مؤسسة النشر الإسلامي، (قم/١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م).
- الرازي: محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين المشتهر بخطيب الري (ت ٦٠٤هـ/١٢٠٦ م).
- تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفتاح الغيب، قدم له الشيخ محيي الدين الميس، دار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت ـ لبنان/١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م).
- الزبيدي: عبد الرضا.
- الرسائل السياسية بين الإمام علي (عليه السلام) ومعاوية، ط١، دار الكتاب الإسلامي، إيران، (١٣٧٩هـ/١٩٥٩م).
- الزركلي: خير الدين.
- الأعلام، ط١٧، دار العلم للملايين، (بيروت/١٤٢٧ هـ ـ آب ٢٠٠٧م).
- الزمخشري: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ/١١٤٣م).
- مناقب، مؤسسة النشر الإسلامي، (قم/١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م).
- الكشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل وضبط وتوثيق أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، دار الكتاب العربي، (بيروت ـ لبنان/١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م).

- خصائص العشرة الكرام البررة، حققه وعلقت حواشيه وقدمت له بهيجة باقر الحسني، دار الجمهورية، (بغداد/١٣٨٨هـ - ١٩٦٨ م).
- ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م).
- الطبقات الكبرى، دار صادر، (بيروت/١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م).
- أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (٩٨٢هـ/١٥٧٤م).
- تفسير أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، (بيروت/بلا).
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت ٩١١هـ/١٥٠٥م).
- لباب النقول في أسباب النزول، ط٣، دار إحياء العلوم، (بيروت/١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- تاريخ الخلفاء، راجعه وعلق عليه جمال محمود مصطفى، ط٢، دار الفجر للتراث (القاهرة/١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م).
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، (مصر ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨ م).
- ابن شهر آشوب، أبو جعفر محمد بن علي السروي المازندراني (٥٨٨هـ/١١٩٣ م).
- مناقب آل أبي طالب، تحقيق وفهرسه د.يوسف البقاعي، ط٢، (إيران، قم/١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م)، الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (١٢٥٠هـ/١٨٣٤م).
- فتح القدير، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - بلا).
- صفي الدين: محمد
- طريق النجاة في معرفة النبي وأهل بيته (ع) منشورات مسجد الإمام الحسن (بلاط).
- الطبري: أبي جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م).
- تاريخ الأمم والملوك، منشورات محمد بيضون، ط١، دار الكتب العلمية (بيروت/لبنان - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
- تفسير الطبري، أو جامع البيان عن تأويل آي القرآن، هذبه صلاح عبد الفتاح الخالدي، خرج أحاديثه إبراهيم محمد العلي، ط١، (دار القلم/دمشق، الدار الشامية/بيروت)، (١٤١٨هـ - ١٩٩١م).
- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م).
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر. (بيروت/ لبنان/بلا).
- الأنباه على قبائل الرواة، حققه وقدم له إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي و(بيروت - لبنان/بلا).
- ابن عبد الحكم: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري (ت٢١٤هـ/٨٢٩م).
- فتوح مصر وأخبارها، (ليدن - باريس/١٣٤٠هـ - ١٩٢٠م).
- علي بن أبي طالب (ع).
- نهج البلاغة، حققه وضبط نصه السيد جعفر الحسيني، ط١، (قم/١٢ رجب ١٤١٩هـ/١٩٩٢م).
- ابن عساكر، تقي الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧٩هـ/١١٨٣م).
- تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).
- العلي: كفاية طارش.
- الأسر الأموية التي لم تتول الخلافة/دراسة في أحوالها الاجتماعية والإدارية والسياسية والفكرية/٤١ - ٦٥٦هـ. ط١، دكتوراه، (البصرة/١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م).
- أسر مشكوك بصحة نسبتها لبني أمية، بحث منشور، مجلة الدراسات التاريخية، العدد الثاني، (أيار/ ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦م).

- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م).
- المعارف ومنشورات محمد علي بيضون، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت ـ لبنان/١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).
- القرطبي: أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م).
- تفسير القرطبي أو الجامع لأحكام القرآن، ضبط مراجعه على الأصول صدقي جميل العطار، خرج أحاديثه الشيخ عرفان العشا، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت ـ لبنان/١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٣م).
- ابن كثير: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).
- البداية والنهاية، تح أحمد عبد الوهاب فتيح، ط٦، دار الحديث (القاهرة/١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م).
- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف(ت ٣٥٣هـ ـ ٩٦٤م).
- ولاة مصر، تح حسين نصار، دار صادر (بيروت/بلا).
- الولاة والقضاة، تح محمد حسن محمد حسن إسماعيل. أحمد فريد المزيدي، منشورات محمد علي بيضون، ط١، دار الكتب العلمية، (بيروت ـ لبنان/١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣م).
- ابن ماجه، أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م).
- سنن ابن ماجه، ط١، دار إحياء التراث العربي، (بيروت ـ لبنان/١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م).
- المجلسي، محمد باقر.
- بحار الأنوار، ط١، دار التعارف للمطبوعات، (بيروت ـ لبنان/١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م).
- مغنية، محمد جواد.
- موسوعة الإمام علي (عليه السلام)، ط١، مؤسسة دار المجتبى، (إيران/١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م).
- الشيعة والحاكمون، ط٥، العراق، (النجف الأشرف/١٣٩٨هـ ـ ١٩٨١م).
- الملاح، هاشم يحيى.
- الوسيط في السيره النبوية والخلافة الراشدة، (العراق/بلا).
- الموسوي، إسلام.
- الإمام علي سيرة وتاريخ، سلسلة المعارف الإسلامية، مركز الرسالة، (إيران ـ قم/١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م).
- الميلاني، علي الحسني.
- الدليل العقلي على إمامة علي (ع)، مكتبة الإمام الشيرازي العالمية، مركز الإيمان العقائدية، (بيروت/لبنان ـ بلا).
- النسفي، أبو البركات عبد الله ابن أحمد ابن محمود النسفي (ت ٧٠١هـ/١٣٠٠م).
- تفسير النسفي، دار الفكر للطباعة والنشر، (بيروت/لبنان _بلا).
- أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصفهاني، (ت ٤٣٠هـ/١٠٣٩م).
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الخانجي القاهرة، دار الفكر للطباعة والنشر، (لبنان/١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).
- ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي(٦٢٦هـ ـ ١٢٢٨م).
- معجم البلدان، ط٥، (دار صادر ـ بيروت/١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٧م).
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف بابن واضح الأخباري (ت ٢٨٤هـ/٨٩٧ م).
- تاريخ اليعقوبي، ط١، (إيران/١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤ م).
- اليوزبكي، توفيق سلطان.
- دراسات في تاريخ النظم العربية الإسلامية، ط٣، (العراق_الموصل/١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨م). ❖

تلازم المنطق والجمال في خطبة الجهاد للإمام علي (ع)

قراءة معاصرة

أ. د. حامد ناصر الظالمي
جامعة البصرة

الخطبة:

(أما بعدُ: فإنّ الجهادَ بابٌ من أبواب الجنّة، فتحهُ اللّهُ لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرعُ اللّه الحصينة، وجُنَّته الوثيقة فمَنْ تركهُ رغبةً عنه ألبسهُ اللّهُ ثوبَ الذُلّ، وَشَمِلهُ البلاءُ، ودُيّث بالصغار والقماءة، وضُرِبَ على قلبه بالأسداد، وأُديل الحقَّ منه بتضييع الجهاد، وسِيمَ الخَسف ومُنِعَ النَّصَف.

ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسِرّاً وإعلاناً وقُلتُ لكم. أغزوهم قبل أن يغزوكم، فواللّه ما غُزي قومٌ قطّ في عقر دارهم إلاّ ذلوا، فتواكَلتم وتخاذلتم حتى شُنَّت الغاراتُ عليكم، ومُلكت عليكم الأوطان.

وهذا أخو غامد قد وردت خيلهُ الأنبار، وقد قَتَلَ حسان بن حسان البكري، وأزالَ خيلكم عن مسالحها، وقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخلُ على المرأة المسلمة والأخرى المُعاهدة، فينتزع حِجلها وقُلبها وقلائدها ورُعُثها، ما تمتنع عنه إلاّ بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نالَ رجلاً منهم كلمٌ، ولا أُريق لهم دم، فلو أنَّ امرئاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً.

فيا عجباً ـ واللّه ـ يُميت القلبَ ويجلب الهمّ، اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم! فقبحاً لكم وتَرحاً، حين صرتم غرضاً يُرمى: يُغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزَونَ ولا تَغزون، ويُعصى اللّهُ وترضون.

فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم: هذه حَمّارة القيظ، أمهلنا يسبِّخ عنّا الحرّ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صَبَّارة القرّ، أمهلنا ينسلخ عنا البرد: كلّ هذا فراراً من الحرّ والقرّ. فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تفِرّون؟ فأنتم واللّه من السيف أفرّ!

يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال، لوددتُ أني لم أركم ولم أعرفكم! معرفةً ـ واللّه ـ جَرَّت ندماً، وأعقبت سدماً، قاتلكم اللّه! لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرّعتموني نُغَب التهمام أنفاساً، وأفسدتم

عليّ رأيي بالعِصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش: إنّ ابن أبي طالب رجلٌ شجاعٌ، ولكن لا عِلمَ لهُ بالحرب.

اللّه أبوهم! وهل أحد منهم أشدّ لها مراساً، وأقدم فيهاً مقاماً مني! لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين، وهاأنذا قد ذرفتُ على الستين! ولكن لا رأيَ لمَنْ لا يُطاع)[1].

جاءت هذه الخطبة المسمّاة بـ(خطبة الجهاد) للإمام علي (ع) بعد حادثة مقتل حسان بن حسان البكري في الأنبار على يد سفيان الغامدي أحد أتباع معاوية، إذ ذكره الإمام بقوله (وهذا أخو غامد وقد وردت خيلهُ الأنبار)، والأنبار هي بلدة عراقية مجاورة لحدود الشام وفي أقصى غرب العراق، وأن الإمام علي (ع) قد انسحب من معركة صِفين بعد أن كاد يُنهي المعركة لصالحه، لولا خدعة رفع المصاحف، وصِفين كما يقول ياقوت الحموي: (بكسرتين وتشديد الفاء... وهو موضع الرقّة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقّة وبالس، وكانت وقعة صِفّين بين علي (رض) ومعاوية في سنة ٣٧هـ في غرّة صفر وقُتِلَ في الحرب بينهم سبعون ألفاً منهم من أصحاب علي خمسة وعشرون ألفاً ومن أصحاب معاوية خمسة وأربعون ألفاً، وقُتِلَ مع علي خمسة وعشرون صحابياً بدرياً، وكانت مدة المقام بصِفّين مائة يوم وعشرة أيام، وكانت الوقائع تسعين وقعة)[2].

إذا في الرقّة أو في القرب منها كانت المعركة عام ٣٧هـ، وهي بعد ١٤٠٠ سنة، أي (الرقّة)، عاصمة (داعش) الآن، وتذكّرنا لفظة (غامد) ذات الحروف الأربعة بلفظة (داعش)، وهما كذلك على وزن (فاعل)، وتذكرنا غارة سفيان (أخو غامد) على الأنبار ومقتل حسان البكري بالاتجاه نفسه الذي قَدِمت منه داعش من الرقّة وحتى حدود العراق مع الشام. وتذكرنا حادثة تعرّض سفيان الغامدي بما يجري الآن. فهل كان الإمام علي (ع) يوجس في نفسه خيفة من تلك الحدود من (صِفّين) سابقاً و(الرقّة) حالياً ومن (غامد) سابقاً و(داعش) حالياً..؟ وهل توقّع أن الهجوم سيكون من تلك المناطق على ولايته.؟ وهو الأمر الذي كان يحذّر منه مراراً وتكراراً؟، ولكن لا رأيَ لمن لا يُطاع كما يقول!. وهل تلك الغارات هي التي أضعفت حكومته مروراً بتخاذل جيشه المُريب أمام (غامد + داعش) حتى وصل حالة مَنْ يتجرّع قلبه قيحاً؟.

وهذه الخطبة هي من أواخر خطبه (عليه السلام)، فهي كخطبة الوداع.

هل كان الإمام يَتَخيَّل أنه سيحدث لعراق المستقبل ما حدث في الأمس، وأن جهة الخطر واحدة..؟ هل هو علمٌ بالغيب، أم خبرة قائد وحكيم دخل الحرب ولم يبلغ العشرين، فطاول فيها أكثر من أربعين سنة؟

هذه الخطبة عَنوَنَها الرضيّ بـ(خطبة الجهاد)؛ لأن الإمام علي (ع) لم يطلق أيّ اسم على خطبه، وهي من خطب الحرب وهي موجَزَة، وإيجازها هنا يأتي لمقتضى الحال، فمقام الحرب يقتضي ذلك. وهي لم تبدأ بالبسملة والحمد لله والصلاة على النبي (ص)؛ لأن المقام لا يحتمل

الإطالة، فضلاً عن كونها خطبة توبيخ وتقريع، فلا تحتاج إلى البدء بالسلام كما لم تبدأ سورة البراءة بالبسملة: فالمقام يتطلب الشدة والإنذار. ومن الطبيعي أن نتوقع أن جمهور الخطبة متجانس ومن فئة واحدة، وهم مقاتلون في ساحة المعركة لا نساءَ ولا أطفال معهم وهم بأعمار متقاربة.

نستطيع تقسيم بنية الخطبة إلى ثلاثة أقسام:

١. مقدمة، (وهي من بداية كلامه (ع) وحتى قوله (ومُنَع النَّصف).
٢. العرض، (ويبدأ من قوله (ألا وإني...) حتى قوله (فأنتم والله من السيف أفرّ...)، وفي هذا القسم يبرز الحجاج والتفنيد.
٣. الخاتمة، وتبدأ من قوله (يا أشباه الرجال...) وحتى نهاية الخطبة وتنتهي بالاستنتاج (لا رأي لمَنْ لا يُطاع).

يبدأ الإمام (ع) خطبته بجعله الجهاد باباً من أبواب الجنة، وهذا الإخبار هو تأكيد منه (ع) فهو لم يَقل (كأنه باب) أو هو (مثل باب) بل هو أحد الأبواب ليقينه بذلك، ولكونه باباً، فقد فتحه الله لخاصّة أوليائه، إذا هو مدخل من مداخل الجنة، بل هو (لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجُنّته الوثيقة) فهو (اللباس، والدرع، والجُنَّة) يحمي صاحبه فيتدرّع به من شرَّ أعدائه.

وقوله (باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه) يتناص مع قوله تعالى ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ﴾[٣]، فالتفضيل في الآية تخصيص، أي جعلهم من خاصة الأولياء. أما قوله (ولباس التقوى) فهو يتناص مع قوله تعالى ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾[٤]. وقوله (وجُنَّته الوثيقة) يتناص مع قوله تعالى ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[٥].

إذا للجهاد ميّزات ثلاث هي:

١. هو لباس (التقوى).
٢. هو درع (الله).
٣. هو جُنَّة (الله).

هذه الجمل القصيرة المتتالية في الإخبار، وتناصّها مع القرآن الكريم كانت خير مقدمة للخطبة، فكأنه قد بدأ الخطبة بآياتٍ من القرآن الكريم، ولكنها كانت بلغته وأسلوبه، فبداية الخطبة أفادت من تناصها مع القرآن الكريم لتثبيت هذا المبدأ وهو أهمية الجهاد. وهذا يدلّ على تشبّع الروح العلوية بالنصّ القرآني واستحضاره في كلّ لحظة.

وفي المقابل فإنّ مَنْ يترك الجهاد ينزع الله عنه (اللباس، والدرع والجُنَّة) فيتركه بـ(ثوب الذلّ ويشمله البلاء ويُداث بالصَّغار والقماءة ويضرب على قلبه بالأسداد...) إذ يسقط عنه كل ما يحتمي به المجاهد، فيكون عِرضةً أو (غرضاً) لتلك الأحداث والمصائب فقد سُلبت منه

أدوات المناعة والحماية الخارجية، وكذلك ضعفت مناعته الداخلية فقد تحجّر عقله وقلبه، إذ جُعل على قلبه أسداداً. وعقله مُنع النَّصَف والحكمة والبصيرة، فالأسداد هي المغاليق الخاتمة على القلب، ويذكّرنا ذلك بقوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[٦].

وهكذا، فترك هذا الغرض يجعل صاحبه مكشوفاً لأعدائه دون أية ممانعة تقيه تلك الشرور، بل وتجعل قلبه مختوماً بالعصيان، وعقله فاقداً للبصيرة وتغلفه طبقات الأدران والأسداد، ولم يقل هنا أغلق قلبه بالأسداد بل (ضُرب) على قلبه، فاللفظة تشير كذلك إلى القسوة بالضرب أي بضرب القلب.

هذه بداية المقابلات الفكرية والفنية في كلامه (ع) وتمييزه بين الحالين (المجاهد) و(تارك الجهاد). وتستمر تلك المقابلات الجميلة، ويأخذ التشبيه التمثيلي دوره هنا، فالمقام يقتضي ذلك لأنه مقام (حرب)، فهو يحتاج للتجسيم والتشخيص لإدراك الصورة وتقريب المعنى وإقامة الحجّة على أتباعه.

وهنا نجد بُعداً تقابلياً آخر، فهو عند وصفه الجهاد كانت جمله اسميّة تدلّ على الثبوت والوضوح، فهي إخبار لا تبدّل فيها ولا تغيّر:

١. إنّ الجهاد بابٌ من أبواب الجنة.
٢. هو لباس التقوى.
٣. هو درع الله الحصينة.
٤. هو جُنّته الوثيقة.

هذه الجمل الاسمية الأربع تأتي بعدها مجموعة من الجمل الفعلية ذات الطبيعة المُتغيِّرة والمتحرِّكة وعددها أكثر لأنها تصف مصائب عديدة ستقع لتارك الجهاد، فمَنْ تركه:

١. ألبسه الله ثوبَ الذل (لبس).
٢. شَمله البلاء (شمل).
٣. دُيِّثَ بالصفار والقماءة (دُيِّث).
٤. ضُرب على قلبه بالأسداد (ضرب).
٥. أُديل الحقَّ منه (أُديل).
٦. سِيمَ الخَسف (سام).
٧. ومُنِعَ النَّصَف (مَنَع).

وهكذا تكثر الأفعال هنا والحوادث بمجرد الترك، وأن الفاعل في بعضها مجهول، فقد تأتيه المصائب من أية جهة كانت إذ لم تُحدد جهة الفاعل فهي مجهولة فهي مصائب عديدة تأتي من فاعلين عديدين مجهولين لم يتوقعهم هذا التارك. ولكن المجاهد يَفتح (الله) له باباً من أبواب الجنة وهو يجاهد في الأرض والله يفتح له الباب في السماء، وفاتحُ الباب هو

(الله) عزّ وجلّ ولم يقُل (يُفتَح له باب من أبواب الجنة) بل أسند الفتح لله عزّ وجلّ، وما أجمل الشيء أن يأتي بأمره تعالى ومباشرته.

جاء وصف الجهاد والإخبار عنه بالجمل الاسمية الثابتة، وبالتشبيه البليغ الذي حُذفت أداته ووجه الشبه فأصبح كالمؤكد اللازم. أما ما يقابل ذلك فقد بدأه الإمام (ع) بالشرط عند قوله (فمَن تركه...) وكان جوابه هنا دون أدوات تفيد التراخي أو التريث أو الانتظار أو الاستقبال بل جاءت كالآتي:

فمَن تركه...
ألبسه الله ثوب الذل
وشَمِله البلاء
ودُيِّث بالصغار والقماءة
وضُرِبَ على قلبه بالأسداد
وأُديل الحق منه بتضييع الجهاد
وسِيم الخَسف
ومُنِعَ النَّصَف

تأتي هذه الأفعال جواباً على التارك ودفعةً واحدة دون تريث بل جميعها ومتعاقبة بعد فعل الترك مباشرةً. وهذا يدلّ على تسارع الأحداث والوقائع دون فاصل زمني أو مكاني ودون أولويات بل جميعاً فهي نتيجة لمسبب واحد هو الترك.

ونلحظ صورة صوتية معبرة في قوله (تضييع) فهذه الياء المكررة المتتالية تُشير إلى الميوعة والتشتت والتسرّب وهو فعل يناسب حالة تارك الجهاد، فهو يعيش حالة (ضياع، ميوعة، تشتت، تسرّب) إذ يختلف الأمر لو قال (عليه السلام) (أضاع الجهاد) فتوالي الياء أعطى صورة صوتية معبرة لهذا المشهد.

وكذلك الحال في وصف الجهاد، فالكلمة تختلف في قوتها ما بين مطلع الفقرة والخاتمة، ففي المطلع نجد مهابة للجهاد فهو (باب من أبواب الجنة...) ولكن في تركه تأتي عبارة توحي بذهاب تلك المهابة وهي قوله (تضييع الجهاد). فكأن الجهاد إنْ تلتزم به يرتفع شأنه وشأن المجاهد، وإنْ فرّط به تاركه فهو (تمييع) له وتقليل لشأنه. وهكذا فقد كان الإمام (ع) في هذه المقدمة واعظاً ومُرغّباً وناصحاً. وهو أمرٌ لابد منه في هذه المقدمة.

وعندما نستعرض القسم الثاني من الخطبة والذي يبدأ كما قلنا من قوله (ألا وإني قد دعوتكم...) نجد فكرة التقابل مستمرة هنا بوجود الطباق والتوازي، إذ يقول:

ليلاً نهاراً
سراً إعلاناً
أغزوهم يغزوهم

فهنا الطباق واضح بين (ليل، نهار)، (سراً، إعلاناً) والتوافق بين (ليل، سر) (نهار، إعلان)، فقد قدّم الليل على النهار والسر على الإعلان محاولةً منه في إلقاء الحجّة، وهو يشعرنا بالإلحاح في هذا الموضوع لا انقطاع في ذلك.

وهنا تقابل آخر.

(ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً)

مع (حتى شُنَّت عليكم الغارات ومُلكت عليكم الأوطان)

ونستطيع جدولتها كالآتي:

ليلاً وسراً ← شُنّت عليكم الغارات

نهاراً وإعلاناً ← مُلكت عليكم الأوطان

فكأنما الغارات شُنّت عليكم ليلاً وسراً حتى أصبحتم نهاراً، فإذا أوطانكم تملكها الأعداء. لقد شُنت عليكم الغارات وأنتم لا تشعرون فأصبحتم مُلكاً لغيركم، فالحدث هنا مترابط (فشُنت) جاءت بعدها (ومُلكت) المعطوفة عليها والمباشرة بعدها وهذا يعني أن لا يوجد دفاع، فقد توالا الفعلان وتعاقبا دون فاصل زمني أو تراخي، فمجرد أن شُنت الغارات مُلكت الأوطان فلم يقل (ثم مُلكت الأوطان)، وهذا ما يشير إلى سرعة الدخول وسقوط المناطق دون مقاومة بل الأمر كان سريعاً وخاطفاً.

وفي الجملة التالية حاجج الإمام علي (ع) تاركي الجهاد فقال (قلتُ: لكم أغزوهم... فتواكلتم وتخاذلتم) فالأمر مقصود إذ أكّدَ التواكل بالتخاذل بعد فاء الاستئناف والتخاذل جاء معطوفاً ومشتركاً مع التواكل، وهذا هو التعمّد بعينه في تخاذل هؤلاء القوم الذين تركوا مواقعهم للعدو دون أية مقاومة تُذكر مما أدّى إلى سقوط تلك المناطق بيد العدو بسرعة خاطفة نتيجة هذا التواكل والتخاذل.

وبعد ذلك يقول (هذا أخو غامد = داعش قد وردت خيله الأنبار... وقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المُعاهِدة، فينتزع حِجلها وقُلبها وقلائدها ورُعثها...) ولعل كلمة المُعاهِدة تشير إلى المرأة غير المسلمة من (المسيحيات والإيزيديات...) في عصرنا. والواو هنا للجمع، فالمسلمة والمُعاهدة هما نساء أنّى كان الانتماء فهنّ عند علي (ع) متساويات في حقوقهن عليه وقد سُلبنَ مع المسلمات وقد استقرّ (أخو غامد = داعش) فترة من الزمن لأنه بعد شن الغارة واحتلال الوطن جرى السلب والنهب، فقال الإمام علي (ع) (ثم انصرفوا.. فثمّ تفيد التراخي والتريث والتأخر...

ويأتي التقابل مرةً أخرى في قوله:

يميت القلب

ويجلب الهم

فهي مقابلة ما بين الموت وهو الانقطاع وما بين الجلب وهو الاستمرار والتواصل، فعلى الرغم من انقطاع القلب عن الحياة إلا أن الهم مستمر. ونجد تقابلاً آخر في قوله:

١. اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ← تفرقكم عن حقكم
٢. يُغار عليكم ← لا تغيرون
٣. تُغزَون ← لا تغزون
٤. يُعصى الله ← ترضون

فالجملة الأولى إسمية وهي تشير إلى الثبوت والتأكيد وإن كان أولئك على باطل ويقابلها قوله (تفرّقكم عن حقكم) فهو لم يقل (تركّكم حقكم) بل أراد أن يصور الأمر وكأنه هروب عن الحق. فالحق هنا كشخصٍ تفرَّقت وهربت عنه الجماعة وتفككت وهو عكس الأول، فالباطل كأنما شخص تَجمَّع عليه أصحابه. فهو لم يرد ترك الحق فقط بل الهروب منه والابتعاد عنه وكأنه شخص مجذوم تهرب منه الناس.

أما الجمل الست الأخرى التي تبدأ بالفعل المبني للمجهول في الثلاث الأولى والمضارع في الثلاث الأخرى إذ يقول:

١. يُغار.
٢. تُغزَون.
٣. يُعصى.

فكأنما الفاعل غير معروف وغير محدد ومختلف عليه ولا تعرف جهته ورغم ذلك فأنتم:

١. لا تغيرون.
٢. لا تغزون.
٣. ترضون.

الفعل ترضون جاء في آخر كلامه يُشير إلى احتمالين:

١. يُعصى الله وأنتم ترضون.
٢. أنتم ترضون على كل ما جرى من أفعال سابقة أي (اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم، وأن يُغار عليكم، وأن تُغزَون وأن يُعصى الله...). والفعل هنا بمبادرة من العدو، فالإغارة والغزو والعصيان هو مَنْ يفعلها أولاً وأنتم لا إرادة لكم، وهذه الأفعال جاءت مضارعة وسريعة فهي غارة وغزوة وعصيان جمعها حرف العطف مما يشير إلى سرعة تواتر الأحداث وأنتم لا فعلَ لكم.

بعد ذلك يتألم الإمام إذ يقول (فقبحاً لكم وترحاً) ففي هاتين الكلمتين من المرارة ما فيهما، فصوت الحاء دليل هنا على بُحة صوته (عليه السلام) من النداء والطلب والأمر لقومه،

لقد بُحَّ صوته دون جواب، وصوت الحاء هنا يشكل صورة سمعية لحالته (عليه السلام)، وإن عبارة (فقبحاً لكم وترحاً) تأتي مباشرةً بعد (اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم فقبحاً لكم وترحاً) إذ لم يصبر (عليه السلام) لإكمال بقية كلامه فبادر بهذه الجملة التي خرجت منه بهذه الجملة الاستئنافية المبدوءة بالفاء وبسرعة، تقريعاً لتاركي الجهاد، فقد أصبحوا (غرضاً يُرمى) والغرض هنا تقريع جديد لهم، فهو لم يقل صرتم جيشاً يُرمى أو جُنداً بل غرض أي هدف يُرمى دون أي رد منه، فهم أجساد خاوية ليس لها (لباس تقوى ولا درع وجُنّة) وعلى قلبهم (أسداد) فأصبحوا أشباه رجال لهم شكل الرجال فقط من الخارج بل وأصبحوا غرضاً يُرمى والغرض هو الشاخص الذي يُضرب بالسهام عند التعلّم، وهو ما يُوضع في المزارع على شكل إنسان لإخافة الطير، فقد مُسِخوا بعد تركهم الجهاد فأصبحوا يتلقون الضربات من جميع الجهات إذ لم يُحدد الرامي. بل قال (يُرمى) فهم أشباه رجال وهم لا واقٍ يقيهم، وهم كالغرض، وهم ممسوخون: لذلك جاء فعل التحول والصيرورة (فصرتم غرضاً يُرمى)، وهذا التحول من الرجولة إلى هذا الشيء المسخ جاء بسبب ترك الجهاد مما أدّى إلى نزع (اللباس والدرع والجُنّة) عنهم فصاروا غرضاً يُرمى. فما كان يسترهم من ربّ العزّة قد سقط عنهم، فلباس التقوى تبدّل إلى لباس الذلّ ودرع الله تبدل والجُنّة كذلك. فخرجوا من حمايته عزّ وجلّ فصاروا غرضاً لكل مَنْ هَبَّ ودَبّ وأصبحوا أشباه رجال ولا رجال، والنفي هنا لجنس الرجال تماماً فهم قد ضُربت قلوبهم بالأسداد فلا روح لها فهم على شكل رجال فقط لا روح لهم.

ويستمر الإمام علي (ع) بفن المقابلة الرائع في قوله:

أيام الحر	الشتاء
حمّارة القيظ	حبّارة القرّ
يسبِّخ عنا الحر	ينسلخ عنا البرد
الحر	القرّ

فهذه المقابلات قد ولّدت توازناً جميلاً في هذا المقطع، بل ويتبيّن أنّ هذا الأمر كثيراً ما يحدث بين الإمام (ع) وبينهم، فتجد صوت الراء وصورته السمعية قد أَضفَتْ جواً من التكرار لهذه المجادلة الفصلية ما بين الحر والبرد، ولعل في ختمه لهذه الفقرة بقوله (كل هذا فرار من الحر والقر فأنتم والله من السيف أفرّ...) نجده قد أفاد من صوت الراء كصورة سمعية لكثرة فرارهم، فهم يفرّون من الحر ويفرّون من القر ومن السيف. وهنا استعار الإمام (ع) إحدى لوازم الجيش فجعل الحر والقر كأنما جيشٌ يَفرّون منه، فهي النتيجة التي وصلوا إليها إنهم فرّوا من الحر والقر والسيف لأنهم أشباه رجال لذلك فلا عزيمة لهم. وهم من الإشاعة وظروف الحرب أكثر فراراً لا سيما عندما تعرض لهم (أخو غامد = داعش).

وحسب تقسيمنا تأتي الخاتمة. كما قلنا وتبدأ بقوله (يا أشباه الرجال...) لكونها - (أي الخاتمة - هي نتيجة لما سبق أن دعا علي (ع) على تاركي الجهاد بقوله (قاتلكم الله)، فهذه الكلمة تعبر عن غضبه الشديد وعن نفوره منهم تماماً، بل هي دعوة إمام الحق (عليه السلام) وهو معصوم حتى قال (لقد ملأتم قلبي قيحاً) فالقاف صوت يوحي بالقيء والخُرّاج، فهو ينزف القيح، لأنهم لم يبقوا مكاناً في قلبه لغير هذا المرض. ومن المعروف أن القلب عضلة قوية دائمة الحركة لا يتولّد فيها القيح ولكن كلام الإمام (ع) هو للمبالغة لما صار عليه حاله، إذ استعار للقلب صفة الوعاء الذي خُتِمَ بالقيح، وجعل من صدره وعاءً شحنوه بالغيظ وصوت الغين مقارب للقاف في المخرج. إذ يوحي بالقرف والاشمئزاز والقيء والحنق والسخط فتوالت الأصوات (الحاء والقاف والغين) هنا لتكون صورة سمعية عن حالته (عليه السلام). وتكرار الراء في (جرَّعتموني نُغب التهمام) يُفيد هنا تكرار الحالة مع قساوة المشهد، وسُقم الشراب. والنغب هو ابتلاع الريق وهو الجرعة[٧]، أما التجرّع هو بلع الماء كُرهاً[٨]، فالنغب هو التَجرُّع المادي والتَجرّع هو معنوي للهموم، إذ كان التَجرُّع هماً ونُغباً.

ولزيادة المبالغة أفاد (عليه السلام) من أفعل التفضيل عند كلامه عن مراسه للحرب إذ قال (وهل أحد منهم أشدُّ لها مراساً، وأقدم فيها مقاماً مني) نجد قد أكد الكلام بـ(أشدّ، أقدم) والتمييز هنا مراساً ومقاماً، مما يدل على يقينه بتفوقه وشجاعته.

هذا الترابط المنطقي بين أجزاء الخطبة قد جعلها نصاً واحداً ونسيجاً يكمل بعضه بعضاً، فالجهاد (درع الله الحصينة... فمَنْ تركه... كان من السيف أفرّ) إذ بدأ الكلام بالدرع التي تحمي الإنسان في الحرب وإن خلع الدرع يؤدي إلى الفرار من السيف، فهذا التعالق الجميل ما بين بداية الخطبة ونهايتها جعلها ذات وحدة موضوعية وفنية رائعة وذات نسيج متكامل خلافاً للقصيدة العربية التي فقدت وحدتها الموضوعية والفنية والترابطية إذ كانت مجموعة نصوص مفككة ذات موضوعات متعددة.

وعلى الرغم من صغر هذه الخطبة، فقد توافرت على مجموعة من الأساليب اللغوية والبلاغية من (قسم، وتعجب، ونداء، وشرط، واستفهام، وتفضيل وأمر، وجناس، وطباق، وسجع). بل وتضمّنت معاني (لآيات قرآنية، وحِكَم، فضلاً عن صور سمعية صوتية وبلاغية من تشبيه واستعارة، وتوازن في الكلام ومقابلة، فكل ذلك قد جعل هذه الخطبة قطعة لغوية حجاجية عالية الدقة. ومعبرة عن حالته وألمه القديم في قلبه الذي بدأ يتداعى ويخرج بألفاظ وشقشقات. لذلك نجده لاسيما في أواخر حياته (عليه السلام) تزداد عنده الخطب المعبّرة عن خيبة أمله وكثيراً ما كان يردد هذا الكلام أو قريباً منه. ففي خطبة له بعد غزوة النعمان بن بشير الأنصاري (من أتباع معاوية) لبلدة عين التمر قال الإمام (ع) (مُنيتُ بمَنْ لا يُطيع إذا

أَمرتُ، ولا يُجيبُ إذا دَعَوتُ، لا أبا لكُم ما تنتظرونَ بنصرِكم ربَّكُم؟ أما دينٌ يجمعكُم، ولا حميّة تَحمِشكُم! أقومُ فيكم مُستصرخاً، وأُناديكُم مُتغوّثاً، فلا تَسمعون لي قولاً، ولا تُطيعون لي أمراً، حتى تكشَّفَ الأمور عن عواقب المساءة، فما يُدرَكُ بكم ثارٌ، ولا يُبلَغُ بكم مرامٌ، دَعوتكُم إلى نصر إخوانكم، فجَرجَرتُم جَرجَرة الجَمَل الأَسَرّ، وتثاقلتم تثاقُل النّضوِ الأدبر، ثُمَّ خَرَجَ إليّ منكُم جُنيدٌ، مُتذائِبٌ ضعيفٌ، كأنما يُساقون إلى الموتِ وهم يَنظُرون)[٩].

ويتكرر المشهد بعد غارة الضحاك بن قيس صاحب معاوية على بعض المناطق إذ يقول الإمام (ع):

(أيّها الناس المُجتمعةُ أبدانهُم، المُختلِفةُ أهواؤهُم، كلامُكم يُوهي الصُمَّ الصِلابَ، وفِعلُكم يُطمعُ فيكم الأعداء تقولون في المجالس كيت وكيت، فإذا جاء القتال قُلتُم حِيدي حياد....)[١٠]. وهذه الخطبة طويلة. وخطبة له أخرى بعد حرب الخوارج يقول فيها:

(أُفٌ لكم، لقد سَئِمتُ عِتابكُم! أرضيتُم بالحياة الدُنيا من الآخرة عِوضاً؟ وبالذُّلّ من العِزّ خلفاً، إذا دعوتكُم إلى جهادِ عَدوّكم، دارت أَعيُنكم، كأنكم من الموتِ في غَمرَةٍ، ومن الذُّهُولِ في سكرةٍ...)[١١]، والخطبة طويلة كذلك.

الهوامش:

(١) نهج البلاغة، وهو ما اختاره الشريف الرضي، مؤسسة الرافد للمطبوعات، حققه الشيخ قيس بهجت العطار، ط١، ٢٠١٠، ، محقق على أربع نسخ خطية، ص٨٤ ـ ٨٧. خطبة رقم ٢٧.

(٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ١٩٥/٣.

(٣) سورة النساء، الآية ٩٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية ٢٦.

(٥) سورة المجادلة، الآية ١٦. وسورة المنافقون، الآية ٢.

(٦) سورة يس، الآية ٩.

(٧) ينظر لسان العرب، مادة نغب، ٤٤/٦، لابن منظور، تحقيق عبدالله علي الكبير، ط١، دار المعارف، د.ت.

(٨) ينظر لسان العرب، مادة جرع ٦٠/١.

(٩) نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٩، ص٩٠.

(١٠) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٩، ص ٩٠.

(١١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٣٤، ص٩٦ ـ ٩٧.

❖ ❖ ❖

التوجيهات التربوية من بيان حقوق الرعية في حكومة الإمام علي (عليه السلام)

أ. م. د. أحمد علي صكر
د. ضرار خليل حسن
الجامعة العراقية، كلية التربية

المقدمة:

الحمد لله خالق الخلق، والقاضي بالحق، والمثيب على الصدق، ورب كل شيء، وفاصل الأمور، العالم بما يكون، محصل ما في الصدور، لا شيء مثله، العلي العظيم. وصلى الله على عَبْده ورسوله سيد النبيين، وإمام المتقين، مُحَمَّد خاتم المرسلين، وعلى جميع أنبيائه ورسله وملائكته المقربين. وعلى آله وصحبه الطيبين

أما بعد... فإن الله عزّ وجلّ بإقامته الحق بين عباده، جعل الحكم بينهم أرفع الأشياء، وأجلها خطراً، واستخلف الخلفاء في الأرض ليقيموا حكمه، وينصفوا من عباده، ويقوموا بأمره، فقَالَ: عزّ وجلّ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ (ص: ٢٦). فاستخلفه في أرضه لإقامة حكمه، وإتباع سبيله، وحذره إتباع الهوى، والضلالة عَن القصد، وأوعده على ذلك الوعيد الذي قصه عليه. وقَالَ: لنبيه مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (النِّسَاء: ١٠٥). وقال علي بْن أبي طالب (عليه السلام): لو يعلم الناس ما في القضاء ما قضوا في ثمن بعرة! ولكن لا بد للناس من القضاء ولنعلم أن الظلم ظلمات في الآخرة ونزع للبركات في الدنيا وقد حذر النبي الكريم (ص) من دعوة المظلوم: قال "اتقوا دعوة المظلوم فإنها ليست بينها وبين الله حجاب". فإن الظلم عاقبته وخيمة، ولا يصدر إلاَ من النفوس اللئيمة، وآثاره متعدية خطيرة في الدنيا والآخرة: وإذا تفشى الظلم في مجتمع من المجتمعات كان سببا لنزع البركات، وتقليل الخيرات. وانتشار الأمراض والأوجاع والآفات. ولأن من أهم حقوق الرعية على الرعاة دفع الظلم عنهم، وحماية الضعفاء من جور الأقوياء، من ذلك كله عزمت على أن أكشف التوجيهات التربوية من حقوق الرعية التي أمر بها أمير المؤمنين علي (عليه السلام) لتصبح نبراساً يهتدي به عند طلبة العلم واقتضت طبيعة البحث أن يقسم إلى مبحثين بينا في الأول حياة الإمام وآثاره، وفصلنا في الثاني التوجيهات التربوية من خلال مواقف الإمام علي (عليه

السلام) مع الرعية واتبعنا البحث بخاتمة وضحنا فيها أهم النتائج المستخلصة من البحث مع ذكر قائمة المصادر والمراجع والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول
حياته وآثاره (عليه السلام)

إن البحث والاستقصاء عن تفصيلات الحياة الخاصة بالإمام الزاهد الورع الجواد الكريم علي بن أبى طالب (ع)، فهو أمر لا تستوعبه هذه الوريقات لأنه علم من أعلام الإسلام الذي عرف في الخصال الحميدة التي تفرقت في عديد من الآل والأصحاب، وإنما ما يهمنا هنا هو إظهار أسس التوجيهات التربوية في حكومته وإدارته للرعية من خلال أقواله ومناقبه ورسائله إلى الولاة والعمال، ومن ثم فان شخص الخليفة علي (ع) غني عن التعريف، غير أن ذلك لا يمنع من أن نذكر لمحات وإشارات من شخصيته وسيرته ولو باليسير منها. فقد تجلت فيه آثار متميزة في مختلف مجالات وصور الحياة، وهو صاحب المواقف العظيمة في خدمة الإسلام والمسلمين. فقد تربى (ع) في كنف الرسول العظيم (ص) وحظي برعايته واهتمامه منذ سني نشأته الأولى فكان له من الفضائل التي أشار أليها الرسول (ص) إلى الحد الذي ذكره في الحديث الذي يكتب بماء الذهب وهو قوله الشريف (أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي)[1] وقوله (ص) (أنت أخي في الدنيا والآخرة)[2] وغيرها من الأحاديث الشريفة التي تؤكد هذه المنزلة الخاصة بالإمام علي (ع). وهو ذو الشرف الرفيع والمناقب المضيئة في الإسلام.

اسمهُ وكنيته:

فهو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مره بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة القرشي الهاشمي[3] أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية: أول هاشمية ولدت

---

(١) مسلم، صحيح مسام، ج ٤، ص ١٨٧٠.

(٢) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٣٨.

(٣) ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع (ت٢٣٠ هـ/٨٤٥ م)، الطبقات الكبرى، (دار صادر/بيروت، ١٩٨٥)، ج٣، ص٩ ١: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠ هـ/٩٢٣ م)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: إبراهيم أبو الفضل، ط ٤، مطبعة دار المعارف، (القاهرة ١٤٠٠هـ/١٩٦٢م)، ج٧، ص١٥٢: ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت٣٤٩ هـ/٩٣٩ م)، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين، (القاهرة، ١٩٦٧م)، ج٥، ص٥٧ ــ ٥٨: ابن الأثير، علي بن أبي مكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢ م)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: محمد بن إبراهيم ألبنا وآخرون، ط٢، دار الشعب، (لا. م ـ لا. ت)، ج٤، ص٩١.

خليفة. وهي أم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وإخوته. نشأت في الجاهلية بمكة. وتزوجت بأبي طالب (عبد مناف ابن عبد المطلب) وأسلمت بعد وفاته فكان النبي صلى الله عليه وسلم يزورها وهاجرت إلى المدينة المنورة وتوفيت بها[١] وذكر ابن أعثم الكوفي[٢] (أنه قد ولد وأبوه غائب فسمته أمه حيدره ولما عاد أبو طالب سماه علياً)، ومن هنا يسمى الإمام علي حيدر، وحيدر من أسماء الأسد وقد أكد الإمام علي بن أبى طالب (ع) هذا الاسم أثناء لقائه بطل المشركين عمرو بن عبد ود العامري في معركة الخندق عام ٥هـ/٦٢٦ م،

بقوله:

أنا الذي سمتني أمي حيدره كليث غابات كريه المنظره

أكيلكم بالسيف كيل السندره [٣]

مما يشير إلى صحة التسمية. أما كنيته فقد كناه رسول الله (ص)، بأبي تراب[٤]، وكذلك يكنى أبا الريحانتين.

ولد الإمام علي بن أبى طالب (ع) بمكة في يوم الجمعة الثالث عشر من رجب سنة ثلاثين من عام الفيل، وكان مولده في بيت الله الحرام وفي جوف الكعبة ولم يولد قبله مولود في بيت الله الحرام سواه، إكراماً وتعظيماً من الله تعالى له[٥].

---

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت٣٤٦هـ/٩٥٧ م)، التنبيه والأشراف، تحقيق، يوسف أسعد مظفر، دار الأندلس للطباعة والنشر، (بيروت - ١٩٨٤م)، ص٢٩٥: ابن الأثير، أسد الغابة، ج٤، ص٩١٧.

(٢) ابن أعثم، أبو محمد أحمد بن أعثم (ت٣١٤هـ/٩٢٦ م) الفتوح، ط١، تحقيق: محمد عبد المنعم، مطبعة دار المعارف العثمانية، (الهند - ١٩٧٥م)، ج٢، ص١٦: العاملي، أعيان الشيعة، ج١، ص٣٢٤.

(*) السندره: مكيال كبير، ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ/١٣١١ م)، لسان العرب، ط١، تحقيق، صلاح المنجد، دار صادر، (بيروت - لا.ت)، ج٤، ص١٧٤.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٢، ص١١٢: الطبري، تاريخ، ط١، طبعة دار الكتب العلمية، (بيروت ١٤٠٧هـ)، ج٣، ص١٢.

(٤) ابن هشام، محمد بن عبد الملك (ت٢١٨ هـ/٨٣٣ م)، السيرة النبوية، ط٢، تحقيق: مصطفى السقا، مطبعة البابي الحلبي وأولاده، (لا.م - ١٩٥٥م)، ج٢، ص٢٥٠: ابن عنبة، عمدة الطالب، ص٥٩: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١ هـ/١٥٠٥ م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، (القاهرة - لا.ت)، ص١٦٢: العاملي، أعيان الشيعة، ج١، ص ٣٢٥.

(٥) الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٤٠٩: القرشي، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد القرشي، كفاية الطالب في مناقب علي ابن أبي طالب، مخطوط محفوظ في دار المخطوطات العراقية تحت الرقم (٣٨، ١١)، ورقة ٢٨: ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢ م)، البداية والنهاية، ط٢، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، مطبعة دار المعارف، (بيروت - ١٩٧١م)، ج٥، ص ٧: ابن عنبة، جمال الدين بن علي بن الحسين (ت ٨٢٨ هـ/١٤٢٤ م)، عمده الطالب في انساب أبى طالب، ط٢، (النجف - ١٩٨٨م)، ص٥٨ - ٥٩: العاملي، أعيان الشيعة، ج١، ص٣٢٣.

نشأ وتربى في رعاية عمه أبي طالب بعد وفاة والده عبد الله بن عبد المطلب. وكان من نعمة الله على علي بن أبي طالب وما صنع الله له وأراد به من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة قحط شديدة قبل الإسلام وأخذ الرسول (ص) علياً فضمه إليه فلم يزل معه حتى بعث رسول الله (ص) فآمن به[١] وهكذا فقد منّ الله على علي ابن أبي طالب أن ينشأ في كنف رسول الله (ص) منذ نعومة أظفاره، وأن يتربى ويترعرع في بيت الإسلام وبين أحضان الرسول (ص) فأحسن تربيته وعلمه فأحسن تعليمه، ولما نزل الوحي وبعث رسول الله بشيراً ونذيراً للعالمين أخذ علي الإسلام على فطرته، فلم يحصل له تحول من الشرك إلى الإسلام، بل كان إسلامه على الفطرة.

فضائله وآثاره:

نقول كيف لا يتميز وهو من تربى على يدي رسول الله (ص) منذ نعومة أظفاره وصغره إلى أن أصبح شاباً، يستطيع الاعتماد على نفسه.

لقد كان صاحب الدرب والعمر والجهاد بكل ما في المسيرة من صعوبات ومخاطر وبكل ما في الجهاد من إثقال[٢] وكان له من الفضائل مما لا يسعنا إلا ذكر بعضها. فهو من السابقين إلى الإسلام، فهو أول من أسلم بعد خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)[٣] أخفى إسلامه بادئ الأمر، ولأن الرسول (ص) طلب منه كتمان الأمر[٤] وهو أول من صلى مع رسول الله (ص) وروي أن علياً بن أبي طالب (ع) قال: (أنا أول من صلى مع النبي (ص)[٥]. ولما هاجر

---

(١) الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٥٣٨: ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن حمد بن الحسين (ت٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م) شرح نهج البلاغة، مراجعه وتصحيح لجنه أحياء الذخائر، منشورات مكتبه الحياة، (بيروت ـ لا. ت)، ج ٤، ص٢٠٦: شلبي، أحمد، تاريخ الحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة (لا. م ـ ١٩٧٠)، ص٢٨٨.

(٢) كتاني، سليمان، الأمام علي نبراس ومتراس، مطبعة النجف، (النجف ـ ١٩٦٧م)، ص٩١.

(٣) الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٣١٢: ابن الكازروني، الشيخ ظهير الدين علي بن محمد البغدادي (ت٦٩٧هـ/١٢٩٧ م)، مختصر التاريخ من أول الزمان إلى دولة بني العباس، حققه وعلق عليه: مصطفى جواد، وضع فهارسه وأشرف على طبعه: سالم الآلوسي، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، مطبعة الحكومة، (بغداد ـ ١٩٧٠م)، ص٣٨: ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي، (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨ م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، (بيروت لا. ت)، ج ١، ص٥٠.

(٤) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٦٢.

(٥) ابن حنبل، فضائل الصحابة، ج٢، ص٦٠٩.الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٣١٠: ابن الأثير، أسد الغابة، ج٤، ص٩٣: ابن كثير، البداية والنهاية، ج٧، ص٣٣٤.

الرسول (ص) إلى المدينة نام في فراش الرسول (ص)[١]، وهو بذلك يعد أول فدائي في الإسلام ضحى بروحه من أجل سلامة الرسول (ص) وعزة الإسلام، كما أن الرسول أخلفهُ بمكانه ليؤدي الأمانات والودائع التي كانت عند الرسول (ص) إلى أهلها[٢]. كما أنه شهد المشاهد والغزوات كلها مع رسول الله (ص) ألا غزوة تبوك فقد استخلفهُ (ص) على المدينة، فغضب علي ورفض ذلك، فقال: يا نبي الله زعم المنافقون إنك إنما خلفتني إنك استثقلتني وتخففت مني. فقال الرسول (ص): كذبوا ولكني إنما خلفتك لما ورائي فأرجع واخلفني في أهلي وأهلك ثم قال الرسول (ص): (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي)[٣].

وحينما آخى الرسول (ص) بين المهاجرين والأنصار آخى (ص) بينه وبين الإمام علي فقال: (أنت أخي في الدنيا والآخرة)[٤]. وهو بذلك يعد المهاجر الوحيد الذي آخى الرسول (ص).

وفي يوم خيبر سنة ٧ هـ/٦٢٨ م قال الرسول (ص) كلمته المدوية التي تشير إلى منزلة الإمام العظيمة عند الله سبحانه وتعالى: (لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرار ليس بفرار، يفتح الله على يديه)[٥] فأعطاها لعلي بن أبي طالب (عليه السلام). وخلاصة القول:

ذاك علي بْن أبي طالب ذاك الذي دانت له خيبر

دانت وما دانت له عنوة حتى تدهدى عرشها الأكبر

---

(١) الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٣٧٣.

(٢) ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٢٢: الطبري، تاريخ، طبعة بيروت، ج٢، ص٣٨٢: السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص١٦٦: حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط ٧، مكتبة النهضة المصرية، (لا. م - ١٩٦٤ م)، ج١، ص٢٧٢.

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج٣، ص٢٤: مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري أبو الحسين (ت٢٦١ هـ/٨٧٤ م)، صحيح مسلم، ط٢، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت _لا ت)، ج ٤، ص ١٨٧٠: الترمذي، سنن الترمذي، ج٥، ص ٦٤١: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط١، تحقيق: مفيد محمد قميحه، (بيروت - ١٤٠٧ هـ/١٩٨٦م)، ج٢، ص١٣٠: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥، ص٥٨: الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٩، ص١١٠.

(٤) الترمذي، سنن الترمذي، ج٥، ص٦٣٦.

(٥) مسلم، صحيح مسلم، ج٧، ص١٢٠: الترمذي، سنن الترمذي، ج٥، ص ٦٣٨.

المبحث الثاني
التوجيهات التربوية من خلال حقوق الرعية

عندما نكشف حقوق الرعية التي نشرها بين الناس الإمام علي (عليه السلام) تبرز الآثار التربوية لأنه كما أن للإمام حقوقاً على رعيته، فإن للرعية حقوقاً عليه يجب أن يقوم بها خير قيام. وأن يجتهد في تحصيل ما ينفعهم ودفع ما يضرهم في دينهم ودنياهم ويبتعد عن غشهم وخيانتهم.. ولا يتحقق له ذلك إلا بأمور:

الأمر الأول: أن يختار لوظائف الدولة أحسن من يظن فيهم القيام بها، خبرة وأمانة، وقدرة وإخلاصاً وحكمة، ويحض كلاً منهم على اختيار الأصلح فالأصلح للوظائف التي تحت مسؤوليته.

وهكذا يكون الاختيار ابتداءً من أكبر وزير وانتهاءً إلى أصغر موظف في الدولة، حتى يقوم كل منهم بواجبه الذي أسند إليه على أتم وجه وأكمله.

الأمر الثاني: أن يختار لمجالسته أهل التقوى والخشية والعلم والورع والنصح، ليعاونوه على فعل الخير ويحسنوه له، وينصحوه بالابتعاد عن الأمور التي تعود عليه وعلى رعيته بالسوء، ويقبحوا له ذلك حتى يصبح من طبعه فعل النافع واجتناب الضار.

والنتائج المترتبة على اختيار جلساء الخير عظيمة جداً، وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك وحذر من اتخاذ جلساء السوء، وأحرى الناس باختيار الجليس الصالح واجتناب جليس السوء هم ولاة الأمر: لأن خيرهم وشرهم يعمان كل الرعية، ولهذا قرنهم النبي صلى الله عليه وسلم بالأنبياء.

وهذا أمير المؤمنين علي بْن أبي طالب قضى في اللقيط أنه حر، ليجعل له حقوق مع الرعية مستندا إلى قوله تعالى: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ (يوسف: ٢٠).

وعَن ميسرة، عَن شريح قال: مررت مع علي بْن أبي طالب رضي الله عنه في سوق الكوفة وفي يده الدرة وهو يقول: يا معشر التجار خذوا الحق وأعطوا الحق تسلموا لا تمنعوا قليل الربح فتحرموا كثيراً. حتى انتهى إلى قاص يقص ونحن حديثو عهد برَسُوْلِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أما أني أسألك عَن مسألتين إن خرجت منهما، وإلا أوجعتك ضرباً، قال: يا أمير المؤمنين قال: ما ثبات الإيمان وزواله ؟ قال: ثبات الإيمان الورع، وزواله الطمع، قال: قص فمثلك يقص. كان (عليه السلام) يعيش بين الرعية ويتفقد أحوالهم هذه الصور التربوية من نهج الإمام علي (عليه السلام) ليسود الأمن في حكومته والآية في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾ الذي هو القسط، وضد الجور ومعناه: إيصال الحقوق إلى مستحقيها من أفراد الرعايا. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ يريد أن أمره تعالى أمة الإسلام حكاماً ومحكومين بأداء الأمانات والحكم بالعدل هو شيء حسن، وهو كذلك إذ

قوام الحياة الكريمة هو النهوض بأداء الأمانات والحكم بالعدل وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فيه الحث على المأمور به بإيجاد ملكة مراقبة الله تعالى في النفس، فإن من ذكر أن الله تعالى يسمع أقواله ويبصر أعماله استقام في قوله فلم يكذب وفي عمله فلم يفرط. هذا ما دلت عليه الآية، فإن الله تعالى لما أمر ولاة أمور المسلمين بأداء الأمانات التي هي حقوق الرعية، وبالحكم بينهم بالعدل أمر المؤمنين المولي عليهم بطاعته وطاعة رسوله أولاً، ثم بطاعة ولاة الأمور ثانياً، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾، والطاعة لأولي الأمر مُقيد بما كان معروفاً للشرع، أما في غير المعروف فلا طاعة في الاختيار لحديث: "إنما الطاعة في المعروف، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق". هذا أمير المؤمنين علي (عليه السلام) يعمل ويوجه من خلال نصوص القرآن الكريم عَن شريح قال: مررت مع علي بْن أبي طالب على المقابر، فقال: يا أهل المقابر أما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد اقتسمت، وأما الذراري فقد نكحت[1]، هَذَا خبر ما عندنا، هاتوا خبر ما عندكم ثم التفت إلي فقال: لو أذن لهم في الجواب لقالوا: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ (البقرة: ١٩٧).

وأما حقوق الرعية على السلطان: فالأول: حماية بيضة الإسلام. والحق الثاني: حفظ الدين. والثالث: إقامة شعائر الإسلام. والرابع: فصل القضايا والأحكام. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل راع مسؤول عن رعيته). والحق الخامس: إقامة فرض الجهاد بنفسه وبجيوشه أو سراياه وبعوثه. والسادس: إقامة الحدود الشرعية. والسابع: جباية الزكوات. والثامن: النظر في أوقاف البر. والحق التاسع: النظر في قسم الغنائم. والعاشر العدل. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ (النحل: ٩٠). وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

ويفهم من حكم الإمام علي (عليه السلام): "أن عدل الملك حياة الرعية، وهكذا اهتدى الفكر السياسي الإسلامي إلى تنظيم هذه العلاقة الخطيرة الشأن بين الحاكم والمحكوم.. لتقوم العلاقة بينهما على الثقة والانسجام.. وتبتعد عن أي توتر. وتأتي الشورى كتعبير عن حق المشاركة في تسيير الأمور، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقال الحسن: وكان الله غنياً عن مشاورتهم، ولكن أراد أن يستن للأمة[2]، وعنه: ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمورهم[3]، وقيل: من كثرت مشاورته، حمدت إمارته[4]. ولأن

---

(١) مجلة مجمع الفقه الإسلامي - (٢٤٥٣٨/٢)

(٢) تفسير الطبري: ١٠١/٣.

(٣) بهجة المجالس لابن عبد البر: ٤٤٩/١.

(٤) سراج الملوك، ص ١٤٥.

المشورة تطييب لقلوب الرعية وإشعار لهم بحق المواطنة، وتشعرهم بأن البلاد لهم، وليسوا مجرد كائنات تحيا على هذه الأرض. والحكماء يعدون المشورة من أساس المملكة وقواعد السلطنة[١]، وما زالت المشاورة من عادات الأنبياء، حتى إن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام أمر بذبح ولده، ومع ذلك لم يدع مشاورته مع صباه[٢]. وقيل: من طلب الرخصة عند المشورة أخطأ رأيه، أو في المداواة زاد مرضه، أو في الفتيا أثم[٣]. وقيل: أصدق الخبر تصدقك المشورة[٤].

ومن التوجيهات التربوية التي تضمنتها رسائل الخليفة علي بن أبي طالب إلى الولاة والعمال والتي يؤكد فيها على **مسؤولية الولاة في تعاملهم مع الرعية:**

والاهتمام بعمارة الأرض وعد ذلك الأساس في جمع الأموال بقوله (ع) لمالك الأشتر: (وليكن نظرك في عمارة الأرض ابلغ من نظرك في استجلاب الخراج)[٥]. الأمر الذي يدل عن اهتمام الإمام (ع) بالأصل الذي هو الركيزة المعتمدة في تنمية الثروة والأرض أكثر من الاهتمام بجمع الأموال لان الخراج لا يزيد إلا بنماء الأرض وإعمارها ففيه غنى للأرض وزيادة في مقدار الخراج المترتب عليها فكلما كانت الأرض عامرة كلما كان واردها أكثر، وقد ذكر اليعقوبي[٦]. إن الخليفة علي (ع) كتب إلى والية قرظه بن كعب الأنصاري قائلاً: (فإن رجال من أهل الذمة من عملك ذكروا نهرا في أرضهم عفا ودفن وفيه لهم عمارة على المسلمين، فانظر ثم أعمر وأصلح النهر فلعمري لأن يعمروا أحب إلينا من أن يخرجوا أو يقصروا في واجب من صلاح البلاد والسلام). فمن مضمون النص نجد تأكيد الإمام (ع) على عمارة الأرض وكري الأنهار أكثر من جمع أموال الخراج. كما أوضح الإمام (ع) إن طلب الخراج من الأرض من غير عمارتها كان عاملاً أساسياً في خراب الأرض وعوز أهلها وفي ذلك يقول (ع) لمالك الأشتر: (لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً)[٧].

فتفقد أمر الخراج والاهتمام بأمره لأنه أساس بيت مال المسلمين وان صلاح أمره صلاح أمر المسلمين جميعاً فهو بمثابة مركز توزيع رواتبهم وأعطياتهم التي ينظرها الجميع فالغالبية العظمى من الناس تعتمد على بيت المال في توفير احتياجاتهم، فيقول (ع) موجها مالك الأشتر

---

(١) سراج الملوك، ص ٦٣.

(٢) سراج الملوك، ص ٦٤.

(٣) كلية ودمنة، طبعة الشعب، ص ٤٦.

(٤) سراج الملوك، ص ٦٤.

(٥) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة قم، ج١٧، ص٧٠.

(٦) تاريخ اليعقوبي ج٢، ص٢٠٣.

(٧) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة قم، ج١٧، ص٧١.

في هذا الأمر: (وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فأن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله)[١].

ومن توصياته (ع) إلى عماله في الاقتصاد في الأمور ونبذ الإسراف ما جاء في رسالته إلى زياد بن أبيه عندما وصلته الأخبار بإسرافه وتبذيره في الأموال وقد طلب إليه الاقتصاد وذكره بالآخرة بكلمة غداً يوم يحاسب على هذه الأموال فيأمره باتباع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٧). فيدعوه إلى الإمساك والتصرف بالأموال بقدر الحاجة إليها فيقول (ع): (فدع الإسراف مقتصداً واذكر اليوم غداً وامسك المال بقدر ضرورتك وقدم الفضل ليوم حاجتك)[٢]، ثم يسأل زياد: كيف يرجو أن يعطيه الله ثواب المتواضعين المتقين وهو عنده من المتكبرين؟ والتكبر هنا نتيجة المبالغة في الإسراف على مطالب النفس وشهواتها وترك ونسيان الآخرة وما يحتاج إليه فيها، فيحثه (ع) على التواضع لله وترك الإسراف لأن ولي أمر المسلمين قدوة لرعيته، فعليه أن يكون نموذجاً يقتدى به في التواضع والبساطة وإن رسول الله (ص) قد حث على ذلك في قوله (ص): (إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد)[٣]. فيقول الإمام علي (ع) لزياد: (أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت عنده من المتكبرين)[٤].

فتنبيه الإمام (ع) لزياد هنا أن لا يطمع في الآخرة وهو يتقلب في نعيم الدنيا متمتعاً بهذه الأنعام مانعها عن الضعفاء والأرامل فكيف يوجب الله ثواب المتصدقين وهو لا يعمل عملهم في حين أنه من صميم واجبات الوالي إعانة الضعفاء والأرامل والأيتام والتخفيف عنهم وقد ذكر ذلك رسول الله (ص) في الحديث الشريف إذ قال: (ثم الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله)[٥].

نبه الأمام (ع) عماله ووجههم إلى حسن أداء أعمالهم وأنبأهم إذا ما أخطأوا أو تأخروا في أداء أعمالهم فقد كتب (ع) إلى أحد عماله يسأله فيه عن سبب تأخره في تأدية حق الخراج الموجود لديه ويدعوهم إلى تنزيه أنفسهم عن الحرام لأنه إذا تم ذلك كان له (ع) الحق والسلطة في إنزال العقوبة به حيث قال: (... فإنك أبطأت بحمل خراجك وما أدري ما الذي

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة قم، ج١٧، ص٧٠.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٥٦٩: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٤٠٠.

(٣) مسلم، صحيح مسلم، ج٤، ص٢١٩٨: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م)، إحياء علوم الدين، مكتبه ومطبعه محمد صبيح وأولاده، (مصر - لا. ت)، ج٤، ص١٩٢.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة بيروت، ج٤، ص٥٦٩: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٤٠٠.

(٥) الترمذي، سنن الترمذي، ج٤، ص٣٤٦: الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠ هـ/ ٩٧٠ م)، المعجم الأوسط، (دار الحرمين - القاهرة - ١٤١٥)، ج٢، ص٥٥.

حملك على ذلك، غير أني أوصيك بتقوى الله ونزه نفسك عن الحرام، ولا تجعل لي عليك سبيلاً، فلا أجد بداً من الإيقاع بك)[١].

كما وضح لهم الأسلوب الواجب اتباعه عند الدخول إلى أهالي المنطقة الواجب عليهم دفع الصدقات، وذلك بالنزول في مياهم أي قرب الجداول والأنهار.

وقد حذر الرسول (ص) من منع عمال الصدقة من تأدية واجبهم إذ قال (ص): (إذا أتاكم المصدق فلا يفارقنكم إلا عن رضا)[٢]. إن من واجب الوالي التخفيف عن رعيته في الأوقات العصيبة فمساهمته بالتخفيف عنهم سيجعلهم أعوان مخلصين لحفظهم الجميل الذي صنع معهم فيقول (ع) لمالك: (فربما حدث من الأمور إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه عليه طيبة أنفسهم به، فإن العمران محتمل ما حملته)[٣]. فنجده (ع) يشير إلى أن كل ما يصرف في عمارة الأرض سيجنى ثماره من استصلاح هذه الأرض، لان العمران سيزيد من إنتاج هذه الأرض وبالتالي يعوض مقدار ما صرف من الأموال على أعمار الأرض.

ولقد أكثر الإمام علي بن أبي طالب (ع) من تذكير الولاة والعمال بالله وتقواه ومخافته في السر والعلن ومما جاء في ذلك في وصية عامة كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات إذ يقول (ع): (وأمره بتقوى الله في سرائر أمره وخفيات عمله حيث لا شاهد غيره ولا وكيل دونه، وأمره ألا يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر فيخالف إلى غيره فيما أسر، ومن لم يختلف بسره وعلانيته، وفعله ومقالته فقد أدى الأمانة، واخلص العبادة)[٤].

وفي كتاب آخر جاء فيه: (انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له)[٥]. فنجد في الرسالتين وإن اختلف المضمون لكنهما يصبان في قصد واحد هو التذكير بالله ومخافته. وحسن معاملة الرعية عند جباية الأموال منهم، فيقول (ع) لعمال الصدقات: (وأمره ألاّ يُجببهم، ولا يعضهم ولا يرغب عنهم تفضلاً بالأمارة عليهم فإنهم الإخوان في الدين، والأعوان على استخراج الحقوق)[٦]. فيأمر الإمام (ع) عامله بحسن التعامل مع الرعية، فنهاهم عن التأمر على الرعية لأنهم هم من يعينه على استخراج حقوق بيت المال من أموالهم فعليه أن

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٠٠.

(٢) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج٤، ص٣٦٥: ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، ج٤، ص٥٤: الترمذي، سنن الترمذي، ج٣، ص٣٩: ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ج١، ص٥٧٦.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة قم، ج١٧، ص٧١.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٥٨٣.

(٥) المصدر نفسه، ج٤، ص٥٧٨.

(٦) المصدر نفسه، ج٤، ص٥٧٨.

لا يحقرهم لأنه والي هذا الأمر عليهم فهم الإخوان في الله سبحانه وتعالى والمساعدون له في استيفاء الحقوق ولعله (ع) يقصد بالحقوق هنا حقوق الأصناف المستحقة لهذه الأموال، فلولا مساعدة أصحاب الأموال للعامل على استخراج هذه الحقوق لن يتمكن من استيفاءها، وقد ذكر الرسول الكريم (ص) المنزلة العظيمة لعمال الصدقة الذين يحسنون أداء عملهم في قوله (ص): (العامل على الصدقات بالحق كالغازي في سبيل الله حتى يرجع إلى بيته)[١]. إذن تلك المنزلة العظيمة التي أشار إليها الرسول (ص) مرهونة بمصداقية العامل وأمانته في تأدية ما أؤتمن عليه فإذا فعل كانت له تلك المنزلة التي يتمناها كل مسلم.

(وليهم فيقسمه بينهم، ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً، غير معنف ولا مجحف ولا ملقبٍ ولا متعب) [٢].

كما حذر الإمام علي (ع) ولاته وعماله من الأضرار بالرعية عند جمع الخراج فنهى عماله عن بيع كسوة شتاء أو صيف لاستكمال مقدار الخراج أو بيع دابة تساعدهم في العمل أو التعرض لهم وضربهم بسبب نقص المبلغ لأن في ذلك إهدار لكرامة الإنسان وإشعاراً بالغبن والظلم وهذا ليس من مبادئ الإسلام الذي كرم منزلة الإنسان فيقول (ع) موصياً عمال الخراج بذلك: (ولا تبيعن للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها ولا عبداً ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم)[٣]. وأكد الخليفة علي بن أبي طالب (ع) على حقوق العمال المتمثلة بالأرزاق المحدودة والتي تؤخذ من الأموال المجباة بقوله (ع): (وإن لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً وحقاً معلوماً... وأنا موفوك حقك). وفي هذا الصدد أكد الفقيه أبو يوسف في كتابه الخراج[٤] أنه تجري على العمال والولاة من بيت مال المسلمين من جباية الأرض أو من خراج الأرض والجزية لأنهم في عمل المسلمين فيجري عليه من بيت مال المسلمين. ويعد هذا الحق في الأموال بمثابة المرتب الشهري للعامل.

كما حذر عمال الصدقات من خيانة وغش الأمانة التي اؤتمنوا عليها ودعاهم إلى تنزيه أنفسهم عن تلك المنزلة الرذيلة التي تحل بصاحبها الخزي والعار في الدنيا والآخرة، ومن أعظم الخيانات والغش هما خيانة الأمة وغش الأمام، فقد قال رسول الله (ص) في الغاش: (من غشنا فليس منا)[٥]. وفي هذا تعظيم لجرم الغش والخيانة وفي هذا يقول الإمام علي (ع) لبعض عماله وقد بعثه على الصدقة ولم يحدد اسمه: (ومن استهان بالأمانة، ورتع في الخيانة، ولم ينزه

---

(١) الترمذي، سنن الترمذي، ج١٣، ص٣٧: الحاكم النيسابوري، المستدرك، ج١، ص٥٦٤.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٥٧٩: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٤١١.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة قم، ج١٧، ص١٩.

(٤) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢ هت - ٧٩٨ م) الخراج، دار المعرفة، (بيروت - ١٩٧٩ م)، ص٢.

(٥) مسلم، صحيح مسلم، ج١، ص٩٩: ابن حبان البستي، صحيح ابن حبان، ح٢، ص٣٢٦: الحاكم النيسابوري، المستدرك، ج٢، ص١١.

نفسه ودينه عنها، فقد احل بنفسه الذل والخزي في الدنيا وهو في الآخرة أذل وأخزى. وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة وأفظع الغش غش الأئمة) [١].

ومن التطبيقات العملية للخليفة علي (ع) في هذا المجال، إنه أرسل إلى زياد بن أبيه خليفة عامله عبد الله بن عباس على البصرة وفارس وكور الأحواز وكرمان كتاب يتوعد فيه بعظمة العقوبة التي سينزلها به، إذا كان ما قد وصل إليه من أمر أخذه الأموال من بيت مال المسلمين صحيح، فستكون عقوبته كبيرة إلى حد إنزاله المنزلة الذليلة بين الناس بعد أن كان صاحب شأن ومنزلة رفيعة لخيانته الأمانة التي ولي أمرها، فيقول (ع): (وإني أقسم بالله صادقاً لئن بلغني أنك خنت من فيء المسلمين صغيراً أو كبيراً لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر، ثقيل الظهر، ضئيل الأمر)[٢].

ولم يغفل الإمام علي (ع) أو ينسى أن يعض عماله بأداء تلك الأمانة إلى مستحقيها وهم الأصناف الثمانية المذكورة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٠).

فإن لم يوف إلى هؤلاء حقوقهم كاملة كان الله خصمه يوم القيامة يطالبه بحقوق هؤلاء وإن أيئس الناس وأرذلهم منزلة من كان خصمه عند الله الفقراء والمساكين وابن السبيل والسائلون والغارمون وفي سبيل الله والرقاب والعاملون عليها فكيف يكون موقفك بين يدي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة وأنت خصم لكل هؤلاء والله سبحانه وتعالى هو المطالب بحقوقهم منك؟

وكان الإمام إذا دخل إلى بيت المال ونظر إلى ما فيه من الذهب والفضة قال

أبيضي وأصفري وغري غيري أني من الله بكل خير[٣]

وذكر أنه كان يقسم ما في بيت المال في كل جمعة حتى لا يبقى منه شيئاً ثم يفرش له ويصلي فيه[٤] ويوصي الإمام (ع) التجار والصناع لأثرهم المهم في قيام الاقتصاد وتحقيق الرفاهية، ولأنهم سبب من أسباب قيام العمران في بلدهم فيقول (ع) لمالك الأشتر: (واستوص بالتجار وذوي الصناعات وأوصِ بهم خيراً المقيم منهم، والمضطرب بما له والمترفق ببدنه فإنهم

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مج٤، ص٥٨٣: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٤١٥.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ٤، ص٥٦٨: البحراني، شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٤٩٩.

(٣) الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي (ت٣٤٦هـ/١٠٤٨ م)، المسالك والممالك، تحقيق: محمد الحسيني، (القاهرة - ١٩٦١م)، ص٥٤: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥، ص٥٩: الأصفهاني، حلية الأولياء، ج١، ص١٨١: ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج١، ص٢٢١.

(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥، ص٥٩: أبو الفدا، المختصر، ج١، ص١٨٢.

مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها أبها من المباعد والمطارح في برِّك وبحرك وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترءون عليها، فإنهم سِلمٌ لا تخاف بائقته "وصلح لا تخشى عائلته"(*)[1]. هذه التوجيهات التربوية شملت كل الرعية وأن اختلفت طبقاتهم المعيشية.

وأكد على مراقبة الأسواق لمنعهم وتحذيرهم من الغش في البيع والميزان فيقول (ع) موصياً مالك: (وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل)[2]. وقد حذر الله سبحانه وتعالى من الغش في المكيال والميزان في قوله: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ كان (عليه السلام) نصب عينه حديث الرسول الكريم: (ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة).

روى المنذري في الترغيب والترهيب، والبيهقي في شعب الإيمان، عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن ملكاً من الملوك خرج من بلده يسير في مملكته مستخفٍ من الناس، فنزل على رجل له بقرة، فراحت عليه تلك الليلة البقرة، فحلبت مقدار ثلاثين بقرة، فعجب الملك من ذلك، وحدث نفسه بأخذها؛ فلما كان من الغد غدت البقرة إلى مرعاها ثم راحت فحلبت نصف ذلك؛ فدعا الملك صاحبها وقال له: أخبرني عن بقرتك لِمَ نقص حلابها؟ ألم يكن مرعاها اليوم مرعاها بالأمس؟ قال: بلى، ولكن أرى الملك أضمر لبعض رعيته سوءاً فنقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم، أوهمَ بظلم ذهبت البركة؛ قال: فعاهد الله الملك ربه أن لا يأخذها ولا يظلم أحداً؛ قال: فغدت ورعت ثم راحت فحلب حلابها في اليوم الأول؛ فاعتبر الملك بذلك وعدل؛ وقال: إن الملك إذا ظلم أوهمَ بظلم ذهبت البركة، لا جرم لأعدلنّ ولأكونن على أفضل الحالات".

وذكره ابن الجوزي رحمه الله في كتاب "مواعظ الملوك والسلاطين" على غير هذا الوجه، قال: "خرج كسرى في بعض الأيام للصيد، فانقطع عن أصحابه وأظلته سحابة، فأمطرت مطراً شديداً حال بينه وبين جنده، فمضى لا يدري إلى أين يذهب، فانتهى إلى كوخ فيه عجوز، فنزل عندها، وأدخلت العجوز فرسه، فأقبلت ابنتها ببقرة قد رعتها فاحتلبتها، ورأى كسرى لبنها كثيراً، فقال: ينبغي أن نجعل على كل بقرة خراجاً، فهذا حلاب كثير؛ ثم قامت البنت في آخر الليل لتحلبها فوجدتها لا لبن فيها فنادت: يا أماه قد أضمر الملك لرعيته سوءاً: قالت أمها: وكيف ذلك؟ قالت: إن البقرة ما تبز بقطرة من لبن؛ فقالت لها أمها:

(*) غائلة: الجمع أغوال وغيلات وكل ما اغتال الإنسان فأهلكه فهو غول أي منكراً داهياً والغوائل الدواهي. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٥٠٧.

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٧، طبعة قم، ص٨٣.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، طبعة قم، ج١٧، ص٨٣.

اسكتي، فإن عليك ليلاً؛ فأضمر كسرى في نفسه العدل والرجوع عن ذلك العزم، فلما كان آخر الليل قالت لها أمها: قومي احلبي: فقامت فوجدت البقرة حافلاً، فقالت: يا أماه قد والله ذهب ما في نفس الملك من السوء: فلما ارتفع النهار جاء أصحاب كسرى فركب، وأمر بحمل العجوز وابنتها إليه، فأحسن إليهما، وقال: كيف علمتما ذلك؟ فقالت العجوز: أنا بهذا المكان منذ كذا وكذا، ما عمل فينا بعدل إلا أخصبت أرضنا، واتسع عيشنا، وما عمل فينا بجور إلا ضاق عيشنا وانقطعت موارد النفع عنا".

وذكر الطرطوسي في كتابه "سراج الملوك": "أنه كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب تمراً، ولم يكن في ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك، فغصبها السلطان، فلم تحمل في ذلك العام ولا تمرة واحدة".

وخلاصة القول كان الإمام يقوم على رعيته خير قيام، أن يجتهد في تحصيل ما ينفعهم ودفع ما يضرهم في دينهم ودنياهم، ويبتعد عن غشهم وخيانتهم، ولا يتحقق له ذلك إلا بأمور.. أن يختار لوظائف الدولة الهامة أحسن من يظن فيهم القيام بها، خبرة وأمانة، وقدرة وإخلاصاً وحكمة، ويحض كلا منهم على اختيار الأصلح فالأصلح للوظائف التي تحت مسؤوليته، وهكذا يكون الاختيار ابتداء من أكبر وزير وانتهاء إلى أصغر موظف في الدولة، حتى يقوم كل منهم بواجبه الذي أسند إليه على أتم وجه وأكمله. أما حقوق الولاة على رعيتهم فهي النصح والإرشاد بالحكمة والموعظة الحسنة بسلوك أقرب الطرق إلى توجيههم وإرشادهم وأن لا يتخذ من خطئهم - إذا أخطأوا - وهم معرضون للخطأ كغيرهم من بني آدم لكن لا يتخذ من هذا الخطأ سلما للقدح فيهم ونشر عيوبهم بين الناس فإن هذا يوجب التنفير عنهم وكراهيتهم وكراهية ما يقومون به من أعمال وإن كانت حقاً ويوجب بالتالي التمرد عليهم وعدم السمع والطاعة وفي ذلك تفكيك المجتمع وحدوث الفوضى والفساد. العدل بينهم، ونشر العلم بينهم وتفقيههم بشرع الله، وإعطاؤهم حقوقهم المشروعة لهم، والتعرف على حوائجهم وما ينوبهم من أمور ومعالجة ذلك إن أمكن أو رفعه إلى الخليفة بل أنه رضي الله عنه ألزم ولاته بالتعرف الدقيق على أحوال الرعية ومواساتهم وعدم الترفع عليهم وإهمال الضعفاء والفقراء، فكان رضي الله عنه يسأل الوفد إذا قدموا عليه عن أميرهم فيقول: هل يعود المريض؟ هل يعود العبد؟ كيف صنيعه بالضعيف؟ هل يجلس على بابه؟ فإن قالوا بخصلة واحدة منها: لا.

كان رضي الله عنه إذا عرضت له مشكلة نظر في كتاب الله فإن وجد لها حلاً قضى به دون تردد.. وإن لم يجد نظر في سنة رسوله المصطفى.. فإن وجد قضى به دون تردد أيضاً.. فإن لم يجد اجتهد في تفضيل ما لم يرد عنه نص أو سنة.. واستشار مستشاريه وكانوا من خيرة صحابة رسول الله.. فإن اجتهدوا على رأي قضى به.كان أميراً يعرف عظم مسؤوليته وضخامتها.. وكانت حقوق الرعية وأحوالهم نصب عينيه.. هدفاً يرمي إليه.

والحمد لله في البدء والختام

الخاتمة والنتائج:

- لقد كان صاحب الدرب والعمر والجهاد بكل ما في المسيرة من صعوبات ومخاطر وبكل ما في الجهاد من إثقال وكان له من الفضائل مما لا يسعنا إلا ذكر بعضها. فهو من السابقين إلى الإسلام، فهو أول من أسلم بعد خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) أخفى إسلامه بادئ الأمر ولأن الرسول (ص) طلب منه كتمان الأمر وهو أول من صلى مع رسول الله (ص).
- كان الإمام يقوم على رعيته خير قيام، أن يجتهد في تحصيل ما ينفعهم ودفع ما يضرهم في دينهم ودنياهم، ويبتعد عن غشهم وخيانتهم، ولا يتحقق له ذلك إلا بأمور.. أن يختار لوظائف الدولة الهامة أحسن من يظن فيهم القيام بها، خبرة وأمانة، وقدرة وإخلاصاً وحكمة، ويحض كلا منهم على اختيار الأصلح فالأصلح للوظائف التي تحت مسؤوليته.
- وأكد الخليفة علي بن أبي طالب (ع) على حقوق العمال المتمثلة بالأرزاق المحدودة والتي تؤخذ من الأموال المجباة بقوله (ع): (وإن لك في هذه الصدقة نصيباً مفروضاً وحقاً معلوماً... وأنا موفوك حقك). وفي هذا الصدد أكد الفقيه أبو يوسف في كتابه الخراج أنه تجري على العمال والولاة من بيت مال المسلمين من جباية الأرض أو من خراج الأرض والجزية لأنهم في عمل المسلمين فيجري عليه من بيت مال المسلمين. ويعد هذا الحق في الأموال بمثابة المرتب الشهري للعامل.

كان رضي الله عنه إذا عرضت له مشكلة نظر في كتاب الله فإن وجد لها حلاً قضى بهه دون تردد.. وإن لم يجد نظر في سنة رسوله المصطفى.. فإن وجد قضى به دون تردد أيضاً.. فإن لم يجد اجتهد في تفضيل ما لم يرد عنه نص أو سنة.. واستشار مستشاريه وكانوا من خيرة صحابة رسول الله.. فإن اجتهدوا على رأي قضى به. كان أميراً يعرف عظم مسؤوليته وضخامتها.. وكانت حقوق الرعية وأحوالهم نصب عينيه.. هدفاً يعمل من أجله.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

٤٣. أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط٢، تحقيق: محمد إبراهيم البنا وآخرون، دار الشعب، (٨ أجزاء)

٤٤. الأعلام خير الدين الزر كلي بيروت لبنان بلا ت.

٤٥. الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥. (١٠ أجزاء) وطبعة ثانية، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.

- الاسفرائيني، أبو عوانة يعقوب بن إسحاق (ت٣١٦هـ/٩٢٨ م).

٤٦. مسند أبي عوانة، ط١، تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٨م. (٥ أجزاء).

❖ **الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت٤٣٠هـ/١٠٣٨ م).**

٤٧. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط١، مطبعة السعادة لا. م، ١٩٣٥م.

❖ **الأصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي (ت٣٤٠هـ/٩٥١ م).**

٤٨. المسالك والممالك، تحقيق: محمد الحسيني، القاهرة، ١٩٦١م.

❖ **ابن أعثم، أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ/٩٢٦ م).**

٤٩. الفتوح، ط١، تحقيق: محمد عبد المنعم، مطبعة دار المعارف العثمانية، الهند، ١٩٧٥.

❖ **الأنباري، محمد بن القاسم (ت ٣٢٨ هـ/٩٤٠ م).**

٥٠. الأضداد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، التراث العربي، سلسلة تصدرها دار المطبوعات في الكويت، ١٩٦٠م.

❖ **الأندلسي، محمد بن يحيى بن أبي بكر المالقي (ت٧٤١هـ/١٣٤٠ م).**

٥١. التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، ط١، تحقيق: محمد يوسف زايد ن دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٥هـ.

❖ **البحراني، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم (ت ٦٧٢ هـ/١٢٧٣ م). (٤ أجزاء).**

٥٢. شرح نهج البلاغة، منشورات مؤسسة النصر، ١٣٨٤هـ.

❖ **البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله الجحفي (ت٢٥٦هـ/٨٦٩ م).**

٥٣. صحيح البخاري، ط٣، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ـ اليمامة، بيروت، ١٩٨٧. (٦ أجزاء).

٥٤. التاريخ الكبير، مطبعة دار المعارف العثمانية، لا. م، ١٩٤٠م. (٤ أجزاء).

❖ **البزاز، أبو بكر عمرو بن عبد الخالق (ت٢٩٢هـ/٩٠٥ م).**

٥٥. مسند البزاز، ط٣، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ١٤٠٩هـ. (١٠ أجزاء).

❖ **البغدادي، أبو عبد الله إسماعيل بن القاسم.**

٥٦. الامالي والنوادر، دار الكتب العلمية، بيروت، لا. ت.

❖ **ابن بكار، الزبير (ت ٢٥٦ م/٦٨٩ م).**

٥٧. الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكي العاني، دار إحياء التراث الإسلامي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٢.

❖ **البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤ م).**

٥٨. معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع، ط٣، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٣هـ. (٤ أجزاء).

❖ **البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ/٨٩٢ م).**

٥٩. فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.

❖ **البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسن بن علي بن موسى (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥ م).**

٦٠. سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٩٩٤م. (١٠ أجزاء).

❖ **الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي (ت٢٧٩هـ/٨٩٢ م).**

٦١. سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لا. ت. (٥ أجزاء).

❖ التميمي، النعمان بن محمد (ت٣٦٣هـ/٩٧٣ م).

٦٢. دعائم الإسلام، ط١، دار المعارف، مصر، ١٣٨٥هـ.

❖ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ/٨٦٨ م).

٦٣. البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة، ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م.

٦٤. الرسائل السياسية للجاحظ، ط٢، قدم لها وبوبها وشرحها: علي أبو ملحم، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٥م.

وطبعة ١، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي، (القاهرة ـ ١٣٩٩هـ/١٩٧٩ م) (٤ أجزاء).

❖ ابن الجارود النيسابوري، أبو محمد عبد الله بن علي (ت٢٠٧هـ/٨٢٢ م).

٦٥. المنتقى لابن الجارود، ط١، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨.

❖ ابن جعفر الطبري، أحمد بن عبد الله بن محمد (ت٦٩٤هـ/١٢٩٤ م).

٦٦. الرياض النضرة في مناقب العترة، ط١، تحقيق: عيسى عبد الله محمد مانع الحميري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٦. (٢ أجزاء)

❖ ابن جماعة، الإمام بدر الدين بن جماعة (ت٨٣٣هـ/١٤٤١ م).

٦٧. تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام. (لا. ت) (لا. ج)

❖ الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس (ت٣٣١هـ/٩٤٤ م).

٦٨. الوزراء والكتاب، ط١، عني بتصحيحه وتحقيقه ومراجعته: عبد الله إسماعيل الصاوي، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨.

❖ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠ م).

٦٩. صفوة الصفوة، ط١، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٣٦م. (٤ أجزاء).

٧٠. العلل المتناهية، ط١، تحقيق: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ. (٢ أجزاء).

❖ الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم (ت٤٠٥هـ/١٠١٤ م).

٧١. المستدرك على الصحيحين، ط١، تحقيق: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م. (٤ أجزاء).

❖ ابن حبان البستي، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم (ت٣٥٤هـ/٩٦٥ م).

٧٢. صحيح ابن حبان، ط٢، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م. (٨ أجزاء).

❖ ابن حجر العسقلاني، شباب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨ م).

٧٣. الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م. (٨ أجزاء).

٧٤. لسان الميزان، ط٣، مؤسسة الأعلمي للطباعة، بيروت، ١٩٨٦م ص٧٠

٧٥. تهذيب التهذيب، ط١، حيدر آباد الدكن، الهند، لا. ت.

❖ ابن أبي الحديد، أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن حمد بن الحسين (٦٥٦هـ/١٢٥٨ م). ❖

كيف أصبح ابن أبي طالب علياً وسراً إلهياً؟

د. عبد علي سفيح (فرنسا)

تهدف هذه الورقة البحثية رسم صورة تنبض من خلال فكر الإمام علي (ع) وفلسفته للإنسان والحياة. بهذه النظرة الثاقبة كونه (خليفة)، وبهذه الروح المتواضعة بعنوانه (الإمام)، ومن هنا نحاول أن نتحدث عن الإمام علي الذي كان ولا يزال تلك الصورة الحية الأصيلة المشرقة للإسلام.

ومن هنا يفرضُ سؤال نفسه أنه: كيف جمع الإمام علي بين هاتين الصورتين: الخلافة والإمامة، السيادة والتواضع، وبين القوة والرحمة؟

كتب العديد من المفكرين والمؤرخين والكتاب والشعراء والفلاسفة والباحثين بمختلف لغاتهم وهوياتهم وانتماءاتهم الفكرية والدينية عن الإمام علي أمثال طه حسين[١]، عباس محمود العقاد[٢]، عبد الرحمن الشرقاوي[٣]، جورج جرداق[٤]، ومحمد سعيد الطريحي[٥]، كتبوا عن سيرة وشخصية وفلسفة وحكمة وسياسة الإمام علي، كل من زاوية أو مدخل. ورغم دراستي الدكتوراه وبحثي عن الإمام علي بعنوان "علي بن أبي طالب إمام وخليفة" والذي أعد في (جامعة بوردو) في فرنسا، والذي أُستند بصورة رئيسية على كتاب نهج البلاغة وهو مجموع ما أختاره الشريف الرضي من كلام وحكم الإمام علي وقام بشرحه كل من بن أبي الحديد المعتزلي والشيخ محمد عبده، إلا أني وجدت أن هناك قضية مهمة لم يجرِ بحثها بشكل كافٍ ودقيقٍ ألا وهي "فلسفة الإمام علي للإنسان والحياة".

نظرة الإمام علي للإنسان والحياة واضحة المعالم، متجانسة ومتكاملة الأبعاد في سياق يستند إلى قاعدتين فكريتين، دينية ودنيوية. (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)[٦].

---

(١) طه حسين: كتاب الفتنة الكبرى علي وبنوه. القاهرة ١٩٥٣.

(٢) عباس محمود العقاد: كتاب عبقرية علي. المكتبة العصرية بيروت.

(٣) عبد الرحمن الشرقاوي: كتاب علي إمام المتقين. بيروت لبنان ١٩٨٥.

(٤) جورج جرداق: كتاب علي صوت العدالة الإنسانية. بيروت ١٩٥٤.

(٥) محمد سعيد الطريحي: كتاب علي إمام الأمم. صدر بمناسبة مهرجان الغدير العالمي الأول ٢٠١٢.

(٦) سيد عطية أبو النجا. كتاب نهج البلاغة مترجم إلى الفرنسي. بيروت ١٩٨٦.

قد تبدو للبعض متناقضتين ولكن خلال تفحص فكر الإمام علي نستطيع أن نجد أن هناك إمكانية واضحة للتعايش بين هاتين القاعدتين، لفهم حياة وسلوك الإنسان وآفاق تطوره وتطور المجتمعات المرافقة له. أنها فلسفة في الحياة تفاؤلية، ملتزمة بقاعدة التطور الإنساني مع أفق واسع من الحرية الشخصية. حيث كان الإمام علي يشدِّد على أن التغير والتطور الايجابي لحياة الإنسان تخضع لضوابط يجب احترامها.

هذه النظرة الفلسفية العميقة للإنسان والحياة جعلت من بن أبي طالب علياً، وسرَّ الأسرار، ومشرق الأنوار، وسر الأنبياء والمرسلين، وسيد الأوصياء والصديقين، وظاهر البرهان، والباطن بالقدر والشأن. بهذه النظرة أصبح الإمام علي سيد القوم، محب الشهود، ومحبوب المعبود، باب مدينة العلم، ورأس المخاطبات، ومستنبط الإشارات، وراية المهتدين، وزين العارفين، وإمام السائرين والعادلين، وأعظمهم حلماً، وأكثرهم علماً.

هو الإمام إذا عُدَّ الأئمة:

قوله: (من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه. ومعلم نفسه ومؤدبها أحقُّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدِّبهم)[١].

هو الحكيم إذا عُدَّ الحكماء:

قوله: (عش لدنياك كأنك تعيش أبداً. وعش لآخرتك وكأنك تموت غداً)[٢].

هو الفيلسوف إذا عُدَّ الفلاسفة:

قوله: (الغنى في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة)[٣].

هو الحليم العافي إذا عُدَّ الحلماء والعافين:

يقول بن أبي الحديد المعتزلي في كتابه " نهج البلاغة ": كان الإمام علي أحلم الناس عن ذنب وأصفحهم عن مسيء، وذلك بقوله (إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه)[٤].

هو الزاهد إذا عُدَّ الزهاد:

قوله: (أزهد في الدنيا يبصرك الله عوراتها)[٥].

هو الشجاع إذا عُدَّ الشجعان:

قوله: (إنَّ أفضل الموت القتل. والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون علي من الموت على الفراش)[٦].

---

(١) سيد عطية أبو النجا، مصدر سابق. ص ٦٨٨.

(٢) نفس المصدر السابق. ص٦٨٤.

(٣) نفس المصدر السابق. ص٧٠٤.

(٤) محمد سعيد الطريحي: كتاب علي إمام الأمم. ج١ ص١٩.

(٥) سيد عطية أبو النجا: كتاب نهج البلاغة مترجم إلى الفرنسية. ص٦٩٨ بيروت ١٩٨٦.

(٦) نفس المصدر السابق ص٥٥٦.

شجاعة أنست الناس فيها ذكر من كان قبله، ومحا من يأتي بعده. ومقاماته في الحروب مشهودة. وكانت العرب تفتخر في مقابلته، وأما قتلاه، فافتخار رهطهم بأنه الإمام علي قتلهم. قالت أخت عمر بن ود العامري ترثيه:

لو كان قاتلُ عمرٍ غير قاتلِهِ بكيته أبداً ما دمت في الأبد

لكن قاتلَهُ من لا نظيرَ له وكان يُدعى أبوه بيضةَ البلد

هو التقي إذا عُدَّ التقاة:

قوله: (فالمتقون فيها هم أهل الفضائل: منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع)[1].

السؤال الذي يُطرح وهو: كيف اجتمعت كل الخصال الحميدة، والقيم المجيدة، ومحاسن الأفعال، وكمال الخصال، في رجل واحد اسمه علي بن أبي طالب؟

لماذا لم تجتمع ولو أعشارها في رجل لا من قبله، ولا في عصره، ولا من بعده؟

هل لأنه: كان يؤمن بالله الواحد القهار؟

الجواب: لا. لأنه كان قبل الإمام علي وحينه أناس يؤمنون بالله الواحد من اليهود والنصارى والمسلمين، وقسم منهم استشهدوا بسبب عقيدتهم.

- كان من أولئك الذين عاصروا رسول الله (ص) ولازمه فترة طويلة؟

الجواب: لا. لأنه كان هناك من عاصروا وعايشوا النبي (ص) أكثر فترة من الإمام علي.

- كان ممن صاهر رسول الله (ص)؟

الجواب: لا. لان كان هناك من صاهر رسول الله مرتين.

- كان من أشجع بني قومه؟

الجواب: وإن كان أشجعهم. لكن لم تجتمع في أقل شجاعة منه أعشار مما أجتمعت عند الإمام علي.

إذن كانت لا القرابة، والصحبة، ولا المصاهرة، ولا المعايشة مع رسول الله (ص)، ولا الإيمان بالله الواحد القهار، ولا الكرم والتقوى والزهد هي الوحيدة والكافية التي جعلت من بن أبي طالب أن يكون علياً وسراً إلهياً، إذن يا ترى ما هو هذا اللغز والسر العجيب؟

الرجال الذين تركوا بصماتهم في مسيرة التأريخ الإنساني، بنوا جُلَّ أفكارهم على نقطة بداية، وعلى ضوئها بنوا صرحاً من العلوم والمعرفة، مثال على ذلك:

---

(١) نفس المصدر السابق.ص٥٥٤.

كارل ماركس: وجد المفتاح الرئيسي الذي به يفسر التأريخ وهي نظرية " الصراع الطبقي"[١].

دارون: الحياة نشأت من أصل واحد، ومنها وضع نظرية "أصل الأنواع"[٢].

أينشتاين: أراد أن يعرف أول معادلة رياضية على أساسها بني الكون، فوجد "النظرية النسبية "[٣].

هويل وغيره: وجدوا نقطة بداية الكون، ومنها نظرية "البيك بونك"[٤].

نيتشة: بنى نظريته الفلسفية على أنه المحرك الرئيسي للإنسان هو "حب امتلاك القوة"[٥].

الأديان التوحيدية نقطة الانطلاق لها هي "التوحيد الإلهي".

السؤال هو: ما هي نقطة الابتداء للإمام علي والذي بنى على ضوئها جُلَّ نظرته وفلسفته للإنسان والحياة؟ هذه النقطة لا يمكن معرفتها إلا من خلال شيء تفرد به الإمام علي عن عامة الناس قاطبة. لم يشاركه أحد لا من قبله، ولا في حينه.

تفرد الإمام علي دون سائر الناس جميعاً في ما يتعلق بوصفه الدقيق والعميق لخلق الكون، والملائكة، والإنسان، والطاووس، والخفاش، والنملة، والجراد. وصفها وكأنه عالِم من علماء الحيوان والحشرات والفيزياء والبايولوجي. ومن أقواله:

وصف خلق الكون: (أمال الأشياء لأوقاتها. محيطا بحدودها وانتهاءها، عالما بها قبل ابتداءها وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره)[٦].

وصف الملائكة: (عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، عصمهم من ريب الشبهات. فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته)[٧].

وصف خلق الطير: (أسكنها أخاديد الأرض وخروق الجبال... فالطير مسخَّرَة لأمره)[٨].

وصف خلق الإنسان: (جمع سبحانه من حزن الأرض وسبخها تربة.... فجبل منها صورة ذات أحناء ووصول وأعضاء وفصول، أجمدها حتى استمسكت، ثم نفخ فيها من روحه

---

(١) كارل ماركس: ١٨١٨ ـ ١٨٨٣.فيلسوف وعالم اجتماعي واقتصادي ومؤرخ. من أصل ألماني.

(٢) داروين: ١٨٠٩ ـ ١٨٨٢. بريطاني الأصل.

(٣) أينشتاين: ١٨٧٩ ـ ١٩٥٥. عالم فيزياوي ألماني الأصل.

(٤) فرويده ويل: عالم فلكي أول ما أطلق تسمية البيك بونك عام ١٩٥٠.

(٥) نيتشة: ١٨٤٤ ـ ١٩٠٠. فيلسوف ألماني الأصل.

(٦) سيد عطية أبو النجا: كتاب نهج البلاغة، ص٢٦، بيروت ١٩٨٦.

(١) نفس المصدر السابق ص٣٦.

(١) نفس المصدر السابق ص١٥٠.

فتمثلت إنسانا ذات أذهان يجبلها، وفكر يتصرف بها، وأدوات يقلبها، ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل)[١].

هل أراد الإمام علي من هذه الأوصاف الدقيقة أن يرينا جميل صنع الباري، وقدرته وعظمته ودقة صنعه؟ إذا كان هذا هو السبب، أو لَم يكفِ وصف اثنين أو ثلاثة من هذه المكونات الكونية لكي تصل رسالته إلى العالم؟

الجواب: هو ليس هذا السبب الرئيسي. إذن ماذا أراد الإمام علي بالذات من هذه الأوصاف الدقيقة؟.

أراد الإمام علي أن يقول أن الله خلق عالمين:

الأول: عالم غير الإنسان وهو عالم الملائكة والشجر والحجر والطير والحيوان وكل الحيواة الأخرى. صفاتُ خلقِ هذا العالم أنه عالم مسيَّر لا مخيَّر. لم يملك حق الاختيار. أنه مبرمج مسبقاً. ولذا يقول: (أمرها أن تقف مستسلمة لأمره، فما منهم زائغ عن سبيل مرضاته، مسخَّرة لأمره).

أما العالم الثاني: وهو عالم الإنسان. عالم يملك حرية الاختيار، لم يكن مبرمج مسبقا، ولذا يقول: (يفرِّق بها بين الحق والباطل).

ماذا نستنتج من هذين التصنيفين؟ ماذا كان يدور في ذهن وفكر الإمام علي حينما أطلق هذه الكلمات؟

وكأنه أراد الإمام علي أن يقول أن الحرية هي الفيصل بين العالمين. الإنسان هو الكائن الكوني الوحيد الذي يمتلك الحرية. أنها هبة من الله لا يعطيها لغيره. أنها مقدسة. ففقدان هذه الحرية، هو الانتقال من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان. وسلب هذه الحرية هي الاعتداء على أكبر الحرمات المقدسة. ولذا يقول: (لا تقسروا أولادكم على أخلاقكم فأنهم مخلوقين لزمان غير زمانكم)[٢]. وعلى ضوء هذه النقطة بنى الإمام علي جل أفكاره، ومنها نستطيع أن نفسر مجمل تصرفاته.

مثلاً في حرب صفين: عندما أوشك جيش الإمام أن ينتصر على معسكر معاوية، وخدعة التحكيم التي وقع في فخها فريق الإمام علي، وبالرغم من تحذيره لهم، الا أن الأكثرية أرادوا وقف الحرب، وكان الإمام يعلم أن النزول عند رغبة هؤلاء سوف يضع أهم تجربة إنسانية مقدسة في مهب الريح. ولأجل احترامه لهذا المقدس وتمسكه به الذي تميز عالم الإنسان من عالم الحيوان، قال لهم: (وليس عليَّ أن أحملكم على ما تكرهون)[٣].

---

(١) نفس المصدر السابق. ص٣٦.

(٢) سيد عطية أبو النجا: مصدر سابق. ص ٤٦٥.

(٣) نفس المصدر السابق. ص ٣٨٤.

وأيضاً قوله: (الناس صنفان، إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)[١]، يريد بها أن يوضح مبدأ للإنسانية جمعاء: أن العامل الموحد لكم هو امتلاك الاثنين صفة الحرية. الاثنان ورثوا نفس الإرث المقدس.

فلنذهب بعيداً في فكر الإمام علي. ماذا كان يتحسس في قلبه وعقله لهذين العالمين؟

الإمام علي يرى العالم غير الإنساني وهو عالم الحيوان، عالم ذو طبع ثابت. الثعلب يبقى ماكراً منذ ملايين السنين. الأسد يبقى وحشاً، والكلب يبقى كلبا. أي أن هذا العالم يكرر ما عمله آباءه منذ ملايين السنين. لذا هذا العالم لا تأريخ له. لأن حياته بنيت على التكرار.

هذا العالم غير الإنساني، لا مكان فيه للضعيف. وفي شريعته القوي يأكل الضعيف.

هذا العالم لا يتكلم. هزة أرضية أو بركان أو عاصفة أو الأسد عندما يهجم على فريسته، لا تنبيه ولا تحذير.

أما العالم الثاني: وهو عالم الإنسان، عالم لا طبع له. تجد أخوة من نفس البيت كل يبني حياته بطريقة تختلف عن الآخر. لذلك للإنسان تأريخ. وهذا يفسر قول الإمام (لا تقسروا أولادكم).

العالم الإنساني، عالم يحمي القوي فيه الضعيف. حماية الفقير والمحتاج واليتامى والمساكين والأرامل والكهول.

هذا العالم يتكلم. أي يحذر وينبّه ويصحّح.

الإمام علي كان يحذّر الناس من الانتقال من عالمهم الإنساني إلى العالم الحيواني. رغم الضغوط التي كان يعاني منها، لم تزحزحه قيد أنملة من عالمه الإنساني. الإمام علي كان إنسانا كاملاً بمعنى الكلمة. ولذا كان يقول: (**أحذّركم من الدنيا فانها منزل قلعة**[٢] **وليست بدار نجعة**[٣] **كم واثق بها فجعته، وذي طمأنينة اليها قد صرعته، أفهذه تؤثرون، أم إليها تطمئنون، أم عليها تحرصون**[٤]**. ملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب، وجارها محروب... أفهذه تؤثرون، أم إليها تطمئنون، أم عليها تحرصون**[٥]).

والخلاصة: إن هذه الكلمات البلاغية القصيرة توضح نظرة علي بن أبي طالب لحقيقة الحياة والكون والإنسان وغيره، مما جعله في أعلى مرتبة للإنسانية جميعاً. ❖

---

(١) نفس المصدر السابق. ص٤٦٠.

(٢) أي ليست مستوطنة.

(٣) أي محط رحال ومنتجع.

(٤) سيد عطية أبو النجا: مصدر سابق، ص٥٨٨.

(٥) أويس كريم محمد: المعجم الموضوعي لنهج البلاغة، ص٣٤٧.

أدوار تنصيب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) الخلافة

أ. د. علي صالح رسن المحمداوي
جامعة البصرة - كلية التربية، العلوم الإنسانية

المقدمة:

الإمام علي (عليه السلام) هو سيد الوصيين، وأشرف الناس أجمعين بعد النبي الخاتم (ص) وأبو الراشدين. الذي يؤثر عن النبي (ص) قوله: "جعل في عليٍّ الفصاحة والفروسية، وشق له اسماً من أسمائه، والله الأعلى وهذا علي"[١] لذلك علينا أن نعرف مَنْ هو علي (ع) وهل يستحق أن يكون الخليفة الأول أم لا؟.

وقد وصفه ابن عباس بقوله "رحم الله أبا الحسن كان والله علم الهدى وكهف التقى ومحل الحجا وطرد النهى ونور السرى في ظلم الدجى وداعية إلى الحجة العظمى عالماً بما في الصحف الأولى وقائماً بالتأويل والذكرى متعلقاً بأسباب الهدى وتاركاً للجور والأذى وحائداً عن طرقات الردى وخير من آمن واتّقى وسيد من تقمص وارتدى وأفضل من حج وسعى وأسمح من عدل وسوى وأخطب أهل الدنيا إلا الأنبياء والنبي المصطفى وصاحب القبلتين فهل يوازيه موحد وزوج خير النساء وأبو السبطين لم تر عيني مثله ولا ترى حتى القيامة واللقاء فمن لعنه فعليه لعنة الله والعباد إلى يوم القيامة[٢].

من الأخطاء الشائعة عند غير أهل التحقيق القول إن ما حدث بعد انصراف النبي محمد (ص) من الحج وما بلغ به الناس بولاية أمير المؤمنين (ع) هو بيعة، علماً أننا لسنا من القائلين أن أمير المؤمنين (ع) نُصب بالخلافة، في حجة البلاغ، نقول ذلك تتويج تسليم مقاليد السلطة، وهو إشعار إخبار للعالم، مثلما كان رسول الله (ص) نبي وهو في صلب آدم (ع) وما حدث في البعثة المحمدية، هو مراسيم التتويج وتولي المهام، هذا ليس محله لنا فيه كلام، كلامنا عن الإمام (ع) وأدوار التبليغ بإمامته من قبل رسول الله (ص).

الدور الأول: حديث الإنذار

وما أدراك ما حديث الإنذار إذ بلغ فيه الرسول (ص) أن يكون أمير المؤمنين (ع) خليفة الأمة، والبعثة المحمدية في أيامها الأول، وعلى وجه التحديد في نزول آية الإنذار، وهذا ما رواه سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبد الغفار بن القاسم، عن المنهال بن عمرو، عن عبد الله بن

(١) الصدوق: علل الشرائع ١/١٣٤، معاني الإخبار/٥٦.
(٢) الطبراني: المعجم الكبير ١٠/٢٣٩.

الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، عن عبد الله بن عباس، عن علي بن أبي طالب: لما نزل قوله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[1] دعاني رسول الله (ص) فقال لي: يا علي، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، فضقت بذلك ذرعاً، وعرفت أن متى ما أناديهم بهذا الأمر أر منهم ما أكره، فصمت حتى جاء جبريل (ع) فقال: يا محمد، إنك إلا تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك، فاصنع لنا صاعاً من طعامٍ، واجعل عليه رجل شاةٍ، وأملأ لنا عساً من لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب، حتى أكلمهم، وأبلغهم ما أمرت به، ففعلت ما أمرني، ثم دعوتهم له، وهم يومئذ أربعون رجلاً، يزيدون رجلاً أو ينقصونه، فيهم أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم، فجئت به، فلما وضعته تناول رسول الله (ص) حذية من اللحم، فشقها بأسنانه، ثم ألقاها في نواحي مختلفة، فقال: خذوا باسم الله، فأكل القوم حتى ما لهم بشيء حاجةٌ، وما أرى إلا مواضع أيديهم وأيم الله الذي نفس علي بيده إن كان الرجل الواحد ليأكل ما قدمت لجميعهم، ثم قال: اسقِ الناس، فجئتهم بذلك العس، فشربوا حتى رووا منه جميعاً، وأيم الله إن كان الرجل الواحد منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله (ص) أن يكلمهم، بدره أبو لهب إلى الكلام، فقال لهم: ما سحركم به صاحبكم، فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله (ص) فقال: الغد يا علي، إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما قد سمعت من القول، فتفرق القوم قبل أن أكلمهم، فأعد لنا من الطعام مثل الذي صنعت، ثم اجمعهم لي، ففعلت ثم جمعتهم، ثم دعاني بالطعام، فقربته لهم، ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا حتى ما لهم بشيء حاجةٌ، قال: اسقهم، فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا منه جميعاً، ثم تكلم رسول الله (ص) فقال: يا بني عبد المطلب، إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر، على أن يكون أخي وكذا وكذا؟ فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت وإني لأحدثهم سناً، وأرمصهم عيناً، وأعظمهم بطناً، وأخمشهم ساقاً، أنا يا نبي الله أكون وزيرك، فأخذ برقبتي، ثم قال: إن هذا أخي وكذا وكذا، فاسمعوا له وأطيعوا، فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع[2].

وما أراده تضعيف الرواية، وإنكار الولاية، لكن ما فعله أصبح تقوية لها، بدليل أن التلاعب بها معروف، من حذف عبارات الولاية، والاستعاضة بكلمات كذا وكذا.

يلحظ على الرواية، أنه قد أصابها ضررٌ ما، وكأن الأرضة لحستها، فحذفت بعض مضامينها، مثل خليفتي وصيي وعوضوا عن المحذوف بكلمة كذا وكذا، وجعلوا أمير المؤمنين (ع) ذي كرش وهذه التهمة، لأنه لم يملأ جوف بطنه من كسر الشعير حتى يكون

---

(١) الشعراء: ٢١٤.

(٢) الطبري: جامع البيان ١٤٨/١٩.

له كرش، هذا ليس محل الشاهد خشية الإطالة، نذكر دليلاً عن رسول الله قوله: يا علي إنك الأنزع البطين منزوع من الشرك مبطون من العلم[١] وما حذف في هذه الرواية، أدلته موجودة في بقية أدوار التنصيب كما سيتضح.

وحاول المتقي الهندي تضعيف الحديث فقال: "فيه عبد الغفار بن القاسم ... تركوه"[٢].

الدور الثاني: الإسراء والمعراج

ورد في قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٣] فعندما ترك رسول الله الدنيا وصعد إلى السماء، لابد من تنصيب خلفٍ له، هذا دليلٌ عقليّ، أما الأدلة النقلية الواردة في قوله لنريه من آياتنا، نقول ماذا أراه؟ هناك روايات منها:

أولاً: قال رسول الله (ص) قال لي ربي ليلة أسرى بي: من خلفت على أمتك يا محمد؟ فقلت: أنت يا رب أعلم، فقال: يا محمد إني انتجبتك لرسالتي واصطفيتك لنفسي فأنت نبيي وخير خلقي ثم الصديق الأكبر الذي خلقته من طينتك وجعلته وزيرك وهو أبو سبطيك الشهيدين سيدي شباب أهل الجنة وزوجته خير نساء العالمين أنت شجرتها؟ وعليٌّ أغصانها وفاطمة ورقها والحسن والحسين ثمارها، خلقتكم من طينة عليين وخلقت شيعتكم منكم لأنهم لو ضربوا على أنفهم بالسيف لم يزدادوا لكم إلا حباً! قلت: يا رب ومن الصديق الأكبر؟ قال: علي (ع)[٤].

ثانياً: لما وصل النبي (ص) إلى سدرة المنتهى، وهو الموضع الذي لم يكن يجوزه جبريل (ع) تخلف عنه وكان يأنس به، فلما تخلف عنه قال: في هذا الموضع تخذلني؟ فقال له: تقدم أمامك، فوالله لقد بلغت مبلغاً ما بلغه خلق الله عزّ وجلّ قبلك، ثم قال الله تعالى: يا محمد، قلت: لبيك يا رب، قال: فيم اختصم الملأ الأعلى؟ قلت: سبحانك لا علم لي إلا ما علمتني، فوضع يده بين ثدييه، فوجد بردها بين كتفيه، ثم قال: يا محمد من وصيك؟ فقلت: يا رب إني قد بلوت خلقك فلم أجد أحداً أطوع لي من عليٍّ، فقال: ولي يا محمد، فقلت: يا رب قد بلوت خلقك فلم أر فيهم أنصح لي من عليٍّ، فقال: ولي يا محمد فقلت لم أر فيهم أشد حباً لي من عليٍّ، فقال: ولي يا محمد، بشره أنه راية الهدى، وإمام أوليائي، ونور من أطاعني، والكلمة التي ألزمتها المتقين، من أحبه أحبني، ومن أبغضه أبغضني، مع أني

---

(١) زيد بن علي: مسند/٤٥٦.

(٢) كنز العمال ١١٤/١٣.

(٣) الإسراء: ١.

(٤) الكوفي: مناقب أمير المؤمنين A ٤٧٩/١.

أخصه ببلاء ما لم أخص به أحداً، فقلت: يا رب أخي وصاحبي ووارثي! قال: إنه سبق في علمي أنه مبتلى ومبتلى به مع أني أنحلته أربعة أشياء: العلم والفهم والحكم والحلم[١].

ثالثاً: قال الإمام الباقر (ع) عندما انتهى النبي (ص) إلى السماء السابعة إلى سدرة المنتهى قالت: ما جاوزني مخلوقٌ قبلك، فدفع إليه كتاب أصحاب اليمين وكتاب أصحاب الشمال فأخذ كتاب أصحاب اليمين بيمينه وفتحه ونظر فيه فإذا فيه أسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم وقبائلهم، وفتح كتاب أصحاب الشمال ونظر فيه فإذا هي أسماء أهل النار وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم نزل ومعه الصحيفتان فدفعهما إلى علي بن أبي طالب (ع)[٢] ألا يدل ذلك على خلافته، فإذا كان شخصٌ غيره مرشحٌ للخلافة أعطاه الكتاب.

رابعاً: قال له النبي محمد (ص) إني رأيت اسمك مقروناً باسمي في ثلاثة مواطن فآنست بالنظر إليه: إني لما بلغت بيت المقدس في معراجي إلى السماء وجدت على صخرتها "لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أيدته بوزيره، ونصرته بوزيره" فقلت لجبريل (ع): مَنْ وزيري؟ فقال علي بن أبي طالب (ع) فلما انتهيت إلى سدرة المنتهى وجدت مكتوباً عليها "إني أنا الله لا إله إلا أنا وحدي، محمد صفوتي من خلقي، أيدته بوزيره ونصرته بوزيره" فقلت لجبريل (ع): من وزيري ؟ فقال علي بن أبي طالب، فلما جاوزت سدرة المنتهى انتهيت إلى عرش رب العالمين جلَّ جلاله فوجدت مكتوباً على قوائمه "إني أنا الله لا إله إلا أنا وحدي، محمد حبيبي، أيدته بوزيره، ونصرته بوزيره"[٣].

خامساً: وقال له أيضاً: أنت إمام المسلمين، وأمير المؤمنين، وقائد الغر المحجلين، وحجة الله بعدي على الخلق أجمعين، وسيد الوصيين ووصيي سيد النبيين، يا علي، إنه لما عرج بي إلى السماء السابعة، ومنها إلى سدرة المنتهى، ومنها إلى حجب النور، وأكرمني ربي جلّ جلاله بمناجاته، قال لي: يا محمد؟ قلت: لبيك ربي وسعديك، تباركت وتعاليت، قال: إن علياً إمام أوليائي، ونور لمن أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين، من أطاعه أطاعني، ومن عصاه عصاني، فبشره بذلك، فقال علي (ع) يا رسول الله، بلغ من قدري حتى أني أُذكر هناك! فقال: نعم، فاشكر ربك، فخرَّ عليٌّ (ع) ساجداً شكراً لله على ما أنعم به عليه، فقال له رسول الله (ص): ارفع رأسك يا علي، فإن الله قد باهى بك ملائكته[٤].

سادساً: روى ابن عباس عن رسول الله (ص) قوله: لما عرج بي إلى السماء السابعة ومنها إلى سدرة المنتهى، إلى حجب النور، ناداني ربي جل جلاله: يا محمد، أنت عبدي وأنا

---

(١) الطبري الشيعي: نوادر المعجزات/٦٧.

(٢) الصفار: بصائر الدرجات/٢١٢.

(٣) الصدوق: من لا يحضره الفقيه ٤/٣٧٤، الخصال/٢٠٧.

(٤) الصدوق: الأمالي ٣٧٥.

ربك، فلي فاخضع، وإياي فاعبد، وعلي فتوكل، وبي فثق، فإني قد رضيت بك عبداً وحبيباً ورسولاً ونبياً، وبأخيك علي خليفةً وباباً، فهو حجتي على عبادي، وإمام لخلقي، به يعرف أوليائي من أعدائي، وبه يميز حزب الشيطان من حزبي، وبه يقام ديني، وتحفظ حدودي، وتنفذ أحكامي، وبك وبه وبالأئمة من ولده أرحم عبادي وإمائي، وبالقائم منكم أعمر أرضي بتسبيحي وتهليلي وتقديسي وتكبيري وتمجيدي، وبه أطهر الأرض من أعدائي وأورثها أوليائي، وبه أجعل كلمة الذين كفروا بي السفلى وكلمتي العليا، وبه أحيي عبادي وبلادي بعلمي، وله أظهر الكنوز والذخائر بمشيئتي، وإياه أظهر على الأسرار والضمائر بإرادتي، وأمده بملائكتي لتؤيده على إنفاذ أمري وإعلان ديني، ذلك وليي حقاً، ومهدي عبادي صدقاً[1].

سابعاً: روى الإمام الصادق عن أبيه (ص) عن رسول الله (ص) قال: لما أُسري بي إلى السماء سمعت صوتاً يتبعه ريح فسمعت السدرة وهي تنادي: واشوقاه إلى عليٍّ بن أبي طالب؟ فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: سدرة المنتهى قد اشتاقت إلى ابن عمك، وإذا أنا بملائكة عليهم أقراط من ذهب وأكاليل من جوهر وفوق الإكليل الدر والياقوت فقلت: يا جبريل ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ملائكة يقال لهم الأوابون، فسمعتهم يقولون: محمد خير الأنبياء وعلي خير الأوصياء، وإن الله عجن طينتي وطينة علي وطينة فاطمة من ماء الحيوان ثم خلق نوراً فقذفه فأصابني وأصاب علياً وأصاب فاطمة وأصاب أهل ولايتنا فمن أصابه ذلك النور هدي لولاية علي (ع) ومن لم يصب ذلك النور ضل عن ولاية علي! فنحن محرمون على النار، ما رآه النبي (ص) مكتوباً على ورق الجنة وعلى العرش[2].

ثامناً: قال النبي (ص) لما عرج بي إلى السماء وبلغت سدرة المنتهى ودعني جبريل (ع)، فقلت: حبيبي جبريل أفي هذا المقام تفارقني، فقال: يا محمد إني لا أجوز هذا الموضع فتحترق أجنحتي، ثم زج بي في النور ما شاء الله، فأوحى الله إلي: يا محمد إني اطلعت إلى الأرض اطلاعه فاخترتك منها فجعلتك نبياً، ثم اطلعت ثانياً فاخترت منها علياً فجعلته وصيك ووارث علمك والإمام بعدك، وأخرج من أصلابكما الذرية الطاهرة والأئمة المعصومين خزان علمي، فلولاكم ما خلقت الدنيا ولا الآخرة ولا الجنة ولا النار، يا محمد أتحب أن تراهم؟ قلت: نعم يا رب، فنوديت: يا محمد ارفع رأسك، فرفعت رأسي فإذا أنا بأنوار علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن بن علي والحجة يتلألأ من بينهم كأنه كوكب دري، فقلت: يا رب من هؤلاء ومن هذا؟ قال: يا محمد هم الأئمة بعدك المطهرون من صلبك، وهو الحجة

---

(١) الصدوق: الأمالي٧٣١.

(٢) الكوفي: مناقب ٢٣٩/١، الطبري الشيعي: نوادر المعجزات ٦٥/١.

الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ويشفي صدور قوم مؤمنين، قلنا: بآبائنا وأمهاتنا أنت يا رسول الله لقد قلت عجباً، فقال (ص) وأعجب من هذا أن قوماً يسمعون مني هذا ثم يرجعون على أعقابهم بعد إذ هداهم الله، ويؤذوني فيهم، لا أنالهم الله شفاعتي[١].

تاسعاً: روى أبو بصير عن الإمام الصادق (ع) قوله: عندما أُسري النبي محمد (ص) أوقفه جبريل موقفاً فقال له: مكانك يا محمد لقد وقفت موقفاً ما وقفه ملك قط ولا نبي، إن ربك يصلي فقال: يا جبريل وكيف يصلي؟ قال: يقول: سبوح قدوس أنا رب الملائكة والروح، سبقت رحمتي غضبي، فقال: اللهم عفوك عفوك، فقال له أبو بصير: جعلت فداك ما قاب قوسين أو أدنى؟ قال: ما بين سيتها إلى رأسها، كان بينهما حجاب يتلألأ يخفق ولا أعلمه إلا وقد قال: زبرجد، فنظر في مثل سم الإبرة إلى ما شاء الله من نور العظمة، فقال الله تبارك وتعالى: يا محمد، قال: لبيك ربي قال: من لأمتك من بعدك؟ قال: الله أعلم قال: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وسيد المسلمين وقائد الغر المحجلين قال ثم قال الإمام: والله ما جاءت ولاية عليٍّ (ع) من الأرض ولكن جاءت من السماء مشافهةً[٢].

عاشراً: سأل الإمام الصادق (ع) أحد صحابته بقوله: ما تروي هذه الناصبة؟ فقال: جعلت فداك في ماذا؟ قال: في أذانهم وركوعهم وسجودهم، فقلت: إنهم يقولون: إن أبي بن كعب رآه في النوم، فقال: كذبوا فإن دين الله عزّ وجلّ أعز من أن يرى في النوم، فقال له سدير الصيرفي: جعلت فداك فحدث لنا من ذلك ذكراً، فقال أبو عبد الله (ع): إن الله عزّ وجلّ لما عرج بنبيه (ص) إلى سماواته السبع أما أُوليهن فبارك عليه والثانية علمه فرضه فأنزل الله محملاً من نور فيه أربعون نوعاً من أنواع النور كانت محدقةً بعرش الله تغشي أبصار الناظرين أما واحداً منها فأصفر فمن أجل ذلك اصفرت الصفرة وواحد منها أحمر فمن أجل ذلك احمرت الحمرة وواحد منها أبيض فمن أجل ذلك ابيضَّ البياض والباقي على ساير عدد الخلق من النور والألوان في ذلك المحمل حلقٌ وسلاسل من فضة، ثم عرج به إلى السماء فنفرت الملائكة إلى أطراف السماء وخرت سجداً وقالت: سبوح قدوس ما أشبه هذا النور بنور ربنا، فقال جبريل (ع): الله أكبر الله أكبر، ثم فتحت أبواب السماء واجتمعت الملائكة فسلمت على النبي (ص) أفواجاً وقالت: يا محمد كيف أخوك إذا نزلت فأقرئه السلام، قال النبي (ص) أفتعرفونه؟ قالوا: وكيف لا نعرفه وقد أخذ ميثاقك وميثاقه منا وميثاق شيعته إلى يوم القيامة علينا وإنا لنتصفح وجوه شيعته في كل يوم وليلة خمساً ـ يعنّون في كل وقت صلاةٍ ـ وإنا لنصلي عليك وعليه، ثم زادني ربي أربعين نوعاً من أنواع النور لا يشبه النور الأول وزادني حلقاً وسلاسل وعرج بي إلى السماء الثانية فلما قربت من باب السماء الثانية نفرت الملائكة

---

(١) الخزاز القمي: كفاية الأثر/٧٢.

(٢) الكليني: الكافي ١/٤٤٢.

إلى أطراف السماء وخرت سجداً وقالت: سبوح قدوس رب الملائكة والروح ما أشبه هذا النور بنور ربنا فقال جبريل (ع) أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، فاجتمعت الملائكة وقالت: يا جبريل من هذا معك؟ قال: هذا محمد (ص) قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم قال النبي (ص) فخرجوا إلي شبه المعانيق فسلموا عليَّ وقالوا: أقرأ أخاك السلام، قلت: أتعرفونه؟ قالوا: وكيف لا نعرفه وقد أخذ ميثاقك وميثاقه وميثاق شيعته إلى يوم القيامة علينا وإنا لنتصفح وجوه شيعته في كل يوم وليلة خمساً ـ يعنّون في كل وقت صلاة ـ قال: ثم زادني ربي أربعين نوعاً من أنواع النور لا تشبه الأنوار الأولى، ثم عرج بي إلى السماء الثالثة فنفرت الملائكة وخرت سجداً وقالت: سبوح قدوس رب الملائكة والروح ما هذا النور الذي يشبه نور ربنا؟ فقال جبريل (ع) أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله، فاجتمعت الملائكة وقالت: مرحباً بالأول ومرحباً بالآخر ومرحباً بالحاشر ومرحباً بالناشر محمد خير النبيين وعلي خير الوصيين، قال النبي (ص) ثم سلموا عليَّ وسألوني عن أخي، قلت: هو في الأرض أفتعرفونه؟ قالوا: وكيف لا نعرفه وقد نحج البيت المعمور كل سنة وعليه رق أبيض فيه اسم محمد واسم علي والحسن والحسين والأئمة وشيعتهم إلى يوم القيامة وإنا لنبارك عليهم كل يوم وليلة خمساً ـ يعنّون في وقت كل صلاة ـ ويمسحون رؤوسهم بأيديهم قال: ثم زادني ربي أربعين نوعاً من أنواع النور لا تشبه تلك الأنوار الأولى ثم عرج بي حتى انتهيت إلى السماء الرابعة فلم تقل الملائكة شيئاً وسمعت دوياً كأنه في الصدور فاجتمعت الملائكة ففتحت أبواب السماء وخرجت إليَّ شبه المعانيق فقال جبريل (ع): حيَّ على الصلاة حيَّ على الصلاة حيَّ على الفلاح حيَّ على الفلاح، فقالت الملائكة: صوتان مقرونان معروفان، فقال جبريل (ع): قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة فقالت الملائكة: هي لشيعته إلى يوم القيامة، ثم اجتمعت الملائكة وقالت كيف: تركت أخاك؟ فقلت لهم: وتعرفونه؟ قالوا: نعرفه وشيعته وهم نور حول عرش الله وإن في البيت المعمور رقاً من نور ـ فيه كتاب من نور ـ فيه اسم محمد وعلي والحسن والحسين والأئمة وشيعتهم إلى يوم القيامة لا يزيد فيهم رجلٌ ولا ينقص منهم رجلٌ وإنه لميثاقنا وإنه ليقرأ علينا كل يوم جمعة[1].

حادي عشر: قال الإمام الصادق (ع)، ما من مرة عرج النبي (ص) إلا وقد أوصى الله عزّ وجلّ فيها النبي (ص) بالولاية لعلي والأئمة أكثر مما أوصاه بالفرائض[2].

وأخيراً: لا يقول قائل هذه روايات أهل السنة "الشيعة الإمامية" وهي ليست حجة علينا: نقول لهم تمهلوا وانظروا ما يأتيكم من رواياتكم ومن كتبكم المعتبرة، يعضد ويقوي ما ذكرناه، كما سنرى.

---

(١) الكليني: الكافي ٤٨٢/٣.

(٢) الصدوق: الخصال/٦٠١.

الدور الثالث: إرساله إلى اليمن

لوح النبي محمد (ص) بإمامة أمير المؤمنين (ع) في اليوم الذي أرسله فيه إلى اليمن، واعتراض المنافقين عليه، وهذا ما رواه عبد الله بن بريدة عن أبيه قال "بعث رسول الله (ص) بعثين إلى اليمن على أحدهما عليّ بن أبي طالب (ع) وعلى الآخر خالد بن الوليد فقال إذا التقيتم فعلي على الناس وإن افترقتما فكل واحد منكما على جنده فلقينا بني زيد من أهل اليمن فاقتتلنا فظهر المسلمون على المشركين فقتلنا المقاتلة وسبينا الذرية فاصطفى عليٌّ امرأةً من السبي لنفسه فكتب خالد بن الوليد إلى رسول الله (ص) يخبره بذلك فلما أتيت النبي (ص) دفعت الكتاب فقرأ عليه فرأيت الغضب في وجه رسول الله (ص) فقلت يا رسول الله هذا مكان العائذ بعثتني مع رجل وأمرتني أن أطيعه ففعلت ما أرسلت به فقال رسول الله (ص) لا تقع في علي فإنه مني وأنا منه وهو وليكم بعدي"[١].

يلحظ على الرواية أنها أصابها الضر فَحُرِفت عن مسارها الصحيح عندما جعلوا خالد بن الوليد نظير أمير المؤمنين (ع) في قيادة نصف الجيش، هذه أُريد بها رفع منزلته، وهي فضيلةً منسوبةً له كما نسب له أنه سيف الله المسلول، وينقض ذلك هزيمته وفراره في مؤتة عندما لملم شتات الجيش وانهزم به، وترك القوم يُمَثِّلوَن بجسد جعفر الطيار (ع) وما يضعف الرواية عدم ذكر اسم المرأة اليمانية وهل تزوجها (ع) أم لا؟ ومع ما فيها هي تصح دليلاً على ولاية الإمام (ع) لأن النبي (ص) غضب لمجرد الكلام فيه، وعلينا أن نتصور ما هو غضبه عند اغتصابهم الخلافة؟ وكذلك هي الحال عند الهجوم على دار ابنته؟.

ورواه الفضل بن دكين، عن ابن أبي غنية، عن الحكم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن بريدة قال: ذهبت مع الإمام علي (ع) إلى اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله (ص) ذكرت علياً فنقصته، فجعل وجههُ يتغير فقال: "ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم، قلت: بلى يا رسول الله! قال: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه"[٢].

سند الحديث فيه، الفضل بن دكين، أبو نعيم الملائي، مولى طلحة بن عبيد الله القرشي الكوفي، توفى سنة ٢١٩هـ، وكان أصغر من وكيع بسنة ولد سنة ١٣٠هـ[٣] وثقه العجلي فقال: الأحول كوفي ثقة ثبت في الحديث، رويَّ عنه في عدة مواضع[٤]. أتقن أهل زمانه ولم يدرك من روى عنه[٥] صدوق ثقة وكان يدلس أحاديث مناكير[٦] قيل ليحيى بن معين، إن

---

(١) ابن حنبل: مسند ٣٥٦/٥.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف ٥٠٦/٧، ابن أبي عاصم: الآحاد والمثاني ٣٢٥/٤.

(٣) البخاري: التاريخ الكبير ١١٨/٧، ابن خياط: طبقات/٢٩٣.

(٤) الثقاة ١/ ٤٠، ٢٠٥/٢.

(٥) ابن حبان: الثقاة ٣١٩/٧.

(٦) ابن شاهين: الثقاة/١٨٦.

قوماً يقولون إنه أقل خطأً من وكيع، أخطأ في عبد الرحمن بن عوف، والصحيح هو عبد الرحمن بن عبد القاري[١] روى عن سفيان الثوري قوله "من لم يأكل الجري ويمسح على الخفين ويشرب النبيذ فاتهموه"[٢] وهذه وحدها موجبة للطعن.

كان مع عبد السلام بن حرب، في حانوتٍ واحد، وهو من الرواة، وعنده ألوف، قيل لابن حنبل: أين يقع أبو نعيم من وكيع وعبد الرحمن بن مهدي ويزيد بن هارون؟ قال في الوسط، كيس يتحرى الصدق، وقيل له: أيهما أحب إليك، عبد الرحمن أو أبو نعيم؟ قال ما فيهما إلا ثبت إلا أن عبد الرحمن كان له فهم، وثقه علي بن المديني، وأبو حاتم، يحفظ حديث سفيان الثوري ومسعر حفظاً جيداً كان يحزر حديث سفيان الثوري ٣٥٠٠ حديث، وحديث مسعر نحو ٥٠٠ حديث، يأتي بحديث سفيان الثوري عن لفظ واحد لا يغيره، لا يلقن حافظاً متقناً، سئل أبو زرعة عنه وقبيصة فقال أبو نعيم أتقن الرجلين[٣].

أخرج البخاري في الإيمان والصلاة[٤] حافظ حجة إلا أنه يتشيع من غير غلوٍ ولا سبٍّ، قال ابن معين: كان أبو نعيم إذا ذكر إنساناً فقال هو جيدٌ وأثنى عليه فهو شيعيّ، وإذا قال: فلان كان مرجئاً فاعلم أنه من العامة لا بأس به[٥].

قيل هو الفضل بن عمرو بن حماد، ودكين لقب وأن رجلاً قال له كان اسم أبيك دكيناً قال اسم أبي عمراً ولكن لقّبه فروة الجعفي دكيناً، كتب عن ما يزيد على ١٠٠ شيخ ممن كتب عنه سفيان الثوري، وشاركه في ١١٣ شيخ، هو أعلم بالشيوخ وأنسابهم وبالرجال، ثقة ثبت صدوق، يزاحم به ابن عيينة، هو على قلة روايته اثبت من وكيع، حجة ثبت، رفعه الله بالصدق، متقناً شديد التثبت في الرجال، صدوق ثقة موضع للحجة في الحديث، يقظان عارفاً به ثم قام في أمر الامتحان ما لم يقم غيره، كان يعرف في حديثه الصدق متقن حافظ إذا روى عن الثقاة فحديثه أرجح ما يكون، حافظاً جداً[٦] ترجم له ابن حجر في طبقات المدلسين، فقال مشهور من كبار شيوخ البخاري[٧].

وقال عمران بن حصين: بعث رسول الله (ص) سرية واستعمل عليهم علياً، فصنع شيئاً أنكروه، فتعاقد أربعة من أصحاب رسول الله (ص)أن يعلموه، وكانوا إذا قدموا من سفر بدؤوا به فسلموا عليه ونظروا إليه، ثم ينصرفون إلى رحالهم، فلما قدمت السريّة سلموا عليه

---

(١) ابن معين: تاريخ١/٣٩٥.

(٢) ابن معين: تاريخ١/٣٥١.

(٣) ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ٧/٦١.

(٤) الباجي: التعديل والتجريح ٣/١١٨١.

(٥) الذهبي: ميزان الاعتدال ٣/٣٥٠.

(٦) ابن حجر: تهذيب التهذيب ٨/٢٤٥.

(٧) /٢٣.

فقام أحد الأربعة فقال: يا رسول الله! ألم تر أن علياً صنع كذا وكذا، فأقبل إليه يعرف الغضب في وجهه فقال "ما تريدون من علي؟ ما تريدون من علي؟ عليٌّ مني وأنا من علي، وعلي وليُّ كلِّ مؤمنٍ بعدي"[١].

في هذه الرواية لم يطرأ ذكر المرأة وإنما قالوا "ما صنع" ولا ندري ما صنع؟ لعله عمل بالسُنة المحمدية ولم يرق ذلك لمخالفيها فاعترضوا، ومع ذلك كلام القوم حجة عليهم، محل الشاهد منه صحيح إن الولي من النبي (ص) والنبي منه، وهو مرسل من الله سبحانه وتعالى وطاعته واجبةٌ، وعليه كل ما للنبي (ص) هو للوليّ خلا النبوة التي حلت محل الإمامة، وقد ثبت ذلك في قضية هارون من موسى.

ورواه عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال: لما بعث النبي (ص) علياً إلى اليمن، خرج بريدة الأسلمي معه، فعتب على الإمام علي (ع) في بعض الشيء، فشكاه بريدة إلى النبي (ص)، فقال: من كنت مولاه فإن علياً مولاه[٢].

وعليه لا يجوز لهم الشكوى، لأن المشتكي عليه رسول الله (ص) نفسه، وقد عبر عنه في أكثر من موضع، منها عندما قدم على رسول الله (ص) وفد أبي سرح من اليمن فقال لهم "لتقيمن الصلاة ولتؤتين الزكاة ولتسمعن ولتطعن أو لأبعثن إليكم رجلاً لنفسي يقاتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم، اللهم أنا أو كنفسي" ثم أخذ بيد الإمام علي (ع)[٣] ألا يكون هو صاحب الأمر، لأن رسول الله (ص) قال كنفسي.

وكان الخبر المشهور عن رسول الله (ص) قال لبني وليعة: "لتنتهن يا بني وليعةٍ، أو لأبعثن عليكم رجلاً عديل نفسي، يقتل مقاتلتكم، ويسبي ذراريكم" قال عمر بن الخطاب: فما تمنيت الأمارة إلا يومئذ، وجعلت أنصب له صدري رجاء أن يقول: هو هذا، فأخذ بيد علي (ع) وقال: هو هذا[٤] من ذلك يتضح طموح عمر في تولي الإمارة في حياة النبي (ص).

وعلى رواية أقام رسول الله (ص) على الطائف تسع عشرة ليلةً أو سبع عشرة ليفتتحها ثم قال يا معشر قريش لتنتهين أو لأبعثن عليكم رجلاً مني أو كنفسي فيقتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم ثم أخذ بيد الإمام علي (ع) فرفعها فقال هو هذا يا أيها الناس إن موعدكم الحوض[٥].

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنف ٥٠٤/٧، أبو داود: مسند/١١١.

(٢) المصنف ٢٢٥/١١.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف ٤٩٩/٧.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح ٢٩٤/١.

(٥) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ٣٤٣/٤٢.

كما ورد في ولايته على الناس بعد النبي (ص) أحاديث كثيرة رواها صحابته (ص) منها ما رواه، عمران بن حصين عن النبي (ص) قال "إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن من بعدي" وقال "علي مني وأنا منه ابن يؤدي عني إلا أنا أو علي"[١].

وقد شهد له رسول الله (ص) أنه منه، والنبي منه، وهذا ما رواه محمد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده قال "أن رسول الله (ص) بعث علياً مبعثاً فلما قدم قال له رسول الله (ص) الله ورسوله وجبريل عنك راضون" وقال له "أما ترضى أنك أخي وأنا أخوك"[٢].

روى الطبراني، عن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده قال لما قَتَلَ الإمام علي (ع) يوم أحد أصحاب الألوية قال جبريل (ع) يا رسول الله إن هذه لهي المواساة فقال النبي (ص) إنه مني وأنا منه قال جبريل وأنا منكما يا رسول الله[٣] وحبشي بن جنادة عن رسول الله (ص) قال: علي مني وأنا منه، ولا يؤدي عني إلا علي[٤].

الدور الرابع: الميثاق

ورد في قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾[٥] فالميثاق الذي فطر عليه بنو آدم هو موالاة رسول الله محمد (ص) ووصيه وليه علياً (ع) وهذا ما روي عن النبي (ص) قوله "أتاني ملك فقال يا محمد سل من أرسلنا من قبلك من رسلنا على ما بعثوا قلت على ما بعثوا قال على ولايتك وولاية علي بن أبي طالب" قال الحاكم تفرد به علي بن جابر عن محمد بن خالد عن محمد بن فضي ولم نكتبه إلا عن ابن مظفر وهو عندنا حافظ ثقة مأمون فهذه الأنواع التي ذكرتها مثلاً الألوف من الحديث يجري على مثالها وسننها[٦].

وروى الفتني عن جبريل (ع) قال "يا محمد إن رب العزة يقرئك السلام ويقول أنه لما أخذ الميثاق من النبيين أخذ ميثاقك وأنت في صلب آدم فجعلك سيد الأنبياء وجعل وصيك سيد الأوصياء على بن أبي طالب" قال الدار قطني موضوع[٧] أورده في الغرائب، في سنده بين مالك

---

(١) ابن حنبل: فضائل/١٥.

(٢) الطبراني: المعجم الكبير ٣١٩/١.

(٣) المعجم الكبير ٣١٨/١، المتقي الهندي: كنز ١٤٣/١٣.

(٤) ابن حنبل: فضائل الصحابة/١٥، ابن أبي شيبة: المصنف ٤٥٩/٧.

(٥) الأعراف/١٧٢.

(٦) معرفة علوم الحديث/٩٦، ابن عساكر: تاريخ ٢٤١/٤٢.

(٧) تذكرة الموضوعات/٩٨.

وأبي طالب ضعفاء، الواضع له أيوب بن زهير، يخبط في إسناده[١] وهذا وهمٌ من جانبهم، فإذا كانت الوصاية لفلان مثلاً، هل كانوا يناقشون متون أو أسانيد الروايات؟.

وقال حبة العرني: لما أتى الإمام علي (ع) الرقة نزل بمكان يقال له البليخ على جانب الفرات فنزل إليه راهب من صومعته فقال له: إن عندنا كتاباً توارثناه عن آبائنا كتبه أصحاب عيسى بن مريم (ع) أعرضه عليك؟ فقال علي: نعم! فقرأ الكتاب: "بسم الله الرحمن الرحيم الذي قضى فيما قضى وسطر فيما سطر، وكتب فيما كتب إنه باعث في الأميين رسولاً منهم يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويدلهم على سبيل الله، لا فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، أمته الحماديون الذين يحمدون الله على كل شرف، وفي كل صعود وهبوط، تذل ألسنتهم بالتهليل والتكبير، وينصره الله على كل من ناوأه فإذا توفاه الله اختلفت أمته ثم اجتمعت فلبثت بذلك ما شاء الله ثم اختلفت ثم يمر رجل من أمته بشاطئ هذا الفرات يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويقضي بالحق ولا ينكس الحكم، الدنيا أهون عليه من الرماد أو قال التراب - في يوم عصفت فيه الريح - والموت أهون عليه من شرب الماء، يخاف الله في السر، وينصح في العلانية، ولا يخاف في الله لومة لائم، فمن أدرك ذلك النبي من أهل البلاد فآمن به كان ثوابه رضواني والجنة، ومن أدرك ذلك العبد الصالح فلينصره فإن القتل معه شهادةٌ". ثم قال لعلي: فأنا أصاحبك فلا أفارقك حتى يصيبني ما أصابك، فبكى الإمام علي (ع) ثم قال: الحمد لله الذي لم يجعلني عنده نسياً منسياً، والحمد لله الذي ذكرني عنده في كتب الأبرار، فمضى الراهب معه وأسلم فكان معه حتى أصيب يوم صفين، فلما خرج الناس يطلبون قتلاهم قال الإمام علي (ع) اطلبوا الراهب، فوجدوه قتيلاً، فصلى عليه ودفنه واستغفر له[٢].

الدور الخامس: غزوة تبوك

لم يترك رسول الله (ص) الأمور سدى، بل كان جل همه بيان منزلة وصيه وخليفته وإيضاحها الناس، وكأنه يعلم ما تؤل إليه الأمور بعد استشهاده، فعيّن خليفته بقوله لعلي "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي"[٣] والغريب أن ابن الأبار نعت الإمام علي (ع) بالوصي ويسميه "سيد الأوصياء" ولكنه ليس بمنزلة هارون من موسى[٤].

---

(١) ابن حجر: لسان الميزان ١/ ٤٨٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ٢٨٣.

(٣) مسلم: صحيح ٧/ ١٢٠.

(٤) ابن السمط في خبر السبط/ ٤٧.

أما المناسبة التي قيل فيها الحديث، هو خروج النبي (ص) في غزوة تبوك، فقال له علي: أخرج معك؟ فقال له نبي الله: لا، فبكى الإمام علي (ع)، فقال له: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست بنبي، إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي[١] الذي يعرف تاريخ الغزوة، يعرف دنو أجل رسول الله (ص) لأن الغزوة وقعت سنة ٩هـ أي قبل سنة من استشهاده (ص).

ولهذا نقول ما هي منزلة هارون (ع)؟ وردت في قوله تعالى ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾[٢] وقوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾[٣] وقوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾[٤] وقوله ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾[٥] وقوله ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢)﴾[٦].

وقد أمر معاوية بن أبي سفيان، سعد بن أبي وقاص، أن يسبَّ أمير المؤمنين (ع) فرفض فقال له: ما منعك أن تسبه فقال ألا ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله (ص) فلن أسبه لأن تكون لي واحدة منهن أحب إليَّ من حمر النعم سمعت رسول الله (ص) يقول له خلفه في بعض مغازيه فقال له علي: يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان فقال له رسول الله (ص) يوم خيبر لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله قال فتطاولنا لها فقال: ادعوا لي علياً فأتى به أرمد فبصق في عينه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه[٧].

إذاً هذه منزلة هارون، أخو موسى شد به أزره وأشركه في أمره، ووزيره، وخليفته، ورحمةً له، ومَنْ صدقه، والذي يتدبر هذه الأمور كلها تجسدت في شخصية الإمام (ع) ذكرها النبي (ص) في أحاديثه، لا مجال لذكرها الآن فهي ليس موضوعنا.

وبعد كل هذه الأدلة قال الذهبي: فمولانا الإمام علي (ع) من الخلفاء الراشدين، المشهود لهم بالجنة... نحبه أشد الحب، ولا ندّعي عصمته[٨].

---

(١) النسائي: خصائص أمير المؤمنين (ع)/٦٣.

(٢) الأعراف: ١٤٢.

(٣) مريم: ٥٣.

(٤) الفرقان: ٣٥.

(٥) القصص: ٣٤.

(٦) طه: ٢٩ ـ ٣٢.

(٧) مسلم: صحيح ٧/١٢٠.

(٨) سير ١٣/١١٩.

قائمة المصادر:

القرآن الكريم.

- ابن الأبار. ت ٦٥٨ هـ.

درر السمط في خبر السبط، تح عز الدين عمر موسى، ط١ بيروت - ١٩٨٧.

- الباجي، سليمان بن خلف ت ٤٧٤هـ.

التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري، تح أحمد البزار، د. م، د. ت.

- البخاري، إسماعيل بن إبراهيم ت ٢٥٦هـ.

التاريخ الكبير، بيروت د. ت.

- ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن الرازي، ت٣٢٧ هـ.

الجرح والتعديل، ط١، بيروت - ١٣٧١هـ.

- الحاكم النيسابوري، محمد بن محمد. ت٤٠٥ هـ.

معرفة علوم الحديث، تح لجنة إحياء التراث، ط٤ بيروت - ١٤٠٠هـ.

- ابن حبان، محمد. ت ٣٥٤هـ.

الثقاة، ط١، الهند - ١٣٩٣هـ.

- ابن حجر، أحمد بن علي ت ٨٥٢ هـ.

تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس، تح عاصم بن عبد الله، ط١ - الأردن.

تهذيب التهذيب، تح مصطفى عبد القادر، ط٢، بيروت - ١٤١٥هـ.

لسان الميزان، ط٢ بيروت - ١٣٠٩هـ.

- الخزار القمي، علي بن محمد. ت٤٠٠ هـ.

كفاية الأثر في النص على الأئمة الاثني عشر، تح السيد عبد الطيف الحسيني، قم-١٤٠١ هـ.

- ابن خياط، خليفة ت ٢٤٠هـ.

كتاب الطبقات، تح سهيل زكار بيروت - ١٩٩٣م.

- ابن أبي الحديد، عز الدين بن هبة الله ت ٦٥٦هـ.

شرح نهج البلاغة، قم - ١٤٠٤هـ.

- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد. ت ٢٤١هـ.

فضائل الصحابة، تح د. وحي الله محمد عباس، ط١، بيروت - ١٩٨٣م.

المسند، بيروت - د. ت.

- أبو داود، سليمان بن الأشعث ت ٢٧٥هـ.

المسند، بيروت - د. ت.

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد ت ٧٤٨ هـ.

سير أعلام النبلاء، تح صلاح الدين المنجد، مصر - د. ت.

ميزان الاعتدال، تح علي محمد البجاوي، ط ١ بيروت ١٣٨٢هـ.

- زيد بن علي، ت ١٢٢هـ.

المسند، تح أحد علماء الزيديين، بيروت - د. ت.

- ابن شاهين، عمرو بن أحمد. ت ٣٨٥هـ.

تاريخ أسماء الثقاة ممن نقل عنهم العلم، تح صبحي السامرائي، ط١، الدار السلفية - ١٤٠٤هـ.

- ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد، ت ٢٣٥هـ.
المصنف، تح سعيد محمد اللحام، ط١ دار الفكر - ١٤٠٩هـ.
- الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي ت٣٨١ هـ.
الأمالي، قم-١٤٠٤هـ.
الخصال، قم-١٤٠٣هـ.
علل الشرائع، قم - د. ت.
كتاب من لا يحضره الفقيه، تصحيح علي اكبر الغفاري، ط٢ قم - ١٤٠٤هـ.
معاني الأخبار، قم-١٤٠٣هـ.
- الصفار، محمد بن الحسن ت٢٩٠ هـ.
بصائر الدرجات، قم-١٤٠٤هـ.
- الطبراني: سليمان بن أحمد. ت ٣٦٠هـ.
المعجم الكبير، تح حمدي عبد الحميد، ط٢، القاهرة - د. ت.
- الطبري، محمد بن جرير ت٣١٠ هـ.
جامع البيان في تأويل القرآن، بيروت-١٤٠٥هـ.
- الطبري الشيعي، محمد بن جرير بن رستم، ت، أوائل القرن الرابع الهجري.
نوادر المعجزات في مناقب الأئمة الهداة، تح مؤسسة الإمام المهدي، ط١، قم - ١٤١٠ هـ.
- ابن أبي عاصم الشيباني، أحمد بن عمرو ت٢٨٧ هـ.
الآحاد والمثاني، تح باسم فيصل، ط١، الرياض-١٩٩١م.
- العجلي، حمد بن عبدان ت٢٦١ هـ.
معرفة الثقاة، ط١، المدينة المنورة - ١٤٠٥هـ.
- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي، ت ٥٧١هـ.
تاريخ مدينة دمشق، تح علي شيري، دار الفكر - ١٤١٥هـ.
- الفتني، محمد طاهر بن الهندي، ت ٩٨٦هـ.
تذكرة الموضوعات (من دون بيانات نشر).
- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل ت ٧٧٤هـ.
البداية والنهاية، ط٢، بيروت - ١٩٧٤م.
- الكليني، محمد بن يعقوب ت٣٢٩ هـ.
الكافي، طهران - ١٣٦٥هـ.
- الكوفي، محمد بن سليمان.
مناقب أمير المؤمنين (ع) تح محمد باقر، ط١ مجمع إحياء الثقافة - ١٤١٢هـ.
- المتقي الهندي، علاء الدين بن علي ت٩٧٥ هـ.
كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تح بكري حياني والشيخ صفوة السقا، بيروت، د. ت.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري، ت ٢٦١هـ.
صحيح مسلم، بيروت - د. ت.
- ابن معين، يحيى ت٢٣٣ هـ.
تاريخ ابن معين، تح عبد الواحد حسين، بيروت - د. ت.
- النسائي، أحمد بن شعيب ت ٣٠٣هـ..
خصائص أمير المؤمنين (ع) تح محمد هادي الأميني، مكتبة نينوى الحديثة - د. ت. ❖

الإمـام عـلـي (ع)
واختياره للكوفة كمركز لخلافته

د. إيمان سالم الخفاجي
العتبة الكاظمية المقدسة

القرآن الكريم وسيرة الرسول (ص) وأهل بيته (ع)

من الله تعالى علينا نحن المسلمين بالنبي (ص) المُرسل إلينا من أنفسنا وهي نعمة لا تقدر ومنحة عظيمة جليلة ليخرجنا من الظلمات إلى النور، ويتفضل علينا بهدايتنا إلى الصراط المستقيم، وسوقنا إلى أقصى درجات الكمال الذي فيه ينبع ديننا الكامل، ولنوحد الله في العبادة، ويقوم الأخلاق الدينية والاجتماعية التي تتفرع على تلك الدعوة إلى ذكره وشكره قال تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[١]، وقد وردت أحاديث كثيرة عن الرسول الأكرم (ص) وعن أهل بيته (ع) في الذكر وفضائله وأنواعه وأوقاته وأماكنه وأدواته. وجاء في بعض الكتب المنزلة من الله على الأنبياء (ع) (وإن من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي)[٢]، وإن حب الله يقطع المحب عن غيره من الموجودات وهذا ما يسمى بالانقطاع عند أهل المعرفة، وتموت النفس الأمارة بالسوء وتبدأ الحياة العقلية للإنسان وفي أعلى درجاتها تستضئ بصيرة الإنسان بنور لقاء الله. وإن الله سبحانه يمكن رؤيته بالرؤية العقلية والقلبية وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين (ع) حيث قال: (لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد منها غير مباثن، متكلم لا بروية، ومريد بلا همة، صانع لا بجارحه، لطيف لا يوصف بالجفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف بالرقة، تعنو الوجوه لعظمته، وتجب القلوب من مخافته)[٣]. إن ما أنجبت الأمة الإسلامية علماء في كافة الفنون وفي كافة العصور هو نتيجة جهد ومشقة وهذا ما يظهر له أثر من الكتب المبثوثة والتي تزخر المكتبات في أرجاء المعمورة ولعل أبرز ما تحدث عند وما مدحه المسلمون شخصية طالما كان لها أثر في حياة المسلمين تلك الشخصية التي ما فتئ أحد يذكرها ويسرح خياله في ذلك العصر كيف امتاز عن بقية أقرانه، تلك الشخصية الإسلامية التي يكشفها من لا غبار على علمه تلك الشخصية (علي بن أبي طالب (ع))

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٧.

(٢) مستدرك الوسائل: ج٥، ص٢٩٨.

(٣) بحار الأنوار، ج٤، ص٥٣.

وقربه من الرسول (ص) فالكلام الذي يصدره أمير المؤمنين (ع) هو موافق لما قاله النبي (ص) وما قاله القرآن الكريم.

وعن إبراهيم بن سعد عن أبيه قال النبي (ص) لعلي: (أما ترض أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى)[١]. وهذه علامة مميزة لعلي (ع) كي يكون من الذين قال عنهم القرآن الكريم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[٢]. وعن فاطمة سلام الله عليها: إن رسول الله (ص) قال لها: (أما ترضين إني زوجتك أول المسلمين إسلاماً، وأعظمهم علماً فإنك سيدة نساء العالمين كما سادت مريم نساء قومها)[٣]. وعن زينب ابنة علي (ع) عن فاطمة بنت رسول الله (ص) قال: قال رسول الله (ص) لعلي (ع) (أما إنك يا علي وشيعتك في الجنة)[٤]. وعن سهل بن سعد الأنصاري قال: سالت فاطمة بنت رسول الله (ع) عن الأئمة فقالت: (كان رسول الله (ص) يقول لعلي (ع): يا علي! أنت الإمام والخليفة بعدي، وأنت أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضيت فابنك الحسن أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فإذا مضى الحسن فابنك الحسين أولى بالمؤمنين من أنفسهم... إلى آخر الحديث)[٥].

أهل البيت وخيارات المواجهة:

المدرسة الفكرية والفقهية لأهل البيت (ع) تشكل رؤية شاملة للإسلام، وبرنامجاً كاملاً لتطبيقه، ولاشك أنهم اهتموا ببث ونشر ما يعتقدون أنه الفهم الصحيح للدين، وأن يأخذ طريقه للتنفيذ والتجسيد في حياة المسلمين. ولوجود النص النبوي على مرجعيتهم كما في حديث الثقلين وحديث سفينة نوح وحديث الغدير وأمثالها، وباعتبارهم الأكفأ والأعرف بشريعة الله تعالى، فإن أئمة أهل البيت (ع) يرون لأنفسهم أحقية الإمامة والقيادة للأمة. لكن ذلك لم يدفع أياً منهم للصراع والمغالبة على الحكم والسلطة، ولا للسعي من أجل الفرض والهيمنة على الجمهور.

الإمام علي (ع) والخلافة:

بعد وفاة رسول الله (ص) ومبايعة أبي بكر بالخلافة في سقيفة بني ساعدة، كان هناك من يستحث الإمام عليا للتصدي للخلافة كما ينقل ابن الأثير في تاريخه.. قال: (فقالت الأنصار أو بعض الأنصار، لا نبايع إلا علياً... وقال الزبير: لا أغمد سيفاً حتى يبايع علي.. أقبل

---

(١) صحيح البخاري، ح٢، ص١٨٥ باب مناقب علي بن أبي طالب الهاشمي (ع).

(٢) سورة الرعد: الآية ٧.

(٣) أسنى المطالب، العلامة الوصابي اليمني، مخطوط، أعلام الهداية، فاطمة الزهراء (ع) سيدة النساء، مطبعة المجمع العالمي لأهل البيت، قم، ط٣، ح٣.

(٤) دلائل الإمامة: ٢ و٣ ومثله في ينابيع المودة ص٢٥٧.

(٥) يراجع كفاية الأثير: ١٩٣ ـ ٢٠٠، أعلام الهداية، ص٢٠٦.

أبو سفيان وهو يقول: إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم، ثم قال لعلي: ابسط يدك أبايعك، فوالله لئن شئت لأملانها عليه خيلاً ورجالاً، فزجره علي وقال: والله إنك ما أردت بهذا إلا الفتنة، وأنك والله طالما بغيت للإسلام شراً، لا حاجة لنا في نصيحتك)[١] ونحوه ورد في تاريخ الطبري[٢].

وينقل ابن قتيبة في كتابه (الإمامة والسياسة) إن العباس بن عبد المطلب قال لعلي: ابسط يدك أبايعك، فيقال: عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله[٣] ويبايعك أهل بيتك، فإن هذا الأمر إذا كان لم يقل[٤]، لكن علياً رفض ذلك حفاظاً على وحدة الأمة ومراعاة لخطورة الظروف.

ومرة أخرى عرضت الخلافة على الإمام علي (ع) بعد مقتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حيث كان واحداً من ستة عينهم الخليفة عمر ليختاروا أحدهم خليفة للمسلمين فعرض عبد الرحمن بن عوف على الإمام علي (ع) بمحضر المسلمين في المسجد قائلاً: هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه (ص) وفعل أبي بكر وعمر؟ فقال الإمام علي: اللهم لا ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي[٥]. لقد فوت على نفسه الخلافة آنذاك برفضه الالتزام بشرط لا يقتنع به، لأنه لم يكن حريصاً على السلطة بمقدار حرصه على مبادئه.

وقرأت مؤخراً تعليقاً جميلاً على هذه الحادثة التاريخية يقول فيه: (ولقد كان الجيل الأول من المسلمين رضوان الله عليهم يريد أن يجعل من تجربته السياسية والتنظيمية في إدارة الدولة، جزءاً من الشريعة، لولا تصدي الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) لمثل هذه المحاولة، وكلفه هذا التصدي التضحية بمنصب الخلافة، في أول عرض لتوليها، عندما رفض الالتزام بتجربة الشيخين بعد كتاب الله وسنة نبيه، إذ كان تقييمه لهذه التجربة لا يعدو كونها اجتهاداً بشرياً، يسع من بعدهم، ويتسع لآفاق المستقبل وبتضحيته هذه أوقف الإمام (كرم الله وجهه) زحف الثابت من الدين إلى حدود تلك المساحات)[٦].

ويتحدث المؤرخون عن تمنع علي وعزوفه عن الخلافة بعد مقتل الخليفة عثمان، لولا إلحاح الجمهور عليه، قال ابن كثير: (وقد امتنع علي من إجابتهم إلى قبول الإمارة حتى تكرر

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٠، ١١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٩٨٩م.

(٢) الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ج٢، ص٤٤٩، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

(٣) مجلة الرسول الأعظم: العدد ١٠ محرم ١٤٢٩هـ، ص٤٥.

(٤) ابن قتيبة الدينوري: عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، ج١، ص١٢، مؤسسة الحلبي، القاهرة.

(٥) ابن كثير: أبو الفداء الحافظ، البداية والنهاية، ج٧، ص١٤٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

(٦) الشطي: الدكتور إسماعيل: الإسلام الذي نريد، مقال في جريدة الشرق الأوسط، ٧، ٦، ١٩٩٨م.

قولهم له، وفر منهم إلى حائط بني عمرو بن مبدول، وأغلق بابه، فجاء الناس فطرقوا الباب وولجوا عليه، وجاؤوا معهم بطلحة والزبير فقالوا له: إن هذا الأمر لا يمكن بقاءه بلا أمير، ولم يزالوا به حتى أجاب)[١].

وحينما تصدى للخلافة، واضطر لمواجهة فتن المناوئين في حرب الجمل وصفين والنهروان حفاظاً على الأمن والاستقرار ووحدة الأمة، كانت تلك المواجهات مؤلمة له، وثقيلة على نفسه، ولولا كونه في موقع المسؤولية، لكان أبعد عن تلك الصراعات مع الطامحين للمواقع والمناصب، التي لا حرص له عليها، ولا رغبة له فيها، يقول (ص): (أما والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء ألا يقاروا على كظة ظالم، ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكاس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز)[٢].

الإمام علي يختار الكوفة مركزاً لخلافته:

المعلوم ـ تاريخياً ـ من أن الإمام علي (ع) بعد أن فرغ من حرب الجمل، انتقل بحكومته من المدينة إلى الكوفة واتخذ الكوفة قاعدة لحكمه، والكوفة يومئذ مركز الثقل في المجتمع الإسلامي الناشئ، ولوجود الاتباع والقواعد الشعبية الموالية لحكم الإمام (ع) روحياً وعاطفياً، وإن كانت هذه القواعد لم تع رسالة الإمام (ع) وعياً حقيقياً كاملاً. وكانت المدينة المنورة تمثل مركز القيادة السياسية والروحية للأمة الإسلامية إذ كان فيها أغلب المهاجرين والأنصار. والسؤال هنا لماذا تغيير مركز الخلافة؟ وخصوصاً إن المدينة كانت تتمتع بقدسية خاصة في نفوس المسلمين، وقد استطاعت أن تثبت عملياً صلاحيتها لذلك ما يقرب من خمسة وثلاثين سنة، فهل كان هذا التغيير أمراً عفوياً من الإمام (ع) أم أنه أمر مدروس؟ في نطاق خطة ذات أبعاد استراتيجية واعتبارات عسكرية وقيادية؟

ويمكن لنا أن نتعرف على ملامح هذه الخطة، من ملاحظة الظروف والأحداث القاسية التي واجهت الإمام (ع)، فقد كان يواجه تحدياً سافراً من تلك الفئات التي كانت تحلم بالحصول على امتيازات أكبر على حساب الدين والأمة وعلى حساب الشرعية، فبعد معركة الجمل وبعد أن تفرق المتمردون ورجعت عائشة إلى بيتها، وجدد الناس بيعتهم له (ع) في البصرة واستتب الأمن، ولاها ابن عمه عبد الله ابن العباس، وخرج منها بعد شهر أو شهرين من انتهاء المعركة متجهاً نحو الكوفة ليتخذها مقراً له[٣]، لأن الإمام (ع) قبل وقوع العصيان المسلح الذي قام به الحلف الثلاثي (طلحة، الزبير، عائشة) كان يعد العدة لإرسال

---

(١) ابن كثير: أبو الفداء، البداية والنهاية، ج٧، ص٢١٨، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

(٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة رقم ٣.

(٣) سيرة الأئمة، الحسني ج٢، ص: ٤٦٤.

جيش قوي إلى الشام يتولى قيادته بنفسه لإقصاء معاوية عنه، مما دعاه إلى أن يرجئ أمر معاوية ريثما يساوي حسابه مع هذا الحلف، ويفوت عليهم الفرصة التي كانوا يحلمون بها، وبالطبع خلال تلك المدة كان معاوية قد استعد استعداداً كاملاً ووجد في تمرد المنشقين عنه في الحجاز، فرصة لإنجاز خطته. فانقاد إليه أهل الشام، واظهروا غضبهم لمقتل عثمان، وحرصهم على الطلب بدمه من علي وأصحابه والحوا عليه في ذلك وهو مع ذلك يتأنى ويتخذ التدابير الكافية لكل الاحتمالات، وكان مع ذلك يطمع في العراق ويرسل إلى زعمائها وقادة الجيوش من يمنيهم ويغيرهم حتى انقاد إليه جماعة منهم، كل ذلك لم يغب عن علي (ع) وقد وضع في حسابه فآثر أن يكون على مقربة من معاوية فاختار الكوفة ليكون في مركز القوة عسكرياً وسياسياً[١].

وواضح من اختيار الإمام (ع) أن المدينة لا تتوفر فيها عوامل النجاح العسكري والسياسي إذا ما أخذ حجم التحدي بنظر الاعتبار، ومهما يكون من أمر فإننا نستطيع أن نجعل وضع المدينة في تقييم قدرتها على تحمل المواجهة في الأمور التالية[٢]:

أولاً: إن المدينة لم تكن تتوفر فيها كثافة سكانية كافية تستطيع أن تتحمل أعباء المواجهة للتحديات التي تنتظر هذا الحكم الجديد إذا ما أخذ حجم هذا التحدي بعين الاعتبار، فلقد كانت تلوح في الأفق رايات العصيان والتمرد على الشريعة، فلقد استغل أهل الأطماع فئات كبيرة من الناس وضللوها بالشبهات واستغلوا فيها بساطتها وعدم نضجها الرسالي لأنها منذ البداية لم تتح لها فرصة التعرف على الإسلام الصحيح، وإنما عاشت الإسلام المتمثل بالسقيفة وما أفرزته من إسلام منحرف ربت وأنشأت عليه وكلنا يعرف أن الإسلام الأموي ما هو إلا إسلام أطماع ومآرب ولا يمكن أن يقاس بأصالة إسلام الإمام علي (ع) وعمقه ووعيه للرسالة.

وإذا كانت كل هذه الفئات لم تتفاعل مع الإسلام الحقيقي تفاعلاً يسمح لها بالرؤية الصحيحة لأنها لم تعرف إلا الإسلام الأموي ولا سيما بلاد الشام التي افتتحها يزيد ومعاوية ابن أبي سفيان عسكرياً في عهد أبي بكر، وظلت تعيش في ظل حكمهم باستمرار فمن الطبيعي أن لا تتورع عن مناهضة الشرعية والتمرد عليها.

ومن أين لمدينة أن تؤمن لعلي (ع) الجيش الذي يقدر به على المواجهة والاحتفاظ بالموقع، فضلاً عن إنزال الضربة القاصمة والنصر؟ وبديهي أن الاستعانة بالأعراب حول المدينة، إن لم تكن مضرة فلا أقل من أنها سوف لا تكون كافية لتحقيق كامل الأهداف وبشكل مرضي ودقيق.

---

(١) راجع سيرة الأئمة، الحسني، ص ك ٤٦٥ – ٤٦٦.

(٢) راجع: مجلة الحكمة، استراتيجية الإمام، للعاملي ص: ٣٣.

أما الاعتماد على النجدات من سائر الأقطار الأخرى كالعراق وفارس مثلاً، فلربما يكون من السهل جداً على أعداء علي (ع) عرقلة ومنع وصول من يريد الوصول إليه منهم بشكل طبيعي وسليم.

ثانياً: لا تتوفر في المدينة الموارد الاقتصادية الضخمة التي تستطيع تأمين احتياجات الجيش يعد بعشرات الألوف، لأنها أرض صحراوية قاحلة، ليس بها زرع ولا ضرع. وهي بعيدة عن مناطق التموين.

ثالثاً: إن المدينة لم تكن شديدة الولاء للشرعية المتمثلة بعلي (ع) حيث مركز ثقل الأمويين ومحبيهم من التيميين، الزبيريين، ومن ينتمي إليهم من أهل الأطماع وبالتالي كل من وترهم الإسلام على يد الإمام علي (ع)... ومعنى اعتماد المدينة كقاعدة للخلافة وعاصمة لها هو أن تكون الأسرار العسكرية متوفرة لدى الجهة المناوئة، وأن تكون جبهة الإمام (ع) أمام تحدي الانهيار من الداخل وعرضة للأعمال الخيانية لصالح الناكثين والقاسطين. وذلك لوجود أعوانهم ومحبيهم بين ظهراني السلطة الحاكمة التي يستحيل أن تقدم على أي إجراء ضد أي شخص مادام الشخص لم يثبت أي اتهام ضده، حتى تثبت إدانته بالطرق الشرعية.

رابعاً: إن الجيل الجديد الذي تربى في المدينة لم يكن قد اعتاد الحياة الصعبة التي تتطلبها الحروب الطويلة الطاحنة التي خاضها الإمام علي (ع) لأن شباب المدينة كانوا قد اعتادوا حياة الرخاء والدعة، لأنهم صاروا يعيشون على العطاءات السخية التي كان يغدقها عليهم خلفاء الذين سبقوا علي (ع) حتى أصبح من الصعب عليهم التخلص من أجواء الرفاه التي يعيشونها والتضحية بأنفسهم للمصاعب والمشاق التي تتطلبها الحروب.

خامساً: لقد كان الإسلام جديداً على العراق، وكانت العادات القبلية والجاهلية، لا تزال تتحكم في روابطه وعلائقه الاجتماعية وكانت الحروب فيه محكومة لزعماء القبائل عموماً، لا للإيمان والعقيدة، وكانت المدينة أبعد عن ذلك ولو بشكل محدود، فكان إغواء أهل العراق من قبل معاوية أقرب احتمالاً وأسهل منالاً، وإذا صار العراق مع معاوية فإن وضع المدينة العسكري والاقتصادي سوف يصير حرجاً جداً، ولهذا فلابد من تدارك الأمر وحفظ العراق أولاً، ثم استغلال روح التنافس التي كانت قائمة بين القطرين العراق والشام، وحتى الروح القبلية أيضاً وتوظيفها في صالح الإسلام والأمة بدلاً من أن يستغلها معاوية في غير هذا السبيل.

وهكذا نجد أن المدينة لا تستطيع في هذه الظروف بالذات أن تكون عاصمة للخلافة، ومنطلقاً لتحركاتها بحرية، وإنما نجد الكوفة على الضد، فهي بالإضافة إلى قربها من الشام والبصرة، وموقعها الوسط في قلب العالم الإسلامي، مضافاً إليها المميزات التالية:

١- امتلاكها للطاقات البشرية التي تمكنها من مواجهة التحدي مهما كان كبيراً.

٢- قدرتها الاقتصادية على التموين المستمر للجيوش التي سوف تواجه الحرب، لما تملكه هي والمناطق القريبة إليها من ثروات زراعية وموقع تجاري حيوي في المنطقة سواء بالنسبة للفرس والعرب على حد سواء.

٣- ضآلة قدرة الأخطبوط الأموي، والتيمي، والزبيري، ومن وترهم الإسلام على يد علي (ع) على التحرك والمناورة فيها.

٤- لم يكن أهل الكوفة قد تعودوا على لذائذ الحياة وزبارجها، وكان يسهل عليهم التضحية وخوض غمار الحروب وتحمل الصعاب. ولهذه الأسباب جميعاً، جاء اختيار الإمام (ع) للكوفة، وذلك لاعتبارات استراتيجية وعسكرية فرضت عليه ذلك ولم يكن نقل العاصمة ضرباً من العفوية والارتجال[1].

رفض الإمام علي (ع) أنصاف الحلول:

والآن نناقش رفض الإمام (ع) للمساومات، هل كان عناداً؟! بقيت ظاهرة مهمة في حياة الإمام (ع) عندما كان حاكماً متصرفاً ومصرفاً لشؤون المسلمين نود مناقشتها وإلقاء الضوء عليها، ألا وهي إصرار الإمام (ع) وتأكيده الواعي منذ أن مارس الحكم إلى أن خر صريعاً، على رفض كل الصيغ وأنصاف الحلول التي واجهته في تصفية الانحراف، ولم يفكر مطلقاً بمساومة الانحراف ومهادنته على حساب الأمة بأي شكل من الأشكال. هذه الظاهرة من حياة الإمام (ع) السياسية ـ رفض أنصاف الحلول أو قبول المساومات ـ استرعت انتباه وأقلام أغلب المؤرخين، قديماً وحديثاً وقد جاءت تحليلاتهم وكتاباتهم فجة بعيدة عن واقع التاريخ وعن فهم صحيح لحقيقة موقف الإمام (ع).

أما الإمام علي (ع) فقد كان حريصاً كل الحرص في معالجة مشاكل عصره، وعلى إعطاء العناوين الأولية الأصيلة للصيغة الإسلامية للحياة، والوقوف على التكليف الواقعي الأولي كما يسميه الأصوليون دون أن يتجاوزها إلى ضرورات استثنائية تساومية تفرضها طبيعة الملابسات والظروف الآنية العاجلة. وسوف نناقش هذه الظاهرة، وكالاتي:

أولاً ـ المستوى السياسي.

ثانياً ـ المستوى الفقهي[2].

الدوافع والأسباب:

١- **المستوى السياسي:** وعلى الصعيد السياسي، نرى أن هناك أشخاصاً عاصروا الإمام (ع) وكان رأيهم في الإمام (ع) ومعالجته لمسائل الحكم وإصرارهم على استبعاد أو

---

(١) مجلة الحكمة، العدد الرابع، السنة ١٤٠٠ هـ، العاملي: مقالة استراتيجية الكوفة في خلافة الإمام علي(ع)، ص: ٢٩ – ٣٠.

(٢) ينظر في هذا البحث على ما جاء في محاضرة السيد الشهيد الصدر على طلبته في النجف الأشرف.

رفض كل أشكال المساومات وأنصاف الحلول لوناً من ألوان العناد، وهو بالتالي يعقد الموقف ويثير الصعاب في دولته، ومعناه ترسيخ تلك المشاكل، بالنهاية عجز الإمام (ع) عن مواجهة حلها وسوف تشغله عن مهامه الرئيسية في إدارة الحكم والمضي بتجربته إلى حيث يريد، وخصوصاً إلى أن الإصرار والإلحاح على التمسك بالمواقف المبدئية سيجعل القضية في طريق مسدود، ولا بأس أن تعتبر كلا الطرفين المتنازعين إن هذا الأمر تنازلاً مرحلياً من قبله ليخطط على ضوءه للمرحلة المقبلة من المفاوضات مثلاً[١].

وقد جاءه المغيرة بن شعبة مقترحاً إبقاء معاوية والياً على الشام ريثما تستتب الأمور وبعد ذلك سوف لا يبايع، وبالإمكان استبداله وتغييره بعد أن تتم البيعة في كل أطراف الدولة للإمام (ع).

ونفس القول قاله جرير بن عبد الله للإمام (ع) طالباً منه أن يوسطه للأمر "ابعثني يا أمير المؤمنين إلى معاوية فآتيه فادعوه على أن يسلم لك هذا الأمر، ويجامعك على الحق على أن يكون أميراً من أمرائك وعاملاً من عمالك"[٢]. ولكن الإمام (ع) رفض عرض جرير بن عبد الله ورد عليه قائلاً: "اذهب إلى معاوية بكتابي فإن دخل في ما دخل فيه المسلمون وإلا فانبذ إليه وأعلمه إني لا أرضى به أميراً وإن العامة لا ترضى به خليفة"[٣]. أما معاوية فيزور جرير بمنزله مساوماً إياه بقوله "يا جرير إني قد رأيت رأياً، قال هاته. قال: اكتب على صاحبك (علي) يجعل لي الشام ومصر جابة فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة عن عنقي واسلم له هذا الأمر، واكتب إليه الخلافة".

مضمون رسالة جرير للإمام علي (ع):

ويكتب جرير ناقلاً مضمون الرسالة للإمام (ع) ويجيبه الإمام (ع): "أما بعد فإنما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة وأن يختار من أمره ما يحب، وأراد أن يريثك حتى يذوق الشام وأن المغيرة بن شعبة قد كان أشار علي أن استعمل معاوية على الشام، وأنا بالمدينة فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني اتخذ المضلين عضداً، فان بايعك الرجل، وإلا فاقبل".

فالإمام (ع) في جواب هذا الشخص رفض كل هذه المساومات وأنصاف الحلول، واستمر في خطه السياسي الرافض، مؤكداً سياسته في رفض هذه التنازلات بقوله (ع): "ولكني آسي أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً

---

(١) من حياة أهل البيت، التسخيري ص: ٢١.

(٢) كتاب صفين ٢٧ ـ ٢٨، لنصر بن مزاحم.

(٣) ن. م ص: ٢٨.

والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حداً في الإسلام، وإن منهم من لم يسلم إلا بعد أن رضخت له على الإسلام الرضائخ"[١]. وقال بصدد الأموال المغصوبة وردها إلى بيت المال: "وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فإن الحق لا يبطله شيء، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق"[٢].

ومن هنا بالذات، جاءت أقوال بعض المعاصرين، ويردده عندنا بعض المؤرخين والكتاب بأن الإمام (ع) كان بإمكانه أن يسجل نجاحاً أكيداً ونصراً محققاً من الناحية السياسية على أعدائه لو قبل أنصاف الحلول ومارس هذا اللون من المساومات ولو بشكل مؤقت.

٢- **المستوى الفقهي:** ونتناوله من خلال مفهوم فقهي شائع يدعى (بقانون التزاحم) أو ما يسمى في البحوث السنية (بالاستحسان)، ويعنون به أن الواجب الأهم إذا توقف على مقدمة محرمة لا يجوز تركه بحجة حرمة المقدمة بل يجب المحافظة على الواجب الأهم فمثلاً عندما يتوقف إنقاذ إنسان من الغرق على اجتياز أرض لا يرضى صاحبها باجتيازها ففي هذه الحالة يجيز لنا الشارع المقدس اجتياز الأرض حتى ولو بدون رضى المالك، وتسقط حرمة هذه الملكية لأن عملية الإنقاذ أهم من المقدمة المحرمة وهي اجتياز الأرض دون رضى المالك وكذلك "إذا تمترس الكفار المحاربون أثناء الحرب بالمسلمين الأسرى واضعين إياهم أمامهم ليتقوا هجوم المسلمين ولم يكن للمسلمين سبيل بالوصول إلى العدو إلا باختراق المسلمين الأسرى وبسفك دمائهم فيكون جائزاً سفك دمائهم إذا كانوا يشكلون عقبة في انتشار الرسالة الإسلامية وبهذا المعنى كتب الشهيد الأول في اللمعة الدمشقية يقول: "وهكذا يجوز قتل الترس ممن لا يقتل، ولو تمترسوا بالمسلمين كف ما أمكن ومع التعذر فلا قود ولا دية"[٣]. وكذلك عندما كان الرسول (ص) في بعض غزواته مضطراً إلى الخروج من المدينة عن طريق معين تعترضه مزارع مملوكة لأصحابها وكان الجيش بطبيعة مروره يتلف كثيراً من محاصيل هذه المزارع مما دعا أصحابها إلى أن يطالبوا الرسول (ص) بالتعويض عما أصابهم من ضرر فلم يجبهم الرسول(ص) كل ذلك لأن النتيجة كانت أهم من المقدمة لأن هذا الجيش الفاتح كان يسير لأجل أن يغير وجه الدنيا ويخرج أهلها من الظلمات إلى النور فما قيمة تلف مزرعة صغيرة إذا كان الجيش الإسلامي بأهدافه العظيمة سوف يحفظ لنا المبدأ الإسلامي العادل في توزيع الثروات في العالم على الخط الطويل. وهذا أمر معقول من الناحية الفقهية لأن القاعدة تقرر بأن الواجب إذا توقف على مقدمة محرمة وكان ملاك الوجوب أقوى من ملاك الحرمة فلا بد من تقديم الواجب على الحرام.

---

(١) نهج البلاغة ج١ ص: ٥٩ وشرح النهج، ج ص: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٢) نهج البلاغة ج١ ص: ٥٩ وشرح النهج، ج ص: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

(٣) نهج البلاغة، ج١ ص: ٢١٧، ثورة الحسين، شمس الدين، ص: ٥٤.

لماذا لم يطبق الإمام (ع) هذه القاعدة الفقهية في تصرفاته ومواقفه السياسية:

ومن هنا يقرر المعارضون لسياسة الإمام (ع) لو أن علياً استفاد من تطبيق هذه القاعدة الفقهية واتجهت جهوده إلى الواجب الأكبر في تملك زمام قيادة المجتمع الإسلامي والعمل على إحراز المكاسب الإسلامية الكبيرة من خلالها ولا بأس أن تبقى بعض المحرمات في سبيل الحفاظ على الواجب الأكبر مادامت مبرراتها الشرعية الفقهية موجودة، ولاسيما تملك الإمام (ع) لزمام القيادة سوف يفتح على المسلمين أبواب الخير والسعادة ويقيم فيهم حكومة الله على الأرض.

فالسؤال بشكل أدق هو لماذا يتوجه الإمام (ع) إلى تحقيق الهدف الأكبر ويترك لمعاوية ولاية الشام ولو إلى حين ويصرف نظره عن الأموال المسروقة التي نهبها بنو أمية من بيت مال المسلمين مؤقتاً ولماذا لا يكون عمله هذا تطبيقاً حياً لمفهوم التزاحم الذي تكلمنا عنه، وذلك بتقديم الأهم على المهم كما يريد هؤلاء؟! حيث صرحوا للإمام في معرض إقناعه بضرورة المساومة من أن بقاء معاوية وإن كان له ضرر وخطره على الأمة الإسلامية إلا أن بقاء وديمومة دولة الإمام (ع) وانتشار نفوذه وفرصة بناء القاعدة الشعبية لحكم الإمام (ع) وإجلاء الأطروحة الإسلامية الصحيحة مما علق بها من المسخ والتشويه وتأكيد معالمها في الحياة الاجتماعية بالإضافة للجوانب الحياتية الأخرى وبعد أن يتمكن من كل هذا ويتقوى على عدوه فإنه (ع) يبادر حينذاك بتصفية البؤر المضادة لحكمه واحداً بعد الآخر ومن موقع القوة.

فهؤلاء المعترضون تصوروا قيام (تزاحم) بين أهم ومهم فجاء اقتراحهم هذا لإبقاء معاوية على ولاية الشام لكي تبقى دولة الإمام (ع) ومن ثم التحرك على الفتنة والقضاء عليها. ونحاول الإجابة على كل هذه التساؤلات ونقول بأن القاعدة الفقهية التي تحدثنا عنها سابقاً ليست صالحة للإطباق على مواقف الإمام (ع) ولم يكن الإمام كقائد رسالي يمثل الإسلام وأهدافه وأن يقبل هذه المساومات وأنصاف الحلول وذلك لملاحظة النقاط التالية وأخذها بنظر الاعتبار.

النقطة الأولى: كانت من أهم أهداف الإمام (ع) التي رسمها منهجاً لسلوكه السياسي: هو توطيد وترسيخ قاعدة حكمه في قطر من أقطار العالم الإسلامي، ألا وهو العراق وذلك لوجود الأتباع والقواعد الشعبية الموالية لحكمه روحياً وعاطفياً وإن كان العراقيون لا يعون رسالته وعياً حقيقياً كاملاً. ولهذا كان الإمام (ع) بحاجة ملحة لبناء طليعة واعية في دولته الجديدة التي كان يخطط لإنشائها في العراق تلك الطليعة الواعية التي تكون أمينة على الرسالة وأهدافها، وساعداً ومنطلقاً له على ترسيخ هذه الأهداف في كل أرجاء العالم الإسلامي. فالإمام (ع) منذ تسلمه للحكم كان يشعر بوجوب بناء هذه الكوادر الطليعية المؤمنة والتي سوف تشرف على القاعدة الشعبية والتي ستكون سنده في تسيير الحكم. فالإمام (ع) لم يكن يملك هذه الطليعة الواعية بل كان بحاجة إلى أن يبنيها.

وكيف تواتيه فرصة البناء العقائدي وهو في جو ملبد من المساومات وأنصاف الحلول حتى ولو كانت المساومة جائزة شرعاً ومستوفية لشروط قانون التزاحم الفقهي وذلك لأن التربية الروحية والفكرية والعاطفية التي استهدفها الإمام (ع) في طليعته الواعية لا يمكن أن تنمو بذورها في أوساط قواعده الشعبية والإمام (ع) يعيش جو المساومات وأنصاف الحلول . فالإمام (ع) يشعر شعوراً قويا وملحاً بأن دولته والأمة من بعد دولته لابد لهما من طليعة وقاعدة واعية تعتمد في حمل الأهداف الرسالية وترسيخها في واقع الأمة وإرجاء عالمها المترامي، كانت هذه القاعدة الواعية قدرة في ممارسة الحكم الإسلامي الصحيح. وهذه القاعدة الشعبية الواعية لم تكن جاهزة عند استلامه الحكم حتى يستطيع الاتفاق معها أو يقنعها بوجهة نظره في المساومات وتبرير ضرورتها الاستثنائية. بل أن الظروف وملابسات الواقع آنذاك تطلبت منه بذل كل الجهود لبناء جيش عقائدي واع بروحه وفكره وعاطفته أمثال عمار بن ياسر وأبي ذر ومالك الأشتر وغيرهم من طليعة الإمام الواعية.

فبناء هذه الطليعة وتلك القاعدة ليس سهلا ولا ممكناً لو أن الإمام (ع) اتجه لسلوك سبيل المساومات وأنصاف الحلول فهي تناقض وعمله التربوي في بناء الجيش العقائدي الواعي فافتقاده (ع) لهذا الجيش معناه فقدانه القوة الحقيقية التي يعتمدها في بناء الدولة الإسلامية. ومن هنا كانت قناعة الإمام (ع) وحرصه على أن يحتفظ بطهر وصفاء عملية التربية في بناء جيشه العقائدي الواعي فجاءت ممارساته إيحاءات تربوية تغييرية يكون فيها القدوة تتعلم فيها القواعد وتتزود بها الطليعة الواعية فكان عليه أن يظهر أمامهم قائداً لا تزعزعه المغريات ولا يتنازل لأي نوع من المساومات حتى يعين (ع) تلك الطلائع من خلال هذه المواقف الثابتة أن يبنوا المدلول الرسالي لأطروحته بأبعادها الواسعة للحياة. ومن هنا نفهم موقف الإمام (ع) في رفضه لكل المساومات والحلول الوسط من أجل إتمام هدفه في بناء جيش عقائدي وخلق جو نفسي وفكري وعاطفي ليكون ذلك الجيل مواكباً للأهداف العظيمة في حياته وبعد مماته.

وكان يعني قبول الإمام (ع) لأي شكل من أشكال التنازل معناه فشله في تربية الفئة الواعية المدركة لمبادئها وأهدافها وضياع لأهم ضمان للنجاح وهو اطمئنان أصحابه وقواعده بقائدهم والشعور بالثقة الكاملة وإخلاصه، ولا يمكن أن يتصور هؤلاء أمامهم (ع) الذي قال بحث معاوية وأمثاله من بني أمية: "ألا وإن أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية فإنها عمياء مظلمة عمت خطتها وخصت بليتها وأصاب البلاء من أبصر فيها وأخطأ البلاء من عمي عنها ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية وقطعاً جاهلية ليس فيها منار هدى ولا علم يرى"[1]. ويصف رايتهم بأنها:

---

(١) نهج البلاغة، ص: ١٣٨.

"راية ضلال، قد قامت على قطبها وتفرقت بشعبها تكيلكم بصاعها وتخبطكم بباعها قائدها خارج من الملة قائم على الظلة"[١]، "وأنهم مطايا الخطيئات وزوامل الآثام"[٢]. ومن هنا نخلص إلى نتيجة: إن جو المساومة لا يخلق الجو الرفيع نفسياً وفكرياً وروحياً ولا يتلائم مع خططه التربوية في بناء جيل عقائدي واعي.

النقطة الثانية: إن استلام الإمام (ع) للحكم جاء أعقاب الثورة على خليفة المسلمين عثمان أي على أثر ارتفاع وانفجار العواطف التي وصلت ذروتها في مقتل عثمان والإطاحة بحكمه لانحرافه عن كتاب الله وسنة نبيه (ص) حيث أن مجيء الإمام (ع) لم يكن مجيئاً عادياً. يقول الإمام (ع) بهذا الصدد: "فأُبلتم إلي إقبال العوذ المطافيل على أولادها تقولون: البيعة البيعة قبضت كفي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجاذبتموها"[٣]، بل جاء في لحظة الثورة وهي تركيز وتعبئة وتجميع كل الطاقات العاطفية والنفسية في الأمة الإسلامية فكان لابد للإمام (ع) أن يغتنم هذه اللحظة المليئة بكل ما استنبطته من زخم وطاقات عاطفية ونفسية وفكرية وماذا ينتظر القائد الرسالي غير لحظة ارتفاع في حياة الأمة لكي يستثمر هذه اللحظة في سبيل إعادة هذه الأمة إلى مسيرها الطبيعي. "وقد كان لهذه السرعة في تطبيق الإصلاحات الجذرية أثرها المزدوج في الوصول نحو الهدف فهو من جهة: يستفيد من الطاقات المتأججة فعلاً والتي تسترخص البذل في سبيل تحقيق النتيجة ومن جهة أخرى كان يشارك في إبقاء الجذوة متقدة لفترة أطول مما يساعد على إمكانية التقدم بعملية الإصلاح وترسيخها في المجتمع وهذه السرعة بالتالي ستفاجئ القوى المنحرفة فلا تدع لها مجالا للتخطيط والمؤامرة"[٤].

النقطة الثالثة: أراد الإمام (ع) أن تدرك الأمة آنذاك وتتفهم بان واقع المعركة بينه وبين خصومه ليست معركة ذاتية بينه وبين معاوية أو بين قبيلتين (بني هاشم وبني أمية)، وإنما هي معركة الإسلام مع الجاهلية، وقد حرص (ع) كل الحرص في توعية الناس بأن واقع المعركة هي عين معركة رسول الله (ص) مع الجاهلية التي حاربته في بدر واحد. والإمام علي (ع) كانت مهمته الرسالية الكبرى، هي أن يحافظ على وجود الأمة دون أن تتنازل الأمة الإسلامية عن كيانها وكرامتها ووجودها. ولا يمكن تفسير عمل الإمام (ع) إلا أنه راض وقابل بمواكبة المؤامرة ولا يمكن نفترض بأن للإمام أن يساهم في هذه المؤامرة ولو أن الإمام هادن معاوية، فإن موقفه المساوم هذا يعني أمرين: الأول: منح معاوية فرصة ثمينة ليحكم

---

(١) نفس المصدر السابق، ص: ١٥٦.

(٢) نفس المصدر السابق، ص: ٢٢٤.

(٣) نهج البلاغة رقم النص: ١٣٧.

(٤) من حياة أهل البيت، التسخيري ص: ٧٧.

قبضته ويستفيد من الموقف ويكسب الشرعية وهذا يعني في إدراك الإمام (ع) التفريط في مستقبل الأمة ولمستقبل تجربتها الإسلامية ككل. وهذا يعني أن تباع الأمة بعقد يقبل الفسخ لأناس أرادوا أن يبيعوها بعقد لا يقبل الفسخ. والثاني: تفاقم ظاهرة الشك (المصطنع) وفقدان الثقة بالقائد وشرط الثقة بالقائد من الشروط المهمة لحصول التأثير المطلوب في الأمة. وكان الإمام (ع) يمثل رمز القيادة الواعية التي تريد أن تربي الأمة على المدى الطويل، فإن وجدته الأمة وهو يساوم عليها ويبيعها لحكام ظلمة فقدت بالضرورة ثقتها وولائها به. ومن الملاحظ - تاريخياً - في أواخر حياته (ع) أن روح الشك قد سرت في بعض قطاعات الأمة (الشك في واقع معركته مع معاوية) رغم أن عوامل ذلك الشك كانت عوامل تبريرية ذاتية لكن دون أن يكون لها مبرر موضوعي خارجي. ولهذا كان تصميم الإمام (ع) على أن يجابه المؤامرة ويفضحها قبل أن تتجذر في واقع الأمة فأعلن الحرب دون هوادة على كل هذه البؤر بعد أن أعلن لمن طلبوا منه قبول أنصاف الحلول أنه قد قلب هذا الأمر ظهره وبطنه فلم يجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد (ص)[1].

النقطة الرابعة: لم يركز الإمام (ع) في طريقة تعامله مع مشكلة الانحراف وإيجاد حل لها بالفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط وإنما كان يحمل طموحاً وهدفاً أكبر من ذلك كان يتعامل مع التاريخ أكثر مما كان يتعامل مع فترة حكمه القصيرة. فقدم منهجه للتأريخ فخلده الأريخ كأعظم إنسان بعد النبي (ص) وأكمل خطاه وسار على منهجه أروع سيرة فكان إسلاماً مجسداً حقاً. الإمام علي (ع) كان قد وعى مشكلته آنذاك بأنه قد أدرك المريض وهو في آخر مرضه حيث لا ينفع العلاج. هذه الحقيقة الجلية، دفعت أمامنا (ع) أن يفكر بأشواط أطول وأوسع لخوض معركته الرسالية ولم يدر في خلد يوماً أن يركز على الفترة الزمنية القصيرة من سني حكمه التي عاشها بل كان يتلخص إيمانه بأن الإسلام بحاجة إلى أن تقدم له في خضم تعقيدات الانحراف أطروحة واضحة نقية لا شائبة فيها ولا غموض ولا التواء ولا تعقيد ولا مساومة فيها ولا نفاق.

وهذه الأمة التي هي اشرف أمم الأرض برسالتها لا يمكن لها أن تحفظ هذه العلاقة بينها وبين الإسلام على أساس معطيات (إسلام السقيفة) الذي أنتج للأمة الإسلامية قادة منحرفين أمثال – معاوية بن أبي سفيان ويزيد وعبد الملك بن مروان وهارون الرشيد ولكي تحفظ هذه الصلة بين الأمة ورسالتها العظيمة لابد من إعطاء صورة واضحة محددة للإسلام وهذه الصورة:

أعطيت نظرياً: على مستوى ثقافة أهل البيت (ع).

أعطيت عملياً: على مستوى تجربة حكم الإمام علي (ع).

---

(١) صفين، ص: ٤٧٤.

ولهذا كان الإمام (ع) يستغل كل الفرص ليعمل على تعميق وعي الإسلام في الأمة ويربي الطليعة المؤمنة التي تشكل على المدى الطويل الرابط الحقيقي بين الإسلام والأمة وليضع المنهج الذي يبقى في وعي الأمة منهجاً إسلامياً حقاً وتبقى تقارن بينه وبين منهج أي حكم يأتي من بعده فتعيدها هذه المقارنة إلى صحتها وتبرق في ضميرها بوارق العودة إلى الإسلام من جديد[١].

ومن هنا جاء تأكيد الإمام (ع) على العناوين الأولية في التشريع الإسلامي وعلى خطوطه الرئيسية لكي يقوم المنهاج الإسلامي واضحاً غير ملوث بلوثة الانحراف التي كتبت على تاريخ الإسلام مدة طويلة من الزمن وقد استمر الإمام (ع) في صموده ومواجهته لكل المؤامرات التي ساهمت في صنعها الأمة – المضللة الغافلة – على أساس جهلها وعدم وعيها وإدراكها وشعورها بالدور الحقيقي الذي يمارسه الإمام (ع) في سبيل حماية وجودها من الضياع وحماية كرامتها من أن تتحول إلى سلعة تباع وتشترى. ولهذا كان يحرص الإمام (ع) كل الحرص على طرح الصيغة الإسلامية الكاملة للحياة والوقوف على التكليف الواقعي دون القفز عليه أو تجاوزه إلى ضرورات استثنائية تفرضها طبيعة الملابسات والظروف المعقدة[٢]. ضروريات استثنائية تفرضها الملابسات والظروف المعقدة"[٣]، ولو أن الإمام (ع) كان قد مارس قبول أنصاف الحلول وباع الأمة عن إرادتها مع خيار الفسخ إذن لكان بها قد اشترك في إنجاح هذه المؤامرة وسلخ الأمة عن إرادتها وشخصيتها وكانت الأمة آنذاك بحاجة كبيرة لكي تستطيع أن تكون على مستوى المسؤولية والمقدرة لكي تتخلص من تبعات هذه المؤامرة، فكان لا بد لها أن تشعر بكرامتها وإرادتها وحريتها وأصالتها وهي تعيش الصراع مع الجاهلية، وهذا كله مما لا يتفق مع ممارسة الإمام (ع) لأنصاف الحلول.

النقطة الخامسة: تحدثنا الروايات التاريخية، بما لا مزيد عليه، عن صور وألوان مخزية من الانحرافات والفساد بكل معنى الكلمة فقد كان وضعا يشهد سباقا إلى اللهو والمجون والفجور. "ولم يكن ولاة عثمان هؤلاء من ذوي السابقة في الدين والجهاد في الإسلام، وإنما كانوا مهتمين في دينهم، بل كان فيهم من أمره في الفسق، ورقة الدين معروف مشهور: كان فيهم عبدالله بن سعد الذي بالغ في إيذاء النبي (ص) والسخرية منه وبالغ في الهزء بالقرآن حتى نزل القرآن بكفره، والوليد بن عقبة ممن أمرهم في الفسق معروف مشهور، وقد نزل فيه قرآن يعلن فسقه"[٤] أما سعيد بن العاص الذي خلف الوليد فقد استقبله

---

(١) التسخيري، من حياة أهل البيت، ص، ١٣٣

(٢) نفس المصدر، ص: ١٤٦.

(٣) نفس المصدر، ص: ١٤٦

(٤) عن ثورة الحسين، شمس الدين، ص: ٣٨.

الكوفيون بالكراهية وعدم الرضا لأنه كان شاباً مترفاً لا يتحرج من الإثم ولا يتورع من الإفك.

روى ابن سعد: أن قال مرة في رمضان بعد أن ولي المصر: من رأى منكم الهلال؟ فقال له هاشم بن عتبة الصحابي العظيم: "أنا رأيته وأصبح هاشم داره مفطراً عملاً بقول رسول الله (ص): "صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته" وفطر الناس لإفطاره وبلغ ذلك سعيداً فأرسل إليه وضربه وحرق داره"[١].

وكذلك عبدالله بن عامر بن كريز، إذ ولي البصرة وهو ابن أربع وعشرين سنة وقد سار سيرة البذخ والترف. وقد قام مقتل عثمان بنهب ما في بيت مال المسلمين في البصرة وسار إلى مكة وانضم إلى المتمردين على الإمام علي (ع)[٢]، وناهيك عن الحديث عن معاوية وترفه. فإذا كان ولاة الأمصار الهامة هم بهذه المنزلة فماذا نتوقع من الجهاز الإداري الأصغر من هؤلاء والذي كان يضج بالترف والفساد[٣].

من خلال هذه الحقيقة، نفترض ونقول: لو أن الإمام علي (ع) كان قد أمضى هذه الأجهزة الفاسدة، بكل فسقها وفجورها، فليس من المعقول - بمقتض طبيعة الأشياء - أن يتمكن الإمام (ع) من ممارسة عملية التغيير الحقيقي في تجربته السياسية التي يتزعم قيادتها. والحقيقة هي: إن أي موقف رسالي يستهدف تغييراً جذرياً وإصلاحاً حقيقياً في بيئة أو أي مجتمع من المجتمعات تشمله هذه الحقيقة المطلقة وهي "إن كل إصلاح وتغيير، لا يمكن أن ينشأ أو أن ينبثق من خلال الأوضاع والأجهزة الفاسدة نفسها، بل لابد من نسف وإزالة هذه الأوضاع ومؤسساتها المعطلة لمهمة التغيير والإصلاح. إن القائد يستمد قوته وقدرته من أسباب النصر الطبيعية أي من تلك الركائز نفسها، بعد أن تتعمق وتنمو هذه القدرات عنده باستمرار، من خلال أجهزته ومؤسساته التي هي قوته التنفيذية، والتي هي واجهته وتعبيره وتخطيطه إلى الأمة".

النقطة السادسة: إن الإمام (ع) لو كان قد أمضى ولو مؤقتاً الأجهزة الفاسدة التي خلفها عثمان بن عفان وعلى رأسها، إقصاء حاكمية معاوية بن أبي سفيان وبتعبير آخر لو باع الإمام (ع) الأمة لمعاوية بيعاً مرحلياً مؤقت مع خيار الفسخ لحصل كل ما في الأمر على نقطة قوة مؤقتة وفقاً للنصائح التي أسديت للإمام في هذا المجال ونقطة القوة هنا هي أن معاوية سوف يبايعه ومعه أهل الشام هذه القوة التي سيكسبها الإمام (ع) في حساب عملية التغيير تقابلها نقطة قوة سوف يحصل عليها معاوية ألا وهو اعتراف الإمام (ع) بشرعية معاوية في

---

(١) عن كتاب حياة الإمام الحسن، ص: ٢٦٣.

(٢) أسد الغابة ج٣، ص: ٢٦٣.

(٣) راجع للاستفسار من حياة أهل البيت (ع)، التسخيري، ص: ١٤٣.

الحكم وبأن معاوية رجل على أقل تقدير سيوصف بأنه عامل قدير على تسيير مهام الدولة وحماية مصالح المسلمين ورعاية شؤونهم.

فهناك إذن اعتراف من قبل الإمام (ع) يعطي نقطة قوة لمعاوية في مقابلها نقطة قوة يأخذها الإمام عن طريق الإمضاء المؤقت لولاية معاوية ورضوخه لسلطان الإمام الشكلي وتحييده من مخالفته للإسلام والإمام وهذا الإمضاء المؤقت سيتيح للإمام الفرصة للقضاء على أعدائه بالتدريج وتصفية بؤرهم وتنفيذ أطروحته في نهاية الأمر. ولا يعني هذا أن معاوية عندما يبايع أو يأخذ البيعة لخليفة في المدينة أن جيشاً في الحكومة المركزية سوف يدخل الشام وأن هناك ارتباطاً عسكرياً حقيقياً سوف يوجد بين الشام وبين الحكومة المركزية وإنما يبقى بعد أخذ البيعة أيضاً هذا الوالي همزة الوصل الحقيقية والفعالة بين هذا البلد وبين الحكومة المركزية.

فضعف الحكومة المركزية من ناحية وترسخ معاوية وقدم ولايته في الشام من ناحية أخرى وخصوصاً أن الشاميين لم يعرفوا حاكماً مسلماً قبل معاوية وأخيه يزيد منذ دشن الشام حياته الإسلامية الاستثنائية والتي أعطيت له من قبل عمر بن الخطاب وأعطيت معه له الصلاحيات الاستثنائية في أن ينشئ له سلطنة وملكية في الشام بدعوى أن هذه السلطنة ستكون مظهر عز وجلال للإسلام في مقابل دولة القياصرة.

بينما الإمام (ع) إذا أراد بعد هذا الموقف أن يعزل معاوية من ولاية الشام كان باستطاعة معاوية أن يثير في وجه الإمام (ع) بالإضافة إلى جانب وجوده المادي المترسخ منذ زمن طويل في الشام – الشبهات على المستوى التشريعي والإسلامي متسائلاً أمام الناس. لماذا يعزلني الإمام علي؟! وخصوصاً بعد أن اعترف بأني حاكم كفوء صالح لإدارة شؤون المسلمين؟!

مثل هذه الأسئلة كان بإمكان معاوية أن يلقيها في وجه الإمام (ع) ولم يكن للإمام (ع) أي جواب مقنع يتقدم به أمام الرأي العام الإسلامي بينما لو بادر الإمام (ع) منذ البداية بعزله وتنحيته وعلى أساس أنه يؤمن بعدم صلاحيته وبأنه شخص لا تتوفر فيه شروط الحاكم الإسلامي ولأنه والي منحرف وهو بريء ولا يتحمل مسؤولية وجود معاوية كحاكم في الفترة السابقة أثناء خلافة عمر بن الخطاب أو عثمان بن عفان لكان جوابه مقنعاً أمام الرأي العام الإسلامي!

النقطة السابعة: وهنا نفترض أن الإمام علي (ع) لو كان قد أمضى حاكمية وولاية معاوية بن أبي سفيان لبايعه ولمنح الإمام (ع) نقطة القوة. ولكن كل المؤشرات والقرائن التي كانت تكتنف موقف الإمام (ع) تنبئ عن أنه لم يكن ليبايع الإمام (ع) لو أبقاه في ولاية الحكم وكل الملابسات التاريخية كانت لا توحي بصحة هذا الافتراض القائل "بأن إمضاء حاكمية معاوية كأسلوب وكمرحلة يعني أن معاوية سوف يمضي خلافة الإمام (ع) ويعطيه البيعة فأن معاوية لم يعص الإمام (ع) لأن الأخير عزله عن الولاية وإنما كان ذلك – في أكبر

الظن – جزءاً من مخطط لمؤامرة طويلة الأمد (للأموية) الحاقدة على الإسلام. الأموية التي كانت تخطط لنهب مكاسب الإسلام بالتدريج. فمعاوية كان عارفاً بالمعادلة القائمة حينئذ. ومدركاً أن الفرصة الآن هي أسنح له من أي وقت آخر وكان يعلم أن الإمام إذا هادنه فإنما ذلك لضرورة استثنائية ولابد أن الإمام سينهي هذه الهدنة عندما يتمكن منه وسيعمل لتصفيته وإفناء قواعده لأنه يعرف الإمام جيداً وقد خبره في كثير من المواقف الحاسمة ويعي مدى نظره وإخلاصه. وكانت تصريحات معاوية وتصرفاته كلها توحي بأنه لم يكن ليبايع للإمام (ع) وكان يطالب بدم عثمان وقتل قتلته ويتهم أكثر أصحاب الإمام (ع) وقادته بذلك.

وكان يوهم العامة من الناس أن المقام الذي يمتلكه إنما هو حق طبيعي وكرامة إلهية من الله بها عليه.

فمن يقول في خطبة له بحضور مندوب الإمام (ع) الذي جاء ليأخذ البيعة:

"غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً لن ننزعه طوعاً ما جاب الصدى وسقط الندى وعرف الهدى حملهم على خلاقنا البغي والحسد فالله نستعين عليهم ثم يمضي يقول: "أيها الناس إني خليفة أمير المؤمنين عمرؤ بن الخطاب واني خليفة عثمان بن عفان عليكم"[١]، "وقتل مظلوماً وتعلمون إني وليه"[٢].

وهو بهذا يمهد ليعلن نفسه خليفة للمسلمين بعد أن جعل نفسه امتداداً للخلافة وكانت طماع معاوية في الخلافة لم تكن لتخفى على أحد ولم يكن الجيش الذي أعده وهيأه إلا ليحارب من يتولى الخلافة كائناً من كان لقد كان يضلل بدعوته إلى إعادة الأمر شورى بين المسلمين بعد أن يقتص من قتلة عثمان.

وكتب للإمام (ع) يقول:

"وقد أبى الناس إلا قتالك حتى تدفع لهم قتلة عثمان فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام"[٣]. وهكذا قدر للمؤامرة (الأموية) أن تنفذ على مراحل كانت المرحلة الأولى منها هو ترسيخ وجود الأخوين في الشام يزيد بن أبي سفيان ومن بعده أخيه ومن ثم استقطاب أهل الشام عن طريق معاوية بتكريس بقائه هذه المدة الطويلة. لقد كان معاوية يتحين الفرص لمقتل الخليفة عثمان لأن مقتله سيمكنه من سلاح غير منظور يستطيع به الدخول إلى ميدان الصراع مع الإمام (ع) وعين هذه الحقيقة تفسر تباطؤه عن نصرة عثمان وبعد أن استنصره واستصرخه وكتب له مبيناً بأنه يعيش لحظات الخطر الأخيرة

---

(١) صفين، لنصر بن مزاحم، ج١ ص ٣٢.

(٢) ن. م، ص: ٨١.

(٣) نقلاً عن سيرة الأئمة الاثني عشر ج١، ص: ٤٦٨.

ولكن معاوية يجيبه وكان معاوية – على أقل تقدير – قادراً أن يؤخر هذا المصير المحتوم (بخليفة عثمان) إلى مدة أطول لو أنه بادر لنصرته ولكن معاوية بالعكس كان يخطط يبقى هذا التيار الثوري ليمهد لسقوط عثمان على يد الثوار المسلمين قتيلاً وبعدها يأتي ويطالب مدعياً بأنه ابن عم الخليفة المقتول وولي دمه[١].

ومن المعلوم أن معاوية لم تكن تتاح له هذه الفرصة الثمينة كل يوم فهي فرصة تلبي الآمال والأطماع الأموية التي كان يحلم بها منذ أن دخل الإسلام معترك الحياة وذلك لكي ينهب مكاسبه ومنجزاته. هذه الفرصة الذهبية لم يكن من المضنون إن معاوية سوف يغيرها عن طريق الاكتفاء بولاية الشام بل أن ولاية الشام كانت مرحلة في تزعم ونهب كل الوجود الإسلامي وتجيره لأطماع بني أمية. وهذا يعني أن تعيين وإبقاء معاوية والياً على الشام سوف لن يكون على مستوى أطماعه في المرحلة الأولى والتي بدأت بمقتل عثمان بن عفان من مراحل المؤامرة الأموية على الإسلام.

نستنتج مما سبق أن فرضية ركون معاوية إلى البيعة لو أقره الإمام (ع) افتراض غير منطقي لا ينسجم مع طبيعة الأحداث والأشياء.. أما أسلوب المساومة وقبول أنصاف الحلول فلم تكن إلا أسلوباً من أساليب معاوية لكسب الوقت واتخاذ جانب المظلوم ورفع شعاره لإغراء الناس به. ويمكن أن نشير إلى كثير من الخسائر التي يمكن أن تمنى بها الحركة الإمام (ع) وذلك بقبوله للمساومات.

الخسائر المتوقعة:

١- إمضاء الظلم واتخاذ المضلين عضداً، وإمضاء الأطروحة الأموية اللا إسلامية.
٢- إضاعة فرصة التربية القيادية وذلك عن طريق لعب أوراق أنصاف الحلول والمساومات.
٣- إضاعة الفرصة المؤاتية للقضاء على ألد أعداء الإسلام وذلك بالتفريط بحالة الصحوة الثورية للجماهير الإسلامية عقيب مقتل عثمان.
٤- إن المواقف المساومة وأنصاف الحول تؤدي إلى غياب وفقدان الرؤية الواضحة للأطروحة الصحيحة التي ينشدها الإمام (ع) لامته التي ابتليت بها وغير ذلك من الخسائر والمضار التي اعتبرها الإمام (ع) الكفر بعينه[٢].

النقطة الثامنة: الوضع الذي كان يعيشه الإمام (ع) مع ملاحظة طبيعة الأمة في ذلك الوضع لم يكن يوحي بالاعتقاد بأن الإمام عاجز عن إمكان تحقيق النجاح في عمليته التغييرية دون اللجوء إلى حل وسط. لان المفهوم الفقهي (لقانون التزاحم) إنما يتحقق فيما إذا

---

(١) صفين، نصر بن مزاحم ج ٨١.

(٢) التسخيري، من حياة أهل البيت، ص: ١٦٢ – ١٦٣.

كان هناك توقف بالفعل وهو توقف الواجب الأهم على المقدمة المحرمة فإذا توقف هذا الواجب الأهم وتأكد أنه لا يمكن التوصل إليه إلا عن طريق هذه المقدمة المحرمة ولن كل الظروف آنذاك لم تكن توحي أو تؤدي إلى اليقين بمثل هذا التوقف وذلك لأن المؤامرة التي اضطلع بمسؤولية إحباطها الإمام (ع) لم تكن قد نجحت بعد بل كانت الأمة في يوم قريب سابق عن يوم مصرع عثمان كانت قد عبرت تعبيراً معاكساً ومضادا لواقع هذه المؤامرة ولمضمونها.

صحيح أن المؤامرة على وجود الأمة وأصالتها تمتد جذورها تاريخياً إلى أمد طويل إلى أيام الجاهلية ولكن الأمة التي سهر الرسول (ص) لكي يمنحها أصالتها وكرامتها وشخصيتها ووجودها الحضاري نرى حتى أن الرسول (ص) نفسه ألزم نفسه وقد ألزمه ربه في الكتاب الكريم بضرورة التشاور مع المسلمين وذلك من أجل تربيتهم نفسياً وإعدادهم لتحمل مسؤولياتهم وإشعارهم بأنها الأمة الجديرة بتحمل مسؤوليات هذه الرسالة العظيمة التي أنزلت رحمة للعالمين. ولكن المؤامرة ومخططها بدأوا يعملون بالتدريج للقضاء على وجود الأمة وأصالتها وتحويل وجودها إلى سلطنة وملك عضوض، حيث تمت مصادرة الوجود الإسلامي الأصيل للأمة وأعطي لهذا الوجود للحاكم والسلطان. هذا البديل لم يبرزه عمر في زمانه بل أسرها في نفسه ولكنه عبر عن هذا البديل بكل صراحة حينما اغتيل وحينما طلب منه حاشيته المتملقون أن يوصي بعده وألا يهمل أمة محمد (ص) بدون تعيين وقد قال عمر حين طلب منه الناس الاستخلاف:

"لو أدركني أحد رجلين لجعلت هذا الأمر إليه، لوثقت به سالم مولى أبي حذيفة وأبي عبيدة الجراح ولو كان حياً ما جعلتها شورى"[1] إذن من هذا النص "إن الخليفة لم يكن يفكر بعقلية نظام الشورى، ولذا إن عمر يسند الأمر إلى ستة أشخاص ويوكل أمر التعيين إلى الستة أنفسهم دون أن يجعل لسائر المسلمين أي دور حقيقي في الانتخاب. والخليفة عمر بعمله هذا كان متحفظاً لأنه لم يعين واحداً وإنما وضعها في ستة أنفار".

هذه الادعاءات كانت تقال خارج نطاق دستور الدولة.. أما في نطاق الدستور كانت لا تزال الصيغة الإسلامية الصيغة المعتمدة التي تنص على: "إن المال مال الله والناس سواسية والمسلمون كلهم عبيد الله لا فرق بين قرشيهم وعربيهم وأعجميهم أو بين مسلم وآخر". هذه الصيغة الدستورية استمرت حتى في عهد عثمان ولكن ولاته الأمويين بتغطرسهم وعجرفتهم وتهورهم كانوا يترجمون الواقع السيئ وينطقون به والواقع هو غير الدستور المكتوب الذي يعترف نظرياً بأن الأمة هي صاحبة الرأي وسيدة الموقف وإن أرض

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢٤٨/٣.

السواد هي ملك لها. هكذا كان الأمر.. وهذا يعني أن عناصر المؤامرة المخطط لها لم تستكمل شروط نجاحها بعد، بالرغم من كل هذه المقدمات والإرهاصات النظرية والعملية، فالظروف والملابسات التي أحاطت بالأمة آنذاك لم تكن لتؤدي إلى يأس بل كانت تؤدي إلى أمل بقهر الانحراف. وما حدث من خلال سني حكم الإمام (ع) الأربعة كان يؤكد هذا الأمل، فالإمام (ع) استطاع أن يسيطر على الموقف بسهولة ولولا مسألة التحكيم ولولا شعارٌ طرح من قبل معاوية (رفع المصاحف) ينعكس بشكل خاطئ لدى جماعة معينة من جيش الإمام (ع) وتشق صفوفه.. وهذا لكان بينه وبين معاوية وتصفيته إلى الأبد بضعة أمتار وقليل من الزمن.

وبعد أن أدركنا كل هذه الحقائق نرى أن أمل الأمة واعتقادها في أن علياً (ع) يمكنه أن يحقق الهدف ويعيد للأمة وجودها وكرامتها من دون حاجة إلى المساومات وأنصاف الحلول يكون أمل الأمة هذا معقولاً وراجحاً... ومن هنا كانت نظرية الإمام (ع) بأنه لم يكن هناك أي مجوز يقوده لمزالق المساومات وأنصاف الحلول.

وهكذا كان (ع) وظل أمامنا العظيم صامداً مواجهاً لكل المؤامرات التي كانت الأمة المغفلة تساهم في صنعها وحياكتها على أساس جهلها وعدم وعيها وشعورها بالدور الحقيقي الذي يمارسه الإمام (ع) في سبيل حماية وجودها من الضياع وحفظ كرامتها من أن تتحول إلى سلعة يساوم عليها بالبيع والشراء، حتى خر صريعاً في مسجده وخاب باستشهاده الأمل الذي اعتمل في نفوس الواعين وانتهى آخر أمل حقيقي في قهر الانحراف وقدر للمؤامرة أن تنضج وان تؤتي مفعولها في التأريخ الإسلامي. وان نجاح المؤامرة في فهم الإمام علي (ع) لم يكن عني إلقاء السلاح، بل يتحدث إلى ولديه ليقول لهما: "نعم يا ولدي لقد نجحت مؤامرة اغتيالي ولهذا سوف تشردون وتقتلون انتم وشيعتكم... ولكن هذا يجب لا يفت في عضدكم لأن المعركة لم تنتهي بعد يجب أن تقاوم حتى تقتل مسموماً ويجب أن يقاوم أخوك الحسين حتى يقتل بالسيف ولابد أن يستمر الخط حتى بعد أن سرق من الأمة وجودها لان محاول استرجاع الوجود إذا بقيت حية في أذهان الأمة فسوف يبقى نفس الجهاد فيها، ويبقى هناك ما يحصن الأمة ضد التميع وفقدان الإرادة لأن الأمة حينما تتنازل عن إرادتها وشخصيتها للطاغوت حينئذ تكون عرضة للتميع والذوبان في أتون هذا الطاغية وذلك الجبار... ولكن إذا بقي لدى الأمة محاولة استرجاع هذا الوجود باستمرار، فهناك أمل في أن تتمكن الأمة من استرجاع وجودها وعلى أقل تقدير سوف تحقق هذه المحاولة كسباً آنياً باستمرار وهو تحصين الأمة ضد التميع والذوبان المطلق في إرادة وإطار الحاكم الطاغية.. وهذا ما وقع لأهل البيت (ع).

"وفي نصف القرن الأول بعد وفاة النبي (ص) كانت القيادة الشعبية – بعد إقصائها عن الحكم – تحاول باستمرار استرجاع الحكم بالطرق التي تؤمن بها، لأنها كانت تؤمن بوجود

قواعد شعبية واعية أو في طريق التوعية من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ولكن بعد نصف قرن – وبعد أن لم يبق من هذه القواعد الشعبية الشيء المذكور ونشأت أجيال مائعة في ظل الانحراف – لم يعد تسلم الحركة الشعبية بقيادة أهل البيت (ع) للسلطة محققاً للهدف الكبير لعدم وجود القواعد الشعبية المساندة بوعي وتضحية.

وأمام هذا الواقع كان لابد من عملين:

أحدهما: العمل من اجل بناء هذه القواعد الشعبية التي تهيئ أرضية صالحة لتسلم السلطة.

والآخر: تحويل ضمير الأمة الإسلامية وإرادتها والاحتفاظ بالضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين.

والعمل الأول، هو الذي مارسه الأئمة (ع) بأنفسهم والعمل الثاني هو الذي مارسه ثائرون علويون كانوا يحاولون بتضحياتهم الباسلة أن يحافظوا على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية وكان الأئمة (ع) يسندون المخلصين منهم[1].

شهادة الإمام علي في الميزان:

وباستشهاد الإمام (ع) قضت قوى الردة على آخر أمل في إعادة خط التجربة الصحيحة ذلك الأمل الذي اختلج في نفوس المسلمين الواعين متجسداً بأمامهم العظيم (ع) الذي عاش منذ اللحظة الأولى من تسلمه لزمام الخلافة هموم الدعوة وشارك في بنائها لبنة لبنة وأقام صرحها مع الرسول (ص) ورافقه معه كل مراحل الدعوة بكل مشاكلها وهمومها وآلامها. ولهذا كانت حادثة اغتياله الغادر تقويضاً حقيقياً لآخر أمل حقيقي لقيام مجتمع إسلامي صحيح. فقد خر الإمام (ع) مضرجاً بدماء الشهادة الطاهرة وهو في محراب الصلاة فقال: فزت ورب الكعبة! لنضع علياً في الميزان وهو في آخر لحظة من لحظات حياته (ع) حينما صرخ: فزت ورب الكعبة.. هل كان (ع) اسعد إنسان أو كان أتعس إنسان؟

للإجابة على هذا السؤال، هناك مقياسان في هذا المجال فتارة نقيس الإمام (ع) بمقياس مادي (دنيوي) صرف وآخر نقيس الإمام بمقياس – قرآني – إلهي.

فلو كان الإمام (ع) قد عمل للدنيا ولزعامتها الدنيوية فهو ولا شك أتعس إنسان وليس هناك أتعس حظاً منه لأنه (ع) بنى كل ما بنى وأقام كل ما أقام من صرح حيث شارك رسول الله (ص) في بنائها لبنة لبنة ورافقه في كل مراحل الدعوة للإسلام ثم يحرم (ع) من كل هذا

---

(١) بحث حول الولاية، الشهيد الصدر، ص: ٩٤ – ٩٥.

الجهد والبناء ومن كل هذه الصروح؟ هذا الإسلام الشامخ العظيم الذي امتد شرقاً وغرباً بني بدم علي (ع) وبخفقات قلبه وآلامه لقد كان (ع) شريك البناء بكل محنه وكوارثه ومآسيه... أي لحظة محرجة وجدت بتاريخ هذا البناء لم يكن علي (ع) حاضراً فيها وهو القائد الشجاع الذي تتجه إليه أنظار المسلمين جميعاً من أجل أن ينقذ عملية البناء ولم لا وهو الإمام الحق الذي خبرته الجماهير في تضحياته من أجل الإسلام حيث لم يتردد في أن يضع دمه على كفه في كل غزوة ومعركة وكل تصعيد جديد لهذا العمل الإسلامي العظيم. وقد كان لجهاد علي (ع) الأثر الكبير لقيام دولة مترامية الأطراف، حيث اتسعت دولة الإسلام بسيفه وأرسيت دعائمها بدمه الطاهر الشريف.

التبرك بالإمام علي (ع) عند المسلمين:

عن أبي بصير قال: بينما رسول الله (ص) ذات يوم جالسا إذ اقبل أمير المؤمنين (ع) فقال له رسول الله (ص): (إن فيك شبها من عيسى بن مريم ولولا أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك قولاً لا تمر بملأ من الناس إلا أخذوا التراب من تحت قدميك يلتمسون بذلك البركة...)[١]. وعن أبي عبد الله (ع) قال: نحن نقول بظهر الكوفة قبر لا يلوذ به ذو عاهة إلا شفاه الله[٢].

التوسل بالنبي (ص) والإمام علي (ع):

روى الشيخ الكليني قدس: عن سمعة قال: قال لي أبو الحسن (ع): إذا كان لك حاجة يا سماعة إلى الله جل وعلا فقل: (اللهم إني أسالك بحق محمد وعلي فإن لهما عندك شأناً من الشأن وقدراً من القدر، فبحق ذلك الشأن وبحق القدر أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن تفعل بي كذا وكذا، فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن ممتحن إلا وهو يحتاج إليهما في ذلك اليوم)[٣].

روى الشيخ المفيد: ثم ادع فقل: (اللهم إني أسالك بحق محمد نبيك، وعلي وليك، وبالشأن والقدر الذي خصصتهما به دون خلقك أن تصلي عليهما وعلى ذريتهما)[٤]، اللهم إني أسالك بحق محمد نبيك، ونجيك، وصفوتك، وأمينك، ورسولك إلى خلقك، وبحق أمير

---

(١) الكافي للكليني. ج٨ ص٥٧.

(٢) التهذيب، ج٦ ص٣٤ ح٧٠.

(٣) الكافي للشيخ الكليني، ج٢ ص٥٦٢ باب الدعاء للكرب والهم والحزن ط: طهران ـ دار الكتب الإسلامية.

(٤) المقنعة للشيخ المفيد ص٢٠٥ باب صلاة يوم الغدير واصلها ط: مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين.

المؤمنين، ويعسوب الدين، وقائد الغر المحجلين... اللهم إني أسالك بحق محمد وآل محمد أن تصلي على محمد وآل محمد، وأن تلعن من جحد هذا اليوم، وأنكر حرمته...)[1].

الخاتمة:

عندما نتحدث عن الإمام علي (ع) نستنطق المسيرة بصورها المختلفة ومحاورها المتعددة الخط الإسلامي المعتمد على العلم والمعرفة هو الخط الأصيل الذي يتحرك فيه، الأمر الذي يجعل المعرفة أمراً حيوياً على مستوى العقيدة في الخط الخاص والعام ونحن عندما نتحدث عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) إنما نتحدث عن الإسلام برحابته فكراً وبشموليته نهجاً ودرب حياة، وحينما ندخل في عالم أئمة أهل البيت يجب أن يكون القرآن الكريم خطاً لنا في البداية والنهاية وأن يكون الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام وعلى آل بيته الشريفة وعظمتها والتجدد والانطلاق فيها عنواناً ثابتاً لنا، وعندما نتحدث عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فإننا نتحدث عن قمم الروح والفكر والجهاد والانفتاح على الواقع الإسلامي كله من موقع الريادة والمسؤولية، قصتنا مع أهل البيت قصة رسالة قصة أناس يمثلون كل الحقيقة وكل الطهر والنقاء،والولاية لأهل البيت ليس نبضة قلب وخفقة إحساس، ولكن لا يسعك إلا أن توالي الله فتطيعه وتوالى رسول الله فتتبعه وتوالي أهل البيت فتتحرك مع منهجهم منهج أهل البيت أغنى الواقع الإسلامي وأجاب عن الكثير من الأسئلة التي تكون جواباً على أكثر من سؤال معاصر وأغنى الواقع الإسلامي برؤية ثاقبة لمحاور العلم والمعرفة كافة، فلذلك عندما نقف مع سيرة الإمام علي (ع) وهو حلقة من حلقات الموصلة إلى خاتم الأئمة الحجة، كما هو عيسى (عليه السلام) الحلقة الموصلة لخاتم النبيين النبي الأكرم والرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وعلى آله.

ومن خلال دراستنا لحياة الإمام وجدنا أن ما له من الصفات والمعجزات تميزه لنعتبره حقا نقطة تحول وامتداد المعرفي والحركي للنبوة وليس قيادة الدولة الإداري للحكم في الأمة فقط بل تمثل الإمامة عند الإمام القيام بالدور الرسالي في الدعوة والتربية والمواجهة للتحديات الفكرية المضادة وإن سيرة الأئمة الأطهار بحاجة إلى دراسة توثيقية تحليلية واسعة لنستوحي منها أكثر من خط فكرى وأخلاقي وروحي واجتماعي على مستوى النظرية من المنهج العام وقد ينفتح الدارسون، من هذه السيرة العطرة على الكثير من مفردات الثقافة الإسلامية لمختلف جوانبها الفقهية وغيرها بضرورة عدم إبعاد منهج أهل البيت عن الثقافة التي فرضتها ذهنية التخلف.

وختاماً أقول (ضجت إليك الأصوات بضروب اللغات يسألونك الحاجات وحاجتي إليك أن تذكرني عند البلى إذا نسيني أهل الدنيا).

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٠٦.

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم

٢- الأندلسي، ابن حيان. تفسير المحيط، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢.

٣- ابن الأثير أبو الحسن على بن أبي الكرم (ت ٥٥٥ هـ/ ٦٣٠ هـ). الكامل في التاريخ تعليق عبد الوهاب النجار المطبعة مؤسسة التاريخ العربي، بيروت ١٩٨٩م.

٤- الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان. (ت٧٤٨هـ). سير أعلام النبلاء، دار الفكر، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٥- الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ/١٠١٥هـ) المستدرك على الصحيحين تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١م.

٦- الحسيني، المرتضى بن الداعي الحسيني (ت١٠٤٤هـ)، تبصرة العوام في مقالات الأنام مطبعة طهران، قم، ١٣٢٧هـ.

٧- الخوارزمي، محمد بن موسى، المناقب، مطبعة دار البلاغ. قدم له سيد محمد رضى الموسوي.

٨- الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي، إكمال الدين وتمام النعمة، صححه وعلق عليه علي أكبر غفاري، مطبعة مؤسسة النشر الإسلامي، إيران، ١٤٠٥هـ.
وكتاب الخصال، مؤسسة الأعلمي، لبنان، بيروت.

٩- الطبري، محمد بن جرير، (ت ٣١٠هـ - ٩٢٢م)، تاريخ الطبري، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

١٠- ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن مسلم، الإمامة والسياسة، مؤسسة الحلبي، القاهرة.

١١- ابن قولويه، الشيخ جعفر بن قولويه، كامل الزيارات، باب ٨٨، فصل كربلاء وزيارة الحسين عليه السلام، مطبعة دار المرتضى، بيروت.

١٢- ابن كثير، أبو الفداء الحافظ، (ت٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

١٣- الكليني، أبي جعفر بن محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني، (ت٣٢٨هـ)، تصحيح وتحقيق علي أكبر الغفاري، مطبعة حيدري، دار الكتب الإسلامية. طهران.

١٤- المدرسي، هادي، الإسلام منهج الحياة، مطبعة دار البيان العربي. بيروت، ١٤١٠هـ.

١٥- الموسوي، الشريف الرضي، نهج البلاغة، مطبعة دار العلوم، ط٢، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م لبنان.

١٦- المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، باب مختصر من كلام علي عليه السلام، قم، دار سعيد بن جبير، ط١.
وكتاب المقنعة، باب صلاة يوم الغدير، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين.

١٧- المجلسي، الشيخ محمد باقر الأصفهاني، ت (١١١١هـ)، بحار الأنوار الجامعة لدرر الأئمة الأطهار، مطبعة الأمين، بيروت، ٢٠٠٨م.

المجلات:

١- مجلة زهور الجوادين، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٢- مجله الرسول الأعظم، محرم الحرام، ١٤٢٩هـ، مركز الرسول الأعظم للدراسات الإسلامية.

٣- من إصدارات العتبة العباسية (النبي الأكرم وأهل البيت في صحيح البخاري)، العدد ٦. ❖

رأي حول نهج البلاغة

أ. د. لورة فيتشيا فالييري(*)
Laura Veccia Vaglieri

كم كان سروري عندما دعاني حضرة صاحب السعادة سفيرنا المفوض إلى إلقاء محاضرة بين حضراتكم. تلك هي فرصة سنحت لزيارة بلدكم الذي يهواه نفسي وإن اعتلاني الخجل وأحاطني الوجل من الخطابة بلغة تنطقونها بكيفة تتعسر على أمثالي غير أن لطافتكم التي أحاطتني قد أزالت عن كل خجل ووجل، فأشكركم من أعماق نفسي على حفاوتكم ومجاملتكم، وها أنا ذي أحدثكم عن نهج البلاغة، أحدثكم بكل بساطة حذراً من أن يطبق علي قول الشاعر: (كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد).

فقبل أن أستهل الموضوع التمس من حضراتكم الإصغاء إلى ذكر الأسباب التي دعتني إلى الاهتمام بالبحث عن كتاب قد لا تُستساغ قراءته، ولا ندري أكان ذلك من صعوبة إدراكه، أو من كثرة المواعظ الموجودة فيه، وكما تعلمون أن الناس قد لا تحب أن توعظ أن تذكر الآخرة وما ينتظر المذنبين فيها من سوء الوعيد، كنت أعلم أن الشيعة اعتبرت (كتاب نهج البلاغة) كتالي القرآن الكريم والحديث النبوي وكما كنت أعلم أن أهل السنة يعظمونه وخصوصاً بعد أن اهتم الإمام الشيخ محمد عبده ببعثه من مرقده، وها قد أصبح الشبان في المدارس يحفظون منه نُبذاً.

(*) **مستشرقة إيطالية (١٨٩٣ ـ ١٩٨٩) تخصصت في التاريخ الإسلامي و فقه اللغة العربية وآدابها،** عملت أستاذة للآداب واللغة العربية بالمعهد العالي للدراسات الشرقية بنابلي بإيطاليا، من أبحاثها: محاسن الإسلام. صدر في حيفا١٩٣٤، والخلاف بين علي و معاوية و الخوارج (حوليات المعهد الشرقي بنابولي).
وكانت المستشرقة الراحلة قد ألقت محاضرة عن نهج البلاغة قبل نشرها لبحثها عنه بسنين عدة وذلك سنة١٩٥٨، بطلب من جمعية أحباء إيطاليا في تونس بقاعة القنصلية الإيطالية حضرها جميع كبير من العلماء والأدباء والطلبة وقد قدمها الأستاذ الشيخ الفاضل بن عاشور(احد كبار علماء تونس ١٩٠٩ ـ ١٩٧٠) فتحدث عن منزلة الاستشراق بإيطاليا وتجاوب المستشرقين فيها مع الذوق العربي والفكر الشرقي. ومما قال في تقديمها: "قد اختارت الأستاذة في محاضرتها موضوعاً من المواضيع التي تثقفت فيها: فقد كانت هذه الأستاذة متخصصة في دراسة العهد العلوي ودراسة شخصية الإمام علي بن أبي طالب (رض). وخلافته وآدابه، وهي اليوم تتولى عرض بحث يرجع إلى تمييز القيمة الفنية لكتاب نهج البلاغة وتمحيص ما فيه من النصوص" ويأتي نشرنا لهذا البحث التزاماً بالنهج الذي سلكناه في الانسكلوبيديا العلوية، والذي يعرض لكافة الآراء على اختلافها، ومنها هذا الرأي الوارد من المدرسة الاستشراقية، حيث أن ما يهمنا هو الحقيقة، والتي توصلت إلى البعض من بيناتها صاحبة هذا المختصر، وسيكون بحثها الكامل حول نهج البلاغة **(الصادر ضمن الدراسات الشرقية بنابولي ٦٦ ـ ١٩٦٧)** محتوياً للتفاصيل التي درستها بإثبات النهج وخصوصياته العامة، ومن المؤمل ان تتم ترجمته ونشره ضمن المجلد الخاص عن كتابات المستشرقين عن الإمام (ع). كما أن المجال مفتوح للباحثين في مناقشة و تقييم كافة ما يُطرح من الأفكار ووجهات النظر المنشورة لدينا.

ومن جهة أخرى، كنت أجد هذا الكتاب مهملاً في مؤلفات المستشرقين وبحوثهم باعتباره مزوّراً ثم قرأت ما كتبه الأستاذ عبد الجليل القائل: "ليس هناك أسباب تحمل على رفض كل ما انطوى عليه الكتاب رفضاً قاطعاً، وإن بحثاً دقيقاً منصفاً قد يؤدي إلى تمييز المزور والاكتشاف الحقيقي" فأثرت عليّ هذه الكلمة وأخذت تطارح خلدي.

وبينما كنت مشغولة بالتنقيب عن الحوادث الواقعة في عهد خلافة أبي الحسن علي بن أبي طالب إذ عثرت على صحف شتى من الكتاب فلاحظت انطباقها على نصوص المؤرخين القدماء. فقلت لنفسي إن وثقنا بهؤلاء المؤرخين وقبلنا ما ذكروه لنا فلم لا نعتبر هذه الصحف من الحقيقي أيضاً؟

وتساءلت في نفسي: لم لا أحاول دراسة ما في الكتاب؟ فلو ثبتت صحة جزء منه على الأقل لكان ذلك نجاحاً في العثور على شاهد كبير في النثر العربي يعد الثاني بعد القرآن الكريم.

فشرعت في دراسة الكتاب مباشرة وإذ ذاك علمت أن مشكلة صحته قد شغلت أذهان علماء المسلمين من قبل وإن الجدال والنزاع كان قد قسمهم إلى ثلاثة فرق.

فكان فريق يدافع بحماسة عن صحة نسبة الكتاب إلى الإمام علي ولا يجيزون محاولة الجدال في أمر صحته وفريق لا يعترف إلا بصحة جزء منه وفريق بت في عدم صحة الكتاب بأسره ويعتبره مختلقاً.

ثم اطلعت على بحث أجراه باللغة الفرنسية أحد علماء المسلمين حديثاً، غير أني لا بد أن أصرح بعدم قبولي لأسلوبه الذي يختلف عن أسلوبنا معشر المستشرقين، وحتى لو وجدنا فيه ملاحظات تقتبس لأهميتها ودقتها، ثم وضعت الكتاب أمامي وقمت بترجمته، لأن عملية الترجمة هي حيلة تساعد الباحث على فهم فكرة المؤلف الأجنبي وخصوصاً إن كان النص معقداً فإنها تجبر على التعمق.

غير أني قد أخطأت في بادئ الأمر: فلقد اعتاد كل مصنف أن يستهل موضوعه بمقدمة كما اعتاد كل قارئ إهمالها وعدم الالتفات إليها، وكنت من بين هؤلاء الذين أهملوا مقدمة كتاب نهج البلاغة في بادئ الأمر ولنا الآن أن نسلك سواء السبيل معاً ونحلل هذه المقدمة. ولكن قبل أن نبدأ استأذن حضراتكم في فتح قوس: لقد أخبرنا ابن خلكان عن اختلاف الآراء حول من جمع كلام الإمام هل كان الشريف الرضي أم الشريف المرتضى: غير أن الشك في الجامع لا مبرر له فلقد كان الجامع بلا شك هو الشريف الرضي وليس أخاه الشريف المرتضى. وسوف أعرض هذا وأبسطه في مقالة سأنشرها عما قريب إن شاء الله تعالى، ولذا سوف لا أقصد من ذكر الجامع أثناء حديثي سوى الرضي.

فلنقفل القوس ولنعد إلى مقدمة الكتاب، فالشريف الرضي ـ وهو الشاعر المشهور، الأديب المأثور عاش في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة ـ ذكر في سابقة الذكر أنه قد

ابتدأ في عنفوان شبابه في تأليف كتاب في خصائص الأئمة يشتمل على محاسن إخبارهم وجواهر كلامهم غير أنه ما أتم من هذه الخصائص سوى ما يخص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فجاء في آخرها فصل يتضمن محاسن ما نقل عنه من الكلام القصير دون الخطب الطويلة والكتب المبسوطة فاستحسن جماعة من أصدقائه ما اشتمل عليه هذا الفصل المذكور معجبين ببدائعه متعجبين من نواصعه ، فسألوه أن يؤلف كتاباً يحتوي على المختار من كلام أمير المؤمنين في جميع فنونه ومتشعبات غصونه ، من خطب ومواعظ وآداب علماً أن ذلك يتضمن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ما لا يوجد مجتمعاً في كلام ولا مجموع الأطراف في كتاب... الخ.

فأجاب الرضي مسألة هؤلاء معتمداً تبيين عظيم قدر أمير المؤمنين في هذه الفضيلة فلنستخرج الآن زبدة ما ذُكر...

ما كان مراد الرضي من تأليف كتابه هذا؟

أولاً: كان غرضه أن يجمع نبذاً ، وما اهتم بجمع كل ما نقل عن ابن أبي طالب فإننا نجد خطباً ورسائل منسوبة إليه في بطون كتب أخرى فإذن قد أخطأ من قال إن كتاب نهج البلاغة يضم كل ما نقل عنه.

ثانياً: لم يكن غرض الشريف الرضي إلا تأليف مجموعة للفصاحة العلوية ويؤيد هذا عنوان الكتاب نفسه (نهج البلاغة) كما تشير إلى ذلك بعض العبارات التي تلي ما لخصناه من المقدمة يذكر فيها الجامع أنه قد أجمع على اختيار محاسن الخطب فمحاسن الكتب ثم محاسن الحكم والآداب وأن الغرض من هذه العملية هو أن يورد النكت واللمع لا التتالي والنسق، وبهذه الكيفية قد خطط الرضي حدود عمله، **إذ ليس بمجموعة نصوص الإمام تتخذها الشيعة أساساً لمبادئهم المذهبية ومطامعهم السياسية، كلا بل هو كتاب أدبي محض.**

لو قمنا فيما بعد بمطالعة صحائف الكتاب لوجدنا في طيه من الأدلة ما يزيد وضوحاً في أن الجامع قد اقتطف ما طاب له سواء كان ذلك من الطويل أو القصير أو الأقصر بحيث لا يكون خارجاً عن حدود عمله ويجيز غرضه فقد نرى كل قطعة من هذه المقتطفات متوجة بأحد هذه العناوين وهي «من خطبة له عليه السلام» أو «من كلام له عليه السلام» الخ ...كما نراها متمنطقة الوسط بقول الجامع.. «ومنها» أو «ومنه» وذلك بعد سطور معدودات من القطعة نفسها.. وأخيراً قد لاحظ ابن أبي الحديد الشارح المشهور قطعاً قدمت كقطع ذات عنصر واحد وهي في الحقيقة مركبة من عنصرين أو أكثر ثم قال أن الجامع قد ذهب إلى ذكر البليغ من كلام أمير المؤمنين ولا غير. فكانت كلمة الشارح للجامع كتزكية.

أكان كشف النقاب عن كل هذا أمراً ضرورياً؟

نعم كان ضرورياً لأنه بمساعدة ما ذكرته قد نستطيع معرفة سبب غرابة هذا الكتاب وغموض بعض مواضيعه.

إن العصر الذي عاش فيه الرضي لهو القرن الرابع للهجرة ومما عرف عن أدبائه أنهم كانوا يتسابقون إلى النسق ودقة الصناعة والزخرفة أكثر من التفاتهم إلى إشباع الموضوع، ذلك القرن الذي شاهد موكب النثر المزخرف أثناء سيره في طريق الانتصار.

فبهذا قد اتضح لنا السبب الذي حمل مؤلفنا على جمع وثائق لغوية عتيقة غنية بزخارف البلاغة وعجائب الفصاحة إن ذلك لهو المبدأ الذي تحكم في كتاب نهج البلاغة وسيطر عليه، هو العثور على رشيق الأسلوب وجميل الصيغة وغريب المفردات ونادر الجمل وبديع المجاز.

سبق أن نوهت بغرابة الكتاب وربما ظن بعض حضراتكم أني لم أنصف، فما هي علامات تلك الغرابة؟

إن عدم وجود ترتيب وتعقيب أول ما، يلاحظ اللهم إلا ما كان من فصل الجامع للخطب عن غيرها كالرسائل والحكم، ففي هذا إنه لرتب وعقب. وما سوى ذلك فكان ممزوجاً: فقد مزج طويل النبذ بقصيرها وأقصرها كما مزجت السياسة بالوعظ والوصف. كذا لم يلتفت الجامع إلى سابقية الحوادث. فمخاصمة أمير المؤمنين لأعدائه قد سبقت مثلاً رثاءه لفاطمة الزهراء حين دفنها وهلم جرا.

وقد ذكر في آخر الكتاب أن الرضي انتهى من جمعه سنة أربعمائة للهجرة ثم توفاه الله سنة ست وأربعمائة واشتغل خلال هذه السنوات الستة الأخيرة بما قد وُكل إليه من المناصب فتساءلت عما إذا كان الكتاب قد أتم عند مماته أم لا ؟.

بحث كتاب (نهج البلاغة) من الباطن بعد أن فحصناه من الظاهر:

ذكرتُ أن ابن خلكان قد شك فيمن جمع الكتاب، غير أني لم أذكر أنه أضاف إلى ذلك الشك مخبراً عن اتهام علماء وقتئذ لصحته (صحة نسبته إلى أمير المؤمنين) «فقد قيل إنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه والله أعلم» فتبين أن أعظم الشكوك هو الشك في صحة نسبته وخاصة من أهل السنة قد وقع. وأما الشيعة فقد أجمعوا على صحته بتمامه أو اعترفوا عن غير رضى بوجود المدسوس فيه مما لا صلة له بعلي وقد تسرب ذلك إلى نهج البلاغة بقدر ما تسرب إلى الحديث الشريف.

فلنفتح الكتاب ونستهل قراءته: (الحمد لله الذي لا يبلغ مدحَته القائلون. ولا يُحْصي نَعماءه العادون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي يدركه بُعْد الهمم، ولا يناله غَوْص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود، ولا نعت موجود، ولا وقت معدود ولا أجل ممدود)، الخ...

رحماك ربي قد بدأ الشك يتسرب إلينا أيضاً ويسري في قلوبنا، فما أوقع هذا السجع وما أضبطه، فلنواصل قراءتنا: (أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثناه فقد جزّأه)، الخ...

أهذه القطعة شهدت عهد عليّ؟ كلا، إن هذه القطعة الكلامية في توحيد الله لم تُخلق في عهده مطلقاً وما وُلدت إلا بعده غير أن ما قرأناه هو أول ما في الكتاب فقد نعتبره كمقدمة أضيف إلى الأصل فيما بعد، فلنترك هذا ونقرأ قطعة أخرى:

(الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالاً، فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً)، الخ...

فما أكثر الأفكار الفلسفية في هذا القطعة.

ولنقرأ نبذة أخرى: (وبسطتم يدي وكففتُها، ومددتموها فقبضتُها. وتداككتم علي تداكّ الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى انقطعت النعل، وسقط الرداء، ووُطئ الضعيف وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير، وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها العليل، وحُسرت إليها الكعاب..).

فأين السجع هنا؟ اللهم إلا ما كان عفواً عن غير قصد مما لا يعرف النسق والمبالغة بحال وما وجد في هذه القطعة سوى وصف بسيط ولم لا نصرح بقدم مثل هذه القطعة؟ فربما صحت أيضاً نسبتها إلى الإمام علي، لم لا؟

قد تشيع بعض الباحثين ومنهم نفس الشارح ابن أبي الحديد لوحدة الأسلوب (أسلوب الكتاب من أوله إلى آخره) أما رأيي فهو عدم وحدة الأسلوب. فأصغوا إلى هذه القطعة التالية التي يقرأها الدكتور روستكو نيابة عني:

(كبس الأرض على مَوْر أمواج مستفحلة، ولجج بحار زاخرة تلتظم أواذيّ أمواجها وتصطفق متفاذفاتُ أثباجها وترغو زبداً كالفحول عند هياجها، فخضع جماح الماء المتلاطم لثقل حملها، وسكن هيج ارتمائه إذ وطئته بكلكلها، وذل مستخذياً إذ تمعكت عليه بكواهلها فأصبح بعد اصطخاب أمواجه ساجياً مقهوراً، وفي حَكَمة الذُل منقاداً أسيراً وسكنت الأرض مدحوّة في لجة تياره، وردّت من نخوة بَأوه واعتلائه وشموخ أنفه وسمو غُلوائه وكعمته على كظّة جريته فهمد بعد نزقاته ولبد بعد زيفان وثباته ولما سكن هياج الماء من تحت أكنافها وحَمْل شواهق الجبال الشُمّخ على أكتافها فجر ينابيع العيون من عرانين أنوفها، وفرّقها في سهوب بيدها وأخاديدها وعَدَلَ حركاتها بالراسيات من جلاميدها وذوات الشناخيب الشمّ من صياخيدها وسكنت من المَيدان لرسوب الجبال في قطع أديمها وتغلغُلها متسربةً في جوبات خياشيمها وركوبها أعناق سهول الأرضين وجراثيمها وفسح بين الجوّ وبينها واعد الهواء متسنما لساكنها وأخرج إليها أهلها على تمام مرافقها ثم لم يدع جُزُر الأرض التي تقصر مياه العيون عن روابيها ولا تجد جداول الأنهار ذريعةً إلى بلوغها حتى أنشأ لها ناشئة سحاب تُحْيي مواتها وتستخرج نباتها، ألّف غمامها بعد افتراق لمعه وتبايُن قزعه حتى إذا تمخضت لجة المُزْن فيه والتمع برقه في كففه، ولم ينم وميضه في كنهور ربابة ومتراكم سحابه، أرسله سحّا متداركاً قد أسفّ هيْدبهُ تمريه الجنوب درر أهاضيبه ودفع شآبيبه) الخ...

وأظنكم توافقوني ومَن حكم على حداثة أمثال هذه القطعة لإحكام صناعتها ودقتها.

يقول ناكرو النسبة أن الطريقة العددية في شرح المسائل كتقسيم الفضائل والرذائل إلى عدة عناصر لم يلتفت إليها أدباء الصدر الأول وفي كتاب نهج البلاغة أمثلة عديدة لهذه الطريقة وأذكر منها قوله: (الإيمان على أربعة دعائم على الصبر واليقين والعدل والجهاد والصبر منها على أربع شعب) الخ...

ثم يقول ناكرو النسبة أن في الكتاب ما يُشمّ منه ريح ادعاء صاحبه علم الغيب وإن اعتقدت الشيعة في أهلية الإمام لعلم الغيب، فأهل السنة أفردوا الله بذلك بدليل ما ورد في القرآن (لا يعلم الغيب إلا الله) فلقد قرأت هذه التنبؤات فوجدتها في غاية من الغموض فتساءلت عما إذا كانت تنبؤات حقاً أم لا.

وبما قد سبق من الأمثلة والكلام قدّمْت إليكم الحجج الأساسية التي كانت في متناول المتنازعين.

وعند وصولنا إلى هذه النقطة من كلمتي لعل أحدكم يقول في نفسه: لقد جاءت هذه المحاضرة بأشياء قد عرفناها من قبل، فما تقصد؟

فجوابي على حضرة المتسائل هذا إني قد حضرت لأطرح شيئاً جديداً على بساط البحث وذلك لاعتقادي **أن العمل الذي قمت به لم يقم به أحد سواي فقد استخرجت من الكتاب كل ما يحتوي عليه من المواضيع السياسية المتعلقة بالحوادث التاريخية ثم ترجمتها فأدرجتها حسب التسلسل التاريخي ثم درستها، فهذا عمل قد تبينت لي أهميته وإن لم أتممه حتى الآن، لأنه مكّنني من إيجاد بعض الملاحظات مثلاً:**

أول شيء لاحظته أن الذي يرجع إلى أقدم عهد من حياة ابن أبي طالب ما هو إلا القليل النادر وهذا إن لم يكن بمقدار حجة تامة على صحة النسبة فقد يكون شبه حجة على الأقل. لأنه لو أراد أحد تزوير هذا الوثائق لقام بتزوير كل ما انطوى عليه عهد الإمام، وإنما كثرة ما ورد من قطع تتعلق بما حصل بعد أن بويع له بالخلافة تدل على أن اهتمام الناس بحفظ كلامه نشأ ونما حسب ارتفاع منزلته.

ولي أن أقول أيضاً: إن ترتيب المقتطفات حسب تسلسل التاريخ قد جعلني أسقط بعضاً من تعاليل مَن ذهب على عدم الصحة القائلين: وكيف يمكن وقوع الطعن في بعض صحابة رسول الله بما لا يليق من مثل الإمام علي؟

وقالوا: لو أن علياً لم يستحسن كيفية بيعة من سبقوه بالخلافة. كما ورد في الخطبة المسماة بالشقشقية - فكيف له أن يمدح عمر بن الخطاب ويتغالى في رفعة شأنه كما ورد في خطبة أخرى، فإذن تضاد هذه المقتطفات، مما يحرضنا على الشك في صحتها، ولكن، أيها السادة، الزمان وتطوراته هي حقيقة واقعية ولا بد للباحث من أن يقدر تغير الظروف فيجب فحص مقتطفات نهج البلاغة بعد أن وضعت مسلسلة حسب تطورات الحوادث التاريخية أعني

بعبارة أخرى أن علياً بعد أن بويع له بالخلافة وبعد أن اضطر إلى مواجهة معارضيه بحد السيف تمكن من التصريح بما كان كامناً في نفسه أو بما لم يتكون في باله قبل.

ثم من المعروف أن النزاع السياسي قد يدفع إلى العنف لفظاً وخطّاً وقد أخبرنا المؤرخون من العرب عن مقدار الأهواء التي انطلقت من عقالها في عهدي خلافة عثمان وعليّ وقد وصلنا ما حفظوه لنا من الوثائق وإن اختبرنا تلك النبذ على ضياء التاريخ فيتلاشى التضاد في الواقع وعندما عاودت قراءة هذه النبذ درساً تبين لي جلياً ما قد أحسست به أثناء سرادتي الأولى وهو رجوعها إلى عهد قديم جداً. فإن وجدنا بعض جُمل تثير الشك في قدمها فمن المحتمل أن تكون من التحشية وهذا لا يجيزنا على رد القطعة بأسرها باعتبارها مستحدثة، وقد صرح جرجي زيدان بأن المقتطفات السياسية في كتاب نهج البلاغة ترجع إلى علي غير أنه لم يبرز أدلة على صحة ما تبين له، ثم من ذوات الأهمية أن ما يتوسم بالطابع الشيعي من النصوص في نهج البلاغة وهذا القليل النادر، لهو من المبهم الغامض، ولعل سبب هذا هو اهتمام الجامع بعرض الفصيح كما ذكرنا، غير إني أعتقد أنه من داع آخر، وهو قِدَم المقتطفات نفسها.

قد لاحظ الباحث الحديث الذي أومأت إليه بان الكتاب يضم قطعاً تنطوي على آراء تتماشى مع آراء الإمامية والإسماعيلية وأهل السنة وغيرهم ثم قال: أن لهذه الآراء أصلاً في مذهب الإمامية أو في مذهب الإسماعيلية أو في مذهب «السنة» وما الذي يستنتج من هذا القول لا بد أن يستنتج منه أن القطع التي تضم تلك الآراء كلها حديثة. أما أنا فأقول عكس ما قاله وهو أن المذاهب المذكورة لم تتكون في عهد علي وما انشقت وتفرعت إلا فيما بعد فكأنما كانت ليا ثم نمت وتطورت وتميز بعضها على بعض وضبطت. لذا نجد أن الآراء الموجودة في نهج البلاغة لا تبين اتجاهاً معيناً لأنها سابقة لتكوين المذاهب نفسها.

والأسلوب الذي يجب أن يتخذه نقاد التاريخ هو اعتبار الآراء وقت حدوثها وعدم تطبيق ما حدث فيما تأخر على ما وقع فيما تقدم.

نزاهة الشريف الرضي وصحة جمعه للنهج:

ومما ينبغي علينا أن «هو أن الرضي كان شيعياً يعيش في عهد بني بويه وهم أيضاً من الشيعة وكان بأيديهم مقاليد الأمور باستئثارهم على الخلفاء أنفسهم ولذا كان في وسع الرضي إدراج ما يتماشى مع قومه مذهباً ومطعماً ولكنه لم يفعل ولماذا لم يفعل»؟

لأنه رجل نزيه وما وجده منقولاً عن الإمام من تصريحات سياسية إنما كانت بصيغة الإطلاق لا بصيغة التخصيص، ولأمانته ونزاهته تعفف عن تبديله وإدراج ما يرضي قومه فيه.

ويمكنكم أن تسألوني عن الثقة التي بيني وبين الشريف الرضي وعن سببها وهي تخالف وجهة شك ابن خلكان، وعادة بعض الرواة من العرب فيما مضى وهي تأليفهم للشعر وتنميته إلى بعض شعراء الجاهلية مثلاً، كما أنهم يختلقون الأحاديث حسب شهواتهم ثم

ينسبونها إلى رسول الله، نعم لقد كان كذلك حقاً غير أنه كان دائماً لغرض ما. وما هو غرض الشريف الرضي؟

سأقص عليكم بعضاً من خصائصه التي بها يمكنكم الحكم لشخصيته.

كان الرضي ينحدر من سلالة علوية كريمة تنتمي إلى الإمام السابع إلا وهو (موسى الكاظم) وهذا من جهة أبيه وأما نسبه من جهة أمه فكان علوياً أيضاً وكان أحد أجداده ملكاً في القوقاز «فلقد استلم الرضي ما كان بيد والده من المناصب رغم حداثة سنه وصغره عن أخيه المرتضى ـ فكان نقيب الطالبين وناظر المظالم وأمير الحج وكرمه بهاء الدولة البويهي ورفع منزلته فأتحفه بأنبل الألقاب كما صاحبه وأخلص له الخليفتان الطائع والقادر، وحاصل هذا أن الرضي قد وصل إلى أعلى القمم فتمكن من نظم هذه الأبيات:

عطفاً أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً كلانا في المعالي معرق

إلا الخلافة شرفتك فإنني ... أنا عاطل منها وأنت مطوق

فردّ عليها الخليفة بقوله: على رغم أنف الشريف.

وكان الرضي ثرياً وتحمله لنفقات دار العلوم التي أسست في بغداد دليل على ثروته. وكان مشهوراً لنبوغه في الشعر، ألم، يذكر معاصره الثعالبي إنه (الرضي) أشعر الطالبيين وربما أشعر قريش؟ وكان مُعززاً بكثرة الأتباع والأصحاب، ألا يدل على ذلك بقاؤه في المناصب رغم اضطراب الآونة ؟

غير أن الذي أريد إحياءه هو علو همته وحرسه على استقلال ذمته وآرائه فإنه لم يقبل صلات من أحد حتى من بني بويه. ولما خلع بهاء الدولة الخليفة الطائع عنفاً تجاسر الرضي على إظهار حزنه وذم السلطان وما أجسره عندما رثى الخليفة بعد وفاته بالحبس إذ كان الظالم هو بهاء الدولة حاميه وكان حريصاً على تنفيذ ما كان عليه من الواجبات وكان يُوصف بالإفراط في عقاب المذنب من أهله وله حكايات في ذلك منها أن امرأة علوية شكت إليه زوجها وكان مقامراً فأمر الرضي بضربة مئة جلدة. فصاحت المرأة تيتم أولادي فأجابها بقوله: أظننت أن أفعل به كما يفعل المؤدب مع أطفاله؟

إذن كان الرضي قادراً غنياً اعتلى قمة الشهرة لنبوغه الشعري، رقيق الحس كريم الخلق. لا يشف عنه أي غرض سياسي مما قام بجمعه في كتابه بل بالعكس فقد نجد فيه ما يخالف آراء الذين ينتمي إليهم الرضي بعينه وأضف إلى هذا أن كثيراً من النصوص التي اقتطفها كانت معروفة في بيئته وحينه. فهل كان في إرادته واستطاعته أن يبدل شيئاً منها؟ كلا، ثم هناك تغيرات كثيرة في النصوص التقطها الرضي ودونها، ولأي داع كانت هذه المشقة؟

إني لأرى سر مسألة نهج البلاغة كامناً في جملة قصيرة تُقرأ في مقدمة الرضي حيث يتكلم عن كتابه الأول في خصائص الأئمة فقد أخبرنا أنه جمع محاسن ما نقل عنه (ع) من

الكلام القصير، إذن جمع الرضي ولم ينتقد ولو أخذ ينتقد ما تواتر النقل فيه فعلى أيّ يقف؟ إذ تيسرت التحشية وخاصة في السجع. فإن الجملة تدعو أختها والاسم يدعو ما يرادفه النعت يبقى على خشونته إن انفرد فيسعى إلى تهذيب نفسه بما يوافق طبعه فقد اندفع الرواة إلى تنميق النصوص الصحيحة أو القديمة بتنوعات ابتدعوها واستعذبها الجمهور ومن أعسر الأمور القيام بتمييز صحيح النسبة أو العتيق مما زيد عليه.

وإن كنت أعتقد أن في استطاعتي القيام بهذه العملية فيما يخص الجزء السياسي وذلك بمساعدة الرجوع إلى ما نعرفه من الحوادث التاريخية فالباقي من الكتاب أسلّمه إلى من هو أقدر مني على تلك المهمة مقتصرة على الإشارة إلى مبدأ واحد وهو كل رواية هي صحيحة بصفة عامة حتى يتبين أنها باطلة. (لا تبتسموا من بساطة هذا المبدأ فإنه من المؤدة أن يشك في بادئ الأمر ثم يفتش عن الحجج لتثبيت الصحة)، وبتطبيق المبدأ المذكور أرى أن الباحث يُجبر على حذف صحف كثيرة من كتاب نهج البلاغة رغم ملوسته وخصوصاً المطول منه، ثم بعد الحذف يبتدئ ذلك العمل الدقيق الذي لإتمامه لا بد من معرفة عميقة بالنثر العربي وتطوره دراسةً وذوقاً وقد سبق أنه مما خرج من وسعي.

وفي أثناء العمل لن يُنسى شيء مهم جداً وهو أن شهرة فصاحة وبلاغة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لا يُثبتها تواتر الأخبار فحسب بل كانت تُركّز على نصوص دارت بين الأدباء وكفى بنا شهيداً ما حكى الجهشياري عن عبد الحميد الكاتب الشهير في أواخر عهد بني أمية أحد واضعي فن الرسائل العربي وما يحكى عنه هو أنه ابتدع أسلوبه بما درسه من بليغ ابن أبي طالب كما أن ابن نباتة ذلك الخطيب الذي شاعت شهرته لنبوغه في الخطابة قد اكتفى خطب عليّ وأخذ منها إذن لم تكن شهرة فصاحة علي توسيعاً للإعجاب به لكونه ابن عم رسول الله وسابقيه في الإسلام وجهاده وإمامته للمسلمين بل كانت إعجاباً نشأ من وثائق تدرس وتقتدى.

فحري أن يجتهد في اكتشاف ما في نهج البلاغة من النصوص القديمة. هذه النصوص التي في استطاعتها أن تزود الآداب العربية بأثمن الوثائق وأعظم البراهين - بجانب القرآن العظيم - على مقدرتها وثروتها ونضوجها السابق لعهد اختلاط العرب بغيرهم من الأمم. وبالختام أضيف إلى ما قد قلت آنه **على الباحث ألا يقيس ما يجده في كتاب نهج البلاغة من الأفكار والآراء على ما يعرفه من الأفكار والآراء المتداولة في المدينة لما كانت المركز السياسي لسكان جزيرة العرب فقط بل عليه أن يقيسها على بيئة المدينة التي ضمت علياً في نضوجه أعني في الوقت الذي أصبحت فيه المدينة عاصمة دولة كبرى: فلقد تحولت بيئتها وتغيرت عما كانت عليه واتسعت الأفكار بفضل التحنيك الديني والسياسي والعسكري فلا عجب إذن من وجود آراء جديدة وأفكار فريدة لأن ذلك وليد تلك الزلازل وذلك الضجيج التي عرفها أهل المدينة مدة زادت على ربع قرن تلك هي الفترة التي بين البعثة ووفاة ابن أبي طالب.** ◆

علي بن أبي طالب (ع)
في العلم والأسطورة والتعاليم

وضعه

محمد سعيد الطريحي

الكوفة
Kufa Academy
أكاديمية الكوفة
هولندا

أطفئوا السراج
فقد طلع الصبح

قال علي (ع):

الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة..

فسأله تلميذه كميل بن زياد النخعي الكوفي (المستشهد سنة ٨٣ هـ)

قال: زِدْني بياناً يا أمير المؤمنين.

قال علي: محو الموهوم وصحو المعلوم!

قال كميل: زدني بياناً.

قال علي: هتك الستر لغلبة السر!

قال كميل: زدني بياناً.

قال علي: نور يشرق من صبح الأزل فيلوحُ على هياكل التوحيد بآثاره!

قال كميل: زدني بياناً.

قال علي: أطفئوا السراج فقد طلع الصبح!

❖❖❖

«إن أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلا عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان، ولا يعي حديثنا إلاّ صدور أمينة، وأحلام رزينة».

❖❖❖

«سلوني قبل أن تفقدوني، فلأنا بطرق السماء أعلم مني بِطُرق الأرض».

«لايُقاس بآل محمد من هذه الامة احد،ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه أبداً ، وهم أساس الدين ، و عماد اليقين ، واليهم يفئ الغالي ، وبهم يلحق التالي ، ولهم خصائص حق الولاية والوراثة».

علي بن أبي طالب
في العلم والأسطورة والتعاليم

تقديم:

حظي الإمام علي (ع) من القرابة القريبة لرسول الله (ص)، ومن فضل المؤاخاة والعلم والعبادة، والزهد، والسيادة، والبطولة، والعدالة، والاستقامة، ما جعله الصورة المثالية للإنسان الكامل، وكأيٍّ عظيم من عِيار الإمام علي (ع) عاش في زمن ليس بزمنه شأن جميع الأنبياء الباصرين ـ على حدّ تعبير جبران ـ فقد برز حجم عظمته في الاختلاف الذي نشأ جرّاء هذه العظمة الباذخة المتمثلة في شخصيته النافِذة وفكره الحصيف المنفتح، ونظرته الثاقبة المُسَدَّدَة لكافة شؤون الدنيا والدين، حتى كأن الإنسان كله كان متجسداً فيه وفي سيرته العطرة لذا كان لمن عرفه حقّ معرفته، المثل الأعلى للإنسانية، فاسمع ابن أبي الحديد قائلاً في وصفه (ع):

«وما أقول في رَجُل تُحبه أهل الذمة على تكذيبهم بالنبوة، وتُعَظّمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل المِلّة، وتُصَوِّرُه ملوك الفِرَنْج، وتضع صورته في بيَعِها وبيوت عباداتها، حاملاً سيفه، مُشَمِّراً لحربه، وتُصَوِّر ملوك التُرك والدَيْلَم صورته على أسيافها، يتفاءلون به النَصر والظَفر..».

ولكونه يد النبي (ص) الضاربة، ووصيه، ووارثه، وباب مدينة علمه، وأبا أهل بيته، فقد اتخذه المريدون والمحبون له، ومنهم الصوفية، مستنداً لطرائقهم، ومن هنا فإن الولاية الصوفية التي أسس لها أوائل الصوفية كانت ولاية علوية قبل أن يُباعد بينها وبين مفهومها الأول، الزمن والسياسيات والطوأفة التي تعرض لها العالم الإسلامي، وبالرغم من ذلك فلا تزال منزلته لدى أهل الحقائق كبيرة جداً لأجل مقامه «المُطَهَّر» و«المُقَدَّس» لكونه رأس أهل البيت الأطهار الذين نصَّ القرآن الكريم على مودتهم بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1]. ولأجل ذلك ورد في موالاة آل البيت (ع): «ومَنْ خان أهل البيت فقد خان رسول الله (ص) ومن خان ما سَنَّه رسول الله ـ ص ـ فقد خانه ـ ص ـ في سُنَّتِهِ»[2]. وأن «علياً ممن يعلم من الله ما لا يعلمه غيره»[3].

وقلما تَجِدُ اليوم طريقة صوفية لا تنتسب إلى علي نسباً، أو خِرْقة، أو عن طريق الإيمان بالفكرة المهدوية، أو وراثة الطريقة، وكونه القطب الأعظم[4] التي هي تعبير عن مقام الإمام (الشيعي) الذي تتجلّى فيه مرتبة الإنسانية الكاملة.

---

(١) سورة الشورى، الآية ٢٣.

(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية ١٣٩/٤.

(٣) الفتوحات المكية ٢٦٠/١.

(٤) نقل السلمي في الرسالة القشيرية/١٧٥ أن السلسلة الصوفية تنتظم سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم وأويساً القرني، وتتصل بعلي بن أبي طالب ثم النبي (ص).

وأما الفتوة فأربابها يُسنِدونها بالعَنْعَنَةِ إلى أمير المؤمنين، فهو سيد الفتيان في قول جبرئيل:

لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ علي[1]

وقد لفتت بطولته وشجاعته النادرة أنظار المسلمين في مختلف بلدانهم وأعراقهم، وتأسيساً على ذلك اجتمع تراث ضخم من ثقافات الشعوب مما أسس لظاهرة التمجيد العلوي في المخيال الروحاني الوجداني الشعبي الذي ضمَّ فيما ضمَّ بين دفّتيه من الوقائع والقصص التي اختلط فيها التاريخ الموثوق به مع خيالات المُعْجَبين، فظهرت الكثير من النصوص التي تحوَّلت إلى أقاصيص كُتبت بلغة دينية ودرامية مستوحاة من الفتوحات والغزوات الأولى، وترسخت في الأذهان، فبقيت مسموعة ومقروءة عبر الأزمان، ولا شك أن السبب الحقيقي لانتشار تلك القصص هو اتخاذ الإمام كمثل أعلى للجمهور المتحمس لبطولته وعدله وقدرته الأسطورية على دَفْعِ الباطلِ والانتقام من الأعداء بإرجاعِ الحق إلى أصحابه.

ومن يَرجعُ إلى سيرة الإمام يجد أن البطولة والفروسية تتجليان فيه، بأسمى معانيها وأجمل صورها، إذ كان لأدواره القتالية التي لعبها بما تميز به من المهارة والتفوق، في غزوات الرسول (ص) الأثر الكبير لولع الناس وهيامهم بمواقفه الحاسمة ومنازلاته الماحقة في ساحات الحروب:

ومَنْ لم تُنَوِّه باسمه الحرب لم يَزَلْ وإن كرمت آباؤُه خامل الذِكرِ

وقد ساعد الزمن على مسح هذه الأخبار مسحة خيالية بعض الأحيان. ومن هنا نشأت نواة للأدب الشعبي العلوي الذي ولّدته الأحوال السياسية بعد وفاة الرسول (ص) مباشرة، ثم تطور في العصر الأموي ضمن دائرة الموالين لعلي وآله (ع)، بل وفي صفوف كافة الناس الذين كانوا يعجبون بالبطولات العلوية، ويلهون بذكرها وتكرارها وتمثيلها أمام التآكل الداخلي المُعَقّد الذي كان مَرَدّه للمعارضة القوية ضد الحكم الأموي.

وفي الفترة العباسية توسع هذا الأدب لما تميز به من الصدق والصفاء والحقّانية، بينما لا نجد مثل هذه المُثُل السامية في أدب الطبقات العُليا ذات المصالح مع الحكومات الظالمة، إذ كان أدب هؤلاء مملوءاً بالنفاق والتكلف و التزلف لها.

إن أُصول الحكايات الواردة عن الإمام علي (ع) مستندة في غالبها إلى أحاديث صحيحة وموثوق بها. لكنها تغيَّرت مع مرور الأزمان حيث شابها الدخيل والإضافات فتطورت صياغتها إلى أن كانت بالأساطير أشبه، كما هو الحال مع أحوال أنبياء الله (جلّ شأنه) والتي تحولت إلى

---

(١) تاريخ الطبري٢/١٩٧ القاهرة١٩٥٧ ، والاغاني ١٥/١٩٢ ، طبعة بولاق.

قصص خيالية مثلما هو مذكور في بعض كتب التفاسير[١] وأكثرها من القصص المعروفة بالإسرائيليات المأخوذة ممن أسلمَ من اليهود أمثال: كعب الأحبار، وعبدالله بن سلاّم، ووهب بن منبه، وأضرابهم.

وقد زاد الطين بلة حين أقبل الناس على قراءة قصص مبتذلة، وغير واقعية على سبيل الملاطفة والأسمار، بعد أن اطلع القصاصون الذين برزوا في العصر الأموي على كتب الحكايات المُترجمة عن الفارسية واليونانية والسريانية والرومية والهندية، والتي أصبحت مصدر إلهام للتزيد والمبالغة التي طَعَّم بها القصاصون حكاياتهم الأسطورية، ذات المغزى الديني أو الاجتماعي أو الترفيهي[٢].

وبهذا تضخمت المادة القصصية في المجتمعات الإسلامية، والتي حملت سمات الفكر الأسطوري الملامس لثقافة (العامة) ويُحاكي ولع هذه الطبقة بقصص العجائب والغرائب النابعة من المخيال الجماعي فيكون الإيمان بأمثالها على علاّتها لدى بعض أفراد الطبقات الشعبية مورداً لإلهامهم في الحياة على أنها مادة مقدسة لا ينبغي الشك في تفاصيلها، ولأجل هذا يكون نفيها من عقلاء القوم أمراً صعباً، إن لم يكن مستحيلا كما هو الشأن مع بعض الطقوس التي تقام في بعض المواسم الدينية والتي وفدت على مجتمعاتنا في العصور الأخيرة.

وليس بدعاً أن تنتشر الأقاصيص الأسطورية بين شعبنا لأنها ظاهرة عرفتها جميع الشعوب، بل لجأت لها في محاولتها لتفسير ظواهر الوجود وربط الإنسان بها.

في معنى الأسطورة:

إن لفظة (أسطورة) قريبة الصلة بقرينتها في اللغة اليونانية واللاتينية «Historia»، وتعني الأخبار الواردة عن الماضين، وقد وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى في سياق جدل واحتجاج بين النبي وكفّار قريش لأنّهم اعتبروا العقيدة الجديدة من الأباطيل أو الأساطير[٣].

---

(١) انظر: بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ج ٣ ـ ٤ ص ٩٧ (كتب السمر)، القاهرة ١٩٩٣.
وقد دون ابن النديم في الفهرست / ٣٦٤ ـ ٣٦٧ مجموعة من أوائل تلك الكتب التي تُرجمت إلى العربية أمثال: كتاب هزار أفسان، أي ألف خُرافة، وألف الجهشياري كتاباً يحتوي على ألف سمر من أسماء العرب والعجم والروم، ومن كتب الهند التي تُرجمت: سندباد، وبُوذاسف، وكليلة ودمنة، ومن كتب الروم: سمسة ودمن، وكتاب ديسوب، ومن كتب ملوك بابل: الشيخ والفتى، والحكيم الناسك، ومن الكتب المُترجَمة أيضاً: كتب أسماء العُشاق وكتب عشاق الجن للإنس وغيرها. وحسب حكايات ألف ليلة وليلة شاهداً على حكايات الجان والخوارق الممتزجة بالسحر التي امتدت شهرتها إلى الآداب الشعبية العالمية، وهي في مجملها عمل جمع الكثير من المتبقيات الأسطورية عند القاص العربي.

(٢) ألف عبد الرحمن ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ كتاباً بعنوان (القصاص و المذكرين) نشره معهد الآداب الشرقية ببيروت سنة ١٩٧١ وموضوعه القصص التي تداولها القصاصون ونبه على أهمية الحذر من أحاديثهم المشوبة بالكذب والأسطورة التي شاعت في زمانه والزمان الذي سبقه.

(٣) سورة طه ـ والنازعات الآية ١٥، وفي نظر قريش أن حديث موسى، وحديث فرعون، وثمود، وآدم... الخ ، هي من الأساطير بزعمهم، راجع سورة التوبة. الآية ١٧، وسورة يونس، الآية ٧٠. وسورة الشعراء، الآية ٦٩.

ويشترك مصطلح الأسطورة مع مصطلحات من قبيل رواية، وحديث ونبأ وقصص في نواة معنوية جامعة، وهي في نظر المؤمنين بها حقيقة لا سبيل إلى إنكارها، وفي نظر سواهم من الأباطيل والمسامرات التي لا ليس لها أية حقيقة.

ويعدّ علم «الميثولوجيا» علماً خاصاً يبحث عن الأساطير ولا سيما ما يتصل منها بمعتقدات الأمم وأديانها القديمة إذ تدخل بعض الأساطير الدينية عنصراً فاعلاً في المجادلات العقائدية من خلال اختراع الأحاديث، بل إن بعض هذه الأحاديث قد اخترعت على زمن النبي (ص) حتى قاله قوله المشهور: «مَن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[١]. وينضم إلى ذلك التأويلات التي أبدعها بعض أصحاب الفرق المتنافرة للنصوص القرآنية، يُضاف إلى ذلك قصص الجن والشياطين والملائكة والأبالسة، وقد وردنا من كل ذلك أحمال من الكتب التي دخلت أفكارها في أذهان الفئات الشعبية وأصبحت متمكنة من الفكر الديني الأسطوري لديهم.

روايات الغلاة:

وقد شط الخيال بغلاة الشيعة أن نسجوا قصصاً أسطورية تمثل رؤاهم للخلق وعقائدهم الغالية في الأئمة، وكان الأئمة (ع) قد حذَّروا منهم في حياتهم[٢].

ومن أخبار أولئك الغلاة ما روي عن المفوضية منهم الذين يرون «إن الله تعالى خلق محمداً ثم فوّض إليه تدبير العالم، فهو الذي خلق العالم دون الله تعالى، ثم فوض محمد تدبير العالم إلى علي بن أبي طالب فهو المدبّر الثالث».

ومن ذلك أسطورة الخلق التي ابتدعها الغلاة، والتي أوردها المسعودي[٣] وهي وان لم يكن مقتنعاً بها لكنه سردها كما يسرد سائر الأخبار التي يقتضيها منهجه في التأليف، فذكر ما ملخصه:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، أثم من كذب عن النبي(ص).

(٢) الغلو: هو مجاوزة الحد والخروج عن القصد، والإفراط في حق الأنبياء والأئمة والصحابة، من قبيل حلول الإله فيهم، أو إضفاء صفة من صفاته تعالى، أو إخراجهم عن حدّ البشرية. وقد ورد الغلو في حق أئمة آل البيت وأولهم علي (ع) كما جاء في عدد من الصحابة وأصحاب المذاهب والطرق الصوفية.
قال الشيخ المفيد ـ وهو أحد أهم رجال الشيعة الإمامية (والغلاة هم من المتظاهرين بالإسلام، وهم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريتهم (ع) بالإكفار والخروج عن الإسلام). (المفيد: تصحيح الاعتقاد: ١٠٩ ـ ١١١).
لقد دوّنت الكثير من الأحاديث والأخبار في الكتب الإسلامية ومصدرها أولئك الغلاة الذين دسُّوا أكاذيبهم فيها، وكان الأئمة قد حذروا منهم ومن ذلك قول الإمام الصادق (ع): «ما نحن إلاّ عبيد الذي خلقنا واصطفانا، والله ما لنا على الله حجة ولا معنا من الله براءة، وإنّا لميتون وموقوفون، ومسؤولون، من أحبّ الغلاة فقد أبغضنا، ومن أبغضهم فقد أحبنا، الغلاة كفار، والمفوضة مشركون».
وورد عن الإمام علي (ع) قوله: «إياكم والغلو فينا، قولوا إنا عبيد مربوبون، وقولوا من فضلنا ما شكرنا»..

(٣) المسعودي: مروج الذهب ١/ ٣٥ ـ ٣٦.

«إن الله تعالى حين شاء تقدير الخليقة وذرء البرية وإبداع المبدعات، نصب الخلق في صور كالهباء قبل دحو الأرض ورفع السماء، وهو في انفراد ملكوته وتوحد جبروته، فأساح نوراً من نوره وقبساً من ضيائه، فسطع.

ثم اجتمع النور في وسط الصور الخفية: فوافق ذلك صورة نبينا محمد (ص). فقال الله عز وجل من قائل: أنت المختار المنتخب، وعندك مستودع نوري وكنوز هدايتي من أجلك أسطح البطحاء وأمرج الماء وأرفع السماء وأجعل الثواب والعذاب والجنة والنار وأنصب أهل بيتك لك هداية وأوتيهم من مكنون علمي ما لا يخفى عليهم دقيق ولا يغيب عليهم خفي وأجعلهم حجتي على بريتي والمنتهين على قدرتي ووحدانيتي.

ثم أخذ الله سبحانه الشهادة بالربوبية والإخلاص بالوحدانية، فبعد أن أخذ ما أخذ من ذلك شاب ببصائر الخلق انتخاب محمد وآله وأراهم أن الهداية معه والنور له والإمامة في أهله تقديماً لسنة العدل وليكون الأعذار متقدماً.

ثم أخفى الله الخليقة في غيبه وغيّبها في مكنون علمه، ثم نصب العوالم وبسط الزمان ومرج الماء وأثار الزبد وأهاج الدخان. فطفا عرشه على الماء فسطح الأرض على ظهر الماء وأخرج من الماء دخاناً فجعله السماء. ثم استجابهما إلى الطاعة فأذعنتا بالاستجابة. ثم أنشأ الله الملائكة من أنوار أبدعها وأرواح اخترعها وقرن بتوحيده نبوة محمد (ص). فشهرت في السماء قبل مبعثه في الأرض.

فلما خلق الله آدم أبان الله فضله للملائكة وأراهم ما خصه به من سابق العلم من حيث عرفهم عند استنبائه إياه أسماء الأشياء. فجعل الله آدم محراباً وكعبة وباباً وقبلة، أسجد الله الأبرار والروحانيين الأنوار.

ثم نبه آدم على مستودعه وكشف له عن خطر ما ائتمنه عليه بعد أن سماه إماماً عند الملائكة فكان حظ آدم من الخير بمستودع نورنا.

ولم يزل الله يخبئ النار تحت الزمان إلى أن فضل محمداً في طاهر القنوات فدعا الناس ظاهراً وباطناً وندبهم سراً وإعلاناً واستدعى (ع) التنبيه على العهد الذي قدمه إلى الذرء قبل النسل فمن وافقه قبس من مصباح النور المتقدم اهتدى إلى سره واستبان واضحة أمره ومن أبلسته الغفلة استحق السخط.

ثم انتقل النور إلى غرائزنا ولمع مع أئمتنا فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض فبنا النجاة ومنا مكنون العلم وإلينا مصير الأمور وبمهدينا تنقطع الحجج خاتم الأئمة ومنقذ الأمة وغاية النور ومصدر الأمور. فنحن أفضل المخلوقين وأشرف الموجودين وحجج رب العالمين.

فليُهنَ بالنعمة من تمسّك بولايتنا وقبض على عروقنا».

وعلى نمط هذه الرواية الغريبة التي ابتكرتها عقول الغلاة، فإن الغواة في الجانب الآخر طرحوا أسطورة تفوقها خيالاً وتدجيلاً، فهي وإن تتفق ورواية الغلاة ـ المذكورة ـ من

حيث تصويرها خلق كل شيء من النور وبالذات من نور محمد لكنها تكرس نظرة من يُقدس الخلفاء ويقدمهم على علي بن أبي طالب حيث أنها قدمت خَلْق الخلفاء الراشدين على من سواهم مثلما قدمت رواية الغلاة خلق أهل البيت، تقول الرواية:

«وقد جاء في الخبر أن الله تعالى خلق شجرة لها أربعة أغصان فسماها شجرة اليقين ثم خلق نور محمد في حجاب من درة بيضاء كمثل الطاووس ووضعه على تلك الشجرة. فسبح عليها مقدار سبعين ألف سنة. ثم خلق مرآة الحياة فوضعت باستقباله. فلما نظر الطاووس فيها رأى صورته أحسن صورة وأزين هيئة فاستحى من الله تعالى، فعرق فقطر منه ست قطرات.

خلق الله من القطرة الأولى أبا بكر (رض)، وخلق من القطرة الثانية عمر (رض)، ومن القطرة الثالثة عثمان (رض)، ومن القطرة الرابعة علي (رض) ومن القطرة الخامسة الورد ومن القطرة السادسة الأرز..... ثم قال الله تعالى (للنور) انظر أمامك يا نور محمد. فنظر أمامه نوراً ومن ورائه نوراً وعن يمينه نوراً، وعن يساره نوراً، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي (رض)، وسبح ذلك سبعين ألف سنة، ثم خلق الله الأنبياء من نور محمد[١]....».

ومما يجري مجرى ذلك ما ورد من الغلو في أئمة المذاهب، ومن ذلك اتصال الخِضر بأبي حنيفة وأنه درس لديه، ثم أن القشيري تعلم على يد الخضر وأن كتب القشيري لا تزال وديعة في نهر جيجون، إلى رجوع المسيح، فيحكم بها[٢].... وقالوا: أحمد بن حنبل إمام المسلمين وسيد المؤمنين، وبه نحيا ونموت وبه نُبعثُ. فمن قال غير هذا فهو من الجاهلين[٣].

قصص أخرى أساطيرية المبنى والمعنى:

... ومن الأساطير ما ذكره بعض المفسرين في قصة سيدنا داود (ع) عند قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ ـ الآيات، فقد ذكر ابن جرير والسيوطي من الروايات ما تقشعر منه الأبدان ولا يوافق عقلاً ولا نقلاً ـ عن ابن عباس والسدي ووهب بن منبه، ومحصلها أن داود (ع) حدث نفسه إن ابتلى أن يعتصم فقيل له: إنك ستبتلى فخذ حذرك، ثم أنبئ بيوم الابتلاء، فأخذ فيه الزبور ودخل المحراب وأغلق الباب وأقعد خادمه عليه وقال له: لا تأذن لأحد اليوم. فبينما هو يقرأ إذ جاء طائر مذهب يدرج بين يديه، فأراد أن يأخذه، فطار فوقع على كوة المحراب، فذهب ليتناوله فإذا هو بامرأة عند بركتها تغتسل، فلما رأته نفضت شعرها فغطت به جسدها، وكان زوجها غازياً في سبيل الله، فكتب داود إلى رأس الغزاة: أن اجعله في حملة التابوت، وكانوا إما أن يفتح عليهم وإما أن يقتلوا، ففعل القائد ما أمر به فقُتل زوجها.

---

(١) دقائق الأخبار ص ٢ وما بعدها.

(٢) الإشاعة في إشراط الساعة: ١٢٠ والياقوتة لابن الجوزي: ٤٥.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ١/١٣٦.

وفي بعض الروايات أنه فعل ذلك مراراً حتى قتل، فلما انقضت عدتها خطبها داود (ع) فتسور عليه الملكان وهما متنكران، حتى أفتاهما في قصتهما، فأفهماه أنه المقصود بها.

ولم يقف الأمر عند حد الروايات الموقوفة بل جاء بعضها مرفوعاً: روى البغوي بإسناده عن أنس قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: «إن داود النبي لما نظر إلى المرأة فأهم فقطع، «كذا» على بني إسرائيل أوصى صاحب البعث فقال: إذا أحضر العدو فقرب فلاناً بين يدي التابوت، فقتل، ونزل عليه الملكان يقصان عليه قصته، ففطن داود ومكث أربعين ليلة حتى نبت الزرع على رأسه وأكلت الأرض من جبهته، وفي سنده ابن لهيعة وهو مضعف في الحديث، ويزيد الرقاشي وهو ضعيف أيضاً، وقال النسائي والحاكم أبو أحمد: إنه متروك، وقال فيه ابن حيان: كان من خيار عباد الله غفل عن حفظ الحديث شغلاً بالعبادة حتى كان يقلب كلام الحسن فيجعله عن أنس عن النبي (ص) فلا تحل الرواية عنه إلا على جهة التعجب»[1].

ومن ذلك ما ذكره بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ (الآية هود: ٣٨) من وصف السفينة وما كان فيها من عجائب، قال السيوطي في الدر المنثور: أخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس عن النبي (ص) قال: «كانت سفينة نوح لها أجنحة وتحت الأجنحة إيوان»، وذكر أحاديث في طولها وعرضها. قال: وأخرج ابن أبي حاتم من طريق زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله (ص) قال: «لما حمل نوح في السفينة من كل زوجين اثنين قال له أصحابه: وكيف نطمئن ومعنا الأسد؟ فسلط الله عليه الحمى، ثم شكوا الفأرة فقالوا: الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا، فأوحى الله إلى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها. وذكر نحواً من ذلك ابن جرير في تفسيره، كما ذكر أن نوحاً مسح ذنب الفيل فخرج منه خنزيران إلى غير ذلك مما ذكر في تعليل خلقة بعض الحيوانات، وكل ذلك من خيالات الوضاعين ، وهي أحاديث خرافة كانت شائعة ثم ألصقها الزنادقة وأعداء الإسلام به زوراً وبهتاناً ليظهروه بمظهر التخريف، والله سبحانه خلق الأشياء على ما هي عليه لحِكم قد تدق عن الإدراك، والعجيب أن مثل هذا الهذيان لا يزال يجري على ألسنة العجائز يسمرن به في الأمسيات.

وأعجب من ذلك ما ذكره بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤)، فقد روى عن ابن عباس وغيره أنه حل تكة سراويله، وأنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته، وأنه لم ينفك عن فعلته حتى رأى صورة أبيه يعقوب تحذره.

---

(١) تهذيب التهذيب ٣٠٩/١١.

وقيل: إنه ضرب في صدره فخرجت شهوته من أنامل قدميه، إلى غير ذلك مما ذكر، وهو مناف لعصمة الأنبياء[١].

ومن هذا القبيل ما يذكره بعض المفسرين في قصة سيدنا سليمان بن داود (ع)، ففي تفسير ابن جرير والثعلبي والدر المنثور الكثير من الروايات، وخلاصته ما روى أن سليمان (ع) أراد أن يدخل الخلاء فأعطى لجرادة خاتمه، وكانت جرادة أحب نسائه إليه، فجاء الشيطان في صورة سليمان وطلب منها الخاتم فأعطته إياه، فلما لبسه دانت له الإنس والجن، فلما خرج سليمان من الخلاء قال: هات خاتمي، قالت: قد أعطيته سليمان، قال: أنا سليمان، قالت: كذبت، فجعل لا يأتي أحداً يقول له أنا سليمان إلا كذبه، حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة، وقام الشيطان يحكم بين الناس. فلما أراد الله سبحانه أن يرد على سليمان سلطانه ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان، فأرسلوا إلى نسائه يستفهمون منهن عن أحواله، فقلن: إنه يأتينا ونحن حيض.

فلما رأى الشيطان أنه قد فُطن له كتب كتباً ودفنها تحت كرسي سليمان ، ثم أثارها ورواها على الناس وقال: بهذا كان يظهر سليمان على الناس، وأكفروه وبعث الشيطان بالخاتم فطرح في البحر فابتلعته سمكة، وكان سليمان يعمل على شط البحر حمالاً، فحمل لرجل سمكاً فأعطاه سمكة، فشقها فوجد بها الخاتم فدانت له الإنس والجن كما كان، وهرب الشيطان فلحق بجزيرة في البحر. ويجعلون مثل هذه الأباطيل تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ (ص: ٣٤). وقد نبه السيوطي في تخريج أحاديث الشفاء أنها إسرائيليات تلقاها ابن عباس عن أهل الكتاب، وقد سبق إلى التنبيه إلى ذلك القاضي عياض في الشفاء، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: «إن ما ورد في فتنة سليمان إسرائيليات»[٢].

وبهذا نرى اختلاط كتب بعض المفسرين بالأساطير، وإذا كان من يتحفظ على ما ورد في كتب التفسير، فإن في كتب السير والأخبار والأدب ما يماثل تلك الأساطير وقد يكون بعضها مما لا يتعارض مع حقائق الدين، كما هو الحال في سير بعض الأشخاص الذين قدموا في حياتهم بطولات خارقة وتمتعت شخصياتهم بكاريزما عارمة تنتزع الإعجاب والدهشة من محبيهم، وما اشتهر به الإمام علي (ع) من البطولة والبأس والإيمان الذي لا يتزعزع، والعلم الواسع، تحول في تصورات بعض مريديه، وقُبيل التطوأف في المجتمع

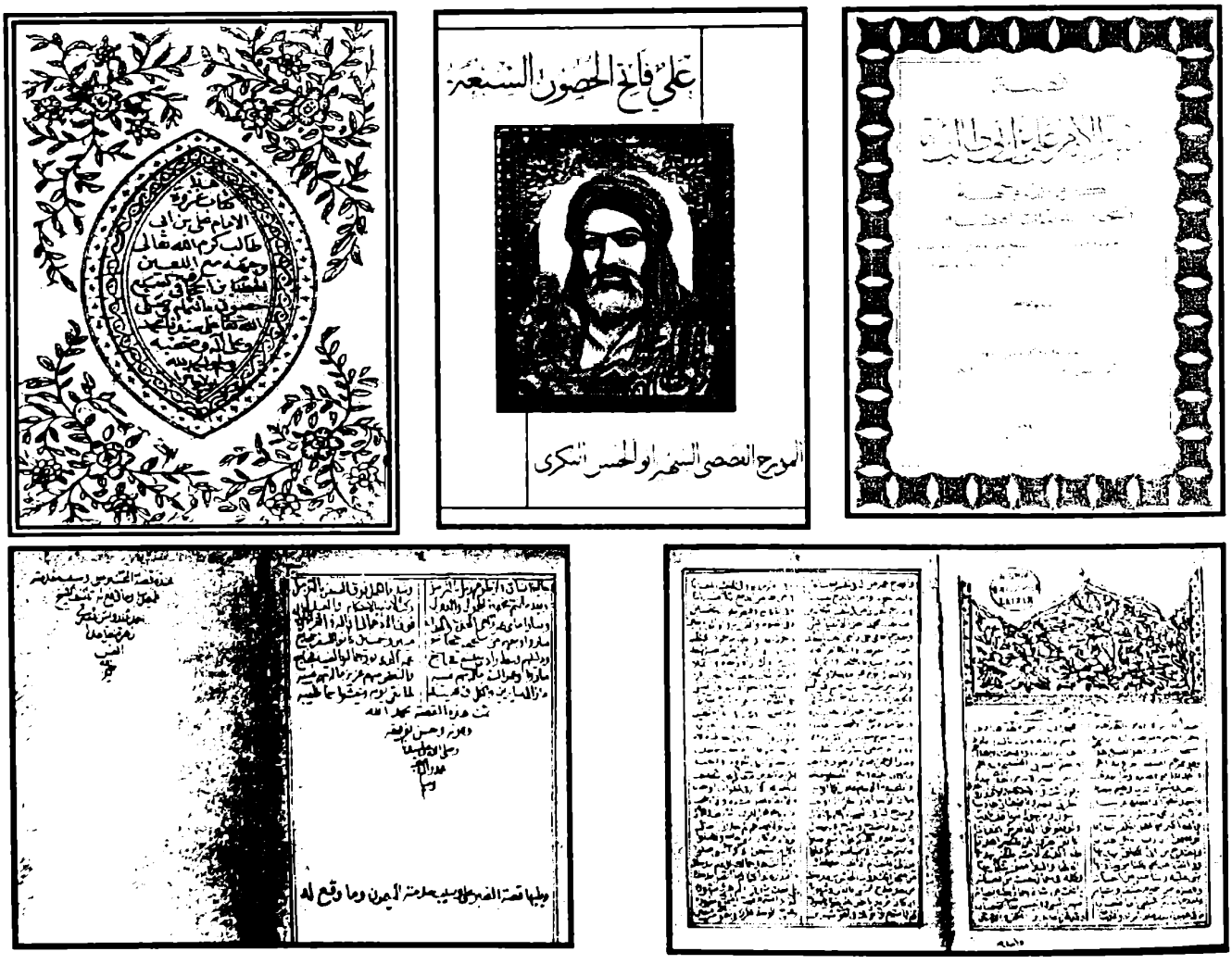
---

(١) وقد ذكر الكثير من هذه الروايات الثعلبي والبغوي، في تفسيريهما والعجيب أنهما وسماها بمذهب السلف وما أجمل ما ردّ به الإمام جعفر الصادق (ع) على ما همّ به يوسف (ص) حيث قال: «إن النبوة التي أودعها الله في صدره حالتْ بينه وبين ما يُسخط الله».

(٢) تفسير ابن كثير ٢٠٦/٦ ، ٢٠٧. ومثله في تفسير البغوي.

الإسلامي، إلى رمز خارق، فامتزجت قصص بطولته وعدالته فيما بعد بالأساطير وشاعت بين الناس على مدى عصور متطاولة، واستمرت تتردد وتُروى في المجالس والنوادي والمحال العامة، تلك القصص التي لفتت نظرنا، وطفقنا نجمع من مصادرها ما أُتيح لنا ذلك، ورائدنا أن يأتي مَنْ يدرس هذه الظاهرة الأسطورية للشخصية العلوية، وأن يناقشها ويحللها ويستخلص من ذلك العِبر والعظات، على أن يقرأها بهدوء، وروية، وخبرة، وحياد، يكفل استقلال تلك الأساطير المُنْبَثَّة بين ثنايا هذه النصوص، ولتُقرأ فيما بعد كحكايات تسللت إلى كتب التاريخ عن قصد أو جهل. ولكن يبقى الدافع لذلك الشخصية الأثيرة البارعة التي احتلها الإمام علي في وجدان من عَرَفه من البشر.

إن في هذه المختارات التي انتقيتها، قصص من الأدب الشعبي العربي، والفارسي، وهو كثير يستعصي على الاستقصاء، وما في هذا المجموع إلاّ عينات تدور في الدائرة القصصية التي لا تزال تتواتر عن الإمام علي (ع) في جهاده وعلمه وسعيه الدؤوب لنشر الحق وبسط العدل وإقامة دولة المستضعفين.



صور أغلفة بعض كتب السير الشعبية عن الإمام علي (ع).

الرسومات والفن الشعبي العلوي:

إن التراث الفني الشعبي المتعلق بالإمام علي (ع) منتشر في كثير من البلدان، ومن بينها البلاد العربية، وقد أشار إلى ذلك الدكتور أكرم قانصو بقوله:

إن «الرسوم الشعبية التي صورت آل البيت، انتشرت في معظمها بين الشيعة العرب، حيث لاقت قبولاً واستحساناً، فحفظت الرسوم في البيوت والأماكن المقدسة، إلى درجة أن الشيعة كانوا يقبلون على طلب هذه الصور من أي مصدر كان، وبالأخص تلك الوافدة من العراق وإيران.

والسبب أن المسلمين الشيعة يتعاطفون بشكل كبير مع آل البيت ويعتبرونهم أصحاب حق. ضحوا في سبيل نصرة الإسلام ورسوله.

فالإمام علي خاض المعارك ودافع عن الدين وكان يد الرسول اليمنى. والحسن والحسين سيدا شباب الجنة. وبالأخص الإمام الحسين شهيد كربلاء (٦١ هـ) قتل على يد بني أمية، وقد تركت موقعة كربلاء هذه جرحاً عميقاً في المشاعر الشيعية. فهم يحتفلون بها كل عام مع بداية شهر محرم، ويقيمون ذكرى تمثل مقتل الإمام بكل أسى وحزن.

الرسام الشعبي يعتبر مأساة آل البيت، رمزاً يقتدى به في الإيمان والعطاء ويعتبر الإمام الحسين رمز الشهادة والفداء.

فصور الإمام علياً على حصان أبيض ويلبس ثوباً أخضر، على خصره خنجر، وخلف رأسه هالة من القدسية وحوله الأنصار والملائكة.

وصوره أيضاً في لوحة واحدة مع فاطمة الزهراء والحسن والحسين والملاك جبريل، في يده سيفه المشهور ذو الفقار.

نلاحظ أيضاً إلى جانب الرسوم، كتابات دينية متنوعة، وآيات وأحاديث شريفة، نقرأ مثلاً: «الله جل جلاله - يا قاضي الحاجات - إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً - على الله في كل الأمور توكلي، وبالخمس أصحاب الكساء، محمد المبعوث، وابنيه بعده، وفاطمة الزهراء والمرتضى علي»، و«الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه - وولديه الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين»، و«لا فتى إلا علي ولا سيف إلا ذو الفقار»[1].

قلت: وفي مُتحف التقاليد الشعبية بدمشق والتابع لقصر العظم وفي قاعة الفن الشعبي منه. حوالي عشرين لوحة للفنان الشعبي أبو صبحي التيناوي مرسومة تحت الزجاج قياساتها

---

(١) التصوير الشعبي العربي /٨٣، الكويت١٩٩٥.

تتراوح بين ٥٠×٣٠سم ومنها صورة للامام علي يضرب فردوس سلطان الجن. ورأيت اكثر من صورة للامام معروضة في متحف دمشق المجاور للتكية السليمانية عند اول زياراتي للشام عام ١٩٧٦ ورأيتها ايضا عام ١٩٨٠ .ومثل هذه الرسومات للامام معروفة و متداولة خاصة في مصر وتركيا والهند و الباكستان ، اما في ايران فلليد الفنية الفارسية والخيال الجامح لفنانيها أعمال رائعة هي بالفنون العالمية أشبه وقد خصصناها ببحث خاص لأهميتها وتنوعها وعناصرها الفنية البارعة و المتميزة .

علي وال البيت في الملاحم والسير الإفريقية

ضمَّ الأدب السواحيلي الإفريقي أشعاراً وقصصاً تجسد حبّ الشعوب الإفريقية لآل البيت النبوي الشريف وتفانيهم وتعلقهم بتلك الرموز المقدسة.

ومن ذلك الملحمة الشعرية (خيبر) التي نظمها لشاعر بكاري بن مونيجو Bakari bin mwengo (١٧٦٠ ـ ١٨٣٠م) وقد لعب الامام علي دور البطولة في هذه الغزوة النبوية حيث كان النصر على يديه بعد ان قلع باب خيبر المحصنة ، وفي هذا يقول ابن ابي الحديد المعتزلي مخاطباً أمير المؤمنين (ع):

يا قالع الباب التي عن هزها ... عجزت أكف أربعون و أربعُ

تاللهِ لولا حيدر ما كانت ... الدنيا ولا جَمْعُ البريَّةِ أجمعُ

وقصيدة خديجة زوج الرسول (ص) وأم الزهراء البتول (ع) Utendi Wa Khadija[1].

وقصيدة السيدة فاطمة الزهراء Utendi wa Fatima وتحوي ٤٤٦ بيتاً وتقص سيرة حياتها وزواجها من الامام علي بن أبي طالب سلام الله عليهما[2].

وقصيدة الشملة Utendi wa Kishamia وتحوي ٣٨ بيتاً ، وهي مديح لآل بيت الرسول (ص) فاطمة وزوجها وأولادهما[3].

وقصيدة سيدنا علي ومضر Utendi wa Seyidina Ali na Mudhari bin Darimi وفيها يوجه مضر لعلي عشرين سؤالاً يجيب عليها وذلك يوم وفاة الرسول ولحوقه بالرفيق الأعلى، وتشتمل على ٧٧٦ بيتاً[4].

---

(1) Mohammad I. M. Abouegl: The life and wooks of Muhamadi Kijuma, London University 1983, p. 242.

(2) Emst Dammann: Dictungen in Lamu - Mundart des Suaheli, Ham - burg 1940, pp, 92 - 140.

(٣) المصدر السابق، ص٢٧٦ ـ ٢٨٤.

(٤) ومضر هذا شخصية رمزية، كما يُستخلص من القصيدة المحفوظة بمكتبة أكاديمية الكوفة.

علي في الملاحم الأندلسية:

للإمام علي (ع) مكانة كبيرة في الحضارة الأندلسية. وكانت ذكريات أهل البيت عامرة في بلاد الأندلس، وقد ظهر في الأندلس عدد كبير من الأعلام الذين والوا العترة المحمدية وعبروا في أفعالهم وأقوالهم عن تقديسهم واحترامهم لآل البيت، فقد ألف ابن الأبّار القضاعي البلنسي كتابين أسماهما (معدن اللجين في مراثي الحسين) و(درر السمط في أخبار السبط)[1]، ومن أعلام الأندلس المتأثرين بالثقافة العلوية محمد بن عيسى القرطبي الأعشى المتوفى (٢) هـ والذي كان يتخذ من الإمام علي (ع) قدوة له في حياته. ومنهم يونس بن الياس البرغواطي، ومنذر بن سعيد البلوطي الذي غضب على ابن عبد ربه لأنه لم يذكر الإمام علي في أجوزته ولم يجعله رابع الخلفاء الراشدين، وكتب أبياتاً عليها، منها:

رب الكساء وخير آل محمد ... داني الولاء مُقدَّم الإسلام

أما شعراء الأندلس الذين تولوا آل البيت (ع) ومدحوهم، فكثيرون، ومنهم ابن دراج القسطلي المتوفى ٤٢١ هـ، وعبادة بن ماء السماء المتوفى بعد ٤٢١ هـ، وابن شُهيد المتوفى ٤٢٦ هـ، ومحمد بن سليمان القرطبي الكفيف المتوفى ٤٢٧ هـ، وإدريس بن مقانا الأشبوني (القرن ٥ هـ)، وصفوان بن إدريس المتوفى بمرسية سنة ٥٩٨ هـ والذي قصر أمداحه على أهل البيت (ع)، ومحمد بن عبدون اليابري المتوفى ٥٢٩ هـ، وابن جابر الهواري المتوفى ٧٨٠ هـ الذي نوّه بفضائل الإمام المرتضى (ع) في قصيدة له يقول فيها:

وإن علياً كان سيف رسوله ... وصاحبه السامي لمجد مشيد
وصهر النبيّ المجتبى وابن عمه ... أبا الحسنين المحتوى كل سُؤدد
وقال رسول الله: إني مدينة ... من العلم وهو الباب فالباب فاقصد
ومن كنت مولاه علي وليُّه ... ومولاه فاقصد حبّ مولاه تُرشَد

ومنهم ابن أبي الخصال الغافقي (٤٦٥ ـ ٥٤٠ هـ)، وناهض بن محمد الوادي آشي المتوفى ٦١٥ هـ. ومحمد بن هاني الأزدي الأندلسي (٣٢٠ ـ ٣٦٢ هـ).

والملك يوسف الثالث وهو يوسف بن الأحمر، وهو الثالث عشر من ملوك غرناطة (المتوفى ٨٩ هـ). وصالح بن يزيد المعروف بأبي البقاء الرندي (المتوفى ٦٨٤ هـ). وغيرهم[2].

---

(١) راجعه كاملاً منشوراً في موسوعة الموسم، المجلد ١٦، لسنة ١٩٩٣ (ص٩ ـ ٤٥).

(٢) راجع موسوعة الموسم، الجزء الموسوم بـ (شمال أفريقيا والأندلس) الجزآن ٩٢ و٩٣ السنة ٢٣ (١٤٣١ هـ ـ ٢٠١١م) تضمنا ٦٧٢ ص. وفيها أبحاث كثيرة حول التشيع وحب آل البيت في الأندلس، ولا تخلو بقية أجزاء الموسوعة من بحوث تتعلق بهذه المباحث.

وبعد سقوط غرناطة عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م هاجر من لم يتنصر إلى خارج الاندلس في هجرات عديدة، ومنهم الوافدون عام ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م والذين توزعوا بين تونس والجزائر وتطوان وفاس ومراكش وغيرها. تلتها هجرة عام ٩٧٠هـ/٦٢ - ١٥٦٣م إلى المغرب الأقصى ثم كان الجلاء الأخير الى الشمال الافريقي عام ١٠١٨هـ/١٦٠٩م، ويُقدر عدد الوافدين في هذه الهجرة بنيف وستمائة ألف وبينهم جالية أندلسية يهودية كانت تعيش ضمن المجتمع الاسلامي الأندلسي، وهناك هجرات أخرى وصلت من خلال البحار إلى سواحل آسيا ومنهم جماعة المورو في سريلانكا الحالية وقد التقيت زعيمهم وكبير جماعتهم السير رازق فريد في منزله بمدينة كولومبو عام ١٩٨٠ وهو من أخبرني بأُصول قومه وجماعته..









الإمام علي في الأدب الموريسكي:

حين وقعت شبه الجزيرة الإيبيرية بأكملها في قبضة ملوك قشتالة وأرجوان الموحدة نشبت مشكلة الأقلية الموريسكية منذ عام ١٤٩٢م حتى طردهم عام ١٦١٠م.

والموريسكيون Los Moriscos إحدى التسميات التي عُرفت بها هذه الجماعة، فقد عُرفوا أيضاً باسم المُدَجّنين Mudejare الذي أطلقه عليهم النصارى الإسبان، لكن التسمية الشائعة (الموريسكية) بقيت ملازمة لهم وقد استعملت لأول مرة في القرن ١٥م أثناء الصراع بين المسيحيين ومملكة غرناطة للدلالة على كل من كان يدخل في طاعة ملوك النصرانية من إقليم غرناطة، ثم أُطلق على مسلمي غرناطة أجمعين عندما سقطت عام ١٤٩٢م في أيدي مَلِكَي قشتالة وليون، سواء من تنصر منهم وبقي في الأندلس، أو مَنْ هاجر وظل على دينه.

والذين اعتنقوا النصرانية كَرْهاً بقوا يمارسون طقوسهم سرّاً، وبقوا يزاولون بعض عاداتهم ولباسهم مدة طويلة من الزمن، ومن المعتقد أن المراقاطوس Maragatos الذين يسكنون في الجنوب الغربي من مدينة أسطورقة Astorga، هم من نسل المسلمين القاطنين هناك منذ قرون.

إن المسلمين الأندلسيين الذين أُجبروا على تغيير دينهم لم يستسلموا بسهولة، فقد احتفظوا بثقافتهم كما مرَّ، وكانوا يتمردون ويثورون كلما سنحت الظروف لهم بذلك انتقاماً لزوال الحكم الإسلامي وما نشأ جرّائها من المذابح التي طالت بني قومهم ودينهم، وكانت الأمور تزداد سوءاً على مرّ الأيام، ولأجل ذلك تحولت بعض مغازي النبي (ص) وإحداث الإسلام في مخيال هذه الجماعة المُضطَهَدة المنسحقة تحت وطأة التعصب الديني وتعسف محاكم التفتيش، إلى مجموعة من الأناشيد الحارة يقوم بدور البطولة فيها الإمام علي بن أبي طالب، ولم ينشأ ذلك عن فراغ فللإمام علي حضوره الكبير في مغازي النبي (ص) وعموم أحداث الإسلام ووقائعه، بالإضافة إلى ما يمكن وصفه بالخلفية الفاطمية والعلوية التي كانت تتسم بها بعض الفئات الأندلسية التي نبغ منها أعلام كبار من المؤرخين والأدباء والعلماء الذين ناصروا آل البيت (ع) وأظهروا محبتهم وموالاتهم لأبي الأئمة الإمام علي، الذي ألهمت شجاعته الشعب الموريسكي المسلم المُضْطَهد - ممن ذكرنا بعض أسمائهم من قَبْل -، فاستثمرت المخيلة الشعبية لهم مواقف الإمام في حروبه المختلفة فاختلطت بالأسطورة وخرجت بنمط جديد سُداه ولحمته استثارة القوة والثأر، واستغاثة بسيوف الأجداد تفجر على أفواه المقهورين بلغة أعجمية وحروف عربية، في الشكل المعروف بـ (الأخميادو). والتي كان لها تأثيرها فيما بعد بالملاحم الإسبانية التي كانت في دور التشكل كما هو الحال مع «ملحمة السيد» بل وتجاوزت بتأثيراتها إلى

بعض الملاحم الفرنسية كما هو الحال مع أهم هذه الملاحم التي يُطلق عليها (أنشودة رولان)، التي ورد فيها سيف (رولدان) المسمى في تلك الأنشودة (Durandal) أي «ذو الأنضار» وهو السيف المشتق اسمه من اسم سيف علي بن أبي طالب «ذو الفقار».

إن الروح الملحمي الشعبي حاضر في القصص الموريسكية التي تمجِّد علي بن أبي طالب مع إضافة العنصر التشويقي الخارق على شخصيته، وقد جُمعت في مخطوطة أطلق عليها «المغازي» أخرجها الدكتور صلاح فضل والتي كانت محل اعتمادنا ، وله في ذلك كل الفضل الذي لزم التنويه به و الاشارة اليه ، وقد قدم لها مقدمة ضافية ذكرنا بعضها في هذا المجموع، وأثبتنا بعض المغازي الأصلية كما نصّ عليها الواقدي، إذ أنه من المعتقد أن أصول هذه الأقاصيص الموريسكية لها علاقة بروايات الواقدي، فمن الممكن إجراء المقارنة بين نصوص الواقدي ونصوص الموريسكيين، مع أننا وجدنا بَوْناً شائعاً بينهما.

أضفنا لهذا موضوعاً آخر عن مكانة الإمام علي لدى الأندلسيين، كما قدمنا عدداً من الأقاصيص الشرقية المشوبة بالأساطير، من الرصيد التراثي الشعبي الذي تتميز به شخصية الإمام علي (ع).

لعل من أهمها (ملحمة خاورنامه) المشهورة والمتداولة منذ قرون في بلاد فارس، بالإضافة إلى قصة الرهبان مع الإمام ، وغزوة الإمام علي الأسطورية لبلاد الهضام وقطعه للحصون السبعة ، وغير ذلك من القصص التي تجمعت لدينا بالعشرات، لكننا ذكرنا بعضها من أجل لفت الأنظار إلى أهمية دراستها مستقبلاً لما في ذلك من تعبير عن أدب جماعي لم يَقُم بصياغته مؤلف متفرد ومعروف، بل تداوله المحبون للإمام علي واعتبروه مُلكاً مشتركاً، وهذا التراث الشعبي المكتوب والتراث الفني المُعَبَّر عن بطولات الإمام بالرسم والخطوط ، ومجموعات الشعر الشعبي الهائلة والمنتشرة بكثير من اللغات الحية، كل ذلك يُعبر عن أدب روحاني شعبي نابع من وجدان الشعوب المحبَّة لإمام المتقين، ويمثل بلورة لوعيها التاريخي، القائم على إدراك القيم النبيلة والأصالة والتي هي منشأ الإعجاب الخارق الذي يقوم على تراث شهيد عظيم من شهداء الإنسانية.

لقد قمنا بهذه الاختيارات كمحاولة أولية لدراسة التراث الشعبي العلوي، ونرجو أن يكون هذا دافعاً للباحثين للتوسع في الموضوع ودراسته كما ينبغي له وفق المناهج الأكاديمية، وحسبنا أننا رسمنا الاتجاه وألمحنا إلى بعض العوامل التي أوجدته والمهم عندنا الانطلاق الأول في التأسيس لهذه الفكرة وإبراز أثرها في المجتمع والحضارة.

محمد سعيد الطريحي

الملاحم العلوية في أدب الألخميادو
الإمام علي في السيَر الشعبية الموريسكية

د. صلاح فضل

كتاب المغازي وبطولة علي:

كتاب المغازي مجموعة من روايات الفروسية الملحمية التي تتسم بالطابع التراثي التقليدي، وتحفل بالخوارق العجيبة؛ حيث تحكى قصة الغزوات الأولى في الإسلام، بإسناد دور البطولة الأساسي فيها للإمام علي بن أبي طالب، مما يكون منها ملحمة شبه متماسكة، تتابع حلقاتها، وتتراوح أحداثها بين الواقع التاريخي والخيال الفني، وقد كتبت في القرن السادس عشر باللغة القشتالية - أي الإسبانية - المرسوم بالحروف العربية على الطريقة المميزة للأدب الأعجمي «الألخميادو»، وتبدو فيها مجموعة من الخواص اللغوية المعروفة في تاريخ اللغة الإسبانية إبان القرن السادس عشر الذي تعود إليه المخطوطات، وإن كان ذلك بطبيعة الأمر لا ينفي الامتداد التاريخي القديم لهذه الروايات قبل تسجيلها كتابة؛ عن طريق التداول الشفاهي بين الناس أولاً خلال آماد طويلة، شأن الآداب الشعبية الجماعية، قبل أن يتم تثبيتها بهذه الطريقة الكتابية الطريفة التي اختص بها الموريسكيون.

وتقع هذه القطعة الأدبية الفريدة في مخطوطة تحمل رقم ٥٣٣٧ بالمكتبة القومية بمدريد، مكتوبة بالخط المغربي المميز للقرن السادس عشر، وتتكون من ١٤٨ صفحة مجلدة بالرق. وقد كتبت بعض العناوين والآيات القرآنية فيها بالمداد الأحمر. وبالإضافة لهذا المخطوط هناك مخطوطان آخران يتضمنان بعض الروايات الواردة في «كتاب المغازي»؛ أحدهما يحتوي على حكاية «وراء الحجرات» والآخر يحتوي على معركتي بدر وحنين وإن كتبت تحت عنوان «قصة فتح بيت مكة المكرمة»، وكلا المخطوطين في مجموعة «جايانجوس» التي تملكها الآن الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد، كما يضاف إلى هذه القصص أيضاً قصتان تدوران حول نفس الموضوعات، وهما «حديث القصر الذهبي»، و«حكاية الثعبان مع علي بن أبي طالب»، ويضمهما مخطوط رقم ٣٢٢٦ بمكتبة القصر الملكي بمدريد، أما حكاية «علي بن أبي طالب والأربعين فتاة» فهي ملحقة بمجموعة «جايا نجوس» المشار إليها من قبل[1].

---

(١) انظر:

Galmes de Fuentes, Alvaro: El libro de las Batallas, Narraciones Epico – Caballerescas. Tomo I. Madrid 1975. pag 9 – 11.

وترتكز هذه الروايات على ما يسمى بأدب السير والمغازي من جانب، وعلى تقاليد آداب الفروسية من جانب آخر. وقد كان مصطلح السير والمغازي يدل على المعارك التاريخية التي قام بها الرسول أو أمر أصحابه بالقيام بها، وقد أصبح فيما بعد علما على هذا الجنس الأدبي التاريخي، الذي بدأ كما يقول المحققون في المدنية على يد عروة بن الزبير المتوفى عام ٩٤ هـ، وأبان بن عثمان المتوفى عام ١٠٥ هـ الذي ألف كتاباً بعنوان «كتاب المغازي»، ووهب بن منبه اليمني المتوفى عام ١١٠ هـ، وشرحبيل بن سعد المتوفى عام ١٢٣ هـ، وابن شهاب الزهري ١٢٤ هـ، وعاصم بن قتادة ١٢٠ هـ، وكلهم قد وضع كتباً بعنوان «المغازي»، ولكن أهم مؤلف استوعب ما قبله هو سيرة محمد بن إسحق ١٥٠ هـ التي رواها ابن هشام ٢١٨ هـ. وإن كان قد ضم إلى الروايات التاريخية عدداً من القصائد والأشعار والحكايات الشعبية، واستخدم كذلك بعض المصادر المسيحية واليهودية مما يعرف عند علماء السيرة النبوية بالإسرائيليات.

وقد ترتب على ذلك تراكم الصور والروايات التي شكلت فيما بعد معالم أدب الفروسية بعناصره الملحمية البارزة كما يتجلى في كتاب المغازي الموريسكي. ومن المألوف في روايات الفروسية أن تلتف مجموعة العناصر المكونة له حول نواة أولى صلبة ترتكز على الوقائع التاريخية الثابتة، ولكنها تصوغها بحرية واضحة وثراء عجيب في جملة من الحكايات الملحمية، مما يجعل وحدتها تعتمد على مبدأ التجانس الموضوعي من ناحية ووجود بطل رئيسي واحد يتكرر ذكره في جميع الحكايات من ناحية أخرى.

وهذا ما يتحقق في كتاب المغازي الموريسكي الذي يعتمد على تجانس الموضوع المتصل بالفتوح والغزوات الأولى في الإسلام، ويقوم بها بطل أساسي هو علي بن أبي طالب ابن عم الرسول وزوج فاطمة البتول.

وقد ارتبطت نواة هذه الروايات التاريخية بتقاليد أدب الفروسية الإسلامي الذي ازدهر في التراث الشفاهي للملاحم العربية، وأخذ ينمو بمحاذاة تراث السيرة المكتوب مستمداً عناصره منه، وإن كان مستقلاً عنه في تشكلاته إلى حد بعيد[1]. على أن وظيفة القصاص التي تكتسب أهمية كبرى في نقل الروايات الملحمية كانت شائعة بدورها بين عرب الأندلس، وقد حضر بعض رواة الأندلس مواقع تاريخية مثل ابن قطان الذي شهد موقعة الحرة حين انتصر يزيد على الخارجين عليه بالمدينة، وقد ساعد الأمويون على زيادة الاهتمام بتقاليد الرواية والقص في الأندلس، وكان هذا شأنهم منذ أيامهم الأولى، فمعاوية كان أول خليفة بدأ بالاهتمام بالقصاص وضمهم إلى بلاطه، وعبد الرحمن الداخل كان يعنى بولديه هشام وسليمان: أما الأول فكان يخصص له من يحدثه عن الأدب والتاريخ وأخبار الحروب وسير

(١) المصدر السابق، صفحة ١٥ ـ ١٦.

الأبطال والقواد، وكان سليمان مشغولاً بلهوه ولعبه، ويورد المؤرخون روايات عديدة تشير إلى ولع الأندلسيين بسير البطولة وأخبار الشجعان نتيجة لاستعار روح القتال والجهاد بصفة دائمة في الثغور المحيطة بهم مع أعدائهم من ناحية، ولكثرة المنازعات والشقاقات الطائفية والقبلية بين العرب والبربر وفصائل العرب نفسها من ناحية ثانية. وكان أمراؤهم مدركين لأهمية التربية على تقاليد الفروسية ودور الأقاصيص والأشعار في إلهاب الحماس وإشعال الفتن، وربما كان للتراث الثقافي القديم المستقر في الوجدان الجماعي لبقايا السكان الأصليين وامتزاجه بالعناصر العربية والبربرية الوافدة أثر في إذكاء هذه الروح، ولا يخلو من دلالة أن يكون من أول وأبرز المؤلفين الذين جمعوا ما روى عن أيام العرب وأخبار البطولات بتوسع لا يدانى المؤلف الأندلسي الموسوعي ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد[1].

كما لا يخلو من دلالة أيضاً أن تنتشر كتب السير والمغازي في الأندلس ابتداءً من ملخصات يحيى بن يحيى المتوفى عام ٣٦٧ هـ، وابن عبد البر صاحب «الدرر في اختصار المغازي والسير» ٣٦٨ هـ، إلى الموسوعات الشارحة مثل ما كتبه السهيلي - ٥٨١ هـ - بعنوان «الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام». كما انتشرت أيضاً الأراجيز التي تنظم السيرة النبوية مثل أرجوزة الجزيري ٥٨٨ هـ التي تقع كما قيل في اثني عشر ألف بيت من الشعر، مما جعلها تفوق أية منظومة تاريخية أخرى.

وكان الأدب الموريسكي يستقي مادته الأدبية والتاريخية بطبيعة الحال من عيون هذا التراث الإسلامي فكتاب المغازي ينسب ما ورد فيه منذ الصفحة الأولى إلى ابن إسحق، ويضفي قدراً كبيراً من الطابع الأدبي على رواياته بتطعيمها بعدد من المقطوعات الشعرية والأراجيز المنظومة، ولكنه يستخدم إلى جانب هذه المادة الثقافية الموثقة مادة أخرى من إنتاج الخيال الشعبي التي يغلفها بالأساطير والمعجزات، ويضفي عليها مسحة من الاستغراق الخيالي استجابة للحاجات العميقة للجماعة الإسلامية المضطهدة في نداء الأجداد وابتعاث البطولات واستثارة الأمجاد لمقاومة الواقع المرهق الأليم.

وقد يتولد لدى الباحث عند تحليله لبعض هذه العناصر الخيالية وروايات الفروسية في كتاب المغازي شعور ببعدها الفادح عن الحقيقة التاريخية، ولكن هذا غير دقيق؛ فهذه الحكايات بالرغم من اشتمالها على عناصر خيالية أسطورية تعتمد في صلبها على أحداث واقعية تاريخية مؤكدة لا يمكن للإطار الملحمي أن يطمس صدقها وحرفيتها أحياناً، مما يختلف جوهرياً عن الملحمة الفرنسية مثلاً المتكئة على الأسطورة والخيال في وقائعها والمعروفة

---

(١) انظر: كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها، وكتابي العسجدة الثانية واليتيمة الثانية في أخبار الغزوات والتاريخ الإسلامي. وكتاب الدرة الثانية في أيام العرب ووقائعهم في العقد الفريد لابن عبد ربه، أجزاء ١ و٥، ٦ طبعة بيروت ١٩٨٣.

بطابعها اللا واقعي، وكذلك الملاحم الأنجلو سكسونية والجرمانية: وفي هذا الصدد فإن الباحثين يقيمون علاقة مباشرة بين هذه الروايات الإسلامية والملاحم القشتالية التي تتفق معها في احترام الوقائع التاريخية والبناء عليها، إذ أن الرابط الجمالي الذي يشد الواقع إلى الخيال في كل منهما هو الأمانة في عرض الأحداث الرئيسية، والدقة في تمثيل روح التاريخ.

فالمغازي التي يدور حولها الكتاب هي بدر وأحد والخندق واليرموك وحنين، وكلها وقائع تاريخية عظمى ثابتة؛ بل إن بعض التفاصيل الصغيرة تتفق تماماً مع ما ورد في كتب التاريخ الموثقة مثل قصة دريد بن الصمة مع مالك بن عوف، كما أن أسماء معظم الأماكن والقبائل والأفراد ذات أصل تاريخي ثابت، ويتمثل السياق الملحمي حينئذٍ في توحيد البطل والمبالغة في صفاته، والمغالاة في دور العناصر الخارقة وإضفاء طابع الأسطورة عليها، أما عدا ذلك ـ وهو الهيكل العظمي للروايات ـ فهو من صلب التاريخ المعتمد ووقائعه.

ومن المدهش في كتاب المغازي أن يتسم أبطاله بنفس الخصائص الإنسانية المعروفة عنهم في التاريخ، فبالرغم من بطولة على المطلقة وقيامه بأعمال معجزة إلا أنه في تواضعه الجم، وصفاته الخلقية، ، يتفق تماماً مع ما ترسمه كتب التاريخ له: فإلى جانب شجاعته الفائقة، ووفائه العظيم للرسول، وتقواه البارزة، وحبه للعدل والحكمة، وكرمه وبلاغته، وقدرته على الاجتهاد في القضايا، وروح المبادرة التي ترفعه لمصاف الأبطال العظماء، لا يخلو من الشعور بالضعف والرقة، والنقائض البدنية والعجز المادي الواضح لدرجة الفقر الشديد. فهو لا يعتمد مثل بقية الأبطال الأسطوريين على أصل إلهي مقدس ولا يبطش ظالماً بغيره، بل إن سلم القيم التي يمثلها يتسق تماماً مع سلم القيم الإسلامية الراسخة: من اعتبار التقوى ذروة النبل، وخدمة الإسلام قمة البطولة، وما تضفيه الروايات على شخصيته من مسحة مثالية يستقي عناصره من الواقع التاريخي ويبالغ فيه دون افتئات على الحقيقة أو خرق للتاريخ، بل يعد امتداداً للصورة المأثورة عنه كما سنفصل فيما بعد.

وربما كانت الأهمية الأدبية للنصوص الموريسكية عامة، ولكتاب المغازي بصفة خاصة، نابعة من تصويرها الفني للحياة الداخلية والمعتقدات الحميمة لبقايا مسلمي الأندلس، فضلاً عن روابطها الوثيقة بالأدب الإسباني: إذ أن المسيحيين والموريسكيين كان كل منهما على علم تام بما ينتجه الآخر من أدب وفن. ولا يخلو من دلالة خاصة في هذا الصدد أن يختار «ثيربانتيس» لقصته الشهيرة «دون كيخوتي» مصدراً روائياً متميزاً: إذ ينسبها إلى موريسكي أعجمي: وليس لمؤلف عربي كما يقال عادة، والمشهد الذي يروي فيه المؤلف ذلك طريف إذ يقول:

«كنت أجلس يوماً على قنطرة طليطلة، فرأيت فتى يبيع قراطيس ولفائف وأوراقاً قديمة كانت لدى أحد الوراقين، ولما كنت شغوفاً بالقراءة، لا أكاد أترك شيئاً حتى تلك الأوراق الممزقة الملقاة في الشوارع، فقد دفعني هذا الميل الغريزي إلى أن أتناول لفيفة من تلك

التي كان يبيعها الفتى، فوجدتها مسطورة بحروف عرفت أنها عربية، ومع أنني تبينتها إلا أنني لم أستطع قراءتها، فأخذت أبحث عن موريسكي أعجمي ليقرأها، ولم يكن من العسير عليّ أن أجد مثل هذا المترجم». فثيربانتيس ـ كما يدل عليه المشهد ـ كان يميز الحروف العربية لكنه لا يستطيع قراءة النص بها: إذ تكمن الصعوبة فحسب في الحروف، مما يستخلص منه أن الأمر لم يكن يتصل بترجمة نص مكتوب باللغة العربية، بل بقراءة حروف كُتب بها نص إسباني، مثل كتاب المغازي الذي نحن بصدده، لهذا لجأ إلى موريسكي أعجمي، ولم يلجأ لعالم باللغة العربية.

الحسين في الأدب الموريسكي:

على أن العلاقة الوثيقة بين الأدبين المسيحي الإسباني والموريسكي الإسلامي قد قامت عليها شواهد متواترة سبق أن أشرنا إلى بعضها، ويهمنا الآن ما يتصل بكتاب المغازي وارتباطه الجدلي بأدب الفروسية والملاحم، وهو ارتباط ترجع جذوره للتلاقح المستمر في التراث الشفاهي للأدبين نتيجة للمعايشة المشتركة ولحرية الفنان الشعبي في استقاء مادته وأنماطه مما يقع له في البيئة المختلطة، بل ولعه بتتبع النماذج الدخيلة واستيعابها، ثم قدرته على تأويل عناصرها بما يتسق مع حاجاته الفنية والتاريخية.

ومن أمثلة هذا التأويل الحر ما رصده الدارسون في مجموعة المخطوطات الموريسكية الأخرى التي عثر عليها بمكتبة «بولونيا» مما يعد نوعاً من الاستمرار لموضوعات كتاب المغازي داخل الخط الموالي للإمام علي، لكن بتركيز الضوء على شخصية الحسين الذي استحال في التاريخ الإسلامي لسيد الشهداء، ولكن تأويل الموريسكيين له جعل حياته وموته نموذجاً إسلامياً اكتسب خصائص قصص الشهداء المسيحيين من القديسين دون أن يخرج على قواعد فن السيرة الإسلامي: فبعد أن يضفي المخطوط على شخصية الحسين الخواص النوعية للقديس البطل، يضيف مجموعة من الاختبارات الغريبة عن القصة لكي يبرهن على سيادة الفكر الإسلامي وتفوقه على كل من اليهودي والمسيحي إذ يقول:

«عندئذٍ أجاب اليهودي: لقد وجدنا مكتوباً في التوراة يا سيدي أن الحسين حبيب الله وأن قاتله في النار» ويعبر عن مثل ذلك القسيس المسيحي عندما يلقى الكتيبة التي تحمل رأس الحسين فيقول: «أعدكم أنني وجدت في أناجيلنا أن الحسين حبيب الله وأن قاتله سيخلد في النار» كما نجد بقية خواص الحكايات الملحمية الدينية في قصة الحسين: مثل إضفاء القوة السحرية على الكلمة، فيشرع الحسين في المعركة وهو ينشد أبياتاً من الشعر الشبيه بالشعر الصوفي المسيحي فيقول:

فليتم ما أمر به الله

ولنخرج من هذه الحياة

فالخير فيها عارية

ولننازل اليوم بجسارة
كتائب أعدائنا الضارية[١].

كتاب المغازي:

ونعود إلى كتاب المغازي لنجد أنه قد ظفر بنشرتين في اللغة الإسبانية: إحداهما جزئية صدرت عامي ١٨٨٥/١٨٨٦م في مجلدين أخرجهما مع مواد أخرى «جين روبليس F. Guillen Robles» معيداً كتابتهما بالحروف اللاتينية دون تحقيق دقيق بعنوان «أساطير موريسكية» تضم مجموعة ضخمة من الحكايات الإسلامية المختلطة بأمشاج من الروايات المسيحية ويشكل كتاب المغازي جزءاً منها. أما النشرة الأخرى ـ وهي العلمية المعتمدة ـ فقد أصدرها عام ١٩٧٥ الباحث الكبير «جالميس دي فوينتيس Galmes de Fuentes» في مجلدين أيضاً، لكنهما يقتصران على كتاب المغازي فحسب وقد أعاد رسمه بالحروف اللاتينية بدقة بالغة، مع دراسة لأهم الخصائص اللغوية والفكرية والأدبية للكتاب.

بطولة علي وفكرة التشيع:

لا ينبغي في تقديري أن نستخلص من اختصاص شخصية الإمام علي بدور البطولة في كتاب المغازي أن هذا دليل على انتشار تيار من التشيع ـ بالمفهوم السياسي للكلمة ـ بين الموريسكيين. وإذا كان بوسعنا أن نبحث في الفكر السياسي الأندلسي عن بعض ملامح لهذا التشيع ونعثر عليها بالفعل ـ كما سنرى فيما بعد ـ فإن موقف الموريسكيين المهددين في صميم انتمائهم العربي الإسلامي المواجهين بمحنة التنصير القسري ومحو الشخصية لم يكن يسمح لهم باختيار سياسي لا يعتصم بالإسلام ككل ولا يستغيث بجميع ما يسعفه من عناصره.

وقصارى ما يمكن الإشارة إليه في هذا الصدد هو أن اختيار شخصية الإمام علي للبطولة لدى الموريسكيين كان ينبع من حس إسلامي تاريخي صادق، يحتفظ به المعتدلون من أهل السنة والشيعة معاً من إعزاز أهل البيت النبوي، وتمجيد شخصية الإمام الشجاع، وتحولها التدريجي في الوجدان الشعبي إلى رمز أسطوري للبطولة الفذة، والقدرة البدنية الخارقة، والفتوة التقية المعجزة، إنه لون من التشيع الوجداني الكامن في أعماق الشعب المسلم يتجلى في الأدب الشعبي المشرقي والمغربي معاً.

ولعل من أبرز مظاهر هذا التمجيد الشعبي في المشرق، دون أن تكون له دلالة مذهبية ـ مجموعة السير التي تنشر تباعاً للإمام في طبعات شعبية رائجة تختلف عن كتب المناقب

---

(١) انظر: بحث الشعور الديني للموريسكيين المهاجرين لمؤلفه .Penella, Juan المنشور في أعمال المؤتمر الدولي للأدب الموريسكي والأعجمي المشار إليها من قبل، ص ٤٧١ / ٤٧٢.

الرسمية وتوازي سير الأبطال الشعبيين الآخرين بما تحفل به من الخوارق والمعجزات. ومنها «سيرة الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي تعالى عنه، وسيره إلى الملك الهضام بن الجحاف، وقطعه الحصون السبعة حتى وصل إليه، ونصره الله عليه، وما جرى له من ألوان الطعن والضرب وإظهار البسالة في ميدان الحرب».

وربما يكون من الشائق في دراسات لاحقة إجراء موازنة تفصيلية دقيقة بين المادة الموجودة في مثل هذه السير المشرقية ونظائرها في كتاب المغازي الموريسكي والسير الأندلسية والمغربية، حتى يتسنى لنا أن نضع أيدينا على القواسم المشتركة بينهما، وعلى ما ينفرد به كل تراث شعبي من خواص تكونت نتيجة لظروفه التاريخية والثقافية المتميزة.

وقد تتبع بعض الباحثين العرب التيارات الأدبية الأندلسية المتأخرة التي كانت متعاطفة مع آل البيت، وفيها تكمن الجذور الحقيقية لموقف الموريسكيين، فوجدوا أنه ابتداءً من القرن السادس الهجري خلال عصر المرابطين نعثر على بداية تتسم بالحرارة والصدق والإخلاص في التعاطف مع آل البيت، دون غلو أو انحراف عن نهج أهل السنة، ويعد شعر أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال الشقوري (٤٦٥ ـ ٥٤٠ هـ) نموذجاً لهذا النوع من الأدب؛ إذ يبكي الحسين في قصيدتين قرأهما عليه ابن خير، ولديه عدة قصائد مدحية تناول فيها مأساة أهل البيت، كما اشتهرت عنه رسائل بكائية أيضاً، ولعل العصر الذي عاش فيه ابن أبي الخصال كان مليئاً بما يثير العواطف ويبعث على التأمل لما وقع فيه من أحداث جسام غيرت معالم الحياة الأندلسية؛ ولم يستطع صدق المرابطين والموحدين في الجهاد والدفاع عن «اليتيمة والأيتام» علاج الانهيار العنيف الذي كان يعيث في الروح الأندلسية ويؤذن بالاتجاه الذي تمضي فيه حركة التاريخ، وفي شرق الأندلس نبغ شاعر آخر «انفرد من تأبين الحسين وبكاء آل البيت ومدحهم بما ظهرت عليه بركته في حكايات كثيرة» وهو أبو بحر صفوان بن إدريس (٥٦١ ـ ٥٩٨ هـ) وقصة تحوله عن مدح الملوك والرؤساء إلى مدح النبي وآله مبسوطة في كتب الأدب، ورثاؤه للحسين يتسم بعمق الإحساس وتوهج العاطفة، وقد استعان بالتشخيص واستحضار المشاهدة المؤثرة، كتصويره لمشهد فاطمة وهي على مسرح المأساة تتوجه إلى أبيها (ع) شاكية إليه ما أصاب ولدها وهي تذرف الدموع، وكانت هذه القصائد تلقى في محفل رهيب يقام بمرسية وشرق الأندلس بمناسبة ذكرى مقتل الحسين ليلة عاشوراء من كل سنة. ومن مراسيم هذه الذكرى مشهد جنائزي يشخص المأساة بطريقة تمثيلية، كما تشعل الأضواء ويوقد البخور ويحضر القراء المحسنون والمنشدون البارعون، وتقدم الموائد والأطعمة، وترتفع الأصوات منشدة المراثي الحسينية. وقد ظلت هذه العادات الإنشادية الجماعية إلى عهد ابن الخطيب في أواخر الدولة الأندلسية. وهناك شعراء آخرون لهم قصائد وبكائيات في مقتل الحسين، مثل ناهض الوادي آشي، وابن المناصف، وأبو البقاء الرندي الذي ألف قصيدة طويلة في رثاء الحسين. ولم يقتصر بكاء الحسين على المستوى الشعبي، بل شارك فيه بعض الملوك والأمراء

مما ينفي عنه أية صبغة شيعية سياسية، فكتب يوسف الثالث من ملوك بني الأحمر قصيدتين في رثاء الحسين يعبر فيهما عن حبه وولائه لآل البيت، وقد عبر بعض الكتاب عن هذا الموقف من آل البيت بقولهم «أحبهم حب تشرع لا حب تشيع»[١].

كما كان حب الرسول وآله، وتداول الحكايات عن مآسيهم ومعجزاتهم مصدراً موحياً لكثير من الشعراء الأندلسيين في الماضي، فإن الموريسكيين قد ورثوا هذه التقاليد، وأضافوا إلى المدائح جملة من الملامح الجديدة، حيث تركز اهتمامهم على التعبير الحار عن الحب الصادق البريء ذي الطابع العائلي البسيط، هكذا نرى مثلاً في مقطوعة عربية يتكرر في ختامها:

يا حبيبي يا محمد، والصلاة على محمد

وفي جملة من المقاطع الرومانثية ذات القوافي المتوائمة، مما يترجم هكذا:

نـــوري ســـرى في الأنبيـــاء

تحدر في أصلاب الأوليـــاء

من أشرف الرجال الأنقيـاء

حتى اســتقر على محمـــد

وهي أبيات تجري في عمومها على نمط الأوزان المسماة بالإسكندرانية «أليخاندرينا» والتي برع الموريسكيون في استخدامها. وتوزيع القوافي في الأبيات السالفة نموذجه:

أ أ أ ب

ث ث ث ب

د د د ب

وهو نفس توزيع بعض أنماط الزجل الأندلسي الذي يمتد عمره وحيويته في جزء هام من الشعر الموريسكي، ويدل محتوى هذه الأبيات على تأثير الشعر الصوفي ونظرية الإشراق في فكرة تناقل النور وتوارثه الجسدي في الأصلاب من ولى إلى آخر، كما يدل عدد المدائح المتوارثة على المجهود الواضح الذي كان يبذله الموريسكيون للحفاظ على تراثهم الديني، ويرى بعض الباحثين أن انتشار الطريقة الشاذلية بينهم، واعتمادهم على كتابات الإمام الغزالي التي ظلوا يتناسخونها حتى نهاية القرن السادس عشر كان له أثره في حصر تشيعهم على النطاق العاطفي الإسلامي العام[٢].

---

(١) انظر المقدمة الضافية التي كتبها الأستاذان الدكتور عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب لتحقيقهما لكتاب ابن الأبار البلنسي «درر السمط في خبر السبط» تطوان عام ١٩٧٢م، صفحات ط ـ م.[وهذا الكتاب موجود ضمن موسوعة الموسم، المجلد١٦ لسنة ١٩٩٣م ص٩ ـ ٤٥].

(٢) انظر: الموريسكيون في ضوء الوثائق، بحث ألفه: Hoenerbach,Willhem ونشر ضمن أعمال المؤتمر الدولي للأدب الأعجمي الموريسكي المشار إليه، صفحة ٥٦/٥٧.

شخصية الإمام علي:

وإذا عدنا لشخصية الإمام علي وحاولنا تقديم صورة موجزة عنها منتزعة من أشهر كتب المغازي في التراث الإسلامي الأول، وهو كتاب الواقدي المتوفى عام ٢٠٧ هـ، لوجدنا أنها توشك أن تتطابق مع الصورة التي يقدمها الموريسكيون في الملامح الرئيسية، فالواقدي نفسه كان يروي أن علياً (ع) كان من معجزات النبي (ص)، كالعصا لموسى (ع)، وإحياء الموتى لعيسى بن مريم، وغير ذلك من الأخبار[١]. كما يروى أن علياً قد قتل قرابة نصف صرعى بدر إذ يقول: «جميع من يحصى قتله من المشركين في بدر تسعة وأربعون رجلاً، منهم من قتله أمير المؤمنين علي (ع) وشرك في قتله اثنان وعشرون رجلاً»[٢]، كما يروي أهم مآثره في أحد قائلاً:

«ودنا القوم بعضهم من بعض، وقدموا صاحب لوائهم طلحة بن أبي طلحة، وصفوا صفوفهم، وأقاموا النساء خلف الرجال بين أكتافهم يضربن بالأكبار والدفوف، وهند وصواحبها يحرضن ويذمرن الرجال، ويذكرن من أصيب ببدر ويقلن:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق

وصاح طلحة من يبارز؟ فقال علي (ع): هل لك في البراز؟ قال طلحة نعم، فبرزا بين الصفين، ورسول الله (ص) جالس تحت الراية عليه درعان ومغفر وبيضة، فالتقيا، فبدره علي فضربه على رأسه، فمضى السيف حتى فلق هامته حتى انتهى إلى لحيته فوقع طلحة، وانصرف علي (ع)، فقيل لعلي: ألا ذفّفتَ (أي أجهزت) عليه؟ قال: إنه لما صرع استقبلتني عورته فعطفني عليه الرحم، وقد علمت أن الله تبارك وتعالى سيقتله، هو كبش الكتيبة»[٣].

ويروي الواقدي كذلك ملحمة علي مع يهود بني النضير قائلاً: «لما حرض ابن أبي يهود بني النضير ثم قعد عنهم، قيل لحييّ: أين نصر ابن أبي كما زعمت؟ قال حييّ: فما أصنع؟ هي ملحمة كتبت علينا ولزم رسول الله (ص) الدرع وبات وظل محاصرهم، فلما كان ليلة من الليالي فقد عليّ بن أبي طالب (ع) حين قرب العشاء، فقال الناس: ما نرى علياً يا رسول الله. قال رسول الله (ص) دعوه فإنه في بعض شأنكم، فلم يلبث أن جاء برأس «عَزْوَك»

---

(١) انظر: مقدمة الدكتور مارسدن جونس لكتاب المغازي للواقدي. الجزء الأول مطبعة جامعة أكسفورد ١٩٦٦. صفحة ١٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٥٢.

(٣) انظر: الكتاب المغازي للواقدي، الطبعة السالفة، الجزء الأول، ص ٢٢٥/٢٢٦.

فطرحه بين يدي رسول الله فقال: يا رسول الله، إني كمنت لهذا الخبيث فرأيت رجلاً شجاعاً، فقلت ما أجرأه أن يخرج إذا أمسينا يطلب منا غرة، فأقبل مصلتا سيفه في نفر من اليهود، فشددت عليه فقتلته، وأجلى أصحابه ولم يبرحوا قريباً، فإن بعثت معي نفراً رجوت أن أظفر بهم، فبعث معه أبا دجانة وسهل بن حنيف في عشرة من أصحابه، فأدركوهم قبل أن يدخلوا حصنهم، فقتلوهم وأتوا برؤوسهم، فأمر رسول الله (ص) برؤوسهم فطرحت في بعض بئار بني خطمة[1].

أما موقف علي في غزوة الخندق فهو الذي يتصدى للبطولة أيضاً بشكل درامي طبقاً لنفس رواية الواقدي إذ يصف ما حدث بقوله: «جعل عمرو بن عبد ود يدعو إلى البراز ويقول:

ولقد بححت من النداء لجمعكم، هل من مبارز؟

وعمرو يؤمئذٍ ثائر، قد شهد بدراً فارتث جريحاً فلم يشهد أحداً، وحرم الدهن حتى يثأر من محمد وأصحابه، وهو يومئذٍ كبير، يقال بلغ تسعين سنة، فلما دعا إلى البراز قال علي (ع): أنا أبارزه يا رسول الله، ثلاث مرات، وإن المسلمين يومئذٍ كأن على رؤوسهم الطير، لمكان عمرو وشجاعته، فأعطاه رسول الله (ص) سيفه وعممه وقال: اللهم أعنه عليه، قال: وأقبل عمرو يومئذٍ وهو فارس وعلي راجل، فقال له علي (ع): إنك كنت تقول في الجاهلية: لا يدعوني أحد إلى واحدة من ثلاث إلا قبلتها، قال: أجل، قال علي: فإني أدعوك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتسلم لله رب العالمين، قال: يابن أخي، أخر هذا عني، قال: فأخرى: ترجع إلى بلادك، فإن يكن محمد صادقاً كنت أسعد الناس به، وإن غير ذلك كان الذي تريد. قال: هذا ما لا تتحدث به نساء قريش أبداً، وقد نذرت ما نذرت وحرمت الدهن. قال: فالثالثة؟ قال: البراز، فضحك عمرو ثم قال: إن هذه الخصلة ما كنت أظن أن أحداً من العرب يرومني عليها، إني لأكره أن أقتل مثلك، وكان أبوك لي نديماً، فارجع فأنت غلام حَدِث، إنما أردت شيخي قريش، أبا بكر وعمر، فقال علي (ع): فإني أدعوك إلى المبارزة فأنا أحب أن أقتلك، فأسف عمرو ونزل وعقل فرسه. فدنا أحدهما من صاحبه، وثارت بينهما غبرة فما نراهما، فسمعنا التكبير تحتها فعرفنا أن علياً قتله، فانكشف أصحابه الذين في الخندق هاربين، وطفرت بهم خيلهم[2].

وسنجد أن حرص الإمام علي الشديد على هداية من ينازله أولاً إلى الإسلام، ثم شجاعته الفائقة ومواجهته البطولية لتحدي الأخطار، وانتصاره الواثق في نهاية الأمر، من أبرز ملامح شخصيته الملحمية كما ترسمها حكايات الموريسكيين دون شطط في الخطوط

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٣٧١/٣٧٢.

(٢) انظر: مغازي الواقدي، الجزء الثاني، صفحة ٤٧٠/٤٧١.

الجوهرية، بل إن صورة الغبار الثائر ونبوءة النصر المتمثلة في التكبير كثيرة الدوران في هذه الحكايات، وهي تعتمد على المصادر التاريخية الوثيقة في أصلها، وتستثمر بعض الإشارات الوصفية الفنية المحتدمة فيها، ثم تزيد عليها بعد ذلك من نسج الخيال ما يرقى بها إلى المستوى الأدبي المحكم.

وتتابع بعد ذلك مظاهر بطولة الإمام علي في مغازي الواقدي خاصة عند فتح الحصون المنيعة والهداية لدين الله، فيحكى أنه عندما انتهى رسول الله إلى حصن ناعم ومعه المسلمون، رمت اليهود يومئذٍ بالنبل، وترّس أصحاب الرسول عنه، وعليه يومئذٍ درعان ومغفر وبيضة، وهو على فرس يقال له الظَّرِب، في يده قناة وترس، وأصحابه محدقون به، وكان قد دفع لواءه إلى رجل من أصحابه من المهاجرين فرجع ولم يصنع شيئاً، ثم دفعه إلى آخر فرجع ولم يصنع شيئاً، ودفع رسول الله لواء الأنصار إلى رجل منهم فخرج ورجع ولم يعمل شيئاً، فحث رسول الله (ص) المسلمين، وسالت كتائب اليهود أمام الحارث أبو زينب يقدم اليهود يهد الأرض هدا... ووجد رسول الله (ص) في نفسه جدة شديدة، وقد ذكر لهم الذي وعدهم الله. فأمسى رسول الله (ص) مهموماً.. فقال: لأعطين الراية غداً رجلاً يحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار... فلما أصبح أرسل إلى علي بن أبي طالب (ع) وهو أرمد، فقال: ما أبصر سهلاً ولا جبلاً، قال: فذهب إليه فقال: افتح عينيك، ففتحهما فتفل فيهما، فقال علي (ع) فما رمدت حتى الساعة، ثم دفع إليه اللواء، ودعا له ومن معه من أصحابه بالنصر، فكان أول من خرج إليهم الحارث أخو مرحب في عاديته، فانكشف المسلمون وثبت علي (ع)، فاضطربا ضربات فقتله علي (ع)، ورجع أصحاب الحارث إلى الحصن فدخلوه وأغلقوا عليهم، ورجع المسلمون إلى مواضعهم، وخرج مرحب وهو يقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

أضرب أحياناً وحيناً أُضرب

فحمل علي (ع) فقطره (أي ألقاه على أحد جنبيه) على الباب، وفتح باب الحصن[1].

ويحكي الواقدي كذلك جملة من السرايا التي خص بها النبي (ص) علياً، منها السرية التي بعثه فيها مع مائة وخمسين رجلاً من الأنصار فيها وجوه الأوس والخزرج، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم الطائي، وسار علي (ع) إلى الفُلْس، وكان صنماً لطيء، عليه ثياب يلبسونه إياها، فهدمه، وخربه، ووجد في بيته ثلاثة أسياف، رَسُوب، والمخذم، وسيفاً يقال له اليماني[2].

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٦٥٣/٦٥٤.

(٢) السابق، ص ٩٨٤.

ومنها سرية إلى اليمن، وهي التي رويت بتوسع في كتاب المغازي الموريسكي، ويوجزها الواقدي كما يلي: «بعث رسول الله (ص) علي بن أبي طالب في رمضان سنة عشر، فأمره رسول الله أن يعسكر بقُباء، فعسكر بها حتى تتامّ أصحابه، فعقد له رسول الله (ص) يومئذٍ لواء: أخذ عمامة فلفها مثنية مربعة فجعلها في رأس الرمح، ثم دفعها إليه وقال: هكذا اللواء، وعممه عمامة ثلاثة أكوار، وجعل ذراعاً بين يديه وشبراً من ورائه، ثم قال: هكذا العمة. فقال علي (ع): يا رسول الله كيف أصنع؟ قال: إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك، ثم تقول لهم: هل لكم أن تقولوا لا إله إلا الله، فإن قالوا نعم، فقل لهم: هل لكم أن تصلوا؟ فإن قالوا نعم فقل: هل لكم أن تخرجوا من أموالكم صدقة تردونها على فقرائكم؟ فإن قالوا نعم فلا تبغ منهم غير ذلك، والله لأن يهدى الله على يدك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت. فخرج في ثلاثمائة فارس، فكانت خيلهم أول خيل دخلت تلك البلاد. فلما انتهى إلى أدنى الناحية التي يريد ـ وهي أرض مَذْحِج ـ فرق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم وسبي ونساء وأطفال ونعم وشاء وغير ذلك.. ثم لقى جمعاً فدعاهم إلى الإسلام وحرض بهم فأبوا ورموا في أصحابه.. فبرز رجل من مذحج يدعو إلى البراز، فبرز له الأسود بن الخزاعي السلمي، فتجاولا ساعة وهما فارسان، فقتله الأسود وأخذ سلبه، ثم حمل عليهم علي بأصحابه فقتل منهم عشرين رجلا، فتفرقوا وانهزموا وتركوا لواءهم قائماً، فكف عن طلبهم ودعاهم إلى الإسلام، فسارعوا وأجابوا، وتقدم نفر من رؤسائهم فبايعوه على الإسلام، وقالوا نحن على من وراءنا من قومنا، وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله[1].

وسوف تتكرر هذه القصة مع تفصيلات كثيرة، ومعجزات متتابعة، وبطولات فذة، للإمام علي في مغازي الموريسكيين، لكن مع المحافظة الشديدة على روح الأحداث ومقاصد الغزو وفحوى الرسالة، فعلى هو وريث آل نبي وشاهد معجزاته، كما ورد في هذا الخبر الذي نسوقه لنختتم به تلك الصورة التراثية للإمام علي:

«عن ربيعة بن ماجد أن رجلاً قال لعلي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين، لم ورثت دون أعمامك؟ قال: جمع رسول الله بني عبد المطلب، فصنع لهم مداً من الطعام، فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس، ثم دعا بغمر فشربوا حتى رووا وبقي الشراب كأنه لم يمس، فقال: يا بني عبد المطلب، إني بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة، وقد رأيتم من هذه الآيات ما قد رأيتم، وأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي، فلم

(١) انظر كتاب المغازي للواقدي، الجزء الثالث، صفحة ١٠٧٩/١٠٨٠.

يقم إليه أحد، فقمت إليه، وكنت أصغر القوم، فقال: إجلس، ثم قال ثلاث مرات كل ذلك أقوم إليه فيقول: إجلس. حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي[1].

وبغض النظر عن الدلالة السياسية لهذه المبايعة، وأياً ما كان قدر هذه الرواية من الصحة التاريخية أو الضعف، فهي وما جاء في معناها من آثار مروية ترشح شخصية الإمام علي في الوجدان الشعبي الجماعي للشيعة والسنة معاً ليكون بطل الإسلام الذي تستغيث به مخيلة الموريسكيين المقهورين، فتبعث أمجاده، وتعظم أخباره، وتسبغ عليه مسحة ملحمية أسطورية، وإن كانت ذات نواة تاريخية صلبة.

وصف الأبطال وأدوات القتال:

هناك جملة من الملامح التي تلتقي فيها الملاحم العربية مع نظائرها القشتالية؛ تتصل بما يطلق على الأبطال من ألقاب، وما يتخذونه من شعارات، وما يمارسونه من عادات حربية تعبر عن مواقفهم وأحوالهم، وكذلك بما يطلقونه من أسماء على أسلحتهم وأدوات قتالهم، ولما كانت التقاليد العربية وتجسداتها الأدبية سابقة على الإسبانية في الواقع التاريخي فإن ذلك يعتبر مؤشراً لتأثير التراث العربي في الملاحم الإسبانية.

والملمح الأول الذي يتصل بروح الفروسية وشعاراتها يتمثل في ألقاب التعظيم التي تطلق على الأبطال، فعلي (ع) بطل كتاب المغازي، مثله في ذلك مثل بقية أبطال الملاحم العربية، يتلقى ألقاباً تمجده وتبرز علو قدره كفارس محارب، فتارةً يسمى حيدرة أو الأسد، وأخرى يطلق عليه الغالب، أو سيد بني غالب، وقد درجت روايات الموريسكيين على جمع هذه الألقاب وترجمتها، فنقرأ في كتاب المغازي عبارة مثل: «وأين هذا الفارس الصنديد الذي عرف بالشجاعة، أسد بني غالب، علي بن أبي طالب؟» كذلك نجد «رودريجودياث» في ملحمة السيد يتلقى أيضاً لقباً حربياً يكرمه هو «القمبيطور» ويعني أيضاً «الغالب». ولما كان على هو نموذج الفرسان العرب فإن العلائق القائمة بين أفكار ومشاعر الفروسية من ناحية، واسم فارس الإسلام الأول وبطل الملحمة القشتالية من ناحية ثانية لا تخلو من دلالة، ومع أنه من المحتمل أن لا يكون شاعر ملحمة السيد الجوال هو المسئول عن إطلاق هذا اللقب عليه، إلا أن التوافق بين اللقبين له مغزاه الواضح، خاصةً إذا أضفنا إلى ذلك بقية اللقب القشتالي «سيدي الغالب» فالجزء الأول صريح الإبقاء على الصيغة العربية، وهي صيغة متداولة في أشعار البطولة العربية الأخرى، فالمهلهل ـ نموذج السيد المفضل ـ هو سيد بني ربيعة، والأمير أبو محمد، يسمى أيضاً «سيدي البطل»، وإذا كان الشاعر الإسباني الجوال لم

---

(١) انظر: تهذيب خصائص الإمام علي، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي. دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٨٤ ص ٦٥.

يبتدع هذا اللقب، فإنه في أغلب الظن كان على علم بتقاليد الملاحم العربية عندما صك الاسم الكامل لبطله.

وربما كان يرتبط بهذه البطولة ويجسدها خضوع الأسد أمام شخصية السيد:

الأسد عندما رآه استحى

وبين يدي السيد أحنى رأسه وخفض وجهه

أما السيد «دون رود ريجو» فقد أمسك برقبته

وحمله مروضاً، ووضعه في الشبكة.

وقد لمح بعض الباحثين الصلة بين هذا المشهد وبين نظائره المكرورة في الملاحم الشعبية العربية: خاصة ملحمة الزير سالم حيث يقتل البطل الأسود ويروضها ويمتطي صهوتها حاملاً على ظهره مياه بئر السباع لشفاء زوجة أخيه كليب[١].

وإذا كانت فكرة الشرف وصورة الدفاع عنه تلعب دوراً هاماً في تقاليد الفروسية العربية، فمما يترتب على ذلك أنه عندما يتعرض الشرف للعدوان فإن الفارس يرسل ذوائبه ويطلق لحيته ويحرم على نفسه الدهن والطيب، ويقسم أغلظ الأيمان على تحريم ما أحل له حتى ينتصر لكرامته، وكذلك نجد «السيد» يطلق لحيته حتى يظفر بعفو الملك:

«ولقد نمت لحيته، واستطال شعرها

لأن سيدي قال ذلك بفمه ولم ينسه

حبا في الملك ألفونسو

الذي تفانى في هذه الأرض

لن تمس لحيتي موسى،

ولن أقص من رأسي شعرة»[٢].

ونجد في كتاب المغازي أيضاً انعكاساً لهذا الالتزام من الفارس العربي، فالأصيد يقول وهو يحارب علياً: «لن أجرع شراباً من قدح، ولن أطعم لحماً ساخناً، ولن ألف رأسي بعمامة حتى أودعك اللحد». وبالرغم من أن النص الموريسكي لا يشير إلى الذوائب المرسلة إلا أنه يتضمن تفصيلاً آخر له إيحاءات هامة في الملاحم القشتالية، فالفارس العربي يقول إنه لن يلف رأسه بعمامة، أي بعد ذلك، مما يعني أنه لن يكشف شعره حتى يجبر شرفه، وفي ملحمة السيد فإن «القمبيطور» يذهب إلى البلاط:

---

(١) انظر: دكتور سليمان العطار في ترجمة المختصرة لكتاب أميريكوكاسترو «الواقع التاريخي لإسبانيا» تحت عنوان «حضارة الإسلام في إسبانيا» القاهرة ١٩٨٣ صفحة ٨٢.

(٢) انظر ملحمة السيد، ترجمة الدكتور الطاهر مكي، القاهرة ١٩٨٣ صفحة ٢٧٧.

والكوفية على شعره، ذات النسيج الرقيق

لكي تحمي رأس السيد القمبيطور

أما لحيته، وقد استطالت كثيراً، فقد أحكم سترها

وفعل كل ذلك لكي يكون مهيئاً لكل أمر

وعندما يرضى الملك رغائبه، ويستجيب لكل مطالبه:

هناك نزع كوفيته السيد القمبيطور

كوفية من نسيج رقيق، بيضاء في لون الشمس

وأظهر لحيته، نزع ما كان يسترها من غطاء[١]

مما يوحي بأن تقاليد الفروسية هذه كانت وثيقة الصلة بالعادات الشرقية الإسلامية. ومن ناحية أخرى يلاحظ الباحثون تكاثر الأيمان المغلظة في النص الموريسكي، مما يرتبط بنفس هذه الخاصية في القصص العربي وأيام العرب، فمثلاً حلف علقمة بن عمرو بن همام أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يقرب امرأة حتى يثأر من بني عبس، وهو نفس القسم الذي ردده المهلهل بعد مقتل كليب وأشعل به حرب البسوس الملحمية، وامرؤ القيس حلف أيضاً أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يثأر لأبيه، كما أقسم المرقش أن لا يغسل رأسه حتى يقتل عدوه، وهذه الأيمان المغلظة تبدو أيضاً في الملاحم الفرنسية، فيشير الباحثون إلى ما ورد في «أليسكانز Aliscans» من أن جييرمو قد أخذ عهداً على امرأته أن لا تغير ملابسها، ولا تغسل رأسها، ولا تشرب نبيذاً، ولا تأكل خبزاً طيباً، ولا تتوسد ريشاً، ولا تتغطى بغير جلال الفرس، ولا تقبل فماً، لا تفعل أي شيء من ذلك حتى يعود[٢]. ومن الواضح أن كل هذه العهود ذات علاقة وثيقة بالعادات العربية.

رمزية سيف الإمام علي (ذو الفقار):

وقد اعتاد الفارس العربي أن يفخر بسلاحه، ويعتز به، ويطلق عليه تسميات مختلفة، تنم في معظم الأحيان عن مصدره الذي يشي بعراقته وجودته، مثل الهندي واليمني، وقد درس بعض الباحثين المستشرقين أسماء السياط والسيوف، ويشير طول القوائم التي تضمنها إلى أهمية عملية التسمية لدى العرب. وشخصية علي التاريخية، مثلها في ذلك مثل شخصيته في كتاب المغازي تعتز بسيف يضرب به المثل في الشهرة بين عرب الحجاز، وهو «ذو الفقار»، ولعل ما أضفى على هذا السيف قيمته هو أنه قد انتزع من العدو «فقد تنفل رسول الله سيفه

---

(١) انظر ملحمة السيد، الترجمة المشار إليها، صفحة ٣٧٤/٣٩٤.

(٢) انظر:

Galmes de Fuentes, Alvaro: EpicaArabe Y Epica Castellana. Barellona 1978. pag 60-63.

ذا الفقار يوم بدر، وكان لمنبه ابن الحجاج، وقد بقي معه حتى أُحد، إذ صعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إني رأيت في منامي رؤيا، رأيت كأني في درع حصينة، ورأيت كأن سيفي «ذا الفقار» انقصم من عند طُبته، ورأيت بقراً تذبح، ورأيت كأني مردف كبشاً، فقال الناس: يا رسول الله، فما أولتها؟ قال: أما الدرع الحصينة فالمدينة فامكثوا فيها، وأما انقصام سيفي من عند طُبته فمصيبة في أهل بيتي، وأما البقر المذبح فقتلى في أصحابي، وأما مردف كبشاً فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله»[1]. وقد أهدى الرسول (ع) هذا السيف لعلي بن أبي طالب، فاكتسب قيمة مزدوجة، لأنه من غنائم بدر، ولأنه هدية الرسول لصهره وابن عمه.

وفي ملحمة «السيد» نجد سيوف «القمبيطور» أيضاً ذات أسماء خاصة، مثل سيفي «كولادا Colada» و«تيثون Tizor» وتكمن قيمتها أيضاً في أنهما قد انتزعا من العدو، وتحرص القصيدة على إبراز ذلك إذ تقول:

وانتصر السيد، وربح المعركة من ولد في ساعة طيبة

وأسر «الكونت رامون» وفي السجن ألقى به

وغنم سيفه البتار «كولادا» وثمنه على ألف مارك يزيد

لقد صرع أبا بكر الملك القادم من وراء البحر

وغنم سيفه «تيثون» ويساوي ألف مارك من الذهب النضار[2].

وقد أراد السيد أن يكرم صهريه، كما كرّم الإمام علي، فأهدى لكل منهما سيفاً. ومع أن إطلاق الأسماء على السيوف وأدوات الحرب ليس مما ينفرد به العرب، بل هو شائع لدى شعوب كثيرة، إلا أن عناية العرب البالغة بذلك، وعلاقتهم التبادلية الوثيقة مع الممالك المسيحية في إسبانيا يجعل الاحتمال المنطقي الأول هو تأثر المسيحيين بهم في هذا الصدد.

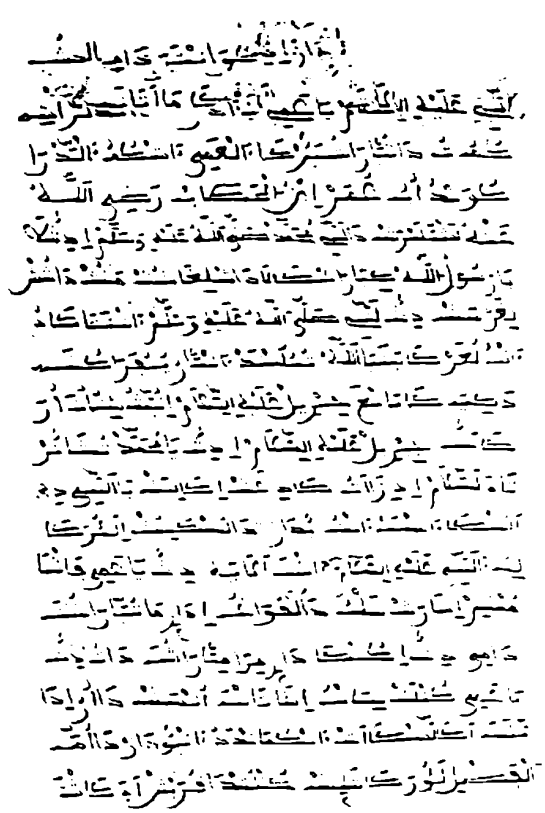
ويلاحظ أن ملحمة «أنشودة رولان» الفرنسية لا يرد فيها ذكر للسيف المنتزع بالقوة، بيد أن بعض القصائد التالية لها، والمتعلقة بالتقاليد المتبقية من فترة الحروب الصليبية لا تغفل ذلك، فنجد في بعض الروايات المتأخرة أن «رولدان» ينزع السيف «دواراندال» عندما يقتل «يامونت» في إيطاليا، وطبقاً لبعض الروايات الإسبانية نجد أن هذا السيف ينتزعه الإمبراطور «كارلو ماجنو» عندما يقتل «برامانتي» في إسبانيا. وقد سبق أن أشرنا إلى ارتباط أسماء السيوف الشهيرة في الملحمة الفرنسية بالتقاليد العربية.[3] ❖

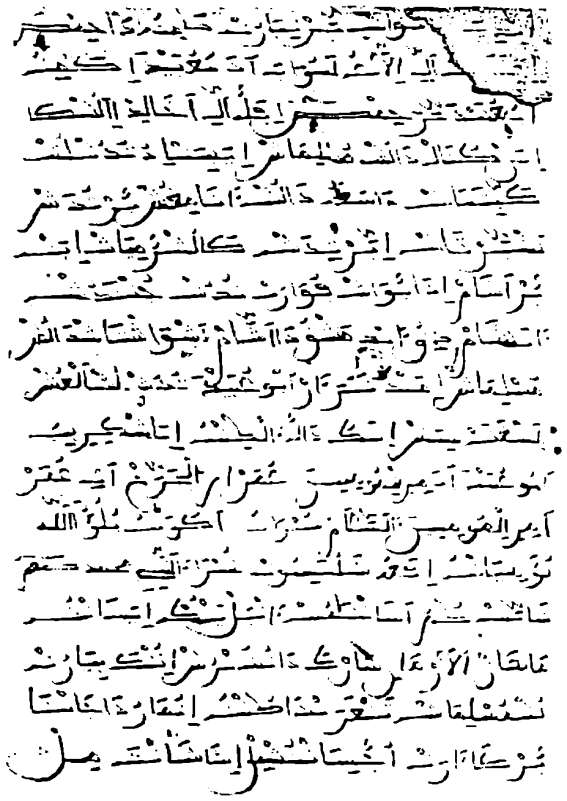
---

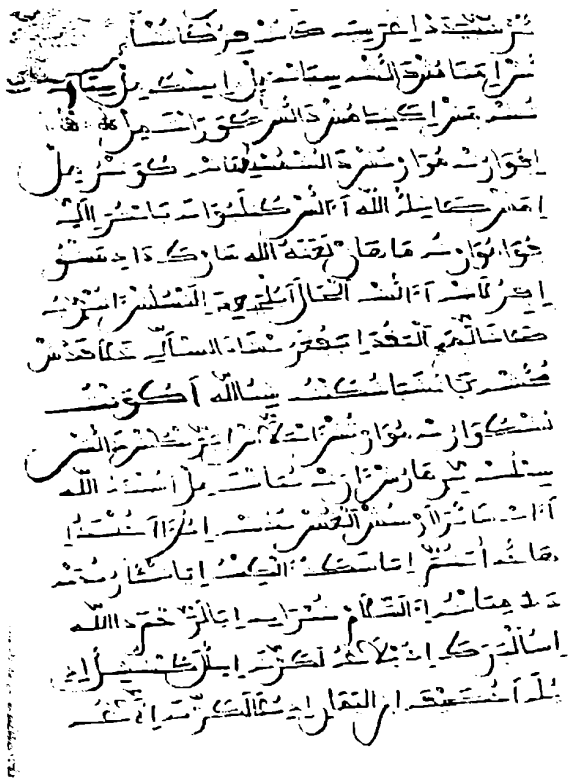
(١) انظر: كتاب المغازي للواقدي، الطبعة المشار إليها، الجزء الأول، صفحة ٢٠٩.

(٢) ملحمة السيد، الترجمة المشار إليها، صفحات ٢٦٣/٣٤٠.

(٣) البحث مستل من كتاب المغازي الموريسكية للدكتور صلاح فضل.







من المخطوط الموريسكي

مكانة الإمام علي (عليه السلام) وبطولته في عيون العلماء وقلوب أهل العامة في الأندلس

أ. د. محمد بشير حسن راضي العامري
أ. د. عبد الرحمن إبراهيم حمد الغنطوسي
جامعة بغداد

تتجسد معانى البطولة بالجهاد والحق والشهادة والإقدام والعدل والتسامح والرحمة وحماية الضعيف والعطف على الأيتام في شخصية أمير المؤمنين (عليه السلام)، مثالاً للبشرية ولكل الأديان والمذاهب، لم يميز قط بين الفقير والغنى والجميل والقبيح والأسود والأبيض إلا بمقياس العمل الصالح والعبادة لله ولرسوله (ص).

المفاخرات البطولية لأمير المؤمنين بطل معركة الخندق عام ٥هـ ومواقفه الإنسانية وجهاده في نجاح الدعوة الإسلامية ومواقفه المشرفة وتضحيات في منامه في فراش الرسول (ص) عند هجرته من مكة المكرمة إلى يثرب لها أصداء في التاريخ العربى الإسلامى فضلاً عن مكانته العلمية في جو العلوم إذ كان رائد العلماء عندما قال الرسول الكريم (ص) (أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد العلم فيدخله من بابه) فأصبح في عيون أهل العلم مفتاحاً للعلوم.

يفخر التاريخ والحضارة الأندلسية بالتطرق إلى سيرة الإمام على بن أبى طالب (عليه السلام) وتدخل عدد كبير من التابعين الدارسين من منهل الإمام أمير المؤمنين من الداخلين إلى الأندلس وصاروا يقدون العامة ويوجهون المجتمع على مسيرة أمير المؤمنين وبطولاته ومن هؤلاء في الحكومة الإسلامية التابعين الداخلين هم: حنش بن عبد الله الصنعانى هو تابعى جليل كان مع أمير المؤمنين الإمام على بن أبى طالب (عليه السلام) بالكوفة وقدم مصر بعد قتل الإمام على يد ألخارجى ابن ملجم اللعين في مسجد الكوفة عام ٤٠هـ، فصار الصنعانى عداده في المصريين وكان فيمن قام مع ابن الزبير على عبد الله بن مروان فعفا عنه، وكفى بالأندلس شرفا دخوله لها[1].

يعد حنش بن عبد الله الصنعانى من كبار التابعين يحمل أفكار أمير المؤمنين وسيرته وثقافته وله الفضل في تلقين أهل الأندلس جهاد الأمام على بن أبى طالب (عليه السلام) وأخلاقه وروح التسامح بين المذاهب، على الرغم من أن أهل الأندلس كانوا أغلبهم من البربر واعتنقوا المذهب الظاهرى ثم المالكى (الأمام مالك بن أنس أمام المدينة وصاحب كتاب الموطأ، ترجم المؤرخون والفقهاء عن التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني لما له من أهمية في أفكاره الثقافية في

(١) المقري، نفح الطيب، ج /٢٧٨.

نفوس أهل الأندلس كنموذج للفكر العلوى كما ذكر النص عنه (ومن التابعين الداخلين الأندلس حنش بن عبد الله الصنعانى، وفى كتاب ابن بشكوال، قال ابن وضاح: حنش لقب له واسمه حسين بن عبد الله، وكنيته أبو على، ويقال، أبو رشدين، قال ابن بشكوال وهو من صنعاء الشام وذكره أبو سعيد ابن يونس فى تاريخ أهل مصر وإفريقية والأندلس. فقال أنه كان مع على بن أبى طالب (عليه السلام) رضى الله عنه وأرضاه، وغزا المغرب مع رفيقه رويقع. وغزا الأندلس مع موسى بن نصير وكان فيمن ثار مع ابن الزبير عبد الملك فى وثائق فعفا عنه، وكان أول من ولى عشور افريقية فى الإسلام وتوفى بافريقية سنة مائة[١].

تناقلت المصادر الأندلسية أخبار حنش بن عبد الله الصنعانى وجهاده فى فتح اسبانيا مع القائد الوالى موسى بن نصير البكرى من مواليد عين التمر كربلاء. وكان من سبى خالد بن الوليد، وتطرق عدد حنش عدد كبير من المؤرخين الأندلسيين عبد الملك بن حبيب السلمى الإليبرى الأندلسى (ت ٢٣٨هـ) بقوله: (دخل الأندلس من التابعين حنش بن عبد الله الصنعانى، وهو الذى أشرف على قرطبة من الفج المسمى بفج المائدة، وأذن، وذلك فى غير وقت الأذان، فقال له أصحابه فى ذلك، فقال أن هذه الدعوة لا تنقطع من هذه البقعة إلى أن تقوم الساعة هكذا ذكره غير واحد. وقد كشف الغيب خلاف ذلك)[٢].

تابع علماء الأندلس ما ورد حنش بن عبد الله الصنعانى من المصادر المشرقية لمعرفة حقائق جديدة من جهاد حنش بن عبد الله الصنعانى فى حياة أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد ذكره (ابن عساكره فى تاريخه وطول ترجمته، فقال أن صنعاء المنسوب إليها قرية من قرى الشام، وليست صنعاء اليمن، وقد قيل: أنه لم يروعن حنش الشاميون، وإنما روى عنه المصريون، وحدث حنش بن عبد الله بن عباس أنه قال: أن استطعت أن تلقى الله تعالى وسيفك حلبة حديد فافعل..... ولم يذكر ابن عساكر ابن حنشا لقب له، وان اسمه حسين بل اقتصر على اسمه حنش ولعله الصواب، لا ما قاله ابن وضاح، والله تعالى أعلم)[٣].

ساهم حنش بن عبد الله الصنعانى فى تشيد مسجداً فى مدينة سرقسطة Zaragoza (قاعدة الثغر الأندلسى الأعلى) وقد أفرد المؤرخ الأندلسى ابن الفرضى ترجمة كاملة عن حنش الصنعانى بقوله: (من صنعاء الشام عداده فى المصريين، تابعى كبير ثقة، أخبرنا الخطاب بن سلمه: أخبرنا قاسم بن اصبغ قال، دخل الأندلس من التابعين حنش بن عبد الله الصنعانى صنعاء الشام، على بن رباح، وأبو عبد الرحمن الجبلى، وموسى بن نصير.

أخبرنى محمد بن أحمد الحافظ قال: أخبرنا أبو سعيد العبد فى الحافظ قال: حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظله بن فهد بن قنان بن ثعلبه بن عبد الله بن تامر السبئى وهو

---

(١) المقرئ. نفح الطيب. ج٣.

(٢) نقلاً عن المصدر السابق، ج٣/٧.

(٣) المقري. نفح الطيب، ج ٢/٢٧٨.

الصنعانى، يكنى أبا رشينف، كان مع على بن أبى طالب (عليه السلام) بالكوفة وقدم مصر بعد قتل على، وغزا المغرب مع رفيقه رويقع بن ثابت، والأندلس مع موسى بن نصير، وكان فيمن قار مع ابن الزبير على عبد الملك بن مروان فأتى به إلى عبد الملك بن مروان في وثاق فعفا عنه، وكان أول من ولى عشور إفريقية في الإسلام، وتوفي بإفريقية سنة مائة.

قال ابن حبيب: دخل الأندلس من التابعين حنش بن عبد الله الصنعانى، وهو الذى أشرف على قرطبة من ألفج المسمى بفج المائدة، وأذن، وذلك في غير وقت الآذان، فقال له أصحابه في ذلك، فقال: إن هذه الدعوة لا تنقطع من هذه البقعة إلى أن تقوم الساعة، هكذا ذكره غير واحد، وقد كشف الغيب خلاف ذلك، فلعل الرواية موضوعة أو مؤولة، والله تعالى أعلم.

وفي تاريخ أبن الفرضى أبى الوليد أن حنشآ كان بسرقسطة، وأنه الذى أسس جامعها، وبها مات، وقبره بها معروف عند باب اليهود بغربى المدينة)[1].

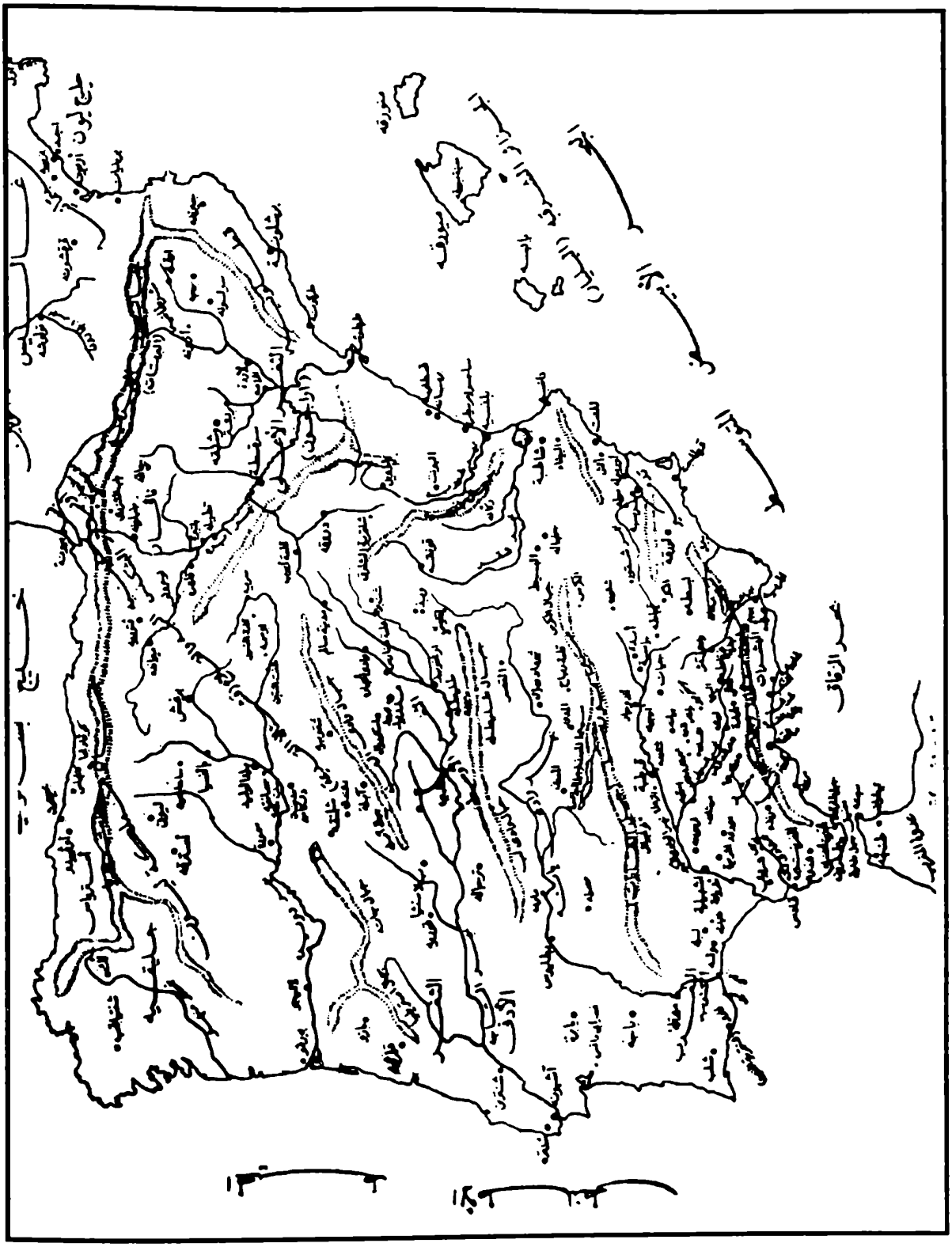
النص أعلاه له أهمية في نشر الفكر الشيعى وسيرة أمير المؤمنين وجهاده في الأندلس، من المتحدثين عن حنش بن عبد الله الصنعانى الذين نشروا الثقافة العلوية في مدن الأندلس وسيرة بطل معركة الخندق حيث يعد حنش بن عبد الله الصنعانى همزة وصل بين فكر الأمام على (عليه السلام) ونشر أفكاره بعد فتح إسبانيا بين أهل الأندلس وتفسير الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة وتثقيف الرعية بتعاليم الإسلام ونقل عادات وتقاليد الصحابة وآدابهم في الحياة والعبادة كما ورد النص: (أخبرنا عبد الرحمن بن أحمد قال: أخبرنا ابن قدير، قال: أخبرنا أحمد بن عمرو وقال: أخبرنا ابن وهب قال: حدثنى عبد الرحمن بن شريح عن قيس بن الحجاج، عن حنش: أنه كان إذا فرغ من عشاءه وحوائجه وأراد الصلاة من الليل أوقد المصابيح وقرب إناء فيه ماء فكان إذ وجد النعاس استشق الماء، وإذا تعابأ في آية نظر في المصحف)[2].

اهتمام علماء الأندلس بمتابعة كل شيء عن حنش بن عبد الله الصنعانى في آداب قراءة القرآن الكريم تعد حدث مهما في حث أهل الأندلس للاستزادة بسيرة أتباع الإمام على بن أبى طالب عليه السلام ونشرها عبر البحار في بلد الأندلس وهذا ما يهدف بصمات أمير المؤمنين على الإنسانية اهتم حنش بن عبد الله الصنعانى بتربية الخيول للجهاد وعلفها وبيطرتها والإنفاق عليها كما أوردت لنا الرواية: أخبرنى العائذى قال: أخبرنا أبن الورد قال: أخبرنى يحيى بن أيوب قال: أخبرنى سعيد بن الحكم بن أبى مريم، عن نافع بن يزيد قال: حدثنى قيس بن الحجاج: انه سمع حنشا يقول في هذه الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ الآية قال: في علف الخيل.

---

(١) المقرئ، نفح الطيب، ج٣/٧

(٢) نقلاً عن المصدر السابق، ج٣/٧. (تعابأ) غير مفهومة ولعل المقصود تعب أو تعبد .



خارطة إسبانيا الإسلامية.

حرص حنش الصنعانى على تثقيف وتهذيب العقول بعد نشر الإسلام في الأندلس وهى وسيلة التصحيح المسار للفاتحين من خلال الروايات التى نقلها لنا علماء الأندلس للعامة في المصادر الأندلسية، كما أورد الخبر: (أخبرنا محمد بن أحمد بن مسعود قال: أخبرنا محمد بن فطيس قال: أخبرنا عبد المجيد بن إبراهيم قال: أخبرنا عبد الله بن يزيد المغزى قال: قال أبو يزيد خنيس بن عمران اليافعى عن روح بن حارث يعنى ابن حنش السبئى عن أبيه عن جده انه قال البنية: يا بنى إذا دهم لم أو كرب لم أمر فلا يبين أحدكم إلا وهو طاهر في حاف طاهر وأظنه قال على لحاف طاهر: ولا يبيتن معه امرأة ثم ليقرأ (الشمس وضحاها) سبعاً، (والليل إذا يخشى) سبعاً ثم يقل اللهم اجعل لى من أمرى فرجاً ومخرجاً، فإنه يأتيه آت في أول ليلة أو في الثالثة أو في الخامسة - وأظنه قال: أو في السابعة - فيقول: المخرج منه كذا وكذا)[١].

زادت ثقة أهل الأندلس بالتابعى حنش الصنعانى في معالجة أمراضهم والآلام والأوجاع كما يروى لنا إذ قال أبو يزيد: فأصابنى وجع شديد فلم أدرى كيف أعالجه فابتت على هذه الحال ليلة، فأتانى آتيان في أول ليلة، فقال احدهما لصاحبه: حبسه فجعل يلمس جسدى، فلما بلغ موضعا من رأسى قال: أختجم ها هنا - ولا تحلقه - فكان بغراء ثم قال أحدهما أو كلاهما: فكيف لو ضممت إليهما: (والتين والزيتون)؟

فلما أصبحت سالت، فقلت: أى شيء بغراء ؟ فقال: خطى أو شيء يتمسك به المحجمة. قال: فأحجمت فبرئت، فانا اليوم ليس احدث بهذا أحد فعالج به إلا وجدته فيه الشفاء (بإذن الله)[٢].

ساهم حنش بن عبد الله الصنعانى في دخول الإصلاحات إلى الأندلس حسب ما ورد من نصوص من الرواة كما ذكر الخبر (أخبرنا الواقدى قال: حنش بن عبد الله الصنعانى كان من الآباء ونزل مصر ومات بها، روى عنه المصريون ووجدت في كتابى عن أبى محمد الباجى أو غيره: حنش بن عبد الله من التابعين دخل الأندلس وكان بسرقسطة وأسس جامعها وبها مات وقبره معروف بها إلى اليوم)[٣].

أكد علماء الأندلس على أثر الصنعانى على العامة واسع كما (أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن شبل: إن حنش بن عبد الله دخل الأندلس وهو من التابعين قال لنا أبو محمد الثغري رأيت قبر حنش بسرقسطة وقبره بها عند باب اليهود بغربي المدينة معروفة حتى اليوم)[٤].

---

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص١١٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر نفسه، ص ١١١.

(٤) المصدر نفسه.

حرص حنش الصنعانى على ضبط جهة القبلة في مساجد الأندلس (وفي تاريخ ابن بشكوال ابنه أخذ أيضاً قبلة جامع الكبيرة وعدل وزن قبلة جامع قرطبة الذى هو فخر الأندلس)[١].

عند تشيد مدينة الزهراء في ضواحى قرطبة من الخليفة عبد الرحمن الناصر اهتم بدقة اتجاه القبلة حسب ضبط حنش الصنعانى كما أشار عليه الفقهاء، وفي عهد الخليفة الحكم المنتصر بالله اهتم بضبط اتجاه القبلة في المسجد الجامع بقرطبة من العلماء والفقهاء بعد توسيعه بيت الصلاة حسب ما ذكره النص (وذكر حضوره لمشاورة العلماء في تحريف القبلة إلى نحو المشرق حسبما فعله والده الناصر في قبلة جامع الزهراء، لأن أهل التعديل يقولون بانحراف قبلة الجامع القديمة إلى نحو الغرب، فقال له الفقيه أبو إبراهيم: يا أمير المؤمنين أنه قد صلى إلى هذه القبلة خيار هذه الأمة من أجدادك الأئمة وصلحاء المسلمين وعلمائهم منذ افتتحت الأندلس إلى هذا الوقت متأسين بأول من نصبها من التابعين كموسى بن نصير وحنش الصنعانى وأمثالهما، رحمهم الله تعالى، وإنما فضل من فضل بالاتباع وهلك من هلك بالابتداع فاخذ الخليفة برأيه فقال ك نعم ما قلت وإنما مذهبنا الأتباع[٢].

اهتمام العلماء المؤرخون في الأندلس بترجمة سيرة حسن الصنعانى دليل على مكانته في عيون المصادر فقد اختلفت النصوص في وصف التابعى ونشاطاته لبث فكر أمير المؤمنين ومدرسته في الجهاد والتسامح والعمل لخدمة الإسلام.

وقد أتحفنا المؤرخ الحميدى بنص جديد واسع المعرفة عن أصله وسيرته وجهاده في الأندلس بقوله: (حنش بن عبد الله بن عمرو بن حنظله بن مهند ،وقيل نهد بن قتان، وقيل قيان بن ثعلبة بن عبد الله بن ثامر السبائى وهو الصنعانى، يكنى أبا رشد من التابعين كان مع على بن أبى طالب عليه السلام بالكوفة وقدم مصر بعد مقتله رحمة الله عليه، وغزا المغرب مع رويفع بن ثابت وغزا الأندلس مع موسى بن نصير وله بها آثار، ويقال: أن جامع مدينة سرقسطة من ثغور الأندلس من بنائه، وأنه أول من اختطه وكان فيمن ثار مع عبد الله بن الزبير على يد الملك بن مروان فعفا عنه، وكان عبد الملك حين غزا المغرب مع معاوية بن حديج نزل عليه بإفريقية سنة خمسين فحفظ له ذلك، روى من الصحابة عن على بن أبى طالب (عليه السلام) وعبد الله بن عباس وأبى الورداء، وفضالة بن عبيد، ورويفع بن ثابت وقال البخارى في حنش بن عبد الله السبائى: سمع فضالة ورويفع بن ثابت وقال زيد بن حباب: حنش بن على عن ابن عباس، روى عنه قيس بن الحجاج، وأبو مرزوق وحلاج، وخالد بن أبى عمران يعد في المصريين الصنعاني وقال ابن عيسى: حدثنا ابن وهب عن عبد الله بن الحجاج، عن أخيه قيس

---

(١) عند المقري، نفح الطيب، ج٣.

(٢) المقري، نفح الطيب، ج٥٦٢/١.

ابن الحجاج عن حنش بن عبد الله: أن ابن العباس قال له: أن استطعت أن تلقى الله وسيفك حلبته حديد فافعل)[١].

أعلام رواة الثقافة الذين نقل منهم ونقلوا عنه تؤكد لنا مدى أهمية حنش الصنعانى وأثره في الأندلس لقد وضح الحميدى بعض الإشكالات لدقة اسمه (هذا آخر كلام البخارى فقد جعل حنش بن عبد الله وحنش بن على، جعلهما رجلاً واحدا، وجعل الخلف في اسم أبيه وقيل: إن الذى يرو عن فضالة بن عبيد الصنعانى من صنعاء الشام قرية بدمشق يقال لها صنعاء، وأبو الأشعث الصنعانى منها أيضا قاله على بن ألمدينى، وهذا ظن قوم أن حنش بن عبد الله من صنعاء الشام لا من صنعاء اليمن وأن الاختلاف في اسم أبيه وإنهما واحد، وقد وجدنا حنشين آخرين عن على رضى الله عنه، أحدهما حنش بن المعتمر صاحب على، وحنش بن ربيعة الذى صلى خلف على صلاة الكسوف، ذكرهما على بن المدينى. وقال البخارى حنش بن المعتمر أبو المعتمر الصنعانى. وقال بعضهم: حنش بن ربيعة سمع عليا روى عنه سماك والحكم بن عتيبة الكوفي يتكلمون في حديثة هذا منتهى كلام البخارى، فقد جعل الاثنين الذين ذكرهما على بن المدينى واحداً، وجعل الخلف في اسم أبيه والله اعلم، والأظهر في حنش مصر، وحققوا نسبه في رواياتهم، وذكروا مشاهدة وتصرفه وانتقاله وهم أعلم من سلك بلادهم، وتصرف في جهاتهم وسكن في أعمالهم وكان من عمالهم)[٢].

نقل عن الفقيه التابعى حنش الصنعانى وحدث عنه كثيرون كما جاء بالنص: (حدث عن حنش بن عبد الله، ابنه الحارث، والحارث بن يزيد وسلامان بن عامر، وعامر بن يحيى، وسيار بن عبد الرحمن، وأبو مرزوق حبيب ابن الشهيد الفقيه مولى عقبه بن فجره التجيبى مصرى من ساكنى طرابلس المغرب، وقيس بن الحجاج، وخالد بن أبى عمران وربيعة بن سليم المصرى مولى عبد الرحمن بن حسان بن عتاهية التجيبى وعبد العزيز ابن أبى الصعبة وهو أول من ولى عشور إفريقية في الإسلام، ومات بافريقية سنة مائه. ذكر غير واحد منهم: أبو سعيد بن يونس وقال: أن له بمصر عقبا من ولد سلمه بن سعيد بن منصور بن حنش)[٣].

الأدلة الموثقة تُظهر لنا مدى أهمية شخصية حنش بن عبد الله الصنعانى التى ارتبطت بمحبة أمير المؤمنين وبطولته وعلمه وتسامحه ومكانته الجهادية منذ فجر الرسالة والعصر الراشدى كان ولا يزال حيّاً يرزق في قلوبنا وأقواله كلها حكم ومواعظ نحو بناء المجتمع إسلامي عادل ومدافع عن المظلوم وحماية المرأة وحقوقها المشروعة إن الأمام علي (عليه السلام)

---

(١) الحميدي الميورقي، أبي عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي (ت٤٨٨هـ) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٢٠١ رقم ترجمة ٤٠٣، ص٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٢) الحميدي، جذوة المقتبس، ص٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٣) المصدر السابق، ص٢٠٣.

خليفة الإنسانية وموسوعة العلم يسعد بلد الأندلس بدخول تابعي نهل من أكاديمية أمير المؤمنين وأوصل أفكاره إلى فتح الأندلس.

إن الإمام على مع الحق في الدنيا والآخرة فمن اعتصم بولايته نال حب الرسول الكريم (ص) الذى يعرف حق قدر أمير المؤمنين ومواقفه الجهادية في السراء والضراء فهو شفيع الشيعة والسنة والبركة لمن قال يا على يا أبا الحسن والحسين (ع) أدركنى من المصائب، فهو أمير في الشدائد وناجى المظلومين ومشافي المرضى وهو عميد للنصارى يعتقدون بمكانته.

ولا يزال الأسبان يعرفون حق قدره عند العسر واليسر وفي حالات الولادة أهل الأندلس ينتخون النساء في لحظة نزول الطفل من رحم أمه، ما هذا السر العجيب يا أمير المؤمنين سلطان البشرية منقذ المظلومين يناديك من وقع في أسر الأعداء اسمك يرهب القلوب والعقول عطرك غذاء القلوب ولايتك سحر التسامح مقامكم بالنجف الأشرف بهجة النفوس للزوار يترقبون قبتك ومنارتك شامخة بالسماء بريق العيون يطغى جروح قاصدك وينسى هموم الآباء والأمهات عند دفن الشهداء الذين ضحوا لولايتك وهم شهداء في جنات النعيم سفك أعدائك أتباع ابن ملجم وبنى أمية من سار على نهجك الطاهر لا يبالون شيعتك بنداء يا على يا حيدر الكرار يا ذو الفقار اسمك منحوت بالقلوب الحقيقية التاريخية عن تقصى علماء الأندلس بالتقصى عن أخبار حنش الصنعانى وأخباره والترجمة عنه دليل قاطع على حب أهل الأندلس في التعارف عن ما عند التابعى في حكايات عن أمير المؤمنين وبطولاته وقد تطرق المؤرخ الضبى عنه بقوله (حنش بن عبد لله بن عمرو بن حنظله بن مهد، وقيل نهد بن قنان، فقيل: قيان بن ثعلبه بن عبد الله بن ثامر السبأى وهو الصنعانى يكنى أبا رشد[١]، من التابعين، كان مع على بن أبى طالب (عليه السلام) بالكوفة وقدم مصر بعد قتله رحمه الله تعالى، غزا المغرب مع رويفع بن ثابت[٢].

غزا الأندلس مع موسى بن نصير وله بها اثر ويقال: إن جامع سرقسطة من بنائه، وأنه أول من شرع فيه وأول من اختطه، وكان فيه ثار مع عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان واتى به إلى الملك فعفا عنه، وكان عبد الملك حين غزا المغرب مع معاوية بن حديج[٣].

---

(١) أبا رشدين، ينظر: الزركلي، الأعلام، ج٢/١٧٥.

(٢) هو رويفع بن ثابت بن السكن البخاري الأنصاري المدني، صحابي خطيب. من الفاتحين أمره معاوية على طرابلس الغرب سنة ٤٦هـ فغزا إفريقية، وتوفي ببرقة وهو أمير عليها سنة ٥٦هـ - ٦٧٦م ينظر الزركلي. الأعلام، ج٣/٣٦.

(٣) معاوية بن حديج بن حفنة بن قنبر الكندي، أبو نعيم السكوني، صحابي. أمير، ولى مصر، وشهد صفين مع معاوية. توفي سنة ٥٢هـ /٦٧٢م. الزركلي، الأعلام، ج٦/٢٦٠.

نزل عليه بإفريقية سنة خمسين فحفظ له ذلك روى عن الصحابة عن علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وعبد الله بن عباس، وأبي الدرداء، وفضالة بن عبيد، ورويفع بن ثابت، وقال البخاري في حنش بن عبد الله السباي: سمع فضالة بن عبيد، ورويفع بن ثابت، روى عنه قيس بن الحجاج وأبو مرزوق، وحلاج، وخالد بن أبي عمران، وقيس ابن الحجاج عن حنش بن عبد الله أن ابن عباس قال: إن استطعت أن تلقى الله وحليته حديد فافعل.

هذا آخر كلام البخاري فقد حنش بن عبد الله حنش بن علي، وجعلهما رجل واحد وجعل الخلف أبيه، وقيل إن الذي يروي عن فضالة بن عبيد هو حنش بن علي الصنعاني من صنعاء الشام قرية بدمشق يقال لها: صنعاء، وأبو الأشعث الصنعاني منها أيضاً، قاله علي بن المديني، ولهذا ظن قوم أن حنش بن عبد الله من صنعاء الشام لا من صنعاء اليمن، وأن الاختلاف في اسم أبيه واسمه واحد وقد وجدنا حنشين آخرين عن علي (رضي الله عنه) أحدهما: حنش بن المعتمر صاحب على، وحنش بن ربيعة الذي صلى وراء الإمام علي (عليه السلام) صلاة الكسوف، ذكرهما علي بن المديني،وقال البخاري: حنش بن المعتمر وأبو المعتمر الصنعاني، وقال بعضهم: حنش بن ربيع سمع عليا، وروى عنه سماك والحكم بن عتيبة الكوفي. هذا منتهى كلام البخاري، فقد جعل الاثنين اللذين ذكرهما علي بن المديني واحداً وجعل الخلف في اسم أبيه، والله أعلم)[1].

تؤكد المصادر الأندلسية على مقام حنش الصنعانى وانه مات بسرقسطة (قاعدة الثغر لا على الأندلسى) وصار قبره مزاراً للتبرك ويحضره أهل الكرامات لقراءة القرآن الكريم كما ذكر الضبى وغيره (يقال: أنه مات بسرقسطة من بلاد الأندلس وقبره بها معروف، ويقال: أن قبره وقبر موسى بن على بن رباح في موضع واحد عند باب القبلة خارج المدينة قرب السور، وأن الباجى رحمه الله عند كونه بسرقسطة وقف عليها وبمقربة منها قبر أبى عمر أحمد بن محمد بن دراج)[2].

بذل حنش الصنعانى جهوداً في فتح إسبانيا ودخل إلى سرقسطة مع الوالى موسى بن نصير البكرى كما أكد لنا المؤرخ التونسى ابن الكرديوس بقوله (قال عبد الحميد بن حميد عن أبيه، أن موسى لما أوغل في بلاد العدو، وجاوز سرقسطة، اشتد ذلك على الناس وقالوا أين تذهب بنا ؟ حسبنا ما بأيدينا وكان موسى حينها دخل إفريقية وذكر عقبه بن نافع قال: لقد كان غرر بنفسه حين أوغل والعدو عن يمينه وشماله وأمامه وخلفه وما كان معه رجل شديد، فسمعه حنش الصنعانى، فما بلغ موسى حيثما بلغ أخذ حنش بعنانه وقال: أيها الأمير سمعتك تذكر عقبه وتقول: لقد غرر بنفسه وبمن معه وما كان معه رجل رشيد،

---

(١) الضبي، بغية الملتمس، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٢) المصدر السابق، ص٢٥٦ ـ ٢٥٧.

وأنا رشيد اليوم، أين تذهب ؟ أتريد أن تخرج من الدنيا أو تطلب أعظم مما فتح الله عزّ وجلّ عليك، إنى سمعت من الناس ما لم تسمع، فإنهم قد ملوا وأحبوا ألوعه، فضحك موسى وقال: أرشدك الله، وكثر في المسلمين مثلك ثم انصرف قافلاً إلى الأندلس وقال يومئذ: أما والله لو انقادوا مدتهم حتى أوقفتهم على روميه ويفتحها الله على يدى إن شاء الله[١].

امتاز التابعى حنش التابعى بالنزاهة وحسن المقصد في مشاركته في عمليات الفتح في أرض إسبانيا دون طمع أسوة بالتابعين قرانه كما ذكر لنا المؤرخ الأندلسى عبد الملك بن حبيب بقوله (قال ابن ربيعة: غل الناس كلهم يومئذ إلا أربعة نفر فقط كانوا من التابعين، أبو عبد الرحمن الحبلي، وابن شماسة وحنش الصنعاني، وعياض ابن عقبة الفهري)[٢].

يعد القاضي أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي من أبرز العلماء الأندلسيين الذي زار الكوفة دار الإمارة لأمير المؤمنين في الكوفة أو إلى دار أحد تلاميذه الكوفيين أبي الفرج بن السلالي حيث وجد التكريم من أفراد الأسرة، وقد التقى به بعد ذلك في حلب، قال الباجي: (كنت أنزل بالكوفة بدار أبي الفرج هذا وكانت أمه وخالته يخدماني وهو يقول خدمتى فيما نشترى من السوق وكان أبوه نعم الشيخ)[٣].

أقام الباجى في الموصل وبغداد والكوفة وحلب التى دخلها سنة ٤٣٧هـ دون علم وإذن السلطان وكان يعقد المجالس والمناظرات التى يحضرها الأعيان من الشيعة وأهل السنة من مختلف المذاهب كل يوم جمعة، يلقى دروس على الطلبة يحاور المتشيعين ويظهر لهم الحق والصواب في الاتجاه السنى وكان التشيع غالباً على أهل حلب هو مذهب أميرهم معز الدولة أبى علوان بن صالح العلائى الذى قرأ على معلم متشيع وكانت زوجته السيدة بنت ابن رباب النمرى من أهل السنة ترغب في صرف زوجها عن مذهبه فلا تقدر على تحقيق رغبتها ولما حضرت دروس الباجى ولاحظت قوة الحجة عنده وسعة العلم وحذت السبيل إلى تحقيق أملها في إرجاع زوجها إلى المنهج السنى ومهدت للباجى أن يلقاه مراراً وأن يناقش ويتناظر بين يديه المخالفين حتى انصرف عن رأيه وناصر الاتجاه السنى[٤].

تعد مدينة قرطبة مركزاً للعلماء وقاعدة الفقهاء والتابعين وقد وصفت بأوصاف متعددة لمكانتها نذكر (أما قرطبة، فهي قاعدة الأندلس وقطبها، وقطرها الأعظم، وأم

---

(١) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان، تحقيق أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية (مدريد ١٩٧١م) ص ١٦٠.

(٢) عبد الملك بن حبيب السلمي الأندلسي (ت٢٣٨هـ) كتاب التاريخ، وضع حواشيه: سالم مصطفى البدري، نشر دار الكتب العلمية (بيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م) ص١٢٨.

(٣) روضة الأعلام، ص٥٥، نقلاً عن الباجي، فصول الأحكام، تحقيق: محمد أبو الأجفان، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨٥م، ص٤٢.

(٤) الباجي، فصول الأحكام، مقدمة المحقق، ص٣٧ - ٣٨.

مدائنها ومسكنها، ومستقر الخلفاء ودار المملكة في النصرانية والإسلام، ومدينة العلم ومقر السنة والجماعة، نزلها فيما نقل رجل من الصحابة وجملة من التابعين وتابعى التابعين رضى الله عنهم)[١].

تعرف مدينة سرقسطة Zaragoza بالبيضاء لأنه دفن بها التابعين من الصحابة (رض) كما ذكر في النص: وتسمى بيضاء لأن عليها نور مشرق، وبها رجلان من الصحابة مدفونان وهما حنش الصنعانى وفرقد الشنجى (السبخى) رضى الله عنهما، وهما مدفونان في قبلة الجامع أمام المحراب من خارجة، ومحراب هذا الجامع من حجر واحد من الرخام الأبيض قد نقر فيه المحراب بأغرب الصناعات وأبدع التخريم عليه محارة متقنة الشكل وليس في الأرض محراب مثله.

وهى التى نزلها واختصها بنو الأنصار والتابعون رغبة فيها من أجل الخير الوارد فيها، أعد المؤرخ الأندلسى عبد الواحد المراكشى على دخول إلى الأندلس (ومنهم حنش الصنعانى، يروى عن على بن أبى طالب (عليه السلام) وفضالة بن عبيد)[٢].

وقال علماء الأندلس (ومن فضل الأندلس أنه لم يذكر قط أحد على منابرها من السلف إلا بخير)[٣].

المكانة التاريخية السامية للإمام على أمير المؤمنين عليه السلام في المصادر الأندلسية:

تناولت كتب التاريخ الأندلسى التطرق إلى الحديث عن بطولة الإمام على (عليه السلام) في الدفاع عن الإسلام ومواقفه لحماية الرسول الكريم (ص) من الأعداء عند مبيته في فراشة الطاهر لتوهيم الكفار من قريش ومحاربة المتمرد عمر بن ولد العامرى في معركة الخندق وانتصاره بسيف الطاهر سيف ذو الفقار الذى صار رمز للقوة والعدل والشرف وقد أفردت المصادر الأندلسية فصولاً ومباحث عن السيرة الجهادية والعلمية لأمير المؤمنين وهى دليل على اعتزاز التاريخ بالأبطال النخب وقد أشار المؤرخ الأندلسى الكبير عبد الملك بن حبيب (ت٢٣٨هـ) الحديث عنه بقوله (لما بويع لعلى بن أبى طالب أتاه الأشتر فساقه وأنه لجالس في بيته فاجتمع الناس طلحة والزبير وغيرهما، فقام الأشتر وقال: "قم يا طلحة ويا زبير فبايعا" فقاما وبايعا، وهما يظنان والناس قبل البيعة أنها شورى ثم خرجا من عند على (عليه السلام) وهما يقولان: (بايعناه بأيدينا ولم نبايعه بقلوبنا وكانت السيوف السالة على رؤوسنا،

---

(١) مؤلف أندلسي مجهول، تاريخ الأندلس، تحقيق: عبد القادر، دار الكتب العلمية.

(٢) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تقديم: ممدوح خفي، نشر: دار الكتاب (الدار البيضاء، د. ت) ص٢٦.

(٣) المصدر السابق، ص٢٧.

فبايع الناس عليا وتخلف عن بيعته سبعة أنفر، سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر وصهيب وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد ولم يتخلف أحد من الأنصار وقال سليمان الأنصارى: بايعت عليا فرآنى أبو بكرة وأنا متقلداً سيفاً فقال لى: ما هذا ؟ قلت: بايعت عليا فقال: لا تفعل يا ابن أخى فلنا القوة يقتلون على الدنيا وإنما أخذوها من غير مشورة)[١].

استقى المؤرخ الأندلسى المعلومات من تاريخ الطبرى ومن الكامل لابن الأثير وتاريخ الإسلام للذهبى إذ اختار نصوصاً مقتضية عن البيعة وأغفل السيرة الخالدة لبطولته وجهاده وعلمه ومواقفه، كما اقتبس نصوصاً متنوعة من المصادر الأولية المشرقية تؤكد على المكانة التاريخية نذكرها: (وحدثنا عن الأعمش عن أبى صالح أن عليا حين أخذت السيوف مآخذها من هام الرجال قال: "وردت في من قبل هذا بعشرين سنة" وقال الحسن: "لود على أنه لم يعمل ما عمل، ولود عمار بن ياسر أنه لم يعمل ما عمل ولود طلحه والزبير أنهما لم يدخلا فيما دخلا فيه")[٢].

أما عن استشهاد الإمام على (عليه السلام) فنقل عن ما قاله الواقدى الخبر (ليلة الجمعة لسبع عشر ليلة خلت من شهر رمضان ودفن ليلاً وأخفى قبره ومات من يومه، وكانت إمارته أربع سنوات وثمانية أشهر وتسعة عشر يوماً وكان الذى قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنة الله عليه)[٣].

تناول المؤرخ الأندلسى عبد الملك بن حبيب نصوصاً تخلد بطولات أمير المؤمنين (عليه السلام) أمام الحكام الأمويين في الأندلس تؤكد على قوة الحق والعدل للإمام بقوله:

(ولم يكن أصحاب رسول الله (ص) كلهم فقهاء ولا علماء ولكنهم كانوا أئمة يقتدى بهم في الدين).

قال عبد الملك: وقال فقه هؤلاء السبعة على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل وكان إذا نزل بأصحاب رسول الله (ص) مسألة معضلة وعلى (عليه السلام) غائب قالوا: "معضلة ولا أبو الحسن) وذلك لأن عليا (عليه السلام) كان أوقع الناس على خفيات العلوم مع دعاية كانت فيه"[٤].

وكان الإمام على (عليه السلام) أعلم أهل زمانه وحكيم عصره كما نقل عنه حكايات رائعة عن إبداعه في الطب مثل (لقد روى الثورى أن رجلاً أتى برجل إلى على (ع) فقال: (إن هذا زعم انه احتلم البارحة بأمي في نومه، فما ترى عليه؟) فقال: (أرى أن يوقف

---

(١) عبد الملك بن حبيب، كتاب التاريخ، وضع حواشيه، سالم مصطفى البدري، نشر دار الكتب العلمية (بيروت، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م) ص١٠٢ - ١٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٣) نقلاً عن المصدر السابق، ص١٠٤.

(٤) نقلاً عن المصدر السابق نفسه، ص١٤٢.

للشمس ويضرب ظله الحد) فهذا الجواب الحاضر الذى لا يبلغه عقل ولا يقع عليه وهم. ومثله قوله (قيمة كل امرئ ما يحسن) فقيمة العالم على قدر علمه وقيمة العاقل على قدر عقله لآخرته وليس كل من أحسن النظر والتدبير بعقله في دنياه وأساء النظر بعقله إلى آخرته وكذلك الغنى: إذا كان الرجل غنياً فقيمته على قدر تفقده لماله ونظره فيه لآخرته، فإن أحسن النظر عظمت قيمته في الدارين جميعاً، وإن أساء النظر في ماله فقد بخس نفسه في القيمة الدارين جميعاً، لأنه لم يتجنب فيه إلى الناس فابغضون ولم يقدم إلى آخرته فمقيته الله، وقد كان ذكر ابن ناجية عن محمد بن على أنه قال: قيل على (ع) عنه بقوله هذا جميع الأقاويل وفاقها)[١].

انتقى عالم الأندلس ابن عبد البر النمر القرطبى المالكى (ت٤٦٣هـ) من سيرة الإمام على وروايته عن درجات العالم والمتعلم في كتب الفقه (وروى عن على رضى الله عنه قال: الناس ثلاث: فعالم ربانى، ومتعلم على سبيل نجاة، والباقى همج رعاع اتباع كل ناعق)[٢].

نقل ابن عبد البر النمرى أبيات شعر عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في العلم وفضله بقوله: وينسب إلى على بن أبى طالب عليه السلام من قوله وهو مشهور من شعره سمعت غير واحد ينشده له:

الناس في جهة التمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة	وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فان يكن لهم من أصلهم حسب	يفاخرون به فالطين والماء
ما لفضل إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدي أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه	وللرجال على الأفعال أسماء[٣]

وأورد ابن عبد البر النمرى قوله (وقال على ـ رضى الله عنه ـ قرنت الهيبة بالخيبة، والحياة بالحرمان)[٤].

---

(١) عبد الملك بن حبيب، كتاب التاريخ، ص١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) نقلاً عن ابن عبد البر النمري القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: مسعد عبد الحميد محمد السعدني، نشر دار الكتب العلمية (بيروت ٢٠١٠م) ص٤٦، أخرجه أبو نعيم في الحلية، ج١/٧٩ ـ ٨٠، الخطيب ط٣ في الفقيه، ج١/٩.

(٣) نقلا عن ابن البر النمري القرطبي، جامع بيان العلم وفضله، ص ٦٩ ـ ٧٠ نقلاً عن ديوان علي، ط٧ (المكتبة الثقافية).

(٤) ابن عبد البر النمري، جامع بيان العلم وفضله، ص١٢٦، وقال الحسن بن علي المجتمع (ع) (من استتر على طلب العلم بالحياء ليس للجهالة سرباله فاقطعوا سرابيل الجهل عنكم بدفع الحياء في العلم، فإنه من رق وجهة رق عمله).

وذكر رواية لها دليل نقلاً عن الفقيه ابن عائشة (ض) بقوله (وروى ابن عائشة وغيرة أن عليا - رضى الله عنه - قال في خطبته خطبها: واعملوا أن الناس أبناء لا يحسنون وقدر كل امرئ ما يحسن فتعلموا في العلم منها. قالوا: ولا كلمة أضر بالعلم والعلماء والمتعلمين من قول القائل: (ما ترك الأول للآخر شيئاً)[١].

وقال أبو عمر: قول على (عليه السلام): (قيمة كل امرئ - أو قدر كل امرئ - ما يحسن من الكلام العجيب وقد طار الناس به كل مطير ونظمه جماعة من الشعراء إعجاباً به وبحسنه)[٢].

اختار ابن عبد البر النمرى حوادث مهمة عن حقيقة الإمام على بن أبى طالب بالخلافة قول رسول الله (ص) لعلى في غزوة تبوك حين خلقه فقال سعد: قال رسول الله (ص): (يا على أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟)[٣].

كما رُوى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب (عليه السلام) قال: (تعلموا العلم وتزينوا معاً بالوقار والحكم وتواضعوا لمن تتعلمون منه ولم تعلمونه ولا تكونوا جبابرة العلماء فيذهب باطلكم حقكم)[٤].

وقوله (عليه السلام): (الإعجاب آفة الألباب)[٥].

أما عن آداب العالم (يروى عن على بن أبى طالب (رضى الله عنه) أنه قال: (من حق العالم عليك إذا آتيه أن تسلم عليه خاصة وعلى القوم عامة وتجلس قدامه ولا تشر بيديك ولا تغمز بعينيك ولا تقل: قال فلان خلاف قولك و لا تأخذ بثوبه ولا تلح عليه في السؤال، فإنه بمنزلة النخلة المرطبة لا يزال يسقط عليك منها شىء)[٦].

اهتم ابن عبد البر النمرى بنقل أبرز الكلام والأحاديث بالعلم عن أمير المؤمنين في كتابه (من حديث على بن أبى طالب (رضى الله عنه) قال: (قال رجل: يا رسول الله ما ينفى عنى حجة الجهل؟ قال: العلم قال: فما ينفى عنى حجة العلم ؟ قال: العمل)[٧].

وقال الإمام على بن الحسين (عليه السلام): (كان نقش خاتم حسين بن على - رضى الله عنه - علمت فاعمل)[٨].

---

(١) المصدر السابق، ١٣٩ ترجمة رقم ٤٤٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٦،ترجمة رقم ٥٠٠.

(٤) المصدر نفسه، ص١٩٧ ترجمة ٦١٧.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٠١ ترجمة ٦٢٩.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٠٥ ترجمة ٦٣٦.

(٧) المصدر نفسه، ص٢٥٩.

(١) المصدر نفسه.

بطولة أمير المؤمنين (عليه السلام) في العفة والأمانة والنزاهة في الحرب، من أبى البخترى والشعبى وأصحاب على (ع) عنه (أنه لما ظهر على أهل البصرة يوم الجمل لهم ما في عسكر القوم من السلاح ولم يجعل لهم غير ذلك فقالوا: كيف تحل لنا ماءهم ولا تحل لنا أموالهم ولا نساءهم ؟ قال (ع): هاتوا سهامكم واقرعوا على عائشة ؟ فقالوا: نستغفر الله، فخصمهم على (رضى الله عنه) وعرفهم أنها إذا لم تحل لم يحل بنوها، والصحيح عليا عليه السلام لم يغنم شيئاً من أموال أهل الجمل وصفين إلا أن السلاح أمر بنزعها منهم نقلاً)[١].

لقد ضرب أمير المؤمنين أروع الصور للتسامح واحترام المال، لذا نرى حب أمير المؤمنين غزا قلوب أهل السنة قبل الشيعة، وها هو نرى ابن عبد البر قال (عليه السلام) ويستحق كل الصلاة والسلام.

ازدانت مصادر التاريخ الأندلسى بجواهر كلام أمير المؤمنين وحكاياته ومواقفه البطولية في الحملات الجهادية إذ نرى أن العالم المؤرخ ابن سماك العاملى (أبى القاسم محمد بن أبى العلاء محمد بن سماك المالقى الغرناطى، من أهل النصف الثانى من ق٨٠هـ/١٤م) صنف (كتاب الزهرات ١٦ ـ على بن أبى طالب (ع) غرائب التأويل، زهرة ١٧ ـ إعرابى يسال على بن أبى طالب (ع) ٩٨ ـ دعاء للحسن بن على (ع) يؤكد حب علماء الأندلس المالكية لبطولة أمير المؤمنين أحد قادة خلفاء الإسلام العظماء بالتاريخ[٢].

يعد العالم المؤرخ الأندلسى ابن الأبار البلنسى أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى (ت٦٥٨هـ) من أهم المؤرخين الذين أحيوا ذكر بطولة أهل البيت ومصيبة الإمام الحسين (ع) وفيهما من مادة متقنه تجد الشهادة والغذاء والإبداع في الصياغة وهو ابن الأبار مالكى المذهب شيعى النزعة وقلبه مفعم بحب بيت الرسول الكريم وعترته الطاهرة الزكية، كما ابن الأبار يكتب بعد ذكر الأئمة لفظ (عليه السلام) كما جاء بالنص: (عن عبد الله بن عباس، أبو العباس، غزا إفريقية مع عبد الله بن سعد بن أبى سرح في خلافة عثمان سنة ٢٧هـ وشهد فتحها... فوفد إلى المدينة بعد مقتل على (عليه السلام) فلقى الحسن بن على (عليه السلام) وعبد الله بن جعفر، عليهما السلام....)[٣].

وذكر له الزبير بن بكار وغيره رجزاً في قتل الحسين بن على حين قدم برأسه على المدينة تركت ذكرى[٤] بسبب بشاعة كلماته القاسية بحق أبي الأحرار سيد الشهداء متأسفاً

---

(١) نقلاً عن النمري، جامع بيان العلم وفضله، ص ٣٧٨، ١٠١٥.

(٢) تحقيق: محمود علي مكي، نشر غير مرة و، ويوجد نصه كاملا في موسوعة الموسم، الجزء ١٦ لسنة ١٩٩٣، ص ٩ ـ ٤٥.

(٣) ابن الأبار، الحلة السيراء، نشر دار الكتب العلمية بيروت، ٢٠٠٨ م، ص١٨.

(٤) المصدر السابق، ص٢٤.

ابن الأبار على الاستشهاد به وذكره - فصول من درر السمط في خبر السبط، لابن الأبار البلنسي (ت٦٥٨هـ).

الزهرة السادسة عشرة:

(خرج عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذات يوم من منزله، فلقيه حذيفة بن اليمان(رض)[1] فقال له: كيف أصبحت يا حذيفة ؟ قال أصبحت أحب الفتنة، وأكره الحق، وأقول بما لم يخلق، وأشهد بما لم أر، وأصلى بلا وضوء، ولى في الأرض ما ليس لله في السماء، ففضب عمر (رض) غضباً شديداً وهم به ثم ذكر صحبة النبى (ص) ومكانة منه، فكف عنه.

فبينما هو كذلك إذ أقبل على (رضى الله عنه) فرأيت الغضب في وجهة فقال: ما أغضبك يا أمير المؤمنين ؟ فقص عليه القصة فقال لا يغضبك الله ! أما قوله ما أحب الفتنة، فصدق قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾[2]، وأما قوله (أكره الحق) فإنه يكره الموت، وأما قوله (أقول بما لم يخلق) فإنه يتلو القرآن، وأما قوله (أشهد بما لم أر) فإنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأما قوله (أصلى بلا وضوء) فإنه يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم، وأما قوله (إن له في الأرض ما ليس لله في السماء) فقد صدق: له في الأرض زوجة وبنون.

فقال عمر: لله درك يا أبا الحسن! لقد كشفت عنى أمراً عظيماً[3].

الزهرة السابعة عشرة:

(قدم إعرابى على على بن أبى طالب رضى الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين (١٢٢) لى إليك حاجة والحياء بمعنى أن أذكرها لك، قال: يا إعرابى خطها في الأرض، فخط: إنى فقير، فقال لغلامه: اكسه حلة، فكساه إياه فأنشأ الإعرابي يقول: (من البسيط)

كسوتني حلة تبلى محاسنها ... فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا

إن نلت حسن ثنائي نلت مكرمة ... ولست تبغى بما قد نلته بدلا

---

(١) حذيفة بن اليمان العبسي من كبار الصحابة، ولد بالمدينة، وكان له بلاء في مشاهد الرسول (ص) وروى الكثير عن النبي وعن عمر، واستعمله عمر على المدائن فلم يزل بها حتى مات بعد مقتل عثمان (ض) وبعد بيعة الإمام علي بأربعين يوماً سنة ٣٦. راجع في ترجمة الإصابة لابن حجر رقم ١٦٤٩ - ٤٤/٢ - ٤٥.

(٢) سورة التغابن، الآية ١٥.

(٣) الخبر في كتاب الشيخ محمد تقي التسترى: قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، الطبعة الخامسة عشر. بيروت (بغير تاريخ) ص١٠٩ - ١١٠، والخبر هناك منقول عن مناقب الإمام علي للكنجى وتنتهي الرواية فيه إلى سعيد بن المسيب.

إن الثنـــاء ليحيـــى ذكـــر صـــاحبه كالغيـث يحيـى نـداه السـهل والجـبلا

فقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: زده مائة دينار فأعطاه إياه فلما ولى الأعرابى قال له غلامه: لو دفعتها في المسلمين لأصلحت بها من شانهم! فقال: مه، لا تفعل فإنى سمعت رسول الله يقول: تشكروا لمن أثنى عليكم وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. ص١٤٨ الزهرة ٩٨:

خرج الحسن بن على بن أبى طالب (ع) ذات ليلة فنظر إلى النجوم تزهو فحمد الله وسبح واعتبر، ثم قال في آخر كلامه: اللهم لا تحوجنى إلى أحد من خلقك ! فسمعه أبوه رضى الله عنه، فقال: تطلب من الله شيئاً لم يعطه الصفوة من أنبيائه ؟ إنما قل اللهم لين قلوب عبادك)[1].

الشرف المستولى على الأمد القصى كل ولد الرسول درج في حياته وحملت هى ما حملت من آياته، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، لا فرع للشجرة المباركة من سواها فهل جدوى أوفر من جدواها والله أعلم حيث يحمل رسالاته حفت بالتطهير والتكريم وزفت إلى الكفوء الكريم فوردا صفو العارفة والمنة، وولدا سيدى أهل الجنة عوضت من الأمتعة الفاخرة بسدى الدنيا والآخرة، ما أثقل نحوها ظهراً ولا بذل غير درعه مهراً، كان صفر اليدين من البيضاء والصفراء وبحاله لا حيلة معها في إهداء الحلة السيراء، فصاهره الشارع وخاله، وقال في بعض صعلوك لا مال له، نرفع درجات من نشاء.

فصل:

اتنتهـــب الأيـــام أفـــلاذ أحمـــد وأفـــلاذ مـــن عـــاداهم تتعـــدد

ويـــضحى ويظمـــا احمـــد وبناتـــه وبنـــت زيـــاد وردهـــا لا يـــصرد

أفي دينـــه في أمنـــه في بـــلاده تـــضيق علـــيهم فـــسحة تتـــورد

ومـــا الـــدين إلا ديـــن جـــدهم الـــذي بـــه أصـــدروا في العـــالمين وأوردوا

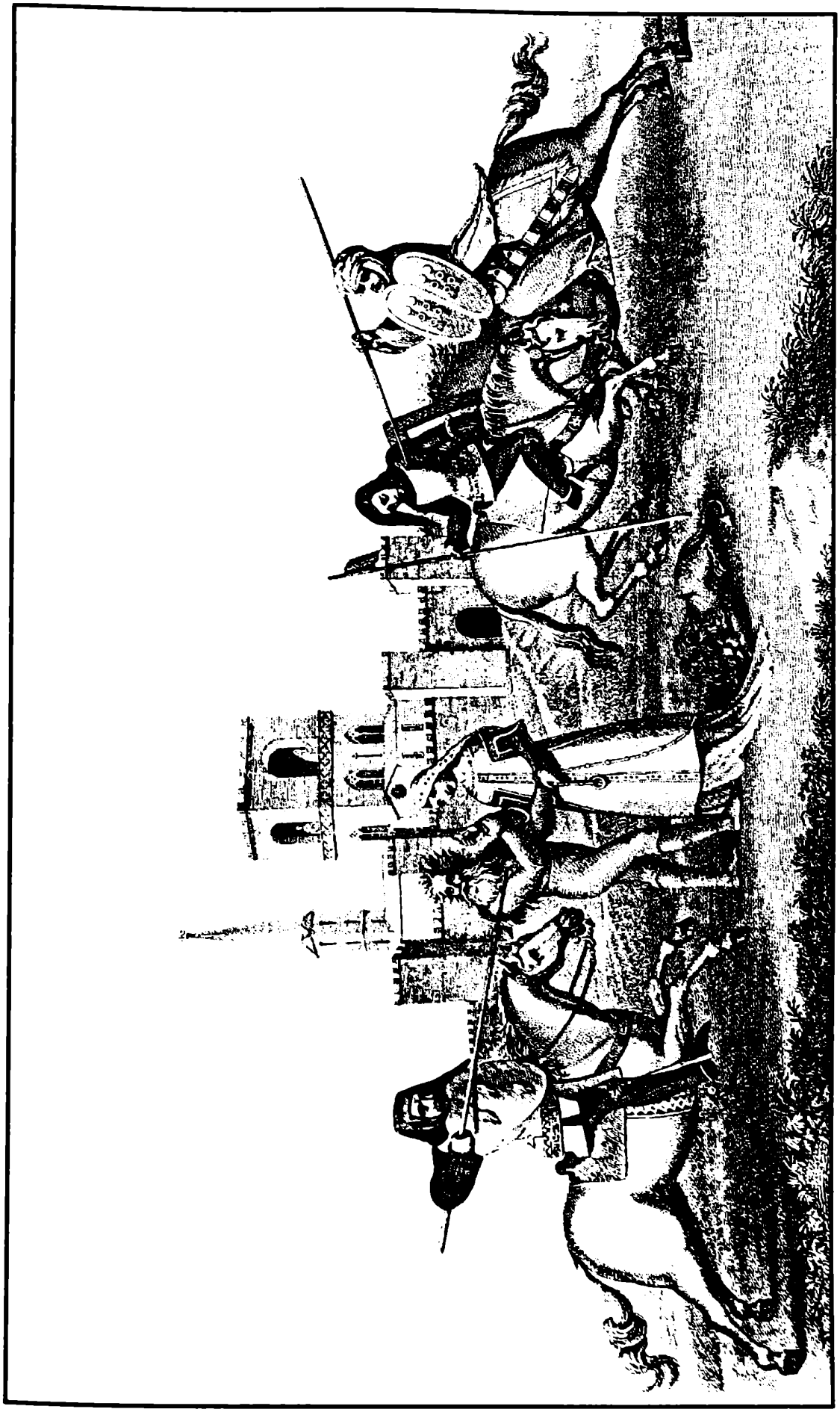
انتهى ما سنح لى ذكره من (درر السمط في خبر ألسبط عليه السلام) وهو كتاب غاية في بابه .

- رجع إلى ما كنا بسبيله -، فنقول: قد ذكرنا في الباب الثانى رسالة أبى المطرف ابن عميرة إلى أبى جعفر ابن أمية، وهى مشتملة على التلهف على الجزيرة الأندلسية، حين أخذ العدو بلنسية، وظهرت له محايل الاستيلاء على ما بقى إلى البتول سير بالشرف وسيق الفخر بالأم الكريمة والوالد، حلت في الجيل الجليل، وتحلت بالمجد الأصيل، ثم تولده إلى الظل الظليل:

ولـــيس يـــصح في الإفهـــام شـــيء إذا احتـــاج النهـــار إلى دليـــل

وأبيهـا إن أم أبيهـا لا تجـد لهـا شـبيهها زهـرة الـنبي وطلـة الوصـي، وذات الـشرف

(١) ابن سماك العاملي الغرناطي، الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة، تحقيق: محمود علي مكي، نشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٤٢٤هـ.



صراع حول قصر الحمراء.





فرسان أندلسيون.

من الملاحم العلوية الأسطورية عند الموريسكيين

(١)

قصة علي والصبايا الأربعين

قال ابن عباس (ع)، عندما تزوج علي بن أبي طالب (ع) بفاطمة الزهراء، لم يكن لديه ولا في بيته سوى سبعة مدود من شعير.

قال علي:

ـ يا فاطمة، المدود لسبعة أيام، اطحني كل يوم مداً، فإذا فرغت فتح الله تعالى علينا أبواب السماء والأرض.

فلما جاء الصباح ذهبت فاطمة إلى الطاحونة والحناء ما زالت في يديها، وفي اليوم التالي أرادت أن تطحن، فإذا بأربعين صبية يمررن عليها، متوشحات بالحرير واللؤلؤ والياقوت، ومعهن عجوز لعنها الله.

فلما دخلن على فاطمة، قالت لها العجوز:

ـ يا فاطمة، أين حسنك وأين محياك الجميل وأين قدرك؟ يا فاطمة، كان بوسعك أن تتزوجي بسيد من بني قريش، وتتوشحين بمثل ما ترتديه هاتيك الصبايا من الحرائر واللؤلؤ والياقوت، لقد تزوجت من علي أبي طالب وفيه أربعة مثالب وعيوب: فعلي خفيف الشعر، وعلي ضخم الوسيعة، وعلي نحيف القدمين، وعلي فقير لا يملك شروى نقير.

ومضوا عنها وتركنها تنتحب.

وإذا بعلي بن أبي طالب يدخل عليها، فوجدها تبكي، فقال:

ـ يا فاطمة، لم تبكين؟

قالت:

ـ يا علي، إن أهل قريش جاءوا إلي، وأخبروني أن فيك أربع مثالب.

قال لها علي:

ـ وما هي تلك المثالب الأربع؟

فقالت له:

ـ يا علي، قالوا لي إن لديك شعراً قليلاً.

قال علي:

ـ لقد قالوا لك الحق يا فاطمة، فوالله إن شعري لقليل من كثرة ما أضع البيضة على رأسي ولا أخلعها أبداً.

ثم قالت:

ـ يا علي، قالوا لي إنك ذو بطن كبيرة.

قال علي:

ـ يا فاطمة، لقد قالوا الحق لأن أباك النبي أخبرني أنه مدينة العلم وأنا بابها، فمن أراد أن يدخل المدينة عليه أولاً أن يطرق الباب.

وقالت:

ـ يا علي، قالوا لي إن ساقيك نحيفتان.

قال:

ـ حقاً ما قالوا لك يا فاطمة، فإني عندما أركب جوادي أحسب لجوادي سبعاً، ولدرعي سبعاً، ولساقي سبعاً، ولرمحي سبعاً، وكلهم باسل شجاع، وأجرح في الكفار بطول عشرين شبراً.

وقالت:

ـ يا علي، قالوا لي إنك فقير، لا تملك القليل ولا الكثير.

قال لها علي:

ـ يا فاطمة، أولاً تستحين من أن تعيبيني بالفقر وأبوك النبي محمد (ص) أفقر مني؟

فلما انتهى علي من قول هذه الكلمات غضبت فاطمة غضباً شديداً، وذهبت إلى بيت أبيها النبي محمد.

فندم علي على ما قال، وقال:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقال علي:

ـ كيف أقابل بوجهي النبي محمد (ص) إذا طالبني بحق فاطمة؟

وظل هذا اليوم، واليوم الثاني والثالث لا يخرج من بيته، فلما كان اليوم الرابع، أقام علي بن أبي طالب (ع) صلاة الظهر ثم رفع يديه إلى السماء وقال:

ـ يا رب، يا ربي الأكبر، أسألك بشرف هذا النبي الكريم أن ترسل لي جيشاً من الكفار يحاصر هذه المدينة من كل صوب ومكان، حتى يفرح قلب فاطمة وقلب أبيها، يا من يقول للشيء كن فيكون.

قال ابن عباس، فما انتهى علي من دعائه حتى وجد طرقاً على بابه.

قال علي:

ـ من الطارق؟

قيل له:

ـ بلال بن حمامة، مؤذن النبي محمد (ص).

قال له علي:

ـ وماذا تريد يا بلال؟

قال:

ـ يا علي، إن النبي محمد (ص) يدعوك.

عندئذٍ قال علي بن أبي طالب:

ـ لم يبعث لي النبي محمد (ص) إلا لحق فاطمة، بئس هذا اليوم! كيف أقابل بوجهي النبي محمد (ص) وصحابته؟ ثم ذهب علي بن أبي طالب (ع) وبلال بن حمامة حتى وصلا بين يدي النبي محمد وصحابته، فوجد علي النبي محمد (ص) ومعه أبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومعاذ بن جبل وسعد بن أبي وقاص وخالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم أجمعين.

وقال النبي محمد (ص):

ـ يا علي، لقد أهملت المسلمين، يا علي، اصعد فوق تلك الصومعة وانظر ماذا حل بالمسلمين.

فصعد علي بن أبي طالب ونظر فرأى جيشاً من الكفار يبلغ ثمانين ألف فارس قد حاصروا المدينة من كل صوب ومكان.

عندئذٍ فرح علي بن أبي طالب ذلك وقال:

ـ الحمد لك يا ربي، فقد استجبت لدعائي وسررت قلبي، يا من يقول للشيء كن فيكون.

ثم نزل علي بن أبي طالب من فوق الصومعة وقال للنبي محمد (ص):

ـ يا رسول الله، ماذا أمرت لهذا الجيش؟

قال النبي محمد (ص):

ـ يا علي، لقد أعددنا شيئاً.

قال علي:

ـ وما هو ذلك الشيء؟

فقال النبي محمد:

ـ يا علي، اليوم يوم الجمعة، سنخطب في المسلمين، وغداً الأحد (!) عيد النصارى لعنهم الله، ويوم الاثنين إن شاء الله نخرج مع المهاجرين والأنصار.

فقال علي بن أبي طالب:

ـ يا رسول الله، تترك المدينة سبعة أيام وفيها علي بن أبي طالب، وشرف ربي وكرمه لن يخرج إليهم أحد سواي، وثقتي في الله أنه سيعينني، وهو على كل شيء قدير.

عندئذ قال الصحابة:

ـ يا علي، إننا نخشى عليك، لأن الجيش كبير والناس كثيرون فقال علي بن أبي طالب (ع):

ـ يا رسول الله، أسألك معروفاً.

قال النبي محمد (ص):

ـ فماذا تريد يا علي؟

قال علي:

ـ يا محمد، أناشدك أن تبعث لابنتك فاطمة وتقول لها أن تصعد إلى جدران المدينة تلك، وأن تبعث في طلب الصبايا الأربعين والعجوز حتى يرين ماذا سيفعل ذو الشعيرات القليلة.

فقال النبي محمد (ص):

ـ يا بلال، اذهب إلى فاطمة، وقل لها أن تصعد فوق أسوار المدينة وأن ياتي الصبايا الأربعون والعجوز.

وهكذا فعل بلال حتى دعا فاطمة، وطلب منها أن تصعد فوق أسوار المدينة، كذلك جاءت الصبايا الأربعون متوشحات بالحرير ومعهن العجوز لعنها الله.

ولم تكن فاطمة تلبس شيئاً من ذلك، عندئذ بعث الكريم بكرمه جبريل (ع) كي يذهب إلى رضوان خازن الجنة ليعطيه ثوباً من ثياب الجنة لتلبسه فاطمة بين تلك الصبايا.

وكذلك فعل جبريل، فجاء بثوب من ثياب الجنة ولبسته فاطمة وعجبت الصبايا من جمال هذا الثوب.

ثم ذهب علي بن أبي طالب إلى بيته يبحث عن حصانه، فوجده هزيلاً ضعيفاً لأنه لم يكن قد أكل شيئاً منذ أربعة أيام.

قال علي:

ـ لو طلبت جواد أبي بكر الصديق لقالوا إنني خائف، ولو طلبت جواد عمر بن الخطاب لقالوا إنني فزع، ولو طلبت جواد عثمان لقالوا إنني لا أجرؤ على الخروج.

ثم قال علي:

ـ حصاني، لو فعلت معي أمراً منكراً لتركتك في يد من لا يرانا ولا نراه.

عندئذ نهض الحصان، فوضع عليه السرج وشد الحزام، وامتطق سيفه وركب حصانه، وبدا كأنه أسد هصور.

وجاء حتى وصل إلى النبي محمد (ص) فسلم عليه وقال:

ـ افتحوا أبواب المدينة.

ففتحوا الأبواب، وقبله بين عينه وضمه إلى صدره ودعا له وقال:

ـ اذهب يا علي، لا أحزن الله المسلمين عليك.

وبكى النبي محمد (ص) وجميع الصحابة.

وخرج علي بن أبي طالب وأخذ يقول:

ـ أنا في سبيل الله، وفي سبيل الله أنا.

قال راوي الحديث.

ثم خرج علي بن أبي طالب إلى الكفار، وحمل بجواده على عشرين فارس من أوائلهم من الشجعان، فقاتلهم وجعلهم عشراً، ثم حمل على الفرسان العشر فجعلهم خمساً.

وشد على حزام الحصان حتى عجب الجيش من فروسية علي بن أبي طالب.

عندئذٍ قال ملك الجيش:

ـ من يأتيني برأس هذا الفارس؟

ولم يكد الملك ينتهي من قوله حتى نهض أحد الفرسان الشجعان وقال:

ـ أنا آتيك برأسه.

ومضى نحو علي بن أبي طالب، وقال له الكافر:

ـ من أنت أيها الفارس؟

قال علي بن أبي طالب:

ـ اسمي علي طرف رمحي، فلن يعرفه إلا من يغلبني.

وقال له علي:

ـ أيها الفارس، لماذا جئتم بهذا الجيش، وماذا تريدون من تلك المدينة؟

قال الفارس:

ـ جئنا لهدم المدينة، ولكي نحمل رأس علي بن أبي طالب، ورأس النبي محمد (ص).

قال له علي:

ـ فأبشر أيها الفارس، فإنك لو غلبت هذا الذي يحدثك فسأحضر لك رأس علي ورأس النبي.

وكان لا يزال يراوده الأمل، فهجم بسيفه وضرب علياً ضربة شديدة، فتلقاها علي، وقال له الكافر:

ـ بهذا السيف علي أن آخذ رأس علي بن أبي طالب ورأس النبي محمد (ص).

فاشتد الغيظ بعلي، وصاح صيحة مدوية حتى ظن الناس أن السماء ستقع على الأرض، وأطلق العنان لجواده، وضربه بسيفه ضربة شقته نصفين وشطرت حصانه كذلك، وسارع الله بروحه إلى النار.

فتعجب الجيش المحارب، ودهش ملكهم وقال:

ـ ألا من يأتيني برأس هذا الفارس وأنا أهبه ابنتي ونصف مملكتي؟

فقام إليه فارس كان من أعظمهم شجاعة وقال:

ـ بشراك أيها الملك، فسأحضر لك رأسه.

ومضى إلى علي بن أبي طالب، وأصابه بضربة كانت من أشد الضربات.

ثم قال علي:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصاح صيحة هائلة، وضربه بسيفه ضربة فلقته كما يفلق الإنسان القلم.

ثم هتف علي بن أبي طالب:

ـ أنا علي، فمن لم يعرفني سأعرفه باسمه.

فلما قال علي ذلك أصابهم بالخزي والعار، وصاح بهم:

ـ فليخرج منكم الفارس إثر الآخر، أو لتجتمعوا كلكم.

فاجتمع إليه عشرة فرسان، فقتل منهم خمسة وهرب الآخرون.

وعاد علي يهتف:

ـ اخرجوا يا أعداء الله فليس هناك اسم فوق اسمي.

ولما لم يخرج أحد، اخترق على وسط الجيش، واختفى في الناس ساعة عظيمة الهول، لم يعرف عنه فيها خبر.

وبكى النبي محمد (ص) لفقد علي.

وكان النبي قد قال لأصحابه:

ـ من يأتني بخبر عن علي بن أبي طالب وأنه قد رآه فسأكون ضامنة وكفيله بحول الله في الجنة.

لم يلبثوا إلا قليلاً حتى رأوا علي بن أبي طالب يخرج من وهدة، وثيابه كلها ملطخة بالدم، فجاء النبي محمد (ص) وقال له علي:

ـ البشرى يا رسول الله، فلقد انتصر المسلمون انتصاراً لم يحدث مثيل له من قبل، فابعث المسلمين يوزعون الغنائم.

فأرسلهم النبي محمد إلى الجيش، ووزعوا المغانم بالتساوي.

قال راوي الحديث.

وأمر النبي محمد (ص) أن يؤذنوا للعصر، ولم يكد ينتهي الأذان حتى علموا أن الله على كل شيء قدير، وربح المسلمون ربحاً لم يشهدوا مثيلاً له من قبل.

لكن علياً لم يكن تشفي نفسه إلا فاطمة، فذهب إلى أسوار المدينة، حيث كانت فاطمة والصبايا والعجوز، واحتضن علي فاطمة وقبلها بين عينيها.

ثم قال علي:

ـ يا جماعة الصبايا، ماذا ترين فيمن هو قليل الشعر، ضخم الوسيعة، نحيف الساقين. فقير؟

فنهضت فاطمة إليه، وقبلته بين عينيه، وقالت له:

ـ اذهب يا علي، لا حَرم الله المسلمين منك.

ـ يا جماعة الصبايا، من تردد منكن قول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» لها كفيل عند الله بدخول الجنة.

قلن له:

ـ يا علي، اذهب إلى اليمين، فليس بعد الأيمان كفر، فسنقول هذه الكلمات الثقيلة الوزن، الخفيفة على اللسان، ليفرح بهن الرحمن، ويهرب منهن الشيطان نحن نقول «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

وأسلم الصبايا الأربعون على يد علي بن أبي طالب.

قال الراوي، قال علي بن أبي طالب للعجوز:

ـ هل ستقولين «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»؟

فقالت له العجوز:

ـ واللات والعزى، لو قطعوا لساني قطعاً، ونشروني بالمنشار، ما قلت هذه الكلمات أبداً.

عندئذٍ أمسك بها علي بن أبي طالب وضربها ضربة شطرتها شطرين، وسارع الله بروحها إلى النار.

ثم رجع علي بن أبي طالب (ع)، إلى النبي محمد (ص)، فقال النبي:

ـ أي مسلم تزوج من إحدى تلكم الصبايا دخل الجنة.

وصلى الله على سيدنا محمد الكريم العليم وسلم. ❖

(٢)
حديث قصر الذهب
وقصة الثعبان مع علي بن أبي طالب (ع)

قال: روى لنا إسحق بن عبد الله، عن إسحق بن مالك بن قيصر جابر، عن عبد الله، عن أبي هريرة [عن] أنس بن مالك، عن معاذ، عن وهب بن منبه رحمه الله، عن النبي محمد (ص) قال:

أقام بنا رسول الله صلاة العصر ورأيناه ينظر للسماء ورأينا جبينه يتفصد عرقاً، فعلمنا حينئذٍ أن جبريل (ع) قد نزل عليه.

قلنا:

ـ يا حبيبنا يا رسول الله، أخبرنا بما أخبرك به أخوك جبريل.

فالتفت بوجهه المشرق إلينا وبدأ يحكي لنا خبر الأعرابي الذي سيأتي إلينا طالباً منا العون والنجدة.

ـ فاستقبلوه وقدموا له أنفسكم وأعدوا الجواب، فإن هذا الأعرابي سيدخل عليكم في يومكم هذا.

فوالله لم يكد النبي يتم كلامه ولا يكمل حديثه حتى أطل علينا أعرابي يركب ناقة تقذف الزبد من مشفرها مثل القطن المندوف، ولم يزل الأعرابي راكباً حتى وقف على باب المسجد وألقى السلام:

ـ سلام الخيرات عليكم، وغناء الطيور لكم، وكيف لا يكون ذلك وبينكم النبي المصطفى محمد؟

عندئذٍ برز له الإمام الصديق، الملقب بالعتيق، والمسمى بأبي بكر الصديق وقال له:

ـ يا أخا العرب، ألا ترى الوجه المشرق للسيد الذي يجلس بجوار المنبر؟، هذا هو محمد المصطفى، صلى الله عليه ما طلعت الشمس وازدهى القمر.

فترجل الأعرابي من فوق ناقته، وقال له:

ـ السلام عليك يا محمد خاصة، وعلى الصحابة عامة.

ـ يا صاحب السلام، من أنت؟

قال له:

ـ أنا عربي من بني قيس الكرام، لقد آمنا بك ولم نرك، ولقد صدقنا قولك، وبعثت لنا جماعة من قومك، فأقرأونا القرآن وأفهمونا البيان، وبينوا لنا النور من الظلام، وهدونا إلى صراط الحق، وعرفنا أنك النبي محمد المصطفى، فاعلم يا رسول الله، أن هناك حولنا وبجوارنا قلعة يقال لها «قصر الذهب»، وفيها ثعبان عظيم أهلك

شاءنا وأبقارنا وإبلنا، وقطع الطرق وأكل الرِّكاب والمشاة وأذل العباد، ولم تفلح معه أية قوة.

فبشرفك العظيم وكرمك السابغ ابعث لنا من يكفينا ويحمينا من شره وأذاه، فنحن مع الله ومعك يا رسول الله.

فلما سمع النبي محمد (ص) ذلك قال له:

ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال [الراوي] فدعا نبي الله المقداد بن الأسود الكندي وعمار بن ياسر القرشي وأبا حذيفة الأنصاري، ولم يزالوا ينهضون حتى اكتملوا أمام رسول الله ألف فارس.

ودعا الفضل بن العباس، وعلي بن أبي طالب (ع)، فلبس عدة الحرب وركب جواده، وكذلك فعل العباس، وجاءا معاً إلى حيث كان رسول الله. فقدم النبي (ص) علي بن أبي طالب قائداً للجيش، فتقدم أمام الناس وأخذ يقول:

ـ أجيبوا، فإن الحسنى لمن يجيب نداء الرحمن، (يوم) لا زاد إلا خشية الله، ولا فزع عند لقاء الصراط المستقيم، ولا دين إلا دين محمد، والحزن لمن اتبع ديناً آخر غير دين الإسلام.

قال الراوي:

والتفت علي بن أبي طالب (ع) والراية في يده اليمنى، وأخذ يدور ويقود الناس كي يمضوا قدماً حتى طلعوا على قبيلة من بني قيس، فخرجوا لاستقبالهم بترحيب شديد وتشريف كبير، وضربوا رحالهم وقدموا لهم الهدايا وأعدوا الأطعمة الكريمة ونحروا كثيراً من الشياه والأبقار من أجل علي بن أبي طالب وأصحابه، فأكل منها علي ورفاقه.

وبعد أن طعموا قال علي بن أبي طالب:

ـ كم يبعد من هنا قصر الذهب، ومن ذا يهدينا إليه؟

فقام حينئذٍ شيخ طاعن في السن وقال لهم:

ـ أيها السادة، أنا أدلكم على مكانه، وأنا أعرف الطريق من هنا إلى قصر الذهب.

قال علي بن أبي طالب (ع):

ـ أيها الشيخ الكريم، حدثني بأوصاف وأخبار ذلك القصر.

قال له العجوز:

ـ على الرحب والسعة يا علي، إنه قصر حصين، أبوابه من حديد، وأرضه من الأرجوان والعنبر. وقد بناه شداد بن عاد بن ثمود بن الملك عقين (؟) في زمن العماليق، وشيده ورفع بروجه الشاهقة، وزارها، وقد جعل لهذا القصر بابان في مكانين مختلفين، وشيدت حوله الأسوار العالية المنيعة، وقد طُلي بالجص حتى لتبدو أرضه من الخزف وأبوابه من العاج، وكسيت أجزاؤه بالذهب وأركانه بالفضة وأعمدته بالنحاس، ومواسيره بالرصاص، وأبراج

هذا القصر من الرخام الأبيض والملون، وقد شيدت جدرانه عظيمة الارتفاع، تحيط بها وتلمع من حولها الأنهار الجارية والأعشاب الخضراء والأشجار الباسقة والينابيع والسواقي. وقد أقيم ذلك القصر في مفترق طرق كثيرة، بعضها يذهب إلى اليمن وبعضها يقود إلى الشام، وكان ينزل به قبل الآن كثير من الملوك والأبطال، وذاع أمره في شرق الأرض وغربها حتى وصل إليه هذا الثعبان فأهلك حرثها وزرعها وماشيتها، وقطع الطريق وأفقر القرى والأماكن التي تحيط بالقصر.

قال الراوي:

فلما سمع علي بن أبي طالب (ع) ذلك هتف وقال:

ـ أين خالد بن الوليد المخزومي؟

فأجابه، ودعا المقداد بن الأسود الكندي وعمار بن ياسر القرشي وعمر بن أمية الضمري وقال لهم:

ـ اركبوا خيلكم واذهبوا إلى القصر وائتوني بأخباره.

فركب هؤلاء الفرسان وتقدموا يشقون طريقهم في أرض وعرة جرداء ليس فيها إنسان، أرض صلبة سوداء ليس فيها شخص يبادلونه الكلام ولا رقيب يسألونه عن الطريق إلا أسوأ الخلق من أبناء إبليس اللعين.

وساروا حتى أشرفوا على «قصر الذهب» ورأوا أبواب القصر، وكلما اقتربوا منه رأوا عموداً عالياً من الدخان ينبعث من داخل القصر فتوقف خالد وأصحابه حوله.

وقال عمار:

ـ نحن ننظر إلى باب القصر ونرى جبلاً أسود يخرج من القصر مثل الليل الحالك، والدخان يأتي إلينا كأنه جبل، ورأينا ونحن هكذا شكل ثعبان بالغ الضخامة يطل برأسه من باب القصر، يفتح فماً كأنه كهف، وتخرج من فمه أعمدة من الدخان تحرق ما حولها من عشب ونبات أخضر، ونسمع من حوله صوتاً كأنه رعد شديد.

ثم ظهر لنا ثعبان عظيم يزحف تارةً على بطنه وتارةً على ظهره، فأخذنا الخوف والرعب واضطربنا وارتجفنا وعدنا أدراجنا هاربين إلى حيث كان علي بن أبي طالب (ع).

فلما رآنا علي نهض على قدميه:

ـ لم أرى وجوهكم مصفرة وألوانكم مغبرة؟

حينئذٍ وصف له خالد بن الوليد صفة الثعبان والنار والدخان.

قال علي:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وركب عندئذٍ جواده، وأمر الناس بالركوب، وأخذ يقطع الطريق معهم طولاً وعرضاً حتى أشرفوا على «قصر الذهب» فرأوا قصراً شاهقاً يشع بنوره من كل جانب ومكان،

فحطوا رحالهم، ووضعوا الكرسي والبساط لعلي بن أبي طالب وجلسوا حوله عن يمينه ويساره.

ولم تمض ساعة حتى قال عمار بن ياسر القرشي:

ـ وبينما نحن جالسين هكذا إذ اندلعت علينا من باب القصر نار مرتفعة، فرأينا شررها كأنه جبال عالية تطير في الهواء، وغدت الأرض كلها كأنها جمرة من نار، وأدركتنا النار والدخان، فلما ابتعد عنا ذلك لم يبق منا أحد إلا أصيب بالكرب وسال منه العرق، واشتد بنا الفزع، وعظم علينا الأمر وهربت منا الخيل وقطعت الأعنة وعادت أدراجها على بعد ميل، ولم يبق من الخيل سوى جواد النبي محمد (ص) الذي ظل واقفاً أمام علي بن أبي طالب.

قال [الراوي] فلما رأى علي ذلك صاح بأعلى صوته:

ـ أيها الخيل المختبئ من الشدة، أجيبوا، وأطيعوا ابن عم رسول الله، وعودوا إلى أصحابكم.

قال الراوي، فلما سمعت الخيل كلام علي بن أبي طالب (ع) رجعت ووقفت أمامه، فنهض علي إليها ومسح وجوهها بكمه وزال عنها ما كان بها من خوف وفزع.

عندئذٍ قال لنا علي (ع):

ـ اركبوا خيلكم.

فركبنا.

قال راوي الحديث:

ـ فأخذنا الفزع والخوف مما رأينا من هذا الأمر العظيم.

ثم قال (ع):

ـ لا يأخذنكم الفزع والخوف من هذا الأمر، ولا تخافن مما رأيتم، فوالله لا يكن عندكم شك في أنكم سترون اليوم أمراً أعظم هولاً يشيب الصغير وتعجب منه الملائكة في السماوات.

قال خالد بن الوليد:

ـ وبينما كان علي (ع) يتحدث إلينا ونتحدث إليه إذ خرج علينا من باب القصر دخان أسود سد بسواده ما بين المشرق والمغرب، وأحاط بنا الدخان من على يميننا ويسارنا حتى لا يرى أحدنا الآخر من شدته، فارتجفنا وسمعنا أصواتاً عظيمة ودوياً هائلاً اهتزت له الأرض بطولها وعرضها، واشتد بنا الخوف والفزع وأيقنا جميعاً بالهلاك، بينما علي (ع) عنه يواسينا بحديثه، ويلتفت إلينا بكلامه الطيب، دون أن يظهر خوفاً أو فزعاً مثلنا، ولم تمض ساعة حتى تكشف ذلك لنا، ونظرنا إلى علي (ع) فإذا بغيظه يشتد ويتفاقم، وكانت فيه علامة عندما يشتد غيظه: إذ يحمر وجهه، فرؤيت عليه.

وقال خالد:

ـ تمالك نفسك، يا حبيبي يا أبا الحسن، تمالك غضبك!

فعاد إليه الصبر.

ثم قال: وعندئذٍ التفت إلى الزبير بن العوام وقال له:

يا عبد الله، ليس هذا مكان ركوب الخيل ولا زمانه، فترجل من فوق حصانك.

حينئذٍ ترجل الزبير وقال له:

ـ يا أبا الحسن، مرني بأمرك وسأكون لك طائعاً.

قال له علي (ع):

ـ يا أبا عبد الله، أتعينني اليوم على لقاء الموت؟

قال له:

ـ أجل يا ابن عم رسول الله.

قال له علي (ع):

ـ تأهب للموت.

وعند هذا ارتدى الزبير رداءه، ولبس حلته المزينة بالفضة، وامتطق سيفه، واتخذ عصابة ملونة فتعصب بها، وكان الزبير ممشوق القد، فذهب ووقف عن يمين علي بن أبي طالب (ع).

ثم التفت علي إلى قيس بن سعد وقال له:

ـ يا عبد الله، أو تعينني على لقاء الموت اليوم؟

قال له:

ـ أجل، يا ابن عم النبي (ص)..

فقال له:

ـ تأهب للموت.

عندئذٍ ترجل من فوق حصانه، وارتدى زرداً أملس وآخر مزيناً بالذهب، ووضع عصابة صفراء، وامتطق حسامه وسله من غمده، وأخذ مغفراً من الخيزران، ووقف على يمين علي بن أبي طالب (ع).

ثم التفت إلى المقداد بن الأسودِ الكندي وإلى عمار بن ياسر القرشي وقال لهما مثل ما قال للآخرين.

ثم أخذوا يستعدون وينتظمون ويقفون أمام علي (ع).

وقال لهم حينئذٍ:

ـ ترجلوا من فوق خيولكم، وأعيدوها للخلف.

وهكذا فعلوا.

ثم قال لهم:

ـ يا صحابي، لو هلكت بين يدي هذا الثعبان، ورأيتم أنكم لا قبل لكم به، فليهرب كل منكم إلى منجى يختبئ فيه بالداخل ويتغطى بالدرع، فإذا عاد الثعبان إلى القصر اركبوا خيلكم واذهبوا إلى النبي محمد (ص) وأخبروه بما حدث.

ثم ارتدى علي (ع) عدة الحرب، ووضع عصابة النبي محمد (ع)، وامتطق سيفه ذا الفقار، وأمسك الدرع بيسراه وكان لعمه حمزة بن عبد المطلب، وذهب إلى باب القصر، وصاح صيحة عظيمة وضرب عليه.

قال راوي الحديث:

فشعرنا من قوة صوته كأن السماء ستقع أو أن الأرض ستنشق، أو كأن الجبال ستزول عن أماكنها.

قال عمار:

ـ وبينما كنا كذلك إذا بباب القصر يخرج منه شرر عظيم ونار، فأصابنا فزع شديد.

[قال الراوي] عندئذٍ التفت إلينا علي (ع) وقال:

ـ ليس هذا العمل من فعل ثعبان من الثعابين، ولكنه لجان شرير، لا ريب أن هذا سيد القوم، وأن له قبائل كثيرة.

واستبد بنا الخوف والفزع، غير علي (ع)، إذ لم يخش شيئاً، بل بادر إلى باب القصر وهو يقرأ القرآن، وأخذت تتساقط عليه الأحجار كما لو كانت السماء ستقع عليه، واشتد الغيظ بعلي (ع)، فوالله ما استطعنا وما استطاع علي (ع) بلوغ القصر من لهيب النار وشدة الدخان.

فلما رأي علي بن أبي طالب ذلك التفت إلينا بوجه صبوح وقال:

اثبتوا وابقوا في هذا المكان، فورب المشرق والمغرب لن يغلبهم أحد غيري. فلو نجوت كان ذلك من فضل الله تعالى، ولو كانت الأخرى سيكون ذلك حكم الله الذي لا رب سواه وهو الحي القيوم، ولو حل أجلي فأبلغوا سلامي لرسول الله وللحسن والحسين ونساء النبي (ص).

فلما سمع المسلمون حديث علي بن أبي طالب (ع) ضجوا بالبكاء.

وأجابه الزبير بن العوام فقال:

ـ يا ابن عم رسول الله، وكيف يكون حالنا؟ وبأي وجه نقابل رسول الله تعالى؟ أولاً نذهب معك أو نموت دونك؟

قال له علي (ع):

ـ يا زبير، اثبت وابق في مكانك حتى ترى ما جرى به القلم، وما قضى به الله من قبل ومن بعد. ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم ودع على أصحابه، واقترب من باب القصر، وصاح صيحة شعرنا من قوتها أن السماء ستقع أو أن الأرض ستنشق أو أن الجبال ستزول عن مكانها.

وسمعنا صيحة أخرى من داخل القصر، واسودت الوجوده من الدخان، وفتح علي (ع) عنه باب القصر ودخله وغاب عنا ساعة. وسمعنا من داخل القصر دوياً كأنه الرعد، وبلغت الروح الحلقوم ونحن نقول:

وعدك يا من لا تخيب الوعد والرجاء، يا رب، يا الله، يا الله، بحق «طه» و«يس» والقرآن الكريم لا تجرح قلوبنا في علي، يا رب الناس بفضل «يس» و«قل هو الله أحد» وبقدرتك لا تحزن قلب الحسن والحسين، وقد وعدت نبيك (ع) أن تعينه، وأنت إذا وعدت لا تخلف الميعاد.

قال خالد بن الوليد:

فوالله لقد رأيت الزبير يمرغ خده في التراب ويقول:

ـ لقد ضيعتم علياً يا إخوة، وكنا نتعزى به وبصوته.

وتفاقم الصياح والدخان والنار المتصاعدة، واشتد الدخان على وجه الأرض، ولم نسمع علياً ولا صوته.

فقال الزبير بن العوّام:

ـ تعالوا معي إلى القصر، ولننظر ماذا فعل الله بعلي (ع)، فنطل عليه، ولتكن لنا ثقة في قدرة الله وفي كرامة نبيه (ص)، ونخبره بما حدث على وجه اليقين.

قال الراوي:

فلما اقتربنا من باب القصر اندلعت علينا النار من كل ناحية، واشتعلت أمامنا وخلفنا وتحتنا وفي كل ناحية، وخرج علينا من باب القصر تنين عظيم يقطع الأشجار التي يلقاها، ويحرق الأرض بنفسه وهو يلهث، ويسمع صوته من بعيد كأنه رعد شديد، وينبعث من عينه شرر من النار، وجاء نحونا مندفعاً فهربنا إلى جب، دخل كل منا فيه وتغطى بدرعه.

وحينئذٍ أحاط بنا التنين الذي خرج علينا من كل ناحية، ولم يمض إلا بعض ساعة، ثم ذهب إلى الخيل ونفث عليها بنفسه فأحرقها جميعاً فيما عدا حصان محمد (ص).

قال الزبير بن العوام:

ثم مضى، وخرجنا من الجب، ونظرنا إلى الخيل فوجدناها رماداً تذروه الرياح، فورب القبلة (لقد غمرنا) الحزن، الحزن لموت علي.

عندئذٍ أخذنا نبكي وأردنا أن نرجع، فرأينا رجلاً عجوزاً مر بنا، ضخم الهيكل، مليح الوجه، حسن الخلال معتدل الكلام. فلما اقترب منا قال لنا:

ـ يا أصحاب محمد (ع)، اعلموا أنكم لن تدركوا علي بن أبي طالب إلا ميتاً.

فقالوا له:

أيها العجوز، فماذا حدث له؟

قال:

ـ لقد اجتمع عليه من الجن الملعونين وأبطالهم ومن الشياطين الرجيمة خمسون ألفاً لقتاله، وأخذ يحاربهم وهو يدعوكم لغوثه.

فأخذنا العجب، ولم نعد نعرف ماذا نفعل، وأردنا أن نهدم الجدار، فإذا بمن يخرج علينا ويصيح فينا صيحة فعدنا هاربين إلى الجب، ودخل كل منا فيه وتغطى بالدرع فوقه.

قال الراوي:

ونعود إلى فاطمة، زوجة علي، وبنت النبي محمد (ص)، وكانت في بيت أم سلمة، فكشف الله بصرها وهي نائمة، وأراها الله علي بن أبي طالب زوجها في المنام، والقلعة والمعجزات والجن والعفاريت ومن يتشكل بأشكال مختلفة، ورأت ما حدث فصحت مذعورة.

فقالت لها أم سلمة:

ـ يا فاطمة، ماذا بك؟

فنهضت على رجليها وأخذت تصيح:

ـ يا حبيبي، يا (أبا) الحسن، روحي في روحك، ونفسي فداء لك.

ثم جاءت إلى جاريتها فضة وقالت لها:

ـ يا فضة، اذهبي إلى المسجد، ونادي أبي رسول الله (ص)، وقولي له أن يأتي لو أراد أن يدرك بنته حية، فهي تغالب سكرات الموت وتنتقل من هذا العالم إلى الدار الآخرة.

فذهبت إلى المسجد وقالت لسعيد أن يخبر النبي (ص) أن يأتي لو أراد أن يدرك بنته فاطمة الزهراء حية، قبل أن تنتقل من هذا العالم إلى الدار الآخرة، فهي تعاني سكرات الموت.

فدخل سعيد للنبي (ع) بهذا الخبر، فنهض على قدميه وأخذ يعدو على وجه الأرض ونعله في يده وهو يقول:

ـ ماذا سيحدث لي ولفاطمة الزهراء؟ وما هو الخبر الذي أفزعها؟ وكيف يحدث هذا ولا ينزل على حبيبي جبريل ولا يخبرني بما حدث لعلي بن أبي طالب (ع) وغفر له؟

ومضى حتى دخل بيت فاطمة بنته، فإذا بها في سقيفة البيت والدموع تجري على خديها كالغيث المنهمر، وكان والداها الحسن والحسين يمشيان أمامها وهي تبكي وتقول:

ـ يا ربي، يا كبير، لتكن مع علي، تعينه وتحميه!

فلما رآها النبي (ص) صاح بها قائلاً:

ـ يا قرة عيني، ماذا يبكيك؟ لا أبكى الله عينيك!

قالت:

ـ يا أبت، وكيف لا أبكي وعلي بن أبي طالب في غمرات الهلاك.

قال النبي:

ـ وكيف ذلك؟

قالت:

ـ يا أبت، كنت راقدة، ورأسي في حجر أم سلمة، فغلبني النوم وكشف بصري فرأيت في المنام علي بن أبي طالب (ع) تحيط به العفاريت والجن والشياطين، وقد اشتبك معهم في حرب ضروس تذيب الحديد، وقد بلغت المعركة من الاحتدام ما ترك علياً حيران لا يدري ماذا يفعل، غير أن يجاهد مع الجن ويقول:

ـ يا فاطمة، قولي لأبيك يبعث لي غوثاً فأنا في جهاد شديد، فوالله وبحبه لتغيثن علياً ولترحمن ولديه الحسن والحسين، فهما يبكيان ويقولان «يا جدنا، نسألك بالله العظيم أن تلطف بنا وبأبينا، بحق الله عليك».

فأخذها النبي (ص) إلى صدره وقبل بين عينيها، وقال:

ـ يا فاطمة، أعرف أن ما تقولين هو الحق، فربي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنا أترقب حبيبي جبريل (ع) كي ينزل علي.

فإذا بجبريل (ع) ينزل عليه ويقول له:

ـ السلام عليك يا محمد، ورحمته وبركاته. يا محمد، العلي يهديك السلام، ويخصك بالتكريم والاحترام، ويقول لك أبلغ فاطمة مني السلام وقل لها لا تبتئس ولا تهن ولا تحزن على زوجها علي فسأرده إليها سالماً معافى، يا محمد، لقد مددته بالملائكة المقربين. وإن ملكاً من هؤلاء الذين معه لو أمر بنزع السماوات والأرض لنزعها بما فيها من أشجار وأنهار، لا تهني ولا تحزني ولا تبكي فإن معه القدير الجبار، إنه لا يخذل من خلق وهو على كل شيء قدير.

قال [الراوي] فلما أخبرها النبي (ص) بما أبلغه إياه جبريل (ع) فرحت فرحاً عظيماً.

وعندئذ صلى النبي (ص) ركعتين وقال:

ـ يا الله، يا ربي، بحق خليلك إبراهيم، وبحق موسى الكليم، اكشف ما بيني وبين حبيبي علي (ع).

فسمع من يهتف به:

ـ انظر يا محمد، إلى ما لم يعطه نبي مثلك من الدرجات العلى، فلقد استجيب لك، وأعطيت ما طلبت مني، فمر الأرض بما أردت، فقد أمرها الله بأن تطيعك قبل أن يخلق آدم

(عليه السلام) بألف عام. فإذا جن الليل، ونامت العيون، ولم يبق في البيتين (الملكوتين) إلا الحي القيوم: فافعل ما تريد يا محمد.

فلما دجا الليل، ونامت الخلائق، أمسك فاطمة من يديها، والحسن، والحسين، وصعد بهم إلى ربوة عبدالله الأنصاري، لأنها كانت أعلى ربوة في المدينة، وصاح بالأرض أن تطوى، وأن تحضر القصر وأبوابه وحجراته وتنينه.

فإذا بالأرض تطوى، حتى أصبح القصر على مقربة أربعين ذراعاً من المدينة، ونظر رسول الله (ص) إلى القصر، وإلى علي بن أبي طالب (ع)، وإلى الجن والعفاريت والشياطين المحيطين بعلي بن أبي طالب من كل ناحية ومكان، وعلي يثخن فيه الضرب عن يمين وشمال.

فنادى النبي محمد (ص):

- دع قتل الجن والعفاريت، وعد لقتل التنين الملعون المجهول، فهو ملك هذا الفريق، وستغلبه بإذن الله.

فسمع علي (ع) صوت النبي (ص)، فعاد لقتل التنين، وصاح به صيحة مدوية، وحمل عليه بسيف النبي (ص)، وأعانه عليه جبريل (ع) ليقتله، فضربه ضربة شطرته نصفين، فذهب شطر في الشرق والآخر في الغرب.

فلما رأى الجن أن ملكهم قد مات جاءوا إلى علي وحملوا عليه، فأخذ علي يقول:

- وحق الله، لن أخشاكم ولو كنتم أكثر، فإن الله معي، وسيعينني عليكم.

وشرع علي يخترقهم ويحمل عليهم بشدة فيدخل في وسطهم ويخرج من مؤخرتهم، ويفعل فيهم ما يفعل الريح العاصف في البحر الهائج، والنار العاتية في الحطب الجاف. وأخذت الملائكة تعينه في القتال، ولم يزل يضرب فيهم حتى هزمهم، وجرت الدماء بين يديه كالأنهار الجارية.

عندئذٍ صاحت الجماعة:

- اعط الأمان يا علي.

فلما رفع عنهم السيف صاروا مسلمين بين يدي علي بن أبي طالب، وأمر النبي (ص) الأرض أن تعود بالقصر إلى مكانه، فرجعت قبل أن يرتد طرف العين مسيرة ثمانية أيام.

وخرج علي (ع) من القصر فلم يجد أصحابه، فذهب إلى الجب ونادى عليهم، فلما عرفوا صوت علي (ع) خرجوا إليه وعانقوه وقبلوا بين عينيه وقالوا:

- الحمد لله الذي أنعم علينا بعلي بن أبي طالب. ❖

(٣)
معركة الأشيب بن حنقر

روى لنا إسحق الكلبي أن رسول الله أقام بنا صلاة الظهر، ثم جلس يذكر من بقى من عباد الأصنام، فنهض العباس بن مرداس السلمِي وقال:

ـ يا رسول الله، بقي أشد الناس كفراً في أرض تيماء، وهو ملك يدعى الأشيب ابن حنقر العراش، وهو رجل ذو حيلة ومشورة، داهية، له مال وفير وقوم كثيرون، وهو بطل صنديد، يحسب على سرجه بألف فارس، يقدم له الجزية الملوك ويخضع له الفرسان خشية الهلاك، وعنده صنم لربة يعبدها من دون الله، على هيئة ديك، صدره من ذهب، ورأسه من فضة، أقام له قصراً وقبة من الرخام، يدخل إليه الهواء ويصفر مثل صياح الديك، وبداخله شيطان يتكلم بجميع اللغات.

قال رسول الله:

ـ لقد ذكرت لنا شيئاً غريباً عجيباً، فمن ذا يحمل كتابي إليه؟

قال العباس بن مرداس:

ـ أنا أحمله يا رسول الله.

قال النبي:

ـ يا علي، اكتب إليه.

فكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله، المناهض لمعصية الله، إليك يا أشيب بن حنقر العراش. أما بعد، فإن الله قد بعثني بشيراً ونذيراً، ورسولاً إلى الناس أدعوهم إلى طاعة الله وعبادته، واختار من الأديان دين الإسلام ديناً، بلغنا ما تعيش فيه من عبادة الأصنام، فاقرأ كتابي واسمع حجتي، وقل معي لا إله إلا الله محمد رسول الله، يكن لك ما لنا وعليك ما علينا، وإن لا فإذن بحرب من الله ورسوله. السلام على من اتبع الهدى وخشي عاقبة الضلال.

وأغلق الكتاب وختمه بخاتم النبي (ص)، وبعثه مع العباس بن مرداس إلى العراش، وأرسل معه ثمانية رجال. فساروا في الصحراء والوديان الشاسعة ومروا (بكثير) من البلاد، حتى بلغوا أرض تيماء.

وكان العباس يعرف العراش والأشيب، فلما وصل خرج إليه أهل تيماء يريدون أسره.

فقال العباس:

ـ انظروا فإني رسول إلى الملك، أعطوني الإذن للدخول إليه.

وسار العباس في قومه، وأخبروا الملك بحضوره، فأمر باستضافتهم، لكنه لم يرد أن يراهم حتى أخبروه بأنهم رسل محمد (ص). حينئذ أذن لهم بالدخول، فدخلوا إليه.

ورأوه جالساً على العرش، فنظر إلى العباس وقال له:

- فيم جئت يا عباس.

قال العباس:

- أيها الملك، لقد جئنا بالبيان والهدى والأمر الحميد، وعليك أن تترك ما أنت فيه، وتتخذ شجرة الأيمان ثم نهض العباس على قدميه وقال له:

- جئت إليك بالهدى يا ابن حنقر، ويح هؤلاء الذين يعلنون (مخالفتهم) له، فأئت بجوابك: إن أردت أن تكون تقياً صالحاً لهذا متبعاً للحق. فقد جئت أهديك بهذه الرسالة فلا تكن غافلاً لأنك تعبد الشيطان لعنه الله.

وأعطاه الرسالة، فلما عرف ما جاء فيها نزع التاج من فوق رأسه واللآلئ التي كانت على جبهته، ووقع من فوق كرسي العرش مغشياً عليه، وخار كما يخور الثور بين الأبقار.

حينئذٍ هرب منه قومه، فيما عدا العباس الذي ظل ينتظر الجواب.

فلما فاق من غشيته أعاد التاج إلى رأسه ورجع ليجلس على عرشه وقال:

- ويل لك، أو مثلي يهدد بالحرب والمعارك؟

وعندئذٍ أمر بأسر أصحاب محمد (ع)، ثم كتب إلى ملوك العرب ليخرجوا معه في حرب محمد بن عبدالله، فجاءوا إليه من كل حدب وصوب، فقال لهم:

- يا معشر العرب، إن يتيم بني غالب محمد قد بعث لنا بكتاب، وطلب منا ما طلبه من الآخرين، ولن يبلغ من هذا شيئاً إلا بابن عمه ابن أبي طالب، وأريد أن أختار منكم فارساً مثله كي يعيد له الجواب.

فقالوا جميعاً:

- أيها الملك القوي المكرم، لم تنجب العرب بطلاً شجاعاً، ولا أسداً هصوراً ولا فارساً أعظم من الأخضر بن مشفق، فارس العرب الذي يقدمونه للنزال إذا استبد الخوف بالأبطال.

عندئذٍ كتب له الملك خطاباً يقول:

«من الملك، صاحب الإلهة الكبرى، ملك تنوخ الأشيب بن حنقر العراش الشهير، إلى الفارس المكرم الأخضر. تعرف جيداً ما فعله محمد بن عبدالله من تحطيم الأصنام، وتكسير هبل واللات والعزى، وقتل حسام بن العطار وطنطرير وغيرهم كثيرين من الفرسان الشجعان. وقد كتب لي كتاباً، ولدي هنا جماعة من قومه، وأنا أريد وأثق فيك كي تخرج لحربه وقتال فرسانه، فلو قتلت علياً وهبتك ستمائة من الخيل ومائتين من الإبل ومائة عصابة رقيقة وخمسين أوقية من الفضة».

وأغلق الخطاب وأعطاه لواحد من رجاله يدعى الحام وكان مشاءً، فسار بالخطاب حتى سلمه للأخضر.

فلما قرأ الخطاب وما جاء فيه صاح صيحة اجتمع لها كل قومه، وكانوا عشرة آلاف فارس فتقدم معهم إلى تيماء.

فلما جاء الأشيب وأخبروه بحضور الأخضر أمر بإعداد لحوم وطعام كثير، وبأن يخرج من قومه عشرة آلاف فارس ليذهبوا إلى حرب محمد بن عبدالله، وأطلق سراح أصحاب محمد وكتب لهم كتاباً يقول فيه:

«بسم الملك العظيم الذي يقال له الأشيب، إليك يا محمد بن عبدالله، أما بعد يا يتيم قريش، فقد قرأت كتابك وفهمت خطابك وحديثك، وذكرتني بما كنت قد نسيت. أما قولك بأنك ستلقاني بجيوشك العظيمة الضخمة، وأنك انتصرت بهم في المعارك يوم بدر وحنين فو اللات والعزى لأسوقن إلى أرضك جيوشاً تدخل مقدمتها أرضك ومؤخرتها في أرضنا، ثم لأسيرن إليك».

ثم ختم الكتاب وأعطاه للعباس، وأمره بالسير. فسار العباس بالكتاب مع أصحابه وبلغوا المدينة وأعطوا الكتاب للنبي (ص) فقرأه يوم الجمعة من فوق المنبر.

فلما سمع المسلمون ذلك قالوا له:

ـ يا رسول الله، نذهب إليه ونحاربه حتى ولو كان معه فرسان كبار وخلق كثير.

عندئذ أمر النبي (ص) أن يستعدوا للخروج بعد ثلاثة أيام. فلما كان اليوم الرابع خرج معهم إلى أرض تيماء، وهم يرفعون الأعلام ويركبون الخيل، وقد كتب على كل علم «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

وكان علي لم يذهب إلى هذه المعركة، ووضع النبي (ص) عصابة طولها مائة وسبعون ذراعاً، ووضعها له حسان بن ثابت، وبعد أن وضعها تمنطق بسيف كتب عليه: «إن الله وملائكته يصلون على النبي، ذلكم حكم الله يحكم بينكم».

ثم ركب جواده السرحان، وخرج مع أصحابه فوصلوا إلى أرض تيماء.

فلما سمع الأشيب أن محمداً (ص) قد جاء، أمر أن يخرج لمبارزة أصحاب محمد رجل يدعى المقدام، وكان قائداً شهيراً ومعه عشرة آلاف فارس، فأرسله ليحارب محمداً (ع). فاشتبكا في معركة طاحنة حتى غلب وانتصر محمد (ص)، وعاد المقدم منهزماً فذهب إلى الأشيب وقال له:

ـ أيها الملك، اعلم أن محمداً قد جاء بفرسان أشداء. وباتوا تلك الليلة، فلما أصبح الله بصباح الخير، أرسل النبي (ص) سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر القرشي إلى المقدم بن الأزور الكندي وقال لهم:

ـ سيروا واعرفوا ماذا يفعل الأشيب.

فساروا حتى وصلوا قرب مدينة الأشيب، فلما أشرفوا عليها رأوا الأخضر يخرج عن المدينة بجيوشه، فلما رآهم الصحابة صعدوا على هضبة عالية، فهاجمهم الأخضر مع قومه، فعاد الصحابة هاربين وتبعهم بجيشه حتى بلغ جيش محمد (ص) والمسلمين الذين أخذوا يرمونهم بالنبال، فرجع الأخضر مع قواته وأقام بجيشه.

ثم لم يلبث أن خرج إلى الميدان بين الجيشين وصاح قائلاً:

- يا أصحاب محمد، أوفيكم من يخرج إلى النزال؟

فخرج إليه أحد المسلمين وكان يدعى العطب، فتصارعا طويلاً وحمل عليه الأخضر وضربه ضربة خر منها صريعاً على الأرض وسارع الله به إلى الجنة.

ثم عاد وطلب النزال، فخرج إليه مسلم يدعى أحمد، وجاهده جهاداً حقاً وتصارعا طويلاً حتى اشتد عليه الأخضر بضربة سقط لها على الأرض قتيلاً يرحمه الله.

ولم يزل يخرج إليه واحد إثر الآخر حتى أصبحوا أربعة عشر فارساً ماتوا جميعاً رحمهم الله.

عندئذٍ فزع المسلمون، ثم عاد الأخضر يطلب النزال قائلاً:

- يا محمد، أين الليث المعلم بالعجائب، الأسد المحمود الذي يريحك في الشدائد، علي بن أبي طالب؟

فلم يجبه أحد، وأخذ يسير بين الجيشين وهو يقول:

- أين الفارس المغوار، فلي رغبة في لقائه ونزاله؟ مرحباً بأن يخرج إلى زوج فاطمة.

فلم يجبه أحد، ثم عاد الأخضر إلى جيشه.

عندئذٍ اجتمع المسلمون حول النبي (ص) وقالوا له:

- يا رسول الله، ابعث لعلي رسولاً عسى أن يكشف الله عنا البلاء، ونحارب نحن قومه.

عندئذٍ نادى النبي حجر بن عدي وقال له:

- اركب مع مائة فارس بسرعة، وأحضر لي علياً.

فركب حجر بالليل، حتى لا يشعر به الكفار. ورآه أحد الكفار من قوم الأخضر فذهب يخبر الأخضر وقال له:

- اعلم أنهم ذاهبون ينادون الفارس المغوار.

قال الأخضر لواحد من أبناء عمه:

- خذ جماعة من الفرسان واذهب على إثرهم حتى تأسر الصحابة الذين مضوا لعلي.

فركب في رجاله، وذهب في أعقابهم، فلما أصبح النهار أدركهم عند نهر ذي منابع وثمار، وأسر جميع الفرسان المائة الذين كانوا في طريقهم لعلي.

قال راوي الغزوة: وفي تلك الليلة التي أسر فيها المسلمون رأى علي في المنام أن النبي (ص) يخبره بكل ما حدث مع الأخضر، وما كان يقوله، وكيف كان ينادي علياً في الميدان.

فلما استيقظ علي أدرك أن رسول الله (ص) في حرج شديد، فنهض علي، وركب حصانه وخرج من مدينة رسول الله، فطوى له الله الطريق والأرض، فوصل علي إليهم، إلى النهر الذي أسر عنده الفرسان المائة، فأنصت علي فسمع حجر بن عدي وهو يقول:

- يا رب، أعنا بيدي علي.

فلما سمع علي هذه الكلمات ودعوته عرفه وهمز جواده بالمهماز فقفز الجواد إلى الأمام مثل الأسد، وهبط بينهم علي ففك وثاق حجر ومن معه وقتل من الكفار مقتلة كبيرة، وأسر معظمهم وفر الباقون.

عندئذٍ حكى حجر لعلي ما كان يقوله الأخضر، وكيف كان ينادي عليه، فلما سمع علي ذلك ضحك وقال:

ـ يا حجر، خذ أسلاب الموتى والأسرى واحملهم للنبي (ع)، وأنا سأذهب في الطليعة من ناحية أخرى، وأخبر النبي (ص) بما حدث لك كي يستعدوا للنزال.

وسار علي، ومشى حجر مع قومه، فوصل علي ومعه أسرى كثيرون.

فلما رأى النبي (ص) علياً قال:

ـ الله أكبر، ها أنذا أرى علياً في المعركة. واحتضنه النبي (ص)، وقبل بين عينيه، وقال له:

ـ نعم ما جئت يا أبا الحسن، فأنت الذي تزيل الشدة من وجهي.

ثم أمر علي بأن تنصب خيمته مقابل خيمة الأخضر، وفرح المسلمون جميعاً بقدوم علي.

وكان علي قد قتل ابن عم الأخضر في ذلك الصباح، فغضب لهذا الأخضر من علي غضباً شديداً، والتف أصحاب الأخضر حوله.

وقالوا له:

ـ ما رأيك أيها القائد، إن تلك الخيمة لعلي؟

قال:

ـ من له مشورة منكم فليتقدم بها.

قال شيخ عجوز:

ـ أو رأيتم علياً في موقعة الصباح الضروس؟

قالوا:

ـ أجل وهو فارس مغوار غلاب.

قالوا:

ـ فماذا ترى من مشورة أيها الشيخ.

قال لهم العجوز:

ـ يبدو لي أننا نأخذ خمسة فرسان شجعان مختارين، فيخرجون إلى الميدان، ويطلبون نزال خمسة آخرين، فإذا أسروهم عادوا فأطلقوا سراح الخمسة الذين أسروهم، وهذا يكسر شوكة علي ويخيفهم منا.

قالوا:

ـ نعم المشورة هذه.

فلما أصبح الصباح، اختاروا خمسة فرسان، فخرجوا إلى الميدان، وطلبوا النزال مع خمسة آخرين من أصحاب محمد، فخرجوا إليهم وتقاتلوا، فأسروا أصحاب محمد ثم أطلقوهم فلما رأى النبي ذلك نظر إلى علي وقال:

- يا علي، أو لم تر ما فعله الكفار؟

قال:

- بلى يا رسول الله، لكن ومن بعثك بالحق لأرينّك اليوم العجائب، وأعظم من هذا بكثير حتى ترضى يا رسول الله.

ثم لم يلبث أن وضع سلاحه وامتطى جواده وخرج إليهم يصيح في الفرسان الخمسة حتى أسرهم جميعاً، ثم أطلق سراحهم.

فلما رأى الأخضر ذلك اشتد به الغيظ ووضع سلاحه وركب جواده وخرج إلى الميدان وحمل علي على حملة حقيقية، وظلا يتقاتلان ساعة من الزمان.

ثم صاح علي ضد الأخضر صيحة ثانية وأمسك بالسيف في يده اليسرى ودخل عليه وأمسك به من فوق سرجه وشد طوقه وقذفه على الأرض وقفز فوقه وأمسك به.

ثم انثنى إلى المسلمين وقال:

- احملوا عليهم.

فهجموا جميعاً بالسيوف الباترة وارتفع الغبار واشتغل أوار المعركة، وارتفعت كلمة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

فلما رأى الكفار الأخضر وقد وقع أسيراً صاحوا بالويل والهلاك.

وعندما سمع الملك بذلك وقع مغشياً عليه، حتى إذا أفاق قال لهم:

- يا معشر العرب، ماذا لديكم من مشورة؟

فنهض عجوز وقال:

- أيها الملك والسيد العظيم، لقد رأيتني في معارك كثيرة، ورأيتني في مآزق شديدة، بيد أني لم أر مطلقاً مثل الأمس، ومع ذلك فإني أرى أن تبعث له رسولاً كي يأتي لنزال الربة، فإن غلبها آمنا بالله وبرسوله.

قال الملك الأشيب:

- أيها العجوز، إني أقبل مشورتك، لكن من يذهب إليه ليحمل الرسالة؟

قال:

- أنا أذهب أيها الملك.

وركب جملاً، ومشى العجوز إلى النبي (ص) وقال له:

- يا رسول الله، يقول الأشيب ابعث علياً ليقاتل ربتنا، فإن غلبها آمنا بالله رباً واتخذناك رسولاً ونبياً حقاً.

فلما سمع النبي (ص) ذلك التفت إلى علي وقال له:

ـ ما رأيك يا علي في هذا؟

قال:

ـ أن أذهب يا رسول الله، حتى ولو كان هناك كثير من الجن.

وركب علي في ألف فارس، وقال له النبي (ص):

ـ اذهب يا علي وكسرها، وحطمها والله يعينك عليها.

فسار علي، وفعل ما أمره به النبي (ص).

ثم خرج الأشيب إلى ظاهر المدينة، وأمر بأن يحضروا له صنم الربة فأحضروه، وجاء علي في ألف فارس، فلما بلغوا الصنم أحاط به الشياطين والتفوا حوله وأثاروا غباراً كثيفاً، واضطربت الأرض وخرجت منها جيوش من الشياطين والجن الكثيرين.

فلما رأى الصحابة الذين جاءوا مع علي تلك الجيوش من الجن هربوا جميعاً وتركوا علياً وحده.

فلما رأى علي ذلك ترجل من فوق جواده وقال:

ـ أنا علي، الفارس المغوار في جميع الأحوال، الباتر الشهير، الغالب بقوة الله ربي.

يا معشر الجن اثبتوا لي وتحملوا ما سترونه مني من عذاب.

وحمل علي على الجن، وتقاتل معهم ساعة طويلة حتى هزمهم، وهرب كل الجن ولم يبق منهم أمام علي أحد.

ومضى علي إلى صنم الربة وقذفه على الأرض وداسه بقدميه وحطمه بسيفه ذي الفقار حتى لم يبق منه شيء.

فلما رأى الأشيب ما فعله علي بصنم الربة أسلم أمام علي، وأسلم جميع قومه وفرسانه وأبناء عمومته.

ثم عاد الأشيب إلى علي وقال له:

ـ اذهب إلى محمد، وأبلغه سلامي غداً سأذهب إليه إن شاء الله.

فذهب علي إلى النبي (ص) وأخبره بما فعل، وبما حدث لصنم الربة.

فلما أصبح الله بصباح الخير، جاءوا إلى النبي (ص)، وأكدوا إسلامهم بشدة، وأصبحوا جميعاً مسلمين ومن بينهم الأخضر.

وعاد النبي (ص) إلى مدينته فرحاً مسروراً منتصراً.

ولم يزل الأشيب والأخضر يحاربون معه حتى جاءهم الموت.

هذا ما بلغنا من الحديث، وصلى الله على سيدنا محمد الكريم وسلم تسليماً. ❖

(٤)
معركة الملك المهلهل بن الفياض

(تكليف رسول الله لخالد بن الوليد لقتاله وكيف وقع خالد أسيراً ونجدة علي بن أبي طالب (ع) له وإنقاذه من الأسر وقتله للمهلهل).

روى عن الفضل بن العباس رحمه الله قال:

صلى رسول الله (ص) صلاة الصبح بنا يوماً، ثم التفت بوجه صبوح إلى المهاجرين والأنصار، وكان ذلك ليبلغهم أنباء السماوات والأرض، أو قليلاً منها، فوقفوا إليه وأخذ يبكي بكاءً حتى ابتلت ثيابه بدموعه وقال:

ـ يا بلال، اذهب إلى أحياء المدينة وناد للصلاة الجامعة مع نبيكم يرحمكم الله.

فنادى بلال، وجاء الناس لسماع ما يقوله النبي (ص)، وصعد النبي إلى المنبر، وألقى خطبة تامة، بكى لسماعها الحاضرون بالدموع، واشتدت رغبتهم في الجنة، وخوفهم من نار جهنم، فحثهم على الجهاد وبين أفضاله وقال:

ـ يا صحابتي، لقد أبلغني أخي جبريل أنه يأتي إلى أرضنا عدو لعين وشيطان رجيم قوي لا يقدر عليه أحد، يدعى المهلهل بن الفياض ومعه مائة ألف فارس، وخمسون ألف راجل، وأربعون ألف عبد أسود، يأتون لحربي وحربكم، فبماذا تجيبون نبيكم؟ وبم تشيرون عليَّ رحمكم الله؟

وعندئذ اضطرب الناس، وقام من بينهم أبو بكر الصديق وقال:

ـ يا محمد، نحن سيفك القاطع ورمحك الطائل وحجارتك الكاسرة وسهامك الجارحة وأفراسك الجارية، وسنضرب ونضرب حتى نموت بين يديك، صلى الله عليك وسلم.

فقال النبي:

ـ حفظك الله ورعاك يا أبا بكر.

وقال مرة أخرى:

ـ ما تقولون لنبيكم؟

فاضطرب الناس، ونهض عمر بن الخطاب وقال:

ـ يا محمد، إذا جاء هؤلاء الناس إلى أرضنا سنذهب إلى بيوتنا ونسرج خيولنا، ونأخذ سيوفنا، ونضع أسلحتنا ونضرب ونُضرب حتى نموت جميعاً بين يديك صلى الله عليك.

فأثنى عليه نبينا (ص) ثم قال مرة أخرى:

ـ ماذا تقولون لنبيكم وبم تجيبونه رحمكم الله؟

فاضطرب الناس ونهض عثمان بن عفان وقال:

- يا رسول الله، إذا جاءت هذه الجيوش إلى أرضنا أغلقنا أبوابنا، وسأقدم لأهل هذه المدينة من كبير وصغير، وحر وعبد، وذكر وأنثى، ما أملك من مال وكنز ومتاع هدية لك يا رسول الله، صلى الله عليك.

فلم يلبث أن قال مرة أخرى:

- ماذا تقولون؟ وبم تجيبون نبيكم رحمكم الله؟

فاضطرب الناس، ونهض سيد الأبطال، وفاعل الأعاجيب، وغالب المعارك أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال:

- يا رسول الله، إذا جاء هؤلاء الناس إلى أرضنا نأمر لهم بالإقامة حتى ينزلوا ويقيموا في فسحة عظيمة، ونخرج لهم من مديتنا سلالاً وأطباقاً من التمر والزبيب، ويظلون في ضيافتنا ثلاثة أيام، ثم أذهب إلى بيتي، وأركب جوادي، وذو الفقار في يدي، وأضع درع عمي حمزة، وشارة عمي العباس، وأقف على باب المدينة، فلا يخرج صغير ولا كبير ولا حر ولا عبد سواي، وأضربهم ويضربونني حتى أموت بين يديك صلى الله عليك.

ولم يزل النبي (ص) يعد الفرسان واحداً بعد الآخر، والمشاة كذلك حتى استكمل النبي (ص) جيشه ثم قال:

- يا جماعة المسلمين، اذهبوا إلى بيوتكم، وخذوا عدتكم للحرب.

قال [الراوي]:

فقام أحد صحابة النبي (ص) ويدعى أبا محمد الخراساني وقال:

- يا محمد، كنا في زمننا إذا جاءتنا أخبار من الملوك وأبناء الملوك كتبنا إليهم رسائل وبعثنا لهم بالرسل، فلو فعلوا بما في الكتاب كان عليهم ما علينا، فاكتب لهم يا رسول الله، فإن أطاعوا كتابك كان لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإن عصوا أمرك حاربناهم بجيوشنا من فرسان ومشاة وسيؤيدك الله بعونه وينصرك عليهم وهو على كل شيء قدير.

وعندئذٍ نزل جبريل (ع) وقال:

- يا محمد، إن السلام يهديك السلام، ويقول لك إن ما قاله الخراساني خير وأفضل، فاكتب له كتاباً وابعث به رسولاً فإن امتثلوا لما تأمرهم به في كتابك كان لهم ما لك وعليهم ما عليك، وإن عصوا ما تأمرهم به في كتابك حاربتهم بقومك من فرسان ومشاة والله يعينك عليهم.

فنادى النبي (ص) بلالاً وقال له:

- اذهب إلى بيت عائشة، وأحضر لي القلم وأدوات الكتابة.

فجاء بلال بها وأخرج النبي (ص) ورقاً ونادى علياً رضي الله عنه وقال له:

- يا ابن عمي اكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبدالله داعي العصاة من ملوك الأرض إلى الإيمان والطاعة لما أمر الله أن يجتمع عليه العرب من التصديق بكلمة التطهير وقول الحق من لا إله إلا الله محمد رسول الله، إليك يا مهلهل بن الفياض، وإلى قومك وفرسانك ومشاتك وعبيدك وبلادك ومدنك، ومن فيهم ممن يسكن الجبال والقرى وينزل المنازل في كل أرضك، فإن وصل كتابي إليك فأسلم لله العلي وقل: «لا إله إلا الله وأني رسول الله» تفز في الدنيا والآخرة، فإن أبيت ذلك فأذن بحرب من الله ورسوله، وسيعيننا الله عليك ويؤيدنا بنصره إنه على كل شيء قدير، والسلام على من اتبع الهدى وخشى عاقبة الضلال».

وختم الكتاب بخاتمه، ووضعه في يده الشريفة وقال:

- أيها الصحابة، أليس فيكم من يعرف هذا العدو اللعين، فإني أريد أن يخبرني بأوصافه؟

فلم يرد عليه أحد، فأعاد قوله مرة ثانية وثالثة دون أن يجيبه أحد.

عندئذ جاء جبريل (ع) وقال له:

- يا محمد، أين صاحبك خالد؟

قال [الراوي] فوقف حينئذ في مسجد النبي ولم يره، وقال النبي (ص):

- يا بلال، اذهب إلى بيت خالد، فإن كان مريضاً عدناه، وإن كان في الطريق انتظرناه، وإن كان في بيته قل له إن رسول الله يدعوه كي يأتي إلى المسجد.

وذهب بلال، وطرق الباب، فقال خالد:

- من الطارق يرحمه الله؟

قال:

- بلال خادم رسول الله (ص).

فقال له:

- وماذا تريد؟

قال:

- رسول الله (ص) يدعوك إلى المسجد.

فقال:

- سمعاً وطاعة لله ورسوله وللمؤمنين.

ثم دخل بيته، ووضع عصابته على رأسه، وتوشح سيفه، وجاء إلى مسجد رسول الله (ص)، وألقى السلام على النبي وعلى الصحابة، فقال له النبي:

- يا خالد، ما منعك عنا؟ يا أخي يا خالد، ألم تسمع بلال وهو ينادي للصلاة الجامعة مع نبيكم يرحمكم الله؟

فبكى خالد بكاءً شديداً، وبكى النبي (ص) لبكائه.

ثم قال:

- يا رسول الله منذ ثلاثة أيام لم توقد نار في داري، ولم يخرج منها دخان، ولدي ثلاثة أبناء وثلاث بنات ألعب معهم حتى يأخذهم النوم على شدة الجوع.

قال [الراوي] فلما سمع المهاجرون والأنصار ذلك خرجوا إلى بيوتهم، فمن أراد منهم الصدقة الخفية ذهب بها إلى بيته، ومن أراد منهم العلن جاء بها إلى محضر النبي (ص).

فوضع النبي (ص) يده المباركة في الطعام ودعا الله بالبركة:

وقال:

- يا أخي، يا خالد، احمله إلى بيتك، وكل من هذا الطعام وأطعم منه زوجك وأولادك وعد إلينا إن شاء الله.

قال [الراوي] ففعل خالد ما أمر به النبي (ص)، ثم جاء إلى المسجد، فقال النبي:

- يا خالد، أتعرف من سأبعثك إليه من الأعداء الملعونين والشياطين الضالين من يدعى المهلهل بن الفياض؟

فقال له:

- يا رسول الله، إني أعرفه كما أعرف ثيابي هذه.

فقال النبي (ص):

- أخبرني يا خالد بشيء من صفته.

قال خالد:

- هذا العدو اللعين يا رسول الله فارس عظيم الشجاعة واسع الحيلة، فإذا ركب فرسه ركب معه مائة ألف فارس وخمسون ألف راجل وأربعون ألف عبد أسود، ولديه من الشجاعة والقدرة ما يجعله يخرج لنزال ألف فارس.

فقال النبي (ص):

- يا خالد، أتود أن تحمل له هذا الكتاب وتعود إلينا بالجواب وأنا كفيل لك عند الله تعالى بأن يدخلك الجنة؟

قال خالد:

- أجل، تكريماً لك وطاعة لله تعالى.

وذهب إلى بيته، وودع زوجته وأولاده واحتضنهم، وتوشح بسيفه وركب جواده، وجاء إلى المسجد رسول الله (ص) فقال له النبي:

- يا أخي، يا خالد، خذ هذا الكتاب.

فأخذه ووضعه في طرف عصابته ثم وضعها على رأسه، وودع المهاجرين والأنصار، ثم قال له النبي (ص):

- يا أخي، يا خالد، إذا طلعت جبلاً فاذكر الله، وإذا مررت بواد فكبر الله، وإذا وجدت في قلبك حَزَناً فاتل من القرآن فإن القرآن شفاءً للصدور المحزونة، وإذا بلغت هؤلاء القوم فلا يداخل قلبك الفزع ولا الخوف منهم، وسلم الرسالة للمهلهل وعد إلينا بالرد إن شاء الله عز وجل.

ثم خرج خالد من باب المدينة، ولم يكف عن السير الحثيث ليلاً ونهاراً حتى دخل في أرض موحشة من دخل إليها فهو مفقود ومن خرج منها فهو مولود، وعندئذٍ وقع جواد خالد، فقد كانت أرضاً شديدة الحر، ليس فيها ماء ولا زرع، فوقع من شدة الجوع والعطش، فوقف عندئذٍ خالد إلى جواده وقال له:

- يا جوادي، أتتركني يا صاحبي؟ أتتركني هنا؟

قال له هذه الكلمة التي لا يمكن أن يضطرب من يقولها: «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

ثم وضع ثيابه في حزامه، وحمل السرج على عاتقه، وأمسك باللجام في يده، وترك الحصان على الأرض، وسار مسافة فرسخين، فحدثته نفسه أن يعود إلى الحصان فقد يجده ميتاً:

- ستعلم أن الموت ينفث بينك وبينه.

فترك السرج على الأرض وعاد لحصانه، فوجد نفسه؛ أعني روحه تخرج شيئاً فشيئاً فقال:

- يا حصان، أولاً تعلم أن معي كتاباً خطه علي وختمه النبي (ص) بخاتمه؟ آمرك بحق الله العظيم أن تنهض على قوائمك حتى أسلم الرسالة وأعود بالجواب إلى رسول الله إن شاء الله عز وجل.

فلم يتم كلمته حتى نهض الحصان على قوائمه، وضرب الأرض بحوافره، فأعاد اللجام إلى فمه، وجاء به إلى سرجه ووضعه عليه، وسار خالد على قدميه، والحصان يتبعه مسافة فرسخين فوجد أمامه جبلاً شاهقاً كان الناس قد اعتصموا فيه من الطوفان، سحقهم

الله. ولم يكن في هذا الجبل سوى الصخور والحجارة الغلاظ وقليل من الشجر، ولم يكن فيه من طريق غير سراط النمل.

ولم يلبث خالد أن صعد قليلاً قليلاً برفق حتى بلغ قمة الجبل، ووقف عندئذ خالد، ورأى في أسفل الجبل وادياً رائعاً عجيباً تظله الأشجار وتجري من تحته الأنهار. ولم يلبث خالد أن أخذ يمر ويمر حتى هبط، ورأى في هذا الوادي جيشاً ضخماً، فلما نزل كان لا يكاد يمر إلا فوق خيمة أو على حديد الرماح أو فوق شبا السيوف أو على رؤوس الخيل، وكل هؤلاء الناس كانوا كافرين بالله، يأكلون من نعمته ويعبدون سواه، فقال:

ـ يا حصان كل من هذا الذي منحك الله من رزق.

فطعم الحصان من تلك الأعشاب وشرب من هذه المياه، وكان خالد قد بلغ منه التعب والجهد مداه.

فقال خالد:

ـ يا حصان، آمرك بحق الله العلي أن تحرسني قليلاً حتى أنام بعض الوقت.

وخلع درعه، وضم سيفه إلى صدره وغشيه النعاس فنام. فوجد حصانه يضرب الأرض بحافريه، فشعر به خالد واستيقظ من نومه مذعوراً فوضع رجليه في الركاب وامتطى صهورة جواده حتى استوى على سرجه ووقف حينئذ بين تلك الأشجار فرأى ألف فارس قادمين نحوه، لا يبدو عليهم أن يهربوا أمام شخص، ولا يخشون أي شيء، وليس عليهم أثر للتعب، قد أطلقوا لخيولهم العنان، وشرعوا في أيديهم الرماح، وعلى رأسهم فارس صنديد، مدجج بالسلاح، جاء حتى وقف بين يدي خالد وقال له:

ـ حمتك الإلهة المعظمة، السيدة المكرمة.

فقال له خالد:

ـ ما ولدت إلا لأم سوء، يا ابن الفحش، لا أب لك ولا أم ولا تعرف كيف نشأت. السلام على من اتبع الهدى وحاد عن الضلال، واستحى من الملك الذي يراه ولا يُراه، وهو في الملأ الأعلى.

فقالوا له:

ـ هذا السلام لا نعرفه، وهذا الكلام لا نفهمه، ونظن أنك من أرض الحجاز (من عند) أبي القاسم.

وقال الفارس لخالد:

ـ ترجل من فوق حصانك، وخذ عصابتك من فوق رأسك وضعها في رقبتك، فسنحملك إلى سيدنا وكبيرنا وملكنا المسمى المهلهل، فإن أراد قتلك قتلناك، وإن أراد إطلاقك أطلقناك.

فقال له خالد:

ـ وكيف تكون هذه الكلمات والأسباب شبيهة بما قلت؟

ثم قال خالد:

ـ فتح بيني وبينكم باب الحرب.

وضرب خالد جواده بالمهماز وصاح في هؤلاء القوم صيحات شديدة ودخل فيهم يميناً وشمالاً، ووقف حينئذ عند هؤلاء الناس فوجدهم ضعافاً ووجد أنهم قد فقدوا مائة فارس في تلك الهجمة فقالوا:

ـ يا قوم، ما أسوأ ما حدث لنا، فاكتموا هذا الأمر واجعلوه سراً ولا يكن بيننا نزال أكثر من ذلك فإن الرجال في القصور والنساء في المغازل سيقولون «فارس بمفرده حارب ألف فارس وغلبهم» وليس ظن الملك المهلهل فينا ذلك، فلا ينبغي لأحد أن يغلبنا.

وفي تلك الأثناء تفرقوا أشتاتاً.

ثم جاء خالد إلى نهر وتطهر وغسل ما علق به من دم، ولم يتوقف إلا قليلاً، إذ لم يلبث أن جاءه خادم الملك المهلهل وكان يدعى بحيطان الجبل، لأنه كان مثل النخلة في الطول، وكان له عينان مثل البرق وأذنان مثل الدرعين وأنفان مثل البوقين، وكان ضخم الهيكل كالبرج، فإذا تدث بدا كأنه رعد يرعد، وكانت يداه مثل الرحى وقدماه كأنهما جداران، وفي أذنيه قرطان من الذهب الخالص وفي فمه حجر من الياقوت البهرمان، وعلى رأسه عصابتان كأنهما ربوتان، وكان معه رمحان، أحدهما في يده اليمنى والآخر في يده اليسرى، وفي يده كتلة من حديد، وأمامه قطيع من الإبل يوردها الماء، فرأوا حصان خالد على الماء فتفرقوا أشتاتاً يميناً وشمالاً.

فقال راعي الإبل:

ـ ما هذا؟ أو ليس ذلك هو الماء الذي تردونه كل يوم، والآن تتفرقوا عنه كما لو كانت عليه إبل الحجاز (من لدن) أبي القاسم.

ثم قال [الراوي] فسمع خالد هذه الكلمات وقال:

ـ هكذا تخشى الإبل النبي (ص).

وقال:

ـ يا حصان، آمرك بحق الله العلي الكبير أن لا تبرح هذا المكان حتى أعود إليك إن شاء الله.

ووضع ثيابه في حزامه، وعبر النهر إلى الضفة الأخرى حيث كان الفتى.

وقال الفتى:

ـ عليك السلام والخير من الإلهة العظمى والسيدة المكرمة لا يلبث أن يكون مردوداً منك.

فقال خالد:

ـ يا لسوء ما ولدتك أمك، يا ابن الفحش، لا أب لك ولا أم ولا تدري كيف نشأت، السلام على من اتبع الهدى وحاد عن الضلال، واستحى من الملك الذي يراه ولا يُرى، وهو في الملأ الأعلى، قال الفتى:

ـ هذا السلام لا أعرفه، وتلك الكلمات لا أفهمها، وأحسب أنك من أرض الحجاز (من لدن) أبي القاسم، كما أظن أنك ساحر من الذين يقولون السحر، امدحني قبل أن تمتدح الملك أو ابن الملك وأنا أعطيك هبة تجعلك تذهل من الدهشة والرهبة.

قال له خالد:

ـ أيها الراعي، أنا لا أذهل من رهبتك، بل من أعمالك الطيبة.

قال الفتى:

ـ فلتعنك الربة العظمى السيدة المكرمة.

قال له خالد:

ـ صه يا فاجر يا ابن العجوز العوراء.

قال الراعي لخالد:

ـ خذ عصابتك من رأسك، وضعها في رقبتك، وسأحملك أمام ملكنا وكبيرنا المهلهل بن الفياض وستجد لديه المديح العظيم للعرب وللفرسان والقواد والسادة الخاضعين لحكم الملك المهلهل.

قال له خالد:

ـ أيها العبد الحقير، أو تحدث مثلي بمثل هذا الحديث الأخرق؟ وفي هذه الأثناء أخذ يلعب بالكتلة في يده ويقذفها إلى السماء ثم يتلقاها في كفه، ويقذفها لتصيب خالد فينحرف عنها فتهبط كتلة الحديد إلى حيث كان يقف خالد وتغرس في الأرض ثلاثة أشبار وهي ترتج مثل الغصن في الماء الجاري.

فقال له:

ـ يا أخ الحجاز وأبا القاسم، لم تكف عن سحرك، فلقد سحرت كتلتي تلك التي كانت في يدي.

قال له خالد:

- بئسما كانت أمك يا ابن الفاجر، يا عديم الأب الشريف.

إذا بخالد ينقض عليه مثل النسر الذي يهبط من السماء ويعصره بين ذراعيه حتى ليشعر الفتى أن اللبن الذي رضعه من ثدي أمه يخرج من بين أظافره، ثم يرفعه إلى أعلى ويرمي به في الأرض ويقف على صدره، فيقول له الفتى:

- سيدي، خذ مني الفدية.

فيقول خالد:

- بشرني، وما هي فديتك.

قال الفتى:

- سأعطيك عشر أوقيات من الذهب الأحمر، وعشر أوقيات من الفضة البيضاء وعشر أوقيات من الذهب الأصفر وعشرة أفراس مختارة وعشر نوق محملة بالقمح والشعير وعشرة رجال يحملونك إلى أرضك.

قال خالد:

- هذا شيء لا أريده منك.

قال الفتى:

- فماذا تريد مني؟

قال خالد:

- أن تأخذ عصابة رأسك، وتصعد إلى قمة الجبل، وتنادي العرب بالعربية، والعرب المستعربة، وعرب هزار ونزار وابن عبد الدار، ولا أريد منك شيئاً آخر.

قال له الفتى:

- أبشر يا سيدي.

فنزل خالد من فوق صدره، وأخذ العبد يرتجف مثلما يرتجف العود في الماء الجاري أمام خالد.

وأطل العبد من قمة الجبل، وذهب خالد إلى حصانه، وأخذ العبد يصيح بأعلى صوته وينادي في العرب كما أمره خالد، والعرب يقولون له:

- ما الذي تدعوه أيها العبد المكرم؟

فيقول لهم:

- أخبركم بأمر عظيم، بأن في هذا الوادي رجلاً كأنه ملك الموت، قابض الأرواح، وكأن الموت يخرج من حديد رمحه.

عندئذ تحدث الذين بقوا من الفرسان الألف وقالوا:

ـ حقاً ما تقول أيها العبد الشريف.

قال [الراوي] فلما جاءوا إلى الوادي، ووجدوا خالداً على جواده قد استوى على سرجه، يبدو كما لو كان الموت يخرج من رمحه، فقالوا له:

ـ حمتك الربة العظيمة والسيدة المكرمة ولا تزال محمودة منك.

فقال لهم خالد:

ـ بئسما أنتم عليه يا أبناء الفاجر، السلام على من اتبع الهدى والحق وحاد عن الضلال، ورجع عن عاقبة الشر، واستحى من الله الذي يرى الجميع ولا يراه أحد وهو في الملأ الأعلى.

فقالوا:

ـ هذا السلام لا نفهمه، وتلك الكلمات لا نعرفها، ونظن أنك من أرض الحجاز (من لدن) أبي القاسم، وأنك أحد السحرة الذين يمشون لقول السحر لسيدنا وكبيرنا وملكنا المهلهل بن الفياض. فإذا كنت مبعوثاً بكتب أو ما يشبهها إلى ملكنا وسيدنا وقائدنا فأعطنا الكتاب وسنرد لك الجواب وتعود لأصحابك.

فقال لهم خالد:

ـ أما قولكم بأني ساحر فليس بحق، وأما أني رسول أحمل كتاباً فأجل.

عندئذ انصرف عنه القوم إلا قليلاً منهم، وجاءوا إلى الملك وقالوا له:

ـ الآن، أيها الملك المهلهل، رعتك الربة المعظمة، والسيدة (المكرمة)، ولا زالت ممدوحة من قبلك، يا مولانا، أتريد أن تلقى من أرض الحجاز (عند) أبي القاسم. فهو قد بعث لك برسول يحمل كتاباً فيه توسلات إليك يا مولانا، فهو يريد أن يدخل في طاعتك ويدفع لك الجزية، ويريد أن يخضع لك، فتلقاه يا مولانا.

فأمر الملك بأن تقام خيمة لخالد من الحرير الأبيض، وأن تشد بحال من الحرير الأخضر، وأن تكون قضبانها من النحاس الأحمر وأن تزخرف بالحرير والديباج من أثمن ما يعرف في وقته، وجاءوا بخالد إلى الخيمة، فوقف خالد عندها، وترجل من فوق حصانه، أحضروا له طعاماً كثيراً كي يأكل، وشعيراً لحصانه. فقال لهم خالد:

ـ إذا كنتم تقومون بذلك بواجبات الإكرام فإني لن آكل من هذا الطعام.

قالوا له:

ـ يا سيد، فما هو طعامك عندنا؟

قال لهم:

- أحضروا لي شعيراً ورحى حتى أطحن الشعير بيدي، وأحضروا لي ناراً وسأطهو الأكل بالليل فإني لا أطعم نهاراً.

فصنعوا ما طلبه خالد.

وظل خالد في هذا الإكرام سبعة أيام، حتى إذا انتهى سابع يوم جاء القواد والفرسان والسادة المختصون بخدمة الملك وقالوا له:

- يا مولانا، الحرب خدعة، ضع التاج على رأسك، والعصابة الملكية على جبهتك، وتزين بحليك وجواهرك، وضع خواتمك في أصابعك وسيف الملك في ذراعيك، والبس أشرف ثيابك.

ففعل الملك ذلك، وأمر بأن يقوم عن يمينه خمسون ألف فارس وعن يساره خمسون ألف فارس، وأن يقوم عشرون ألف عبد من أرض اليمن عن يمينه، وعشرون ألفاً عن يساره.

وجاءوا لخالد، وقالوا له:

- يا صاحب الحجاز (من لدن) أبي القاسم، مولانا يدعوك كي تعطيه الكتاب وترجع بالجواب وتذهب إلى أرضك.

قال خالد:

- أنا أطيع الله ثم رسوله.

قال [الراوي] فوضع خالد قدمه في الركاب وركب حصانه واستوى بين شقي سرجه، وعندما خرج خالد من خيمته وقف ينظر لهذه الجموع الكبيرة وهي في تلك الحالة، وقال خالد:

- لماذا أراكم جميعاً مترجلين شيوخاً وشباباً؟ وحق الله لأضربنكم برمحي وسيفي أو تؤمنون بالله العلي العليم بكل شيء.

فقال بعضهم لبعض:

- ألا تسمعون ما يقول من سحر؟

وقال الذين لم يفهموا كلماته:

- ماذا يقول في سحره؟

فقال الذين فهموا عنه:

- يقول إنه سيضربكم برمحه وسيفه أو تؤمنون بما يؤمن به وتعبدون ما يعبده.

فجزعوا مما قال وتشتتوا، وذهب خالد حتى وقف أمام الملك المهلهل فوجده واقفاً في مكانه وأمامه صنم لربة من الذهب يتدلى منها الياقوت والجوهر، والملك يسجد لها من دون الله.

قال [الراوي] فرأوا خالداً يدور بحصانه ويختفي به ثم يعود فقال له أحد أتباع الملك:

- يا [أخ] الحجاز (من لدن) أبي القاسم، أنتم قوم ذوو شرف رفيع وعادات طيبة، أدر وجهك إلى مولانا الملك وأعطه الرسالة لتعود بالجواب.

قال له خالد:

- لن أدير له وجهي حتى يرمي ما بين يديه.

عندئذ أمر الملك بإبعاد الربة.

فالتفت خالد إليه بوجهه وتناول الكتاب من عصابته فأمر الملك بإبعاد صنم الإلهة. وعندئذ أقبل خالد بوجهه وأخذ الكتاب من عصابته وهم بأن يعطيه إياه، فأراد الملك أن يتسلمه بيده اليسرى، فنقل خالد الرسالة من يده اليمنى إلى يده اليسرى، وأمسك السيف بيمناه، وقال له خالد:

- يا عدو الله، هذا الكتاب خطه علي، وختمه النبي (ص) بخاتمه، فامدد يديك اليمنى شلت يسراك، فهذا الكتاب لا ينبغي أن يؤخذ سوى باليد اليمنى.

قال [الراوي] فسحب الملك يده اليسرى ومد اليمنى وأعطاه خالد الكتاب وقرأه الملك، فاسود وجهه وتغير لونه واحمرت أوداجه، وقال الملك لوزرائه:

- منيتموني بالأكاذيب، وقلتم لي أنه سيدفع الجزية لي، وسيخضع لأمري.

فقالوا له:

- يا سيدنا، أخبرنا بما في الكتاب وما قاله لك.

عندئذ قرأ عليهم الرسالة علناً وقال:

- إليك يا مهلهل وإلى قومك وجيرانك ومدنك ومن فيها، وإلى من في الجبال والقلاع والقرى والوديان، وإلى كل من يقع في سيادتك وملكك، فإن وصل كتابي إليكم فأسلم لله وحده، ولي كرسوله، ولك مالنا، لتفوز بالدنيا والآخرة، فإن أبيت ذلك فأذن بحرب أشنها عليك بقومي فرساناً ومشاة، والله سيعيننا عليكم ويؤيدنا بنصره وهو على كل شيء قدير.

قال الملك:

- يا فارس الحجاز (من لدن) أبي القاسم، من أغنى: أنا أم أبو القاسم؟ ومن أكثر خيلاً، أنا أم أبو القاسم؟ ومن أكثر قوماً: أنا أم أبو القاسم؟ ومن أكثر عبيداً أنا أم أبو القاسم؟

قال له خالد:

- بئسما (ينفعك) قومك من فرسان ومشاة وعبيد إن حمل عليك خمسة من فرسانه.

قال الملك:

- ومن هم؟

قال خالد:

- أحدهم العباس بن مرادس السلمِي، وثانيهم جعفر الخير بن أبي طالب، وثالثهم عمر بن أمية الضمري، ورابعهم العباس عم النبي (ص) وخامسهم من يقف أمامك ويتكلم معك.

قال أحد الوزراء:

- يا أخ الحجاز (من عند) أبي القاسم، لماذا أراك ذكرت (اسم) أصحابك ولم تذكر نفسك؟

قال:

- أنا خالد بن الوليد المخزومي.

فقال له:

- يا أخ الحجاز (من عند) أبي القاسم، لما لم تذكر سيدكم وفارسكم وكبيركم، هذا الذي علوتم به جميع العرب؟

قال خالد:

- ومن هذا الفارس؟

قال:

- علي بن أبي طالب.

قال له خالد:

- بئسما (ينفعك) قومك وفرسانك ومشاتك إن حمل عليكم وحده.

قال [الراوي] فانتفخ الملك من الغيظ والغضب، وكفر وهدر ولعن الشمس والقمر، ثم قال:

- خذوه يا أصحاب وجنودي.

قال راوي الحكاية، فأخذ خالد يحارب هذه الجيوش العظيمة ويحمل عليهم حملات شديدة، فاستصرخت هذه الفرق وتكأكأت عليه، واجتمعوا ضده وأخذوه وأوثقوه بالحبال.

وقال الملك:

- خذوا حصانه واذبحوه واسلخوه، وأوثقوه جيداً، ثم ضعوه في جلد حصانه، وأحضروا قوائم من الخشب وعلقوه فيها.

قال المحدث، فعلق خالد في جلد حصانه، وأمر الملك الناس بأن يجمعوا حطباً (وقال):

ـ غداً نشعله ونحرقه، ونثبت أننا حرقنا ركناً من أركان الحجاز من (أصحاب) أبي القاسم.

وظل خالد هكذا، حتى إذا جنه الليل رفع رأسه إلى السماء، ونظر إلى الكواكب المختلطة. وعندما نامت العيون، ولم يبق في الثقلين سوى الحي الذي لا ينام، وهبت عليه نسمة من الغرب، انطلق ينشد هذه الأبيات الشعرية:

ـ إن سمعت أيها النسيم.

أحداً يصلي على محمد.

بالله عليك أيها النسيم.

فلتزر أحبابي.

لتبلغهم عني نبيل السلام.

فإني مشوق إليهم.

بالرغم مما كابدته.

من حوادث الأيام.

ثم نزل رسول الأنبياء جبريل عليه السلام، وجاء من قبل الله الرحيم (على محمد) وقال:

ـ يا محمد، السلام يهديك السلام، ويخصك بعظيم الإكرام ويقول لك إنك تغفل وربك لا يغفل، يا محمد، إنك تنام وربك لا ينام، يا محمد، إن صاحبك خالد مربوط وموضوع في جلد حصانه ومعلق في نخلة، والملك اللعين المهلهل أمر بأن يحمل إليه الحطب، ويقول إنه سيحرقه بالنار، وهذا لا يرضي الله، ويقول لك أن أرسل له علي بن أبي طالب في هذه الليلة.

فقال له محمد (ص):

ـ يا أخي يا جبريل، إن الأرض نائية، ولن يصل علي قبل أن يكون قد وقع ما توعد به أخي خالد.

قال له جبريل:

ـ يا محمد، على علي أن يخرج وعلى الله وصوله.

فبكى النبي (ص) بكاءً شديداً حتى ابتلت ثيابه، ونادى بلالاً وقال له:

ـ يا بلال، امش معي إلى بيت علي.

وسار النبي وبلال إلى بيت علي، وطرق الباب فقيل:

ـ من ذا يطرق الباب؟

قال بلال:

ـ حبيب الأحباب محمد عليه الصلاة والسلام.

ففتح الباب، ووجدوا علياً يؤدي الصلاة، فلما شعر بهم خفف صلاته وأسرع إلى الله بالسلام. وأخبره النبي (ص) بما علمه من جبريل (ع).

وقال له:

ـ يا علي، إن الله تعالى يأمرك بأن تخرج في دجى هذه الليلة.

قال له علي:

ـ يا نبي الله، الأرض نائية، ولن أصل إليه إلا بعد أن يتم ما توعد به خالد.

قال له النبي (ص):

ـ يا علي، عليك الخروج، وعلى الله أن تصل في الوقت المناسب.

عندئذ دعا على ابنه الحسن، فأمره بأن يضع السرج على جواده. ودعا الحسين، وأمره أن يحضر له سلاحه، وتمنطق سيفه وأخذ درعه ورمحه، وودع زوجته، وسلم على أولاده، ومضى النبي مع علي (ع)، وقال علي لبلال:

ـ اذهب إلى البواب، وقل له أن يحضر مفاتيح الباب.

قال له النبي (ص):

ـ يا علي، إن النفس أمارة بالسوء، وربي لم يأمرني بأن يخرج أحد سواك.

وجاء النبي (ص) إلى الباب، وتلا عليه دعوة في السر، ثم نزع مزلاج الباب، ففتحت الأبواب، وخرج النبي (ص)، وعلي (ع)، وقال النبي:

ـ يا علي، إني آمرك إذا وصلت إلى هذه الجيوش العظيمة، أن لا تقتل كبيراً ولا صغيراً، حتى تدعوه إلى الإيمان، فمن أسلم كان عليه ما عليك، ومن أبى أن يؤمن بالله؛ إن كان كبيراً فاقتله ولا حرج عليك. يا علي، إن حزنت فاتل من القرآن، فالقرآن عزاء المحزونين، وإن علوت جبلاً فكبر الله العظيم وإن نزلت وادياً فسبح بحمد الله سبحانه، فإذا جاءك النوم فأطلق العنان على رقبة الحصان، ولا توجهه يميناً ولا شمالاً فإن له دليلاً يهديه وحاملاً يحمله.

وودع النبي (ص) ومضى حتى وصل إلى مفترق طرق، فأخذته سنة من النوم ونام ولم يستيقظ من نومه إلا وقد وصل إلى الوادي الذي كان فيه خالد، فما قطعه خالد في عشرين

يوماً قطعه علي في ليلة واحدة حتى الثلث الأخير من الليل. وقف علي حينئذ عند النيران المشتعلة الكثيرة، وقال علي في نفسه:

- لو كنت أرى خالد في أي مكان هو.

وقال:

- يا خالد، في أية خيمة أو مكان أنت؟

فسمع صوتاً محزوناً، يخرج من قلب المؤمن، لأنه كان ينادي ويقول:

- يا صوت، إن سمعت من يصلي على رسول الله (ويضرع) إلى الله بلهفة المحتاج، يا ربي، أنت العليم السميع، لقد جئتك بحاجتي، يا رب، لا يبلغ الوهن مني، يا رب إليك أمد يدي، وإليك الرضى، فأنت (رب) العفو والمغفرة يا ربي، اغفر لي ما سلف مني، فعندك الرجاء، وأنت تسمع دعائي إن حم القضاء.

فلما سمع علي الصوت أطلق جواده في هذا الوادي وقال:

- يا حصاني السرحان، بشرف من خلقك لا تبرح هذا المكان حتى أعود إليك إن شاء الله.

قال [الراوي] وتابع على صوت خالد حتى وصل إليه، وهز النخلة، فقال خالد:

- من ذا يهز مشنقتي، إن كان يبغي موتي فإني أعرف أن الليل هو الباب الذي يحمي الموت وكل الناس داخلون فيه، ومن لم يمت بالنصل الحديدي مات بغيره، ولكل واحد نزاع يعينه، نفسي تحدثني، إن لم تكذب علي، بأنك علي بن أبي طالب.

قال علي:

- أبشر يا خالد، فالذي يقف أمام يديك هو علي.

قال له خالد:

- يا أخي، يا علي، أما ترى حالتي؟

قال علي:

- يا خالد، إن الله مع المعذبين.

قال الراوي، وانتزع على النخلة من جذرها، وتلقف خالد بين ذراعيه برفق شديد، حتى لا تؤذيه الأرض، وأخرج سكيناً كان معه وقطع أحباله وأطلقه من أسره، وحمله إلى النهر، ونظفه مما علق به من جلد حصانه ودمه، وتناول علي ثوباً من ثيابه، وأخذ العصابة التي كان يعقدها على رأسه وشطرها نصفين وأعطى خالداً نصفها وألبسه الثوب، وعندما أذن الله للصبح الطيب بأن يطلع صعد علي وخالد إلى ذروة الجبل، وتجلى النهار وأشرقت الشمس

وتحرك القوم، وركب العدو اللعين والشيطان الرحيم في خيله وقواده وجيوشه، وجاء إلى أكوام الحطب وقذف فيها النار وقال:

- انتقمي لي من عدوي (من أهل) الحجاز وأبي القاسم.

وجاءوا إلى النخلة، فوجدوها منزوعة، والجلد مقطوع، وعادوا أدراجهم بالويل والثبور وهم يصيحون:

- يا بئسما حل بنا!

- ولماذا تجأرون بالصياح؟

قالوا له:

- يا سيدنا، لقد وجدنا المشنقة منزوعة وجلد الحصان مقطوع!

قال لهم العدو اللعين:

- عليكم أن تجوبوا هذه الأرض، وقفوا حيث ذهب، ولو كان واحداً أخذنا به عشرة.

فمدوا أعناقهم، ونظروا بعيونهم.

وقال رجل للملك:

- أعطني البشارة وأبشر.

قال له الملك:

- اطمئن، فسأعطيك عشر أوقيات من الذهب الأحمر، وعشر أوقيات من الذهب الأصفر، وعشر أوقيات من الفضة البيضاء.

قال له الرجل:

- سيدي، لا أريد شيئاً من ذلك.

قال الملك:

- فماذا تريد؟

قال له:

- أنا فقير من الموالي، فقد كان لي مولى، وطلبت منه أن يقضي لي حاجة فلم يقضيها وأبق، فأنا فقير من الموالي.

عندئذ أعطاه الملك مولى وقال له أن لا يخدم سواه.

وقال له الملك:

- خذه، وليكن هدية مني إليك.

فأخذه وقال له:

- لا تخدم أحداً غيري.

وسجد له من دون الله، وقال للمعبود:

ـ سيدي، تفضل بالنظر إلى هذا الجبل.

فمدوا الأعناق، وحدقوا النظر ووقفوا إذ رأوا فارساً ورجلاً ماشياً، فأخذ الفرسان يحاصرونهم من اليمين واليسار ويلتفون حول الجبل ويحيطون بهم من كل ناحية.

وقالوا لعلي:

ـ أيها الفارس، ألم يعاقبك أحد ولم يحظر عليك أحد دخول هذه الأرض؟ واللات والعزى لتشربن حشائش الموت، لقد انتهكت أرضنا وأخذت أسيرنا، فترجل عن فرسك، وأمسك بعصابة رأسك وضعها على رقبتك، وسنحملك إلى ملكنا المهلهل بن الفياض فإن أراد قتلك قتلناك.

فأنشدهم علي بعض أشعاره وقال:

ـ من عرفني فقد عرفني، ومن لا يعرفني سأعرفه بنفسي، أنا علي بن أبي طالب، المُعلّم في المعارك، القاطع، بالسيف الباتر، المشهور بالقاهر.

فلما سمعوا أشعاره لاذوا بالفرار وهم ينادون بالويل والثبور.

فقال لهم الملك:

ـ مالي أراكم تأتون هاربين؟

قالوا له:

ـ يا مولانا، ها قد زال عنا المعروف، وحل بنا البلاء، فقد دخل بيتنا رجل سيدمر محفوظنا، ويقتل أبطالنا، ويتم أطفالنا، ويهدم قلاعنا، ويشتت جيوشنا، ولا ينجو اليوم من يديه إلا من كان يعبد الله الذي يعبده هو، أو يولي الأدبار هارباً أو يموت بين يديه ويبكيه أحبابه وأقرباؤه وأصدقاؤه.

هذا هو علي بن أبي طالب المعروف بالشجاعة.

وبينما يسمعون هذه الكلمات جاء فارس وقال للملك:

ـ يا مولانا، لن يطاح بالصنم الأكبر للمعبودة، والسيدة المكرمة، ما دام فيه رضاك، أعطني الإذن كي أخرج إليه، فطالما رجوت آلهتي اللات والعزى أن تجمعني به في ميدان الحرب.

فقال له الملك:

ـ ليكن لك ما تريد منه، ولا ترموا الصنم الأكبر وهو معه.

يقول (الراوي) وخرج إليه، وقال له:

- أيها الفارس الذي لا يقدر عليه أحد من الفرسان، ولا بطل من الشجعان، انظر إلى ما تثيره من اضطراب ولا تشن الحرب.

فأخذ علي يضرب جواده بالمهماز، وقفز فوقه كما يهبط العقاب من السماء فقال العلج:

- واللات والعزى لا أحارب اليوم إلا علياً.

فقال علي:

- أبشر يا عدو الله، فأنا علي.

قال العدو:

- فإني لا أصدقك حتى تكشف وجهك وأرى علامتك.

فكشف علي وجهه ورأى فيه العلامة الهاشمية، فظل الفارس يرتجف خوفاً أمام علي.

وقال له العدو:

- سأعطيك عشر أوقيات من الذهب الأحمر، وعشر أوقيات من الذهب الأصفر، وعشر أوقيات من الفضة البيضاء، فترجل على جوادك، وسآخذ العصابة من فوق رأسك وأضعها في رقبتك، واللات والعزى سأتركك حراً على إرادتك، وسيكون هذا فخراً عظيماً لي إلى الأبد.

فقال له علي:

- بئسما ولدتك أمك يا ابن الفاجر، لست من أب شريف أو تتحدث إلى مثلي بمثل هذا الحديث؟

وقال له علي:

- قل معي كلمة التطهير، من القول الثابت «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فتنجو من العقاب.

قال له العدو:

- يا أبا الحسن، ليس بيننا وبين أبي القاسم من عداوة أو كره إلا على هذه الكلمة.

ثم ضرب على جواده بالمهماز وحمل على عدو الله بسيفه ذي الفقار فقتله، وسارع الله به إلى النار.

فمد الناس أعناقهم، وحدقوا أبصارهم، وجعلوا يقولون:

- ها قد قتل رفيقنا علياً.

وأخذ الناس يقفون ويتبادلون البشرى، فنظر شيخ طاعن في السن ورفع هدبيه من على عينيه وقال:

ـ أيها الملك، إن فرسانك مهما كثروا فلن يقتلوه، هذا هو علي يأتي إلينا، وسيشطر كلامنا شطرين، وحق اللات والعزى لم يمت إلا رفيقنا.

وعندئذ نادى على خالداً وقال له:

ـ خذ هذا الفرس، واركبه، وخذ سلاحك.

قال الشيخ:

ـ يا مهلهل، من ذا سيخرج لمبارزتهما؟ فهما أسدان قد اجتمعا.

فقال العدو اللعين والشيطان الرجيم:

ـ ماذا يفعل العقرب بين الحيتان؟

وقال له الشيخ:

ـ أيها الملك، لو صاح علي ونطق بالكلمة الشهيرة «لا غالب إلا الله» لقتل بعضنا بعضاً.

ثم قال الشيخ:

ـ يا مهلهل، سأقول لك كلمة ستكون القاضية بيننا وبينهم.

قال الملك:

ـ وما هي؟

قال الشيخ:

ـ أعلم أن علياً يعظمونه في قومه، وأنت محمود في أصحابك ولن يخرج للنزال إلا معك، فإن غلبته دفع لك الجزية وصار لك مستباحاً، وإن قتلك فسيجد فينا من يعبد ما يعبده، وسيجد منا من يولي الإدبار هارباً، وستكون هذه هي القاضية.

وعندئذ اشتد الغيظ بالعدو اللعين، وأخذ سلاحه، وركب جواداً من أحسن ما لديه من خيل، وخرج عدو الله، وتوقف أمام علي وقال له:

ـ يا علي، ليس كل أبيض برد، ولا كل أسود فحم، ولا كل ما يبدو أخضر ريحان، ولا كل حصان يدور في الميدان.

يا علي، أنا الملك المهلهل بن الفياض، لم تلد النساء مثلي، فإن أردت أن تنجو من الذعر أعطيتك ما تنجو به.

قال علي:

ـ ماذا تريد يا لعين الله؟

قال:

ـ ترجل عن حصانك، وقبل ركابي، وقدم لي التشريف العظيم بين أصحابي.

عندئذ قال علي (ع):

- لا يهتز جناني لهذيانك، أو مثلي تصده الشباك، أنا على الفارس المغوار، ومن يستهن بي فهو يستهين بالموت العاجل، أو فليؤمن بالله العلي، عالم الغيب والشهادة.

وحينئذ حمل كل منهما على الآخر كالأسدين الغضوبين، وأخذا في النزال، ولم يجرح أحدهما الآخر، بل كان كل منهما يدفع جانبه ويحمل على الآخر، وهما ينظران شذراً كالأسود الضارية.

وقال علي:

- يا مهلهل، لا يمكن أن يحكم بيني وبينك غير السيف.

والتحما في حرب ضروس حتى غطاهما النقع، ولم يعد يسمع سوى ضربات السيوف فوق المغافر، كما لو كانت مطارق على الزبر، وشد كل منهما العنان، ولم يجرح أحدهما الآخر.

وفكر علي في الوصية التي أمره بها النبي (ص) فقال علي:

- يا مهلهل، أنت فارس قوي وشجاع في الميدان، وليس عليك إلا أن تقول كلمة، هي كلمة التطهير، كي تنجو من عذاب يوم القيامة.

وهي الكلمة الثابتة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

فقال عدو الله:

- يا علي، ليس بيننا وبين صاحب هذا الاسم عداوة ولا مقت، إلا بسبب هذه الكلمة.

وعندما سمع علي ذلك عاوده الغضب وزم بين عينيه.

وقال علي:

- أيها الحصان، يا سرحان، بشرف الرب الذي خلقك لتخرجن من الضعف إلى القوة.

قال [الراوي] وصاح فيه صيحة عرف منها الحصان ماذا يريد قبل أن يستقر فوقه حتى جمع السرج على السرج، ونقل علي السيف من اليمنى إلى اليسرى ومد ذراعه تحت إبط عدو الله وقال علي:

- أيها الحصان، بشرف من خلقك، بحق الله انطلق بخفة.

ونزعه من السرج كما لو كان طائراً في مخالب العقاب وقذفه على الأرض وضربه بسيفه ذي الفقار فقتله وسارع الله به إلى النار.

وعندئذ عطف علي على خالد وهو يقول «الله أكبر» وهجم كلاهما كأسدين ضاريين، علي من جانب وخالد من جانب آخر، وتساقط العلوج أكواماً، ولم تزل الشمس عن قبة الفلك حتى لم يبق أحد ممن يشرك بالله.

قال [الراوي]:

أما من آمن بالله فقد نجا، ومن كفر فقد مات أو أسر، وغلبوا الجميع بعون الله رب كل شيء وبفضله، وأما من قال «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فقد نجا من الموت.

وحمل لعلي وخالد تلك الغنائم وأسلاب الموتى، كما حملت لهم الشياه والأبقار والغنائم.

ولم يمض إلا قليل حتى رؤي عجاج الخيل، وجاءت فرقة من القوم فتكشف الغبار وظهرت راية بيضاء كتب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وكانت لأبي بكر الصديق، الذي جاء في أعقاب علي ومعه ألف فارس، ثم جاءت فرقة أخرى من القوم مثيرين نقعاً عظيماً، ولما انكشف الغبار ظهرت راية خضراء كتب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وكانت لعمر بن الخطاب (ع) الذي جاء في إثر علي ومعه ألف فارس توقفوا حينئذ.

ورؤيت فرقة أخرى من القوم، ولما انكشف الغبار رأوا راية صفراء كتب عليها شطران «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وكانت لعثمان بن عفان (ع) الذي تبع علياً في ألف فارس.

وتلاقوا جميعاً، وسلموا على علي وخالد وفرحوا فرحاً عظيماً بنجاة علي وخالد (وانتصارهما) على أعدائهم.

وتوقف حينئذ عندهم قبائل من العرب والعربان المستعربة وخزيمة ونزار من هؤلاء الذين فروا من الموت، فأمروهم بفعل الخير ونهوهم عن الشر والغلظة وعلموهم الوضوء والصلاة وأصبحوا مسلمين صالحين محافظين على دين الإسلام.

وأخذوا كل الغنائم والأسلاب ورحلوا بها، وذهبوا إلى مدينة رسول الله (ص). وما قطعه علي في نصف ليلة قطعوه في عشرة أيام. لما شعر النبي (ص) بقدوم الصحابة خرج للقائهم وسلم على عليّ وعلى خالد واحتضنهما على صدره، وقبل علياً بين عينيه وقال له:

ـ لن ينسى لك الله هذه المكرمة.

وحدثوا النبي (ص) بما وقع لهم، وحمدوا الله حمداً عظيماً. ثم قسم النبي (ص) الغنائم بينهم، فسوى بين الغني والفقير وسوى بين الراجل والفارس.

وهذا ما وصل إلينا من قصة خالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب (ع) مع الملك اللعين المهلهل بن الفياض لعنه الله.

رحم الله المسلمين والمسلمات، آمين، وصلى الله على سيدنا محمد الكريم[1]. ❖

---

(١) هذه الأقاصيص مستلة من كتاب المغازي الموريسكية.

من أقاصيص الميثولوجيا العلوية

(١)

غزوة مدينة تكريت

على يد الإمام علي بن أبي طالب (ع)، وأولاده الحسن والحسين وابن الحنفية، وخالد بن الوليد والفضل بن العباس والمقداد بن الأسود، وغيرهم من الصحابة الكرام.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين وآله وصحبه أجمعين (وبعد) فقد روي عن ابن عباس (رض) أنه قال: لما تولى الإمام علي (ع) الخلافة ارتحل من المدينة المنورة إلى مدينة الكوفة فسمع بخبر ملك طاغية يقال له السطيح[1]، الفاني وكان هو وقومه يعبدون النار دون الملك الجبار وكان سفاكاً للدماء ويشن الغارات بين المسلمين وكان في مدينة يقال لها تكريت وله جيوش كثيرة منهم أرباب دولته وفيهم أربعمائة ألف فارس قد غابت في الزرد خلافاً عن العساكر المتفرقة في القرى والحصون. ولما سمع الإمام علي (ع) بأخبار عدو الله سطيح الفاني ويخبره كتب كتاباً يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة والسلام وأتم التسليم على سيدنا محمد خاتم النبي والمرسلين وآله وصحبه أجمعين. وبعد، فهذا كتاب من عبد الله علي بن أبي طالب إلى عامله بأرض اليمن من المهاجرين والأنصار سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد: فإذا وصل إليكم كتابي هذا فأوفوا لنا جميع ما حصل عندكم في بيت مال المسلمين نستعين به على قتال من كفر بالرحمن وهو السطيح الفاني والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) لا زال لهذه القصة بعض الأصداء في تكريت و بعض بلدات العراق، وأول مرة سمعت بقصة سطيح أو عبد السطيح كما كان يحلو لمحدثي بهذه القصة أن يسميه، وهو المرحوم اللواء الأستاذ حسن النقيب السامرائي، في لقائي به أيام اغترابنا بدمشق، والذي كان يربط القصة بعائلة تسكن في ضواحي تكريت حتى اليوم، وإن الناس يعيروهم بجدهم ذاك (هذا إن صحت القصة أصلاً). قلت: واسم سطيح الكاهن والذي يروى أنه عاش ٣٠ قرناً (راجع إكمال الدين وإتمام النعمة) هو الآخر قصته غرائبية ولا أعرف الصلة بين سطيح وبين عبد السطيح ومن الجائز أن قصة الأخير ملفقة أو مقتبسة من ذلك السطيح الأسطوري وبالتالي فهما قصتان غرائبيتان، وما يهمنا في الجانب الاجتماعي أن السطيحي (التكريتي) هذا لا يزال عالقاً في الأذهان حيث أعاد على مسامعي قصته صديقي اللواء غازي جعفر الشيخ علي منذ وقت قريب جداً، وهذا ما يبحث عنه عالم الاجتماع حقاً وهو الأثر الوجداني الباقي من سرد تلك الأقاصيص واستعادتها في الحياة من جديد.

ثم ختم الكتاب وقال من ينطلق بهذا الكتاب وأجره على الله تعالى فنهض إليه عمار بن ياسر القرشي (ص) وقال أنا أمضي بكتابك يا أمير المؤمنين. فقال له: خذ معك من شئت هداك الله فأخذ معه خمسين فارساً من المهاجرين والأنصار (رض)، فجدوا في المسير ولم يزالوا سائرين ليلاً ونهاراً حتى وصلوا بلاد اليمن وفتحوا بيت المال ووجدوا فيه خمسين ألف مثقال من الذهب الأحمر وخمسة وستين ألف أوقية من الفضة وحملوا المال على بغال ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى قرية يقال لها فيد. قال عمار بن ياسر فما أشعر إلا والغبار قد ثار حتى سد الأقطار وعلا إلى الجو ثم انكشف عن أربعين ألف فارس لابسين الزرد ولم يمهلونا حتى حملوا علينا وحملنا عليهم وكنا في وسطهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود. فما كان غير ساعة حتى قتلنا منهم مقتلة عظيمة وقتلوا جميع من كان معي من الفرسان وأخذوا المال والخيول من بين يدي بعد أن أثخنوني بالجراحات. ولما بعدوا عن العين زحفت على كره مني حتى أتيت إلى قرية فوجدتها مغلقة الأبواب خوفاً من العدو فاستفتحت بابها ففتحوا الباب وكان لي فيها صديق ودخلت عليه وسلم علي وأحضر لي طبيباً وقطب الجراحات وقلت يا أخي هل عندك رسول أرسله إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال نعم. وكتب كتاباً يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. وبعد، فهذا كتاب من عمار بن ياسر القرشي إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) سلام عليك ورحمة الله وبركاته. أما بعد، فقد مضينا إلى اليمين وفتحنا بيت مال المسلمين فوجدنا فيه خمسين ألف مثقال من الذهب وخمسة وستين ألف أوقية من الفضة وحملنا المال على بغال إلى أن وصلنا قرية فيد فوثب علينا أربعون ألف فارس من الأعداء وحملوا علينا وحملنا عليهم وغصنا في وسطهم وصرنا بينهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الأسود وقد قتلنا منهم مقتلاً عظيماً وقتلوا جميع من كان معي من الفرسان وأخذوا المال من بين يدي بعد أن أثخنوني بالجراح وها أنا في قرية فيد والسلام عليكم. ثم قال أين الرسول الذي يمضي بالكتاب؟ فقال له: السمع والطاعة. فمضى وأتاه بحمام أبيض وقال هذا يوصل كتابك إلى أين شئت. وربط الكتاب في جناح الحمام تحت إبطه ثم أطلقه من يده وطار الحمام ولم يزل طائراً حتى وصل إلى مدينة الكوفة عند أذان العصر ونزل في دار الحسن بن علي (ع) وهو يتوضأ لصلاة العصر. ولما رأى الحمام نازلاً بين يديه قال لأخته أم كلثوم إئتيني بكف من البر لهذا الحمام الغريب وأتته بكف من البر وطرحه بين يدي الحمام وأكل حتى شبع ثم صب له ماء في إناء وشرب الحمام حتى ارتوى. ثم أن الحمام رقد على ظهره وأفرد جناحيه ورأى الحسن الكتاب تحت إبطه ففكه برفق وفتحه وقرأه وقال هذه مكيدة ورب الكعبة. ومضى إلى أبيه في مسجده الذي بناه بها، ولما دخل المسجد وجه الإمام جالساً في المحراب.

ولما نظر الإمام علي إلى ولده وهو مقبل عليه تبسم وكان من عادته كلما رأى ولده الحسن يبتسم في وجه ويقول إن ولدي هذا سيد فلعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، وقد أخذ هذا الحديث عن النبي (ص) في حق الحسن (ع). ولما أعطاه الكتاب فكه وقرأه وفهم معناه قال هذه مكيدة ورب الكعبة وعندما قام الإمام وكتب كتاباً إلى عبد الله السطيح الفاني يقول فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبي وآله وصحبه أجمعين. أما بعد، أيها الرجل وإنك قد كفرت بالله الذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً وصرت تعبد الأوثان دون الملك الجبار ثم قتلت أبطالنا ونهبت أموالنا وإذا وصل إليك كتابي هذا فعجل بدية من قتل من المسلمين ورد المال إلى أهله وأداء الجزية بعد ذلك عن يد وأنت صاغر. وإن فعلت ذلك نجوت من سيوفنا وإن لم تفعل ذلك رميتك برجال وأبطال لا يرهبون الموت ولا يخافون الفوت. واعلم أننا لا نفارقك إلا بإحدى ثلاث أن تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بها تحرر نفسك ومالك وبلادك فيكون لك ما لنا وعليك ما علينا وملكك باق عليك أو الجزية تؤديها عن يد وأنت صاغر كما ذكرنا أو الحرب والقتال بحد السيوف حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين والسلام على من اتبع الهدى وأطاع الرب الأعلى وأقر بنبوة محمد (ص). ثم ختم الكتاب، وقال من ينطلق بكتابي هذا وأجره على الله، فنكس القوم رؤوسهم إلى الأرض ولم يجبه أحد خوفاً من السطيح الفاني فنادى يا معشر المسلمين من يهب نفسه في سبيل الله تعالى ويقضي حاجة رسوله وإن الدنيا فانية والآخرة باقية وأنا أضمن له على الله الجنة وأسقيه من الحوض بيدي ويدخل الجنة في زمرة الأولياء. ونهض إليه رجل يقال له صعصعة وقال أنا يا أمير المؤمنين أمضي بكتابك. قال وسلمه الكتاب وقال له سلمك الله وردك إلينا سالماً. وأخذ الكتاب ومضى إلى منزله وقام. وفي الصباح جد في المسير ليلاً ونهاراً حتى وصل إلى أول عمالة السطيح الفاني ونزل على الحصن فوجده حسناً مشيد الأركان عالي البنيان علو سورة مائة ذراع وله أربعة أبواب بين الباب والباب قدر ميل، كل باب من أبواب أبوابه قطعة واحدة من الحديد لا يفتحه إلا مائة رجل ولا يغلقه إلا كذلك. ولما أتيت إلى باب الحصن وإذا بغلمان قد أوصلوني إلى داخل الحصن فوجدت في داخل الحصن قطعة أرض منعزلة وفيها صيوان مضروب من الحرير الملون ارتفاعه ٨٠ ذراعاً طوله وعرضه مثل ذلك مشبك بقضبان الذهب والفضة مفروش بالديباج المكلل بالجواهر وإذا في صدر ذلك السرادق سرير من الذهب مرصع بالدر والياقوت والجواهر وجالس عليه رجل وعليه ثياب الديباج وعلى رأسه تاج له أربعة أركان على كل ركن جوهرة تضوي كالمصباح وبين يديه مجمرة فيها نار وهو يأخذ العود الرطب ويضعه في النار يرتفع دخانه ويسجد له، وإذا رفع رأسه من السجود سجد له جميع من كان أمامه من العساكر وهم يبلغون أربعين ألف رجل.

قال صعصعة (رض): فوقفت حتى رفع رأسه من السجود ونظر إلى جميع تلك العساكر والجنود ساجدين إلا أنا، فقال لي من أين أتيت يا أعرابي وما لك لا تسجد لنا؟ فقلت له أيها الرجل لا ينبغي السجود إلا للملك المعبود. فقال لي إني أظنك من أصحاب محمد (ص). فقلت له نعم إني رسول أرسلني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بكتاب إلى السطيح الفاني الذي يأكل رزق الله ويعبد غيره. فقال أيها الرجل لا تقل ذلك للسطيح أنت لا تخشى على رأسك. فقلت له وما أقول؟ فقال قل الملك المعظم والبطل المكرم ملك البر والبحر والهيبة والقهر، ثم قال لعبيده دلوه على الطريق لئلا يقع في أحد لا يعرف أنه رسول فيقتله. قال فأخذوني ودلوني على طريق مدينة تكريت ولم أزل سائراً في قرى ورساتيق وحصون حتى أتيت إلى مدينة تكريت فوجدتها مدينة واسعة الفضاء لا يرى لها طول من عرض ولا قرب من بعد ولها اثنا عشر باباً بين الباب والباب قدر ميل، وكل باب من أبوابها قطعة واحدة من الحديد لا يفتحه إلا مائة رجل ولا يغلقه إلا كذلك. ولما دخلت من باب المدينة وإذا سورها ارتفاعه مائة ذراع وعرضه عشر أذرع، وصرت أتعجب من صنع الله تعالى في خلقه وإذا بغلمان أخذوني ومضوا بي إلى دار الكرامة. وأجلسوني فيها وأتوني بطعام فأكلت حتى شبعت ثم قلت لهم إن لي حاجة فقالوا لا حاجة للضيف إلا بعد ثلاثة أيام في زيادة الإكرام وثالث يوم أتوني بكسوة رفيعة وأفرغوها علي وقالوا أطلب حاجتك فقلت أريد الملك قالوا يا أخا العرب إن الملك ليس هنا وإنما نحن موكلون بإكرام الضيف في دار الكرامة فقلت لهم وأين الملك؟ فقالوا له: في القلعة في وسط المدينة. فقلت لهم أريد منكم من يمضي بي إليه. فقالوا نعم. ثم قام غلام عنهم وأخذني ومضى أمامي وأنا خلفه حتى وصلنا إلى القلعة. فنظرت إليها وإذا هي تحاكي السحاب من علوها لأنهم قد بنوها على سن جبل قد نحتوها بمناقير حديد ثم بنوا فوق رأسها تلك القلعة قال وأتى بي إلى دراج القلعة فصعدت وأنا أعد الدرج حتى عددت خمساً وتسعين درجة لا يصعد الرجل من الدرجة إلى الدرجة حتى تزهق مفاصله من عظم الأدراج.

ولما وصلنا إلى باب القلعة فوجدته قطعة واحدة من الحديد لا يفتحه إلا مائة رجل ولا يغلقه إلا كذلك. ولما دخلت إلى القلعة فوجدت فيها من العساكر والجنود ما لا يوصف وهم صفوف بين يدي الملك وهو جالس على سرير ملكه وهو من الذهب الخالص الوهاج ارتفاعه اثنتا عشرة درجة مرصع بالجواهر وبين يديه مجمرة فيها نار وهو يأخذ العود الرطب ويضعه في النار حتى يرتفع دخانه فيسجد له من دون الله عز وجل. ولما رفع رأسه من السجود نظر إلى جميع العساكر والجنود ساجدون إلا أنا واقف فقال لي: من أين أتيت يا أعرابي وما لك لا تسجد لنارنا؟ فقلت له أيها الرجل لا ينبغي السجود إلا للملك المعبود. فقال إني أظنك من أصحاب محمد. فقلت له نعم أنا رسول أرسلني إليك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بكتاب. فقال لي هات الكتاب. وناولته، ولما قرأه غضب غضباً شديداً وقال يخوفني علي بن أبي طالب بكلامه هذا. فرد الجواب وكتب:

بسم النار والنور والظل والحرور، هذا كتاب من الملك المعظم والبطل المكرم ملك البر والبحر والهيبة والقهر إلى علي بن أبي طالب. أما بعد، فقد وصل لنا كتابك وفهمنا خطابك وهو أننا نأتي بدية من قتل من المسلمين ونرد المال إلى أهله ونؤدي الجزية بعد ذلك عن يد ونحن صاغرون، وهذا شيء لا يكون أبداً وإن لم تأت إلينا فنحن نأتي إليك ولألحقن مدينتك بهم وأن أول خيلي يصل إلى الكوفة وآخرها يخرج من تكرين. ثم ختم الكتاب بخاتمه وقال لي خذ رد الجواب وامض به إلى الإمام علي (ص)، وقل له سوف ترى إذا التقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال. فأخذت الكتاب وصرت أرتعد كالورقة إذا هفها الريح من الخوف والفزع.

قال الراوي: ولم يزل سائراً أربعين يوماً حتى دخل مدينة الكوفة وكان ذلك بعد العشاء. قال فأقمت في منزلي إلى الصباح وقمت ومضيت إلى المسجد وإذا بالإمام علي (ع) في المحراب قائماً راكعاً بين يدي الله تعالى، ولما ختم الصلاة طلب مني رد الجواب فأعطيته إياه ففكه وقرأه وفهم معناه فغضب غضباً شديداً وأمر الصحابة أن لا يتفرقوا حتى يقرأ عليهم الكتاب جهراً. فقرأه حتى سمعه الأدنى والأقصى، ثم قال لهم: يا معاشر المسلمين إن المال الذي أرسلته لأجيبه لكم وأجهزكم به قد أخذه عدو الله السطيح الفاني وما عندي ما أجهزكم به فما رأيكم؟ فلما سمعوا منه هذا الكلام قاموا إليه كأنهم الأسود الضارية وقالوا لا أعدمنا الله شخصك يا أمير المؤمنين من كان منا ذا مال فليهتم بصاحبه الذي لا مال له حتى نصير مثل بعضنا بعضاً ولا يحتاج منا أحد إلى الآخر فشكرهم الإمام على ذلك وقال لهم شد الله أيديكم ونصركم على عدوكم ولكن امضوا وتفقدوا آلة حربكم فإن سيرنا غداً لا بد منه. فعندما قاموا جميعاً وقالوا سمعنا وأطعنا وأرواحنا في طاعة الله بذلنا. ثم مضوا إلى منازلهم هذا يصلح رمحه وهذا يصلح خيمته حتى قضوا جميع مصالحهم في ذلك اليوم واقتسموا القوت بين بعضهم بعضاً وتجهزوا في ذلك اليوم وباتوا على أهبة. فلما أصبح الله بالصباح صلى بهم الإمام صلاة الصبح بسورة الفتح وسورة الصف فلما ختمت الصلاة قال (ص) يا صعصعة ناد في الناس بالاجتماع. فمضى صعصعة ونادى في شوارع المدينة بالاجتماع يا مسلمين أجيبوا أمر أمير المؤمنين. فصاروا يهرعون إليه وهم ركباناً على خيولهم وذراريهم من خلفهم فوق إبلهم فأمرهم بالخروج إلى ظاهر المدينة. فبينما هم يهرعون وإذ بعمار بن ياسر قد أقبل ففرح به الإمام وضمه إلى صدره وقبله بين عينيه ولما تكامل الجيش قال الإمام يا عمار امض واحص عدد المسلمين وإذا هم خمسة وسبعون ألفاً خلاف ذوي الأعذار الذي يباح لهم التخلف ففرح الإمام (ص) فرحاً شديداً وقال امضيا عمار وآتني بالرايات وكان قد وضعها في خزنة العدة. فمضى عمار بن ياسر وأتاه بالرايات واستخرج منها راية خضراء مكتوب عليها نصر من الله وفتح قريب وهي آية النبي (ص) الكبرى وقال أين ولدي الحسن (ع)؟

فقال له: لبيك، قال: خذ هذه الراية وضم إليك خمسة آلاف فارس وأنت أميرهم وأول من يلقى المشركين فتسلمها. ثم استخرج راية أخرى مكتوب عليها (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ثم ركبها على قناة تامة وقال أين ولدي الحسين؟ فقال له: لبيك، قال له خذ الراية وضم إليك خمسة آلاف فارس وأنت أمير عليهم فأنت أول من ينجد أخاك الحسن. ثم استخرج راية أخرى مكتوب عليها أن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص، ثم ركبها على قناة تامة، وقال: أين ولدي محمد بن الحنفية؟ فقال له: لبيك. قال: خذ هذه الراية وضم إليك خمسة آلاف فارس وسر على أثر إخوتك. فقال السمع والطاعة، ثم أخذها وسار على أثر إخوته. ثم قال أين خالد بن الوليد؟ قال له: لبيك، قال خذ هذه الراية وضم إليك خمسة آلاف فارس. ثم قال أين المقداد بن الأسود، قال له: لبيك، قال له: خذ هذه الراية وضم إليك خمسة آلاف فارس وسر بهم وأخذها وسار. ثم قال أين عبد الرحمن بن أبي بكر؟ قال له: نعم، قال خذ هذه الراية وضم إليك خمسة آلاف فارس، وأخذها وسار. ثم قال أين عبدالله بن عمر بن الخطاب قال له: نعم، قال: هذه الراية وضم إليك خمسة آلاف فارس فأخذها وسار. ثم قال: أين العباس بن مرهاس السلمي؟ قال: نعم، قال خذ الراية وضم إليك خمسة آلاف فارس، فأخذها وسار. ثم قال: أين الفضل بن العباس؟ قال له: نعم، قال: خذ هذه الراية وضم إليك خمسة آلاف فارس وأخذها وسار. ثم قال أين طلحة بن عبدالله؟ قال له: نعم، قال خذ هذه الراية وضم إليك خمسة آلاف فارس فأخذها وسار ولم يزل يعقد راية بعد أخرى حتى عقد خمس عشرة راية على خمسة عشر أميراً.

(قال الراوي): فسارت الكتائب يتبعون بعضهم بعضاً وسار الإمام (ع) خلفهم وحده كأنه الأسد الغضبان. ولم يزالوا سائرين حتى غربت الشمس ونزلوا إلى جانب دير راهب فجلس الإمام (ع) يتوضأ لصلاة المغرب وبقوا في الدير وباتوا فيه تلك الليلة. ولما أصبح الصباح ارتحلوا ولم يزالوا سائرين ليلاً ونهاراً مدة أربعين يوماً حتى وصلوا إلى أول عمالة الملك السطيح الفاني. قال صعصعة وكنت صحبة الحسن مع الخمسة آلاف الأول. ولما وصلنا نزلنا على الحصن الذي يقال له جربود. وبينما نحن نسوق في الأنعام خرج علينا من الحصن نحو أربعين ألف فارس في الزرد النضيد. ولما رأى المسلمون ذلك منهم من ثبت نفسه ومنهم من دخله رعب فقال الحسن (ع) إما أن تحملوا عليهم وتردوهم على أعقابهم أو أنكم تسوقون الأنعام وأنا أحمل عليهم أبدد شملهم وأفرق جمعهم. فقالوا له كلنا معك وبين يديك. فقال بل أنتم سوقوا الأنعام وأنا أكفيهم بحول الله تعالى وقدرته. ثم لوى عنان جواده وحمل عليهم حملة منكرة قلب الميمنة على الميسرة والميسرة على الميمنة وقتل أبطالهم وصار يقد الأبدان قداً أو يحصد الرؤوس حصداً حتى قتل نحو خمسة آلاف فارس. فلما رأى المسلمون ذلك أعطوا الأنعام لمن يسوقها وحملوا عليهم وصاروا بينهم كالشامة في جلد البعير الأسود.

قال صعصعة فبينما الإمام الحسن في قتاله وإذا قد أصابته ثلاث طعنات مرهقات خرج من وسط المعركة والدماء تسيل من الجانب الأيمن والأيسر فأتيت إليه وقلت لعلك سالم إن شاء الله تعالى. فقال لا تخف ولا تحزن فأنا سلم إن شاء الله تعالى، ثم شد وسطه وربط على الطعنات وحمل على المشركين فما كنت ترى إلا كفاً طائراً وجواداً غائراً أو دماً فائراً. قال صعصعة فخرجت ومضيت إلى كوم بعيد من المعركة قريب من الطريق وقلت إنا لله وإنا إليه راجعون هؤلاء قوم قل من ينجو منهم، وصرت أنظر إلى الطريق تارة وإلى المعركة تارة وإذا بالغبار تعلق بالجو وانكشف عن خمسة آلاف فارس كأنهم ليوث عوابس عليهم الدروع متقلدين بالسيوف الهندية وراكبين على الخيول العربية من خيار أمة خير البرية مقدمهم الفارس المهول والسيف المسلول وابن بنت الرسول الإمام الحسين بن علي (ع) فلما رآني قال لي: يا صعصعة ما لك لا تقاتل مع إخوانك المسلمين. فقلت ليس لي قدرة على القتال أيها الأمير فحملي عليك. فقال مرحباً بك يا صعصعة وما فعل أخي الحسن فقلت له أشفى الغليل وأرضى الجليل في عبادين النار إلا أنه طعن ثلاث طعنات مرهقات. قال فعندها صاح صيحة عظيمة وقال واأخاه واحبيباه وا قرة عيناه ثم حمل على المشركين فقلب الميمنة على الميسرة والمسيرة على الميمنة وخاض فيهم وقتل منهم مقتلاً عظيماً فوق من خمسة آلاف فارس. وبقيت أنظر إلى المعركة مرة وإلى الطريق مرة وإذا بالغبار قد علا ثم انكشف عن خمسة آلاف فارس كأنهم ليوث عوابس عليهم الدروع متقلدين بالسيوف الهندية راكبين على الخيول العربية من خيار أمة خير البرية مقدمهم الفارس المهول محمد بن الحنفية (رض). فلما رآني قال ما لك لا تقاتل مع إخوانك المسلمين. فقلت ليس لي قدرة على القتال وحملي عليك أيها الأمير. فقال مرحباً بك وحمل على المشركين حملة منكرة وشوش صفوفهم وقتل أبطالهم وصار يقد الأبدان قداً ويحصد الرؤوس حصداً حتى قتل منهم مقتلاً عظيماً يفوق عن خمسة آلاف فارس وصار يخطف الفارس عن سرجه ويطويه في الهواء ثم يلتقيه بالسيف فينزل نصفين إلى الأرض ومنهم من يخطفه ويحذفه حتى يغيب عن الأبصار فلما رأى المشركون ذلك ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار وقالوا ليست هذه أفعال الإنس وإنما هي أفعال الجان وليس للإنس أن تقاتل الجن فولوا فأتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى أن لجأوا إلى الحصن فأرسلوا نفراً من عندهم إلى عدو الله ملكهم يخبروه بما جرى لهم فأرسل لهم وقالوا داوموا على القتال فأنا ملحقكم، ثم إنه فتح مخزن عدة الحرب وفرق السيوف والدروع والسروج والرماح على أربعمائة ألف مقاتل وركبوا جميعهم على أولاد الإمام علي (ع) الثلاثة ومن معهم.

قال صعصعة وصرت أنا أنظر إلى المعركة مرة وإلى الطريق مرة وإذا بخالد بن الوليد المخزومي أقبل هو وجماعته وقال ما منعك أن لا تقاتل مع إخوانك المسلمين؟ فقلت أيها الأمير

ليس لي قدرة على القتال. فقال وما فعل أولاد الإمام علي (ع)؟ فقلت لقد اشفوا الغليل وأرضوا الجليل إلا أن الحسن طعن ثلاث طعنات فصاح واحسناه واحبيباه وابن علياه ثم حمل ومن معه على المشركين حملة منكرة وبذل فيهم حتى قتل منهم مقتلاً عظيماً ثم انطلقوا عليهم جميعاً واحتاطوا بهم من كل جانب ومكان وداروا بهم كما يدور السوار بالمعصم وما بقي أحد منهم يجد للهروب مفراً. لله در خالد بن الوليد والحسن والحسين ومحمد بن الحنفية لقد قاتلوا قتالاً شديداً. قال صعصعة وبقيت أنظر إلى المعركة مرة وإلى الطريق مرة وإذا بالمقداد بن الأسود قد أقبل ثم أقبل من بعده الزبير بن العوام ثم عبد الرحمن بن أبي بكر ثم عبد الله بن عمر بن الخطاب ثم طلحة بن عبدالله ثم العباس بن مرداس السلمي حتى تكاملوا جميعاً في المعركة وصاروا بين المشركين كالشامة في جلد البعير الأسود وتزلزلت الأقدام وطاشت الأوهام وغابت الشمس وأظلم الجو وما كنت ترى إلا كفاً طائراً وجواداً غائراً ودماً فائراً حتى خاضت الخيل في الدماء. وصرت أنظر إلى المعركة مرة وإلى الطريق مرة وأقول رب علي أغثنا بعلي (ع). وإذا بزوبعة طلعت علينا من صدر البرية ثم انكشفت عن فارس يسوق الأرض سوقاً ويدفق دفقاً وقد لمس السرادق من ثياب أعمامه فلما قرب مني فقلت يا سيدي هل رأيت الإمام علياً (ع). قال ما أسرع ما أنسيتني يا صعصعة أنا علي بن أبي طالب. قال فقبلت يده الشريفة وقلت له أغث المسلمين يا أمير المؤمنين. قال أخبرني عن أولادي. قلت له لقد أشفوا الغليل وأرضوا الجليل في عماد النار إلا أن الحسن طعن ثلاث طعنات. وصاح صيحة عظيمة وقال واولداه واحبيباه وا قرة عيناه ثم قال يا صعصعة لا تخبرني بأحد قط وأنت خلفي. قلت السمع والطاعة يا أمير المؤمنين، وأنا الآن قد اطمأن قلبي بك. فحمل الإمام علي (ع) على المشركين وأنا خلفه وأني على الميمنة قلبها على الميسرة والميسرة على الميمنة وشوش صفوفهم وقتل أبطالهم وأدارهم كدورات الرحى وصار يقد الأبدان ويحصد الرؤوس ويسوق فيهم سيقة كما يسوق الراعي غنمه. وقد اشتد غضبه عليهم وهم ينهزمون من لقائه من بين يديه يميناً وشمالاً والرؤوس تتناثر من سيفه كأنها المطر وصاح فيهم صيحة عظيمة ارتجت منها الأرض وتغيرت ألوان المشركين.

وأما المسلمون (رض) فإنهم ارتفعوا عن القتال وقال بعضهم لبعض ارتفعوا عن القتال ألا يأخذكم هذا الفارس بحملة المشركين. قال قائل الحديث فعند ذلك ارتفع المسلمون عن القتال وما بقي أحد منهم يضرب بسيفه ولا برمجه. فمنهم من يقول هذا جبرائيل أرسله رب العالمين ومنهم من يقول هذا عزرائيل الموكل بالأرواح وكل ذلك والإمام على حالته لم يتغير وهو يخطف الفارس من سرجه ويلجه في الهواء حتى يغيب عن الأبصار. فإذا نزل التقاه بالسيف فينزل نصفين إلى الأرض، ومنهم من يخطفه ويحذفه إلى ورائه فيبعده عن البصر ومنهم من يخطفه بيه اليسرى ويستقبله بالضرب حتى لا يبقى منه إلا قطعة في يده. وتارة يأخذ الفارس

باليمنى والآخر باليسرى ويصدمهما في بعضهما حتى يشبك أضلاعهما. ولما رأى المشركون ذلك وجلت قلوبهم واصفرت ألوانهم وارتعدت مفاصلهم هذا كله والإمام علي (ع) على عادته لم يتغير وقد اشتد غضبه عليهم. فقال الحسين أنا أريد أكشف لكم خبر هذا الفارس وإني أظنه أبي وقرة عيني علي بن أبي طالب فهذه الحملات حملاته لا يحملها غيره، وهذه الصيحات صيحاته. ثم همز جواده حتى قرب منه وقال له بحق من عن علينا بك أن تكشف لنا عن وجهك حتى نعرفك. فكشف عن وجهه الشريف وقال أنا الشجاع الواثب أنا مظهر العجائب والغرائب أنا ليث بني غالب أنا علي بن أبي طالب احملوا بارك الله فيكم. فحملت المسلمون جميعهم وبذلوا السيوف في المشركين وصار ضرب السيوف في الدروع كالرعد القاصف والسيوف كالبرق الخاطف فلله در علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وعبدالله بن الزبير والمقداد بن الأسود والفضل بن العباس الهاشمي وعبدالله بن أبي بكر الصديق وعبدالله بن عمر بن الخطاب، ومثل هؤلاء الأمراء لقد قاتلوا قتالاً شديداً وأبلوا بلاء حسناً. هذا والإمام (ع) على عادته ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار واتبعهم المسلمون قتلاً وأسراً حتى بلغت الهزيمة إلى مدينة تكريت وألجأهم إليها. فحملوا على الأبواب وحمل الإمام (ع) وحجز منهم ثلاثين ألفاً ولم يزل يطردهم حتى ألحقهم بالمسلمين فقتلهم عن آخرهم ودخل الكفار إلى مدينتهم وغلقت الأبواب ولم تزل الجمال بأجمالها حتى نزلوا إلى جانب سور تكريت وضربوا الخيام والسرادقات.

ثم تفقد المسلمون من قتل منهم فإذا هم ثلثمائة وخمسون فارساً ختم الله لهم بالشهادة ونالوا السعادة. وتفقدوا من قتل من المشركين فإذا هم مائتان وخمسون ألفاً. وأما المشركون فإنهم تحصنوا في مدينتهم وعولوا على الحصار وإما الصحابة فإنهم دفنوا شهداءهم وصاروا يأخذون أسلاب الموتى ودروعهم وسلاحهم وخيولهم ثم أمرهم الإمام أن يشنوا الغارات على القرى والرساتيق والحصون فمن أسلم تركوه ومن أبى قتلوه ومن أراد الجزية وضعوا عليه الجزية وصاروا يأتون بالإبل والأغنام والبقر ولم يبق في ذلك اليوم إلا من أسلم وأدى الجزية. وأما المسلمون على حصار تكرين إحدى وعشرين يوماً وهي مغلقة الأبواب لا يخرج خارج ولا يدخل داخل. قال فاجتمع المسلمون عنده الإمام علي (ع) فقالوا وما الحيلة في فتح المدينة؟ قال لهم الإمام علي (ع) إني رأيت ابن عمي محمداً (ص) البارحة في المنام وأمرني بحيلة أصنعها. وقال لي يا علي هذه المدينة تفتح على يديك وبشرني بذلك. ثم قال أين خالد بن الوليد؟ فقال له نعم. قال خذ عشرة آلاف فارس وامض إلى الجهة القبلية واكمن بين الجبال ولا تحمل على المدينة حتى ترى راية قد نصبت في أعلى المدينة. فقال السمع والطاعة يا أمير المؤمنين. وكانت تلك المدينة بين جبال شاهقة فركب خالد بن الوليد وسار بالعشرة آلاف وكمن بين الجبال من الجهة القبلية. ثم قال أين المقداد بن

الأسود الكندي؟ قال له نعم، قال له خذ عشرة آلاف فارس وامض إلي إلى الجهة الشرقية واكمن بها ولا تركب أنت ومن معك حتى ترى راية قد نصبت في أعلى برج المدينة فقال حباً وكرامة ثم ركب وصار. ثم قال الإمام أين عبدالله بن الزبير، قال: نعم، قال: خذ عشرة آلاف فارس وامض إلى الجهة البحرية واكمن بين الجبال ولا تحملوا على المدينة حتى تروا راية نصبت في أعلى البرج. ثم قال أين عبد الله بن عمر، قال: نعم، قال: خذ عشرة آلاف فارس وامضِ إلى الجهة الغربية واكمن بين الجبال ولا تحملوا على المدينة حتى تروا راية قد نصبت على أعلى البرج. ثم أن الإمام (ع) سار بمن بقي من الجيش والإبل وجميع المواشي إلى واد بين جبال شامخات وأمرهم بالنزول في ذلك الموضع.

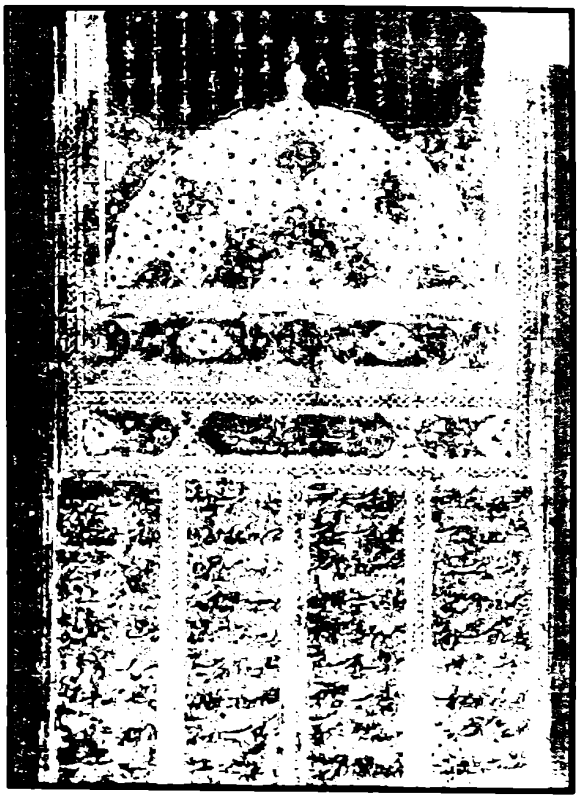
قال الراوي: ولما أصبحنا صلى بنا الإمام صلاة الصبح وجلسنا نختم الصلاة إلى أن ظهرت الشمس. وأما المشركون فإنهم وقفوا على أعلى الأبراج وصاروا ينظرون فلم يروا أحداً قط فمضوا إلى ملكهم وقالوا إن العرب قد ارتحلوا إلى بالدهم فركب الملك وأتى إلى السور وصعد على الأبراج ونظر فلم ير أحداً ولم يزالوا يتشوفون على الأسوار والأبراج فلم يروا أحداً إلى قرب الزوال فأرسلوا رجالاً منهم إلى مكان الجيش فلم يجدوا ولا حبة من الحنطة، فرجعوا وقالوا أيها الملك إننا لم نجد في مكانهم ولا حبة من الحنطة وما ارتحلوا إلا من الجوع والفاقة. فقال تشوفوا على رؤوس الجبال فمضوا حول المدينة فلم يروا أحداً. فقال لهم: إن أنعامكم ومواشيكم لها عشرون يوماً ما سرحت فافتحوا لها أبواب المدينة ففتحوها ووثبت الأنعام في الوادي. وأما الملك فإنه مضى إلى القلعة في وسط المدينة واشتغل بعبادته ومعه أرباب دولته، وأما حراس الأبراج فإنهم قد اشتغلوا بسكرهم من داخل الأبواب. أما الإمام (ع) حين زالت الشمس صلى بنا صلاة الظهر وأمر بالركوب وقال يا أصحاب محمد عليكم بالباب قبل أن يحال بينكم وبينه. قال فحمل أصحاب رسول الله (ص) فتسابقوا إلى الباب فكان أول من ابتدره الإمام علي (ع) فالتقى بالحرس يريدون غلق الباب وكان الباب من أبوابها قطعة واحدة من الحديد لا يفتحه إلا مائة رجل من شداد القوم ولا يغلقه إلا كذلك، فسبقهم الإمام (ع) فوضع فيهم السيف حتى قتل منهم مقتلاً عظيماً وتبعه المسلمون وملكوا البرج وقتلوا جميع من فيه، فأمر الإمام (ع) بالراية الكبرى أن تنشر على أعلى البرج فلما نشرت الراية ورآها الأمراء المتقدم ذكرهم فحمل كل أمير بأصحابه على الباب الذي يليه فاستيقظ عدو الله وخرج بجيوشه وأرباب دولته وصار القتال في جميع الجهات من المدينة وفي الشوارع والأزقة وبين الأبواب وقامت الحرب على ساق والتقى الجمعان وما كنت ترى إلا رؤوساً طائرة ودماء فائرة حتى فاضت الخيل في الدماء ولم يزالوا على ذلك إلى الليل وباتوا يتحارسون إلى الصباح قاموا إلى الحرب والقتال.

وحمل الإمام (ع) عليهم حملته المعتادة وصار يخطف الفارس عن سرجه ويقذفه في الهواء حتى يغيب عن الأبصار فإذا نزل التقاه بالسيف فينزل شطرين ومنهم من يخطفه

باليمنى والآخر باليسرى ويصدمهما في بعضهما حتى يشبك أضلاعهما. ومنهم من يخطفه بيده اليسرى ويستقبل به الضرب بالسيف فلما عاين المشركون ذلك ولوا. فعند ذلك غضب الملك غضباً شديداً وقال لهم يا أراذل الأصحاب لو إنكم جديتم في القتال وصدقتم في القول لسحقتموهم سحقاً ولكنكم جزعتم من الخوف. فقالوا له أيها الملك هؤلاء رجال يشبهون الجان فويحهم. ثم مضى إلى القلعة هو وأرباب دولته وتحصنوا بها وطلوا تلك الأدراج بالزئبق والصابون والجير وقد جمع فيها قوت عشرين سنة ولها باب من الحديد لا يفتحه إلا مائة رجل فأغلقوا ذلك الباب. وأما أصحاب رسول الله (ص) صاروا يدورون في المدينة ويدخلون إلى البيوت ويخرجونهم من المخادع والمعاكف ويذبحونهم على أبوابهم حتى كلت سواعدهم من الذبح. وسارت الدماء في المدينة كالأنهار ولم يزالوا على ذلك سبعة أيام حتى لم يبق في المدينة إلا من أسلم أو أقر بالجزية. ثم تفقدوا من قتل منهم فإذا هم ثلثمائة وسبعون فارساً ختم الله لهم بالشهادة ومات من الكفار شيء لا يحصى. قال وأتوا إليهم الرعايا وقالوا نحن أهل ذمتكم وكنا مغلوبين على أمرنا فمن أسلم منهم تركوه ومن أبى وضعوا عليه الجزية ثم أمرهم أن يجروا القتلى ويجعلوهم في حفائر ويجعلوا عليهم التراب. وأما الشهداء يشهرون قبورهم.

ثم أن الإمام (ع) قال: يا صعصعة نادي في الناس بالاجتماع فنادى وهو يقول الاجتماع يا مسلمين بذلك أمر أمير المؤمنين. فأتوا يهرعون من شوارع المدينة حتى اجتمعوا بين يدي أمير المؤمنين (ع) فقال لهم أصحاب رسول الله (ص) إن المدينة قد ملكناها بحول الله وقوته وهذا الملعون الذي قتل رجالنا وما أتيت من الكوفة إلا لآخذ رأسه فإنه تحصن في هذه القلعة فما رأيكم؟ فقالوا نحن معك وبين يديك. فقال لهم شاغلوا هذه القلعة بالسهام من جوانبها فشاغلوها بالسهام وصار الكفار يرمونهم بالسهام والأحجار فقال أيكم يرقى إلى هذه القلعة وإن مات فله الجنة. فصعد عبدالله بن رواحة فوضع قدميه على أول درجة فاسقطوا عليه حجراً فمات وعجل الله بروحه إلى الجنة. ولم يزالوا كذلك حتى قتل عشرة رجال ولم يبلغوا ثلاث درجات فتأخروا. فقال الإمام (ع) أيكم يصعد إلى هذه القلعة فلم يجبه أحد فقال أنا لها وإن مت فالخليفة عليكم من بعدي ولدي الحسن (ع) وإن مات الحسن فالخليفة من بعدي الحسين (ع). ثم إن الإمام (ع) تقدم إلى الأدراج وقال: بسم الله الرحمن الرحيم ووضع قدمه على الدرجة الأولى وقال نصر من الله وفتح قريب وصار كلما وضع قدمه على درجة يقرأ آية من القرآن العظيم حتى صعد خمس درجات. ثم نظر إلى ورائه فرأى ولده الحسن (ع) فقال له ارجع حتى تراني هلكت فدونك وما تريد فرجع الحسن (ع) إلى مكانه، ثم تبعه عمار بن ياسر فقال له الإمام (ع) أين تريد يا عمار؟ قال أريد أن أكون معك؟ فقال اتبعني يا عمار فأنت رفيقي في الجنة. قال عمار فتبعته وصار كلما رقي درجة رقيتها خلفه وصار الكفار

يرمون السهام والأحجار والإمام (ع) فأخذها بالدرقة يميناً وشمالاً عن رأسي ورأسه. ثم قال يا عمار أتدري كم صعدنا من الأدراج، فقلت كلا، فقال صعدنا خمس عشرة درجة. فقلت له ومن يقدر على الباقي فقال يقدر عليه علي بن أبي طالب ثم وثب وثبة كوثبة الأسد فعددت في وثبته إحدى عشرة درجة ثم قال اتبعني يا عمار. فقلت أين أتبعك يا أمير المؤمنين لقد انقطع بي السبيل. قال اتبعني ولا تخف. وصارت السهام والأحجار تتساقط علينا والإمام (ع) يأخذها بالدرقة يميناً وشمالاً حتى صرت معه ثم وثب وثبة أخرى وعددت خمس عشرة درجة، وقال اتبعني ولا تخف. وصرت أرقى درجة بعد درجة حتى صرت معه. وأما المشركون لما تحققوا أننا صعدنا إليهم علت أصواتهم وزعيقهم، قال لهم الملك ماذا أسمع فقالوا له أيها الملك هذا علي بن أبي طالب قد دخل القلعة علينا. قال وأين الباب؟ قالوا قد اقتلعه من مكانه ورماه خلف ظهره. قال اقتلوه هذا مغرور بنفسه فقالوا له أنت أولى بذلك منا كل ذلك والإمام (ع) يضحك عليهم، ثم عجم وصار يضربهم بالسيف فيقتلهم وأنا خلفه والذي لم يلحقه سيف الإمام لحقه سيفي. ثم دخل الحسن والحسين (ع) ومحمد بن الحنفية وخالد بن الوليد والمقداد بن الأسود وعبدالله بن الزبير والفضل بن العباس وعبد الرحمن بي أبي بكر وعبدالله بن عمر بن الخطاب والعباس بن مرداس السلمي والمسلمون خلفهم فما كنت ترى إلا سيفاً يلوح وبطلاً مطروحاً. ولما رأى الملك ذلك فتح الباب الثاني ودخل هو وأرباب دولته وأغلقوا عليهم الأبواب والذي بقي من الجيش أخذته السيوف. ثم تقدم الإمام (ع) إلى الباب الثاني واقتلعه ورماه ودخل عليهم وقد تمكنت سويف المسلمين في رقاب الكافرين حتى جرى الدم فيها كالأنهار. ولما عاين الملك ذلك فتح باب الحريم ودخل وأغلق عليه وأما الوزراء وأرباب الدولة فإنهم قتلوا عن آخرهم. ثم أتى الإمام (ع) إلى الباب واقتلعه من مكانه ورماه ودخل فضجت الحريم فصاح الإمام (ع) عليهم وقبض على الملك من بين نسائه وقال له: يا عدو الله ليس لك شفقة على عيالك وأموال؟ فقال: نعم. قال: تحرز نفسك وأموالك وبلادك بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويكون لك ما لنا وعليك ما علينا وملكك باقياً عليك. فقال يا ابن أبي طالب هذه أثقل من الجبل وأنا ما قلتها وابن عمك حي، وكان يعرف جيوشي ومقدرتي فما أقولها وأنا تحت الذل. قال له الإمام (ع) ألست قلت أن تجعل أول خيلك يصل إلى الكوفة وآخرها يخرج من تكريت؟ قال: نعم. قال له: وأين مضت خيولك؟ قال يا ابن أبي طالب لا كثرة على سيوفكم. وكان عليه درع من الذهب مرصع بالجواهر لم تقطع فيه السيوف وأطلقه الإمام علي (ع) من يده ثم ضربه بالسيف على مفرق رأسه خرج من بين فخذيه ولم يبق أحد من القوم إلا وأقر بالجزية وبنى فيها مسجداً عظيماً وقسم الغنائم بين الصحابة وترك عندهم من يعلمهم شرائع دينهم ثم أنهم ارتحلوا إلى مدينة الكوفة فرحين مستبشرين. ❖



(صفحة اول «خاوران نامة» المتحف البريطاني)

(تاريخ النسخ رمضان ١٠٩٧هـ - مصورة أكاديمية الكوفة)



نسخة خطية من خاوران نامة موجود في المكتب الهندي - لندن»

مؤرخة ٩٤٥ هـ مصورة أكاديمية الكوفة

(٢)
ملحمة خاورنامه الأسطورية
في بطولة الإمام علي (ع)
لابن حسام خوسفي المتوفى سنة (٨٧٥هـ-١٤٧٠م)

د. أمين عبد المجيد بدوي(*)

خاورنامه أي كتاب المشرق. أو كتاب مدينة خاور ـ كما يفهم من سياق القصة ـ ملحمة مذهبية شيعية نظمت في بطولة الإمام علي بن أبي طالب وحملاته برفقة بطليه مالك الأشتر وأبي المحجن على أرض خاوران وحروبهم ضد ملكها قباد وغيره من الملوك والأمراء والجن والكائنات الخرافية والسحرة. ويزعم ناظمها أنه اعتمد في نظمها على مصدر عربي. وقد نظمت القصة سنة ٨٣٠هـ ـ ١٤٢٦م.

جو برسال هشصد بيفزودسي شد اين نامه تازيان بارسي

مر اين نامه راخاوران نامه نام نهادم بداء نكه كه كردم تمام

أي:

لما زيد على سنة ثمانمائة ثلاثون صار هذا الكتاب العربي[1] فارسياً.

وأسميت هذا الكتاب خاوران نامه حين أتممته.

❖ ❖ ❖

(*) أمين عبد المجيد بدوي (١٣٢٥ ـ ١٤١٨هـ) (١٩٠٧ ـ ١٩٩٧م).

أحد كبار الدارسين المصريين للغة و الأدب الفارسي ومن أدباء و باحثي مصر المرموقين، ولد في مدينة الجيزة، وتوفي في القاهرة. بدأ رحلة العمل عقب دراسته في الكتاب، ثم في مدرسة السلطان حسين الأولية الراقية، ولم يكن بلغ العشرين، كما عمل مدرساً بعدة مدارس في الصعيد الأوسط (محافظة المنيا)، ثم انتقل للعمل بالمالية (في الصعيد أيضاً) وفي تلك المرحلة عاد إلى الدراسة، حتى تخرج في كلية الآداب (جامعة فؤاد الأول/القاهرة) ١٩٤٨، ثم حصل على دبلوم في اللغات الشرقية مما رشحه للسفر إلى إيران وإعداد الدكتوراه عام ١٩٥٦، كما حصل على دكتوراه (أخرى) من جامعة القاهرة عام ١٩٦٢.

شغل عدة وظائف إدارية بمؤسسات تعليمية في القاهرة، كما نهض بتدريس اللغة الفارسية بآداب جامعة عين شمس ـ انتداباً، لتقدم سنّه.

- له خمسة دواوين (مخطوطة): حصاد المشيب ـ هشيم الحصاد ـ هشيم الهشيم ـ حب الحصيد ـ دموع وشجن.
- ترجم عن الفارسية سبعة كتب، من أهمها: «جنة الورد»، هي الترجمة العربية لكتاب «كلستان» للشاعر سعدي الشيرازي، وكتاب: «سندباد الحكيم» وهو ترجمة لكتاب «سندباد نامه»، وكتاب: من روائع القصص في الأدب الفارسي»، و له مؤلفات باللغة الفارسية في الأدب وقواعد اللغة يعد أحد رواد الدراسات الفارسية...

(١) حرفية الترجمة: كتاب العرب هذا.

ويلاحظ أن اسم الكتاب في هذا الشعر (خاوران نامه) وليس خاورنامه، ولعل هذا راجع إلى الضرورة الشعرية.

وناظم هذا المثنوى هو مولانا محمد بن حسام الدين المشهور بابن حسام من شعراء القرن التاسع الهجري وتاريخ وفاته سنة ٨٧٥ هـ - ١٤٧٠م. وكان رجلاً زاهداً يعيش على الزراعة في قرية تسمى (خوسف) من قرى قهستان خراسان وهي الآن جزء من (بيرجند وقاينات) ويقول في تزهده وقناعته:

ببك قرص جوتاشب از با* مكاه قناعت نمايم جو خورشيد وماه

شكم جون بيك نان توان كردسير مكش منت سفره اردشير

أي: إنني أقنع بقرص شعير من الصباح إلى الليل مثل الشمس والقمر.

وما دام يمكن إشباع البطن برغيف فلا تتحمل منة سفرة أردشير.

ويقول دولت شاه السمرقندي في كتابه تذكرة الشعراء المُؤلَف سنة ٨٩٢هـ - ١٤٨٦م. عن ابن حسام: (ملك الكلام مولانا محمد حسام الدين المشهور بابن حسام رحمة الله عليه بغايت خوش* كوست وباوجود شاعري صاحب فضل بود وقناعتي وانقطاعي از خلق داشته، از خوسف است من أعمال قهستان وازدهقنت نان حلال حاصل كردي و* كاوبستي وصباح كه بصحرا رفتي تاشام اشعار خودرا بردسته بيل نوشتي، وبعضي أو را ولي حق شمرده اند و در منقبت* كويي در عصرخود نظير نداشت وقصائد غرا دارد واين قصيده در نعت رسول رب العالمين صلى الله عليه و اله است كه بعضى از آن قلمي ميشود:

اي رُفته آستان تو رضوان باستين جاروب فرش زلف حور عين

توفي ابن حسام في شهور سنة خمس وسبعين وثمانمائة من الهجرة النبوية[1].

❖ ❖ ❖

وترجمة العبارة: (ملك الكلام مولانا محمد حسام الدين المشهور بابن حسام رحمه الله عليه شاعر مجيد للغاية وكان مع شاعريته صاحب فضل وقناعة وانقطاع عن الخلق. وهو من «خوسف» من أعمال قهستان وكان يحصل عيشه الحلال من الفلاحة وكان يربي الماشية، وعندما كان يذهب في الصباح إلى الصحراء كان يكتب أشعاره على يد الفأس حتى المساء وقد عده البعض ولي الحق ولم يكن له نظير في عصره في ذكر المناقب وله قصائد غراء وهذه قصيدة في نعت رسول رب العالمين صلى الله عليه و اله نذكر بعضها:

يا من كنس رضوان بكمه عتبتك، وطرة الحور العين مكنسة بساط مسندك

توفي ابن حسام في شهور سنة خمس وسبعين وثمانمائة من الهجرة.

---

(١) حماسة سرائي ص ٣٧٧ - ٣٧٩.

وتوجد من هذه القصة طبعات شعبية منشورة كثيرة التداول نظراً لصبغتها المذهبية وتعلقها بالإمام الأول للشيعة علي بن أبي طالب.

وخلاصة القصة في صورتها الشعبية أن سعد بن أبي وقاص وأبا المحجن خرجا ذات يوم راكبين إلى الصحراء للتفرج فأبعدا وأقبل عليهما المساء فضلا الطريق وقضيا على ذلك أياماً كادا يهلكان فيها عطشاً وجوعاً، وإذا بقافلة تلوح من بعيد فأسرع إليها أبو المحجن ليتزود، فرأى جماعة حفاة حاسري الرؤوس يضربون رؤوسهم ويصيحون بصوت بلغ السماء: **(يا محمد يا علي)** فسألهم خبرهم فقالوا إنهم خرجوا يوماً من عند رسول الله إلى بلاد خاور (المشرق) للتجارة ومع وثنية أهل هذه البلاد لم يتعرض لهم أحد بمكروه، وكان على مقربة منها مدينة تسمى **حصن الربيع** عليها ملك ظالم يسلب أموال المسلمين ويشوي لحومهم ولا يتعرض لأحد من عبدة الأوثان، وقد نهب أموالهم وقتل كثيراً منهم، وهم بقتلهم كذلك لولا أن أشار عليه وزيره سفيان بتركهم يذهبون إلى محمد فإذا علم علي بأمرهم جاء إلى مدينتهم للانتقام فيقتلونه ويريحون الخلق منه، فعمل برأي وزيره وأخلى سبيلهم في أتعس حال، ولما لم يكن لديهم فضل من ماء وزاد أرشدوه إلى عين قريبة فتزود منها بالماء وعاد إلى سعد وهو فاقد الوعي فسقاه وصادا طيراً شوياه وأكلاه ثم قص أبو المحجن على سعد قصة القوم وصارحه بعزمه على الذهاب إلى حصن الربيع للانتقام فانطلقا حتى بلغاها فوجدا على بابها صنماً كبيراً يتحتم على كل عابر به السجود له ومثلا بين يدي الملك وادعى سعد أنه من الروم وأن رفيقه (أبا المحجن) من البربر وقد جاءا ينشدان بعيراً ضل منهما وتسمى سعد بشمعون وأبو المحجن بهامان، فأمر الملك بتعليق صنم في عنق كل منهما، وفي مجلس للشراب وقد دارت الخمر بالرؤوس دخل رسول يخبر الملك بوصول قافلة من المؤمنين تحمل أموالاً طائلة فسر نادر شاه وأرسل من يأتيه بهم ليسصفي أموالهم ويشرب دماءهم. وحمل عليهم قائد اسمه فرهاد فغضب أبو المحجن ووسطه بسيفه ووقع في أصحابه فولوا هاربين وأخبروا الملك فقبض على سعد (شمعون) وسجنه في برج القلعة ولكن أبا المحجن يتسلق السور ليلاً بوهقه ليخلص رفيقه. وكان لنادرشاه ابنة رأت في منامها أن النبي دعاها للإسلام فأسلمت وزوجها من سعد فاستيقظت وإذا بحجرتها تعبق بأريج المسك فدخلت على سعد بالسجن وقصت عليه رؤياها ودخل عليهما أبو المحجن وعرف قصة الفتاة وقدمت لهما الطعام ثم خرجت وعادت برأس أبيها نادرشاه وأبت إلا أن ترافقهما في قتال المشركين فلما أصبح الصباح أعلن ثلاثتهم على أهل المدينة حرباً دامت إلى المساء وانجلت عن إيمان من بقي ومعهم الوزير سفيان. وآل التخت الملكي والتاج إلى ابنة نادر شاه المسلمة.

ولكن عمها قتالشاه ثار وجاء لحربها فلما أحس أهل المدينة بأسه تسللوا إليه زرافات ووحداناً ومعهم الوزير سفيان بعد أن نصح لسعد وأبي المحجن وصاحبتهما بمغادرة المدينة ليلاً ويسر لهما طريق الهرب.

وفي أثناء الليل هاجم الفرسان الثلاثة معسكر المشركين كل منهم من ناحية يرسلون صيحات الرعب فهاج الجند واضطربوا وظنوا أن جيشاً من المسلمين أحاط بهم فأعملوا السيف في رقاب بعضهم البعض حتى الصباح بينما خلص الصائحون ليستريحوا تحت شجرة. وظن قتالشاه أنه قضى على العدو وإذا بالفتاة وصاحبيها يقعون في عسكره كالنار في الهشيم حتى الليل وعادوا إلى شجرتهم ليستريحوا ويعيدوا الكرة في الصباح.

وعند الظهر أسر سعد وصاحبته وبقي أبو المحجن وحده طليقاً ولما علم النبي من التجار العائدين إلى المدينة بأمرهم أرسل عمراً بن أمية العيار فوافى سعداً وصاحبته وهما على النطع فرش رأسه ووجهه بماء من كأس آدم السحرية وظهر في صورة جلاد وقال لقتالشاه إن الصنم الأكبر أرسله لقتلهما عند قدميه بالمعبد وانطلق بهما ثم عاد في صورة الكاهن الأكبر وصحب قتالشاه إلى المعبد وقتله هناك وانتهز سعد وأبو المحجن الفرصة فقتلا حاشية الملك وأسلم من بقي من أهل المدينة على أيديهم وعاد عمرو ليخبر النبي بما كان، فلبس على سلاحه وأرسل اثني عشر ألفاً بقيادة مالك الأشتر إلى مدينة حصن الربيع وسلك هو وقنبر طريقاً آخر انتهى بهما إلى غابة فخرج عليهما تشوبال ملك الزنج بعسكره ودارت مناوشات انتهت بإسلام الملك وجنوده وأمره علي بالذهاب والاستعداد وملاقاته عند مدينة خاور.

وذهب علي لبعض شأنه بالغابة فجاء جماعة من الوثنيين وأسروا قنبراً وأرادوا استياق فرسه دُلدُل فحمل عليهم وجرح نفراً منهم فتركوه وانصرفوا، ولم يجد عليّ صاحبه، فسار إلى حصن الربيع ولما علم أهلها بمقدمه خرجوا إليه مستقبلين وسار هو وسعد إلى مدينة خاور فوصلا عند العصر إلى قلعة يتدلى من شرفاتها رؤوس كثيرة معلقة تقطر منها الدماء ويرعى في خارجها بغال كثيرة.

وانفتح باب القلعة بإشارة من إصبع علي فأمر سعداً بحمل ما بها من الكنوز على الجمال والبغال وساروا إلى مدينة خاور فرأوا عسكراً كثيراً كان ملك المدينة يستعرضهم وعلم الملك بوصول القافلة فأرسل في طلب علي وسأله ما معك؟ قال: سيف ومركب، ووضع السيف على الأرض قائلاً كل من يستطيع حمله فهو له فعجزوا وسأله الملك بكم تبيع حصانك فقال: كل من يمسك به فهو له. فكان الحصان يقضم رأس كل من يقترب منه، ثم أحضروا قنبراً فكان دلدل يرفس كل من حوله فنجا، وطمع ملك خاور في صاحبة سعد الحسناء فحارب سعد دونها إلى أن أسر آخر الأمر فلما رأت الفتاة ذلك لبست عُدة الحرب وحملت على جند الملك وقتلت منهم عدداً كبيراً ثم أسرت كذلك.

وعاد علي بعد خلاص قنبر فلم يجد دلدلاً، وكان الحصان قد أمسك بسيفه ذي الفقار بفمه وسار حتى وصل إلى إصطبل بهادر خان ملك مدينة (سيامي) ولم يمكن أحداً من الدنو منه. ورأى الملك النبي في المنام يأمره بالسير في ركاب ابن عمه ونصرته وأطلعه على وجود حصانه وسيفه بإصطبله وكلفه بأن يحملهما إليه في مدينة (خرم آباد). وأسلم بهادرخان

وامتثل أمر النبي وسار في خمسين ألف مقاتل فلما بلغ مدينة خاور وجد علياً يحارب عسكرها وحده بغير سلاح فسلمه سيفه ذا الفقار وانضم إليه برجاله في القتال وبينا هم كذلك إذ ارتفع غبار من بعيد تكشف عن اثني عشر ألف رجل يحملون علماً كُتب عليه نصر من الله وفتح قريب بقيادة مالك الأشتر ففر ملك خاور وأسلم ابنه قباد على يد علي فولاه ملكاً على المدينة، وسار هو بعسكر المسلمين حتى بلغ مفترق طرق خمس وعلى رأس كل طريق حجر كتب عليه (في هذه الطريق طلسمات).

ولما علم خمار بن خمار بخروج علي إلى مدينة خاور جمع مائتي ألف رجل وقصد مدينة الرسول لتخريبها، فنزل جبريل على النبي يثبت فؤاده، وتقدم إليه النبي فرفع خمار يده بالسيف فجمدت ذراعه ورفع يده الأخرى فتصلبت كذلك ونظر بين يدي النبي وإذا **بفاطمة الزهراء** رافعة رأسها ويديها إلى السماء تدعو لعسكر الإسلام فآمن وعفا عنه الرسول وأذن له في العودة إلى دياره.

وقسم على جنده عند مفترق الطرق، فسار مالك الأشتر برجاله حتى وصل إلى بادية ترتفع منها أصوات السحرة فلم يكترث وأغذ السير. فلمع البرق ودوى الرعد وانكب جواده على رأسه وتفرق جنده وبقي وحده يناجي ربه من فوق ربوة ونظر فإذا بأسفلها عين وشجرة، فجلس تحت الشجرة واقتات بطيور صادها، واتفق أن كانت ابنة الملك جمشيد تسير مع جواريها إلى مغناطيس معبد الأصنام الأعظم فرأت مالكاً فعشقته وعشقها، وأرسلت إليه جارية تأتيها بخبره فراعها جماله وفتنت به ولم تقو على المشي فأرسلت أخرى فلم تعد فجاءت بنفسها ووقفت حياله قائلة أيها الشاب من أين جئت وما اسمك؟ فقال: تاجر ضللت الطريق ومن بلاد البربر واسمي هامان، وأنت يا ذات الدلال أخبريني وردة أي بستان أنت وأي مدينة هذه؟ فأجابته ستعرف حالاً وعادت بجواريها.

وكان جمشيد قد عقد في ذلك الوقت مجلساً دعا إليه ابنته وأمر خطابها الكثيرين بالنزول إلى الميدان للمصارعة والمبارزة ليكون الفائز منهم صهره، وكان من بينهم بطل اسمه طهماسبخان غلب اثني عشر بطلاً ولم يجرؤ أحد على منازلته بعد ذلك، ولما أراد جمشيد أن يزوجه ابنته قالت له، لقد رأيت شاباً عند المعبد وهو كفيل بتأديب طهماسب فلما أقبل مالك أمسك طهماسب بمعاقد منطقته يريد إنزاله عن حصانه فضربه مالك بمقدمة حذائه تحت ذقنه فأطاح برأسه وتدحرج في الميدان كالكرة ولم يجرؤ بطل آخر على منازلة مالك فترجل وأجلسه جمشيد إلى جواره على كرسي فتحطم تحته فامتقع لون الملك وأمر له بكرس من فولاذ.

ودخل أثناء ذلك رسول يحمل رسالة من الملك شابور يقول فيها إنه قادم في مائتي ألف فارس لمصارعة أبطال جمشيد فإن تفوقوا عليه يكون ما بقي عبداً له وإن غلبهم يتزوج ابنة جمشيد، وأقبل شابور وعلم بقصة مالك وتصارعا من الصباح إلى العصر وأخيراً صاح ابن

الأشتر من أعماق قلبه يا علي! ورفع شابور فوق رأسه وضرب به الأرض بين صيحات الاستحسان وأمر جمشيد بطبق من الذهب نثاراً له ولم تتمالك الفتاة نفسها عشقاً وفرحاً وطالبت أباها بالوفاء بوعده فعقد له عليها ووهبه مدينة جم، وخرج شابور وهو يضمر الغدر ولقي مالكاً عند باب القصر فصوب رمحه إلى صدره ولكن مالكاً تفادى الرمح وضربه بالعمود فسوى به وبمركبه الأرض، ودخل مدينة جم وبايعه الناس ملكاً عليهم.

مقاتلة علي للتنين و فتح مدينة خاور:

أما علي فسار مع قنبر في إحدى الطرق الخمس حتى وصلا إلى قلعة ذات أربعة أبراج وعلى كل برج تنين طوله ثلثمائة ذراع، فارتفعت صيحات التنانين: إلى أين أيها الآدمي؟ فخاف قنبر أما علي فطوح ذا الفقار فدار في الهواء وتحول تنيناً وقف إزاءها، وأخذت التنانين تمطر نيراناً كان ذو الفقار يبتلعها واحدة فواحدة وبعد أن أعجزها طفق ينفث نيرانه وإذا بهزيم الرعد والبرق يعلو فجأة وسمع صوت من بين السحاب يقول احترقت، وظهر بعد ذلك ساحر عجوز محترق ولم يبق أثر للتنانين، فدخل علي القلعة ووجد بها كنوزاً لسليمان فحمل بعضها وسار إلى مدينة خاور، وعلم جمشيد بمقدمه فاستدعاه إليه وسأله عن اسمه وبلده فقال وما شأنك بهذا؟ فأمر وزيره أن يضرب الرمل ليعرف شأنه.

فأخبره الوزير بأن الفتى أعلى شأنا من صهره هامان فطلب إليه أن ينظر في الاصطرلاب فما فعل حتى علته رعدة وقال: إذا لم أكن مخطئاً فهذا الفتى البربري هو علي العرب فصاح جمشيد: خذوه وأحاط به الجند فرفع يده بسيفه ذي الفقار وصاح فارتج البر والبحر، وصادف ذلك قدوم ميرسباه بعسكره من تلك الناحية قاصداً مدينة خاور فسمع صوت علي وعسكر بجيشه خارج المدينة وأعمل على سيفه في رقاب المشركين وأحضر له قنبر دلدلاً فركبه وشق طريقه إلى باب القصر ولحق بعسكر المسلمين وعسكر جمشيد في الطرف المقابل ودقت طبول الحرب فلما طلعت الشمس تولى ميرسباه ميمنة جيش المسلمين وقنبر الميسرة ورتب جميشيد جيشه ونصب تخته على ظهور أربعة أفيال وجلس فوقه وعلى رأسه المظلة الملكية وبارز علي أكثر من عشرين بطلاً من المشركين أرداهم جميعاً ولما أقبل الليل دقت طبول العودة.

ودخل عمرو على علي برسالة من النبي ورجاه أن يكون في ركابه فأذن له بالذهاب إلى معسكر جمشيد فرأى هنالك مجلساً للشراب والغناء فدخله في صورة ساق وأخذ يرقص فاتجهت إليه الأنظار وانتهز غرة من القوم فوضع مخدراً في كأس وسقى كلاً منهم جرعة فلعب الشراب برؤوسهم وتضاربوا وغابوا عن صوابهم فجردهم من ملابسهم وحمل كل ما استطاع وكتب ورقة دسها في يد جمشيد وذهب، وأفاقوا في الصباح ليروا أنفسهم عُراة ورأى جمشيد في يده ورقة كتب فيها: اعلم يا جمشيد أني عمرو الذي جعل كل العيارين في خدمة حمزة صاحب القرآن تحت أمره، ولم أقتلك لأن مولاي لم يأذن لي بذلك، فإن أردت البقاء

على لحيتك وشاربيك فضع كل ليلة ثلاثين ألف طومان تحت رأسك وإلا سودت عيشك، ولم يجد جمشيد تاجه فجمع عسكره لمحاربة المسلمين ولما التقى الجمعان برز إلى الميدان من رجال جمشيد بطل اسمه (شماسخان) وصاح: يا علي لقد أرسلت ليلة أمس لصّاً سرق تاج الملك فسلم إلي هذا اللص، فخرج إليه عمرو متحدياً وقال أنا الذي أخذت تاج جمشيد فما تريد؟ فرماه شماسخان بسهمين تفاداهما ثم أخذ عمرو يرميه بالأحجار من مقلاعه تباعاً حتى أدمى جبهته وأجبره على الفرار.

وظهر من ناحية الصحراء جيش قوامه أربعمائة ألف رجل يتقدمه أبو المحجن ومالك الأشتر وعلى رأس أبي المحجن مظلة **الطلسم السليماني** وأمام مالك الأشتر سبعة أزواج من الثيران تجر عرادة عليها عمود وزنه سبعمائة من، وقيل لجمشيد إن لعلي سبعة عشر غلاماً كل منهم أمير ولاية.

وبينما هم في هذا الحديث ظهر مائتا ألف مقاتل يتقدمهم رجل كالجبل على حصان هيكل عظيم الخلق، وعرف جمشيد أنه خمار الذي أصبح من أتباع علي، ثم ثار غبار من ناحية حصن الربيع ظهر منه أربعون ألف فارس انضموا إلى عسكر المسلمين فحار جمشيد في أمره، فتقدم إليه رجل من حاشيته اسمه إسفنديار وقال: لا ينشغلن بالك ودق طبل الحرب الليلة باسمي، وطلب مالك من مولاه علي أن يضرب الطبل باسمه ونزل إلى الميدان بعموده الذي يزن سبعمائة من فخرج إليه إسفنديار وتبادلا الطعنات والضربات وتمكن مالك أخيراً من سحق إسفنديار ومركبه بضربة قاضية من عموده كما قتل ولديه وستين فارساً آخرين، ودق جمشيد طبل العودة وإذا برسول يحمل إليه رسالة من شهريار بن كاوس يخبره فيها بأنه سيمده بستمائة ألف جندي ليثأر له من علي فأفرخ روعه. وفي الصباح صاح شهريار بن كاوس بمالك لينازله فخرج إليه أبو المحجن وقضى عليه بطعنة في صدره نفذت من ظهره ثم التحم العسكران من الصباح إلى المساء وعادت حشود جمشيد بعد أن قتل منهم مائتا ألف ولم يقتل من جيش المسلمين غير تسعمائة.

وطلب جمشيد النجدة من شداد بن أخته وكانت الحراب لا تؤثر فيه لأن بدنه مطلسم.

أما عمرو فغير ثيابه ودخل على جمشيد في صورة غلام جميل وطلب إليه أن يضع تحت رأسه ثلثمائة ألف طومان وإلا جاء عمرو الليلة وحلق لحيته، ثم اختفى ليعود في المساء في صورة راع يعزف على الناي وأعطى الحراس نقلاً خدرهم فسل خنجره وحز رؤوسهم جميعاً ثم دخل إلى قصر جمشيد وخدر جميع خدمه وجواريه وجعل جارية منهم في صورة غلام وأرقدها إلى جواره وحمل كل ما استطاع ومضى، ولما صحا جمشيد وجد في يده ورقة كتب فيها: لم تعطني الثلاثمائة ألف طومان يا جمشيد وقد رحمتك الليلة فإن أردت السلامة فأسلم وإلا فصلت رأسك عن بدنك، وخرج من القصر فإذا كل حراسه قتلى. ودخل رسول يخبره بوصول شداد بن قارن في ثلثمائة ألف مقاتل فدق بشائر الفرح وفي اليوم التالي اصطف عسكر

جمشيد وعسكر المسلمين ونزل شداد إلى الميدان وبيده عمود زنته ستمائة من وصاح: يا علي أرسل إليّ فارساً أنازله فأسرع إليه مالك وتصا ولا وقتاً طويلاً بالرماح والعمد ولم تكن الضربات تؤثر في شداد لأن جسمه كان مطلسماً، وفي وطيس القتال ظهر زنجي عجيب الخلقة حال بينهما فضرب مالكاً على ركبتيه بعصا وأخرجه من الميدان وعاد فضرب مركب شداد بهراوة على جبهته فسقط على الأرض وأراد شداد النهوض من تحت الفرس وكان تحت درعه خنجر فنفذ في بطنه ومات، ثم ذهب إلى جمشيد وقال: ماذا تعطيني لو قتلت مالكاً فقال: أزوجك ابنتي جها نفروز، فقال له اكتب لي بذلك فكتب وختم ثم قال له اكتب لي كذلك بأن تعطيني كل ليلة ثلاثين ألف طومان ففهم أنه عمرو وصاح بالخدم ليمسكوه فلم يلحقوا به.

وكتب جمشيد إلى شهباز الساخر ليخلصه من علي، أما عمرو فعاد في صورة شيخ بيده رجل حمار يتوكأ عليها، وأخبروا جمشيد بمقدم كاهن الصنم الأكبر فخرج وحاشيته للقائه وسألوه العون على عمرو فبارك كلاً منهم بضربة من رجل الحمار، وقدموا له طبقاً من الذهب نثاراً له والتفوا حوله فقال: إن الصنم الأكبر يأمر جمشيد بالمجيء إلى المغناطيس لينظر إليه ثم خرج، وذهب جمشيد في الليلة التالية وسبقه عمرو فرأى هنالك شيخاً فجاءه من خلفه وخنقه وعلقه من رأسه وحمل الأصنام واختفى، وبعد ساعة وصل جمشيد وصاح بسادن المعبد فأجابه عمرو فخر جمشيد على التراب فقال عمرو: انهض أيها العبد المذنب فوقف منكس الرأس، فقال: ادخل يا عبدي مع رفاقك بعد خلع ملابسكم واعصبوا أعينكم ففعلوا ودخلوا فنزل عمرو من أعلى القلعة وأخذ ملابسهم واختفى وصاح فيهم أن اخرجوا وخرجوا فلم يجدوا ملابسهم وصاح بهم عمرو: يا جمشيد لقد رأيت أن صنمك لم يغن عنك شيئاً لقد أخذت جميع الأصنام لأسكها عملة باسم علي فإن كنت لا تعرفني فأنا عمرو!

وبينما كان جمشيد جالساً بقصره في الصباح دخل عليه رسول برسالة كتب فيها: أنا شهبال سأصل إليك اليوم أو غداً مع (شهاب) و(معلق) الساحر وأربعين ألف مقاتل لنثأر لك من علي.

ودخل عمرو مطبخ جمشيد في صورة طاه وألقى عقاراً في القدر وفي المساء تناول الساحر والأمراء الطعام فجفت حلوقهم وفقدوا وعيهم فدخل عمرو وجردهم من ثيابهم ووضع على رأس كل منهم طرطوراً من الورق وحلق لحيتي شاهبال ومعلق الساحر وحلق لكل من الباقين أحد حاجبيه وشاربيه وزوقهم جميعاً وحمل كل ذي قيمة ووضع كل ذلك بين يدي علي ثم عاد إلى قصر جمشيد ووقف في زاوية ليشهد آثار فعلته. وأفاق جمشيد في الصباح فوجد بيده رقعة كتب فيها: لقد كنت تنتظر شهبال ليشفي غليلك وقد جاء عمرو وحده وفعل بكل منكم ما فعل، فتعال وأسلم وإلا فرقت بين رأسك وبدنك ذات ليلة، واستيقظ السحرة فوجدوا أنفسهم على تلك الصورة فرفع جمشيد التاج عن رأسه وضرب به الأرض وكان ينظر إلى شهبال ويضحك من منظره فساءه ذلك وقال لجمشيد، جئتك على بعد الشقة

لنجدتك وأنت تضحك مني وعاد بجيشه، أما سعد وميرزنهار والأميرة فقد انتهوا إلى جبل وأخذوا ينظرون حولهم فرأوا طريقاً ضيقة أدت بهم إلى قلعة.

فتح قلعة الصعب وإسلام بهرام اليهودي:

وكان جماعة من الحطابين يحملون أحطاباً إلى القلعة، وعلم منهم سعد أن اسمها قلعة الصعب وملكها مهراب اليهودي وله ابن يسمى بهرام خان وهو صاحب العمود ذي الرأسين ولا يدفع خراجاً لجمشيد، ومنذ شب ابنه بهرام لم يحن أحد ظهره وإذا نزل الحرب بعموده يطوي بحراً من العسكر مثل الطومار ولكنه مريض منذ مدة، ورفضوا أن يسلموا على يد سعد فطلب منهم أن يبلغوا مهراب بأن غلام علي قادم إليه في ستين ألف رجل وإن لم يسلم ستخرب القلعة ويقتل، فخرج إليهم مهراب ودعا سعداً وميرزنهار إلى ضيافة داخل القلعة وفي العشاء وضع لهما مخدراً في الطعام وأوثقهما بالوهق، فلما سمع الجند بذلك ارتاعوا ولكن (دل افروز) شجعت العسكر وامتشقت الحسام وكاد عسكر المسلمين ينهزمون وإذا بالجيش الذي كان النبي أرسله من المدينة قد وصل فحمل على العدو وأوسعهم تقتيلاً.

أما بهرامخان المريض فقد رأى في غيبوبته أن سقف غرفته انشق وظهر منه نور يقول بلسان فصيح انهض يا بهرام لتكون في ركاب ابن عمي وتقاتل معه فقال أنا مريض فأجابه النور لقد شفيت وعلم أن صاحب النور هو خاتم الأنبياء وأفاق فشم رائحة المسك والعبير ونهض معافىً كأن لم يمرض من قبل فلبس سلاحه وصاح: **يا علي يا ولي الله** وحمل على قلب جيش اليهود وقال له أبوه أجننت يا ولدي؟ فضربه بهرام بعموده فسوى به الأرض وقتل كثيراً من اليهود وأسلم من بقي، ودخل بهرام القلعة وفك إسار سعد وميرزنهار معتذراً لهما، وجمعوا خمسين ألف مقاتل وساروا إلى خاور.

قتال السحرة والمردة:

ويقول الرواة إن جمشيد اعتذر لشهبال فعاد إليه بجيشه، وكان بجيش جمشيد ساحر ألقى بتنانين في الميدان، ونزل أبو المحجن وإذا بالنار تحيط فأسرع إليه مالك وأمسك بمنطقة الساحر ورفعه بيده ويمم به عسكر المسلمين فتحول الساحر إلى حجر وعندئذ ألقى به على الأرض فتحول ثعباناً وركب تنيناً ولم يجرؤ أحد على منازلته فخرج علي إلى الميدان فضربه بذي الفقار ضربة أرسلته إلى الجحيم وقتل أربعة عشر من أكابر السحرة، وكان أبو المحجن قد سقط لكثرة ما أصابه من الجراح وعجز عن القتال وفقد وعيه فانتحى به علي حتى أفاق ومسح علي جراحه فشفي وطلب إليه علي أن يجد في البحث عن مالك فسار حتى وصل إلى مرج ضربت فيه خيمة وأقيمت عدة قباب ذهبية ووجد هناك عيناً فنزل يغتسل بها وإذا بفتاة خرجت من الخيمة ونظرت إليه ففتن بها ولكنه آثر الذهاب للبحث عن مالك فأمسكت الفتاة بعنان فرسه وقالت: أيها البطل لقد رأيت حلماً والعلامات التي أريتها

موجودة فيك فما اسمك وإلى أين تذهب؟ فسألها: من أنت؟ فقالت أنا (*كلندام) ابنة أعيان الوزير وقد رأيت النبي ليلة أمس وعقد لي عليك بأمارة أن اسمك أبو المحجن ابن ملك المغرب فقال لها قبلت ولكن لا بد من الذهاب للبحث عن مالك فدخلت خيمتها وسار في طريقه حتى وصل إلى جبل ورأى جيشاً لجباً يخوض غمرات القتال وتتعالى منه صيحات (يا علي) فعرف من بينها صوت مالك، ورأى جمعاً من السحرة يحيطون به ولم تعد به قوة لكثرة ما أثخن بالجراح، فصاح أبو المحجن بالسحرة أنا علي الذي قتل عمراً وعنتراً ففروا بمعجزة هذا الاسم، ووصل عمرو فرأى مالكاً فاقد الوعي، وذهب أبو المحجن يبحث عن غذاء له فرأى بستاناً تطل منه أشجار تفاح فقطف منها عدة تفاحات أكل بعضها وهم بالعودة فغامت الدنيا في عينيه وسقط مغشيّاً عليه، وعرف السحرة أن أبا المحجن ليس بعلي فأحاطوا به وبعمرو فرفع عمرو رأسه إلى السماء يناجي ربه وإذا بغبار يعلو من الصحراء تلوح منه ألوية جيوش المسلمين وأراد السحرة الفرار ولكن أحيط بهم فقتل بعضهم وفر البعض وترك عمرو مالكاً في حماية جيوش المسلمين عائداً إلى علي فإذا به قد جمع جيشاً هزم به جمشيد واستولى على المدينة وخزائنها وخيم خارجها، وفي ذلك الوقت قدم رسول من عند النبي يحمل ثوبه الذي يبرئ الجراح المستعصية فطار به عمرو إلى مالك وألقى به على جراحه فبرئ لساعته ولحق هو والعسكر بجيش علي وأحاطوا بمدينة جمشيد، واتفق أنه عندما وقع أبو المحجن مغشيّاً عليه أن مر به (فيروزبخت) وابنة شهبال فأعجبا بشبابه وفكرا في تبنيه ولما أفاق أخبرهما بأنه ملك أقاليم المغرب السبعة فقال له فيروز لقد أنجيناك من يد شهبال وسنفوض التاج والتخت إليك لأنه لا ولد لنا فقبل، أما مالك فخرج يبحث عن أبي المحجن في الصحراء فلاح له جبل ولما انحدر منه رأى مدينة فدخلها ونزل على مقربة من قصر ملكها مُستخفياً فلمحه الملك واستدعاه.

فلما دخل عليه هم أبو المحجن بالقيام له فقال له بالعربية اجلس وأخبر الملك بأنه سائح يطوف البلاد بحثاً عن رفيق صباه ثم سأل الملك عن الشاب الجالس إلى جانبه (أبو المحجن) فقال إنه ابني وطلب إليه أن يصارعه غداً فإن غلبه كان له ما أراد فأظهر القبول، وقال لأبي المحجن بالعربية: يجب أن نفر الليلة، ولما أصبح الصباح لم يجد فيروز أبا المحجن فحدس أن الشاب الوافد قد خدعه وفر به فركب إثرهما في ستين ألف فارس، وبعد أيام لحق بهما وعسكر بجيشه فرأى النبي في المنام وأسلم ورأى ابنة شهبال في نفس الوقت تنطق بالشهادتين فأقبلا على مالك وأبي المحجن يشدان على أيديهما في حرارة وأخذوا في الحديث.

وتمكن مالك وأبو المحجن وفيروز وابنة شهبال من التسلل إلى معسكر شهبال وقتله والحملة على عسكره فقتل من قتل وأسلم من بقي فجمعوا منهم ثلاثين ألفاً، وسار بهم فيروز مع بقية جنوده إلى مدينة خاور ولكن المسلمين برغم كل هذه الجيوش لم يفتحوا المدينة لوجود طلسم بها.

فتح قلعة المغناطيس والأحداث التي تبعتها:

وجاء عمرو فتسلق سور المدينة بالوهق وعزم على كأس آدم ورش ما به من الماء على رأسه فتحول إلى صورة وثني، وتمكن من حز رؤوس البوابين ونشر قفل البوابة بمنشار قاطع للحديد، واندفع عسكر المسلمين إلى داخلها وهرب جمشيد وجلس يتشاور مع وزرائه على نصف فرسخ من المدينة وفكروا في حفر بئر كالبئر التي حفرت لرستم من قبل يستدرجون إليها علياً وفطن المسلمون إلى الخدعة وفر جمشيد واستولى المسلمون على أمواله، ولكن علياً كان يفكر في قلعة المغناطيس فلما جنه الليل رأى النبي يقول له إن هذه قلعة طلسم سليمان وفي وسطها حجر أبيض ويجب أن تضرب وسطه بسهم لتهدم القلعة والأُسد التي بها وفعل علي ما أمر به فآض النهار ليلاً مظلماً واندكت قلعة المغناطيس ولما دخلها وجد بها صندوقين أحدهما أسود والآخر أحمر، وخرج من الصندوق الأسود ساحر فأخذ علي بمعاقد منطقته وأدخله الصندوق وقذف بهما في الهواء فغابا عن الأنظار ونظر إلى الصندوق الأحمر فرأى لوحة كتب عليها: يا علي! في داخل هذا الصندوق ساحر يستطيع بكلمة واحدة أن يحول العالم حجراً فضرب الصندوق بسيفه فتعالى صوت الرعد والبرق ولم ير بعد ذلك أثراً للمغناطيس، ثم أمر بتعمير المدينة من جديد.

وخرج عمرو إلى الصحراء بحثاً عن جمشيد فلاحت له قلعة دخلها متنكراً فرأى بها جمشيد يشكو إلى أميرها ما لقيه من عمرو فقال له الأمير إن لدى عيارا اسمه كيوان يأتيه بعمرو حياً، ولمحوا عمراً وشكوا في أمره فضربوه حتى ظنوا أنه مات وألقوا به في خندق خارج القلعة فظهر له شخص نوراني أمره بالنهوض فقام كأن لم يصبه شيء وعلم أنه الخضر وغاب عن عينيه وعاد عمرو إلى معسكر جمشيد في صورة رجل عجوز ودخل خيمة المطبخ فوكله الطابخ بإيقاد النار تحت القدور وجاء كيوان العيار فقدم له عمرو طعاماً مسموماً فمات وتزيا بزيه وذهب إلى جمشيد في صورة كيوان وأخبره بأنه قتل عمراً فأمر له بمال كثير وفي المساء أقيم مجلس للشراب وعهد لكيوان المزعوم بالسقاية فخدرهم وجردهم من ملابسهم وحمل معه ما استطاع حمله بعد أن دس رقعة في يد جمشيد كتب فيها: أيها النذل أتظن أنك قتلت عمراً ونجوت، لقد رحمتك وقتلت كيوان وسأعود إليك غداً بعسكر محمد فلا تستطيع فراراً.

فتح مدينة تمنا وجبل البللور:

أما علي فبعد فتحه مدينة خاور أقام عرساً لمالك وأبي المحجن لمدة سبعة أيام بلياليها وفي اليوم الثامن وصل عمرو فأخبره بما جرى فجهز جيشاً سيره إلى جمشيد، وبصر جمشيد

بعشرين ألف فارس يقودهم خمار بن خمار ولم يسكن غبارهم حتى علا غبار ستة آلاف فارس بقيادة تشوبال الزنجي ثم أربعة آلاف يحملون علم القمر وعلماً آخر عليه صورة تنين ولاح بعد ذلك علم كتب عليه نصر من الله وفتح قريب تحته أمير المؤمنين وعن يساره ويمينه مالك وأبو المحجن وهم جمشيد بإلقاء نفسه من سطح القلعة وإذا برسالة يدعوه فيها علي إلى الإسلام فاستمهله إلى الغد ، وأخبره أمير القلعة بأن على الشاطئ الآخر من البحر مدينة تسمى (تمنا) وهي عاصمة قهرمان بن ناصرشاه. وفي نفس الليلة ركب هو وأصحابه سفينة أقلتهم إلى تلك المدينة وفي الصباح زحف المسلمون على القلعة وأسلم أميرها وأخبرهم بأمر جمشيد فأمر علي بإحضار السفن وأمر سعداً بالمحافظة على مدينة خاور وأركب كلاً من قواده سفينة وركب وأقلعوا جميعاً. وفي اليوم الرابع هبت عاصفة فرقتهم وحملت كل سفينة إلى ناحية. واستقبل قهرمان جمشيد بإعزاز واحترام وأخذ في إعداد جيوشه لحرب علي. ووصل أمير المؤمنين وأبو المحجن إلى مدينة (تمنا) ودارت الحرب وقتل قهرمان واستأمن جنوده وأسلموا وأسلم جمشيد مضطراً واستولى المسلمون على المدينة. وحملت الريح سفينة ميرسياف ومعه قنبر ودلدل إلى جبل البللور حيث يقيم الشياطين وطلسم سليمان، ولاح في سفح الجبل أسد عظيم الخلقة فرفسه دلدل رفسة نثرت مخه وبعد ساعة انحدر من الجبل عشرة أسود فأخذ دلدل عليها الطريق وقتل كلاً منها برفسة وهربت بقية الأسود ، وأما مالك فوقعت سفينته في دوامة وغرق عسكره وسبح هو على لوح حتى وصل إلى جبل البللور وظهرت سحابة صغيرة أمسكت بجيب مالك وارتفعت به في السماء ، أما علي فترك مدينة تمنا لجمشيد وركب ليبحث عن أصحابه ، فوصل كذلك إلى جبل البللور وترك أبا المحجن على الشاطئ وذهب يتمشى فلاحت لأبي المحجن سحابة وانقضت عليه تريد اختطافه فشطرها بسيفه ومرت به سحابة الشيطان الذي خطف مالكاً فلما سمع مالك صوت أبي المحجن تعلق بقرني الشيطان وأرغمه على الهبوط فقده أبو المحجن بسيفه وخلص صاحبه ثم استبطآ علياً وقد غاب عنهما يومين فذهبا للبحث عنه ورأيا بعد أسبوع عسكر المسلمين وعلى رأسهم ميرسياف وقد تناثرت حوله جثث آساد كثيرة فعرفا أن قاتلها دلدل، وظهر من فتحة في الجبل عدد كبير من الشياطين والأسود تصيح بهم أيها الآدميون ما جاء بكم؟ سننزل بكم من البلاء ما يتحاكى به الناس، وقتل مالك أحدها بسيفه، أما علي فضل الطريق بالجبل وظل عشرة أيام في تيهه بين مخارمه وشعابه وفي اليوم الحادي عشر أحدق به دفعة عشرون ألف شيطان فصاح فيهم وحمل عليهم وسمعه مالك وأبو المحجن ففرحا وانضما إليه وفي أثناء القتال انحدر من ناحية أخرى أفواج من الشياطين واصطفوا إزاء الشياطين الذين كانوا يحاربون علياً، وكانت هذه الأفواج بقيادة (هلال شاه زرّين كُلاه من أولاد شهبال بن شاهرخ الذي يتصل نسبه بسليمان وكان مالكاً لجبل البللور ولكن (سمندان هزار دست) غصبه منه، وذهب هلال إلى جبل قاف وكان في كل سنة يجمع الجيوش لاسترداد جبل البللور فلم يستطع

وأخيراً سمع بأن آدميّاً اسمه علي جاء إلى الجبل وقد فتح مدينة خاور فجاء بجيشه ليسترد ملكه بمساعدة علي، وهزم علي الشياطين بعد حرب عنيفة فطلبوا منه الأمان وأسلموا على يديه وطلب منهم أن يأتواه بكل ما يتعلق بسليمان فقدموا له مفتاح القلعة ولما دخلها وجد بها ذخائر سليمان التي آلت إلى الإسكندر ثم إلى (شاهرُخْ بريزاد) ثم إلى بهمن بن هلال ثم غصبها ابن سمندان وجاء لحرب علي انتقاماً لأبيه الذي قتله حمزة صاحب القرآن، فأعطاها علي لهلال.

وعلم طهماسب بوجود علي في جبل البللور فأغار علي على مدينة خاور وخربها وأسر سعداً ومن معه من النساء، أما علي فعاد إلى مدينة تمنا وأقلع منها إلى خاور يحمل ذخائر قهرمان وأمر جمشيد بتعمير مدينة خاور وجعله ملكاً عليها كما أمر مالكاً وأبا المحجن بالذهاب إلى ساحل المغرب لتأديب طهماسب، وسار هو وعمرو حتى وصل مدينة يم والتقى في الطريق بالجيش الذي خرب مدينة خاور فقاتله ثم سار حتى وصل إلى عاصمة طهماسب وطلب إليه رد ما سلبه من مدينة خاور وأن يسلم أو يستعد للحرب، ووصل كذلك مالك وأبو المحجن بجيوش المسلمين واقتتل الفريقان وجاء ملك اسمه قرطاس لنصرة طهماس وكان معه عيار اسمه سالوس وَعدَ طهماس أن يأتيه بعمرو حيّاً تلك الليلة، وفي الليل بصر عمرو بسواد فاختبأ ومر به سالوس فصاح عمرو مقلداً الديك والتفت سالوس نحو مصدر الصوت فانقض عليه عمرو وجلس على صدره وسل خنجره وهدده بالقتل فاستسلم، وجرده عمرو من ثيابه فوجد معه تفاحة من الماس وفوقها مرود فلما هزها تصاعد منها دخان فعطس عمرو وخر مغشيّاً عليه فانتهز سالوس الفرصة وجرده من ثيابه وبينما كان يفتش ملابسه رأى خنجراً فلما سله تصاعد منه دخان وأغمى عليه كذلك، وأفاق عمرو قبله فأحكم وثاقه ولبس ثيابه ووضع **خرزة العيارية** في فمه فلم يعد يستطيع الكلام ورش نفسه بكأس آدم فتحول إلى صورة سالوس وحمله إلى طهماس قائلاً له قد أتيتك بعمرو فقام طهماسب في الحال وعض على عنق عمرو المزعوم غيظاً فانفجر منه الدم وأخذ يقطع من جسمه بالخنجر فلما أشرف على الهلاك سحب عمرو من فمه خرزة العيارية فصاح أيها الملك أنا سالوس وهذا عمرو وأتى بإمارة بينه وبين قرطاس فهرب عمرو في الحال ولم يلحقوا به، ودارت الحرب بين المسلمين والمشركين وقتل قرطاس بضربة من مالك شطرته من رأسه إلى حقويه، وانضم إلى طهماسب كذلك ملك اسمه (جمهور) معه عيار اسمه آتش، وبرئ سالوس العيار من جراحه فصحب آتش وتمكنا من التسلل إلى معسكر المسلمين وتخدير مالك وأبي المحجن وحملهما إلى طهماسب، ونزل جمهور في الصباح إلى الميدان وصاح بالمسلمين، وبينما كان علي يهم بمنازلته لاحت جيوش خمار بن خمار وسُهرابخان وامبرزنهار وهلال زرين كلاه مع جيش من الشياطين.

علي يحارب المشركين:

ودارت رحى الحرب فضرب علي جمهوراً ضربة شطرته هو وحصانه فانسحب طهماسب بعسكره فرقاً، أما عمرو فذهب إلى معسكر المشركين وخلص مالكاً وأبا المحجن، ولما أحس بهم المشركون وأحاطوا بهم انقض عفريتان أرسلهما هلال وحملا البطلين وطارا بهما إلى معسكر المسلمين، ثم قدم عيّار من المدينة اسمه فتاح وهو خال عمرو يحمل إلى علي رسالة من النبي يقول فيها إن الحسنين في شوق إليه.

وبدل عمرو ثيابه ودخل قصر طهماسب فوجد رسولاً يحمل رسالة من جمشيد يقول فيها إنه أسلم خوفاً وأنه قادم في مائة ألف مقاتل متظاهراً بنصرة المسلمين لينضم إلى طهماسب، فذهب عمرو إلى جمشيد في صورة اللات وقال لجمشيد إنه قادم من معبد الأصنام وذاهب إلى المغناطيس بأمر الصنم الأعظم وكان جمشيد وجيشه في أشد الحاجة إلى الماء فأضلهم الطريق إليه ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع خدرهم وحلق لحية جمشيد وشاربيه وجرده وعاد في الصباح إلى عسكر المسلمين ولما أفاق جمشيد رأى نفسه عرياناً حليق اللحية والشاربين، وكان لطهماسب بطلان لا نظير لهما يسمى أحدهما فرهادخان والآخر كلا هوار ذهبا يصطادان، فلما عادا من الصيد ورأيا الوضع على هذه الحال ثار ثائرهما وأخذ فرهاد يلوم طهماسب على تخريبه مدينة خاور وتسببه في حملة جيوش المسلمين عليهم فغضب طهماسب وعنفه ولما نهض خارجاً اعترض طريقه كلاهوار وشتمه فضربه فرهاد بجمع يده على أم رأسه فتناثر مخه وتحرك بجيشه وعسكر بين الجيشين، ثم سار ليلاً إلى علي وأسلم علي يديه وفي الصباح استأنفوا القتال فلم يسع طهماسب غير الفرار وفي اليوم التالي فرق على أبطاله ليستولوا على المدن المختلفة بولاية طهماسب وركب هو وميرسياف وقنبر ودلدل زورقاً إلى مدينة برنج وهي مدينة وسط البحر وسارفتاح حتى وصل إلى مدينة مرصع وهي عاصمة (قطب اسب) وفيها كل ذخائر طهماس فتنكر في زي الوثنيين والتحى بلحية بيضاء ودخل المدينة فرأى في كل برج صنماً مرصعاً معلقاً وقال لقطب إن الصنم الأكبر أرسلني إليك وكان قطب هذا عاشقاً لفتاة من أسرى المسلمين حبسها في غار لنفورها منه فطلب إليه أن يترك له أمرها ليسترضيها، وعرف فتاح أن الفتاة زوج أبي المحجن فأوصاها بالكتمان. أما مالك وأبو المحجن فسارا حتى وصلا إلى مدينة لأخت طهماس وسمعا نداء الأسرى: يا علي فأسرا أخت طهماسب وأسلم أهل المدينة وأسلمت هي أيضاً وأمر مالك أحد الكبراء على المدينة وسار هو وأبو المحجن وأخت طهماس إلى برنج.

وكان علي وأصحابه قد وصلوا إلى هذه المدينة المسحورة ففامت الدنيا في عين طهماسب وأنحى باللائمة على جمشيد الذي سبب له هذه البلايا وأوثقه وضربه وخرج في

خمسين ألف مقاتل، ولما رأوا عليّاً وحده أحاطوا به فبدد شملهم بحملة واحدة وفر طهمارس وتحصن بالمدينة ثم فر منها بأصحابه.

وسار علي مع عمرو أبي المحجن إلى مدينة مرصع وقتل قطب وأسلم أهل المدينة وخربت معابد الأوثان وبنيت مكانها المساجد.

وسار مالك حتى وصل إلى سفح جبل فالتقى بجيش طهماسب الذي فر به من مدينة يم وقتل (سلاسل) أكبر قواد طهماس وفي أثناء ذلك قدم طلحة في مائتي ألف مقاتل ففر طهماسب وطلب النجدة من (صلصال) ملك (خانبالغ) فأرسل إليه ابنه في مائة ألف مقاتل واستنهض بقية الأمراء، وأخذ على الطريق على صلصال ولكنه فر وجاءت شمامة امرأته في مائة ألف فارس لمعونته فأخبرها بأن عليّاً قتل سبعين من أولاده ولما سألته عن ابنها كولاب قال لها لقد انضم لعلي فقتلته فذهبت شمامة في نفر من غلمانها إلى علي وقالت له بأنه كان على مقربة من ذلك المكان مدينة يقال لها **زرين** كانت عاصمة زال أخي صلصال وكان لي من زال ولد اسمه كولاب فعشقني صلصال وسم أخاه وأرغمني على الزواج منه وأولدني مائة ولد ولكني لا أعد لهم بشعرة من كولاب وقد قتله وأريد منك ابني كولاب، فقال لها أرده إليك بشرط أن تُسلمي فرضيت فجيء بجثة كولاب وصلى ركعتين ودعا الله فنهض كولاب في الحال وألقى بنفسه على قدميه وأسلم وغضب صلصال وقدم لحرب علي فلما أحس بأسه تظاهر بالإسلام مكراً ودعا عليّاً وجيشه لضيافته ثلاثة أيام وفي اليوم الرابع استدرج عليّاً إلى بئر قال إن فيها شيطاناً يظهر كل بضعة أشهر ويثير الرعب بالمدينة فنزل علي في البئر بحبل في يد صلصال فترك هذا الحبل ورجمه بالأحجار وعاد وأذاع مقتل علي، وجاء عمرو ليلاً وخدر صلصالاً وسل خنجراً لجز رأسه فلم يقطع فيه وتنبه ففر عمرو، أما علي فقتل الشيطان في البئر ثم ظهرت قلعة خرجت منها تنانين تهاجمه فوسطها بسيفه ثم ظهرت مدينة أقبل منها شيخ يهنئ عليّاً بتحطيمه الطلسم ودخل علي المدينة فرأى دكاكين كثيرة وبضائع مختلفة من الماس والزمرد والياقوت والجواهر ودخل قصراً فرأى فيه تختاً ملكيّاً وتختاً على شكل دال فوقه أمراء جالسون على كراسي من ذهب، ثم عاد إلى المعسكر وأرسل في حمل هذه الكنوز، أما صلصال فظن عليّاً قد مات وقتل كثيراً من المسلمين فلما ظهر علي فر وتحصن في قلعة على ساحل البحر يقال لها الشيطان فلما حاصرته جيوش المسلمين ألقى بنفسه في البحر ومات فشكر علي ربه وأغنى عساكر المسلمين بجواهر الطلسم وأعطى البقية لشمامة ووضع تاج السلطنة على رأس كولاب وأعطاه مدينة خانبالغ وبلاد الساحل وأسلم جمشيد وطهماسب مخلصين وأعطيت **مدينة يم** لفرهاد وأرسل كل بطل إلى مدينة وأسلم كل أهل المدن وخربوا معابد الأصنام وبنى مكانها مساجد ثم سار هو ومالك وأبو المحجن وسعد وطهماس وجمشيد وجميع الأبطال والشجعان وعسكر المسلمين إلى مدينة الرسول وسبقهم عمرو يحمل البشرى فخرج أهل المدينة ومعهم الحسن والحسين لاستقبالهم وأضاءت عيون الشيعة بهم. ❖

(٣)
قصة رهبان النصارى
مع الإمام علي (عليه السلام)

جاء نفر من النصارى مع راهبهم إلى مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) في المدينة وكانوا يحملون معهم قطعاً من الذهب والنفائس، فاتجه الراهب إلى جماعة كان أبو بكر بينهم وقال: أيكم خليفة النبي (صلى الله عليه وآله) وأمين دينه ؟ فأشار الحضور إلى أبي بكر.

فالتفت الراهب إلى أبي بكر وقال ما اسمك؟

فقال أبو بكر: اسمي (عتيق).

فقال الراهب: وما اسمك الآخر؟

فقال أبو بكر: اسمي الآخر: صديق.

فقال الراهب: وهل لك اسم آخر؟

فقال أبو بكر: كلا.

فقال الراهب: إذن إني لم أقصدك أنت فهنالك شخص آخر.

فقال أبو بكر: ماذا تعني؟

فقال الراهب: لقد جئت مع هذه الجماعة من الروم ونحمل معنا الأموال والذهب والفضة وهدفنا أن نسأ ل خليفة المسلمين بعض الأسئلة فإن أجاب عليها جواباً. صحيحاً فإننا سنعتنق الإسلام ونطيع الأوامر ونسلم له ما أتينا به من الأموال لتوزع بين المسلمين، وأن لم يستطع الخليفة أن يجيب على أسئلتنا فإننا سنرجع إلى بلدنا.

فقال أبو بكر: اسأل!

فقال الراهب: يجب أن تعطيني الحرية والأمان في التكلم.

فقال أبو بكر: لك ذلك فاسأل.

فقال الراهب: أخبرني ما هو الشيء الذي: ليس لله وليس عند الله ولا يعلمه الله.

فتحيّر أبو بكر وقال لأصحابه بعد مكثٍ طويل: عليّ بعمر.

فأخبروا عمراً فحضر المجلس، فالتفت إليه الراهب وطرح عليه أسألته ولكنه عجز عن الإجابة. ثم أخبروا عثمان فجاء إلى المسجد فسأله الراهب ولكنه أخفق عن الإجابة أيضاً، وأخذ الناس يتمتمون ويقولون: إن الله يعلم كل شيء وله كل شيء فما هذه الأسئلة الغريبة.

فقال الراهب: أنّ هؤلاء الشيوخ رجال كبار ولكنهم وللأسف اغتروا بأنفسهم، وعزم على الرجوع إلى وطنه..

فهرع سلمان إلى الإمام علي (عليه السلام) وأخبره بالأمر وتوسل إليه أن يُسرع ليحل هذه المسألة المهمة.

فذهب الإمام علي (عليه السلام) مع ولديه الحسن والحسين إلى المسجد ففرح المسلمون بقدومهم وكبروا وقاموا من مكانهم احتراماً لهم.

فقال أبو بكر للراهب: لقد حضر من كنت تطلب، فاسأل ما شئت أن تسأل . فالتفت الراهب إلى الإمام علي (عليه السلام) وقال: ما اسمك: فقال الإمام علي (عليه السلام): اسمي عند اليهود (أليا) وعند المسيح (إيليا) وعند أبي (علي) وعند أمي (حيدرة).

فقال الراهب: وما هي نسبتك مع النبي (صلى الله عليه وآله)؟

فقال الإمام علي (عليه السلام): إنه أخي وابن عمي وأنا صهره.

فقال الراهب: قسماً بعيسى أنك أنت مقصودي وضالتي.

فأخبرني ما هو الشيء الذي ليس لله وليس عند الله ولا يعلمه الله؟!

فقال الإمام علي (عليه السلام): ما ليس لله فإن الله تعالى أحد ليس له صاحبة ولا ولدا ، وأما قولك: ولا من عند الله، فليس من الله ظلم لأحد ، وأما قولك لا يعلمه الله، فإن الله

لا يعلم له شريكاً في الملك.

فلما سمع الراهب هذا الجواب أرخى زناره ووضعه على الأرض ثم ضم الإمام علي (عليه السلام) إلى صدره وقبلّه بين عينيه وقال: اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وأشهد أنك وصيه وخليفته وأمين هذه الأمة ومعدن الحكمة: واسمك في التوراة (أليا)، وفي الإنجيل (إيليا)، وفي القرآن (علي)، وفي كتب الأولين (حيدرة)، لقد وجدتك وصياً للنبي حقاً وأنك لأحق الناس في الجلوس في هذا المجلس: فما هي قصتك مع هؤلاء القوم؟ فأجاب الإمام علي (عليه السلام) بكلام وجيز، ثم نهض الراهب وقدّم جميع أمواله إلى الإمام علي (عليه السلام).

فأخذ الإمام علي (عليه السلام) الأموال منه وقسمها على فقراء المدينة وهو جالسٌ في ذلك المجلس ورجع الراهب ومرافقوه إلى وطنهم بعد أن اعتنقوا الإسلام.

لقاء آخر للإمام مع الرهبان:

وروى ابن إسحاق، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه: لما توفي رسول الله (ص) واستقر بعده في الخلافة أبو بكر الصديق. فبينما هو ذات يوم جالس بعد صلاة الظهر في محرابة، وهو يحدث بما سمعه من رسول الله (ص)، إذ أقبل من الشام راهب ومعه ألف راهب.

فوقفت جميع الرهبان على باب المسجد، وقال كبيرهم: السلام عليك يا خليفة رسول الله (ص).

أبو بكر: السلام على من اتبع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى، وصدق نبوة محمد المصطفى، فيما أتيت يا راهب؟ الراهب: أتيت من الشام أنا وهذه الرهبان

نسألك عن مسائل وجدناها في كتب آبائنا وأجدادنا، فإن شرحتها كما هي عندنا آمنا وصدقنا، وعلمنا أن صاحبك محمد (ص) نبي كريم من إله السما.

أبو بكر: أسأل عما شئت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الراهب: أول ما أسألك يا خليفة محمد (ص) عن:

١. مستقر اسمك من جسمك؟
٢. وعن ما أتيت به أنا ومن معي من الشام؟
٣. وأي شيء من البضائع؟
٤. وأخبرني عن الذاريات ذروا؟
٥. والحاملات وقراً؟
٦. والجاريات يسراً؟
٧. والمقسمات أمراً ماهن؟
٨. وأخبرني عن أربعة عشر كلموا الله عزوجل؟
٩. وأخبرني عن شيء يتنفس وليس له روح؟
١٠. وعن الطريق البيضاء التي في السماء؟
١١. وماء لم ينزل من السماء ولا هو من الأرض؟
١٢. وعن أول قتيل قتل على وجه الأرض؟
١٣. وعن أول شجرة هزتها الريح؟
١٤. وأخبرني عن شيء خلقه الله تعالي واشتراه لنفسه؟
١٥. وأخبرني عن شيء خلقه الله تعالى وسأل عنه؟
١٦. وعن شيء يدخل الجنة وقد نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يعمل بعمله؟
١٧. وعن شيء تكلم وليس له لحم ولا دم؟
١٨. وأخبرني عن طير لم تبضه الطيور؟
١٩. وعن شيء قليله حرام وكثيره حرام؟
٢٠. وعن رسول ليس من النبيين، ولا من الجن، ولا من الإنس، ولا من الملائكة؟
٢١. وأخبرني عن شيء حلل بعضه وحرم بعضه؟
٢٢. وعن رجل خاطب امرأة وليس لها ثياب؟ بل عريانة، ولم يكن لها بمحرم، ولا بينه وبينها حجاب، ولم يلحقه إثم؟
٢٣. وعن شيء إن فعلته كان حراما، وإن تركته كان حراما؟
٢٤. وأخبرني عن رضاع موسى، وكم أرضعته أمه؟
٢٥. وعن اليوم الذي كلم الله موسى عليه السلام فيه؟
٢٦. وأخبرني عن آدم عليه السلام كم كان طوله؟

٢٧. وكم سنة عاش؟

٢٨. وأخبرني عن نفس أوحى الله إليها ولم تكن من الأنبياء؟

٢٩. وأخبرني عن خمسة أكلوا وشربوا ولم يكونوا من ذكر ولا أنثى؟

٣٠. وأخبرني عن جسدين ماتا معاً، حرم أحدهما وحلل الآخر؟

٣١. وعن الذي أوحى الله إليهما وهما إثنان؟

٣٢. وعن الطير الذي ذكره الله في القرآن؟

٣٣. وأخبرني عن رجل حرمت عليه زوجته ساعة من غير طلاق؟

٣٤. وأخبرني عن نفس ماتت وأحيت غيرها؟

٣٥. وأخبرني كم بين المشرق والمغرب؟

٣٦. وكم بين السماء والأرض؟

٣٧. وأخبرني ماذا يقول الكلب في نبحه؟

٣٨. وما يقول الحمار في نهيقه؟

٣٩. وما يقول البعير في رغائه؟

٤٠. وما يقول البقر في خواره؟

٤١. وما يقول الفرس في صهيله؟

٤٢. وما يقول الضفدع في نقيقه؟

٤٣. وما يقول الديك في صياحه؟

٤٤. وما يقول الدجاج في صراخه؟

٤٥. وأخبرني عن الممسوخين كم كانوا؟

٤٦. وبأي ذنب مسخوا؟

فلما سمع أبو بكر هذه المسائل من الراهب قال أبو بكر: يا أصحاب محمد.. هل سمعتم ما قال الراهب؟

الأصحاب: نعم.

أبو بكر: في مثل هذا وأمثاله يحتاج إلى حضور الإمام علي سلام الله عليه، فإني سمعت رسول الله (ص) يقول: (أنا مدينة العلم وعلي بابها).

(ثم أقبل على سلمان الفارسي، وأخبره بما نحن فيه، فإنه يحل المشكلات، وأحضره معك إلينا).

سمع أبو بكر هذه المسائل من الراهب فقال أبو بكر: يا أصحاب محمد: هل سمعتم ما قال الراهب؟

فقال الأصحاب: نعم.

فقال أبو بكر: في مثل هذا وأمثاله يحتاج إلى حضور الإمام علي (عليه السلام) فإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: (أنا مدينة العلم وعلي بابها) فبعث إلى الإمام علي (عليه السلام) بسلمان الفارسي.

قال علي (عليه السلام): يا سلمان.. ألا يكون حضر إليه الراهب والرهبان معه؟

قال سلمان: نعم يا ابن عم رسول الله؟ من أعلمك بذلك؟

قال علي (عليه السلام): أخبرني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بحضورهم في مثل هذا اليوم.

قال سلمان: فلما وصل الإمام علي (عليه السلام) باب المسجد. تلقاه أبو بكر الصديق. وسلم عليه، ونهض القوم قياما. والراهب والرهبان ينظرون إلى الإمام علي (عليه السلام). فسلم على القوم، وجلس في المحراب. عند ذلك نظر الإمام علي إلى الراهب وقال: عليه السلام: أنت شر خيل بن شر خيل الشام! فبهت الراهب وقال: الراهب: عجباً! من أخبرك باسمي؟

قال علي (عليه السلام): اخبرني باسمك ابن عمي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

الراهب: ألا يكون أنت الطاعن بالرمحين الضارب بالسيفين في غزوة بدر وحنين.

قال علي (عليه السلام): نعم.

فقال الراهب: اعلم يا فتى، إنا قد وجدنا في كتبنا مسائل. ولا يشرحها إلا ابن عم نبي.

قال علي (عليه السلام): اسأل كما شئت ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال سلمان: فقص الراهب المسائل على الإمام علي (عليه السلام) كما قصها على أبي بكر. ولما فرغ منها قال له الإمام علي (عليه السلام): يا راهب إذا شرحت لك هذه المسائل ما الذي يكون لي عليك؟

الراهب: الذي تقوله أنت يا فتى...

قال علي (عليه السلام): اطلب منك أن تشهد أن لا اله إلا الله. وان محمد رسول الله.

قال الراهب: لك ذلك يا فتى.

ثم أن الإمام علي (عليه السلام) أورد هذه الإجابات على جميع أسئلة الراهب:

١. اعلم يا راهب أن مستقر اسمك من جسمك في آذانك ولان العبد إذا دعي اسمه سمع بإذنه.
٢. ما أتيتم به من الشام وجئتم به فإنكم جئتم تسألون عن دين الإسلام حق أم باطل.
٣. وأما ما جاء معكم من المال فقد جاء معكم ألف أوقية من الذهب وأوقيه من الفضة..

٤. وأما الذاريات ذرواً فهي الرياح الأربع: الجنوب، والشمال، والصبا، والدبور.

٥. وأما الحاملات وقراً: فهي السحاب تحمل الماء من مكان إلى مكان.

٦. وأما الجاريات يسراً: فهن المراكب الجارية في البحر.

٧. أما المقسمات أمراً: فهن الملائكة يقسمون الأرزاق على الخلائق كل يوم.

٨. وأما الأربعة عشر الذين كلموا الله عز وجل: فالسماوات والأرض.

٩. ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ (التكوير: ١٨).

١٠. أما الطريق البيضاء في السماء: مجرى مدائن لوط.

١١. وأما الماء الذي لم ينزل من السماء ولا نبع من الأرض: فهو عرق الخيل.

١٢. وأما أول قتيل قتل على وجه الأرض: فإنه هابيل..

١٣. وأما أول شجرة هزتها الريح: فهي شجرة الساج ومنها كانت سفينة نوح (عليه السلام).

١٤. وأما شيء خلقه الله واشتراه لنفسه: فهي أنفس الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله.

١٥. وأما شيء خلقه الله تعالى وسأل عنه: فهي عصاة موسى (عليه السلام)، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ (طه: ١٧ ـ ١٨).

١٦. وأما الذي يدخل الجنة وقد نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يعمل بعمله فهو يونس عليه السلام، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ (القلم: ٤٨).

١٧. وأما شيء يتكلم وليس له لحم ولا دم فهي جهنم. وذلك قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾ (ق: ٣٠).

١٨. وأما الطير الذي لم تبضه الطيور، ولم تحضنه، فهو الطير الذي نفخ فيه عيسى (عليه السلام)، وكلم بني إسرائيل.

١٩. وأما الشيء الذي قليله وكثيره حرام فهو نهر طالوت، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

٢٠. وأما الرسول الذي ليس من الجن، ولا من الإنس، ولا من الملائكة: فهو الهدهد.

٢١. وأما الذي بعضه حرام وبعضه حلال: فهو الماء الذي شرب منه صاحب ثم رعف قبل أن يفرغ فقد شرب الأول حلالاً، وصار الباقي حراماً.

٢٢. وأما الذي كلم امرأة وهي عريانة: فهو رجل أعمى كلم امرأة عريانة.

٢٣. أما الذي إن فعلته كان حراما وإن تركته كان حراما: فهي صلاة السكران.

٢٤. أما رضاع موسى: فأرضعته أمه ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، ثم ألقته في البحر.

٢٥. أما اليوم الذي كلم الله فيه موسى عليه السلام فهو يوم الجمعة.

٢٦. أما آدم عليه السلام فكان طوله ستون ذراعاً.

٢٧. وعاش ألف سنة.

٢٨. أما الذي أوحى الله إليه وليس هو من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة: فهي النحلة، لقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ (النحل: ٦٨).

٢٩. أما الخمسة الذين أكلوا وشربوا ولا خرجوا من بطن ولا ظهر.

١- آدم.

٢- حواء عليهما السلام.

٣- ناقة صالح.

٤- وعصا موسى.

٥- وكبش إسماعيل عليهما السلام.

٣٠. وأما الجسدان اللذان ماتا معاً، حرم أحدهما، وحلل الآخر: فهو طير وقع في البحر ثم خرج منه ومعه سمكة فماتا معاً، فالطير حرام، والسمكة حلال.

٣١. وأما الاثنان اللذان أوحى الله إليهما فهما الحواريون.

٣٢. أما الطير الذي ذكره الله في القرآن.

١- الغراب.

٢- الهدهد.

٣- النحل.

٤- الجراد.

٥- السلوى. (طائر صغير ورد ذكره في سورة البقرة الآية (٥٧) والأعراف (١٦٠) وطه الآية (٨٠).

٣٣. سؤال الذي حرمت عليه زوجته من غير طلاق ساعة وقتها: فهو رجل أتى امرأة فأقسمت عليه الله العظيم فما له عليها سبيل في تلك الساعة.

٣٤. أما النفس التي ماتت وأحيت غيرها: في بقرة بني إسرائيل.

٣٥. أما بين المشرق والمغرب: فمسيرة يوم واحد للشمس.

٣٦. أما بين السماء والأرض: فدعوة المظلوم.

٣٧. أما كلام الكلب فإنه يقول: اللهم إني محروم، وأنت رحيم فارحم من يرحمني.

٣٨. أما الحمار فإنه يقول: لعن الله المرابي وكسبه.

٣٩. يقول البعير في رغائه: حسبي الله، وكفى بالله وكيلاً.

٤٠. أما البقرة فإنها تقول: يا غافل عن الموت وهي في شغل شاغل ستلقى غداً ما أنت له فاعل.

٤١. أما الفرس فإنه يقول: اللهم انصر المسلمين وأخذل الكافرين.

٤٢. أما الضفدع فإنه يقول: سبحان من سبيله في لج البحار.

٤٣. أما الديك فإنه يقول: يا غافلين اذكروا الله.

٤٤. أما الدجاج فإنه يقول: الرحمن على العرش استوى.

٤٥. اعلم أن الله تعالى مسخ أربع وعشرين طائفة من الرجال والنساء فمن ذلك:

١ ـ الفيل ٢ ـ الأرنب ٣ ـ الدب ٤ ـ العقرب ٥ ـ الدعموش (ويقال الدعموص) وهي دويبه تغوص في الماء .. ٦ ـ الخنازير ٧ ـ القرود ٨ ـ العنكبوت ٩ ـ السلحفاة ١٠ ـ الضب ١١ ـ الخنفساء ١٢ ـ السرطان ١٣ ـ الثعلب ١٤ ـ الدبور (ويقال: الزنبور والزنابير) ١٥ ـ الكلب ١٦ ـ الزهرة (هو حيوان). ١٧ ـ سهيل (هو حيوان) ١٨ ـ الغراب ١٩ ـ العقيق (جنس من الفصيلة الغرابية) ٢٠ ـ العقاب ٢١ ـ والضفدع (حيوان برمائي) ٢٢ ـ والدرة (هي الببغاء) ٢٣ ـ والفأرة ٢٤ ـ والحية.

٤٦. أما الفيل: فكان رجل يأتي البهائم فمسخه الله تعالى. أما الأرنب: فكانت امرأة لا تغتسل من الجنابة والحيض. وأما الدب: فكان رجل مخنثاً. وأما العقرب: فكان رجل نماماً ذا وجهين يغتاب بغير علم. وأما الخنازير: فكانوا سبعمائة رجل، وهم الذين أكلوا من مائدة عيسى بن مريم عليه السلام، أربعين يوماً ولم يؤمنوا. وأما القرود: فكانوا خمسمائة رجل من اليهود وهم الذين سيروا في السبت.

وأما العنكبوت: فكانت امرأة ساحرة سحرة زوجها حتى أذهلت عقله. وأما السلحفاة: فكان رجل كيالاً يطفف الميزان إذا كال للناس. وأما الضب: فكان رجل ينبش القبور ويأخذ أكفان الموتى. وأما الخنفساء: فكانت امرأة دعت زوج بنتها إلى نفسها. وأما السرطان: فكان رجل متزوج بامرأتين وكان يميل إلى أحداهما دون الأخرى.

وأما الثعلب: فكان رجل لصاً يسرق متاع الحاج في كل سنة. وأما الدبور: فكان رجل يكذب العلماء. وأما الكلب: فكان رجل يشهد بالزور والباطل. وأما الزهرة: فكانت امرأة ذات حسن وجمال، فاغتر بها هاروت وماروت فعلماها الاسم الأعظم.

وأما سهيل: فكان رجل من أهل اليمن وهو أول من ضمن المكسب للسلطان وسن الربا. وأما الغراب: فكان رجل بخيل.. وأما العقيق: فكان رجل يحتكر الطعام على الناس ويتمنى لهم الغلاء. وأما العقاب: فكان رجل يحلف بالله كذباً كيف ما كان. وأما الدرة: فكانت امرأة جميلة لا تمنع نفسها عن الرجال.

وأما الفأرة: فكانت امرأة متزوجة برجلين، ولم يعلم أحدهما بالأخر، وسماها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الفويسقة. وأما الحية: فكان رجل والياً ظالماً يظلم الناس بغير حق فمسخه الله تعالى.

وشهد الرهبان جميعاً بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ودعوا للإمام علي (عليه أفضل الصلاة والسلام) وانصرفوا إلى الشام واجتمعوا بأهلهم فرحين مسرورين. ❖

(٤)

حلال المشاكل أو قصة عبد الله الحطاب

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وصلّى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين وله الشكر على ما خصنا من حب نبيه الكريم ورسوله العظيم وحب أهل بيته المنتخبين لا سيما مولانا أمير المؤمنين ويعسوب الدين وقائد الغر المحجلين أبو الحسن والحسين سفينة النجاة الذي من تمسك به وبآله نجا ومن تأخر عنهم غرق وهوى حبل الله المتين وسراجه المبين قسيم الجنة والنار زوج البتول أبن عم الرسول كاشف الكربات. خير البريا وحلال المعضلات والمشكلات.

أيها المحبون والموالون له ولأهل بيته الطاهرين إحدى المشاكل التي حلها بإذن الله وهي إحدى كراماته عند الله وقد صار لها أثر بين المحبين وتناقلتها الألسن وحفظتها القلوب ودونوها في صحائفهم ألا وهي قصة (عبد الله الحطاب) وكان جملة من الموالين يقرؤونها في كل ليلة جمعة بإخلاص وانكسار قلب ويسألون الله ويتوسلون بمحمد (ص) وبأمير المؤمنين (عليه السلام) حلال المشاكل لقضاء حوائجهم.

وقبل أن أشرع في إيرادها أذكر لكم ما كان من أثرها في نفوس محبي أهل البيت (عليه السلام): قال أحد المؤمنين: كنت في إحدى المكاتب أشتري كتاباً فجاء رجل يطلب كتاب حلال المشاكل فلما ناوله صاحب المكتبة الكتاب أخذه وقبله فاعترضت عليه وقلت له: يا أخي إن هذا الكتاب ليس من الكتب السماوية. فأجاب أن المعجزة التي رأيتها من (حلال المشاكل) لو رأيتها أنت لقبلته أيضاً فقلت له أخبرني ماذا رأيت من المعجزات فقال:

لقد اتهمت بقتل عمتي والدة زوجتي فساقوني إلى المحكمة ولكن أنا كنت على اطمئنان كامل ويقين تام أني ما قتلت المرأة المذكورة ولكن المحكمة حكمت عليّ بالسجن خمسة عشر سنة فدخلني من ذلك هم وحزن شديدين ولم يكن لدي من حيلة في الأمر إلا أن أصبر حتى نهاية هذه المدة، ولما دخلت السجن رأيت المسجونين يجتمعون ويقرؤون هذه القصة فسألتهم عن ذلك فقالوا لطلب الفرج وقضاء الحاجة.

فنذرت بإخلاص أن أقراها كل ليلة جمعة وأشتري بعض الحلويات وأوزعها على المسجونين واصلي صلاة الحاجة واسأل الله أتوسل بمحمد وبحلال المشاكل ففعلت ذلك حتى صارت الجمعة الرابعة وقد أخذني النعاس وأنا على السجادة فريت في منامي رجلاً جليل القدر بيده كأس.

روي عن الأمام الصادق (عليه السلام): من تطهر وتصدق بصدقة ثم صلّى ركعتين وحمد الله واثني عليه وصلّى على النبي وآله ثم قال: (اللهم أعني بما أخاف وأعطني ما أطلب آتاه الله ذلك).

فقال: (اشرب من هذا الكأس ولا تحزن فإن الله ببركة حلال المشاكل قد قضى حجتك). فلما انتبهت من نومي أخبرت الذين معي فقالوا أنك تخرج من السجن فلما كان يوم السبت وإذا بنفرين أتوا إلى السجن وهما من بلادي وكنت اعرفهما فهممت أن أسألهما وإذا برئيس السجن دعاني إلى محله وقال لي: هل عرفت هذين النفرين؟

فقلت له: نعم اعرفهما ولكن ما ادري ما سبب سجنهما.

فقال: هما اللذان قتلا عمتك وقد اعترفا بذنبهما وقد جاءنا أمر بإطلاقك من السجن فامض حيث شئت فأخذت ثيابي وخرجت وأنا أحمد الله الذي خلصني من السجن ببركة حلال المشاكل.

قصة حلال المشاكل:

يروى أن رجلاً يسمى عبد الله الحطاب وكان مؤمناً فقيراً وكسبه في كل يوم يذهب إلى البراري وسفوح الجبال ويحتطب ما أمكنه من الحطب ثم يأخذه إلى السوق فيبيعه بدريهمات قليلة يقتات بها هو وعياله راضياً قانعاً برزقه مع كثرة عياله الذين بلغو سبعة أو أكثر وكلهم إناث وذكور قصر وقد قضى أكثر حياته في هذا العمل وكانت زوجته قد ندرت في كل يوم جمعة قبل طلوع الشمس تقف على باب البيت وتدعو الله عز وجل أن يريها ولياً من أوليائه حتى تطلب منه أن يسأل الله أن يفرج عنهم ضيق معيشتهم.

وقد مضت مدة أربعين جمعة فبينما هي واقفة تدعو الله وتتوسل إليه بمحمد وآله (عليهم السلام) وإذا برجل ذو شيبة، طويل القامة تراه من بعيد فلما وصل أليها قال لها: إذا رجع عبد الله قولي له كلما حلت به شدة يسأل الله ويتوسل بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

ويندب حلال المشاكل ويكثر من قول:

نادِ علياً مظهراً العجائب تجدهُ عوناً لك في النوائب

كل همٍ وغمٍ سينجلي بولايتكَ يا علي يا علي

ويكررها مراراً فإنه يقضي حاجته، ثم غاب عن عينيها فلما رجع عبد الله أخبرته فقال ويحك هذا والله (الخضر عليه السلام) هل قال لك شيئاً؟

قالت: نعم قال كذا وكذا. فحفظ ما قالته أليه فلما أصبح واصل عمله وصادف أن الوقت أول الشتاء وقد أرسلت السماء بعض السحب تبشر بهطول الأمطار فلما صار في البر

وأخذ يحتطب قال في نفسه بعد أيام إذا صبت السماء وابلها وغمرت الأشجار وملئت الأودية يتعسر عليّ عملي وأنا كبير السن ضعيف البدن ولكن أدخر لي شيئاً من الحطب في مغارات هذا الجبل وكان قريباً منه وإذا كان ذلك أتيت وأخذته بغير تعب..

فجمع حطباً كثيراً وأودعه في مغارات الجبل ووضع عليها علامة وأخذ من الحطب بمقدار ما يأخذ كل يوم وجاء إلى السوق وباعه واشترى قوتاً إلى عياله ورجع إلى المنزل وأخبر زوجته بما فعل فسرت بذلك فما مضت إلا أيام قليلة حتى هبت الرياح الباردة وتلبدت السماء بالسحب الثقيلة وأخذت تفرغ ما فيها من الماء بغزارة ليلاً ونهاراً أياماً متواصلة بحيث تعطلت أكثر الناس عن أعمالها..

أما عبد الله فإنه لازم المنزل ولم يخرج في هذه المدة حتى نفذ ما عندهم من الطعام وباتوا آخر ليلة وهم جياع ليس عندهم ما يأكلونه فلما أصبح الصباح وقد تقشعت الغيوم وأشرقت الشمس وغمرت المياه الأشجار والأودية وجرت السيول قال عبد الله لزوجته الآن أمضي إلى ما وضعته من الحطب قي المغارة وآتي به إلى السوق.

فخرج وهو يوعد عياله بالطعام وكله أمل، وصادف القضاء والقدر أن الأيام المطير اجتازت قافلة بالجبل الذي أودع عبد الله فيه الحطب وهم يطلبون لهم ملجأ فدخلوا في المغارة التي فيها الحطب وهم يطلبون لهم ملجأ فدخلوا في المغارة التي فيها الحطب فمالوا أليه يحرقونه ليتدفؤا به عن البرد ويطبخون به طعامهم حتى أتوا على آخره.

فلما جاء عبد الله وجد المغارة خالية ليس فيها إلا رماداً متراكم بعضه على بعض، وقف مذهولاً حزيناً لا يدري ماذا يعمل ثم أدار ببصره في البر فوجد أن الرياح قد اقتلعت الأشجار وغمرت المياه الباقي ووجد نفسه لا قدرة له على الاحتطاب لشدة البرد وهو شيخ كبير ولشدة ما وقع به من الحزن والكآبة وقد اسودت الدنيا في عينيه حينما ذكر حال عياله وما هم فيه من الجوع وأنهم ينتظرون مجيئه إليهم بالطعام، ووقع في حيرة شديدة وأخذ بالبكاء والنحيب وهو يقول: يا رب أنت اللطيف بعبادك وأنت أرحم الراحمين ثم توسل بمحمد (ص) ويندب حلال المشاكل بخشوع وانكسار قلب ويكثر منقول:

نادِ علياً مظهراً العجائب تجدهُ عوناً لك في النوائب

كل همٍ وغمٍ سينجلي بولايتكَ يا علي يا علي

ويكررها مراراً وهو يبكي حتى خرَّ مغشياً عليه فبينما هو كذلك وإذا بفارس مقبل من جهة القبلة وقد ركب فرساً أبيضاً ووجهه كدائرة القمر والنور يسطع من غرة جبينه وتفوح منه روائح المسك والعنبر وقد عطر ذلك الوادي من رائحته الطيبة.

فوقف عند رأسه وقال له: قم يا عبد الله فلما أفاق من غشيته سلم الفارس عليه فرد عبد الله السلام. ثم قال الفارس قم يا عبد الله فقد قضيت حاجتك...

خذ من هذه الحجارة الصم التي من حولك وبعها وانتفع بثمنها.

فقال عبد الله سيدي من أنت؟

قال أنا حلال المشاكل وقد أستغث بي فأجبتك، ولا تنساني كل ليلة جمعة.

فقال عبد الله سيدي أنت أمير المؤمنين علي بن أبى طالب.

فقال نعم، ثم غاب عن عينيه.

فنهض عبد الله وبسط ردائه على الأرض وملأه من تلك الحجارة كما أمر سيده ومولاه وجاء بها إلى المنزل ووضعها في زاوية من داره واخبر زوجته بذلك وبات تلك الليلة فلما مضى من الليل أكثره قام لقضاء الحاجة وإذا به يرى ضياءً ونوراً صادر من ذلك المكان فبهت وفزع ولكنه تذكر وقام لقضاء الحاجة فكانت منه التفاته إلى موضع الذي وضع فيه الرداء وإذا بتلك الحجارة صارت جواهر وياقوت بإذن الله وببركة حلال المشاكل فحمد الله وأقبل إلى زوجته فأيقظها وقال لها أن الله رزقنا وأغنانا بفضل أمير المؤمنين، أن الله يرزق من يشاء بغير حساب. وبات مسرورين فلما أصبح أخذ واحدة من الجواهر وأتى بها إلى الجواهري فباعها بثمن كبير وشرى لزوجته وأولاده طعاماً وملابس وأتى لمنزله فرحاً مسروراً ثم شرع بناء بيته ووسع على عائلته وجعل يعطي الفقراء والضعفاء والمساكين ويقضي حاجة من قصد إليه ومن لم يقصد حتى شاع ذكره واشتهر صيته وكان في كل ليلة جمعة يقرأ مدح حلال المشاكل وينفق في حبه مالاً كثيراً:

ليس يدري بكنه ذاتك ما هو	يا بن عم النبي إلا الله
لك معنى أجلى من الشمس	خبط العارفون فيه وتاهوا
هو مشكاة نوره والتجلي	سر قدس جهلتم معناه
أظهر الله دينه بعلي	أين لا أين دينه لولاه
كانت الناس قبله تعبد الـ	طاغوت رباً والجبت فيه إله
ونبي الهدى إلى الله يدعو	هم ولا يسمعون منه دعاه
سله لما هاجت طغاة قريش	من وقاه بنفسه من فداه
لو رأى مثله النبي لما وا	خاه حياً وبعده وصاه
قائم يوم الغدير يدعو الا	من كنت مولى له فهذا مولاه
ما ارتضاه النبي من قبل	النفس ولكنما الإله ارتضاه

ولم يزل كذلك حتى جاء موسم الحج وكانت جماعة من أصحابه عازمون على أداء فريضة الحج فعزم على الرحيل معهم وعند سفره أقبل على عائلته وقال لهم أني مسافر لقضاء

فرض الإسلام وأوصيكم أن لا تنسوا مدح حلال المشاكل كل ليلة جمعة لأن له حق علينا واجب في ذمتنا.

ثم إن عبد الله سافر مع أصحابه ولما مضت على سفره ثلاثة أيام أو أربعة قالت بنت عبد الله لأمها يا أماه أود أن أمضي إلى الحمام فأجبتها أمها لك ما شئتِ يا عزيزتي أذهبي حيث تريدين.

فمضت البنت إلى الحمام مع أخواتها وصديقاتها فلما دخلت الحمام رأت نسوة كثيرة ومن بينهن صبية ذات حسن وجمال بارعين فسألت عنها بعض النسوة فقالت لها أن هذه الصبية هي ابنة السلطان فدنت منها بنت عبد الله وسلمت عليها فردت التحية وجلست بجانبها تحادثها فقالت بنت السلطان ابنة من تكونين وما أسمك لأني لم يسبق لي أن رأيتك قبل اليوم.

فأجابتها قائلة أنني ابنة عبد الله الحطاب واسمي مكية فقالت ابنة السلطان لها مستغربة ومن أين لكم هذا المال وهذه الثروة؟

فأجابتها من الله وببركة حلال المشاكل.

ثم أنهما جلستا تتحدثان بأطايب الأحاديث إلى أن قضتا وطريهما من الحادثة ثم خرجتا من الحمام قاصدتين منزلهما ومرتا في طريقهما على بيت عبد الله فأقسمت ابنة عبد الله على ابنة السلطان ابنة السلطان أن تكون في ضيافتها هذا اليوم.

فقبلت ابنة السلطان ضيافتها وبقيت يوماً وليلة مكرمة معززة حتى انتهت الضيافة خرجت ابنة السلطان إلى قصرها وطلبت من ابنة عبد الله أن تقبل ضيافتها في اليوم الثاني فأجابتها إلى ذلك وكان من القضاء والقدر تلك الليلة ليلة الجمعة فنسيت بنت عبد الله أن تقرأ مدح حلال المشاكل فلما صار الصباح قالت بنت السلطان إلى بنت عبد الله قومي بنا نمضي إلى البستان لأجل النزهة والترفيه فقالت لها شأنك فمضتا إلى البستان ومعهما الجواري فبينما هن يتنزهن إذ مررن على بركة فيها ماء فقالت بنت السلطان دعينا نسبح في هذه البركة فقالت بنت عبد الله لا بأس.

ثم أنهن خلعن ما عليهن من الحلي والحلل ونزلن في الماء وهن يتحدثن بأطيب الحديث. ومن القضاء والقدر مر طائر واختطفَ قلادة بنت السلطان وعلقها على غصن شجرة في البستان.

وهن لم يشعرن به فلما قضين وطرهن من الماء وكل منهن لبست ثيابها ومضين إلى منازلهن في أنس وسرور، لم تلتفت بنت السلطان إلى قلادتها.

حتى جاء الليل تفقدت قلادتها فلم تجدها فأرسلت إلى البستان من يفتش عنها فلم يجدوا شيئاً فعند ذلك أرسلت جاريتها إلى بنت عبد الله ترجوها إرجاع قلادتها أن كانت أخذتها.

فأجابتها بنت عبد الله أن كنت تريدين قلادة أخرى اشتريتها لكِ ولا يحق أن تهينيني هذه الإهانة وعادت الجارية ونقلت إلى بنت السلطان هذا الكلام.

فعند ذلك أخبرت بنت السلطان أباها بخبر القلادة فغضب وأمر غلمانه أن يمضوا إلى بيت عبد الله ويقبضوا على جميع أمواله ويأتوا بعياله.

ففعل الغلمان ما أمر السلطان، فلما حضرت عائلة عبد الله بين يدي السلطان أنبهم وأهانهم على هذه السرقة المزعومة، ثم أمر بهم إلى السجن فلما صار الليل قالت البنت لأمها يا أماه، ما الذي عملنا وما جرمنا حتى نسكن في هذا السجن.

فقالت لها يا بنية لسنا بأحسن من زينب بنت أمير المؤمنين وسكينة بنت الحسين وذرية رسول الله (عليهم السلام) الذين أدخلوهم في مجلس يزيد بن معاوية وأمر بهم أن يجعلوا في خربة لا تكفهم عن برد ولا حر، وعندما ذكروا أهل البيت جعلوا يبكون.

وأما ما كان من أمر عبد الله: فانه لما قضي مناسك الحج عاد إلى بلاده وقد ركب في سفينة مع أصحابه فلما توسط البحر هبت ريح عاصف فانكسرت السفينة وغرق أهلها ولكن عبد الله لم ييئس وهو في تلك الشدة وتذكر ما قال له سيده ومولاه حلال المشاكل فرفع يده إلى السماء ونادى: يا الله يا أرحم الراحمين أنقذني بحق محمد خاتم النبيين (ص) وبحق حلال المشاكل علي أمير المؤمنين (عليه السلام) ثم أخذ يلهج ويقول:

نادِ علياً مظهرا العجائب تجدهُ عوناً لك في النوائب

كل همٍّ وغمٍّ سينجلي بولايتكَ يا علي يا علي

ويكررها بانكسار قلب ودموعه جارية ولم يزل كذلك حتى قذفته الأمواج على ساحل البحر فعاد إلى منزله وقد انطوت إليه الأرض بإذن الله تعالى، فلما وصل وجد الباب مغلقاً والبيت خالياً من أهله فوقف متحيراً فبينما هو في حيرته إذ مر به رجل من جيرانه فسأله عن أهله فقال له: أن السلطان قد سجنهم لأنهم سرقوا قلادة ابنته.

فجاء عبد الله مسرعاً إلى مجلس السلطان وقال له:

إن كنت قد حكمت على أهلي بالسجن وهم نساء وأطفال فأطلقهم واسجني مكانهم. قال: صدقت فأمر بإطلاقهم وأمر بسجن عبد الله فلما صار في السجن وجاء الليل قال في نفسه أني لست بأحسن من الأمام موسى بن جعفر (عليه السلام) الذي بقي في سجن هارون الرشيد سنيناً ولست بأحسن من الأمام زين العابدين (عليه السلام) الذي أدخلوه في مجلس يزيد بن معاوية مقيداً، وعندما ذكر الأمام زين العابدين (عليه السلام) جرت على خديه الدموع وجعل يبكي ثم أخذ يقول:

نادِ علياً مظهرا العجائب تجدهُ عوناً لك في النوائب

كـــل هـــمٍ وغـــمٍ ســـينجلي بولايتـــكَ يـــا علـــي يـــا علـــي

ويكررها بخضوع وخشوع وانكسار قلب ودموعه جارية إلى أن جاءت ليلة الجمعة ولما لم يجد شيئاً من المال ليشتري به الحلوى ويقرأ مدح حلال المشاكل وينفقه في حبه بت تلك الليلة وهو باكي العين حزين القلب.

وعند بزوغ الفجر سمع هاتفاً يقول له: يا عبد الله إذا أصبحت أمضي إلى باب السجن ستجد قطعة من النقود الذهبية فخذها وكل من مر بك أعطه القطعة الذهبية وأطلب منه أن يصرفها ويشتري لك شيئاً من الحلاوة واقرأ مدح حلال المشاكل حتى يخلصك الله مما أنت فيه من البلاء العظيم.

فلما صار الصباح جاء عبد الله إلى باب السجن فوجد القطعة الذهبية كما أخبره الهاتف فأخذها وبقي واقفاً ينتظر إذ مر شاب على فرس فناداه عبد الله وقال له خذ هذه القطعة وأصرفها وأشتر لي شيئاً من الحلاوة حتى اقرأ مدح حلال المشاكل ولننفقه في حبه.

فلما سمع الشاب من عبد الله هذا الكلام قال له هذا المال سرقتموه وتقولون من عند الله وببركة حلال المشاكل. فلما سمعه عبد الله أنكسر قلبه وجرت دموعه، وقال اللهم اكفني شر هذا الشاب ولقني خيره ببركة حلال المشاكل علي بن أبي طالب (عليه السلام).

ثم أن الشاب لم يكد يتقدم بضع خطوات حتى نفرت فرسه به وسقط على وجه الأرض مغشياً عليه كالميت فبلغ الخبر إلى أبيه وجاء مسرعاً مذهول الرأي طائر العقل واجتاز في طريقه السجن الذي فيه عبد الله فناداه وقال له يا هذا ما الذي حل بك أراك مذهول الرأي فقال له أتاني خبر عن ولدي أنه وقع من على فرسه على وجه الأرض مغشياً عليه فحل بي ما تراه فهل عندك وسيلة تنجيه.

قال عبد الله لا بأس خذ هذه القطعة واصرفها واشتر بها شيئاً من الحلاوة حتى اقرأ مدح حلال المشاكل أمير المؤمنين (عليه السلام).

فقال له الرجل حباً وألف كرامة لله (عزّ وجلّ) ولعلي حلال المشاكل، هات ما عندك يا عبد الله ثم مضى. وأخذ عبد الله يقرأ حلال المشاكل ويكرر من قول نادِ علياً مظهرا العجائب إلى آخرها والرجل يقول يا الله بحق محمد وبحق حلال المشاكل حل مشكلتي.

ولم يزل كذلك حتى أتاه رجل وبشره أن الله عافى ولده بقدرته وببركة حلال المشاكل فمضى إلى منزله فرأى أبنه في غاية الصحة والسلامة فقال يا ولدي ماذا حل بك فقال يا أبي قم بنا إلى مجلس السلطان لأحدثه عن معجزة حلال المشاكل بين الناس.

فجاء إلى السلطان واخبره بكل ما رأى. قال لما مررت على السجن وقال لي عبد الله ما قال، قلت له هذا المال كله سرقتموه وتقولون من عند الله وببركة حلال المشاكل ومضيت فلم أخطو ألا قليلاً حتى سقطت على وجه الأرض وغشي عليِ فسمعت هاتفاً وأنا في غشوتي يقول يا فتى يقول لك حلال المشاكل امضِ إلى السلطان واخبره بين ملأ من الناس أن عبد الله وأهله بريئين من هذه التهمة.

وإن قلادة ابنتك قد أخذها الطائر وعلقها على غصن شجرة من أشجار البستان في مكان كذا وكذا. فتعجب السلطان ومن معه من كلام الشاب، ثم أنه قام ومن معه وجاءوا إلى البستان لينظروا الخبر فلما وصلوا إلى الشجرة التي وصفها الشاب وإذا بطائر انقض من الهواء وأخذ القلادة من على غصن الشجرة وهم ينظرون وألقاها بين يدي السلطان فلما نظر إلى ذلك زاد إعجابه وقال لا نريد أثراً بعد عين.

ثم رجع إلى مجلسه وأمر بإحضار عبد الله من السجن مكرماً محشوماً فلما أحضروه قام السلطان واعتنقه وقبل ما بين عينيه وجعل يعتذر أليه بما أرتكبه في حقه من سجنه وهتك حرمه وقال الآن صدقت أن كل ما عندكم من مال ونعمه من عند الله وببركة حلال المشاكل.

ثم أمر بإرجاع كل ما أخذ منه حتى رضاه ومضى عبد الله إلى منزله فرحاً مسروراً بما أنعم الله عليه وعاش باقي عمره في أحسن حال هو وزوجته الصالحة وعياله إلى أن أختاره الله.

اللهم بحق محمد المصطفى وعلي المرتضى وفاطمة الزهراء والحسن المجتبى والحسين الشهيد بكر بلاء والتسعة المعصومين من ذرية الحسين أكشف عنا وعن كل مؤمن ومؤمنة كل ضر وبلاء وفاقة وكل هم وغم انك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

لي خمسة أهل العبا اطفي بهم حر الوبا

المصطفى والمرتضى وفاطم وابنيها النجبا

(اللهم صلى على محمد وعلى أهل بيت الطيبين الطاهرين).

❖ ❖ ❖

(٥)

غزوة الإمام علي (ع) لبلاد الهضام ابن الجحاف(*) وقطعه الحصون السبعة

✍ أبي الحسن أحمد بن عبدالله بن محمد البكري
المتوفى نحو سنة (٢٥٠ هـ-٨٦٥م)

تقديم (موسوعة الموسم):

أبو الحسن البكري، واضع هذا النص القصصي، هو أحمد بن عبد الله بن محمد، من أشهر القصصين العرب، عده الزركلي من أعلام القرن الثالث الهجري، وأنه توفي نحو سنة٢٥٠هـ ـ ٨٦٥م[١]. وعده المحقق الطباطبائي من أهل القرن الخامس الهجري أو بعده[٢]. وأما الأب لويس شيخو فقد ذكر أنه ـ توفي في أواسط القرن الثالث للهجرة[٣]، وذكره يوسف اليان سركيس وأشار إلى بعض كتبه ومنها: غزوة الأحزاب وما جرى للإمام علي الغلاب الوثاب والصحابة والأحباب وأنها تسمى غزوة الخندق وقد طُبعت سنة ١٣٠١ و١٣٠٥ هـ[٤]. وذكره بروكلمان ولم يعطي تاريخاً مضبوطاً لوجوده لكنه اعتبره ممن عاش قبيل سنة٦٩٤هـ ـ ١٢٩٥م اعتماداً على مخطوطة البكري (انتقال أنوار مولد المصطفى المختار) المحفوظة في مكتبة الفاتيكان، ووصفه بالواعظ ولقبه بالبكري البصري وان الحاج خليفة لم يعين وفاته لكن المستشرق فستنفيلد جعلها عقب سنة ٩٥٠ بقليل، وإن البكري هذا قد كتب سلسلة من الكتب المحببة إلى نفوس الجماهير عن تاريخ النبي. وذكر بروكلمان من ١٥ عنواناً من كتب البكري الأخرى ومن بينها كتابه غزاة سبع حصون وأنه مخطوط في آيا صوفيا برقم٣٣٠٧[٥].

(*) الهضام بن الجحاف شخصية مختلقة لا وجود لها إلا في مخيلة القصاصين الذين وضعوا هذه القصة. والجحاف: اسم اشتُق من الجحف وهو قشر الشيء، حكاه الأصمعي في الاشتقاق، واستعمل الجحاف كاسم لبعض العرب، كالجحاف بن حكيم الذي يقول فيه الأخطل:

ألا أبلغ الجحاف هل هو ثائر بقتلي اصيبت من سليم وعامر

وأبو الجحاف: رؤبة بن العجاج. انظر مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد٢٨ ص٥٦٣.

(١) الأعلام ١/١٥٥ ـ ١٥٦.

(٢) أهل البيت في المكتبة العربية/٥٢٦، قُم ١٤١٧هـ.

(٣) شرح مجاني الأدب ـ ص ٣١٢.

(٤) معجم المطبوعات العربية والمعربة ١/٥٧٨.

(٥) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي الترجمة العربية ٦/٢٢١ ـ ٢٢٣، دار المعارف بمصر ١٩٧٧.

وأشار الزركلي والطباطبائي إلى كلام الذهبي عنه والذي هاجم البكري فيه[١] في الطبقة الخامسة والعشرين ممن توفوا فيما بين سنتي ٤٨٠ فقال (أكذب من مسيلمة!! أظنه كان في هذا العصر). وترجم له في الميزان وقال: "ذاك الكذاب الدجال! واضع القصص التي لم تكن قط، فما أجهله!! وأقل حياءه ؟. وما روى حرفاً من العلم بسند، ويقرأ له في سوق الكتبيين كتاب ضياء الأنوار ورأس الغول، وشر الدهر، وكتاب كلندجة، وحصن الدولاب، وكتاب الحصون السبعة وصاحبها هضام بن الجحاف وحروب الإمام علي معه، وغير ذلك"[٢]. وترجم له ابن حجر[٣] وأورد كلام الذهبي، وعقب الطباطبائي فقال (وما كان الرجل يستحق هذا الهجوم العنيف، فإنه لم يضع حديثاً ينسبه إلى رسول الله (ص)، ولا وقع في إسناد حديث باطل يتهم به، وكل ما هنالك أنه ألف كُتباً بأسلوب قصصي وقلم روائي كما وصفه الذهبي بالقصاص، وواضع القصص. والكاتب القصصي لا يفترض فيه أن يتحرى الصدق، فالقصة بطبعها نسج خيال وتصوير رؤى، ولكن الذهبي ينظر إلى الكتب بمنظار محدث!! ويُطالب كل كاتب وقائل بإسناد صحيح!! مع أن كتب البكري أسماؤها توحي بأنها قصص وروايات مثل: رأس الغول، وكلندجه، وما شاكل. وقد كانت القصص والروايات منتشرة متداولة في الناس منذ بدايات القرن الرابع الهجري) قال بروكلمان: (وأقبل الناس في القرن الرابع الهجري على قراءة قصص مبتذلة وقد سمى الصولي سنة ٣٢٢هـ ـ ٩٣٤م بعض هذه القصص في كتاب الأوراق قال: ومنها:

عجائب البحار، وحديث سندباد، والسنور والفأر). ومن كتب البكري: مقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ذكره الطباطبائي وذكر هذه النسخ المخطوطة منه:

١ ـ نسخة في المكتبة المركزية لجامعة طهران، ذكرت في فهرسها ٧٧٦/٩

٢ ـ نسخة في مكتبة الغرب في همدان، ضمن المجموعة رقم ٤٥٩٣، من الورقة ١٧٢ ـ ٢٠٦، كتبت سنة ١٢٩٩ هـ، ذكرت في فهرسها، ص ٣٥١.

٣ ـ نسخة في مكتبة الإيرواني الوقفية في تبريز.

كما ذكر من كتب البكري كتاب مقتل الحسين عليه السلام نسخة في مكتبة جامعة القرويين في مدينة فاس بالمغرب، ضمن المجموعة رقم ٣/٥٧٥، من ٧٧ ـ ٨٦، ذكرها محمد العابد الفاسي في فهرسها ١١٢/٢ باسم: حديث وفاة سيدنا الحسين. ـ أهل البيت ص٥٤٨ كما أشار إلى كتابه وفاة فاطمة (ع) الذي عده المجلسي من مصادره. ـ أهل البيت ص٦٥٩.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/٣٦.

(٢) ميزان الاعتدال ١/١١٢.

(٣) لسان الميزان ١/٢٠٢.

قال الطباطبائي: وأما الكتاب الذي سماه الذهبي: **ضياء الأنوار** - وقد يسمى: **مصباح الأنوار** - والمشتهر والمطبوع باسم "الأنوار في مولد النبي المختار" فهو كتاب اعتيادي ليس فيه ما يشينه، ولا يختلف عن سائر ما كتب في المولد الشريف، وما أكثرها. وذكره حاجي خليفة[١] ومدحه قائلاً: "الأنوار ومفتاح السرور والأفكار في مولد النبي المختار لأبي الحسن أحمد بن عبد الله البكري... وهو كتاب جامع مفيد في مجلد، أوله: الحمد لله الذي خلق روح حبيبه إلخ، جمعها لتقرأ في شهر ربيع الأول وجعلها سبعة أجزاء".

ويحمل اسم (أبو الحسن البكري) رجل آخر هو علي بن محمد بن عبد الرحمن، توفي سنة ٩٥٢ هـ. كان من فقهاء الشافعية في مصر[٢]. درس عنده الشهيد الثاني زين الدين بن علي بن أحمد الشامي العاملي، المستشهد سنة ٩٦٥ هـ. ورد ذكره في كتاب (بغية المريد في ترجمة الشهيد) الذي كتبه تلميذ الشهيد بهاء الدين العودي حاكياً عن الشهيد نفسه في رحلته إلى مصر[٣].

عام ٩٤٢ هـ وتتلمذه على جماعة هناك يبلغ عددهم ستة عشر رجلاً من أعلام مصر، قال: "ومنهم أبو الحسن البكري، سمعت عليه جملة من الكتب في الفقه والتفسير وبعض شرحه على المنهاج" الشيخ.

ثم أخذ الشهيد الثاني - رحمه الله - يصف شعبية شيخه هذا ومكانته الاجتماعية وشدة حب الناس له، منها قوله: "وكان من شدة ميل الناس إليه إذا حضر مجلس العلم أو دخل المسجد يزدحم الناس على تقبيل كفيه وقدميه حتى منهم من يمشي حبوا حتى يصل إلى قدميه يقبلهما".

وفي أصحابنا - رضوان الله عليهم - من خلط بين هذين ! منهم ميرزا عبد الله أفندي[٤] قال: (الشيخ أبو الحسن البكري، قد يطلق على الشيخ الجليل أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن محمد البكري، صاحب كتاب (الأنوار في مولد النبي المختار) وغيره من الكتب، وكان أستاذ الشهيد الثاني، وسيجيء شرح أحواله في القسم الثاني، فإنه يقال: إنه من العامة". وأظن أن هذا الخلط والوهم تسرب منه إلى شيخه المحدث المجلسي - قدس الله روحه - فقال في مقدمة موسوعته الحديثية الكبرى بحار الأنوار ١/٢٢ عند عد مصادره: "وكتاب الأنوار في مولد النبي (ص)، وكتاب مقتل أمير المؤمنين عليه السلام، وكتاب وفاة فاطمة عليها

---

(١) كشف الظنون ١/١٩٥.

(٢) ترجمة في الكواكب السائرة ٢/١٩٤، وشذرات الذهب ٨/٢٩٢.

(٣) أدرج نصه حرفيا كل من الشيخ علي حفيد الشهيد الثاني والمتوفى سنة ١١٠٣ هـ في كتابه الدر المنثور ٢/١٤٩ - ١٩٨. وأفاد منها السيد الأمين العاملي - قدس الله روحه - وحكى كثيراً من نصوصها في ترجمة الشهيد الثاني من موسوعته القيمة أعيان الشيعة ٧/٤٣ - ١٥٨.

(٤) في كتابه رياض العلماء ٥/٤٤٠.

السلام، الثلاثة كلها للشيخ الجليل أبي الحسن البكري أستاذ الشهيد الثاني رحمة الله عليهما". وثالثهم المحدث الرجالي الحاج ميرزا حسين النوري ـ قدس الله نفسه ـ في خاتمة المستدرك ٣/٤٢٦ في ترجمة الشهيد الثاني عند عد مشايخه المصريين، قال: "٦، الشيخ أبو الحسن البكري، صاحب كتاب الأنوار في مولد النبي (ص)". وقد عرفت أن البكري صاحب الأنوار اسمه أحمد بن عبد الله، قد ترجم له الذهبي ـ المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ـ، في الميزان، فقد كان قبل القرن الثامن وكان قبل الشهيد الثاني ـ المولود سنة ٩١١ هـ ـ بعدة قرون.

وأول من تنبه لهذا ونبه عليه شيخنا العلامة المحقق صاحب الذريعة ـ قدس الله نفسه ـ فقد ذكر في الذريعة ١/٤٠٩ كتاب الأنوار ثم قال في ص ٤١٠:

أقول:

"الظاهر أن أبا الحسن البكري المصري أستاذ الشهيد هو الذي ترجمه في (شذرات الذهب) بعنوان: علاء الدين أبي الحسن علي بن جلال الدين محمد البكري الصديقي الشافعي، المحدث الصوفي المتبحر في الفقه والتفسير والحديث، وله شرح المنهاج وشرح الروض وشرح العباب، وتوفي بالقاهرة سنة ٩٥٢. مع أن ابن تيمية ـ المتوفى سنة ٧٢٨ ـ ذكر في كتابه (منهاج السنة) أن أبا الحسن البكري مؤلف (الأنوار) هذا كان أشعري المذهب، فيظهر تقدمه عليه، فكيف بعصر الشهيد الثاني؟"ا.

وصريح كلام الشهيد الثاني ـ رحمه الله ـ أن أبا الحسن البكري من مشايخه الذين قرأ عليهم في مصر عند رحلته إليها سنة ٩٤٢م وكان مما قرأ عليه شرحه على المنهاج. وقال العودي: (وصحبه شيخنا الشهيد) نفع الله به من مصر إلى الحج، وذكر أنه خرج في مهيع عظيم من مصر راكباً في محفة مستصحباً ثقلاً كثيراً". أقول: قال الغزي في ترجمة البكري هذا[1]: "ومن مؤلفاته شرح المنهاج. وهو أول من حج من علماء مصر في محفة". وقد تقدم عن الشهيد الثاني ـ رحمه الله ـ أنه قرأ على البكري بعض شرحه على المنهاج، فهو هذا لا صاحب الأنوار المتقدم عليه بعدة قرون.

وتعليقاً على الخلط الحاصل في اسم البكرى كتب الشيخ حسين الراضى ما يلى:

١ ـ ابن العودى تلميذ الشهيد الثانى وكاتب حياته فبالرغم من أنه أقرب الأشخاص للشهيد الثانى إلا أنه لم يصرح باسم أبى الحسن البكرى وإنما اقتصر على الكنية له ولذلك نسب كتاب (الأنوار) لأستاذ الشهيد الثانى حسب نقل صاحب رياض العلماء حيث قال: (وقد صرح ابن العودى تلميذ الشهيد الثانى في رسالة أحوال الشهيد الثانى أن أبا الحسن البكرى أستاذ الشهيد الثاني وأن له كتاب الأنوار في مولد النبي المختار).

---

(١) في الكواكب السائرة ٢/١٩٥.

٢ ـ العلامة المجلسى فى البحار فى مقدمته وفى بعض الأجزاء التى نقل منه فنسب كتاب الأنوار إلى هذا ثم جعله أستاذ الشهيد الثانى (٩١١هـ - ٩٦٦هـ).

قال: وكتاب الأنوار فى مولد النبى المختار وكتاب مقتل أمير المؤمنين (ع) وكتاب وفاة فاطمة الزهراء عليها السلام الثلاثة كلها للشيخ الجليل أبى الحسن البكرى أستاذ الشهيد الثانى رحمة الله عليهما.

٣ ـ تلميذ المجلسى الشيخ عبد الله الأفندى فى كتابه رياض العلماء ج ١ ص ٤٢ قال:

الشيخ الجليل أبو الحسن أحمد بن عبد الله البكرى صاحب كتاب الأنوار فى مولد النبى المختار وغيره من المؤلفات، المعروف بالبكرى، وتارة بالشيخ أبى الحسن البكرى.

قال فى أوائل كتاب بحار الأنوار ما صورته: وكتاب الأنوار فى مولد النبى المختار، وكتاب مقتل أمير المؤمنين (ع)، وكتاب وفاة فاطمة الزهراء عليها السلام، الثلاثة كلها للشيخ الجليل أبى الحسن البكرى أستاذ الشهيد الثانى رحمة الله عليهما .

ثم قال قدس سره فى الفصل الثانى من أول البحار:

وكتاب الأنوار قد أثنى بعض أصحاب الشهيد الثانى على مؤلفه وعده من مشايخه ومضامين أخباره موافقة للأخبار المعتبرة المنقولة بالأسانيد الصحيحة وكان مشهوراً بين علمائنا يتلونه فى شهر ربيع الأول فى المجالس والمجامع فى يوم المولد الشريف وكذا الكتابان الآخران معتبران أوردنا بعض أخبارهما فى الكتاب انتهى .

ثم قال فى الرياض: قال بعض المؤرخين بعد أن نقل نحو ذلك عن المجلسى ما لفظه: وأقول عندنا من كتاب الأنوار المذكور نسخة عتيقة تاريخ كتابتها سنة ٦٩٦ وما قلناه فى اسمه ونسبه مذكور فى أوائله فى النسخة التى عندنا لكن مؤلفه كما يظهر من سياقه قد كان من القدماء وهو من أصحابنا، قال واعلم أن جماعة من المتأخرين قد ينقلون عن كتاب الأنوار فى مولد النبى المختار (ص) وينسبونه إلى أبى الحسن البكرى من غير تصريح باسمه وفى البحار أيضاً لم يصرح باسمه، وحينئذ فربما يحتمل حينئذ التعدد وان اشتركا فى الكنية والنسبة اهـ .

وقال صاحب الرياض فى ج ٥ ص ٤٤٠:

الشيخ أبو الحسن البكرى:

قد يطلق على الشيخ الجليل أبى الحسن أحمد بن عبد الله بن محمد البكرى صاحب كتاب الأنوار فى مولد النبى المختار وغيره من كتب، وكان أستاذ الشهيد الثانى. وسيجىء شرح أحواله فى القسم الثانى، فإنه يقال أنه من العامة.

وقد صرح ابن العودى تلميذ الشهيد الثانى فى رسالة أحوال الشهيد الثانى أن أبا الحسن البكرى أستاذ الشهيد الثانى وأن له كتاب الأنوار فى مولد النبى المختار. فلاحظ فما يظن أنه من مؤلفات أبى الحسن البكرى الذى كان من قدماء المحدثين ويروى عنه العامة أيضاً محل تأمل....

ثم إن النسخة التى كانت عندنا من كتاب الأنوار أيضاً ظاهرها أنها من مؤلفات القدماء.

فصاحب رياض العلماء يصرح أن صاحب كتاب (الأنوار في مولد النبى المختار) هو أبو الحسن البكرى أحمد بن عبد الله بن محمد البكرى، وظن أن هو أستاذ الشهيد الثانى وهو خطأ واشتباه.

وحصل خلط عند صاحب رياض العلماء كما حصل لأستاذه المجلسى وابن العودى قبلهما.

٤ ـ الميرزا النورى في خاتمة المستدرك. أخذ بما قاله المجلسى وما ذكره صاحب الرياض.

وقد تنبه لهذا الخلط الشيخ آقا بزرك الطهرانى فقال:

(الأنوار ومفتاح السرور والأفكار) في مولد النبى المختار لأبى الحسن أحمد بن عبد الله البكرى أوله (الحمد لله الذى خلق روح حبيبه) وهو في سبعة أجزاء كما ذكره كشف الظنون، وجعله العلامة المجلسى مع كتابيه الآخرين مقتل أمير المؤمنين عليه السلام ووفاة فاطمة الزهراء من مآخذ البحار عند ذكر كتب الخاصة ونسب الثلاثة إلى أبى الحسن البكرى المصرى الذى قرأ عليه الشهيد الثانى بمصر وتوفي بها سنة ٩٥٣ كما ذكره ابن العودى في بغية المريد.

"أقول" الظاهر أن أبا الحسن البكرى المصرى أستاذ الشهيد هو الذى ترجمه في شذرات الذهب بعنوان علاء الدين أبى الحسن على بن جلال الدين محمد البكرى الصديقى الشافعى المحدث الصوفي المتبحر في الفقه والتفسير والحديث وله شرح المنهاج وشرح الروض وشرح العباب وتوفى بالقاهرة سنة ٩٥٢ ودفن بجوار الإمام الشافعى، والظاهر أنه بعينه هو الذى نقل الزركلى في الأعلام ترجمته عن الكتابين المخطوطين "السنا الباهر. والنور السافر" بهذا العنوان محمد بن محمد بن عبد الرحمن أبو الحسن البكرى الصديقى المفسر الفقيه المصرى المولود سنة ٨٩٩ والمتوفى سنة ٩٥٢، وعد من تصانيفه التفسير وشرح العباب وشرح المنهاج، وظاهر التكنية بأبى الحسن أن الصحيح من اسمه ما في الشذرات وعلى أى فلم يذكر في الكتابين من تصانيف أبى الحسن البكرى الذى كان في ذلك العصر، هذه الكتب الثلاثة المذكورة في أول البحار منسوبة إلى أبى الحسن البكرى أستاذ الشهيد، مع أن ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ ذكر في كتابه منهاج السنة أن أبا الحسن البكرى مؤلف الأنوار هذا كان أشعرى المذهب، فيظهر تقدمه عليه فكيف بعصر الشهيد الثانى، والسمهودى في كتابه تاريخ المدنية المؤلف سنة ٨٨٨ قال الغالب على سيرة أبى الحسن البكرى البطلان والكذب، فالمظنون أن أبا الحسن البكرى مؤلف الكتب الثلاثة من المتقدمين وأن اسمه أحمد بن عبد الله كما ذكره في كشف الظنون.

وكذلك أشار إلى بعض هذه الملاحظات السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة.

والحاصل: أن صاحب الكتب الثلاثة التى ذكرها المجلسى، هذا متقدم زماناً كثيراً على الشهيد الثانى بقرابة خمسة قرون من الزمن فالمترجَم وإن لم يُعلم تاريخ وفاته بالدقة ولكن من المعلوم أنه عاش قبل ابن تيمية المتوفى ٧٢٨ هـ وقبل الذهبى المتوفى ٧٤٨ هـ وهما اللذان قد أشارا إليه وترجماه. فكيف يكون من أساتذة الشهيد الثانى (٩١١ هـ - ٩٦٦ هـ). ومع الأسف أن صاحب البحار لمّا نسب كتاب الأنوار لأبى الحسن البكرى وأنه أستاذ الشهيد الثانى لم يذكر إلا كنيته ولم يذكر اسمه.

أما كتابه الآخر: مقتل أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام لأبى الحسن البكرى، فهو لصاحب الترجمة أحمد بن عبد الله بن محمد، من أهل القرن الخامس الهجرى أو بعده.

والخلاصة: أن ما ادعاه صاحب البحار من أن كتاب (الأنوار) لأبي الحسن البكري أستاذ الشهيد الثاني غير صحيح فالكتاب لشخص متقدم على زمان الشهيد بمئات السنين وأن أستاذه لم يكن له هذا الكتاب، وليس له: مقتل أمير المؤمنين (ع)، ووفاة فاطمة الزهراء عليها السلام فيبقى المؤلف لهذه الكتب الثلاثة رجلاً مجهولاً، ثم يبقى الشك هل هو من مدرسة الصحابة أو من مدرسة أتباع أهل البيت عليهم السلام. فبعد ما تقدم من ترجمته يتبين أنه من مدرسة الصحابة (السنة).

(النص):

(قال الراوي) حدثنا أمير المؤمنين (ع) قال كنت أرى الجبال الشاهقة أمامي فبينما أنا أتفكر في الوصول إليها فما أدري إلا قد وصلت إليها وعلوت عليها بحول الله تعالى وقوته ولا أشعر بنصب ولا تعب كل ذلك بحول الله سبحانه وتعالى وببركة رسول الله (ص) ثم أنشد يقول:

طاب المسير بنور الله إذ لمعا ... وبان مطلع ضوء الفجر إذ طلعا

قتلت جرثومة الكفار كلهم ... رأس النفاق وخلى النصح وابتدعا

أذقته ضربة من يد قسورة ... تركته مثل سكران إذا وقعا

نصفين قد قسم البتار بينهما ... والموت بينهما والحتف قد صرعا

غيث يقول وليث في معاركه ... تلقى الأعادي ولا تخشى لهم جزعا

الإمام في وادي الظل:

(قال الراوي) وسار الإمام (ع) يطوي المنازل ولا يعرج على المناهل إلى أن وصل أرض اليمن وجعل يكمن بالنهار ويمشي بالليل إلى أن بلغ أطراف البلاد وأشرف على العمران وقد وصل إلى وادي الظل وهو أول الأودية السبعة وهو واد معشب أخضر نعمه عظيمة كثير النبات

والأشجار والمياه وحسن تغريد الأطيار وإذا فيه رعاة ومعهم أغنام وأنعام ثم نظر إلى صدر الوادي فإذا هو بحصن حصين مشيد متين وهو يسمى الوجيه يلوح كأنه لؤلؤة بيضاء له نور ساطع وإشراق لامع فلما نظر إليه الإمام حمد الله وشكره وأثنى عليه على تيسير العسير الذي قرب إليه البعيد وسهل عليه كل صعب شديد ثم انحدر إلى ذلك الوادي وإذا عارضه نهر ماء جار يلوح صفاء بياضه والخيل والأنعام والإبل والمواشي والرعاة في البر الآخر مما يلي ديار القوم والرعاة مجتمعون ومعهم واحد بيده قابة يصفر بها وهم يصفقون ويلعبون ويرتجزون الأشعار فنزل الإمام (ع) إلى جانب النهر وقد نظره القوم فلم يخاطبهم ثم أنه حل منطقته وتوضأ وصلى فلما رآه القوم يصلي بهتوا ولم يعلموا ما هو صانع وقد دهشوا من ركوعه وسجوده فقطعوا ما كانوا فيه من لهوهم ولعبهم وقال بعضهم لبعض كأن هذا من بعض كهنة العرب وقال بعضهم إنما هو ساحر وقال بعضهم إنما به جُنة وقد أكثر القوم في الإمام (ع) وهو مشغول بما هو فيه.

محادثة مع الرعاة:

فلما فرغ من صلاته مال متكئاً إلى جحفته فقال له بعض القوم: من أين أنت أيها الرجل؟ فقال لهم: من طين من حمأ مسنون خلقني وقدرني الذي يقول للشيء كن فيكون. فقال لهم الراعي ألم أقل لكم أنه مجنون قذفته جُنة إلى هذا المكان فترك الراعي قول أصحابه وقال له يا هذا من أين أقبلت؟ فقال له الإمام: من عند مولاي الذي كفاني بنعمته ونعمني بفضله وكرمه. فقال له الراعي أفقير مولاك أم غني؟ فقال له الإمام هو مولى الموالي علمه بحالي يكفي عن سؤالي مالك المشرق والمغرب والبر والبحر والسهل والوعر والأرض والسماء عليه توكلت وبه استعنت. فقال له الراعي: صدقت وبالحق نطقت أقدم علينا أيها الرجل فالطريق أمامك هذه الصفة صفة إلهنا المنيع وهو في إحسانه بديع. ثم إنهم سروا بقوله سروراً عظيماً وفرحوا به فرحاً شديداً وقالوا يا بني بلغت مناك وأدركت هواك فإن أحببت أن تأتي إلينا فدونك والجسر عن يمينك واجعل راحتك عندنا لنسر بك فقال لهم الإمام: من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وإني أرجو أن أكون على الطريق مع النبي الناصح.

الإمام يصطاد الظباء:

(قال الراوي) فأعرض الرعيان عنه لأنهم لم يفهموا كلامه وقالوا له إن في كلامك تخليطاً وفي لسانك تفريطاً وإن كلامنا لك ضائع ثم أعرضوا عنه ورجعوا إلى لعبهم ولهوهم وأقام الإمام (ع) مكانه إلى أ وجب العصر فصلاه، وإذا بالرعيان تصارخوا وتصايحوا فقال لهم الإمام معاشر القوم ما بال صراخكم ؟ قالوا ألا تنظر إلى قطيع الظباء منحدراً من الجبل فلما نظر الإمام إلى ذلك وثب قائماً على قدميه ثم نزع أطماره وسلاحه وقال لهم دونكم حفظ

أثوابي وسلاحي فقالوا وأين تريد فقال لهم أريد هذه الظباء لعلي أنال منها ظبياً فلم يبق أحد منهم إلا وقد ضحك من قوله واستهزأ عليه ثم قال بعضهم لبعض ألم أقل لكم إن الرجل هائم على وجهه مخبوط في عقله ثم تركهم الإمام ومضى وهم ينظرون إليه ويظنون أنه لا يبرح من مكانه لعظم خلقته وكبر بطنه.

ثم سار الإمام حتى توارى عن أعين الرعاة وقد قطع الشعاب وهو يثب من ربوة إلى ربوة ومن شجرة إلى شجرة حتى أدركها وهي في شدة جريها فقبض على اثنين منها واحدة بيمينه وأخرى بيساره وأقبل كأنه الريح والظباء في يديه فلما رأى الرعاة الظباء في يديه ذهلوا وكبر الإمام في أعينهم ولم يزل سائراً حتى أتى إلى سلبه واستخرج سكيناً وذبحهما وسلخهما وأجاد غسلهما ثم حفر حفرة والتفت يميناً وشمالاً يطلب حطباً فلم يجد شيئاً إلا شجرة قديمة كبيرة قد يبست أغصانها وأقبل إليها وشبك عليها وجذبها فقلعها بعروقها من أصلها وجعل يجرها إلى أن أتى إلى الحفرة وجعل يكسر منها وهو غير مكترث حتى جعلها هشيماً وفرش أرض الحفرة حصى ثم أخذ من ذلك الحطب ورمى في الحفرة حتى ملأها ثم قدح زناده فأخرج ناراً وأضرمها في ذلك الحطب فتأججت وصارت جمراً فكشف الجمر عن الحصى وأخذ الظبيين ورماهما في هذه الحفرة ورد عليهما النار من فوقهما هذا والرعاة ينظرون إليه ويتعجبون من فعاله وهابوا أن يقدموا إليه وأمسكوا عن سؤاله.

فلما فرغ الإمام غسل يديه ولبس ثيابه وقعد ينتظر غروب الشمس لأنه كان صائماً فقال له الرعاة يا فتى نحن ضيوفك الليلة لتطعمنا مما اقتنصت من الظباء فقال لهم الإمام إنما يضاف من يكون قبلنا بالديار وأنا في دياركم غريب. فقالوا له يا فتى سألناك بإلهك الذي تعبده إلا ما عرفتنا باسمك الذي تعرف به لأننا رأينا منك ما لم نره من أحد غيرك فقال لهم اسمي زيد وكانت أمه سمته زيداً وسماه أبوه حيدر وسماه النبي (ص) علياً لما أمر الله أن يسميه بذلك الاسم الحسن فقالوا له يا فتى لقد أعطاك الله من الشجاعة والبراعة ما لم يُعطه لأحد غيرك وبقي القوم يتحدثون بحديثه وما ظهر لهم من قوته وشجاعته.

الرعاة يتعرضون للسلب:

(قال الراوي) فبينما هم كذلك إذ وقعت صيحة عظيمة وصرخة مزعجة من الوادي وتتابع الصياخ والصراخ فجعلت الرعاة تسرد أغنامها وإبلها وخيلها يرومون أن يجمعوها وأسرع بعضهم إلى أهل الحصن يستنجدونهم والإمام ينظر إليهم وإذا بخيول مسرعة وأسنة لامعة وكراديس متلاحقة فظن الإمام أنهم قد عرفوه وأن أهل الحصن قد خرجوا له فشد منطقته وقبض جحفته وتأهب للقتال وجلس ينتظر وصول القوم إليه فأقبلت الخيل أفواجاً وجالت في الوادي وكانت أربعة آلاف فارس وضموا جميع ما في الوادي من المواشي فسار ألف بالغنيمة وثلاثة آلاف حمية لأصحابهم من أن يطرقهم طارق أو يلحقهم لاحق وفرت جميع الرعاة في

خبايا الوادي وهم يبكون ويتصارخون فقال لهم الإمام لم تبكون وليس لكم مال ولا نوال وإنما المال لغيركم وأنتم مستأجرون فقالوا له يا فتى إنما نبكي على أنفسنا لأن سيدنا الأعظم الهضام إذا أُخذ ماله رجع بالقيمة علينا ويقول أنتم سلمتم مالي لأعدائي فلم يرض لنا بالقتل بل يحرقنا بناره وقد فعل ذلك بمن كان قبلنا من الرعاة وقد رأيت ما دهمنا من كثرة الخيل ونحن أعرف الناس بهم وبملكهم.

سُمعة الإمام وفروسيته التي سبقته:

(قال الراوي) أما ملكهم الهضام وإلهه المنيع لما وصلوا إليهم من هؤلاء الأقوام ولم يخلصوا الغنائم من أيديهم لأنهم قوم قد عرفوا بالبلية وطوارق المنية وصاحبهم قد أيتم العرب وهو الجالب لأعدائه العطب تبلغ أذيته أرض فارس ونحو كرمان وإلى أرض اليمامة وأرض نعمان ولا يسمع بلد إلا هجم عليها ولا مدينة إلا أتى إليها ولا عسكراً إلا يلقاه ولا جيشا إلا وافاه ولا تقصر يده إلا عن بلدة واحدة فإنه يهاب التقرب إليها ولا يجسر على الهجوم عليها فقال الإمام (ع) ما هذه البلدة التي لا يقرب إليها ولا يجسر على الهجوم عليها فقال له مدينة يثرب مسكن محمد بن عبدالله بن عبد المطلب فإن بها فارساً لا كالفرسان وشجاعاً لا كالشجعان ويقال عنه أنه **مفرق الكتائب ومظهر العجائب ومبدي الغرائب وهازم الجيوش، ومفرق المواكب الجسام القاضب والليث الغالب والبحر الساكب ليث بني غالب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.**

فلما سمع الإمام هذا الكلام تبسم ضاحكاً وقال أيها الراعي ما اسم هذا الرجل وما الذي يعبد وأين مسكنه فقد حدثتني بعجب؟ فقال له يعرف بالمغضب وأما معبوده فإنه صنعه من الجزع اليماني وكانت العرب تأتي إليه وغلى صنمه فيخبرهم بجميع ما يسألونه عنه فلما كان يوم من الأيام والناس محدقون به ويسألونه ويتضرعون إليه وكان الناس قد شكوا إلى ملكهم المغضب من علي بن أبي طالب لما فعل بسادات العرب من القتل والأسر ومنازلة الفرسان فقال لهم يا قوم تأخروا عني لأتقدم إلى الإله العظيم وأشاوره لكم في المسير إليه فتأخروا عنه جميعاً.

(قال الراوي) فعند ذلك تقدم الملك المغضب إلى إلهه وهو معتمد فيه وواثق به واستشاره في حرب علي بن أبي طالب وقال إلهي قد سمعت ما ذكرته العرب من خبر هذا الغلام وشجاعته وقتله الفرسان وقد حارت العرب في أمره وشكوا من فعاله وعجزوا عن قتاله فهل لك أن تشير لنا أن نسير إليه ونقاتله وتنصرنا عليه وأنت أعلم منا بذلك فمهما أمرتنا به امتثلناه فإننا من أهل خدمتك وتحت مشورتك والطائعين لك ولأمرك فقل لنا ما أنت قائل.

(قال الراوي) فلما فرغ من كلامه دخل الشيطان في جوف الصنم ونهى المغضب عن ذلك وهو يظن أن الكلام من الصنم وهو إبليس بجوفه ثم تمثل وارتجز وأنشد يقول:

دع مـا قـصدت مـن ارتكـاب مهالـك ومكـاره مقرونـة بـبلاءِ
لا تطلـبن لقـا علـى إنـه وحـش الفـلاة وسـافك لـدماءِ
هـذا إلهـك كـاره للقائـه أبـداً وإنـه كـاره للقـائي

فلما سمع المغضب والعرب كلام الصنم حزنوا من كلامه فخاف الملك وخافت العرب ورجعوا عن عبادته ونفروا من زيارته فقالوا: إلهك يذل ولا ينصر فهو أولى بأن يذل ويحرق فتفرقوا عنه ولم يبق أحد ينظر إليه.

تحول الإعراب من الولاء للملك المغضب إلى صنم المنيع:

فعند ذلك تسامعت العرب والقبائل بملكها الهضام وصنمه المنيع وقيامه على طول الأيام معلقاً في الهواء فانعطف العرب جميعهم إليه ورأوا منه معجزات وكلمهم بالدلائل ووعدهم بهلاك علي بن أبي طالب وودوا أن يكفيهم مؤنته ويكف عنهم شره فانصرفت وجوههم إليه وأقبلوا بجمعهم عليه فعظم على المغضب واستنجد بالعرب وبذل لهم الأموال فجرى بينه وبين صاحبنا الهضام حرب ما شهدت للعرب مثلها وأقاموا مدة من الشهور يقتتلون حتى فني أكثر الجماعات وافترقوا على ما هم عليه من العداوة والبغضاء وبقي كل واحد منهم يغير على صاحبه كما ترى وكانت العرب سعت بينهم بالصلح على أن يجتمعون جميعاً ويسيرون إلى علي بن أبي طالب ولم يكن قد انفصل بينهم أمر فتبسم الإمام علي (ع) ضاحكاً من قوله ثم أطرق برأسه إلى الأرض ساعة وهو يتفكر في أمر الحصون التي بينه وبين عدو الله الهضام.

الإمام يتهيأ للقتال:

فأجمع الإمام علي أمره على ملاقاة المغضب وقومه وأقبل على الراعي المخاطب له وقال إلى أين هؤلاء القوم سائرون وإلى أين يقصدون وفي أي مكان يقيمون؟ فقال له يا فتى ما هو منا بعيد فبيننا وبينه قدر فرسخين في مضيق بين جبلين يجمعون السائمة إلى ذلك المضيق ثم يقع البيع والشراء فيها فيأخذ كل ما يخصه وينصرف إلى حال سبيله ويقصد مكانه ومحل نومه. فقال الإمام: يا ويلكم فما منع صاحب هذا الحصن عن لحاقهم ؟ فقالوا له: يا فتى تجلى لك إلهنا بالبركة إن في كل حصن ألف رجل ولو اجتمع كل من في الحصون لكان هو كفؤاً للجميع. فلما سمع الإمام ذلك الراعي المخاطب له أخذ سيفه ودرقته وجرابه وشد وسطه بمنطقته ثم أتى إلى جانب النهر وثبت عزمه ووثب فارتفع في الهواء ارتفاعاً عالياً فعبر بتلك الوثبة إلى جانب النهر الآخر وكان عرض ذلك النهر أكثر من عشرين ذراعاً ففزع الرعاة مما عاينوه وذهلت عقولهم وارتعدت فرائصهم واصفرت وجوههم خوفاً من الإمام. فقال لهم: مهلاً يا قوم لن ينالكم مني إلا خيراً إن شاء الله تعالى فإن غبت عنكم حتى جن الليل

فأخرجوا ما في الحفرة وكلوه فأنتم أحق به من النار. فقالوا له إلى أين تريد؟ فقال لهم: أريد أن ألحق القوم فعسى أنال منهم خيراً ورشداً. فظن الرعاة أنه يطلب منهم وفداً ومعونة. فقالوا له: يا فتى إن القوم إن وقعت أعينهم عليك لم يسمعوا كلامك دون أن يسفكوا دمك وهم أربعة آلاف فارس وملكهم المغضب أعظم من الجميع وأكثرهم أذية ومع ذلك إن وهبوك شيئاً أخذ منك فلا تعرض نفسك للهلاك.

فقال لهم الإمام بعد أن سمع ذلك الكلام: لا صبر لي عن القوم ولا بد من اللحوق بهم. فلم يكن غير قليل حتى لحق بالقوم ونظر الخيل والأسنة تلمع فقصر الإمام في مشيه حتى دخل القوم في المضيق والسائمة معهم وليس لذلك المضيق منفذ غير هذا الذي دخلوا منه فلما دخلوا أتى الإمام إلى فم المضيق وجلس تحت درقته جاثياً من وراء صخرة قابضاً بيده على سيفه وهو يسمع حديث القوم في بيعهم وشرائهم وقد غابت الشمس فصلى الإمام المغرب في مكانه وقال: اللهم ارزقني من عندك فطراً حلالاً طيباً. ولم يزل القوم كذلك إلى أن دخل الليل وطلع القمر فبينما هو كذلك إذ سمع بعار غنم ورغاء إبل فإذا هو بشويهات وفرسين ومطيتين بغير سروج وفارس معتقل برمحه ولامته فقال الإمام يوشك أن هذا قسم هذا الفارس فكمن الإمام إلى أن خرج الفارس وما معه من فم المضيق فلما قارب الإمام لم يمهل عليه حتى وثب عليه وضربه بذي الفقار فوقع على الأرض قطعتين فأخذ الإمام جميع ما معه وعدل به إلى ناحية وتركه ورجع إلى مكانه فلم يكن إلا هنيهات وقد أقبل آخر على مثال الأول وهو ينادي صاحبه يا أبا المعين قف حتى أجمع سهمي بسهمك ونسير جميعاً فلم يرد عليه فما استتم كلامه إلا وقد وافاه الإمام ولوى شماله إلى يمينه وقبض عليه ودق عنقه في الأرض وضم الجواد إلى الجواد والماشية وجر الرجل الأول من الطريق إلى خارج المضيق وجر صاحبه إليه ورجع إلى مكانه فلم يستقر وإذا بصهيل خيل ورغاء إبل وبعار غنم وثلاثة فوارس من وراء تلك الأغنام والإبل والخيل فتفكر الإمام فيما يحتال به عليهم ساعة حتى خرجوا من المضيق فأسف الإمام على خروجهم وخاف أن ينبههم قبل أن يفرغ منهم.

فتقدم إلى أحدهم وضربه بالسيف على مراق بطنه فخرج السيف يلمع من ظهره فسقط إلى الأرض نصفين وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار فالتفت إليه صاحباه فوثب الإمام (ع) عند التقائهما وضرب أحدهما فجعله طريحاً يخور في دمه وأراد الثالث فسبقه إلى داخل المضيق وهو صارخ مستغيث بأصحابه وهو يقول أدركوني فقد هلك أصحابكم وهلكتم جميعاً فاطلبوا لأنفسكم الخلاص. فقالوا بأجمعهم: ما الذي دهاك. فقال: إنه بباب المضيق موت نازل وسيف فاصل وهو لكل من خرج منكم قاتل. فصاح به المغضب وسأله عن حاله فأخبره بما رأى وعاين من أمير المؤمنين فقال له أيها السيد رأيت منه شجات مزعجات وصولات متداركات لا تكون لبشر ولكنه سماوي الفعال ومبادر

للقتال فصاح به اللعين وقال لعل أن يكون معه جيش كثير فقال يا مولاي ما معه أحد وهو يسعى على أقدامه إذا وثبت جاوز الفرس بالوثبة ويخلع الرأس من الرقبة فصاح به المغضب وقال لا أم لك لعله يكون من بعض عمار هذا المكان أو مارد من مردة الجان ثم التفت إلى رجلين من قومه قد عرفا بالشدة والقوة والمراس. فقال لهما انظرا إلى ما يقول الجبان فنهضا على أقدامهما وركبا خيولهما فعطفا بفرسيهما وسلا سيوفهما إلى أن قربا من باب المضيق فصرخا: من الطارق لنا في هذا الليل الغاسق من المتعرض لنا في سطوتنا فإن كنت من الجن فنحن مردة الجن وإن كنت من الإنس فنحن من عتاة الإنس فمن أنت انطلق قبل أن نرميك بالعطب ونجلك بالويل والغضب؟

قوة الإمام: البحر المُغرق والموت المُفَرق:

هذا والإمام ساكت لم يرد عليهما جواباً وهما على وجل والإمام قد لصق بالأرض إلى أن وصلا إليه وحاذياه بفرسيهما فوثب إليهما كالأسد وقبض بيده على جواد الأول ورفعه من الأرض وضمه إلى صدره ثم حذف به الجواد الثاني فوقعت الصدمة على رجلين من الفرسين فاندق الفرس الثاني واندق صاحبه وسقط الأول على أم رأسه فانسج شجة عظيمة ووثبت هائماً من حيث خرج من المضيق صارخاً مستغيثاً بقومه فبادروا إليه وقالوا ما وراءك قال ورائي البحر المغرق والموت المفرق.

فقالوا: صف لنا ما رأيت قال: رأيت ما لا يقدر أحد على وصفه هل رأيتم رجلاً يحمل فرساً براكبه قالوا لا قال هذا الرجل حمل فرساً براكبه ثم صدم به الآخر فدق الفرس وراكبه فلما سمع القوم ذلك ذهلوا وحاروا وقالوا كيف يكون ذلك وكيف يتفق أن رجلاً يفعل هذا فقال ها هو بباب المضيق فمن أراد أن يعلم الأمر بالتحقيق فعليه باب المضيق فينظر إلى ما نظرته بالتصديق، فما فرغ من قوله حتى هب إليه المغضب بنفسه وفار من شدة غيظه وصاح عليه وضربه بسيفه فقتله وقال قبحتك اللات والعزة تباً لك ولمن ذكرت أمن الرجال هذا من لا يخاف سطوتي ولا يزول من صولتي ثم قال احتفظوا على أنفسكم حتى أعود إليكم فقال له قومه أيها الملك معك أربعة آلاف فارس من صناديد العرب والسادات من ذوي الرتب تقوم أنت دونهم ونحن نعلم أن فيك الكفاءة لأهل الأرض في الطول والعرض ولكن نخشى عليك أن يكون هذا من عمار الجان أو من الجن الأشرار فنخاف عليك من طوارقهم فقال لهم بحق اللات والعزى لا بد لي من الدنو إليه والهجوم عليه. فإن كان من الإنس قتلته وإن كان من الجن أبدته ولا يقال إني امتنعت من قتال الجان ثم إنه حزم وسطه وجرد سيفه وأخذ جحفته وكان عدو الله عظيم الخلقة كبير الجثة شديد الهمة فتوجه إلى الإمام (ع) وهو يبربر كالأسد وينشد ويقول:

أيهـــا الطـــارق في ليـــل غـــسق بالغـــأ فينـــا بـــسر قـــد ســـبق
إنـــني المغـــضب واسمـــي قـــد ســـبق أقطـــع الهامـــات في يـــوم الفـــرق
انـــا ليـــث شـــربه مثـــل الغـــدق ســـيفه ســـيف صـــقيل كالـــشفق
قـــال مـــن ولى وفي القـــول صـــدق راكـــب البحـــر فـــلا يخـــشى الغـــرق

فلما سمع الإمام المغضب علم أنه كبير القوم ورئيسهم فقال: هذا والله بغيتي ومرادي اللهم سهل ساعته.

الإمام يواجه الملك المغضب ويقتله:

وأقبل عدو الله منفرداً بنفسه حتى وصل إلى باب المضيق فنظر إلى القتلى وهم مجندلون فتحقق الأمر وارتعدت وصاله وذهل باله وطاش عقله وقال وحق اللات والعزى لقد صدق صاحبنا فيما قال وإنما ظلمناه بقتلنا إياه، ثم إنه وقف بباب المضيق وهو ذاهل العقل وقد سمعه الإمام (ع) وهو يقول وحق اللات والعزى ما فعل هذا الفعال أحد من الأمم السابقة ولا قوم عاد وثمود ولا يقدر على ذلك إلا الغلام الذي يقال له علي بن أبي طالب. فلما سمع الإمام مقالته تقدم إليه علي مهل فلما دنا منه ووصل إليه نظره عدو الله فتحير وصار لا يدري وما قدر أن يتقدم أو يتأخر فبينما هو كذلك إذ وثب إليه الإمام وهجم عليه ولوح بحسامه وقال ويل لك ولآبائك وأجدادك أنا المنعوت بهذه الفعال، **أنا مبدي العجائب، أنا مظهر الغرائب، أنا البحر الساكب، أنا مفرق الكتائب، أنا الليث المحارب، أنا فتى بني غالب، أنا علي بن أبي طالب.**

فلما سمع عدو الله مقالة الإمام علم أنه هو لا محالة فارتعدت فرائصه وذهبت قوته وأيقن بالهلاك فصرح بأعلى صوته وقال يا قوم أدركوني قبل أن أهلك فتهلكوا جميعاً فلما سمع القوم صراخه أجابوه وأسرعوا إليه فلما نظر الإمام سرعة القوم هجم على عدو الله وقد أمسك جوارحه فلم يستطع أن يتحرك فوافاه الإمام بضربة هاشمية علوية على صدره فسقط إلى الأرض قطعتين وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار فلم يصل إليه أصحابه إلا وهو على الأرض يضطرب في باب المضيق يتكلم بكلام لا يفهم حتى تجمد جسمعه وانقطع نفسه فتعجب القوم وقالوا وحق اللات والعزى مالنا بقتال الجن من طاقة فقال رجل منهم اسكتوا حتى أخاطبه فإن كلمني عرفته إن كان إنسياً أو جنياً ثم تقدم إلى ناحية فم المضيق وقال أيها الشخص المريد والأسد المكيد والليث الشديد أخبرنا بما تريد ولك منا الإجابة والإكرام والفضل والإنعام والرخاء والرفد والزمام ولك الأمان في كل موطن ومكان فأخبرنا بما تريد وما تطلب تكن من أهل الإحسان والفضل والامتنان.

فلما سمع الإمام (ع) ذلك أجابهم أريد منكم كلمة النجاح والفوز والصلاح وهي أن تقولوا معي بأجمعكم: لا إله إلا الله محمد رسول الله فلما سمع القوم ذلك قالوا وحق اللات

والعزى ما هذا إلا جني وقال بعضهم ما هذا إلا بشر مثلكم آدمي وما نرى من الرأي إلا أن نكون في مكاننا حتى يصبح الصباح فينكشف لنا هذا الأمر فلما اجتمع رأيهم على ذلك تأخروا إلى ورائهم في داخل المضيق فلما رأى الإمام (ع) تأخرهم وما قد عزموا عليه تقدم إلى عدو الله وحز رأسه ثم قام فذبح كبشاً من الغنم التي أخذها وسلخه وأضرم ناراً وشواه وأكل حتى اكتفى وحمد الله تعالى وقام بين يدي الله تعالى راكعاً وساجداً حتى طلع الفجر فصلى صلاة الصبح ثم تحزم وأخذ سيفه وجحفته ونزل إلى فم المضيق فلما طلعت الشمس نظر إليه القوم بأعينهم وهو في فم المضيق يرمق إليهم. فقال بعضهم وحق اللات والعزى ما هو جني ولو كان جنياً لغاب عند انتشار الصباح وما هو إلا منفرد بنفسه يريد أن يقتلنا ونحن أربعة آلاف فارس والصواب أن نتقدم إليه عشرة (قال الراوي) فتقدم للإمام عشرة من فرسانهم وشجعانهم وأبطالهم فلما وصلوا إليه حملوا عليه فقتل منهم سبعة وبقي ثلاثة فولوا منهزمين طالبين قومهم فقال لهم جنادة بن عامر وكان قد تقدم عليهم بعد المغضب انطلقوا إليه عشرين عشرين فأتوا إليه وافترق عليه العشرون فلم تكن إلا ساعة حتى قتل منهم سبعة عشر وهزم الباقون فجعل الإمام كلما قتل رجلاً يجره برجله حتى يخرجه من المضيق ليتسع له المكان وقد تزايد صياح القوم وشاوروا بعضهم فأجمعوا على أن يحمل عليه مائة فارس فحملوا بأجمعهم كحملة رجل واحد ومقدمهم جنادة بن عامر فصاح على الإمام ألا أخبرنا من أنت وما الذي تريد وما هذه المطاولة بيننا وبينك فقال لهم أصم أنتم لا تسمعون أم عمي لا تبصرون ألم أقل لكم **إني عبدالله وابن عم رسول الله (ص)، أنا مفرق الكتائب، أنا مظهر العجائب، أنا مبدئ الغرائب، أنا الليث المحارب، أنا الغيث الساكب، أنا الحسام الغاضب، أنا ليث بني غالب، أنا علي بن أبي طالب.**

الإمام يقتل جنادة بن عامر:

فلما سمع القوم بذكره خافوا ورجفت قلوبهم وارتعدت فرائصهم وقالوا يا فتى عجبنا من أن تكون هذه الفعال لغيرك والآن فأنت صاحب هذه العجائب والغرائب فأعلمنا بما تريده ونحن معك على ما أنت عليه فقال لهم أريد منكم أن تقولوا بأجمعكم: لا إله إلا الله محمد رسول الله وأنا أنصرف عنكم راضياً وأكون لكم في الدنيا مساعداً وفي الآخرة مستشفعاً ولمن عاداكم معادياً فنظر بعضهم لبعض وهموا بالإسلام ولكن خشوا جنادة بن عامر المقدم عليهم فقال جنادة إن الذي ذكرته بعيد ودونه ضرب شديد فلا نكون لك طائعين وإنما نحن لك متقدمون ثم تقدم إليه جنادة وقال لعبده كن معي معيناً على كتافه ثم جردا أسيافهما وحملا على الإمام (ع) فما قرب منه رفع الإمام درقته وصدم بها صدر جنادة فأدهشته الصدمة ثم قبض على سراويله ورفعه في الهواء ولوحه وجلد به الأرض فشبك أضلاعه بعضها ببعض والتفت إلى العبد وقد ولى هارباً فأخذ سيفه وقصده وقال إلى أين يا ابن السوداء ثم بادره

بضربة على أم رأسه فسقط إلى الأرض قطعتين فلما نظر القوم إلى ذلك تأخروا إلى ورائهم وخافوا خوفاً عظيماً وقال بعضهم نحن نطاوله إلى أن يضجر وليس معه ماء ولا زاد فإذا انصرف عنا مضينا إلى سبيلنا.

فسمعهم الإمام وعرف ما قد عزموا عليه. فقال لهم إن كنتم أملتم مطاولتي حتى أنصرف عنكم فذاك أمل بعيد وعندي أغنام تقوم بي أياماً كثيرة ولم يقطع الله رزقي ما دمت حياً وإن فرغت هذه الأغنام يرسل الله إلى الطير فأرميه بالنبال فآكل لحمه واتنشق بالريح فيغنيني عن الماء وأنا أظهر لكم بيان ذلك فأخذ نبلة ووضعها في قوس ورمى بها طيراً فوقع إلى الأرض طريحاً فأخذه وذبحه وأزال ريشه وشواه وأكله فلما رأوا منه ذلك تيقنوا أن لا طاقة لهم به فألقوا أسلحتهم أجمعين واستسلموا إلى أمير المؤمنين ونادوا بأجمعهم: الأمان الأمان يا ابن أبي طالب أبق علينا وأحسن بكرمك إلينا فقال لهم إن كنتم صدقتم في قولكم فليكتف بعضكم بعضاً حتى أنظر حقيقة أمركم فأقبل القوم يكتف بعضهم بعضاً حتى أوثقوا أنفسهم جميعاً.

استسلام قوم المغضب:

(قال الراوي) فعند ذلك تقدم الإمام (ع) وقال لهم اختاروا واحدة من اثنين: إما أن تقولوا لا إله إلا الله محمداً رسول الله. وإما أن تموتوا فأسلم مع الإمام من القوم ألف رجل وأبوا سبعمائة عن الإسلام وقالوا القتل أحب إلينا فقال الذين أسلموا نحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقالوا يا إمام لولا أن إلهك عظيم قدير لما دلك علينا ولا أمكنك منا. وأما الآن فقد رضيناه إلهنا فقال لهم الإمام لا يصح عندي إسلامكم حتى تضعوا السيف في أصحابكم الذين أبوا عن الإسلام فوضعوا السيف فيهم إلى أن قتلوهم عن آخرهم فجمع الإمام الأموال وأقبل عليه القوم الذين أسلموا وقالوا له يا ابن عم رسول الله (ص) اجعلنا معك نعينك على أعدائك فقال لهم الإمام: دعوني في شغلي وسيروا إلى منازلكم وادعوا من بقي منكم إلى الإسلام. فقالوا له: السمع والطاعة ولو أمرتنا أن نطلب الملك الهضام لما يكبر علينا في رضا الله ورسوله ورضاك فقال لهم الإمام (ع) أنا له طالب وإليه ذاهب وستروا من نصر الله ما يسركم فقالوا له يا ابن عم رسول الله (ص) وهذه الغنائم ماذا تصنع بها. فقال إني سائر بها إلى ما شاء الله يفعل فيها. فقالوا له افعل ما تريد فما منا من يتعرض لك.

عودة الإمام إلى وادي الظل:

(قال الراوي) فقال لهم الإمام (ع) إني أريد منكم خمسة رجال يساعدوني على سوقها فما استتم كلامه حتى برز إليه خمسة رجال من شجعانهم وقالوا له يا ابن عم رسول الله (ص) نحن غلمانك وفي خدمتك ومهما أمرتنا به امتثلناه وتقدموا إلى تلك الغنائم

فساقوها بين يدي الإمام (ع) وهو سائر مسرورا بما فتح الله على يديه ولم يزالوا سائرين إلى أن دخلوا وادي الظل الذي فيه الرعاة وكان الإمام (ع) لما قتل عدو الله أخذ رأسه معه فلما أتوا إلى وادي الظل تأمل الرعاة ورفعوا الإمام (ع) ونظروا السائمة ومعه الخمس رجال يسوقونها ورأس عدو الله المغضب معه. فلما تأملوا ذلك فرحوا فرحاً شديداً وكانت الرعاة لما أخذت مواشيهم كبرت بليتهم وعظمت رزيتهم خوفاً على أنفسهم من أصحابهم وأيقنوا بالقتل والحرق بالنار وقال بعضهم سيحوا بنا في الأرض واهربوا على وجوهكم. قال بعضهم كيف نهرب ونترك أهلنا وأولادنا وأوطاننا. وقال بعضهم على رسلكم حتى ننظر أمر صاحبنا ولقد رأينا منه شجاعة عظيمة وعجباً ما رأيناه من سواه أما رأيتم كيف قفز وعدا النهر إلينا بوثبة واحدة وقال بعضهم تتوهمون الأباطيل من الأماني وتظنون أن رجلاً واحداً يصل إلى أربعة آلاف فارس شجعان عوابس ما منهم إلا كل بطل مداعس ويخلص منهم السائمة ولوهموا أن يجعلوه على أطراف الرماح لهان عليهم ذلك ويكفيهم صاحبهم المغضب قاتل الفرسان ومبيد الشجعان.

(قال الراوي) ولم يزل القوم متقلقلون إلى أن ذهب النهار وأقبل الليل فلما كان نصف الليل أجمع القوم الرعاة أمرهم أن يسيحوا في الأرض، فبينما هم كذلك إذ هتف بهم هاتف وهو ينشد ويقول:

لاح طريق الحق للطالب	وليس من يصدق كالكاذب
قد بعث الله نبي الهدى	خير رسول من بني غالب
يا أيها القوم ألا فاصبروا	لا تفزعوا كالخائف الهارب
وبشروا النفس بإسعادها	وليبلغ الحاضر الغائب
إن الفتى الفازع من عندكم	ذاك علي بن أبي طالب
فاستقبلوه قد أتى مسرعاً	بكل ما تبغوا من الذاهب
واتبعوه وأظهروا حبه	فحُبه فرض من الواجب
وصل يا رب على أحمد	وعلى علي بن أبي طالب

(قال الراوي) فلما سمع القوم ذلك من الهاتف اقشعرت جلودهم وخشعت قلوبهم وكانوا في رقدة فانتبهوا وقالوا عجباً أن تكون هذه الفعال إلا لعلي ابن علي عم النبي (ص) ولقد صدق الهاتف فما قاله ولقد أحسن ابن أبي طالب إلينا إذ لم يسفك دماءنا ولم يقتلنا عن آخرنا وأنتم إذا لم تشاهدوه في الحرب فقد شاهدتم أخباره ألم تسمعوا أنه **مفرق الجيوش وقابض النفوس وفاصل الرؤوس ونقمة العرب وكاشف الكرب الليث الضارب ممزق الكتائب ومظهر العجائب ومبدي الغرائب الحسام القاضب مفرق المواكب البحر الساكب ليث بني غالب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب**. (قال الراوي) فعند ذلك حط الرعاة رحالهم

وجلسوا تحت الفلق وأداموا الأرق بقية ليلتهم إلى أن برق ضياء الفجر وطلعت الشمس على رؤوس الجبال فبينما هم كذلك بين الرجاء والأمان إذ طلع من بطن الوادي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والغنائم بين يديه والخمسة رجال يسوقونها معه وقد خلصها من أيدي أعدائهم فلما رأى القوم ذلك بهتوا ودهشوا وما قدروا أن يخاطبوه في أمر السائمة وقال بعضهم السائمة له لأنه ما خلصها من المغضب وقومه إلا بعد قتال شديد وصاروا يتشاورون في هذا ومثله إلى أن قرب منهم الإمام (ع) فلما وصل إليهم قام رجل من رجالهم يقال له جنبل بن وكيع وقال أنا أسأله لكم لأن اللسان يقصر عن وصف هذا الإنسان الجليل المقدار، العظيم الافتخار، وقد قابلنا في بدء أمره بالكرم والتفضل ولولا أنه أرادنا ما كان نزل عندما ولو كرهنا لقتلنا عن آخرنا وأخذ سلبنا وجميع مواشينا ولكن لا بد أن أخاطبه وأجاوبه مجاوبة القاصد للمقصودة فإذا خاطبني لا يخفي علي ما عنده فقالوا له: افعل ما بدالك وما تريد.

جنبل بن وكيع يرحب بالإمام:

فتقدم جنبل بن وكيع إلى الإمام (ع) ورحب به وقال له **يا فتى الفتيان وأشجع الشجعان ويا أكرم الكرماء ويا أفضل الفضلاء ويا فارس الفرسان ويا ابن الطيبين الحسان** لقد شرفت بك قبائلك وعزت بك عشائرك فلك العز والافتخار ولك الشجاعة في سائر الأقطار إن الذي بين يديك من الغنيمة هو لك وأنت أحق به من غيرك لأننا يا مولانا تحت الرجاء لكرمك متطاولون ولإحسانك منتظرون إن هتفت فلك ما أخذت وإن فعلت غير ذلك فيحق لك ما فعلت إن أهلكت وعذبت لأننا يا مولانا لم نقم بشيء من واجبك ولم تكن لنا معرفة بك ولا بصاحبك حتى عرفنا باسمك هاتف بالأمس وزجرنا زجراً شديداً وأخبرنا وأعلمنا بأنك **البطل الصبور والأسد الجسور والوحش الكسور والشجاع المذكور زوج البتول وابن عم الرسول وسيف الله المسلول ممزق الكتائب ومظهر العجائب ومبدي الغرائب الخسام القاضب والبحر الساكب مفرق المواكب الأسد الطالب والصنديد المحارب المذكور في المشارق والمغارب ليث بني غالب المؤمنين علي بن أبي طالب** ثم أن جنبل بن وكيع أنشد وجعل يقول:

انت الذي بنَداه يضرب المثل ... ومن قتالك يخشى السهل والجبل

انت المبيد أسوداً معْ فوارسها ... في يوم بدر وقد غرت بهم هبل

انت المنكس رأس القوم من فزع ... بذي الفقار ونار الحرب تشتعل

من سالموك ففي عيش وفي رغد ... ومن يعاديك مقضي دونه الأمل

لا شك أنك للآجال قاطعها ... وحد سيفك ممحوق به الأجل

فإن عفوت فأهل العفو انت وإن ... أهلكت أهلكت يا ضرغام يا بطل

الحـــق لاح لنـــا لمـــا حللـــت بنـــا وفي يـــديك رجـــاء الخـــوف والأمـــل

الحلـــم شـــأنك فيمـــا أنـــت طالبـــه ولـــيس مـــن طبعـــك الإحمـــاق والعجـــل

فلما سمع الإمام جنبل بن وكيع تبسم ضاحكاً من قوله لأنه كان فصيح اللسان وقال له:من دلك على اسمي وعرفك بشأني ؟ فأعلمه جنبل قول الهاتف وما كان من أمره فعند ذلك نظر الإمام إليهم فرأى أحوالهم قد مالت إلى الاصفرار وتغيرت ألوانهم وارتعدت فرائصهم وخفقت قلوبهم من شدة ما أصابهم من الخوف والفزع من هيبة الإمام (ع) فلما رأى الإمام (كرم الله وجهه) منهم ذلك قال لهم: أبشروا يا قوم بما يسركم **فنحن باب السلامة ولنا الشفاعة في الناس يوم القيامة** دونكم وسائمتكم[1] وليأخذ كل منكم ما كان يرعاه لسيده وارجعوا إلى مكانكم على جرى عادتكم.

(قال الراوي) فعند ذلك ردت ألوانهم إلى الاحمرار واستبشرت أرواحهم بالسلامة وطاشت عقولهم من الفرح والسرور ونهض كل واحد وأخذ ما كان يرعاه لسيده ثم أقبلوا على الإمام كرم الله وجهه وقالوا له يا سيد: ألا تستعين بنا على أمورك وتستنهضنا في حوائجك لنجازيك على بعض إحسانك وإنا كنا لا ندرك مداركك ولا نبلغ مبالغك فقل ـ يا مولانا إلى أين تريد وإلى من تكيد فقال لهم الإمام يا قوم إني أريد صاحبكم الملك الهضام وصنمه المنيع الذي فتن به العباد فنظر القوم عند ذلك بعضهم لبعض وقالوا يا فتى من كانت هذه الفعال فعاله ما يبعد عليه ما يطلبه ولكن صاحبنا الهضام في جمع عظيم، وعسكر جسيم ألوف لا تعد وعسكر لا تحد، وحصون مانعة، وسيوف قاطعة، فتدبر ذلك بحسن رأيك جميل صنعك وها نحن معك وبين يديك فيما تريد إن استعنت بنا أعناك، وبذلنا أنفسنا في رضاك، لما أوليتنا من الإحسان والتكريم.

فتبسم الإمام علي (ع) ضاحكاً من قولهم وقال إني لا أستعين إلا بالله وبالمؤمنين قالوا له يا مولانا نفديك بالآباء والأمهات وأخبرنا ما هي كلمة الإيمان قال هي كلمة خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان وهي أن تقولوا معي بأجمعكم لا إله إلا الله محمد رسول الله قال جنبل بن وكيع أما أنا فأقولها غير متأخر عنها لما ظهر لي من الآيات والبراهين لولا أن لك إلها واحداً عظيماً على كل شيء قدير ما وصلت ولا فعلت ما فعلت وأنا يا مولانا أشهد أن لا إله إلا الله وأن ابن عمك رسول الله فلما نظر أصحابه إلى إسلامه أسلموا جميعاً وحسن إسلامهم وكانوا واحداً وأربعين رجلاً ففرح الإمام (ع) بهم وبإسلامهم وقال لهم يا قوم لا يصح إسلامكم إلا بكشف قناع الحق وركوب حجة الصدق وبذل السيف في أصحابكم وإخوانكم وأقربائكم فقالوا والله يا سيدنا لو أمرتنا أن نقتل آباءنا وأولادنا في رضا الله ورسوله ورضاك لفعلنا ذلك فشكرهم الإمام على ذلك ودعا لهم، وقال هل عند أهل الحصن

---

(١) السائمة: كل ابل أو ماشية ترسل للرعي ولا تُعلف.

علم بأخذ سائمتكم قالوا نعم وقد سبق الخبر من حصن إلى حصن حتى انتهى إلى الهضام فأرسل لنا هجانين وأوعدنا بالعذاب والقتل وقد اغتاظ غيظاً عظيماً ومع ذلك فهو من بقية التبابعة ومن نسل العمالقة، وإن الملك المنتقم من جماعته وأن له جثة عظيمة لم تحمله إلا الخيل العتاق وقد جعله في أول حصن من الحصون لأن الملك الهضام يخاف من مكره وقوة بأسه فلذلك أبعده وجعله في أول حصن.

فلما سمع الإمام منهم ذلك الكلام تبسم ضاحكاً وقال لهم إذا أرجعتم سائمتكم هذه إلى حصنكم فلا تكشفوا له عن خبري ولا عن اسمي ولا عن شيء فعسى أن يخرج إلي وأن يقضي الله ما هو قاض. فقال جنبل: يا سيدي إن خرج خرج معه قومه وأصحابه وجميع عشائره وهم فرسان في القتال وأبطال في النزال ونخاف أن يحول بينك وبينه حائل فتلومنا على ذلك.. فقال الإمام: أن الله هو الفعال لما يريد ـ فإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ـ ثم أقام القوم بقية يومهم إلى أن دخل المساء فرجعوا بالسائمة إلى حصنهم.

عودة الرعاة المؤمنون إلى حصن (المنتقم) وقومه:

(قال الراوي) حدثنا أشياخنا وأسلافنا بهذا الحديث وهو أن الرعاة لما توجهوا بالسائمة إلى الحصن وكان أهلهم قد قطعوا الرجاء من مواشيهم فلما رأوا الرعاة قد أتوا بالسائمة إلى حصنهم تباشروا ووقع الصياح في جميع جهات الحصن بأن السائمة رجعت فجاء القوم ولم يعلموا ما كان من السبب في ذلك فلما سمع القوم والمنتقم بذلك الخبر وكان المنتقم في هذا الوقت متكئاً فاستوى جالساً وقال ما هذا الأمر العجيب من رد السائمة بعد أخذها وملكها في يد الأعداء كيف يكون هذا الأمر فقالوا بلغنا عن الرعاة أنه لما أغار عليهم المغضب وأخذ المال وساقه ومضى به كان عندهم رجل غريب عابر سبيل فما زال في أثر القوم حتى دخلوا إلى المضيق فسد عليهم باب المضيق وما زال يقتل منهم واحداً بعد واحد حتى خرج إليه المغضب بنفسه فقتله وحز رأسه وجاء بها معه وأتى بالمال العظيم وقتل منهم خلقاً كثيراً وأتى بالسائمة سالمة ودفعها إلى الرعاة بأجمعهم.

فلما سمع المنتقم هذا الكلام قهقه حتى كاد أن يقع على قفاه وقال: كذبوا وحق اللات والعزى وحق الإله المنيع ولا أظن إلا أنهم هموا بأخذ السائمة لأنفسهم فسد عليهم الطريق الإله المنيع فلم يجدوا لهم منفذاً ينفذون منه فرجعوا إلينا بهذه الحيلة ثم أمر بإحضار الرعاة فأحضرهم بين يديه وقال لهم يا شر سجيل وأخبث قبيل أردتم أخذ السائمة لأنفسكم وضربتم علينا الحيلة وحق المنيع إن لم تخبروني وتصدقوني وإلا قتلتكم عن آخركم.

(قال الراوي) فعند ذلك نظر بعضهم إلى بعض وتطولوا إلى جنبل بن وكيع لأنه كان سريع الجواب فصيح اللسان فقال اعلم أيها السيد العظيم أن من انقطعت أنامله سرى الألم في

جسده جميعه ومن حاد عن طريق الحق وقع في المضيق وما كنا نخرج من بلادنا ونترك أولادنا وإلهنا المنيع الذي يحفظنا وإذا سألناه أعطانا وأكرمنا ونترك ما صفا من العيش ونتعرض للمنيع فيرمينا في المهالك والدواهي ويحرقنا بناره وليعلم إلهنا المنيع حقيقة أمرنا والخافي من سرنا فلا تكذبنا أيها السيد في قولنا فإن الذي طرقنا هو من عطفات المغضب الذي كان يطرقكم في كل عام فلا بقيتم ترون له غرة أبداً ما دام الجديدان وبقي الزمان فقد قتل وقتل معه كثير من قومه فقال ومن فعل بهم هذه الفعال قال فعل بهم هذا رجل غريب من العرب كان قد نزل بنا في ذلك اليوم وأنا أصفه لك حتى كأنك تراه هو **غلام بطين يصطاد الظبي على رجليه وتجلس الوحوش حواليه مباشرة وحسن منظره ومنطقه بالصواب كأنه البرق إذا سعى ويقلع الشجرة الراسخة بيده من شدة قوته.**

فلما سمع المنتقم وصف جنبل بن وكيع عظم ذلك عليه لما وصفه من شجاعة الإمام (ع) ثم قال المنتقم وحق المنيع لقد أرغبت قلبي بوصفك لهذا الغلام وإن كان كما ذكرت فما أظن إلا أنه من جند المنيع أرسله إلى المغضب قال جنبل هذا الرجل لا يركن إلى المنيع ولا جنده وكانت هذه الكلمة من جنبل خطأً عظيماً فلما سمع المنتقم ذلك فار من شدة الغضب فلما رآه جنبل قد زاد غيظه قال له أيها السيد العظيم إن هذا الرجل يخلطه جنون وهيمان وما هرب منه القوم إلا من جننه فلما سمع المنتقم هذا الكلام سكن غيظه وما زال به حتى قال له ويحك يا جنبل وأين يكون هذا الغلام قال ها هو قريب من بلادنا ولم يرد شيئاً من طعامنا وهو تحت الانتظار إليكم.

فلما سمع المنتقم ذلك صرخ في قومه وعشيرته فاجتمع إليه القوم وحضروا بين يديه فقال يا قوم إن هذا الرجل الذي رد سائمتكم وقتل عدوكم قد انتهى من خبره ما لم يسمع بمثله فامضوا بنا إليه لننظر ما هو عليه ونجازيه على فعله الجميل وعلى ابتدائه إلينا بالكرم والتفضيل. فقالوا السمع والطاعة أيها السيد نحن لكلامك مطيعون ولأمرك مسرعون ثم تواعدوا بالخروج إليه في غداة غد وكانت تلك الليلة التي قدم فيها الرعاة من عند أمير المؤمنين فلما برق ضياء الفجر وفتح الحصن خرجت الرجال وبرزت الأبطال فلما تكامل القوم خرج خلفهم المنتقم وهو مشتهر بلبس الأحمر والأصفر متوشح ببردة يمانية فركب جواداً من عتاق الخيل المجردة المزينة وقد لبس أفخر ما عنده من لامة حربه وخرج من حصنه بجميع قومه ولم يترك في الحصن غير الصبيان والنساء ومن لا يقدر على الحرب من الشيوخ وسار المنتقم أمام قومه وهو يرتجز وينشد من هذه الأبيات:

إن الشجاعة لم تزل محبوبة ... ما لم تكن في ابله أو جاهل

ليس الهجوم على الرجال بغرة ... يدعى شجاعاً مهلكاً بمحافل

بطل شجاع نازل بفنائنا ... أو في العداة بنائل أو نازل

سيروا بنا نلقى الغلام بجمعنا لنراه حقاً مثل قول القائل
إن كان مغضب قد زهى بحسامه ففعاله أفعال قوم بازل

جنبل بن عامر يقابل الإمام ويأتيه بخبر المنتقم والملك الهضام:

(قال الراوي) فعندما نظر جنبل إلى ما عزم القوم عليه قال لقومه إني أريد أن أسبق القوم إلى الإمام (ع) فأخبره بذلك ليكون شرحي مع شرحكم حتى أعود إليكم فإني أخشى على ابن عم رسول الله (ص) أن يدهموه بغتة فيقع الإثم بنا من الله تبارك وتعالى ويغضب علينا رسول الله (ص) فقال القوم يا جنبل: إنما أنت سيدنا سر إلى أمير المؤمنين وأعلمه بذلك وعد إلينا سريعاً فلولا خوفنا من سؤالنا وسؤالك واتهامنا بأننا تواصينا لكشفنا القناع ولبسطنا الباع ولكن لا نستطيع إلا أن نكون في حالنا إلى أن يفعل الله ما يشاء ويختار وسيأتي الفرج من عند الله تعالى.

(قال الراوي) ثم صار جنبل وقد حاد عن الطريق وأخفى أمره وسار في بعض الشعاب إلى أن وصل إلى الإمام فسلم عليه وقال له يا سيدي حفظك الله وأنعم عليك انظر إلى أمامك فقد أتاك المنتقم بجميع قومه حتى العبيد ولم يترك في الحصن سوى النساء والأطفال والشيوخ الذين لا يقدرون على الحروب فقال الإمام إنه غنيمتي ورب الكعبة ولكنه قد عظم عليك ما رأيت من الجيوش وقد سدت الطرق وأظلم لها الأفق يا جنبل والذي بعث ابن عمي رسولاً وبالحق بشيراً ونذيراً لو خرج إلى ملككم بجميع جيوشه لكنت ألقاه بمفردي وحدي ولو كان معه مائة ألف سابق فقال جنبل يا سيدي إن الهضام إذا ركب ركب معه خمسائة ألف عنان سوابق في النزال من قومه خاصة غير ما يقيمهم من الرفيق والغلمان والعبيد فكيف تلقاه ومعه هذا الجمع كله فقال له الإمام (ع) والذي بعث ابن عمي بالحق بشيراً ونذيراً إنه إذا برز إلي الهضام أتلقاه وحدي ولو يكون معه جميع من الأرض من الطول والعرض فإن ثقتي بربي عز وجل فقل ما عندك وأوجز.

فقال جنبل يا سيدي إن المنتقم لم يترك في الحصن رجلاً يرجى ولا قليلاً يخشى بل خرج بهم إليك والمنتقم يعد بمثلهم فانظر ما ترى وما تأمرني به وأصحابي فإنا لكلامك سامعون ولأمرك طائعون وفي خدمتك مجتهدون وفي رضا الله ورسوله ورضاك راضون فلما سمع الإمام منه ذلك جازاه خيراً ودعا له وقال له يا جنبل لو علمت أن لكم قوة على القتال أو منعة في النزال أو صبراً على الأهوال لأمرتكم بأمر يكون فيه مسرتكم وتعتق به من الرق رقابكم وتمحى به سيئاتكم وترفع درجاتكم وتضاعف حسناتكم. قال جنبل مرنا بما شئت فلو أمرتنا أن نجرد أسيافنا ونقاتل من لقيناه من أصحابنا وإخواننا وأولادنا وأهلنا ونضرب يميناً وشمالاً ولو قُتلنا عن آخرنا أطعناك فيما تأمرنا به وبادرنا إلى رضاك ورضي الله ورسوله.

(قال الراوي) فلما سمع الإمام ذلك جازاه خيراً ثم قال له بل الذي آمركم به أيسر مما ذكرت وأقرب مما إليه أشرت فقال حنبل ما الذي تأمرنا به فقال الإمام (ع) خذ أصحابك الذين أسلموا معك وأدخلوا الحصن وأغلقوا الأبواب وأوثقوها من الداخل ولا تدعوا أحداً يدخل عليكم وتنكروا أو أخفوا حالكم واتركوني أنا وهذا الجيش وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، ينصر الله من يشاء - وهو على كل شيء قدير - فلما سمع جنبل ذلك من الإمام التجم عن الخطاب ولم يرد الجواب فقال يا سيدي نخاف من القوم أو يعطفوا إلينا ونخاف أن يسمع بذلك الملك الهضام فيأتينا بجيوشه فقال له الإمام يا جنبل إن لك نفساً وأجلاً مقسوماً ووقتاً محتوماً - فإذا جاء أجلهم لا يتأخرون ساعة ولا يستقدمون - واعلم أنك إذا تحصنت في لجج البحار وهمت على وجهك في القفار ثم أتاك الأجل لفرغت الحيل وانقطع الأمل.

فلما سمع جنبل قول الإمام (ع) قال إن كان الأمر كما ذكرت فوالله لأمتثل لما أمرتني به ولآمرن أصحابي بذلك ولأحدثهم بما ذكرت فإن أجابوا وإلا مضيت وحدي وقفلت الحصن وأوثقته وأوثقت جميع من فيه وطلعت على أعلى السور أقاتل قتالاً شديداً ولو قتلت في رضاك ورضا الله ورسوله ويبلغك الله مأمولك ويعطيك سؤالك فلما سمع الإمام ذلك فرح بقوله وقال جزاك الله خيراً سر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فقال حباً وكرامةً لله ولك يا ابن عم رسول الله ثم ودع الإمام وقال يا سيدي إن حدث علي حادث فاقرئ محمداً مني السلام.

جنبل يعود إلى أصحابه:

ثم خلاه وانصرف من حيث جاء وقصد إلى أصحابه فأخذهم ومضى إلى الحصن فسأله أصحابه عن خبر الإمام فقال لهم إنه رجل شجاع لا يخاف من صغير ولا كبير ولا قليل ولا كثير ثم أخبرهم بما كان بينه وبين الإمام من دخولهم الحصن وغلقه وإيثاقه فلما سمع القول بذلك حاروا ودهشوا وقالوا لا سبيل لنا ولا قدرة على ذلك. فقال يا قوم أيهم أفرس؟ المغضب وقومه أم صاحبكم المنتقم؟ فقالوا له المغضب أفرس فقال أيهم أكثر جمعاً فقالوا المغضب أكثر جمعاً فقال جنبل رجل يلقى المغضب ومعه أربعة آلاف فارس كلها ليوث عوابس أيفكر في صاحبكم المنتقم ومعه ألف فارس وقد أخبرني وقال لي أنه إذا خرج إلى الملك الهضام بجميع الفرسان لأبرز إليه وحدي وأتلقاه بمفردي ولو كان معه جميع من الأرض من الطول والعرض.

(قال الراوي) ثم قال جنبل إن كنتم آمنتم بالله ورسوله واتبعتم وليه فأطيعون واسمعوا قوله وبادروا إلى أمره ولا تبالوا من الموت إذا نزل بكم في رضا خالقكم وإن نصركم الله ووصلتم إلى ذلك ملكتم أموال ساداتكم وسكنتم مساكنهم وعتقت رقابكم من الرق كما قال الإمام (ع).

قوم جنبل يدخلون الحصن امتثالاً لأمر الإمام:

فلما سمعوا ذلك تباشروا بما بشرهم به جنبل من قول الإمام من الخلود في جنات النعيم وهانت عليهم أرواحهم في مرضاة ربهم. وقالوا: يا جنبل ما الذي تريد أن نصنع فقال ادخلوا الحصن على بركة الله ورسوله وأغلقوا بابه وأوثقوه وتحصنوا فيه ولو دهمكم الملك الهضام بجيوشه وعساكره ما وصل إليكم لأنه حصين منيع كثير الطعام والماء فإن طال بكم الحصار لا تبالوا وإن حدث في هذا الغلام حادث فإن ابن عمه محمداً (ص) لا يتركه وهو الذي يأتيهم بجميع جيشه ويطالبهم بدمه وإن حصروكم فهو الذي يخلصكم ويأخذ منهم ثار ابن عمه.

فلما سمعوا مقالة جنبل وثبوا إليه وقالوا له أنت علينا مشير فسر بنا إلى ما تحب وتختار لأننا تركنا الحياة وأن الله تعالى على كل شيء قدير إن أماتنا فرضوان وإن أحيانا فرضوان ثم إن جنبل أخذهم وتقدم بهم إلى الحصن. وأنشد وجعل يقول:

الموت حق ليس فيه من مفر ... حقاً على كل الأنام والبشر

قد حصحص الحق وقد بان الخير ... أبعدنا الله جميعاً عن صقر

بفارس الميمون من نسل مضر ... ذاك علي المرتضى ابن الخير

صهر النبي المصطفى خير البشر ... له اسمعوا فقد تفوزوا بالنظر

ثم اضربوا بالسيف ضرباً مفتخر ... حقاً فإن الله يجزي من شكر

فهو الشفيع للعفاة من سفر ... يوم تكون الناس في الحشر زمر

فهو النبي الهاشمي المفتخر ... صلوا عليه يا جميع من حضر

(قال الراوي) فلما وصلوا إلى باب الحصن وجدوا عليه جمعاً كثيراً من النساء ينتظرن أزواجهن وأولادهن وملكهن المنتقم - لما وصل جنبل وأصحابه إليهم جعلوا يفسحوا لهم عن الباب لداخل الحصن فاستحت النساء من ذلك وقالت ما أقل أدبكم وما الذي نزل بكم حتى تفعلوا ذلك فقالوا لهن ألم تعملن أن الغلام الذي نزل بكن ودهمكن في أزواجكم وأولادكن **هو العذاب الواقع والسم الناقع والبطل الصبور والأسد الجسور والوحش الكسور والشجاع المذكور وزوج البتول وابن عم الرسول وسيف الله المسلول ممزق الكتائب ومظهر العجائب وليث بني غالب المذكور عند المطامع والمواهب هازم الجيوش ومفرق المواكب الأسد الكالب القرم الغالب الصنديد المحارب المذكور في المشارق والمغارب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب** قد أتى بجيش وقد كمنوا في الشعاب وقد نزل إلى سيدكم المنتقم بجيشه وقد أمرنا بحفظ الحصن وما فيه والحماية عنه فمن كانت عندها سلاح فلتأتنا به وأجمعوا لنا الجندل

والأحجار فلما سمعت النساء بذلك بادرن إلى أماكنهن وأتين بجميع الأسلحة التي هي مدخرة عندهن ولم تترك واحدة منهن عندها شيئاً إلا أتت به فلما احتوى جنبل هو وأصحابه على السلاح أمر النساء والصبيان بأن يجمعوا لهم الأحجار والجنادل وأن يضعوها حول السور وبقي النساء والصبيان والشيوخ في أسفل الحصن ثم أقبل جنبل على أصحابه وقال يا قوم إني أخاف أن يضرب الشيوخ علينا الحيلة ويمكروا بنا فقال أصحابه وما الذي ترى قال الرأي عندي أن تمضوا إليهم وتقتلوهم فلا حاجة لنا بهم. فمضى العبيد وقتلوا الشيوخ عن آخرهم قال فلما رأت النساء ذلك تصارخن فقال جنبل لأصحابه أوثقوهن كتافاً واطرحوهن في بعض زوايا الحصن ففعلوا ما أمرهم ورجعوا إلى جنبل وقد ملكوا الحصن بما فيه وأمنوا على ذلك وطابت خواطرهم ووقفوا على أعلى السور وأشهروا سيوفهم ونصبوا الأعلام وفرقهم جنبل في جوانب الحصن وأمرهم بحفظه وقال لهم يا قوم إنكم كشفتم الغطاء وفعلتم فعلاً لا ينساه رب السماء ولا محمد المصطفى ولا أميركم علي المرتضى فقالوا نرجو من الله الجزاء فوقف القوم ينظرون ما يكون من أمر الإمام علي (ع).

المنتقم وجيشه يواجه علي المرتضى:

وأما ما كان من خبر عدو الله المنتقم فإنه سار بقومه حتى أشرفوا على أمير المؤمنين (ع) لم يكبر عليه عظم كثرتهم بل أنه (ع) أظهر لهم ميله إلى الحرب وكان على شاطئ النهر مما يلي حصنهم وديارهم فوثب قبل وصولهم إليه وثبة عبر بها إلى الجانب الآخر وأقبل إلى الجسر وتأمله فإذا هو من الخشب مركب على أعمدة فضرب بيده على ما يليه من الأخشاب فقلعها من موضعها وأزالها من مكانها وكان عليه كثير من التراب فانهال جميع ذلك في النهر وذهب به الماء وانقطع الجسر وعاد الإمام مكانه وصار متكئاً على جحفته غير مكترث ولم يزل الإمام (ع) جالساً مكانه إذ أشرف عليه القوم وما زالوا سائرين إلى أن وصلوا إليه فنظروا إلى النهر فرأوه وقد قطعه الإمام وحده فعظم عليهم ذلك وتعجبوا منه وقالوا وحق زجرات المنيع ما بفعل هذا رجل واحد ثم أنشد المنتقم يقول:

يا أيها الرجل الجميل فعاله ... نعم المبارك قد فعلت صنيعا

لك عندنا مال وأحمال جزا ... إني لأمرك في الأمور مطيعا

فلما سمعه الإمام (ع) فار بالغضب وتميز من الغيظ وعلم أنه قائد الجيش فاستوى قائماً وبسط له لساناً طلقاً كريماً وقال أما قولك المروع من الأعداء فإني أعرف أن مولاي ينصرني عليكم ويوصلني بقوته عليكم وأما قولك قد أحسنا إليكم فإن الإحسان لا يكون إلا لصاحب الإحسان وهو الذي يعلم ما يكون وما قد كان وأما خروجكم للقائي بواجب الإحسان والإكرام فجملة ما هو من الإكرام كلمة خفيفة على اللسان لا مكرمة الطعام

ولا الشراب، وأما سيدكم الأعم فهو الذي يعلم بحالي وما أنا عليه من أفعالي عليه وتوكلت عليه وعليه احتمالي ومنه أرجو العناية فيما أملت.

فقال المنتقم: يا غلام إن في كلامك تخليطاً وفي خطابك تفريطاً فإلهك الذي أتممت ذكره ورفعت قدره وذكرت أنه يبلغك مرادك وينصرك على أعدائك أين هو وأين يكون مكانه؟ فقال له الإمام: هو لا تحققه الخواطر ولا تشاهده النواظر وهو في كل الأماكن حاضر. فقال المنتقم يا غلام إنك ذكرت أنك إلى إلهنا قاصد وطالب وفي لقائه راغب وما أرى إلا بك هيماناً يعارضك في كل حين وزمان. قال الإمام أعوذ برب البيت ذي الأركان من أن يداخلني جني ويعارضني شيطان وأما تحصني في هذا البر الذي أنا فيه فلأمر لو سألتك عنه لشكرتني عليه وأجبتني فقل لي ما الذي أضمرته من الفعال ليكون ذلك لي على بال فقال المنتقم يا غلام أضمرنا لك من التحف والإكرام قتلك وقتل هؤلاء اللئام فهم أعداء الناس وأعداء الملك الهضام والإله المنيع.

علي في الميدان:

فلما سمع الإمام (ع) ذلك فار بالغضب ووثب وثبة الأسد وتجرد من أطماره ثم جرد سيفه وأخذ جحفته وعدو الله باهت لا يدري ما هو عازم عليه ثم تقدم الإمام إلى شاطئ النهر بوثبة واحدة واجتمع وانفرد من الأرض فعدى النهر بوثبته وهجم على عدو الله وقال له: أنت عدوي وأنا عدوك وأنت طلبي وأنا طلبك أفق من رقدتك وانتبه من غفلتك **أنا العذاب الواقع أنا السم الناقع أنا البطل الصبور أنا الأسد الهصور والوحش الجسور والشجاع المذكور والبطل المشهور وزوج البتول وابن عم الرسول وسيف الله المسلول ممزق الكتائب ومظهر العجائب ومبدي الغرائب أنا البحر الساكب المذكور عند المطامع والمواهب هازم الجيوش للعقارب ليث بني غالب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.**

فمال الفرسان من كل جانب ومكان ولما سمع المنتقم مقالته وعلم أنه علي بن أبي طالب ارتعدت فرائصه وصرخ بصوت قوي وقال لقومه أدركوني من قبل أن تقفدوني فهذا الغلام الذي خرجت بكم إليه وقدمت عليه هو علي بن أبي طالب فمالت الفرسان ووثبت إليه الإمام (ع) وضربه ضربة بسيفه عرضاً فألقى عدو الله إلى الأرض، ونادى: يا ابن أبي طالب: ليس العجلة من شأنك، فرد الإمام السيف عنه وقال يا عدو الله وعدو نفسك قل ما أنت قائله، فعند ذلك حمل عليه القوم حملة واحدة قوية وهجموا بكثرتهم ودهموه بجمعهم ثم قام عدو الله وحمل على الإمام وقد قوي عليه قلبه وشد عزمه بإنجاد قومه له وقال يا ابن أبي طالب هذا ما جنيته بنفسك وإنك لم ترد سائمتنا إكراماً منك إلينا بل أردت الخديعة والدخول إلى حصننا والذي أملته بعيد والوصول إليه صعب شديد يا ابن أبي طالب يا عدو

المنيع وعدو الآلهة العظام فما بقي محمد ابن عمك ينظر إلى طلعتك ويتمتع بغرتك فإن الحياة عادت حراماً عليك بعد هذا اليوم فقال الإمام (ع) كذبت يا ملعون ولا أزول عنكم حتى أذيقكم كأس الموت والحمام وأقطع آثاركم بحد الحسام فأنا الأسد الضرغام والبطل المقدام ممزق الكتائب ومظهر العجائب ليث بني غالب علي بن أبي طالب.

فلما سمع المنتقم ذلك فار من الغيظ وقال لقومه احملوا عليه بكثرتكم واهجموا عليه بكليتكم ثم صرخ جديعة بن كثير وكان غلاماً كثير الجسارة وفارساً مشهوراً فحمل عليه الإمام فلم يمهله الإمام حتى ضربه عرضاً فرمى رأسه مع رقبته مع قطعة من صدره فوقع إلى النهر فعند ذلك كبر الإمام (ع) وقال يا عدو الله هكذا يفعل زوج البتول وابن عم الرسول. فلما فعل بجديعة ذلك نظروا فهالهم ذلك وأدهشهم وامتلأ عدو الله غيظاً وقال لقومه احملوا عليه بجمعكم وكلوه أكلاً وازجروه زجراً ولو أن كل واحد منك ردمه بكف تراب لردمتموه وهذا عار عليكم أن يكون مثل هذا الغلام يغوص في وسطكم ويدهم جمعكم ويقتل أبطالكم ولا تقدروا عليه ولا تأتوا فيه بشيء فاحملوا عليه حملة واحدة بأجمعكم وأنا في أولكم ثم حمل عدو الله على الإمام وجميع قومه في إثره وهو كالبعير الهائج وهو ينادي: أنا الأسد الضرغام أنا البطل القمقام ثم حمل هو وقومه على الإمام حملة منكرة والإمام قد التجأ إلى النهر وجعله من ورائه وعاد كل من وصل إليه من القوم إن ضربه طولاً أفناه وإن ضربه عرضاً أفناه وتارة يأخذ بمجامع أطواق الفارس وحزام سراويله ويضرب به الآخر فيقتلهما جميعاً وكلما قتل رجل جره برجله ورماه في النهر ولم يكن غير قليل حتى جندل نحواً من خمسين رجلاً ورماهم في النهر.

قوم المنتقم يعتريهم الجُبن والخذلان:

فلما نظر القوم ذلك حاروا ودهشوا من فعاله وهابوا أن يتقدموا إليه وخمدت قوتهم فلما نظر المنتقم إلى ذلك قال ويلكم وحق المنيع لئن بلغ الملك الهضام ذلك عنكم لرماكم في نار المنيع ما هذا الجزع والخوف من فارس واحد إن كان مشهوراً في الأقطار عظيم الذكر والافتخار فأنتم أسد البر قاوموا ابن أبي طالب في المهالك وضيقوا عليه المهامه والمسالك وتقربوا إلى ملككم وإلى إلهكم بأخذ رأسه إليه ووضعها بين يديه فتستوجبوا من الملك الإكرام وتتنعموا في الجنات مع الحور الحسان ثم صرخ المنتقم بأعلى صوته وحمل على الإمام وحملت معه أصحابه وتراجعوا للحرب واشتد الكرب وحمى الوطيس وصرخ بينهم اللعين إبليس وتلهبت الجواهر وبلغت القلوب الحناجر وكثر القلق واحمر الحدق وألجمهم العرق وثبتت الشجعان وفر الجبان وهم ينادون إلى أين يا ابن أبي طالب لنذيقك اليوم المعاطب وظنوا أنهم قادرون على الإمام.

حملة الإمام على قوم المنتقم:

(قال الراوي) فصرخ عليهم الإمام صرخة الغيظ المشهورة في القبائل ثم حمل فيهم وصاح إلى أين يا أولاد اللئام وحق رب الكعبة لا أزول عنكم حتى أبدد شملكم وأفرق جمعكم وأخرب دياركم ثم حمل عليهم (ع) ووضع درقته في صدر القوم فقلب بعضهم على بعض ثم عطف بسيفه على من تكردس إليه، فصار كل من ضربه قطع رأسه وكان عدو الله المنتقم يريد الفرار فتأخر القوم معه وبعدوا عن المعركة وعاد الإمام إلى مكانه وهو ينفض الدم عن ذراعيه وصدره ثم تقدم إلى النهر وغسل يديه ووجهه وسيفه وهو غير مكترث بالقوم فزادهم ذلك غيظاً وحنقاً هذا وعدو الله يعض أنامله من شدة ما أصابه من الإمام فلما فرغ الإمام من غسل الدم وقف على قدميه ثم التفت إلى القوم ونادى برفيع صوته: معاشر الأراذل الأنذال هل من مبارز هل من مناجز لا يبرز اليوم إلى كسلان ولا عاجز **أنا البطل النزال أنا الغيث الهطال، أبرزوا إلى إن شئتم عشرة وإن شئتم بجمعكم، فوالذي أنا عبّده وابن عمي محمد رسوله لا رجعت عنكم بمشيئة ربي حتى أعدم حصنكم وأبيد رجالكم وأقتل أبطالكم وأشتت جمعكم وأستأثر نساءكم وأعجل داركم ودمار ملككم الهضام وصنمه المهين وأحرقه بالنار التي صنعتموها بأيديكم أنا الذي دماركم على يدي. أما تعرفوني:**

أنا المعروف بجميع الأقطار، أنا قاطع الأعمار، أنا معدن الفخار. أنا سيف الملك الجبار. أنا ابن عم محمد المصطفى المختار. أنا النجم الثاقب أنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأنشد يقول:

أنا الخطاف والجزار أدعى ... أمير المؤمنين فهل معاني

أنا قرم الهياج الهاشمي ... هدمت لخيبر بدء الزمان

أفيض على الأرامل بالعطايا ... وأكرم جيرتي في كل آن

وإني يوم معركتي ضروب ... بنصل السيف هامة كل شاني

وهل نار الحروب سوى على ... فدونكمُ تروني بالعيان

فلما سمعوا ذلك نظر بعضهم إلى بعض والمنتقم مطرق لكلام الإمام (ع) كإطراق الحصان لصلصلة اللجام فعند ذلك أقبل إليه قومه وقالوا له أيها السيد ما الذي تأمرنا به قال لهم هل تتبعوني وقلوبكم مملوءة من الحزن والوجل وأنفسكم قد لزمها الخبل. شقيتم من قوم تدعون الشعار وقد جللكم العار وهل عار أعظم من هذا رجل واحد منفرد بنفسه يقتل رجالكم ويفني أبطالكم وبعد ذلك يقسم أموالكم ويستحي نساءكم وهو يطلبكم وقد التجمتم عن الخطاب وانقطعتم عن رد الجواب.

مقتل أبي الهراش بذي فقار الإمام:

فما تم المنتقم كلامه حتى برز إلى الإمام من القوم غلام رشيق وبيده سيف عتيق وهو على مضمر من الخيل العتاق فتقدم إلى المنتقم وقال يا أيها السيد وحق المنيع لآتينك برأسه فقال المنتقم أبرز إليه واهجم بقوتك عليه فلك كل المكارم فأنت الكاشف للكروب العظائم فإن أتيتني برأسه لنقربك المنزلة العليا عند الملك الهضام والإله المنيع ذي القدر الرفيع واحذر يا أبا الهراش من ثورته ولا تركن لخديعته.

فلما خرج الغلام من بين القوم قال الإمام (ع) ظهرت لي شجاعته وثبتت لي براعته فأحببت أن يكون مثله لله ورسوله فناديته يا غلام أرى سيدك قدمك للمهالك وأوقعك في أضيق المسالك فارجع فإني لك ناصح وما أرسلك إلا ليغضبك ويقطع عمرك ويرميك فاترك ما لا يعنيك وقل معي قولاً عدلاً مخلصاً بالرضا لا إله إلا الله محمداً رسول الله تكمن لنا مؤاخياً وفي القيامة ناجياً فلما سمع الغلام كلام الإمام (ع) تبسم ضاحكاً وقال أنا ما أنزعج إلا من نار المنتقم الإله الرفيع فأنت قلت ما قصدت وفي خطابك ما قصرت فأدن مني فأنا فالق الهامات وممزق الجماعات فقال الإمام (ع): وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيت - أنذرت وأعذرت وإذا أنت عن النصح أبيت وأسرفت وفي غيك تماديت فأقدم على قدمك إلى النار وبئس القرار.

ثم زحفت عليه الإمام وزحف الآخر إلى الإمام وظن أبو الهراش أنه ظافر بالإمام لأنه راكب والإمام ماش وجعل يجول ويصول فلما نظر الإمام إليه قاربه وضرب قوائم فرسه وهو في جريه فرسخ السيف في صدره مع رجليه فوقع أبو الهراش على أم رأسه من فوق فرسه فلما وقع على الأرض في ميدان الحرب أخذ الحذر على نفسه فثار من وقته وهم أن يولي هارباً فعطف عليه الإمام وضربه بذي الفقار عرضاً على صدره فجرح السيف من ظهره فسقط أبو الهراش قطعتين إلى الأرض وعجل الله بروحه إلى النار وبئس القرار.

علي يقاتل جيش المنتقم بأجمعه:

فلما نظر القوم إليه بهتوا وأدهشوا وعادوا لا يدرون ما يصنعون فنظر إليهم المنتقم وقال وحق المنيع لو برزتم إليه رجلاً رجلاً لأفناكم عن آخركم ولو كنتم أضعاف ما أنتم عليه من العدد، هيا أدهموه بجمعكم واتركوه هشيماً واجعلوه رميماً قال فبرز له اثنان غيره من شجعان القوم وفرسانهم فلما رآهم القوم ترجلوا وبادروا معهما مسرعين إلى نحو الإمام فلما نظرهم الإمام على ما هم عليه عازمون تأهب فلم يخاطبوه دون أن تفرقوا عليه ثلاث فرق فرقة عن يمينه وفرقة عن يساره وفرقة أمامه فلما وصل إليه القوم وثب عن يمينه فقتل من استقبله ووثب شماله فقتل من أتاه ووثبت على من أمامه فخطفه خطف النار ورفعه في الهواء وجز رأسه، فولى الباقون هاربين وللنجاة طالبين ولم يصدقوا بسلامة أنفسهم. فقال لهم المنتقم ما وراءكم؟ قالوا يا مولانا وراءنا أمر لا يكشفه غيرك ولا يكون له أحد سواك فقال ما فعل

بأصحابكم فقالوا إنهم مأسورون وينتظرونك حتى تمضي إليهم وتخلصهم من يده فإنه الموت الفاصل والبلاء النازل.

(قال الراوي) فعند ذلك علم أنهم يستهزئون به فقال يا ويلكم تستهزئون بي فقالوا لا وحق المنيع ما استهزأنا بك ولكنك جعلك قومك جزراً فقدمتهم لجزارهم وتأخرت وأنت سُميت بين العرب بالمنتقم وما نراك إلا عن البراز ملتجم فقد كنت أنذرت إلهك يأتيك بمحمد وابن عمه علي وإلا سرت إليهم إلى يثرب فها هو قد قربه إليك ولعله إنما أتاك به ليكون لك الفخر بين العرب وعلو القدر فما الذي يمنعك أن تمضي إليه وتهجم عليه.

المنتقم ينازل علياً:

فلما سمع المنتقم ذلك الكلام هاجت همته، وقلت حيلته وخشي أن يقول له الملك الهضام مثل ذلك فما أجاب دون أن وثب بصفيحة عريضة كانت معه فضربه على كتفيه فقطع كتفيه وأضلاعه وخرجت الضربة من تحت إبطه فتجندل طريحاً ثم أن عدو الله قلع أطماره وبقي في سراويله ثم أخذ لامة حربه وتوجه نحو الإمام قال الإمام وقد كنت تأملته حين ضرب صاحبه فرأيت ضربته عظيمة فعلمت أنه ما يضرب مثل ذلك إلا كل فارس ذكي وساعد قوي فخرج عدو الله إلى الإمام كأنه برج مشيد أو قطعة من حديد أو جبل من الصخر الشديد ثم أقبل يهدر كالبعير الهائج وهو يضرب سيفه على جحفته فتسمع لها صوت كالرعد فلما قرب من الإمام وله جسم كالبعير نادى برفيع صوته:

يا ابن أبي طالب إن البغي مصرعة الرجال وسهام الأبطال ومن زها بنفسه وعجب بشجاعته أورده ذلك موارد العطب ومن سل سيفه ظلماً قتل به رغماً ومن ترك الناس تركوه ومن قصد الناس قصدوه وأحسن الناس عواقب من كان عند الشر رجوعاً وما حملني على الإبطاء عنك وما مددت يدي إليك بسوء إلا لما بدأتنا من جميل صنعك وما أوصلته إلينا من حسن كرمك أن قتلت أعداءنا ورددت إلينا سائمتنا ولم أجد إكراماً لك أعظم من إطلاق سبيلك حتى ترجع إلى ابن عمك سالماً وتروح إليه غانماً وأرسلك إلى حيث تأمن من الطلب فاقبل قول النصيحة ودع مكابدة المكاره ثم أنشد المنتقم يقول:

من خالف المرء المشير بنفسه ... كان الخلاف إلى الدمار سبيلا

من سل سيف البغي يوشك أنه ... يرمي به بين الرجال قتيلا

يا ابن المعظم من سلالة هاشم ... لا تلق نفسك في الفلاة جديلا

لا تأمنن من نكبة بين العدا ... تسعى إليك وقد أتيت رسولا

فلما سمع الإمام من المنتقم ذلك الكلام قال ويلك أما علمت أن مدحك لنفسك عار عليك وزيادة في قدر غيرك أما بعد فوحق الذي يعلم ما في السموات والأرض القادر على أن

يفعل بكم ما يشاء لئن ضربتك بذي الفقار لأمحون منك الآثار ولتهوين إلى النار وبئس القرار يا نسل اللئام الفجار فدع عنك التطاول والافتخار **فأنا الأسد الزآر والفارس الكرار وسيف الملك الجبار وابن عم محمد المصطفى المختار أنا المذكور في جميع الأقطار أنا ممزق الكتائب أنا مظهر العجائب أنا مبدي الغرائب أنا ليث بني غالب أنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.**

ثم حمل على عدو الله وحمل الآخر كذلك وتقاربا وتحاربا وتداعسا وتعاركا وشده القوم منهم مشهداً عظيماً ما روى الرواة مثله قال الإمام فوجدت عدو الله صبوراً على الضرب جسوراً على الطلب، ثم إن الإمام جمع نفسه وقد كثر بينهم العراك فنادى المنتقم يا ابن أبي طالب أفق قليلاً حتى أخاطبك بكلام لك فيه المصلحة فتأخر عنه الإمام وقد طمع في إسلامه وقال في نفسه والله اشتهيت أن يكون مثل هذا الأسد الأروع عن الإسلام يدفع ثم تأخر عنه وقال له قل ما تشاء فقال له يا ابن أبي طالب أنا قد رحمتك لحسن فعالك ورأيت أن أعفو عنك وأطلق لك السبيل لأني قد علمت أنك قد أشرفت على الهلاك وأصابك الارتباك فأنا أبعث لك بفرس ومطية وأزودك الماء والزاد وأهب لك من الأموال ما يكفيك حتى ترجع إلى ابن عمك سالماً غانماً وأشهد لك بين القبائل والعربان بالشجاعة والبراعة.

فتبسم الإمام (ع) لما سمع كلام عدو الله وقال له يا عدو الله قلت الخطاب وطلبت الراحة من العذاب والعقاب فاعلم يا عدو الله أن مطيتك وفرسك ومالك ومال قومك وجميع ما تحكم عليه يدك صائر لي أحمله إلى رسول الله (ص) عن قريب.

المنتقم يحاول خديعة الإمام:

ثم حمل الإمام مع كلامه وقال له أشر لنفسك وأهلك وأولادك وجميع قومك أن يقولوا لا إله إلا الله محمداً رسول الله ثم حمل الإمام وطلب إنجاز الوعد فيه فنظر عدو الله إلى الإمام وقد عزم على قتله وصمم بعد أن ارتعدت فرائصه وصار يرتعد كالسعفة في الريح البارد فنادى وقال يا ابن أبي طالب: الصدق أوفى سبيل فبالله إن لي في القوم مالاً وأهلاً وأولاداً وعيالاً فإن ملت إليك يقطعوا بيني وبين أهلي وأولادي وجميع مالي فخلي سبيلي أخاطب قومي فإن أجابوا إلى ما تريد كان الرأي الحسن وإن خالفوني دبرت أمري وخالفتهم وفارقتهم.

فقال الإمام افعل ما بدا لك وأنت بين الجنة والنار فامض إلى أيهما شئت وطمع الإمام في إسلامه فخلى سبيله فرجع المنتقم إلى قومه وقد تضعضعت أركانه وخمدت نيرانه فقالوا له أيها السيد الكريم ما فعلت بهذا الغلام فقال المنتقم: وسطوة المنيع لقد نازلت الأبطال وخضت الأهوال وبارزت الأقران فما رأيت غلاماً أصبر من هذا على القتال ولا أجسر منه على النزال ولا أثبت منه في الحرب ولا أقوى منه في الضرب كأنما خلق من الجبال لا تروعه الأهوال وإني حاولته وخدعته بخديعتي حتى أطلق سبيلي فما الرأي في أمره وما تفعلون فقالوا

نحن معك فالذي ترضاه لنفسك رضينا والذي تأمرنا به فعلناه فقال لهم يا قوم إن هذا الغلام يريد منا أن نرفض عبادة المنيع الإله الرفيع ونعبد إلهه ونشهد لابن عمه بالنبوة ونكون معيرة العرب في المحافل وجميع القبائل ويرمينا المنيع ببوائقه ويعيقنا بعوائقه قالوا وما نرى جوابنا إلا أننا نمهله بقية يومنا هذا إلى أن يسبل الظلام فنسير إلى حصننا ونتحصن فيه من داخله ونوثق أقفاله فلا يستطيع الوصول إليه ونرسل رسولاً إلى الملك الهضام فيأتينا بجنوده وعساكره وأهل كل حصن يمدوننا بالنصر على عدونا فقالوا جميعاً أفلح رأيك أيها السيد هذا هو الرأي السديد فاتفق رأيهم على ذلك ثم قالوا دبر هذا الأمر بعقلك فإنه لا يصلح إلا لمبارزة كسرى وقيصر.

فعند ذلك أرسل المنتقم إلى الإمام (ع) وقال له: يا فتى بلغت مناك وما أملته من هواك أن قومي راضون بقولك مطيعون لأمرك وقد انشرحت لقولك الصدور وانقادت لديك الأمور إلا أن قومنا في الحصن لم يحضروا هذه المشورة وهم كبراءنا وقد أرسلنا إليهم ليحضروا فيكونوا معنا داخلين تحت يديك ولطاعتك مذعنين ولإجابتك مطيعين ولأمرك ممتثلين وهذا النهار قد ولى والليل قد أقبل ونريد أن تمهلنا إلى غداة غد فإن شئت أن تدنو منا ومن رجالنا فتصيب من طعامنا فذلك مرادنا ومسرتنا وإن أبيت فلا اعتراض عليك فكن في منامك فعند الصباح حلول الرواح.

الإمام يكشف خدعة المنتقم:

فقام الإمام من مكانه بعد أن علم ما عندهم وما أضمروا عليه ثم وثب بعد تعبه وما كابده فعبر النهر بوثبته ثم اغتسل وتطهر ولبس ثيابه وكان الإمام (ع) صائماً إذ نادى المنتقم يا فتى هل لك في الطعام وتنال منا الإكرام فقال الإمام طعامكم علي حرام حتى يفصل الله بيني وبينكم من الزمان وتجيبوا بجمعكم إلى الإسلام وتقولوا لا إله إلا الله الملك العلام القدوس السلام وتقروا بالرسالة لخير الأنام ثم أخذ قوسه وجعل فيه نبلة ورمق إلى السماء وإذا هو بطائر في الجو فرماه وأخذه ونظف ريشه ثم غسله وأضرم النار وشواه فازداد القوم عجباً وداخلهم الهلع والجزع مما عاينوا ولم يزل جالساً إلى أن غربت الشمس فقام وصلى المغرب فلما فرغ من صلاته قدم ما شواه لإفطاره فأكل حتى حمد الله تعالى على ما هو فيه فلما اختلط الظلام نظر الإمام إلى ناحية القوم وإذا هو برجل خارج من جيش المنتقم مسرعاً إلى جهة الحصن فظن أنه رسول فلصق بطنه وتأمل فإذا هو بآخر قد خرج من ورائه في أثره وهم ينسلون واحداً بعد واحد هرباً إلى الحصن.

عودة الإمام إلى الحصن:

(قال الراوي) فلما رأى ذلك الإمام علم أنهم عزموا على الهرب إلى الحصن فأخذ سيفه وجحفته وجعل يزحف على بطنه كالحية على وجه الأرض إلى أن وصل إلى جانب النهر وجمع

نفسه ووثب فعدى النهر ولم يعدل عليهم بل عدل عنهم وأسرع إلى جهة الحصن يريد الوصول إليه قبل أن يصل إليه أحد منهم فما زال الإمام يسرع في سيره فلم يكن إلا أقل من ساعة حتى وصل إلى الحصن ولم يصل إليه أحد قبله فنظر إلى أعلاه فرأى العبيد على السور وقد رفضوا الرقاد وداموا على السهر قد خلعوا العذار في مرضاة الملك الجبار فلما نظروا، أسرع منهم جماعة وهموا أن يرموه بالحجارة فنادى الإمام لا ترموا بالأحجار وافتحوا لي الباب شكر الله سعيكم وآمنكم من عدوكم فعرف القوم صوته ففتحوا له الباب وفرحوا به فرحاً شديداً وكانوا قد يئسوا منه وقالوا يا سيدنا أقلقتنا بإبطائك وكثر خوفنا عليك ونوينا على القتال إلى أن نقتل عن آخرنا في مرضاة ربنا فجزاهم الإمام خيراً ثم قالوا فما كان من خيرك حتى أبطأت علينا فقال ما يكون إلا الخير والسلامة وفي هذه الليلة يظهر لكم إن شاء الله تعالى تمام الكرامة.

ثم قال لهم الإمام اخرجوا بأجمعكم خارج الباب ولا تمنعوا أحداً من الدخول وأنا أبلغكم منهم المأمول، فقال جنبل بن وكيع وما الذي عزمت عليه قال أضرب رقابهم وأقطع أوداجهم وألحق أولهم بآخرهم فذهل القوم من كلام الإمام (ع) وخرجوا بأجمعهم إلى خارج الحصن فلم تكن إلا ساعة وإذا بالقوم مقبلين وفي أوائلهم ذؤيب بن ياسر الباهلي فقال له جنبل ما وراءك يا ذؤيب فقال له لا تسألني عن الموت الفاصل والبلاء النازل، ثم هم ودخل الحصن والإمام يسمع كلامه فقال له صدقت يا عدو الله أنا الموت الفاصل والبلاء النازل فلا مفر مني اليوم ثم ضربه ضربة قسمه نصفين ثم سكت وأخفى حسه وهو كالأسد إذا عاين فريسته فبينما هو كذلك إذ دخل آخر فقاربه الإمام وضربه فأزال رأسه عن جسده وسحبه برجله وأزاله عن الطريق فدخل آخر في أثره فبادره الإمام وضربه عرضاً فقطع ذراعيه مع صدره فسقط أربع قطع وما زالوا داخلين والإمام (ع) يقتلهم واحداً واحداً وكل من قتله جره وأبعده عن الطريق.

الإمام يحاصر المنتقم وجيشه داخل حصنهم:

وبينما هو كذلك إذ دخل آخر فقاربه الإمام وضربه فأزال رأسه عن جثته وأزاله عن الطريق وإذا بضجة عظيمة عالية فتأملهم الإمام وإذا بعدو الله المنتقم راكباً على بعير وحوله غلمانه وشجعانه وفرسانه وقد أحاطوا به من كل جانب فلما وصلوا إلى باب الحصن أناخوا البعير ثم حملوا عدو الله وأنزلوه فتقدم إلى باب الحصن يريد الدخول فوقف والتفت إلى أصحابه وقال الزموا باب حصنكم إلى أن تتكامل أصحابكم وادخلوا إلى الحصن وأغلقوا بابه وتحصنوا فيه فتأمنوا من عدوكم ثم تركهم على الباب ودخل إلى الحصن ومعه مائة رجل من جماهير قومه فرفع جنبل صوته يُسمع الإمام وقال يا مولاي بلغك الإله مأمولك وأعطاك سؤالك لقد أبردت بفعلك قلبي وسررت خاطري، فعند ذلك فهم إشارة جنبل وكان

للحصن بابان فوقف الإمام (ع) عند الباب الثاني وتجرد من أطماره وبقي في سراويله وأخذ سيفه وجحفته ثم أقبل على عدو الله المنتقم وحواليه السيوف مسلولة وهو في وسط القوم كعلو الفارس على الراجل فلما وصلوا إلى الإمام وثب عليهم وصاح فيهم صيحته المعروفة الهاشمية وقال إلى أين:

يا لئام إلى أين يا أعداء الله. أين المفر من ابن عم خير البشر.

فلما سمع القوم ذلك ولوا هاربين يميناً وشمالاً وصار عدو الله وحده واقفاً باهتاً لا يدري ما يصنع فنادى يا ابن أبي طالب أحسن إلي وأبق بكرمك علي. فقال له الإمام: أتخذعني يا عدو الله والله إن لم تقر لله بالوحدانية ولمحمد ابن عمي بالرسالة لأقتلنك شر قتلة فقال له يا ابن أبي طالب بحق ابن عمك محمد إلا ما أبقيت علي فعند ذلك أخذ الإمام عمامته بعد أن ألقاه على الأرض وكبه على وجهه وأوثق كتافه وجمع يديه إلى رجليه وتركه لا يستطيع أن يتحرك وعمد إلى القوم وكان (ع) قد أغلق الباب وأوثقه من ورائهم بعد أن دخلوا عن آخرهم فتصارخوا بأعلى أصواتهم وتحيروا فنادوا يا ابن أبي طالب بحق ابن عمك محمد إلا ما أحسنت إلينا وأبقيت بكرمك علينا فعند ذلك رد الإمام عنهم السيف وقال لهم وحق الذي بعث ابن عمي بالحق بشيراً ونذيراً إن لم تقروا لله بالوحدانية ولابن عمي بالرسالة لأمحونكم بسيفي هذا عن آخركم فقالوا له: يا ابن عم رسول الله ماذا تقول؟ فقال لهم قولوا: نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقالوا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقال الإمام (ع) ما يتحقق عندي إسلامكم حتى تعمدوا معي إلى قومكم فتقاتلوهم وتقاتلوا ملككم الذميم وشيطانه الرجيم وأنا ناظر إليكم حتى أعلم حقيقة إسلامكم فقالوا له يا ابن عم رسول الله هذا حقيقة إسلامنا. قال نعم فجردوا سيوفهم وعمدوا معه إلى الباب الذي هم داخله فوجدوا القوم قد دخلوا كلهم من الباب الأول واجتمعوا عند الباب الذي من داخله أمير المؤمنين فخرجوا لهم وحطوا السيف فيهم وأقبل جنبل وقومه من خلفهم وصاحوا فيهم الله أكبر فتح ونصر وخذل من كفر بدين محمد خير البشر هذا والإمام (ع) يقول مُروهم أن يقولوا لا إله إلا الله وإلا نفنيكم عن آخركم فمن قالها ارفعوا عنه السيف ومن أبى فاقتلوه فما زالوا كذلك إلى أن مضى ثلث الليل فنادى القوم بأجمعهم الأمان يا ابن أبي طالب ونحن أسراك وفي يدك.

فقال لهم الإمام (ع): لن يؤمنكم من سيفي إلا أن تقروا لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة وإلا أفنيتكم عن آخركم فصاحوا بأجمعهم نشهد أن لا إله إلا الله وأن ابن عمك محمداً رسول الله فأمر القوم أن يرفعوا عنهم السيف فما مضى نصف الليل الأول إلا وقد كفاه الله شر القوم ولم يبق عندهم من يقاتل أبداً وأقبلت الرعاة وجنبل إلى الأمام وقبلوا يديه وهنئوه بالسلامة بما فتح الله عليه في تلك الليلة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم خر ساجداً لله تعالى.❖

من سرايا الإمام

برواية الواقدي

محمد بن عمر بن واقد المتوفى سنة ٢٠٧هـ

الواقدي وسرايا الإمام:

أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمى (١٣٠هـ/٧٤٧م ـ ١١ ذو الحجة ٢٠٧هـ/٢٧ إبريل ٨٢٣م) عالم مدني سكن في بغداد. كان إلى حفظه المنتهى في الأخبار والسير والمغازي والحوادث وأيام الناس **والفقه**. لكنه ـ على سعة علمه ـ أُتهم بالتعصب لأهل المدينة، وبالانحراف عن خصومهم وبخاصة أهل **العراق كما رُمى بالتشيع**.

أخذ الواقدي العلم عن شيوخ عصره، فاتصل **بمالك بن أنس**، وأخذ عنه الحديث، وتتلمذ على يد **سفيان الثوري وابن جريج ومعمر بن راشد** وغيرهم، وكما أخذ المغازي والسير عن أبى معشر السندي، وظل عاكفًا على طلب العلم حتى نال شهرة واسعة في عصره، وعُد بعد ابن إسحاق في اتساع العلم بالتاريخ، بل فاقه في دقة المادة العلمية، والعناية بتحقيق الأحداث وتوضيح الإطار الجغرافي الذي يتصل بموقع الأحداث.

وحينما زار **هارون الرشيد** المدينة في حجه سنة (١٧٠هـ= ٧٨٦م) دلّوه على الواقدي، ليرشده إلى المواضع المقدسة في المدينة، ويحتفظ **ابن سعد** (تلميذ الواقدي) بخبر واف عن هذه الحادثة سجلها على لسان الواقدي في كتابه الطبقات الكبرى.

ولما ضاقت الحال بالواقدي وكان كريمًا لا يمسك مالاً في يده ذهب إلى **بغداد** سنة (١٨٠هـ= ٧٩٦م)، ومنها إلى الرقة حيث كان الخليفة **هارون الرشيد** في ذلك الوقت فأكرم وفادته. وفي عهد **المأمون** تولى قضاء **الرصافة** سنة (٢٠٤هـ= ٨١٩م)، وكان الخليفة المأمون يثق به ويقدره. ويروى أنه حين تقدم منه ليسأله قضاء ديونه التى كان كرمه وسخاؤه يوقعانه فيها على الدوام: فكتب الخليفة على هامش الرقعة: فيك خلتان: سخاء وحياء؛ فالسخاء أطلق يديك بتبذير ما ملكت، والحياء حملك على أن ذكرت لنا بعض دينك، وقد أمرنا لك بضعف ما سألت..".

ولا يختلف أحد على معرفة الواقدي الواسعة بالمغازي: فيقول **الخطيب البغدادي**: (هو ممن طبّق ذكره شرق الأرض وغربها، وسارت بكتبه الركبان في فنون العلم من المغازي

والسير والطبقات). وبالرغم من كل ذلك اُتهم بضعف الحديث لكنه بقى محل إكبار العلماء والمؤرخين، فأكثروا من الاقتباس من مؤلفاته **كالطبري** الذي روى كثيرًا عنه وبخاصة من كتابه التاريخ الكبير.

ولعل التضعيف الذي مُنى به الواقدي مرده إلى قول البعض بأنه كان شيعياً يلزم التقية، قال ابن النديم (وكان يتشيع، حسن المذهب، يلزم التقية، وهو الذي روى أن علياً عليه السلام كان من معجزات النبى صلى الله عليه، كالعصا لموسى صلى الله عليه وإحياء الموتى لعيسى بن مريم عليه السلام وغير ذلك من الأخبار)[١]. ويقول مارسدن جونس (لعل وجود كتابين للواقدي أحدهما في مولد الحسين ومقتل الحسين، يُوهم أنه كان شيعياً ـ وبعد أن ينقل كلمة ابن النديم في التأكيد على شيعيته ـ يقول: على أنه مما يثير الدهشة أن الطوسى هو معاصر لابن النديم لم يذكر كتاباً من كتبه... ولو سلمنا انه يلزم التقية وفان تشيعه كان لابد أن يظهر على نحو ما عند الحديث عن على وأن ابن أبى الحديد لم يعتبره شيعياً...)[٢].

ويخلص جونس من تلك بهذا الاستنتاج، فيصرح بما يلي: (ومن الطريف أن يلاحظ أن ابن إسحاق يُتهم هو الآخر بميوله الشيعية والقدرية. ويبدو أن السبب في (ذلك) لا يرجع إلى عقيدتهما الشخصية. وإنما يرجع إلى ما ورد عن في كتابيهما من الأقوال والآراء الشيعية التى يعرضانها، وليس ذلك عن عقيدة صحيحة فيها، مما تقتضيه طبيعة التأليف في هذه الموضوعات. ولعل السبب في وصف الواقدي بأنه يتشيع يرجع إلى ما أورده في بعض المواضع من كتابه حين يأتى إلى ذكر الصحابة، ومنهم بعض الخلفاء الراشدين، فيذكر مثلاً عمر وعثمان في عبارات لا تضعهما في مكانتهما المرموقة... ويظهر بوضوح أن النص في المخطوطة الأم (من كتاب المغازي للواقدي) كان يذكر (فيها) عمر وعثمان، أو عمر وحده، أو عثمان وحده، ممن ولوا الأدبار يوم أُحد. ولكن الناسخ لم يقبل هذا في حق عمر وعثمان، فأبدل اسميهما أو اسم أحدهما بقوله: فلان. ولاشك أن نص الواقدي الأصلى وقع في أيدي طائفة من الشيعة وقرأوا فيه هذه الأخبار التى أوردها في حق عمر وعثمان مثلاً، فاعتقدوا أنه شيعى قطعاً)[٣]. أما الشيخ المفيد فيعتبر الواقدي عثمانياً ميالاً إلى علي، بينما يؤكد المامقاني على

---

(١) الفهرست لابن النديم ص١١١ طبعة طهران ١٩٧٣ بعناية: رضا تجدد الحائري المازندراني.

(٢) مقدمة المغازي ص ١٦

(٣) مقدمة المغازي ص ١٨.

تشيعه، مستنتجاً أو متصوراً بأنه كان يتردد على الخليفة الرشيد عملاً بوصية من إمام زمانه الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام.

أما بروكلمان فقد نص على تشيع الواقدى، قال (كان الواقدي شيعياً، ولكنه أنكر التشيع تقية في مصنفاته)[١].

وعلى العموم فهذه مجموعة من أخباره الواردة في مغازيه وهى ثلاث سرايا كانت قد وقعت للإمام أيام رسول الله (ص) وبأمر منه (ص). وقد تقدمت الإشارة لمغازي الواقدي كونها ملهمة للمغازي الموريسكية، أو سواها من السير الشعبية المتعلقة ببطولة الإمام على (عليه السلام). وهذا الكتاب (المغازي) لعله الوحيد الذي بقى من كتبه الكثيرة التى أشار لها ابن النديم وغيره[٢].

وقد نشر "**فون كريمر**" الثلث الأول منه في المكتبة الهندية، وطبع في **كلكتا** سنة (١٢٧٣هـ= ١٨٥٦م)، ثم نشر الكتاب كاملاً "**مارسدن جونس**" بدعم من **جامعة أكسفورد** و هى النسخة التى اعتمدناها في ذكر سرايا الإمام (سلام الله عليه).

والواقدي في كتابه المغازي لم يُعن **كابن إسحاق** بالفترات السابقة للإسلام، ولا بالعصر الجاهلى، وإنما عُنى بالسيرة، وقد ذكر في أول كتابه مصادره الأساسية التى اعتمد عليها، وهى خمسة وعشرون اسمًا من شيوخه، ومعظمهم من أهل المدينة أو عاشوا فيها. وهذه القائمة المذكورة في بداية الكتاب لا تشمل جميع من روى عنهم الواقدي مباشرة، وإنما الذين اعتمدت عليهم روايته الرئيسية فقط.

ويُعنى الواقدي في كتابه بالتدقيق في التواريخ، ويهتم بإيراد نصوص الوثائق، مثل: بعض أوامر النبى (صلوات الله عليه)، ومعاهداته، ورسائله، ويكثر من الاستشهاد بالشعر، ولكن في قصد لا يبلغ حدود ابن إسحاق في عنايته بإيراد الشعر.

ويتبع الواقدى خطة ثابتة في عرضه المغازي؛ فيبدأ بذكر عام خروج الغزوة من المدينة ورجوعها، ثم يتبعه بأخبار الغزوة، وهى تتألف من خبر رئيسى واحد أدمج فيه بعض الأخبار، ويذكر في نهاية الغزوة في غالب الأحيان نائب النبى (صلوات الله عليه) على المدينة في غيابه، وبعض الأشعار والآيات التى تحتوي على إشارة للحادث الذي يعالجه. ويهتم الواقدي بتحديد المواقع الجغرافية، حتى لقد بلغ الحرص به أن زار بعض تلك المواقع بنفسه.

محمد سعيد الطريحي

---

(١) تاريخ الأدب العربي، القسم الثاني ٣ - ٤، ص١٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣.

(٢) راجع بروكلمان، مرجع سابق، ص ١٧ - ٢١، وفيه تحقيق لما تبقى من كتب الواقدي.

سريّة عليّ بن أبي طالب (ع) إلى بني سعد، بفَدَك[١] في شعبان سنة ست

حدّثني عبدالله بن جَعفر، عن يعقوب بن عُتبة، قال، بعث رسول الله (ص) عَليّاً (ع) في مائة رجلٍ إلى حَيّ سعد، بفَدَك، وبلغ رسولَ الله (ص) أنَّ لهم جمعاً يُريدون أن يُمدّوا يهودَ خَيْبَر، فسار الليلَ وكمن النهارَ حتى انتهى إلى الهَمَج[٢]، فأصاب عيناً فقال: ما أنت؟ هل لك علم بما وراءَك من جمع بني سعد؟ قال: لا علم لي به. فشدّوا عليه فأقر أنه عينٌ لهم بعثوه إلى خَيْبَر، يعرض على يهود خَيبرَ نصرهم على أن يجعلوا لهم من تمرهم كما جعلوا لغيرهم ويَقْدَمون عليهم، فقالوا له: فأين القوم؟ قال: تركتهم وقد تجمّع منهم مائتا رجل، ورأسهم وبَر بن عُلَيم. قالوا: فسِرْ بنا حتى تدلُّنا. قال: على أن تُؤمِّنوني! قالوا: إن دللتَنا عليهم وعلى سَرْحِهم أَمَنّاك، وإلاّ فلا أمان لك. قال: فذاك! فخرج بهم دليلاً لهم حتى ساءَ ظنُّهم به، وأَوفى بهم على فَدافِذ وآكام، ثم أفضى بهم إلى سهولةٍ فإذا نَعَمٌ كثيرٌ وشاءُ، فقال: هذا نَعَمهم وشاءُهم. فأَغاروا عليه فضمّوا النَّعَمَ والشاءَ. قال: أَرسِلوني! قالوا: لا حتى نأمن الطلب! ونذر بهم الراعي رعاءَ الغنم والشاء، فهربوا إلى جمعهم فحذَّروهم، فتفرّقوا وهربوا، فقال الدليل: عَلامَ تحبسني! قد تفرّقت الأَعراب وأَنذرهم الرعاء. قال عليٌّ (ع): لم نبلغ معسكرهم. فانتهى بهم إليه فلم يَرَ أحداً، فأَرسلوه وساقوا النَّعَمَ والشاء، النَّعم خمسمائة بعير، وألفا شاة.

حدّثني أُبَير بن العَلاء، عن عيسى بن عُميلة، عن أَبيه، عن جده، قال: إنّي لَبوادي الهَمَج إلى بَديع[٣]، ما شعرتُ إلاّ ببني سعد يحملون الظُّعُن وهم هاربون، فقلت: ما دَهاهم اليوم؟ فدنوت إليهم فلقيت رأسهم وَبر بن عُلَيم، فقلت: ما هذا المسير؟ قال: الشرّ، سارت إلينا جموع محمّد وما لا طاقةَ لنا به، قبل أن نأخذ للحرب أُهْبَتَها؛ وقد أَخذوا رسولاً لنا بعثناه إلى خَيْبر، فأَخبرهم خبرنا وهو صنع بنا ما صنع. قلت: ومَن هو؟ قال: ابن أَخي، وما كنا نعدّ في العرب فتىً واحداً أجمعَ قلباً منه. فقلت: إني أَرى أمرَ محمّد قد أَمن وغلظ، أَوقع بقُرَيشٍ فصنع بهم ما صنع، ثم أَوقع بأَهل الحصون بيَثْرِب، قَيْنُقاع ونبي النَّضير وقُرَيْظَة، وهو سائر إلى هؤلاء بخَيْبر. فقال لي وَبر: لا تخش ذلك! إنَّ بها رجالاً، وحُصوناً منيعة، وماءً واتِناً[٤]، لا دنا منهم محمد أبداً، وما أَحراهم أَن يغزوه في عُقر داره. فقلت: وترى ذلك؟ قال: هو الرأي لهم. فمكث عَليٌّ (ع) ثلاثاً ثم قسم الغنائم وعزل الخُمُس وصفى النبيّ (ص) وسلّم لَقوحاً تُدْعى الحَفِدَة قدم بها.

---

(١) مغازي الواقدي ٥٦٢/١ ـ ٥٦٣ وسريته إلى الفُلس ٩٨٤/٢- ٩٨٩ وسريته إلى اليمن ١٠٧٩/٢ ـ ١٠٨٣ وفدك: قرية قريبة من خيبر بينها وبين المدينة ست ليال. (وفاء الوفا، ج ٢، ص ٢٥٥).

(٢) الهمج: ماء بين خيبر وفدك. (طبقات ابن سعد، ج ٢، ص ٦٥).

(٣) بديع: أرض من فدك، وهي مال المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن المغيرة المخزومي. (معجم ما استعجم، ص ١٤٤).

(٤) وتن الماء: أي دام ولم ينقطع. (الصحاح، ص ٢٢١٢).

سريّة عليّ بن أبي طالب عليه السلام إلى الفلُس في ربيع الآخر سنة تسع

قال: حدّثنا عبد الرحمن بن عبد العَزيز قال: سمعت عبدالله بن أبي بكر بن حَزم يقول لموسى بن عِمْران بن مَنْاح. وهما جالسان بالبَقيع: تَعرف سريّة الفُلْس؟ قال موسى: ما سمعت بهذه السريّة. قال: فضحك ابن حَزم ثم قال: بعث رسول الله (ص) عَليّاً (ع) في خمسين ومائة رجل على مائة بعير وخمسين فرساً؛ وليس في السريّة إلاّ أنصاريّ، فيها وجوه الأوس والخزرج، فاجتنبوا الخيل وعتقبوا على الإبل حتى أَغاروا على أَحياء من العرب، وسأَل عن محلّة آل حاتم[1] ثم نزل عليها، فشَنُّوا الغارة مع الفجر، فَسَبَوْا حتى ملأوا أيديهم من السّبيْ والنُّعَم والشاء؛ وهدموا الفُلْس وخرّبوه، وكان صنماً لطَيّيْ، ثم انصرفَ راجعاً إلى المدينة.

قال عبد الرحمن بن عبد العزيز: فذكرتُ هذه السريّة لمحمّد بن عمر بن عَليّ، فقالَ: ما أَرى ابن حَزم زاد على أَن ينقل من هذه السريّة ولم يأْتك بها. قلت: فأتِ بها أنت! فقال: بعث رسول الله (ص) عليّ بن أَبي طالب (ع) إلى الفُلْس ليهدمَه، في مائة وخمسين من الأَنصار، ليس فيها مُهاجرٌ واحد، ومعهم خمسون فَرَساً وظَهْراً، فامتطَوْا الإبل وجنبوا الخيل، وأَمره أَن يشنَّ الغارات؛ فخرج بأصحابه، معه رايةٌ سوداءُ ولواءٌ أبيضُ، معهم القَنا والسِّلاح الظاهر، وقد دفع رايتَه إلى سَهل بن حُنَيف، ولواءَه إلى جَبّار بن صَخر السُّلَميّ، وخرج بدليلٍ من بني أَسَد يقال له: حُرَيث، فسلك بهم على طريق فَيْد[2]، فلمّا انتهى بهم إلى موضعٍ قال: بينكم وبين الحيّ الذي تُريدون يومٌ تامٌّ[3]، وإن سرناه بالنهار وطئنا أَطرافهم ورِعاءَهم، فأَنذروا الحيَّ فتفرّقوا، فلم تُصيبوا منهم حاجتكم؛ ولكن نُقيم يومنا هذا في موضعنا حتى نُمسي، ثم نَسري ليلتنا على متون الخيل فنجعلها غارةً حتى نُصبّحهم في عَماية الصبح. قالوا: هذا الرأي! فعسكروا وسرّحوا الإبل، واصطنعوا، وبعثوا نفراً منهم يتقصَّوْن ما حولهم، فبعثوا أَبا قَتادة، والحُباب بن المُنْذر، وأَبا نائلة، فخرجوا على متون خيلٍ لهم يطوفون حول المعسكر. فأَصابوا غلاماً أَسود فقالوا: ما أنت؟ قال: أَطلب بُغْيَتي. فأَتَوْا به عَليّاً (ع) فقال: ما أَنت؟ قال: باغٍ. قال: فشدّوا عليه، فقال: أَنا غلامٌ لرجلٍ من طيّء من بني نَبْهان، أَمروني بهذا الموضع، وقالوا: إن رأَيتَ خيل محمّد فطِرْ إلينا فأَخبرنا، وأَنا لا أُدرك أَسْراً. فلمّا رأَيتكم أَردت الذَّهاب إليهم. ثم قلت لا أَعجَلُ حتى آتي أَصحابي بخبرٍ بيّنٍ من عددكم وعدد خيلكم وركابكم؛ ولا أَخشى

---

(١) في الأصل (محلة الرخاتم) والتصويب عن ابن سعد ج٢ ص١١٨

(٢) فيد: قريب من أجأ وسلمى، جبل طيء. (معجم البلدان، ج ٦، ص ٤٠٩).

(٣) في الأصل: يوماً تاماً.

ما أَصابني، فلكأَني كنت مُقَيَّداً حتى أَخذتني طلائعكم. قال عَليٌّ (ع): أصدُقْنا ما وراءَك! قال: أوائل الحيّ على مسيرةِ ليلةٍ طَرادةٍ[1]، تُصبّحهم الخيلُ ومَغارُها حين غَدَوا. قال عَليٌّ (ع) لأصحابه: ما تَروْن؟ قال جَبّار بن صَخر: نرى أَن ننطلق على متون الخيل ليلتَنا حتى نُصبّح القوْم وهم غارّون فنُغير عليهم؛ ونخرج بالعبد الأَسود ليلاً، ونُخلّف حُرَيثاً مع العسكر حتى يلحقوا إن شاء الله ـ قال عَليٌّ: هذا الرأي! فخرجوا بالعبد الأسود، والخيل تَعادَا، وهو رِدْف بعضهم عُقْبَةً[2]. ثم ينزل فيُردف آخَر عُقْبَةً، وهو مكتوف، فلمّا انهار الليل كذب العبد وقال: قد أَخطأْتُ الطريق وتركتُها ورائي. قال عَليٌّ (ع): فارجع إلى حيث أَخطأْت! فرجع ميلاً أَو أَكثر. ثم قال: أَنا على خطأ. فقال عَليٌّ (ع): إنَّا منك على خُدْعَة، ما تُريد إلاّ أَن تَثنينَا عن الحيّ، قَدِّموه! لَتصْدُقنا أَو لَنضربنّ عنقك! قال: فقُدّم وسُلّ السيف على رأسه، فلمّا رأى الشرّ قال: أَرأَيت إن صدقتُكم، أَينفعني؟ قالوا: نعم. قال: فإنّي صنعتُ ما رأَيتم؛ إنّه أَدركني ما يُدرك الناسَ من الحياء فقلت: أَقبلتُ بالقوم أَدلُّهم على الحيّ من غير مِحْنَةٍ ولا حقٍّ فآمنهم، فلمّا رأَيت منكم ما رأَيتُ وخفتُ أَن تقتلوني كان لي عُذْر، فأَنا أَحملكم على الطريق. قالوا: اصدُقْنا. قال: الحيّ منكم قريب. فخرج معهم حتى انتهى إلى أَدنى الحيّ، فسمعوا نُباح الكلاب وحركة النُّعَم في المَراح والشاء، فقال: هذه الأَصرام[3] وهي [على] فرسخ. فينظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: فأَين آل حاتم؟ قال: هم متوسّطو الأَصرام. قال القوم بعضهم لبعض: إن أَفزعْنا الحيّ تصايحوا وأَفزعوا بعضهم بعضاً فتغيب عنّا أَحزابهم في سواد الليل، ولكن نُمهل القومَ حتى يطلع الفجر معترضاً فقد قرب طلوعه فنُغير؛ فإن أَنذر بعضهم بعضاً لم يخفَ علينا أَين يأْخذون، وليس عند القوم خيلٌ يهربون عليها ونحن على متون الخيل. قالوا: الرأي ما أَشرتَ به. قال: فلمّا اعترضوا الفجر أَغاروا عليها فقتلوا مَن قتلوا وأَسروا من أَسروا، واستاقوا الذرّيّة والنساءَ، وجمعوا النُّعَم والشاءَ، ولم يخفَ عليهم أَحدٌ تغيّب فملأوا أَيديهم. قال: تقول جاريةٌ من الحيّ وهي ترى العبد الأَسود ـ وكان اسمه. أَسْلَم ـ وهو مُوثَق: ما لَه هَبَل! هذا عمل رسولكم أَسْلَم، لا سَلِم، وهو جلبهم عليكم، ودلّهم على عَوْرَتكم! قال: يقول الأَسود: أَقصِري يا ابنة الأَكارم، ما دللتهم حتى قُدِّمتُ ليُضْرَب عنقي! قال: فعسكر القوم، وعزلوا الأَسرى وهم ناحية نُغَير، وعزلوا الذُّرَيَّة وأَصابوا من آل حاتم أُخت عَديّ ونُسيّاتٍ معها، فعزلوهنَّ على حِدَةٍ، فقال أَسلم لعليٍّ (ع): ما تنتظر بإطلاقي؟ فقال: تشهد أَن لا إله إلاّ الله، وأَنَّ محمّداً رسول الله. قال: أنا على دين قومي هؤلاء الأَسرى، ما صنعوا صنعت! قال: ألا

---

(١) يعني طويلة. (القاموس المحيط، ج ١، ص ٣١٠).

(٢) العقبة: النوبة. (الصحاح، ص ١٨٥).

(٣) الأصرام: جمع الصرمة، وهي الجماعة. (القاموس المحيط، ج ٤، ص ١٣٩).

تراهم مُوثقين، فنجعلك معهم في رِباطك؟ قال: نعم، أنا مع هؤلاءِ مُوثقاً أحبُّ إليَ من أن أكون مع غيرهم مُطْلَقاً، يصيبني ما أصابهم. فضحك أهل السريّة منه، فأُوثِق وطُرِح مع الأسرى، وقال: أنا معهم حتى ترَوْن منهم ما أنتم راءون. فقائلٌ يقول له من الأسرى: لا مرحباً بك، أنت جئتنا بهم! وقائلٌ يقول: مرحباً بك وأهلاً، ما كان عليك أكثر ممّا صنعت! لو أصابنا الذي أصابك لفعلنا الذي فعلت وأشدَّ منه، ثم آسَيْتَ بنفسك! وجاء العسكر واجتمعوا، فقرّبوا الأسرى فعرضوا عليهم الإسلام، فمَنْ أسلم تُرِك ومن أبى ضُرِبت عنقه، حتى أتوا على الأسود فعرضوا عليه الإسلام، فقال: واللهِ إنَّ الجزَع من السيف للُؤْم. وما مِن خُلود! قال: يقول رجلٌ من الحيّ ممّن أسلم: يا عجباً منك، ألا كان هذا حيث أُخِذتَ! فلمّا قُتل مَن قُتل، وسُبي من سُبي منا، وأسلم منّا مَن أسلم راغباً في الإسلام تقول ما تقول! ويحك، أسلِم واتبعْ دينَ محمّد! قال: فإنّي أُسلم وأتبع دين محمّد ـ فأسلم وتُرك، وكان يَعِد فلا يَفي حتى كانت الرِّدَّة، فشهد مع خالد بن الوليد اليَمامة فأبلى بلاءً حسناً.

قال: وسار عليّ (ع) إلى الفُلْس فهدمه وخرّبه: ووجد في بيته ثلاثة أسياف، رَسوب، والمِخْذَم، وسيفاً يقال له اليمانيّ، وثلاثة أدراع، وكان عليه ثيابٌ يُلبسونه إيّاها. وجمعوا السَّبْيُ، فاستُعمل عليهم أبو قَتادة، واستُعمل عبدالله بن عَتبك السُّلَميّ على الماشية والرِّثَّة، ثم ساروا حتى نزلوا رَكَك[1] فاقتسموا السَّبْي والغنائم، وعزل النبيّ (ص) صفيّاً[2] رَسوباً والمِخْذَم، ثم صار[3] له بعدُ السيفُ الآخر: وعزل الخُمُس، وعزل آل حاتم، فلم يقسمهم حتى قدم بهم المدينة.

قال الواقديّ: فحدّثت هذا الحديث عبدَالله بن جعفر الزُّهريّ فقال: حدّثني ابن أبي عَون قال: كان في السَّبي أُخت عَديّ بن حاتم لم تُقْسَم، فأُنزلت دارَ رَمْلَة بنت الحارث. وكان عَديّ بن حاتم قد هرب حين سمع بحركة عَليٍّ (ع)، وكان له عينٌ بالمدينة فحذَّره فخرج إلى الشام، وكانت أُخت عَديّ إذا مرّ النبيّ (ص) تقول: يا رسول الله، هَلَك الوالد وغاب الوافد، فامْنُنْ علينا مَنَّ الله عليك! كلّ ذلك يسألها رسول الله (ص): مَن وافِدك؟ فتقول: عَديّ بن حاتم! فيقول: الفارّ من الله ورسوله؟ حتى يَئِستْ. فلمّا كان يوم الرابع مرّ النبيّ (ص) فلم تَكلّم فأشار إليها رجلٌ: قُومي فكلّميه! فكلّمته فأذن لها ووصلها، وسألت عن الرجل الذي أشار إليها فقيل: عليٌّ، وهو الذي سباكم، أما تعرفينه؟ فقالت: لا واللهِ، ما زلتُ مُدْنِيةً طَرَف ثوبي على وجهي وطَرَف ردائي على بُرقعي من يوم أُسِرت حتى دخلتُ هذه الدار، ولا رأيت وجهه ولا وجه أحد من أصحابه.❖

---

(١) ركك: محلة من محال سلمى، أحد جبلي طيء. (معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٧٩).

(٢) الصفي: ما كان يأخذه رئيس الجيش ويختاره لنفسه من الغنيمة قبل القسمة. (النهاية، ج ٢، ص ٢٦٨).

(٣) في الأصل: «ثم صاروا له».

سريّة عَلي بن أَبي طالب (ع) إلى اليمن

قالوا: بعث رسول الله (ص) عَليّ بن أَبي طالب (ع) في رمضان سنة عشر، فأَمره رسول الله (ص) أَن يُعسكر بقُباء، فعسكر بها حتى تَنامُ أصحابُه، فعقد له رسول الله (ص) يومئذٍ لِواءً، أَخذ عِمامةً فلفّها مَثْنِيَّة مُرَبَّعَة فجعلها في رأس الرُّمْح، ثم دفعها إليه[1] وقال: هكذا اللِّواء! وعمّمه عَمامةً، ثلاثةَ أَكوار، وجعل ذراعاً بين يدَيْه وشِبْراً من ورائه، ثم قال: هكذا العِمَّة!

قال: فحدّثني أُسامة بن زيد، عن أَبيه، عن عَطاء بن يَسار، عن أَبي رافع، قال: لمّا وجّهه رسول الله (ص) قال: امضِ ولا تَلتفِتْ! فقال عَليٌّ (ع): يا رسول الله، كيف أَصنع؟ قال: إذا نزلتَ بساحتهم فلا تُقاتِلْهم حتى يُقاتلوك، فإن قاتلوك فلا تُقاتِلْهم حتى يَقتُلوا منكم قتيلاً، فإن قتلوا منكم قتيلاً فلا تُقاتِلهم، تَلومُهُمْ تُرهِمْ أَناةً[2]، ثم تقول لهم: هل لكم إلى أَن تقولوا لا إله إلاّ الله؟ فإن قالوا نعم فقل: هل لكم أَن تُصَلُّوا؟ فإن قالوا نعم فقل: هل لكم أَن تُخرجوا من أَموالكم صَدَقَةً تَرُدُّونها على فقرائكم؟ فإن قالوا نعم، فلا تَبْغِ منهم غيرَ ذلك. واللهِ، لأن يَهدي الله على يدك رجلاً واحداً خيرٌ[3] لك ممّا طلعتْ عليه الشمس أو غَرَبت!

قال: فخرج في ثلاثمائة فارسٍ، فكانت خيلهم أوّل خيل دخلت تلك البلاد، فلمّا انتهى إلى أَدنى الناحية التي يُريد ـ وهي أَرض مَذْحِج ـ فرّق أَصحابَه، فأَتَوْا بنهبٍ وغنائمَ وسَبْيٍ ونساءٍ وأَطفالٍ ونَعَمٍ وشاءٍ وغير ذلك. فجعل عَليٌّ على الغنائم بُرَيدة بن الحُصَيب، فجمع إليه ما أَصابوا قبل أَن يلقاهم جَمْعٌ، ثم لقي جَمْعاً فدعاهم إلى الإسلام وحرّض بهم، فأَبَوا ورَمَوْا في أَصحابه، ودفع لِواءَه إلى مسعود بن سِنان السُّلَميّ فتقدّم به، فبرز رجلٌ من مَذْحِجٍ يدعو إلى البراز، فبرز إليه الأَسود بن الخُزاعيّ السُّلَميّ، فتجاولا ساعةً وهما فارسان، فقتله الأَسود وأَخذ سَلَبَه. ثم حمل عليهم عَليٌّ بأَصحابه فقتل منهم عشرين رجلاً، فتفرَّقوا وانهزموا وتركوا لِواءَهم قائماً، فكفّ عن طلبهم ودعاهم إلى الإسلام، فسارعوا وأَجابوا، وتقدّم نَفَرٌ من رؤسائهم فبايعوه على الإسلام، وقالوا: نحن على مَن وراءنا من قومنا، وهذه صَدَقاتنا فخُذْ منها حقَّ الله!

---

(١) في الأصل: «إليهم».

(٢) في الأصل: «يلومهم برمهم إياه». والتلوم: الانتظار والتمكث. (الصحاح، ص ٢٠٢٤)

(٣) في الأصل: «خيرا».

قال: فحدّثني عمر بن محمّد بن عمر بن عَليّ، عن أبيه، قال: وجَمَع عَليٌّ (ع) ما أصاب من تلك الغنائم فجَزأَها خمسة أجزاء؛ فأقرع عليها، فكتب في سَهْمٍ منها «اللّهِ»، فخرج أوّلَ السهام سهمُ الخُمُس، ولم يُنفّل أحداً من الناس شيئاً. فكان مَن قبله يُعطُون أصحابهم ـ الحاضر دون غيرهم ـ من الخُمُس. ثم يُخبَر بذلك رسول الله (ص) فلا يردّه عليهم، فطلبوا ذلك من عَليٍّ (ع) فأبى وقال: الخمس أحمِلُه إلى رسول الله (ص) فيرى فيه رأيه، وهذا رسول الله (ص) يُوافي المَوْسِم. ونلقاه ويَصنَع فيها ما أراه الله. فانصرف راجعاً، وحمل الخُمُس وساق معه ما كان ساق، فلمّا كان بالفُتُق[1] تعجّل. وخلّف على أصحابه والخُمُسِ أبا رافع، فكان في الخُمُس ثيابٌ من ثياب اليمن، أحمالٌ مَعكومة[2]، ونَعَمٌ تُساق ممّا غُنِموا، ونَعَم من صَدَقَة أموالهم.

قال أبو سَعيد الخُدْريْ ـ وكان معه في تلك الغزوة ـ قال: وكان عَليٌّ (ع) ينهانا أن نركب على إبل الصَّدَقَة؛ فسأل أصحاب عَليٍّ (ع) أبا رافع أن يَكسوَهم ثياباً فكساهم ثوبَيْن ثوبَيْن. فلمّا كانوا بالسَّدْرَة داخلين مكّة، خرج عَليٌّ (ع) يتلقّاهم ليَقدَم بهم فيُنزلهم، فرأى على أصحابنا ثوبَيْن ثوبَيْن على كلّ رجل، فعرف الثياب فقال لأبي رافع: ما هذا؟ قال: كلّموني ففَرِقتُ من شِكايتهم، وظننت أنَّ هذا يسهل عليك، وقد كان مَن كان قبلك يفعل هذا بهم. فقال: رأيتَ إبائي[3] عليهم ذلك! وقد أعطيتَهم، وقد أمرتُك أن تحتفظ. بما خلّفتُ، فتُعطيهم! قال: فأبى عَليٌّ (ع) أن يفعل ذلك حتى جَرّد بعضهم من ثَوْبيه، فلمّا قَدِموا على رسول الله (ص) شَكَوْا، فدعا عَليّاً فقال: ما لأصحابك يشكونك؟ فقال: ما أشكيتُهم[4]؟ قسمتُ عليهم ما غَنِموا، وحبست الخُمُس حتى يقدَم عليك وتَرى رأيكَ فيه، وقد كانت الأمراء يفعلون أموراً، يُنفّلون مَن أرادوا من الخُمُس، فرأيت أن أحمله إليك لتَرى فيه رأيك. فسكت النبيّ (ص).

قال: فحدّثني سَالم مولى ثابت، عن سالم مولى أبي جعفر، قال: لمّا[5] ظهر عَليٌّ (ع) على عدوّه ودخلوا في الإسلام، جمع ما غَنِم واستعمل عليه بُرَيدة بن الحُصَيب، وأقام بين أظْهُرهم. فكتب إلى رسول الله (ص) كتاباً مع عبد الله بن عمر بن عَوف المُزَنيّ يُخبره أنّه لقي جَمْعاً من زَبيد وغيرهم، وأنّه دعاهم إلى الإسلام وأعلمهم أنّهم إن أسلموا كفّ عنهم،

---

(١) الفتق: قرية بالطائف. (معجم البلدان، ج ٦، ص ٣٣٨).

(٢) عكت الثياب إذا شددت بعضها على بعض. (النهاية، ج ٣، ص ١٢١).

(٣) في الأصل: «أتوابي».

(٤) يقال: أشكيت لرجل إذا أزلت شكواه. وإذا حملته على الشكوى. (النهاية، ج ٢، ص ٣٢٤).

(٥) في الأصل: «إنما».

فأَبَوْا ذلك وقاتلهم. قال عَليٌّ (ع): فرزقني اللهُ الظفر عليهم حتى قُتِل منهم مَن قُتِل. ثم أَجابوا إلى ما كان عُرض عليهم، فدخلوا في الإسلام وأَطاعوا بالصَّدَقَة، وأَتى بَشَرٌ منهم لِلدِّين، وعلَّمهم قراءةُ القرآن. فأَمره رسول الله (ص) يُوافيه في الموسم، فانصرف عبدالله بن عمرو بن عَوف إلى عَليٍّ (ع) بذلك.

قال: فحدَّثني سَعيد بن عبد العَزيز التَّنُوخيّ، عن يونس بن مَيْسَرَة بن حُلَيس، قال: لمّا قدم عَليّ بن أَبي طالب (ع) اليمن خطب به، وبلغ كعبٌ الأَحبار قيامُه بخُطْبَته، فأَقبل على راحلته في حُلَّةٍ، معه حَبْرٌ من أحبار اليهود، حتى استمعا له فوافقاه، وهو يقول: إنَّ مِن الناس مَن يُبصر بالليل ولا يُبصر بالنهار. قال كعب: صدق! فقال عَليٌّ: وفيهم مَن لا يُبصر بالليل ولا يُبصر بالنهار. فقال كعب: صدق! فقال عَليٌّ (ع): ومَن يُعطِ باليد القصيرة يُعطَ باليد الطويلة. فقال كعب: صدق! فقال الحَبْر: وكيف نُصدِّقه؟ قال: أمّا قوله: «من الناس مَن يُبصر بالليل ولا يُبصر بالنهار» فهو المؤمن بالكتاب الأَوّل ولا يؤمن بالكتاب الآخر. وأمّا قوله: «منهم من لا يُبصر بالليل ولا يُبصر بالنهار» فهو الذي لا يؤمن بالكتاب الأَوّل ولا الآخر. وأمّا قوله: «من يُعطِ باليد القصيرة يُعطَ باليد الطويلة» فهو ما يقبل الله من الصَّدَقات. قال: وهو مَثَلٌ رأيتُه بيِّن! قالوا: وجاءَ كعباً سائلٌ فأَعطاه حُلَّته، ومضى الحَبْرُ مُغضَباً؟ ومثلت بين يدي كعب امرأَةٌ تقول: مَن يُبادل راحلةً براحلة؟ فقال كعب: وزيادة حلَّة؟ قالت: فأَخذ كعب وأَعطى، وركب الراحلة ولبس الحُلَّة، وأَسرع السير حتى لحق الحَبْرَ وهو يقول: مَنْ يُعطِ باليد القصيرة يُعطَ باليد الطويلة!

قال: فحدّثني إسحاق بن عبدالله بن نِصْطاس، عن عمرو بن عبدالله العَبْسيَ، قال: قال كعب الأَحبار: لمّا قدم عَليّ (ع) اليمن؛ لقيته فقلت: أَخبرني عن صفة محمّد. فجعل يُخبرني عنه، وجعلت أَتبسَم فقال: مِمَّ تتبسَّم فقلت: ممّا يُوافق ما عندما من صفته. فقال[1]: ما يُحلُّ وما يُحرِّم، فقلت: فهو عندنا كما وصفتَ! وصدّقت برسول الله (ص) وآمنت به. ودعوت مَن قِبَلنا مِن أَحبارنا، وأَخرجت إليهم سِفْراً فقلت: هذا كان أَبي يختمه عليّ ويقول: لا تفتحه حتى تسمع بنبيٍّ يخرج بيَثْرِب. قال: فأَقمتُ باليمن على إسلامي حتى تُوفِّيَ رسول الله (ص)، وتُوفِّيَ أبو بكر (ع)، فقدمت في خلافة عمر بن الخطاب (ع)، ويا ليتَ أَنِّي كنت تقدّمت في الهجرة! ❖

---

(١) في الأصل: «فقلت».

الخرافات والأساطير في عاشوراء(*)

السيد جعفر مرتضى العاملي

نُسب إلى الشهيد السعيد العلامة الشيخ مرتضى مطهري من خلال خطابات مسجلة في أشرطة، وأوراق وجدت بعد وفاته إنه ساق طائفة من الموارد التي اعتبرها مصنوعة وموضوعة، أضيفت إلى تاريخ عاشوراء، وحين تتبعناها، وجدنا أن القسم الأعظم منها لا يمكن قبول هذا الحكم القاسي عليه ونستطيع أن نقسم هذه الموارد إلى أقسام ثلاثة، هي:

١ ـ ما هو مكذوب بالفعل، مما يرتبط بالسيرة الحسينية، ويتحدث عن أحداث كربلاء، أو عن ما يتصل بها من المبدأ إلى المنتهى.

٢ ـ ما لا يصح الحكم عليه بأنه مكذوب من تلك الأحداث العاشورائية، أو ما يتصل بها، مما سبقها ولحقها.

٣ ـ ما لا يرتبط بأحداث عاشوراء، ولا يتعرض لما سبقها ولحقها في شيء، وإنما هو أمور يدّعى أنها حصلت بعد عشرات السنين، قد يكون منها السليم والسقيم، سواء أكان يدخل في نطاق الكرامات، أو المنامات، أو الأحداث أو غيرها، مثل قصة قاطع الطريق ومنامه حول غبار زوار الإمام الحسين عليه السلام، وما أشبهها من قصص وحكايات. ولا يعنينا هنا هذا القسم الأخير في شيء، ولا يهمنا تمييز الصحيح منه من غير الصحيح، والحقيقة من الأسطورة فيه.

أما القسمان الأولان فنحن نختصر الحديث عن كل واحد منهما بطريقة واضحة وصريحة، تضع النقاط على الحروف، فنقول:

القسم الأول ـ المكذوب والمختلق:

إن عدداً من تلك الموارد التي أشار إليها الشهيد المطهري رحمه الله ـ على ما في الملحمة الحسينية ـ هي أشبه بالقصص التي تنتجها أوهام الكذابين، حينما يتبارون فيما بينهم في مجال اجتراح حكايا التضخيم والتهويل لغرض التسلية، والتباهي الفارغ.

(*) هذه وجهة نظر أحد المحققين من علماء لبنان، وما ورد فيها يصح قوله أيضاً في ما يروى من الأقاصيص الواردة من الوضاعين في أمير المؤمنين، ومن المهم أن لا نستهين بحجم تلك الأكاذيب لأنها ذات تأثير خطير في أذهان العامة. وإن لنا وجهة نظر أخرى تضمنتها محاضرتنا الموسومة (الحسين ويزيد بين لاهوت التأليه وناسوت التجسيد) التي قدمناها تلبية لدعوة العتبتين الحسينية والعباسية في مهرجان ربيع الشهادة المُقام مساء يوم ١٧ يوليو/ تموز ٢٠١٠ على قاعة خاتم الانبياء في العتبة الحسينية المقدسة، راجع نص المحاضرة كاملة في موسوعة الموسم، المجلد الموسوم (مواسم كربلاء) المرقم١٠٤ لسنة ٢٠١٤ ص٣٩ ـ ٧٤.

وهي قصص قاصرة عن أن تصبح تاريخاً يألفه العقلاء، أو يُدخِلها الكتّاب والمؤلفون ولو في دائرة الاحتمالات البعيدة لتشكلات عناصر الحدث التاريخي.

وقد نسب إلى الشهيد السعيد أنه ذكر طائفة من هذا القسم، وأنه قد أقام الدنيا، ولم يكد يقعدها في هجمات صاعقة ماحقة، تثير رياحاً عاصفة هوجاء، وأجواء محمومة ومخيفة.

مع أن الأمر أبسط من ذلك، فان أكثر هذه الأكاذيب لا يمكن أن يدخل في وجدان أو في عقل أي إنسان، مهما كان أمياً وجاهلاً، وحتى ساذجاً أيضاً.

وبعضها الآخر: يكتشِف زيفه أيٍ كان من الناس بأدنى مراجعة للكتب الحديثية والتاريخية.

وهذه الموارد هي التالية:

١ ـ إن طول رمح سنان بن أنس لعنه الله، والذي يقال انه هو الذي احتز رأس الإمام الحسين (عليه السلام)، ستون ذراعاً، وان هذا الرمح قد بعثه الله إليه من الجنة[١].

٢ ـ إن عدد الذين حاربوا الإمام الحسين (عليه السلام) كان ست مئة ألف من الخيالة، ومليوناً من المشاة[٢]. أو أن عددهم ثمان مئة ألف[٣].

وإن الإمام الحسين (عليه السلام) قد قتل منهم ثلاث مئة ألف، وقتل العباس منهم خمسة وعشرين ألفاً[٤].

وفي حديث آخر لهم: إن الإمام الحسين (عليه السلام) قد قام بعدة حملات، يقتل في كل حملة منها عشرة آلاف[٥].

مع أن النص التاريخي المعتمد يقول: إن عدد جيش يزيد لعنه الله كان ثلاثين ألفاً[٦] أو ثمانين، أو مئة ألف في أكثر الروايات[٧].

كما أن المسعودي في إثبات الوصية يقول: إن من قتلهم الإمام الحسين (عليه السلام) بيده هم ١٨٠٠ رجل، وذكر محمد بن أبي طالب إن عددهم هو ١٩٥٠رجلاً[٨].

٣ ـ إن هاشم المرقال قد حضر واقعة كربلاء[٩].

ومن الواضح: أن هاشماً رحمه الله قد استشهد في حرب صفين التي سبقت واقعة كربلاء بنيف وعشرين سنة.

وإن كنا نحتمل أن يكون ثمة سقط من الرواية، بحيث يكون الحاضر في كربلاء هو أحد أبنائه. فسقط المضاف، وبقي المضاف إليه. والإسقاط في الروايات يحصل بكثرة، ولكن قولهم إن لحربته ثمانية عشر شقاً يبقى بلا معنى مفهوم.

٤ ـ عرس القاسم[١٠] فإنه أيضاً من الأمور التي قد لا نجد لها مبرراً مقبولاً أو معقولاً.

٥ ـ إن طول يوم عاشوراء (٧٠) ساعة[١١] حيث يمكن عدّ هذا الأمر من هذا القسم أيضاً.

٦ ـ وقد تكون قصة ترتيب الإمام السجاد (عليه السلام) لأحذية الحاضرين في مأتم الإمام الحسين (عليه السلام) من هذا القبيل كذلك[١٢].

النتيجة:

فتلاحظ قارئي العزيز: إن عدد ما يصح اعتباره مكذوباً مما يتصل بأحداث عاشوراء، وما سبقها وما لحقها مما يرتبط بهذا الحدث العظيم.. لم يتجاوز الستة موارد، بل هو قد لا يصل إليها، ما دام أن بعضها لا يستحيل ثبوته وإثباته. إذا توفرت المرونة العلمية اللازمة لذلك.

القسم الثاني ـ ما لا مبرر لتكذيبه:

وأما ما لا نجد مبرراً مقبولاً للحكم عليه بأنه مكذوب ومفتعل، سوى مجرد الاستبعاد الذي لا يستند إلى دليل، أو أن دليله ضعيف ومردود، أو أنه يحتاج إلى المزيد من التقصّي والتتبع والشواهد والدلائل. فهو الموارد التالية:

١ ـ ما عن الشهيد المطهري من أنه قال: "ليس صحيحاً بأنهم لم يذوقوا طعم الماء لثلاثة أيام متوالية، كما يدعي أصحاب الأساطير".

وحجته على ذلك: إنهم وإن "كانوا قد مُنِعوا عن الوصول إلى الشريعة، لكنهم بفضل العباس استطاعوا الوصول إلى الشريعة، وجلب الماء، لا سيما ليلة العاشر من المحرم، حيث استطاعوا الاغتسال في تلك الليلة"[١٣].

ونقول:

أولاً: لا ندري كيف اغتسلوا في تلك الليلة، وصرفوا جميع ما عندهم من ماء، وهم يعلمون أنهم محاصرون ممنوعون من الماء ؟! فلماذا لم يحسبوا لهذا الأمر أيَّ حساب، وهم يعرفون أن معهم أطفالاً ونساءً وشيوخاً؟!.

ثانياً: قد عرفنا: إن سبب استشهاد العباس (عليه السلام) هو محاولته جلب الماء من الشريعة، فخرقوا قربته، وقطعوا يديه. إلى آخر ما هناك مما هو معروف ومشهور، وفي كتب التاريخ مسطور، وقد ذكره أيضاً نفس مؤلف كتاب الملحمة في نفس الجزء والصفحة.

وواضح: أنه لو كان العباس رضوان الله تعالى عليه قد بذل أية محاولة قبل ذلك الوقت لكان قد تعرض للممانعة الشديدة من قبل أربعة آلاف فارس، كان ابن سعد قد وكّلهم بالشريعة، لمنعه عن الاستقاء منها[١٤]. ولكانت القربة خرقت، والجريمة في حقه ارتكبت.

٢ ـ دعوى قدوم السيدة زينب، ووقوعها على جسد أبي عبد الله، وهو يحتضر، وقيل: "فرمتها بطرفه، وقال لها أخوها: ارجعي إلى الخيمة، فقد كسرت قلبي، وزدت كربي"[١٥].

ولا ندري لماذا تجعل هذه الحادثة من الوقائع الكاذبة والمحرّفة، إلا إذا كان الكاتب ومن سبقه يعتبر: إن كلام الإمام (عليه السلام) الموجه لها يدل على أنها قد أساءت في مجيئها إليه.

والحقيقة هي أنه لا يدل على أكثر من أنه (عليه السلام) قد رثى لحالها، وتألم لما يجري لها.

كما أن نفس مؤلف كتاب الملحمة الحسينية سيقول لنا: إن الإمام (عليه السلام) كان يتعمد صنع مشاهد كربلائية دموية وغيرها، من أجل الإعلام للحركة الجهادية المباركة التي يخوضها.

٣ ـ قصة زيارة الأربعين، حيث عرج الأسرى على كربلاء في العشرين من صفر، أي بعد أربعين يوماً من الوقعة. فإن هذا الأمر لم يذكره إلا السيد ابن طاووس في اللهوف، ونقله من بعده ابن نما في كتابه مثير الأحزان، وقد تم تأليفه بعد وفاة ابن طاووس بأربعة وعشرين عاماً[١٦]. بالإضافة إلى انه ليس هناك أي دليل عقلي على حصولها، وإن الطريق إلى المدينة لا يمر عبر كربلاء، بل يفترق عنه من الشام نفسها[١٧].

ونقول:

أولاً: إن اعتبار هذا الأمر من جملة المكذوب والمحرف: لمجرد عدم وجدانه في كتب من عدا ابن طاووس، لا يدل على عدم الوجود، فلعل السيد ابن طاووس قد نقل ذلك عن كتب لم تصل إلينا.

ثانياً: إن شأن السيد ابن طاووس أجل من أن يتهم باختراع الأكاذيب.

ثالثاً: هل الحدث التاريخي يحتاج إلى دليل عقلي يدل على حصوله؟

رابعاً: هل الطريق إلى كربلاء الذي يفترق عن طريق المدينة من الشام هو نفسه الذي كان يسلكه أهل ذلك الزمان؟!

وهل كان هو الطريق الوحيد الذي يسلكه المسافرون إلى هذين البلدين؟!.

خامساً: لقد روى الشيخ الصدوق رحمه الله تعالى بسنده، عن فاطمة بنت علي صلوات الله وسلامه عليه، نصاً يقول: "ثم إن يزيد لعنه الله أمر بنساء الحسين (عليه السلام) فحبسن، مع علي بن الحسين، في محبس لا يكنهم من حر ولا قرّ، حتى تقشرت وجوههم. إلى أن تقول: إلى أن خرج علي بن الحسين (عليه السلام) بالنسوة، ورد رأس الحسين إلى كربلاء"[١٨].

وصرح البيروني ـ المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ـ أن الرأس رد في العشرين من صفر[١٩]. وكذا قال غيره كابن حجر[٢٠]. والقزويني المتوفى سنة ٦٨٢ هـ. فالقزويني معاصر لابن طاووس تقريباً، والبيروني ومتقدم عليه بحوالي ٢٥٠ سنة.

ومن الواضح أن الأسرى لم يبقوا في الشام إلى السنة الثانية، بل عادوا في نفس السنة، بل عن مصباح المتهجد أنهم وصلوا إلى المدينة في يوم العشرين من صفر[٢١].

فكيف صح قولهم: إن أول من تحدث عن ذلك هو ابن طاووس.

٤ ـ حكاية حامل الرسالة إلى الإمام الحسين (عليه السلام) بالمدينة، حيث إنه حين مجيئه إليه صادف أن رأى خروجه إلى مكة، وحوله بنو هاشم، وحولهم الرجال، والحراس، والأحصنة المزينة، المحملة بالأمتعة، وأنواع الديباج والحرير[٢٢].

ونقول:

إن كان رحمه الله قد حكم على هذه الرواية بالوضع والتحريف لجهة أن الإمام (عليه السلام) لم يخرج معلناً، كما يفهم من هذه الرواية، وإنما خرج خائفاً يترقب.

فإن حديث هذا الرسول لا ينافي سرّية الخروج. لأن اجتماع بني هاشم حول الإمام حين خروجه بعياله لا يمنع من كون الاجتماع سرّياً بالنسبة للهيئة الحاكمة.

وإن كان حكمه عليها بذلك بسبب ذكر الديباج والحرير. فذلك لا يعني أن الإمام (عليه السلام) قد لبس ذلك الحرير، وارتكب بذلك محرماً، بل هو لا يعني أن ذلك الديباج والحرير كان ملكاً له (عليه السلام)، فلعله لبعض من معه، من الرجال أو النساء.

٥ ـ دعوى إن الحوراء زينب قد خرجت ليلة العاشر، فاطّلعت على اجتماعين: احدهما لبني هاشم، والآخر للأصحاب، يظهرون فيهما استعدادهم للحرب: فأخبرت أخاها الحسين بذلك[٢٣].

ولا ندري لماذا يحكون على هذه القضية بأنها مكذوبة أو محرفة؟!.

٦ ـ مجيء زينب إلى أخيها الحسين وهو صريع يجود بنفسه، فرمت بنفسها عليه، وهي تقول: أنت أخي، أنت رجاؤنا، أنت كهفنا، أنت حمانا[٢٤].

ولا نعلم سبب عدّهم هذه القضية أيضاً من الأكاذيب، فإن الإمام الحسين كان يهتم برسم المشاهد العاطفية، انسجاماً مع رسالته الإعلامية، حسبما ذكر عن الشهيد المطهري، في الكتاب المسمى بالملحمة الحسينية.

٧ ـ دعوى أن الإمام (عليه السلام) قد دخل على ولده السجاد، بعد استشهاد أهل بيته وأصحابه، وصار الإمام السجاد (عليه السلام) يسأله عما جرى، وعن الأصحاب، فرداً فرداً، وجواب الإمام (عليه السلام) له بأن الحرب قد وقعت، وإنه لم يبق من الرجال غيرهما.

مما يوحي بأن الإمام السجاد (عليه السلام) لم يكن واعياً لما كان يجري[٢٥].

وما المانع من حدوث هذه الأسئلة بهدف إظهار حجم المأساة، وتقرير وقائعها، ولغير ذلك من أهداف؟ فان ذلك لا يستدعي الحكم على الإمام (عليه السلام) أنه كان فاقداً لوعيه.

٨ ـ دعوى عدم وجود أحد من أصحاب الإمام الحسين (عليه السلام) ليقدم له جواده، فقامت السيدة زينب بذلك.

وكذلك الحوار الذي جرى له معها عليهما السلام[٢٦].

والحديث عن هذه القضية أيضاً يعلم مما قدمناه في سابقاتها.

٩ ـ إن زينب أثناء وداعها لأخيها تذكرت وصية أمها بأن تقبّله (عليه السلام) في هذا الموقف في عنقه، فقبّلته في هذا الموضع نيابة عنها. مع أن عمر العقيلة لدى وفاة أمها الزهراء لم يكن يتجاوز الخمس سنوات[٢٧].

ونقول:

إننا لا نرى مانعاً من أن تعي العقيلة وصية أمها، وهي في هذا السن المبكر، وهي التي شهد لها الإمام السجاد (عليه السلام) بتميزها العظيم حين قال لها: "أنت بحمد الله عالمة غير معلمة، فهمة غير مفهمة"[٢٨].

والطفل يتذكر أشياء كثيرة، خصوصاً ما له جهة عاطفية، فكيف إذا كان هذا الطفل هو السيدة زينب عليها السلام.

١٠ ـ حكاية عدم انطلاق الفرس مع الإمام الحسين (عليه السلام) إلا بعد وصول أحد أطفال أهل البيت، ولقائه بالحسين عليه السلام[٢٩].

وما المانع من ذلك إذا كان الله يريد إظهار هذا الجانب العاطفي بواسطة هذه الكرامة في هذه اللحظات الحرجة.

١١ ـ قدوم أبي حمزة الثمالي إلى بيت الإمام السجاد، ففتحت له الجارية التي فرحت بقدومه، لأنه سيسلي الإمام المضطرب، والغائب عن الوعي، فدخل على الإمام وصار يواسيه. فأخبره الإمام بحال الأسرى، من النساء، والأهل، والأطفال[٣٠].

ونقول:

ما المانع من صحة هذه الرواية. وما هو السبب في اعتبارها خرافة ؟! اللهم إلا عبارة "المضطرب والغائب عن الوعي" التي نحتمل احتمالاً قوياً أن يكون ذلك سوء تعبير من الراوي.

كما أنه قد يكون تعبيراً منها عن شدة الأسى الذي كان يظهر على الإمام إلى درجة أنه كان لا يهتم بما تهتم به تلك الجارية، ولا يدير له بالاً...

١٢ ـ حكاية حضور هشام بن الحكم لمجلس عزاء، ثم أخبر الإمام الصادق (عليه السلام) بالأمر، فأعلمه عليه السلام: أنه كان حاضراً في ذلك المجلس، دون أن يراه أحد.

وذكر له الإمام كشاهد على ذلك: إن رداءه قد وقع عن كتفه عند الباب، في حال خروجهم من ذلك المجلس. فعرف هشام صحة ذلك[٣١].

ولا ندري أيضاً سبب الحكم على هذه الرواية بأنها مكذوبة.. وما المانع من صحتها فان للأئمة كرامات أعظم من ذلك.

١٣ - "اختلاق بنات من الذرية الطاهرة، لا سيما لأبي عبد الله عليه السلام، ومنهن من قالوا: إنها بقيت في المدينة، وأخرى زوجوها في كربلاء، وثالثة أماتوها من العطش تصديقاً لكلام جبرائيل. صغيرهم يميتهم العطش. وأخرى قتلت في ساحة الوغى، مثل عبد الله بن الحسن"[٣٢].

ونقول:

إن مراجعة التواريخ التي هي في أعلى درجات الاعتبار عند هؤلاء تظهر لكل احد إلى أي حد بلغت الاختلافات والأقوال المتهافتة وغير المتهافتة في مثل هذه الأمور، التي يقع الرواة في الوهم والخطأ، والخلط فيها، وفيما بينها لأكثر من سبب.

كما أن الوهم والخلط قد يقع في أزمنة متأخرة عن عصر الرواة، بسبب خطأ النساخ، وما يقع من سقط وتصحيف وذهول أثناء نسخهم الكتب، وما إلى ذلك.

ولو كان هذا سبباً للحكم على المؤلفين بالكذب، لم يبق لنا كتاب نعتمد عليه.

١٤ - "قصة الطفل الذي كان لأبي عبد الله الحسين في الشام. وكيف أنه أراد رؤية أبيه، فجاؤوه برأس الحسين، ومات هناك"[٣٣]. كما عن نفس المهموم.

ونقول:

لعل سبب حكمهم على هذه القضية بالكذب: إنهم يعتقدون أنه لم يبق للإمام الحسين (عليه السلام) ولد بعد واقعة عاشوراء، إلا الإمام السجاد (عليه السلام).

وجوابنا: إن ذلك لا يوجب رد هذه الرواية، والحكم عليها بالاختلاق، لاحتمال وجود تحريف أو إسقاط فيها، بحيث يكون الطفل المذكور ليس من أولاده عليه السلام، بل يكون احد أبناء الشهداء من أهل بيته صلوات الله وسلامه عليه. وما أكثر ما يحصل من هذا القبيل.

١٥ - الطفل الأسير الذي سحله (أي سحبه) أحد الفرسان بواسطة الخيل حتى خنق ومات[٣٤]. ولا ندري ما هو المانع من أن تكون هذه القصة صحيحة أيضاً، فإن الحديث فيها لا يبعد عن الحديث في سابقاتها.

١٦ - قصة الفتاة اليهودية المشلولة التي شفيت بتزريق الطير نقطة من دم الحسين (عليه السلام) في بدنها[٣٥].

١٧ - قصة بقاء فاطمة الصغرى في المدينة، وإبلاغ الطير الأخبار لها[٣٦].

فإن هاتين الحادثتين ربما يكون لهما نصيب من الصحة، حتى لو أمكنت المناقشة في بعض الخصوصيات المذكورة فيهما.

١٨ - بعض القراءات أو العبارات التي ترد في المآتم، التي تظهر أهل البيت، أو أصحاب الحسين يلتمسون شربة الماء بكل ذل من الأعداء[٣٧].

وقد تقدم: أن الإمام الحسين (عليه السلام) كان يهتم بإظهار الحالة المأساوية، ومستوى الإجرام لدى أولئك المجرمين الحاقدين.

وكذلك بإظهار مقامات الصبر، والتحدي، والتحمل، واليقين، والمعرفة بالله لدى أصحابه.

وهذه هي الحقيقة التي أكدها الكتاب الذي جمع بعد وفاة الشهيد المطهري نفسه حيث قال: "التكتيك الخامس كان في خلقه وإيجاده لمشاهد أكثر مساعدة لإيصال رسالته التبليغية. وذلك من خلال صبغ المشاهد الحساسة للمعركة بلون الدم القاني، كرمي دم الرضيع نحو السماء، وقوله عليه السلام: عند الله احتسبه، ومن ثم تخضيب وجهه ورأسه بذلك الدم، وقوله: انه يريد لقاء الله بتلك الحالة. والى جانب ذلك يمكن ذكر مشاهد عناق الإمام للقاسم، ولحبيب بن مظاهر"[٣٨].

وقد تكرر هذا المعنى أكثر من مرة في هذا الكتاب فراجع[٣٩].

بل يقول: "إن واقعة الإمام الحسين يبدو أنها جاءت لتعبر عن عرض مسرحي حماسي، ونهضوي، ومأساوي، وعظي، وتبلور للعشق الإلهي، والمساواة الإسلامية، والعواطف الإنسانية. وكل ذلك في أعلى أوج ممكن.. الخ"[٤٠].

١٩ - حديث وجود ليلى في كربلاء.. وسيأتي الحديث عن ذلك بشيء من التفصيل إن شاء الله تعالى.

خلاصة وبيان:

ونعود إلى التذكير هنا بعدة أمور:

أولها: إن من الواضح: إنّه إن كان ثمة من مكذوب في حديث كربلاء، فهو الشاذ النادر جداً، والقليل الذي لم يستطيعوا رغم كل ما بذلوه من جهد وعناء أن يبلغوا به إلى عدد أصابع اليدين، بل هو ربما لا يصل إلى ستة موارد في قضية تزيد أحداثها، وما سبقها، ولحقها مما يتصل بها على العشرات والمئات، خصوصاً فيما يرتبط بالجزئيات والتفاصيل.

وقد جاء هذا المكذوب مفضوحاً مقبوحاً، شواهد الكذب ظاهرة عليه، ظهور الشمس في رابعة النهار، ولا يكاد يخفى ذلك على ذي مسكة.

كما انه لم يدخل في ثقافة الناس، ولن يتسنى له الدخول، ولن يكون جزءاً من تاريخ عاشوراء في أي وقت.

فلا يستحق كل هذا الصخب، والضجيج، والعجيج، والتهويل، والتطويل، والتهديد والوعيد، والتحذير، والهتك، والفضيحة، والتشكيك. وما إلى ذلك.

الثاني: إن هنا طائفة من الأحداث قد توهموا أنها مكذوبة ومختلقة، وليس ثمة ما يشير أو ما يصلح للإشارة أو للدلالة على ذلك. ومجرد الدعوى، لا تصلح دليلاً على نفسها.

وما اعتقدوه شاهداً لذلك، لا يصلح شاهداً عليه، وبإمكان أي إنسان عاقل أن يلتفت إلى وجه الخلل في الاستدلال به.

هذا على الرغم من أننا لا نمانع من أن تكون بعض التشويهات أو التصحيفات أو السقطات، أو الأخطاء قد لحقت ببعض النصوص، لأسباب مختلفة، قد تكون لدى الراوي، بسبب نسيانه، أو اختلاط الأمور عليه. أو بسبب تكرر نسخ المؤلفات وتداولها. وما إلى ذلك.

ولكن ذلك لا يسقط هذا النصوص عن أن تكون ذات قيمة علمية، فان هذا الأمر حاصل في مختلف المصنفات والمؤلفات، حتى في تلك التي هي في أعلا درجات الاعتبار.

الثالث: إن وجود نص يعلم بأنه مكذوب أو غير صحيح في كتاب مّا، لا يسقط ذلك الكتاب ولا مؤلفه عن الاعتبار، وإلا لكان اللازم إسقاط أوثق الكتب. وأعظم المؤلفين عن درجة الاعتبار، إذ ربما لا يخلو كتاب من أمثال هذه الأمور، باستثناء كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

الرابع: إن الحديث الذي يعلم أنه مكذوب، إذا وجد في كتاب فان ذلك لا يعني أن مؤلف ذلك الكتاب هو الذي اختلقه ووضعه.. ما دام أن من الممكن أن يكون قد نقله عن غيره ممن يثق بنقله، أو أنه وضعه في كتابه وهو يشك فيه: لان هدفه الاستقصاء لكل شيء، ثم ترك الحكم بالصحة والفساد للعلماء والباحثين، أو لأي سبب آخر.

ولأجل ذلك، فنحن لا نوافق على ما ورد في كتاب "الملحمة الحسينية" من تجريح في علماء عرفوا بالاستقامة، وبالدين، والتقوى، والورع.. من أمثال الدربندي، والطريحي وغيرهما[٤١].

الهوامش:

(١) الملحمة الحسينية ج ١ ص ٢١.

(٢) راجع الملحمة الحسينية ج ١ ص ٢٤ وج ٣ ص ٢٣٩ و٢٤٨.

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٣٩.

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢١ و٢٢ وج ٣ ص ٢٥٤ عن اللؤلؤ والمرجان ص ١٩٥.

(٥) المصدر السابق ج ٣ ص٢٤٦ عن اللؤلؤ والمرجان ص ٩٢.

(٦) راجع: مقتل الحسين للمقرم ص ٢٤٠ عن آمالي الصدوق.

(٧) راجع: مقتل الحسين للمقرم ص ٢٣٩ و٢٤٠ متناً وهامشاً.

(٨) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٥٤ عن اللؤلؤ والمرجان ص ١٩٥.

(٩) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٣٦ و٢٤٧ و٢٣٩. وراجع ج ١ ص ٢١ وعن اللؤلؤ والمرجان ص ١٦٣.

(١٠) راجع: المصدر السابق ج ١ ص ٢٠ و٤٢ ؛ ج ٣ ص ٢٣٩ و٢٥٤ عن اللؤلؤ والمرجان ص ١٩٣.

(١١) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٤٨ وراجع: ص ٢٣٩ عن اللؤلؤ والمرجان ص ١٦٨.

(١٢) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٥٢.

(١٣) الملحمة الحسينية ج ١ ص ٤٨.

(١٤) راجع الملحمة الحسينية ج ١ ص ٤٨.

(١٥) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٤٦ عن كتاب اللؤلؤ والمرجان للنوري ص ٩٢.

(١٦) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٤٦ عن اللؤلؤ والمرجان ص ١٤٢.

(١٧) الملحمة الحسينية ج ١ ص ٢٢ وراجع ج ٣ ص ٢٣٩.

(١٨) آمالي الشيخ الصدوق ص ١٤٢ وروضة الواعظين ص ٥٤.

(١٩) الآثار الباقية ج ١ ص ٣٣١ وعجائب المخلوقات للقزويني ج ١ ص ١١٥.

(٢٠) روي ذلك عن ابن حجر. راجع زيارة الأربعين لكمال زهر ص ٤٢.

(٢١) اقبال الأعمال ص ٥٨٩.

(٢٢) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٤٩ عن اللؤلؤ والمرجان ص ١٧٥.

(٢٣) الملحمة الحسينية ج٣ ص٢٥٠ عن اللؤلؤ والمرجان ص١٧٧.

(٢٤) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٥١ عن اللؤلؤ والمرجان ص ١٧٩.

(٢٥) الملحمة الحسينية ج ١ ص ٤٦ وج ٣ ص ٢٥٠ و٢٥١ عن اللؤلؤ والمرجان ص ١٧٨.

(٢٦) المصدر السابق عنه.

(٢٧) المصدر السابق عنه.

(٢٨) الاحتجاج ج ١ ص ١١٤ ومقتل الحسين للمقرم ص ٣٨٨ والبحار ج ٤٥ ص ١٦٤.

(٢٩) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٥٠ و٢٥١ عن اللؤلؤ والمرجان ص ١٧٨.

(٣٠) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٥١ عن اللؤلؤ والمرجان ص ١٧٩.

(٣١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥١ و٢٥٢ عنه.

(٣٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥٦ عن اللؤلؤ والمرجان ص ٢٠٢.

(٣٣) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٣٩.

(٣٤) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٤٠.

(٣٥) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٣٩.

(٣٦) المصدر السابق.

(٣٧) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٢٤٠.

(٣٨) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٣١٤.

(٣٩) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٣١٥ و٣١٦.

(٤٠) الملحمة الحسينية ج ٣ ص ٣١٧.

(٤١) كتاب: كربلاء فوق الشبهات للسيد جعفر مرتضى العاملي، الفصل الثاني، الطبعة الثانية ١٤٢٢ هـ. الموافق ٢٠٠٢ م.

❖ ❖ ❖

الإمام علي (ع) يدعو الجن إلى الإسلام بأمر الرسول (ص)

الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن الشافعي
المعروف بابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ)(*)

أخبرنا أبو الحسن علي بن المسلم الفقيه، وأبو الفرج غيث بن علي الخطيب، وأبو محمد عبد الكريم بن حمزة الوكيل، قالو: أنا أبو الحسن أحمد بن عبد الواحد بن محمد، أنا جدي محمد بن أحمد بن عثمان السلمي، أنا أبو بكر محمد بن جعفر بن سهل، أنا عبد الله بن محمد البلوي، أنا عمارة بن زيد، حدثني أبو البختري وهب بن وهب، حدثني محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عبيد الله بن الحارث، عن أبيه، حدثني سلمان الفارسي، قال:

كنا مع النبي (ص) في مسجد في يوم مطير ذي سحائب ورياح، ونحن ملتفون حوله فسمعنا صوتاً لا نرى شخصه، وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله. فردَّ عليه السلام وقال: ردّوا على أخيكم السلام، قال: فرددناه عليه، فقال رسول الله (ص): (من أنت ؟) قال أنا عرفطة بن سراج أحد بني لجاج، أتيتك يا رسول الله مسلماً، فقال له النبي (ص): (مرحباً بك يا عرفطة، أظهر لنا رحمك الله في صورتك).

قال سلمان: فظهر لنا شيخ أزبّ الشعر[1]، قد لبس وجهه شعراً غليظاً، متكاثفاً قد واراه، وإذا عيناه مشقوقتان طولاً، وله فم في صدره فيه أنياب بادية طوال، وإذا له في موضع الأظفار من يديه مخاليب كمخاليب السباع، فلما رأيناه اقشعرت جلودنا ودنونا من النبي (ص).

قال الشيخ: يا نبيّ الله ابعث معي من يدعو جماعة قومي إلى الإسلام، وأنا أرده إليك سالماً إن شاء الله. فقال رسول الله (ص) لأصحابه: أيكم يقوم معه فيبلغ الجنَّ عني وله عليَّ الجنة؟ فما قام أحد، وقال الثانية وثالثة فما قام أحد فقال علي: أنا يا رسول الله. فالتفت النبي (ص) إلى الشيخ فقال: وافني إلى الحرة في هذه الليلة أبعث معك رجلاً يفصل بحكمي، وينطق بلساني، ويبلغ الجن عني.

قال سلمان: فغاب الشيخ وأقمنا يومنا، فلما صلى النبي (ص) العشاء الآخرة، وانصرف الناس من مسجده قال: يا سلمان (سر معي) فخرجت معه، وعلي بين يديه، حتى أتيت الحرة، فإذا الشيخ على بعير كالشاة، وإذا بعير آخر على ارتفاع الفرس، فحمل عليه رسول الله (ص) علياً وحملني خلفه، وشد وسطي إلى وسطه بعمامة، وعصب عيني وقال: (يا سلمان لا تفتحن عينيك حتى تسمع علياً يؤذن، ولا يرعك ما تسمع، فإنك آمن إن شاء الله. ثم أوصى علياً بما أحبَّ أن

(*) كتاب تاريخ مدينة دمشق، الجزء الخمسون، حرف الطاء في آباء من اسمهُ علي، امير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه تحقيق رياض عبد الحميد مراد ومحمود الأرناؤوط وياسين محمود الخطيب، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ص ٣١٠ وما بعدها.

(١) أزب الشعر: كثير شعر الحاجبين والذراعين والجسد. (أساس البلاغة).

يوصيه، ثم قال: سيروا ولا قوة إلا بالله). فثار البعير، ثم رفع سائراً يدف[١] كدفيف النَّعام، وعليّ يتلو القرآن، فسرنا ليلتنا حتى إذا طلع الفجر أذن علي وأناخ البعير وقال: (انزل يا سلمان). فحللت عيني ونزلت. فإذا أرض قوراء لا ماء ولا شجر. ولا عود ولا حجر. فلمَّا بان الفجر أقام علي الصلاة، وتقدَّم وصلى بنا أنا والشيخ، ولا أزال أسمع الحسّ حتى إذا سلم عليَّ التفت فإذا خلق عظيم لا يسمعهم إلا الخطيب الصيِّت الجهير، فأقام علي يسبّح ربه حتى طلعت الشمس، ثم قام فيهم خطيباً، فخطبهم واعترضه منهم مردة، فأقب عليهم فقال: أفبالحق تكذبون، وعن القرآن تصدفون، وبآيات الله تجحدون، ثم رفع طرفه إلى السماء فقال: بالكلمة العظمى، والأسماء الحسنى، والعزائم الكبرى، والحي القيوم، محيي الموتى ورب الأرض والسماء، يا حرسة الجن، ورصدة الشياطين، خدّام الله الشراهاليين ذوي الأرواح الطاهرة، اهبطوا بالجمرة التي لا تُطْفأُ، والشهاب الثاقب، والشواظ المحرق، والنحاس القاتل بـ(المص) و (الذاريات) و(كهيعص) والتواصين و(يس) و(ن والقلم وما يسطرون) و(النجم إذا هوى) و(الطور، وكتاب مسطور، في رقٍّ منشور، والبيت المعمور)، والأقسام والأحكام، ومواضع النجوم لما أسرعتم الانحدار إلى المردة المتولعين المتكبرين الجاحدين لآيات رب العالمين.

قال سلمان: فحسست بالأرض من تحتي ترتعد، وسمعت في الهواء دويّاً شديداً ثم نزلت نار من السماء صُعق لها كل من رآها من الجن، وخرّت على وجوهها مغشياً عليها، وخررت أنا على وجهي، ثم أفقت فإذا دخان يفور من الأرض يحول بيني وبين النظر إلى عبسى المردة من الجن، فأقام الدخان طويلاً بالأرض، قال سلمان: فصاح بهم علي ارفعوا رؤوسكم فقد أهلك الله الظالمين، ثم عاد إلى خطبته فقال: يا معشر الجن والشياطين والغيلان وبني شمراج وبني نجاح وسكان الآجام والرمال والأقعار وجميع شياطين البلدان، اعلموا أن الأرض قد ملئت عدلاً كما كانت مملوءة جوراً، هذا هو الحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فأنى تصرفون.

قال سلمان: فعجبت الجن لعلمه وانقادوا مذعنين له، وقالوا: آمنا بالله وبرسوله وبرسول رسوله لا نكذب، وأنت الصادق المصدّق.

قال سلمان: وانصرفنا في الليل على البعير الذي كنّا عليه وشدّ عليّ وسطي إلى وسطه، وقال: اعصب عينيك واذكر الله في نفسك. وسرنا يدف بنا البعير دفيفاً، والشيخ الذي قدم على رسول الله (ص) أمامنا حتى قدمنا الحرة، وذلك قبل طلوع الفجر، فنزل علي ونزلت وسرح البعير فمضى، ودخلنا المدينة، فصلينا الغداة مع النبي (ص)، فلما سلم رآنا، فقال لعلي: كيف رأيت القوم؟ قال: أجابوا وأذعنوا، وقص عليه خبرهم، فقال رسول الله (ص): (أما إنهم لا يزالون لك هائبين إلى يوم القيامة).[٢] ❖

---

(١) يدف من الدف وهو اللين من سير الإبل كالدفيف، والشيء الخفيف. (القاموس: دف).

(٢) انظر أيضاً قصة عطرفة الجني وقتال الإمام (ع) له، في كتاب "نوادر المعجزات" لمحمد بن جرير بن رستم الطبري ص ١٤٣ - ١٤٤، وانظر قصة زعفر الجني (المحسوب ضمن أصحاب الإمام (ع))، أعلام الهند للطريحي ٦٠٨/١.

الخيرُ العميم

حبيب عبد الحميد الهلالي

أتعلمُ أنَّ ذا يومٌ عظيمُ؟ ... به للدين قد رفعت رسومُ
وفيه صِيغَ للإسلامِ نهجٌ ... فلا تعلوه ما جَهِدت خصومُ
وفيه الدين قد قويت عُراه ... وتمَّت كفَّتاه فلا وجوم
وأرسى اللهُ فيه طود عِزٍّ ... قويّاً لا تزحزحه الخصومُ
أصول فيه قد كملت وتمَّت ... أفيضَ بأرضنا خيرُ عميمُ

وهذا الخير ليس له شبيه ... فكيف؟ واين ذاك؟ فلا تحومُ
عليٌّ من عُلا ربٌّ جليلٍ ... به سمَعت بدنيانا نجومُ
فقال: أأحمدُ بَلِغ وإني ... لناصرُ رايةً فيها تقومُ
وبلِّغ أنَّ ذا نبراسُ دربٍ ... تُنارُ به الصحارى والتخومُ
هو المتراس إن خطب دهانا ... وكهف إن بدا ليلٌ يهيم
ورايةُ أحمد من يعلو فيها ... مكاناً ليس يدركه ذميمُ
بها قد شاءَ ربُّكَ أن سيسمو ... عليٌّ من به قُشِعَت غيومُ
ومن فيه خصالٌ قل منها ... لآخرَ من به حرصاً يروم
عليٌّ يا ابن فاطمةٍ وإنِّي ... ومهما قلتْ: إنني الكليم[1]

أيا عزّاً أضعناه، وإنَّا ... لَحرصٌ في النفوسِ بنا مسومُ
لدنيا فانيا فيها حطامٌ ... تمسَّكنا فحاط بنا الجحيمُ
وما ثبنا لحقٍّ كان فينا ... أما لله منتقمٌ رحيمُ؟
أما لله من يهدي البرايا ... لشرعةِ أحمدٍ؟ او نستقيم
كفى بعداً لدين نحن فيه ... - إذا كنا - فلا يعلو غشومُ
ولا يسمو بعرصتنا سفيهٌ ... وليس يسود غِرٌّ او مشومُ
ولا ظلمٌ بساحتنا سيبقى ... ولا غبنٌ ولا جرمٌ يدوم
بحيدرة ونهج منه إنَّا ... سنبقى رايةً مثلى تُخيمُ
ويبقى شعبُنا لآلٍ حصناً ... ودرعاً لا تزعزعه الكلومُ[2]

---

(١) الكلوم: الجروح ويقصد به الشاعر ما ينتاب أتباع الامام من الاضطهاد والامتهان بسبب حبهم ودفاعهم عن أهل البيت (عليهم السلام).

(٢) نفس المعنى السابق.

ولا تعجب فذا التاريخ سَلْهُ ... ستعلمُ إننا طود عظيم
بذلنا النفس فيهم ليس نرجو ... سوى مرضاة رحمنٍ تدومُ
وغادرنا الديار وفي حشانا ... لهيب لا توازيه السَّمومُ[1]
وأنّاتٌ وآهات توالت ... فليس لحملها يقوى السليمُ
أيا بلدي وإني لست قالٍ ... لمائِك ظاميءٌ إني سقيم
حماكِ الله عادية الأعادي ... وبوّأك العلا فيما تروم

ديربورن - مشيغن - الولايات المتحدة الامريكية
في ٢٥/١١/٢٠١٠م ١٨/ ذي الحجة / ١٤٣١ هـ

باب الله

د. مجيد عبد الحميد ناجي (سلطنة عُمان)

بحب علي الطهر يستنزل النصر ... فتقضى به الحاجات إن أعسر الأمرُ
ويروى به الظمآن من برد عذبه ... ويجلى به في كل واجبةٍ فجرُ
إمام به الغبرا تفجّر نبعها ... فسال به في كل ناحية غيرُ
إمام سما فوق السما كين قدره ... وصار له في كل طيبة ذكرُ
عليّ أمير المؤمنين وإنّه ... به تدفع البلوى وينكشفُ الضرُّ
أبو حسنٍ نعم الوصيّ الذي به ... تدكدك صرح الشرك وانهزم الكفرُ
ولولاه ما قامت منابرُ للهدى ... ولاخُطَّ في سِفْرِ الخلود له سِفْرُ
ولولاه ما قامت لدين مُحمدٌ ... دعائم أوضاءت به الأنجمُ الزُهْرُ
هو العدل يسمو فوق كل عظيمةٍ ... ومن دونه الطاغوت يكنفه الذُعْرُ
(هو النورُ نورُ الله جلّ جلالُهُ ... هو التين والزيتون والشفع والوترُ)
هو الروح والريحان والهدي والحجى ... هو الباب بابُ الله وانسدل السِتْرُ
هزبرٌ وكُلُّ الأسْدِ يَخشى زئيرَهُ ... إذا كرّ لا زيدٌ هناك ولا عمروُ
هنيئاً لمن والاه في الحشر إنّه ... ينالُ رضا الرحمن والجنّةُ الأجرُ

❖❖❖

أبا حسنٍ إنّا محبوك شدّنا ... إليك هوى طابت مفاتنُه البِكْرُ
به اكمتل الدين القويم وأرسيت ... دعائمه وافتر في ساحه البشرُ

(١) السموم: رياح شديدة الحرارة يصحبها لهيب كلهيب النار.

غديرك هذا العذب ان نميره ... نمير من الرحمان ينهله البرّ
بنيت بأعشاشِ الضمائرِ منزلاً ... سيبقى منيراً حيث يشهدُه الحشر
ولدت وما في الردن منك غضاضةُ ... ورحت وما راحت شمائلُكَ الكُثُرُ
وفزت بحسن النشأتين وانّما ... يَعوزُ بها من ليس يعرفه الوِزْرُ
تغنّت بك الدنيا فطابَ غِناؤُها ... وسارَ بها في ركبها البدو والحضْرُ
أنَرت قلوبَ العارفين بصيرةَ ... ففاضَ عطاها لا قليلٌ ولا نزَرُ
ونهجُك نهجٌ شعَّ نوراً وحكمةً ... وعلمك بحرٌ لا يُضاهِئَهُ بحرُ
أبا حسنٍ نشكو إليكَ تمزُّقاً ... يؤجّجه شركٌ ويُغري به كُفرُ
بني عمنا إنّا على الدرب أمةٌ ... تباركها الرحمنُ والهديُ والذِكرُ
تعالوا لنبني وحدةً طال شوقُنا ... إليها وقد أودى بوحدتها نهرُ
تعالوا نمدُّ الجسر نعبُرُ فوقَهُ ... فلا عائقٌ يُلقى لديهِ ولا حِجْرُ
دعو الفرقة الظلماءَ إنّ وراءها ... أيادٍ تذكّي النارُ شيمتُها الغدرُ
وهيّا نقيم الصرح يشمخ سامقاً ... ويحميه منا في تيقُّظِهِ صقرُ
ونسحقُ بابَ الأفعوانِ فإنّهُ ... يحجُّ سموماً ليس يبلُغها الحضرُ
وإنّا وإياكُم جناحا حمامةٍ ... تسامت سلاماً لا يُروِّعُها نَسْرُ

❖❖❖

أبا حسنٍ والصبحُ أنت ضياؤه ... وأنت لنا في كل موجعةٍ صدرُ
وأنت لنا الرَّمزُ الذي نقتدي به ... ونفخرُ انّا في ولايتِهِ سَفْرُ
إليك انتهت سُبْلُ الرشادِ وتنتهي ... إليك المزايا البيض والشمألُ الغُرُّ
وتتركُ للأيتامِ كفّاً رحيمةً ... فأنت حِمى الأيتام رد الوالدُ البَرُّ
سموت على هام الزمانِ وأنت في ... علاك ولمّا يَعتلي انفَكَ الكِبْرُ
تحيرت الأفهامُ فيك فوامقُ ... محِبٌّ، ومُغْلٍ في عداوتِهِ نُكْرُ
وهذا لعمري شأن كل مُخلّدٍ ... تساوى لديه التبنُ والآخرُ التِبْرُ
عليك سلامُ الله ما ذرَّ شارقُ ... وما أشرقت شمسٌ وما طلع البَدْرُ



تمّ (المجلد التاسع) من الانسكلوبيديا العلوية ويليه (المجلد العاشر) بحول الله وقوته

The invasion of Imam Ali (pbuh) of the lands of Al Hadham ibn Al Jahhaf and his destruction of the seven forts
Ahmed Bin Abdallah Al-Bakri.....742

The war of Imam Ali (pbuh) in the days of the Prophet.....776

The war of Imam Ali (pbuh) with Benni Sa'ad 779

The war of Imam Ali (pbuh) in the city of Fils.....780

The path of Imam Ali (pbuh) to Yemen.....783

Myths and legends in Ashura 786

Imam Ali (pbuh) calls the Jinn to Islam by order of the Prophet (pbuh), Hafiz Abi Al-Qassim
Ali bin Al-Hassan Al-Shafi'ii.....796

The plentiful goodness
Habib Abd Al-Hamid Al-Hilali.....798

The gate of God
Dr. Majid Abd Al-Hamid Najji 799

***

A view on Nahj al Balagha
Dr. Laura Fittishia Falliyeri 590

Ali bin Abi Talib in science, myth and teachings
Edited by Mohamed Said Al-Touraihi 599

The Alawite epics in the Aljamiado literature: Imam Ali in the Morisco folklore
Dr. Salah Fadhl 616

The stature of Imam Ali (pbuh) and his heroism in the eyes scholars and the hearts of Sunnis in Al Andalus
Dr. Mohamed Bashir Hassan Radhi Al-Amiri 633

From the Alawite mythological epics among the Moriscos:
(1) Imam Ali and the forty girls 652
(2) The tale of the golden palace and the story of the snake and Ali bin Abi Talib (pbuh) 659
(3)The battle of Al Ashyab bin Hanqar.....669
(4) The battle of the king Al Muhalhal bin Al Fayyadh.....676

From the stories of Alawite mythology:
(1) The battle of the city of Tikrit.....698
(2) The epic of the mythical Khawarnama in the heroism of Imam Ali bn Talib (pbuh) by Ibn Hussam Khausafi, deceased (875 H, 1470 C.E.)
Dr. Amin Abd Al-Majid Badwi 711
(3) The story of the Christian monks and Imam Ali (pbuh.....726
(4) The problem solver or the story of Abdullah Al Hattab.....734

The peace policy of Imam Ali (an analytical study)
Dr. Sheikh Abbas Kaashif Al-ghita'a 448

Sciences and their significances in the thought of Imam Ali (pbuh): (the hidden sciences as an example)
Sheikh Ta'h Al-Obeidy 464

The allegiance of Al Ghadir in the poetry of Jabal Amil (the poet Ibrahim bin Yahia Al Amili as a choice)
Dr. Hussain Lafta Hafiz and dr. Awaad Khadum 483

The justice of Imam Ali bin Abi Talib (pbuh) seen through his charter to Malik Al Ashtar
Dr. Kifaayah Taarish Al-Ali..... 497

Jihad speech in Nahj Albalagha
Dr. Hamed Nasir Al-Dhalimi 518

Educative directions in the declaration for the rights of the subjects during the government of Imam Ali (pbuh)
Dr. Ahmed Ali Ssakr and dr. Dharaar Khalil Hassan..... 528

How did Ibn Abi Talib a supreme being and a divine secret?
Dr. Abd Ali Sfeeh 545

Phases of the installation of the Emir of Beleivers Ali bin Abi Talib (pbuh) The caliphate
Dr. Ali Salih Rasn Al-Mhamadawi..... 551

Imam Ali (pbuh) and his selection of Kufa as a center for his Caliphate
Dr. Imaan Salim Al-Khaffaji.....566

The demographic and economic sayings of Imam Ali (pbuh)
Dr. Yasshin Al-khalifah.....328

Nahj Albalagha in Quranic mirror
Dr. Amro Mussa Basha 342

Ali and the human justice
Khalil Ibrahim Asshawki.....357

On the authenticity of Nahj Albalagha
Ayyad Al-Hussaini 381

The inclusion of Quranic verses about Imam Ali in the speech of Al Ghadir given by the Prophet (pbuh)
Dr. Ahmed Jasim Thani Al-Rikaaby 387

The manners of celebrating the Ghadiri allegiance and its temporal and celebretoray dimensions
Dr. Hamid Sraaj Jaber 397

The maintainances of freedoms in the the government of Imam Ali (pbuh) Nabil Muhsin.....408

The theory of correctional imprisonment in the thought of Imam Ali (pbuh) Ali Sa'ad Umraan.....419

Justice as the feature of the general financial policy of Imam Ali (pbuh)
Dr. Afif Al-Sandoeq 423

Syrian narratives of the Siffin battle: their historical value and the attitudes of historians toward them
Dr. Ammar Aboedi Nassar..... 427

The virtue of the Emir of the Believers Ali bin Abi Talib (may God honor his face)
Mohamed Said Al-Touraihi.....169

Al Ghadir: a beginning and an end
dr. Razzaq Abd Al-Amir Mahdi Al-Tayyar.....177

Imam Ali, that universal Muslim
Dr. Bayaan Abied Al-Urayyid.....197

Imam Ali in the exegesis of Alusi
Najim Abd Alrida Al-Darraji.....206

Social rhetoric in Nahj Albalagha
Dr. Khaled Huweir Alshams.....241

Legal reflections in a Treatise on the judiciary by Imam Ali (PBUH)
Dr. Abbas Zabboen Al-Aboedy.....256

The rhetorical methods of the Emir of the Believers (pbuh) in answering his opponents
Dr. Aqeel Jasim Dahsh.....275

Imam Ali (pbuh), the good example
Dr. Zahra Ra'uf Jawad Al-Mussawi Urfah Abbas.....294

The Welaya in the viewing of Imam Ali Bin Abi Talib (pbuh), analytical study
Dr. Sadiq Fawzi Alabadi.....313

Table of Contents
Volume 9

The ethical values in the legacy of Imam Ali and the holy household (pbut)
Sheikh Yousef Mohamed Amro.....11

The thoughts, features and traits of Imam Ali (peace be upon him)
Nur Imad Hassan Al-Mussawi and Sabah Kamel Armoed.....21

The heroism of Ali bin Abi Talib
Dr. Zahi Al-Mihsani 44

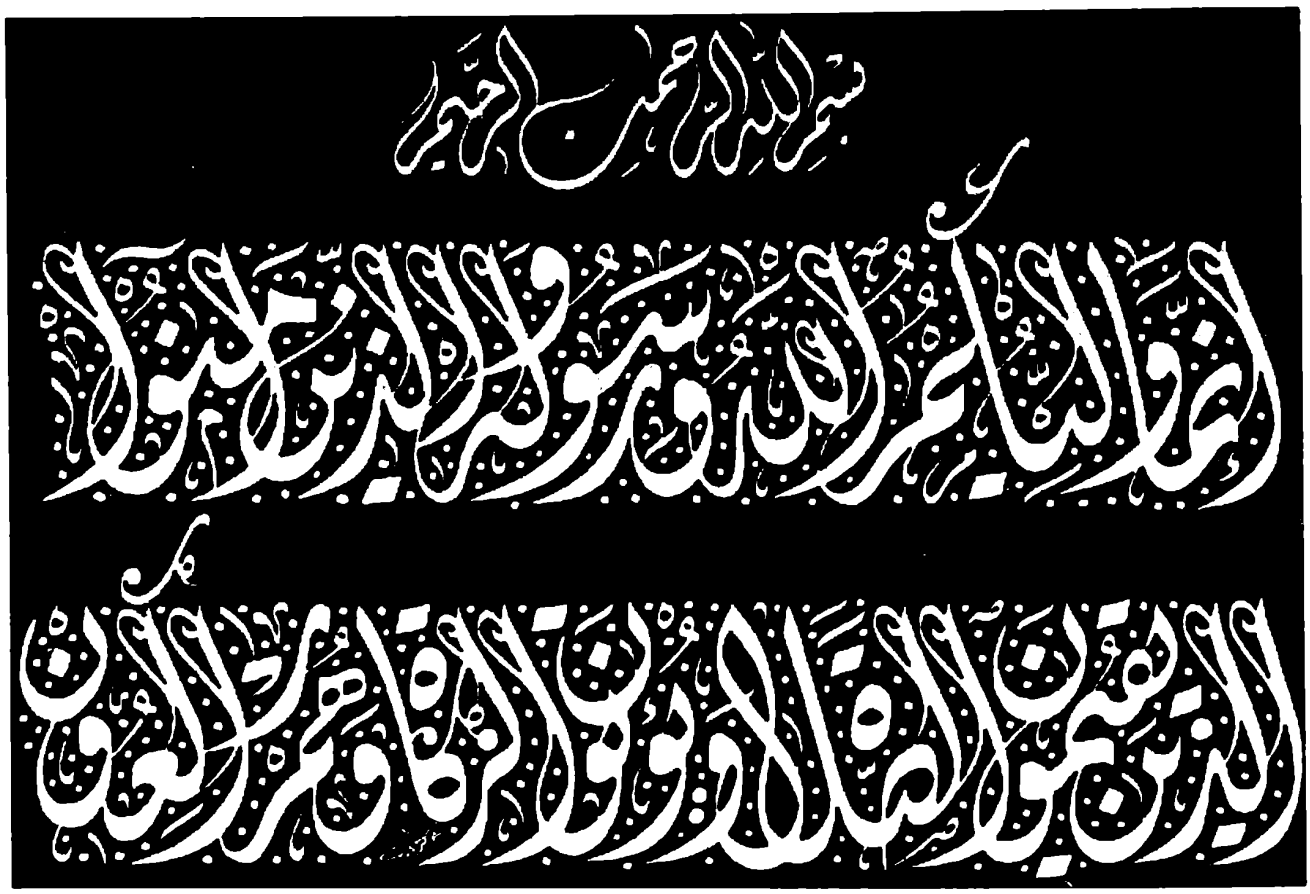
The Imamate and the rights of religious minorities: Imam Ali (pbuh) as a model
Dr. Ghawlah Mahdi Shakir Al-Jarah.....47

Contextual references and theoretical debates in interpreting the Emir of the Beleivers Ali bin Abi Talib (pbuh)
Dr. Nadhal Hansh Shbaar Habeeb Assaidy.....65

Creative thinking of Imam Ali's (pbuh) judiciary
Dr. Yousef Tarek Hussain Al-Aissawi.....82

Domestic nurture in the thought of Imam Ali (pbuh)
Dr. Aqeel Rashid Abd Alshaheed Alassadi and dr. Rasha Hussain Abd Alkadhum Al-Rikaaby.....97

Nasb and Nawasib (enmity towards Ali and his enemies) in the views of Sunni scholars
Sayyid Mahmoed Al-Muqaddas Al-Guraiffy.....115


بسم الله الرحمن الرحيم
إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا
الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون

Encyclopedia of Imam Ali

A scientific, intellectual and literary encyclopedia about the life of Imam Ali (pbuh)

Special issue on the occasion of the 1400th anniversary of the designation of Kufa as the capital of the Islamic world by Imam Ali (36-1436 H / 656-2015 C.E.)

Authored by a selection of scholars, intellectuals and writers

Editor in chief
Mohamed Said Al-Touraihi

Publisher
Kufa Academy – The Netherlands

Year of publication: 1436H – 2015 C.E.

الكوفة
Kufa Academy
أكاديمية الكوفة
هولندا